

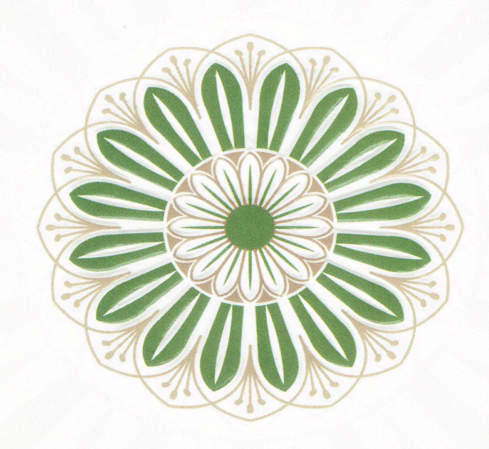
عقائد • أحكام • أخلاق • رقائق • آداب • أذكار • أدعية

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف

علوي بن عبد القادر السقاف



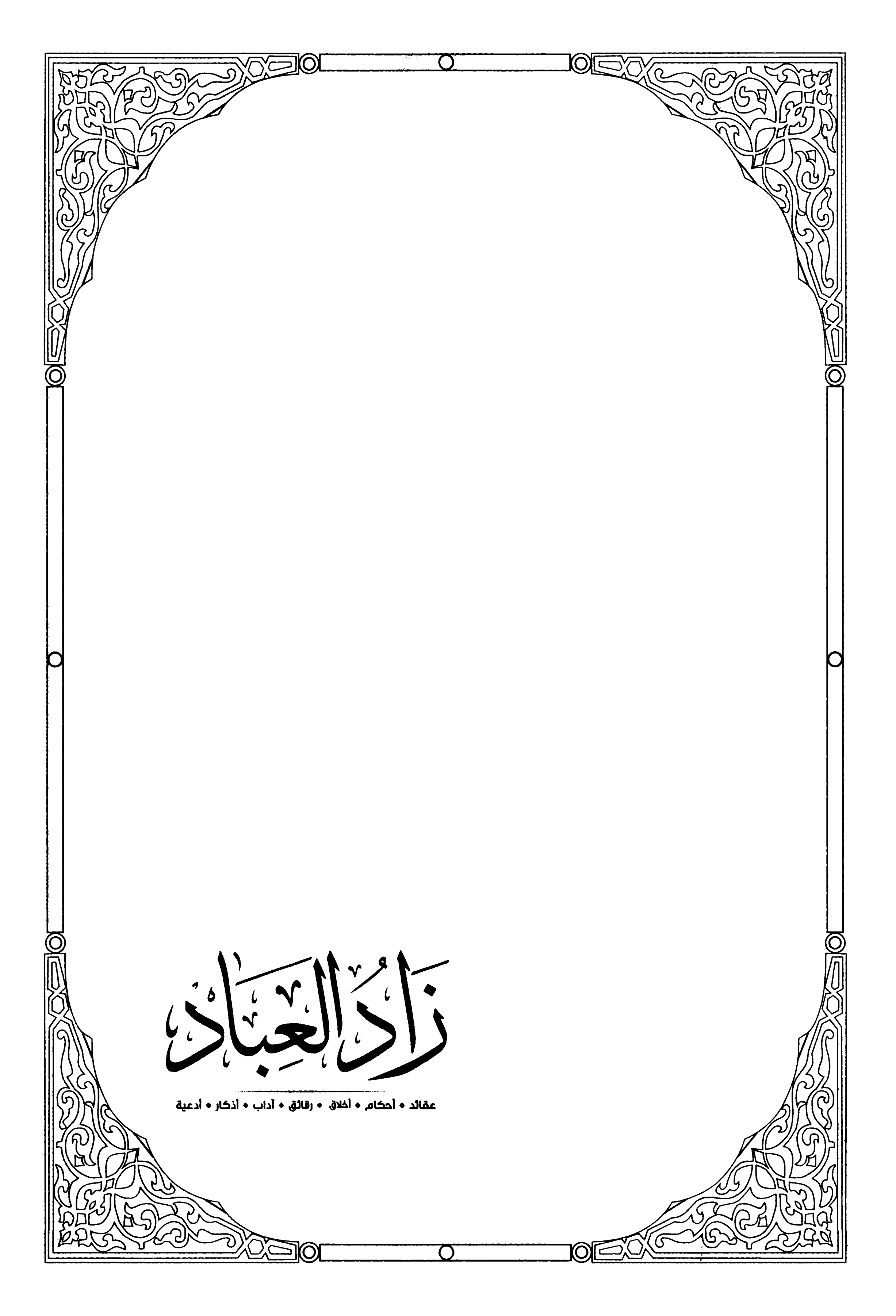
تقريظ

الشيخ الدكتور/ سعد بن تركي الخثلان — عضو هيئة كبار العلماء سابقًا

الشيخ/ سليمان بن عبد الله الماجد — القاضي بمحكمة الاستئناف سابقًا

الشيخ الدكتور/ خالد بن عثمان السبت — أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل




زاد العباد
عقائد • أحكام • أخلاق • رقائق • آداب • أذكار • أدعية



ⓒ مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

زاد العباد/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – ط٢ – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٨٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٨-٨٧-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ والإرشاد أ- العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٤٢/٢٤٢١

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٢٤٢١

ردمك: ٨-٨٧-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية

ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net



عقائد • أحكام • أخلاق • رقائق • آداب • أذكار • أدعية

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف

علوي بن عبد القادر السقاف

المشرف العام على مؤسسة الدرر السنية

تقريظ

الشيخ الدكتور/ سعد بن تركي الخثلان عضو هيئة كبار العلماء سابقًا

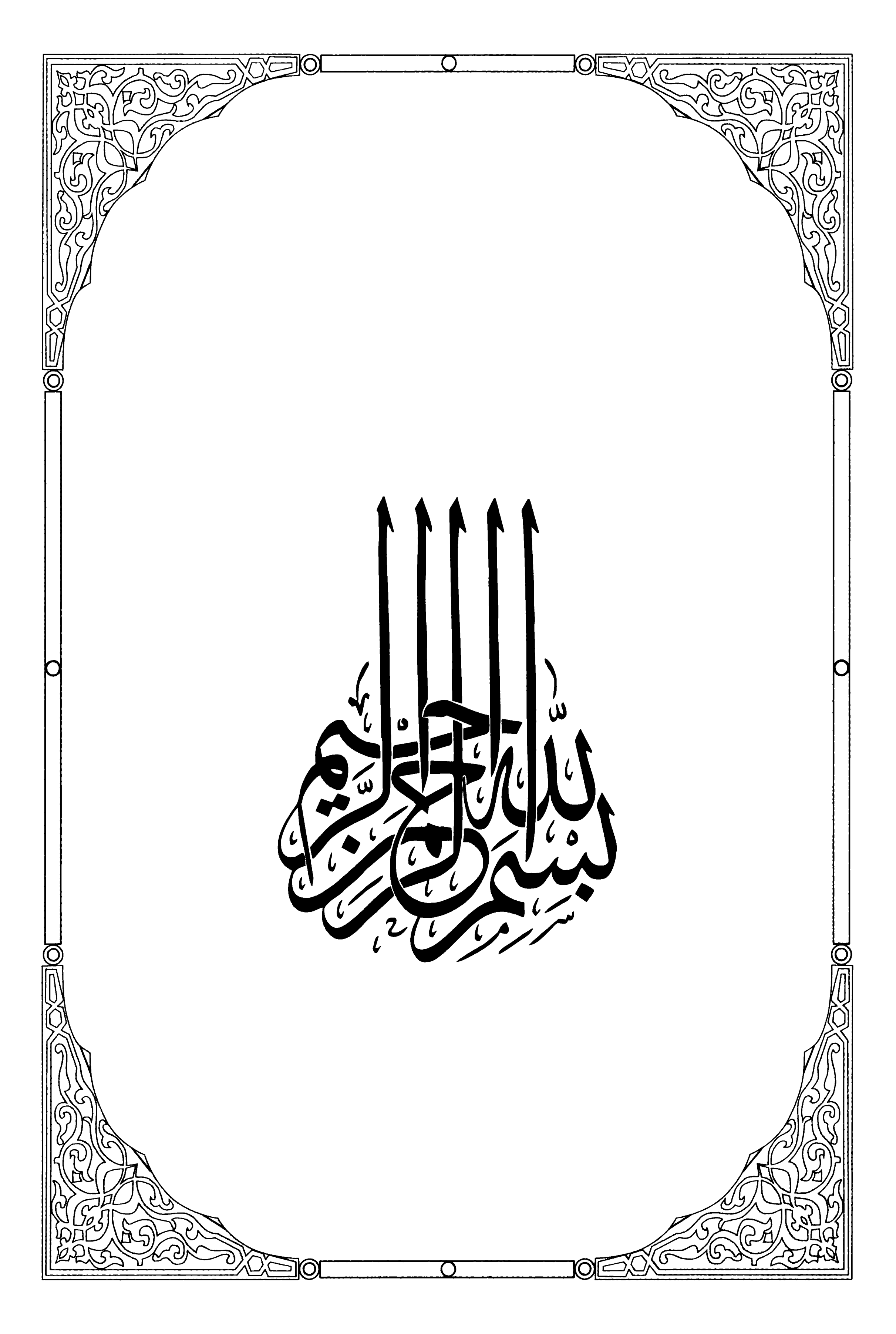
الشيخ/ سليمان بن عبد الله الماجد القاضي بمحكمة الاستئناف سابقًا

الشيخ الدكتور/ خالد بن عثمان السبت أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل



الدرر السنية

www.dorar.net


بسم الله الرحمن الرحيم

قالوا عن الكِتابِ

اطَّلعتُ على هذا الكتابِ فوجدتُه كتابًا قيِّمًا مفيدًا فيما لا يسعُ المسلمَ جهلُه.. وقد عُرِض بأسلوبٍ مبسَّطٍ مناسبٍ لجميعِ طبقاتِ المجتمعِ، معَ الاعتدالِ في الطَّرحِ والعنايةِ بذكرِ الأدلةِ.

الشيخ الدكتور سعد بن تركي الخثلان

عضو هيئة كبار العلماء سابقًا

اطَّلعتُ على كتابِ (زاد العباد) فوجدتُه كتابًا حوَى علومًا نافعةً ممَّا يحتاجُه المسلمُ، حيثُ يُحقِّقُ به الكثيرُ مِن المعرفةِ الواجبةِ لمن يجهلُها، والتذكرةُ المتحتمةُ لمن غفل عنها.

وقد صيغ بأسهلِ تحريرٍ، وأجودِ تقريرٍ، وأخصرِ تعبيرٍ؛ فكان بحقٍّ زادًا للعبادِ، ومعينًا على النجاةِ يومَ المعادِ.

الشيخ سليمان بن عبدالله الماجد

القاضي بمحكة الاستئناف سابقًا

يُعدُّ هذا الكتابُ الماتعُ النافعُ تبصرةً لكلِّ مسلمٍ، فقد حوَى ذخائرَ مِن نصوصِ الوحيينِ تقربُ مِن (١٠٠٠) دليلٍ مِن الكتابِ والسُّنةِ الصحيحةِ، إذ كانت أصولًا فيه، يتلوها شرحٌ بعبارةٍ واضحةٍ، وبذلك جاء الكتابُ موافقًا لاسمِه (زاد العباد).

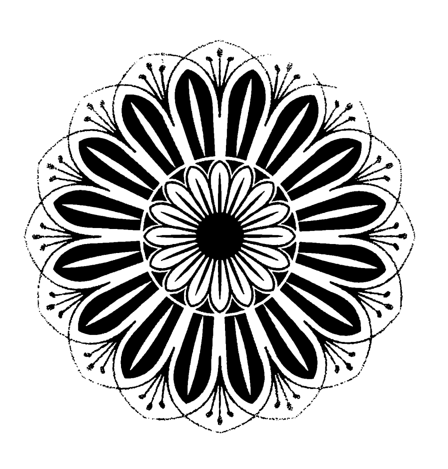
فهو دليلٌ لكلِّ مسلمٍ يُعرِّفُه بمهمَّاتِ الدينِ مِن أبوابِ الإيمانِ وشُعبِه وشرائعِه وآدابِه.

كلُّ ذلك مرقومٌ تحتَ عناوينَ ذاتِ مضامينَ موجزةٍ لا يسأمُ مُطالِعُها، كما صيَّره ذلك في غايةِ المناسبةِ؛ ليكونَ متلوًّا في المساجدِ والدُّورِ وغيرِها. ومثلُه جديرٌ بالعنايةِ والنَّشرِ والترجمةِ.

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير بجامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل





المقدِّمةُ

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمِين، يَسَّر سُبُلَ الهِدايةِ للخَلقِ أجمَعِين، وأمَر عِبادَه بالتزوُّدِ منها لِيكونوا مِن المُتَّقين، ونَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، إلهُ الأوَّلينَ والآخِرين؛ الفَوزُ كلُّه في طاعتِه، والعِزُّ كلُّ العِزِّ في التذَلُّلِ لعَظَمتِه، والهُدَى الكامِلُ في الاستِهداءِ بنُورِه، والصَّلاحُ والفَلاحُ في الإخلاصِ له وخشيتِه، سُبحانَه مِن إلهٍ كَريمٍ رَحيمٍ عَظيمٍ؛ إذا أُطِيعَ شَكَر، وإذا عُصِيَ تابَ وغَفَر، وإذا سُئِلَ أعطَى، وإذا دُعِيَ أجابَ.

ونَشهَدُ أنَّ نَبيَّنا مُحمَّدًا عَبدُاللهِ ورَسولُه، اختارَه مِن خَلْقِه، وجعَلَه أمينًا على وَحيِه، وسَفيرًا بيْنَه وبيْنَ عِبادِه، بعَثَه بالدِّينِ القَويمِ، والمَنهَجِ المُستَقيمِ، وأرسَلَه رَحمةً للعالَمِين، وافترَض على العِبادِ طاعتَه وتوقيرَه، ومَحبَّتَه والقِيامَ بحُقوقِه، وعَلَّق سَعادةَ الدَّارَينِ على مُتابعتِه، وجَعَل شَقاوةَ الدَّارَينِ في مُخالفتِه.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ مِن أفضَلِ ما يَشغَلُ به المُسلِمُ حَياتَه ويَعمُرُ به أوقاتَه، ويُحَقِّقُ الغايةَ التي مِن أجْلِها خَلَقه اللهُ: أن يتفَقَّهَ في دينِ اللهِ تعالى، ويتعلَّمَ ما أُمِر باعتقادِه مِن الأمورِ العِلْميَّة، وما كُلِّف العَمَلَ به مِن الأحكامِ الشَّرعيَّة، وما أُرشِدَ إلى امتثالِه مِن الأخلاقِ والآدابِ المَرعيَّة، ولا يَرتابُ عاقِلٌ في أنَّ مدارَ الفِقهِ في الدِّينِ على كِتابِ اللهِ المُقتَفَى، وسُنَّةِ نَبيِّه المُصطَفَى، ولا شَكَّ أنَّ (زادَ العِبادِ) في حَياتِهم الدُّنيويَّة والأُخْرَويَّة لا يُؤخَذُ ولا يُستقَى إلَّا مِن هذين الوحيَينِ.

ولهذا رأتْ **مُؤَسَّسةُ الدُّرَرِ السَّنيَّةِ** أنْ تَجمعَ كتابًا يكونُ **زادًا للعِبادِ**، يتزوَّدونَ منه ما يَنفَعُهم في دِينِهم ودُنياهم، مُشتمِلًا على شَذَراتٍ من الكِتابِ والسُّنَّةِ، وفيه جُملةٌ ممَّا لا يَسَعُ المُسلِمَ جَهْلُه في أُمورِ دِينِه.



وقد رُسِمَ مَنهَجُ العَمَلِ فيه على النَّحوِ الآتي:

١- تقسيمُ الكِتابِ إلى سبعةِ أقسامٍ رَئيسةٍ، وهي:

العقائِدُ - الأحكامُ - الأخلاقُ - الرَّقائقُ - الآدابُ - الأذْكارُ - الأدْعيَةُ.

٢- اشتِمالُ كلِّ قِسمٍ مِنها على عِدَّةِ عناوينَ رئيسةٍ، تحتَها عناوينُ فرعيَّةٌ، يشتمِلُ كلُّ عنوانٍ على آيةٍ أو أكثرَ مُناسِبةٍ لموضوعِه، دونَ التزامٍ بذلك في جميعِ العناوينِ، مع ذِكرِ حَديثٍ أو أكثَرَ بما يحَقِّقُ المقصودَ. وما لم يُفرَدْ بعنوانٍ مُستقِلٍّ مِن الموضوعاتِ المُهمَّةِ فإنَّه قدْ يُشارُ إليه، أو يُذكَرُ طرَفٌ منه في الشَّرحِ.

٤- تفسيرُ الآياتِ المُصدَّرِ بها تَفسيرًا إجماليًّا، مع ذِكرِ بَعضِ الفوائِدِ واللَّطائفِ بحسَبِ ما تَدْعو إليه الحاجةُ.

٥- شَرحُ الأحاديثِ شَرحًا مُوجَزًا واضِحًا، وتَوضيحُ غَريبِ ألفاظِها، وبيانُ بعضِ فوائِدِها، وحَلُّ إشكالاتِها إن وُجِدَت، مع الاقتصارِ على مَوضِعِ الشَّاهِدِ أحيانًا.

٦- الاهتِمامُ بتَقريرِ العَقيدةِ الصَّحيحةِ، وتجنُّبُ ما يُخالِفُها ممَّا قد يقَعُ في كلامِ بَعضِ المفسِّرينَ وشرَّاحِ الأحاديثِ.

٧- تَركُ التعَرُّضِ للخِلافاتِ الفِقهيَّةِ.

٨- الاعتِمادُ على أمَّهاتِ كُتُبِ تَفسيرِ القُرآنِ الكريمِ، وأبرَزِ كُتُبِ السُّنَّةِ، وشُروحِ الأحاديثِ وغَريبِها، وغيرِ ذلك ممَّا يُحتاجُ إليه، دُونَ عَزْوٍ إليها؛ خَشيةَ الإطالةِ.

٩- العِنايةُ بالتَّدقيقِ اللُّغَويِّ والإملائيِّ، وضَبْطُ ما يُحتاجُ إليه بالشَّكلِ.

١٠- تخريجُ الأحاديثِ المذكورةِ في الكِتابِ، سواءٌ كانت في المَتنِ أو الشَّرحِ، مع الاكتِفاءِ بالعَزوِ إلى الصَّحيحَينِ أو أحَدِهما، وما لم يُوجَدْ فيهما مِن أحاديثَ يُخَرَّجُ على أهَمِّ مَصادرِ السُّنَّةِ، مع ذِكرِ أبرَزِ مَن صَحَّحَها مِنَ المحَدِّثينَ.

١١- عَمَلُ فَهارِسَ للمَراجِعِ المُعتمَدِ عليها، والأحاديثِ، ومَوضوعاتِ الكِتابِ.



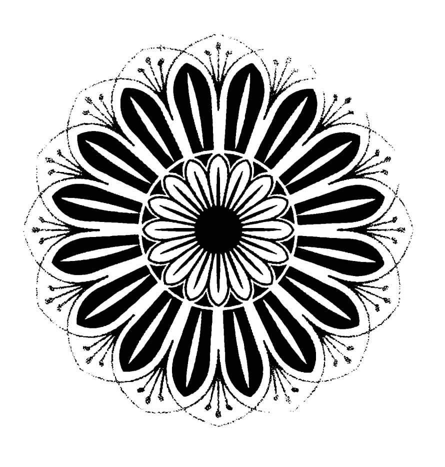
والمَرْجوُّ أنْ يكونَ هذا الكِتابُ كاسْمِه زادًا للعِبادِ في كُلِّ مَسجِدٍ، ومَكتبةٍ، وبَيتٍ، وأنْ يَستفيدَ منه خَطيبُ الجامِعِ، وإمامُ المَسجِدِ، والدَّاعيةُ، والمُعلِّمُ والمربِّي، وطالِبُ العِلمِ، وعامَّةُ النَّاسِ؛ وأنْ يَنتفِعَ به كُلُّ مَن اطَّلَع عليه وقَرَأَه أو سَمِعَه.

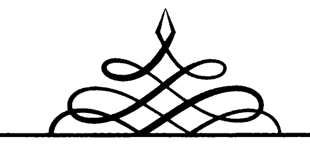
والحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمين، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِه وأصحابِه أجمَعين.

المشرف على الكتاب

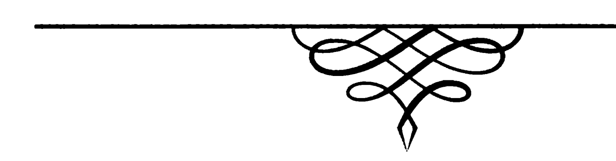
admin@dorar.net



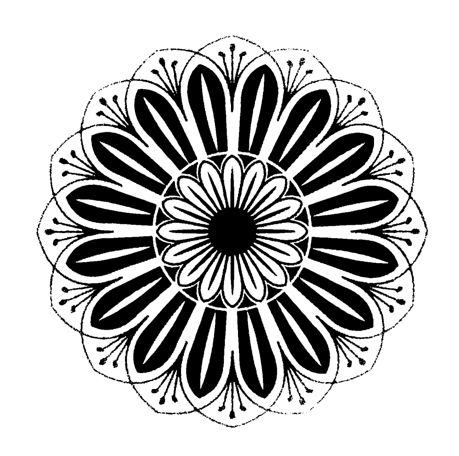




العَقائِدُ



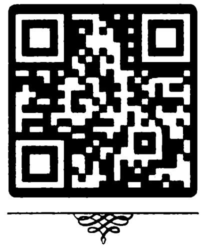
قَبَساتٌ نَيِّراتٌ مِن أنوارِ التَّوحيدِ والإيمانِ وصَحيحِ الاعتِقاداتِ، تُبدِّدُ ظُلماتِ الشِّركِ، وتُزيلُ أدرانَ الخُرافاتِ، في زَمانٍ يَموجُ بفِتَنٍ كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ، ويَعِجُّ بأمواجٍ مُتلاطِمةٍ مِن فِتَنِ الكُفرِ والانحرافاتِ، وطُوفانٍ عارِمٍ مِن البِدعِ والشُّبُهاتِ المُضِلاتِ.



لزيارة

الموسوعة

العقدية



الإيمانُ

حقيقةُ الإيمانِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وعنْ أبي هُرَيرَةَ رضِيَ اللهُ عنه قالَ: كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بارِزًا يَوْمًا للنَّاسِ، فأتاهُ جِبْرِيلُ فقالَ: ما الإيمانُ؟ قالَ: ((الإيمانُ: أنْ تؤمِنَ باللهِ وملائكتِهِ، وكُتُبِه، وبلِقائِه، ورُسُلِه، وتؤمِنَ بالبَعْثِ، قالَ: ما الإسلامُ؟ قالَ: الإسلامُ: أنْ تَعْبُدَ اللهَ ولا تُشْرِكَ به، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤَدِّيَ الزَّكاةَ المفروضةَ، وتصومَ رَمضانَ، قالَ: ما الإحسانُ؟ قالَ: أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لمْ تَكُنْ تراهُ فإنَّه يراكَ، قالَ: متى السَّاعةُ؟ قالَ: ما المسؤولُ عنها بأعلمَ مِنَ السَّائلِ، وسأُخْبِرُكَ عن أشْراطِها: إذا ولَدَتِ الأَمَةُ رَبَّها، وإذا تَطاوَلَ رُعاةُ الإبلِ البُهْمُ في البُنْيانِ؛ في خَمْسٍ لا يَعلَمُهُنَّ إلَّا اللهُ، ثُمَّ تلا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآيةَ، ثُمَّ أدْبرَ فقالَ: رُدُّوهُ، فلمْ يَرَوْا شيئًا، فقالَ: هذا جِبْرِيلُ جاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهم))[1].

وفي رِوايةٍ عند مُسلمٍ: ((... وتُؤمِنَ بالقَدَرِ كُلِّه))[2].



مراتبُ هذا الدِّينِ ثلاثةٌ: الإسلامُ، والإيمانُ، والإحسانُ، ولكلٍّ منها أركانٌ لا يقومُ إلَّا بها، وقد ذَكَر اللهُ تعالَى في أواخِرِ سُورةِ البَقَرةِ بَعضًا مِن أركانِ الإيمانِ، فأخبرَ

(١) أخرجه البُخاريُّ (٥٠) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٠).

أنَّ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ أقرَّ وانقادَ لِمَا أُوحيَ إليه من ربِّه، وكذلك المُؤمِنونَ، وكلٌّ مِن الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمُؤمنينَ جميعًا آمَنُوا حَقًّا باللهِ تعالَى وبجَميعِ ملائكتِه، وجَميعِ كُتُبِه، وأعْلَنوا إيمانَهم بجَميعِ رُسُلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، دونَ أيِّ تفريقٍ بين أحدٍ منهم، فلا يؤمِنونَ ببَعضٍ، ويَكْفُرونَ ببَعضٍ.

وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ ترتيبٌ في غايةِ الفَصاحةِ والبَيانِ، حيثُ ذُكِرتْ أركانُ الإيمانِ بترتيبٍ بَديعٍ، فذُكِرَ الإيمانُ باللهِ أوَّلًا؛ لأنَّه المَرتبةُ الأُولَى، والإيمانُ بملائكتِه ثانيًا، فهو المَرتبةُ الثانيةُ؛ لأنَّهم كالوَسائِطِ بيْن اللهِ وعِبادِه، والإيمانُ بالكتُبِ -التي هي الوَحيُ الذي يتلقَّنُه المَلَكُ مِن اللهِ تعالَى، فيُبَلِّغُه للرَّسولِ البَشَريِّ- ثالثًا؛ وهو المَرتبةُ الثالثةُ، والإيمانُ بالرُّسُلِ الذين يَقتبِسون أنوارَ الوَحيِ رابعًا؛ فهم متأخِّرون في الدَّرجة عن الكُتُبِ، وهو المرتبةُ الرَّابعةُ.

وفي حديثِ أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه بيانٌ لأركانِ الدِّينِ كلِّه؛ فقَدْ جاءَ جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ في صُورةِ رجُلٍ يسألُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ليُعَلِّمَ أصحابَه رَضِيَ اللهُ عنهم، فبَدَأَ بالسُّؤالِ عن الإيمانِ؛ فبيَّنَ له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أركانَه، وهي:

الإيمانُ باللهِ تعالَى: وهو التصديقُ والإقرارُ بوُجودِه سبحانَه، وأنَّه تعالَى موصوفٌ بصِفاتِ الجَلالِ والكَمالِ، ومُنَزَّهٌ عن صِفاتِ النَّقصِ، وأنَّه واحِدٌ أحَدٌ، فردٌ صمَدٌ، لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكُنْ له كُفؤًا أحَدٌ، وأنَّه خالِقُ جَميعِ المخلوقاتِ، يَفعَلُ في مُلكِهِ ما يُريدُ، ويَحكُمُ في خَلقِهِ ما يشاءُ، وأنَّه المُستَحِقُّ وحْدَه لكلِّ أنواعِ العِبادةِ دون ما سِواهُ، كما سيأتي بيانُه في معنَى الإسلامِ.

ثُمَّ الإيمانُ بالملائكةِ: والإيمانُ بهم يَكونُ باعتِقادِ وُجودِهم على الصِّفةِ التي خلَقَهمُ اللهُ عليها، وأنَّهم خَلْقٌ عَظيمٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تعالَى، خلَقَهُم من نُورٍ، وأنَّهم عَبيدٌ للهِ وليسوا بمَعبودينَ، بلْ هُم عِبادٌ مُكْرَمونَ مَجْبولونَ على طاعةِ اللهِ تعالى؛ لا يَعْصُونَ

اللهَ ما أمَرَهُم، ويَفْعَلون ما يُؤمَرون، وعدَدُهم كثيرٌ لا يعْلَمُه إلَّا اللهُ سُبحانَه، وهم أنواعٌ وأصنافٌ، ولكلٍّ منهم وظيفتُه؛ وذلك على جِهةِ الإجمالِ، فالملائكةُ منهم المُوكَّلُ بالوَحْيِ، وهو جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ، ومِنهمُ المُوكَّلُ بالنَّفخِ في الصُّورِ، وهو إسْرافيلُ عليه السَّلامُ، ومِنهمُ المُوكَّلُ بالمَطرِ، وهو مِيكائيلُ عليه السَّلامُ، ومِنهمُ المُوكَّلُ بقَبْضِ الأرواحِ، وهو مَلَكُ المَوْتِ، إلى غير ذلك مما أخبَرَ اللهُ تعالَى به في كِتابِه أو أخبَرَ به نبيُّه صلَّى الله عليه وسلَّم في السُّنَّةِ مِن أصْنافِهم وأخبارِهم وأحوالِهم وصِفاتِهم وأعمالِهم، فهذا إيمانٌ تَفصيليٌّ يَلزَمُ العبدَ الإيمانُ به إذا عَلِمَه.

ثُمَّ الإيمانُ بالكتُبِ السَّماويَّةِ المُنَزَّلةِ على رُسُلِه: كالقُرآنِ المُنَزَّلِ على نبيِّنا مُحمدٍ خاتَمِ الأنبياءِ والمُرسَلينَ، والتَّوْراةِ المُنَزَّلةِ على موسى عليه السَّلامُ، والإنجيلِ المُنَزَّلِ على عيسى عليه السَّلامُ، والزَّبُورِ المُنَزَّلِ على داودَ عليه السَّلامُ، وصُحُفِ إبراهيمَ وموسى عليهما السَّلامُ. والإيمانُ بها يَسْتَلْزِمُ التَّصديقَ بأنَّها كلامُ اللهِ تعالَى، وأنَّها مُنَزَّلةٌ مِن عندِه، وأنَّ ما تضمَّنَتْه -ممَّا لم يُحرَّفْ أو يُبدَّلْ- حقٌّ، وأنَّ اللهَ أنزَلَ القُرآنَ العَظيمَ حاكمًا على هذه الكتُبِ؛ يُصَدِّقُ ما فيها من الصَّحيحِ، ويَحكُمُ عليه بالنَّسخِ أو التَّقريرِ، ويُصَحِّحُ ما وقَعَ فيها مِن تحريفٍ وتَبديلٍ وتَغييرٍ.

ثُمَّ الإيمانُ بلِقاءِ اللهِ سبحانَه، ومعناهُ: الإيمانُ بوُقوفِ العِبادِ بيْن يَدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ للمُحاسَبةِ على أعمالِهم، والجَزاءِ بها، وذلكَ بعْدَ بَعثِهم لحياةِ الآخِرةِ.

ثُمَّ الإيمانُ برُسُلِ اللهِ: وهو الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالى بَعَثَ إلى خَلْقِه رُسُلًا مِنَ البَشَرِ يَدْعونَهم إلى عِبادةِ اللهِ وَحْدَه، ويَشمَلُ ذلكَ الإيمانَ بالأنبياءِ والمُرسَلينَ جميعًا، وألَّا نُفَرِّقَ بيْن أحدٍ منهم، وأنَّ خاتَمَهم نبيُّنا محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّ اللهَ أرسَلَه إلى النَّاسِ جَميعًا، فيَجِبُ على كلِّ مَن سمِعَ به منَ العالَمينَ أنْ يؤمِنَ به، ويتَّبِعَ شَريعتَه، ومَن كَفَر برِسالتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقدْ كَفَر بجَميعِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، ومَن سمَّاهُ



اللهُ عزَّ وجلَّ منهم، وقَصَّ علينا أخبارَهُ في كِتابِه أو سُنَّةِ نَبِيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ كـآدَمَ، ونُوحٍ، وإبراهيمَ، ومُوسى، وعِيسى، وغيرِهم عليهمُ السَّلامُ؛ فهؤلاء نؤمِنُ بهم تفصيلًا، ومَنْ لم نعْرِفْ مِنْ أخبارِهم شيئًا نُؤمِنُ بهم إجمالًا؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقد بَيَّن اللهُ تعالى وظيفةَ الأنبياءِ والرُّسُلِ بقولِه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، ويَسْتَلْزِمُ الإيمانُ بهم: الإيمانَ بأنَّهم هُداةٌ مُهْتَدونَ، صادِقونَ فيما أخبَروا به عنِ اللهِ تعالى، وأنَّ اللهَ تعالى أيَّدَهم بالمُعجزاتِ والبَراهينِ الدَّالَّةِ على صِدقِهم، وأنَّهم بلَّغوا عن اللهِ رِسالتَه، وبيَّنوا للمُكلَّفينَ ما أمَرَهم ببيانِه، دونَ كِتمانٍ، أو زِيادةٍ أو نُقصانٍ، وأنَّه يَجِبُ حبُّهم، وتعظيمُهم وتوقيرُهم، ونَصْرُهم، والاقتِداءُ بهم.

ثُمَّ الإيمانُ بالبَعْثِ، وهو: الإيمانُ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُحْيي النَّاسَ بعْدَ مَوتِهم، بإخراجِهم منَ القُبورِ إلى حياةِ الآخِرةِ الأبديَّةِ؛ إمَّا إلى جَنَّةٍ، وإمَّا إلى نارٍ.

ثُمَّ الإيمانُ بالقَدَرِ كلِّه، وسيأتي في مَوضِعِه مُفَصَّلًا[١].

ثُمَّ بيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أركانَ الإسلامِ، وسيأتي الكلامُ عنها مُفَصَّلًا في مَوضِعِه.

ثم بيَّن النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المَرتبةَ الثالثةَ من الدِّينِ، وهي الإحسانُ، والمرادُ به هنا: هو الذي يكونُ في عِبادةِ اللهِ سُبحانَه، لا الذي يكونُ في مُعاملةِ الخَلْقِ، وفيه قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ»، ونهايةُ مَقامِ الإحسانِ أن يعبُدَ المؤمنُ ربَّه كأنَّه يراهُ بقَلبِه؛ فيكونَ مُستحضِرًا ببصيرتِه وفِكرتِه

---

(١) في (الإيمان بالقَضاءِ والقَدَرِ) (ص: ٩٦ فما بعدها).

لهذا المقامِ؛ فإنْ عجزَ عنه وشقَّ عليه انتقَلَ إلى مَقامٍ آخَرَ، وهو أنْ يعبُدَ اللهَ على أنَّ اللهَ تعالَى يراهُ ويطَّلِعُ على سِرِّه وعَلانيتِه، ولا يَخْفى عليه شَيءٌ مِن أمْرِه.

ثُمَّ سألَ جِبريلُ عليه السَّلامُ عن الساعةِ وأشْراطِها، فأجابَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ذلِك، وسيأتي الكلامُ عنها مُفصَّلًا[1].

الإيمانُ قَوْلٌ وعمَلٌ يَزيدُ ويَنْقُصُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ: ((الإيمانُ بِضْعٌ وسَبْعونَ -أو بِضْعٌ وسِتُّونَ- شُعْبَةً، فأفْضَلُها: قَوْلُ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأدْناها: إماطَةُ الأذى عَنِ الطَّريقِ، والحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ))[2].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالَ: إنَّ وفْدَ عبدِ القَيْس أَتَوُا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالَ: ((مَنِ الوَفْدُ، أو مَنِ القَوْمُ؟ قالوا: رَبيعةُ، فقالَ: مرحبًا بالقَومِ -أو: بالوَفْدِ- غيرَ خَزايَا ولا نَدامَى، قالوا: إنَّا نأْتيكَ مِن شُقَّةٍ بعيدةٍ، وبَيْننا وبَيْنك هذا

---

(١) (ص: ١١٦ فما بعدها).

(٢) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له.

الحيُّ من كُفَّارِ مُضَرَ، ولا نستطيعُ أنْ نأتيَكَ إلَّا في شهرٍ حرامٍ؛ فمُرْنا بأمرٍ نُخبِرْ به مَنْ وراءَنا، نَدخُلُ به الجنَّةَ؛ فأمَرَهم بأربَعٍ، ونهاهم عن أَرْبَعٍ: أمَرَهم بالإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ وحْدَه، قال: هلْ تَدْرونَ ما الإيمانُ باللهِ وحْدَه؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وصَوْمُ رمضانَ، وتُعْطوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ ...)) الحديثَ[1].



مِن عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ الإيمانَ قَوْلٌ وعمَلٌ، يَزيدُ بالطَّاعةِ ويَنْقُصُ بالمعصيةِ؛ فالمؤمِنُ يَزيدُ إيمانُه بفِعلِ الطَّاعاتِ واجتنابِ المحَرَّماتِ، وبقَدْرِ تَفريطِه في الطَّاعاتِ وارتكابِه للمُحَرَّماتِ يَضْعُفُ إيمانُه.

وفي الآيةِ الأُولى يخبِرُ اللهُ تعالى بأنَّه لا يَنْبغي له سُبحانه أنْ يُضيعَ ثوابَ صلواتِ المؤمنينَ السَّابقةِ إلى بيتِ المقدِسِ قَبلَ تحويلِ القِبلةِ إلى الكعبةِ، بل هو محفوظٌ عنده سبحانَه وتعالى. ففي الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ العَمَلَ مِن الإيمانِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى سمَّى الصَّلاةَ إيمانًا.

وفي الآيةِ الثَّانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى زيادةَ إيمانِ المُؤمنينَ إذا أُنزِلَت سورةٌ مِن القرآنِ؛ فهمْ يَفرَحونَ بهذا الفَضلِ الإلهيِّ العظيمِ، بخلافِ المنافقينَ الذين يَزيدُهم ذلك كُفرًا إلى كُفرِهم، وشَكًّا إلى شَكِّهم.

والآيةُ الثالثةُ تُبيِّنُ أنَّ مِن صِفاتِ المُؤمنينَ حقًّا ازديادَ تصديقِهم ويقينِهم وإذعانِهم وانقيادِهم إذا قُرِئَتْ عليهم آياتٌ مِن كِتابِ اللهِ سبحانه.

فهاتانِ الآيتانِ وأمثالُهما مِن أكبَرِ الدَّلائِلِ على أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ، كما هو

(١) أخرجه البُخاريُّ (٨٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧).



مذهَبُ أكثَرِ السَّلَفِ والخَلَفِ مِن أئمَّةِ العُلَماءِ، بلْ قدْ حَكَى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ من أهلِ العِلمِ، وهما حُجَّةٌ على المُرْجِئةِ فيما يُنكِرونَه مِن زيادةِ الإيمانِ ونَقْصِه، وقد استدلَّ البخاريُّ وغيرُه مِن الأئمَّةِ بهاتينِ الآيتينِ وغيرِهما مِن الآياتِ على زيادةِ الإيمانِ وتفاضُلِه في القلوبِ.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الإيمانَ «بِضْعٌ وسبعونَ -أو بِضْعٌ وسِتُّونَ- شُعْبَةً»، والبِضعُ: مِنَ الثَّلاثةِ إلى العَشرةِ، والمقصودُ: أنَّ الإيمانَ ذو خِصالٍ متعدِّدةٍ، ويتكوَّنُ مِن أعمالٍ كثيرةٍ، منها أعمالُ القلوبِ: كالتَّوحيدِ، والتَّوكُّلِ، والرَّجاءِ، والخَوْفِ، ومنها أعمالُ اللِّسانِ: كالشَّهادتَيْنِ، والذِّكرِ، والدُّعاءِ، وتلاوةِ القُرآنِ، وغيرِها، ومنها أعمالُ الجوارحِ: كالصَّلاةِ، والصَّومِ، وإغاثةِ الملهوفِ، ونَصرِ المظلومِ.

ثُمَّ بيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أعلى درَجاتِ الإيمانِ وأُولى خِصالِه، وهي قولُ: «لا إلَهَ إلَّا اللهُ»؛ فتَوحيدُ اللهِ عزَّ وجلَّ، والاعترافُ والإقرارُ بكونِه الإلهَ الواحدَ المُدبِّرَ للكونِ، المستحِقَّ للعِبادةِ وحْدَه دون ما سِواهُ: هو أصلُ الإيمانِ، وهذه الكلمةُ العظيمةُ «لا إلَهَ إلَّا اللهُ» هي كلمةُ التَّقْوى، وهي العُرْوَةُ الوُثْقى، وهي الفارِقَةُ بيْنَ الكُفرِ والإسلامِ، وهي التي جَعَلَها إبراهيمُ عليه السَّلامُ كلمةً باقِيةً في عَقِبِهِ؛ لعلَّهم يَرجِعون، وهي كلمةٌ قَامَت بها الأرضُ والسَّمواتُ، وخُلِقَتْ لأَجلِها جَميعُ المخلوقاتِ؛ فهي مَنْشَأُ الخَلْقِ والأمرِ، والثَّوابِ والعِقابِ، وهي حقُّ اللهِ على جميعِ العِبادِ، وليس المرادُ قولَها باللِّسانِ معَ الجهلِ بمعناها، أو النِّفاقِ بها، بل المرادُ قولُها باللِّسانِ وتصديقُها بالقلبِ، ومحبَّتُها ومحبَّةُ أهلِها، وبُغْضُ ما خالَفَها ومُعاداتُه.

ثُمَّ بيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أقلَّ أعمالِ الإيمانِ هو تَنْحيةُ الأذى، وإبعادُه عن طريقِ النَّاسِ، والمرادُ بالأذى: كلُّ ما يؤذِي؛ من حَجَرٍ، أو شَوْكٍ، أو غَيرِه، ثُمَّ أكَّدَ النبيُّ



صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أهميَّةَ خُلُقِ الحَياءِ، وأنَّه خَصلةٌ مِن خِصالِ الإيمانِ، وحقيقةُ الحياءِ: خُلقٌ يبعثُ على تركِ القبيحِ، ويمنعُ مِن التقصيرِ في حقِّ ذي الحقِّ، والمرادُ به الحَياءُ مِنَ اللهِ تعالى؛ ألَّا يَراك حيثُ نهاك، وألَّا يَفقِدَك حيثُ أمَرَك، وهو بهذا المعْنى أقْوى باعثٍ على الخيرِ، وأعظمُ رادعٍ عنِ الشَّرِّ؛ ولذلك كانَ مِنَ الإيمانِ، فجمَعَ هذا الحديثُ بيْنَ الاعتقادِ والعملِ والأخلاقِ، وأنها كُلَّها مِنَ الإيمانِ، وإنْ كانَ الحديثُ أجمَلَ هنا شُعَبَ الإيمانِ، فإنها موضَّحَةٌ ومُفَصَّلَةٌ في السُّنَّةِ النبويَّةِ.

وفي حَديثِ عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قِصَّةُ قُدومِ وفْدِ عبدِ القَيْسِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حيثُ رحَّبَ بهمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقالَ: «مَرحبًا بالقَومِ» الذين جاؤُوا «غيرَ خَزايا ولا نَدامَى»، والمرادُ أنَّه لم يكُن منهم تأخُّرٌ عنِ الإسلامِ ولا عِنادٌ، ولا وقَعَ أحدٌ منهم في الأَسْرِ، ولا ما أشبَهَ ذلكَ، ممَّا يسْتَحْيونَ بسَببِه أو يَندَمونَ، فهذا إظهارٌ لشرَفِهم، حيثُ دخَلوا في الإسلامِ طائعينَ مِن غيرِ خِزيٍ. وقدْ طلَبوا مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يأمُرَهم بأمرٍ فَصْلٍ من أمرِ دِينِهم يُبيِّنُ لهم فيه الحقَّ والباطلَ؛ ليُخبِروا به قومَهم في بلادِهم؛ لأنَّهم لا يَستطيعونَ المجيءَ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا في الأشهُرِ الحُرُمِ؛ لِمَا بيْنَهم وبيْنَ كُفَّارِ مُضَرَ من عَداءٍ وهم يَمرُّونَ عليهم في طَريقِ مَجيئِهم إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنَّما مُكِّنوا في هذه الأَشهُرِ دونَ غيرِها؛ لأنَّ العربَ كانتْ لا تُقاتِلُ فيها، فأمَرَهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأربعِ خِصالٍ أو جُمَلٍ، ونَهاهم عن أَربعٍ؛ فأمَرهم بالإيمانِ باللهِ وحْدَه؛ فهو أوَّلُ الأمورِ التي يجِبُ عليهم الالتزامُ بها؛ كي يَدخُلوا في الإسلامِ والإيمانِ، وتَصِحَّ أعمالُهم وتُقبَلَ عِندَ اللهِ تعالَى.

ثمَّ فسَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الإيمانَ باللهِ وحْدَه بأنَّه شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وصِيامُ رَمَضانَ، فجعَلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الإيمانَ في هذا الحَديثِ هو النُّطقَ والتَّلفُّظَ بشَهادةِ التَّوحيدِ الدَّالَّةِ على



البَراءةِ مِن كلِّ أنواعِ الشِّركِ، والإقرارَ بِرسالتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الخاتَمةِ العامَّةِ لكُلِّ العالَمينَ، وأنَّ مِن الإيمانِ باللهِ وحْدَه: إقامَ الصَّلاةِ؛ بأنْ يُقيمَ المُسلِمُ الصَّلواتِ الخَمسَ في أوقاتِها بأركانِها وشُروطِها. وإيتاءَ الزَّكاةِ؛ بأنْ يُخرِجَ الغنيُّ زَكاةَ مالِه وقتَ وُجوبِها عليه إذا بلَغَ ذلك المالُ النِّصابَ، وهو المقدارُ الذي سمَّاه وحدَّدَه الشَّرعُ في كلِّ أنواعِ المالِ. وصِيامَ رَمضانَ، وهو الإمساكُ -بنيَّةِ التعبُّدِ- عن الأكْلِ والشُّربِ، وسائرِ المُفطِراتِ، وغِشيانِ النِّساءِ، مِن طُلوعِ الفَجرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ، من رُؤيةِ هِلالِ رَمضانَ إلى رُؤيةِ هِلالِ شَوَّالٍ.

ثُمَّ زادَ: «وتُعْطوا الخُمُسَ مِنَ المغنَمِ»؛ لأنَّهم كانوا مُجاوِرينَ لكُفَّارِ مُضَرَ، وكانوا أهلَ جِهادٍ وغَنائمَ، وهذا الخُمُسُ مِن المَغنمِ لـلأصنافِ التي حدَّدَها اللهُ عزَّ وجلَّ في كِتابِه، بقولِه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقدِ استُشكِل قولُه: «أمَرَهم بأربعٍ»، مع أنَّه ذكَر خمسةً! وأُجِيبَ بأنَّه عَدَّ الصَّلاة والزَّكاةَ واحدةً؛ لأنَّها قرينتُها في كتابِ اللهِ تعالى، أو أنَّ أداءَ الخُمُسِ داخلٌ في عُمومِ إيتاءِ الزَّكاة، والجامعُ بينهما إخراجُ مالٍ مُعيَّنٍ في حالٍ دونَ حالٍ، والحديثُ فيه دليلٌ على أنَّ الأعمالَ داخلةٌ في مسمَّى الإيمانِ.

مَحبَّةُ المؤمنينَ مِنَ الإيمانِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].



وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا تَدْخُلونَ الجنَّةَ حتى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنوا حتى تَحابُّوا، أَوَلا أدُلُّكُم على شَيءٍ إذا فعَلتُموهُ تَحابَبْتُم؟ أفْشُوا السَّلامَ بينكم))[1].

إنَّ رابِطةَ الإيمانِ هي أعظَمُ الرَّوابِطِ التي تَربِطُ بين قُلوبِ المُؤمِنينَ، وتؤَلِّفُ بينهم، وتَجمَعُهم على المحبَّةِ والإخاءِ، وتُزيلُ العداوةَ والشَّحْناءَ.

وفي الآيةِ الأولى يَذكُرُ اللهُ تعالى أنَّه جمَعَ بيْن قُلوبِ أصحابِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الحَقِّ، إيمانًا به ومُناصرةً له، فأصبَحوا بنِعمَتِه إخوانًا مُتحابِّينَ مُؤتَلِفينَ، بعدَ أنْ كانوا أعداءً مُتنافرينَ مُتفرِّقينَ، ولو بَذَلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جميعَ ما في الأرضِ؛ مِن ذَهَبٍ وفِضَّةٍ وأموالٍ وغَيرِ ذلك؛ لِيجمَعَ بينَ قلوبِ أصحابِه، لَما استطاع ذلك أبدًا؛ لِشدَّةِ العَداواتِ التي كانت مُستحكِمةً بينهم، ولكِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بقُدرَتِه الباهرةِ وحِكمتِه البالغةِ هو وَحْدَه مَن فَعَل ذلك.

وفي الآيةِ الثانيةِ يذكُرُ اللهُ تعالَى صُورةً مُشرِقةً للمَحَبةِ بين المؤمنينَ في اللهِ، مُتمَثِّلةً في الأنصارِ رَضِيَ اللهُ عنهم ومَحبَّتِهم للمُهاجرينَ إليهم؛ إذ لا تَربِطُ بينهم أواصِرُ قَرابةٍ، ولا تجمَعُهم مَصلحةٌ دُنيويَّةٌ، وإنَّما هم متآلِفونَ برِباطِ الأُخوَّةِ في الدِّينِ؛ فليس في صدورِ أولئك الأنصارِ أيُّ حَسَدٍ ممَّا أعطاه اللهُ ورسولُه لإخوانِهم المُهاجرينَ، أو خَصَّهم به من الفَضائِلِ، بل يُعطُونَ ما في أيديهم، ويُقَدِّمونَ غَيرَهم على أنفُسِهم في الحُظوظِ الدُّنيَويَّةِ، حتى لو كان بهم فَقرٌ وحاجةٌ شَديدةٌ لذلك. ومَن سلَّمَه اللهُ من شدَّةِ حِرصِ النَّفسِ على جمْعِ المالِ فلم يَبخَلْ به، فأولئك هم الفائِزونَ الظَّافِرونَ حَقًّا.

وفي حديثِ أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه

(١) أخرجه مسلمٌ (٥٤).



لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا المؤمِنونَ، وأنَّ التحابَّ بيْن المُؤمنينَ مِن كَمالِ الإيمانِ؛ فيقولُ: «لا تدْخُلونَ الجَنةَ حتى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنوا حتى تحابُّوا»، أي: لا يكتَمِلُ إيمانُكم حتى يُحِبَّ بعضُكم بَعضًا، ثُمَّ يَدُلُّنا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على أفضَلِ وأكمَلِ الخِصالِ المساعِدةِ على هذا النَّوْعِ مِنَ التَّحابِّ في المُجتمعِ المسلِمِ، وهي إفشاءُ السَّلامِ بيْن المُسلِمينَ بإظهارِه والعَملِ به؛ فلا يَمُرُّ مُسلِمٌ على مُسلمٍ غريبًا أو قريبًا إلَّا ألْقَى عليه السَّلامَ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ جعَلَ إفشاءَ السَّلامِ سببًا للمَحبَّةِ، وجعَلَ المَحبَّةَ سببًا لكمالِ الإيمانِ، ولا شكَّ أنَّ إفشاءَ السَّلامِ يؤَدِّي إلى المَحبةِ والوِئامِ، ويَدفَعُ التَّهاجُرَ والتَّقاطُعَ، والشَّحْناءَ التي تُفرِّقُ بيْنَ المُسلِمينَ وتُضْعِفُهم.

الأمْرُ بالمعْرُوفِ والنَّهيُ عنِ المُنْكَرِ مِنَ الإيمانِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

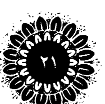
وقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((مَن رَأى مِنكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِه، فإنْ لم يَسْتَطِعْ فبِلِسانِه، فإن لَم يَسْتَطِعْ فبقَلبِه، وذلكَ أضْعَفُ الإيمانِ))[1].



الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عنِ المُنكَرِ من الأعمالِ العَظيمةِ التي جعَلَها اللهُ عزَّ وجلَّ مِن أسبابِ خَيْريَّةِ هذهِ الأمَّةِ، **كما تَذكُرُ الآيةُ الأُولَى**. وفي هذه الآيةِ دَلالةٌ على

(١) أخرجه مسلمٌ (٤٩).





أنَّه ما لم يُوجَدِ الإيمانُ لم يَصِرْ شَيءٌ مِن الطَّاعاتِ مؤثِّرًا في صِفةِ الخيريَّةِ، وفيها دَلالةٌ على أنَّهم أَمَروا بالمعروفِ ونَهَوا عن المنكَرِ؛ إيمانًا باللهِ، وتَصديقًا به، وإظهارًا لدِينِه، وفيها تَعريضٌ بأهلِ الكِتابِ الذين كانوا يَدَّعونَ الإيمانَ دونَ القِيامِ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ.

وذكَرَ اللهُ تَبارَكَ وتعالَى **في الآيةِ الثانيةِ** أنَّ المُؤمِنينَ والمؤمناتِ بَعضُهم أنصارُ بعضٍ؛ فهم متحابُّونَ في اللهِ، مُتعاطِفونَ، غيرُ مُتفرِّقينَ، يَأمُرونَ النَّاسَ بكُلِّ خَيرٍ يُحبُّه اللهُ؛ مِن الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ، ويَنهَوْنَهم عن كلِّ شَرٍّ يُبغِضُه اللهُ؛ مِن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي. وقد جَعَلَ اللهُ تَعالَى الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ مِن أخَصِّ أوصافِ المُؤمِنينَ وأقواها دَلالةً على صِحَّةِ عَقيدتِهم، وسلامةِ سَريرتِهم، وهاتانِ الصِّفتانِ هما سِياجُ حِفظِ الفَضائلِ، ومَنعِ فشُوِّ الرَّذائلِ.

وفي الحَديثِ المذكورِ أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَن رَأى أو عرَفَ أمرًا مُنكرًا -قد أنكَرهُ الشَّرعُ- بإزالتِه إنْ قدَرَ على إزالتِه بيدِه، وهذا إنْ كانَ له قوَّةٌ وسُلطةٌ، وكان المنكَرُ يَحتاجُ إلى إزالتِه باليدِ، فإنْ لم يَستطِعْ تَغييرَه بيدِه فليُزِلِ المنكَرَ بلِسانِه، وذلكَ بالوَعظِ والتَّذكيرِ، فإنْ لم يَستطِعِ تَغييرَه باللِّسانِ فلْيُنكِرْه وليَكْرَهْه بقَلبِه، ويَعزِمْ علَى أنَّه لو قدَرَ على إزالتِهِ لفَعَلَ، وذلكَ التَّغييرُ بالقلبِ أدْنى خِصالِ الإيمانِ في إزالةِ المنكَرِ. وفي هذا أمْرٌ بالتَّدرُّجِ في الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ، كلٌّ بحسَبِ استِطاعتِه وقُدْرتِه.

طَعمُ الإيمانِ وحَلاوتُه

عنِ العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّهُ سمِعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ باللهِ رَبًّا، وبالإسلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ رسولًا))[1].

(١) أخرجه مسلمٌ (٣٤).



وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إِلَيْه ممَّا سِواهما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يَحِبُّه إلَّا للهِ، وأنْ يَكرَهَ أن يَعودَ في الكفرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّارِ))[1].

للإيمانِ حلاوةٌ وطعمٌ يُذاقُ بالقلوبِ، كما تُذاقُ حلاوةُ الطَّعامِ والشَّرابِ بالفمِ، وكما أنَّ الجَسدَ لا يجِدُ حلاوةَ الطَّعامِ والشَّرابِ إلَّا عند صحَّتِه، فكذلك القلبُ إذا سلِمَ مِن أمراضِ الأهواءِ المُضلَّةِ والشَّهواتِ المُحرَّمةِ وجَدَ حلاوةَ الإيمانِ، ومتى مرِضَ وسَقِمَ لم يجِدْ حلاوةَ الإيمانِ، بل قد يَسْتَحْلي ما فيه هلاكُه مِنَ الأهواءِ والمعاصي.

وأيضًا مَن رضِيَ أمرًا سهُلَ عليه، فكذا المؤمِنُ لمَّا آمَن قلبُه سهُلَت عليه الطاعاتُ وتمتَّعَ بها، ولمْ يشُقَّ عليه مُعاناتُها.

وفي حَديثِ العبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عنه يُبَيِّنُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الذي يتذَوَّقُ طَعْمَ الإيمانِ، ويشعُرُ بحَلاوتِه -وهي ما يَجِدُه المؤمنُ مِن انشراحِ الصَّدرِ والأُنسِ بمَعرفةِ اللهِ تعالَى ومَحبَّتِهِ ومحبَّةِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومَعرفةِ نِعمةِ اللهِ عليه باصطفائِه وجعْلِه مُسلِمًا مِن أُمَّةِ خير المُرسَلينَ- هو مَن رضِيَ باللهِ ربًّا، بأنْ رضِيَ بتَدبيرِه وقَضائِه له، واتَّخذَه دون ما سواه إلهَه ومَعبودَه. ورَضِيَ بالإسلامِ دِينًا، فاختارَه مِن بيْنِ سائرِ الأديانِ فدخَلَ فيه راضيًا مُسْتسلِمًا ولم يَبتغِ غيرَ الإسلامِ دِينًا. ورضِيَ بِمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولًا، فرَضِيَ بجَميعِ ما جاء به مِن عندِ اللهِ تعالى، وقبِلَ ذلك بالتَّسليمِ والانشراحِ؛ فصدَّقَه فيما أَخْبَر، وأطاعَه فيما أَمَرَ، واجتنَبَ ما عنه نهَى وزجَرَ، وأحبَّه واتَّبعَه ونَصَرَه.

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (١٦)، ومسلم (٤٣).



وفي حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه يُبَيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الخِصالَ التي يَجِدُ بها المسلمُ حلاوةَ الإيمانِ في صدرِه.

فالخَصلةُ الأولى: «أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحَبَّ إلَيْه مما سِواهما»، ومحبَّةُ اللهِ تَنْشأُ مِن معرفةِ أسمائِه وصِفاتِه، والتَّفكيرِ في مصنوعاتِه، وما فيها مِنَ الحِكَمِ والعَجائبِ، وتحصُلُ مِن مطالعةِ نِعَمِه على العبادِ؛ فإنَّ ذلك كلَّه يدُلُّ على كَمالِه وقُدرتِه، وحِكمتِه، وعِلمِه، ورَحمتِه. ومحبَّةُ العبدِ لخالقِه سُبحانَه وتعالَى تستوجِبُ التزامَ شَريعتِه وطاعتِه، والانتهاءَ عمَّا نهَى عنه، والتزامَ أوامرِه ونواهيه في كلِّ شَيءٍ، ومحبَّةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كذلك.

والخَصلةُ الثَّانيةُ: «أنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا للهِ»؛ فهذا حَثٌّ على التَّحابِّ في اللهِ، وهو مِن أَوثقِ عُرَى الإيمانِ، وإنَّما كانتْ هذه الخَصلةُ تاليةً لِمَا قَبْلَها؛ لأنَّ مَن كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إلَيْه ممَّا سِواهما اسْتَلْزَم ذلك محبَّةَ ما يُحِبُّه اللهُ مِن الأقوالِ والأعمالِ، وكراهةَ ما يكرَهُه مِن ذلك، وكذلك مِنَ الأشخاصِ، فلا تَحصُلُ حلاوةُ الإيمانِ إلَّا أنْ تكونَ هذه المحبَّةُ خالصةً للهِ تعالى، غَيرَ مَشوبةٍ بالأغراضِ الدُّنيويَّةِ ولا الحُظوظِ البشريَّةِ.

والخَصلةُ الثَّالثةُ: «أن يكرَهَ أن يَعودَ في الكفرِ كما يَكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّارِ»؛ فإذا رسَخَ الإيمانُ في القلبِ، وتحقَّق به، ووجَد حلاوتَه وطعْمَه؛ أحبَّه، وأحَبَّ ثباتَه ودوامَه، والزِّيادةَ منه، وكرِهَ مُفارقتَه، وكانتْ كراهتُه لمُفارَقتِه أعظَمَ عندَه مِن كراهةِ الإلْقاءِ في النَّارِ، فإذا وجَدَ القلبُ حلاوةَ الإيمانِ أحَسَّ بمَرارةِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ.

فهذه الخِصالُ الثَّلاثُ مِن أعلى خِصالِ الإيمانِ؛ فمَن كمَّلها فقَد وجَدَ حلاوةَ الإيمانِ، فاستَلَذَّ الطَّاعاتِ، وتحمَّل المشَاقَّ، وآثَرَ ذلك على أغراضِ الدُّنيا.

الإيمانُ برُبوبيةِ اللهِ وَحْدَه
(توحيدُ الربوبيةِ)

تَنزيهُ اللهِ تعالى عن الصَّاحبةِ والوَلَدِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وعَن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((قالَ اللهُ: كَذَّبَني ابنُ آدَمَ ولَمْ يكُن له ذلك، وشَتَمَني ولَمْ يكُن له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ، فزَعَمَ أنِّي لا أقْدِرُ أنْ أُعِيدَهُ كما كانَ، وأمَّا شَتْمُه إيَّايَ، فقَولُه: لي ولَدٌ، فَسُبْحاني أنْ أتَّخِذَ صاحِبَةً أو ولَدًا!))[1].

اللهُ هو الغنيُّ الذي لا يَحتاجُ إلى أحدٍ؛ فهو المُنَزَّهُ والمُقَدَّسُ عنِ الصَّاحبةِ والولدِ. وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى في **الآيةِ الكريمة** أنَّه خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومُحْدِثُهما على غيرِ مثالٍ سَبَقَ؛ فكيفَ يكونُ له ولَدٌ ولا زَوجةَ له؟! فالولَدُ إنَّما يكونُ مُتولِّدًا عن شَيئينِ مُتناسِبَينِ، واللهُ تعالَى لا يناسِبُه ولا يُشابِهُه شَيءٌ مِن خَلْقِه، وهو سُبحانه لا يَحتاجُ إلى زَوجةٍ؛ فهو الغنيُّ عن جميعِ مخلوقاتِه، مع افتقارِها جميعًا إليه.

وفي **هذا الحَديثِ القُدُسيِّ المذكورِ** يقولُ ربُّ العِزَّةِ: «كَذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكُن له ذلك، وشتَمَني ولم يكُن له ذلك»، أي: لم يكُن له حقٌّ في ذلك؛ فأمَّا تكذيبُ ابنِ آدمَ للهِ تعالَى فزَعْمُه أنَّ المَوْلى سُبحانَه وتعالَى لا يَقدِرُ أنْ يُعيدَه مرَّةً أُخْرى بعدَ مَوتِه!

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (٤٤٨٢).

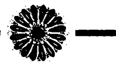


وهو القادرُ على ذلك سُبحانَه؛ فكما بدَأ الخلْقَ يُعيدُه مرَّةً أُخْرى، وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ. وأمَّا شتْمُ ابنِ آدمَ للهِ سُبحانَه فهو قَوْلُ اليَهودِ والنَّصارى وادِّعاؤُهم أنَّ له ولدًا؛ فإنَّ اليهودَ قالوا: عُزَيرٌ ابنُ اللهِ، والنَّصارَى قالوا: عيسى ابنُ اللهِ! ويَشمَلُ كذلِك مَن قال مِنَ العَربِ: المَلائكةُ بناتُ اللهِ. ثمَّ قال اللهُ تَعالى في هذا الحديثِ: «فسُبْحاني أنْ أتَّخِذَ صاحِبَةً أو ولَدًا»، أي: تَنْزيهًا وتَطهيرًا وتَعظيمًا لي؛ تَنزَّهْتُ عن اتِّخاذِ الزَّوجةِ أو الولَدِ، فنزِّهُوني عن ذلك، تعالَى اللهُ عمَّا يَقولُ الظالِمونَ عُلُوًّا كَبيرًا.

تفَرُّده بالخَلقِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وعن أبي هُرَيْرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ ذهَبَ يَخلُقُ كخَلْقي؟! فَلْيَخْلُقوا ذَرَّةً، أوْ لِيَخْلُقوا حَبَّةً،أو شَعِيرةً))(١).



اللهُ عزَّ وجَلَّ هو الخالِقُ وَحْدَه، وكُلُّ ما سِواه مَخلوقٌ.

وفي هذه الآيةِ الكريمةِ أكَّدَ اللهُ سُبحانَه على تَفرُّدِه بالخَلقِ، وأنَّه هو المَعبودُ بحَقٍّ، والرَّبُّ: الذي ربَّى خَلْقَه بنِعَمِه، ودَبَّرَ جَميعَ أُمورِهم، فهو الخالِقُ لكُلِّ شَيءٍ، دونَ أنْ يُشارِكْه أحَدٌ؛ وهو سُبحانَه الرَّقيبُ الحَفيظُ على جَميعِ خلْقِه؛ فيَقومُ بأرزاقِهم، وتَدبيرِ شُؤونِهم، وأُمورُ كُلِّ شيءٍ تُفَوَّضُ إليه وحْدَه، فيَفعَلُ فيها ما يشاءُ سُبحانَه؛ فذَلكَ الَّذي تلْكَ صِفاتُه هو الَّذي يَستَحِقُّ أن يُعبَدَ وَحْدَه.

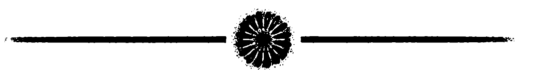
(١) أخرجه البُخاريُّ (٧٥٥٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢١١١).

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه يَذكُرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن رَبِّ العِزَّةِ عزَّ وجلَّ أنَّ أكثرَ النَّاسِ ظُلمًا ؛هو الَّذي قَصَدَ أنْ يُشابِهَ اللهَ تعالَى في خلْقِه وتَصويرِه؛ فيَتجرَّأ ويَصنَعَ الصُّوَرَ لكُلِّ ما فيه رُوحٌ، ثُمَّ تَحدَّاهم اللهُ أنْ يَخلُقوا كخَلْقِه حَقيقةً، سواءٌ كان مِن الجَماداتِ؛ بأنْ يَخلُقوا حَبَّةً مِمَّا يُطْعَمُ، كالذُّرَةِ والقَمْحِ ونحْوِها، فيَأتوا بها مِن العَدَمِ، أو مِن الحَيواناتِ؛ بأنْ يَخلُقوا ذَرَّةً، والذَّرةُ: واحدةُ الذَّرِّ، وهو صِغَارُ النَّمْلِ، سَواءٌ في نفْخِ الرُّوحِ، أو تَكوينِها الخلْقِي، كأجزاءِ جِسمِها الخارجيَّةِ والدَّاخليَّةِ ووَظيفةِ كلِّ جُزءٍ فيها،فيَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَنظُرَ إلى عجْزِ نفْسِه؛ فإنَّ اللهَ هو وحدهُ المبدِعُ والمصوِّرُ لهذا الكونِ وما فيه، والحديثُ وإنْ كان ظاهرُه التَّحذيرَ مِن التَّصويرِ ونحْوِه إلَّا أنَّه تَعجيزٌ وإصغارٌ لكلِّ مَن يُحاوِلَ أنْ يُنشِئَ خلْقًا كخَلْقِ اللهِ تَبارَكَ وتَعالى.

تفَرُّدُه بالإحياءِ والإماتةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٦].

وعن أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((قال رَجُلٌ لمْ يَعمَلْ خَيرًا قَطُّ: فإذا ماتَ فحَرِّقوه، واذرُوا نِصْفَه في البَرِّ، ونِصْفَه في البَحرِ؛ فواللهِ لئِنْ قَدَرَ اللهُ عليه لَيُعذِّبَنَّه عَذابًا لا يُعذِّبُه أَحدًا مِنَ العالَمينَ. فأمَرَ اللهُ البَحرَ فجَمَع ما فيه، وأَمَرَ البَرَّ فجَمَع ما فيه، ثمَّ قال: لِمَ فَعَلْتَ؟ قال: مِن خَشْيتِكَ وأنتَ أَعلَمُ، فغَفَرَ له))(١).



اللهُ سُبحانَه وتعالَى هو وحْدَه الذي يُحْيي ويُميتُ، وهذا مِن خَصائِصِ رُبوبيَّتِه، وكمالِ قُدرتِه، ودَلائلِ عَظمتِه، وتُؤكِّدُ **هذه الآيةُ الكريمةُ** أنَّ اللهَ وَحدَه هو المتصَرِّفُ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٦).



بإحياءِ الخَلْقِ وإماتتِهم؛ فلا يَتعذَّرُ عليه إحياءُ أحَدٍ ولا إماتَتُه إذا أرادَ ذلِك سُبحانَه.

وفي هذا الحديثِ المذكورِ يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ رَجُلًا مِن بَني إسرائيلَ لم يَعمَلْ خيرًا قطُّ، وليس المرادُ نَفْيَ كلِّ خيرٍ على العُمومِ، بلِ المرادُ نَفْيُ ما عَدَا التَّوحيدِ؛ ولذلك غُفِرَ له؛ فاللهُ تعالى لا يَغفِرُ للَّذين يَموتونَ على الشِّركِ، فأَوْصَى هذا الرَّجُلُ أهلَه -كما في صَحيحِ مُسلمٍ-[1] أنَّه إذا ماتَ فلْيُحرِّقوا جسَدَه حتى يَصيرَ رَمادًا، ثم يَنثُروا هذا الرَّمادَ مع الرِّيحِ، ويَجْعَلوا جُزءًا منه على اليابسةِ، وجزءًا منه في البحرِ، ثُمَّ بيَّنَ سبَبَ وصيَّتِه تِلك، والحامِلَ له عليها، وهو خوفُه الشديدُ مِن عذابِ اللهِ تعالَى؛ فكان يخشَى أنَّه إذا رجَعَ إلى اللهِ أنْ يُعذِّبَه بما فعَلَ، وقدْ جعَلَ الخَوفُ هذا الرَّجلَ يَفقِدُ رُشدَه ويَظنُّ أنَّ اللهَ تعالَى غيرُ قادرٍ على جَمْعِه مرَّةً أُخرَى! فأمَرَ اللهُ البَحرَ فجَمَع ما فيه مِن رَمادِ جُثَّتِه، وأَمَرَ البَرَّ فجَمَع ما فيه منه، فإذا هو رجُلٌ قائِمٌ مرَّةً أُخرَى بقُدرتِه سُبحانَه وتعالَى، فَسألَه عَنِ الَّذي حمَلَه على فِعلِ ذلك، فقال الرَّجلُ: «مِن خَشيتِك وأنتَ أعلمُ»، والخَشيةُ هي: الخَوفُ والتعظيمُ والإجلالُ، فَتدارَكَتْه رَحمةُ ربِّه عندَ قولِه ذلِكَ، فغَفَرَ اللهُ له. وفي هذا بَيانٌ لعَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، وأنَّه سُبحانَه المُحْيِي، كما أنَّه المُميتُ سُبحانَه وتعالَى.

تفَرُّده بالرِّزقِ وتحديدِ الآجالِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٦).

شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠].

وعَن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وكَّلَ بالرَّحِمِ مَلَكًا، يقولُ: يا ربِّ نُطْفَةٌ، يا ربِّ عَلَقَةٌ، يا ربِّ مُضْغَةٌ، فإذا أرادَ أنْ يَقْضيَ خَلْقَهُ قالَ: أذكَرٌ أمْ أُنثى؟ شَقِيٌّ أمْ سَعيدٌ؟ فما الرِّزْقُ والأجَلُ؟ فيُكْتَبُ في بَطْنِ أُمِّهِ))(١).



كلُّ شَيءٍ خلَقَه اللهُ فهو مُقدَّرٌ وكائنٌ كما أرادَه سُبحانَه وتعالَى؛ فما مِن شَيءٍ يَجري في مَلَكوتِه إلَّا بقدَرِه وعِلمِه سُبحانَه وتعالَى، ومِن ذلك أجَلُ الإنسانِ في الدُّنيا ورِزقُه فيها؛ ففي **الآيةِ الأولَى** يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّه أوجَدَ أصْلَ الناسِ، وأنْشَأَ مادَّتَهم مِن طِينٍ بخَلْقِ أبيهم آدَمَ عليه السَّلامُ، وضرَبَ لِمُدَّةِ إقامتِهم في هذه الدَّارِ أجَلًا يُبتَلَوْن فيه، ثم يُعيدُهم تُرابًا كما كانوا، وضَرَب لهذه الدُّنيا وقتًا تَزولُ فيه لا يَعلَمُه إلَّا هو، فيُبعَثونَ أحياءً، ويَنتَقِلون إلى الدَّارِ الآخِرةِ؛ ليُجازِيَهم بأعمالِهم مِن خيرٍ وشرٍّ.

وفي **الآيةِ الثَّانيةِ** يُبيِّنُ سبحانَه أنَّه ما مِن دابَّةٍ تَدِبُّ على الأرضِ؛ مِن آدميٍّ، أو حيوانٍ برِّيٍّ أو بحْريٍّ، أو طائرٍ أو زاحفٍ، أو كبيرٍ أو صغيرٍ -إلَّا وقد تكفَّلَ اللهُ بقُوتِها وغِذائِها، وهو أمرٌ مثبَتٌ في اللَّوحِ المحفوظِ الذي كَتَب اللهُ تعالى فيه جميعَ ما قدَّره اللهُ تعالى لخَلْقِه.

وتُبيِّنُ **الآيةُ الثالثةُ** أنَّ اللهَ وَحْدَه هو الذي خَلَق النَّاسَ مِنَ العَدَمِ، ورَزَقهم وهم لا يَملِكونَ شَيئًا، ثمَّ يُميتُهم، ثمَّ يُحييهم للبَعثِ يومَ القيامةِ، وما مِن أحدٍ يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن ذلك سِوى اللهِ تعالَى وَحْدَه.

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (٣١٨)، ومسلمٌ (٢٦٤٦).



وفي حديثِ أنسٍ رضي اللهُ عنه يُبيِّنُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ «أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وكَّل بالرَّحِمِ مَلَكًا»، أي: جَعَل التصرُّفَ إليه حسَبَ الأمرِ الإلهيِّ، فيَقولُ الملَكُ: «يا رَبِّ نُطْفَةٌ» أي: وقَعت في الرَّحِمِ نطْفةٌ، ثمَّ يقولُ: «يا ربِّ عَلَقَةٌ»، وهي: قطعةُ دَمٍ غَليظٍ جامِدٍ، ثمَّ يقولُ: «يا ربِّ مُضْغَةٌ»، وهي: قطعةُ لحمٍ بقَدْرِ ما يَمضُغُه الماضِغُ، والمرادُ أنَّه يقولُ كلَّ كلمةٍ مِن ذلك في الوَقتِ الذي يصيرُ فيه كذلك، لا أنَّه يقولُها في وقتٍ واحدٍ. فإذا أراد اللهُ أن يُتِمَّ خَلقَ ما في الرَّحِمِ مِن النُّطفةِ التي صارت عَلَقةً ثمَّ مُضغةً، أو يأذَنَ في إتمامِه «قال» الملَكُ «أذكرٌ هو أم أُنثى؟ شَقِيٌّ أمْ سَعيدٌ؟ فما الرِّزْقُ وما الأجَلُ؟» أي: مُدَّةُ حياتِه، أو وقتُ موتِه، فيُكتَبُ كلُّ ذلك وهو في بطنِ أمِّه، والمُرادُ بجميعِ ما ذُكِرَ مِنَ الرِّزقِ، والأجَلِ، والشَّقاوةِ، والسَّعادةِ، والذُّكورَةِ، والأُنوثَةِ: أنَّه يُظهِرُ ذلك للمَلَكِ المُوكَّلِ بذلِك، ويُؤمَرُ بإنفاذِه وكِتابتِه.

تفَرُّده بتَدبيرِ الكَونِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: نُهينا أنْ نَسألَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن شيءٍ، فكان يُعجِبُنا أنْ يَجيءَ الرَّجلُ مِن أهلِ الباديةِ العاقِلُ، فيَسْألَه ونحن نَسمَعُ، فجاءَ رجُلٌ مِن أهلِ الباديةِ، فقال: يا مُحمَّدُ، أتانا رَسولُك فزَعَم لنا أنَّك تَزعُمُ أنَّ اللهَ أرْسَلَك! قال: ((صَدَق، قال: فمَن خلَقَ السَّماءَ؟ قال: اللهُ. قال: فمَن خلَقَ الأرضَ؟ قال: اللهُ. قال: فمَن نصَبَ هذه الجِبالَ، وجعَلَ فيها ما جعَلَ؟ قال: اللهُ. قال: فبالذي خلَقَ السماءَ، وخلَقَ الأرضَ، ونصَب هذه الجبالَ؛ آللهُ أرسَلَك؟ قال:

نعمْ...)) الحديثَ[1].

اللهُ عزَّ وجَلَّ هو وَحْدَه مَن يُدَبِّرُ أمْرَ هذا الكونِ؛ يَأمُرُ ويَنهَى، ويَخلُقُ ويَرزُقُ، ويُميتُ ويُحيي، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُعْطي ويَمْنَعُ، ويُقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ، ويُداوِلُ الأيَّامَ بينَ النَّاسِ، فما شاءَ كان كما شاءَ، في الوَقتِ الذي يَشاءُ، على الوَجهِ الذي يَشاءُ، مِن غَيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، ولا تقَدُّمٍ ولا تَأخُّرٍ، وما لم يَشَأْ لم يكُنْ.

وفي الآيةِ الأُولى يَأمُرُ اللهُ تعالَى نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بسُؤالِ المشركينَ عمَّن يَرزُقُهم مِن السَّماءِ، ومَن يَرزُقُهم مِن الأرضِ، وعمَّن يَملِكُ سَمْعَهم وأبصارَهم، ولو شاءَ لسَلَبَهم إيَّاها، وعمَّنْ يُخرِجُ الشَّيءَ الحَيَّ مِن الشَّيءِ الميِّتِ بقُدرتِه العَظيمةِ، فيُخرِجُ الزَّرعَ مِن الحَبَّةِ، والحَبَّةَ مِنَ الزَّرعِ، والنَّخلةَ مِن النَّواةِ، والنَّواةَ مِن النَّخلةِ، والدَّجاجةَ مِن البَيضةِ، والبَيضةَ مِن الدَّجاجةِ، والمؤمنَ مِن الكافِرِ، والكافِرَ مِن المؤمِنِ... إلى غيرِ ذلك، ومَنْ يُدَبِّرُ ويُقدِّرُ أمْرَ جَميعِ الخلائِقِ، ويَتصَرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ بما يَشاءُ، ويُخبِرُ سُبحانَه أنَّ المُشرِكينَ لا يُمكِنُهم إلَّا أنْ يقولوا: اللهُ وَحدَه هو مَن يَفعَلُ جميعَ ذلك؛ فلِمَ لا يتَّقونَ اللهَ، ويَخافونَ عِقابَه -إذنْ- ما دامَ أنَّهم مُقِرُّونَ بأنَّه خالِقُهم ورازِقُهم، ومُدبِّرُ أُمورِهم؟!

وفي هذا الحَديثِ المذكورِ يُخبِرُ أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عنهم كانوا قدْ نُهوا أنْ يَسألوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكان صلَّى الله عليه وسلَّم قدْ نهاهم عنْ كَثرةِ السؤالِ، وبيَّنَ لهم أنَّ ذلك كان من أسبابِ هَلاكِ الأُممِ السابقةِ، فكان الصحابةُ رَضِيَ الله عنهم يُحبُّونَ أنْ يأتيَ الرجُلُ العاقِلُ مِن الأعرابِ الذين يَسكُنونَ الصَّحراءَ، ممَّن لم يَبْلُغْه النهيُ عن السُّؤالِ، فيَسألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه

(١) أخرجه من طرق البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢) واللفظ له.



وسلَّمَ وهم يَسمَعونَ؛ حِرصًا منهم على التعَلُّمِ والاستفادةِ، ويَذكُرُ الرَّاوي أنَّ رَجُلًا -وهو ضِمامُ بنُ ثَعلبةَ، كما جاءَ في رِواياتٍ أُخرَى- جاء إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فجَعَلَ يَسْأَلُه عن الذي خلَقَ السَّماءَ والأرضَ والجِبالَ، ومُقتضَى خَلْقِه وحِفظِه لها تَدبيرُ أُمورِ كُلِّ ما يُوجَدُ فيها مِن جميعِ المخلوقاتِ، فأجابَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الرجُلَ في كُلِّ ذلِك قائلًا: «اللهُ»، أي: اللهُ سُبحانَه هو الإلهُ العظيمُ الخالِقُ لها.

فلمَّا تأكَّدَ للرجُلِ صِدقُ الإجابةِ مِن النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سَألَه عن صِدقِ رِسالتِه، وصِدقِ شَريعتِه، وهلْ هو مُرسَلٌ مِن عِندَ اللهِ تعالَى، فأجابَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقَولِه: نعمْ؛ وذلك أنَّ هذا الرجُلَ وغيرَه مِن الناسِ مُسلِمِهم وكافرِهم -إلَّا مَن شذَّ مِن الملاحِدةِ ومُنكرِي الخالِقِ جلَّ وعلَا- مُجمِعونَ على أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى هو الخالِقُ البارئُ الذي بيدِه تَدبيرُ الكونِ كلِّه بمَا فيه، وما مِن صَغيرةٍ ولا كبيرةٍ في هذا الكونِ إلَّا وهي مِن خلْقِه، وأنَّ ما يَجري فيهِ إنَّما بإرادةِ اللهِ وتَدبيرِه، وبعِلمٍ منه تعالَى وحِكمةٍ، لا يُشارِكهُ في ذلكَ غَيرُه، ما شاءَ كانَ، وما لم يَشأْ لم يكُنْ، ولكنَّ الكثيرَ منهم يُنازِعُ في استحقاقِ اللهِ تعالَى للعِبادةِ دُونَ مَن سِواه، ويُنازِعُ في صِدقِ رَسالةِ نبيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّها للناسِ كافَّةً.



الإيمانُ بأُلوهيةِ اللهِ وَحْدَه
(توحيدُ الأُلوهيةِ)

أهمِّيَّةُ تَوحيدِ الأُلوهيَّةِ وفَضْلُه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وعَن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشْهَدوا أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا منِّي دِماءَهُم وأمْوالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ، وحِسابُهُم على اللهِ))(١).

وعن مُعاذِ بنِ جبَلٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: كُنتُ رِدْفَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على حِمارٍ يُقالُ له: عُفَيْرٌ، فقال: ((يا مُعاذُ، هلْ تَدري حَقَّ اللهِ على عِبادِه، وما حَقُّ العِبادِ على اللهِ؟ قُلتُ: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: فإنَّ حقَّ اللهِ على العِبادِ أن يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شَيئًا، وحقَّ العِبادِ على اللهِ ألَّا يُعذِّبَ مَن لا يُشرِكُ به شَيئًا...))(٢).

وعن عِتْبانَ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ قدْ حَرَّمَ على النَّارِ مَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يَبتَغي بذلك وجْهَ اللهِ))(٣).



(١) أخرجه البُخاريُّ (٢٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).



تَوحيدُ الأُلوهِيَّةِ هو إفرادُ اللهِ سُبحانَه وتعالَى بالعِبادةِ، وهو أساسُ الدِّينِ كلِّه؛ وهو الذي ضَلَّ فيه المُشرِكونَ، وقد بعَثَ اللهُ تعالَى في كلِّ أمَّةٍ مِن النَّاسِ رَسولًا يَأمُرُهم بعبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ مَن دونَه؛ **ففي الآيةِ الكريمةِ دَلالةٌ** على إجماعِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ على الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، وأنَّه أعظمُ ما دَعَوْا إليه مِن أوَّلِهم، وهو نوحٌ عليه الصلاةُ والسَّلامُ، إلى آخِرِهم، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ولذلك لَمَّا بَعَثَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ إلى أهْلِ اليَمَنِ قالَ له: ((إنَّكَ تَقْدَمُ علَى قَوْمٍ مِن أهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إلى أنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى ...))[1].

وفي حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ تعالَى قدْ أمرَه بقتالِ الكفَّارِ جميعًا حتى يَشْهَدوا للهِ سُبحانَه وتعالَى بالوَحدانيَّةِ، ولمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالرِّسالةِ، ويُقيموا الصَّلاةَ المكتوبةَ بالمداومةِ عليها والإتيانِ بشروطِها وأركانِها وواجباتِها، ويُؤتُوا الزَّكاةَ المفروضةَ بأن يُعطوها لمستحقِّيها. وإنَّما خصَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ بالذِّكرِ؛ لأنَّهما أُمُّ العِباداتِ البدَنيَّةِ والماليَّةِ وأساسُهما، والعنوانُ لغَيرِهما، فإذا فعَلوا هذه الأمورَ فقَدْ عُصِمَتْ دِماؤُهم وأموالُهم بعِصْمةِ الإسلامِ، ثُمَّ قالَ: «إلَّا بحقِّ الإسلامِ»، وهذا استثناءٌ مِنَ العِصمةِ، فإنَّ الإسلامَ يعصِمُ دِماءَهم وأموالَهم، فلا يحِلُّ قتْلُهم إلَّا إذا ارتكَبوا جريمةً أو جنايةً يَستَحِقُّونَ عليها القَتلَ بموجِبِ أحكامِ الإسلامِ، فيُقتَلُ القاتِلُ قِصاصًا، ويُقتَلُ المُرتَدُّ والزَّاني المُحصَنُ حدًّا، كما قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا يَحِلُّ دَمُّ امرئٍ مُسلِمٍ يَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رَسولُ الله إلَّا بإحدى ثلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّاني، والنَّفْسُ بالنَّفْسِ، والتَّارِكُ لدينِه المفارِقُ للجماعةِ))[2]، ثُمَّ اللهُ تعالَى يتَولَّى حِسابَهم، فيُثيبُ المُخلِصَ، ويُعاقِبُ المُنافِقَ، وليس لنا إلَّا الظَّاهِرُ.

---

(١) أخرجه مطوَّلاً البخاري (٧٣٧٢) واللفظ له، ومسلمٌ (١٩) من حديث عبدِالله بن عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) واللَّفظُ له، من حديثِ عَبدِالله بن مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه.



وفي حديثِ مُعاذِ بنِ جبَلٍ رضيَ اللهُ عنه يُخبِرُ أنَّه كان راكبًا خلْفَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على حِمارٍ، وهذا مِن تَواضُعِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ إردافَ الإمامِ والشَّريفِ لمَن هو دُونَه ورُكوبَه معه، مِنَ التَّواضُعِ وتَرْكِ التَّكبُّرِ، وهذا الحِمارُ «يُقالُ له: عُفَيْرٌ» تَصغيرُ أَعْفرَ، وهو الَّذي لَونُه لونُ التُّرابِ، فنادَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُعاذًا؛ لِتَنبيهِهِ إلى أهمِّيَّةِ ما سيُلْقَى عليه، وأنَّه أمرٌ عظيمٌ، قال: «هل تَدْري حقَّ اللهِ على عِبادِه؟»، أي: هلْ تَعلَمُ ما يَجِبُ للهِ على عِبادِه، وما يَستحِقُّه منهم، «وما حقُّ العِبادِ على اللهِ؟» وأيُّ شيءٍ حَقيقٌ وجديرٌ ولائقٌ أن يَفعَلَ اللهُ تعالى بعِبادِه إنْ هُم أدَّوْا حقَّه؟ فقال مُعاذٌ: «اللهُ ورسولُه أعلَمُ»، وهذا مِن حُسنِ الأدبِ، وعدَمِ التَّقدُّمِ على اللهِ ورسولِه.

ثُمَّ بيَّنَ له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ «حقَّ اللهِ على العِبادِ: أن يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شَيئًا»، والمُرادُ بالعِبادةِ: عمَلُ الطَّاعاتِ، واجتِنابُ المعاصِي، وهي اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُحبُّه اللهُ ويَرضاهُ مِن الأقوالِ والأفعالِ. وعطَفَ على العِبادةِ عدَمَ الشِّركِ بِه سُبحانَه؛ لأنَّه تَمامُ التَّوحيدِ. وقيل: الحِكمةُ في ذلِك: أنَّ بعضَ الكفَرةِ كانوا يَدَّعون أنَّهم يَعبُدون اللهَ، ولَكِنَّهم كانوا يَعبُدون معه آلهةً أُخرَى، فاشتُرِطَ نَفْيُ ذلك، وأنْ تكونَ عِبادتُهم للهِ وحْدَه؛ لأنَّه تعالى هو الخالِقُ الرَّزَّاقُ، النَّافعُ، الدَّافعُ عن عِبادِه الآفاتِ والمُؤذِياتِ، فإذا كان كذلك وجَبَ عليهم أنْ يُوَحِّدوه ويُخْلِصوا له الطَّاعةَ دون مَن سِواه؛ فهذا هو حقُّ اللهِ تعالى على عِبادِه.

وأمَّا حَقُّ العِبادِ على اللهِ تعالَى؛ فهو «ألَّا يُعذِّبَ مَن لا يُشرِكُ به شَيئًا»، ويَستلزِمُ ذلك حُصولَ ما وعَدَهم به مِنَ الثَّوابِ والجَزاءِ، وهذا بشَرْطِ الإتيانِ بأَوامِرِه، والانتِهاءِ عن مَناهِيه؛ فإنَّ كلَّ ذلك مِن عِبادتِه، وقدْ حَقَّ ذلك الجَزاءُ ووجَبَ بحُكمِ وعْدِ اللهِ الصِّدقِ، وقَولِه الحقِّ الَّذي لا يَجوزُ عليه الكذِبُ في الخبرِ، ولا الخُلفُ في الوَعدِ؛ فاللهُ سُبحانَه وتعالَى لا يَجِبُ عليه شَيءٌ بحُكمِ الأمْرِ؛ إذ لا آمِرَ فَوْقَه سبحانه.

وفي حديثِ عِتْبانَ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه، يُخبِرُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ تعالَى قد منَعَ بفَضلِه مِن دُخولِ النَّارِ كلَّ «مَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يَبتَغي بذلك وجْهَ اللهِ»، أي: مَن قال كَلِمةَ التَّوحيدِ مُخْلِصًا للهِ، من غَير شرْكٍ به ولا رِياءٍ، ولم يأتِ بناقضٍ من نواقِضِها، وشَهِد معها أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ؛ فقد وجبَتْ له الجَنةُ؛ فإنَّ مِن قالَها يَبْتغي بها وجْهَ اللهِ فلا بُد أنْ يَعمَلَ بما دلَّت عليه مِن الإخلاصِ ونفْيِ الشِّركِ.

عِبادةُ اللهِ وَحْدَه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦].

وعَن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يَا مُعَاذُ، أَتَدْري ما حقُّ اللهِ على العِبادِ؟ قالَ: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، قالَ: أَنْ يَعْبُدوهُ ولا يُشْرِكوا به شَيئًا، أَتَدْري ما حقُّهم عليه؟ قالَ: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، قالَ: أَلَّا يُعَذِّبَهم))[1].



العِبادةُ هي اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ ما يحِبُّه اللهُ ويَرضاه مِن الأقوالِ والأعمالِ الباطِنةِ والظَّاهِرةِ؛ فالصَّلاةُ والزَّكاةُ، والصِّيامُ والحَجُّ، والجِهادُ، والدُّعاءُ والذِّكرُ، وقِراءةُ القُرآنِ، وصِدقُ الحديثِ، وأداءُ الأمانةِ، وبِرُّ الوالِدَينِ، وصِلةُ الأرحامِ، والوَفاءُ بالعُهودِ؛ كلُّ ذلِك وغيرُه ممَّا يُحبُّه اللهُ ويَرضاهُ مِن العبادةِ التي أمَرَ اللهُ بها كلِّها.

وقد أمَرَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ بعبادتِه، ولَمَّا كان الإنسانُ قد يَعبُدُ اللهَ تعالى ويعبُدُ معه غيرَه، نهَى تعالَى عن الإشراكِ به، فقال: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ﴾؛ فالمطلوبُ هو إفرادُ اللهِ تعالى بالعِبادةِ لا مجَرَّدُ عبادتِه.

وقد بَيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك عندما سألَ مُعاذَ بنَ جبلٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ لِيَلْفِتَ

(١) أخرجه البُخاريُّ (٧٣٧٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٣٠).

انتباهَهُ لعظيمِ ما سيقولُه، فقالَ: «يا مُعاذُ، أتَدْري ما حقُّ اللهِ على العِبادِ؟» قالَ مُعاذٌ: «اللهُ ورسولُهُ أعلمُ»، وهذا الرَّدُّ مِن حُسْنِ تأدُّبِ الصَّحابةِ معَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما كانوا ليَتَقدَّموا بالقَوْلِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأَخْبَر النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ حقَّ اللهِ على العِبادِ أنْ يَعْبُدوه وحْدَه، ويُفرِدوه بالطَّاعاتِ، ويَشْهَدوا له بالوَحدانيَّةِ، ولا يُشْرِكوا معه إلهًا غيرَه في تلك الطَّاعةِ؛ فإنْ فَعَلوا ذلك كانَ حقًّا على اللهِ ألَّا يُعذِّبَهم؛ لأنَّ نَفيَ الشِّركِ يدُلُّ على التَّوحيدِ والإخلاصِ.

الاستِعاذةُ باللهِ وَحْدَه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق: ١-٢].

وعَن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ يُعَلِّمُهم هذا الدُّعاءَ كما يُعَلِّمُهم السُّورةَ مِنَ القُرآنِ، يقولُ: ((قولوا: اللَّهُمَّ إنَّا نَعوذُ بكَ مِن عَذابِ جَهنَّمَ، ونَعوذُ بكَ مِن عَذابِ القَبرِ، ونَعوذُ بكَ مِن فِتنةِ المسيحِ الدَّجَّالِ، ونَعوذُ بكَ مِن فِتنةِ المَحْيا والمَماتِ))[1].



معنَى الاستِعاذَةِ أوِ التَّعوُّذِ باللهِ تعالَى: الالتِجاءُ إلى اللهِ، والاعتِصامُ والتَّحصُّنُ والاحتِماءُ به سُبحانَه مِن كلِّ الشُّرورِ والأضرارِ التي يُمكِنُ أنْ تُصيبَ الإنسانَ، ولا يَسْتَغْني المُسلمُ في كلِّ أحوالِه عنِ الاستعاذةِ بربِّه وخالقِه، ومِن ذلك الاستعاذةُ باللهِ

(١) أخرجه مسلمٌ (٥٩٠).



تعالَى من الشَّيطانِ إذا أصابَ العَبدَ بوَسْوَسةٍ منه، أو أرادَ حمْلَه على الغَضَبِ والانتقامِ، **كما أرشَدَت الآيةُ الأُولى.**

وفي الآيةِ الثَّانيةِ تَوجيهٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولأُمَّتِه بالتَّبعِ بالاستعاذةِ مِن وَساوسِ الشَّياطينِ التي يَدْفَعونَ بها إلى القُلوبِ؛ للحَضِّ على الوُقوعِ في السَّيِّئاتِ، وتَركِ عَمَلِ الحَسَناتِ، والاستعاذةِ باللهِ تَعالى من حُضورِهم؛ كي لا يُصابَ أحدٌ منهم بشَرٍّ وأذًى.

وفي الآيةِ الثَّالِثةِ حَثٌّ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ولأُمَّتِه كذلك بالتَّبعِ علَى الاستِعاذةِ بالله تعالَى مِن شُرورِ جَميعِ الخَلْقِ، إلى غيرِ ذلك ممَّا أُمِرَ بالاستِعاذةِ منه في هذه السُّورةِ.

وفي حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما بَيانٌ لحِرصِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَعليمِ أصحابِهِ وأُمَّتِه الدُّعاءَ بالاستِعاذَةِ مِن بعضِ الشُّرورِ التي قدْ تُصيبُ المسلمَ؛ ليَعصِمَهم اللهُ منها، حتى إنَّه كانَ يُعَلِّمُهم إيَّاه «كما يُعَلِّمُهم السورةَ مِنَ القرآنِ»؛ لأهمِّيَّةِ ذلك. وأوَّلُ ما يَنْبَغي الاستِعاذَةُ منه: الاستِعاذَةُ مِن عَذابِ جَهنَّمَ، وجَهنَّمُ: هي النَّارُ التي أعدَّها اللهُ تعالى عِقابًا لمَن خالَفَ أمْرَهُ وعصاهُ -أعاذَنا اللهُ منها بفَضلِه ورحمتِه-، ومِن صِفاتِ المؤمنين أصحابِ العُقولِ الصَّحيحةِ، والقُلوبِ السَّليمةِ: أنَّهم يَسْتَعيذونَ منها دَوْمًا؛ قالَ اللهُ تعالى عنهم: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ومَن سَلِمَ مِنَ النَّارِ، وزُحزِحَ عنها؛ فإنَّه يَدخُلُ الجنَّةَ، وذلك هو الفوزُ العظيمُ.

ثُمَّ الاستِعاذَةُ مِن عَذابِ القَبرِ؛ لأنَّه أوَّلُ مَنزِلٍ مِن منازِلِ الآخرةِ، وإذا سَلِمَ صاحبُهُ منه سلَّمَه اللهُ مِن عذابِ جَهنَّمَ في الآخِرةِ، وأيضًا الاستِعاذَةُ مِنَ المسيحِ الدَّجَّالِ، وهو أعظمُ الفِتَنِ وأخطَرُها في الدُّنيا؛ ولذلك حذَّرتِ الأنبياءُ جميعًا أُمَمَها مِن شرِّه وفِتنتِه؛ ولذلك كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستعِيذُ مِن فِتنتِه في كلِّ صلاةٍ، وبيَّنَ أنَّ

فِتنتَه أعظَمُ الفِتَنِ مُنذُ خَلَقَ اللهُ آدَمَ عليه السَّلامُ إلى قِيامِ السَّاعةِ. وسُمِّيَ مَسِيحًا؛ لأنَّه مَمْسوحُ العَيْنِ مَطْموسُها، فهو أَعْوَرُ، وسُمِّي الدَّجَّالَ؛ تَمْييزًا له عن المَسِيحِ عيسى ابنِ مريمَ عليه السَّلامُ، والدَّجَّالُ مِنَ التَّدْجِيلِ بمعنى التَّغطيةِ؛ لأنَّه كذَّابٌ يُغَطِّي الحقَّ ويَسترُه، ويُظهِرُ الباطلَ، وسيأْتي مَزيدُ تَفصيلِ فِتنتِه في علاماتِ السَّاعةِ الكُبْرى[1].

ثُمَّ استعاذَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من فِتنةِ المَحْيا والمَماتِ، والفِتنَةُ: هي الامتِحانُ والاختِبارُ، وفِتنةُ المحْيَا: هي ما يَفتَتِنُ به الإنسانُ في حياتِه مِن شُبُهاتٍ وجَهالاتٍ أو شَهَواتٍ، وفِتَنةُ المماتِ: كفِتنةِ الإنسانِ في دِينِه عِندَ المَوتِ، أو فِتنتِه في القَبرِ.

الاستِعانةُ باللهِ وَحْدَه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤].

وعَن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: كنتُ خَلْفَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومًا، قالَ: ((يا غُلامُ، إني أُعلِّمُك كَلِماتٍ: احفَظِ اللهَ يَحفَظْكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك، إذا سَأَلْتَ فاسأَلِ اللهَ، وإذا استعَنْتَ فاستعِنْ باللهِ، واعلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ على أنْ يَنْفَعوك بشَيءٍ لم يَنْفَعوك إلَّا بشَيءٍ قد كتَبَه اللهُ لك، وإنِ اجْتَمَعوا على أنْ يَضُرُّوكَ بشَيءٍ لم يضُرُّوك إلَّا بشَيءٍ قد كتَبَه اللهُ عليك، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ))[2].



العَبدُ عاجزٌ عَن الاستِقلالِ بجَلْبِ مَصالحِه ودَفعِ مَضارِّه، ولا مُعِينَ له على

(١) في (فِتنَة الدَّجَّالِ) (ص: ١٣٠).

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٥١٦) واللَّفظ له، وأحمدُ (٢٦٦٩).

صحَّحه التِّرمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سُننِ التِّرمذيِّ)) (٢٥١٦)، وصحَّحه لغيره الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (٦٩٩)، وصحَّحَ إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣)، وقوَّاه شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٦٦٩).



مَصالحِ دِينِه ودُنياهُ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فمَن أعانَهُ اللهُ فهو المُعانُ، ومَن خذَلَهُ اللهُ فهو المَخْذولُ، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** يُرشِدُ اللهُ تعالَى عِبادَه إلى أنْ يَقولوا: إيَّاك نَعبُدُ وإيَّاكَ نَستعينُ، أي: لا نَعبُدُ إلَّا أنتَ، مُتذلِّلين لكَ وحْدَك لا شَريكَ لك، ولا نَستعينُ إلَّا بك وحْدَك لا شَريكَ لك.

فقَولُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تبرُّؤٌ مِن الشِّركِ، وقَولُه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تبرُّؤٌ من الحَولِ والقُوَّةِ، وتَفويضٌ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ. ففي الآيةِ تَربيةُ المُسلمِ على اللُّجوءِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ. وفي تَقديمِ المفعولِ به في قَولِه: (إِيَّاكَ) على الفِعلِ (نعبدُ، ونَستعينُ) إفادةُ القَصرِ والاختِصاصِ، أي: لا نَعبُدُ غَيرَك، ولا نَستعينُ بسِواك.

وفي الحديثِ المذكورِ يُعَلِّمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما بعضَ قواعدِ الدِّينِ التي يَجِبُ على كلِّ مُسلمٍ العَمَلُ بها، وكانَ ابنُ عبَّاسٍ حينئذٍ صغيرًا، فأمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحِفْظِ اللهِ، والمرادُ بحفْظِ اللهِ: حِفظُ دِينِه بالاستجابةِ له في أوامرِه ونَواهيهِ؛ بحيثُ يَجِدُك قائمًا على الطَّاعاتِ والقُرُباتِ، مُبتَعِدًا عن المعاصي والآثامِ، فيكونُ جَزاؤُك أنَّ اللهَ «يَحْفَظُك»، فيَصونُك عن الشُّرورِ والمُوبِقاتِ، ويَحفَظُك في نفْسِك وأهلِكَ، ومالِك، ودِينِك ودُنياكَ، ثُمَّ أكَّدَ له ذلكَ فقالَ: «احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك»، فتَراهُ مُؤيِّدًا ومُعِينًا ونَصيرًا لك، وإذا أردْتَ أنْ تَطلُبَ شَيئًا فلا تَطلُبْ إلَّا مِنَ اللهِ؛ لأنَّه أكرَمُ مَسؤولٍ.

«وإذا استعَنْتَ فاستعِنْ باللهِ»، والاستعانةُ: هي الاعتمادُ على اللهِ تعالَى في جلْبِ المنافعِ ودفْعِ المَضارِّ، مع الثِّقةِ به في تَحصيلِ ذلك؛ فإنَّه لنْ يكونَ إلَّا ما قدَّرَه اللهُ للإنسانِ، فلوِ اجتَمَعَ على مَنفعتِك أو ضُرِّك أهلُ الأرضِ جميعًا فلنْ يُصيبَك إلَّا ما أرادَهُ اللهُ، والسَّببُ في هذا أنَّه قد رُفِعَ القلَمُ، فكُتِبَت مَقاديرُ الخلائقِ جميعًا؛ فلا زِيادةَ ولا نُقصانَ، وقد جفَّتِ الصُّحفُ بما كتَبَتْه الأقلامُ فيها مِن مَقاديرِ الخلائقِ، فلا تَبديلَ



ولا تَغييرَ؛ فكلُّ شَيءٍ قد كُتِبَ في اللَّوحِ المحفوظِ. وفي هذا تَوجيهٌ نبَويٌّ إلى تعاهُدِ الصِّغارِ بالتَّوجيهِ والتَّعليمِ والنُّصحِ.

الذَّبحُ للهِ وَحْدَه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وعَن أبي الطُّفَيْلِ، قالَ: سُئِلَ عَلِيٌّ: أخَصَّكُمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشَيءٍ؟ فقالَ: ما خَصَّنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشَيءٍ لم يَعُمَّ به النَّاسَ كافَّةً، إلَّا ما كانَ في قِرَابِ سَيْفي هذا، قالَ: فأخْرَجَ صَحيفةً مكتوبٌ فيها: ((لعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لغَيرِ اللهِ))(١).



إنَّ الذَّبحَ على سبيلِ القُربةِ والتعظيمِ عِبادةٌ لا تنبغي لأحدٍ إلا لله، فإذا ذبَحَ الإنسانُ شَيئًا لغَيرِ اللهِ تَعظيمًا له وتقرُّبًا إلَيْه كما يَتقرَّبُ بذلك إلى ربِّه، كانَ مُشرِكًا باللهِ، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** أمَرَ الله تعالى نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُعلِنَ للمُشرِكينَ بأنَّ صَلاتَه وذَبْحَه وحياتَه ووَفاتَه للهِ خالِقِ العالَمينَ ومَالِكِهم ومُدَبِّرِهم؛ فهو وَحْدَه المستحِقُّ لِأَنْ يُفْرَدَ له ذلك، وبذلك الإخلاصِ أَمَرَه ربُّه، وهو عبدٌ مَأمورٌ، عليه امتثالُ أَمْرِه، وهو أوَّلُ المُقِرِّينَ المُذْعِنينَ الخاضِعينَ مِن هذه الأُمَّةِ لرَبِّه سُبحانَه.

وقيل: خَصَّصَ اللهُ سُبحانَه في هذه الآيةِ ذِكرَ الصَّلاةِ والذَّبحِ مِن بينِ سائرِ العباداتِ؛ لشَرَفِ هاتينِ العِبادَتَينِ وفَضْلِهما، ودلالَتِهما على مَحبَّةِ اللهِ تعالى، وإخلاصِ الدِّينِ له، والتَّقَرُّبِ إليه بالقَلْبِ واللِّسانِ والجَوارِحِ، وبَذْلِ ما تُحِبُّه النَّفْسُ مِن المالِ إلى مَن

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٩) بنحوه، ومسلمٌ (١٩٧٨) واللفظ له.



هو أَحَبُّ إليها، وهو اللهُ تعالى، ومَن أَخْلَصَ في صلاتِه ونُسُكِه استَلْزَمَ ذلك إخلاصَه للهِ عزَّ وجَلَّ في سائرِ أعمالِه.

وفي حديثِ أبي الطُّفَيلِ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه -وهو ابنُ عمِّ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومِن آلِ بيتِه- سُئِلَ عمَّا إذا كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد خَصَّ آلَ بيْتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشَيءٍ مِنَ العِلمِ وأسرارِه، وقَواعدِ الدِّينِ وأَحكامِه، والسَّببُ في هذا السُّؤالِ أنَّ الرَّافِضةَ قالوا: إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد خصَّهُ بأسرارٍ لم يُطلِعْ عليها أحدًا مِنَ الأُمَّةِ، وإنَّه كانَ الوَصيَّ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلى غيرِ ذلك مِن الخُرافاتِ التي اخْتَلَقوها وأشاعوها، فنَفى ذلكَ عَليٌّ بقَولِه: «ما خَصَّنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشَيءٍ لم يَعُمَّ به النَّاسَ كافَّةً»؛ لأنَّ ما كانَ يَقولُه للنَّاسِ كُلِّهم هو ما كانَ يَقولُه لنا، ثُمَّ استَثْنَى: «إلَّا ما كانَ في قِرابِ سَيْفي هذا»، وقِرابُ السَّيفِ: هُو جِرابُه الذي يَدخُلُ فيه، وربَّما وَسِعَ لشيءٍ آخَرَ خَفيفِ المَحْمَلِ. ومعنى هذا الاستثناءِ: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حدَّثه بأحاديثَ كما حدَّثَ النَّاسَ، فاحتفَظَ بها عَليٌّ رَضِيَ اللهُ عنه، ثُمَّ أخرَجَ لهم صَحيفةً مِن قِرابِ سَيْفِه مكتوبًا فيها: «لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لغَيرِ اللهِ»، واللَّعنُ مِنَ اللهِ هو الطَّردُ والإبعادُ مِن رَحمتِه؛ فمَن ذَبَحَ شَيئًا قاصدًا التَّقرُّبَ به لغَيرِ اللهِ -كمَن ذَبَحَ للصَّنمِ أو الصَّليبِ، ونحْوِ ذلك- فهو مُشرِكٌ مُستحِقٌّ للعذابِ، ومِن ذلك: الذَّبحُ عندَ قُبورِ الأَولياءِ بقَصْدِ الذَّبحِ لصاحِبِ القَبرِ.

النَّذْرُ للهِ وَحْدَه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وعَن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((مَن نَذَرَ أنْ

يُطيعَ اللهَ فلْيُطِعْهُ، ومَن نَذَرَ أنْ يَعْصيَه فلا يَعْصِه))[1].

مدَحَ اللهُ في كِتابِهِ العزيزِ عِبادَه الأبْرارَ، ووَعَدَهم الأجْرَ والمَثوبةَ، وذكَرَ مِن صِفاتِهم الوفاءَ بالنَّذرِ، **كما في الآيةِ المذكورةِ**.

ولا يَنعَقِدُ النَّذرُ ولا يجِبُ الوَفاءُ به إلَّا إذا كان في طاعةٍ وأمرٍ مُباحٍ مشروعٍ، أمَّا إذا كان في مَعصيةٍ فلا، فمَن نَذَرَ أنْ يُطيعَ اللهَ فألزَمَ نفسَه بأنْ يَفعَلَ أمرًا للهِ، وكان هذا الفِعلُ طاعةً للهِ بنفسِه، كواجِبٍ أو مُستحَبٍّ؛ فيَلزَمُه الوفاءُ به إنْ قَدَرَ عليه، وإنْ كانتْ تلك الطَّاعةُ قبلَ النَّذرِ غَيرَ لازمةٍ، فنَذْرُه لها قدْ أوجَبَها عليه؛ لأنَّه ألْزَمَها نفْسَه للهِ تعالى، وأمَّا إنْ كان ما نَذَر فِعلَه مَعصيةً -كشُربِهِ الخَمرَ، أو سَرِقةٍ لفُلانٍ، أو ذَبْحٍ لغَيرِ اللهِ- فإنَّه مَنْهيٌّ عن الوفاءِ به، **كما في الحديثِ المذكورِ**؛ لأنَّ المعصيةَ تَحرُمُ بكلِّ حالٍ، فالنَّذرُ مِنَ العِباداتِ التي تَستَقِرُّ في ذِمَّةِ النَّاذرِ، ويَنْبَغي عليه الوفاءُ به ما لم يَكُنْ نَذْرَ مَعصيةٍ، وهو مِثْلُ الدُّيونِ، وإنْ كان الحقُّ فيه للهِ تعالَى لا للعِبادِ.

والنَّذْرُ عِبادةٌ وقُربةٌ لا تنبغي لأحَدٍ إلَّا للهِ؛ فمَن نَذَر لمخلوقٍ تقَرُّبًا إليه لِيَشفَعَ له عندَ اللهِ، ويَكشِفَ ضُرَّه؛ ونحوِ ذلك؛ فقد أشرَكَ في عبادةِ اللهِ تعالى غَيرَه.

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (٦٦٩٦).





الإيمانُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه (توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ)

أسماءُ اللهِ عزَّ وجلَّ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((للهِ تِسْعَةٌ وتِسْعونَ اسْمًا؛ مِائَةٌ إلَّا واحِدًا، لا يَحْفَظُها أحَدٌ إلَّا دَخَلَ الجنَّةَ، وهو وَتْرٌ يُحِبُّ الوَتْرَ))(١).



أسماءُ اللهِ الحُسْنى هي أسماءُ مَدْحٍ وحَمْدٍ، وثَناءٍ وتَمْجيدٍ للهِ، وصِفاتُ كمالٍ، ونُعوتُ جلالٍ، يُدْعَى اللهُ بها، وهي تَقْتَضي المَدحَ والثَّناءَ بنفسِها، وهي حُسْنى يُرادُ منها قصرُ كمالِ الحُسنِ في أسماءِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى.

وفي الآيةِ الأُولَى الإرشادُ إلى دُعاءِ اللهِ وَحْدَه بتلك الأسماءِ العَظيمةِ، وترْكِ الذينَ يَميلونَ في أسماءِ اللهِ عن الحقِّ الواجبِ لها، كأنْ يُسَمُّوا بها آلهتَهم، أو يَزيدُوا فيها، أو يَنقُصوا منها، أو يُنكِروا بَعضَها، واللهُ تعالَى سيُجازي أولئك الذين يُلحِدونَ في أسمائِه.

(١) أخرجه البُخاريُّ (٦٤١٠) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٧٧).



وتُرشِدُ الآيةُ الثانيةُ إلى أنَّ للعبدِ الدُّعاءَ بأيِّ اسمٍ مِن أسماءِ اللَّهِ؛ فهو إنَّما يَدْعو اللهَ الواحِدَ سُبحانَه الذي له أحسَنُ الأسماءِ المُتضَمِّنةِ لأفضَلِ الأوصافِ؛ فليس له اسمٌ غَيرُ حَسَنٍ حتى يُنهَى عن دُعائِه به، فيَجِبُ الإيمانُ بهذا الوصفِ (الحُسْنى) الذي أخْبَرَ اللهُ به عَن أسمائِه، وذلك بالاعتِقادِ الجازمِ أنَّ أسماءَ اللهِ هي أحسنُ الأسماءِ وأتمُّها، وأكمَلُها لفْظًا ومعنًى.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُخْبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى له تِسْعَةٌ وتِسْعونَ اسْمًا، ثُمَّ أكَّدَ العدَدَ بقَولِه: «مِائةٌ إلَّا واحدًا، لا يَحْفَظُها أحدٌ إلَّا دَخَلَ الجنَّةَ»، ومعنى حِفْظِها: معرفتُها وحِفظُها بصَدْرِه، ومَعرفةُ معانيها ومُقتَضَياتِها، والعَمَلُ بهذه المُقتَضَياتِ، ومن أسماءِ اللهِ تعالى: (اللهُ، الرَّحمنُ، الرَّحيمُ، الغَفورُ، العَزيزُ، القَديرُ، السَّميعُ، البَصيرُ، البارِئُ...) إلى غيرِ ذلك، ثُمَّ أخْبَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ وَتْرٌ، يعني: وَاحِدًا لا نِدَّ ولا شَبيهَ ولا شَريكَ له، وأنَّه يُحِبُّ الطَّاعاتِ التي جَعَلها وَتْرًا: كالصَّلَواتِ الخَمْسِ، والطَّوافِ سَبْعًا، والسَّعيِ سَبْعًا، وغيرِها.

صِفَةُ الرَّحمنِ

عَن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا على سَرِيَّةٍ، وكانَ يَقْرَأُ لأصحابِه في صلاتِهم فيَخْتِمُ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلمَّا رَجَعوا ذَكَروا ذلك للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالَ: ((سَلوهُ لأيِّ شَيءٍ يَصْنَعُ ذلكَ؟)) فسألوهُ، فقالَ: لأنها صِفَةُ الرَّحمنِ، وأنا أُحِبُّ أنْ أقرَأَ بها، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أخْبِروهُ أنَّ اللهَ يُحِبُّه))[1].

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

للهِ عزَّ وجلَّ الأسماءُ الحُسْنى والصِّفاتُ العُلَا والواجبُ علَى كلِّ مُسلِمٍ أنْ يُؤمِنَ بكلِّ ما وصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ به نفْسَه، أو وصَفَهُ به رسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، على مُرادِ اللهِ عزَّ وجلَّ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومَن أحَبَّ صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتعَلَّقَ بها، وعاشَ بها ولها؛ نالَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ خَيرَ الدُّنيا والآخرةِ.

وفي هذا الحديثِ تُخبِرُ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعَثَ سَرِيَّةً، وأمَّرَ عليها رَجُلًا، قيل: هو قَتادةُ بنُ النُّعمانِ الظَّفَرِيُّ، وقيل: هو كُلْثُومُ ابنُ زَهْدَمٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، فكانَ هذا الرَّجُلُ يَؤُمُّ أصحابَه، وكان يُنْهي قِراءَتَه في كلِّ رَكعةٍ بسورةِ الإخلاصِ، فلمَّا رَجَعوا ذَكَروا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كيف كانَ يَقْرأُ أميرُهم في إمامتِه لهم، فقالَ لهمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: سَلوهُ ما سَببُ قِراءتِه لتلك السُّورةِ بتلك الكيفيَّةِ؟ فسَألوهُ فقالَ لهم الرَّجُلُ: لأنَّ بها ذِكْرَ الرَّحمنِ وما يتَّصِفُ به مِن صِفاتِ الكَمالِ والعَظَمةِ على سائرِ خَلْقِهِ، أو لأنَّه ليس فيها إلَّا صِفاتُ اللهِ سُبحانَه وتعالَى؛ فاختُصَّتْ بذلِك دونَ غيرِها مِنَ السُّوَرِ، وقدِ اشتمَلَتْ على تَوحيدِ اللهِ تعالى وإثباتِ صِفاتِه الواجبةِ له، وعلى نَفْيِ ما يَستحيلُ عليه سُبحانَه، حيثُ نفَى اللهُ فيها عن نَفْسِه أنْ يكونَ والِدًا أو مَولودًا، أو أنْ يكونَ له مَثيلٌ، فاشتَمَلَت على اسْمَيْنِ يَتضمَّنانِ جميعَ أوصافِ الكَمالِ، وهما: الأحَدُ، والصَّمدُ؛ فـ«الأحَدُ» يُشعِرُ بوجودِه الخاصِّ به الذي لا يُشارِكُه فيه غَيرُه؛ فهو المتوحِّدُ بجَلالِه وعظَمتِه، ليس له مَثيلٌ ولا شَريكٌ، و«الصَّمدُ» يتضمَّنُ جميعَ أوصافِ الكمالِ، فمعناه: الذي انْتَهَى سُؤدُدُه بحيثُ يُصمَدُ إلَيْه ويُقصَدُ في الحوائجِ كلِّها، وهو لا يَتِمُّ حقيقةً إلَّا للهِ عزَّ وجلَّ؛ فهو الكامِلُ في صِفاتِه الذي افتَقَرَت إليه جميعُ مخلوقاتِه.

فأخبَرَ هذا الرَّجُلُ أنَّه لأجْلِ هذا يُحِبُّ أنْ يَقرأَ بهذه السُّورةِ في خَتْمةِ كلِّ رَكعةٍ في صَلاتِه، أو يَقرأُ بها في الرَّكعةِ الأخيرةِ بعْدَ الفاتحةِ مِن كُلِّ صَلاةٍ؛ فإنَّ مَنْ أَحَبَّ شيئًا أكثَرَ مِنْ ذِكْرِه، فلمَّا أَخْبَروا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقولِه، قال النبيُّ صلَّى اللهُ

عليه وسلَّمَ: «أخْبروهُ أنَّ اللهَ يُحِبُّه»؛ وذلك جزاءً لمحبَّتِه تلك السُّورةَ، أو جَزاءً لصِحَّةِ اعتقادِه الذي دلَّ عليه كلامُه مِن مَحبَّتِه لذِكرِ صِفاتِ اللهِ تعالى، وهكذا أَقرَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قِراءتَه ولم يَنْهَه عنها، وفي هذا إثباتُ صِفةِ المحبَّةِ للهِ تعالى، وهي مَحبَّةٌ حقيقيَّةٌ تَليقُ بجَلالِه وكَمالِه، وفيه بيانٌ لأهمِّيَّةِ الإيمانِ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه، ومحبَّتِه سُبحانَه، ومحبَّةِ أسمائِه وصِفاتِه.

وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ يَعرِفون ربَّهم بصِفاتِه الواردةِ في القُرآنِ والسُّنَّةِ، ويَصِفونَ ربَّهم بما وَصَفَ به نفسَه، وبما وصَفَه به رسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولا يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَن مَواضِعِه، ولا يُلحِدونَ في أسمائِه وآياتِه، ويُثبِتونَ للهِ ما أثبَتَهُ لنَفسِه مِن غَيرِ تمثيلٍ ولا تكييفٍ، ولا تَعطيلٍ ولا تَحريفٍ، وقاعدتُهم في كلِّ ذلك: قَولُ اللهِ تَبارَك وتعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقولُه:﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٨٠].

ولا يخوضون في كَيفيَّةِ صِفاتِ اللهِ جلَّ وعلا؛ لأنَّه تَبارَك وتعالَى لم يُخْبِرْ عَنِ الكَيفيَّةِ، ولأنَّه لا أحدَ أعلَمُ مِنَ اللهِ سُبحانه بنفسِه؛ قالَ تعالَى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وقال تعالَى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، ولا أحدَ أعلَمُ باللهِ مِن رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ، الذي قالَ اللهُ تَبارَك وتعالَى في حقِّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

عُلوُّ اللهِ تعالى واستِواؤه على العَرشِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وعَن مُعَاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّه أرادَ أنْ يُعتِقَ جاريةً له، فقالَ له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ائْتِني بها، فأتَيْتُهُ بها، فقالَ لها: أينَ اللهُ؟ قالت: في السَّماءِ. قالَ: مَن أنا؟ قالتْ: أنتَ رسولُ اللهِ. قالَ: أعْتِقْها؛ فإنَّها مؤمِنَةٌ))[1].

اللهُ -تَبارَكَ وتقدَّس- ذو العُلُوِّ المطلَقِ على كلِّ مَخلوقاتِه؛ فهو عليٌّ بذاتِه فوق سَمواتِه، عليٌّ على خَلْقِه بقَهرِه، وكمالِ صفاتِه، وهو ذو العَظَمةِ المطلَقةِ في ذاتِه وصفاتِه وسُلطانِه، وكلُّ ما سواه حَقيرٌ بين يَدَيه، صغيرٌ بالنِّسبةِ إليه؛ فلا شَيءَ أعظَمُ منه سُبحانه وتَعالَى، **كما دلَّت على ذلك الآيةُ الأولى.**

وفي الآيةِ الثانيةِ تقريرُ أنَّ الله تعالى هو الرَّحمنُ الذي علا وارتفَعَ على عَرشِه، كما يَليقُ بجَلالِه، وتلك عَقيدةٌ ثابتةٌ يَجِبُ الإيمانُ بها مع التَّفْويضِ في الكَيفيَّةِ، واستِواءُ اللهِ على العَرشِ ليس لحاجتِه إليه، ولا لكَونِ العرشِ حاملًا له؛ فاللهُ مُستَوٍ على عرْشِه مِن غَيرِ حاجةٍ منه سُبحانَه إلى العرشِ ولا إلى غَيرِه، وهو فَوقَ عِبادِه حَقيقةً، مُحيطٌ بهم إحاطةً تَليقُ بجَلالِه لا كإحاطةِ الفَلَكِ بما فيه مِنَ الكائناتِ، والجميعُ قائمٌ بحَولِه وقوَّته ابتداءً ودوامًا، مَحفوظٌ بعِنايتِه ورِعايتِه، جلَّت قُدرتُه، وتَعالَت عظَمتُه عُلوًّا كبيرًا، وقد شَهِدَتِ العُقولُ السَّليمةُ، والفِطَرُ المستقيمةُ على عُلوِّ اللهِ على خَلْقِه وكَونِه فَوقَ عِبادِه، كما صرَّحَتْ بذلك نُصوصُ الكِتابِ والسُّنَّةِ المتنوِّعةُ والمُحكَمةُ، **ومنها ما جاءَ في هذا الحديثِ**، حيثُ يَحْكي مُعاويةُ بنُ الحَكَمِ السُّلَميُّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه أرادَ أنْ يُعتِقَ جاريةً له، فطلَبَ منه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُحضِرَها، فأحضَرَها للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فسأَلَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ «أين اللهُ؟» ولفْظَةُ (أين) يُستَفْهَمُ بها عنِ المكانِ، ولكن يَجِبُ أنْ يُعلَمَ أنَّ اللهَ تعالَى لا تُحيطُ به الأمكِنةُ؛ لأنَّه أكبرُ مِن كلِّ

(١) أخرجه مسلمٌ (٥٣٧).

شَيءٍ، وهو فَوقَ كلِّ شَيءٍ، فأجابتِ الجاريةُ: «في السَّماءِ»، يعني: على السَّماءِ، أو: في العُلوِّ، فسَألَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن نفْسِه قائلًا: «مَن أنا؟» فأجابتِ الجاريةُ: «أنتَ رسولُ اللهِ»، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أعْتِقْها؛ فإنَّها مؤمِنةٌ» باللهِ عزَّ وجلَّ وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فقدْ دلَّ جوابُها على ذلِك، حيثُ أثبتَتِ العُلوَّ للهِ سُبحانَه، ومُقتضَى ذلك الإيمانُ به، وأقرَّتْ بالرسالةِ لرسولِ اللهِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهذا هو فَحْوَى شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ.

رُؤيةُ المُؤمِنينَ ربَّهم عزَّ وجلَّ في الآخِرةِ

قال اللهُ تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وعَن صُهَيبِ بنِ سِنانٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، قالَ: يقولُ اللهُ تباركَ وتعالَى: تُريدونَ شَيئًا أَزيدُكُم؟ فيَقولونَ: أَلَمْ تُبيِّضْ وُجُوهَنا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنا الجنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟ قالَ: فَيَكْشِفُ الحِجابَ، فَما أُعْطوا شَيئًا أَحَبَّ إلَيْهِم مِنَ النَّظَرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ)). وفي رِوايةٍ: ثُمَّ تَلا هذِه الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][1].

الجنَّةُ هي دارُ النَّعيمِ المُقيمِ الذي أعدَّه اللهُ لعِبادِه المتَّقينَ المؤمِنينَ، ومَن رأى هولَ المَحشَرِ والقِيامةِ، ثُمَّ فازَ بالجنَّةِ؛ فإنَّه يَعلَمُ مِقدارَ نِعمةِ الله وفَضلِه عليه، ومع ذلك فإنَّ الكريمَ الرَّحيمَ يَتكرَّمُ على عِبادِه بأفضالِه ومَثوبتِه، ويَزيدُهم مِن نِعَمِه وكَرامتِه، وأعلى ذلك رُؤيةُ اللهِ سُبحانَه وتعالَى.

ففي هذه الآيةِ الكريمةِ ذكَرَ اللهُ تعالَى ما يَدْعو إلى إيثارِ الآخرةِ ببَيانِ حالِ أهلِها وتفاوُتِهم فيها؛ فقال في جَزاءِ المؤثِرينَ الآخِرةَ على الدُّنيا: إنَّ وُجوهَهم تكونُ حَسَنةً

---

(١) أخرجه مسلمٌ (١٨١).



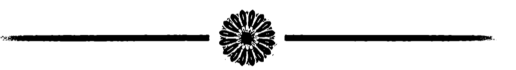
بَهِيَّةً مُشرِقةً مُبتَهِجةً، وإنَّهم يَرونَ رَبَّهم عِيانًا، فيَتمَتَّعونَ بالنَّظَرِ إلى اللهِ تعالَى، وجَمالِه الباهِرِ الذي ليس كمِثْلِه شَيءٌ.

وفي حديثِ صُهَيبٍ رَضِيَ الله عنه أنَّه إذا دَخَل أهلُ الجنَّةِ واستَقَرُّوا فيها، يقولُ لهم اللهُ تَبارَكَ وتعالَى: «تُريدون شيئًا أَزيدُكم؟»، وهذا مِن زِيادةِ الفَضلِ والنِّعمةِ، وهذا السُّؤالُ تَمهيدٌ لِما سيَأْتي بعدَ ذلك مِن بَيانِ الزِّيادةِ والفضلِ، فيقولُ أهلُ الجنَّةِ: «أَلَمْ تُبيِّضْ وُجوهَنا؟! أَلَمْ تُدخِلْنا الجَنةَ، وتُنجِّنا مِن النَّارِ؟!»، يعني: أنَّ تَبييضَ الوُجوهِ والرِّضا عنهم مع إدخالِهمُ الجنَّةَ، وإنجائِهم مِنَ النَّار، كان مُنتهَى أَملِهم؛ فلا يَتخيَّلونَ وُجودَ شَيءٍ أفضلَ مِن هذا، ولكنَّ اللهَ الكريمَ أفضالُه لا تَنْتَهي، «فيَكشِفُ الحِجابَ» عن وجهِه «فما أُعْطوا شَيئًا أَحَبَّ إلَيْهم مِنَ النَّظرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ»، وفي رِوايةٍ: «ثُمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»؛ فالحُسْنى: هي الجنَّةُ التي أدخَلَهم اللهُ إيَّاها، والزِّيادةُ: هي النَّظرُ إلى ربِّهم.

لا يَعلَمُ الغَيْبَ إلَّا اللهُ

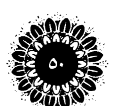
قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وعَن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مِفْتاحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُها إلَّا اللهُ: لا يَعْلَمُ أَحَدٌ ما يكونُ في غَدٍ، ولا يَعْلَمُ أَحَدٌ ما يكونُ في الأرْحامِ، ولا تَعْلَمُ نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدًا، وما تَدري نَفْسٌ بأيِّ أرضٍ تَموتُ، وما يَدْري أحَدٌ متى يَجيءُ المَطَرُ))(١).



إنَّ اللهَ تعالَى قدْ أحاطَ عِلمُه بالغَيْبِ والشَّهادةِ، والظَّواهرِ والبواطنِ، وهو المنفَرِدُ

(١) أخرجه البُخاريُّ (١٠٣٩).



سُبحانَه بعِلمِ ذلك، وكلُّ مَن ادَّعى عِلْمَ الغيبِ فهو كافرٌ، وكلُّ مَن يُصدِّقُه في ذلك فهو كافرٌ أيضًا. ولَمَّا نَفى اللهُ تعالى عِلمَ الغَيبِ عن خَلْقِه على وَجهِ العُمومِ بقَولِه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، نَفى عنهم بقَولِه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الغيبَ المخصوصَ، وهو وقتُ السَّاعةِ والبعثِ، فصار مُنتفِيًا مرَّتينِ؛ إذ هو مُندرِجٌ في عُمومِ الغَيبِ، ومَنصوصٌ عليه بخُصوصِه.

ولَمَّا كانت المخلوقاتُ إمَّا أنْ تكونَ مِن أهلِ السَّمواتِ أو مِن أهلِ الأرضِ -لانحصارِ عَوالِمِ الموجوداتِ في ذلك- كان قولُه: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ﴾ في قوَّةِ: لا يَعلَمُ أحدٌ الغيبَ، ولكنْ في إطنابِ الكلامِ هنا تَنصيصٌ على تَعميمِ المخلوقاتِ كلِّها؛ فإنَّ مَقامَ عِلمِ العقيدةِ مَقامُ بَيانٍ يُناسِبُه الإطنابُ والإسهابُ.

وقد يُطْلِعُ اللهُ بعضَ عِبادِه على كثيرٍ مِنَ الأمورِ الغَيْبيَّةِ، لكنْ هناك أُمورٌ استأثَرَ اللهُ بها، وحجَبَ عِلمَها عن جَميعِ المخلوقاتِ؛ فلا يَعلَمُها نَبيٌّ مُرسَلٌ، ولا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، وهذه الأمورُ هي ما وضَّحَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في **حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما**؛ حيثُ يقولُ: «مِفتاحُ الغيبِ خَمْسٌ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ»، «والغَيْبُ»: ما غابَ واستَتَرَ عنِ الخَلقِ، وهذا مِن بابِ التَّشبيهِ، حيثُ شُبِّهت الأمورُ المُغيَّبَةُ عنِ النَّاسِ بالمَتاعِ النَّفيسِ الذي يُدَّخَرُ بالمخازنِ والخزائنِ الموضوعِ عليها أقفالٌ، بحيثُ لا يَعلَمُ ما فيها إلَّا الذي بيَدِه مَفاتيحُها، والغُيوبُ التي لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ كثيرةٌ.

والتَّخصيصُ بخَمْسٍ لا يَدُلُّ على نفْيِ الزَّائدِ، وإنَّما فيه إشارةٌ إلى أنَّ هذه أُمَّهاتُ الأُمورِ، وقيل: لأنَّه سُئِلَ عنها؛ **فأوَّلُ** هذه الخَمْسِ: أنَّه لا يَعلَمُ أحدٌ ما يكونُ في غدٍ مِن خَيرٍ أو شرٍّ ولو كان نَبيًّا، إلَّا بواسطةِ الوحيِ المُنزَّلِ عليه. **وثانيها**: أنَّه لا يعلَمُ أحدٌ ما يكونُ في الأرحامِ؛ مِن ذَكَرٍ أو أُنثى، أسودَ أو أبيضَ، كاملٍ أو ناقصٍ، ويَعلَمُ حَياتَه



وعَمَلَه ورِزقَه، وغَيرَ ذلك؛ فهو المُنفرِدُ بعِلمِ ذلك سُبحانَه. وقد يَطَّلِعُ الإنسانُ بما آتاهُ اللهُ مِن وَسائِلِ العِلمِ على شَيءٍ مِن أحوالِ ما في الأرحامِ؛ مِن ذُكورةٍ أو أُنوثةٍ، أو سَلامةٍ أو إصابةٍ بآفةٍ، أو قُربِ وِلادةٍ، أو توقُّعِ سُقوطِ الحَملِ قَبلَ التَّمامِ... إلى غيرِ ذلك، لكِنَّ هذا مِن عِلمِ الشَّهادةِ لا مِن عِلمِ الغَيبِ؛ فهو لا يكونُ إلَّا بعدما يَأمُرُ اللهُ المَلَكَ بتَصويرِ الجَنينِ، ولا يكونُ شامِلًا لكُلِّ أحوالِ ما في الرَّحِمِ، بل إجمالًا في بَعضِه مع احتِمالِ الخَطَأِ أحيانًا.

وثالثُها: أنَّه لا تَعلَمُ نفْسٌ ماذا تَكسِبُ غدًا مِنَ الأعمالِ، سواءٌ كانتْ خيرًا أو شرًّا، حَسنةً أو قَبيحةً. **ورابعُها:** أنَّه ما تَدري نفْسٌ بأيِّ أرضٍ تَموتُ، فلا يَعرِفُ أحدٌ مِن النَّاسِ مِيعادَ أجَلِه، أو أينَ مكانُ وَفاتِه؛ في بحْرٍ أو بَرٍّ، أو سَهلٍ أو جبَلٍ. **وخامسُها:** أنَّه ما يَدري أحدٌ متى يَجيءُ المطرُ ومتى يَنْزِلُ، وهذا قبْلَ ظُهورِ عَلاماتِه، وأمَّا ما يُخبِرُ عنه خُبراءُ الطَّقسِ والأرصادِ فإنَّما هو مِن بابِ تَوقُّعِ الحُدوثِ لا الجزْمِ بالحُدوثِ.

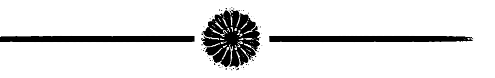
الأنبياءُ لا يَعلمونَ الغَيْبَ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنتِ مُعَوِّذِ بنِ عَفْراءَ رَضِيَ الله عنها، قالت: دَخَلَ علَيَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غَداةَ بُنِيَ علَيَّ، فجَلَسَ على فِراشي كمَجْلِسِك مِنِّي، وجُوَيْرياتٌ يَضرِبْنَ بالدُّفِّ، يَنْدُبْنَ مَن قُتِلَ مِن آبائِهِنَّ يومَ بَدْرٍ، حتى قالتْ جارِيَةٌ: وفينا نَبيٌّ يَعْلَمُ ما في

غَدٍ. فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا تَقُولِي هَكَذا، وقُولي ما كنتِ تَقولينَ))[1].



انفَرَد اللهُ تعالَى بعِلمِ الغَيبِ؛ فلا يَعلَمُه أحدٌ سِواه؛ لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبيٌّ مُرسَلٌ، إلَّا ما شاء اللهُ تعالَى أنْ يُطلِعَ بعضَ خَلْقِه على شَيءٍ منه. وتَنفي **الآيةُ الأولَى** أنْ يكونَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مالِكًا لخزائِنِ أرزاقِ اللهِ تعالى، وتَنْفي كذلك عِلْمَه بغُيوبِ الأشياءِ الخَفِيَّةِ التي لا يَعْلَمُها إلَّا اللهُ وَحْدَه.

وهذه الدَّعوَى التي أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَبْرَأَ مِنها، تبرَّأَ منها نوحٌ عليه السَّلامُ كذلك، حيثُ قال لقَومِه: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [هود: ٣١]، فهذا نوحٌ أوَّلُ أُولِي العَزْمِ، وأَوَّلُ رَسولٍ بَعَثَه اللهُ تعالى إلى أهْلِ الأَرْضِ، وهذا محمَّدٌ خاتَمُ الرُّسُلِ، وخاتَمُ أُولِي العَزْمِ؛ كلاهما قد تبرَّأَ مِن ذلك، وكلُّ الأنبياءِ والمُرسَلينَ مِثلُهما في ذلك.

وكُلُّ ما أخبرَ به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِنْ أُمورِ المُسْتَقبلِ فهو بِوَحْيٍ خاصٍّ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، فلا يُنافي ذلك انتفاءَ مَعرفتِه بالغيبِ؛ لأنَّ عِلْمَه بالمستقبَلِ هو بما أَوْحَى اللهُ إليه، وليس عِلْمًا ذاتيًّا أدْرَكَه بنفْسِه، مِثْلَما أنَّ الإنسانَ يَرى الرُّؤْيا الصَّالحةَ في المنامِ، ويَنتفِعُ بها في مُستقبَلِ الأيامِ.

وفي **الآيةِ الثَّانيةِ** يَأمُرُ اللهُ تعالى نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَنفيَ عن نَفْسِه القُدرةَ على جَلبِ نَفعٍ لها، أو دفْعِ ضُرٍّ عنها، إلَّا ما أَقْدَرَه اللهُ عليه بمَشيئتِه، فيُعينُه عليه، كما أَمَرَه أيضًا بأنْ يَنْفيَ عن نَفْسِه العِلمَ بالغَيبِ؛ فلو كان يَعلَمُ ما هو كائنٌ في المستقبَلِ لأعَدَّ لنَفْسِه الكثيرَ ممَّا يَنفَعُها، ولاحترَس ممَّا يُفضِي إلى ضُرِّها، ولكنَّه لا

(١) أخرجه البُخاريُّ (٤٠٠١).



يَعلَمُ الغَيبَ، فيُصيبُه ما قدَّر اللهُ له؛ فما محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا مُنذِرٌ للنَّاسِ مِن عِقابِ اللهِ إنْ عَصَوه، ومُبَشِّرٌ لهم بثَوابِه إنْ أطاعُوه. وفيها دَلالةٌ صَريحةٌ على انتِفاءِ عِلمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالغَيبِ، وغيرُه أوْلَى بذلك.

وفي حديثِ الرُّبَيِّعِ بِنتِ مُعوِّذِ بنِ عَفراءَ رضِيَ اللهُ عنها: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَخَل علَيها صباحَ اللَّيلةِ التي ستُزَفُّ فيها لزوجِها، فجَلَس على فِراشِها على النَّحوِ الذي جلَسَ به راوي الحَديثِ عنها، وهو خالِدُ بنُ ذَكْوانَ، ولا يَلزمُ منهُ أنَّه جَلَسَ على فِراشِها معها، وليس فيه بَيانٌ لِمَجلِسِها مِن حيثُ القُربُ والبُعدُ، بلْ قولُها لخالدٍ: «كمَجْلِسكَ منِّي» يَدُلُّ ذلك على البُعدِ؛ لأنَّ خالِدَ بنَ ذَكوانَ ليس مَحرَمًا لها، فلا بُدَّ أنْ يَكونَ مَجلِسُه منها بَعيدًا، وكان عِندها جُوَيْرياتٌ -وهُنَّ البَناتُ الصُّغرياتُ- يَضْرِبْنَ بالدُّفِّ، ويَذكُرْنَ أوصافَ مَن قُتِلَ مِن آبائِهنَّ يَومَ بَدرٍ بالثَّناءِ عَليهم، وتَعديدِ مَحاسِنِهم بالكَرَمِ والشَّجاعةِ، حتَّى قالَت جَاريةٌ: «وفينا نَبيٌّ يَعلَمُ ما في غَدٍ» مادحةً النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فنَهاها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن هذا القَولِ؛ لأنَّ مَفاتيحَ الغَيْبِ عِندَ اللهِ لا يَعلَمُها إلَّا هو، وأقرَّها على ما كانتْ تقولُه مِن ذِكْرِ مَحاسنِ المَقتولينَ في بَدْرٍ.

الرُّوحُ مِن أمْرِ اللهِ

عن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بيْنما أنا أمْشِي مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ في حَرْثٍ، وهو مُتَّكِئٌ على عَسِيبٍ، إذْ مَرَّ بنَفَرٍ مِنَ اليَهودِ، فقال بَعضُهمْ لِبَعضٍ: سَلُوه عنِ الرُّوحِ، فقالوا: ما رابَكُم إليهِ! لا يَستَقبِلُكمْ بشَيءٍ تَكرَهونَه، فقالوا: سَلُوه، فقامَ إليهِ بَعضُهمْ فسَأَله عنِ الرُّوحِ، قال: فأسْكَتَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فلَمْ يَرُدَّ عليه شيئًا، فعَلِمْتُ أنَّه يُوحَى إليهِ، قال: فقُمْتُ مَكاني، فلمَّا نَزَلَ الوَحْيُ قال:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾))[1].

إنَّ الرُّوحَ غَيْبٌ، وسِرٌّ مِن أسرارِ اللهِ، استأثَرَ بعِلمِه، نعرِفُ آثارَها، ونَجهَلُ حقيقتَها، وهو ما يُؤكِّدُه لنا حديثُ عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، حيثُ يُخبِرُ أنَّه كان يَمْشي مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في بعضِ الأماكنِ الخَرِبةِ غَيرِ المسكونةِ بالمدينةِ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستَنِدُ على عصًا مِن جَريدِ النَّخلِ، فلمَّا مرُّوا على نفَرٍ مِنَ اليهودِ، «قالَ بعضُهم لبعضٍ: سَلوهُ عَنِ الرُّوحِ»، يعني: عن حَقيقتِها، وطَبيعتِها، وأسرارِها، مُعتقِدين أنهم بذلك يُعجِزونَه عَنِ الجوابِ، فيُثيرون حولَه الشُّكوكَ والشُّبهاتِ، لكنْ نَصَحَ بعضُهم بعضًا: لا تَسألوهُ؛ خشيةَ أنْ يُجيبَكم بما هو مَوجودٌ في كتابِكُم، فيُخَيِّبَ ظنَّكم، ويقَعَ ما تَكرَهون، إلَّا أنَّهم قرَّروا أنْ يَسألوهُ، فقامَ رَجُلٌ منهم، فسَأَلَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما الرُّوحُ؟ فجاءَه الوحيُ، ونزَلَ قولُه تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، أي: إنَّ الرُّوحَ أمرٌ ربَّانيٌّ استأثَرَ اللهُ سُبحانه وتعالى بعِلمِه، وإنَّ العِلمَ الذي لدَيكم ليس إلَّا شَيئًا قليلًا وجزءًا يَسيرًا؛ لأنَّ عِلمَ الإنسانِ -بالغًا ما بلَغ- مَحدودٌ، وأسرارُ هذا الوجودِ أوسَعُ مِن أن يُحيطَ بها العَقلُ البشريُّ المحدودُ.

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (١٢٥)، ومسلمٌ (٢٧٩٤) واللَّفظُ له.

شُروطُ (لا إلهَ إلا اللهُ)

العِلْمُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

وعَن عُثْمانَ بنِ عفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن ماتَ وهو يَعْلَمُ أنَّه لا إلَهَ إلَّا اللهُ دَخَلَ الجنَّةَ))[1].



يَنْبَغي للمُسلِمِ أنْ يعْلَمَ معنى كلمةِ التَّوحيدِ عِلمًا مُنافيًا للجَهلِ بها؛ فهي مِفتاحُ الجنَّةِ، ولكلِّ مِفتاحٍ أسنانٌ لكي يَفْتَحَ، والعِلْمُ هو أحدُ شُروطِ قَبولِ هذه الكلمةِ والانتفاعِ بها، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك، فأوجَبَ عليه العِلمَ بأنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، فلا تجوزُ العِبادةُ إلَّا له وَحدَه دونَ ما سِواه، والعِلمُ لا بُدَّ فيه مِن إقرارِ القَلبِ ومَعرفتِه بمعنى ما طُلِبَ منه عِلمُه، وهو فَرضُ عَينٍ على كُلِّ إنسانٍ، لا يَسقُطُ عن أحدٍ كائنًا مَن كان، والطَّريقُ إلى العِلمِ بأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ يحصُلُ بأمورٍ؛ منها: تدبُّرُ أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ومنها: العِلمُ بأنَّه تعالَى المنفَرِدُ بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فيُعلَمُ بذلك أنَّه المنفَرِدُ بالأُلوهيَّةِ، ومنها: العِلمُ بأنَّه المُنفَرِدُ بالنِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ؛ فإنَّ ذلك يُوجِبُ تَعَلُّقَ القَلبِ به ومحبَّتَه، والتَّألُّهَ له وَحدَه لا شريكَ له، وأعظَمُ طريقٍ هو تدَبُّرُ هذا القُرآنِ العظيمِ، والتأمُّلُ في آياتِه؛ فإنَّه البابُ الأعظَمُ إلى العِلمِ بالتوحيدِ، ويَحصُلُ به مِن تفاصيلِه وجُمَلِه ما لا يَحصُلُ مِن غَيرِه.

وفي حديثِ عُثمانَ رَضِيَ اللهُ عنه يُوضِّحُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فضلَ العِلْمِ

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٦). وأخرجه البخاري (٥٨٢٧) باختلاف يسير من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

بكلمةِ التَّوحيدِ، والمَوتِ على ذلك؛ فيُخْبِرُ أنَّ مَن ماتَ وهو مؤمِنٌ باللهِ يَعلَمُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو المعبودُ بحَقٍّ وحدَهُ، وأنَّ عبادةَ غيرِه باطلةٌ، وعَمِلَ بمُقتضى ذلك العِلْمِ؛ دخَلَ الجنَّةَ في الآخِرةِ برَحْمةِ اللهِ، وضِدُّ العِلْمِ: الجهلُ، وهو الذي أوقَعَ الضُّلَّالَ من هذهِ الأُمَّةِ في مخالفةِ معناها، وتَرْكِ العَمَلِ بمُقتَضاها؛ فمَنْ جَهِلَ معنى (لا إلَهَ إلَّا اللهُ) لا بُدَّ أنَّه سيَنْقُضُها؛ إما باعتقادٍ، أو قَوْلٍ، أو عَمَلٍ.

اليَقينُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنه: كُنا قُعودًا حَولَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، معنا أبو بَكرٍ وعُمَرُ في نَفَرٍ، فقام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بيْنِ أظهُرِنا، فأبْطَأَ علينا، وخَشِينا أنْ يُقتطَعَ دُونَنا، وفزِعْنا، فَقُمْنا، فكُنتُ أوَّلَ مَن فَزِعَ، فخَرَجْتُ أبْتَغي رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتى أتَيْتُ حائِطًا للأنصارِ لبَني النَّجَّارِ، فَدُرْتُ به: هلْ أجِدُ له بابًا؟ فلَم أجِدْ، فإذا رَبيعٌ يَدخُلُ في جَوفِ حائطٍ مِن بئْرٍ خارجةٍ -والرَّبيعُ: الجَدْوَلُ- فاحْتَفَزْتُ، فدَخَلْتُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: ((أبو هُرَيرَةَ؟ فقُلتُ: نعَم يا رَسولَ اللهِ، قال: ما شَأْنُك؟ قُلتُ: كُنتَ بيْن أظهُرِنا، فقُمْتَ فأبطأْتَ علينا، فخَشِينا أنْ تُقتَطَعَ دُوننا، ففَزِعْنا، فكُنْتُ أوَّلَ مَن فَزِعَ، فأتَيْتُ هذا الحائطَ، فاحْتَفَزتُ كما يَحتَفِزُ الثَّعلَبُ، وهؤلاء النَّاسُ وَرائي، فقال: يا أبا هُرَيرةَ، وأعْطاني نَعْلَيْه، قال: اذهَبْ بنَعْلَيَّ هاتَينِ، فمَن لَقِيتَ مِن وَراءِ هذا الحائطِ يَشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، مُستَيقِنًا بها قَلْبُه؛ فبَشِّرْهُ بالجنَّةِ، فكان أوَّلَ مَن لَقِيتُ عُمَرُ، فقال: ما هاتانِ النَّعْلانِ يا أبا هُرَيرةَ؟ فَقُلتُ: هاتانِ نَعْلا رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بَعَثَني بِهِما، مَن لَقِيتُ يَشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، مُستَيقِنًا بها قلْبُه؛ بشَّرْتُه بالجنَّةِ، فضَرَبَ عُمَرُ بيَدِه بيْن



ثَدْيَيَّ، فخَرَرْتُ لِإسْتِي! فقال: ارجِعْ يا أبا هُرَيرةَ، فرَجَعْتُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأجْهَشْتُ بُكاءً، ورَكِبَني عُمَرُ، فإذا هو على أثَري، فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما لكَ يا أبا هُرَيرَةَ؟ قلْتُ: لَقِيتُ عُمَرَ، فأخْبَرْتُه بالذي بَعَثْتَني به، فضَرَبَ بيْن ثَدْيَيَّ ضرْبةً خَرَرْتُ لِإسْتِي! قال: ارجِعْ. قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يا عُمَرُ، ما حَمَلَك على ما فَعَلْتَ؟! قال: يا رسولَ اللهِ، بأبِي أنتَ وأُمِّي، أبَعَثْتَ أبا هُرَيرَةَ بنَعْلَيْك، مَن لَقِيَ يَشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، مُستَيقِنًا بها قَلبُه؛ بَشَّرَهُ بالجنَّةِ؟ قال: نعَم، قال: فلا تَفعَلْ؛ فإنِّي أخشى أنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ عليها، فخَلِّهِم يَعمَلونَ. قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فخَلِّهِم))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: كُنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَسيرٍ، قال: فنَفِدَتْ أزْوادُ القَومِ، قالَ: حتى هَمَّ بنَحْرِ بَعضِ حَمائلِهِم، قال: فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، لو جَمَعْتَ ما بَقِيَ مِن أزْوادِ القَومِ، فدَعَوْتَ اللهَ عليها. قال: ففعَلَ، قال: فجاءَ ذو البُرِّ ببُرِّهِ، وذو التَّمْرِ بتَمرِه، -قال: وقال مُجاهِدٌ: وذو النَّواةِ بنَواهُ، قلْتُ: وما كانُوا يَصنَعونَ بالنَّوى؟ قال: كانُوا يَمُصُّونَه ويَشرَبونَ عليه الماءَ- قال: فدَعا عليها، قال: حتى مَلَأ القَومُ أزوِدتَهُم، قال: فقال عندَ ذلك: ((أشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، لا يَلْقى اللهَ بهما عبْدٌ غيرَ شاكٍّ فيهما؛ إلَّا دخَلَ الجنَّةَ))[2].



لا يَكْفي مجرَّدُ التَّلفُّظِ بالشَّهادتينِ لدُخولِ الجنَّةِ والنَّجاةِ منَ النَّارِ، بل لا بُدَّ من اسْتيقانِ القلبِ بمعناها، وعَدَمِ الشَّكِّ والتَّردُّدِ فيها، فإنْ لم يَحصُلْ هذا اليقينُ دخَلَ صاحبُه في زُمرَةِ المنافقين الذين نَطَقوا الشَّهادتَين بألسنتِهم وارتابَتْ فيها قلوبُهم،

(١) أخرجه مسلمٌ (٣١).

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٧).

فكانوا في الدَّرْكِ الأسفلِ منَ النَّارِ، **وهذه الآيةُ الكريمةُ** تُبيِّنُ أنَّ المؤمنين حقًّا همُ الذين آمَنوا باللهِ ورسولِه، ثمَّ لمْ يشُكُّوا في وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وصِدقِ نُبوَّةِ نَبيِّه، ووُجوبِ طاعتِهما، بل ثَبَتوا على إيمانِهم ولم يَتزلْزَلوا. فشرَطَ تعالى في الإيمانِ عدَمَ حصولِ الرَّيبِ؛ لأنَّ الإيمانَ النافعَ هو الجزْمُ اليَقينيُّ بما أمَرَ اللهُ بالإيمانِ به، والذي لا يَعْتريه شَكٌّ بوجْهٍ مِن الوُجوهِ.

وفي الحديثِ الأوَّلِ يَحْكي أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ الصَّحابةَ كانوا جالِسينَ حَوْلَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومعهم أبو بَكْرٍ وعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنهما في جماعةٍ، فقامَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ أبطَأَ عليهم، فخَشُوا أنْ يكونَ أصابَه مَكروهٌ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مطلوبٌ مِن جهةِ المُنافِقين، ومِن جهةِ غيرِهم مِن أعداءِ الدِّينِ، فقامَ الصَّحابةُ فَزِعينَ، وكان أوَّلَ مَن فَزِعَ أبو هُرَيْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، حتى أتى بُستانًا لبَني النَّجَّارِ مُسَوَّرًا بحائطٍ، فجعَلَ يَطوفُ به لعلَّه يجِدُ بابًا، فلم يجِدْ، فإذا ربيعٌ يدخُلُ في جوفِ بُستانٍ مِن بئرٍ خارجةٍ -والرَّبيعُ: الجَدْوَلُ-، والجَدْوَلُ: هو النَّهرُ الصَّغيرُ، فاحتفَزَ، أي: ضَمَّ جِسمَه حتى دخَل، فرأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأعطاه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نعْلَيْهِ، وقال له: «اذهَبْ بنَعْليَّ هاتَينِ، فمَن لقيتَ مِن وراءِ هذا الحائطِ» أي: البستانِ «يشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ مُستيقِنًا بها قلبُه، فبشِّرْه بالجنَّةِ»، بمعنى: أنْ يسْتَيْقِنَ المسلمُ يقينًا جازمًا بمدلولِ كلمةِ التَّوحيدِ، وهو أنَّه لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، دون تسرُّبِ شَيءٍ من الشُّكوكِ التي يبْذُرُها شياطينُ الجنِّ والإنسِ؛ لأنَّها لا تقبَلُ شكًّا ولا ظنًّا، ولا تردُّدًا ولا ارتيابًا، بل يَنْبَغي أنْ تقومَ على اليقينِ القاطعِ الجازمِ، وهذا يَصْدُقُ على كلِّ مَن كان بهذا اليقينِ في أيِّ عصرٍ مِنَ العُصورِ، فخرَجَ أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ، فلَقِيَه عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه، فسأَله عنِ النَّعْلَيْنِ، فأجابه بما حدَثَ، فضرَبَه بَينَ ثَدْيَيْهِ، فسقَط أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه على مَقْعَدَتِه مِن شِدَّةِ الضَّربةِ، وأمَره عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه بالرُّجوعِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فرجَع مُتغيِّرَ الوجهِ مُتهَيِّئًا



للبكاءِ، وتَبِعَه عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه ومَشى خَلْفَه، وحَكى أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما حدَث مع عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه، فسأَل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه: ما سَبَبُ فِعلِه ذلك؟ فأخبَرَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو يُريدُ أنْ يتأكَّدَ مِن بُشْراهُ التي أمَرَ بها أبا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، فأكَّدَ له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه هو الذي أرسلَهُ، فأشار عُمَرُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا يُخْبِرَ النَّاسَ بتلك البُشْرى حتى لا يَتَّكِلوا ويَترُكوا العملَ، فاستجابَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لطَلَبِ عُمَرَ رضي اللهُ عنه، فقال: «فخَلِّهم»، يعني: فخَلِّهم يعمَلون، وترَكهم بغيرِ البِشارةِ.

وفي الحَديثِ الثَّاني أكَّدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شَرْطَ اليقينِ وعَدَمَ الشَّكِّ، وفيه يَحكِي أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّهم كانوا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سَفرٍ حتى نَفِدَ الطَّعامُ منهم، حتى أقدَموا -بسببِ الجوعِ- أنْ يَذبَحوا بعضًا من إبِلِهم التي كانت تَحمِلُهم، فاقترَحَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَجمَعَ ما تبقَّى مع النَّاسِ مِنَ القُوتِ والطَّعامِ، وأن يَدعُوَ اللهَ أنْ يُباركَ فيه، بدلًا من ذبْحِ الرَّكائبِ والحمائلِ مِنَ الإبلِ. قال أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه: «فجاءَ ذو البُرِّ بِبُرِّهِ»، أي: أتى مَن معَهُ بعضٌ مِنَ القمحِ به، «وذو التَّمْرِ بتَمْرِه، وقال مُجاهِدٌ -وهو ابنُ جَبْرٍ، أي: في رِوايتِه-: وذو النَّواةِ بِنَواهُ»، أي: جاء مَن معه نَوى البَلَحِ التي يكونُ بداخلِها، قال طَلْحَةُ بنُ مُصَرِّفٍ لمُجاهد: قُلْتُ: «وما كانوا يصنَعون بالنَّوى؟» أي: ما فائدتُه وهو ليس بطعامٍ يؤكَلُ؟ قال مُجاهدٌ: «كانوا يَمُصُّونَهُ، ويَشرَبون عليه الماءَ»! وهذا من ضِيقِ الحالِ، وشِدَّةِ الفقرِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عنهم بذَلوا كلَّ ما كانوا يملِكونَهُ، ولم يَضَنَّ أحدٌ بشَيءٍ على نفْسِه، دعا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الطَّعامِ والزَّادِ المجموعِ بالبركةِ، فبارَكَ اللهُ، حتى ملأَ النَّاسُ أوعِيتَهم ممَّا فاضَ به ذلكَ الطَّعامُ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ» أي:

شَهِدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّوحيدِ للهِ، ولنفسِهِ بالرِّسالةِ، وأنَّه صادِقٌ فيما جاءَ به من عنْدِ مَوْلاه، وهذه البركةُ دليلٌ على ذلك، ثُمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «لا يَلقى اللهَ بهما عبدٌ غَيرَ شاكٍّ فيهما إلَّا دخَلَ الجنَّةَ»، فمَن شَهِدَ للهِ بالتَّوحيدِ، ولمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالرِّسالةِ، ومات على ذلك، وهو مُتَيَقِّنٌ من مَعْنَيْيهما، وعَمِل بمقتَضى ذلكَ دونَ شكٍّ أو رِيبةٍ: أدخلَهُ اللهُ الجنَّةَ؛ فأهلُ التَّوحيدِ سَيدخُلون الجنَّةَ، ومَن عُذِّب منهم في النَّارِ فإنَّه لا يُخلَّدُ فيها؛ لِفَضلِ هذا التَّوحيدِ.

القَبولُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٧].

وعن أبي مُوسَى الأَشْعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ أمْسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ ما بعَثَني اللَّهُ به، فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرسِلْتُ به))(١).



في الآيةِ الأولى يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّه أرسَلَ رُسُلًا إلى قَومِهم الكافِرينَ، فجاؤوهم

(١) أخرجه البُخاريُّ (٧٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٢٨٢).

بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ على صِدقِهم، ولكِنْ كذَّبوا ولم يَقبَلوا ما جاؤوهم به من الحَقِّ؛ فاستحَقُّوا العذابَ، وكذلك يُهلِكُ اللهُ تعالى كلَّ مَن كَفَر وكَذَّب بالحَقِّ، فلم يَقبَلْه، وأمَّا المؤمِنونَ باللهِ ورَسولِه الذين قَبِلوا الحَقَّ وارتَضَوه، فإنَّ اللهَ تعالى يُنْجِيهم؛ فنَصْرُ الله تعالى للمؤمِنينَ أمرٌ قد أوجَبَه اللهُ سبحانه على نَفْسِه الكريمةِ.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ إنَّما وقَعوا في ذلك العَذابِ؛ لأنَّهم كانوا إذا قِيلَ لهم في الدُّنيا: قُولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يتكبَّرونَ عن قَولِ ذلك، ولا يَستَجيبونَ لِمن دعاهم إليه، ويَقولونَ: أنقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ونَترُكُ عِبادةَ آلهتِنا؛ اتِّباعًا لِقَولِ شاعرٍ مَجنونٍ؟! وليس الأمرُ كما يَزعُمونَه مِن أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم شاعِرٌ مَجنونٌ، وإنَّما هو نَبيٌّ جاء بالقُرآنِ مِن عندِ اللهِ، وفيه الأمرُ بتوحيدِ اللهِ، وقد صَدَّقَ المُرسَلينَ الذين كانوا قَبلَه، وأخبَروا بمَجيئِه؛ فكانت بَعثتُه تَصديقًا لهم، وشَهِدَ هو بنُبوَّتِهم، وأخبَرَ بمِثلِ ما أَخبَروا به مِنَ التَّوحيدِ وغَيرِه مِن الحَقِّ.

وفي حديثِ أبي مُوسَى الأَشْعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه يَضرِبُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَثَلًا للتَّقريبِ للأفهامِ وتَوضيحِ المعاني، وإقامةِ الحُجَّةِ على العِبادِ؛ فيُشبِّهُ العِلمَ الشَّرعيَّ الذي بُعِثَ به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالمطرِ الغَزيرِ الذي يَنزِلُ على أَنواعٍ مُختلِفةٍ مِن الأرضِ:

أوَّلُها: الأرضُ الخِصبةُ النَّقيَّةُ، وهذه الأرضُ هي التي تَقبَلُ الماءَ، حيثُ تَحتفِظُ بمياهِ الأمطارِ في باطِنِها، فتَنتفِعُ به وتَنفَعُ مَن حولَها، فتُنبِتُ النَّباتَ الكَثيرَ رَطْبًا ويابِسًا، فهذا مَثَلٌ لِمَن قَبِلَ هذا الدِّينَ واحتَفظَ بعُلومِه، فاشتَغَلَ وعَمِلَ بِها، فانتَفَع به لنَفْسِه، ونفَعَ مَن حولَه كذلِك؛ بتَعليمِه ودَعوتِه إلى هذا الخَيرِ.

وثانيها: الأرضُ المُجدِبةُ الصُّلبةُ، المُمسِكةُ للماءِ، فإنَّها -وإنْ كانتْ لا تَصلُحُ لخروجِ الزَّرعِ- بمَنزلةِ خزَّاناتٍ ضَخمةٍ، تحفَظُ الماءَ، وتَمُدُّ به غيرَها، فيَنتفِعُ بها



النَّاسُ، فيَشرَبون ويَسقُونَ مَواشيَهم، ويزرَعونَ الأراضيَ الخِصبةَ بمائِها؛ فهي وإنْ لم تَنتفِعْ بالغيثِ في نفْسِها فإنَّها نفَعَتْ غيرَها؛ مِن الإنسانِ، والحَيوانِ، والأراضِي الأُخرى، ومَثلُها مَثَلُ الَّذين لهم قُلوبٌ حافِظةٌ، لكِنْ ليس عندهم اجتِهادٌ في الطَّاعةِ والعَمَلِ به، فهم يَحفَظونَه حتى يأتيَ طالِبٌ مُحتاجٌ مُتعَطِّشٌ لِما عِندَهم من العِلمِ للنَّفعِ والانتِفاعِ، فيأخُذَه منهم فينتَفِعَ به؛ فهؤلاء نَفَعوا بما بَلَغَهم.

وثالثُها: الأرضُ السِّباخُ التي لا تُنبِت زَرعًا، ولا تُمسِكُ ماءً، فهي لم تَنتفِعْ بذلك المَطرِ في نفْسِها، ولم تنفَعْ غيرَها به؛ لاسْتواءِ سَطحِها وعَدمِ إنباتِها؛ فهي شَرُّ أقسامِ الأرضِ وأخْبثُها، ومَثَلُها مَثَلُ الذي عُرِضَ عليه الدِّينُ فلمْ يَقْبَلْه قولًا ولا عملًا، وهو المقصودُ بقولِه: «مَن لم يَرفَعْ بذلك رأسًا»، أو هو الكافِرُ الَّذي لم يَدخُلْ في الدِّينِ أصْلًا، وهو المقصودُ بقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «ولم يَقبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرسِلْتُ به».

وفي هذا بيانٌ لفَضْلِ مَن قَبِلَ هُدَى اللهِ تعالَى، فعلِمَ وعَمِلَ وعلَّمَ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شَبَّهه بخَيرِ أجزاءِ الأرضِ وأشرفِها وأزكاها، وهي «الأرضُ النَّقيَّةُ»، وفيه: ذمُّ الإعراضِ عن العِلمِ والعَمَلِ، وعَدمِ قَبولِه.

الانقيادُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُما، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عنه إلى اليَمَنِ، فَقالَ: ((... **ادْعُهُمْ إلى شَهادةِ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأنِّي رَسولُ اللَّهِ،**

فإنْ هُمْ أطاعُوا لذلكَ فأَعلِمْهُم أنَّ اللَّهَ قدِ افْتَرَضَ عليهم خَمْسَ صَلَواتٍ في كلِّ يومٍ ولَيلةٍ، فإنْ هُمْ أطاعُوا لذلكَ فأَعلِمْهُمْ أنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عليهم صَدَقةً في أمْوالِهِم تُؤْخَذُ مِن أغْنِيائِهِمْ وتُرَدُّ علَى فُقَرائِهِم))[1].



في الآيةِ الأُولى يأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه بالتَّوبةِ إليه وطاعتِه وَحْدَه، والاستِسلامِ والخُضوعِ له، والانقيادِ إليه مِن قَبلِ أنْ يَأتيَهم عَذابُ اللهِ على كُفرِهم به ومَعصيتِهم إيَّاه، ثمَّ لا يَنصُرُهم ناصِرٌ.

وفي الآيةِ الثَّانيةِ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ مَن يُخلِصُ عَمَلَه وقَصْدَه لله وحْدَه، وهو معَ إخلاصِه مُنقادٌ لطاعةِ اللهِ في أمْرِه ونَهْيِه كأنَّه يَراه، ومُتَّبِعٌ لشَريعةِ نبيِّه، ومُحسِنٌ إلى خَلْقِه: فقد تَمسَّك بأَوثَقِ رباطٍ يتمسَّكُ به مَن يريدُ الفَوزَ والنَّجاةَ مِنَ الضَّلالِ والعَذابِ، وإلى الله وَحْدَه تَرجِعُ نهايةُ كُلِّ أمرٍ؛ فأمورُ مَن أسلَمَ وَجهَه إلى اللهِ صائِرةٌ إلى اللهِ، ومَوكولةٌ إليه؛ فهو يَنصُرُهم ويُجازيهم إذا قَدِموا عليه جزاءً حَسَنًا وافيًا. وقد قيل: إنَّ العُروةَ الوُثقى هي: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فمَن لم يَنْقَدْ إلى طاعةِ الله تعالى لم يكُنْ مُتمَسِّكًا حَقًّا بشَهادةِ التوحيدِ.

وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُما أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمَرَ مُعاذَ ابنَ جَبلٍ رَضِيَ اللهُ عنه حِينَما أرْسلَه إلى اليَمنِ داعيًا لهم، وليُعلِّمَهم القُرآنَ وشَرائعَ الإسلامِ، وليَقضِيَ بيْنَهم ويَقبِضَ الصَّدقاتِ، وكان ذلك سَنةَ تِسعٍ، وقيل: سَنةَ عَشرٍ مِن الهِجرةِ، فأمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَتحسَّسَ فيهم حُسنَ اتِّباعِهم وانقيادِهم لدِينِ اللهِ، وأنْ يَعرِضَ عليهم أوَّلَ ما يَعرِضُ مِن هذا الدِّينِ أُصولَه واحدًا تِلوَ الآخَرِ؛ فأمَرَه أنْ يَدْعُوَهم إلى توحيدِ اللهِ وإفرادِه بالعِبادةِ دونَ ما سِواهُ، وإلى الإقرارِ لنبيِّه صلَّى

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥) واللفظ له، ومسلم (١٩).

اللهُ عليه وسلَّمَ بالرِّسالةِ وطاعتِه، فإنْ أطاعُوا وانقادُوا لتِلكَ الدَّعوةِ، أمَرَهم بعد ذلِك بما فَرَضَ اللهُ عليهم مِن الصَّلاةِ، فإنِ استجابُوا وأقامُوا الصَّلاةَ بأركانِها وشُروطِها، أمَرَهم بأنْ يُؤدُّوا زكاةَ أموالِهم، حيثُ تُؤخَذُ مِن الأغنياءِ، وتُصرَفُ إلى الفُقراءِ.

الصِّدْقُ

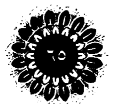
قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

وعَن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -ومُعاذٌ رَديفُهُ على الرَّحْلِ- قالَ: ((يا مُعاذُ بنَ جَبَلٍ، قالَ: لَبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ وسَعْدَيْكَ، قالَ: يا مُعاذُ، قالَ: لَبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ وسَعْدَيْكَ -ثلاثًا-، قالَ: ما مِن أحَدٍ يَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، صِدْقًا مِن قلبِهِ؛ إلَّا حرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ. قالَ: يا رسولَ اللهِ، أفلا أُخْبِرُ به النَّاسَ فَيَسْتَبْشِروا؟ قالَ: إذَنْ يَتَّكِلوا، وأَخْبَرَ بها مُعاذٌ عِندَ مَوْتِه تأَثُّمًا))(١).



الصِّدقُ هو أن يُوَاطِئَ القلبُ اللِّسانَ، فإذا صدَقَ العبدُ في كلمةِ التَّوحيدِ، وجعَلَها في حياتِهِ منهجًا وسبيلًا، وفي سَيرِه إلى اللهِ دليلًا؛ فهو المَرْضِيُّ الذي لا يَنالُه يَوْمَ القِيامةِ خوفٌ ولا حُزْنٌ، **وفي هذه الآياتِ الكريماتِ** يُبَيِّنُ اللهُ تعالى بعضًا من أحوالِ المنافقينَ الذين يُظهِرونَ الإسلامَ ويُبطِنونَ الكُفرَ؛ فذَكَر أنَّهم يَدَّعون الإيمانَ كَذِبًا؛ إذ يُعلِنونَ ذلك بألسِنَتِهم، بَيْدَ أنَّه قَولٌ مجَرَّدٌ ليس معه إقرارٌ حقيقيٌّ بالإيمانِ في قلوبِهم، يريدونَ بذلك مُخادَعةَ اللهِ تعالى وعبادِه المؤمنين، وهم في الحقيقةِ هم المَخْدوعونَ بصَنيعِهم دون أن يَشعُروا بذلك. وبَيَّن اللهُ تعالى أنَّ ما في قلوبِهم حقيقةً هو الشَّكُّ،

(١) أخرجه البُخاريُّ (١٢٨)، ومسلمٌ (٣٢).



وأخبَرَ أنَّ لهم عذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا بسَبَبِ كَذِبِهم في دَعْوى الإيمانِ، وكان الواجِبُ عليهم التحلِّيَ بالصِّدقِ، والالتزامَ بحقيقةِ الإيمانِ.

وفي حَديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أكَّدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أهمِّيَّةَ الصِّدقِ في قولِ كلمةِ التَّوحيدِ حينما أخْبَرَ مُعاذَ بنَ جبلٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّه «ما مِن أحَدٍ يشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، صِدقًا مِن قلبِه»، بمعنى أن يَقولَ المرءُ كلمةَ التَّوحيدِ بلسانِهِ ويُصَدِّقَ قلبُه بمعناها ومُقتضاها صِدْقًا منافيًا للكَذِبِ والنِّفاقِ؛ «إلَّا حرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ»، بمعنى حرَّمَ عليه الخُلودَ فيها، أمَّا مَن قالَ الشَّهادةَ بلسانِهِ، وأنكَرَ مَدْلولَها بقلبِهِ؛ فإنَّ هذه الشَّهادةَ لا تُنْجيهِ، بلْ يَدخُلُ في عِدادِ المنافقين، فأرادَ معاذٌ رَضِيَ اللهُ عنه أنْ يُبَشِّرَ النَّاسَ بهذا الوعدِ والجزاءِ، فيَستَبشِروا بالجنَّةِ كما استَبشَرَ هو، ولكنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَشِيَ أن يتَّكِلوا عليها، وأنْ يَتهاوَنوا بالعَمَلِ، ويَتكاسَلوا عن العبادةِ، فلم يُحدِّثْ بها معاذٌ أحدًا إلَّا قبْلَ موتِه؛ مَخافةَ الوقوعِ في إثمِ كِتمانِ العِلمِ.

الإخلاصُ

عن عِتْبانَ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ (في حديثٍ طَويلٍ)، وفيه:... فسَمِعَ أهلُ الدَّارِ أنَّ رَسولَ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم في بيتي، فَثَابَ رجالٌ منهم حتى كَثُرَ الرِّجالُ في البَيتِ، فَقالَ رَجُلٌ منهمْ: ما فَعَلَ مَالِكٌ؟ لا أَرَاهُ! فَقالَ رَجُلٌ منهمْ: ذَاكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا تَقُلْ ذَاكَ؛ أَلَا تَرَاهُ قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بذلكَ وجْهَ اللَّهِ؟! فَقالَ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، أمَّا نَحْنُ فَوَاللَّهِ لا نَرَى وُدَّهُ ولَا حَدِيثَهُ إلَّا إلى المُنَافِقِينَ، قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فإنَّ اللَّهَ قدْ حَرَّمَ علَى النَّارِ مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بذلكَ وجْهَ اللَّهِ))[1].



(١) أخرجه البخاري (١١٨٦) واللفظ له، ومسلم (٣٣).

الإخلاصُ المُنافي للشِّركِ والنِّفاقِ؛ مِن شُروطِ قَبولِ شَهادةِ التَّوحيدِ، وسببٌ في نجاةِ العبدِ مِنَ النَّارِ يَومَ القِيامةِ.

وفي حديث عِتْبانَ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رجُلًا ذُكِرَ في حَضرةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال أحدُهم: إنَّهُ منافقٌ، فنهاهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن قولِ ذلكَ في حقِّهِ؛ فإنَّ العبدَ إذا قالَ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بذلكَ وجهَ اللهِ، يَطْلُبُ رِضا اللهِ سبحانَهُ، ولم يقُلْهَا لينالَ حظًّا من حظوظِ الدُّنيا كمَغْنَمٍ، أوِ اتِّقاءَ السَّيفِ، أو رياءً وسُمعةً؛ حرَّم اللهُ عليهِ النَّارَ.

ولم يُعنِّفِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الصَّحابةَ؛ لأنَّهم علَّقوا الحُكمَ على ما ظهَرَ من حالِ مالكِ بنِ الدُّخْشُنِ؛ فقد كانوا يظُنُّونَ أنَّ توجُّهَه ونصيحتَه للمُنافقينَ، فالذي ظهَرَ للصَّحابيِّ أنَّه معَ المنافقينَ، فبيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لهم صِدْقَ إيمانِهِ؛ فلا يُمكِنُ أنْ يكونَ هناكَ شخصٌ في قلبِهِ إخلاصٌ للهِ ورسولِهِ وهو يُلقِي بالوُدِّ إلى أهلِ النِّفاقِ أبدًا.

المَحبَّة

قَالَ تَعالَى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((ثلاثٌ

مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يَكونَ اللهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إليه ممَّا سِواهُما ...))[1].



مِن شُروطِ لا إلهَ إلَّا اللهُ مَحبَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ وتقديمُه على كلِّ محبوبٍ. **وفي الآيةِ الكَريمةِ الأُولَى** أعظَمُ دَليلٍ على وُجوبِ مَحبَّةِ اللهِ ورَسولِه، وعلَى تقديمِها علَى محبَّةِ كُلِّ شَيءٍ، وفيها وَعيدٌ شديدٌ لمَن كان شَيءٌ مِن هذه المذكوراتِ أحَبَّ إليه مِن اللهِ ورَسولِه، وجِهادٍ في سَبيلِه، وفيها تحذيرٌ مِن تَقديمِ محبَّةِ أحدٍ كائنًا مَن كان على محبَّةِ اللهِ ورَسولِه والجِهادِ في سَبيلِه، أو تَقديمِ طاعةِ أحدٍ على طاعةِ اللهِ ورَسولِه، أو تقديمِ مَرْضاةِ أحدٍ على مَرضاةِ اللهِ ورَسولِه.

وفي الآيةِ الثانيةِ يخبرُ اللهُ تعالى أنَّ بعضَ النَّاسِ يجعَلون مِن بعضِ الخَلقِ نُظَراءَ لله سبحانه، بمساواتِهم معه في المحبَّةِ، فيحبُّونهم كما يحبُّون الله تعالى، وأمَّا المؤمنونَ الموحِّدونَ فهم أشدُّ حبًّا للهِ عزَّ وجلَّ مِن محبَّةِ أولئك لله تعالى ولأندادِهم.

وفي هذه الآيةِ دلالةٌ على أنَّ محبَّةَ الله سبحانَه مِن العبادةِ؛ لأنَّ اللهَ جعَل مَن سوَّى غيرَه به فيها مشرِكًا متَّخذًا لله ندًّا؛ فالمحبَّةُ مِن العبادةِ، بل هي أساسُ العبادةِ؛ لأنَّ أساسَ العبادةِ مبنيٌّ على الحبِّ والتَّعظيمِ.

وكلَّما ازداد إيمانُ العبدِ ازدادتْ محبَّتُه لله؛ وذلك لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى رتَّب شدَّةَ المحبَّةِ على الإيمانِ.

وفي حديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه يُوضِّحُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ويُبيِّنُ أهميَّةَ هذه المحبَّةِ، ووُجوبَها لتَحقيقِ الإيمانِ الكامِلِ؛ فيَذكُرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثلاثَ خِصالٍ، ويُبيِّنُ أنَّ مَن حقَّقَها وقامَ بها، فإنَّه هو الذي يجِدُ حلاوةَ الإيمانِ؛

---

(١) أخرجه البخاري (١٦) واللفظ له، ومسلم (٤٣).



فالإيمانُ له حلاوةٌ وطعمٌ يُذاقُ بالقُلوبِ، كما تُذاقُ حلاوةُ الطَّعامِ والشَّرابِ بالفمِ، وكما أنَّ الجَسدَ لا يجِدُ حلاوةَ الطَّعامِ والشَّرابِ إلَّا عند صحَّتِه، فكذلك القلبُ إذا سلِمَ مِن مرَضِ الأهواءِ المُضلَّةِ والشَّهواتِ المُحرَّمةِ وجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ، ومتى مَرِضَ القلبُ وسَقِمَ لم يجِدْ حلاوةَ الإيمانِ، بلْ قدْ يَستحلي ما فيه هلاكُه مِن الأهواءِ والمعاصي. وقدَّمَ في الخَصلةِ الأُولَى: «أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما»، ومحبَّةُ اللهِ تَنشأُ مِن معرفةِ أسمائِه وصفاتِه، والتَّفكيرِ في مَصنوعاتِه، وما فيها مِن الحِكَمِ والعَجائبِ، وتحصُلُ مِن مُطالَعةِ نِعمِه على العِبادِ؛ فإنَّ ذلك كلَّه يدُلُّ على كَمالِه وقُدرتِه، وحِكمتِه وعِلمِه ورَحمتِه، ومِن ثَمَّ يَمتلئُ قلْبُ العبدِ حُبًّا وتَعظيمًا للهِ تعالى ولرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

وممَّا يدُلُّ على صِدقِ المحبَّةِ مِن العَبدِ لخالقِه سُبحانَه وتعالَى: التزامُ شَريعتِه وطاعتِه، والانتهاءُ عمَّا نهَى عنه، والتزامُ أوامرِه ونَواهيهِ في كُلِّ شيءٍ، ومحبَّةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كذلك. ومِن آثارِ تِلك الحلاوةِ التي يَمنَحُها اللهُ تعالى قلْبَ مَن يُحبُّه: الأُنسُ به سُبحانَه، وانشراحُ الصَّدرِ، وقوَّةُ التحمُّلِ، والثِّقةُ بمَوعودِه، والرِّضا بقدَرِه، وعَظمةُ اللُّجوءِ إليه، والتضرُّعُ بيْن يَديهِ.



الشِّركُ ووَسائِلُه

خُطورةُ الشِّركِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سألتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أيُّ الذَّنبِ أعظَمُ عندَ اللهِ؟ قال: ((أن تجعَلَ للهِ نِدًّا وهو خَلَقَك. قلتُ: إنَّ ذلك لعظيمٌ ...))[1].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ذُكِرَ لي أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ لمُعاذِ بنِ جَبَلٍ: ((مَن لَقِيَ اللَّهَ لا يُشرِكُ به شيئًا دَخَلَ الجَنةَ، قالَ: ألَا أُبشِّرُ النَّاسَ؟ قالَ: لا؛ إنِّي أخافُ أنْ يَتَّكِلوا))[2].



الشِّركُ باللهِ هو أعظَمُ الذُّنوبِ على الإطلاقِ؛ فكُلُّ ذَنبٍ عسى اللهُ عزَّ وجَلَّ أن

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩) واللفظ له، ومسلم (٣٢).

يَغفِرَه ما خلا الشِّركَ.

وفي الآيةِ الأولى بَيانُ أنَّ اللهَ تَعالى لا يَغفِرُ لأيِّ أحدٍ يَلقَاه سُبحانَه وقدْ جعَلَ معه شَريكًا في رُبوبيَّتِه، أو أُلوهيَّتِه، أو أسمائِه وصِفاتِه، ويَغفِرُ ما دونَ ذلك الشِّركِ مِن الذُّنوبِ -صَغائرِها وكَبائرِها- للَّذي يَشاءُ مِن عِبادِه، إذا اقتضَتْ حِكمتُه أنْ يَغفِرَ له. ومَن يقَعْ في الإشراكِ باللهِ العَظيمِ، فقدِ اختَلَق وِزْرًا عَظيمًا وجُرمًا كبيرًا.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تَعالى أنَّ مَن يَجعَلُ للهِ شَريكًا يَسلُكْ غيرَ طَريقِ الحقِّ، ويَنحرِفْ عن سَواءِ السَّبيلِ، ويَبتعِدْ عن الصَّوابِ بُعدًا شَديدًا.

وفي الآيةِ الثالثةِ يُوصي لُقمانُ الحَكيمُ ابنَه أوَّلَ ما يُوصِيه بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه، ويُحَذِّرُه أوَّلَ ما يُحذِّرُه مِنَ الشِّركِ، فيقولُ له ناصِحًا بما يَنفَعُه، ويُهَذِّبُ نَفْسَه، ويُرقِّقُ قَلْبَه: يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ باللهِ شَيئًا؛ فإنَّ الشِّركَ باللهِ خَطأٌ وذَنبٌ عَظيمٌ؛ فالمُشرِكُ يَظلِمُ نَفْسَه بصَرْفِ العِبادةِ إلى مَن لا يَستَحِقُّها، وفيه تَسويةُ المملوكِ -الذي ليس له مِن ذاتِه إلَّا العَدَمُ، فلا نِعمةَ منه أصلًا- بالمالِكِ الذي لا خَيرَ ولا نِعمةَ إلَّا منه وحْدَه.

وفي الآيةِ الرابعةِ يَذكُرُ اللهُ تَعالى أنَّه أَوحى إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وإلى الذين مِن قَبلِه مِنَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ؛ بأنَّ مَن يُشرِكُ منهم سيَبطُلُ عمَلُه الصَّالِحُ، فلا يُثيبُه اللهُ عليه، ويكونُ مِن جُملةِ الذين خَسِروا ثَوابَ أعمالِهم، واستَحقُّوا عَذابَ اللهِ على شِرْكِهم، فإذا كان ذلك في حقِّ الأنبياءِ فغَيرُهم بطَريقِ الأَوْلى.

وفي حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه يحَذِّرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الشِّركِ، حيثُ جعَلَه من أكبرِ الكبائرِ. وقَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أن تَجعَلَ للهِ ندًّا وهو خلَقَك». النِّدُّ: هو المثيلُ والنَّظيرُ، وفي تلك الجملةِ تَنبيهٌ إلى سوءِ وفَسادِ عُقولِ الذين يُشرِكون مع اللهِ غيرَه، مع أنَّه هو الخالِقُ وَحْدَه لا شريكَ له، فكما أنَّه المتفَرِّدُ بالخَلقِ والإيجادِ، فهو الذي يجِبُ أن يُفرَدَ بالعبادةِ وَحْدَه لا شريكَ له؛ ولهذا فإنَّ كونَ الإقرارِ بأنَّ اللهَ هو الخالِقُ الرَّزاقُ المُحْيي المُميتُ، هذا مما أقَرَّ به الكُفَّارُ الذين



بُعِثَ فيهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولكِنَّ ذلك لم يُدخِلْهم في الإسلامِ ولم يَنفَعْهم؛ لأنَّهم لم يُفرِدوا العبادةَ للهِ عزَّ وجَلَّ، ولم يَخصُّوه بالعبادةِ التي هي مُقتَضى شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ.

وفي حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأجرَ العظيمَ لِمَن لَقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يُشرِكُ به شيئًا؛ فإنَّ من مَاتَ على التوحيدِ وكَلِمةِ لا إلهَ إلَّا اللهُ، كان ذلك عهدًا عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يُدخِلَه الجنَّةَ برَحمتِه ابتِداءً، أو بعد عِقَابٍ، وفي المقابِلِ من مات وهو يُشرِكُ به شيئًا دخل النَّارَ.

ولعِظَمِ البِشارةِ في الحديثِ طَلَب معاذُ بنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَروِيَه ويُبَلِّغَه للنَّاسِ، ولكنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خشِيَ أنْ يتَّكِلوا عليها، ويترُكوا العملَ، فلم يُحدِّثْ بها معاذٌ أحدًا إلَّا قبل موتِه؛ مخافةَ الوقوعِ في إثمِ كِتمانِ العِلمِ.

السِّحْرُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٠٢]

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٨١، ٨٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ وما هُنَّ؟ قالَ: الشِّرْكُ باللَّهِ، والسِّحْرُ...)) الحديث[1].

ظَهَر السِّحرُ بأنواعِه المختَلِفةِ في أُمَمٍ كثيرةٍ منذُ القِدَمِ، وفي هذا العَصرِ أخَذتْ ظاهرةُ السِّحرِ في الازديادِ والانتشارِ، وهو عَمَلٌ خبيثٌ يُضادُّ الإيمانَ ويُنافي أصلَه، فقد بَرَّأ اللهُ تبارك وتعالى -**كما في الآيةِ الأولى**- سليمانَ من تُهمةِ السِّحرِ التي ألْصَقَها به اليَهودُ، فلم يكُن يمارِسُه، أو يُعلِّمه للآخرينَ؛ لأنَّه كُفرٌ، فبَيَّن اللهُ تعالى أنَّ الذين كفروا بسَبَبِ السِّحرِ في الحقيقةِ هم الشياطينُ الذين يُعلِّمونَه للنَّاسِ؛ إضلالًا لهم.

وبالسِّحرِ تَحصُلُ تصرُّفاتٌ مذمومةٌ، وتَقَعُ شُرورٌ عَظيمةٌ، من أعظَمِها التفريقُ بين الزَّوجينِ، مع ما بينهما من المودَّةِ والرَّحمةِ.

والسِّحرُ ضَرَرٌ مَحْضٌ ووَبالٌ على صاحِبِه، لا ينتَفِعُ به مُطلقًا في الدُّنيا، وليس له في الآخِرةِ حَظٌّ ولا نَصيبٌ من الجَنَّةِ.

وفي الآيةِ الثَّانيةِ يَحكي اللهُ تعالى عن موسى عليه السلامُ توعُّدَه لسَحَرةِ فِرعَونَ بأنَّ اللهَ سيُذهِبُ سِحرَهم، ويُظهِرُ بُطلانَه للنَّاسِ بما يُظهِرُه على يَديه عليه السَّلامُ مِن المُعجزةِ؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى لا يُصلِحُ أعمالَ الذين يَسعَونَ في أرضِ اللهِ بالفساد، كالسَّحَرةِ، فلا يُتِمُّها لهم فينتَفِعونَ بها، ولا يثيبُهم عليها، فكلُّ مُفسدٍ عَمِلَ عملًا، واحتال كَيدًا، أو أتى بمكْرٍ، فإنَّ عمَلَه سيَبطُلُ ويضمَحِلُّ، وإن حصَلَ لعَمَلِه رَوَجانٌ في وقتٍ ما، فإنَّ مآلَه الاضمحلالُ والمَحْقُ.

وقدْ كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حريصًا على أُمَّتِه، يخشى من وُقوعِهم فيما يُغضِبُ اللهَ عزَّ وجلَّ فيَجُرُّون على أنفُسِهم الهَلاكَ في الدُّنيا والآخِرةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦) واللفظ له، ومسلم (٨٩).

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُحذِّرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من سَبعةِ أعْمالٍ ويَأمُرُ باجتِنابِها؛ سمَّاها «مُوبِقاتٍ»، أي: مُهلِكاتٍ؛ لأنَّها تُهلِكُ صاحِبَها بما يترتَّبُ عليها مِن عِقابِهِ في الدُّنيا، ودُخولِ النَّارِ واستِحْقاقِ عَذابِها في الآخِرةِ، وعلى رَأسِ المُوبقاتِ بعدَ «الشِّركِ» «السِّحْرُ»، والعِصمةُ من شرِّ السِّحرِ -سواءٌ قَبلَ وُقوعِهِ أو بعدَهُ- تكونُ بالتعلُّقِ باللهِ عزَّ وجلَّ، والتحصُّنِ بذِكرِه، والمُداومةِ على عِبادَتِه، واليقينِ أنَّه لا ضُرَّ ولا نَفْعَ إلَّا بمَشيئَتِهِ وإرادتِهِ، وأيضًا بمُقاطعةِ السَّحَرةِ، وعَدَمِ الدُّخولِ عليهم، أو تَصديقِهم فيما يَزعُمونَ، والتَّضييقِ عليهم بكُلِّ الوَسائِلِ المَشْروعةِ؛ فمَن أُصيبَ بالسِّحرِ فليس له أنْ يَتَداوى بالسِّحرِ؛ فإنَّ الشَّرَّ لا يُزالُ بالشَّرِّ، والطَّريقُ الصَّحيحُ لعِلاجِ المَسْحورِ إنَّما يكونُ باللُّجوءِ والتَّضرُّعِ إلى اللهِ تَعالى، والعِلاجِ بالقُرآنِ الكَريمِ، والأدويةِ المُباحةِ، والرُّقيةِ الصَّحيحةِ.

الكِهانة

عن عائِشةَ أمِّ المؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ الكُهَّانَ كانوا يُحَدِّثُونَنا بالشَّيْءِ فنَجِدُهُ حقًّا! قالَ: ((تِلكَ الكَلِمةُ الحَقُّ يَخطَفُها الجِنِّيُّ فيَقْذِفُها في أُذُنِ وليِّهِ، ويَزيدُ فيها مِائَةَ كَذْبَةٍ))[1].



في هذا الحديثِ تَسأَلُ أمُّ المؤمنينَ عائِشةُ رَضِيَ اللهُ عنها رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن شُبهةٍ قد تَعرِضُ لِمن يَستَمِعُ للكُهَّانِ: وهي أنَّ الكُهَّانَ في الجاهليَّةِ، أو قَبلَ تحريمِ الإسلامِ للاستماعِ إليهم، كانوا يتحَدَّثون بالشَّيءِ، ويُخبِرون الأخبارَ، فتَقَعُ وَفْقَ ما أخبَروا، ويَظهَرُ صِدقُ كَلامِهم، فما تبريرُ ذلك، وكيف يَحدُثُ؟

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٢)، ومسلم (٢٢٢٨) واللفظ له.

فأجابَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ ذلك ليس بشيءٍ مِن الحَقِّ أو الصِّدقِ الذي يُعتَمَدُ عليه، وحقيقةُ الأمرِ أنَّ تلك الكَلِمةَ التي يَظهَرُ صِدقُها هي من الأمرِ الواقِعِ والصِّدقِ الثَّابِتِ المسموعِ مِن الملائِكةِ، فيَستَرِقُها الجِنِّيُّ منهم، فربمَّا نجا بها من الشِّهابِ بقَدَرِ اللهِ، فيُسمِعُها للكاهِنِ، فيزيدُ عليها الكاهِنُ مِئَةَ كَذْبةٍ من عندِ نَفْسِه؛ ولذا حرَّم اللهُ عزَّ وجلَّ الدُّخولَ على الكُهَّانِ، فكلامُهم إن وُجِدَ فيه شيءٌ يسيرٌ من الصِّدقِ، فهو مليءٌ بالدَّسِّ والكَذِبِ.

وحَرَّم اللهُ عزَّ وجلَّ الدُّخولَ عليهم أيضًا؛ حتى تَسلَمَ عقيدةُ المؤمِنِ، فلا يَشوبَها شائبةُ شِركٍ؛ بالتعَلُّقِ بغَيرِ اللهِ، وطَلَبِ النَّفعِ ودَفعِ الضُّرِّ مِن غَيرِه، واعتقادِ أنَّ هناك من يَعلَمُ الغَيبَ سِوى اللهِ عزَّ وجلَّ.

إتيانُ الكُهَّانِ والعرَّافِينَ وتَصديقُهم

عن بَعضِ أزواجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: **((مَن أتى عَرَّافًا فسأله عن شيءٍ، لم تُقبَلْ له صلاةٌ أربعينَ ليلةً))**[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: **((مَن أتى عرَّافًا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقولُ فقد كفَر بما أُنزِل على مُحمَّدٍ))**[2].



قضَى الإسلامُ على كُلِّ مَظهَرٍ مِن مَظاهِرِ الخُرافةِ والتلاعُبِ بآمالِ النَّاسِ وآلامِهم،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٩٥٣٦)، والحاكم (١٥)، والبيهقي (١٦٩٣٨) واللفظ له.

صححه الحاكم، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٩٣٩)، وحسنه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٩٥٣٦)، وصحح إسناده الذهبي في ((المهذب)) (٦/ ٣٢٢٨)، وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (١٠/ ٢٢٧): (روي بإسنادين جيدين).

وشَدَّد في تحريمِها، فغَرَس في قلوبِ أتباعِه أنَّه لا يَعلَمُ الغيبَ، ولا يَقدِرُ على النَّفعِ والضُّرِّ أحدٌ سوى اللهِ عزَّ وجلَّ، وواجِبُ المُسلِمِ أن يتعَلَّقَ باللهِ وَحْدَه، وأن يُفَوِّضَ أمْرَه إليه، وأن يكونَ طَلَبُه للحقائِقِ والأشياءِ مِن خلالِ الأدعيةِ الشَّرعيَّةِ الصَّحيحةِ التي أذِنَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها ورَضِيَها لعبادِه، فهذا دليلُ إيمانِه، وعلامةُ تصديقِه لرَبِّه.

وفي هذه الأحاديثِ بَيانٌ لتَحريمِ الإسلامِ فِعْلَ الكُهَّانِ والعرَّافينَ، وخُطورةِ الدُّخولِ عليهم وتصديقِهم فيما يقولون؛ **ففي الحديثِ الأوَّل** ينهى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الدُّخولِ على العرَّافين، وطَلَبِ مَعرفةِ شَيءٍ منهم. فمَن فَعَل ذلك فهو معاقَبٌ بالحِرمانِ مِن قَبولِ صَلاتِه مُدَّةَ أربعينَ يَومًا، ولا يعني إسقاطَ الصَّلاةِ عنه، بل هو مأمورٌ بأدائِها، ولا تَسقُطُ عنه بحالٍ، وأمَّا عَدَمُ قَبُولِ صلاتِه فمعناه أنَّه لا ثوابَ له فيها، وإنْ كانَتْ مُجْزِئةً في سُقوطِ الفَرضِ عنه، ولا يَحتاجُ معَها إلى إعادةٍ.

وفي الحَديثِ الثاني يُشَدِّدُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويحَذِّرُ مَن يَدخُلُ على العرَّافِينَ أو الكَهَنةِ. والفَرقُ بين الكاهِنِ والعرَّافِ: أنَّ الكاهِنَ هو الذي يَتعاطى الخبَرَ عن الأُمورِ الغَيبيَّةِ، فيَدَّعي عِلمَ مَا يكونُ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَان، وَيَدَّعِي معرفَةَ الْأَسْرَارِ، والعرَّافُ: يختص بالماضي، فيدَّعي معرفَةَ الشَّيءِ الْمَسْرُوقِ، ومَكانِ الضَّالةِ، ونحْوِ ذلِك. وقيل: كِلاهما بمعنًى واحِدٍ؛ فقولُه: «مَنْ أَتَى عرَّافًا أو كاهِنًا» يَشمَلُ إتْيانَ الكاهِنِ وَالْعَرَّافِ وَالْمُنَجِّمِ ونحوِهم.

ثُمَّ بيَّنَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عظيمَ عُقوبةِ ذلك، فأخبَرَ أنَّ مَن فَعَلَه مُصدِّقًا لهم «فقد كَفَرَ بما أُنزِلَ على محمَّدٍ»، أي: القرآنِ، فهذه عَقوبةُ مَن سَأَلَ الكاهنَ أو العرَّافَ مُعتقِدًا صِدْقَه وأنَّه يَعلَمُ الغَيبَ؛ وذلك لأنَّ مِمَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَولَه تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، فمُعتَقِدُ صِدقِ الكاهِنِ أو العَرَّافِ بعِلمِ الغيبِ مُكَذِّبٌ لهذه الآيةِ.

وقد تقدَّم أنَّ عُقوبةَ مَن سألَ عرَّافًا دونَ تَصديقِه أنَّه لا تُقبَلُ له صَلاةٌ أربعينَ يومًا.

الاسْتِسْقاءُ بالنُّجُومِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وعن أبي مالكٍ الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أرْبَعٌ في أُمَّتي مِن أمْرِ الجاهِليَّةِ، لا يَتْرُكونَهُنَّ: الفَخْرُ في الأحْسابِ، والطَّعْنُ في الأنْسابِ، والاستِسْقاءُ بالنُّجومِ، والنِّياحةُ))(١).

وعن زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: صَلَّى بنا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ صَلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيْبيَةِ في إثْرِ السَّماءِ كانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فلمَّا انْصَرَفَ أقْبَلَ على النَّاسِ فقالَ: ((هلْ تَدْرُونَ ماذا قالَ رَبُّكُم؟ قالوا: اللَّهُ ورَسولُه أعلَمُ. قالَ: قالَ: أصْبَحَ مِن عِبادِي مُؤْمِنٌ بي وكافِرٌ؛ فأمَّا مَن قالَ: مُطِرْنا بفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِه فذلكَ مُؤْمِنٌ بي كافِرٌ بالكَوكَبِ، وأمَّا مَن قالَ: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا وكذا فذلكَ كافِرٌ بي مُؤْمِنٌ بالكَوكَبِ))(٢).

ممَّا كان يقومُ به أهلُ الجاهليَّةِ نِسبةُ نُزولِ المطَرِ إلى النُّجومِ، مُعتقِدين أنَّها تُؤثِّرُ بذاتِها في خلْقِ المطَرِ أو إنزالِه، وهذا كُفْرٌ، فهمْ بذلك يَجعَلون حظَّهم مِن رِزقِ اللهِ التَّكذيبَ به بَدلًا مِن شُكرِه على نِعمتِه، كما بيَّنَ اللهُ تَعالى في الآيةِ الكريمةِ؛ فالذي يَنْبغي على العِبادِ إنْ أصابَهُم خيرٌ أنْ يَنسُبوه إلى اللهِ، ويَشكُروه عليه.

وَفي حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه يذكرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أُمورًا أربعةً مِن أُمورِ أهلِ الجاهليَّةِ لا تزالُ واقِعةً في هذه الأُمَّةِ، فَحذَّرنا مِنها، وأنَّ مَن

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٨)، ومسلم (٧١).



أَتى بواحدةٍ مِنها فقدْ أَتى بإِحْدَى الصِّفاتِ الجاهليَّةِ.

ومن تلك الخِصالِ: «الاسْتِسْقاءُ بالنُّجُومِ»، والاستسقاءُ هو طَلَبُ السُّقْيا، والمرادُ اعتقادُ أَنَّ نُزولَ المطَرِ هو بظُهورِ نَجْمِ كذا، ومتى اعتَقَد أنَّ للنَّجمِ تأثيرًا مُستَقِلًّا في إنزالِ المطَرِ، أشرَكَ شِركًا أكبرَ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

ومَن جعَلَ هذه الأنواعَ سَبَبًا مع اعتقادِه أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ هو الخالِقُ الفاعِلُ، كان ذلك شِرْكًا أصغَرَ؛ لأنَّ كُلَّ مَن جَعَل سَبَبًا لم يجعَلْه اللهُ سَبَبًا لا بوَحْيِه ولا بقَدَرِه، فهو مُشرِكٌ شِرْكًا أصغَرَ.

وفي حديثِ زيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه يقَرِّرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لا نافِعَ ولا ضارَّ سِوى اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه مِن الكُفرِ والشِّركِ اعتِقادُ النَّفعِ والضُّرِّ في الأسبابِ بَعيدًا عن اللهِ تعالى؛ فقد حَدَث أن أمطَرَت السَّماءُ ليلًا «بالحُدَيبيَةِ» -وهي قَريةٌ قريبةٌ مِن مَكَّةَ سُمِّيَت باسمِ بِئرٍ فيها- فلمَّا صلَّى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صَلاةَ الفَجرِ من تلك الليلةِ، أقبلَ على النَّاسِ بوجهِه الشَّريفِ، فسَألَهم: «هل تَدرونَ ماذا قالَ ربُّكم عزَّ وجلَّ؟» فأجابوه: «اللهُ ورَسولُه أعلمُ». فأعلَمَهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: أصبَحَ النَّاسُ بالنِّسبةِ إلى نُزولِ الأمطارِ على قِسمَين: قِسمٍ مُؤمِنٍ باللهِ تعالى لا يُشرِكُ به شَيئًا، ويَعلَمُ أنَّ اللهَ هو مُدَبِّرُ الأمرِ ومُنزِلُ هذا المطَرِ. وقِسمٍ كافِرٍ بوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، ويُشرِكُ معه غيره.

«فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بِفَضلِ اللهِ ورَحمتِه»، فأسندَ إنزالَ الأمطارِ حقيقةً إلى اللهِ تعالى، فذلِك مُؤمِنٌ ومُوَحِّدٌ للهِ، وكافِرٌ بالكَوكِبِ، «وأمَّا مَن قال: مُطِرنا بنَوءِ كذا وكذا»، فذلِك كافِرٌ بالله مُؤمِنٌ بالكَوكَبِ، فمَن نسَبَ الأمطارَ وغيرَها مِن الحوادِثِ

الأرضيَّةِ إلى تَحرُّكاتِ الكَواكِب في طُلوعِها وسُقوطِها مُعتقِدًا أنَّها الفاعِلُ الحقيقيُّ، فهو كافِرٌ مُشرِكٌ في تَوحيدِه لرَبِّه.

وإنْ لم يعتَقِدْ ذلك فهو مِنَ الشِّركِ الأصغَرِ؛ لأنَّه نَسَب نِعمةَ اللهِ إلى غيرِه، ولأنَّ اللهَ لم يجعَلِ النَّوءَ سَبَبًا لإنزالِ المطَرِ فيه، وإنَّما هو فَضلٌ مِن اللهِ ورحمةٌ، يَحبِسُه إذا شاء، ويُنزِلُه إذا شاء.

والمسنونُ لكُلِّ مؤمنٍ أن يقولَ كما وجَّه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورَحمتِه».

النُّشْرةُ

عن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سُئِلَ النبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ النُّشرةِ. فقالَ: ((هوَ مِن عَمَلِ الشَّيطانِ))[1].



حذَّر الإسلامُ مِن السِّحرِ وكلِّ عملٍ يقرِّب منه ولو علَى قصْدِ العِلاجِ والتداوِي به. وفي هذا الحَديثِ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُئِلَ عن حُكمِ النُّشْرَةِ: وهي نَوْعٌ مِن العِلاجِ كان يَتعاطاهَ أهلُ الجاهليَّةِ، وهي حَلُّ السِّحرِ بسِحرٍ مِثلِه، أو سُؤالُ الساحِرِ؛ ليَحُلَّ السِّحرَ أو يُعالِجَ به الْمَصروعَ، سُمِّيتْ بذلِكَ؛ لِزَعمِهم أنَّ الجِنَّ تُنْشَرُ بها عن المَمْسوسِ، أوْ أنَّ الدَّاءَ الذي يُخامِرُه يُنْشَرُ بها، بمعنى: يَذهَبُ ويَتفرَّقُ، وَيَنْشَطُ بَعْدَها المريضُ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٦٨) واللفظ له، وأحمد (١٤١٣٥).

صحَّح إسناده النووي في ((المجموع)) (٩/ ٦٧)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٨٦٨)، وحسَّن إسنادَه ابن حجر في ((فتح الباري)) (١٠/ ٢٤٤)، وجوَّد إسنادَه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ٢٨٠)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٨٦٨).

فبَيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ هذا الفِعلَ مِن تَسويلِ الشَّيطانِ وتزيينِه ووَحيِه؛ لأنَّ بِها ألْفاظًا وأَعْمَالًا شِركيَّةً مِنَ السِّحْرِ وغَيْرِه، أو أنَّها تَكُونُ مِنَ الشَّيْطانِ؛ لِما فِيها مِنَ اعتِقادِ النَّفعِ والضُّرِّ في الأشياءِ، ولا يَنبغي للمُسلمِ الموحِّدِ أنْ يقولَها أو يَعتقِدَها، مع أنَّها لا تُداوِي على جِهةِ الطِّبِّ المعروفِ كذلك.

وهذا الحَديثُ مَحمولٌ على النُّشرةِ المُخالفةِ للشَّرعِ مِثلَما كان يَفعَلُ أهلُ الجاهليَّة؛ من اشتمالِها على أشياءَ خَارجةٍ عَن كِتابِ اللهِ تعالى، وعَنْ ذِكْرِه، وعَن سُنَّةِ نَبيِّه صلَّى اللَّهُ عَليه وسَلَّمَ.

وأَمَّا النُّشرةُ التي هي حَلُّ السِّحْرِ بالرُّقيَةِ والتعوُّذاتِ الشَّرعيةِ والأدويةِ المُباحةِ، فإنَّها مشروعةٌ ولا شَيءَ فيها، كما ثَبَتَ في حديثِ جابرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان لي خالٌ يَرقِي من العَقربِ، فنَهَى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الرُّقَى، قال: فأتاه، فقال: يا رَسولَ الله، إنَّك نهيتَ عن الرُّقَى، وأنا أَرْقِي مِن العقربِ؟ فقال: مَنِ اسْتَطاعَ أنْ ينفَعَ أخاه فَلْيفعَلْ))[1]، وقدْ أمَرَ أيضًا باغتِسالِ العائنِ لِمَن أصابَه بِعيْنِه، وقال: ((العَينُ حَقٌّ، ولو كان شَيءٌ سابَقَ القَدَرَ سبقَتْه العَينُ، وإذا استُغسِلْتُم فاغسِلُوا))[2].

التَّمائِمُ

عن عُقبةَ بنِ عامرٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عنْه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أقبَلَ إليه رَهطٌ، فبايَعَ تِسعةً وأمسَكَ عن واحدٍ، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، بايَعتَ تِسعةً وترَكْتَ هذا؟ قال: ((إنَّ عليه تميمةً، فأَدْخَلَ يَدَه فقَطَعَها، فبايَعَه، وقال: مَن عَلَّق تميمةً فقد

(١) أخرجه مسلم (٢١٩٩).

(٢) سيأتي تخريجه (ص: ١٠٨).

أشرَكَ))[1].

كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حريصًا على بِناءِ العَقيدةِ الصَّافيةِ في قُلوبِ المؤمِنينَ، وتَخليصِها من آثارِ الجاهِليَّةِ السَّيِّئةِ، فلا يَملِكُ النَّفعَ والضُّرَّ إلَّا اللهُ وَحْدَه؛ لذا فالمسلِمُ لا يتوكَّلُ إلَّا على اللهِ، ومن أعمالِ الجاهليَّةِ تَعليقُ التَّمائِمِ، وقد نهى عنها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبَيَّن أنَّها مِن الشِّركِ.

ففي هذا الحديثِ يخبِرُ عُقبةُ بنُ عامرٍ الجُهَنيُّ رَضِيَ اللَّهُ عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أقبَلَ إليه مجموعةٌ من الرِّجالِ يُبايِعونَه على الإسلامِ. وكان عددُه عَشرةً، فبايع النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تسعةً منهم، وامتنَعَ عن مُبايعةِ العاشِرِ، فسأله أصحابُه عن سبَبِ ذلك، فبَيَّن لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السَّبَبَ، وهو أنَّ الرَّجُلَ كان لابِسًا لتميمةٍ، وقد كان هذا من عاداتِ الجاهليَّةِ، فكانوا يعتَقِدونَ فيها أنَّها تَقِيهم وتحمِيهم مِن السُّوءِ والآفاتِ، وكانوا يُلبِسونَ الأطفالَ والخَيلَ القلائِدَ والخُيوطَ التي فيها الخرزُ والتَّمائِمُ؛ لِتَدفَعَ عنهم السُّوءَ بزَعمِهم، فقطع الرَّجُلُ التميمةَ لمجَرَّدِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نهاه عنها، ثمَّ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «مَن عَلَّق تميمةً فقد أشرَكَ». ومعناه: أنَّ من عَلَّق مِثلَ تلك التَّمائِمِ مُعتقِدًا أنَّها سَببٌ مُؤثِّرٌ في جلْبِ الخيرِ أو دَفْعِ الضُّرِّ، أو أنَّها سببٌ في ردِّ العَينِ؛ كان ذلك من الشِّركِ الأصغَرِ، أمَّا مَنِ اعْتقَدَ فيها النَّفْعَ، وأنَّها تدْفَعُ الضَّرَرَ بِذاتِها مِنْ دُونِ اللهِ، فهذا مِن الشِّركِ الأكْبَرِ.

(١) أخرجه من طرق: أحمد (١٧٤٢٢)، والحاكم (٧٥١٣).
وثَّق رُواتَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٣٩)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ١٠٦)، وقال ابن باز في ((الفوائد العلمية من الدروس البازية)) (٣/ ١٦٥): سندُه لا بأسَ به. وصَحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٣٩٤)، وقوَّى إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٧٤٢٢).



وهذا الحَديثُ مَحمولٌ على التَّمائمِ التي ليسَ فيها قُرآنٌ وَنَحْوُه، كالعِظامِ والطلاسِمِ، وما أشبَهَ ذلك. أمَّا إذا كان فيها قُرآنٌ أو ذِكْرٌ للهِ تعالَى، ففيها خِلافٌ بين السَّلفِ؛ فبعضُهم أجازَها للتَّبرُّكِ والتَّعوُّذِ بأسماءِ اللهِ سُبْحانَه، وجعَلوها كالرُّقيةِ للمَريضِ، بَشرْطِ أنْ تُعلَّقَ في مَكانٍ ليس فيه إهانةٌ. وبعضُهم منَعَ ولو كانتْ مِن القُرآنِ؛ سَدًّا للذريعةِ، وحسْمًا لمادَّةِ الشِّركِ، وعملًا بالعُمومِ الذي في هذا الحديثِ وغيرِه.

الطِّيَرةُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨، ١٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا عَدْوى، ولا طِيَرةَ، ولا هامَةَ، ولا صَفَرَ))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ أيضًا، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الطِّيَرةُ شِركٌ))[2].



(١) أخرجه البخاري(٥٧٥٧) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وأحمد (٣٦٨٧) مطولًا.

صَحَّحه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (٦١٢٢)، وابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٤/ ١٠٨)، وابن دقيق في ((الاقتراح)) (١٢٥)، وابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (٤/ ٣٣٣)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٩١٠).

جاءَ الإسلامُ ليَهدِمَ مُعتقَداتِ الجاهِليَّةِ، ويَدفَعَ الأوْهامَ والخَيالاتِ التي تَعبَثُ بالعُقولِ، والتَّطَيُّرُ مِن أخلاقِ الجاهليَّةِ التي قَضَى عليها الإسلامُ، وهو بمعْنى التَّشاؤمِ، فما أصابَ العِبادَ لم يكُنْ لِيُخطِئَهم، وما أخطَأَهم لم يكُنْ ليُصيبَهم، فما وقَعَ في الأرضِ مِن مُصيبةٍ؛ كالقحطِ، وهَلاكِ الزَّرْعِ والثَّمَرِ، أو في الأنفُسِ؛ كالأمراضِ، والأوجاعِ، والفَقرِ، والموتِ- إلَّا وهو مَكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ قبْلَ خَلْقِ النُّفوسِ، **كما في الآيةِ الأُولَى**.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّ آلَ فِرعَونَ كانوا إذا جاءَتْهم الحالُ الحَسَنةُ؛ كالعافيةِ، والرَّخاءِ، وكَثْرَةِ الأمطارِ، وكثرةِ الثِّمارِ، قالوا: هذه النِّعَمُ الكثيرةُ لنا؛ لأنَّنا نَستحِقُّها، وجَديرون بها، ولم يَشْكُروا اللهَ عليها، وإنْ أصابَتْهم حالٌ سيِّئةٌ في بعضِ الأوقاتِ؛ كالجَدْبِ، والقَحْطِ، وقِلَّةِ الأرزاقِ، ومجيءِ الأمراضِ، تَشاءَموا بموسى ومَنْ معه مِنَ المؤمنينَ، وقالوا: جاءَنا هذا البَلاءُ بسَبَبِ موسى والَّذينَ آمَنوا بدِينِه! فبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ ما يُصيبُ فِرعونَ وقومَه مِن شرٍّ إنَّما هو مُقَدَّرٌ عليهم مِن عِندِ اللهِ تعالَى؛ عُقوبةً لهم بسَبَبِ كُفْرِهم، وليس هو مِن عِندِ موسى والمؤمِنينَ معه، ولكنَّ أكثرَ قَومِ فِرعونَ لا يَعلَمونَ ذلك؛ فالتطَيُّرُ والتَّشاؤُمُ من صِفاتِ الكُفَّارِ، وعلى المُسلِمينَ اجتنابُه، وأنْ يَتوكَّلوا على اللهِ؛ فالأُمورُ بيَدِه وحدَه سبحانه، والشُّؤْمُ الحقيقيُّ الذي يَسْتدعي كُلَّ ضَرَرٍ هو مُخالَفةُ ربِّ العالَمينَ عزَّ وجلَّ.

وفي الآيةِ الثالثةِ يُخبِرُ اللهُ تعالَى عن أصحابِ القَريةِ التي جاءَها المُرسَلونَ ودَعَوْهم إلى توحيدِ اللهِ تعالَى وطاعته فأَبَوْا، وقالوا لرُسُلِهم: إنَّا تشاءَمْنا بكم، ولئِنْ لم تَتْرُكوا دَعْواكم لَنرجُمنَّكم بالحِجارةِ، ولَيُصيبَنَّكم مِنَّا عذابٌ مؤلمٌ مُوجِعٌ. فقالت لهم رسُلُهم: شُؤمُكم الذي جَلَب لكم البلاءَ إنَّما هو معكم؛ بسبَبِ ضَلالِكم، وليس بسَبَبِنا كما زعَمْتُم، فِلأنَّنا وعَظْناكم وأمَرْناكم باتِّباعِ الحَقِّ تُقابِلونَنا بهذا الرَّدِّ؟! وليس الأمرُ كما تدَّعونَ، وإنَّما أنتم قومٌ عادتُكم الطُّغيانُ ومُجاوَزةُ الحُدودِ!



وفي الحديثِ الأوَّلِ يَغرِسُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في المؤمنينَ اليَقينَ باللهِ، وحُسنَ التوكُّلِ عليه، ويَقطَعُ أوهامَ المُتطَيِّرينَ ومَن يَعتقِدون الضَّرَّ والنَّفعَ في غَيرِ اللهِ؛ فيُخْبِرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: أنَّه «لا عَدْوى» تُؤثِّرُ بطَبْعِها، وإنما يَحدُثُ هذا بقدَرِ اللهِ وتَقديرِه، والعَدْوى: هي أنْ يَنتقِلَ المرضُ مِنَ المريضِ لغَيرِه، وكانوا يظُنُّون أنَّ المرضَ بنفسِه يُعْدِي، فأعلَمَهُم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو المُتَصرِّفُ في الكَونِ؛ فهو الذي يُمرِضُ ويُنزِلُ الدَّاءَ، كما أخبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أيضًا بأنَّه «لا طِيَرةَ»، والمرادُ بها: التَّشاؤُمُ، فكانَ أهلُ الجاهِليَّةِ إذا خَرَجوا لحاجةٍ لهم من سَفَرٍ أو تجارةٍ فشَاهدوا الطَّيرَ يطيرُ عن يَمينِهم استَبشروا به واستَمَرُّوا في سَيرِهم، وإذا طارَ عن يَسارِهم تشاءَموا بهِ ورَجَعوا، فجاء الشَّرعُ بالنَّهيِ عن ذلك؛ إذ ليس له حقيقةٌ تُعتَقَدُ وتُعتَمَدُ، وإنَّما هو مَحضُ خيالٍ بتعاطي ما لا حقيقةَ ولا أصلَ له؛ إذ لا نُطْقَ للطَّيرِ ولا تمييزَ له حتَّى يُستَدَلَّ بفِعْلِه على أمرٍ ما.

وأيضًا يُبطِلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ التَّشاؤمَ والتَّطَيُّرَ بالهامَةِ، وأنَّه لا وُجودَ لهذا المُعتقَدِ الجاهِليِّ في ظلِّ الإسلامِ. والهامَةُ: اسمُ طائرٍ، وهو المرادُ في الحديثِ؛ وذلك أنَّهم كانوا يَتشاءَمون بها، وهي مِن طَيرِ اللَّيلِ. وقيل: هي البُومةُ.

ومِنَ المُعتقَداتِ الجاهليَّةِ التي أبطَلَها الإسلامُ، ونصَّ عليها هذا الحديثُ: التَّشاؤمُ بشهرِ صَفَرَ، فنَهى الإسلامُ عن ذلك؛ إذ هو شَهرٌ مِن شُهورِ اللهِ، يقَعُ فيه الخَيرُ والشَّرُّ، ولا شَيءَ يقَعُ إلَّا بقَدَرِ اللهِ.

وفي الحديثِ الثَّاني: يَحكُمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الطِّيَرةِ -التي تعني التَّشاؤُمَ بالشَّيءِ- بأنَّها شِركٌ، وإنَّما كانت كذلك؛ لأنَّهم كانوا يَعتَقِدونَ أنَّها تَجلِبُ لهم نَفعًا أو تَدفَعُ عنهم ضُرًّا، إذا عَمِلوا بمُوجِبِها، فكأنَّهم أشرَكوا باللهِ عزَّ وجَلَّ؛ ففيها تعلُّقُ القَلبِ بغيرِ اللهِ، ولأنَّها مِن أعمالِ أهلِ الشِّركِ، ولو لم يكُنْ فيها إلَّا سُوءُ الظَّنِّ

باللهِ لكفى بها قُبحًا. والواجِبُ هو حُسنُ الظَّنِّ باللهِ تعالى، والتوكُّلُ على اللهِ وحدَه، وتعلُّقُ القَلبِ به سُبحانَه وتعالى.

الرِّياءُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وعن جُندُبِ بنِ عَبدِاللهِ البَجَليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللَّهُ به، ومَن يُرائِي يُرائِي اللَّهُ بِهِ))[1].

وعن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((قال اللهُ تبارَكَ وتَعالَى: أنا أَغْنَى الشُّرَكاءِ عنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ فِيه معي غَيْرِي، تَرَكْتُه وشِرْكَهُ))[2].



الشِّركُ الأصغَرُ هو كلُّ ما نَهى عنه الشَّرعُ ممَّا هو ذَريعةٌ إلى الشِّركِ الأكبَرِ، ووسيلةٌ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).



لِلوُقوعِ فيه، وهو غيرُ مُخرِجٍ مِن مِلَّةِ الإسلامِ، ومِن أنواعِ هذا الشِّركِ: الرِّياءُ. وهو مِن صَنيعِ المنافِقين.

ففي الآيةِ الأُولى بَيانُ أنَّ المنافِقَ يَبذُلُ مالَه لأجْلِ اللهِ تَعالى في ظاهِرِ الأمْرِ، بيْنما يَنوِي في باطِنِه أنْ يُرِيَ النَّاسَ صَنيعَه؛ ليَحمَدوه ويُثْنوا به عليه، وهم لا يُدركِون في واقعِ الأمرِ حَقيقةَ أنَّه لا يُؤمِنُ باللهِ تَعالى ولا بالآخرةِ، فلا يَطمَعُ في نَيلِ ما فيها مِن ثَوابٍ لِقاءَ ما يُقدِّمُه في الدُّنيا مِن مَعروفٍ، وقلْبُ هذا المنافقِ في صَلابتِه وشِدَّتِه، وعدَمِ الانتفاعِ به- لعدَمِ إيمانِه وإخلاصِه للهِ تَعالى- يُشبِهُ حالَ حجَرٍ أملَسَ، ونَفقةُ هذا المنافقِ تُشبِهُ تُرابًا يَعلو هذا الحجَرَ، فهو مُستنِدٌ إليه، يَظُنُّ مَن يَراهُ أنَّه أرضٌ طيِّبةٌ صالحةٌ للإنباتِ، مِثلَما يَظُنُّ مَن يُشاهِدُ ظاهرَ حالِ المنافقِ أنَّ صَدَقتَه مَبنيَّةٌ على أساسٍ مِن الإيمانِ والإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ، فتُثمِرُ له حَسَناتٍ، وشبَّهَ اللهُ تَعالى تَعرُّضَ التُّرابِ لمَطَرٍ غزيرٍ شَديدِ الوقْعِ، بالمانعِ الذي أبْطَلَ صَدَقتَه، وذَهَبَ بأثَرِها تَمامًا، وكما أصبَحَ الحجَرُ في نِهايةِ الأمرِ صُلْبًا كما عُهِدَ مِن قبلُ، وخاليًا لا شَيءَ عليه مِن تُرابٍ، ولم يَبْقَ أمَلٌ في إنباتِ نَباتٍ؛ فكذلك صَدَقاتُ هذا المنافِقِ تَذهَبُ هَباءً، لا تُثمِرُ شيئًا مِن الحَسَناتِ وزِيادةِ الإيمانِ؛ لأنَّه لا أصْلَ لها تُؤسَّسُ عليه، ولا لها مَقصَدٌ طيِّبٌ تَنْتهي إليه؛ فكلُّ ما قدَّمَه مُضمحِلٌّ.

وذكَرَ اللهُ تَعالى **في الآيةِ الثانيةِ** صِفةً مِن صِفاتِ المنافِقينَ، وهي أنَّهم إذا قاموا لأداءِ الصَّلاةِ قامُوا إليها وهمْ مُتثاقِلون مُتبرِّمون مِن فِعْلِها؛ لأنَّهم لا نِيَّةَ ولا رَغبةَ لهم فيها، وغيرُ مُؤمنين بها أصْلًا، ولا مُوقِنين بمَعادٍ، ولا ثَوابٍ، ولا عِقابٍ، فيُؤدُّون الصَّلاةَ التي يَقومون إليها كُسالى؛ ليَراهُم المؤمِنون، فيَحسَبوا أنَّهم منهم.

وفي الآيةِ الثالثةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ مَن كان يرجو رُؤيةَ اللهِ في الآخرةِ، وثوابَه، ويَخشَى عِقابَه؛ فلْيَعمَلْ في الدُّنيا عَمَلًا صالِحًا خالِصًا لله، مُوافِقًا لِشَرعِه، ولا يَعبُدْ

معَ اللهِ غيرَه، ولا يُراءِ في عِبادةِ اللهِ أحدًا مِن الخَلقِ، بلْ عليه أنْ يَجعَلَ عِبادتَه خالِصةً للهِ وحدَه لا شَريكَ له.

وفي حَديثِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن طلَب بعَمَلِه الثَّناءَ والمدحَ من النَّاسِ، «يُرائي اللهُ به» بأن يَفضَحَه ويُظهِرَ ما كان يُبطِنُه، حيثُ يُظهِرُ اللهُ سَرِيرَته وفَسادَ نيَّتِه أمامَ النَّاسِ في الدُّنيا أو في الآخِرَة، وربَّما يكونُ المرادُ أنَّ اللهَ يَشْهَرُ عَمَلَه في الدُّنيا ويُعرِّفُه للنَّاسِ، ثُم يُؤاخِذُه عليه في الآخِرة. فاللهُ عزَّ وجلَّ لا يَقبَلُ عَمَلًا إلَّا ما كان خالِصًا لوَجهِه الكريمِ، ومَن فَعَلَ ذلك وَقَع في الشِّركِ الأصغَرِ.

وفي حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يَروي النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن اللهِ عزَّ وجلَّ ما فيه تخويفٌ وترهيبٌ مِن الشِّركِ، فيُخبِرُ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه يَتبرَّأُ مِنَ العملِ الَّذي لم يُخلِصْ فيه صاحِبُه النِّيَّةَ له سُبحانَه، وشابَتْهُ شائبةُ الشِّركِ؛ فاللهُ تَعالى هو الغنيُّ عن كُلِّ شَيءٍ؛ غَنيٌّ عنِ العَالَمينَ، فيَرُدُّه على صاحِبِه، ولا يَقبَلُه؛ لأنَّه سُبحانَه لا يُقبِلُ إلَّا ما كان خالِصًا لوَجْهِه لا رياءَ فيه ولا سُمْعةَ تُخالِطُه. والرِّياءُ على ثلاثةِ أنواعٍ؛ **الأوَّل**: الرِّياءُ بالعملِ؛ كمُراءاةِ المُصَلِّي بطُولِ الرُّكوعِ والسُّجودِ. **الثَّاني**: المُراءاةُ بالقَولِ؛ كقَصدِ العِلمِ لِيُقالَ: عالِمٌ. **الثَّالثُ**: المُراءاةُ بالهَيئةِ والزِّيِّ؛ كإبقاءِ أثرِ السُّجودِ على الجَبهةِ رِياءً. وقد أخبَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أوَّلَ مَن تُسَعَّرُ بهمُ النَّارُ: رجُلٌ قاتَلَ في الجِهادِ حتَّى قُتِل، لِيُقالَ: جَريءٌ، ورجُلٌ تَعلَّمَ العِلمَ وعَلَّمَه وقرَأَ القُرآنَ لِيُقالَ: عالِمٌ وقارئٌ، ورجُلٌ تصَدَّقَ لِيُقالَ: جَوادٌ[1].

فعَلى العبدِ أنْ يَحذَرَ مِنَ الوُقوعِ في الرِّياءِ، وأن يلجأَ إلى اللهِ ويُكثِرَ من دُعائِه أن يُعيذَه مِن شَرِّ نفْسِه، ومِن شرِّ الشَّيطانِ وشِرْكِه، وأن يَرزُقَه الإخلاصَ فيما يأتي وما يَذَرُ، وأن يَحرِصَ على تَجديدِ النِّيَّةِ في كلِّ وَقتٍ وحِينٍ.

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.





الحَلِفُ بغَيرِ اللهِ وكَفَّارتُه

عن سَعدِ بنِ عُبيدَةَ، قال: سمِعَ ابنُ عُمرَ رجُلًا يَحلِفُ: لا والكَعبةِ، فقال له ابنُ عُمرَ: إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((مَن حلَفَ بغيرِ اللهِ فقدْ أشرَكَ))[1].

وعن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّه أدْرَكَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ في رَكْبٍ وهو يَحلِفُ بأبيه، فنَاداهُم رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ألَا إنَّ اللَّهَ يَنْهاكُم أنْ تَحلِفوا بآبائِكُم؛ فمَن كان حالِفًا فلْيَحْلِفْ باللَّهِ، وإلَّا فلْيَصْمُتْ))[2].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن حَلَفَ فقالَ في حَلِفِهِ: واللَّاتِ والعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، ...))[3].



كان مِن عادةِ العربِ أنْ يَحلِفوا بِآبائِهم أو بآلهتِهم وغيرِها ممَّا كان يَعبدونَه أو يُعظِّمونَه في الجاهليةِ، والحلِفُ بِالشَّيءِ تَعظيمٌ له؛ ولذلك نَهى اللهُ سبحانه وتعالى عَن الحلِفِ بِغيرِه؛ لأنَّ حقيقةَ العَظَمَةِ مختصَّةٌ بِاللهِ تعالى، فلا يُساوَى به غيرُه؛ ولهذا وجَبَ أنْ يكونَ حَلِفُنا باللهِ أو بأسمائِه وصِفاتِه؛ حتَّى لا نقَعَ في الشِّركِ الأصغَرِ.

وفي الحديثِ الأوَّلِ يُخبِرُ التابعيُّ سَعدُ بنُ عُبَيدةَ أنَّ عبدَاللهِ بنَ عُمرَ رَضِيَ اللهُ

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١) واللفظ له، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٦٠٧٢) من حديث عَبدِالله بن عمرَ رضي الله عنهما.
حسَّنه الترمذي، وصَحَّحه ابنُ حبان في ((الصحيح)) (٤٣٥٨)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٧٨١٤) وقال: على شرطِ الشَّيخينِ. وقال الذهبي في ((الكبائر)) (٢٢٩): إسنادُه على شرط مسلمٍ. وصحَّحه ابنُ تيميةَ كما في ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ٢٨)، وابنُ القيم في ((الوابل الصيب)) (١٨٩)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٢٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٨) واللفظ له، ومسلم (١٦٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٦٠) واللفظ له، ومسلم (١٦٤٧).



عنهما قد سمِعَ رجُلًا يحلِفُ بالكعبةِ كما هي عادةُ العرب، فنَهاه عن ذلك لِمَا فيه مِن النَّهيِ والتشديدِ الذي ورَدَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حيثُ قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَن حلَفَ بغيرِ اللهِ فقدْ أَشْرَكَ»، أي: أشرَكَ معَه غيرَه بحَلِفِه به. وهذا للزَّجرِ والتَّغليظِ في النَّهيِ والامتِناعِ عنْ مِثلِ هذا الحَلِفِ؛ فمما يَتعبَّدُ به المسلمُ للهِ عزَّ وجلَّ تَعظيمُ جَنابِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى وتَنزيهُه وتَخصيصُه بالحَلِفِ والقَسَمِ به دونَ غيرِه من المخلوقاتِ.

وفي الحَديثِ الثاني أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا سمِعَ عُمرَ بنَ الخطَّابِ رضِي اللهُ عنه وهو في ركْبٍ، يَحلفُ بِأبيه، ناداهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأخبَرَهم أنَّ اللهَ تعالى نهَى عَنِ الحلِفِ بِالآباءِ، فمَنْ أرادَ الحلِفَ فَلْيحلِفْ بِاللهِ، وإلَّا فَلْيصمُتْ ولا يَحلِفْ بِغيرِه.

وقدْ نَهَى عَنه الشرعُ؛ لأنَّه ذَريعةٌ إلى الشِّركِ الأكبرِ، ووَسِيلةٌ للوُقوعِ فيهِ، والشِّركُ الأصغرُ لا يُخرجُ مَن وقعَ فيهِ مِن مِلَّةِ الإسلامِ، ولكنَّه مِن أكبرِ الكبائرِ بَعدَ الشِّركِ الأكبرِ؛ ولذا قالَ عبدُاللهِ بنُ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: (لأنْ أحلِفَ باللهِ كاذِبًا أحَبُّ إليَّ من أن أحلِفَ بغَيرِه وأنا صادِقٌ)[1].

وفي الحديثِ الثالثِ بيانُ ما يقولُه الإنسانُ إذا سبقَه لِسانُه فوَقَع في محظورِ الحلفِ بغيرِ الله، فيُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللَّهِ، مِثْلُ أن يقولَ في يَمينِهِ: وَاللَّاتِ والعُزَّى، يُشيرُ بذلك إلى الصَّنَمَينِ اللَّذينِ كانت العرَبُ تَعبُدُهما في الجاهليَّةِ، فمَن سَبَق لِسَانُه بذلك فَلْيَقُلْ مُستَدرِكًا على نَفسِهِ: «لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ»؛ حَيثُ أشرَكَهُما بِاللَّهِ في التَّعظيمِ؛ إذ الحَلِفُ يَقتَضي تَعظيمَ المَحلوفِ به، وَحَقيقةُ العَظَمةِ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢٤١٤)، والطبراني (٩/ ٢٠٥) (٨٩٠٢) واللفظُ لهما.
قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٥٨): رواتُه رواةُ الصَّحيحِ. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٤/ ١٨٠): رجالُه رجالُ الصحيحِ. وصحَّحه الألباني في ((إرواء الغليل)) (٢٥٦٢).





مُختَصَّةٌ بِاللَّهِ تَعالى، فَلا يُضاهَى بها مَخلوقٌ، فأوجَبَ قَولَ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ على من حَلَفَ بغيرِ اللهِ سبحانَه وتعالى.

بناءُ المَساجدِ على القُبورِ

قال اللهُ تَعالى عن أصحابِ الكَهفِ وقَومِهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

وعن عائِشةَ وابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهم قالا: لمَّا نَزَلَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ طَفِقَ يَطرَحُ خَميصةً على وجْهِه، فإذا اغتَمَّ كَشَفَها عن وجْهِه، فقالَ وهو كذلك: ((لَعنةُ اللَّهِ على اليَهودِ والنَّصارى، اتَّخَذوا قُبورَ أنبِيائِهم مَساجِدَ)) يُحذِّرُ ما صَنَعوا[1].



بَنى الإسلامُ مُجتمعَ التوحيدِ الخالِصِ للهِ عزَّ وجلَّ، وقضَى على كلِّ مظاهِرِ الشِّركِ به، وأغلَقَ كُلَّ بابٍ قد يَعبُرُ مِن خلاله الشِّركُ من جديدٍ، ومن ثَمَّ نجِدُ الإسلامَ يُشَدِّدُ في تعظيمِ القبورِ، وتحريمِ بناءِ المساجِدِ عليها.

وفي الآيةِ الكريمة يَتحدَّثُ اللهُ تَعالى عن أصحابِ الكهفِ الذين أنامَهم لسِنينَ طويلةٍ، ثمَّ بَعَثَهم مِن نَومِهم على هَيئَتِهم التي كانوا عليها، ثم أطْلَعَ عليهم أهلَ المدينةِ في ذلك الزَّمانِ؛ ليَعلَموا أنَّ وعْدَ اللهِ بإحياءِ المَوتى حقٌّ، فلا يَشُكُّون في قُدرةِ اللهِ على البَعثِ، وأنَّ القيامةَ حَقٌّ لا شَكَّ في مَجيئِها، فقدِ اختَلَفَ أهلُ ذلك الزَّمانِ في البَعثِ بعدَ الموتِ؛ فمِنهم مَن يُؤمِنُ به، ومِنهم مَن يُنكِرُه، فقال الذين أعثَرَهم اللهُ على

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٣، ٣٤٥٤)، ومسلم (٥٣١).



أصحابِ الكَهفِ حِين ماتُوا: ابنُوا عليهم بُنيانًا يَستُرُهم؛ فربُّهم أعلَمُ بهم وبِشَأنِهم وحالِهم. وقال رُؤساءُ المدينةِ الذين غَلَبوا على أهلِها: لَنَبْنِيَنَّ عليهم مَسجِدًا للعِبادةِ فيه؛ لأنَّهم صاروا عِندَهم مَحَلَّ الاحترامِ والإكرامِ، فجَعَلَ اللهُ تَعالى اتِّخاذَ المساجِدِ على القُبورِ مِن فِعْلِ أهلِ الغَلَبةِ على الأمورِ، وذلك يُشْعِرُ بأنَّ مُستَنَدَه القَهْرُ والغَلَبةُ واتِّباعُ الهوى، وأنَّه ليس مِن فِعْلِ أهلِ العِلمِ والفَضلِ المُتَّبِعينَ لِمَا أنْزَلَ اللهُ على رُسُلِه مِن الهُدى، فبِناءُ المَساجِدِ على القُبورِ مِن الغُلُوِّ في أصحابِ تلك القُبورِ.

وفي حديثِ أمِّ المؤمنين عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، وابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: يَنهى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن اتِّخاذِ القُبورِ مَساجِدَ، ووقَعَ هذا النَّهيُ قُبَيلَ وفاتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، في مَرَضِه الأخيرِ الذي مات فيه، فلم يَنسَخْه ناسِخٌ، وقد كان على وَجْهِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَميصةٌ؛ مِنَ الحُمَّى، والخَميصةُ كِساءٌ أسوَدُ مُعْلَمُ الطَّرَفينِ مِن صُوفٍ ونحْوِه، فكان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يدفَعُها عن وجهِه الشَّريفِ إذا احتَبَس نَفَسُه عن الخُروجِ، فيسوقُ هذا النَّهيَ بأُسلوبٍ تحذيريٍّ شديدٍ، حيثُ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «لَعنةُ اللهِ على اليَهودِ والنَّصارى». واللَّعْنُ: الطَّرْدُ والإبعادُ، فهم مطرودون ومُبعَدون من الرَّحمةِ؛ بسَببِ كُفرِهم بالله تعالى، حيثُ «اتَّخَذوا قبورَ أنبيائِهم مَساجِدَ»، فإمَّا أنَّهم كانوا يَسجُدونَ لقبورِ أنبيائِهم؛ تعظيمًا لهم، وذلك هو الشِّركُ الجَلِيُّ، وإمَّا أنَّهم كانوا يتَّخِذونَها أمكِنةً للسُّجودِ يُصَلُّون ويَعبُدون اللهَ تعالى فيها؛ لاعتقادِهم أنَّ الصَّلاةَ إلى قُبورِهم أفضَلُ وأعظَمُ مَوقِعًا عند اللهِ، وذلك هو الشِّركُ الخَفيُّ؛ لتضَمُّنِه ما يرجِعُ إلى تعظيمِ مخلوقٍ فيما لم يؤذَنْ له، فنهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمَّتَه عن ذلك؛ لمشابهةِ ذلك الفِعلِ سُنَّةَ اليهودِ والنَّصارى، ولأنَّه ذريعةٌ مُوصِلةٌ للشِّركِ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ فيَحرُمُ تعظيمُ القُبورِ وتقديسُها.

الغُلوُّ في مَدْحِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

وعن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((لا تُطْروني، كما أَطْرَتِ النَّصارى ابنَ مَريَمَ؛ فإنَّما أنا عَبدُه، فَقولوا عبدُاللهِ ورَسولُه))(١).



الغُلُوُّ مذمومٌ في كُلِّ شَيءٍ، وإنَّما ضَلَّت الأمَمُ السَّابقةُ عندما بالَغَت في مَدحِ أنبيائِها حتى جعَلوهم شُرَكاءَ للهِ عزَّ وجلَّ، وأنزَلوهم مَنزِلةً لا تَليقُ إلَّا باللهِ تعالى.

وفي الآيةِ الأُولى أمَرَ اللهُ تَعالى نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ للمُشرِكين المكَذِّبين برِسالتِه: إنَّما أنا بشَرٌ مِثلُكم مِن بَني آدَمَ، لا عِلمَ لي بالغَيبِ إلَّا ما عَلَّمَني ربِّي، وقدْ أوحِيَ إليَّ بأنْ أُبلِّغَكم أنَّ مَعبودَكم الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ واحدٌ لا شَريكَ له.

وفي الآيةِ الثَّانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تَعالى أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرُ مُخلَّدٍ في الدُّنيا، بل له أُسوةٌ في إخوانِه المُرسَلين في انقضاءِ أجَلِه الدُّنيويِّ بالموتِ أو القتْلِ، ومِن كِلْتا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٩١).

الآيتينِ يُؤخَذُ أنَّ مَنزلةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا تَتجاوَزُ كونَه بشَرًا رَسولًا مِن عندِ اللهِ، مأمورًا بتَبليغِ رِسالتِه لعِبادِه؛ لإرشادِ الناسِ إلى ربِّهم وتَوجيهِهم إليه وَحْدَه.

وفي الآيةِ الثالثةِ يَنْهَى اللهُ تَعالى النَّصارى الذين غَلَوا في تَعظيمِ عِيسى عليه السَّلامُ وتَقديسِه عن ذلك؛ فإنَّهم قدْ أَفرَطوا كلَّ الإفراطِ، وتَجاوَزوا حدَّ التَّصديقِ بعِيسى عليه السَّلامُ حتى رَفَعوه عن مَقامِ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ إلى مَقامِ الرُّبوبيَّةِ، الذي لا يَليقُ بغيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

ففي هذه الآيةِ الكريمةِ النَّهيُ عن الغُلُوِّ في الدِّينِ، سواءٌ فيما يتعَلَّقُ بالأعمالِ، أو بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو غيرِ ذلك.

وفي حديثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه يَنهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الغُلُوِّ في مَدحِه، وألَّا يُنزِلوه فوقَ مَنزلتِه، فيقولُ: «لا تُطْروني» بمعنى: لا تَمدَحوني بالباطلِ، وبما ليس لي مِن الصِّفاتِ، كما فعَلَت النَّصارى بعِيسى ابنِ مريمَ عليه السَّلامُ، حيثُ وصَفَتْه بما لم يكُنْ فيه ولا يَنْبغي له، فزعَموا أنَّه ابنُ اللهِ، فكفَروا بذلك وضلُّوا.

ثمَّ أمَرَهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولوا عنه: إنَّه عبدُاللهِ ورسولُه، والمنهيُّ عنه في هذا الحديثِ هو المبالغةُ في المدحِ لدَرَجةِ الغُلُوِّ، لا مَدحُه بوصفِه بما فضَّله اللهُ به وشرَّفه.

الغُلُوُّ في الصَّالحينَ

قال اللهُ تعالى عن قومِ نوحٍ عليه السَّلام: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: (صارتِ الأوْثانُ التي كانتْ في قَومِ نُوحٍ في



العَرَبِ بعْدُ، أمَّا وَدٌّ كانتْ لكَلْبٍ بدَومَةِ الجَنْدَلِ، وأمَّا سُواعٌ كانتْ لهُذَيلٍ، وأمَّا يَغُوثُ فكانتْ لمُرادٍ، ثُمَّ لبَنِي غُطَيفٍ بالجَوفِ عندَ سَبَأٍ، وأمَّا يَعُوقُ فكانتْ لهَمْدانَ، وأمَّا نَسْرٌ فكانتْ لحِمْيَرٍ لآلِ ذِي الكَلاعِ؛ أسماءُ رِجالٍ صالِحينَ مِن قَومِ نُوحٍ، فلمَّا هَلَكوا أوْحَى الشَّيطانُ إلى قَومِهِمْ أنِ انْصِبوا إلى مَجالِسِهم التي كانوا يَجلِسونَ أنْصابًا، وسَمُّوها بأسْمائِهم، ففَعَلوا، فلَمْ تُعبَدْ، حتَّى إذا هلَكَ أولئك وتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ)[1].



الغُلُوُّ في الصَّالِحين بالمُبالَغةِ في مَدحِهم، أو بتَصويرِهم ونَصبِ الصُّوَرِ والتَّماثيلِ لأشخاصِهم، أو بتَشييدِ القُبورِ والأضرِحةِ عليهم بعدَ مَوتِهم، وغيرِ ذلك: هذا كلُّه مَنهيٌّ عنه؛ لأنَّه وَسيلةٌ تُوصِلُ للشِّركِ باللهِ تَعالى كما حدَثَ ذلك، فكان الغُلوُّ في الصالحين سَببًا لأوَّلِ شِركٍ وقَعَ في الأرضِ، فبَعَثَ اللهُ تَعالى أوَّلَ رُسلِه، وهو نوحٌ عليه السَّلامُ إلى قَومِه، ولكنَّ كُبراءَهم -كما أخبَرَ الله تعالى عنهم في الآيةِ الكريمةِ- قالوا لأتْباعِهم: لا تَترُكوا أصنامَكم التي يَنْهاكم نوحٌ عن عِبادتِها، ولا تَترُكوا عِبادةَ الصالحين؛ وَدًّا وسُواعًا، ويَغوثَ ويَعوقَ، ونَسْرًا، الذين ماتوا مِن قبْلُ، فصَوَّرهم أسلافُنا، ثمَّ صارت صُوَرُهم وتَماثيلُهم أصنامًا تُعبَدُ.

وفي هذا الأثرِ يُخبِرُ ويُحَذِّرُ عبدُاللهِ بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما من أنَّ هذا الفِعلَ كان سببًا لظهورِ عِبادةِ الأصنامِ التي عُبِدَت من دونِ اللهِ بعد نوحٍ عليه السَّلامُ، ثم انتَشَرت في بلادِ العَرَبِ، و(الأوثانُ) جمعُ وَثَنٍ، وهو: كالصَّنمِ، وقيل: كالنُّصُبِ، والصَّنمُ هو ما كان له صورةٌ، والنُّصُبُ: ما كان مِنَ الحجرِ أو غيرِه وليس له صورةٌ.

ويُبَيِّنُ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما مَوضِعَها الذي استقَرَّت فيه في بلادِ العَرَبِ، فكان وَدٌّ لقبيلةِ كَلبٍ بدَومةِ الجندلِ، وهي بينَ المدينةِ والعِراقِ وبلادِ الشَّامِ، وأمَّا

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

سُواعٌ فكان لقَبيلةِ هُذيلٍ، وأمَّا يَغوثُ فكان لقَبيلةِ مُرادٍ، ثمَّ لِقبيلةِ بني غُطيفٍ مِن بعدِهم، وكانوا بالجَوفِ، وهو اسمُ وادٍ في اليمنِ، وأمَّا يَعوقُ فكان لهَمْدانَ، وأمَّا نَسْرٌ فكان لحِميرٍ لآلِ ذي الكلاعِ.

ويُخبِرُ ابنُ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما عن السَّبَبِ الذي ظهَرَت به عبادةُ الأصنامِ مع قومِ نوحٍ عليه السَّلامُ بعد أن كان فيهم التوحيدُ الخالِصُ للهِ عزَّ وجلَّ، فيُبَيِّنُ أنَّ ذلك حَدَث بسَبَبِ غُلُوِّهم في رجالِهم الصَّالحينَ؛ فإنَّهم بعدَ أنْ ماتوا سوَّلَ لهمُ الشَّيطانُ أنْ يَصنعوا لهمُ أصنامًا، وأن يُسَمُّوها بأسمائِهم، ويُقيموها في مجالِسِهم التي كانوا يجلِسون فيها؛ تخليدًا لذِكْراهم واعترافًا بفَضلِهم. وظلَّتْ هذه الأوثانُ والأنصابُ قائِمةً، فلمَّا ماتَ هؤلاء القومُ وتعاقبَتْ ذرِّيَّاتُهم، وزال العِلمُ وارتفعَ، فلم يَعُدِ النَّاسُ يَعرفون ما أَصلُ هذه الأوثانِ، حتى جاء من ذرِّيَّاتِهم مَن ظَنَّ أن تلك الأوثانَ تُعبَدُ من دونِ اللهِ، كما كان عليه الحالُ مِن آبائهم، فعُبِدَت مِن دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ.



الإيمانُ بالقَضاءِ والقَدَرِ

التَّسليمُ بالقَدَرِ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((احْرِصْ على ما يَنفَعُكَ، واستَعِنْ باللهِ ولا تَعْجِزْ، وإنْ أصابَكَ شَيءٌ فلا تَقُلْ: لو أنِّي فَعَلْتُ كان كذا وكذا، ولكِنْ قُلْ: قَدَّر اللهُ وما شاءَ فَعَلَ؛ فإنَّ لَوْ تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ))[1].



الإيمانُ بالقضاءِ والقَدَرِ رُكنٌ مِن أركانِ الإيمانِ؛ فلا يَصِحُّ إيمانُ المرءِ حتى يُؤمِنَ بالقَدَرِ، وأنَّ اللهَ أحاط بكلِّ شَيءٍ عِلمًا جملةً وتَفصيلًا، فعلِم ما كان، وما

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

سيكونُ، وما لم يكُنْ لو كان كيف يكونُ، وعلِم ما الخَلقُ عامِلونَ قبل أن يَخلُقَهم، وعلِم أرزاقَهم وآجالَهم، وأعمالَهم وأعمارَهم، وحَرَكاتِهم وسَكَناتِهم، وشَقيَّهم وسَعيدَهم، إلى غيرِ ذلك؛ وأن يُؤمِنَ بكِتابتِه تعالى لذلك، ويُؤمِنَ بمَشيئتِه سبحانَه وأنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشَأْ لم يكُنْ، ويُؤمِنَ بأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى خالِقُ كُلِّ شَيءٍ، لا خالِقَ غَيرُه، ولا رَبَّ سِواه، وأنَّ كُلَّ ما سِواه مخلوقٌ؛ فهو خالِقُ كُلِّ عامِلٍ وعَمَلِه، وكُلِّ مُتحَرِّكٍ وحَرَكتِه، وكُلُّ ما يَجري في العالَمِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وكُفرٍ وإيمانٍ، وطاعةٍ ومَعصيةٍ؛ قد شاءه وقَدَّرَه، وخَلَقَه وأوجَدَه.

وفي الآيةِ الأولى يَأمُرُ اللهُ تعالَى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ للمُنافِقينَ الذين يَفرَحونَ بما يُصيبُ المُؤمنينَ مِن مَكروهٍ: لن يُصيبَنا إلَّا ما قدَّرَه اللهُ وكتبَه لنا في اللَّوحِ المَحفوظِ؛ فاللهُ هو سَيِّدُنا وناصِرُنا، وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمنونَ، ويُفَوِّضوا أُمورَهم إليه؛ ففي هذه الآيةِ تَعليمُ المُسلِمينَ تَسليمَ الأُمورِ للهِ تعالى، والرِّضا والاطمِئنانَ بما قَدَّرَه وقَضاه، وألَّا يَحزَنوا لِما يُصيبُهم، ولا يَهِنوا ولا يَضعُفوا؛ فاللهُ تعالَى لا يَقضِي قَضاءً إلَّا كان خيرًا لهم، ومَن تولَّاه اللهُ فلنْ يَخذُلَه أبدًا.

وتُؤكِّدُ **الآيةُ الثانيةُ** أنَّه ما مِن أحدٍ أُصيبَ بأيِّ مُصيبةٍ كانت إلَّا بقَضاءِ اللهِ وتقديرِه ومَشيئتِه، فمَن يُؤمِنْ باللهِ ويُؤمِنْ بأنَّ المصائِبَ بإذنِه وقَدَرِه، يُوَفِّقِ اللهُ قَلْبَه للحَقِّ، فيُسَلِّمُ لأمرِه، ويَرْضى بقَضائِه، فتَهونُ عليه مُصيبتُه.

وفي الآيةِ الثالثةِ يُخبِرُ اللهُ تعالى نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه ثمَّةَ مُنافِقينَ يُضمِرونَ في نُفوسِهم ما لا يُظهِرونَه له، وهو قَولُهم فيما بينهم مُتحسِّرين ونادِمين: لو كان لنا في شَأنِ الخروجِ للقِتال في أُحُدٍ نَصيبٌ من الرَّأيِ والاختيارِ، لَمَا اتَّخذنا قرارًا بالخروجِ مِن المدينة مُطلقًا، ولَمَا وقعتْ في صُفوفنا مَقتلةٌ، فأمر اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأن يقول ردًّا على قولِهم الذي أسرُّوه وأَطْلَعَه اللهُ تعالى عليه:





إنَّما وقَع ما وقَع بقَدَرِ اللهِ تعالى وحْدَه، وهو حُكمٌ ماضٍ لا بدَّ أن يَنفُذَ، فحتى لو كنتُم في بيوتِكم التي ليستْ بمَظِنَّةٍ لوقوعِ القتْلِ فيها، لخرَجَ منها مَن كتَب اللهُ تعالى عليه ذلك وأتى الموضعَ الذي يَلقَى فيه مَصْرَعَه.

وفي الآيةِ الرابعةِ يَنهى اللهُ تعالى عِبادَه المُؤمنينَ عن مُشابهةِ الَّذين كفَروا في قولِهم الفاسِدِ المنكَرِ النَّاشئِ عن الاعتراضِ على قَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، حين قالوا عن إخوانِهم الكُفَّارِ الَّذين خرَجوا من بلادِهم مُسافرينَ لأجْلِ التِّجارةِ وطَلَبِ المَعيشةِ، أو غُزاةً للقِتالِ، فماتوا في سَفَرِهم، أو قُتِلوا في غَزْوِهم: لو أقاموا معنا في بِلادِنا ولم يَخْرُجوا كما فَعَلْنا نحن لَمَا ماتوا أو قُتِلوا. واللهُ تعالى يجعَلُ هذا الاعتِقادَ الفاسِدَ وهذا القولَ المنكَرَ الصَّادِرَ منهم همًّا وندامةً في قُلوبِهم، فتعظُمُ بذلك مُصيبتُهم.

واللهُ تعالَى بيدِه وحدَه إحياءُ الخَلْقِ وإماتتُهم، وكلُّ ذلك بمشيئتِه، فلا تموتُ نفسٌ أو تُقتَلُ إلَّا حينَ تستوفي أجَلَها، واللهُ عزَّ وجلَّ يُبصِرُ كُلَّ ما يَعمَلُه العِبادُ من خيرٍ أو شرٍّ، وهو حافِظٌ له، وسيُجازيهم عليه.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه يُوصي النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المسلمَ بقولِه: «احْرِصْ على ما يَنفَعُكَ» يعني: بالأخذِ بالأسبابِ، ومع الأخذِ بالأسبابِ اعتمِدْ على مُسبِّبِ الأسبابِ، وهو اللهُ سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال بعْدَ ذلك: «واستَعِنْ باللهِ»؛ لأنَّ الإنسانَ إذا أخَذَ بالأسبابِ ولم يَحصُلْ له عَوْنٌ وتوفيقٌ مِن اللهِ تعالى فلن يحصُلَ ما يُريدُه، فمُجرَّدُ الأخذِ بالأسبابِ لا يكفي، بل يُحتاجُ إلى شَيءٍ وراءَه وهو تَوفيقُ اللهِ وإعانتُه على حُصولِ ذلك الشَّيءِ؛ فإنَّه لا حوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ. والمرادُ بالأعمالِ النَّافعةِ: ما يَعودُ على الإنسانِ بخَيْرَيِ الدُّنيا والآخِرةِ مِن العِباداتِ والأعمالِ الصَّالحةِ ونَحوِ ذلك.

ثمَّ يَنهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن العَجزِ، والمرادُ به هنا: الكسَلُ، وهو ضِدُّ



النَّشاطِ، وهو التَّثاقُلُ عمَّا لا يَنْبَغي التَّثاقُلُ عنه، ويَكونُ ذلك لعَدَمِ انْبعاثِ النَّفْسِ للخَيرِ مع وُجودِ القُدرةِ عليه؛ ولذلك كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستعيذُ باللهِ منه[1].
فمَنْ عَمِلَ بتلك الوصيَّةِ وقام بها على وَجْهِها الأكمَلِ ثمَّ أصابَتْهُ بعْدَ ذلك مُصيبةٌ، فلا يَقُلْ: «لو أنِّي فَعَلْتُ كان كذا وكذا»؛ فإنَّ هذا القولَ غيرُ سَديدٍ، ولكنْ يَقولُ مُستَسْلِمًا وراضيًا، ومؤمِّلًا الخَيرَ: «قَدَّر اللهُ»، أي: وَقَعَ ذلكَ بمُقتَضى قَضائِه وعلى وَفْقِ قَدَرِه، «وما شاءَ فَعَلَ»؛ فإنَّه فعَّالٌ لِما يُريدُ، ولا رادَّ لقَضائِه، ولا مُعقِّبَ لحُكمِه.

وبعْدَ أن نَهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن قَولِ كلمةِ الشَّرطِ «لَوْ» في مِثلِ هذا المَوضِعِ، نَبَّهَ على أنَّها «تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ» مِن مُنازَعةِ القَدَرِ، والتَّأسُّفِ على ما فات؛ لأنَّ فيها الاعتراضَ على القَدَرِ، والتحسُّرَ مِن وُقوعِه، كأن يقولَ الإنسانُ حين تَنزِلُ به مصيبةٌ: لو فعَل كذا ما أصابه المرَضُ! فالمسلمُ مُطالَبٌ بالتَّسليمِ للقَدَرِ، فما أرادَه اللهُ عزَّ وجلَّ واقعٌ لا مَحالةَ؛ إذْ قضاءُ اللهِ وقَدَرُه لا يَتخلَّفُ، فما دام الإنسانُ قد اجتهَدَ في العملِ، وأخَذَ بالأسبابِ، مُستعينًا باللهِ، وطلَبَ الخَيرَ منه سبحانه؛ فلا عليه بعْدَها إلَّا أن يُفوِّضَ أمْرَه كلَّه لله، ولْيَعلَمْ أنَّ اختيارَ اللهِ عزَّ وجلَّ هو الخَيرُ، حتى وإن كان ظاهِرُ ما وقَع له مكروهًا، ولا يستطيعُ أحدٌ مِن الخَلقِ دفْعَ قَدَرِ الخالِقِ عزَّ وجلَّ وتَغييرَه دُونَ إذْنٍ مِنَ الله، وإنِ اجتمعَتْ لذلك الدُّنيا بما فيها.

والنَّهيُ عن كَلِمةِ «لو» ليس على إطلاقِه؛ فإنْ حَمَلَ عليها الضَّجَرُ والحُزنُ، وضَعفُ الإيمانِ بالقَضاءِ والقَدَرِ، أو تمنِّي الشَّرِّ؛ تكونُ مَذمومةً، أمَّا إن حَمَل عليها الرَّغبةُ في الخَيرِ والإرشادِ والتَّعليمِ فتكونُ محمودةً.

كِتابَةُ مَقاديرِ الخلائقِ

عن عبدِالله بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦).



-وهو الصَّادقُ المَصْدوقُ- قالَ: ((إنَّ أحدَكُم يُجْمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّه أرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يكونُ عَلَقَةً مِثلَ ذلكَ، ثُمَّ يكونُ مُضْغَةً مِثلَ ذلكَ، ثُمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا فيُؤمَرُ بأرْبَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكْتُبْ عَمَلَهُ، ورِزْقَهُ، وأجَلَهُ، وشَقيٌّ أوْ سَعيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فيه الرُّوحُ، فإنَّ الرَّجُلَ مِنكُم لَيَعْمَلُ حتى ما يكونُ بيْنَه وبيْن الجنَّةِ إلَّا ذِراعٌ، فَيَسْبِقُ عليه كِتَابُه، فيَعمَلُ بعمَلِ أهْلِ النَّارِ، ويَعْمَلُ حتى ما يكونُ بيْنه وبيْن النَّارِ إلَّا ذِراعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ))[1].



كتَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَقاديرَ الخلائقِ في اللَّوحِ المحفوظِ، وهي واقعةٌ وَفْقَ ما قضَى اللهُ عزَّ وجلَّ وقدَّرَ، وفي حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه يُبَيِّنُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَراحِلَ خَلْقِ الجَنينِ، وأمْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ للمَلَكِ المُوكَّلِ بذلِك بإظهارِ وإنفاذِ ما كتَبَه اللهُ وقدَّرَه، وكتابتِه في صَحيفةِ العبدِ، ثُمَّ نَفْخِ الرُّوحِ فيه، فيُخْبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ الجَنينَ في بطنِ أُمِّه يَمرُّ في تكوينِه بأربعةِ أطوارٍ؛ فيكونُ في الطَّورِ الأوَّلِ لمدَّةِ أربَعين يَومًا حَيوانًا مَنَويًّا يَجتمِع ببُوَيضةِ الأُنثى فيُلقِّحُها، وتَحمِلُ المرأةُ بإذنِ اللهِ تعالى، ثُمَّ يتَحوَّلُ في الطَّورِ الثَّاني لمدَّةِ أربَعين يَومًا إلى قِطعةِ دمٍ جامِدةٍ تَعْلَقُ بالرَّحِمِ، ثُمَّ يَتحوَّلُ في الطَّورِ الثَّالثِ لمدَّةِ أربَعين يومًا إلى قِطعةِ لحْمٍ صَغيرةٍ بقَدْرِ ما يَمْضُغُ الإنسانُ في الفَمِ، ثُمَّ في الطَّورِ الرَّابعِ يَبدَأُ تَشكيلُه وتصويرُه، ويكونُ قد أكمَلَ أربعةَ أشهُرٍ، فيُرسِلُ اللهُ إليه المَلَكَ الموكَّلَ بالأرحامِ؛ فيَكتُبُ أعمالَه التي يَفعَلُها طِيلَةَ حياتِه خيرًا أو شرًّا، ورِزْقَه وأجَلَه، ويَكتُبُ خاتِمَته ومَصيرَه الذي يَنتَهي إليه إنْ كانَ مِن أهلِ الشَّقاوةِ أو مِن أهلِ السَّعادةِ، مِن أهلِ الجنَّةِ أو النَّارِ، وتقَعُ الأعمالُ وَفْقَ ما كُتِبَ، فإنَّ الرَّجُلَ ليَعمَلُ بعمَلِ أهلِ الجنَّةِ حتى ما يكونُ بينَه وبينَ الجنَّةِ إلَّا ذِراعٌ -وهو غَايةُ

(١) أخرجه البُخاريُّ (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٤٣).

القُرْبِ- فيَسْبِقُ عليه كِتابُه، بأن يَكون قد كُتِبَ عليه سابقًا في بَطنِ أُمِّه أنَّه شَقيٌّ؛ فيُختَمُ له بالشَّقاوةِ، فيَعْمَلُ بعمَلِ أهلِ النَّار فيَدخُلُها كما سبَقَ به القَدَرُ، وفي الجِهةِ الأُخْرى قد يَعمَلُ بعمَلِ أهلِ النَّارِ، حتى يَقترِبَ منها اقترابًا شديدًا، بألَّا يكون بينَهُ وبينها إلَّا ذِراعٌ، فيسْبِقُ عليه ما كُتِبَ سَلَفًا في كِتابِه بأنَّه من أهلِ الجنَّةِ؛ فيَعمَلُ بعمَلِ أهلِ الجنَّةِ، فيَدخُلُها.

وأمَّا كَونُ الرَّجُلِ يَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ حتى ما يكونُ بيْنه وبيْنها إلَّا ذِراعٌ فيَسبِقُ عليه الكِتابُ ، فإن هذا عَمَلٌ فيما يَظهَرُ للنَّاسِ ، ولو كان عَمَلًا صالِحًا مَقبولًا للجنَّةِ قد أحبَّه اللهُ ورَضِيَه، لم يُبطِلْه عليه، ويدُلُّ على ذلك ما ورَدَ في حَديثِ سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعديِّ رضِيَ اللهُ عنه: ((إنَّ الرَّجلَ لَيَعمَلُ عمَلَ أهلِ الجنَّةِ فِيما يَبْدو للنَّاسِ وهو مِن أهلِ النَّارِ، وإنَّ الرَّجلَ لَيعمَلُ عمَلَ أهلِ النَّارِ فِيما يَبْدو للنَّاسِ وهو مِن أهلِ الجنَّةِ))[1]، فزادَ جُملةَ: ((فيما يَبْدو للنَّاسِ))؛ إشارةً إلى أنَّ باطِنَ الأمرِ يَكونُ بخِلافِ ذلك ، وأنَّ خاتِمةَ السُّوءِ تَكونُ بسَبَبِ دَسيسةٍ باطِنةٍ للعَبدِ لا يَطَّلِعُ عليها النَّاسُ؛ إمَّا مِن جِهةِ عَمَلٍ سَيِّئٍ، أو نحوِ ذلك، فتلك الخَصلةُ الخَفِيَّةُ تُوجِبُ سُوءَ الخاتمةِ عِندَ الموتِ! وكذلك قد يَعمَلُ الرَّجُلُ عَمَلَ أهلِ النَّارِ، وفي باطِنِه خَصلةٌ خَفيَّةٌ مِن خِصالِ الخيرِ، فتَغلِبُ عليه تلك الخَصلةُ في آخِرِ عُمُرِه، فتُوجِبُ له حُسنَ الخاتِمةِ؛ فالمرادُ بِالذِّرَاعِ التَّمثيلُ لِلقُرْبِ مِن مَوتِه، وأنَّه لم يَبْقَ على أجَلِه إلَّا القليلُ. فما يَبْدو للنَّاسِ مِن صلاحِه وعَدَمِه غيرُ حقيقةِ أمْرِه وخَفِيِّ حالِه الذي اطَّلَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليه؛ ومِن ثَمَّ خُتِمَ له بحَقيقةِ حالِه، لا بما يَبْدو ويَظهَرُ للنَّاسِ، فمَن كانَت حقيقةُ حالِه مع اللهِ عزَّ وجلَّ الصَّلاحَ، خُتِمَ له بالصَّلاحِ، ومَن كانَت حقيقةُ حالِه غيرَ ذلك خُتِمَ له بما قدَّمَ، فليَكُنِ الإنسانُ على حَذَرٍ، وليَحذَرْ مِن الاغتِرارِ والإعجابِ بعَمَلِه، وليَطلُبْ منَ اللهِ التَّوفيقَ والسَّدادَ الدَّائمَ، وحُسنَ الخاتمةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

الإيمانُ بالقَدَرِ لا يُنافي العَمَلَ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: كُنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جِنازةٍ، فجَعَلَ يَنْكُتُ الأرْضَ بعُودٍ، فقالَ: ((ليسَ مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا وقدْ فُرِغَ مِن مَقْعَدِه مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ. فقالوا: أفلا نَتَّكِلُ؟ قالَ: اعمَلوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ؛ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ [الليل: ٥] الآية))[1].



يَجِبُ على المُسلِمِ أنْ يُؤمِنَ بقَدَرِ اللهِ الواقعِ لا مَحالةَ، وذلك لا يَمنَعُ أنْ يجْتَهِدَ في العمَلِ استِطاعتَه، ويُؤمِّلَ مِنَ اللهِ الخَيرَ، **وهذه الآياتُ الكريمةُ** دالَّةٌ على أنَّ اللهَ سُبحانه وتَعالَى يُجازِي مَن قَصَد الخَيرَ بالتَّوفيقِ له، ومَن قَصَد الشَّرَّ بالخِذْلانِ.

وفي الحَديثِ المذكورِ يَحكي عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّهم كانوا يَتْبَعونَ جِنازةً مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكان بيَدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عُودٌ، ولعلَّ المرادَ به: فَرعٌ مِنَ الشَّجرِ، فجعَلَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَضرِبُ به على الأرضِ مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ، وهذا فِعْلُ المفكِّرِ المهمومِ، ثُمَّ أخبرَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ فَرَغَ مِن كتابةِ مَقاديرِ العِبادِ مُنذُ القِدَمِ، وعُلِمَ لكلِّ عبدٍ مَوضعُه ومكانُه في الجنَّةِ، أو مَوضِعُه ومكانُه في النَّارِ، وهنا طُرِحَ السؤالُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أفلا نَدَعُ العَمَلَ ونَتَّكِلُ؟ إذ قد سَبَقَ القَدَرُ بمكانِ كلِّ نَفسٍ مِنَ الدَّارَيْنِ، وما سَبَقَ به القَدَرُ فلا بُدَّ مِن وُقوعِه، فما فائدةُ العملِ؟ فأجابَهُم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأن «اعمَلوا»، فمنَعَهم مِن تَرْكِ العَمَلِ، والاتِّكالِ على ذلك،

(١) أخرجه البُخاريُّ (٦٢١٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٤٧).



وأمَرَهم بامتِثالِ ما يَجِبُ على العبدِ مِن أمْرِ ربِّه وعُبوديَّتِه عاجلًا، وتَفويضِ الأمرِ إلَيْه آجلًا؛ فاللهُ سُبحانه غَيَّبَ عنا المقاديرَ، فلا تَعلَمُ كلُّ نفْسٍ ما قُدِّرَ لها.

وقدْ جَعَلَ سُبحانه الأعمالَ أدِلَّةً على ما سَبقَت به مَشيئتُه مِن ذلك؛ فلا بُدَّ لنا مِنَ العملِ، وكلُّ إنسانٍ مُوَفَّقٌ ومُهَيَّأٌ لما خُلِقَ له، أمَّا أهلُ السَّعادةِ فيُيَسَّرونَ لعَمَلِ أهلِ السَّعادةِ، وأمَّا أهلُ الشَّقاوةِ فيُيَسَّرونَ لعَمَلِ أهلِ الشَّقاءِ، ثُمَّ قَرَأَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَصديقَ هذا المعنَى في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠]،

ولا حُجَّةَ لِمن يقولُ: إذا كان اللهُ تعالى قد قدَّرَ عليَّ الهدى أو الضَّلالَ، فما فائدةُ العَمَلِ؟ ويدَّعي أنَّه مَجبورٌ، ويَنفي أن يكونَ له اختيارٌ؛ فاللهُ تعالى جَعَل للعَبدِ اختيارًا وقُدرةً بهما يكونُ الفِعلُ، ووَجَّهَ إليه الأمرَ والنَّهيَ، ومَدَحَ المُحسِنَ على إحسانِه، وذَمَّ المُسيءَ على إساءتِه، وأثاب كُلًّا منهما بما يَستَحِقُّ. ولولا أنَّ الفِعلَ يَقَعُ بإرادةِ العَبدِ واختيارِه لكان مَدحُ المُحسِنِ عَبَثًا، وعُقوبةُ المُسيءِ ظُلمًا، واللهُ تعالى مُنزَّهٌ عن العَبَثِ والظُّلمِ. وكذلك فإنَّ كُلَّ إنسانٍ يَفعَلُ ما يَفعَلُ ويَترُكُ ما يَترُكُ ولا يَشعُرُ بأنَّ أحدًا يُكرِهُه على ذلك، فالعاصي يُقدِمُ على المَعصيةِ باختيارِه مِن غَيرِ أن يَعلَمَ أنَّ اللهَ تعالى قدَّرَها عليه؛ إذْ لا يَعلَمُ أحَدٌ قَدَرَ اللهِ تعالى إلَّا بَعْدَ وُقوعِ مَقدورِه؛ قال تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا}، فكيف يَصِحُّ الاحتِجاجُ بالقَدَرِ وهو لا يَعلَمُه حينَ إقدامِه على ما يُقدِمُ عليه؟ وقد أبطَلَ اللهُ تعالى هذه الحُجَّةَ بقَولِه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

ويُقالُ للعاصي المحتَجِّ بالقَدَرِ: لماذا لم تُقْدِمْ على الطَّاعةِ مُقدِّرًا أنَّ اللهَ تعالى

قد كتبَها لك؟! ولو كنتَ تُريدُ السَّفَرَ لبَلَدٍ مُعَيَّنٍ، وكان لها طريقانِ؛ أحَدُهما بعيدٌ شاقٌّ، والثَّاني قَريبٌ سَهلٌ آمِنٌ؛ فإنَّك ستَسلُكُ الثَّانيَ، ولن تَسلُكَ الأوَّلَ قائِلًا: إنَّه مُقَدَّرٌ عليَّ! ولو عُرِضَت عليك وظيفتانِ؛ إحداهما أفضَلُ من الأخرى، فإنَّك ستَلحَقُ بالأفضَلِ لك، فكيف تختارُ لنَفسِك في عَمَلِ الآخرةِ ما هو الأدنى ثم تحتَجُّ بالقَدَرِ؟

واللهُ تعالى قَدَّرَ الأرزاقَ، ومع ذلك يَسعى العَبدُ في أسبابِ الرِّزقِ ولا يجلِسُ في بيتِه ويَقولُ: إنْ قُدِّرَ لي رِزقٌ فإنَّه يأتيني، فبَطَلَت بذلك حُجَّةُ من يحتَجُّ بالقَدَرِ على تَركِ العَمَلِ أو فِعلِ المعصيةِ.

التَّعَوُّذُ مِن سُوءِ القَضاءِ

عن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((تَعَوَّذُوا باللَّهِ مِن جَهْدِ البَلاءِ، ودَرَكِ الشَّقاءِ، وسُوءِ القَضاءِ، وشَماتَةِ الأعْداءِ))[1].



كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يتعَوَّذُ باللهِ مِن كلِّ مُصابٍ في دِينِه ودُنياه، ويحُثُّ أصحابَه على ذلك، ومِن ذلك: أمْرُه لهم بالتَّعوُّذِ مِن سُوءِ القَضاءِ، وهو كلُّ ما يَسوءُ الإنسانَ ويَحزُنُه مِنَ الأَقضِيةِ المُقدَّرةِ عليه، في الدِّينِ والدُّنيا، والبَدَنِ والمالِ والأهلِ، وقد يكونُ ذلك في الخاتِمةِ، والمَوصوفُ بالسُّوءِ هو المَقضيُّ به لا القضاءُ نفْسُه، وسببُ الاستِعاذةِ مِن سُوءِ القضاءِ أنَّه لَمَّا كان قضاءُ اللهِ عزَّ وجلَّ وقدَرُه مَخفيًّا عَنِ الإنسانِ لا يَعلَمُه إلَّا وقتَ وُقوعِه، لزِمَ الدُّعاءُ والالتِجاءُ إلى اللهِ فيما يَخافُه الإنسانُ ويَحذَرُ أنْ يَنزِلَ به، فإذا وُفِّقَ للدُّعاءِ واستجابَ اللهُ له دفَعَهُ اللهُ عنه.

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٧).

كلُّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطرَةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه كان يقولُ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِن مَولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرَةِ، فأبَواهُ يُهَوِّدانِه ويُنَصِّرانِه ويُمَجِّسانِه، كما تُنْتَجُ البَهيمَةُ بَهيمَةً جَمْعاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها مِن جَدْعاءَ؟ ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه: وَاقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]))(١).



خَلَق اللهُ عزَّ وجلَّ الإنسانَ في أحسنِ تَقويمٍ، على الفِطرَةِ النَّقيَّةِ الخاليةِ مِن شَوائبِ الكُفرِ، ومِن دَنَسِ المعاصي، ومِن ذَميمِ العاداتِ، **وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أنَّ** الفِطرةَ التي فطَرَ الناسَ عليها هي الإسلامُ الذي شَرَعه لعِبادِه، وهو الدِّينُ الكامِلُ الذي لا عِوَجَ فيه ولا نَقْصَ، المُوصِلُ إلى اللهِ ورِضوانِه وجَنَّتِه، فخلَقَ جميعَ الناسِ مُهَيَّئِينَ لِمَعرفتِه وقَبولِه، والتَّصديقِ والإقرارِ بعَقائِدِه، والانقيادِ إليه، والعَمَلِ بأحكامِه، وقدْ جعَلَ شَرائِعَه كلَّها مُناسِبةً لخَلْقِه، فلا يُولَدُ أحدٌ مِن الناسِ إلَّا على هذه الفِطرةِ.

وفي حديثِ أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ كلَّ مَولودٍ مِن بني آدَمَ «يُولَدُ على الفِطرَةِ»، والفِطرَةُ هي الإسلامُ، وقيل: الفِطرَةُ هي النَّقاءُ الخالِصُ، والاستِعدادُ لقَبولِ الخَيرِ والشَّرِّ، فلو تُرِكَ المَولودُ على ما فُطِرَ عليه لاستمَرَّ على طُهْرِه، ولم يَختَرْ غَيرَ الإسلامِ؛ فهو يُولَدُ مُتهَيِّئًا للإسلامِ، ويأتي بعدَ ذلك

(١) أخرجه البُخاريُّ (١٣٥٨)، ومسلمٌ (٢٦٥٨) واللَّفظ له.



دَورُ الأبَوَيْنِ والبيئةِ التي يَنشأُ فيها؛ فالأبوانِ قَدْ يُعَلِّمانِه اليَهوديَّةَ ويَجْعَلانِه يَهوديًّا، أو يُعَلِّمانِه النَّصرانيَّةَ ويَجْعَلانِه نَصرانيًّا، أو يُعَلِّمانِه المَجوسيَّةَ ويَجْعَلانِه مَجوسيًّا يَعبُدُ النَّارَ مِن دونِ اللهِ.

ثُمَّ يُمَثِّلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا المعنَى بوِلادةِ البَهيمةِ سَليمةً مِن العُيوبِ، كاملةَ الأعضاءِ، لا نَقْصَ فيها، ثُمَّ يَحصُلُ فيها النَّقصُ مِنَ الجَدْعِ وغيرِه؛ لأجْلِ تَصرُّفِ الإنسانِ، كذلك الإنسانُ يُولَدُ سليمًا على الفِطرَةِ، ثُمَّ يَحدُثُ فيه النَّقصُ مِنَ التَّهَوُّدِ والتنصُّرِ وغيرِهما؛ لأجْلِ تصرُّفِ والدَيْه، ويُعَقِّبُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه -راوي هذا الحَديثِ- بقَولِ اللهِ تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، أي: خِلْقَتَه التي خلَقَهم عليها؛ فإنَّهم لو خُلُّوا وما خُلِقوا عليه لأدَّاهم إليه؛ لأنَّ حُسنَ هذا الدِّينِ ثابتٌ في النُّفوسِ، وإنَّما يُعدَلُ عنه لآفةٍ مِنَ الآفاتِ البشريَّةِ، كالتَّقليدِ المذْمومِ.

الهِدايةُ مِنَ اللهِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وعَنِ المُسَيِّبِ بنِ حَزْنٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ أبا طالبٍ لما حَضَرَتهُ الوفاةُ، دَخَلَ عليه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعِنْدَهُ أبو جَهلٍ، فقالَ: ((أيْ عَمِّ، قُلْ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ؛ كلمةً أُحَاجُّ لكَ بها عندَ اللهِ، فقالَ أبو جهلٍ، وعبدُاللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ، تَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِالمُطَّلِبِ؟! فلم يَزالا يُكَلِّمانِه حتى قالَ آخِرَ شَيءٍ كلَّمَهُم بهِ: على مِلَّةِ عبدِالمُطَّلِبِ. فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ما لَمْ أُنْهَ عنْه، فنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

ونَزَلَتْ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]))[1].

الهدايةُ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ سُبحانَه، وفضلٌ يَتفضَّلُ به على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** قدْ نفَى اللهُ تعالى عن نَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هِدايةَ الخَلْقِ إلى الحَقِّ هِدايةَ توفيقٍ، وإنَّما أوجَبَ عليه البلاغَ، وهو هِدايةُ الإرشادِ؛ فالَّذي يَهدي مَن يَشاءُ مِن خَلْقِه إلى الحَقِّ فيُوفِّقُهم له، هو اللهُ تعالَى وَحْدَه لا شريكَ له.

وفي حديثِ المُسَيِّبِ بنِ حَزْنٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّه لَمَّا حضَرَتْ أبا طالبٍ عَمَّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الوَفاةُ دَخَلَ عليه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فطلَبَ منه أَنْ يقولَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ؛ حتَّى يَشفَعَ له النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بها عندَ اللهِ، وكانَ عِندَ أبي طالِبٍ في هذا الوَقتِ أبو جهلٍ، وعبدُاللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ بنِ المُغيرَةِ، وذلك قبلَ إسلامِ الأخيرِ، فقالَا له: أتَتْرُكُ مِلَّةَ أبيك عبدِالمُطَّلِبِ وتُؤثِرُ غيرَها عليها؟! وظَلَّا يُكَلِّمانِه ويَمنَعانِه مِن المَوتِ على التَّوحيدِ، حتى كانَ آخِرُ كلامِه إقرارَه بأنَّه على مِلَّةِ عبدِالمُطَّلِبِ، فماتَ على الشِّركِ! وحزِنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لمَوتِه على غَيرِ الإسلامِ حُزنًا شديدًا، وقال: «لَأستَغْفِرَنَّ لك»، أي: سأظَلُّ أدْعو أنْ يَغفِرَ اللهُ لك ما لم يَنْهَني ربِّي عَن الاستغفارِ لك، فنَزَلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ ﴾، والمعنى: ما كان يَنْبَغي للنبيِّ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والذين آمَنوا به أنْ يَدْعُوا بالمَغفرةِ لمَن ماتَ على الشِّركِ، ولو كانوا أقْرِباءَهم، ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]، أي: مِن بعدِ ما ظَهَر لهم أنَّهم أهلُ النَّارِ المُخَلَّدونَ فيها بمَوتِهم على الكُفرِ، ونَزَلَتْ في أبي طالبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]، ومعناها: إنَّك -يا أيُّها

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (٣٨٨٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٤).



النبيُّ الكريمُ- لا تَهدِي مَن أحبَبتَ هِدايتَه، أو أحبَبْتَه لقَرابتِه؛ فليس ذلك إليك، إنَّما عليك البلاغُ، واللهُ يَهدي مَن يَشاءُ، وله الحِكمةُ البالِغةُ، والحُجَّةُ الدَّامِغةُ.

العَينُ حقٌّ، وهي مِنَ القَدَرِ

عن عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((**العَينُ حَقٌّ، ولو كان شَيءٌ سابَقَ القَدَرَ سَبَقَتْه العَيْنُ، وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغسِلُوا**))(1).



في هذا الحَديثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الإصابةَ بالعَيْنِ شيءٌ ثابتٌ موجودٌ، وأنَّ العَينَ حَقٌّ بقَضاءِ اللهِ وقدَرِه، وأنَّه لو أمْكَنَ أن يَسبِقَ القَدَرَ شيءٌ، فيُؤثِّر في إفناءِ شَيءٍ وزَوالِه قبْلَ أوانِه المُقدَّرِ له، لَكان هذا الشَّيءُ الذِي يَسبِقُ القَدَرَ هو العَيْنَ؛ لعَظيمِ أثرِها وخَطرِه، ومعَ أنَّ المرءَ لا يُصيبُه إلَّا ما قُدِّر له، وأنَّ العَيْنَ مِن القَدرِ لا تَسبِقه؛ فالحديثُ جَرَى مَجْرَى المبالَغَةِ في إثباتِ تَأثيرِ العَيْنِ، لا أنَّه يُمكِنُ أنْ يَرُدَّ القَدَرَ شيءٌ إلَّا بإرادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وإرادتُه سُبحانه مِنَ القَدَرِ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يقولُ في كتابِه العزيزِ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، ثُمَّ يُوجِّهُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تَعاونِ المُسلمِ مع أخيه المسلمِ في دفْعِ ضَررِ العَينِ وأثرِها لِمن أُصيبَ بها؛ فقد كانوا يَرَوْنَ أنْ يُؤمَرَ العائِنُ فيَغسِلَ أطرافَه وما تَحتَ الإزارِ، فتُصَبَّ غُسالَتُه على المَعْيونِ؛ يَستَشْفون بذلك، فأمَرَهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا يَمتَنِعوا عَن الاغتِسالِ إذا أُرِيدَ منهم ذلك، وليس لأحدٍ أنْ يُنكِرَ الخَواصَّ المُودَعةَ في أمثالِ ذلك، ويَستبعِدَها مِن قُدرَةِ الله وحِكْمتِه، لا سيَّما وقد شَهِدَ بها صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأمَرَ

(١) أخرجه مسلمٌ (٢١٨٨)، وأخرجه البخاري (٥٧٤٠) مختصرًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بها عِلاجًا لأثَرِ العَينِ.

الفَألُ الحَسَنُ

عن أبي هُرَيرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((لا طِيَرَةَ، وخَيْرُها الفَأْلُ. قيلَ: يا رَسولَ اللهِ، وما الفَأْلُ؟ قالَ: الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُها أحَدُكُمْ))[1].

الكَلِمةُ الطَّيِّبةُ الصَّالحةُ تَبعَثُ الاطمئنانَ والرَّاحةَ للإنسانِ، لا سيَّما في أوقاتِ الكَرْبِ، فتُعطيه بُشْرى باقترابِ الفَرَجِ. وفي هذا الحَديثِ يَنهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ الطِّيَرةِ، وهي التشاؤمُ بالشَّيْءِ يُرَى أو يُسمَعُ ويُتوهَّمُ وُقوعُ المَكْروهِ به، فيُظنُّ أنَّ هذا الشَّيءَ هو السَّببُ فيما يَحدُثُ، فيُتطيَّرُ به ويُتشاءَمُ منه، بل كُلُّ شيْءٍ بِقَدَرِ اللهِ عزَّ وجلَّ. ثم يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ خَيرَ تلك الظُّنونِ التي تَظْهَرُ آثارٌ لها في الواقعِ: هو الفَأْلُ، وهو الكلمةُ الصالحةُ الَّتي يَسمَعُها المؤمنُ تَجعلُهُ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ، وتَشرَحُ صَدْرَهُ، وتُريحُ فؤادَهُ، فالفألُ يُساعِدُ الإنسانَ على السَّعيِ في قَضاءِ مُهمَّاتِه وإتمامِها.

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٣) واللفظ له

نَعيمُ القَبرِ وعَذابُه

إثباتُ نَعيمِ القَبرِ وعَذابِه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

وعنِ البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: خرَجنا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جِنازةِ رجُلٍ مِنَ الأنصارِ، فانتَهَيْنا إلى القَبرِ ولَمَّا يُلْحَدْ، فجلَسَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وجلَسْنا حَولَه كأنَّما على رُؤوسِنا الطَّيْرُ... ، وفيه قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في المؤمِنِ: ((ويَأْتيهِ مَلَكانِ فيُجْلِسانِه فيَقولانِ له: مَن ربُّك؟ فيقولُ: ربِّيَ اللهُ، فيقولانِ له: ما دِينُكَ؟ فيقولُ: دِيني الإسلامُ، فيقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ قالَ: فيقولُ: هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيقولانِ: وما يُدريكَ؟ فيَقولُ: قرَأتُ كِتابَ اللهِ فآمنتُ به وصدَّقتُ -زادَ في حديثِ جريرٍ: فذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [إبراهيم: ٢٧]- فيُنادِي مُنادٍ مِن السَّماءِ: أنْ صَدَق عبْدِي، فأفرِشُوه مِن الجَنَّةِ، وألبِسُوه مِن الجنَّةِ، وافتَحوا له بابًا إلى الجنَّةِ، فيَأتِيه مِن رَوْحِها وطِيبِها، ويُفسَحُ له في قَبرِه مَدَّ بَصرِه...))[1].

وعَن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((إنَّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (١٨٥٣٤) واللفظ له

صحَّح إسناده ابنُ جرير في ((مسند عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٤٣٦)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٨٥٣٤)، وصَحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٧٥٣).



العبدَ إذا وُضِعَ في قبْرِهِ وتَولَّى عنه أصحابُه، وإنَّه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهم؛ أتاهُ مَلَكانِ فيُقْعِدانِهِ، فيقولانِ: ما كُنْتَ تقولُ في الرَّجُلِ -لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-؟ فأمَّا المؤمِنُ فيقولُ: أشهَدُ أنَّه عبدُاللهِ ورسولُهُ، فيُقالُ له: انْظُرْ إلى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قدْ أبْدَلَكَ اللهُ به مَقْعَدًا مِنَ الجنَّةِ، فَيَراهُما جميعًا! قالَ قَتادَةُ: وذُكِرَ لَنا أنَّه يُفسَحُ في قبْرِه، ثُمَّ رَجَعَ إلى حَديثِ أنَسٍ، قالَ: وأمَّا المنافقُ والكافرُ فيُقالُ له: ما كُنْتَ تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فيَقولُ: لا أدري، كنتُ أقولُ ما يقولُ النَّاسُ، فيُقالُ: لا دَرَيْتَ ولَا تَلَيْتَ، ويُضْرَبُ بمَطَارِقَ مِن حديدٍ ضَرْبةً، فيَصيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُها مَن يَلِيهِ غَيرَ الثَّقَلَيْنِ))[١].

وعَن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: مَرَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحائطٍ مِن حِيطانِ المَدينةِ أو مكَّةَ، فسَمِعَ صَوْتَ إنْسَانَيْنِ يُعَذَّبانِ في قُبورِهما، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يُعَذَّبانِ، وما يُعَذَّبانِ في كبيرٍ! ثُمَّ قالَ: بلَى! كانَ أحدُهما لا يَسْتَتِرُ مِن بَوْلِه، وكانَ الآخَرُ يَمْشي بالنَّميمةِ ...))[٢].



القبْرُ هو أوَّلُ منازِلِ الآخرةِ، والعذابُ والنَّعيمُ فيه حقٌّ، وهو إمَّا رَوضةٌ مِن رِياضِ الجنَّةِ، أو حُفرةٌ مِن حُفَرِ النَّارِ، أعاذَنا اللهُ منها.

وفي الآيةِ الأُولى يُخبِرُ اللهُ تعالى بأنَّه يُثبِّتُ المُؤمِنينَ بالقَولِ الصَّادقِ الحَقِّ الذي ثبَتَ في قُلوبِهم، وتَمكَّنَ فيها، واطمأنَّتْ إليه نُفوسُهم، وهو شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، فيُثَبِّتُهم في حياتِهم الدُّنيا على إيمانِهم به سُبحانه، وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُسلِّمُهم مِن الشَّهَواتِ والشُّبُهاتِ، ويُثَبِّتُهم أيضًا في قُبورِهم عندَ سؤالِ الملَكَينِ، ويَخذُلُ اللهُ الكافرينَ والمُنافِقينَ؛ بسبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم، فيَجعَلُهم

(١) أخرجه البُخاريُّ (١٣٧٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٧٠).

(٢) أخرجه البُخاريُّ (١٣٧٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩٠٣).



في حَيرةٍ وعَمايةٍ، فلا يُوَفِّقُهم إلى الحَقِّ في الحياةِ الدُّنيا، ولا يُوَفِّقُهم في قُبورِهم إلى القَولِ الصَّائِبِ حين يُسأَلُونَ عن الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ففي الآيةِ دَلالةٌ على فِتنةِ القَبرِ وعَذابِه، ونَعيمِه.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُخبِرُ اللهُ تعالَى أنَّ آلَ فِرعَونَ يُعرَضونَ على النَّارِ كلَّ صَباحٍ ومَساءٍ، وذلك في قُبورِهم؛ ليُعذَّبوا بها إلى أنْ تَقومَ السَّاعةُ. ففي هذه الآيةِ إثباتُ عَذابِ القَبرِ كذلك.

وفي حَديثِ البَراءِ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ الصَّحابةَ خرَجوا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لتَشييعِ جِنازةِ رجُلٍ مِنَ الأنصارِ، فلمَّا وصَلُوا إلى القُبور وأماكنِ دَفنِ المَوتَى، وجَدوا أنَّ قبْرَ هذا الميِّتِ لم يُجهَّز بعدُ، وكانوا لا يَزالونَ يَحفِرونَه ليَلْحَدوا له، واللَّحْدُ: حُفرةٌ في جانِبِ القبرِ يُجْعَلُ فيها الميِّتُ، فجَلَسَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَن معَهُ مِن أصحابِه رَضِيَ اللهُ عنهم انتِظارًا لتَجهيزِه، وجلَسَ الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم كأنَّما على رُؤوسِهم الطَّيرُ، وهذا كِنايةٌ عَن أنَّ جُلوسَهم كان في هُدوءٍ وصَمتٍ، وسَكينةٍ ووَقارٍ تَامٍّ لعِظَمِ أمرِ المَوتِ، ثُمَّ وضَّحَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وفسَّرَ عِظَمَ وأهوالَ القَبرِ، وأنَّ الميِّتَ يَسمَعُ صَوتَ ضَربِ الأرْجُلِ بالأحذيةِ عِندَ انصرافِ النَّاس مِنَ الدَّفنِ، حتى يَأتِيَه المَلَكانِ المُوَكَّلانِ بحِسابِه، وهما مُنكَرٌ ونَكيرٌ، كما في بعضِ الرِّواياتِ، فيُجلِسانِ الميِّتَ، ويَسألانِه ثَلاثةَ أسئلةٍ؛ يَسألانِه عن ربِّه، ودِينِه، ونَبيِّه، فإذا كانَ مؤمِنًا صادقًا كانَ جوابُه: رَبِّيَ اللهُ، ودِيني الإسلامُ، ونَبيِّي رسولُ اللهِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَسألانِه عَن سَببِ تلك الإجابةِ وسَببِ مَعرِفتِها، فيُخْبِرُ المؤمنُ أنَّه كان في الدُّنيا مُشتغِلًا بقِراءةِ كِتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتَدبُّرِه والعَمَلِ به، وفيه الإيمانُ باللهِ، ورسُلِه، وكُتُبِه، وغيرِ ذلك، فصدَّقَ به وآمَنَ إيمانًا كاملًا بما جاءَ فيه؛ مِصداقًا لقَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فيُنادي المَولى عزَّ وجلَّ على ملائكتِه: «أنْ قدْ صدَقَ

عبدي»، أي: صَدَقَ في أجْوبَتِه، وقد كانَ يؤمِنُ بذلك في حَياتِه، فيَأمرُهم أنْ يَجعَلوا له فِراشًا مِنَ الجنَّةِ يَجْلِسُ عليه، ولِباسًا يَكسوه، ويَجعَلوا له بابًا إلى الجنَّةِ يَنظُرُ إلَيْها منه، ويَنْبَثِقُ إلَيهِ مِن راحتِها ونَسيمِ رَائحتِها الزَّكيَّةِ العَطِرَةِ؛ تَوْسِعةً عَليه، وتنعيمًا له في قبْرِه حتى يَبعَثَهُ اللهُ يَوْمَ القِيامةِ، وهذا مِن نَعيمِ القَبرِ الذي يَنالُه المؤمِنُ فيه قَبْلَ نيْلِ النَّعيمِ المقيمِ في جَنَّاتِ عدْنٍ.

وفي حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما يَتعرَّضُ له الإنسانُ عند مَوتِه ووضْعِه في قبرِه؛ مِن أنَّه يَسمَعُ قَرْعَ نِعالِ مَن أتى لدفْنِه، يعني: صوتَ أرجُلِهم وهم مُنصرِفون، فإذا انصَرفوا جاءَه مَلَكانِ فيُقْعِدانِه فيقولانِ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرَّجلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ فإذا كانَ مؤمِنًا يقولُ: «أَشهَدُ أنَّه عبدُاللهِ ورسولُه، فيُقالُ له: انظُرْ إلى مَقعَدِكَ مِنَ النَّارِ»، يعني: إلى مكانِك المُعَدِّ لك في النَّارِ لو لم تكُنْ مؤمِنًا، أبدَلَك اللهُ به مَقعَدًا في الجنَّةِ، فَيَرى كِلا المَقعدَينِ، فإنْ كان كافرًا أو مُنافقًا «فيقولُ: لا أدْري! كنتُ أقولُ ما يقولُ النَّاسُ!» فيُقالُ له: «لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ»، وهو دعاءٌ عليه، بمعنى: لا كنتَ دَاريًا ولا تاليًا؛ فلا تُوَفَّقُ في هذا الموقِفِ ولا تَنتفِعُ بما كنتَ تَسمَعُ أو تَقرَأُ، ثُمَّ يُضرَبُ بِمِطْرقةٍ مِن حديدٍ ضَرْبةً بين أُذنَيْه، فيَصيحُ صَيْحةً يَسمعُه مَن يَليهِ إلَّا الثَّقلَينِ، وهما الإنسُ والجنُّ. فاللَّهُمَّ قِنا فِتنةَ القبرِ وعذابَه بِمَنِّك وفضْلِك يا أرحمَ الراحمينَ.

وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأحدِ الأعمالِ المُوجِبةِ لعذابِ القبرِ، حيثُ مَرَّ على حائطٍ مِن حِيطانِ المدينة أو مكَّةَ، والحائِطُ: هو البُسْتانُ إذا كان له سُورٌ، فسَمِعَ صوتَ إنسانَيْن يُعَذَّبانِ في قُبورِهما، فقالَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «يُعَذَّبانِ، وما يُعَذَّبانِ في كبيرٍ» يعني: لا يُعَذَّبانِ في أمرٍ كبيرٍ في نَظرِكم، وإنْ كان هو في الحقيقةِ كبيرًا عند اللهِ تعالى؛ ولذلك قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «بلى»، يعني: إنَّه كبيرٌ في الحقيقةِ، وسَببُ عَذابِهما كما أَخْبَرَ النبيُّ

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أحدَهما كان لا يَسْتَبْرِئُ مِن بَولِه ولا يَتَحفَّظُ مِن أنْ يُصيبَه منه، والآخَرُ كان يَمْشي بالنَّميمةِ بَينَ النَّاسِ، وهو الذي يَنقُلُ كلامَ غَيرِه بقَصْدِ الإضرارِ وإيقاعِ الخِلافِ والوَقيعةِ بَينَ النَّاسِ.

وفي هذه الآياتِ والأحاديثِ إثباتُ نَعيمِ القَبرِ وعَذابِه، وبيانُ أنَّ ذلك حقٌّ يَجِبُ الإيمانُ والتَّسليمُ به، والنعيمُ والعذابُ يَحصُلانِ للرُّوحِ وللجسدِ.

الميِّتُ يُعَذَّبُ ببُكاءِ أهلِه عليه

عَن أبي موسى الأشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: لمَّا أُصيبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه جعَلَ صُهَيْبٌ يقولُ:وا أخاهُ، فقالَ عُمَرُ: أمَا عَلِمْتَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((إنَّ الميِّتَ لَيُعَذَّبُ ببُكاءِ الحيِّ))[1].



كانَ مِن عاداتِ أهلِ الجاهليَّةِ أنْ يُوصيَ أحدُهم بأنْ يُبْكى عليه بصوتٍ مُرتفعٍ، وأن يُناحَ بعدَ مَوتِه بذِكْرِ شَمائلِه ومَحاسنِه، وهي عاداتٌ قَبيحةٌ نهَى عنها الشَّرعُ، وبيَّنَ أنها تَجلِبُ لصاحبِها الألَمَ والعذابَ إنْ وصَّى بها أو رَضِيَها، وفي هذا الحديثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعضَ الأسبابِ التي يُعذَّبُ الميِّتُ بها؛ فإنَّه لَمَّا أُصيبَ أميرُ المؤمنين عُمَرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عنه وحضَرَتْه الوفاةُ، جعَلَ صُهَيبٌ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ: «وا أخاهُ»، وكانتْ تلك مِن عاداتِ الجاهليَّةِ ومِن النِّياحةِ التي نهَى عنها الإسلامُ، فلمَّا سَمِعَه عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه قال له: «أمَا علِمْتَ»، يعني: أمَا وصَلَك أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نهَى عن مِثلِ هذه العاداتِ الجاهليَّةِ، وقال: إنَّ الميِّتَ لَيُعذَّبُ -وهو في قَبرِه- ببُكاءِ الحيِّ مِن أهلِه عليه، وغيرِ ذلك ممَّا يَفعَلونَه مِن عاداتِ

(١) أخرجه البُخاريُّ (١٢٩٠) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩٢٧).



الجاهليَّةِ؟! وقد حمَلَ طائفةٌ مِنَ العُلماءِ ذلك على مَن أوصَى به، أو كانتْ عادتُهم كذلك ولم يَنْهَهُم، فلَم يُوصِ قبْلَ موتِه بألَّا يُحْدِثوا قولًا ولا فِعْلًا مُنْكَرًا، وهذا كان مَشهورًا عندَ العربِ؛ لأنَّه إذا غلَبَ على ظنِّه فِعْلُهم له، ولم يُوصِهم بتَرْكِه فقد وصَّى به، وصارَ كمَن ترَكَ النَّهيَ عَنِ المُنكرِ مع القُدرةِ عليه، فأمَّا إذا أوصاهُمْ بتَرْكِه، فخالَفوه؛ فاللهُ أكرَمُ مِن أنْ يُعذِّبَه بذلك.







أشْراطُ الساعةِ الصغرى

سِتٌّ بَيْنَ يَدَي السَّاعةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

وعن عَوفِ بنِ مالكٍ الأشْجَعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: أتَيْتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غَزوَةِ تَبوكَ وهو في قُبَّةٍ مِن أَدَمٍ، فقال: ((اعْدُدْ سِتًّا بيْن يَدَيِ السَّاعةِ: مَوتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيتِ المَقدِسِ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأخُذُ فيكُم كَقُعاصِ الغَنَمِ، ثُمَّ استِفاضةُ المالِ، حتى يُعطى الرَّجلُ مِائةَ دِينارٍ فيَظَلُّ ساخِطًا، ثُمَّ فِتنةٌ لا يَبْقى بَيتٌ مِنَ العَرَبِ إلَّا دَخَلَتْه، ثُمَّ هُدْنَةٌ تكونُ بيْنكم وبيْن بَني الأصْفَرِ، فيَغْدِرونَ، فيَأتونكُم تحْتَ ثَمانِينَ غايةً، تحْتَ كُلِّ غايةٍ اثْنا عَشَرَ ألْفًا))[1].



يَومُ القِيامةِ حَقٌّ لا رَيْبَ فيه، ومِن رَحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالعِبادِ أنْ جعَلَ له علاماتٍ تَسبِقُه حتى يَستَعِدُّوا له، ويَأخُذوا للأمرِ عُدَّتَه، **وفي الآيةِ الكريمةِ المذكورةِ** إنكارٌ مِن اللهِ على المنافِقينَ لانتظارِهم مَجيءَ القِيامةِ التي تَأْتي فَجأةً دونَ أنْ يَستعِدُّوا لها، وبَيَّنَ اللهُ عزَّ وجَلَّ أنَّه قدْ جاءَتهم مُقدِّماتُ القِيامةِ، وأماراتُ الساعةِ، وعَلاماتُ قُربِها، ومع ذلك لم يَنتَفِعوا بها فيَتَّعِظوا ويُقبِلوا على الإيمانِ والتَّوبةِ، ويَستَعِدُّوا للِقاءِ اللهِ تعالى، فما داموا قد فرَّطوا في ذلك فلم يَنتَفِعوا ويَحصُلْ لهم التذكُّرُ بعَلاماتِها؛ فكيف سيَحصُلُ لهم ذلك إذا وقَعَت القيامةُ وفات وَقتُ الإيمانِ، وأُغلِقَ بابُ التَّوبةِ والعَمَلِ بالقُرآنِ؟!

وفي حديثِ عَوْفِ بنِ مالكٍ الأشْجَعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

(١) أخرجه البُخاريُّ (٣١٧٦).



وسلَّمَ سِتًّا مِن عَلاماتِ السَّاعةِ، حيثُ يَحْكي الصَّحابيُّ الجليلُ عَوْفُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه أتَى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غَزوةِ تَبوكَ -وتَبوكُ تَقعُ في أقْصى شَمالِ الجَزيرةِ العرَبيَّةِ، وكانَت هذه الغزوةُ ضِدَّ الرُّومِ في السَّنَةِ التَّاسعةِ مِن الهِجرةِ، وتُسمَّى بغَزْوةِ العُسْرةِ-، فوجَدَه جالسًا في خَيمةٍ مُستديرةٍ مَصنوعةٍ مِنَ الجِلدِ المدْبوغِ، فأخبَرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَحسِبَ ويَعُدَّ سِتَّ علاماتٍ تدُلُّ على قُربِ قيامِ السَّاعةِ؛ **أوَّلُها**: موتُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. **وثانيها**: فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ، وقد تمَّ في عهْدِ عُمَرَ بنِ الخطَّاب رضِي الله عنه. **وثالثُها**: وَباءٌ يُصيبهم يُعرَفُ بقُعاصِ الغَنَمِ، وهو داءٌ يَأخُذُ الغَنَمَ، فيَسيلُ مِن أُنوفِها شيءٌ فتَموتُ فَجأةً، وقد حدَث هذا في طاعونِ عَمواسَ، حيثُ ماتَ منه سَبعون ألفًا في ثلاثةِ أيَّامٍ. **ورابعُها**: كثرةُ المالِ وانتشارُه حتى يصِلَ الأمرُ أنْ يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دينارٍ، فَيَظَلُّ ساخِطًا غيرَ راضٍ؛ لأنَّه يَستَقِلُّها. **وخامسُها**: اختِبارٌ وابتِلاءٌ، وقيل: مُصيبةٌ وبَليَّةٌ لا يَبْقى بَيْتٌ مِنَ العَرَبِ إلَّا دخَلَتْه، قيل: وهي واقِعةُ التَّتارِ؛ إذ لم يقَعْ في الإسلامِ بل ولا في غَيرِه مِثلُها، وقيل غيرُ ذلك، وإنَّها لم تقَعْ بعدُ. **وسادسُها**: صُلْحٌ بيْنَ المُسلِمينَ وبيْنَ الرُّومِ على ترْكِ القِتالِ؛ فيَنقُضونَ الهُدنةَ غدْرًا، ويَأْتُون لِقتالِكم في أعدادٍ كبيرةٍ تَبلُغُ ثمانين رايةً، وتحتَ كلِّ رايةٍ اثنا عَشَرَ ألفًا مِنَ الجنودِ.

وما أخبَرَ به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا الحَديثِ بعضُه وقَعَ بالفِعلِ، ودلَّ على اقترابِ السَّاعةِ، وبعضُه لم يقَعْ بعدُ وسيَقعُ يَقينًا كما أخبَرَ الصادقُ المصدوقُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويُعدُّ هذا الحديثُ علَمًا مِن أعلامِ نُبوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

كثرَةُ الدَّجَلِ والكَذِبِ

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، يقولُ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يكونُ في آخِرِ الزَّمانِ دَجَّالونَ كَذَّابونَ، يَأْتونكُم مِنَ الأحاديثِ بما لَمْ تَسْمَعوا أنتُم ولا

آباؤُكُم؛ فإِيَّاكُم وإيَّاهُم، لا يُضِلُّونكُم، ولا يَفْتِنونكُم))[1].



قد أنبأَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الصَّحابَةَ عن كثيرٍ مِنَ الفِتَنِ التي حَدَثَ بعضُها في قَرْنِهِم، ثُمَّ يَتلوها بعضٌ آخَرُ إلى قِيامِ السَّاعةِ، ومِن ذلك كثرةُ الدَّجَلِ والكَذِبِ في آخِرِ الزَّمانِ، وقد أشارَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا الحَديثِ إلى ذلك، فذَكَرَ أنَّه سيُوجَدُ في آخِرِ زَمانِ هذه الأُمَّةِ «دَجَّالونَ»، وهم المُزَوِّرونَ والمُلَبِّسونَ، والخَدَّاعونَ، مِنَ الدَّجَلِ الذي هو تَلْبيسُ الباطِلِ بما يُشْبِهُ الحقَّ، ومِن دجَلِهم وكَذِبِهم يَذكُرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّهم يَأتون النَّاسَ بأحاديثَ مَكذوبةٍ، فيَدَّعون -مثلًا- أنهم علماءُ، وحَمَلةُ دينٍ، ودُعاةُ إصلاحٍ، وهم في حقيقةِ أمْرِهم كاذِبونَ مُخادِعون، فيَبْتدِعون أحكامًا باطلةً، واعتقاداتٍ فاسدةً تَلبِسُ على النَّاسِ دِينَهم، وتُفسِدُه عليهم. وَيَجوزُ أنْ تُحْمَلَ كلمةُ «الأحاديث» في هذا الحديثِ على المشهورِ عندَ المُحدِّثِينَ، فيكون المُرادُ بها الموضوعاتِ مِنَ الأحاديثِ التي وَضَعَها الكذَّابونَ، ثُمَّ حذَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منهم، وأمَرَ بالابتعادِ عنهم؛ فإنَّهم بما يَتحدَّثون به مِنَ الدَّجلِ والكَذِبِ والافتراءِ قادِرونَ على إضلالِكم؛ فابتعِدوا عنهم حتى لا يُضِلُّوكم، وحتَّى لا يُوقِعوكم في الفِتنَةِ، ويُبعِدوكم عَنِ الحَقِّ بخِداعِهم وكَذِبِهم، والفِتنةُ: هي الشِّرْكُ؛ قالَ تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، أو يُرادُ بها عذابُ الآخرةِ؛ قالَ تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤].

قِلَّةُ العِلمِ، وكَثرةُ الجَهلِ

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: لَأُحَدِّثَنَّكُم حَديثًا لا يُحَدِّثُكُم أَحَدٌ بَعْدي؛ سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((مِن أَشْراطِ السَّاعةِ: أنْ يَقِلَّ العِلْمُ،

(١) أخرجه مسلمٌ في ((مقدمة الصحيح)) (٧).

ويَظْهَرَ الجَهلُ، ويَظهَرَ الزِّنا، وتَكْثُرَ النِّساءُ، ويَقِلَّ الرِّجالُ، حتى يكونَ لِخَمْسينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الواحِدُ))[1].

العِلمُ الشَّرعيُّ الصَّحيحُ عاصِمٌ مِنَ الفِتنِ، وحافِظٌ مِنَ الزَّلَلِ، وفي آخِرِ الزَّمانِ يقِلُّ العِلمُ ويَكثُرُ الجهلُ؛ فتعُمُّ المفاسدُ، ويَزيدُ البلاءُ، **وفي هذا الحديثِ** يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مِن علاماتِ قُرْبِ قِيامِ السَّاعةِ أنْ يقِلَّ العِلمُ الشَّرعيُّ في هذه الأرضِ ويَكثُرَ الجَهلُ ويفْشُو في الناسِ؛ لكثرةِ مَوتِ العُلماءِ، حتى إذا ماتَ أهلُ العِلمِ الحقيقيِّ، ولم يَبْقَ عالِمٌ، ووصَلَ الجُهَلاءُ إلى المراكزِ العِلميَّةِ التي لا يَستحِقُّونها: مِن تدْريسٍ، وإفتاءٍ، ونحوِه، واتَّخذَهم النَّاسُ عُلماءَ يَسأَلونَهم، فيُفتونَ بغَيرِ علمٍ لجهْلِهم، فأحَلُّوا الحرامَ، وحرَّموا الحلالَ، فضَلُّوا في ذاتِ أنفُسِهم عَنِ الحقِّ، وأضَلُّوا مَنِ اتَّبَعهم وأخَذَ بفَتْواهم مِن عامَّةِ النَّاسِ؛ فيَتمكَّنُ الجَهلُ مِنَ النَّاسِ، ويَفْشو بينهم، وتَنتشِرُ الفِتَنُ والاختلافاتُ والفُرقةُ، ويَنتجُ عن ذلك زَوالُ الخشيةِ مِنَ القُلوبِ، كما جاء توضيحُ ذلك في حديث عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((إنَّ اللهَ لا يَقبِضُ العِلمَ انتزاعًا يَنتزِعُه مِن النَّاسِ، ولكنْ يَقبِضُ العِلمَ بقَبْضِ العُلماءِ، حتَّى إذا لَمْ يَترُكْ عالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا فأَفْتَوْا بغَيرِ عِلمٍ، فضَلُّوا وأضَلُّوا))[2].

كَثرةُ القَتلِ، وتَقارُبُ الزَّمانِ

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((يُقْبَضُ العِلمُ، ويَظْهَرُ الجَهلُ والفِتَنُ، ويَكْثُرُ الهَرْجُ، قيلَ: يا رسولَ اللهِ، وما الهَرْجُ؟ فقالَ هكذا بيَدِه

(١) أخرجه البُخاريُّ (٨١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٧١).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) واللفظ له.

فَحَرَّفَها، كأنَّه يُريدُ القَتْلَ))[1].

وعنه رَضِيَ اللهُ عنه قال: قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا تَقومُ السَّاعةُ حتى يُقْبَضَ العِلْمُ، وتَكْثُرَ الزَّلازِلُ، ويَتَقارَبَ الزَّمانُ، وتَظْهَرَ الفِتَنُ، ويَكْثُرَ الهَرْجُ -وهو القَتْلُ- حتى يَكْثُرَ فِيكُمُ المالُ فَيَفيضَ))[2].



في الحديثِ الأوَّلِ يُبيِّنُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعضًا مِن علاماتِ قُربِ قِيامِ السَّاعةِ، ومنها أنْ يكثُرَ «الهَرْجُ»، فسَأَلَ بعضُ الحاضِرينَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَنِ الهرْجِ ما هو؟ فأشارَ بيدِه فحرَّفها قاصدًا القَتلَ وسَفْكَ الدِّماءِ، والقتلُ المقصودُ هنا هو أنْ يَقتُلَ المُسلِمونَ بعضُهم بعضًا دونَ مُراعاةٍ لحُرمةِ دَمٍ، أو دِينٍ، أو قَرابةٍ!

وفي الحديثِ الثاني يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعِدَّةِ علاماتٍ للسَّاعةِ؛ مِن قَبْضِ العِلمِ بمَوتِ العُلماءِ، وكثرةِ الزَّلازِلِ، وظُهورِ المِحَنِ والابتلاءاتِ، وكثرةِ القتلِ، وكثرةِ المالِ وزِيادتِه في أيدي النَّاسِ، وتقارُبِ الزَّمانِ، ويكونُ ذلك بأنْ تقِلَّ بَرَكةُ الزَّمانِ، فتَقصُرَ أعمارُ النَّاسِ بقلَّةِ البركةِ فيها، أو يَنشغِلَ النَّاسُ بما دهَمَهُم مِنَ النَّوازلِ والشَّدائدِ، وتُشغَلَ قلوبُهم بالفِتَنِ العِظامِ، حتَّى لا يَدرُوا كيف تَنْقَضي أيامُهم ولَياليهم، ومِن تَقارُبِ الزَّمانِ سرعةُ مُرورِ الأيامِ، فعدَدُ ساعاتِ اليَومِ نفسِها لا يَتغيَّرُ، وكذا أيامُ الأسبوعِ، وكذا الشَّهرُ، والعامُ، ولكِنَّها تُنزَعُ برَكتُها فتَقصُرُ مُدَّتُها! وقيل: المرادُ قِصَرُ الزَّمانِ وسُرعتُه سُرعةً حقيقيَّةً. واللهُ أعلَمُ.

(١) أخرجه البُخاريُّ (٨٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٥٧).
(٢) أخرجه البُخاريُّ (١٠٣٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٥٧).

اتِّباعُ اليَهودِ والنَّصارَى

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُم شِبْرًا بشِبْرٍ، وذِراعًا بذِراعٍ، حتى لو سَلَكوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُموهُ، قُلْنا: يا رَسُولَ اللهِ، اليَهُودَ، وَالنَّصارى؟ قالَ: فَمَنْ؟!))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا تَقومُ السَّاعةُ حتى تَأخُذَ أُمَّتي بأخْذِ القُرونِ قبلَها...)) الحديثَ[2].



كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأمرُ بمُخالَفةِ أهلِ الكِتابِ مِن اليهودِ والنَّصارَى، ويُحذِّرُ مِن مُتابعتِهم، **وفي حديثِ أبي سَعيدٍ الخدريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما** يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أمْرٍ مُستَقبلِيٍّ، ويُؤكِّدُ أنَّ السَّاعةَ لن تَقومَ حتى تَتَّبعَ أمَّتُه طَريقةَ اليَهودِ والنَّصارَى اتِّباعًا شَديدًا، وحتى تَأخُذَ أُمَّتُه بأخْذِ القُرونِ قبْلَها؛ فقد صَوَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شِدَّةَ هذا الاتِّباعِ، فقال: «شِبْرًا بشِبْرٍ، وَذِراعًا بذِراعٍ»، وهذا كِنايةٌ عَن شدَّةِ الموافَقةِ لهم، واتِّباعِهم في عاداتِهم وتقاليدِهم، حتى لو دخَل اليهودُ والنَّصارَى جُحْرَ ضَبٍّ لدَخَلوه وراءَهم! والضَّبُّ: حيوانٌ جُحرُه شَديدُ الظُّلْمةِ نَتْنُ الرِّيحِ، وَوجهُ التَّخصيصِ بجُحرِ الضَّبِّ: شدَّةُ ضِيقِه ورَداءَتُه، ومع ذلك فإنَّهم -لاقتِفائهم آثارَهم واتِّباعِهم طرائقَهم،- لو دَخَلوا في مِثْلِ هذا الضِّيقِ الرَّديءِ لَوافَقوهم!

وفي هذا الحديثِ مُعجزةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فقدْ وقَعَ ما أخبَرَ به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وانتشَرَ ذلك في الأزمنةِ المتأخِّرةِ؛ مِن اتِّباعِ كثيرٍ مِن

(١) أخرجه البُخاريُّ (٣٤٥٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٦٩).

(٢) أخرجه البُخاريُّ (٧٣١٩).



المُسلِمينَ لأعداءِ اللهِ تعالَى في عاداتِهم وتَقاليدِهم وسُلوكيَّاتِهم، قلَّدوهم في ملابِسِهم وشعائِرِهم، وقلَّدوهم في أعيادِهم، وفيما هم عليه مِن أخلاقٍ ذَميمةٍ، وعاداتٍ فاسدةٍ تُخالِفُ شَريعةَ الإسلامِ المُطهَّرةَ، وكان ذلك نتيجةً لغَلَبةِ الكفَّارِ، والمغلوبُ مُولَعٌ بتَقليدِ الغالِبِ، ومِثالُ ذلك ما يُشاهَدُ في بِلادِ المسلِمينَ مِن المشاركةِ في الأعيادِ والاحتِفالاتِ الخاصَّةِ باليَهودِ والنَّصارَى وغيرِهم مِن أُممِ الكُفرِ!

وأيضًا ممَّا اتَّبَعَ فيه كثيرٌ من المُسلِمينَ اليهودَ والنَّصارَى: الغُلوُّ في الصَّالِحينَ، وبِناءُ القِبابِ والمشاهِدِ والمساجِدِ على قُبورِهم؛ ممَّا كان سَببًا في كَثيرٍ مِن الشِّركيَّاتِ التي تُرتَكَبُ عِندَها.

ففي هذا البيانِ النَّبويِّ أنَّ طوائفَ مِن هذِه الأُمَّةِ سوف تَتشبَّهُ بالكُفَّارِ قَطعًا، ولكنْ ليس هذا إخبارًا عن جَميعِ الأمَّةِ؛ فقدْ عُلِمَ قطعًا أنَّ اللهَ تعالَى تكفَّلَ بحِفظِ الدِّينِ، وأنَّه لا تَزالُ طائفةٌ مِن المُسلِمينَ على الحقِّ ظاهرينَ حتى تقومَ الساعةُ، وأنَّ الأُمَّةَ لا تَجتمِعُ على ضَلالةٍ؛ فقد تَواتَرَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: «لا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي ظاهِرينَ، حتى يَأتيهَم أمرُ اللهِ وهم ظاهِرونَ»(١)؛ فعُلِمَ بخَبَرِه الصَّادقِ أنَّ في أُمَّتِه قومًا مُتمسِّكينَ بهَدْيِه الذي هو دِينُ الإسلامِ المحضُ الخالصُ عن الشَّوبِ، وقومًا مُنحرِفينَ إلى شُعبةٍ مِن شُعَبِ اليهودِ، أو إلى شُعبةٍ مِن شُعَبِ النَّصارَى، وقد يكونُ الانحراف كُفرًا، وقد يكونُ فِسقًا، وقد يكونُ مَعصيةً، وقدْ يكونُ خطأً.

وإذا كان اللهُ تعالَى قدْ مَنَّ علينا بأنْ جعَلَنا مِن أتْباعِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الذي هو خيرُ الرُّسلِ، ودِينُه خيرُ الأديانِ، وشَريعتُه خيرُ الشرائعِ؛ فكيف يَليقُ بنا أنْ نَتشبَّهَ بقومٍ قدْ ضَلُّوا مِن قبلُ وأضلُّوا كثيرًا، وضلُّوا عن سَواءِ السَّبيلِ؟! قد بدَّلوا دِينَهم وحرَّفوه! ولذلك أُمِرَ العِبادُ في قَولِه تعالَى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (٧٣١١) واللفظ له، ومسلم (١٩٢١).



٦] بدَوامِ دُعاءِ اللهِ سُبحانَه بالهدايةِ إلى الاستقامةِ على طَريقِه المستقيمِ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ مِن الذين عَلِموا الحقَّ وعَمِلوا به ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ كاليَهودِ ومَن سَلَكَ سَبيلَهم ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ كالنَّصارى ومَن سَلَكَ سَبيلَهم.

إسنادُ الأمرِ إلى غَيرِ أهلِه

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: بينما النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَجلِسٍ يُحَدِّثُ القَوْمَ جاءَهُ أعْرَابِيٌّ فقالَ: متى السَّاعةُ؟ فَمَضى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحَدِّثُ، فقالَ بعضُ القَوْمِ: سَمِعَ ما قالَ فكَرِهَ ما قالَ، وقال بعضُهم: بل لَمْ يَسْمَعْ، حتى إذا قَضى حديثَهُ قالَ: ((أين -أُراهُ- السَّائلُ عَنِ السَّاعَةِ؟ قالَ: ها أنا يا رسولَ اللهِ، قالَ: فإذا ضُيِّعَتِ الأمَانَةُ فانتَظِرِ السَّاعةَ، قالَ: كيفَ إضاعتُها؟ قالَ: إذَا وُسِّدَ الأمْرُ إلى غيرِ أهلِهِ فانتَظِرِ السَّاعَةَ))[1].



اختيارُ الأكْفَاءِ وإسنادُ الأمورِ إلَيْهم حسَبَ قُدراتِهم بابٌ عظيمٌ مِن أبوابِ الأمانةِ، وفي هذا الحديثِ يُحَذِّرُ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن تَوْليةِ غَيرِ الأكْفَاءِ، ويُبيِّنُ أنَّ هذا الفِعلَ علامةٌ مِن عَلاماتِ قُربِ قيامِ السَّاعةِ، حيثُ جاءَ «أعرابيٌّ» -وهو ساكنُ الصَّحراءِ- إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَسألُه عن مَوعدِ قِيامِ السَّاعةِ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَجلسٍ يُحدِّثُ جَماعةً مِنَ أصْحابِه، فاستمَرَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حديثِه ولم يُجِبِ الأعرابيَّ عن سُؤالِه، فظنَّ بعضُ الصَّحابةِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَرِهَ سؤالَ الرَّجُلِ، أو أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَسمَعْهُ، وظهَرَ أنَّ سُكوتَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إنَّما كان لشُغْلِه؛

(١) أخرجه البُخاريُّ (٥٩).



فبَعدَ أنِ انْتَهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن حديثِه أجابَ الأعرابيَّ عن سُؤالِه عنْ وقتِ قيامِ الساعةِ، وكانتْ إجابتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا يَنفَعُ السَّائلَ، حيثُ أخبَرَه بعَلامةٍ تدُلُّ على قُربِ قيامِ السَّاعةِ، وهي «ضَياعُ الأمانةِ»؛ فإذا ضُيِّعتِ الأمانةُ قَرُبَ وقتُ قِيامِ الساعةِ، فسأَلَ هذا الأعرابيُّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن كَيفيَّةِ ضَياعِ الأمانةِ، فأخبَرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنَّه إذا أُسنِدَ الأمرُ إلى غَيرِ أهلِ الكَفاءةِ الحَقيقيَّةِ فلْيَنتَظِرْ قِيامَ السَّاعةِ، فإذا فسَدَ النَّاسُ وكانتِ الأمورُ تُسنَدُ إلى غيرِ أهْلِها: الفتوى تُسنَدُ للجاهلِ، والإمارةُ تُسنَدُ للسَّفيهِ، والإدارةُ تُسنَدُ لِمَن لا عِلمَ عِندَه بالإدارةِ، ونحوُ ذلك؛ فهذا ضَياعٌ للأمانةِ، وفي ضَياعِ الأمانةِ على هذا النَّحوِ ضَياعٌ للمُجتَمَعِ كلِّه، ومِن ثَمَّ قِيامُ السَّاعةِ.





أشراطُ الساعةِ الكُبرَى

عَشْرُ آياتٍ قَبْلَ قِيامِ السَّاعةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠-١١].

وعن حُذَيفةَ بنِ أَسيدٍ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: اطَّلَعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علينا ونَحْنُ نَتَذاكَرُ، فقالَ: ((ما تَذاكَرونَ؟ قالوا: نَذكُرُ السَّاعةَ، قالَ: إنَّها لن تَقومَ حتى تَرَوْا قبلَها عشْرَ آياتٍ، فذَكَرَ: الدُّخانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغْرِبِها، ونُزولَ عيسى ابنِ مريمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويَأجوجَ ومَأجوجَ، وثلاثةَ خُسوفٍ: خَسْفٌ بالمشرقِ، وخَسْفٌ بالمغربِ، وخَسْفٌ بجزيرةِ العربِ، وآخِرُ ذلكَ نارٌ تَخْرُجُ مِنَ اليَمَنِ تَطرُدُ النَّاسَ إلى مَحْشَرِهم))[١].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((بادِروا بالأعمالِ سِتًّا: طُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغْرِبِها، أوِ الدُّخانَ، أوِ الدَّجَّالَ، أوِ الدَّابَّةَ، أو خاصَّةَ

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠١).

أحَدِكُم، أو أمْرَ العامَّةِ))[1].



للسَّاعةِ عَلاماتٌ لنْ تَقومَ القِيامةُ إلَّا بَعدَ وُقوعِها؛ منها علاماتٌ صُغرَى وقدْ مرَّ ذِكرُ بعضِها[2]، ومنها علاماتٌ كُبرَى، والفَرقُ بيْن العَلاماتِ الصُّغرَى والكُبرَى: أنَّ الكُبرى تكونُ أقرَبَ لقِيامِ السَّاعةِ، وعَدَدُها قليلٌ، ومُتتاليةٌ، ولم يَقَعْ شَيءٌ منها حتَّى الآن، أمَّا الصُّغْرى فهي كثيرةٌ ومُتباعِدةٌ، ووقَعَ كَثيرٌ منها. ومِن تلك العَلاماتِ الكُبرَى: طُلوعُ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، **كما ذكَرَ اللهُ تَعالَى في الآيةِ الأُولى** حينَ أنكَرَ على المشركينَ عدَمَ استِعدادِهم للآخرةِ قبْلَ مَجيءِ مَلائكةِ الموتِ لقَبْضِ أرْواحِهم، وقبْلَ مَجيءِ الرَّبِّ يومَ القِيامةِ للقضاءِ بيْن عِبادِه، وقبْلَ طُلوعِ الشمسِ مِن مَغرِبِها؛ فإنَّها إذا طَلَعَت كذلك لا يُقْبَلُ إيمانُ كافِرٍ، ولا تَوبةُ عاصٍ، ولا عمَلٌ صالحٌ.

وهذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ الإيمانَ يَنْفَعُ إذا كان إيمانًا بالغَيْبِ، وكان اختيارًا مِنَ العبدِ، فأمَّا إذا وُجِدَتِ الآياتُ فيَصيرُ الأَمْرُ شَهادةً، ولم يَبْقَ للإيمانِ فائدةٌ؛ لأنَّه يُشْبِهُ الإيمانَ الضَّروريَّ، كإيمانِ الغَريقِ والحَريقِ ونَحْوِهما مِمَّن إذا رأى الموتَ تاب عمَّا وقَعَ فيه مِن السَّيِّئاتِ.

وذكَرَ اللهُ تَعالى في الآيةِ الثانيةِ عَلامةً أُخرى مِن عَلاماتِ السَّاعةِ الكُبرى، وهي خُروجُ الدَّابَّةِ؛ فإنَّه إذا حلَّ الوَعدُ بعَذابِ الكافِرينَ واقترَبَت الساعةُ، أخرَجَ اللهُ تَعالى لهم دابَّةً مِن الأرضِ تُخاطِبُ أولئك الكافرينَ وتُحدِّثُهم بأنَّ الناسَ لا يُؤمِنونَ بآياتِ اللهِ تَعالى إيمانًا تامًّا لا شكَّ فيه ولا شُبهةَ. وفي هذا بَيانُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، حيثُ أنطَقَ هذه الدَّابَّةَ لتُكَلِّمَ الناسَ بكَلامٍ يَفهَمونَه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٧).

(٢) ينظر ما تقدَّم (ص: ١١٦ فما بعدها).



وفي الآيةِ الثالثةِ ذِكرٌ لعَلامةٍ أُخرَى مِن العَلاماتِ الكُبرى، وهي ظُهورُ الدُّخانِ، حيث تَأْتي السَّماءُ بدُخَانٍ ظاهِرٍ يُغَطِّي النَّاسَ ويَعُمُّهم قبْلَ مَجيءِ الساعةِ ووُقوعِ القيامةِ.

وفي حديثِ حُذَيْفةَ بنِ أَسِيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَرَجَ عليهم مِن مكانٍ عالٍ، وكانوا جُلوسًا يَتَذاكَرون أمْرَ مَجيءِ السَّاعةِ وقيامِها، فقالَ لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّها لا تَقومُ حتى يَسبِقَها وُقوعُ عشْرِ علاماتٍ، وذَكَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ظُهورَ «الدُّخَانِ»، وهو دُخانٌ يَأخُذُ بأَنْفاسِ الكفَّارِ، ويَأخُذُ المؤمنين منه كهيئةِ الزُّكامِ، وهو مِنَ الآياتِ المُنتظَرةِ التي لم تَأتِ بعدُ، وسيقَعُ قُربَ يَومِ القِيامةِ، و«الدَّجَّالَ»، و«خُروجَ الدَّابَّةِ»، وهي المذكورةُ سابقًا في قَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، و«طُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها» على خِلافِ العادةِ؛ فالشَّمسُ تَطلُعُ مِنَ المشرقِ، فإنَّها إذا طَلَعَت مِنَ المَغربِ لا يَنفَعُ بعدَها عمَلٌ؛ فعن أبي هُرَيْرَةَ رضَيَ اللهُ عنه، عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا تَقومُ السَّاعةُ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها، فإذا طَلَعَت وَرآها النَّاسُ آمَنوا أجمَعونَ، فذلك حِينَ لا يَنفَعُ نفْسًا إيمانُها لم تكُن آمنَت مِن قبلُ أو كسَبَتْ في إيمانِها خَيرًا))[1]، وسيأتي الكلامُ عن «نُزولِ عيسى»[2]، و«خُروجِ يَأجوجَ ومَأْجوجَ»[3].

ومِنَ تِلك العَلاماتِ: «وُقوعُ ثلاثةِ خُسوفٍ: خَسْفٌ بالمشرقِ، وخَسْفٌ بالمغربِ، وخَسْفٌ بجَزيرةِ العربِ»، وخَسْفُ المكانِ: ذَهابُه في الأرضِ وغُيوبَتُه فيها، ولعلَّ هذه الخُسوفاتِ الثلاثةَ لم تَقَعْ إلى الآنَ. واللهُ أعلَمُ.

ومنها: «نارٌ تَخرُجُ مِنَ اليَمنِ»، ووَقَعَ في رِوايةٍ أخرى: ((مِن قُعْرَةِ عَدَنٍ))[4]، أي:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٦) واللفظ له، ومسلم (١٥٧).

(٢) في (نُزول عِيسى عليه السَّلامُ) (ص: ١٢٨).

(٣) في (فتنة الدجال) (ص: ١٣٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٠١).

مِن أقصَى قَعْرِ أرضِ عَدَنَ، وعَدَنُ: مدينةٌ ساحِليَّةٌ معروفةٌ في جنوبِ اليَمنِ، هذه النارُ تُزيحُ النَّاسَ وتَطرُدُهم إلى مكانِ حَشرِهم.

وفي حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه ذِكْرُ عَلامتَينِ أُخْريَينِ، الأُولى في قولِه: «خاصَّةَ أحَدِكُم» أي: مَجيءَ ما يَخصُّ كلَّ إنسانٍ مِنَ المَوتِ الذي يَمنعُه مِنَ العَملِ، أو هي ما يَختصُّ به الإنسانُ مِنَ الشَّواغلِ المُتعلِّقةِ في نَفسِه ومالِه، وما يَهتَمُّ به. والثانية: قُدومُ يَومِ القِيامةِ الذي عبَّرَ عنه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقَولِه: «أو أمْرَ العامَّةِ»؛ لأَنَّه يَعُمُّ النَّاسَ جميعًا بالموتِ.

نُزولُ عِيسى عليه السَّلامُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((كيفَ أنتُم إذا نزَلَ ابنُ مريمَ فيكُم وإمامُكُم منكُم؟!))[١].

وعن جابرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، يقولُ: سَمِعْتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((لا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ على الحقِّ ظاهِرين إلى يَومِ القِيامةِ، قالَ: فيَنزِلُ عيسى ابنُ مريمَ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فيَقولُ أميرُهُم: تَعالَ صَلِّ لنا، فيَقولُ: لا؛ إنَّ بعضَكُم على بَعضٍ أُمَراءُ؛ تَكرِمَةَ اللهِ هذِه الأُمَّةَ))[٢].



بعَثَ اللهُ عيسى ابنَ مريمَ عليه السَّلامُ رسولًا إلى بني إسرائيلَ حتى رفَعَهُ اللهُ إلَيْه

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٦).

في السَّماءِ، وجعَلَ نُزولَه في آخِرِ الزَّمانِ أحَدَ أماراتِ الساعةِ الكُبرى الدَّالَّةِ على قُرْبِ مَجيئِها، وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ يُبيِّنُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى أنَّه لا يَبقَى أحدٌ مِن أهلِ الكِتابِ بعْدَ نُزولِ عِيسى عليه السَّلامُ إلى الأرضِ إلَّا وسَيُؤمِنُ به في الدُّنيا قبْلَ مَوتِه عليه السَّلامُ، وفي يومِ القِيامةِ يكونُ شاهدًا على أهلِ الكِتابِ مِن اليَهودِ والنَّصارى الذين تَعارَضَتْ أقوالُهم فيه؛ بتَكذيبِ مَن كفَرَ به منهم، وتَصديقِ مَن آمَنَ به منهم فيما أتاهم به مِن عندِ اللهِ، وشاهدًا على أعمالِهم التي شاهَدَها منهم قَبلَ رفْعِه إلى السَّماءِ، وبعدَ نُزولِه إلى الأرضِ.

وفي حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُخْبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنُزولِ عيسى عليه السَّلامُ آخِرَ الزَّمانِ وقْتَ وُجودِ المَهْديِّ الذي يَقودُ الفِئةَ المُؤمنةَ الثَّابتةَ أمامَ فِتنةِ الدَّجَّالِ حتى يَقتُلَه، كما جاءَ في الرِّواياتِ الأخرى.

وقَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «كيفَ أنتُم» معناه: كيف حالُكم ومآلُكم، وكَرامتُكم عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، أو كيف سُرورُكم، وكيف يكونُ فَخرُكم «وإمامُكم منكم»، أي: إنَّ عِيسى عليه السَّلامُ يُصلِّي الجَماعةَ مع المُسلِمين، ويكونُ الإمامُ مِن أُمَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -وهو المَهْديُّ، كما في الرِّواياتِ الأخرى-، وليس عيسى عليه السَّلامُ، وهذا تكريمٌ لهذه الأُمَّةِ، فيُصلِّي مأمومًا؛ حتَّى يُعلِمَ الجميعَ أنَّه لم يَنزِلْ بشَرعٍ أو رسالةٍ جديدةٍ.

وفي حديثِ جابرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما يُبَشِّرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ستَظَلُّ جماعةٌ مِن أُمَّةِ الإسلامِ يُجاهِدون في سَبيلِ نُصرةِ الحقِّ، وهُم مُنتَصِرون غالِبون، وسيَظَلُّون على هذه الحالِ إلى يَومِ القيامةِ طائفةً بعدَ طائفةٍ، وهذا ممَّا يدُلُّ على أنَّ الحقَّ والخَيرَ لا ينقَطِعُ في أُمَّةِ الإسلامِ؛ فهُناك مَن يَتوارَثُه جيلًا بعدَ جيلٍ، والمرادُ بهم في هذا الحَديثِ: المُؤمِنونَ الثَّابِتونَ في آخِرِ الزَّمانِ أمامَ فِتنةِ الدَّجَّالِ،



ويُواجِهونَه تحتَ قِيادةِ المَهْديِّ، حتى يَنْزِلَ عيسى ابنُ مريمَ عليه السَّلامُ مِنَ السَّماءِ فيَقْتُلَ الدَّجَّالَ، وعندَ نُزولِه عليه السَّلامُ سَيَكونُ تابعًا لشَريعةِ نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ التي هي خاتَمةُ الشَّرائعِ، ولا يُتَّبَعُ غيرُها حتى قِيامِ السَّاعةِ، وهذا ما وضَّحَهُ بَقيَّةُ الحديثِ، حيثُ يقولُ المَهديُّ المُنتَظَرُ أميرُ الطائفةِ المؤمنةِ يَوْمَها لعِيسَى عليه السَّلامُ: تَعالَ صَلِّ لنا إمامًا، فلا يَتقدَّمُ عيسى عليه السَّلامُ للإمامةِ، ويقولُ: «لا؛ إنَّ بعضَكُم على بعضٍ أُمَراءُ؛ تَكْرِمةَ اللهِ هذه الأُمَّةَ»، أي: إنَّ أئِمَّتَكُم منكم يؤُمُّ المسلمُ أخاهُ المسلمَ، وهذا مِن تكريمِ اللهِ لأُمَّةِ الإسلامِ. وقيلَ: إنَّ ذلكَ لبَيانِ أنَّ دِينَ الإسلامِ الذي جاءَ به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُنْسَخُ إلى قِيامِ السَّاعةِ، وأنَّ تَرْكَ عيسى عليه السَّلامُ إمامةَ المُسلِمينَ في الصَّلاةِ مع كَونِه نَبيًّا؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ شَريعةَ الإسلامِ قدْ نُسِخَتْ.

فِتنَةُ الدَّجَّالِ

عن رَهْطٍ -منهم: أبو الدَّهْماءِ، وأبو قَتادَةَ- قالوا: كُنَّا نَمُرُّ على هِشامِ بنِ عامِرٍ نأتي عِمْرانَ بنَ حُصَيْنٍ، فقالَ ذاتَ يومٍ: إنَّكُم لَتُجاوِزُوني إلى رِجالٍ ما كانوا بأَحْضَرَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منِّي، ولا أَعْلَمَ بحَديثِه منِّي؛ سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((ما بيْنَ خَلْقِ آدَمَ إلى قِيامِ السَّاعةِ خَلْقٌ أكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ))(1).

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((مَن حَفِظَ عَشْرَ آياتٍ مِن أوَّلِ سُورةِ الكَهفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ))(2).



لم يَتْرُكِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَيرًا إلَّا دلَّنا عليه، وما تَرَكَ شرًّا إلَّا حَذَّرَنا منه، وإنَّ مِنَ الشَّرِّ المُستَطِيرِ الذي حَذَّرَنا منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: خُروجَ المسيحِ

(1) أخرجه مسلم (٢٩٤٦).

(2) أخرجه مسلم (٨٠٩).

الدَّجَّالِ. وخُروجُه مِنَ علاماتِ الساعةِ الكُبْرى، وفي هذَيْنِ الحديثَيْنِ بيانُ ذلك؛ ففي حديثِ أبي الدَّهْماءِ وأبي قَتادَةَ يُخْبِرانِ أنَّهم كانوا في رَهطٍ يمُرُّون على هِشامِ ابنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه دونَ الجُلوسِ إليه، ويَأْتون عِمرانَ بنَ حُصينٍ رَضِيَ اللهُ عنه لطلَبِ الحديثِ، فأنْكَرَ عليهم هِشامُ بنُ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه ذاتَ يومٍ، قائلًا: إنَّكم لتُجاوِزونَني إلى رِجالٍ ما كانوا بأَحضَرَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منِّي، ولا أعْلَمَ بِحَديثِه منِّي، إشارةً إلى عِمرانَ بنِ حُصينٍ، وإنَّما حَمَلَه على قَولِ ذلكَ حِرصُه على تَبليغِ حديثِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، وذَكَرَ لهم حديثًا سَمِعَه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو قولُه: «ما بيْنَ خَلْقِ آدَمَ إلى قيامِ السَّاعةِ»، أي: لا يُوجَدُ في مُدَّةِ ما بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إلى قِيامِ السَّاعةِ مَخلوقٌ أَعظمُ شَوكةً وفِتنةً مِنَ الدَّجَّالِ الذي يَخرُجُ آخِرَ الزَّمانِ ويَدَّعي الأُلوهيَّةَ، وهو مَأْخوذٌ مِنَ الدَّجَلِ، وهو الكَذِبُ، والدَّجَّالُ شَخصٌ مُعيَّنٌ يبتَلي اللهُ به عِبادَه، أَقْدَرَه على أشياءَ مِن خَوارِقِ العاداتِ: مِن إحياءِ المَيِّتِ الذي يَقتُلُه، وظُهورِ زهرةِ الدُّنيا والخِصْبِ معه، وجَنَّتِه ونارِه، ونَهْرَيْه اللَّذينِ معه، واتِّباعِ كُنُوزِ الأرضِ له، وأَمْرِه السَّماءَ أن تُمْطِرَ فتُمْطِرُ، والأرضَ أن تُنبِتَ فتُنبِتُ، فيَقَعُ كلُّ ذلك بقُدْرَةِ اللهِ تَعالى ومَشيئتِه؛ حِكمةً وابتلاءً منه سُبحانَه للصادِقينَ في إيمانِهم والكاذِبينَ، ثُمَّ يُعجِزُه اللهُ تعالى بعدَ ذلك، ويُبطِلُ أمْرَه، ويَقتُلُه عيسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُثبِّتُ اللهُ الذين آمَنُوا.

وفي حديثِ أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللهُ عنه يُرْشِدُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى وَسيلةٍ نافعةٍ تَعصِمُ مِن فِتنَةِ الدَّجَّالِ، ويُبيِّنُ سَبيلَ الوِقايةِ مِن شرِّهِ لمَن أدرَكَه، فيُخبِرُ أنَّ مَن حفِظَ عَشْرَ آياتٍ مِن أوَّلِ سُورةِ الكَهفِ وتَدبَّرَها، وتفَهَّمَ مَعانيَها وحِكَمَها؛ فإنَّه سيُحفَظُ ويُوقَى مِن فِتنَةِ الدَّجَّالِ، وإنَّما كانَ حِفظُها سببًا للعِصمةِ مِنَ الدَّجَّالِ؛ لِما في هذه الآياتِ مِنَ العَجائبِ والآياتِ، فمَن عَلِمَهما لا يَستغرِبُ أمْرَ الدَّجَّالِ، ولا يُفتَتَنُ

به، ويَسهُلُ عليه الصَّبرُ على فِتَنِ الدَّجَّالِ بما يَظهَرُ مِن نَعيمِه وعذابِه، أو تكونُ العِصمةُ مِنَ الدَّجَّالِ مِن خَصائصِ اللهِ لمَن حَفِظَ هذه الآياتِ.

ومِن سُبلِ الوقايةِ مِن فِتنَةِ الدَّجَّالِ أيضًا، التي لَمْ تُذكَرْ في هذا الحديثِ: مَعرِفةُ أسماءِ اللهِ وصِفاتِه؛ فيَعلَمُ أنَّ الدَّجَّالَ بَشَرٌ يأكُلُ ويَشرَبُ، واللهُ مُنَزَّهٌ عن ذلك، وأنَّ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ، واللهُ سُبحانَه ليس بأعْوَرَ، وأنَّه لا يَرى أحَدٌ رَبَّه حتى يَموتَ، والدَّجَّالُ يَراهُ النَّاسُ عندَ خُروجِه؛ مؤمنُهم وكافرُهم. ومنها: التَّعَوُّذُ مِن فِتنَةِ الدَّجَّالِ، خاصَّةً في الصَّلاةِ، كما في حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ يَدعو في الصَّلاةِ: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن عَذابِ القبرِ، وأعوذُ بك مِن فِتنَةِ المسيحِ الدَّجَّالِ، وأعوذُ بك مِن فِتنَةِ المَحْيا والمماتِ، اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِنَ المَأْثَمِ والمَغْرَمِ»(1). ومنها: الفِرارُ مِنَ الدَّجَّالِ لمَن عاصَرَهُ، والابتِعادُ عنهُ؛ وذلك لِما معه مِنَ الشُّبُهاتِ والخوارقِ العظيمةِ التي قدْ يَفْتَتِنُ بها المرءُ.

خُروجُ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧].

وقالَ اللهُ تعالَى عَنِ السَّدِّ الذي جعَلَهُ ذو القَرنَيْنِ حاجِزًا بيْنِ الناسِ ويَأْجوجَ ومَأْجوجَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ [الكهف: ٩٨].

وعن زَيْنَبَ بنتِ جَحْشٍ أُمِّ المُؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنها: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَخَلَ عليها فَزِعًا يقولُ: ((لا إلَهَ إلَّا اللهُ! وَيْلٌ للعربِ مِن شرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ؛ فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثْلُ هذِه))، وحَلَّقَ بإصبَعِه الإبهامِ والتي تَليها. قالتْ زَيْنَبُ بنتُ

(١) أخرجه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

جَحْشٍ: فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنَهْلِكُ وفينا الصَّالِحون؟ قالَ: ((نَعَم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ))(١).



يَأْجوجُ ومَأْجوجُ همُ القَومُ الذينَ بنَى بسَبَبِهم ذو القَرنينِ السَّدَّ المذكورَ في قولِه تعالَى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]، وخُروجُهم مِن وراءِ هذا الرَّدْمِ أوِ السَّدِّ عَلامةٌ كُبرى مِن عَلاماتِ دُنوِّ السَّاعةِ.

ففي الآيةِ الأُولى يُخبِرُ اللهُ تَعالَى عن فتْحِ السَّدِّ الذي حُبِسَ وَراءَه قَبيلَتا يَأجوجَ ومَأجوجَ، وخُروجِهم مِن وَرائِه، مُقبِلين مِن كُلِّ مُرتَفَعٍ مُسرِعينَ للإفسادِ في الأرضِ بأعدادٍ كثيرةٍ جدًّا، وقدْ أخبَرَ اللهُ تَعالَى بأنَّ وُقوعَ ذلك عَلامةٌ على اقترابِ مَجِيءِ يومِ القِيامةِ الذي وعَدَ اللهُ بإتيانِه. وفي ذلك تَحذيرٌ مِن اللهِ للنَّاسِ مِن الإقامةِ على الكُفرِ والمعاصي؛ فقد قَرُبَ خُروجُ يَأجوجَ ومَأْجوجَ.

وفي الآيةِ الثانيةِ يَتحدَّثُ ذُو القَرْنينِ الذي بَنى السَّدَّ الحاجزَ ليَأجوجَ ومَأجوجَ عن خُروجِهم؛ بأنَّه إذا جاء الوقتُ الذي ضَرَبَه اللهُ تَعالَى لخُروجِهم في آخِرِ الزَّمانِ، دمَّرَ اللهُ هذا السَّدَّ فجَعَلَه مُنهَدِمًا مُستَوِيًا بالأرضِ، وهو أمرٌ كائنٌ لا مَحالةَ.

وفي حديثِ زَينبَ بنتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَخَلَ عليها خائفًا مُضطرِبًا، يَلْهَجُ لِسانُه بكلمةِ التَّوحيدِ، يقولُ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ؛ إيذانًا بتوقُّعِ أمْرٍ مكروهٍ يَحْدُثُ، ولا نَجاةَ منه إلَّا بالالتِجاءِ إلى اللهِ، والاستِجارةِ بسُلطانِه، وأَخْبَرَ أنَّه لم يَبْقَ لمَجيءِ الشَّرِّ إلَّا اليسيرُ مِنَ الزَّمنِ، حيثُ قالَ: «وَيْلٌ للعَرَبِ مِن شرٍّ قدِ اقترَبَ»، وكلمةُ: «وَيْلٌ» تُقالُ لمَن وَقَعَ في هَلَكَةٍ، وخَصَّ العربَ بالذِّكرِ؛ للإنذارِ بأنَّ الفِتَنَ إذا وقَعَت كان الإهلاكُ إليهم أسرعَ، ولأنَّهم كانوا مُعظَمَ مَن أسلَمَ حينَئِذٍ، وبَيَّنَ صلَّى اللهُ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٨٠).



عليه وسلَّمَ الشَّرَّ الذي قَدِ اقترَبَ، فأخْبَرَ أنَّ السَّدَّ الذي بَناهُ ذو القَرنَينِ بقِطَعِ الحديدِ قد فُتِحَ منه مِقدارُ حَلْقةٍ صغيرةٍ، وعَقَدَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إصبَعَيْهِ: الإبهامَ والسَّبابةَ، والمرادُ بالإشارةِ: التَّقريبُ لا التَّحديدُ، فلمَّا سَمِعَتْ زَيْنَبُ بنتُ جَحْشٍ ذلك سَألتْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أيَقَعُ علينا الشَّرُّ فنُعَذَّبُ ونَهْلِكُ نَحنُ معشرَ الأُمَّةِ، والحالُ أنَّ بعضَنا مؤمنونَ، وفينا الطَّيِّبون الطاهِرون؟! فأجابَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ نَعَم، يَهلِكُ الطَّيِّبُ أيضًا إذا كَثُرَتِ الأعمالُ الخبيثةُ، والمرادُ بها: الفُسوقُ، والفُجورُ، والمعاصي مِن نَحوِ الزِّنا، والخُمورِ، وغَيرِها، وإذا كَثُرَ المُجترِئونَ على مَعاصي اللهِ دونَ رادعٍ ولا وازعٍ؛ عَمَّ الهلاكُ الجميعَ، ثُمَّ يُبعَثُ كلٌّ على نيَّتِه.

قَبضُ أرواحِ المؤمِنينَ قَبلَ قيامِ السَّاعةِ

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ يَبْعَثُ رِيحًا مِنَ اليَمَنِ ألْيَنَ مِنَ الحَريرِ، فلا تَدَعُ أحدًا في قلْبِه، قالَ أبو عَلْقَمَةَ: مِثْقالُ حَبَّةٍ، وقالَ عبدُالعزيزِ: مِثْقالُ ذَرَّةٍ- مِن إيمانٍ إلَّا قَبَضَتْهُ))(١).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((لا تَقومُ السَّاعةُ حتى لا يُقالَ في الأرضِ: اللهُ، اللهُ))(٢).



في حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُخْبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سيَبْعَثُ رِيحًا في نِهايةِ الزَّمانِ، وقُربَ قيامِ السَّاعةِ مِن قِبَلِ اليمنِ، مِن صِفَةِ تلك الرِّيحِ أنَّها ألْيَنُ مِنَ الحريرِ؛ وذلك رِفقًا وإكرامًا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ للمُؤمنينَ، فلا تَدَعُ

---

(١) أخرجه مسلم (١١٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨).

أحدًا في قلبِه وَزْنُ حَبَّةٍ -وفي رِوايةٍ: وَزْنُ ذَرَّةٍ- مِن إيمانٍ إلَّا قَبَضَتْ رُوحَه، وعندَها تقومُ السَّاعةُ على شِرارِ الخَلْقِ، كما وَرَدَ في حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: «لا تَقومُ السَّاعةُ حتى لا يُقالَ في الأرْضِ: اللهُ، اللهُ»، وهو كِنايةٌ أنَّها تقومُ على قَومٍ لا يَعبُدونَه، ولا يَدْعُونَه، ولا يَذكُرونَ اسْمَه.

الإيمانُ باليَومِ الآخِرِ

النَّفخُ في الصُّوْرِ

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: بيْنَما يَهودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَةً له أُعْطِيَ بها شَيئًا كَرِهَهُ، أو لَم يَرْضَهُ -شَكَّ عبدُالعزيزِ-، قالَ: لا، والذي اصْطفى مُوسى عليه السَّلامُ على البشرِ. قالَ: فسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ فلَطَمَ وَجْهَه، قالَ: تَقولُ: والذي اصطفى موسى عليه السَّلامُ على البَشرِ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ أَظْهُرِنا؟! قالَ: فذَهَبَ اليَهوديُّ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالَ: يا أبا القاسِمِ، إنَّ لي ذِمَّةً وعهدًا، وقالَ: فُلانٌ لَطَمَ وَجْهي، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: ((لِمَ لَطَمْتَ وَجهَهُ؟ قالَ: قالَ يا رسولَ اللهِ: والذي اصْطفى مُوسى عليه السَّلامُ على البَشرِ، وأنتَ بيْنَ أَظْهُرِنَا! قالَ: فغَضِبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتى عُرِفَ الغَضَبُ في وَجْهِه، ثُمَّ قالَ: لا تُفَضِّلوا بيْنَ أنبياءِ اللهِ؛ فإنَّه يُنْفَخُ في الصورِ فيَصْعَقُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا مَن شاءَ اللهُ، قالَ: ثُمَّ يُنْفَخُ فيه أُخْرى، فأكونُ أوَّلَ مَن بُعِثَ -أو في أوَّلِ مَن بُعِثَ- فإذا موسى عليه السَّلامُ آخِذٌ بالعَرْشِ، فلا أدري أَحُوسِبَ بصَعْقَتِهِ يومَ الطُّورِ، أو بُعِثَ قَبْلي؟! ...)) الحديثَ[1].

وعن أبي هُرَيْرَةَ أيضًا، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما بَيْنَ النَّفختَيْنِ أربعون، قالوا: يا أبا هُرَيْرَةَ أربعون يَوْمًا؟ قالَ: أَبَيْتُ، قالَوا: أربعون شَهْرًا؟ قالَ: أَبَيْتُ، قالَوا: أربعون سَنةً؟ قالَ: أَبَيْتُ. قالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيَنْبُتون كما يَنْبُتُ البَقْلُ، قالَ: وليسَ مِنَ الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبْلى، إلَّا عَظْمًا واحدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣) واللفظُ له.



ومنه يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامةِ))[1].



النَّفخ في الصُّورِ مِن مَسائلِ اليَومِ الآخِرِ التي يَجِبُ اعتِقادُها والإيمانُ بها دونَ أدنى شكٍّ أو رَيْبٍ، والصُّورُ: قَرْنٌ عَظيمٌ، لا يَعلَمُ عظمَتَه إلَّا خالِقُه، ثُمَّ مَن أطلَعَهُ اللهُ على عِلْمِه مِن خَلْقِه، فيَنفُخُ فيه إسرافيلُ عليه السَّلامُ نَفختَيْنِ؛ نَفخةَ الصَّعْقِ، ونَفخةَ البَعْثِ، **وفي الحديثِ الأولِ** يروي أبو هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه قصَّةَ مُشاحنَةٍ حدَثَت بيْنَ يَهوديٍّ ورَجُلٍ مِنَ الأنصارِ؛ ذلك أنَّ اليهوديَّ كان يَبيعُ سِلعةً في السوقِ، وعُرِضَ عليه في سِلْعتِه ثمنٌ أقلُّ مِنَ الذي يَرجوه، فرَفَضَ بَيعَها مُقسِمًا باللهِ أنَّه لا يَصلُح بَيعُها بذلك الثَّمنِ، قائلًا: «لا، والذي اصْطفى مُوسى عليه السَّلامُ على البَشرِ»، فسَمِعَه الأنصاريُّ فضَرَبَه على وَجهِه؛ لأنَّه فضَّلَ نبيَّ اللهِ موسى عليه السَّلامُ على نبيِّ اللهِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قَسَمِه، واختَصَمَ اليهوديُّ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فغَضِبَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتى ظَهَرَتْ على وَجهِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علاماتُ الغَضبِ، ونَهاهُم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَنِ المُفاضلَةِ بَيْنَ الأنبياءِ، وقد قيلَ: إنَّ نَهْيَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أنْ تكونَ المُفاضلةُ دونَ عِلمٍ أو تَبَعًا لهوًى، ولكن لتكُنِ المُفاضَلةُ بما نَصَّ عليه اللهُ عزَّ وجلَّ وبيَّنَتْهُ أقوالُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما في قولِه تَعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ثُمَّ بَيَّنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَضْلَ موسى عليه السَّلامُ ومكانتَه، وذَكَرَ في أثناءِ ذلك وُقوعَ النَّفخِ في الصورِ مرَّتَيْن؛ فأخْبَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يُنفَخُ في الصورِ يَومَ القِيامةِ، فيَصْعَقُ ويَموتُ كلُّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا مَن

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) واللفظ له.



شاءَ اللهُ؛ مِن شِدَّةِ الفَزَعِ من تلك النَّفخةِ، ثُمَّ يُنفَخُ في الصورِ نفخةٌ أُخْرى، وهي نَفخةُ البَعْثِ والإحياءِ للمَوْتى، فيكونُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّلَ مَن يُبعَثُ يومَ القِيامةِ عندَ تلك النَّفخةِ، فيُخْبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يَجِدُ موسى عليه السلامُ مُمسِكًا بقائمةٍ مِن قَوائمِ العرشِ، فيقولُ صلَّى الله عليه وسلَّم: فلا أدْري أَحُوسِبَ بصَعْقتِه يَومَ الطُّورِ، بمعنى: أنَّه لم يَمُتْ بالنَّفخةِ الأولى مِثلَ باقي الخلائقِ، وذلك أنَّه قد صَعِقَ مِن قبلُ، كما في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أو أنَّه قد صَعِقَ، ولكنَّه بُعِث قبلَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إشارةً إلى ما له مِن فَضيلةٍ.

وفي الحديثِ الثاني بيانٌ للمُدَّةِ التي تكونُ بَيْنَ النَّفختَيْنِ، حيثُ يَحْكي أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَخْبرَ أنَّ ما بَيْنَ النفختَيْنِ -نَفخةِ الإماتةِ، ونَفخةِ البَعثِ- أربعين، ولم يُبَيِّن هل هي أربعونَ سَنةً، أو يَومًا، أو شَهرًا؟ فقالوا: يا أبا هُرَيرَةَ أربعون يومًا؟ قال: «أَبَيْتُ» أي: امْتنَعْتُ عَنِ الإخبارِ بما لا أعلَمُ، وقدْ أَبى إخبارَهم بذلك؛ إمَّا لكونِه لم يكُن يَعلَمُ ذلك، أو سكَتَ ليُخبرَهم في وقتٍ آخَرَ.

ثُمَّ أَخبَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ يُنزِلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنْبُتُ الأمواتُ كما يَنبُتُ الزَّرعُ، والحالُ أنَّ جميعَ أجسادِ البَشرِ تَبْلى، وتَصيرُ إلى صِفةِ التُّرابِ، إلَّا عَظمًا واحدًا لا يَبْلى، وهو «عَجْبُ الذَّنَبِ»، وهذا يُستَثْنى منه الأنبياءُ، فإنَّ اللهَ حرَّمَ على الأرضِ أن تأكُلَ أجسادَهم. وعَجْبُ الذَّنَبِ: هو العَظمُ اللَّطيفُ الذي في أسفلِ الصُّلبِ، وهو رأسُ العُصْعصِ، ويُقالُ له: (عَجْمُ) بالمِيم، وهو الذي يَبقَى مِن جَسدِ الإنسانِ ليُعادَ تَركيبُ خَلْقِه عليه، فإن أُهلِكَ بالحَرْقِ ونَحوِه، فإنَّ اللهَ قادرٌ على تَخليقِه كما قَدَرَ على إنباتِ الإنسانِ منه.

البَعْثُ والنُّشورُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٦].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧].

وعن يَعْقوبَ بنِ عاصمِ بنِ عُرْوَةَ بنِ مَسعودٍ الثَّقَفيِّ: سَمِعْتُ عبدَاللهِ بنَ عَمْرٍو، وجاءَهُ رَجُلٌ فقالَ: ما هذا الحديثُ الذي تُحَدِّثُ بهِ؟ تقولُ: إنَّ السَّاعةَ تَقومُ إلى كذا وكذا، فقالَ: سُبحانَ اللهِ، أو لا إلَهَ إلَّا اللهُ، أو كلمةً نحْوَهما! لقَدْ هَمَمْتُ ألَّا أُحَدِّثَ أحدًا شَيئًا أبدًا، إنَّما قُلتُ: إنَّكم سَتَرَوْنَ بعدَ قليلٍ أمرًا عظيمًا؛ يُحَرَّقُ البَيْتُ، ويكونُ ويكونُ، ثُمَّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يَخرُجُ الدَّجَّالُ في أُمَّتي فيَمكُثُ أربعينَ -لا أدري: أربعين يَوْمًا، أو أربعين شَهْرًا، أو أربعين عامًا- فَيَبْعَثُ اللهُ عيسى ابنَ مريمَ كأنَّه عُرْوَةُ بنُ مَسعودٍ، فيَطلُبُه فيُهْلِكُه، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سنينَ، ليس بيْنَ اثنَيْنِ عَداوةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا باردةً مِن قِبَلِ الشَّأْمِ، فلا يَبْقى على وَجْهِ الأرضِ أحدٌ في قلبِه مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن خَيرٍ أو إيمانٍ إلَّا قَبَضَتْه، حتى لو أنَّ أحدَكُم دَخَلَ في كَبِدِ جَبَلٍ لدَخَلَتهُ عليه حتى تَقْبِضَهُ، قالَ: سَمِعْتُها مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قالَ: فَيَبْقى شِرارُ النَّاسِ في خِفَّةِ الطَّيْرِ وأحلامِ السِّباعِ، لا يَعْرِفون معروفًا، ولا يُنكِرون مُنكَرًا، فيَتَمَثَّلُ لهم الشَّيطانُ، فيقولُ: ألَا تَسْتَجيبون؟ فيَقولون: فما تَأْمُرُنا؟ فيَأْمُرُهُم بعِبادةِ الأوثانِ، وهُم في ذلك دَارٌّ رِزقُهُم، حَسَنٌ عَيْشُهُم، ثُمَّ يُنْفَخُ في الصُّورِ، فلا يَسْمَعُهُ أحدٌ إلَّا أَصْغى لِيتًا ورَفَعَ لِيتًا، قالَ: وأوَّلُ مَن يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلوطُ حَوْضَ إبِلِه، قالَ: فيَصْعَقُ، ويَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ -أو قالَ: يُنْزِلُ اللهُ- مَطرًا كأنَّه الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ -نُعْمانُ الشَّاكُّ[1]- فَتَنْبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فيه أُخْرى، فإذا هم

(١) أي: شَكَّ نُعْمانُ أحدُ رواةِ الحديثِ، هل قال: الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ؟



قيامٌ يَنْظُرون، ثُمَّ يُقالُ: يا أيُّها النَّاسُ، هَلُمَّ إلى رَبِّكم، وقِفوهم إنَّهم مَسؤولونَ، قالَ: ثُمَّ يُقالُ: أَخرِجوا بَعْثَ النَّارِ، فيُقالُ: مِن كَمْ؟ فيُقالُ: مِن كُلِّ ألفٍ تِسعَمِائَةٍ وتسعةً وتسعينَ ...))[1].



البَعْثُ: هو إحياءُ اللهِ للمَوْتى يومَ القِيامةِ، وهو حقٌّ لا رَيْبَ فيه.

وفي الآيةِ الأُولى يُؤكِّدُ اللهُ تَعالى أنَّه سيَبعَثُ الناسَ يومَ القِيامةِ مِن قُبورِهم أحياءً بعْدَ مَوتِهم؛ للحِسابِ والجَزاءِ.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى ادِّعاءَ الكُفَّارِ الكاذبَ بأنَّ اللهَ لنْ يَبعَثَهم بعْدَ مَوتِهم، فأمَرَ نَبيَّه مُحمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُقسِمَ برَبِّه مؤكِّدًا خُروجَهم مِن قُبورِهم أحياءً، وإخبارَهم يومَ القيامةِ بجَميعِ ما عَمِلوه في الدُّنيا؛ فإنَّ بَعْثَ اللهِ عِبادَه أحياءً بعْدَ مَوتِهم أمْرٌ سَهْلٌ عليه.

وفي حديثِ عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما ذكَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جانبًا مِن عَلاماتِ السَّاعةِ الكُبرى، ثُمَّ ذكَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعدَ ذلك أمْرَ البَعْثِ والنُّشورِ أمامَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فبيَّن أنَّ الأرضَ سَتَخْلو مِنَ الموحِّدين تمامًا، ولنْ يَبْقى فيها سِوى شِرارِ الخَلْقِ، وأنَّ الشَّيطانَ سيَتصوَّرُ لهم في صُورةِ إنسانٍ، ويَأمُرُهم بعِبادةِ الأوثانِ، فيَعْبُدونَها مِن دونِ اللهِ، والحالُ أنَّهم يَومَها في سَعَةٍ مِنَ الرِّزقِ، ورَغَدٍ مِنَ العَيْشِ، وبينما هم كذلك إذ يَأمُرُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالنَّفخِ في «الصُّورِ»، وهو قَرْنٌ يُنفَخُ فيه، والمَلَكُ المُوكَّلُ بالنَّفخِ في الصُّورِ هو إسرافيلُ، فلا يَسمَعُ أحدٌ صوتَ الصُّورِ إلَّا صَعِقَ.

ويُصوِّرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صورةَ مَن يَسْمَعُ ويَصْعَقُ بقَولِه: «فلا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٠).

يَسْمَعُه أحدٌ إلَّا أَصْغى لِيتًا ورَفَعَ لِيتًا» ومعناه: لا يَسمَعُه أحدٌ إلَّا صَعِقَ، فأمالَ صفْحَةَ عُنُقِه خَوفًا ودَهْشةً، وقيل: هو كِنايةٌ عن سُقوطِ رأسِه على أحَدِ الشِّقَّينِ بسَبَبِ الصَّعقةِ التي تَأخُذُه عندَ ذلك فلا تُمهِلُه، وبَيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ هذه النَّفخةَ تَقَعُ فجأةً، والنَّاسُ كلٌّ واحدٍ في شأنِه وحالِه، فأوَّلُ مَن يَسمَعُ النَّفخةَ رَجُلٌ يُطَيِّنُ ويُصلِحُ حَوْضَ إبلِه؛ ليَسقيَها ماءً نظيفًا، فيَموتُ ذلك الرَّجُلُ أوَّلًا، ويَموتُ النَّاسُ جميعًا معه، وبعدَ ذلك يُرسِلُ اللهُ عزَّ وجلَّ مَطرًا ضعيفَ القَطْرِ، كمَنيِّ الرِّجالِ، فتَنبُتُ بسَببِه أجسادُ النَّاسِ النَّخِرَةُ في قُبورِهم، ثُمَّ بعدَ مُدَّةٍ يُنفَخُ في الصُّورِ نفخةٌ ثانيةٌ، وهي نَفْخةُ البَعْثِ والنُّشورِ، فإذا النَّاسُ إثْرَ هذه النَّفخةِ قائمونَ مِن قُبورِهم يَنظُرون ما يُفعَلُ بهم، أو يَنظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ، ثُمَّ يُنادي المنادي قائلًا: يا أيُّها النَّاسُ، تعالَوْا أو ارجِعوا وأسرِعوا إلى ربِّكم، ويُقالُ للملائِكةِ: قِفوا النَّاسَ واحبِسوهم في المَوقِفِ؛ لأنَّهم يُسألونَ عن أعمالِهم، فيُجازَوْنَ عليها؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ، ثُمَّ يُقالُ: مَيِّزوا وأخرِجوا مِن بَيْنِ الخلائقِ مَن يُبْعَثُ إلى النَّارِ، فيَسألُ المخاطَبون عَنِ العَدَدِ المبعوثِ إلى النَّارِ، فيُقال: أخرِجوا للنَّارِ مِن كلِّ ألفٍ تِسْعَمائةٍ وتسعةً وتِسعينَ، وهذا مِن جميعِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ بما فيهم يَأجوجُ ومأجوجُ، فيكونُ مِن كلِّ ألفٍ واحدٌ يَدخُلُ الجنَّةَ.

دُنُوُّ الشَّمسِ مِنَ العِبادِ

عَنِ المِقدادِ بنِ الأسودِ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((تُدْنى الشَّمسُ يَومَ القِيامةِ مِنَ الخَلْقِ، حتى تَكونَ منهم كمِقدارِ مِيلٍ -قالَ سُلَيْمُ بنُ عامرٍ: فَواللهِ ما أدري ما يعني بالميلِ؟ أمسافةَ الأرضِ، أمِ الميلَ الذي تُكْتَحَلُ به العَيْنُ؟- قالَ: فيَكونُ النَّاسُ على قَدْرِ أعمالِهم في العَرَقِ؛ فمنهم مَن يَكونُ إلى كَعْبَيْهِ، ومنهم مَن يَكونُ إلى رُكْبَتَيْهِ، ومنهم مَن يَكونُ إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَن يُلْجِمُه

العَرَقُ إلْجامًا، قالَ: وأشارَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيَدِه إلى فِيهِ))[1].



يَومُ القِيامةِ يَومٌ عظيمٌ، يَجمَعُ اللهُ فيه الخَلائقَ فيَشتَدُّ الكَرْبُ، وتَدنو الشَّمسُ مِنَ الرُّؤوسِ فتَشتَدُّ الحرارةُ، وتَرشَحُ الأجسامُ بالعَرَقِ الغزيرِ، كما يُخْبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا الحَديثِ أنَّها تَدْنو منهم حتى تكونَ منهم كمِقدارِ مِيلٍ، ولا يُعْلَمُ قَدْرُ هذا الميلِ؛ هل أرادَ المسافةَ التي هي عِندَ العربِ مِقدارُ مَدِّ البَصرِ مِنَ الأرضِ، أمِ الميلُ الذي تُكتَحَلُ به العَيْنُ؟ وعلى كِلا القَولَيْنِ فإنَّ الشمسَ ستَكونُ قريبةً جدًّا مِن الخَلقِ، نسألُ اللهَ السَّلامةَ، وإذا دَنَتِ الشَّمسُ على هذه الصورةِ فإنَّ العَرَقَ سيَكونُ في النَّاسِ على قَدْرِ أعمالِهم، والمرادُ بالأعمالِ: ذُنوبُهم؛ فمنهم مَن تكونُ ذُنوبُه قليلةً فيكونُ العَرَقُ إلى كَعبَيْه: وهما العظمتانِ البارزتانِ على جانِبَي القَدمِ، ومنهم مَن يَكونُ إلى رُكبَتَيْه، ومنهم مَن يَكونُ إلى حَقوَيْه: وهو مَعقِدُ الإزارِ، أو طَرَفا الوَرِكَيْنِ، والمرادُ هنا ما يُحاذي ذلك المَوضِعَ مِن جَنْبَيْه، ومنهم مَن يُلْجِمُه العَرَقُ إلْجامًا، بأنْ يَصِلَ إلى فيهِ وأُذُنَيْه، فيكونُ له بمَنزلةِ اللِّجامِ مِنَ الحَيواناتِ، كما قالَ الرَّاوي: وأشارَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيدِه إلى فيهِ.

حَشْرُ الخَلائِقِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

وعن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((تُحْشَرون حُفاةً عُراةً غُرْلًا، ثُمَّ قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٤).



﴿كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فأوَّلُ مَن يُكْسى إبراهيمُ))[1].



الحَشْرُ: هو جَمْعُ اللهِ عزَّ وجلَّ الخَلائقَ جميعًا في يَومِ القِيامةِ؛ ليُجازيَ المُحسنَ على إحسانِه، والمُسيءَ على إساءتِه، وهو حقٌّ لا رَيْبَ فيه.

وفي الآيةِ الأُولى يَأمُرُ اللهُ تَعالى عِبادَه بامتثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهِيه، ويُعلِمُهم بأنَّهم مَجموعونَ إليه يومَ القِيامةِ، فيُجازَوْن فيه بأعْمالِهم؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ.

وفي الآيةِ الثانيةِ يَذكُرُ اللهُ تَعالى اليومَ الذي تَتصَدَّعُ فيه الأرضُ عن الأمواتِ، فيَخرُجونَ مِن قُبورِهم أحياءً ويُسرِعون إلى أرضِ المَحشَرِ. وذلك الجمْعُ للنَّاسِ في تلك الأرضِ أمرٌ سَهلٌ وهَيِّنٌ على اللهِ تَعالى؛ فلا تَعَبَ فيه ولا مَشقَّةَ؛ فإنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ سُبحانَه.

وفي حَديثِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما يُخْبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ النَّاسَ سيُحشَرون عندَ الخُروجِ مِنَ القُبورِ «حُفاةً» بلا خُفٍّ ولا نَعْلٍ، «عُراةً» بلا ثيابٍ، «غُرْلًا» غيرَ مَختونينَ؛ قالَ تعالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، بمعنى: نُوجِدُه بعَينِه مرَّةً أُخرى بعدَ إعدامِه، ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ثُمَّ بَيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أوَّلَ مَن يُكْسى مِنَ الأنبياءِ يَومَ القيامةِ إبراهيمُ الخَليلُ، وخُصَّ نَبيُّ اللهِ إبراهيمُ بذلك؛ لأنَّه كان كالعُريانِ مِنَ النَّفْسِ والمالِ والولَدِ، فأسلَمَ نفْسَه إلى النِّيرانِ، وولَدَه إلى القُربانِ، ومالَه للضِّيفانِ؛ فشُرِّفَ بابتدائِه بالكُسوَةِ. وقيل: لأنَّه أُلقِيَ في النَّارِ عُرْيانًا. وقيل: لا يُقالُ: لِماذا خُصَّ بذلك؛ لأنَّ ذلك من

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٧) واللفظ له، ومسلم (٢٨٦٠).

الفَضائِلِ، والفَضائِلُ لا يُسأَلُ عنها؛ قال اللهُ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

الكَوثَرُ والحَوضُ

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: بيْنَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ يَومٍ بيْنَ أظْهُرِنا إذ أغفَى إغْفاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فقُلْنا: ما أضْحَكَكَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ((أُنْزِلَتْ علَيَّ آنِفًا سورةٌ، فقَرَأَ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ - ٣]، ثُمَّ قالَ: أتَدْرونَ ما الكَوثَرُ؟ فقُلْنا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قالَ: فإنَّه نهرٌ وعَدَنيهِ ربِّي عزَّ وجلَّ، عليه خَيْرٌ كثيرٌ، هو حَوْضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتي يَومَ القِيامةِ، آنيَتُه عَدَدُ النُّجومِ، فيُخْتَلَجُ العَبْدُ منهم، فأقولُ: ربِّ، إنَّه مِن أُمَّتي! فيَقولُ: ما تَدري ما أحْدَثَتْ بعْدَكَ))[1].

وعنه رَضِيَ اللهُ عنه، قال: دَعا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأنصارَ ليَكتُبَ لهم بالبحرَيْنِ، فقالوا: لا واللهِ حتى تكتُبَ لإخوانِنا مِن قُرَيْشٍ بمثلِها، فقالَ: ((ذاكَ لهم ما شاءَ اللهُ على ذلك، يقولونَ له، قالَ: فإنَّكُم سَتَرَوْنَ بَعْدي أثَرَةً؛ فاصبِروا حتى تَلْقَوْني على الحَوْضِ))[2].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ الساعِديِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: ((أنا فَرَطُكم على الحَوضِ؛ مَن وَرَدَ شَرِبَ، ومَن شَرِبَ لَم يَظمأْ أبَدًا، ولَيَرِدَنَّ علَيَّ أقوامٌ أعرِفُهم وَيَعرِفوني، ثمَّ يُحالُ بيني وبَينَهم))[3].

وعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قالَ: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

(١) أخرجه من طرق البخاري (٦٥٨٢) مختصرًا، ومسلم (٤٠٠) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٢٩٠)، ومسلم (٦٥٨٣) واللفظُ له.

((حَوْضي مَسيرَةُ شَهْرٍ، ماؤُهُ أبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، ورِيحُهُ أطيَبُ مِنَ المِسْكِ، وكِيزانُهُ كَنُجومِ السَّماءِ، مَن شَرِبَ منها فلا يَظْمَأُ أبَدًا))(١).

الكَوثرُ: نهرٌ في الجنَّةِ، أعطاهُ اللهُ لنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ زيادةً في إكرامِهِ ولُطفِه به وبأُمَّتِه، وهو مُتَّصِلٌ بالحَوضِ، **وفي الحديثِ الأولِ** يَرْوي أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ يَومٍ وهو مع أصحابِه أخذَتْه سِنَةٌ مِنَ النَّومِ خفيفةٌ، وهذه الحالةُ التي كان يُوحَى إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيها غالبًا، ثُمَّ رَفَعَ رأسَه مُتبسِّمًا، فسَأَلَه الصَّحابةُ عن ذلك، فأخْبَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه أُنْزِلَتْ عليه سورةٌ، فقَرَأَ: (بِسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم) ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر: ١- ٣]، ثُمَّ سَأَلَهم: أتَدرون ما الكَوثَرُ؟ فأَوْكَلوا العِلمَ إلى اللهِ ورسولِه، فأخْبَرَهُم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه نهرٌ في الجنَّةِ وَعَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ به نبيَّهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وسُمِّيَ بالكَوْثرِ لكَثرةِ مائِهِ وآنيَتِه، وعِظَمِ بَرَكتِه وخَيرِه وقَدْرِه.

وفي الحديثِ الثاني ذَكَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الحَوْضَ، وأنَّه سَيَلْقى أصحابَه وأتباعَه عليه هناك؛ فقَدْ دعا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأنصارَ ليُعيِّنَ لكلٍّ منهم حِصَّةً على سَبيلِ الإقطاعِ مِنَ الجِزْيَةِ والخَرَاجِ بالبَحرَيْنِ، والبَحرينِ: بَلدةٌ واسعةٌ شرْقَ الجزيرةِ العربيَّةِ اختُلِف في حُدُودِها. وقدْ أرادَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَخُصَّ الأنصارَ بهذا الإقطاعِ؛ لِما كانوا تَفَضَّلوا به على المهاجرينَ مِن مُشاركتِهم في أموالِهم، فرَفَضَ الأنصارُ وقالوا: لا تَقطَعْ لنا حتى تَقطَعَ لإخوانِنا المُهاجرين بمِثلِ الذي تَقطَعُ لنا؛ إمضاءً لِما وصَفَهم اللهُ به مِنَ الأثَرةِ على أنفسِهم، وحُسنِ التَّمادي

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩) واللفظ له، ومسلم (٢٢٩٢).

على الكرَمِ، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «ذاك لهم»، أي: ذاك المالُ لقُرَيشٍ «ما شاء اللهُ على ذلك»، وكان الأنصارُ «يقولونَ له» عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في شأنِهم مُصِرِّينَ على ذلك، حتى بشَّرَهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّهم سيَلْقَوْن مِنَ المُلوكِ بعدَه إيثارًا لأنفسِهم بالدُّنيا، ولا يَجعَلون لهم في الأمرِ مِن نَصيبٍ. ثُمَّ وجَّهَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى أنْ يَصْبِروا حتى يَلْقَوْه على الحَوْضِ، وهو حَوْضُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو مَجمَعُ ماءٍ عظيمٌ يَرِدُهُ المؤمنون في عَرَصاتِ القِيامةِ.

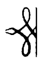
وفي الحَديثِ الثالثِ يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مَشهَدٍ مِن مَشاهِدِ يَومِ القيامةِ عِندَ حَوضِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على حَوضِه، ويَأْتيه المُؤمِنونَ يَشرَبونَ منه، ومَن شَرِبَ منه لا يَظمأُ بَعدَ ذلك أبدًا، ثم يَأْتي أُناسٌ يَعرِفُهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ويَعرِفونَه، فتُبعِدُهمُ المَلائِكةُ وتَمنَعُهم مِنَ الوُصولِ إلى الحَوضِ.

وجاء في حَديثِ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضيَ اللهُ عنه مرفوعًا: ((فأقولُ: إنَّهم مِنِّي. فيُقالُ: إنَّكَ لا تَدري ما أحدَثوا بَعدَك. فأقولُ: سُحقًا لِمَن غَيَّرَ بَعدي!))[1]، وهؤلاء المَذكورونَ إمَّا أنْ يكونوا مِمَّنِ ارتَدَّ عنِ الإسلامِ، فلا إشكالَ في تَبرُّؤِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منهم وإبعادِهم، أو مِمَّن لم يَرتَدَّ لكِنْ أحدَثَ مَعصيةً كَبيرةً، أو بِدعةً عظيمةً، فيَحتَمِلُ أنْ يَكونَ أعرَضَ عنهم، ولم يَشفَعْ لهمُ اتِّباعًا لأمْرِ اللهِ فيهم، حتى يُعاقِبَهم على جِنايَتِهم، ولا مانِعَ مِن دُخولِهم في عُمومِ شَفاعَتِه لِأهلِ الكَبائِرِ مِن أُمَّتِه، فيَخرُجونَ عِندَ إخراجِ المُوَحِّدينَ مِنَ النَّارِ.

وفي الحَديثِ الرابعِ يُبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ سَعةَ هذا الحَوْضِ مِقدارُ ما يَسيرُ المُسافِرُ شهرًا كاملًا، وجاء في حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨٤).





عليه وسلَّمَ: ((إنَّ قَدْرَ حَوْضي كما بَيْنَ أَيْلَةَ وصَنْعاءَ مِنَ اليَمنِ))[1]، أي: إنَّ بُعدَ ما بَينَ طَرفِي الحَوضِ أزْيَدُ مِن بُعدِ ما بَينَ أَيْلَةَ -وهي مدينةٌ في آخِرِ بلادِ الشَّامِ ممَّا يَلي بَحرَ اليَمنِ على ساحلِ البحرِ الأحمرِ- وصَنْعاءَ، وهذا يدُلُّ على أنَّ الحَوضَ كبيرٌ مُتَّسِعٌ، مُتباعِدُ الجَوانبِ، وماؤه أشدُّ بياضًا مِنَ اللَّبنِ، ورِيحُه أحلى رائحةً وأجملُ طِيبًا مِن رائحةِ المِسكِ، وعددُ الأكوابِ المَوضوعةِ على جانبَيْه عَدَدُ نُجومِ السَّماءِ، وكما في حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ السابق ((آنيَتُهُ عَدَدُ النُّجومِ))، وأنَّ مَن شَرِبَ مِن ذلك الحَوضِ فإنَّه يَشعُرُ بالرِّيِّ الأبديِّ، فيَنقطِعُ عنه الظَّمأُ إلى الأبدِ؛ وذلك أنَّ ماءَه يأتي مِن نهرِ الكَوثرِ الذي بالجنَّةِ.

العَرْضُ والحِسابُ

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها زَوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كانَتْ لا تَسمَعُ شيئًا لا تَعرِفُه، إلَّا راجَعَتْ فيه حتى تَعرِفَه، وأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((مَن حوسِبَ عُذِّبَ، قالَتْ عائشةُ: فقُلتُ: أوَليسَ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] قالَتْ: فقالَ: إنَّما ذلك العَرْضُ، ولكنْ مَن نوقِشَ الحِسابَ يَهْلِكْ))[2].

الحسابُ يَومَ القِيامةِ نوعانِ: حسابُ عَرْضٍ ومُعاتَبةٍ، وهو حسابٌ يسيرٌ لا عذابَ فيه، ومعناه: تذكيرُ المؤمنِ على انفرادٍ بأخطائِه مع طَمْأَنتِه بالعَفوِ عنه؛ وحسابُ مناقَشةٍ، وهو حسابٌ عسيرٌ وشديدٌ، ولا يخلو مِن العذابِ؛ لأنَّه مُناقَشةٌ للعبدِ في أخطائِه، وتوقيفُه على جَميعِ ذُنوبِه، واستقصاءٌ لكلِّ سيِّئاتِه، وفي مَطلعِ هذا الحديثِ ذِكْرُ فَضيلةٍ لعائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، وحِرْصِها على التَّعلُّمِ والتَّحقيقِ، وأنَّها كانَتْ لا

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨٠) واللفظ له، ومسلم (٢٣٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣) واللفظ له، ومسلم (٢٨٧٦).



تسمَعُ شيئًا لا تعرِفُ معناه ولا مَرْماه مِمَّا فيه نفعٌ وصلاحٌ إلَّا راجَعَتْ فيه، وسألَتْ عنه حتى تَعرِفَه، وأنَّها سَمِعَتْ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: «مَن حوسِبَ عُذِّبَ»، فاستَشْكلَ عليها المعنى، وتَعارَضَ عِندَها مع قَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨].

ووَجْهُ المُعارضةِ: أنَّ الحديثَ عَامٌّ في تعذيبِ مَن حوسِبَ، والآيةُ تدُلُّ على عدَمِ تعذيبِ بعضِهم، وهم أصحابُ اليَمينِ، فسألَتْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الجَمْعِ بيْنَ كلامِه وكلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ الواردِ في الآيةِ، فأجابَها صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ المُرادَ مِن الحِسابِ في الآيةِ: «العَرْضُ» يَعني: الإبرازَ والإظهارَ فقط دونَ النِّقاشِ، والتَّأنيبِ، والتَّعنيفِ، وأنَّه مَن «نوقِشَ» مِن المُناقَشةِ وهي الاستِقصاءُ في الحسابِ حتى لا يُترَكَ منه شَيءٌ؛ وقَعَ عليه العذابُ، ووُقوعُ العذابِ له معنيانِ، أحدُهما: أنَّ نفسَ مُناقشةِ الحسابِ يَومَ عَرْضِ الذُّنوبِ، والتَّوقيفَ على قَبيحِ ما سَلَفَ له: تعذيبٌ وتَوْبيخٌ، والآخَرُ: أنَّه مُفْضٍ إلى استِحقاقِ العذابِ.

شَهادةُ أعضاءِ الإنسانِ عليه

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠-٢١].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: كُنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فضَحِكَ، فقالَ: ((هل تدرون مِمَّ أضحَكُ؟)) قالَ: قُلْنا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قالَ: ((مِن مُخاطبةِ العبدِ رَبَّه؛ يقولُ: يا ربِّ ألم تُجِرْني مِن الظُّلْمِ؟ قالَ: يقولُ: بلى، قالَ:

فيَقولُ: فإني لا أُجيزُ على نَفْسي إلَّا شاهِدًا مِني، قالَ: فيَقولُ: كفى بنفسِك اليَومَ عليك شهيدًا، وبالكِرامِ الكاتبين شُهودًا، قالَ: فيُخْتَمُ على فيه، فيُقَالُ لأركانِه: انْطِقي، قالَ: فتَنْطِقُ بأعمالِه، قالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بيْنَه وبيْنَ الكلامِ، قالَ: فيَقولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا؛ فعَنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ))(1).

يُقيمُ اللهُ عزَّ وجلَّ في يَومِ القِيامةِ ميزانَ العَدلِ؛ فلا يُظلَمُ عندَه أحدٌ، ومِن مَظاهرِ عدلِه سُبحانَه في هذا اليَومِ العَصيبِ: إنطاقُ جوارحِ وأعضاءِ الإنسانِ لتكونَ شُهودًا عليه، **كما في الآيةِ الأُولى** التي يُقرِّرُ اللهُ تَعالى فيها أنَّ الذين يَقذِفون بالزِّنا المؤمناتِ العَفيفاتِ الغافلاتِ عن الفاحِشةِ تَشهَدُ عليهم ألْسِنتُهم وأيدِيهم وأرجُلُهم يومَ القِيامةِ، فتَنطِقُ بغَيرِ اختيارِهم بما كانوا يَكتَسِبونه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ بأقوالِهم وأفعالِهم، كالقَذْفِ وغَيرِه.

وفي هذه الآيةِ الكريمةِ بَيانُ كَمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، حيثُ أنطَقَ تلك الأعضاءَ مع أنَّ النُّطقَ عادةً يكونُ باللِّسانِ.

وقيلَ: خُصِّصَت الألْسُنُ والأيدي والأرجُلُ بالذِّكرِ مع أنَّ الشَّهادةَ تكونُ مِن جَميعِ الجسَدِ، كما قال تَعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ [فصلت: ٢١]؛ لأنَّ لهذه الأعضاءِ عمَلًا في رَمْيِ المُحصَناتِ؛ فهم يَنطِقون بالقَذْفِ، ويُشيرون بالأيدي إلى المَقذوفاتِ، ويَسعَون بأرجُلِهم إلى مَجالِسِ النَّاسِ لإشاعةِ القَذْفِ.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُخبِرُ اللهُ تَعالى أنَّه إذا جاء الكُفَّارُ النَّارَ شَهِدَ عليهم سَمْعُهم وأبصارُهم وجُلودُهم عامةً بما كانوا يَعمَلونَ بها في الدُّنيا مِن آثامٍ، فيقولُ الكُفَّارُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٩).

حِينها عِتابًا لجُلودِهم وإنكارًا عليهم: لِمَ شَهِدْتُم علينا بما كُنَّا نَعمَلُه مِن سَيِّئاتٍ في الدُّنيا؟ فتُجيبُ الجُلودُ أصحابَها: أنْطَقَنا اللهُ الذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه ومَشيئتِه، فنَطَقْنا بغَيرِ اختيارٍ مِنَّا.

وفي حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ الصَّحابةَ كانوا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فضَحِكَ، وسَأَلَ أصحابَه عن مَعرِفتِهم سببَ ضَحِكِه، فقالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، فأخْبَرَهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن السَّببِ، وهو مِن مُخاطبةِ العَبدِ رَبَّه يومَ القِيامةِ، «يَقولُ: يا ربِّ، ألم تُجِرْني مِن الظُّلمِ؟» أي: تُؤَمِّنِّي مِن أنْ تَظلِمَني، فيَقولُ اللهُ في جَوابِ العَبدِ: بلى! فيقولُ العبدُ: يا ربِّ، فإذا أَجَرْتَني مِن الظُّلمِ فإني لا أُجَوِّزُ ولا أَقبَلُ على نفسي إلَّا شاهدًا مِنِّي حتى لا يقَعَ عليَّ ظُلمٌ، فيقولُ اللهُ تعالى: «كفى بنفسِك اليَومَ عليك شهيدًا»، «وبالكِرامِ»، أي: وكفى بالعُدولِ المُكرَمين الكاتِبين لصُحُفِ الأعمالِ شُهودًا، فبَذَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ له مَطلوبَه بأن تَشهَدَ عليه نفسُه وزادَ عليه شهادةَ «الكِرامِ الكاتبين» تأكيدًا وتقريرًا، فيُبْكَمُ فَمُه، ويُخرَسُ لسانُه، ويُقالُ لأعضائِه وأجزاءِ جسدِه: انطِقي، فتَنطِقُ بأعمالِه وأفعالِه التي باشَرَها وارتكبَها، ثُمَّ يُخلَّى بيْنَه وبيْنَ الكَلامِ، فيُرفَعُ الخَتمُ مِن فيه؛ حتى يَتكلَّمَ بالكلامِ العادي، فيقولَ لأعضائِه: بُعدًا لكُنَّ وسُحقًا! أي: هَلاكًا؛ فعَنكُنَّ ومِن جِهتِكُنَّ ولأجْلِ خَلاصِكُنَّ كنتُ أُدافِعُ وأُجادِلُ ربِّي!

المِيزانُ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((كَلِمتانِ خفيفتانِ على اللِّسانِ، ثقيلتانِ في الميزانِ، حَبيبتانِ إلى الرَّحمنِ: سُبحانَ اللهِ العظيمِ، سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه))[1].



نُؤمِنُ إيمانًا راسِخًا بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَضَعُ المَوازينَ القِسطَ يَومَ القِيامةِ، فتوزَنُ فيها أعمالُ العِبادِ، ولا يَظلِمُ اللهُ أحَدًا مِن عِبادِه؛ والميزانُ كما هو مُعتَقَدُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ: هو ميزانٌ حقيقيٌّ له لِسانٌ وكِفَّتانِ، توزَنُ به أعمالُ العِبادِ؛ خَيرُها وشَرُّها.

وفي الآيةِ الأُولى بيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّ مِن جُملةِ أحوالِ القِيامةِ وزْنَ الأعمالِ، وقرَّر سُبحانَه أنَّ الوزْنَ يومَ القِيامةِ لأعمالِ الخَلقِ -حَسَنِها وسَيِّئِها- يكونُ بالعَدلِ التَّامِّ على وَجْهٍ لا حَيفَ فيه؛ فمَن ثَقُلَتْ مَوازينُ عَمَلِه الصَّالِحِ -بأنْ رَجَحَتْ كِفَّةُ حَسَناتِه على سَيِّئاتِه- فأولئك هم النَّاجُون الفائِزون، ومَن خفَّتْ مَوازينُ أعمالِه الصَّالحةِ -بأنْ رَجَحَتْ سيِّئاتُه، وصار الحُكمُ لها- فأولئك الذين أضاعوا حَظَّ أنفُسِهم مِن ثَوابِ اللهِ وكَرامَتِه، فخَسِرُوا أنفُسَهم.

وفي قولِه تَعالَى: ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ يَرِدُ سُؤالٌ؛ وهو: ما وَجْهُ جمْعِ الميزانِ هنا إنْ قيلَ: إنَّه واحِدٌ؟ فقيلَ: إنَّ العَرَبَ قد تُوقِعُ لَفظَ الجَمعِ على الواحِدِ؛ تَفخيمًا له. وقيلَ: إنَّه يُنصَبُ لكُلِّ عَبدٍ ميزانٌ. وقيلَ: جُمِعَ لاختلافِ المَوزوناتِ، أو تَعَدُّدِ الجَمْعِ والميزانُ واحدٌ، فأُطلِقَ عليه اسمُ الجمْعِ؛ لكَثرةِ ما يُوزَنُ فيه مِن أنواعِ الأعمالِ، وكَثرةِ الأشخاصِ العامِلين المَوزونةِ أعمالُهم. واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُقرِّرُ اللهُ تَعالى أيضًا إقامةَ الموازينِ العادِلةِ في يَومِ القيامةِ؛

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٦) واللفظ له، ومسلم (٢٦٩٤).

لوَزنِ أعمالِ العِبادِ عندَ حِسابِهم، فلا يَظلِمُ نفْسًا يومَ القِيامةِ بالنَّقصِ مِن حَسَناتِها، أو بمُعاقَبتِها بغَيرِ ذَنبِها، أو بالزِّيادةِ في سَيِّئاتِها، حتى وإنْ كان للعبدِ مِن عمَلِ الحَسناتِ، أو عليه مِن السَّيِّئاتِ وَزنُ حَبَّةٍ مِن خَرْدلٍ، وهي حُبوبٌ في غايَةِ الصِّغَرِ والدِّقَّةِ، يُضرَبُ به المَثَلُ في الصِّغَرِ، يَأتِ بها اللهُ تعالى لتوزَنَ في الميزانِ، وكفَى به سُبحانَه عالِمًا بأعمالِ عِبادِه وبمَقاديرِها ومَقاديرِ ثَوابِها وعِقابِها!

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُرشِدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمَّتَه إلى فَضْلِ ذِكرٍ مِن أعظَمِ الأذكارِ التي قد يَلفِظُ بها المؤمِنُ، جمَعَ بيْنَ سُهولةِ العِبارةِ وعِظَمِ الأجْرِ، وبَيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن فَضيلةِ هاتَينِ العبارتَينِ أنَّهما ثقيلتانِ في ميزان العبدِ يَومَ القِيامةِ، وهذا ما يدُلُّ على وُجودِ الميزانِ، وعلى المسلمِ أن يُبادِرَ لتثقيلِه بالصَّالحاتِ، والميزانُ الذي تُوزَنُ به الأعمالُ يَومَ القِيامةِ مِيزانٌ حَقيقيٌّ لا يُشبِه مَوازينَ الخَلْقِ، وهو مِن أُمورِ الغَيبِ التي يَجِبُ الإيمانُ بها.

الصِّراطُ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ [مريم: ٧١].

وعن عائشةَ أُمِّ المؤمِنين رَضِيَ اللهُ عنها، قالَتْ: سَأَلْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ فأين يَكونُ النَّاسُ يَومَئذٍ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ: ((على الصِّراطِ ...)) الحديثَ[١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه في حديثٍ طويلٍ، يقولُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((... فيُضْرَبُ الصِّراطُ بيْنَ ظَهْرانَي جهنَّمَ، فأكونُ أوَّلَ مَن يَجُوزُ مِن الرُّسلِ بأُمَّتِه، ولا يتكلَّمُ يَومَئذٍ أحَدٌ إلَّا الرُّسلُ، وكلامُ الرُّسلِ يَومَئذٍ: اللَّهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وفي جَهنَّمَ كَلاليبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدانِ، هل رأيتُم شَوْكَ السَّعْدانِ؟ قالوا: نَعَم، قالَ: فإنَّها مِثْلُ

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩١).



شَوْكِ السَّعْدانِ، غَيرَ أنَّه لا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِها إلَّا اللهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بأعمالِهم؛ فمنهم مَن يُوبَقُ بعَمَلِه، ومنهم مَن يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجو...))(١).

في الآيةِ الكريمةِ المذكورةِ يُبيِّنُ اللهُ تَعالى أنَّه ما مِن أحدٍ مِن النَّاسِ إلَّا وسَيَرِدُ النَّارَ؛ وذلك بالمُرورِ فوقَ الجِسرِ المُقامِ على مَتْنِ جهنَّمَ، فهو أمرٌ لازِمٌ وكائنٌ حتْمًا، قدْ قضَى اللهُ تعالى أنَّه لا بُدَّ مِن وُقوعِه، وأوجَبَه على نفْسِه، كما قالَ بَعضُ أهلِ التَّفسيرِ.

وفي حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها سألَتْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن قَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فقالَتْ: أين يكونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ هذه الأرضُ التي نَعرِفُها أرضًا أُخْرى والسَّمواتُ كذلك؟ وقد اختَلفَ العُلَماءُ في هذا التَّبديلِ؛ هل هو تبديلُ أوصافِها أو ذواتِها؟ فقيلَ: تُبَدَّلُ أوصافُها فتُنسَفُ جِبالُها، وتُفَجَّرُ بِحارُها، وتُجْعَلُ مُسْتَويةً لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أمْتًا، وتُبَدَّلُ السَّمواتُ بانتِشارِ كَواكِبِها، وكُسوفِ شَمسِها، وخُسوفِ قَمرِها. وقيلَ: يُخْلَقُ بَدَلَها أرضٌ وسَمَواتٌ أُخَرُ. والظَّاهِرُ مِن سؤالِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنها فَهِمَتْ مِن التَّبديلِ تَغييرَ الذَّاتِ؛ ولهذا تَسأَلُ: فأين يَكونُ النَّاسُ يومَئذٍ؟ أي: عندَ طَيِّ الأرضِ؟ فقالَ لها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يكونُ النَّاسُ على الصِّراطِ، وقولُه: على الصِّراطِ. يَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ به الصِّراطَ المعروفَ الذي هو قنطَرَةٌ على النَّارِ يَعبُرُ مِن فَوقِها النَّاسُ إلى الجنَّةِ، ويحتَمِلُ أنَّه اسمٌ لمَوضِعٍ غَيرِه يستَقِرُّ الخَلْقُ عليه وقتَ أن تُبَدَّلَ الأرضُ غَيرَ الأرضِ والسَّمواتُ.

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُوضِّحُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حقيقةَ الصِّراطِ؛ وذلك أنَّه جِسْرٌ يُمَدُّ فَوقَ نارِ جَهنَّمَ، فيكونُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّلَ

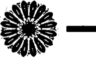
---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٨٢).

مَن يمرُّ عليه هو وأُمَّةُ الإسلامِ، ولا يتكلَّمُ أحدٌ مِن أهلِ المَوقفِ في ذلك الوقتِ غَيرُ الرُّسلِ، وكلامُ الرُّسلِ يومَئذٍ: «اللَّهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»؛ طَلَبًا للسَّلامةِ والخَلاصِ مِن هَوْلِ ذلك اليَومِ، «وفي جَهَنَّمَ كلاليبُ»، جَمعُ كَلُّوبٍ، وهو الخُطَّافُ الذي يخطَفُ النَّاسَ، عليها أشواكٌ «مثلُ شَوْكِ السَّعْدانِ»، وهو نباتٌ له ثمرةٌ خَشِنةٌ تَتعلَّقُ بأَصْوافِ الغنَمِ وأوْبارِ الإبلِ، وَرَقُه كورقِ الرِّجْلةِ أو أدقَّ، وعندَ ورقِه شَوكٌ، ولكنه يَومَ القِيامةِ لا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِها إلَّا اللهُ، فتَخْطَفُ النَّاسَ بأعمالِهم؛ فمنهم مَن يَهلِكُ بعَمَلِه، ومنهم مَن يُقطَّعُ قِطَعًا صِغارًا كالخَرْدَلِ «ثُمَّ يَنْجو»، والمعنى: أنَّه تُقطِّعُه كلاليبُ الصِّراطِ حتى يَهويَ إلى النَّارِ، ثُمَّ يُنجِّي اللهُ تعالى منها مَن كان يَعبُدُ اللهَ وحدَه، وهم المؤمِنون الخُلَّصُ؛ إذِ الكافرُ لا يَنْجو منها أبدًا.

القَنطَرةُ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((إذا خَلَصَ المؤمِنونَ مِنَ النَّارِ حُبِسوا بقَنطَرةٍ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيَتَقاصُّونَ مَظالِمَ كانت بيْنَهم في الدُّنيا حتى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا؛ أُذِنَ لهم بدُخولِ الجنَّةِ، فوالذي نَفسُ مُحمَّدٍ بيدِه، لأحَدُهم بمَسكَنِه في الجنَّةِ أدَلُّ بمَنزِلِه كان في الدُّنيا))[1].



حَبْسُ أهلِ الجنَّةِ عن دُخولِها بعدَ عُبورِهمُ الصِّراطَ مشهدٌ مِن مشاهدِ يَومِ القِيامةِ المَهولةِ العظيمةِ، حيثُ يُحبَسُ المُؤمنونَ بعدَ أن يَتجاوزوا الصِّراطَ ويُنَجِّيَهم اللهُ تعالى بفضلِه ورحمتِه مِن النَّارِ، فتوقِفُهم الملائكةُ على قَنطَرةٍ أو جِسْرٍ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيَتقاصُّون مَظالِمَ كانت بيْنَهم في الدُّنيا، وذلك بأن يَقْتَصَّ المظلومُ مِن ظالِمِه، لأنَّ أحدًا لا يَدخُلُ الجنَّةَ ولأَحَدٍ عليه تَبِعةٌ، وهذه المُقاصَّةُ هي لقَومٍ دون قَومٍ، وهم مَن

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٠).



لا تَستَغرِقُ مَظالِمُهم جَميعَ حسناتِهم؛ لأنَّه لو استُغْرِقَت جَميعُها لكانوا ممَّن وَجَبَ لهم العذابُ، ولَمَا جازَ أن يُقالَ فيهم: خَلَصوا مِن النَّارِ، حتى إذا طُهِّروا وتخلَّصوا مِن حُقوقِ النَّاسِ أُدخِلوا الجنَّةَ، وهم أعرَفُ بمنازِلِهم فيها مِن أهلِ الدُّنيا بمنازِلِهم.

الشفاعة

الشَّفاعةُ العُظمى

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وعن مَعْبَدِ بنِ هلالٍ العَنَزيِّ قالَ: اجتمَعْنا نَاسٌ مِن أهلِ البَصرةِ فذَهَبْنا إلى أنسِ ابنِ مالِكٍ، وذَهَبْنا معنا بثابِتٍ إليه يَسألُه لنا عن حديثِ الشَّفاعةِ، فإذا هو في قَصْرِه فَوافَقْناه يُصلِّي الضُّحى، فاستَأْذَنَّا، فأذِنَ لنا وهو قاعِدٌ على فِراشِه، فقُلْنا لثابِتٍ: لا تسألْه عن شَيءٍ أوَّلَ مِن حديثِ الشَّفاعةِ، فقالَ: يا أبا حَمزةَ، هؤلاء إخوانُك مِن أهلِ البَصرةِ جاؤُوك يَسألُونك عن حديثِ الشَّفاعةِ، فقالَ: حدَّثَنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((إذا كانَ يَومُ القِيامةِ ماجَ النَّاسُ بعضُهم في بعضٍ، فيأتون آدَمَ، فيَقولونَ: اشْفَعْ لنا إلى ربِّك، فيَقولُ: لستُ لها، ولكنْ عليكم بإبراهيمَ؛ فإنَّه خَليلُ الرَّحمنِ، فيأتون إبراهيمَ، فيَقولُ: لستُ لها، ولكنْ عليكم بموسى؛ فإنَّه كَليمُ اللهِ، فيأتون موسى فيَقولُ: لستُ لها، ولكنْ عليكم بعيسى؛ فإنَّه رُوحُ اللهِ وكلمتُه، فيأتون عيسى، فيَقولُ: لستُ لها، ولكنْ عليكم بمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيأتوني، فأَقولُ: أنا لها، فأستَأْذِنُ على ربِّي، فيؤذَنُ لي، ويُلهِمُني مَحامِدَ أحمَدُه بها لا تَحضُرُني الآن، فأحمَدُه بتلك المَحامِدِ، وأَخِرُّ له ساجدًا، فيَقولُ: يا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسْمَعْ لك، وسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ، أُمَّتي أُمَّتي، فيَقولُ: انطَلِقْ فأخرِجْ منها مَن كان في قلبِه مِثْقالُ شَعيرةٍ مِن إيمانٍ، فأنْطَلِقُ فأفْعَلُ، ثُمَّ أعودُ، فأحمَدُه بتلك المَحامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيُقالُ: يا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسْمَعْ لك، وسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ، أُمَّتي أُمَّتي، فيَقولُ: انطَلِقْ فأخرِجْ منها مَن كان في قلبِه مِثْقالُ ذَرَّةٍ، أوْ خَرْدَلةٍ مِن إيمانٍ فأَخْرِجْهُ، فأنْطَلِقُ، فأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعودُ، فأحمَدُه بتلك المَحامِدِ،

ثُمَّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيَقولُ: يا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسْمَعْ لك، وسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ أُمَّتي أُمَّتي، فيَقولُ: انْطَلِقْ فأَخْرِجْ مَن كانَ في قلبِه أدنى أدنى أدنى مِثْقالِ حبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ، فأَخْرِجْهُ مِن النَّارِ، فأنْطَلِقُ، فأفْعَلُ))، فلمَّا خَرَجنا مِن عندِ أنسٍ، قُلتُ لبعضِ أصْحابِنا: لو مَرَرْنا بالحسَنِ وهو مُتَوارٍ في منزِلِ أبي خليفةَ فحدَّثْناه بما حدَّثَنا أنسُ بنُ مالِكٍ! فأتَيْناه فسَلَّمْنا عليه، فأذِنَ لنا، فقُلْنا له: يا أبَا سعيدٍ، جِئْناك مِن عندِ أخيك أنسِ بنِ مالِكٍ، فلَم نَرَ مِثْلَ ما حدَّثَنا في الشَّفاعةِ، فَقالَ: هِيهْ، فحَدَّثْناه بالحديثِ، فانْتَهى إلى هذا المَوْضعِ، فَقالَ: هِيهْ، فقُلْنا: لَمْ يَزِدْ لنا على هذا، فَقالَ: لقَدْ حدَّثني وهو جَميعٌ مُنْذُ عشرين سنةً، فلا أدري أنَسِيَ أمْ كَرِهَ أنْ تَتَّكِلوا، قُلْنا: يا أبَا سعيدٍ فحَدِّثْنا، فضَحِكَ، وقالَ: خُلِقَ الإنسانُ عَجولًا، ما ذَكَرْتُه إلَّا وأنا أُريدُ أنْ أُحَدِّثَكم؛ حدَّثَني كما حَدَّثَكُم به، قالَ: ((ثُمَّ أعودُ الرَّابعةَ فأحمَدُه بتلك المَحامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيُقالُ: يا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسْمَعْ، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ ائْذَنْ لي فيمَن قالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فيَقولُ: وعِزَّتي وجَلالِي، وكِبْريائي وعَظَمَتي لَأُخْرِجَنَّ منها مَن قالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ))[1]!

يَومُ القِيامةِ يَومٌ عظيمٌ مشهودٌ، يَجمَعُ اللهُ فيه الأوَّلينَ والآخِرينَ، ويُصيبُ النَّاسَ فيه مِن الأهوالِ والكُروبِ، وتشتَدُّ حاجتُهم إلى مَن يَشفَعُ لهم عندَ اللهِ تعالَى، ويتقدَّمُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النَّاسَ ليَشفَعَ لهم عندَ ربِّهم سبحانه وتعالى، وهي الشَّفاعةُ العُظمى التي اختَصَّه اللهُ تعالى بها، كما أنَّ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شفاعاتٍ أُخْرى.

وفي هذهِ الآيةِ الكريمةِ يَأمُرُ اللهُ تَعالَى نَبيَّه مُحمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالنُّهوضِ مِن نَومِه وقِيامِه؛ لإحياءِ جُزءٍ مِن اللَّيلِ بالصَّلاةِ وقِراءةِ القُرآنِ. وقولُه: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، واللفظ له، ومسلم (١٩٣).



أي: زِيادةٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، واختُلِفَ في معنى هذه الزِّيادةِ، فقيلَ: أي: فَريضةٌ زائدةٌ على سائرِ الفرائضِ التي فرَضَها اللهُ عليه، فتكونُ فَريضةً عليه، وتَطوُّعًا لغيرِه. وقيلَ: هي زِيادةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وفَضيلةٌ؛ لأنَّ ذُنوبَه مَغفورةٌ، وهي لغيرِه تَكفيرٌ لذُنوبِه.

وقَولُه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، أي: إنْ فَعَلَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما أمَرَه اللهُ تَعالى به -وهو جَميعُ ما سبَقَ أمْرُه به؛ مِن إقامةِ الصَّلواتِ المفروضةِ في أوقاتِها، والتَّهَجُّدِ مِن اللَّيلِ بالقُرآنِ- فإنَّه سيَبعَثُه يَومَ القيامةِ شَفيعًا في أهلِ المَوقِفِ، فيَحمَدُه الأوَّلون والآخِرون.

ويروي أنسٌ رَضِيَ اللهُ عنه -عندما سأله أصحابُه عن حديثِ الشَّفاعةِ- أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أخْبَرَهم أنَّه إذا كان يَومُ القِيامةِ، وكانتِ الأُمَمُ جَميعُها في المَحشَرِ، اضْطَرَبتْ أحوالُهم مِن هَوْلِ ذلك اليَومِ؛ فأخَذوا يَلتَمِسون الشَّفاعةَ عندَ الأنبياءِ واحِدًا واحِدًا؛ ليَقضيَ اللهُ تعالى بيْنَ أهلِ الموقِفِ. فالأنبياءُ هم أقرَبُ البَشَرِ منزلةً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وجَعَلَ كلُّ نبيٍّ يَعتذِرُ عن الشَّفاعةِ، ويَدُلُّ على الآخَرِ حتى انْتَهى الأمرُ إلى صاحِبِه، ويَحْتَمِلُ أنَّهم عَلِموا أنَّ صاحِبَها مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُعَيَّنًا، وتكونُ إحالةُ كلِّ واحدٍ منهم على الآخَرِ على تدريجِ الشَّفاعةِ في ذلك إلى نبيِّنا مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَأتي النَّاسُ آدَمَ عليه السَّلامُ، فيَعتَذِرُ عن هذا المَقامِ، ويقولُ: لستُ أهلًا له في هذا الوَقتِ؛ فهو يَذكُرُ مَعصيتَه الأُولى في الجنَّةِ، ويخافُ مِن غَضَبِ الجبَّارِ جلَّ في عُلاه، ويُحيلُهم إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ووَقَعَ في رِوايةِ مُسلمٍ: أنَّ آدَمَ يُحيلُهم إلى نوحٍ عليه السَّلامُ، وأنَّ نوحًا عليه السَّلامُ هو مَن يُحيلُهم إلى إبراهيمَ خليلِ الرَّحمنِ، والخَليلُ هو ذو المحبَّةِ الخالِصةِ، وهذا وصفُ كمالٍ في إبراهيمَ عليه السَّلامُ يَحمِلُه على أن يَقْبَلَ الشَّفاعةَ في هذا المَوقفِ العظيمِ، لكنَّه يَعتَذِرُ، ويُحيلُهم إلى موسى؛ فَقَدِ اصطفاهُ اللهُ، واختَصَّهُ بكلامِهِ، فهو كَليمُ اللهِ، فيأتون

موسى فيعتَذِرُ، ويُحيلُهم إلى عيسى عليه السَّلامُ، فهو رُوحُ اللهِ وكلمتُه، ومعنى رُوحِ اللهِ: رُوحٌ مخلوقةٌ بأمرِ اللهِ؛ فالإضافةُ إضافةُ تَشريفٍ. وقيل: معناه: ليس مِن أبٍ، وإنَّما نُفِخَ في أُمِّه الرُّوحُ، ومعنى «وكَلِمتُه»: أنَّه كان بكَلِمةِ «كُنْ» فسُمِّيَ بها، فيأتي النَّاسُ عيسى عليه السَّلامُ فيعتَذِرُ ويُحيلُهم إلى نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حتى يَصِلوا إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيُجيبُهم إلى طَلَبِهم، ويَتَصدَّى للشَّفاعةِ، ويَقولُ: «أنا لها»، ولعلَّ الحِكمةَ في أنَّ اللهَ تعالى ألْهَمَهم سؤالَ آدَمَ ومَن بَعدَه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم في الابتداءِ، ولم يُلْهَموا سؤالَ نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ هي -واللهُ أعلَمُ-: إظهارُ فَضيلةِ نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّهم لو سألوه ابتِداءً لكان يَحْتَمِلُ أنَّ غَيرَه يَقدِرُ على هذا ويُحَصِّلُه، وأمَّا إذا سألوا غَيرَه مِن رُسُلِ اللهِ تعالى وأصفيائِه فامتَنَعوا، ثُمَّ سألوه فأجابَ وحَصَلَ غرضُهم؛ فهو النهايةُ في ارتفاعِ المنزلةِ، وكمالِ القُربِ، وعظيمِ الإدْلالِ والأُنسِ، وفيه تَفضيلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على جَميعِ المخلوقين مِن الرُّسُلِ والآدميِّين والملائكةِ؛ فإنَّ هذا الأمرَ العظيمَ -وهو الشَّفاعةُ العُظمى- لا يَقْدِرُ على الإقدامِ عليه غَيرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعليهم أجمعين، ويُخْبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يتقدَّمُ ويطلُبُ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ الإذنَ في الشَّفاعةِ المَوعودِ بها، والمقامِ المحمودِ الذي ادَّخَرَه اللهُ عزَّ وجلَّ له، فيؤذَنُ له، فيَسجُدُ تحتَ عَرشِ الرَّحمنِ، ويُجري اللهُ عزَّ وجلَّ على لسانِه مَحامِدَ يحمَدُه بها، لم تَحْضُرْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الدُّنيا، فيأذَنُ اللهُ عزَّ وجلَّ له بالشَّفاعةِ، وأن يَسأَلَ فيُعْطى ما سأَلَ، فيَسأَلُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الشَّفاعةَ لأُمَّتِه، قائلًا: أُمَّتي أُمَّتي، وهنا تتَجلَّى رحمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ بأن يَقولَ للحَبيبِ صلَّى الله عليه وسلَّم: انْطَلِق فَأَخْرِجْ منها مَن كانَ في قلبِه مِثقالُ شَعيرَةٍ مِن إيمانٍ، وهذا بعدَ أن يَدخُلَ أهلُ النَّارِ النَّارَ، ومعهم عُصاةُ أهلِ التَّوحيدِ.

والصِّنفُ الأوَّلُ مِن الخارجين منها هم مَن كان في قلبِه مِقدارُ وَزنِ الشَّعيرَةِ مِن



الإيمانِ، وما كان فَوقَ هذا أَولى أن يَخرُجَ، فهذا هو الحدُّ الأدنى، ثُمَّ يَفعَلُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِثْلَما فَعَلَ سابقًا، فتتَجَلى رحمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ التي لا تَنقطِعُ، ويَقولُ للحَبيبِ صلَّى الله عليه وسلَّم: انْطَلِقْ، فَأَخرِجْ مَن كان في قلبِه مِثقالُ «ذَرَّةٍ» -والذَّرَّةُ تُطْلَقُ على أصغَرِ النَّملِ، وعلى الغُبارِ الدَّقيقِ الذى يَتطايَرُ مِن التُّرابِ عندَ النَّفخِ فيه- «أو خَرْدَلةٍ مِن إيمانٍ»، وَزِنةُ الخَرْدَلةِ: رُبعُ سِمسِمةٍ، ثُمَّ يَفعَلُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِثْلَما فَعَلَ سابقًا مَرَّةً أُخْرى، وَيَزيدُ الرَّحمنُ في رحمتِه بعِبادِه، ويَقولُ للحَبيبِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «انْطَلِق، فَأَخرِجْ مَن كان في قلبِه أدنى أدنى أدنى مِثْقالِ حبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ فَأَخْرِجْه مِن النَّارِ»، وبعدَ أن فَرَغَ القَومُ مِن حديثِ أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه مَرُّوا على الحسَنِ البَصريِّ، فزادَهم أنَّ أنسَ بنَ مالِكٍ حدَّثَهُ بمثلِ حديثِه لهم مُنذُ عشرين سنةً، غَيرَ أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ استأذَنَ ربَّه في شفاعةٍ رابعةٍ لكلِّ مَن قالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فيقولُ: «وعِزَّتي وجَلالي، وكِبريائي وعَظَمتي لَأُخرِجَنَّ منها مَن قالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ»، والمعنى: لَأُخْرِجَنَّهم كَرَمًا وتفضُّلًا منِّي؛ لعِزَّتي وجَلالي، وكِبريائي وعَظَمتي، وهذا يدُلُّ على عَظمةِ وأهميَّةِ فضلِ التَّوحيدِ، وعلَّلَ الحسنُ البَصريُّ لهم سببَ عدمِ تحديثِ أنسٍ لهم بأنَّه رُبَّما نَسِيَ لكِبَرِ سِنِّهِ، أو رُبَّما كَرِهَ أن يُخبِرَهم بذلك فيترُكوا العملَ ويَتَواكَلوا.

الشَّفاعةُ لِمَن دَخَلَ النَّارَ مِن المُؤمِنينَ

عن أَنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه في حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ، يقولُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((... فيؤذَنُ لي عليه، فإذا رأيْتُه وقَعْتُ ساجدًا، فيَدَعُني ما شاءَ اللهُ أن يَدَعَني، فيقولُ: ارْفَعْ مُحمَّدُ، وقُلْ يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وسَلْ تُعْطَ، قالَ: فأرْفَعُ رأسي، فأُثْني على ربِّي بثَناءٍ وتَحميدٍ يُعلِّمُنيه، ثُمَّ أَشْفَعُ فيَحُدُّ لي حدًّا، فأَخْرُجُ فأُدْخِلُهم الجنَّةَ، قالَ قتادةُ: وسَمِعْتُه أيضًا يقولُ: فأَخْرُجُ فأُخْرِجُهم مِن النَّارِ، وأُدْخِلُهم الجنَّةَ،

ثُمَّ أعودُ الثانيةَ، فأَسْتَأذِنُ على رَبِّي في دارِه فيؤذَنُ لي عليه، فإذا رأيْتُه وقَعْتُ ساجدًا، فيَدَعُني ما شاءَ اللهُ أن يَدَعَني، ثُمَّ يقولُ: ارْفَعْ مُحمَّدُ، وقُلْ يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وسَلْ تُعْطَ، قالَ: فأرْفَعُ رأْسي، فأُثْني على ربِّي بثناءٍ وتَحميدٍ يُعَلِّمُنيه، قالَ: ثُمَّ أشْفَعُ فيَحُدُّ لي حدًّا، فأخْرُجُ، فأُدْخِلُهم الجنَّةَ، قالَ قتادةُ، وسَمِعْتُه يقولُ: فأَخْرُجُ فأُخرِجُهم مِن النَّارِ وأُدْخِلُهم الجنَّةَ، ثُمَّ أَعودُ الثَّالثةَ، فأَسْتَأذِنُ على ربِّي في دارِه فيؤذَنُ لي عليه، فإذا رأَيْتُه وقَعْتُ ساجدًا، فيَدَعُني ما شاءَ اللهُ أن يَدَعَني، ثُمَّ يقولُ: ارْفَعْ مُحمَّدُ، وقُلْ يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وسَلْ تُعْطَهْ، قالَ: فأرْفَعُ رأْسي، فأُثْني على ربِّي بثناءٍ وتَحميدٍ يُعَلِّمُنيه، قالَ: ثُمَّ أشْفَعُ فيَحُدُّ لي حدًّا، فأخْرُجُ فأُدْخِلُهم الجنَّةَ، قالَ قتادةُ: وقد سَمِعْتُه يقولُ: فأَخْرُجُ فأُخرِجُهم مِن النَّارِ، وأُدْخِلُهم الجنَّةَ حتى ما يَبْقى في النَّارِ إلَّا مَن حبَسَهُ القرآنُ...))[1].



في حديثِ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه يُخْبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن جانِبٍ مِن جوانِبِ شفاعتِه يَومَ القِيامةِ في قَومٍ موحِّدين دخَلوا النَّارَ، فيَذهَبُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، فيَنْزِلُ ويَخِرُّ له ساجدًا، يَدعو اللهَ عزَّ وجلَّ، ويَحْمَدُ بمَحامِدَ يَفتَحُ بها اللهُ عليه في ذلك اليَومِ، فيَقبَلُ منه المَولى عزَّ وجلَّ، يقولُ له: «ارْفَعْ مُحمَّدُ، وقُلْ يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وسَلْ تُعْطَ»، ويأذَنُ له في الشَّفاعةِ في الذين دخَلوا النَّارَ من الموَحِّدين، فيأمُرُه أنْ يَذهَبَ فيُخْرِجَ مِن النَّارِ أقوامًا بعَينِهم، ولعلَّهم أقلُّ النَّاسِ في النَّارِ ذُنوبًا ومعاصيَ، وبعدَ أن يُخْرِجَهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَذهَبُ فيُكَرِّرُ على ربِّه شفاعتَه فيمَن بَقيَ مِن الموحِّدين في النَّارِ، وفي كلِّ مرَّةٍ يُعَيِّنُ له أقوامًا ليُخْرِجَهم مِن النَّارِ، حتى يأمرَه اللهُ عزَّ وجلَّ أن يُخْرِجَ مَن قالَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» مِن النَّارِ، فيَدخُلوا

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٠) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).



الجنَّةَ، حتى ما يَبْقى في النَّارِ إلَّا مَن حبَسَهُ القرآنُ، والمرادُ بهم: الذين حقَّ عليهم قَولُ اللهِ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة: ١٦٢]، وهم غَيرُ الموحِّدين مِن جَميعِ الأُمَمِ السابقةِ والمُتأخِّرةِ.

الشَّفاعةُ الخاصَّةُ في أبي طالبٍ

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذُكِرَ عندَه عَمُّه أبو طالبٍ، فقالَ: ((**لعلَّه تَنْفَعُه شَفاعتي يَومَ القِيامةِ، فيُجْعَلُ في ضَحْضاحٍ مِن النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيه، يَغْلي منه أُمُّ دِماغِه**))[(١)].



العذابُ في النَّارِ ليس على دَرَجةٍ واحدةٍ، بل هو مُتفاوِتٌ؛ فبَعضُ أهلِ النَّارِ أخَفُّ في العذابِ مِن بعضٍ، ومع أنَّ الشَّفاعةَ مَنفيَّةٌ في حقِّ الكافِرين فإنَّ اللهَ خَصَّ منها شفاعةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعَمِّه أبي طالبٍ؛ فقد كان يُسانِدُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في رسالتِه، ويدافِعُ عنه إلَّا أنَّه قد مات على الكُفرِ، فيُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا الحديثِ بصيغةِ الرَّجاءِ أنَّ شفاعتَه يَومَ القِيامةِ ستَنْفَعُ عمَّه أبا طالبٍ؛ فيُخَفَّفُ عنه عذابُ النَّارِ، فجُعِلَ بشفاعةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ «في ضَحْضاحٍ مِن النَّارِ» أي: مَوضعٍ قُرْبَ القَعْرِ يَبلُغُ كَعبَيه، يَغْلي مِن شِدَّتِها «أُمُّ دِماغِه»، وأُمُّ الدِّماغِ: أَصلُه، وما به قِوامُه. والدِّماغُ: الرأسُ. وقيلَ: المرادُ جِلدَةٌ رقيقَةٌ تُحيطُ بالدِّماغِ، وفيه إشارةٌ إلى شِدَّةِ العذابِ برَغمِ التَّخفيفِ!



(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٤) واللفظ له، ومسلم (٢١٠).

الجَنةُ والنارُ

الجَنّةُ والنّارُ موجودتانِ الآنَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وعن عِمرانَ بنِ حُصينٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: **((اطَّلَعْتُ في الجَنَّةِ فرأيتُ أكْثَرَ أهلِها الفُقَراءَ، واطَّلَعْتُ في النَّارِ فرأيتُ أكْثَرَ أهْلِها النِّساءَ))**[1].



خلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الجنةَ نَعيمًا لمَن أطاعَه، وخلَقَ النَّارَ عَذابًا لِمَن عَصاه، والجنَّةُ والنارُ مَخلوقتانِ ومَوجودتانِ الآنَ حَقيقةً، كما أخبرَ اللهُ تَعالَى في كِتابِه.

ففي الآيةِ الأُولَى والتي تليها يَتحدَّى اللهُ تَعالَى الكُفَّارَ والمُنافِقينَ بأنْ يَأتُوا بسُورةٍ مِن مِثلِ هذا القُرآنِ، وأنْ يَستعينوا على ذلِك بمَن يَقدِرونَ عليه مِن أعوانِهم وشُهدائِهم، إنْ كانوا صادِقينَ في زعْمِهم أنَّ القُرآنَ كلامٌ مُختلَقٌ؛ وما دامَ الأمْرُ كذلك وأنَّهم لم يأتوا بما تحدَّاهم اللهُ به، ولنْ يَأتوا به أبدًا، فخَيرٌ لهم إذنْ أنْ يَجعَلوا بيْنهم وبيْن عَذابِ النارِ وِقايةً؛ بفِعلِ أوامِره سُبحانه، واجتنابِ نَواهيه؛ ليُنقِذوا أنفُسَهم مِن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٣٨).

وأخرجه مسلم (٢٧٣٧) من حديثِ عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما.

النَّارِ التي وَقُودُها النَّاسُ والحِجارةُ. والحِجارةُ: قيل: هي حِجارةُ الكِبريتِ، وهي أشدُّ الأحجارِ حَرًّا إذا حَمِيتْ، وقيل: المرادُ بها: الأصنامُ، وقد جُهِّزت النارُ وهُيِّئت مُسبَّقًا لكلِّ مَن كَفَرَ، فتَرَكَ التَّصديقَ بالحقِّ والإقرارَ به والانقيادَ إليه.

ففي هذه الآيةِ التَّصريحُ بأنَّ النَّارَ مَخلوقةٌ وموجودةٌ الآنَ؛ لقولِه تَعالَى: ﴿أُعِدَّتْ﴾.

وفي آيةِ سورةِ آلِ عمرانَ يَأمُرُ اللهُ تَعالى بالمُبادَرةِ إلى فِعلِ الخيراتِ؛ للحُصولِ على مَغفرةِ اللهِ تَعالى ودُخولِ الجنَّاتِ التي يَبلُغُ عَرضُها مِثْلَ عَرضِ السَّمَواتِ والأرضِ، وقدْ هُيِّئَت مُسبَّقًا للذين اتَّقَوا اللهَ تَعالى؛ بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيهِ؛ فهُم أهلُها وساكِنُوها. وفي هذا دَليلٌ على أنَّ الجنَّةَ مَخلوقةٌ وموجودةٌ الآنَ.

وقد أطْلَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الجَنَّةِ وما فيها من نعيمٍ، وعلى النَّار وما فيها مِن عذابٍ.

وفي حَديثِ عِمرانَ بنِ حُصينٍ رَضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه اطَّلع في الجَنَّةِ ورأى أنَّ أكثرَ أهلِها الفُقراءُ، وهذه بِشارَةٌ للمُؤمنينَ الفُقراءِ الذين صَبروا على حالِهم وعلى فقرِهم، فبُشِّروا بالفَوزِ العَظيمِ؛ فليس الفَقْرُ هو الذي أدخَلَهم الجَنةَ، إنَّما أَدخلَهم اللهُ الجَنةَ بصَبرِهم على الفَقرِ، ورِضاهم بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه. وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اطَّلع في النَّارِ فرأى أنَّ أكثرَ أهلِها النِّساءُ، وفي هذا إنذارٌ وتحذيرٌ وترهيبٌ لِلنِّساءِ مِن فِعلِ الأسبابِ التي تُوجِبُ ذلك لهُنَّ، ومن أسبابِ ذلك ما جاءَ في حَديثِ عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أُريتُ النَّارَ فإذا أكثرُ أهلِها النِّساءُ؛ يَكفُرْنَ. قيل أيَكْفُرْنَ باللهِ؟ قال: يَكْفُرْنَ العَشيرَ، ويَكْفُرْنَ الإحسانَ؛ لو أحسَنْتَ إلى إحداهُنَّ الدَّهرَ ثمَّ رأَت منكَ شَيئًا، قالت: ما رأيتُ مِنك خيرًا قَطُّ!))(١).

(١) أخرجه البخاري (٢٩) واللفظ له، ومسلم (٩٠٧).

صِفةُ الجَنَّةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [محمد: ١٥].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ في الجَنَّةِ خَيمةً مِن لُؤلُؤةٍ مُجَوَّفةٍ، عَرضُها سِتُّونَ مِيلًا، في كُلِّ زاويةٍ منها أهْلٌ ما يَرَونَ الآخَرينَ، يَطُوفُ عليهمُ المُؤمِنونَ. وجَنَّتانِ مِن فِضَّةٍ آنِيتُهما وما فيهما، وجَنَّتانِ مِن كَذا آنِيَتُهما وما فِيهِما، وما بيْنَ القَومِ وبيْنَ أنْ يَنظُروا إلى رَبِّهم إلَّا رِداءُ الكِبْرِ على وجْهِه في جَنَّةِ عَدْنٍ))[1].



أعدَّ اللهُ تعالَى لِعبادِه المؤمنينَ في الجنَّةِ ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بَشَرٍ، وقدْ ذكَرَ اللهُ تَعالَى في كِتابِه أوصافًا كَثيرةً لها، ومنها سَعتُها العظيمةُ؛ **ففي الآيةِ الأُولى** وصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ عرْضَها بأنَّه كعَرضِ السَّمواتِ والأرضِ، وذلك يَدُلُّ على عَظَمتِها، والعرْضُ في كَلامِ العرَبِ يُطلَقُ على ما يُقابِلُ الطُّولَ، ويُطلَقُ على الاتِّساعِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٩، ٤٨٨٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٣٨).



وفي الآيةِ الثانيةِ وصَفَ تَعالَى أنْهارَها بأنَّها تَجْري مِن تَحتِها مِن غيرِ أخاديدَ، وكثيرًا ما يَقتصِرُ اللهُ على ذِكرِ الأنهارِ في وَصْفِ الجنَّةِ؛ لأنَّ الأنهارَ يَتبَعُها الأشجارُ، والأشجارُ تَتبَعُها الثِّمارُ، ولأنَّها سَببُ حَياةِ العالَمِ، والنَّارُ سَببٌ للإفناءِ، وللمُؤمنِ الماءُ؛ يَنظُرُ إليه ويَنتفِعُ به، وللكافِرِ النَّارُ؛ يَتقلَّبُ فيها، ويَتضرَّرُ بها. كما وصَفَ اللهُ نِساءَها بالطَّهارةِ؛ فهُنَّ زَوجاتٌ مُطهَّراتٌ طَهارةً حِسِّيَّةً مِن الأدناسِ؛ كالحَيضِ، والغائطِ، والبَولِ، والحَبَلِ، والبُصاقِ، والرَّائحةِ المُنتِنةِ، وغيرِ ذلك، ومُطهَّراتٌ أيضًا طَهارةً مَعنويَّةً مِن الأخلاقِ الرَّذيلةِ، والصِّفاتِ النَّاقصةِ، وقدْ أخبَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّه يُدخِلُ عِبادَه في الجنَّةِ ظِلًّا قدْ بَلَغَ الغايةَ في كَمالِه ونفْعِه؛ فهو ظِلٌّ غَزيرٌ طَيِّبٌ مُمتدٌّ، لا يَتغيَّرُ ولا يَنتقِلُ ولا يَنقطِعُ.

وذكَرَ اللهُ تَعالى **في الآيةِ الثالثةِ** أنَّ في الجنَّةِ أنهارًا مِن ماءٍ عَذْبٍ صافٍ، غيرِ مُتغَيِّرِ الرِّيحِ أو الطَّعمِ أو اللَّونِ، وفيها أنهارٌ مِن لَبَنٍ لمْ يَتغَيَّرْ طَعْمُه بحُموضةٍ أو غَيرِها، وأنهارٌ مِن خَمرٍ طَيِّبةٍ يَلْتَذُّ بها الشَّارِبونَ، بلا صُداعٍ أو غيرِه مِن الآفاتِ، وأنهارٌ مِن عَسَلٍ خَلَقَه اللهُ في غايةِ الصَّفاءِ خاليًا مِن سائرِ الشَّوائِبِ، وللمُتَّقينَ في الجنَّةِ كذلك ثَمَراتٌ مِن جَميعِ الأنواعِ والأصنافِ.

وفي حديثِ أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه صُورةٌ مِنْ صُوَرِ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ، وهي أنَّ لِلمؤمنِ في الجنَّةِ خَيمةً مِن لؤلؤةٍ مُجوَّفَةٍ، فما بداخلِها مثقوبٌ مفرَّغٌ، عرْضُها سِتُّون ميلًا، في كلِّ ناحيةٍ منها أهلٌ وزوجاتٌ من الحُورِ العِينِ لِلمؤمنِ السَّاكنِ فيها، لا يَرونَ الأهلَ الآخَرينَ الذين في الناحيةِ الأُخرَى مِن الخَيمةِ؛ لعِظَمِ سَعتِها. وقوله: «يطوفُ عليهم» هو كِنايةٌ عن الجِماعِ.

وللمُؤمِنِ مِن نَعيمِ الجَنَّةِ أيضًا: «جَنَّتان»، أي: درَجتانِ أو قصْرانِ، كُلُّ ما فيهما من آنيةٍ وأثاثٍ ونحوِه، مِن الفِضَّةِ، وللمؤمِنِ في الجَنَّة أيضًا جنَّتانِ مِن ذهبٍ، آنيتُهما

وكلُّ ما فيها هو مِن ذهبٍ، وغيرُ ذلِك مِنَ الجنانِ، وما بَينَ القَومِ مِن أهلِ الجنَّةِ وبيْن أنْ يَنظُروا إلى ربِّهم إلَّا رِداءُ الكِبْرِ على وَجهِه تعالى حالَ كَونِهم في جَنَّةِ عدْنٍ، وهو أعظمُ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ؛ عندما يَكشِفُ الرَّحمنُ جلَّ وعلا لهم عن وَجْهِه الكريمِ، فيَتمتَّعونَ بِلذَّةِ النَّظرِ إلى وَجهِه الكريمِ. نَسأَلُ اللهَ أن يَرزُقَنا مِن فَضْلِه.

دَوامُ نَعيمِ الجَنَّةِ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ١ - ٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنهما، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يُنادي مُنادٍ: إنَّ لَكم أنْ تَصِحُّوا فلا تَسقَموا أبَدًا، وإنَّ لَكم أنْ تَحيَوْا فلا تَموتوا أبَدًا، وإنَّ لَكم أنْ تَشِبُّوا فلا تَهرَموا أبَدًا، وإنَّ لَكُم أنْ تَنعَموا فلا تَبْأَسوا أبَدًا، فذلك قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن يَدخُلُ الجَنةَ يَنعَمُ، لا يَبْأَسُ، لا تَبْلَى ثيابُه، ولا يَفنَى شَبابُه))[2].

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٦).

نَعيمُ الجَنَّةِ أفضَلُ النَّعيمِ وأدوَمُه، وقد ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في كِتابِه، ورَسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سُنَّتِه، أنَّ نَعيمَ أهلِ الجَنَّةِ دائمٌ لا ينقَطِعُ أبدًا، ولا هم بمُنقَطعينَ عنه بموتٍ أو خُروجٍ منه؛ وفي ذلك حثٌّ عظيمٌ على أنْ يَجتَهِدَ المُجتَهِدونَ في عِبادةِ رَبِّهم، ولا يَكِلَّ العامِلونَ عن طاعةِ مَولاهم، **وفي الآيةِ الأولى** يَعِدُ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ بدُخولِ الجنَّاتِ، فيَمكُثونَ فيها أبدًا بلا زوالٍ عنها ولا انتقالٍ منها، فهذا وَعْدٌ من اللهِ وعَدَهم به، ووعدُه حقٌّ وصِدقٌ.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ مِن مَقاصِدِ القُرآنِ المنزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه نذيرٌ للكافِرينَ العاصِينَ، كما أنَّه بشيرٌ للمؤمنينَ الطَّائعينَ، يُبَشِّرُهم بثوابٍ عظيمٍ دائمٍ لا ينقَطِعُ، وهو الجنَّةُ؛ فهم فيها باقون أبدًا، لا يموتون فيها ولا يُخرجونَ منها.

وفي حديثِ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنهما يُبَيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يُنادي مُنادٍ على أهلِ الجَنَّةِ، وهَذا النِّداءُ فيه مِنَ السُّرورِ والفَرَحِ لِأهلِ الجَنَّةِ ما فيه؛ فهو وَحدَه نَعيمٌ؛ لِما فيه مِنَ البِشارَةِ العَظيمةِ، **وأُولى تلك البِشاراتِ:** أنَّه يُنادي عليهم بأنَّهم يَبقَوْنَ في الجَنَّةِ أصِحَّاءَ الأجسامِ، لا يَمرَضونَ أبَدًا، **والبِشارةُ الثانيةُ:** أنَّهم مُخَلَّدونَ في الجَنَّةِ لا يَموتونَ، فيَبقَوْنَ في نَعيمِها أبَدَ الآبِدينَ، ثم يُبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في **البِشارةِ الثالِثةِ** أنَّ مَن يَدخُلُ الجَنةَ يَعيشُ في نِعمةٍ دائِمةٍ، لا يَرى فيها بُؤسًا أبَدًا، والبُؤسُ هو شِدَّةُ الحالِ، فأهلُ الجَنَّةِ مُنَعَّمونَ، لا يَعرِفونَ شِدَّةَ العَيشِ؛ فلا تَبْلى ثيابُهم، وإنَّما تَظَلُّ جَديدةً، لا يُؤثِّرُ فيها اللُّبسُ، كما يُؤثِّرُ في ثيابِ الدُّنيا، فهم في نَعيمٍ دائمٍ، لا يَخافونَ المَوتَ، فهي جَنَّةُ الخُلدِ، ولا يَخافونَ الضَّعفَ والهَرَمَ، ولا السَّقَمَ، ولا انقِطاعًا لِمَا هُم فيه مِنَ النَّعيمِ.

ثم قال: فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

[الأعراف: ٤٣]. فما أخبرَ به اللهُ تعالَى مِنَ النِّداءِ على أهلِ الجَنَّةِ نَظيرُه ما أخبرَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يُنادي مُنادٍ...

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه بيانُ أنَّ اللهَ تعالَى يَزيدُ لهم مِنَ النَّعيمِ أنَّهم يَبقَوْنَ على شَبابِهم؛ وفي هذا ما يُشوِّقُ النُّفوسَ إليها، ويُرَغِّبُ فيها، ويَشحَذُ الهِمَمَ لِلعَمَلِ لها.

سُوقُ الجَنَّةِ

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ في الجَنَّةِ لَسُوقًا يأتونَها كُلَّ جُمُعَةٍ، فتَهُبُّ ريحُ الشَّمالِ فتَحثو في وُجوهِهم وثِيابِهم، فيَزدادونَ حُسنًا وجَمالًا، فيَرجِعونَ إلى أهليهم وقدِ ازدادوا حُسنًا وجَمالًا، فيَقولُ لهم أهْلُوهم: واللهِ لقدِ ازدَدتُم بَعدَنا حُسنًا وجَمالًا، فيَقولونَ: وأنتم، واللهِ لقدِ ازدَدتم بَعدَنا حُسنًا وجَمالًا))[1]!

الجَنَّةُ خَيرُ ما اجتَهَدَ له المُجتَهِدونَ؛ ففيها مِنَ النَّعيمِ ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قلبِ بَشَرٍ، وقد كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَذكُرُ نَعيمَ أهلِ الجَنَّةِ لِيَحُثَّ الناسَ على طَلَبِها، والاجتِهادِ لها بالعَمَلِ الصالِحِ المُوصِلِ إليها.

ففي حديث أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه يَصِفُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُوقَ الجَنَّةِ، وهو مِن بَعضِ نَعيمِ أهلِها، يَجتَمِعونَ فيه كما يَجتَمِعونَ لِلسُّوقِ في الدُّنيا، يأتونَ هذا السُّوقَ كُلَّ يَومِ جُمُعةٍ، والأيامُ في الجَنَّةِ عِلْمُها عِندَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ. وفي هذا السُّوقِ تهبُّ عليهم رِيحٌ طيِّبةٌ، فتُثيرُ في وُجوهِهمُ المِسكَ والزَّعفرانَ وما في الجَنَّةِ مِن نَعيمٍ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٣).



«فيَزدادونَ حُسنًا وجَمالًا»، فكما أنَّ رِيحَ الشَّمالِ تأتي بِما يُسعِدُهم مِنَ المَطَرِ والماءِ، فكذلك هذه الرِّيحُ في الجَنَّةِ تأتيهم بما يُسعِدُهم مِنَ النَّعيمِ والرَّوائِحِ الطَّيِّبةِ، فيَرجِعونَ إلى أهليهم وقدِ ازدادوا حُسنًا وجَمالًا أكثَرَ مِمَّا كانوا عليه قَبلَ أنْ يَخرُجوا مِن عِندِ أهليهم، والجَمالُ والنَّعيمُ مُتجَدِّدٌ لِجَميعِ أهلِ الجَنَّةِ.

كونُ هذه الأُمَّةِ نصفَ أهلِ الجنَّةِ

عن عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: كنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قُبَّةٍ نَحْوًا مِن أربَعينَ رَجُلًا، فقالَ: ((أتَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا رُبُعَ أهلِ الجنَّةِ؟ قالَ: قُلنا: نَعَم، فقالَ: أتَرْضَوْنَ أنْ تَكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنَّةِ؟ فقُلنا: نَعَم، فقالَ: والذي نفسي بيَدِه إنِّي لأرجو أنْ تَكونوا نِصْفَ أهلِ الجنَّةِ، وذاكَ أنَّ الجنَّةَ لا يَدْخُلُها إلَّا نَفْسٌ مُسلِمةٌ، وما أنتم في أهلِ الشِّركِ إلَّا كالشَّعَرَةِ البيضاءِ في جِلْدِ الثَّوْرِ الأسوَدِ، أو كالشَّعَرَةِ السَّوداءِ في جِلْدِ الثَّوْرِ الأحْمَرِ))[1].



لقَد فضَّل اللهُ سُبحانَه وتعالى أُمَّةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأعلى مَكانتَها، وجعَلَها خَيرَ الأُمَمِ؛ وأنعَمَ اللهُ تعالى عليها بأنْ جعَلَها أكثرَ أهلِ الجنَّةِ، كما في حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، الذي يروي فيه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان في الخَيْمةِ التي ضُرِبتْ له بمِنًى، وكانَ عندَه ما يُقاربُ أربَعينَ رَجُلًا مِنَ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، فقالَ لهم؛ ليُبشِّرَهم: «أتَرضَوْنَ أنْ تكونوا رُبُعَ أهلِ الجنَّةِ؟»، «أتَرضَوْنَ أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنَّةِ؟»، فلما أجابوه بنعَم في كلِّ مرَّةٍ، أقسَمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيَّنَ لهم أنَّه يَرْجو مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أن يكونوا نِصفَ أهلِ الجنَّةِ، وهذه النِّسبةُ تكونُ مِن أُمَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّن أجابوه وآمَنوا به، مُقابلَ المؤمنين من

(١) أخرجه البُخاريُّ (٦٥٢٨)، ومسلمٌ (٢٢١) واللَّفظُ له.

الأُمَمِ السَّابقةِ الذين يَدخُلون الجنَّةَ، وقد تدرَّجَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع أصحابِه رَضِيَ اللهُ عنهم؛ ليسْتَثِيرَ فَرَحَهم، ثُمَّ بيَّن صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الجنَّةَ لا يَدخُلُها إلَّا نَفْسٌ مُسلِمةٌ، وهي محرَّمةٌ على الكُفَّارِ، ثُمَّ بيَّن لهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ سَببَ كثرتِهم أنَّ عددَ المسلِمين في الدُّنيا بالنِّسبةِ لعددِ المُشرِكين كنِسبةِ شَعرَةٍ بَيْضاءَ في شَعرِ جِلدِ الثَّورِ الأَسوَدِ، أو كَشَعرَةٍ سوداءَ في جِلدِ الثَّورِ الأحمرِ، وهذا قليلٌ جِدًّا.

صِفةُ النَّارِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وعن عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يُؤتَى بجَهَنَّمَ يَومَئِذٍ لها سَبعونَ ألْفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((نارُكم جزءٌ من سبعينَ جُزءًا من نارِ جَهنَّمَ. قيل: يا رسولَ اللهِ، إن كانت لكافيةً! قال: فُضِّلَت عليهنَّ بِتِسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا كُلُّهن مِثلُ حَرِّها!))[2].

وعن سَمُرةَ بنِ جُندُبٍ رَضيَ اللهُ عنه أنَّه سَمِعَ نَبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: ((إنَّ منهم مَن تأخُذُه النَّارُ إلى كَعبَيْه، ومنهم مَن تأخُذُه إلى حُجزَتِه، ومنهم مَن تأخُذُه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٣).

إلى عُنُقِهِ))[1].



جَهنَّمُ هي الدارُ التي أعَدَّها اللهُ لِمَن خالَفَ أمرَه سُبحانَه وتَعالى، وتَجنَّبَ هِدايتَه، وجَعَلَ طاعَتَه خَلْفَ ظَهرِه. وقد كَثُرَ ذِكرُ النَّارِ في كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لِيَحذَرَ منها العِبادُ؛ **ففي الآيةِ الأولى وحَديثِ عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه** بَيانٌ لِصِفةِ النارِ، حيث يُؤتَى بِجهنَّمَ يَومَئِذٍ مِنَ المَكانِ الذي خَلَقَها اللهُ تَعالى فيه، و«يَومَئِذٍ» يَعني به يَومَ القِيامةِ، لها سَبعونَ ألْفَ زِمامٍ، والزِّمامُ هو ما يُشدُّ به مِن حَبْلٍ ونَحوِه، مع كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ، يَسحَبونَها ويُسَيطِرونَ عليها، فَلا يَبقى لِلجَنَّةِ طَريقٌ إلَّا الصِّراطَ على ظَهرِ جَهنَّمَ، وهذا إشارةٌ لِعِظَمِ خَلْقِ النَّارِ، وهَولِ مَجيئِها. أعاذَنا اللهُ تَعالى منها.

ومِن صِفاتِ النَّارِ سَعتُها وعَظَمتُها، **كما تدُلُّ عليه الآيةُ الثانيةُ**، حيثُ يَسأَلُ اللهُ تَعالى جهنَّمَ: هل امتَلَأتِ كما وَعَدْتُ بذلك؟ فتُجِيبُه جهنَّمُ بطلَبِ المزيدِ مِن أهلِ الضَّلالِ؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّها لم تَمتلِئْ بعْدُ!

وفي الآيةِ الثالثة دَلالةٌ على أنَّ النَّارَ دَركاتٌ، كما أنَّ الجنَّةَ دَرَجاتٌ؛ فهي تُبيِّنُ أنَّ المُنافِقين في قَعرِ جهنَّمَ وأسفَلِ طبقاتِها يومَ القِيامةِ؛ جَزاءً على كُفرِهم الغَليظِ، فعذابُ النَّارِ ليس على دَرَجةٍ واحدةٍ، بل هو متفاوِتٌ بحسَبِ ما يستَحِقُّه كلُّ واحدٍ مِن أهلِها.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنَّ نارَ الدُّنيا التي يَستعمِلُها الإنسانُ في حياتِه هي جزءٌ من سبعينَ جزءًا من نارِ الآخرةِ المعَدَّةِ للعذابِ، فلمَّا سمِع ذلك بعضُ الصَّحابةِ أخبروا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ نارَ

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٥).

الدُّنيا كانتْ كافيةً في الإحراقِ، مُجزِئةً في الإِيلامِ؛ فهي تُحرِقُ الجَمادَ، فضلًا عن الأَجسامِ البَشَريَّةِ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «فُضِّلَتْ عليهنَّ بتسعةٍ وستِّينَ جزءًا»، أي: إنَّ نارَ الآخِرةِ تَزيدُ قوَّةُ حرارتِها عن حرارةِ نار الدُّنيا بتسعةٍ وستِّينَ جزءًا، «كلُّهن مِثلُ حَرِّها»، أي: كلُّ جزءٍ منها يُعادِلُ حرارةَ نارِ الدُّنيا كلِّها، بحيث إنَّه لو جُمِعَ حَطَبُ الدُّنيا وأُوقِدَ كلُّه حتَّى صار نارًا، لكان الجزءُ الواحِدُ من أجزاءِ نارِ جهنَّمَ الذي هو سبعونَ جزءًا أشَدَّ منه!

وفي حَديثِ سَمُرةَ رَضيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعضَ عَذابِ أهلِ جَهنَّمَ، وتَفاوُتَهم في هذا العَذابِ؛ فإنَّ مِن أهلِ النَّارِ مَن «تأخذُه النَّارُ إلى كَعبَيْهِ»، وهو العَظمُ النَّاتِئُ مِنَ الجانِبَيْنِ عِندَ مَفصِلِ السَّاقِ مِنَ القَدَمِ، وليس هو نِهايةَ القَدَمِ المُسمَّى العَقِبَ، «ومنهم مَن تأخُذُه إلى حُجزَتِه»، وهي مَعقِدُ إزارِه ووَسَطِه، «ومنهم مَن تأخُذُه إلى عنقِه». وفي هذا بَيانُ تَفاوُتِ العُقوباتِ في الضَّعفِ والشِّدَّةِ، لا أنَّ بَعضًا مِنَ الشَّخصِ يُعذَّبُ دونَ بَعضٍ.

دوامُ عَذابِ الكافِرينَ في النَّارِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١، ١٦٢].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُؤتى بالموتِ كهَيئةِ كَبشٍ أملَحَ، فيُنادِي مُنادٍ: يا أهْلَ الجنَّةِ، فيَشْرَئبُّونَ ويَنظُرونَ، فيقولُ: هل تَعرِفونَ هذا؟ فيَقولونَ: نعَمْ، هذا المَوتُ، وكُلُّهم قدْ رآهُ، ثُمَّ يُنادِي: يا أهْلَ النَّارِ، فيَشْرَئبُّونَ ويَنظُرونَ، فيقولُ: وهل تَعرِفونَ هذا؟ فيَقولونَ: نعَمْ، هذا المَوتُ، وكُلُّهم قدْ رَآهُ، فيُذْبَحُ، ثُمَّ يقولُ: يا أهْلَ الجنَّةِ خُلُودٌ فلا مَوتَ، ويا أهْلَ النَّارِ خُلُودٌ



فلا مَوتَ، ثمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾، وهؤلاءِ في غَفلةٍ أهْلُ الدُّنْيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾))[1].



جَعَل اللهُ نعيمَ الجَنَّةِ دائِمًا لا ينقَطِعُ، ووعَدَ عِبادَه المؤمنين بالخُلودِ فيها أبدًا، وجَعَل اللهُ عذابَ النَّارِ كذلك، وجَعَل أهلَها من غير الموحِّدين خالدينَ فيها أبدًا.

ففي الآيةِ المذكورةِ حكَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ على الكُفَّارِ الذين استَمرُّوا على كُفْرِهم حتَّى مَماتِهم ولم يَتوبوا بالإبعادِ مِن رَحمتِه، كما أنَّ الملائكةَ وجَميعَ النَّاسِ يَسألونَ اللهَ تَعالى طَرْدَهم مِن رَحمتِه، وحكَمَ عليهم أيضًا بالخُلودِ الأبديِّ في النارِ، لا يَنقُصُ فيها عَذابُهم زمَنًا ولا مِقدارًا، ولا يُمْهَلون فيُؤخَّرُ عنهم.

وفي حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه يخبِرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه في الدَّارِ الآخرةِ بعد أنْ يدخُلَ أهلُ الجَنَّةِ الجَنةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، يُحضَرُ الموتُ في صورةِ كَبشٍ أملَحَ؛ فيه بياضٌ وسوادٌ، وكأنَّه يَجمَعُ بين سوادِ أهلِ النَّار، وبياضِ أهلِ الجَنَّة. «فيُنادي منادٍ: يا أَهلَ الجنَّةِ» فيَمُدُّون أعناقَهم ويَرفَعون رُؤوسَهم ويَنظُرونَ، فيَعرِفونَ أنَّه الموتُ جيءَ به على الهيئةِ التي يشاهِدونَها، ثم يُنادِي على أهلِ النَّارِ مِثلَما نادى أهلَ الجَنَّةِ. وجميعُهم قد عرف أنَّه الموتُ بما ألقاه اللهُ في قُلوبِهم وألهمَهم، وبعد أن يُقِرَّ الجميعُ برؤيتِه، فيُذبَحُ الموتُ. ويقولُ: يا أهلَ الجَنَّةِ، خلودٌ أبَدَ الآبدينَ، فلا مَوتَ ولا فَناءَ، ويقولُ لأهلِ النَّارِ: خُلودٌ أبَدَ الآبِدينَ، فيزدادُ أهلُ الجنةِ فَرَحًا إلى فرحِهم، ويزدادُ أهلُ النَّارِ حَزَنًا إلى حَزَنِهم.

ثمَّ قرَأ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَولَ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أنذِرْ -يا محمَّدُ- جَميعَ النَّاسِ ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: فُصِلَ بين أهلِ الجنَّةِ والنَّارِ، ودخَل كلٌّ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٩).





إلى ما صار إليه مُخلَّدًا فيه،﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ في الدُّنيا؛ إذِ الآخِرةُ ليسَتْ دارَ غَفْلةٍ، ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] وهم في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ باللهِ، ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ؛ فنفَى عنهم الإيمانَ على سبيلِ الدَّوامِ مع الاستمرارِ في الأزمنةِ الماضيةِ والآتِيةِ على سبيلِ التَّأكيدِ والمبالَغةِ.



العَقيدةُ في المَلائِكةِ والجِنِّ

المَلائِكةُ الكِرامُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

وعن عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها، زَوجِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قالتْ: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((خُلِقَتِ المَلائِكةُ مِن نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارِجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم))[1].

وعن أبي سَلمةَ بنِ عبدِالرَّحمنِ بنِ عَوفٍ، قال: سألتُ عائِشةَ أمَّ المؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنها: بأيِّ شيءٍ كان نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَفتتِحُ صَلاتَه إذا قامَ مِن اللَّيلِ؟ قالتْ: ((كان إذا قامَ مِن اللَّيلِ يَفتتِحُ صَلاتَه: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبرائيلَ ومِيكائيلَ وإِسرافيلَ، فاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيبِ والشَّهادةِ، أنتَ تحكُمُ بينَ عِبادِك فيما كانوا فيه يَختلِفونَ، اهْدِني لِمَا اختُلِفَ فيه مِن الحقِّ بإذنِكَ؛ إنَّك تَهْدي مَن تشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ))[2].



(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٠).



المَلائِكةُ هُمْ عالَمٌ غَيرُ عالَمِ الإنسِ وعالَمِ الجِنِّ، وهو عالَمٌ كَريمٌ، كُلُّه طُهرٌ وصَفاءٌ ونَقاءٌ، وهم كِرامٌ أتقياءُ، يَعبُدونَ اللهَ حَقَّ العِبادةِ، منهم سُفراءُ اللهِ إلى رُسُلِه، كجِبريلَ عليه السَّلامُ، ومنهم حَمَلةُ العَرشِ، ومنهمُ المَلائِكةُ المُوَكَّلونَ بحِفظِ أعمالِ بَني آدَمَ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ومنهمُ المُوَكَّلُ بقَبضِ الأرواحِ، والمُوَكَّلُ بالمَطَرِ، والمُوَكَّلُ بالنَّفخِ في الصُّورِ، ومنهم مَن يُرسِلُهمُ اللهُ جُنودًا يُقاتِلونَ في سَبيلِه مع أهلِ الحَقِّ؛ إلى غير ذلك، فكُلُّ هذا مما استَفاضَتْ به النُّصوصُ القُرآنيَّةُ والنُّصوصُ النَّبويَّةُ في خَلْقِ المَلائِكةِ وكُنهِهِم؛ فسُبحانَ اللهِ في عِظَمِ خَلقِه!

وقدْ كانتِ المَلائِكةُ تأتي النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في صُورةِ إنسانٍ أمامَ أصحابِه رَضيَ اللهُ عنهم، ولهم عِندَ رَبِّهم مَقاماتٌ مُتَفاوِتةٌ مَعلومةٌ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، لا يَأكُلونَ ولا يَشرَبونَ، وهم مَعصومونَ مِنَ الخَطأِ والزَّلَلِ، مَطبوعونَ على طاعةِ اللهِ تَعالَى، بلا كَلَلٍ ولا مَلَلٍ، ولا يُدرِكُهم ما يُدرِكُ البَشَرَ مِن ذلك، كما قال اللهُ تعالَى في وَصْفِهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وهم خَلقٌ كَثيرٌ، لا يَعلَمُ عَدَدَهم إلَّا الذي خَلَقَهم.

وفي الآياتِ الكَريماتِ يُبيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ صِفاتِهم؛ فمِنها ما ذَكَره اللهُ تعالَى في الآيةِ الأُولى، وهي أنَّه جعَلَ الملائِكةَ رُسُلًا أصحابَ أجنِحةٍ، فيَنزِلونَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، ويَصعَدونَ مِن الأرضِ إلى السَّماءِ؛ فمِنهم مَن له جَناحانِ، ومنهم مَن له ثلاثةٌ، ومنهم مَن له أربعةٌ. وقد فضَّل بعضَ الملائِكةِ بزيادةِ الأجنِحةِ على أربعةٍ؛ ففي حَديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّه قال في قَولِه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]: ((رأى جِبريلَ عليه السَّلامُ له سِتُّمِئةِ جَناحٍ!))[1]، وفي هذا بَيانٌ لِعِظَمِ خَلْقِ جِبريلَ على وَجهِ الخُصوصِ، وفي رِوايةٍ: ((رأيتُه مُنهَبِطًا مِنَ السَّماءِ سادًّا عِظَمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) واللفظ له.

خَلقِه ما بَينَ السَّماءِ إلى الأرضِ!))[1].

وفي هذه الآيةِ إثباتُ أنَّ الملائكةَ أجسامٌ، وليسوا أرواحًا مُجرَّدةً مِن الجِسميَّةِ.

وفي قَولِه تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ إشارةٌ إلى سُرعةِ تَنَقُّلِ الملائكةِ لقوةِ أجنحتِهم، فلمَّا كانتِ الملائكةُ مُدبِّراتٍ -بإذنِ اللهِ- لِمَا جعَلهم مُوكَّلينَ فيه؛ ذكَر قوتَّهم على ذلك، وسُرعةَ سَيرِهم.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُبيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ علَى النارِ ملائكةً وكَّلَهم اللهُ بالعذابِ، وهم غِلاظٌ على أعداءِ اللهِ، شِدادٌ أقوياءُ، لا يُخالِفونَ أمْرَ اللهِ الذي يَأمُرهم به أبدًا؛ فيفعلون كُلَّ ما يُؤمَرون بفِعلِه.

والملائكةُ مَخلوقاتٌ مُنظَّمةٌ، وهذا التنظيمُ يَشمَلُ عِبادتَهم لرَبِّهم وغيرَها، ومِن ذلك أنَّ الملائكةَ يَصطفُّون يومَ القِيامةِ للهِ تَعالَى خاضِعينَ له، **كما تذكُرُ الآيةُ الثالثةُ**.

وفي الحَديثِ الأوَّلِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أصْلَ مادَّةِ خَلْقِ الملائكةِ، وأنَّهم قدْ خَلَقَهم اللهُ مِن نُورٍ؛ فهم أجسامٌ نُورانيَّةٌ، بخِلافِ الجِنِّ الذين خُلِقوا مِن النارِ، وآدَمَ عليه السَّلامُ الذي خُلِقَ مِن التُّرابِ.

وفي الحَديثِ الثاني تُجيبُ عائِشةُ رَضيَ اللهُ عنها مَن سألَها عن بَعضِ تَفاصيلِ عِبادةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعمَّا لا يَرَوْنه مِمَّا كان يَتعبَّدُ به في بيتِه؛ لِيَهْتَدُوا بِهَديِه، ويَسْتَنُّوا بسُنَّتِه، فأجابتْه أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا قامَ مِن اللَّيلِ افتتَح صَلاتَه بهذا الدُّعاءِ العَظيمِ الذي توسَّلَ فيه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ برُبوبيَّةِ اللهِ تعالَى لخَلْقِه، وعِلمِه الغَيبَ والشهادةَ، وأنَّه هو الذي يَحكُمُ ويَفصِلُ بيْنَ عِبادِه فيما كانوا فيه يَختلِفون فِيه مِن أمْرِ الدِّينِ في الدُّنيا؛ طالبًا منه سُبحانَه الهدايةَ والتوفيقَ والثَّباتَ، وزِيادةَ الهِدايةِ إلى الطَّريقِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذي دَعَا إليه الأنبياءُ والمرسَلونَ.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٤)، ومسلمٌ (١٧٧) واللفظ له.

وقوله: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبرَائِيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ...»، يَعني: أَدعُوك يا ربِّي ورَبَّ كُلِّ عَظيمِ الشَّأنِ مِثلِ هؤلاء الملائكةِ العُظَماءِ، وأنتَ أعظمُ مِنهم ومِن كلِّ خَلْقِكَ؛ فأنتَ جَدِيرٌ باستِجابةِ الدُّعاءِ، وإنَّما خصَّصَ هؤلاءِ الملائكةَ بالذِّكرِ؛ لِعَظِيمِ شأنِهم؛ فجِبريلُ هو أَمِينُ الوَحْيِ والرُّوحُ الأمينُ المَذكورُ في قولِه سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]. ومِيكائيلُ هو أَمِينُ القَطْرِ والمَطَرِ والنَّباتِ والأرزاقِ، وهو ذُو مَكانةٍ عَليَّةٍ ومَنزلةٍ رَفيعةٍ، وشَرفٍ عِندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وله أعوانٌ يَفعلونَ ما يَأمُرُهم به بأمْرِ ربِّه سُبحانَه. وإسرافيلُ هو الموكَّلُ بالنَّفخِ في الصُّورِ بأمْرِ ربِّه نفْخةَ الفَزعِ والصَّعقِ، ونفْخةَ القِيامِ لربِّ العالَمينَ.

وإذا عَلِمَ الإنسانُ قدْرَ المَلائِكةِ؛ هذا الخَلقِ العَظيمِ الكريمِ، وعَرَفَ صِفاتِهم، عَلِمَ عَظَمةَ خالقِهم تَبارَك وتعالَى، وعَظيمَ قُوَّتِه وسُلطانِه؛ فإنَّ عَظَمةَ المخلوقِ مِن عَظمةِ الخالِقِ، ثُمَّ شَكَرَه سُبحانَه على عِنايتِه بعِبادِه، حيثُ وكَّلَ بهم مِن هؤلاءِ الملائكةِ مَن يَحفظُهم، ويَدْعو ويَستغفِرُ لهم ويَكتُب أعمالَهم، وأيضًا مَن عرَف الملائكةَ وآمَن بهم حقًّا أحبَّهم على ما يَقومونَ به مِن عِبادةِ اللهِ تعالَى وطاعتِه على الوَجهِ الأكْملِ، وعلى استِغفارِهم للمُؤمنين، ونُصرتِهم لهم، وغَيرِ ذلك.

الجِنُّ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ [الرحمن: ١٥].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ * وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وعن عائِشةَ أمِّ المؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

وسلَّمَ: ((خُلِقَتِ المَلائِكةُ مِن نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارِجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ ممَّا وُصِفَ لَكُمْ))[1].

وعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا وقدْ وُكِّلَ به قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ. قالوا: وإيَّاكَ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: وإيَّايَ، إلَّا أنَّ اللَّهَ أعانَنِي عليه فأسْلَمَ، فلا يأْمُرُني إلَّا بخَيْرٍ)). وفي روايةٍ: ((وقدْ وُكِّلَ به قَرِينُه مِنَ الجِنِّ وقَرِينُه مِنَ المَلائِكَةِ))[2].

وعن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ كان يقولُ: ((اللَّهُمَّ لكَ أسْلَمتُ، وبِك آمَنتُ، وعليكَ تَوكَّلْتُ، وإليك أنَبْتُ، وبِكَ خاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بعِزَّتِك لا إلَهَ إلَّا أنتَ أنْ تُضِلَّني، أنت الحَيُّ الذي لا يَموتُ، والجِنُّ والإنْسُ يَموتونَ))[3].



الجِنُّ خَلْقٌ من مخلوقاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ التي لا نراها بأعيُنِنا، إلَّا أنَّنا نُؤمِنُ ونعتَقِدُ بوجودِها؛ تصديقًا لمَا أخبَرَنا به اللهُ عزَّ وجلَّ، ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ **ففي الآيةِ الأُولى** بَيانُ أنَّ الجِنَّ مَخلوقونَ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وهو لهبُ النارِ الصافي، أو الذي قد خالَطه الدخانُ أو هو ما اختَلَط بعضُه ببعضٍ، من بيْن أحمرَ، وأصفرَ، وأخْضرَ، وهو اللَّهبُ الذي يَعلو النارَ إذا أُوقِدتْ.

وفي الآيةِ الثانيةِ بيانُ أنَّ الغايةَ مِن خلْقِ الجِنِّ والإنسِ هي عِبادةُ اللهِ تَعالى وحْدَه لا شَريكَ له. وفي ذلك تَصريحٌ بثُبوتِ وُجودِ الجِنِّ.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٤).

(٣) أخرجه البخاري (١١٢٠) بنحوه مطولًا، ومسلم (٢٧١٧) واللفظ له.

وفي الآيةِ الثالثةِ بَيانُ أنَّ كلَّ مَنْ على الأرضِ مِن المخلوقاتِ هالِكٌ لا يَبقى، وإنَّما الذي يَبقى هو وَجْهُ اللهِ تَعالى الموصوفُ بالعَظَمةِ والإكرامِ، واستِحقاقِ التَّعظيمِ والمحبَّةِ، وإثباتِ صِفاتِ الكَمالِ والجَمالِ، والجِنُّ مَخلوقٌ من مخلوقاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، يجري عليهم الموتُ والفَناءُ كباقي المخلوقاتِ، وهذه حقيقةٌ مُقرَّرةٌ بنصِّ القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ المُطهَّرةِ.

وفي حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَصلَ خَلْقِ الملائكَةِ والجِنِّ والإنسِ، وَما فيهِ مِن آياتٍ بَيِّناتٍ عَلى قُدرةِ اللهِ سُبحانَه وتَعالى، وقد خلق اللهُ عزَّ وجلَّ الجِنَّ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وهم مُكَلَّفونَ مِثلَ الإنسِ، ومنهم المؤمِنُ، ومنهم الكافِرُ، ومنهم الطَّائِعُ، ومنهم العاصي.

وفي حديثِ عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه يخبِرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوجودِ الجِنِّ مِن حَولِنا، وأنَّ منهم مَن وُكِّلَ بالإنسانِ فلا يُفارِقُه، ويَكيدُ له ليوقِعَه في الشُّرورِ والآثامِ، فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ما مِنَّا أحدٌ -مَهما بَلغَ منَ العِبادةِ والعِلمِ ما بَلغَ- إلَّا وله شَيطانٌ سُلِّط عليه ليُغويَه ويُوسوِسَ له؛ لِيَصرِفَه عن الطَّاعةِ، ويُوقِعَه في المعصيةِ. «قالوا: وإيَّاكَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: وإيَّايَ»؛ لِي قَرينٌ مِنَ الجِنِّ كَما لكُلِّ إنسانٍ قَرينُه مِنَ الجِنِّ، «إلَّا أنَّ اللهَ أَعانَني عَليه فأَسلَمَ»، يَعني: أَسْلَمَ الشَّيطانُ بأن صار مُسلِمًا، أو «فأَسْلَمُ» -بصِيغة المضارِعِ- أي: فأَسلَمُ أنا مِنه ومِن مَكْرِه ووَسوسَتِه، فلا يأمُرُني إلَّا بخَيرٍ.

وفي حديثِ عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ يخبِرُ رَضِيَ اللهُ عنه بدُعاءٍ كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يدْعو اللهَ به، غيرَ أنَّ الشَّاهِدَ في نهايةِ الحَديثِ قَولُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أَنْتَ الحَيُّ الذي لا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»، وهذا دليلٌ صَريحٌ على أنَّهم يموتونَ كسائِرِ المخلوقاتِ. ولعلَّ سِرَّ إيرادِ هذا الثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ



مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في نهايةِ هذا الدُّعاءِ: هو التأكيدُ على أنَّ اللهَ هو وَحدَه الحيُّ الذي لا يموتُ، ومن كان متَّصفًا بمثلِ هذا الكَمالِ من الدَّيمومةِ والحياةِ الكاملةِ: حقيقٌ ألَّا يُدعَى غيرُه، وألَّا يُرجى سِواه.



التوسلُ المَشروعُ

التوسُّلُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وعن جابرِ بنِ عبدِاللهِ السَّلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: كان رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعلِّمُ أصْحابَه الاستِخارةَ في الأُمورِ كُلِّها، كما يُعَلِّمُهم السُّورةَ مِنَ القُرآنِ؛ يقولُ: ((إذا هَمَّ أحدُكُم بالأمْرِ فلْيَركَعْ رَكْعَتينِ مِن غيرِ الفَريضةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي أستَخِيرُك بعِلْمِك، وأستَقْدِرُك بقُدْرتِك، وأسأَلُكَ مِن فَضْلِك؛ فإنَّك تَقدِرُ ولا أَقْدِرُ، وتَعْلَمُ ولا أعْلَمُ، وأنت علَّامُ الغُيوبِ ...)) الحديث[1].



في هذه الآيةِ الكَريمةِ يُبيِّنُ اللهُ سُبحانه وتَعالى أنَّ له أحسَنَ الأسماءِ الدالَّةِ على صِفاتِ كَمالِه، ويَأمُرُ عِبادَه بأنْ يَدعوه وَحْدَه بتلك الأسماءِ العظيمةِ ذاتِ الصِّفاتِ الجليلةِ.

وفي حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه يُعَلِّمُنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صلاةَ الاستخارةِ، وسيأتي بيانُها وشَرحُ ما يتعلَّقُ بها في بابِها، غيرَ أنَّ الشَّاهِدَ في الحديثِ هنا هو ما أمَرَنا به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أثناءِ دُعاءِ الاستِخارةِ، وهو أن يقولَ العبدُ: «اللَّهمَّ إنِّي أستَخيرُك بعِلمِك، وأَستَقدِرُك بقُدرتِك، وأَسألُك مِن فَضلِك؛ فإنَّك تَقدِرُ ولا أَقدِرُ، وتَعْلَمُ ولا أعْلَمُ، وأنتَ علَّامُ الغُيوبِ»؛ فالمسلِمُ يَرفَعُ يَدَيه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سائلًا رَبَّه طالبًا منه سبحانَه أن يختارَ له الخيرَ، ويتوسَّلُ إليه بأسمائِه الحُسنى، فالباءِ في قولِه: «بعِلمِك»، و«بقُدرتِكَ» للاستعانةِ، والمعنى: أستخيرك

(١) أخرجه البخاري (٧٣٩٠).



مُستَعينًا ومتوسِّلًا إليك بعِلمِك وقُدرتِك. وقيل: الباءُ للتَّعليلِ، فيَكونُ المعنى: أستخيرُك أنت وَحْدَك؛ بسبَبِ عِلمِك، وبسبَبِ قُدرتِك؛ فأنت الأعلَمُ والأقدَرُ.

وعلى هذا وذاك فإنَّ الواجِبَ على المسلِمِ أن يتوسَّلَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بأسمائِه وصِفاتِه، وأن يَطلُبَ آثارَهما مِن اللهِ عزَّ وجلَّ في قَضاءِ الحوائِجِ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فهذا مِن التوسُّلِ المشروعِ.

التوسُّلُ بالعَمَلِ الصَّالحِ

قالَ اللهُ تعالى حكايةً عن دُعاءِ أُولي الألْبابِ: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وعن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خَرَجَ ثَلاثةُ نَفَرٍ يَمشون فأصابَهم المَطَرُ، فَدَخَلوا في غارٍ في جَبَلٍ، فانحَطَّتْ عليهم صَخرةٌ، قالَ: فقالَ بَعضُهم لبَعضٍ: ادْعُوا اللهَ بأَفضَلِ عَمَلٍ عَمِلتُمُوهُ، فقالَ أحَدُهم: اللَّهمَّ إنِّي كان لي أبَوانِ شيخانِ كَبيرانِ، فكنتُ أخرُجُ فأرْعى، ثمَّ أجيءُ فأحْلُبُ فأجيءُ بالحِلابِ، فآتي به أبَوَيَّ فيَشرَبانِ، ثمَّ أسْقي الصِّبيةَ وأَهلي وامرأَتي، فاحتَبَستُ لَيلةً، فجِئتُ فإذا هُما نائمانِ، قالَ: فكَرِهْتُ أنْ أوقِظَهما، والصِّبيةُ يَتَضاغَون عندَ رِجْلَيَّ، فلم يَزَلْ ذلك دَأْبي ودَأْبهما حتى طَلَعَ الفَجْرُ! اللَّهمَّ إنْ كنتَ تَعْلَمُ أنِّي فَعَلْتُ ذلك ابتِغاءَ وجْهِك، فافْرُجْ عَنَّا فُرْجةً نَرى منها السَّماءَ. قالَ: ففُرِجَ عنهم. وقالَ الآخَرُ: اللَّهمَّ إنْ كنتَ تَعْلَمُ أنِّي كنتُ أُحِبُّ امرَأةً مِن بَناتِ عَمِّي كأَشَدِّ ما يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّساءَ، فقالَتْ: لا تَنالُ ذلك منها حتى تُعطِيَها مِئةَ دِينارٍ، فسَعَيْتُ فيها حتى جَمَعْتُها، فلمَّا قَعَدْتُ بيْنَ رِجْلَيْها قالَتْ: اتَّقِ اللهَ ولا تَفُضَّ الخاتَمَ إلَّا بحَقِّهِ، كنايةً عن الجِّماع فقُمْتُ وتَرَكْتُها، فإنْ كنتَ تَعْلَمُ أنِّي فَعَلْتُ ذلك ابتِغاءَ وجْهِك، فافْرُجْ عَنَّا فُرْجةً. قالَ: ففَرَجَ عنهم

الثُّلُثَينِ. وقالَ الآخَرُ: اللَّهمَّ إنْ كنتَ تَعْلَمُ أنِّي استَأْجَرْتُ أجيرًا بفَرَقٍ مِن ذُرةٍ فأعْطَيْتُه، وأَبى ذاكَ أنْ يَأْخُذَ، فعَمَدْتُ إلى ذلك الفَرَقِ فزَرَعْتُه، حتى اشتَرَيْتُ منه بَقَرًا وراعِيَها، ثمَّ جاءَ فقالَ: يا عبدَاللهِ أعْطِني حَقِّي، فقُلتُ: انْطَلِقْ إلى تلك البَقَرِ وراعيها فإنَّها لك، فقالَ: أتَستَهزِئُ بي؟ قالَ: فقُلتُ: ما أستَهزِئُ بك، ولكنَّها لك، اللَّهمَّ إنْ كنتَ تَعْلَمُ أنِّي فَعَلْتُ ذلك ابتِغاءَ وجْهِك، فافْرُجْ عَنَّا، فكُشِفَ عنهم))[1].

الدُّعاءُ والتوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بصالِحِ الأعمالِ سَبَبٌ لتَفْريجِ الكُروبِ وحُصولِ المطلوبِ، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** يَحكي اللهُ تَعالى دُعاءَ أُولي الألبابِ لربِّهم، ومِن ضِمْنِ ذلك قولُهم: يا ربَّنا، إنَّنا قد سَمِعْنا داعيًا يَدْعو الناسَ إلى الإيمانِ -وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-، فبادَرْنا إلى الاستجابةِ له، فأَقرَرْنا بالحقِّ وقَبِلْناه مُنقادين ومُذعِنين له؛ فمِن أجْلِ إيمانِنا بك واتِّباعِنا لنَبيِّك اغْفِرْ ذُنوبَنا، وكَفِّرْ خَطايانا، واجعَلْنا في عِدادِ الصَّالحين إذا قَبضْتَ أرواحَنا. ففي هذه الآيةِ مشروعيةُ التوسُّلِ في الدُّعاءِ بالأعمالِ الصالحةِ.

وفي حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما يَحكي النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه انطَلَقَ ثلاثةُ نَفَرٍ مِن الأُمَمِ السَّابقةِ حتَّى لَجَؤوا إلى غارٍ؛ ليَبيتوا فيه، وفي بعضِ الرِّواياتِ أنَّهم دخَلوه لمَا كان مِن أَمْطارٍ، والغارُ: هو الكَهْفُ يَكونُ في الجَبَلِ، فنزلَتْ من أعلى الجَبَلِ صخرةٌ فأغلَقَتْ عليهم بابَ الغارِ، فَحُبِسَ الثَّلاثَةُ داخِلَ الجَبَلِ، فقال بعضُهم لبعضٍ: إنَّه لا يُنَجِّيكم مِن هذه الصَّخرةِ إلَّا أنْ تَتوسَّلوا إلى اللهِ وتَدْعُوه بما كان من عَمَلِكم الصَّالِحِ؛ حتى يَستجيبَ اللهُ لكم. فقال الأوَّلُ: اللَّهمَّ كان لي أبَوانِ شَيخانِ كبيرانِ، وكنتُ بارًّا بهما؛ فكنتُ لا أُقَدِّمُ عليهما أحَدًا في الشُّرْبِ حينَ أحلُبُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٥) واللفظ له، ومسلم (٢٧٤٣).



ماشيتي، لا زَوجةً ولا أبناءً؛ فإذا شَرِبَا سَقَيتُ أولادي وأهلي وزَوجتي، وفي هذا كِنايةٌ عن شِدَّةِ بِرِّهِ بهما، وفي ليلةٍ مِن اللَّيالي تأخَّرَ بسَبَبِ أمرٍ عَرَضَ له، ثمَّ حَلَب لأبَوَيه شَرابَهما الذي يَشرَبانه قَبلَ نومِهما، فلمَّا رَجَع إلى البَيتِ وَجَد أبَوَيه قد ناما، فكَرِهَ أن يوقِظَهما، وترَكهما نائمَينِ وظَلَّ الرَّجُلُ مُنتَظِرًا والإناءُ على يَدَيه مُفَضِّلًا للسَّهَرِ في انتظارِهما على أنْ يوقِظَهما من نَومِهما حتى يكونَا هما المُستَيقِظَينِ، وكَرِهَ أن يَسقيَ قبل أبَوَيه أولادَه الصِّغارَ الذين يَصيحون مِن الجوعِ حتى طلعَ الفَجرُ وظهَرَ ضياؤُه، فشَرِبَ أبواه، فتوسَّل الرَّجلُ بفِعْلِه هذا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وقال: اللَّهمَّ إنْ كنتُ فعَلْتُ ذلك؛ ابتِغاءَ وَجهِك وطلبًا لمرضاتِك، فاجعَلْ لنا من تلك الصَّخرةِ مَخْرَجًا. فأُزيحَت الصَّخرةُ قَدْرًا يَسيرًا، لكنَّهم لا يستطيعون الخُروجَ منها. ثمَّ تقدَّم الثَّاني متوسِّلًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بامتناعِه عن فاحِشةِ الزِّنا في حينِ تمَكُّنِه منها؛ حِسبةً للهِ عزَّ وجلَّ، حيثُ كانت له بِنتُ عَمٍّ شُغِفَ بحُبِّها وأراد أنْ يَزنيَ بها، فأبَت إلَّا أن يُعطِيَها مِئةَ دينارٍ مقابِلَ أنْ تُمكِّنَه من نفْسِها، فجَمَع لها هذا المبلَغَ حتى إذا تمكَّنَ منها، واقترَبَ من جِماعِها، قالَتْ بِنتُ عمِّه: «اتَّقِ اللهَ ولا تَفُضَّ الخاتَمَ إلَّا بحَقِّه»، فهي تُذَكِّرُه وتسألُه أنْ يَنتَهيَ عنها ولا يُواقِعَها، وذكَّرته بتقوى الله، فقام وتَرَكها وانصرَفَ عنها، وترَكَ لها المالَ الَّذي طلبَتْه منه، ثمَّ قال: «فإنْ كنتَ تَعلَمُ أنِّي فَعَلْتُ ذلك ابتِغاءَ وجْهِك، فافْرُجْ عَنَّا فُرْجةً»، ففَرَجَ عنهم الثُّلُثَينِ، غيرَ أنَّهم لا يستطيعون الخروجَ منها.

وأمَّا الثَّالثُ فقد سألَ اللهَ عزَّ وجلَّ بأنَّه كان له أُجَراءُ استأجَرَهم وأعطاهم أجْرَهم غيرَ رجُلٍ واحدٍ منهم ترَكَ الَّذي له وذَهَبَ ولم يأخُذْ أُجْرتَه، فتاجَرَ له بها، واستثمَرَها حتى زادَ نَماءُ هذه الأُجْرةِ عِنده، وجاءه الأجيرُ الذي ترَكَ أُجرتَه بعدَ مُدَّةٍ مِن الزَّمنِ، يَطلُبُ منه أُجرتَه، فأخبَرَه أنَّ كُلَّ أنواعِ المالِ التي أمامَ نَظَرِكَ من إبِلٍ وبَقَرٍ وغَنَمٍ وعَبيدٍ مملوكين: هو أَجْرُك الذي تركْتَ، فقال له الأجيرُ: «يا عبدَاللهِ، لا تَستَهزِئْ بي»! فرَدَّ عليه الرَّجُلُ بأنَّه لا يستهزِئُ به، وطَلَب منه أنْ يأخُذَ كُلَّ ذلك المالِ الذي أشار به إليه،



فقال الرَّجلُ: «اللَّهمَّ إنْ كنتَ تَعلَمُ أنِّي فَعَلْتُ ذلك ابتِغاءَ وجْهِك، فافْرُجْ عَنَّا»، فأخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الصَّخرةَ انفرَجَتْ، وتَمَّ لهم بتلك الدَّعوةِ فَتْحُ الغارِ، وخرَجوا برَحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ يمشون بعد الكَربِ والضِّيقِ.

التوسُّلُ بدُعاءِ الأنبياءِ والصَّالحينَ

قال اللهُ تعالى عن إخوةِ يوسُف عليه السَّلام: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ، أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهما كان إذا قَحَطوا استَسقَى بالعبَّاسِ بنِ عبدِالمُطَّلِبِ، فقالَ: (اللَّهمَّ إنَّا كنَّا نتوَسَّلُ إليك بنَبيِّنا فتسقِيَنا، وإنَّا نتوَسَّلُ إليك بعَمِّ نَبيِّنا فاسقِنا)، قالَ: فيُسقَون[1].



من التوسُّلِ المشروعِ التوسُّلُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بدُعاءِ الصَّالحين مِن عِبادِه في حَياتِهم الدُّنيا، وقد دلَّت الشريعةُ المطَهَّرةُ على جوازِ هذا النوْعِ مِن التوسُّلِ؛ **ففي الآيةِ الكريمةِ** طَلَبَ إخوةُ يوسُفَ مِن أبيهم أنْ يَستغفِرَ لهم اللهَ على ما وَقَعوا فيه مِن ذُنوبٍ في حقِّ أبيهم يَعقوبَ وأخيهم يوسُفَ عليهما السلامُ؛ فقالوا: يا أبانا، اسأَلِ اللهَ أنْ يَغفِرَ لنا ذُنوبَنا التي اقترَفناها؛ فإنَّا كُنَّا مُذْنِبين مُتَعَمِّدين للإثمِ بما فَعَلْناه في حقِّكم.

وفي حديثِ أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا أصابَ النَّاسَ قحْطٌ -وهو: قِلَّةُ المطرِ، والجَفافُ- خرَجَ يَستَسقي، يعني: يُصلِّي ويدْعو اللهَ تعالى أنْ يُنزِلَ عليهم المطرَ، فلمَّا ماتَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان عُمرُ بنُ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه يقولُ: اللَّهمَّ إنَّا كنَّا نَجعَلُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يدعو؛ ليَكونَ وسيلةً لنا

(١) أخرجه البخاري (٣٧١٠).

إليك؛ لمَا له مِن فَضلٍ عندَك، وكنتَ تَسْقينا بدُعائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنَّا نَتوسَّلُ إليك اليومَ بدُعاءِ عَمِّ نبيِّنا واستسقائِه، فأَنزِلْ علينا المطرَ، فيُنزِلُ اللهُ تعالى المطرَ عليهم باستسقاءِ ودعاء العبَّاسِ رضِي اللهُ عنه.

وقد فَهِمَ البَعضُ مِن فِعلِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ هذا أنَّه إنما كان يستسقي بجاهِ العبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عنه، وفَهمُهم هذا غيرُ صَحيحٍ؛ لأنَّ التوسُّلَ هنا إنما كان بدُعاءِ العبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عنه لا بذاتِه.

أمَّا التوسُّلُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بالأمواتِ وبقُبورِ الأنبياءِ والصَّالحين، أو بجاهِهم، فهذا لا يجوزُ، ولو كان التوسُّلُ بالأمواتِ جائزًا لَتوَسَّلُ عُمَرُ عند قبرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمقامِ وجاهِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو مَيِّتٌ بدَلَ أن يتوسَّلَ بالعبَّاسِ ويَطلُبَ منه أن يدعوَ لهم، ومن المقَرَّرِ في عقيدةِ المُسلِمين أنَّ الميتَ لا يَملِكُ لنَفسِه نَفعًا ولا ضَرًّا، وهذا في حَقِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكيف بمَن هو دونَه؟!

لا يُغْني رسولُ اللهِ
صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أحَدٍ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قامَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ أنْزَلَ اللهُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قالَ: ((يا مَعشَرَ قُرَيشٍ -أو كَلِمةً نَحوَها- اشتَرُوا أنفُسَكم، لا أُغني عنكم مِن اللهِ شيئًا، يا بَني عبدِ مَنافٍ، لا أُغني عنكم مِن اللهِ شيئًا، يا عبَّاسُ بنَ عبدِالمُطَّلِبِ، لا أُغني عنك مِن اللهِ شيئًا، ويا صَفيَّةُ عَمَّةَ رَسولِ اللهِ، لا أُغني

عنكِ مِن اللهِ شيئًا، ويا فاطِمةُ بِنتَ مُحمَّدٍ، سَليني ما شِئتِ مِن مالي، لا أُغني عنكِ مِن اللهِ شيئًا))[1].



الأقرَبون هم أَوْلى النَّاسِ بحِرصِ الدَّاعي إلى اللهِ علَى هِدايتِهم والاهتِمامِ بشأْنِهم، وقد أمرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَبدَأَ بأقرَبِ النَّاسِ إليه، ليُنقِذوا أنفُسَهم من النَّار؛ فإنَّ اللهَ سيُحاسِبُ كلَّ إنسانٍ على عَمَلِه، ولن يُغنيَ أحدٌ عن أحدٍ شيئًا يومَ القيامةِ. **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** يَأمُرُ اللهُ تَعالى نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُعلِنَ انتِفاءَ قُدرتِه على ضُرِّ نَفسِه أو نَفْعِها، سواءٌ في شأْنِ دِينِه، أو في شُؤونِ دُنياه؛ فلا يَقدِرُ على جَلْبِ أيِّ نَفعٍ إلى نَفسِه، ولا دفْعِ أيِّ ضُرٍّ عنها، إلَّا ما أقْدَرَه اللهُ عليه بمَشيئتِه، فيُعينُه عليه، فإذا كان الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يُغْني شيئًا عن نفْسِه، فأَولى ألَّا يُغنِيَ شيئًا عن غيرِه.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه نَزَلَ قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، والإنذارُ هو: الإعلامُ المقْرونُ بتخويفٍ، والعَشيرةُ هم: قَبيلةُ الرَّجُلِ وأقاربُه، والمعنى: اذهَبْ فأنذِرْ قرابَتَك وأبلِغْهم، فقام فيهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خطيبًا ومُناديًا على قريشٍ نِداءً عامًّا، ثمَّ جَعَل يَخُصُّ كُلَّ بَطنٍ مِن بطونِها بنداءٍ خاصٍّ حتى خَصَّ بالنِّداءِ ابنتَه فاطِمةَ رَضِيَ اللهُ عنها، يأمُرُهم بدينِ اللهِ وتوحيدِه، ويحذِّرُهم مِن عذابِه ونارِه، وعبَّرَ عن إنقاذِ النَّفسِ بقَولِه: «اشتَرُوا أنفُسَكم»؛ لأنَّ المشتريَ نَفسَه كأنَّه أنقَذَها مِن الهلاكِ، والمُشتري غالبًا يكون راغبًا؛ ولهذا عَبَّرَ بالاشتراءِ، كأنَّه يقولُ: اشتَرُوا أنفُسَكم راغبين. فكأنَّه جَعلَ الطَّاعةَ هي ثَمَنَ النَّجاةِ مِن النَّارِ ودُخولِ الجنَّةِ، والسِّلعةَ المُشتَراةَ هي الجنَّةُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧١) واللفظ له، ومسلم (٢٠٦).

ويُعْلِمُهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ كُلَّ واحدٍ منهم مسؤولٌ أمام اللهِ عن نفسِه، فلا يُغْني أحدٌ عن أحدٍ، ولو كان نبيًّا مُقَرَّبًا، وجعل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَذكُرُ الأقربَ فَالأقرَبَ مِن نَسبِ قُريشٍ لَهُ، فَقالَ: «يا بَني عبدِ مَنافٍ» -وهو أحدُ أجدادِه- «لا أُغْني عنكم مِن اللهِ شيئًا»، «يا عبَّاسُ بنَ عبدِالمُطَّلبِ» -وهو عَمُّه- «لا أُغْني عنك مِن اللهِ شيئًا»، «ويا صَفيَّةُ عَمَّةَ رَسولِ اللهِ، لا أُغْني عنكِ مِن اللهِ شيئًا»، «ويا فاطِمةُ بنتَ مُحمَّدٍ» صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، «سَليني ما شِئتِ مِن مالي»، هذا مُستطاعٌ في الدُّنيا ولن أمنَعَكِ إيَّاه، وأمَّا في الآخرةِ فلا أُغني عنكِ مِن اللهِ شيئًا؛ ففي الآخِرةِ كُلٌّ يُحاسَبُ عن نَفسِه، ولن يَدخُلَ الجَنةَ مَن لم يُؤمِنْ باللهِ سُبحانه وتعالى.

الاعتِصامُ بالكِتابِ والسنةِ

طاعةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واتِّباعُ سُنَّتِه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((**دَعُوني ما تَرَكْتُكم؛ إنَّما هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُم بسُؤالِهم واخْتِلافِهم على أنبيائِهم، فإذا نَهَيْتُكم عن شيءٍ فاجْتَنِبوهُ، وإذا أمَرْتُكم بأمْرٍ فأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُم**))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((**كُلُّ أُمَّتي يَدخُلونَ الجَنةَ إلَّا مَن أبَى. قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ومَن يأبَى؟ قال: مَن أطاعَني دَخَلَ الجَنةَ، ومَن عَصاني فقدْ أبَى**))(٢).

وعن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما -في حديثِ حَجَّةِ النبيِّ- أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((**قدْ تَرَكْتُ فيكم ما لنْ تَضِلُّوا بَعْدَه إنِ اعْتَصَمْتُم به؛ كِتابَ اللهِ**))(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨) مطوَّلاً.

وعنِ العِرْباضِ بْنِ سارِيةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: صَلَّى لنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الفَجْرَ، ثُمَّ أقْبَلَ علينا، فوَعَظَنا مَوعِظةً بَليغةً، ذَرَفتْ لها الأعْيُنُ، ووَجِلَت مِنها القُلوبُ، قُلْنا -أو قالوا-: يا رَسولَ اللهِ، كأنَّ هذه مَوعظةُ مُوَدِّعٍ؛ فأَوْصِنا. قال: ((... فعَلَيْكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشدينَ المَهْدِيِّينَ، وعَضُّوا علَيْها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكم ومُحدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كُلَّ مُحْدَثةٍ بِدْعةٌ، وإنَّ كُلَّ بِدْعةٍ ضَلالةٌ))[1].



لم يبعَثِ اللهُ تعالى رَسولًا إلَّا لأجْلِ أن يُطيعَه النَّاسُ ويتَّبِعوه بإذنِ اللهِ، والانقيادُ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: طاعةٌ للهِ، وانقيادٌ لحُكمِه؛ إذ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تبليغِه إنَّما يُبلِّغُ عن اللهِ تعالَى، وطاعتُه طاعةٌ للهِ سُبحانَه، **كما في الآيةِ الأُولى والثَّانيةِ**. وهذا شامِلٌ لأُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، ظاهِرِه وباطِنِه؛ فما جاء به الرَّسولُ يتعَيَّنُ على العِبادِ الأخذُ به واتِّباعُه، ولا تحِلُّ مخالفتُه، ونَصُّ الرَّسولِ على حُكمِ الشَّيءِ كنَصِّ اللهِ عليه، لا رُخصةَ لأحدٍ ولا عُذرَ له في تَركِه، ولا يجوزُ تقديمُ قَولِ أحدٍ على قَولِه.

واتباعُ سُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ طريقُ الفوزِ والفَلاحِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وكِتابُ اللهِ وسُنَّةُ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هما الحَبْلُ المتينُ الذي أمَرَنا اللهُ تعالى أن نَعتصِمَ به **كما في الآيةِ الثَّالثةِ**.

وأمَّا الآيةُ الرَّابعةُ فقد اشتَمَلتْ على قاعِدةٍ كُلِّيَّةٍ وأصلٍ عامٍّ يَحوي أصولَ الدِّينِ وفُروعَه، ظاهِرَه وباطِنَه، وهي جامِعةٌ للأمرِ باتِّباعِ ما يَصدُرُ مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٧١٤٤) واللفظ له

صحَّحه البزار كما في ((جامع بيان العلم)) لابن عبد البر (٢/ ١١٦٤)، وابن حبان في ((صحيحه)) (٥)، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم)) (٢/ ١١٦٤)، وابن الملقِّن في ((البدر المنير)) (٩/ ٥٨٢)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٦٠٧).



وسلَّمَ مِن قَولٍ وفِعلٍ، فيَندَرِجُ فيها جميعُ أدِلَّةِ السُّنَّةِ، وتذييلُ هذه الآيةِ بقَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ يُؤذِنُ بأنَّ هذا التَّكليفَ لا هَوادةَ فيه، وأنَّه مُلزِمٌ للأمَّةِ سِرًّا وعَلَنًا، وأنَّ من خالَفَ شَيئًا منه يتوجَّهُ إليه هذا الإنذارُ الشَّديدُ؛ لأنَّ مَعصِيةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَعصيةٌ للهِ تعالى، وطاعتُه مِن طاعتِه.

وفي **الحديثِ الأوَّلِ** تأكيدُ الأمرِ باتِّباعِ هَديِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وسُنَّتِه في جَميعِ ما وردَ عنه، وبيانُ بعضِ آدابِ الاتباعِ، فيوجِّهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بدايةً ألَّا يسألَه الصحابةُ الكرامُ عمَّا سكَتَ عنه؛ فهذا السُّكوتُ ليس جَهلًا ولا نِسيانًا، وإنَّما هو من بعضِ الوُجوهِ قد يكونُ تخفيفًا أو تدرُّجًا، فيقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «دَعُونِي ما تَرَكْتُكُمْ»، وذلك بألَّا تُكثِروا الاستِفصالَ في المواضِعِ التي تُفِيدُ وجهًا ظاهِرًا، وإنْ صلَحتْ لغيرِه؛ لئلَّا يقَعَ الجوابُ بما فيه التَّعَبُ والمشقَّةُ، فإنَّما هلَكَتِ الأُممُ السَّابقةُ بسَببِ كثرةِ أسئلتِهم لغيرِ حاجةٍ وضرورةٍ، كقولِ اليهودِ لموسى عليه السَّلامُ: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: ٦٨]، لَمَّا أُمِرُوا بذبحِ بقَرةٍ، ولو أنَّهم عمَدوا إلى أيِّ بقرةٍ فذبَحوها لأجزَأَتْهم، ولكنَّهم شَدَّدُوا على أنفُسِهم بكثرةِ السُّؤالِ عن حالِها وصِفتِها، فشدَّدَ اللهُ تعالى عليهِم.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذا الأمرَ مُوَجَّهٌ للصَّحابةِ رضِيَ اللهُ عنهم في زَمَنِ التَّشريعِ، أمَا وقدِ اكتملَ الدِّينُ، وانتهَى التشريعُ، فالسؤالُ مَندوبٌ ومَحمودٌ؛ إذ هو مِفتاحُ العِلمِ. ثمَّ يُبَيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سببًا آخرَ في هلاكِ الأُممِ السَّابقةِ بعدَ كثرةِ أسئلتِهم، وهو: كَثرةُ مُخالفتِهم لأنبيائِهم؛ فهم يُكثِرونَ الأسئلةَ، ويُكثرونَ المُخالفةَ عندَما يُؤمرونَ.

ويبيِّنُ لهم المنهجَ الأمثلَ في هذا الشأنِ؛ فإذا منَعتُكم عن شَيءٍ فلا تفعَلُوه، وابتعِدوا عنه كلِّه؛ إذِ الامتثالُ لا يحصُلُ إلَّا بترْكِ الجميعِ، وإذا طلبتُ منكم فِعلَ شيءٍ



فافعَلوا منه ما قدَرتُم عليه على قَدْرِ طاقتِكم واستطاعتِكم؛ وجوبًا في الواجبِ، وندبًا في المندوبِ.

وقولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «فإذا أمرتُكم بشيءٍ فأْتُوا منه ما استطعتُم» مِن قواعدِ الإسلامِ المُهمَّةِ، ومِن جوامِعِ الكَلِمِ التي أُعْطِيَها صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويَدخُلُ فيها ما لا يُحصَى من الأحكامِ، وهو مُوافِقٌ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

وفي **الحديثِ الثَّاني** يَربِطُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَينَ طاعَتِه التي هي امتِثالٌ لِطاعةِ اللهِ تَعالى، وبَينَ دُخولِ الجَنَّةِ؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَعِدُ أُمَّتَه بأنَّهم سَيَدخُلونَ كلُّهم الجَنةَ يَومَ القِيامةِ، إلَّا مَن عَصاه ولم يَمتَثِلْ أمْرَه، وتَقديرُه: مَن أطاعَني وتَمسَّكَ بالكِتابِ والسُّنَّةِ دَخَلَ الجَنةَ، ومَنِ اتَّبَعَ هَواه وزَلَّ عنِ الصَّوابِ، وضَلَّ عنِ الطَّريقِ المُستَقيمِ؛ فقد أَبَى واستَحَقَّ دُخولَ النارِ.

والمُرادُ بالأُمَّةِ في قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتي»: أُمَّةُ الدَّعوةِ؛ وعليه فالآبِي هو الكافِرُ بامتِناعِه عن قَبولِ الدَّعوةِ. وقيلَ: أُمَّةُ الإجابةِ؛ وعليه فالآبي هو العاصي منهم، استَثناهم مِن دُخولِ الجَنَّةِ تَغليظًا وزَجرًا عنِ المَعاصي؛ فإن أُريدَ به عُصاةُ المؤمِنينَ، فالمَقصودُ استِثناؤُهم مِن دُخولِ الجَنَّةِ مِن أوَّلِ وَهْلةٍ، وإلَّا فمآلُهمُ الجَنةُ، كما هو عَقيدةُ أهلِ السُّنَّةِ، وإنْ أُريدَ به الكُفَّارُ فهُم لن يَدخُلوا الجَنةَ أصلًا، ويَكونُ المُرادُ بالإباءِ الامتِناعَ عنِ الإسلامِ.

وفي **الحَديثِ الثَّالِثِ** يُوَجِّهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أصحابَه رَضِيَ اللهُ عنهم ويُوصِيهم في حَجَّةِ الوداعِ -سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان كالمُوَدِّعِ لهم، ولمْ يَلْبَثْ كثيرًا بعدَها حتى توفَّاه اللهُ عزَّ وجَلَّ- وكان من جُملةِ ما



أوصاهم ووعظَهم به أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: «قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ» وهذا الكلامُ مُوَجَّهٌ لجَميعِ المُسلِمينَ، سواءٌ لِمن حَضَرَه في تلك الحَجَّةِ، أو مَن غاب عنها في زَمَنِه، أو مَن سيأتي بَعْدَه في الأزمانِ التَّاليةِ، وقَولُه: «تَركْتُ فيكم» مُشعِرٌ بأنَّ نُصوصَ هذا الدِّينِ باقيةٌ مَحفوظةٌ مِن التَّحريفِ والتَّغييرِ والزِّيادةِ والنُّقصانِ إلى يومِ القِيامةِ، سواءٌ كانتْ مِن كلامِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، أو مِن كلامِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو مِصداقُ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ثمَّ بَيَّن النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ كتابَ اللهِ -وهو القُرآنُ العظيمُ- سَبَبٌ رَئيسيٌّ في حِفظِ الإنسانِ مِن الضَّلالِ، سواءٌ مِن ضلالاتِ الكُفرِ والنِّفاقِ والخُروجِ مِن الدِّينِ، أو من ضَلالاتِ الزَّلَلِ والوُقوعِ في المعاصي واتِّباعِ الشَّهَواتِ، وذلك مَشروطٌ بقَولِه: «إنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ» بمعنى: إن تمسَّكْتُم به ولم يذكُرِ السُّنَّةَ؛ لأنَّ القُرْآنَ مُشتَمِلٌ على العَمَلِ بها، وذلك في قَولِ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقَولِه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقَولِه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]؛ فيَلزَمُ مِن العَمَلِ بالكِتابِ العَمَلُ بالسُّنَّةِ، وفي هذا حَضٌّ على تعَلُّمِ القُرآنِ والسُّنَّةِ، والاقتداءِ بما فيهما وما سَنَّه اللهُ وشرَعَه، وأنبَأَنا عن تحليلِه وتحريمِه، وغيرِ ذلك مِن سُنَنِه.

وفي الحديثِ الرَّابعِ يُخبِرُ العِرْباضُ بنُ سارِيةَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد صلَّى للصَّحابةِ الفَجرَ ذاتَ يَومٍ، ثمَّ توَجَّه إليهم فحَدَّثَهم ووَعَظَهم مَوعِظةً مُوجَزةً ذاتَ مَعانٍ كثيرةٍ، سالَتْ منها الدُّموعُ، ورَهِبتْ وخَشَعتْ منها القُلوبُ، حتى ظَنَّ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم أنَّ تلك الموعِظةَ إنَّما هي مَوعِظةُ وداعٍ منه إلى أصحابِه رَضِيَ اللهُ عنهم، فطَلَب الصَّحابةُ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُوصِيَهم؛ فكان ممَّا

أوصاهم به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: «فعَلَيْكُم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ»، فرَغَّب صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في اتِّباعِ سُنَّتِه وسُنَّةِ خُلَفائِه الرَّاشِدينَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم وأرْضاهم، وهذا يدُلُّ على أنَّ طَريقَ العِصمةِ والسَّلامةِ والنَّجاةِ عندَ أيِّ اختِلافٍ هو الالتزامُ بما كان عليه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وخُلَفاؤه الرَّاشِدونَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم وأرْضاهم، وهم: أبو بكرٍ، وعُمَرُ، وعُثمانُ، وعَلِيٌّ.

والحديثُ يدُلُّ على فَضلِ هؤلاء الخُلَفاءِ رَضِيَ اللهُ عنهم، وعلى فَضلِ خِلافتِهم، حيثُ وصَفَها بأنَّها راشِدةٌ، ووصْفُ «الْمَهْدِيِّينَ» يدلُّ على أنَّهم على هُدًى ورَشادٍ، وخِلافتُهم خِلافةُ نُبُوَّةٍ، «وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» كنايةٌ عن شِدَّةِ التمَسُّكِ والأخذِ بها، وعَدَمِ التهاوُنِ والتَّفريطِ بشَيءٍ منها؛ فعلى الإنسانِ أن يُعَوِّلَ على السُّنَنِ، وأن يَحرِصَ عليها. ثمَّ حَذَّرَهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن مُحْدَثاتِ الأُمورِ: وهي البِدَعُ التي تَحدُثُ في دِينِ اللهِ، وليستْ منه؛ «فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ» فهذا حُكمٌ عامٌّ يَشمَلُ كُلَّ ما أُحدِثَ في الدِّينِ؛ فهي كُلُّها ضِدُّ الهُدى، والهُدى إنَّما هو في الكِتابِ والسُّنَّةِ، وما جاء عن سَلَفِ هذه الأُمَّةِ، «وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» فهي موجِبَةٌ للضَّلالةِ والغَوايَةِ، ويَضِلُّ بها صاحِبُها، ويَضِلُّ بها مَن تَبِعَه عليها، وهذا أيضًا من التَّحذيرِ مِنَ العَمَلِ بالبِدَعِ واتِّباعِ أصحابِها أو مَن يَدْعُو إليها.

التَّحذيرُ مِنَ البِدَعِ ومُحْدَثاتِ الأمورِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، قالَتْ: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن أحْدَثَ في أمْرِنا هذا ما ليسَ منه فَهو رَدٌّ))[١].

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) واللفظ له.

وفي رِوايةٍ: ((مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أمْرُنا فهو رَدٌّ))[1].



أكملَ اللهُ الدِّينَ وأتمَّ النِّعمةَ على عِبادِه، وواجبٌ على المُسلمِ أنْ يحرِصَ على الاتِّباعِ والوقوفِ على مرادِ اللهِ عزَّ وجلَّ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقَدْرِ وُسعِه وطاقتِه، وألَّا يُحدِثَ ويبتدعَ في دِينِ اللهِ شيئًا من عندِ نفسِه.

وتَذكُرُ الآيةُ الكريمةُ لِمَن يدَّعونَ محبَّةَ اللهِ وُجوبَ تقديمِ البُرهانِ على صِحَّةِ دعواهم، وذلك باتِّباعِ نَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فمن كَانَ مُحِبًّا للهِ لزِمَ أنْ يتَّبعَ الرَّسُولَ، فمَن ابتَدَع لم يكُنْ مُتَّبِعًا، وما قِيمةُ الدَّعوى إذا كذَّبها العَمَلُ؟! وكيف يجتَمِعُ الحبُّ مع الجَهلِ بالمحبوبِ، وعدمِ العِنايةِ بأمرِه ونَهْيِه؟!

وفي حديثِ عائشةَ رَضِيَ الله عنها بيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن اختَرَعَ في أمرِ الدِّينِ ما لا يَشهَدُ له أصلٌ مِن أصولِهِ في القُرآنِ الكريمِ، وسنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنَّه لا يُلتفَتُ إليه، وهو باطلٌ مردودٌ عليه، ولا يُعتدُّ به. فهذا نهيٌ عنِ البِدعِ كلِّها. وفي الرِّوايةِ الثَّانيةِ يَقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا» وهي أعمُّ من الرِّوايةِ الأُولى، ومعناها: أنَّ مَن عَمِلَ أيَّ عَمَلٍ ليس عليه أمرُ اللهِ ورَسولُه، فإنَّه مردودٌ عليه. وفي هذا الحَديث: أمرٌ باتِّباعِ سُنَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ والالتِزامِ بها، والنَّهيُ عن كُلِّ بِدعَةٍ.

النَّهيُ عنِ التنَطُّعِ والتَّكلُّفِ

عن عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ-قالَها ثلاثًا))[2].

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم قبل حديث (٢١٤٢)، وأخرجه موصولًا مسلم (١٧١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

وعن أَنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: كُنَّا عِندَ عُمَرَ، فقالَ: ((نُهِينا عَنِ التَّكلُّفِ))[1].



في حَديثِ ابنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه يُحذِّرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن التنطُّعِ ومن سُلوكِ سَبيلِ المُتنطِّعينَ، ويدْعو عليهم بالهَلاكِ الذي هو الإتْلافُ والخُسرانُ، والتنطُّعُ: وصْفٌ لكلِّ مَن يتقعَّرُ في الكلامِ، ويتشدَّقُ فيه، ويَتكلَّفُ الفَصاحةَ، ويَستخدِمُ غَريبَ الألفاظِ في مُخاطبةِ الناسِ؛ لكي يستميلَ قلوبَهم، وهذا مِن الأمورِ المِنهيِّ عنها، ويُطلَقُ التنطُّعُ كذلك على كُلِّ مَن يتعمَّقُ في أيِّ شيءٍ، أي: يتشدَّدُ فيه، سواءٌ في الأقوالِ أوِ الأفعالِ، وهو بذلِك يبتعِدُ عنِ الوسطيَّةِ والاعتِدالِ في الأُمورِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وقد كَرَّر صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قولَه: «هلَك المتنطِّعون» ثَلاثَ مرَّاتٍ؛ تَهويلًا، وتَنبيهًا عَلى سُوءِ عاقبةِ التنطُّعِ، وما فيه مِن ويلاتٍ على صاحبِه.

وفي حَديثِ أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ عُمرُ بنُ الخَطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نهاهُم عن التكلُّفِ، وهو تَعاطِي ما فيه مَشقَّةٌ مِن دونِ حاجةٍ إلى ذلك، سواءٌ كان قولًا أو فعلًا، ومنَ التَّكلُّفِ: أن يتكلَّفَ الإنسانُ ما لا عِلمَ له به، ويُحاولَ أن يَظهَرَ بمظهرِ العالِمِ وليسَ كذلك، أو يُشدِّدَ على نفْسه أو على غيرِه في أيِّ أمْرٍ جعَلَ اللهُ فيه سَعةً، كما في الحَديثِ المشهورِ، عن أنسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّه: ((جاءَ ثلاثَةُ رَهطٍ إلى بُيوتِ أَزْواجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَسْأَلُونَ عن عِبادةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلمَّا أُخْبِروا كأَنَّهُمْ تَقالُّوها، فقالُوا: وأَيْنَ نَحنُ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟! قَدْ غُفِرَ له ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تأَخَّرَ؛ قال أَحَدُهُم: أَمَّا أنا فإنِّي أُصلِّي اللَّيلَ أبدًا، وقال آخَرُ: أنَا أصومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ، وقال آخَرُ: أنَا أعْتَزِلُ

(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٣).

النِّساءَ فلا أتَزوَّجُ أبدًا، فجاءَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهِم، فقالَ: أنْتُمُ الذينَ قُلْتُمْ كذَا وكذَا؟ أمَا واللَّهِ إنِّي لأَخْشاكُمْ لِلَّهِ وأَتْقاكُم له، لكنِّي أصومُ وأُفْطِرُ، وأُصلِّي وأرْقُدُ، وأتَزَوَّجُ النِّساءَ؛ فمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتي فلَيْسَ منِّي))[1]؛ فكلُّ هذا يَدخُلُ في عُمومِ الحَديثينِ وحُكمِهما؛ فتَرْكُ كُلِّ مَظاهِرِ التَّنطُّعِ والتكلُّفِ مِنَ الآدابِ الحَسنةِ المأمور بِها في الإِسلامِ.

الاعتِدالُ ونَبذُ التشَدُّدِ

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وعن أَبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَه؛ فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا، وأَبْشِرُوا، واسْتَعِينُوا بالغَدْوةِ والرَّوْحَةِ وشيءٍ مِنَ الدُّلْجةِ))[2].

شَريعةُ الدِّينِ الإسلاميِّ شريعةٌ سَمْحةٌ، وأحكامُه مَبنيَّةٌ على التخفيفِ واليُسرِ لا على العَنَتِ والمشَقَّةِ، واللهُ تعالى يحبُّ أنْ يُخفِّفَ عن عِبادِه، ويُسهِّلَ عليهم أحكامَه، وما كلَّفَهم إلَّا بما يَقدِرونَ عليه، ورَفَع عنهم ما فيه حَرَجٌ؛ فلمْ يتعبَّدْهم به **كما في هاتَينِ الآيتَينِ المذكورتينِ**، وحتى لو وقَعَت مشقَّةٌ في بعضِ العِباداتِ على بعضِ النَّاسِ فإنَّما هي تربيةٌ وتزكيةٌ ورِفعةٌ لهم في الدُّنيا والآخِرةِ، وواجبُ المُسلمِ أن يؤدِّيَ الفرائضَ ولا يُقصِّرَ فيها، ويأخُذَ من العَملِ بعدَ ذلك بما يَستطيعُ، وأن يُيسِّرَ على نفْسِه ولا يُعسِّرَ.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) واللفظ له، ومسلم (١٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩) واللفظ له، ومسلم (٢٨١٦).



وفي حَديثِ أَبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ حثَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مُلازمةِ الرِّفقِ في الأعمالِ، والاقتصارِ على ما يُطيقُ العاملُ، ويُمكِنُه المداومةُ عليه، ونَهى عنِ التشديدِ في الدِّينِ، كأنْ يُحمِّلَ الإنسانُ نفسَه من العِبادةِ ما لا يَحتمِلُه إلَّا بكُلفةٍ شَديدةٍ؛ فالدِّينُ لا يؤخَذُ بالمُغالَبةِ، فمَنْ تشدَّدَ في الدِّينِ انقطَعَ، وغلَبَه الدِّينُ وقهَرَه. وقدْ أسَّسَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أوَّلِ هذا الحديثِ ذلك الأصلَ الكبيرَ، فبيَّن أنَّ الدِّينَ مُيسَّرٌ مُسهَّلٌ في عَقائدِه وأخلاقِه، وفي أوامرِه ونواهيه، ثمَّ وصَّى بالتَّسديدِ والمُقارَبةِ، وتَقويةِ النُّفوسِ بالبِشارةِ بالخيرِ، وعدمِ اليأسِ. والتَّسديدُ: هو العملُ بالقَصدِ، والتَّوسُّطُ في العِبادةِ، فلا يُقصِّرُ فيما أُمِرَ به، ولا يتحمَّلُ منها ما لا يُطِيقُه، مِن غيرِ إفراطٍ ولا تفريطٍ. والأمرُ بالمُقارَبةِ بعدَ التَّسديدِ معناه: إنْ لم تَستطيعوا الأخْذَ بالأكمَلِ، فاعمَلوا بما يَقرُبُ منه، وأبشِروا بالثَّوابِ على العَملِ وإن قَلَّ.

ثمَّ أرشَد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى ما يُساعِدُ على السَّدادِ والمقارَبةِ، وهو الاستعانةُ على مُداومةِ العِبادةِ بإيقاعِها في الأوقاتِ المُنشِّطةِ للعملِ، كأوَّلِ النهارِ، وبعدَ الزوالِ، وآخِرَ الليلِ؛ فالغَدوةُ: أوَّلُ النَّهارِ، والرَّوحةُ: آخِرُه، والدُّلجةُ: سَيرُ آخِرِ اللَّيلِ، وسَيرُ آخرِ اللَّيل مَحمودٌ في سَيرِ الدُّنيا بالأبدانِ، وفي سَيرِ القُلوبِ إلى اللهِ تعالَى بالأعمالِ. وقال: وشيءٍ مِنَ الدُّلجةِ، ولم يقُلْ: والدُّلجةِ؛ تخفيفًا لمَشقَّةِ عمَلِ اللَّيلِ.

التَّحذيرُ مِن التَّحايُلِ على الشَّرعِ

عن جابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّه سَمِعَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عامَ الفَتحِ وهو بمكَّةَ يقولُ: ((إنَّ اللهَ ورَسولَه حَرَّم بَيعَ الخَمرِ والمَيتةِ والخِنزيرِ والأصنامِ. فقيل: يا رَسولَ اللهِ، أرأيتَ شُحومَ المَيتةِ، فإنَّه يُطْلَى بها السُّفُنُ، ويُدهَنُ بها الجُلودُ، ويَستَصبِحُ بها النَّاسُ؟ قال: لا، هو حرامٌ، ثم قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِندَ



ذلك: قاتَلَ اللهُ اليهودَ؛ إنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّم شُحومَها جَمَلوه، ثمَّ باعُوه، فأكَلوا ثَمَنَه!))(١).



شأنُ المُسلمِ الصادِقِ أنْ يكون وقَّافًا عندَ حدودِ اللهِ تعالَى، ولا يَنبغي لِه أنْ يَحتالَ على أمْرِه أو نَهيِه سُبحانَه؛ لِيَصِلَ لِتحليلِ الحرامِ، أو تحريمِ الحلالِ، وفي حديثِ جابرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما تحذيرٌ من هذا الأمرِ، حيثُ حرَّمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عامَ فتحِ مكَّةَ بَيعَ الخَمرِ، ويدخُلُ فيه تحريمُ بَيعِ كلِّ مُسْكِرٍ مائِعًا كانَ أو جامِدًا، عصيرًا أو مطبوخًا. وحَرَّمَ بَيْعَ الْمَيتةِ، ويَدخُلُ فيه كلُّ ما يُسمَّى مَيْتَةً، سواءٌ ماتَ حَتْفَ أنفِه، أوْ قُتِلَ بشَيءٍ لا يُفيدُ تَذكيتَه وحِلَّه. وحرَّمَ بَيْعَ الخنزيرِ، ويَتناولُ ذلك لحْمَه وجَميعَ أجزائِه. وحرَّم كذلك بَيعَ الأصنامِ، وَيُستفادُ منه تَحريمُ بَيعِ كلِّ آلةٍ مُتَّخَذةٍ لِلشِّرْكِ على أيِّ وجْهٍ كانتْ، ومِن أيِّ نوعٍ كانَتْ؛ صنمًا أو وَثنًا أو صَليبًا.

فسُئِلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن شُحومِ الحَيواناتِ الَّتي تموتُ، فإنَّها يُنتفَعُ بها في طِلاءِ أخشابِ السُّفنِ، ويُدهنُ بها الجُلودُ، ويَجعلُها النَّاسُ في مَصابيحِهم يَستضِيئونَ بها، فنهاهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنها، وبيَّنَ أنَّها حرامٌ، ثُمَّ ذكَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حادِثةً عندَ اليهودِ تتعَلَّقُ بتلك الشُّحومِ، فقال: «قاتَلَ اللهُ اليهودَ»، أي: قَتَلَهم اللهُ وعاداهم! ويُقالُ: هو عِبارةٌ عن الطَّرْدِ والإبعادِ عن الرَّحمةِ؛ بسببِ أنَّهم لَمَّا حرَّمَ اللهُ عليهمُ الشُّحومَ أَذابوها وباعُوها؛ احتيالًا ومَكرًا، فاستَحقُّوا اللَّعنةَ بذلك!

التَّحذيرُ منَ الكَذِبِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

عنِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رضِيَ اللهُ عنهُ، قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٦) واللفظ له، ومسلم (١٥٨١).



يقول: ((إنَّ كَذِبًا عَلَيَّ ليسَ كَكَذِبٍ علَى أحَدٍ؛ فمَن كَذَبَ علَيَّ مُتَعمِّدًا، فَلْيَتَبوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))[1].



الكذِبُ من أرذَلِ الأخلاقِ وأقبحِها، وهو تعمُّدُ الإخبارِ عنِ الشَّيءِ بخِلافِ ما هو عليه، وقد حرَّمه اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابِه الكريمِ، وعلى لِسانِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإذا كان الكذِبُ على عُمومِ الناسِ حرامًا، فإنَّ الكذبَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أشدُّ حُرمةً وأعظمُ جُرمًا؛ فإنَّه من أقبحِ المُنكَراتِ، وفي هذا الحديثِ يُؤكِّدُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حُرمةَ الكَذِبِ عليهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُبيِّنُ عقوبةَ ذلك، فيبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بِدايةً أنَّ الكذِبَ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جريمةٌ عُظمى، ولا يُساويه أيُّ كَذِبٍ على شَخصٍ آخرَ؛ لأنَّ حقَّه أعظمُ، وحقَّ الشريعةِ آكَدُ، ولأنَّ الكذبَ عليه ذريعةٌ إلى إبطالِ شرعِه، وتَحريفِ دِينِه، وهذا في حقِّ مَن كذَبَ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ متعمِّدًا قاصِدًا الكذبَ. والكذبُ عليهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يكونُ بأنْ يُنسَبَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما لم يقُلْه أو يَفعَلْه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو يُقِرَّ به. ثمَّ يذكُرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عُقوبةَ مَن يقعُ في ذلك بقولِه: «فلْيَتَبوَّأْ مَقْعَدَه مِنَ النَّارِ»، أي: ليتَّخِذْ مَوضِعًا له في نارِ جهنَّمَ يومَ القِيامةِ ويَستَعِدَّ لدُخولِها؛ زجرًا وتخويفًا منَ الإقدامِ على هذه الكبيرةِ.

جَزاءُ مَن دعا إلى هُدَى أو ضَلالةٍ

عن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن دَعا إلى هُدًى كانَ له مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجورِ مَن تَبِعَه، لا يَنْقُصُ ذلكَ مِن أُجُورِهِمْ شيئًا،

(١) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) واللفظ له.



ومَن دَعا إلى ضَلالَةٍ كانَ عليه مِنَ الإثْمِ مِثْلُ آثامِ مَن تَبِعَه، لا يَنْقُصُ ذلكَ مِن آثامِهِمْ شيئًا))[1].

حَثَّ الشَّرعُ على نَشْرِ الخيرِ بَينَ المُسلمينَ والبُعدِ عنِ المنكراتِ الَّتي تَعودُ عَلى المسلمينَ بالضَّررِ. وفي هَذا الحديثِ يخبرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن حثَّ ورغَّبَ إلى ما يُهتَدَى بِه منَ العَملِ الصَّالحِ، وسَواءٌ كانَ ذلك تَعليمَ عِلمٍ أو عِبادةٍ أو أَدبٍ أو غيرِ ذلك مما يعودُ بالنفعِ على الناسِ، فاقتدَى به غيرُه، كان له مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ مثلُ أجرِ مَن تبِعَه وسارَ على نهجِه، ولا يَنقُصُ ما أعطاهُ اللهُ له منَ الأجرِ من أجورِ العاملين شيئًا، وفي هذا دفعُ ما يُتوهَّمُ أن أجرَ الداعي إنما يكونُ بالتنقيصِ من أجرِ التابعِ وضمِّه إلى أجرِ الداعي، فكما يترتَّبُ الثوابُ والعقابُ على ما يباشِرُه ويزاولُه يترتَّبُ كلٌّ مِنهما على ما هو سببُ فعلِه، كالإرشادِ إليه والحثِّ عليه. وفي المقابلِ فإنَّ مَن دَعَا إلى ضَلالةٍ ابتَدَعَها أَو سَبقَ إليها، كان عليه مِن الإثمِ مِثْلُ آثامِ وذُنوبِ مَن تَبِعَه في هذه الضَّلالةِ وضَلَّ بسَبَبِه، لا يَنْقُصُ ذلكَ المِثْلُ مِن آثامِ الضَّالِّينَ بسَبَبِه شيئًا من النَّقصِ؛ فهم مُشاركون له فيما يتحمَّلونَه من آثامِ تلك المعاصي؛ لاستجابتِهم وإعانتِهم له، فهذا فيه التَّحذيرُ مِنَ الدُّعاءِ إلى الضَّلالةِ، وعِظَمُ جُرمِ الدَّاعي إليها وعُقوبتِه.

ذَمُّ التفَرُّقِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وعن عَوفِ بنِ مالِكٍ الأشجعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((افترَقَتِ اليَهودُ علَى إحدَى وسبعينَ فِرْقةً، فواحدةٌ في الجنَّةِ، وسَبعونَ في النَّارِ، وافترقتِ النَّصارى علَى ثِنتينِ وسبعينَ فرقةً، فإحدَى وسبعونَ في النَّارِ، وواحدةٌ في الجنَّةِ. والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لتفترِقَنَّ أمَّتي علَى ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً، واحدةٌ في الجنَّةِ، وثِنتانِ وسبعونَ في النَّارِ! قيلَ: يا رسولَ اللَّهِ، مَن هم؟ قالَ: الجماعَةُ))[1].



في الآيةِ الأولى يأمرُ اللهُ تَعالى عِبادَه بالتَّمسُّكِ بدِينِه، وعَهِدَ إليهم بالأُلفةِ والاجتماعِ على كَلمةِ الحقِّ، وينهاهُم عن ارتكابِ ما يُفرِّقُ جَمْعَهم؛ فمِن أكبَرِ نِعَم اللهِ على الأُمَّة أنْ يُؤلِّفَ بيْن قُلوبِها بالاجتماعِ وعدَمِ الفُرْقةِ؛ فاجتِماعُها عِصمةٌ لها، وفي التَّفرُّقِ زَوالُ الوَحْدةِ التي هي مَعقِدُ العِزَّةِ والقوَّةِ. واللهُ تَعالى وضَعَ بفَضْلِه ورَحْمتِه قاعدةً للرُّجوعِ إليها عندَ تَفرُّقِ الأهواءِ واختلافِ الآراءِ، وهي الاعتصامُ بحَبْلِه بالتَّحاكُمِ إلى شَرْعِه.

وفي الآيةِ الثانيةِ ينهَى اللهُ تَعالى عِبادَه المؤمنين عن التَّفرُّقِ في دِينِهم كما تَفرَّقَ الذين مِن قبْلِهم، كاليهودِ والنَّصارى الذين اختَلَفوا في دِينِهم، فصاروا أحزابًا شتَّى، وذلك مِن بعدِ ما جاءتْهم دَلائلُ الحقِّ الواضحةُ، وعَلِموا الحقَّ المُبينَ، فوَقَعوا في مُخالفتِه عامِدين، وعلى اللهِ تَعالى مُتجرِّئين؛ فلهؤلاء عَذابٌ مِن اللهِ عظيمٌ، فمَن كان مِثْلَهم أصابَه مِن عَذابِ اللهِ مِثْلُ ما أصابَهُم.

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢) واللفظ له، والطبراني (١٨/ ٧٠) (١٢٩).
صحَّحه ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ٣٤٥)، وجَوَّد إسنادَه العراقي في ((الباعث على الخلاص)) (١٧)، وصَحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٩٩٢).



ويُستفادُ مِن هذه الآيةِ: أنَّ الاختلافَ المَنْهيَّ عنه هو ما كان ناشئًا عن التَّفرُّقِ، لا كلُّ اختلافٍ.

وفي الآيةِ الثالثةِ يُبيِّنُ اللهُ تَعالَى أنَّ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَريءٌ مِن الَّذين اختَلَفوا في دِينِ اللهِ وفارَقُوه، أو تَشَتَّتوا فيه، فَصاروا فِرَقًا وأحزابًا وأدْيانًا؛ تَبَعًا للأهْواءِ والضَّلالاتِ، وأنَّ أمْرَ هؤلاءِ ومَصِيرَهم إلى اللهِ تَعالى وَحْدَه، وسيُخْبِرُهم إذا جاؤُوه يومَ القيامَةِ بما كانوا يَعْمَلونَه في الدُّنيا.

ففي هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ يَأمُرُ بالاجتِماعِ والائْتِلافِ، ويَنْهى عن التَّفَرُّقِ والاختلافِ.

وفي حديثِ عَوفِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه يُحذِّرُنا النبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم مِن التَّفرُّقِ، ويَحُثُّنا على الثَّباتِ على الحقِّ الَّذي كان عليه هو وأصحابُه الكِرامُ، حيثُ يخبِرُ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم أنَّ اليهودَ افترَقَت في دِينِها وعَقائدِها على إحدى وسَبعين فِرْقةً، فِرقةٌ واحدةٌ منهم في الجنَّةِ، وهي الفِرقةُ التي اتَّبعَتِ الحقَّ الَّذي أنزَله اللهُ على نبيِّه موسى عليه السَّلام، ولم تُغيِّرْ ولم تُبدِّلْ أحكامَ التَّوراةِ، وسَبْعون فِرْقةً في النَّارِ، وهم باقي تِلك الفِرَقِ. وافترَقَتِ النَّصارى على ثِنتَين وسَبعين فِرقةً، فإحْدى وسَبعون في النَّارِ، وواحدةٌ في الجنَّةِ، زادتْ فِرقةً على مَن قبلَها كما زادَتِ الأمَّةُ على هذه بفِرْقةٍ.

ثمَّ يُقسِمُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باللهِ الذي نَفْسُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيَدِه، إنَّ هذه الأمَّةَ ستَفترِقُ على ثلاثٍ وسَبعينَ فِرقةً، واحدةٌ في الجَنَّةِ، وثِنْتان وسبعونَ فِرقةً في النَّارِ، فسَأَلَ الصَّحابةُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الفِرقةِ النَّاجيةِ مَن هي؟ فقال النبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: «الجَماعةُ»، والمعنى: أنَّ الفِرْقةَ النَّاجيةَ بَيْن هؤلاءِ هم الجَماعةُ مِن أهلِ العِلْمِ والفقهِ، والآمِرين بالمَعروفِ والنَّاهينَ عنِ المُنكرِ،

الَّذين اجتَمَعوا على الاعتِصامِ بكِتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، واتِّباعِ آثارِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وسُنَّتِه، وابْتَعَدوا عن البِدَعِ والتَّحريفِ والتَّغييرِ. فهذه هي الفِرقةُ النَّاجيةُ، والطَّائفةُ المنصورةُ، وهذه الفِرَقُ الاثنتانِ والسَّبعونَ هي مِن أمَّةِ الإجابةِ؛ فهم مُسلِمونَ، ولكِنْ عِندَهم بِدَعٌ وأهواءٌ ومُخالفاتٌ، يَستَحِقُّونَ بسَبَبِها النَّارَ، وإنْ كانوا لنْ يُخلَّدُوا فيها.

الطَّائِفةُ المَنصورةُ

عن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، يقولُ: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((**لا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ على الحقِّ ظاهِرِينَ إلى يَومِ القِيامةِ**))[1].

وعن المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((**لا يَزالُ طائِفةٌ مِن أُمَّتي ظاهِرِينَ، حتَّى يأْتِيَهُم أمْرُ اللَّهِ وهُمْ ظاهِرونَ**))[2].



أُمَّةُ الإسلامِ شأنُها عِندَ اللهِ عظيمٌ؛ فإنَّها آخِرُ أُمَمِ الأنبياءِ في الدُّنيا، ونبيُّها خاتَمُ الأنبياءِ، وقد أُرسِلَ إلى الناسِ كافَّةً بَشيرًا ونذيرًا، ودعوتُه ممتدَّةٌ إلى آخِرِ الزَّمانِ، ومن لوازِمِ امتدادِ دَعوتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يبقَى الحَقُّ قائمًا في الأمَّةِ لا يضيعُ، وذلك مِن رحمةِ اللهِ بالأمَّةِ مِن جهةٍ، ومِن جِهةٍ أخرى لاستمرارِ قِيامِ الحُجَّةِ على النَّاسِ.

وفي هذين **الحَديثَينِ المَذكورينِ** يُخبرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن هذه الأُمَّةِ أنَّها ستظَلُّ فيها فئةٌ ثابتةٌ على الحقِّ، تُجاهِدُ في سَبيلِ نُصرتِه، وهذه الفئةُ مُعانةٌ مِنَ اللهِ، مَنصورةٌ على مَن خَذَلها وحَارَبَها، والهَزيمَةُ والخِذلانُ عَاقبةُ مَن حارَبَها أو عارَضَها، وقد بَشَّرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ هذه الطَّائفةَ ستكونُ كذلِك على أمْرِ اللهِ

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١١) واللفظ له، ومسلم (١٩٢١).



مُستمسِكينَ، وبه قائِمينَ، وعلى أعدائِهم ظاهرينَ ومُنتَصِرينَ، حتَّى يَأتيَ أمرُ اللهِ، وهي الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ تَكونُ قبلَ قيامِ السَّاعةِ تَقبِضُ أَرواحَ المؤمنينَ. وقد اختُلِفَ في المقصودِ بهذِه الطَّائفةِ، وكذلك اختُلِف في مَكانِها؛ فقيلَ: هُم العُلماءُ والفُقَهاءُ. وقيل: هُم أصحابُ الحَديثِ. وقيل: هُم المُجاهِدُون في سَبيلِ اللهِ تعالَى. وقد ورَدَ أَنَّهم بالشَّامِ، وأَنَّهم ببَيتِ المقدسِ وأكنافِه، وورَد أنَّ آخِرَهم بِبيتِ المقْدِسِ، والأَولى الجَمْعُ بيْن هذه الأقوالِ كلِّها، بأنَّ هذه الطَّائفةَ تكون مُتناثِرةً بَينَ طَوائفِ الأُمَّةِ؛ فَمنَ المُمكنِ أن يَكونوا مِنَ العُلماءِ والمُجاهِدين والفُقهاءِ، والآمِرين بالمَعروفِ والنَّاهينَ عنِ المُنكرِ، وقَدْ يَكونون مُجتمِعينَ في مَكانٍ، أو مُتفرِّقينَ في عِدَّةِ أماكنَ.







خَصائِصُ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلمَ

ختمُه للنبوَّةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وعن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَثَلي ومَثَلُ الأنْبياءِ مِن قَبْلي كمَثَلِ رَجُلٍ بنَى بُنْيانًا فأحْسَنَه وأجْمَلَه إلَّا مَوْضِعَ لَبِنةٍ مِن زاوِيةٍ مِن زَواياه، فجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفونَ به ويَعْجَبونَ له ويقولونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنةُ! قالَ: فأنا اللَّبِنةُ، وأنا خاتَمُ النبيِّينَ))(١).



رَسولُ اللهِ مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو خاتَمُ الأنبياءِ والمُرسَلينَ، صَلَواتُ اللهِ عليهم أجمَعينَ، بَعَثَه اللهُ سُبحانَه لِيُتِمَّ به البِناءَ الإيمانيَّ والهَدْيَ الرَّبَّانيَّ؛ فبه اكتَمَلَ لِلإنسانيَّةِ النُّورُ الذي يُضيءُ لها طريقَ السَّعادةِ، واكتَمَلَتْ مَكارِمُ الأخلاقِ ودَعائِمُ الحَقِّ والعَدلِ، وخُتِمتْ به النُّبوَّةُ، **كما نصَّت الآيةُ الكريمةُ**؛ فهو رَسولُ اللهِ، وهو آخِرُ النَّبيِّينَ، فلا نَبيَّ بَعدَه، فمَن ادَّعَى النُّبوةَ بعدَه قُطِعَ بكَذِبِه؛ لأنَّ خبرَ اللهِ تَعالى صِدْقٌ، لا يُمكِنُ أنْ يَتطَرَّقَ إليه الكذِبُ بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ؛ فقولُه تَعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ إبطالٌ لنُبوَّةِ المُدَّعين، كما أنَّ قولَه تَعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ إبطالٌ لبُنُوَّةِ الأدعياءِ.

وفي ذِكرِ اسمِ «محمَّدٍ» في هذه الآيةِ الكريمةِ إشارةٌ إلى خَتْمِه للنُّبوَّةِ؛ لأنَّ الحَمدُ

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦) واللفظ له.



مَقرونٌ بانقِضاءِ الأُمورِ، مَشروعٌ عِندَه؛ كما قال تَعالَى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وجاء الاستِدراكُ بقولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ لِرَفْعِ ما قدْ يُتوهَّمُ مِن أنَّ نَفْيَ أُبوَّتِه يعني انفصالَ صِلَةِ التَّراحُمِ والبِرِّ بيْنه وبيْن الأُمَّةِ؛ فذُكِّروا بأنَّه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهو كالأبِ لِجَميعِ أُمَّتِه في شَفقَتِه ورَحمتِه بهم، وفي بِرِّهم وتَوقيرِهم إيَّاه.

وقيل: إنَّما قال سُبحانَه: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ولم يَقُلْ: «وخاتَمَ المُرسَلين»، مع أنَّه قال قبْلَها: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه قد يَكونُ نَبيًّا ولا يكونُ رَسولًا، ومحمَّدٌ رسولُ اللهِ وخاتمُ الأنبياءِ.

وفي حَديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يَضرِبُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المثَلَ له وللنَّبِيِّينَ صلَّى اللهُ عليهم وسلَّم، وما بَعثَهم اللهُ به مِنَ الهُدى والعِلْمِ، وما يَنفَعُ الناسَ: كمَثَلِ رَجُلٍ بنى بَيتًا، إلَّا أنَّ هذا البِناءَ مع جَمالِه وحُسنِه لم يَبقَ مِنه سِوى لَبِنةٍ واحِدةٍ بَقِيَ مَوضِعُها فارِغًا، واللَّبِنةُ هي القِطعةُ مِنَ الطِّينِ تُعجَنُ وتُعَدُّ لِلبِناءِ، ويُقال لها -ما لم تُحرَقْ-: لَبِنةٌ، فإذا أُحرِقتْ فهي آجُرَّةٌ.

فجَعَلَ النَّاسُ يَطوفونَ به ويَعجَبونَ مِن حُسنِه، ويَقولونَ: لو وُضِعَتْ هذه اللَّبِنةُ لَكانَ غايةً في الحُسنِ والكَمالِ، فكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو هذه اللَّبِنةَ التي بها اكتَمَلَ البِناءُ، فهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالنِّسبةِ إلى الأنبياءِ السَّابِقينَ كاللَّبِنةِ المُتَمِّمةِ لذلك البِناءِ؛ لِأنَّ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَمالَ الشَّرائِعِ السابِقةِ، وليس معنى هذا أنَّ الأديانَ السابِقةَ كانتْ ناقِصةً، وإنَّما المُرادُ أنَّه وإنْ كانتْ كُلُّ شَريعةٍ كامِلةً بالنِّسبةِ إلى عَصرِها، فإنَّ الشَّريعةَ المُحَمَّديةَ هي الشَّريعةُ الأكمَلُ والأتَمُّ، وكَونُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاتَمَ النَّبيِّينَ، أي: لا نَبيَّ بَعْدَه.



عُمومُ دَعوتِه لجَميعِ الخَلقِ، وأنَّه أكثَرُ الأنبياءِ تَبَعًا

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وعن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: **((والذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ مِن هذه الأُمَّةِ؛ يَهُوديٌّ، ولا نَصْرانيٌّ، ثُمَّ يَموتُ ولَمْ يُؤمِنْ بالذي أُرسِلْتُ به، إلَّا كانَ مِن أصْحابِ النَّارِ))**(١).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: **((أنا أكْثَرُ الأنبِياءِ تَبَعًا يومَ القِيامَةِ، وأنا أوَّلُ مَن يَقْرَعُ بابَ الجَنَّةِ))**(٢).



النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُرسِلَ إلى النَّاسِ كافَّةً، فشَمِلَتْ دعوتُه اليَهودَ والنَّصارى وجميعَ أُمَمِ الأرضِ، ولا يَسَعُ أحدًا بعد بَعثتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا تصديقُه واتِّباعُ ما جاء به.

وفي الآيةِ الأُولى يَأمُرُ اللهُ تَبارَك وتَعالى نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإعلانِ أنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ إلى جَميعِ الناسِ؛ مِن العَرَب وغَيرِهم، فلمْ يُرسَلْ إلى بَعضِهم دونَ بَعضٍ.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تَعالى أنَّه نزَّلَ القرآنَ -المُفرِّقَ ببَيانِه بيْن الحَقِّ والباطِلِ-

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٦).



آياتٍ بعْدَ آياتٍ، وسُورةً بعدَ سُورةٍ على عَبدِه مُحمَّدٍ؛ لِيَكونَ مُنذِرًا لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، يُحَذِّرُهم عَذابَ اللهِ إنْ لم يُخلِصوا له في عِبادتِه؛ فقَولُه تَعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾ فيه فضْلُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حيثُ كُلِّفَ بتَبليغِ رِسالةِ اللهِ تَعالى إلى جَميعِ العالَمِينَ.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُقسِمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالذي يَملِكُ نَفْسَه ورُوحَه، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ -وذلك لأنَّ اللهَ هو الَّذي بيدِه أَنْفُسُ جميعِ الخلائقِ، وكثيرًا ما كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُقْسِمُ به- أنَّه لا يَعلمُ برسالتِه أحدٌ مِمَّن هو موجودٌ في زمانِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبَعْدَه إلى يَومِ القيامةِ، «مِن هذه الأُمَّةِ» أي: أمَّةِ الدَّعوةِ، إلَّا وَجَب عليه الإيمانُ به.

وقد خصَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اليهودَ والنَّصارى بالذِّكرِ وهو مِنْ بابِ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ؛ تَنْبِيهًا عَلَى مَنْ سِوَاهما؛ وذلك لأنَّ اليهودَ والنَّصارى لهم كِتابٌ، فإذا كان هذا شَأْنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع مَنْ لهم كتابٌ، فغيرُهم مِمَّن لا كتابَ له أَوْلى. «ثُمَّ يموتُ ولَمْ يُؤمِنْ بالَّذي أُرْسِلْتُ به»، وبهذا يكونُ ماتَ كافرًا، إلَّا كان جَزاؤُهُ أنْ يدخُلَ النَّارَ؛ لكُفرِهِ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبِما أُرْسِلَ به؛ فالإيمانُ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من مُوجِباتِ الإيمانِ بالله عزَّ وجلَّ، ومِن مُوجِباتِ الإيمانِ بسائِرِ الرُّسُلِ أيضًا.

وفي حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ فَضَّل نبيَّه محَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكرَّمه على سائِرِ البَشَرِ، وأكرَمَ اللهُ هذه الأمَّةَ إكرامًا لنبيِّها، ومِن تكريمِ اللهِ عزَّ وجلَّ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ كَثَّر أتباعَه، وزاد عددَ أمَّتِه المؤمنينَ برِسالتِه، فلا تأتي أُمَّةٌ يومَ القِيامةِ مِثلُ أُمَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

الإسراءُ والمِعْراجُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

وعن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي رَأيْتُ مُوسَى، وإذا رَجُلٌ ضَرْبٌ رَجِلٌ، كأنَّه مِن رِجالِ شَنُوءةَ، ورَأيْتُ عِيسى، فإذا هو رَجُلٌ رَبْعَةٌ أحْمَرُ كأنَّما خَرَجَ مِن دِيمَاسٍ، وأنَا أشْبَهُ ولَدِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ به، ثُمَّ أُتِيتُ بإناءَيْنِ: في أحَدِهِما لَبَنٌ، وفي الآخَرِ خَمْرٌ، فقالَ: اشْرَبْ أيَّهُما شِئْتَ، فأخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُه، فقِيلَ: أخَذْتَ الفِطْرَةَ، أمَا إنَّكَ لو أخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ!))[1].



رِحلةُ الإسراءِ والمِعراجِ مِنَ المعجزاتِ الكُبرى التي تجلَّى فيها فضْلُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وظهَرَ علوُّ مَقامِهِ عِند اللهِ عزَّ وجلَّ، وهي آيةٌ مِن آياتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى لِنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِيُثبِّتَ فُؤادَه، ويُقوِّيَ يَقينَه، وقد وردت في أحاديثَ صَحيحةٍ كَثيرةٍ.

ويَفتتِحُ اللهُ تَبارَك تعالَى **الآيةَ الكريمةَ المذكورةَ** -في مَطلَعِ سُورةِ الإسراءِ- بتَنزيهِ نفْسِه عن كلِّ ما لا يَليقُ به؛ فيقولُ: سُبحانَ الذي سيَّرَ عبْدَه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في اللَّيلِ مِن المَسجِدِ الحرامِ في مكَّةَ إلى المسجِدِ الأقْصى -وهو بَيتُ المَقدِسِ- الذي بارَكَ اللهُ تَعالى حَولَه بالأنهارِ والأشجارِ والثِّمارِ، وجعَلَه مَوضِعًا لكَثيرٍ مِن الأنبياءِ والأصْفياءِ، فأَسْرَى اللهُ تَعالى بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقظةً لا مَنامًا؛ كيْ يُرِيَه بَعضًا مِن عَجائِبِ قُدرتِه الكُبرى، وأدِلَّتِه العُظمَى، واللهُ هو السَّميعُ لجَميعِ المَسموعاتِ، البَصيرُ بكُلِّ المَرئيَّاتِ.

والتَّعبيرُ بلَفظِ العَبدِ في هذا المَقامِ العَظيمِ يدُلُّ دَلالةً واضِحةً على أنَّ مَقامَ العُبوديَّةِ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٦٨).



هو أشرَفُ صِفاتِ المَخلوقينَ وأعظَمُها وأجَلُّها؛ إذ لو كان هناك وَصْفٌ أعظَمُ منه لَعبَّرَ به في هذا المقامِ العظيمِ الذي اختَرَقَ فيه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السَّبعَ الطِّباقَ، ورَأى مِن آياتِ رَبِّه الكُبرى. وفيه إشارةٌ إلى أنَّه قام هذا المقامَ الأعظَمَ بكَمالِ عُبوديَّتِه لرَبِّه؛ ولذا ذَكَر اللهُ سُبحانَه نَبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باسمِ عُبوديَّتِه في أشرَفِ مَقاماتِه؛ في مَقامِ الإسراءِ، كما هنا، وفي مَقامِ الدَّعوةِ، ومَقامِ التَّحدِّي؛ فقال في مقامِ الدَّعوةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩]، وقال في مَقامِ التَّحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقيل: فائدةُ ذِكْرِ مَبدأِ الإسراءِ ونِهايتِه بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ أمْرانِ؛ **أحدُهما**: التَّنصيصُ على قطْعِ المسافةِ العظيمةِ في جُزءٍ مِن لَيلةٍ؛ وهو مِن قَبيلِ المُعجزاتِ. **وثانيهما**: الإيماءُ إلى أنَّ اللهَ تَعالى يَجعَلُ هذا الإسراءَ رمْزًا إلى أنَّ الإسلامَ جمَعَ ما جاءتْ به شَرائعُ التَّوحيدِ والحَنيفيَّةِ مِن عهْدِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الصَّادرِ مِن المسجِدِ الحرامِ، إلى ما تَفرَّعَ عنه مِن الشَّرائعِ التي كان مَقرُّها بَيتَ المَقدِسِ، ثمَّ إلى خاتمتِها التي ظَهَرَتْ مِن مكَّةَ أيضًا؛ فقد صَدَرَتِ الحَنيفيَّةُ مِن المسجِدِ الحرامِ، وتفرَّعَتْ في المسجِدِ الأقصى، ثمَّ عادتْ إلى المَسجِدِ الحرامِ كما عاد الإسراءُ إلى مكَّةَ.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُخْبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَن مشْهدٍ مِن مُشاهداتِه في هذه الرِّحلةِ المباركةِ، فقد رأى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ، في صورتِهما التي كانا عليها في الدُّنيا؛ أمَّا موسى فوَصَفَه كما رآه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه رجُلٌ نحيفٌ خفيفُ اللَّحمِ، شَعرُهُ ليس شديدَ الجُعودةِ ولا شديدَ السُّبوطةِ، كأنَّه يُشبِهُ واحِدًا مِن رجالِ شَنُوءةَ، وهي قبيلةٌ مِنَ اليَمَنِ، والشَّنُوءةُ -بفتح الشَّينِ-: التباعُدُ عن الأدناسِ؛ لُقِّبوا به لطهارةِ نَسَبِهم، وحُسنِ سِيرتِهم.



وأمَّا عِيسى ابنُ مَريمَ عليه السَّلامُ، فهو رجُلٌ مُعتَدِلُ القامةِ، لا طويلٌ ولا قصيرٌ، لونُه يميلُ إلى الحُمرةِ، ((كأنَّما خرجَ مِن ديماسٍ)) والدِّيماسُ: البَيتُ أو النَّفَقُ في الأرضِ. وقيل: الحمَّامُ، والمرادُ: وَصفُه بِصفاءِ اللَّونِ، ونضارةِ الجِسمِ، وكثرةِ ماءِ الوجهِ.

وأمَّا هو صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأقرَبُ النَّاسِ شَبَهًا بنَبيِّ اللهِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ.

ويَحكي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَشهدًا آخَرَ في هذه الرِّحلةِ المُبارَكةِ، فيُخبِرُ أنَّه قُدِّم له إناءانِ: في أحدِهما لَبنٌ، وفي الآخَرِ خمرٌ، وذلك قبل تحريمِ الخَمرِ؛ لأنَّ الإسراءَ كان بمكَّةَ، وتحريمَ الخمرِ كان بالمدينةِ، فقالَ له جِبريلُ: اشربْ أيَّهما شئْتَ، فأخذَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اللَّبنَ فَشرِبَه، فقيلَ له: أخذْتَ الفِطرةَ، وهي الإسلامُ والاسْتِقَامَةُ. والمعنى: اخْتَرْتَ عَلامَةَ الإسلامِ والاستقامةِ. وجُعِلَ اللَّبنُ عَلامَةَ الفِطْرةِ؛ لكَونِه سَهلًا طَيِّبًا طَاهِرًا نَافِعًا للشَّارِبينَ، سليمَ الْعَاقِبَةِ. ثمَّ قيلَ له: أمَّا الخَمرُ فإنَّك لو أخَذْتَها غوَتْ أُمَّتُك؛ وهذا لأنَّ الخمرَ أُمُّ الخبائثِ، وجالِبةٌ لأنواعِ الشُّرورِ، وهذا من تَوفيقِ اللهِ عزَّ وجلَّ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعِصمتِه له، ونعمتِه على هذه الأُمَّةِ.

لا يتمثلُ الشيطانُ بصورةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم في المَنامِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن رآني في المَنامِ فقد رآني؛ فإنَّ الشَّيطانَ لا يَتمَثَّلُ بي))[1].



انعَقَدتْ قُلوبُ المُؤمِنينَ على حُبِّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَمَنَّتْ أعيُنُهم أنْ لو رأتِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وفي هذا الحَديثِ يُبشِّرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

(١) أخرجه من طرقٍ: البخاريُّ (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦) واللفظ له.



وسلَّمَ مَن رآه في المَنامِ، أنَّ رُؤياه تلك صادِقةٌ ليستْ بأضغاثِ أحلامٍ، ولا مِن تَشبيهاتِ الشَّيطانِ، ويُؤيِّدُ ذلك قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن رآني فقد رأى الحَقَّ))[1]، حيثُ إنَّ الشَّيطانَ لا يَتصَوَّرُ بصُورةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولا يَتشَبَّهُ به.

ويُشترَطُ حتى يَكونَ الرَّائي رأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَراه على صِفَتِه المَعروفةِ المَنقولةِ إلينا في كُتُبِ السُّنَّةِ، ولو في أيِّ مَرحَلةٍ مِن مَراحِلِ حَياتِه، ومَن رأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على غَيرِ صُورَتِه المَعروفةِ فلا يُقالُ: إنَّه رأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فقد تَكونُ الرُّؤيا تَعبيرًا عن حالِ الرَّائي له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو تَخيُّلًا منه هو لِصِفةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو تَكونُ مِنَ الشَّيطانِ؛ لِأنَّ الحَديثَ ذَكَرَ أنَّ الشَّيطانَ لا يَتمَثَّلُ بصُورةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

ولا يَلزَمُ مِن ذلك أنْ يَكونَ الرَّائي مِنَ الصَّالِحينَ، ولا يَجوزُ أنْ يُعتَمَدَ عليها في شَيءٍ يُخالِفُ ما عُلِمَ مِنَ الشَّرعِ، بل يَجِبُ عَرضُ ما سَمِعَه الرَّائي مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أوامِرَ أو نَواهٍ أو خَبَرٍ أو غَيرِ ذلك مِنَ الأُمورِ التي يَسمَعُها أو يَراها الرَّائي لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الكِتابِ والسُّنَّةِ الصَّحيحةِ، فما وافَقَهما أو أحَدَهما قُبِلَ، وما خالَفَهما أو أحَدَهما تُرِكَ؛ لِأنَّ اللهَ سُبحانَه قد أكمَلَ لِهذه الأُمَّةِ دِينَها، وأتَمَّ عليها النِّعمةَ قَبلَ وَفاةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فلا يَجوزُ أنْ يُقبَلَ مِن أحَدٍ مِنَ الناسِ ما يُخالِفُ ما عُلِمَ مِن شَرعِ اللهِ ودِينِه، سواءٌ كان ذلك مِن طَريقِ الرُّؤيا أو غَيرِها، وهذا مَحَلُّ إجماعٍ بَينَ أهلِ العِلْمِ المُعتَدِّ بهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٦)، ومسلم (٢٢٦٧) من حديثِ أبي قتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه.



فَضائِلُ الصحابةِ وآلِ البَيتِ

أفضَلُ القُرونِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عنها قالت: سَأَلَ رَجُلٌ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: أيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قالَ: ((القَرْنُ الذي أَنَا فيه، ثُمَّ الثَّاني، ثُمَّ الثَّالِثُ))[(١)].



لم تَرَ الدُّنيا زمانًا هو خيرٌ مِن زمانٍ عاش فيه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأصحابُه رَضِيَ اللهُ عنهم، ولم يَعرِفْ التاريخُ حِقبةً سادَ فيها الخَيرُ، وعَمَّت فيها الفضائِلُ مِثلَ ما كان في ذلك الزَّمانِ.

وفي الآيةِ الكريمةِ المذكورةِ يَذكُرُ اللهُ تَعالى أنَّ أصحابَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -مِن المهاجرينَ الذين سَبَقوا المُسلِمينَ أوَّلًا إلى الإيمانِ، وقد تَركوا قَومَهم، وفارَقُوا أوطانَهم، وكذلك مِن أهلِ المدينةِ الذين نَصَروا الرَّسولَ على الكافرينَ، وآوَوْا أصحابَه المُهاجِرينَ- وأنَّ التَّابعينَ لهؤلاء السَّابِقينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ، الذين سَلَكوا طَريقَهم المُستقيمَ في الإيمانِ، والعمَلِ الصَّالحِ: أولئك جميعًا قدْ رَضِيَ اللهُ عنهم لطاعتِهم له، ورَضُوا همْ عن اللهِ؛ لِما أنعَمَ عليهم في الدُّنيا، وأثابَهُم في الآخرةِ، وقد هيَّأَ اللهُ تَعالى لأصحابِ النبيِّ ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ جَنَّاتٍ تَجري تحتَها الأنهارُ،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣٦). وأخرجه البخاري (٢٦٥١) بنحوه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

لابِثِينَ فيها على الدَّوامِ بلا انتهاءٍ، فلا يَموتونَ فيها، ولا يَنتَقِلونَ عنها.

وفي هذه الآيةِ دَليلٌ على وُجوبِ اتِّباعِ الصَّحابةِ الكِرامِ. وفيها أنَّ اللهَ سُبحانه رَضِيَ عن الصَّحابةِ السَّابقِينَ رِضًا مُطْلَقًا مِن غَيرِ اشتراطِ إحسانٍ، ولم يَرْضَ عن التَّابعينَ إلَّا أنْ يَتَّبِعوهم بإحسانٍ.

وفي حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُئِلَ: «أيُّ النَّاسِ خيرٌ؟» فَأجابَ: خيرُ النَّاسِ القرنُ الَّذي أنا فيه. والقَرنُ: أهلُ زمانٍ واحِدٍ مُتَقارِبٍ، اشْتَرَكُوا في أمْرٍ مِن الأُمورِ المَقصودةِ، واختُلِفَ في مُدَّةِ هذا القَرنِ، ولعلَّ الأصَحَّ أنَّه لا يَنضَبِطُ بمُدَّةٍ؛ فقَرْنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هم الصَّحابةُ، وكانتْ مُدَّتُهم -من المبعَثِ إلى آخِرِ من ماتَ مِن الصَّحابةِ- مائةً وعِشرينَ سَنةً، وإنَّما كان قَرنُه خيرَ النَّاسِ؛ لأنَّهم آمَنوا به حين كَفَر النَّاسُ، وصَدَّقوه حين كَذَّبوه، ونَصَروه حين خَذَلوه، وجاهَدوا وآوَوا.

ثُمَّ أخبَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يَلِيهم في الخَيريَّةِ أهلُ القَرنِ الثَّاني، وهم التَّابعونَ، ثُمَّ يَلِيهم في الخيريَّةِ أهلُ القَرنِ الثَّالثِ، وهم تَابِعُو التَّابِعِينَ.

فَضلُ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ

عن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((كُنَّا في زَمَنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا نَعْدِلُ بأَبِي بَكْرٍ أحَدًا، ثُمَّ عُمَرَ، ثُمَّ عُثْمانَ، ثُمَّ نَتْرُكُ أصْحابَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لا نُفاضِلُ بيْنَهُمْ))[1].

وعَن مُحمَّدِ بنِ الحَنَفيَّةِ، قال: (قُلتُ لأبي: أيُّ النَّاسِ خَيرٌ بعْدَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قال: أبو بَكْرٍ، قُلتُ: ثُمَّ مَن؟ قال: ثُمَّ عُمَرُ، وخَشِيتُ أنْ يَقولَ: عُثْمانُ،

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٨).

قُلتُ: ثُمَّ أنتَ؟ قال: ما أنا إلَّا رجُلٌ مِن المُسلِمينَ!)[1].



أصحابُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كلُّهم عُدولٌ، ولهم قَدَمُ صِدقٍ في الإسلامِ، وترتيبُهم في الفَضلِ هو ترتيبُهم في الخِلافةِ بَعدَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عنه، ومِن بَعدِه عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، ومِن بَعدِه عُثمانُ بنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، ومِن بَعْدِه عَليُّ بنُ أبي طالبٍ رضِيَ اللهُ عنه.

وفي حَديثِ عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما: أنَّهم كانوا في زَمَنِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يجعَلونَ أحدًا يُماثِلُ أو يُضاهي أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه في الفَضلِ والمَكانةِ والمنزلةِ بعد رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويأتي مِن بَعدِه في الترتيبِ الخليفةُ الثاني عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه، ومِن بَعدِه يأتي الخليفةُ الثَّالِثُ عُثمانُ بنُ عَفَّانَ رضِيَ اللهُ عنهم جميعًا، وبعد ذلك لا يُفاضِلونَ بينَ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

وأمَّا عَليُّ بنُ أبي طالبٍ فله فَضلُه ومكانتُه بين أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ولذا قُدِّمَ للخلافةِ بعد عُثمانَ رَضِيَ اللهُ عنه، وأمَّا عَدَمُ ذِكرِه في هذا الحديثِ، فذلك -واللهُ أعلَمُ- أنَّ ابنَ عُمَرَ أراد تفضيلَ الشُّيوخِ وذوي الأسنانِ منهم، الذين كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا حَزَبَه أمرٌ شاورهم فيه، وكان عليٌّ -رِضوانُ اللهِ عليه- في زمانِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أصغرَ سِنًّا منهم، ولم يُرِدِ ابنُ عُمَرَ تأخيرَه ودَفْعَه عن الفضيلةِ بعدَ عُثمانَ، وفَضلهُ مشهورٌ لا يُنكِرُه ابنُ عُمَرَ ولا غيرُه من الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم.

وفي أثرِ ابنِ الحنفيةِ جانِبٌ مِن فضائلِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ فقد كان

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧١).

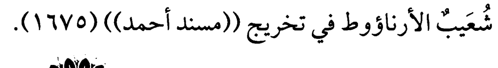
يؤثِرُ التواضُعَ، ولا يحِبُّ التصَدُّرَ، فبرغمِ فَضلِه رَضِيَ اللهُ عنه كان يَكرَهُ أن يُفَضِّلَه أحدٌ على عثمانَ رَضِيَ اللهُ عنه، فيَحكي محمَّدُ بنُ الحَنفيَّةِ -وهو ابنُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ مِن غيرِ فاطمةَ رَضِيَ اللهُ عنها، والحَنفيَّةُ: نِسبةٌ إلى جَدِّ أمِّه، واسمُها خَوْلَةُ- أنَّه سأل أباه عليًّا: «أيُّ النَّاسِ خيرٌ بعد رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟» فأجابه بأنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه هو خيرُ النَّاس بعد النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومِن بعدِه عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه. قال محَمَّدُ بنُ الحَنفيَّةِ: فخِفتُ أن يقولَ: إنَّ الأفضَلَ بَعْدَ عُمَرَ هو عثمانُ بنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه؛ تواضعًا منه، وهضمًا لنفسِه، فيضطرِبُ عليه الحالُ؛ لأنَّه كان يعتقِدُ أنَّ أباه عليًّا أفضلُ، فبادره وأشار إليه بأنَّه الأفضَلُ بَعدَهما؟ فردَّ عليه بما يناسِبُ تواضُعَه رَضِيَ اللهُ عنه، قائلًا: «ما أنا إلَّا رجُلٌ مِن المُسلِمينَ!» وهذا على سبيلِ التَّواضُعِ منه، مع العلمِ بأنَّه حين طُرِحَ هذا السُّؤالُ كان خيرَ النَّاسِ بلا نزاعٍ؛ لأنَّه كان بعد قَتْلِ عثمانَ رضي اللهُ عنهم أجمعينَ.

العَشَرةُ المُبَشَّرونَ بالجَنَّةِ

عن عبدِالرَّحمنِ بنِ عَوفٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: **((أبو بَكْرٍ في الجَنَّةِ، وعُمَرُ في الجَنَّةِ، وعُثْمانُ في الجَنَّةِ، وعَلِيٌّ في الجَنَّةِ، وطَلْحةُ في الجَنَّةِ، والزُّبَيرُ في الجَنَّةِ، وعَبدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوفٍ في الجَنَّةِ، وسَعْدٌ في الجَنَّةِ، وسَعيدٌ في الجَنَّةِ، وأبو عُبيدةَ بْنُ الجَرَّاحِ في الجَنَّةِ))**[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٤٧) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٨١٩٤)، وأحمد (١٦٧٥).
صحَّحه ابن حِبَّان في ((الصحيح)) (٧٠٠٢)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٧٤٧)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ١٣٦)، وقوَّى إسناده على شرط مسلمٍ: شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦٧٥).



لقدْ بَشَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم كثيرًا مِن الصَّحابةِ بالجنَّةِ؛ لعظيمِ عَطائِهم، وصِدقِ بَلائِهم في الإسلامِ، ومِن هؤلاء: العَشَرةُ المبشَّرون بالجنَّةِ، وإنَّما سُمُّوا بذلك وخُصُّوا من بين الذين بَشَّرَهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالجنَّةِ؛ لأنَّ تَبشيرَهم جاء في حَديثٍ واحدٍ مَشهورٍ، **وأوَّلُ هؤلاءِ العَشَرةِ**: أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عنه، وهو عبدُاللهِ بنُ عُثمانَ التَّيْميُّ القُرشيُّ، وهو أوَّلُ الخلفاءِ الرَّاشِدين، وهو وَزيرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وصاحبُه، ورفيقُه عندَ هجرتِه إلى المدينةِ المنوَّرةِ، وأوَّلُ من أسلَمَ من الرِّجالِ الأحرارِ، وهو أكثرُ الصَّحابةِ إيمانًا وزُهدًا، ومِن أحَبِّ النَّاسِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولَقَّبه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصِّدِّيقِ؛ لِكَثرةِ تَصْديقِه له.

وثانيهم: عُمرُ بنُ الخطَّابِ العدَويُّ القُرشيُّ، المُلقَّبُ بالفاروقِ، وهو ثاني الخُلفاءِ الرَّاشدين، ومِن كبارِ أصحابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو وزيرُه مع أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُما، ومِن عُلماءِ الصَّحابةِ وزُهَّادِهم. تولَّى الخِلافةَ بعدَ وفاةِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، وقد اشتَهَر بعَدْلِه وإنصافِه النَّاسَ مِن المظالِمِ، وفي عَهدِه زادَتِ الفُتوحاتُ، وانتَشَر الإسلامُ، وهو أوَّلُ مَن مَصَّر الأمصارَ، ونَظَّم الدَّولةَ الإسلاميَّةَ.

وثالثُهم: عثمانُ بنُ عفَّانَ الأُمويُّ القُرشيُّ ثالثُ الخلفاءِ الرَّاشدين، ومِن السَّابِقين إلى الإسلامِ، يُكْنى ذا النُّورَين؛ لأنَّه تزَوَّج مِن رُقيَّةَ، ثمَّ بعدَ وَفاتِها تزوَّجَ مِن أمِّ كُلثومٍ، وكان أوَّلَ مُهاجِرٍ إلى أرضِ الحبَشةِ، ثمَّ هاجَر الهِجرةَ الثَّانيةَ إلى المدينةِ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَثِقُ به ويُحِبُّه ويُكْرِمُه؛ لحيائِه، وأخلاقِه، وحُسْنِ عِشْرتِه، وما كان يَبذُلُه مِن المالِ لِنُصرةِ المسلِمين، وفي خِلافتِه جُمِع القرآنُ، وعَمِل توسِعةً للمسجِدِ الحرامِ، وكذلك المسجدُ النَّبويُّ، وأنشَأ أوَّلَ أُسطولٍ بَحريٍّ إسلاميٍّ لحِمايةِ الشَّواطِئِ الإسلاميَّةِ.

ورابعُهم: عليُّ بنُ أبي طالبِ بنِ عبدِالمطَّلِبِ الهاشميُّ القُرشيُّ، ابنُ عمِّ النبيِّ



صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم وصِهْرُه، وهو رابعُ الخلفاءِ الرَّاشِدين، وهو أوَّلُ مَن أسلَم مِن الصِّبيانِ، هاجَر إلى المدينةَ بعدَ هِجرةِ النبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بثلاثةِ أيَّامٍ، وآخاه مع نفْسِه، وزوَّجه ابنتَه فاطمةَ في السَّنَةِ الثَّانيةِ مِن الهجرةِ، وقد شارَك في كلِّ غزَواتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عدا غَزْوةَ تَبوكَ، وكان أحَدَ كُتَّابِ الوحيِ، وأحَدَ أهَمِّ سُفَرائِه ووُزرائِه.

وخامِسُهم: طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ بنِ عُثمانَ بنِ عمرِو بنِ كعبٍ، مِن بَني تَيْمِ بنِ مُرَّةَ بنِ كعبٍ، أسلَم على يدَيْ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، وشَهِد المشاهِدَ مع النبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، وأُصيبت يدُه يومَ أُحُدٍ فرَقاها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقُتِل بعدَ موقِعةِ الجمَلِ.

وسادسُهم: الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ القُرشِيُّ الأسديُّ، ابنُ عمَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومِن السَّابِقين إلى الإسلامِ، يُلقَّبُ بِحَواريِّ رسولِ اللهِ، وهو أوَّلُ مَن سَلَّ سيفَه في الإسلامِ، هاجَر إلى الحبَشةِ في الهجرةِ الأولى ولم يُطِلِ الإقامةَ بها، شارَك في جميعِ الغزواتِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبعدَ مقتَلِ عُثمانَ بنِ عفَّانَ خرَج إلى البصرةِ مُطالِبًا بالقِصاصِ مِن قَتَلةِ عُثمانَ، فقَتَله عَمرُو بنُ جُرْموزٍ في موقعةِ الجمَلِ، فكان قَتلُه في رجَبٍ سنةَ سِتٍّ وثَلاثين مِن الهجرةِ، وله أربعٌ وسِتُّون سَنةً.

وسابعُهم: عبدُالرَّحمنِ بنُ عوفِ بنِ عبدِ عوفِ بنِ عبدِالحارثِ بنِ زُهْرةَ، وهو مِن السَّابِقين الأوَّلينَ إلى الإسلامِ؛ إذْ أسلَم قبلَ دُخولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دارَ الأرقَمِ بنِ أبي الأرقمِ، وهاجر الهِجرتَين، وشَهِد بدْرًا وسائرَ المشاهِدِ، وآخى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بينَه وبينَ سعدِ بنِ الرَّبيعِ الخَزْرَجيِّ، وتَصدَّق على عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشَطْرِ مالِه، ثمَّ تصَدَّق بأربَعين ألْفَ دينارٍ، ثمَّ حَمَل على خَمْسِمائةِ فرَسٍ وخَمسِمائةِ راحلةٍ في سَبيلِ اللهِ، وكان يَصِلُ زَوجاتِ النبيِّ صلَّى اللهُ



علَيه وسلَّم بالعَطايا والمالِ.

وثامنُهم: سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ مالِكِ بنِ وُهَيبِ بنِ عبدِ مَنافِ بنِ زُهْرةَ، فهو مِن بَني زُهْرةَ، وهم فَخِذُ آمِنةَ بنتِ وهبٍ أمِّ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، وقد كان الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَعتَزُّ بكَونِه مِن أخوالِه، وُلِد في مكَّةَ، واشتَغَل في بَرْيِ السِّهامِ وصِناعةِ القِسِيِّ، وكان إسلامُه مُبكِّرًا، ويُعَدُّ أوَّلَ مَن رمى بسَهمٍ في سبيلِ اللهِ، وشَهِد المشاهِدَ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو قائدُ موقعةِ القادسيَّةِ، وفاتحُ مَدائنِ كِسْرى.

وتاسِعُهم: سَعيدُ بنُ زيدِ بن عَمرِو بن نُفيلٍ، أَسلَم قديمًا قبلَ عُمَرَ، هو وامرأتُه فاطمةُ بنتُ الخطَّاب، وهي كانت سببَ إسلامِ عُمَر، وكان مِن المُهاجرين الأوَّلين، وآخَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بينه وبين أُبَيِّ بن كعبٍ، وشَهِد المشاهِدَ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولم يكُنْ بالمدينةِ زَمانَ بَدرٍ؛ فلم يَشهَدْها، وشَهِدَ سَعيدُ بنُ زَيدٍ اليَرمُوكَ وفَتْحَ دِمَشقَ.

وعاشِرُهم: أبو عُبَيْدة عامِرُ بنُ عبدِاللهِ بنِ الجَرَّاحِ بنِ هلالِ بنِ أُهَيبٍ، وهو أحدُ السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلامِ، أسلَم على يدِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ في الأيَّامِ الأولى للإسلامِ. هاجَر إلى الحبَشةِ في الهجرةِ الثَّانيةِ، وقد لقَّبَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأمينِ الأمَّةِ، وكان مِمَّن ثبَت مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ أحُدٍ، وشَهِد المَشاهِدَ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والخلفاءِ الرَّاشِدين مِن بعدِه، مات بطاعونِ عَمَواسَ، ودُفِن في قريةٍ صغيرةٍ حمَلَتِ اسْمَه بالغُورِ في الأردُنِّ.

فجميعُ هؤلاء الصَّحابةِ بُشِّروا بالجنَّةِ وهم يَمْشونَ على الأرضِ في الدُّنيا؛ فما أعظَمَ ذلك مِن بِشارةٍ!

إكرامُ آلِ البَيتِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وعن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: قالَ أبو بَكْرٍ: (ارْقُبُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أَهْلِ بَيْتِهِ)[1].



حَفِظَ اللهُ سُبحانَه وتعالى مَقامَ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأعلى مِن شأنِه؛ فهو المُبلِّغُ عنه آخِرَ رِسالاتِه، وهو آخِرُ الأنبياءِ وسيِّدُ المرسَلينَ، فأَمَرَ عزَّ وجلَّ بتَوقيرِه وحِفظِ مَكانتِه، فقال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، وحِفْظُ حقِّ أهلِ بيتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من حِفْظِ حقِّه، ووَصْلُهم بالوُدِّ من وَصْلِه ووُدِّه؛ وشَرُّ خَلْقِ اللهِ مَن يَخوضون في عِرْضِ زَوجاتِه أُمَّهاتِ المؤمنينَ ويَسُبُّونهنَّ، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** بَيانُ أنَّ اللهَ يُريدُ أنْ يُذهِبَ عن أهلِ بَيتِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَساوِئَ الأخلاقِ والأعمالِ بما يَأمُرُهم ويَنْهاهم، ويُحِبُّ أنْ يُطَهِّرَهم تَطهيرًا مِن دَنَسِ السَّيِّئاتِ.

وفي حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما يُذكِّرُ أبو بكرٍ رضِي اللهُ عنه النَّاسَ بهذا الحقِّ الَّذي يَنبَغي على كُلِّ مُسلمٍ حِفْظُه، فقال: ارقُبوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أهلِ بَيتِه، يَعني: احفَظوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أهلِه؛ فلا تَسُبُّوهم، ولا تُؤذوهم، وأكرِموا صُحبتَهم، وأنزِلوهم مَنزِلتَهم بلا إفراطٍ ولا تفريطٍ.

وأهلُ بيتِه هم فاطمةُ وأبناؤها، وزوجاتُه رضِي اللهُ عنهم أجمعينَ. وقيل: هم من

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥١).



تحرُمُ عليه الصَّدَقةُ بَعْدَه؛ آلُ عليٍّ، وآلُ عَقيلٍ، وآلُ جَعفرٍ، وآلُ عبَّاسٍ.

النهيُ عن سَبِّ الصَّحابةِ الكِرامِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((**لا تَسُبُّوا أصْحابِي، لا تَسُبُّوا أصْحابِي؛ فَوالذي نَفْسِي بيَدِهِ، لو أنَّ أحَدَكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أدْرَكَ مُدَّ أحَدِهِمْ، ولا نَصِيفَهُ**))[1].



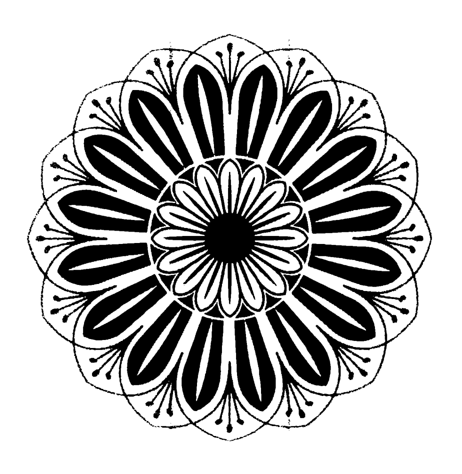
في الآيةِ الكريمةِ المذكورةِ نَهْيٌ مِن اللهِ تَبارَك وتَعالى عن إيذاءِ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ مِن غَيرِ جِنايةٍ منهم، كسَبِّهم وشَتْمِهم، ومَن يَفعَلُ ذلك فقدْ تَحمَّلَ كَذِبًا فاحِشًا؛ لافترائِهِ عليهم ما همْ منه بُرَآءُ، وتَحَمَّلَ إثمًا ظاهِرًا؛ فأذِيَّةُ المُؤمِنينَ عَظيمةٌ، وإثْمُها عَظيمٌ؛ ويدخُلُ في هذا الوَعيدِ كُلُّ مَن ينتَقِصُ الصَّحابةَ الكِرامَ ويَعيبُهم بما قدْ برَّأَهم اللهُ منه ويَصِفُهم بنَقيضِ ما أخبَرَ اللهُ عنهم.

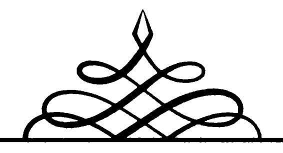
وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه نَهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَن سبِّ أصحابِه رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعينَ، وكرَّر النَّهيَ للتَّأكيدِ، وبَيَّن أنَّ جُهْدَ المُقِلِّ منهم، واليَسيرَ مِنَ النَّفَقةِ الذي أنفَقوه في سبيلِ اللهِ، مع شِدَّةِ العَيشِ والضِّيقِ الذي كانوا فيه: أوفى عندَ اللهِ، وأزكى مِن الكثيرِ الذي يُنفِقُه مَن بَعدَهم، فيَحلِفُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بِاللهِ الذي نَفْسُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيَدِه، أنَّه لا ينالُ أحَدُكم بإنفاقِ مِثلِ أُحُدٍ ذَهَبًا من الأجرِ والفَضلِ ما يَنالُ أحَدُ الصحابة بإنفاقِ مُدِّ طَعامٍ أو نِصفِه -والمُدُّ:

---

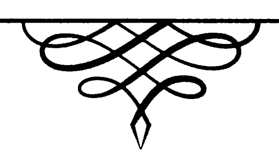
(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٠). وأخرجه البخاري (٣٦٧٣) من حديثِ أبي سعيدِ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

هو مِلءُ الكَفِّ مِنَ الطَّعامِ-؛ فالقَليلُ الذي أنفَقَه أحدُهم أكثَرُ ثوابًا مِن الكثيرِ الذي يُنفِقُه غَيرُهم؛ وذلك لِمَا كان يُقارنُ عمَلَ الصَّحابةِ مِن السَّبْقِ، ومَزيدِ الإخلاصِ، وصِدقِ النيَّةِ، وكمالِ النَّفْسِ، بخِلافِ غيرِهم.

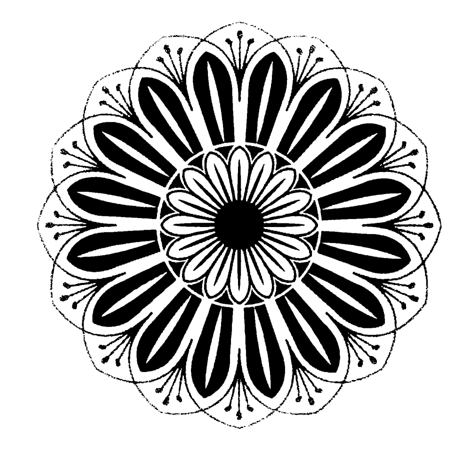




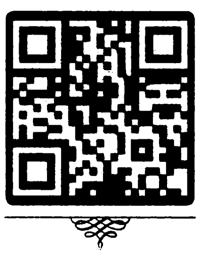
الأحْكامُ



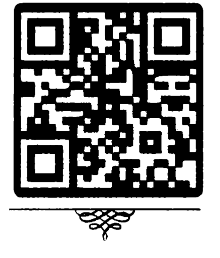
باقــةٌ مُنتَقــاةٌ مِــن أحــكامِ الشَّــرعِ وشَــعائرِ الدِّيــنِ، يُحلِّــقُ فيهــا المُســلِمُ بيْــنَ رِيــاضِ العِبــاداتِ وأزهــارِ المُعامَــلاتِ، ليُحقِّــقَ بجُملتِهــا تَقــوَى اللهِ؛ امتِثــالًا لأوامــرِه، واجتِنابًــا لنَواهِيــه، ويَظهَــرُ بها خُضوعُــه لمَــولاه؛ فــلا يفتَقِــدُه حيــثُ أمَــرَه، ولا يَجِــدُه حيــثُ نَهــاه.



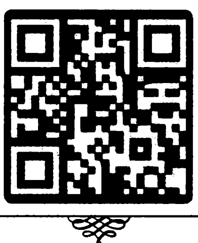
تطبيق
فقه الأسرة



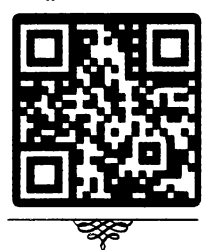
تطبيق فقه
العبادات



تطبيق فقه
اللباس
والزينة



لزيارة
الموسوعة
الفقهية



الطهارةُ

النَّهيُ عنِ استِقبالِ القِبلةِ
أوِ استِدبارِها عندَ قَضاءِ الحاجةِ

عن أَبي أَيُّوبَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((إذا أَتيتُمُ الغائِطَ فلا تَستَقبِلُوا القِبْلَةَ ولا تَستَدْبِروها، ولكِنْ شَرِّقوا أو غَرِّبوا. قال أبو أَيُّوبَ: فقَدِمْنا الشَّأْمَ فوَجَدْنا مَراحِيضَ بُنِيَتْ قِبَلَ القِبْلةِ فنَنحَرِفُ، ونَسْتغفِرُ اللهَ تعالَى))[1].

وعن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه كانَ يقولُ: ((إنَّ ناسًا يقولونَ: إذا قَعَدْتَ على حاجتِكَ فلا تَستَقبِلِ القِبْلَةَ ولا بَيْتَ المَقْدِسِ، فقالَ عبدُاللهِ بنُ عُمَرَ: لقدِ ارْتقَيْتُ يومًا على ظهْرِ بَيتٍ لنا، فرَأَيْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على لَبِنتَينِ، مُستَقبِلًا بَيْتَ المَقدِسِ لحاجَتِه))[2].



يَنبغي للمُسلمِ تَعظيمُ القِبلةِ -وهي البيتُ الحَرامُ في مَكَّةَ المُكرَّمةِ- واحترامُها وحِفْظُها عمَّا لا يَلِيقُ، ومِن ذلك ألَّا يَستَقبلَها ولا يَستدبرَها عند قَضاءِ حاجتِه.

وفي الحَديثِ الأوَّلِ يُخبِرُ أبو أَيُّوبَ الأنصاريُّ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نهَى عن استِقبالِ القِبلةِ أو استِدبارِها حالَ قَضاءِ الحاجةِ؛ فإذا أرادَ المسلمُ أنْ يَقضِيَ حاجتَه فعَليهِ ألَّا يَجعَلَ القِبلةَ في جِهةِ الأمامِ أو الخَلفِ، بلْ عليه أنْ يَنحرِفَ عنها، والمرادُ بالقِبلةِ: الجِهةُ التي يُتوجَّهُ إليها عندَ الصلاةِ وهي الكَعبةُ المُشرَّفةُ في البيتِ الحَرامِ، وقولُه: «شَرِّقوا أو غَرِّبوا» مخصوصٌ بأهلِ المَدينةِ؛

(١) أخرجه البخاري (٣٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٦٤) باختلاف يسير.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥) واللفظ له، ومسلم (٢٦٦).



لأنَّهم المُخاطَبون، ومِثلُهم مَن هو على سَمْتِ المدينةِ ممَّن إذا استقبَلَ المَشرقَ أو المَغرِبَ لم يستقبلِ القِبلةَ، ولم يَستدبِرْها. وذلك النَّهيُ يَختصُّ بما إذا كان الإنسانُ في الصَّحارِي والفَضاءِ، وأمَّا إذا كانتِ المراحيضُ مَبنيَّةً على شَكلٍ يَقتضِي استقبالَ القِبلةِ أو استدبارَها؛ فإنَّه لا يُكلَّفُ بالانحرافِ عن القِبلةِ، ولكنَّ أبا أيُّوبَ الأنصاريَّ رضِيَ اللهُ عنه كان يرَى أنَّ النَّهيَ عامٌّ حتى ولو كانتْ في مَراحيضَ مبنيَّةٍ في القُرَى والمَدائِنِ؛ ولذلك أخْبَر أنَّهم بعدَ هذا النَّهيِ لَمَّا قدِموا بلادَ الشامِ -وهي الآنَ تَشمَلُ البِلادَ المعروفةَ سُوريةَ والأُردنَّ وفِلسطينَ ولبنانَ- وجَدوا المراحيضَ، وهي أماكنُ مِثلُ البيتِ مُخصَّصةٌ لقَضاءِ الحاجةِ، وكان أهلُ الشامِ قد بَنَوْا هذه المراحيضَ تُجاهَ القِبلةِ؛ فأخْبَر أبو أيُّوبَ رضِيَ اللهُ عنه عن تَجنُّبِه لذلك النهيِ عندَ قَضاءِ الحاجةِ بداخلِ هذه المراحيضِ أيضًا، فقال: «فَنَنْحَرِفُ، ونَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى»، أي: نَجتهِدُ في المَيلِ بأجسادِنا عن اتِّجاهِ القِبلةِ بالقَدْرِ المُستطاعِ وما تَسمَحُ به تلك البيوتُ، ثمَّ نَستغفِرُ اللهَ مِن الاستقبالِ، وهذا الاستِغفارُ يكونُ خارجَ المَراحيضِ لا بداخلِها؛ للنَّهيِ الواردِ عن ذِكرِ اللهِ تعالى في مَواضِعِ قَضاءِ الحاجةِ.

وفي الحَديثِ الثاني يُنكِرُ عبدُاللهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما على أناسٍ يَقولونَ: إذا قَعدْتَ على حاجتِكَ -وهو كِنايةٌ عنِ التَّبرُّزِ ونحوِه؛ وذَكَر القُعودَ؛ لِكَونِه الغالِبَ- فلا تَستَقبِلِ القِبلةَ ولا بَيتَ المَقدسِ، وذكَرَ بيتَ المَقدِسِ؛ لأنَّه كان القِبلةَ الأُولى للمُسلِمينَ؛ فبَيَّنَ عبدُاللهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ هذا القَولَ يَتَنافَى مع ما رآهُ مِن فِعلِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، حيثُ كان عبدُاللهِ صاعدًا على سَطحِ بَيتٍ، فرَأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يَقْضي حاجَتَه، واضِعًا رِجْلَيْه على لَبِنتَينِ مُستقبِلًا بَيتَ المَقدِسِ، ويَلزمُ من هذا أن يكونَ مُستَدبِرًا القِبلةَ؛ لأنَّ بَيتَ المَقدِسِ شَمالَ المَدينةِ، ومكَّةَ جَنوبَها. واللَّبِنةُ قالَبٌ يكونُ مُستطيلًا أو مُربَّعًا مَصنوعًا مِن الطِّينِ، ويُستخدَمُ في البِناءِ.

فبيَّن حَديثُ ابنِ عُمَرَ رضِيَ الله عنهُما أنَّه لا يُوجَدُ حَرَجٌ أو مَحظورٌ شرعيٌّ في

قَضاءِ الحاجةِ فيما بُني باتِّجاهِ القِبلةِ استِقبالًا أو استِدبارًا، وأنَّ حُكمَ النهيِ يخُصُّ مَن كان يَقضي حاجتَه في أماكنَ يَستطيعُ أنْ يَميلَ فيها عن جِهةِ القِبلةِ في الصَّحراءِ والفَضاءِ ونَحوِ ذلك، وأنَّ فِعلَ أبي أيُّوبَ رضِيَ اللهُ عنه هو اجتِهادٌ ومَزيدُ احتياطٍ مِنه للعَمَلِ بالحَديثِ الذي حدَّثَ به عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حامِلًا النهيَ فيه على العُمومِ، ولربَّما لم يَقِف على فِعلِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو على حَديثِ عَبدِ اللهِ ابنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما.

دُعاءُ الدُّخولِ إلى أماكِنِ قَضاءِ الحاجةِ والخُروجِ مِنها

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا دخَلَ الخَلاءَ قال: ((اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن الخُبُثِ والخَبائِثِ))(١).

وعن عائِشةَ رضِيَ اللهُ عنها: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا خرَجَ مِن الغائِطِ قال: ((غُفرانَكَ))(٢).



(١) أخرجه البخاري (١٤٢) واللفظ له، ومسلم (٣٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠)، وأحمد (٢٥٢٢٠) واللفظ لهما، والترمذي (٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٩٠٧)، وابن ماجه (٣٠٠).

قال أبو حاتم الرازي كما في ((المحرر)) لمحمد ابن عبد الهادي (٦٩): أصحُّ حديثٍ في هذا الباب. صحَّحه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (١٤٤٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (٥٦٣)، والنووي في ((المجموع)) (٢/ ٧٦)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (٢/ ٣٩٣)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٠)، وقال ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٢١٤): حسنٌ صحيحٌ.

الاستِعاذةُ باللهِ تعالى مِن الشُّرورِ عُمومًا، ومِن الشَّياطينِ خُصوصًا: أمرٌ مُؤكَّدٌ في الشَّرعِ المُطهَّرِ، **وفي هاتَينِ الآيتَينِ الكَريمتَينِ** أمرٌ إلَهيٌّ لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بسؤالِ رَبِّه العِصمةَ من وَساوسِ الشَّياطينِ التي تحُضُّ على الوُقوعِ في السَّيِّئاتِ وتَركِ عمَلِ الحَسَناتِ؛ وسؤالِ رَبِّه العِصمةَ من حُضورِ الشَّياطينِ لأيِّ أمْرٍ من أُمورِه، فلا يُصيبونَه بشَرٍّ وأذًى.

ومن مواطِنِ الاستِعاذةِ أماكِنُ قَضاءِ الحاجةِ، كما **في الحديث الأول** الذي يَرْويه أَنَسُ بنُ مالِكٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا أرادَ دُخولَ مَكانِ قَضاءِ الحاجةِ دَعا بقَولِه: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعوذُ بكَ» أي: أَلجأُ وأحْتَمي باللهِ عزَّ وجلَّ، «منَ الخُبُثِ -بضمِّ الباءِ وتَسكينِها- والخَبائِثِ»، والمُرادُ: ذُكورُ الشَّياطينِ وإناثُهُم، والاستِعاذةُ تكونُ من كَيْدِهم وشَرِّهِم، وما يُلقُونَ به في النَّفْسِ من وَساوِسَ. وقيلَ: الخُبثُ هو الشَّرُّ، وقيلَ: الكُفرُ، وقيلَ: الخُبُثُ: الشَّياطينُ، والخَبائِثُ: المَعاصي. وخصَّ الاستِعاذةَ مِن الشياطينِ بأماكِنِ قَضاءِ الحاجةِ؛ لأنَّه يُهجَرُ فيها ذِكرُ اللهِ.

وفي الحَديثِ الثاني تُخبِرُ عائِشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يقولُ إذا خرَجَ مِن الغائِطِ[1]: «غُفرانَكَ»، أي: اللَّهُمَّ إنِّي أسأَلُكَ غُفرانَكَ، أوِ اغفِرْ غُفرانَكَ؛ فيَنبَغي لكلِّ مَن فرَغَ من حاجَتِه أنْ يَقولَ هذا الذِّكرَ العَظيمَ المُشتمِلَ على الخَيرِ الكَثيرِ، وقيلَ: الحِكمةُ مِن هذا الدُّعاءِ عَقيبَ الخُروجِ مِن الخَلاءِ: أنَّه قدِ استَغفَرَ مِن تَرْكِه ذِكرَ اللهِ تعالى مُدَّةَ لُبثِه على الخَلاءِ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان لا يَهجُرُ ذِكرَ اللهِ تعالى إلَّا عِندَ الحاجةِ، فكأنَّه رَأى ذلك تَقصيرًا، وعَدَّه على نفْسِه ذَنبًا، فتَدارَكَه بالاستِغفارِ؛ فسأَلَ غُفرانَ اللهِ تعالَى عن حالٍ شغَلَتْه عن ذِكرِه، وقيلَ: إنَّه يَستغفِرُ من تَقصيرِه في شُكرِ النِّعمةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى أطْعَمَه، ثُمَّ هضَمَه، ثُم سهَّلَ خُروجَ الأذَى منه،

(١) الغائِطُ: هو الخَلاءُ ومكانُ قضاءِ الحاجةِ. وأصْلُ الغائطِ: الأرضُ المُنخفِضةُ، سُمِّيَ به مَحلُّ قَضاءِ الحاجةِ، وهذا الدُّعاء شامِلٌ لِمَن فرَغ مِن حاجتِه سَواءٌ كان في الصَّحراءِ أمْ في البُنيانِ.



فرَأَى شُكرَه قاصِرًا عن بُلوغِ حقِّ هذه النِّعمةِ؛ ففزِعَ إلى الاستِغفارِ من ذلك.

الاستنزاهُ من البَولِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهُما، قال: مَرَّ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على قَبرَينِ فقال: ((أمَا إنَّهُما لَيُعذَّبانِ وما يُعذَّبانِ في كَبيرٍ؛ أمَّا أحدُهُما فكان يَمْشي بالنَّميمةِ، وأمَّا الآخَرُ فكان لا يَستَتِرُ من بَوْلِه ...))[1]. وفي رِوايةٍ: ((وكان الآخَرُ لا يَستَنزِهُ عنِ البَوْلِ أو مِن البَولِ))[2].



الإسلامُ دِينُ النظافةِ والطُّهرِ؛ حيثُ أمَرَ أتْباعَه أنْ يَحرِصوا على التطهُّرِ والاحتياطِ مِن النجاساتِ، وقد أخبرَ اللهُ سُبحانَه وتعالَى أنَّه يُحبُّ عِبادَه الذين يُطهِّرونَ بواطِنَهم بالمُداوَمةِ على التَّوبةِ مِن الذُّنوبِ، ويُطهِّرونَ ظَواهِرَهم بالماءِ مِن الأنجاسِ والأحْداثِ، ومدَحَ اللهُ تعالَى في كتابِه رِجالًا اشتَدَّتْ مَحبتُهم للطَّهارةِ مِن النَّجاساتِ؛ تَقرُّبًا إلى اللهِ بذلك، حتى صار خُلُقًا لهم وسَجيَّةً، كما في **الآيتين المذكورتين.**

وفي حَديثِ عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهُما أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَرَّ على حائطٍ: وهو البُسْتانُ إذا كان له سُورٌ، فسمِعَ صَوتَ إنسانَينِ يُعذَّبانِ في قُبورِهما، فأخبَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّهما يُعذَّبانِ الآنَ، ولا يُعذَّبانِ في أمرٍ كَبيرٍ

(١) أخرجه البخاري (٢١٨)، ومسلم (٢٩٢) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٢).



في نَظرِ الناسِ، وإنْ كان هو في الحَقيقةِ كَبيرًا عندَ اللهِ تعالَى؛ ولذلك قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -كما في رِوايةٍ أُخرى-: «بَلَى» إنَّه كَبيرٌ في الحَقيقةِ. وسببُ عَذابِهما: أنَّ أحدَهما كان نمَّامًا ينقُلُ كلامَ غيرِه بقَصْدِ الإضرارِ والوَقيعةِ بيْنَ الناسِ، وكان الآخَرُ لا يَستبرِئُ من بَولِه، ولا يَتحفَّظُ ولا يَحتاطُ من أنْ يُصيبَه شيءٌ منه. وقَولُه: «لا يَستتِرُ مِن بَوْلِه»، رُوِيَ بروِاياتٍ ثَلاثٍ: «يَستتِرُ»، و«يَستَنزِهُ»، و«يَستبرِئُ»، وكُلُّها صَحيحةٌ، وفي هذا تنبيهٌ على لزُومِ التطهُّرِ مِن البَولِ، والاحتِرازِ منه، وعَدمِ التهاوُنِ في ذلك؛ فإنَّ التهاوُنَ فيه موجِبٌ لعَذابِ القَبرِ.

حكمُ الصَّلاةِ بغَيرِ طُهورٍ

عن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لا تُقبَلُ صَلاةُ أحَدِكم إذا أحْدَثَ حتى يَتوَضَّأَ))(١).



الطَّهارةُ مِن الحَدَثِ -سَواءٌ كان أكبرَ أو أصغرَ- شَرطٌ في صحَّةِ الصَّلاةِ، فقد قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا تُقبَلُ صلاةٌ بغيرِ طُهورٍ»(٢) وانعقَد إجماعُ الأُمَّةِ على أنَّ الطهارةَ شرطٌ في صحَّةِ الصَّلاةِ.

وفي الحَديثِ المذكورِ يَقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لا تُقبَلُ صَلاةُ مَن أحدَثَ حتى يَتوضَّأَ»: حتى يَتطهَّرَ بالماءِ ويَتوضَّأَ بغَسلِ أعْضائِه الظاهِرةِ وُضوءًا تامًّا؛ فكلُّ مَن صلَّى بغَيرِ وُضوءٍ وهو مُحدِثٌ فإنَّ صَلاتَه غَيرُ صَحيحةٍ، ولا تُجزِئُ عنه، إلَّا مَن كان له عُذرٌ فيُجزئُه التيمُّمُ، ومَن تَعذَّرَ عليه التيَمُّمُ كذلك لعُذرٍ، فله أنْ يُصلِّيَ حسَبَ استِطاعَتِه؛ فلا يُكلِّفُ اللهُ نَفسًا إلَّا وُسعَها. والمُرادُ بالحَدَثِ هنا هو الحَدَثُ الأصغَرُ،

(١) أخرجه البخاري (١٣٥)، ومسلم (٢٢٥) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤) من حديثِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما.

والحَدَثُ الأصغَرُ يكونُ من خُروجِ البَولِ أو الغائطِ، أو خروجِ الرِّيح، أوإنزالِ المَذْيِ: وهو ماءٌ رقيقٌ لزِجٌ يخرُجُ مِنَ الذَّكَرِ عَقِبَ شَهوةٍ، أوِ الوَدْيِ: وهو الماءُ اللَّزِجُ الذي يخرُجُ مِنَ الذَّكَرِ بَعْدَ البَولِ، وأمَّا الحَدَثُ الأكبرُ فيكونُ من إنزالِ المَنِيِّ بشَهوةٍ، أو الجِماعِ، أو الحَيضِ، أو النِّفاسِ، ويُشترَطُ له الغُسلُ الكامِلُ.

فَضلُ الوُضوءِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وعن أبي مالِكٍ الأشْعَريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ ...)) الحَديثَ[١].

وعن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((مَن توضَّأَ فأحسَنَ الوُضوءَ خرَجَتْ خَطاياهُ من جَسَدِه، حتى تَخرُجَ من تَحتِ أَظْفارِه))[٢].

وعن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا توضَّأَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥).

العَبدُ المُسلِمُ أوِ المُؤمِنُ، فغسَلَ وَجهَه خرَجَ من وَجهِه كُلُّ خَطيئةٍ نظَرَ إليها بعَينَيْهِ مع الماءِ، أوْ مع آخِرِ قَطرِ الماءِ، فإذا غسَلَ يَدَيْه خرَجَ من يَديْهِ كُلُّ خَطيئةٍ كان بطَشَتْها يَدَاه مع الماءِ، أوْ مع آخِرِ قَطرِ الماءِ، فإذا غسَلَ رِجلَيْه خرَجَتْ كُلُّ خَطيئةٍ مَشَتْها رِجْلاهُ مع الماءِ، أوْ مع آخِرِ قَطرِ الماءِ، حتى يَخرُجَ نَقيًّا مِن الذُّنوبِ))[1].

الطَّهارةُ من مُقتَضياتِ الإيمانِ كما يدُلُّ على ذلك تصديرُ آيةِ الوُضوءِ بتَوجيهِ النِّداءِ للمُؤمِنينَ، وفي **الآيةِ الكَريمةِ الأولى** -التي اشتَمَلتْ على صِفةِ الوُضوءِ وعلى صِفةِ التيَمُّمِ ودَواعيه- يَنفي اللهُ تعالَى وُجودَ أيِّ حَرَجٍ أو مشَقَّةٍ فيما شرَعَه من أحْكامٍ؛ إذِ المَقصودُ تَحقيقُ التطَهُّرِ بما فرَضَ اللهُ تعالَى مِن وُضوءٍ أو غُسلٍ أو تَيمُّمٍ، فيَتطهَّرُ العِبادُ ظاهِرًا طَهارةً حِسيَّةً لأبدانِهم، ويَتطهَّرونَ باطِنًا طَهارةً مَعنويَّةً بتكفيرِ سيِّئاتِهم، ومَحوِ خَطيئاتِهم. ويُريدُ اللهُ تعالَى أيضًا إتمامَ نِعمَتِه عليهم ببَيانِ شَرائِعِ دِينِه، وتَيسيرِها لهم، فيَشكُرونَه على ذلك. وفي قَولِه تعالَى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ ما يدُلُّ على أنَّ الطَّهارةَ بأقسامِها الثلاثةِ -الغُسلِ، والوضوءِ، والتيمُّمِ- نِعمةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ على العِبادِ، ومَن رَأى فَضائِلَ الوُضوءِ وما يُكفِّرُه مِن الذُّنوبِ، عرَفَ نِعمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ في ذلك.

وفي الآيةِ الثانيةِ: نهَى اللهُ عزَّ وجلَّ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ الصَّلاةِ في مسجِدِ المُنافِقينَ في أيِّ وَقتٍ مِن الأوقاتِ، وبيَّنَ أنَّ المسجِدَ الذي أُسِّسَ على تَقوى اللهِ من أوَّلِ يَومٍ بُنِيَ فيه -وهو مسجِدُ قُباءٍ، ومِثلُه بلْ أَوْلى منه في الحُكمِ المَسجِدُ النَّبويُّ- أَوْلى بأنْ يُصلِّيَ فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ فيه رِجالًا يُحبُّونَ أنْ يَتطَهَّروا مِن النَّجاساتِ ومِنَ الذُّنوبِ والسيِّئاتِ، واللهُ يُحبُّ ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٤).



وقُصِدَ مِن إطْلاقِ المَحبَّةِ في قَولِه سُبحانَه: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ التَّنويهُ بهم بأنَّهم يَتطَهَّرونَ؛ تَقرُّبًا إلى اللهِ بالطَّهارةِ، وإرضاءً لِمَحبَّةِ نُفوسِهم إيَّاها، بحيثُ صارتِ الطَّهارةُ خُلُقًا لهم، فلو لم تَجِبْ عليهم لفَعَلوها مِن تِلقاءِ أنفُسِهم. وكَفى تَنويهًا بزَكاءِ أنفُسِهم أنَّهم وافَقوا بطَبعِهم خُلُقًا يُحِبُّه اللهُ تعالى.

وفي حَديثِ أبي مالِكٍ الأشْعَريِّ رضِيَ اللهُ عنه يَذكُرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ «الطُّهورَ» والمُرادُ به: الوُضوءُ، «شَطْرُ الإيمانِ»، أي: نِصفُه، وقدِ اختُلِفَ في المُرادِ بكَوْنِ الطُّهورِ شَطرَ الإيمانِ؛ فقيل: المُرادُ أنَّ خِصالَ الإيمانِ مِن الأعمالِ والأقوالِ كلُّها تُطهِّرُ القَلبَ وتُزَكِّيه، وأمَّا الطهارةُ بالماءِ فهي تَختصُّ بتَطهيرِ الجسَدِ وتَنظيفِه؛ فصارَتْ خِصالُ الإيمانِ قِسمَينِ: أحدُهما يُطهِّرُ الظاهِرَ، والآخَرُ يُطهِّرُ الباطِنَ؛ فهُما نِصفانِ بهذا الاعتبارِ. أو المُرادُ بالإيمانِ هنا الصلاةُ، والصلاةُ لا تُقبَلُ إلَّا بطُهورٍ؛ فصار الطُّهورُ شَطرَ الإيمانِ بهذا الاعتِبارِ، وليس يَلزَمُ في الشَّطْرِ أنْ يكونَ نِصفًا حَقيقيًّا.

وفي حَديثِ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن أرادَ الوُضوءَ وشرَعَ فيه فأحسَنَه وأجادَه مع مُراعاةِ سُنَنِه وَآدابِه، خرَجَتْ خَطاياهُ وذُنوبُه من جَميعِ أعْضاءِ جَسدِه، حتى تَخرُجَ من تَحتِ أظْفارِه، وهذا خاصٌّ بالصَّغائرِ دونَ الكَبائرِ؛ لأنَّ الكَبائِرَ تحتاجُ إلى التوبةِ منها.

وفي حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا تَوضَّأَ العَبدُ المُسلِمُ -أوِ المُؤمنُ- فغسَلَ وَجهَه، خرَجَ من وَجهِه كُلُّ خَطيئةٍ نظَرَ إليها بعَينيْهِ مع الماءِ، مع انفِصالِ الماءِ عنِ البَشَرةِ وسُقوطِه عنها، أو مع آخِرِ قَطرِ الماءِ، والمَعنى: تَخرُجُ خَطاياهُ من وَجهِه؛ فالتي نظَرَ إليه بعَينِه تَخرُجُ من عَينِه، والتي استَنشَقَها بأنفِه تَخرُجُ من أنفِهِ، والتي نطَقَها بفيهِ تَخرُجُ من فِيهِ، فإذا غسَلَ يَديْه خرَجَتْ من يَديْه فذهَبَتْ ومُحِيَتْ كُلُّ خَطيئةٍ كانت فعَلَتْها يَداهُ، مع الماءِ، أو مع آخِرِ قَطرِ الماءِ، فإذا



غسَلَ رِجلَيْه خَرجَتْ كُلُّ خَطيئةٍ مَشَتْها رِجْلاهُ مع الماءِ، أو مع آخرِ قَطرِ الماءِ، حتى يَخرُجَ نَقيًّا مِن الأعْضاءِ أو جَميعِ الذُّنوبِ مِن الصَّغائرِ. وهذا يدُلُّ على فَضيلةِ الوُضوءِ، وفيه حثٌّ على الإكْثارِ منه، والمُحافَظةِ عليه.

صِفةُ الوُضوءِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

وعن عَبدِاللهِ بنِ زَيدِ بنِ عاصِمٍ الأنصاريِّ -وكانتْ له صُحْبةٌ- أنَّه قيلَ له: تَوضَّأْ لنا وُضوءَ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فدَعا بإناءٍ، فأكفَأَ منها على يَدَيهِ، فغَسَلَهما ثَلاثًا، ثمَّ أدخَلَ يَدَه فاستَخرَجَها فمَضْمَضَ واستَنشَقَ من كَفٍّ واحِدةٍ، ففعَلَ ذلك ثَلاثًا، ثمَّ أدخَلَ يَدَه فاستَخرَجَها فغسَلَ وَجهَه ثَلاثًا، ثمَّ أدخَلَ يَدَه فاستَخرَجَها فغسَلَ يَدَيهِ إلى المِرْفَقَينِ مرَّتينِ مرَّتينِ، ثمَّ أدخَلَ يَدَه فاستَخرَجَها فمسَحَ برَأسِه فأقبَلَ بيَدَيهِ وأدبَرَ، ثمَّ غسَلَ رِجلَيهِ إلى الكَعبَينِ، ثمَّ قال: ((هكذا كان وُضوءُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ))[1].

وعن حُمْرانَ مَوْلى عُثمانَ: أنَّ عُثمانَ بنَ عفَّانَ رضِيَ اللهُ عنه دَعا بوَضوءٍ فتَوضَّأَ، فغسَلَ كَفَّيهِ ثَلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ مَضمَضَ واستَنثَرَ، ثمَّ غسَلَ وَجهَه ثَلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ غسَلَ يَدَه اليُمْنى إلى المِرفَقِ ثَلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ غسَلَ يَدَه اليُسْرى مِثلَ ذلك، ثمَّ مسَحَ رَأسَه، ثمَّ غسَلَ رِجلَه اليُمْنى إلى الكَعبَينِ ثَلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ غسَلَ اليُسْرى مِثلَ ذلك، ثمَّ قال: ((رأيْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَوضَّأَ نَحوَ وُضوئي هذا))[2].



(١) أخرجه البخاري (١٨٦)، ومسلم (٢٣٥) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦) واللفظ له.

أمَرَ اللهُ تَبارَكَ وتعالى عِبادَه المُؤمِنينَ **في هذه الآيةِ الكَريمةِ** المذكورة إذا أرادوا القِيامَ إلى الصَّلاةِ بغَسلِ وُجوهِهم من مَنابِتِ شَعرِ الرَّأسِ المُعتادِ، إلى ما انحدَرَ مِن اللَّحيينِ والذَّقَنِ طُولًا، ومِن الأُذُنِ إلى الأُذُنِ عَرضًا، وأمَرَهم بغَسلِ أيْديهم من أطْرافِ الأصابعِ إلى المِرفَقِ -وهو مَفصِلُ العَضُدِ مِن الذِّراعِ- مع غَسلِه، وأمَرَهم بمَسحِ جَميعِ الرأسِ، وبغَسلِ أرْجُلِهم من أطرافِ الأصابعِ إلى الكَعبِ -وهو العَظْمُ الناتئُ عندَ مَفصِلِ السَّاقِ والقَدَمِ- مع غَسلِه.

وقد قيلَ في حِكمةِ الاقتِصارِ على أربَعةِ أعْضاءٍ في الوُضوءِ مِن الحدَثِ الأصغَرِ: إنَّ هذه الأعضاءَ هي أدواتُ العَملِ وآلاتُه غالبًا؛ فالبَطشُ يكونُ باليَدِ، والمَشيُ بالرِّجلِ، والبَصرُ والشمُّ والكَلامُ في الوَجهِ، والسَّمعُ والتخيُّلُ والتفكيرُ في الرَّأسِ؛ فشُرِعَ تَطهيرُ هذه الأعضاءِ الأربَعةِ. واللهُ أعلَمُ.

وقد علَّمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أصحابَه رضِيَ اللهُ عنهم كلَّ ما يَتعلَّقُ بالوُضوءِ بالقَولِ والفِعلِ، وقد سمِعَ منه الصَّحابةُ الكِرامُ، ورأَوْهُ يَتوضَّأُ، ونقَلَ كلُّ واحدٍ منهم ما سمِعَه وما رَآهُ من صِفةِ وُضوئِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فنَقَلوا كُلَّ الأوجُهِ المَشروعةِ في الوُضوءِ.

وفي هذَينِ الحَديثَينِ: إخبارٌ فِعليٌّ بكَيفيَّةِ الوُضوءِ وصِفَتِه عن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، حيثُ توضَّأَ كلٌّ مِن عَبدِاللهِ بنِ زَيدٍ الأنصاريِّ وعُثمانَ بنِ عفَّانَ رضِيَ اللهُ عنهما، وأخبَرَ كلُّ واحدٍ أنَّه توضَّأَ كما رأَى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يتوضَّأُ، وصِفةُ ذلك: أنَّه طلَبَ ماءً للوُضوءِ، وقَبلَ الشُّروعِ في أخْذِ الماءِ مِن الإناءِ صَبَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الماءَ خارجَ الإناءِ على يَدَيهِ؛ لإنقائِهما، وهو أوَّلُ ما يَبدأُ به المُسلِمُ الوُضوءَ؛ لِيُزيلَ ما تَعلَّقَ باليَدِ من أوساخٍ أو قَذَرٍ حتى يُنقِّيَهما تَمامًا، ثمَّ جعَلَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأخُذُ الماءَ مِن الإناءِ، فتَمَضمَضَ، والمَضمَضةُ: إدخالُ الماءِ في الفَمِ مع



تَحريكِ الماءِ وإدارَتِه في الفَمِ؛ لغَسلِه غَسلًا جيِّدًا، ثمَّ يُلْقي الماءَ ويُخرِجُه من فَمِه، ويفعَلُ ذلك ثَلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ استَنشَقَ، والاستِنشاقُ هو جَذْبُ الماءِ بريحِ أَنفِه لإيصالِه إلى أعْلى الأنْفِ والخَياشيمِ، ثمَّ يَدفَعُ الماءَ بقُوَّةِ نَفَسِه مرَّةً أُخْرى؛ ليُخرِجَه من أَنْفِه، وقد عبَّرَ عنه في حَديثِ عُثمانَ رَضِيَ اللهُ عنه بالاستِنثارِ، ويَفعَلُ ذلك ثَلاثَ مرَّاتٍ.

ثمَّ غسَلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وَجهَه ثَلاثَ مرَّاتٍ، والمُرادُ: تَعميمُ الوَجهِ كلِّه بالماءِ. ثمَّ غسَلَ يَدَه اليُمْنى إلى المِرفَقَينِ، ثمَّ اليُسْرى إلى المِرفَقَينِ، والمَقصودُ أنَّه غسَلَ ذِراعَيه بِدايةً من أَوَّلِ أطرافِ الكَفَّينِ إلى نِهايةِ المِرفَقَينِ، وهُما المَفْصِلانِ اللَّذانِ في مُنتصَفِ الذِّراعَينِ، وفي كلِّ عُضوَينِ مُتكافئَينِ كاليَدَينِ والرِّجلَينِ يَبدأُ باليَمينِ فيَغسِلُها ويُنظِّفُها، ثمَّ يَغسِلُ العُضوَ الأيسَرَ منه غَسْلتَينِ لكلِّ ذِراعٍ، وهذا وُضوءٌ وسَطٌ بينَ أَقَلِّ عدَدٍ للغَسلِ، وهو مرَّةٌ واحدةٌ، وبينَ أكثَرِ عدَدٍ للغَسلِ، وهو ثَلاثُ مرَّاتٍ، كما في حَديثِ عُثمانَ.

ثمَّ مسَحَ رَأسَه، بأنْ بلَّلَ شَعَرَه بالماءِ بإجراءِ يَدَيهِ مِن الأَمامِ إلى الخَلفِ ذَهابًا، ومِنَ الخَلفِ إلى الأَمامِ إيابًا، مرَّةً واحدةً بغَرفةٍ واحدةٍ للماءِ. ثمَّ غسَلَ رِجلَه اليُمْنى واليُسْرى إلى الكَعبَينِ ثَلاثَ مرَّاتٍ، ويَكونُ بغَسلِ كلِّ رِجلٍ إلى الكَعبَينِ الناتئَينِ على جانِبَيِ القدَمِ، مع مُراعاةِ غَسْلِ أعْقابِ الأرجُلِ ونِهاياتِها مِن الخَلفِ؛ فكانت تلك صِفةَ وُضوءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطَريقةٍ عَمليَّةٍ من بعضِ أصْحابِه رضِيَ اللهُ عنهم؛ لتكونَ أرسَخَ في النفْسِ، وأكثَرَ وُضوحًا للنَّاظِرينَ، وبذلك يَكونُ قد أوْفى حقَّ مَن بَعدَه في تَعليمِهم صِفةَ الوُضوءِ.

أثَرُ إسْباغِ الوُضوءِ يومَ القِيامةِ

عن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ:

((إنَّ أُمَّتي يَأْتونَ يَومَ القِيامةِ غُرًّا مُحَجَّلينَ؛ من أَثَرِ الوُضوءِ))[1].

في هذا الحَديثِ يُبشِّرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمَّتَه؛ أمَّةَ الإجابةِ، بأنَّ اللهَ تعالى يُميِّزُهم بعَلامةٍ يومَ القِيامةِ، وهي أنَّهم يأتون غُرًّا مُحَجَّلينَ؛ من آثارِ الوُضوءِ، والغُرَّةُ: بَياضٌ في الجَبهةِ، والتَّحجيلُ: بَياضٌ في الرِّجلَينِ؛ فإنَّ الوُضوءَ يَترُكُ أثَرًا في الوَجهِ والرِّجلِ واليَدَينِ يكونُ بَياضًا ونورًا يومَ القِيامةِ تَختَصُّ به هذه الأُمَّةُ من بَينِ الأُمَمِ.

الدُّعاءُ بعدَ الوُضوءِ

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ يَتَوضَّأُ فيُبلِغُ، أو فيُسبِغُ الوُضوءَ، ثُمَّ يقولُ: أشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ مُحَمَّدًا عَبدُاللهِ ورَسولُهُ، إلَّا فُتحَتْ له أبْوابُ الجَنَّةِ الثَّمانِيَةُ يَدخُلُ من أيِّها شاءَ))[2].

في هذا الحَديثِ أرشَدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى إسباغِ الوُضوءِ، وأنْ يَقولَ عَقِبَه: «أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ»، أي: لا مَعْبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، «وأنَّ مُحَمَّدًا عَبدُاللهِ ورَسولُه» ومعناها: الإقرارُ باللسانِ، والإيمانُ بالقلبِ بأنَّ محمدَ بنَ عبدِالله القرشيَّ الهاشميَّ عبدُالله ورسولُه، ومقتضَى ذلك: تصديقُه فيما أخْبَر، وطاعتُه فيما أمَرَ، واجتنابُ ما نهَى عنه وزَجَرَ، والإيمانُ بأنَّه خاتَمُ الرُّسلِ والنبيِّينَ، وأنَّ رِسالتَه عامَّةٌ لكلِّ العالَمينَ؛ فمَن قال بعدَ الوُضوءِ هذا الذِّكرَ العَظيمَ المُشتمِلَ على أصلِ الإسلامِ،

(١) أخرجه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٤).



كان جزاؤُه وأجْرُه أنْ تُفتَحَ له أبوابُ الجنَّةِ الثَّمانيةُ، يَدخُلُ من أيِّها شاءَ، وهذا من عَظيمِ الأجْرِ، والمَنِّ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ على عِبادِه المُؤمِنينَ.

أداءُ الصَّلَواتِ كُلِّها بوُضوءٍ واحدٍ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وعن بُرَيْدةَ بنِ الحُصَيبِ الأسْلَميِّ رضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صلَّى الصَّلواتِ يَومَ الفَتحِ بوُضُوءٍ واحِدٍ، ومسَحَ على خُفَّيهِ. فقال له عُمَرُ: لقد صنَعْتَ اليومَ شَيئًا لم تكُنْ تَصنَعُه! قال: ((عَمدًا صنَعْتُه يا عُمَرُ))(١).



الدِّينُ الإسلاميُّ ذو شَريعةٍ سَمْحةٍ وأحكامٍ مَبنيَّةٍ على التَّخفيفِ واليُسرِ والسُّهولةِ، لا على العَنَتِ والمَشقَّةِ والضِّيقِ على العِبادِ، فما كلَّفَهم رَبُّهم إلَّا بما يَقدِرونَ عليه، ورفَعَ عنهم ما فيه حَرَجٌ، فلم يَتعبَّدْهم به، **كما في الآيةِ الكريمةِ**، وحتى لو وقَعَتْ مَشقَّةٌ ما فإنَّ (المَشقَّةَ تَجلِبُ التَّيسيرَ)، و(الضَّروراتِ تُبيحُ المَحظوراتِ)، فيَدخُلُ في ذلك مِن الأحْكامِ الفَرعيَّةِ شَيءٌ كثيرٌ.

وقد كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتوضَّأُ لكُلِّ صَلاةٍ، ولم يكُنْ ذلك واجِبًا، فأرادَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُبيِّنَ لأُمَّتِه أنَّ هذا الفِعلَ ليس واجِبًا، وأنَّه يَجوزُ للمُسلِمِ أنْ يُصلِّيَ أكثرَ من صَلاةٍ بوُضوءٍ واحدٍ ما لم يَنتقِضْ هذا الوُضوءُ؛ ولذلك صلَّى الصَّلواتِ كلَّها بوُضوءٍ واحدٍ يومَ الفَتحِ، وهو يومُ فَتحِ مكَّةَ، وكان في السَّنةِ الثامنةِ مِن الهِجرةِ، ومسَحَ على خُفَّيهِ دونَ خَلعِهما، والخُفُّ: حِذاءٌ من جِلدٍ يَسترُ القدَمَ، وغالبًا ما يُستَدْفأُ به، فلمَّا رَأى عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه هذا الفِعلَ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) أخرجه مسلم (٢٧٧).

استَفسَرَ منه عنه، فقال للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لقد صنَعْتَ اليومَ شيئًا لم تكُنْ تَصنَعُه!»، فبَيَّنَ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه تَعمَّدَ فِعلَ ذلك؛ ليَعلَمَ الناسُ أنَّ إتْيانَ المُسلِمِ الفَرائضَ الخَمسَ على وَقتِها وهو مُحافِظٌ على وُضوئِه الأوَّلِ: مَشروعٌ، وأنَّه لا يُشترَطُ الوُضوءُ لكلِّ صَلاةٍ، وهذا مِن التخْفيفِ والتيْسيرِ على النَّاسِ في أمْرِ الوُضوءِ.

نَواقِضُ الوُضوءِ

عن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لا تُقبَلُ صَلاةُ مَن أحدَثَ حتى يَتوَضَّأَ)). قال رَجلٌ من حَضْرَمَوْتَ: ما الحَدَثُ يا أبا هُرَيْرةَ؟ قال: فُساءٌ أو ضُراطٌ[1].

وعن صَفْوانَ بنِ عَسَّالٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأمُرُنا إذا كُنَّا سَفْرًا ألَّا نَنزِعَ خِفافَنا ثَلاثةَ أيَّامٍ ولَياليَهُنَّ إلَّا من جَنابةٍ، ولكِنْ من غائِطٍ وبَولٍ ونَومٍ))[2].

وعن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَجُلًا سألَ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أأتَوَضَّأُ من لُحومِ الغَنَمِ؟ قال: ((إنْ شِئْتَ فتَوضَّأْ، وإنْ شِئْتَ فلا تَوضَّأْ. قال: أتَوضَّأُ من لُحومِ الإبِلِ؟ قال: نَعمْ فتَوضَّأْ من لُحومِ الإبِلِ ...)) الحديثَ[3].



(١) أخرجه البخاري (١٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٩٦) واللفظ له، والنسائي (١٥٩)، وابن ماجه (٤٧٨)، وأحمد (١٨٠٩١).

حسَّنه البخاريُّ كما في ((التلخيص الحبير)) (١/ ٢٤٧)، وقال التِّرمذيُّ: حسَنٌ صحيحٌ. وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١١٠٠)، والنَّوويُّ في ((المجموع)) (١/ ٤٧٩)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((البدر المنير)) (٣/ ٩)، وابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (٥/ ٢٠٣)، وحسنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٩٦).

(٣) أخرجه مسلم (٣٦٠).

في الحَديثِ الأوَّلِ يَروي أبو هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه أنَّه سمِعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يُبيِّنُ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى لا يَقبَلُ صَلاةَ مَن صدَرَ منه ما يَنقُضُ وُضوءَه حتى يَتَوضَّأَ، وقد فسَّرَ أبو هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه الحَدَثَ في هذا الحَديثِ بالفُساءِ أوِ الضُّراطِ، والحَدَث أعَمُّ من ذلك؛ فهو يَشمَلُ البَولَ والغائِطَ وغَيرَ ذلك، وإنَّما اقتَصَرَ أبو هُرَيْرةَ على بَعضِ الأحْداثِ؛ لأنَّه أجابَ سائِلًا سألَه عنِ المُصَلِّي الذي يُحدِثُ في صَلاتِه، والبولُ والغائطُ غَيرُ معهودٍ حُدوثُهما في الصَّلاةِ، فكأنَّه أجابَ السَّائلَ عمَّا يَقَعُ في الصَّلاةِ أو عمَّا يَجهَلُه مِن الأحداثِ الأُخرَى التي تنقُضُ الوضوءَ غيرِ البولِ والغائطِ.

وفي الحَديثِ الثاني يَرْوي صَفْوانُ بنُ عَسَّالٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يأمُرُ أصْحابَه إذا كانوا مُسافِرينَ ألَّا يَخلَعوا الخِفافَ من أرجُلِهم عندَ الوُضوءِ لمُدَّةٍ أقْصاها ثَلاثةُ أيَّامٍ بلياليهِنَّ، إلَّا إذا أصابَتهمُ الجَنابةُ، فعِندَئذٍ يَنبَغي خَلعُ الخِفافِ مِن الأقدامِ، ويَجِبُ الاغتِسالُ الكامِلُ للتطهُّرِ مِن الجَنابةِ؛ فبيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تِلك الرُّخصةَ للمُسافِرينَ، فلا يجِبُ عليهم أن يَخْلَعوا خِفافَهم بَعدَ التَّبرُّزِ أوِ التَّبوُّلِ أوِ النَّومِ، ولكِنْ يَمسَحون عليها، إذا كان الخُفُّ قد لُبِسَ مِنْ قبلُ على طَهارةٍ ووُضوءٍ، فذِكْرُ النَّومِ هنا مُشعِرٌ بأنَّه مِن نواقضِ الوضوءِ لا سيَّما بعدَ جعلِه مُقترِنًا بالبولِ والغائِطِ اللَّذَينِ هما ناقضانِ بالإجماعِ. خاصةً إذا كان النومُ كثيرًا مُستثقَلًا قد استغرَق فيه صاحبُه، فهذا باتفاقِ المذاهبِ الفقهيةِ الأربعةِ ناقضٌ للوضوءِ.

وفي الحَديثِ الثالثِ يذكر جابِرُ بنُ سَمُرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَجُلًا سأَلَ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ عن أكْلِ لُحومِ الغنَمِ؛ هلْ يَنقُضُ الوُضوءَ، ويَلزَمُ مَن كان مُتوضِّئًا وأكَلَها أنْ يُعيدَ الوُضوءَ مرةً أُخْرى إذا أرادَ الصَّلاةَ؟ فقالَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «إنْ شِئْتَ فتَوضَّأْ، وإنْ شِئْتَ فلا تَوَضَّأْ»، فجعَلَ له حقَّ الاخْتيارِ؛ فدلَّ على أنَّ أكْلَ لُحومِ الغَنَمِ لا يَنقُضُ الوُضوءَ، ثم سأَلَ الرجُلُ عنِ الوُضوءِ مِن أكْلِ لُحومِ الإبِلِ؟



فقالَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «نَعمْ» فبيَّنَ أنَّه يَلزَمُ الوُضوءُ لمَن أكَلَ لحمَ الإبلِ؛ فدلَّ على أنَّه ناقِضٌ للوُضوءِ، وخَصَّ السَّائلُ الإبلَ والغنَمَ بالذِّكرِ؛ لأنَّها مِن اللحومِ المُشتَهِرةِ آنذاكَ.

الشَّكُّ في الحَدَثِ أثناءَ الصَّلاةِ

عن عَبدِالله بنِ زَيدٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شُكِيَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الرجُلُ يُخَيَّلُ إليه أنَّه يَجِدُ الشَّيءَ في الصَّلاةِ، قال: لا يَنْصَرِفُ حتى يَسمَعَ صَوْتًا، أو يَجِدَ رِيحًا))[1].



في هذا الحَديثِ إحْدى القَواعدِ الكُليَّةِ في فِقهِ الشريعةِ الإسلاميةِ المُطَهَّرةِ، وهي: (أنَّ اليَقينَ لا يَزولُ بالشَّكِّ)؛ وفيه يُخبِرُ راويه أنَّه شُكِيَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الإنسانَ يُخيَّلُ إليه أنَّه يَجِدُ الشَّيءَ في الصَّلاةِ، يَعني: يَظنُّ أنَّه خرَجَ منه الرِّيحُ، وهو ناقِضٌ للوُضوءِ؛ ومن ثَمَّ فهو مُفسِدٌ للصَّلاةِ، فقال له النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لا يَنصَرِفُ حتى يَسمَعَ صَوتًا، أو يَجِدَ ريحًا»، والمَعنى: أنَّه لا يَخرُجُ من صَلاتِه حتى يَتيقَّنَ خُروجَ الرِّيحِ منه؛ لأنَّه مُتيقِّنٌ لطَهارتِه، فلا يَزولُ هذا اليَقينُ بمُجرَّدِ الشَّكِ، بل يَنبَغي أنْ يَتيقَّنَ مِن الحَدَثِ وخُروجِ الرِّيحِ.

وُضوءُ الجُنُبِ قَبلَ النَّومِ أوِ الأكْلِ

عن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا كان جُنُبًا، فأرادَ أنْ يَأكُلَ، أو يَنامَ، تَوضَّأَ وُضوءَهُ للصَّلاةِ))[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧)، ومسلم (٣٦١) واللفظ له

(٢) أخرجه من طرق البخاري (٢٨٨) بنحوه، ومسلم (٣٠٥) واللفظ له.

شرَعَ الإسْلامُ الطَّهارةَ والغُسلَ مِن الحدَثِ الأكبَرِ (الجَنابةِ)، وتُطلَقُ الجَنابةُ على كلِّ مَن أنزَلَ المَنيَّ بشَهوةٍ أو في احتِلامٍ، أو جامَعَ زَوْجتَه، وسُمِّيَت بذلك لاجتِنابِ صاحِبِها الصَّلاةَ وبَعضَ العِباداتِ، حتى يَتطهَّرَ منها، ومع ذلك فإنَّ هذه الجَنابةَ لا تَمنَعُ الجُنبَ من مُباشَرةِ أيِّ عمَلٍ قبْلَ الغُسلِ، كما جاء في هذا الحَديثِ، حيثُ تُخبِرُ أمُّ المُؤمنِينَ عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ «إذا كان جُنُبًا فأرادَ أنْ يَأكُلَ، أو يَنامَ» ولم يكُنِ اغتَسلَ بعدُ لرَفعِ حُكمِ الجَنابةِ، «تَوضَّأَ وُضوءَهُ للصَّلاةِ» بأنْ غسَلَ بعضَ أعْضاءِ جَسَدِه، كالذي يَفعَلُه في الوُضوءِ للصَّلاةِ، وليس غُسْلًا كامِلًا، وهذا الفِعلُ على سَبيلِ الاستِحْبابِ والتفْضيلِ.

مَشروعيَّةُ التيمُّمِ وصِفتُه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وعن عَبدِ الرَّحمنِ بنِ أبْزى رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رجُلًا أتى عُمَرَ، فقال: إنِّي أجنَبْتُ فلم أجِدْ ماءً. فقال: لا تُصَلِّ. فقال عَمَّارٌ: أمَا تَذكُرُ يا أميرَ المُؤمِنينَ، إذ أنا وأنتَ في سَرِيَّةٍ فأجْنَبنا فلم نَجِدْ ماءً، فأمَّا أنتَ فلم تُصَلِّ، وأمَّا أنا فتمعَّكْتُ في التُّرابِ وصلَّيْتُ، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنَّما كان يَكفيكَ أنْ تَضرِبَ بيَدَيكَ الأرْضَ، ثُمَّ تَنفُخَ، ثُمَّ تَمسَحَ بهما وَجهَكَ وكَفَّيكَ؟! فقال عُمَرُ: اتَّقِ اللهَ يا عمَّارُ! قال: إنْ شِئْتَ لم أُحَدِّثْ به))[1]. وفي رِوايةٍ: فقال عُمَرُ: نُوَلِّيكَ ما تَوَلَّيْتَ[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨)، ومسلم (٣٦٨) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٣٦٨).

التَّيمُّمُ رُخصةٌ رخَّصَ اللهُ تعالى فيها لمَن أحدَثَ حَدَثًا أكبَرَ أو أصغَرَ، ولم يَجِدِ الماءَ، أو لم يَقدِرْ على استِعمالِه، بأنْ يَتيمَّمَ ويُصلِّيَ، على صِفةٍ وهَيئةٍ مَخصوصةٍ شرَعَها اللهُ تعالى وبيَّنَها في كتابِه، تَتلخَّصُ في نيَّةِ التطَهُّرِ، وقَصدِ وَجهِ الأرضِ الطَّاهِرِ النَّظيفِ، ومَسْحِ جَميعِ الوَجهِ منه أوَّلًا، ثمَّ الكَفَّينِ ثانيًا، كما **في الآيةِ المذكورةِ**، ولا يُشرَعُ مَسحُ الذراعِ.

وفي سُنَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَيانٌ أيضًا لمشروعيَّةِ التيَمُّمِ، وصِفةِ التطَهُّرِ به؛ **ففي حَديثِ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ أَبْزى رضِيَ اللهُ عنه**: «أنَّ رجُلًا أتى عُمَرَ» بنَ الخطابِ رضِيَ اللهُ عنه ليَستَفتيَه، فقال: إنِّي صِرتُ جُنُبًا، «فلم أجِدْ ماءً»، فقال له عُمَرُ رضِيَ اللهُ عنه -وكان حينَئذٍ خَليفةً للمُسلِمينَ-: «لا تُصَلِّ» فنَهاه عُمَرُ عنِ الصَّلاةِ حتى يجِدَ الماءَ ويَتطهَّرَ به. فقال عَمَّارُ بنُ ياسِرَ رضِيَ اللهُ عنه -وكان حاضِرًا لتلك الفَتْوى- مُستَدرِكًا ومُعقِّبًا على جَوابِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنه للرجُلِ: «أمَا تَذكُرُ يا أميرَ المُؤمِنينَ إذ أنا وأنتَ في سَريَّةٍ، فأجنَبْنا فلم نَجِدْ ماءً»، يُذكِّرُه عمَّارٌ بقِصَّةٍ كانت بينَهما على عَهدِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وذلك كما جاء في الرِّواياتِ أنَّهما خَرَجا معًا في سَريَّةٍ وسَفرٍ لرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأصابَتْهما جَنابةٌ ولم يكُنْ معَهما ماءٌ للغُسلِ حتى حضَرَتْهما الصَّلاةُ، ولم يكُنْ معَهمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَئذٍ ليُفتيَهم.

قال عمَّارٌ رضِيَ اللهُ عنه: «فأمَّا أنتَ فلم تُصَلِّ»، وامتنعتَ عنِ الصَّلاةِ حتى تجِدَ الماءَ، يقولُ عمَّارٌ: «وأَمَّا أنا فتَمعَّكْتُ في التُّرابِ وصلَّيْتُ»، تَمرَّغْتُ وتَقلَّبْتُ في التُّرابِ حتى يُصيبَ التُّرابُ جَميعَ بَدَني، وكان ذلك منه على سَبيلِ التطَهُّرِ ورَفعِ الجَنابةِ، فلمَّا رَجَعا أخبرَ عمَّارٌ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بِقِصَّتِهما، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعمَّارٍ: «إنَّما كانَ يَكْفيكَ أنْ تَضرِبَ بيَدَيكَ الأرْضَ، ثُمَّ تَنفُخَ، ثُمَّ تَمسَحَ بهما وَجهَكَ وكَفَّيكَ»، فعلَّمَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صِفةَ التيَمُّمِ، فضرَبَ بيَدَيْه الأرْضَ ثمَّ نفَخَهما، ثمَّ مسَحَ بهما وجْهَه وكَفَّيْه، وجعَلَ ضَرْبَه للتُّرابِ مرةً واحدةً.



فقال عُمَرُ لعمَّارٍ بعدَ تَحديثِه بهذا الحَديثِ: «اتَّقِ اللَّهَ يا عمَّارُ!»، كأنَّه يُراجِعُه فيما يَقولُ؛ وذلك أنَّ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنه لا يَذكُرُ تلك الوَقْعةَ؛ أو أنَّه لم يَحضُرْ فَتْوى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعمَّارٍ، فقال عمَّارٌ: «إنْ شِئْتَ لم أُحدِّثْ بهِ»، أي: إنْ رأيْتَ المَصلَحةَ في إمساكي عنِ التحديثِ به راجِحةً على مَصلَحةِ تَحْديثي به، أمسَكْتُ ولم أُحدِّثْ به. ويحتَمِلُ أنَّه أرادَ: إنْ شِئتَ لم أُحدِّثْ به تَحديثًا شائِعًا بحيثُ يَشتَهِرُ في النَّاسِ، بل لا أُحدِّثُ به إلَّا نادِرًا. وفي الروايةِ المذكورةِ، قال عُمَرُ لعمَّارٍ: « نُوَلِّيكَ ما تَولَّيْتَ»، أي: نَكِلُ إليكَ مَسؤوليةَ ما قد قلْتَ؛ فلا يَلزَمُ من كَوني لا أتذَكَّرُه ألَّا يَكونَ حَقًّا في نَفسِ الأمرِ؛ فليس لي مَنعُكَ مِن التحديثِ به.

صِفةُ الغُسلِ مِنَ الجَنابةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: حدَّثَتْني خالَتي مَيمونةُ قالت: ((أَدْنَيْتُ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غُسْلَه مِن الجَنابةِ، فغسَلَ كَفَّيهِ مَرَّتَينِ أو ثَلاثًا، ثُمَّ أدخَلَ يَدَه في الإناءِ، ثُمَّ أفرَغَ به على فَرجِه، وغسَلَه بشِمَالِه، ثُمَّ ضرَبَ بشِمَالِه الأرْضَ، فدَلَكَها دَلكًا شَدِيدًا، ثُمَّ تَوضَّأَ وُضُوءَه للصَّلاةِ، ثُمَّ أفرَغَ على رَأْسِه ثَلاثَ حَفَنَاتٍ مِلْءَ كَفِّه، ثُمَّ غسَلَ سَائرَ جَسَدِه، ثُمَّ تَنَحَّى عن مَقَامِه ذلك، فغسَلَ رِجلَيْهِ، ثُمَّ أتَيتُه بالمِنْديلِ فرَدَّه))[1].



في الآيةِ الأُولى نهَى اللهُ تعالى عِبادَه المُؤمِنينَ عن إتْيانِ المَساجِدِ وهم على جَنابةٍ،

(١) أخرجه البخاري (٢٥٩)، ومسلم (٣١٧) واللفظ له.



حتى يَغتسِلوا، إلَّا مَن كانَ مُجتازًا عَبْرَ المَسجدِ فقط دونَ مُكثٍ فيه، فله أنْ يَعبُرَ من خِلالِه وإنْ كان جُنُبًا لم يغتَسِلْ بعدُ.

وفي الآيةِ الثانيةِ أمَرَ اللهُ تعالى عِبادَه المُؤمِنينَ أنْ يغتَسِلوا إنْ أصابَتْهم جَنابةٌ وأرادوا القيامَ إلى الصَّلاةِ. وفي قَولِه تعالى: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الغُسْلَ يكونُ لجَميعِ البَدنِ؛ لأنَّه أطْلَقَ ولم يَخُصَّ الأعضاءَ كما في الوُضوءِ. وفيه أيضًا دَلالةٌ على أنَّه لا يُشترَطُ في الغُسلِ تَرتيبٌ؛ فلو بَدَأ المُغتَسِلُ من أسفَلِ بَدَنِه، أو من وَسَطِه، أو مِن أعلاه، وعَمَّه بالماءِ، كان ذلك مُجزئًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى أطلَقَ الأمرَ بالتطَهُّرِ دونَ تَفصيلٍ. وفيه دَلالةٌ كذلك على أنْ غُسلَ الجَنابةِ تُستَباحُ به الصَّلاةُ، وأنَّه لا يُشترَطُ الوُضوءُ معه؛ لأنَّ اللهَ تعالى أطلَقَ الأمرَ بالتطَهُّرِ دونَ ذِكرِ الوُضوءِ، ولو لم يَنوِ إلَّا رَفعَ الحدَثِ الأكبرِ فإنَّه يُجزِئُه.

وفي حَديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهِ عنهما بَيانٌ لكَيْفيةِ الاغْتِسالِ، وفيه تُخبِرُ مَيمونةُ زَوجُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّها قرَّبَتْ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ماءً ليَغتسِلَ به مِن الجَنابةِ، فبدَأَ أوَّلًا «فغسَلَ كَفَّيْه مَرَّتَينِ أو ثَلاثًا» بالصبِّ عليها، وقبلَ أنْ يُدخِلَها في الإناءِ؛ طلَبًا لنَقائِهما وتَنظيفِهما، «ثُمَّ أدخَلَ يَدَه في الإناءِ»، والمُرادُ بها يَمينُه كما جاء في الرِّواياتِ، «ثُمَّ أفرَغَ به على فَرْجِه»، فصبَّ الماءَ على ذَكَرِه، «وغَسَلَه بشِمَالِه»، فاستَعمَلَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدَه الشِّمالَ في تَنظيفِ ذَكَرِه، «ثُمَّ ضرَبَ بشِمَالِه الأرْضَ فدَلَكَها دَلكًا شَديدًا»، أي: دَعَكَها وعَرَكَها في تُرابِ الأرْضِ بشِدةٍ؛ مُبالَغةً في التنْظيفِ، «ثُمَّ تَوَضَّأَ وُضُوءَهُ للصَّلَاةِ» وُضوءًا كَاملًا مِثلَ وُضوءِ الصَّلاةِ، وفيه تَشريفٌ لأعْضاءِ الوُضوءِ بغَسلِها أوَّلًا، ولتَحصيلِ صورةِ الطهارتَينِ الصُّغرى بالوُضوءِ، والكُبرى بالغُسلِ الكامِلِ.

ثُمَّ بعدَ الانتِهاءِ مِن الوُضوءِ بَدَأَ في الاغتِسالِ بأنْ «أفرَغَ على رَأْسِه ثَلاثَ حَفَنَاتٍ



مِلْءَ كَفِّه»، فأخَذَ ثَلاثَ غَرَفاتٍ بيَدِه مِن الماءِ قاصِدًا بها غسْلَ رَأسِه، «ثُمَّ غسَلَ سائِرَ جَسَدِه»، فعمَّمه بالماءِ، «ثُمَّ تَنَحَّى عن مَقَامِه ذلك»، والمُرادُ أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابتعَدَ عنِ المَوضِعِ الذي كان يَغتَسِلُ فيه، «فغسَلَ رِجلَيْهِ»، وهذا إذا كانتِ القدَمُ راكِدةً مع ماءِ الغُسلِ ولا يَنصَرِفُ عنها؛ فالأَوْلى التأكيدُ على غَسلِها عندَ الانتهاءِ مِن الغُسلِ، وإلَّا فإذا كان الماءُ يَنصرِفُ عنها بمُجرَّدِ صَبِّه فلا بَأسَ بالاكتِفاءِ بغَسلِها مع الاغتِسالِ. قالتْ: «ثُمَّ أتيتُه بالمِنْديلِ»؛ ليَتنشَّفَ به من أثَرِ الماءِ، «فرَدَّه» فلم يأخُذْه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منها، وترَكَ الماءَ على جَسَدِه ولم يَتنشَّفْ.

وفي هذا الحَديثِ: بَيانُ اهتِمامِ أزْواجِ النبيِّ صلَّى اللهُ وعليه وسلَّمَ بوَصْفِ أدَقِّ تَفاصيلِ حَياتِه؛ تَعليمًا للأُمَّةِ.

صفةُ الاغتسالِ مِن الحيضِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وعن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها: أنَّ أسْماءَ سألَتِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن غُسلِ المَحيضِ؟ فقال: ((تَأْخُذُ إحْداكُنَّ مَاءَها وسِدْرَتَها، فتَطَهَّرُ فتُحسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ على رَأْسِها فتَدلُكُه دَلْكًا شَديدًا حتى تَبلُغَ شُؤونَ رأسِها، ثُمَّ تَصُبُّ عليها الماءَ، ثُمَّ تَأخُذُ فِرْصةً مُمَسَّكَةً فتطَهَّرُ بها، فقالت أسْماءُ: وكيف تطَهَّرُ بها؟ فقال: سُبحانَ اللهِ، تَطَهَّرينَ بها! فقالت عائِشةُ: -كأنَّها تُخفِي ذلك- تَتبَّعينَ أثَرَ الدَّمِ، وسألَتْه عن غُسلِ الجَنابةِ؟ فقال: تأخُذُ ماءً فتطَهَّرُ فتُحسِنُ الطُّهورَ، أو تُبلِغُ الطُّهورَ، ثُمَّ تَصُبُّ على رأسِها فتَدلُكُه حتى تَبلُغَ شُؤونَ رأسِها، ثُمَّ تُفيضُ عليها الماءَ، فقالتْ عائِشةُ: نِعْمَ النِّساءُ نِساءُ



الأنْصارِ؛ لم يَكُنْ يَمنَعُهنَّ الحَياءُ أنْ يَتفَقَّهْنَ في الدِّينِ))[1].



تُرشِدُ هذه الآيةُ الكَريمةُ إلى وُجوبِ اغتِسالِ النِّساءِ بعدَ انقِطاعِ دَمِ الحَيضِ عنهنَّ، وفيها نَهيٌ للزَّوجِ عن مُجامَعةِ زَوجتِه الحائضِ إلَّا بعدَ أنْ ينقَطِعَ دَمُ الحَيضِ وتغتَسِلَ منه، فله وَطءُ زَوجتِه حينَئذٍ في الموضِعِ الذي أباحَه اللهُ تعالَى له، وهو القُبُلُ. وقدْ جاء تَشريعُ هذا الأمرِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه يُحبُّ عِبادَه الذين يُطهِّرونَ بَواطنَهم بالمُداوَمةِ على التَّوبةِ مِن الذُّنوبِ، ويُطهِّرونَ ظَواهِرَهم بالماءِ مِن الأنجاسِ والأحداثِ.

وفي حَديثِ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها بَيانٌ لصِفتَيِ الغُسلِ بعدَ انقطاعِ الحَيضِ أوِ الجَنابةِ طلَبًا للطهارةِ، وذلك أنَّ أسْماءَ بنتَ يَزيدَ بنِ السكَنِ، وقيلَ: بِنتُ شَكَلٍ، سألَتِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن غُسلِ المَرأةِ بعدَ انقِطاعِ دَمِ الحَيضِ عنها، والحَيضُ للمَرأةِ يَمنَعُها الصَّلاةَ والصِّيامَ، فإذا انقطَعَ عنها الدمُ، تَطهَّرَتْ بالغُسلِ، وباشَرَتِ الصَّلاةَ والصيامَ، فبَيَّنَ لها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَيفيَّةَ الاغتِسالِ، فقال: «تَأْخُذُ إحْداكُنَّ مَاءَها» الذي ستَغتسِلُ به، «وسِدْرَتَها» وهي شجَرُ النَّبْقِ، والمُرادُ بها هنا وَرَقُها الذي يُنتَفَعُ به في الغُسلِ ويُعطِّرُ الماءَ، «فتطَهَّرُ فَتُحسِنُ الطُّهُورَ»، فتَبْدَأُ بالوُضوءِ، وتُحسِنُ فيه غَسْلَ أعضاءِ الوُضوءِ، وهذا تَمهيدٌ للغُسلِ وتَنشيطٌ للجَسدِ،، «ثُمَّ تَصُبُّ» الماءَ، «على رَأْسِهَا فَتَدلُكُهُ دَلْكًا شَديدًا حتى تَبلُغَ شُؤونَ رَأْسِهَا»، فيَصِلَ الماءُ إلى أُصولِ الشَّعرِ وفَرْوةِ الرأسِ، «ثُمَّ تَصُبُّ عليها الماءَ» فتُعمِّمُه على باقي جَسَدِها، فتَغسِلُه مع الدَّلكِ والتنْظيفِ.

ثُمَّ بعدَ الانتهاءِ من غَسلِ جَسَدِها «تَأْخُذُ فِرْصةً مُمَسَّكَةً» وهي قِطعةٌ من صوفٍ أو

(١) أخرجه من طرقٍ: البخاريُّ (٣١٤) مختصرًا بنحوه، ومسلم (٣٣٢) واللفظ له.

قُطنٍ عليها من طِيبِ المِسْكِ، «فتطَهَّرُ بهَا». فقالت أسْماءُ: «وكيف تطَهَّرُ بها؟ فقال: سُبحانَ اللهِ، تطَهَّرينَ بها» فتَعجَّبَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من عَدمِ مَعرفتِها كيف تَتطَهَّرُ بها، وهو أمرٌ ظاهِرٌ لا يَجهَلُه أحدٌ، مع اسْتِحيائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن التفْصيلِ بأكثَرَ من ذلك، فأخَذَتْها عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها؛ لتُبيِّنَ لها مَقصَدَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وقولُه: «كَأنَّها تُخْفي ذلكَ» هذا من كَلامِ الراوي، ومَعْناه: قالت لها كَلامًا خَفيًّا تَسمَعُه المُخاطَبةُ ولا يَسمَعُه الحاضِرونَ؛ وذلك لعَظيمِ حَيائِها، وقالت: لها عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها: «تَتَبَّعينَ أثَرَ الدَّمِ»، فتُنَظِّفين بها ما بَقيَ من أثَرِ الدمِ في الفَرْجِ مِن الرائحةِ وغَيْرِها، فتُطَيِّبينَه بالمِسْكِ، ثم سَألَتْه أسْماءُ عن كَيْفيَّةِ غُسلِ الجَنابةِ؟ فبَيَّنَ لها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّها تَفعَلُ مِثلَ فِعلِها هذا في الاغتِسالِ مِن الحَيضِ، واكْتَفى في غُسلِ الجَنابةِ بتَعميمِ الجَسَدِ بالماءِ، ثم أثْنَت عائِشةُ رضِيَ اللهُ عنها على نِساءِ الأنْصارِ ومَدَحَتهُنَّ؛ لحِرصِهِنَّ على تَعلُّمِ أوامِرِ الدِّينِ والشرْعِ والتَّفَقُّهِ فيه، ولم يَمنَعْهُنَّ الحَياءُ من ذلك حتى فيما يَختَصُّ بالنِّساءِ؛ فقالت: «نِعمَ النِّساءُ نِساءُ الأنْصارِ لم يَكُنْ يَمنَعُهنَّ الحَياءُ أنْ يَتفَقَّهْنَ في الدِّينِ»، وهذا هو الذي يَنبَغي على كلِّ مُسلمٍ حَريصٍ على دِينِه وعِبادتِه.

الحائِضُ تَقْضي الصَّومَ ولا تَقْضي الصَّلاةَ

عن مُعاذةَ قالت: سَألْتُ عائِشةَ فقُلتُ: ما بالُ الحائِضِ تَقْضي الصَّومَ، ولا تَقْضي الصَّلاةَ؟! فقالت: أحَرُوريَّةٌ أنتِ؟ قلتُ: لستُ بحَرُوريَّةٍ، ولَكنِّي أسْأَلُ! قالت: ((كان يُصِيبُنا ذلك، فنُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّومِ، ولَا نُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّلاةِ))[1].



(١) أخرجه البخاري (٣٢١)، ومسلم (٣٣٥) واللفظ له.



الواجِبُ على المُسلِمِ أنْ يَستسلِمَ لشرائعِ اللهِ تعالى، سَواءٌ عَلِمَ الحِكمةَ منها أم لم يَعلَمْ، ولا يَنبَغي لمؤمِنٍ ولا مُؤمِنةٍ إذا حكَمَ اللهُ ورَسولُه حُكمًا أنْ يَختاروا أمرًا مُخالِفًا لذلك الحُكمِ، وفي هذا الحَديثِ تُخبرُ مُعاذةُ بنتُ عَبدِاللهِ العَدَويةُ أنَّها سَألَت أُمَّ المؤمِنينَ عائِشةَ رضِيَ اللهُ عنها: «ما بالُ الحائِضِ تَقْضي الصَّومَ، ولا تَقْضي الصَّلاةَ؟!» فالمَرأةُ إذا حاضَتْ لا يَجوزُ لها أنْ تُصلِّيَ أو تَصومَ أيامَ حَيْضِها، فإذا طَهُرَت فقد أسقَطَ عنها الشَّرعُ تلك الصلَواتِ، وليس عليها قَضاءٌ، بخِلافِ الصَّومِ، فإذا أفطَرَتْ أيامًا من رَمضانَ لحَيْضِها فإنَّها تَقْضيها، وقد استنكَرَتْ عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها سؤالَ مُعاذةَ؛ فقالت لها: «أحَرُوريَّةٌ أنتِ؟» والحَرُوريَّةُ: هُمُ الخَوارِجُ، وكان مَبدَأُ خُروجِهم من بَلدةِ حَرُوراءَ بقُربِ الكوفةِ بالعِراقِ، فنُسِبوا إليها، وهم مِن الفِرَقِ المُبتدِعةِ التي ابتُلِيَ بهم أهلُ الإسلامِ؛ فهم يُكفِّرونَ المُسلِمينَ ولا يَتورَّعونَ عن دِمائِهم، مع أنَّهم يَجتهِدونَ في العِبادةِ والصَّلاةِ والصِّيامِ! وقيلَ: إنَّما قالتْ لها عائشةُ ذلك؛ لأنَّ بعضَ الحَروريَّةِ كان يَرى أنَّ على الحائضِ قَضاءَ الصلاةِ. وقيلَ: إنَّها أرادَتْ أنَّ هذا من جِنسِ تَنطُّعِ الخَوارِجِ. قالت مُعاذةُ: «قُلتُ: لسْتُ بحَرُوريَّةٍ، ولكِنِّي أسأَلُ طَلبًا للعِلمِ لا للتعَنُّتِ، فأجابَتْها عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها بقَولِها: «كان يُصيبُنا ذلك، فنُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّومِ، ولَا نُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّلاةِ» فبيَّنَتْ أنَّ نِساءَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كُنَّ يحِضْنَ على عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فلا يأمُرُهنَّ بقَضاءِ الصَّلاةِ، وكان يأمُرُهنَّ بقَضاءِ ما عليهنَّ من فَريضةِ الصيامِ بعدَ انقِضاءِ الحَيضِ، وما علينا إلَّا التسليمُ له دونَ البَحثِ عن عِلَّتِه، وهذا أمرٌ مُجمَعٌ عليه بيْنَ المُسلِمينَ؛ أنَّ الحائضَ لا تَقْضي الصَّلاةَ، وتَقْضي الصِّيامَ.

كَيفيَّةُ الطَّهارةِ مِن بَولِ الأولادِ الصِّغارِ

عن أبي السَّمْحِ رضِيَ اللهُ عنه عنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أنَّه قال: ((يُغسَلُ من



بَولِ الجارِيةِ، ويُرَشُّ من بَولِ الغُلامِ))[1].



الأصْلُ في بَولِ الإنْسانِ أنَّه مِن الأعْيانِ النَّجِسةِ التي يجِبُ التنَزُّهُ عنها والتطَهُّرُ منها، وهذا الحَديثُ فيه بَيانُ كَيفيَّةِ الطَّهارةِ من بَولِ الأولادِ الصِّغارِ، وفيه يقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «يُغسَلُ من بَولِ الجَاريةِ»، يَعني: يُغسَلُ بالماءِ بَولُ البِنتِ الصَّغيرةِ، سواءٌ أكَلت الطعامَ أو لم تأكُلْ، إذا ما أصابَ شَيئًا مِن الثيابِ ونَحوِها حتى يَجريَ الماءُ الطاهرُ ويَسيلَ على المَوضِعِ الذي أصابه بَولُها، وقال: « ويُرَشُّ من بَولِ الغُلامِ»، أي: ويُكتَفى برَشِّ الماءِ الطَّاهِرِ على بَولِ الصَّبيِّ الرَّضيعِ، وذلك إذا لم يأكُلِ الطَّعامَ لشَهوةٍ، كما دلَّ عليه حديثُ أمِّ قَيسٍ أنَّها أتَتْ بابنٍ لها صغيرٍ، لم يأكُلِ الطَّعامَ، إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، فأجْلَسه رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم في حَجرِه، فبالَ على ثوبِه، فدعا بماءٍ، فنَضَحه ولم يَغْسِلْه[2]. قيلَ: والحِكمةُ في التَّفريقِ بينَ بَولِ الصبيِّ وبَولِ البِنتِ: أنَّ بَولَها يكونُ أغلَظَ وأنتَنَ، فيَفتَقِرُ في إزالتِه إلى مَزيدِ مُبالَغةٍ، بخِلافِ بَولِ الصبيِّ. وقيلَ: لأنَّ بَولَ الذَّكَرِ يَخرُجُ بقُوَّةٍ وشِدَّةِ دَفعٍ، فيَنتَشِرُ، وتَكثُرُ الإصابةُ منه، فاقتَضَتِ الحِكمةُ التَّخفيفَ فيه، وأمَّا الجاريةُ فيَخرُجُ بَولُها ويَستَقِرُّ في مكانٍ واحدٍ.

وهذا الحُكمُ خاصٌّ بالغُلامِ إذا لم يكنْ يتغذَّى بالطعامِ فإن تغذَّى بالطعامِ، غُسِلَ من بولِه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٦)، والنسائي (٣٠٤) واللفظ لهما، وابن ماجه (٥٢٦).

حسَّنه البخاري كما في ((خلاصة البدر المنير)) لابن الملقن (١/ ١٨)، وصَحَّحه ابنُ القيم في ((أعلام الموقعين)) (٢/ ٢٧٠)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (١/ ٥٣٢)، وابنُ حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (٢/ ٤٠٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٣)، ومسلم (٢٨٧).

المُؤمِنُ لا يَنجَسُ

عن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه: أَنَّهُ لَقِيَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في طَريقٍ مِن طُرُقِ المَدينةِ، وهو جُنُبٌ فانسَلَّ فذهَبَ فاغتَسَلَ، فتَفقَّدَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فلمَّا جاءَهُ قال: **((أين كُنْتَ يا أبا هُرَيْرةَ قال: يا رَسولَ اللهِ، لَقِيتَني وأنا جُنُبٌ فكَرِهْتُ أنْ أُجالِسَكَ حتى أغتَسِلَ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: سُبحانَ اللهِ! إنَّ المُؤمِنَ لا يَنجَسُ))**[1].

في هذا الحديثِ يَحْكي أبو هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَآه في بَعضِ طُرُقِ المَدينةِ، وكانت به جَنابةٌ، فذهَبَ أبو هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه خُفْيةً فاغتَسَلَ بالماءِ ورفَعَ جَنابَتَه، ثُمَّ جاء إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، «فقال له: أين كُنْتَ يا أبا هُرَيْرةَ؟ قال: يا رَسولَ اللهِ، لَقِيتَني وأنا جُنُبٌ، فكَرِهْتُ أنْ أُجالِسَكَ حتى أغتَسِلَ»، فبَيَّنَ أنَّ امتَناعَه عن مُقابَلةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان ظنًّا من أبي هُرَيْرةَ أنَّ المُسلِمَ إذا كان على جَنابةٍ يُصبِحُ نَجِسًا؛ فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «سُبحانَ اللهِ!» مُتعَجِّبًا من ظَنِّ أبي هُرَيْرةَ واعتِقادِه هذا. ثمَّ وضَّحَ له الصوابَ بقولِه: «إنَّ المُؤمِنَ لا يَنجَسُ»، حتى في حالِ الجَنابةِ؛ فقد طهَّرَه اللهُ بالإسْلامِ والإيمانِ، فلا يَنجَسُ حيًّا ولا ميِّتًا، والمُرادُ: أنَّ عَدمَ طَهارةِ المُسلِمِ -في حالِ الجَنابةِ- حُكْميَّةٌ وليستْ حَقيقيَّةً، فلا تَصيرُ ذاتُه نَجِسةً بسببِ هذا الحَدَثِ الذي حلَّ في بَدَنِه؛ لأنَّه وَصفٌ حُكميٌّ رتَّبَه الشارعُ على البدَنِ، فالجَنابةُ تَمنَعُ من أشياءَ، كالصَّلاةِ، وقِراءةِ القُرآنِ، أمَّا المُجالَسةُ والمُماسَّةُ فلا تَدخُلُ في جُملةِ ما تَمنَعُ منه الجَنابةُ.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣)، ومسلم (٣٧١) واللفظ له.



التيَمُّنُ في الطُّهورِ

عن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((إنْ كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليُحِبُّ التَّيمُّنَ في طُهُورِهِ إذا تَطهَّرَ، وفي تَرجُّلِهِ إذا تَرجَّلَ، وفي انتِعالِهِ إذا انتَعَلَ))[1].

مِن السُّنَنِ البَدءُ باليَمينِ في الأفْعالِ الكَريمةِ الشريفةِ؛ فاليَمينُ جِهةٌ مُبارَكةٌ في مُسمَّاها؛ فأهلُ اليَمينِ هم أهلُ الجنَّةِ، كما جُعلَتِ الشِّمالُ للأُمورِ المُستَقذَرةِ والتي فيها أذًى؛ ولذلك كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحِبُّ «التَّيمُّنَ في طُهُورِه إذا تَطَهَّرَ»، فيَبدأُ باليَمينِ في طَهارةِ الحَدَثِ من وُضوءٍ أو غُسلٍ، فيُقدِّمُ اليَدَ اليُمنى -وكذا الرِّجْلُ اليُمنَى- على اليُسرى في الوُضوءِ، والمَيامِنَ على المَياسِرِ في الغُسلِ، «وفي تَرجُّلِهِ إذا تَرجَّلَ» فيَبْدأُ بالجانبِ الأيمَنِ عندَ تَسريحِ شَعرِ رَأسِه، «وفي انتِعالِهِ إذا انتَعَلَ»، فيُلبِسُ نَعلَه لرِجلِه اليُمنى قبلَ رِجلِه اليُسرى، وهذا الأدبُ فيه تَشريفُ اليَمينِ على الشِّمالِ.

السِّواكُ

عن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لولا أنْ أشُقَّ على أمَّتي -أو على النَّاسِ- لأمَرتُهم بالسِّواكِ مع كلِّ صَلاةٍ))[2].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا قامَ ليَتهَجَّدَ يَشوصُ فاهُ بالسِّواكِ))[3].

وعن أبي موسى الأشْعَريِّ -عَبدِ اللهِ بنِ قَيسٍ- رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتَيْتُ النبيَّ

(١) أخرجه البخاري (٥٣٨٠)، ومسلم (٢٦٨) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٨٨٧) واللفظ له، ومسلم (٢٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥)، ومسلم (٢٥٥) واللفظ له.



صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فوجَدْتُه يَستَنُّ بسِواكٍ بيَدِه يقولُ: أُعْ أُعْ، والسِّواكُ في فِيهِ، كأنَّه يَتهوَّعُ))[1].

السِّواكُ مَطْهَرةٌ للفَمِ مَرْضاةٌ للرَّبِّ كما أَخبَرَ بذلك الصادِقُ الأمينُ، وهو مِن السُّنَنِ المؤكَّدةِ عنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكان يأمُرُ به ويَستحِثُّ عليه أُمَّتَهُ بالقَولِ والفِعلِ، كما في حَديثِ أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: «لولا أنْ أشُقَّ على أُمَّتي -أو على النَّاسِ-»: لولا أنْ تقَعَ المشَقَّةُ على النَّاسِ المُصلِّين من أُمَّتِي، والمُرادُ بهم أُمَّةُ الإجابةِ وهم المُسلِمونَ، «لأمرتُهم بالسِّواكِ مع كُلِّ صَلاةٍ»، وهذا مِن الحثِّ على هذه المَكرُمةِ، فيَتأكَّدُ استِخدامُ السِّواكِ عندَ إرادةِ الصَّلاةِ، وبالأخَصِّ صَلاةُ الجَماعةِ التي يَحضُرُها المُسلِمونَ، فيُستَصحَبُ السِّواكُ عندَ الصَّلاةِ بَدءًا من وَقتِ الوُضوءِ إلى ما قَبلَ تكبيرةِ الإحْرامِ؛ لرِوايةِ: ((لأمرتُهم بالسِّواكِ مع الوُضوءِ))[2].

وهو يَتأكَّدُ في بعضِ الأوقاتِ دونَ غَيرِها؛ منها: عِندَ قِيامِ اللَّيلِ، كما في حَديثِ حُذَيفةَ رضِيَ اللهُ عنه، ففيه يُبيِّنُ أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا قام إلى صَلاةِ اللَّيلِ «يَشوصُ فاهُ بالسِّواكِ»، يَعني: يُمِرُّه على أسنانِه ويَدْلُكُها به؛ وذلك أنَّ رائحةَ الفَمِ تَتغيَّرُ بالنَّومِ، فيكونُ السِّواكُ تَطهيرًا له؛ فيُطَهِّرُ ويُنَقِّي لقِراءةِ القُرآنِ والدُّعاءِ في الصَّلاةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٥٤).

(٢) أخرجه البخاري مُعَلَّقًا بصيغة الجزم قبل حديث (١٩٣٤) بلفظ: ((عند الوضوء)) بدلًا من ((مع الوضوء))، وأخرجه موصولًا النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٣٠٣٧) واللفظ له، وأحمد (٧٤١٢) مطوَّلًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه.

صحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (١٥٣١)، والنووي في ((المجموع)) (١/ ٢٧٣)، وابن الملقِّن في ((البدر المنير)) (١/ ٧٢٠) والألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٣١٧)، وقال ابن حجر في ((النكت)) (١/ ٣٢٨): على شرْط البخاريِّ.

وحَديثُ أبي موسى الأشْعَريِّ رضِيَ اللهُ عنه يُظهِرُ مَدى مُبالغةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّسوُّكِ والتَّنظُّفِ به، حيثُ يُخبِرُ أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان وهو «يَستَنُّ بسِواكٍ -أي: يُنظِّفُ به أسنانَه- يقولُ: أُعْ أُعْ، والسِّواكُ في فِيهِ كأنَّه يتهَوَّعُ»، أي: إنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَبلُغُ بالسِّواكِ إلى أقاصي الحَلْقِ حتى يَصدُرَ منه صَوتٌ كأنَّه سوف يَتقيَّأُ؛ من مُبالغتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تَنظيفِ فمِه وأسنانِه.

وظاهِرُ الأحاديثِ يُبيِّنُ أنَّ السِّواكَ وإنْ كان سُنَّةً في جَميعِ الأوقاتِ فإنَّه يَتأكَّدُ في مواضِعَ؛ منها: الصَّلاةُ، وقِراءةُ القُرآنِ.

المَسحُ على الخُفَّينِ وعلى العِمامةِ

عنِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رضِيَ اللهُ عنه: **((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مسَحَ على الخُفَّينِ، ومُقَدَّمِ رَأسِه وعلى عِمامَتِه))**[1].



التخفيفُ والتيسيرُ سِمةٌ ظاهِرةٌ في الشريعةِ الإسلاميةِ، ومن ذلك المَسحُ على الخُفِّ والعِمامةِ في الوُضوءِ، كما في هذا الحَديثِ الذي فيه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان وهو يَتوضَّأُ يَمسَحُ على الخُفَّينِ إذا كان لابِسًا لهما، والخُفُّ: حِذاءٌ يُتَّخذُ مِن الجِلدِ تُستَرُ بِه القَدَمُ وتُغطَّى بقَصدِ التَّدفِئةِ وما شابَهَ، «ومُقَدَّمِ رَأسِه وعلَى عِمامَتِهِ»، والأصْلُ أنَّ المُتوضِّئَ يَمسَحُ جَميعَ رَأسِه مَرةً واحِدةً؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مسَحَ الجُزءَ الظاهِرَ من مُقَدَّمِ رَأسِه، ومسَحَ بيَدِه على العِمامةِ بدَلًا مِن الرأسِ. ومن شُروطِ المَسحِ على الخُفَّينِ أنْ يكونَ المَرءُ قد لبِسَهُما على طَهارةٍ ابتِداءً، كما ورد في حَديثٍ آخَرَ.

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧). وأخرج حديث المسح على الخفين البخاري (١٨٢) مطولًا.



مُدةُ المَسحِ على الخُفَّينِ

عن شُرَيحِ بن هانئٍ قال: أَتَيْتُ عائِشةَ أَسْأَلُها عنِ المَسْحِ على الخُفَّينِ، فقالت: عليكَ بابنِ أبي طالِبٍ فسَلْهُ؛ فإنَّه كانَ يُسافِرُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فسَأَلْناهُ فقال: ((جعَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَلاثةَ أَيَّامٍ ولَياليَهُنَّ للمُسافِرِ، ويَومًا ولَيلةً للمُقِيمِ))[1].



في هذا الحَديثِ يَقولُ شُرَيحُ بنُ هانِئٍ -وهو أحدُ التابِعينَ-: «أتيْتُ عائشةَ أسألُها عنِ المَسحِ على الخُفَّينِ»؛ عنِ التَّوقيتِ والمُدةِ التي يُسمَحُ فيها بالمَسحِ على الخُفَّينِ؟ فقالت عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها: «عليكَ بابنِ أَبي طالِبٍ فسَلْهُ»، أي: فاسأَلْ هذا السُّؤالَ عليَّ بنَ أبي طالِبٍ؛ «فإنَّه كان يُسافرُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ»، وهذا مَظِنَّةُ مَعرفتِهِ كيف كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَمسَحُ على الخُفَّينِ في السَّفرِ؟ فسَألوا عليًّا -رضِيَ اللهُ عنه- عن تَوقيتِ المَسحِ على الخُفَّينِ، فقال: «جعَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَلاثةَ أيامٍ ولَياليَهنَّ للمُسافرِ، ويَومًا ولَيلةً للمُقيمِ» يَعني: شرَعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في شأنِ المَسحِ على الخُفَّينِ عندَ الوُضوءِ أنَّ للمُسافرِ أنْ يَمسَحَ على الخُفَّينِ بالماءِ دونَ أنْ يَخلَعَهما من قَدَمَيه ثَلاثةَ أيامٍ ولَيالِيها، أمَّا المُقيمُ فله أنْ يَمسَحَ على الخُفَّينِ في الوُضوءِ لمُدةِ يَومٍ ولَيلةٍ فقط.

وفي الحَديثِ: بَيانُ أدَبِ الصَّحابةِ رضِيَ اللهُ عنهم، وإحالةُ الفَتْوى لمَن هو أعلَمُ وأدْرى.

خِصالُ الفِطرةِ

عن عائشةَ أُمِّ المُؤمِنينَ رضِيَ اللهُ عنها، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال:

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦).



((عَشْرٌ مِن الفِطْرةِ: قَصُّ الشارِبِ، وإعْفاءُ اللِّحْيةِ، والسِّواكُ، واستِنشاقُ الماءِ، وقَصُّ الأظْفارِ، وغَسْلُ البَراجِمِ، ونَتْفُ الإبْطِ، وحَلقُ العانةِ، وانتِقاصُ الماءِ)). قال زَكَرِيَّا: قال مُصعَبٌ [أحد رواةِ الحديثِ]: ونَسيتُ العاشِرةَ إلَّا أنْ تَكُونَ المَضمَضةَ(١).

لقد جمَعَتْ شَريعةُ الإسلامِ من كلِّ شيءٍ أحسَنَه، وهي مُوافِقةٌ في تَشريعاتِها كلِّها للفِطرةِ النَّقيَّةِ الطاهِرةِ في كُلِّ شيءٍ، ومن ذلك سُننُ الفِطرةِ التي تَعتَني بنَظافةِ الإنسانِ باطِنًا وظاهِرًا، وفي هذا الحَديثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَشْرَ خِصالٍ من خِصالِ الفِطرةِ تلك، والمَقصودُ بالفِطرةِ هنا: سُنَنُ الأنبياءِ، أوِ الدِّينُ؛ والمُسلِمُ مَأمورٌ باتِّباعِها وفِعلِها، وأُولَى هذه الخِصالِ -كما جاءت على التَّرتيبِ في الحَديثِ-: «قَصُّ الشارِبِ»، والشارِبُ هو الشَّعْرُ النابِتُ على الشَّفةِ العُليا، فيُقَصُّ حتى يَبدوَ طَرَفُ الشَّفةِ، أو يُزيلُ ما زاد على الشَّفةِ، وقد ورَدَتْ رِواياتٌ أُخرى فيها الأمْرُ بحَفِّه وجَزِّه كذلك، ومنها: حَديثُ ابنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما في الصَّحيحَينِ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خَالِفوا المُشرِكينَ؛ وَفِّرُوا اللِّحَى، وأَحْفُوا الشَّوارِبَ))(٢)، والمَعنى واحِدٌ.

والثانيةُ: «**إعْفاءُ اللِّحْيةِ**»، أي: إرسالُها وتَوفيرُها، وهذا ممَّا تَساهَلَ فيه كَثيرٌ مِن المُسلِمينَ في هذه الأعْصارِ، واتَّبعوا وقلَّدوا غيرَ المُسلِمينَ، والواجِبُ هو اتِّباعُ شِرعةِ الإسلامِ الموافِقةِ للفِطرةِ السَّليمةِ.

والثالثةُ: «**السِّواكُ**»، وهو عودٌ يُقطَعُ من شَجرةِ الأَراكِ، ويُستَخدَمُ في تَنظيفِ الفَمِ والأسنانِ، ويُطيِّبُ الفَمَ، ويُزيلُ الرَّوائحَ الكَريهةَ.

والرابعةُ: «**استِنشاقُ الماءِ**» وهو إدخالُ الماءِ في الأنفِ؛ تَنظيفًا لِما يَجتمعُ في

(١) أخرجه مسلم (٢٦١). وأخرجه البخاري (٥٨٨٩) بنحوه مختصرًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٨٩٢)، ومسلمٌ (٢٥٩).



داخِلِه، ثُمَّ نَثْرُه مرَّةً أُخرى.

والخامسةُ: «**قَصُّ الأظْفارِ**»، أي: قَصُّ ما طال مِن أظفارِ اليَدِ والقدَمِ؛ لإذهابِ ما يجتَمِعُ تحتَها مِن الوَسخِ.

والسادسةُ: «**غَسلُ البَراجِمِ**» والبَراجِمُ: هي: عُقَدُ الأصابعِ ومَفاصِلُها كُلِّها، ويكونُ غَسلُها بتَنظيفِ الأوساخِ التي تَجتمِعُ فيها.

والسابعةُ: «**نَتْفُ الإبْطِ**»: وهو نَزعُ الشَّعرِ النابِتِ تحتَ الإبْطِ، والأفضَلُ فيه النتْفُ لمَن قَويَ عليه، ويحصُلُ أَصْلُ السُّنَّةِ بإزالتِه بأيِّ وَسيلةٍ كانت، كالحَلقِ وغَيرِه.

والثامنةُ: «**حَلْقُ العانةِ**»، أي: حَلْقُ الشَّعرِ النابِتِ حَولَ الفَرْجِ باستِعمالِ المُوسى.

والتاسعةُ: «**انتِقاصُ الماءِ**»، أي: نَضْحُ الماءِ على الفَرْجِ، لإزالةِ أذَى البَولِ والغائطِ المُتبقِّي على الفَرْجِ وما حَولَه بالماءِ.

والعاشرةُ: «**المَضمَضةُ**» وهي: تَحريكُ الماءِ في الفَمِ وإدارتُه فيه ثمَّ إلقاؤُه؛ تَنظيفًا للفَمِ ورائحتِه. وقد جاء في الصَّحيحَينِ من حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّه ذكَرَ من سُننِ الفِطرةِ (الخِتانَ)[1]، وهو قَطعُ القُلْفةِ التي تُغطِّي الحَشَفةَ من ذَكَرِ الرجُلِ، وقَطعُ بَعضِ الجِلْدةِ التي في أَعْلى الفَرْجِ مِن المَرأةِ التي كالنَّواةِ أو كعُرْفِ الدِّيكِ.

وفي فِعلِ هذه الخِصالِ والالتِزامِ بها تَنظيفٌ للجَسَدِ، وحِفظٌ له مِن التقَذُّرِ والتدَنُّسِ، مع الحِفاظِ على جَمالِ المَظهَرِ الخارِجيِّ، فيَجمَعُ المُسلِمُ بيْنَ النَّظافةِ والطَّهارةِ الدَّاخِليةِ والخارِجيَّةِ.



(١) أخرجه البخاري (٥٨٩١)، ومسلم (٢٥٧).



الأذانُ ومَواقيتُ الصلاةِ

فَضلُ الأذانِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي صَعْصَعةَ الأنْصاريِّ، أنَّ أبا سَعيدٍ الخُدْريَّ قال له: ((إنِّي أَراكَ تُحِبُّ الغنَمَ والباديةَ، فإذا كنْتَ في غنمِكَ أو باديتِكَ، فأذَّنْتَ بالصَّلاةِ، فارفَعْ صَوتَكَ بالنداءِ؛ فإنَّه لا يَسمَعُ مَدى صَوتِ المؤذِّنِ جِنٌّ، ولا إنسٌ، ولا شيءٌ؛ إلَّا شَهِدَ له يومَ القِيامةِ. قال أبو سعيدٍ: سمِعْتُه من رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ))[١].

وعن مُعاويةَ بنِ أبي سُفيانَ رضِيَ اللهُ عنه قال: سمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((المُؤَذِّنونَ أطْوَلُ النَّاسِ أعْناقًا يَومَ القيامةِ))[٢].



شرَعَ اللهُ تعالى بحِكمتِه النِّداءَ (الأذانَ) للصلَواتِ الخَمسِ وغَيرِها عندَ حُلولِ أوقاتِها، وهو نِداءٌ يَتضمَّنُ تَعظيمَ اللهِ تعالى، والشَّهادةَ له سُبحانه بالوَحدانيَّةِ، ولمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالرِّسالةِ، ويَتضمَّنُ الدَّعوةَ إلى الفَلاحِ وإلى الصَّلاةِ. **وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ** يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه لا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِمَّن دَعا النَّاسَ إلى تَوحيدِ اللهِ وطاعَتِه، وعَمِلَ عَملًا صالِحًا بإخلاصٍ للهِ ومُتابَعةٍ لشَرعِه، وقال: إنَّني مِن المُستَسلِمينَ للهِ، المقِرِّينَ بوَحدانيَّتِه، الخاضِعينَ له، المُنقادينَ إليه بطاعتِه.

والأذانُ مِن الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ فالآيةُ دالَّةٌ على فَضيلةِ الأذانِ والمؤذِّنينَ. وللأذانِ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨٧).



والمؤذِّنينَ فَضائلُ كَثيرةٌ؛ منها: **ما أَخْبرَ به أبو سَعيدٍ الخُدْريُّ رضِيَ اللهُ عنه في هذا الحَديثِ**، حيثُ قال لأبي صَعْصَعةَ -وكان له غنَمٌ يَرْعاها-: «إنِّي أَراكَ تُحبُّ الغنَمَ والباديةَ»، يَعني: تُحبُّ رَعيَ الغنَمِ في الصَّحْراءِ؛ فإذا كنتَ في غَنمِكَ وباديتِكَ فارفَعْ صَوتَكَ بالنِّداءِ، يَعني بالأذانِ، ثُمَّ أخبَرَه بحَديثِ رَسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وفيه: أنَّه لا يَسمَعُ الأذانَ جِنٌّ، ولا إنسٌ، ولا شيءٌ؛ إلَّا شَهِدَ يومَ القِيامةِ للمؤذِّنِ بذلك؛ وإنَّما أمَرَه برَفعِ صَوتِه بالنِّداءِ؛ ليَسمَعَه مَن بَعُدَ منه، فيكثُرَ الشُّهداءُ له يَومَ القِيامةِ، وذلك بأنْ يَشتهِرَ يَومَ القيامةِ بالفَضلِ وعُلوِّ الدَّرجةِ، فكما أنَّ اللهَ تعالى يُهينُ قَومًا ويَفضَحُهم بشَهادةِ الشاهِدينَ، فكذلك يُكرِمُ قَومًا؛ تَكميلًا لسُرورِهم وتَطييبًا لقُلوبِهم.

وفي الحَديثِ: فَضلُ الإعلانِ بالسُّننِ، وإظهارِ شَعائرِ الدِّينِ، ولو في الباديةِ.

وفي حَديثِ مُعاويةَ بنِ أبي سُفيانَ بَيانُ فَضلِ المؤذِّنينَ، وأنَّهم «أطوَلُ الناسِ أعناقًا يَومَ القيامةِ»، ومَعناه: أنَّهم أكثرُ الناسِ تشوُّفًا إلى رَحمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ المُتشوِّفَ يُطيلُ عُنقَه إلى ما يَتطلَّعُ إليه، فمَعناه: كَثرةُ ما يَرَوْنَه مِن الثوابِ. وقيلَ: إنَّ مَعناه أنَّهم إذا ألجَمَ النَّاسَ العَرَقُ يَومَ القيامةِ طالَتْ أعناقُهم؛ لِئَلَّا ينالَهم ذلك الكَرْبُ والعَرَقُ. وقيلَ: مَعناه أنَّهم رُؤَساءُ الناسِ؛ لأنَّ العَرَبَ تَصِفُ السَّادةَ بطُولِ الأعناقِ.

وعلى كلِّ حالٍ: ففيه فَضلُ المُؤذِّنينَ على سائرِ النَّاسِ، وتَخصيصُهم بهذه الصِّفةِ يَومَ القِيامةِ.

إجابةُ المُؤذِّنِ وما يُقالُ بعدَ سَماعِه

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا سَمِعْتمُ النِّداءَ فقُولوا مِثلَ ما يَقولُ المُؤذِّنُ))(١).

(١) أخرجه البخاري (٦١١)، ومسلم (٣٨٣).



وعن جابِرِ بنِ عَبدِاللهِ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن قال حينَ يَسمَعُ النِّداءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هذه الدَّعوةِ التامَّةِ، والصَّلاةِ القائِمةِ، آتِ مُحمَّدًا الوَسيلةَ والفَضيلةَ، وابعَثْه مَقامًا مَحمُودًا الذي وعَدْتَه؛ حلَّتْ له شَفاعَتي يَومَ القِيامةِ))[1].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا سَمِعْتمُ المُؤذِّنَ فقُولوا مِثلَ ما يقولُ، ثُمَّ صَلُّوا علَيَّ؛ فإنَّه مَن صلَّى علَيَّ صَلاةً صلَّى اللَّهُ عليه بها عَشْرًا، ثُمَّ سَلوا اللهَ لِيَ الوَسِيلةَ؛ فإنَّها مَنزِلةٌ في الجَنَّةِ لا تَنبَغي إلَّا لعَبْدٍ من عِبادِ اللهِ، وأَرْجو أنْ أكونَ أنا هو، فمَن سَأَلَ لي الوَسِيلةَ حلَّتْ له الشَّفاعةُ))[2].



في حَديثِ أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رضِيَ اللهُ عنه يقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «إذا سَمِعْتمُ النِّداءَ»، والمُرادُ به الأذانُ للفَرائضِ الخَمسِ، «فقُولوا مِثلَ ما يَقولُ المُؤذِّنُ»؛ فعلى المُستَمِعِ أنْ يقولَ كَلماتِ الأذانِ بمِثلِ ما يقولُ المؤذِّنُ، وقد علَّمَنا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كيف نقولُ ذلك؛ ففي صَحيحِ مُسلمٍ قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا قال المؤذِّنُ: اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ، فقال أحَدُكم: اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ، ثمَّ قال: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، قال: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، ثمَّ قال: أشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، قال: أشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، ثم قال: حيَّ على الصَّلاةِ، قال: لا حَولَ ولا قُوةَ إلَّا باللهِ، ثمَّ قال: حيَّ على الفَلاحِ، قال: لا حَولَ ولا قُوةَ إلَّا باللهِ، ثم قال: اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ، قال: اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ، ثمَّ قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ من قَلبِه- دخَلَ الجنَّةَ»[3].

(١) أخرجه البخاري (٦١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨٤). وأخرجه البخاري (٤٧١٩) بنحوه من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٣٨٥).



وفي حَديثِ جابرِ بنِ عَبدِاللهِ رضِيَ اللهُ عنهما يقولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «مَن قال حينَ يَسمَعُ النِّداءَ»: وهو النِّداءُ للصَّلاةِ، فيَقولُ عَقِبَ سَماعِه للأذانِ وانتِهاءِ المُؤذِّنِ منه: «اللَّهُمَّ رَبَّ هذه الدَّعوةِ التَّامَّةِ»، وهي الدَّعوةُ إلى الصَّلاةِ بألفاظِ الأذانِ التي يُدْعى بها إلى عِبادةِ اللهِ تَعالى وتَكبيرِه وتَوْحيدِه، والمُرادُ بالتامَّةِ: الكامِلةُ التي لا يَدخُلُها تَغييرٌ ولا تَبديلٌ، بل هي باقِيةٌ إلى يَومِ القيامةِ، «والصَّلاةِ القائِمةِ»: الدَّائِمةِ التي تُقامُ في كلِّ وَقتٍ وعندَ كلِّ أذانٍ، «آتِ مُحمَّدًا الوَسيلةَ»، أي: أَعْطِه المَنزِلةَ العاليةَ في الجنَّةِ التي لا تَنبَغي إلَّا له صلَّى الله عليه وسلَّمَ، «والفَضِيلةَ» وهي المَرتَبةُ الزَّائِدةُ على سائِرِ المَخلوقينَ، ويَحتِملُ أنْ تكونَ الفَضِيلةُ مَنزِلةً أُخرى، «وابْعَثْه مَقامًا مَحْمودًا»، وهو المَنزِلةُ يومَ القيامةِ التي يَحمَدُه لأَجْلِها جَميعُ أهلِ المَوقِفِ، وهو مَقامُ الشَّفاعةِ العُظمَى الخاصَّةِ بنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في فصْلِ القَضاءِ بيْنَ العِبادِ وصَرْفِهم مِن أرضِ المَحشرِ بعدَما يطولُ بهم الانتظارُ في أرضِ المَحشرِ، ويتمنَّونَ التحوُّلَ منه مِن هَوْلِ ما يَرونَه وشِدَّتِه، «الذي وعَدْتَهُ»، وذلك المَقامُ الذي ذَكَرْتَه في كِتابِكَ بقَولِكَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

فمَن لَزِمَ ذلك الدُّعاءَ عندَ كلِّ أذانٍ استوْجَبَ واستَحَقَّ شَفاعةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَ القِيامةِ، وشَفاعتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تكونُ للمُذْنبينَ مِن المُسلِمينَ في إدْخالِ الجنَّةِ مِن غَيرِ حِسابٍ، أو رَفْعِ الدَّرجاتِ فيها لمَن دخلَها، أو الخُروجِ مِن النارِ بعدَ استِحقاقِها؛ كُلٌّ بحسَبِ حالِه.

وزادَ **في حَديثِ عَبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما** الصَّلاةَ على رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

ففي هذه الأحاديثِ: الحَثُّ على الصَّلاةِ على رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وذِكرِ هذا الدُّعاءِ المَخصُوصِ بعدَ كلِّ أذانٍ؛ للحُصولِ على ذلك الفَضلِ العَظيمِ.

حُكْمُ تَرْكِ الصَّلاةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

وعَن جابرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعْتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((بيْنَ الرَّجُلِ وبيْنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ: تَرْكُ الصَّلاةِ))[1].



الصَّلاةُ فرضُ عَيْنٍ على كلِّ مُسلمٍ مُكلَّفٍ؛ فهيَ الرُّكنُ الثَّاني مِنْ أركانِ الإسلامِ، وأعظمُ رُكنٍ عَمليٍّ بعدَ التَّوحيدِ، وهي العَلامةُ الواضحةُ المُعلِنةُ عَن إسلامِ المرءِ في كلِّ يومٍ.

وفي الآيةِ الأُولَى يُبيِّنُ اللهُ تعالَى أنَّ إقامةَ الصَّلاةِ هي أحدُ الشُّروطِ المطلوبةِ للدُّخولِ في الإسلامِ، وحُصولِ الأخوَّةِ بين أهلِه، فمَن لم يَفعَلْ ذلك فليس بأخٍ في الدِّينِ، ومَن ليس كذلك فهو كافِرٌ.

وقد ذمَّ اللهُ تعالَى **في الآيةِ الثانيةِ** مَن أضاعَ الصَّلاةَ؛ إمَّا بتَركِها بالكُليَّةِ، أو تَرْكِ بَعضِ أركانِها وشُروطِها، أو التَّفريطِ في واجباتِها، أو تأْخيرِها عن مَواقيتِها، وغيرِ ذلك، وأقبَلَ على شَهَواتِ نفْسِه، وانهَمَك في تحقيقِ رَغَباتِها الدُّنيويَّةِ، وآثَرَها على طاعةِ اللهِ وجنَّتِه الأُخرويَّةِ؛ فإنَّ ذلك موجِبٌ للعُقوبةِ الشَّديدةِ في الآخرةِ إلَّا مَن

(١) أخرجه مسلمٌ (٨٢).

تَدارَكَ أمْرَه، وجاهَدَ نَفْسَه فألزَمَها طريقَ الحَقِّ، فتاب عن إضاعةِ الصَّلواتِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ، وآمَنَ وأطاع؛ فإنَّه يَنجُو مِن النَّارِ ويَدخُلُ الجنَّةَ.

وقدْ حَذَّرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تحذيرًا شديدًا مِنْ ترْكِ الصَّلاةِ؛ ففي **حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه** جعَلَها الفَيصَلَ بينَ بَقاءِ العَبدِ على إسلامِه وبَينَ خُروجِه إلى الشِّركِ والكُفرِ، فأمَّا تَرْكُ الصَّلاةِ جُحودًا لوجوبِها فهو كُفْرٌ بالإجماعِ، وكذلِك ترْكُ الصَّلاةِ بالكُلِّيَّةِ تَهاونًا أو كسَلًا كُفرٌ مُخرِجٌ من المِلَّةِ في قَولِ كثيرٍ مِن أهلِ العِلم، وحُكيَ عليه إجماعُ الصَّحابةِ، ومَن يُصلِّيها أحيانًا ويترُكُها أحيانًا فهذا على خَطَرٍ عَظيمٍ، وقَدْ قال بكُفرِه أيضًا بعضُ أهْلِ العِلمِ.

وهذا الحديثُ يُوجِبُ الحَذَرَ الشَّديدَ مِن تَرْكِ هذه العِبادةِ العظيمةِ، أوِ التَّهاوُنِ فيها، وعدَمِ المحافظةِ عليها.

والشِّركُ والكُفرُ قد يُطلَقانِ بمعنًى واحدٍ، وهو الكُفرُ باللهِ تعالَى، وقد يُفرَّقُ بينهما؛ فيُخَصُّ الشِّركُ بعَبَدَةِ الأوثانِ وغيرِها مِنَ المخلوقاتِ، مع اعترافِهِمْ باللهِ تعالَى، كَكُفَّارِ قُرَيشٍ، فيكونُ الكفرُ أَعَمَّ مِنَ الشِّرْكِ في هذه الحالِ.

فَضلُ الصَّلَواتِ الخَمسِ والمُحافَظةِ عليهِنَّ

عن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: **((أَرَأَيْتُم لو أنَّ نَهرًا ببابِ أحَدِكم يَغتَسِلُ منه كُلَّ يَومٍ خَمسَ مرَّاتٍ، هل يَبْقى من دَرَنِه شيءٌ؟ قالوا: لا يَبْقى من دَرَنِه شيءٌ، قال: فذلك مَثَلُ الصَّلَواتِ الخَمسِ؛ يَمْحو اللهُ بهِنَّ الخَطايا))**[1].

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧) واللفظ له.

أَمَرَ اللهُ تَبارَكَ وتعالَى بتعاهُدِ الصَّلَواتِ المَفروضةِ بالمُحافَظةِ على أدائِها في أوقاتِها، وحِفظِ حُدودِها، والعِنايةِ بشُروطِها وأركانِها، وفي حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه يَضرِبُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَثَلًا لمَحْوِ الخَطايا بالصَّلَواتِ الخَمسِ، حيثُ مَثَّلَ الصَّلواتِ الخَمسَ بنَهرٍ على بابِ الإنسانِ يَغتَسِلُ فيه كلَّ يومٍ خَمسَ مرَّاتٍ، فكما أنَّ دَرَنَه ووَسَخَه يَذهَبُ حتى لا يَبْقى من ذلك شيءٌ، فكذلك الصَّلواتُ الخَمسُ في كلِّ يومٍ؛ تَمْحو الذُّنوبَ والخَطايا حتى لا يَبْقى منها شيءٌ. ووَجهُ التَّمثيلِ: أنَّ المَرءَ كما يتدَنَّسُ بالأقْذارِ المَحْسوسةِ في بَدنِه وثيابِه، ويُطهِّرُه الماءُ الكَثيرُ، فكذلك الصَّلواتُ والمُحافَظةُ عليها، وإقامَتُها بأرْكانِها وواجِباتِها، وتَكْميلُ هَيْئاتِها بالخُشوعِ والخُضوعِ، والمُحافَظةُ عليها في أوَّلِ وَقتِها، وفي الجَماعاتِ لمَن كان من أهْلِها؛ فإنَّها تُطهِّرُ العَبدَ من أَقْذارِ الذُّنوبِ حتى لا تُبقيَ له ذَنبًا إلَّا أسقَطَتْه وكَفَّرَتْه ما اجتُنِبَتِ الكَبائرُ، كما صحَّ من قَولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((الصَّلواتُ الخَمسُ كفَّارةٌ لِمَا بَينَهنَّ ما اجتُنِبَتِ الكَبائرُ))[1]. والذي ذهَبَ إليه كَثيرٌ مِن العُلماءِ: أنَّ الصَّلَواتِ تُكفِّرُ الصَّغائِرَ مُطلَقًا إذا لم يُصرَّ عليها؛ فإنَّها بالإصرارِ عليها تَصيرُ مِن الكبائِرِ.

أوقاتُ الصَّلواتِ الخَمْسِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ [هود: ١١٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وعن عبدِالله بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ نَبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا صلَّيْتُم الفَجْرَ فإنَّه وقْتٌ إلى أنْ يَطلُعَ قَرْنُ الشَّمسِ الأوَّلُ، ثمَّ إذا صَلَّيْتم الظُّهْرَ فإنَّه وقْتٌ إلى أنْ يَحضُرَ العَصرُ، فإذا صَلَّيْتم العَصْرَ فإنَّه وقْتٌ إلى أنْ تَصفَرَّ الشَّمسُ،

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) مطوَّلًا من حديث أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه.



فإذا صَلَّيْتم المَغرِبَ فإنَّه وقْتٌ إلى أنْ يَسقُطَ الشَّفَقُ، فإذا صَلَّيْتم العِشاءَ فإنَّه وقْتٌ إلى نِصفِ اللَّيلِ))[1].

عيَّن الشَّارعُ الكريمُ أوقاتًا مُحدَّدةً لأداءِ الصَّلَواتِ الخَمسِ المفروضةِ على العِبادِ؛ ففي **الآيةِ الأُولى** أمْرٌ مِن اللهِ تَعالى بأداءِ الصَّلاةِ في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه، وهي صلاةُ الفَجرِ والظُّهرِ والعَصرِ -على أحدِ الأقوالِ في معْنى الآيةِ-، وأمرٌ بأدائِها أيضًا في ساعاتٍ مِن اللَّيلِ، وهي صَلاةُ المغربِ والعِشاءِ، على أحدِ الأقوالِ.

فالصَّلاةُ أوَّلُ أعمالِ المُسلِمِ إذا أصبحَ -وهي صَلاةُ الصُّبحِ- وآخِرُ أعمالِه إذا أمْسى -وهي صَلاةُ العِشاءِ-؛ لتكونَ السَّيِّئاتُ الحاصِلةُ فيما بيْن ذلك مَمحُوَّةً بالحَسَناتِ الحافَّةِ بها.

وهذه الآيةُ الكريمةُ جاءت بعْدَ أمْرِه تعالى بالاستِقامةِ؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ الصَّلاةَ هي أعظمُ العِباداتِ بعْدَ الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ.

وفي **الآيةِ الثانيةِ** أمرٌ مِن اللهِ تَعالى لنَبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -وأُمَّتُه تبَعٌ له- بأداءِ الصَّلَواتِ المَكتوباتِ على وَجهِ التَّمامِ بجَميعِ أركانِها وشُروطِها، وفي أوقاتِها، وهي مِن مَيلِ الشَّمسِ للزَّوالِ -فيَدخُلُ في ذلك صَلاتا الظُّهرِ والعَصرِ- إلى إقبالِ الظَّلامِ واجتِماعِه -فيَدخُلُ في ذلك صَلاتَا المَغرِبِ والعِشاءِ-، وأمْرٌ منه تعالَى أيضًا بأداء صَلاةِ الفَجرِ عندَ حُصولِه، وذلك في أوَّلِ طُلوعِ الصُّبحِ حين تَنفَجِرُ ظُلمةُ اللَّيلِ عن نورِ الصَّباحِ، وهي صَلاةٌ مَشهودةٌ تَشهَدُها مَلائكةُ اللَّيلِ ومَلائكةُ النَّهارِ.

ففي الآيةِ الكريمةِ دَلالةٌ على مَواقيتِ الصَّلواتِ الخَمسِ، وقد ذكَرَ ذلك غيرُ

(١) أخرجه مسلم (٦١٢).

واحدٍ مِن الأئمةِ؛ كمالكٍ، والشَّافعيِّ، ورُوِي معْناه عن طائفةٍ مِن السَّلفِ.

وقد جاء فيها الاكتفاءُ ببيَانِ المَبدَأِ -وهو دُلُوكُ الشَّمسِ-، والمُنْتهى -وهو غَسَقُ اللَّيلِ- في أوقاتِ الصَّلواتِ مِن غيرِ فصْلٍ بيْنها؛ ولعلَّ ذلك راجِعٌ إلى بقاءِ الإنسانِ يَقِظًا فيما بيْن هذه الأوقاتِ؛ فبعضُها مُتَّصِلٌ ببَعضٍ، بخِلافِ أوَّلِ وقْتِ العِشاءِ والفَجْرِ؛ فإنَّه باشتغالِه بالنَّومِ فيما بيْن هذينِ الوقْتينِ يَنقطِعُ أحدُهما عن الآخَرِ، ففُصِلَ وقْتُ الفَجرِ بالذِّكرِ عن سائرِ الأوقاتِ بقولِه تَعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.

وفي حَديثِ عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما يقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «إذا صَلَّيْتم الفَجْرَ»، وأوَّلُ وقتِ الفَجرِ: حينَ يَطلُعُ الفَجرُ الصادقُ ويَنتشِرُ في السَّماءِ، وهو الضِّياءُ المُعترِضُ في الأفُقِ، «فإنَّه وقْتٌ»، أي: يكونُ ذلك وقتَ الأداءِ للصلاةِ، ويَستمِرُّ «إلى أنَّ يَطلُعَ قَرْنُ الشَّمسِ الأوَّلُ»، وهو طَرَفُها الذي هو أوَّلُ ما يَبْدو منها، فإذا طلعَتِ الشَّمسُ خرَجَ وَقتُ الأداءِ، ودخَلَ وقتُ القضاءِ. «ثمَّ إذا صَلَّيْتم الظُّهرَ» وأوَّلُ وَقتِ الظُّهرِ: حينَ تَزولُ الشمسُ، وتَبدأُ بالمَيلِ عن وسَطِ السَّماءِ إلى الغربِ، «فإنَّه وقْتٌ إلى أنْ يَحضُرَ العَصْرُ»، فحينئذٍ يَخرُجُ وقتُ الأداءِ، ويَدخُلُ وقتُ القضاءِ بدُخولِ وقتِ العَصرِ، وأولُ وَقتِ العَصرِ: أنْ تَكونَ الشمسُ بَيضاءَ مُرتفِعةً، ويكونَ ظِلُّ الرجُلِ مِثلَه، «فإذا صَلَّيْتم العَصْرَ فإنَّه وقْتٌ إلى أنْ تَصفَرَّ الشَّمسُ» فما دامَت بَيضاءَ مُرتفِعةً نَقيَّةً قبلَ أنْ يَحصُلَ اصفرارُها ويَتغيَّرَ لونُها، فهذا هو آخِرُ الوقتِ الاختياريِّ للعَصرِ، وآخِرُ وَقتِ الضَّرورةِ لصلاةِ العَصرِ هو غُروبُ الشَّمسِ، ومِن بعدِ ذلك تكونُ قَضاءً.

والوَقتُ الاختيارِيُّ: هو الوقتُ الذي يَجوزُ للإنسانِ أنْ يُؤخِّرَ الصَّلاةَ إليه مِن غَيرِ كَراهةٍ، وأمَّا وَقتُ الضَّرورةِ: فهو الوقتُ الذي لا يَجوزُ تأخيرُ الصَّلاةِ إليه إلَّا لأصحابِ الأعذارِ فقطْ.

ثُمَّ قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فإذا صَلَّيْتُم المَغْرِبَ» وأوَّلُ وقتِ المغرِبِ: أنْ تغرُبَ الشَّمسُ ويَسقُطَ جانبُها وطَرَفُها فلا تَظهَرُ، «فإنَّه وقْتٌ إلى أنْ يَسقُطَ الشَّفَقُ»، وهو الحُمرةُ، وقيل: البَياضُ الذي يكونُ في السَّماءِ، وذلك أوَّلُ وقتِ صَلاةِ العِشاءِ، «فإذا صَلَّيْتُمُ العِشاءَ فإنَّه وقْتٌ إلى نِصْفِ اللَّيْلِ»، ويُحسَبُ وَقتُ نصفِ اللَّيلِ الذي يَنتَهي به الوقتُ المختارُ للعِشاءِ بِقسمةِ الوَقتِ مِن غُروبِ الشمسِ إلى طُلوعِ الفَجرِ على اثْنَينِ، ووقتُ الضَّرورةِ هو ما بعْدَ نِصفِ اللَّيلِ إلى طُلوعِ الفجرِ. وقيل: يَمتدُّ وَقتُ صَلاةِ العِشاءِ إلى نِصفِ اللَّيلِ، وهو آخرُ وقتِها، ولا يُوجَدُ وقتُ اختيارٍ وضَرورةٍ؛ فهذه أوائلُ الأوقاتِ وأواخِرُها.

فَضلُ الصَّلاةِ على وَقتِها

عن عبدِالله بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سَأَلْتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أيُّ العمَلِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قال: **((الصَّلاةُ على وَقتِها، قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ برُّ الوالِدَينِ، قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ))**. قال: حدَّثَني بهِنَّ، ولوِ استَزَدْتُه لَزادَني[1].



حثَّنا الشَّرعُ المُطهَّرُ على المحافَظةِ على الصَّلاةِ وأدائِها في وَقتِها، وفي حَديثِ عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّه سَألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أحَبِّ العَملِ إلى اللهِ تعالى، فقال له: «الصَّلاةُ على وَقتِها»؛ فبَيَّنَ أنَّ أحَبَّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى الصَّلاةُ على وقتِها، والمُرادُ: في أوَّلِ وَقتِها -كما في رِوايةٍ أُخرى-، وذلك بأنْ يُحافِظَ المُسلِمُ على أدائِها بعْدَ سَماعِه الأذانَ. وذِكْرُ الأفْضليَّةِ هنا للحَضِّ على الإسراعِ إلى الصَّلاةِ، وعدَمِ التَّكاسُلِ عن أدائِها، ولأنَّ في أدائِها في الوقتِ دَليلًا على الحِرصِ عليها، وعلى أنَّ المُسلِمَ يَعرِفُ حقَّ اللهِ ويُحافِظُ عليه ويُؤدِّيه إذا وجَبَ عليه في وَقتِه

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧) واللفظ له، ومسلم (٨٥).

دُونَ تَأجيلٍ أو تَسويفٍ، وعلى أنَّه يَحذَرُ أنْ يَدخُلَ فيمَن قال اللهُ فيهم: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥]. وقيل: الحِكمةُ في تَخصيصِ هذه الأشياءِ الثَّلاثةِ بالذِّكرِ -الصَّلاةُ على وَقتِها، وبِرُّ الوالِدَينِ، والجِهادُ- أنَّ هذه الثَّلاثةَ أفضَلُ الأعمالِ بعْدَ الإيمانِ؛ فمَن ضَيَّع الصَّلاةَ التي هي عِمادُ الدِّينِ مع العِلمِ بفَضيلَتِها، كان لِغَيرِها مِن أمرِ الدِّينِ أشَدَّ تَضييعًا، وأشَدَّ تَهاوُنًا واستِخفافًا، وكذا مَن ترَكَ بِرَّ والِدَيهِ فهو لِغَيرِ ذلك مِن حُقوقِ النَّاسِ أشَدُّ تَرْكًا، وكذا الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ؛ مَن ترَكَه مع قُدرتِه عليه عندَ تَعيُّنِه عليه فهو لغَيرِ ذلك مِن الأعمالِ الَّتي يُتقرَّبُ بها إلى اللهِ تعالى أشَدُّ تَرْكًا.

وقدْ جاء هذا التأكيدُ على الصَّلاةِ في وقْتِها في وَصيَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأبي ذَرٍّ، حيث قال رضِيَ اللهُ عنه: ((إنَّ خَليلي أَوْصاني أنْ أَسمَعَ وأُطيعَ، وإنْ كان عبدًا مُجَدَّعَ الأطرافِ، وأنْ أُصَلِّيَ الصَّلاةَ لِوَقتِها...))[1].

التَّغْليسُ بصَلاةِ الصُّبْحِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وعن مُحمَّد بنِ عَمرِو بنِ الحَسَنِ بنِ عَليٍّ قال: لَمَّا قَدِمَ الحَجَّاجُ المَدينةَ، فسَأَلْنا جابِرَ بنَ عبدِاللهِ، فقال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُصَلِّي الظُّهْرَ بالهاجِرةِ، والعَصْرَ والشَّمسُ نَقِيَّةٌ، والمَغرِبَ إذا وجَبَتْ، والعِشاءَ أحيانًا يُؤخِّرُها، وأحيانًا يُعَجِّلُ؛ كان إذا رآهُمْ قدِ اجْتَمَعوا عَجَّلَ، وإذا رآهُمْ قدْ أبْطَؤُوا أخَّرَ، والصُّبْحَ كانوا -أوْ قالَ-: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُصَلِّيهَا بغَلَسٍ))[2].



(١) أخرجه مسلم (٦٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٠)، ومسلم (٦٤٦) واللفظ له.



أَمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأداءِ صَلاةِ الفَجرِ -والتي هي صَلاةٌ مَشهودةٌ تَشهَدُها مَلائكةُ اللَّيلِ ومَلائكةُ النَّهارِ- عند حصولِه، وذلك في أوَّلِ طُلوعِ الصُّبحِ حين تَنفَجِرُ ظُلمةُ اللَّيلِ عن نورِ الصَّباحِ، وهو معْنى الغَلَسِ، فالغَلَسُ: هو اختِلاطُ ضِياءِ الصُّبحِ بظُلمةِ اللَّيلِ. **فهذه الآيةُ الكريمةُ** تَقتَضي أنَّ إقامةَ تلك الصَّلاةِ في أوَّلِ وَقتِها أفضَلُ إذا تحقَّق طُلوعُ الفَجرِ الصَّادِقِ.

وفي الحَديثِ المذكورِ يَحكي محمَّدُ بنُ عَمرِو بنِ الحَسنِ بنِ عليٍّ أنَّه لَمَّا قدِمَ الحَجَّاجُ -وهو ابنُ يُوسفَ الثَّقفِيُّ، الذي اشتُهِرَ بظُلمِ العِبادِ- واليًا على المدينةِ عقِبَ قَتْلِ ابنِ الزُّبَيرِ رَضِيَ اللهُ عنْه، سَأَلوا جابرَ بنَ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما عن تَأْخيرِ الصَّلاةِ؛ لأنَّ الحَجَّاجَ كان يُؤخِّرُ الصَّلاةَ عن وقْتِها، فبيَّنَ جابرٌ رَضِيَ اللهُ عنه لهم مَواقيتَ كلِّ صَلاةٍ، ومتى كان يُصلِّيها النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومِن ذلك أنَّه كان يُصلِّي صَلاةَ الصُّبحِ بغَلَسٍ، وهذا إشارةٌ إلى أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ يُعجِّلُ بأداء صَلاةِ الفَجرِ في أوَّلِ وقْتِها، وأنَّ فِعلَ الحَجَّاجِ بتأخيرِه لها مُخالِفٌ لهَدْيِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

تَأخيرُ صَلاةِ العِشاءِ

عن أبي بَرْزَةَ رضي الله عنه، قال: **((كَانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُبالي بعضَ تأخيرِ صلاةِ العشاءِ إلى نصفِ اللَّيلِ، وكان لا يُحِبُّ النَّومَ قبلَها، ولا الحديثَ بعدَها))**[1].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: أعْتَمَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَيلةً بالعِشاءِ، حتى رقَدَ النَّاسُ واستيقَظوا، ورَقَدوا واستيقَظوا، فقام عُمرُ بنُ الخطَّابِ فقال: الصَّلاةَ، قال عَطاءٌ: قال ابنُ عبَّاسٍ: فخرَجَ نَبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -كأنِّي

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧١)، ومسلم (٦٤٧) واللفظ له.

أنظُرُ إليه الآنَ- يَقطُرُ رأسُه ماءً، واضِعًا يَدَه على رأسِه، فقال: ((لولا أنْ أشُقَّ على أمَّتي لَأمَرْتُهم أنْ يُصَلُّوها هكذا))[1].



في حَديثِ أبي بَرْزةَ رضِيَ اللهُ عنه بَيانُ أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان لا يُبالي بتَأْخيرِ أداءِ العِشاءِ عن أوَّلِ وَقتِها أحيانًا إلى وقتٍ مُتأخِّرٍ مِن اللَّيلِ، وهو نِصفُ اللَّيلِ، وكان أحيانًا أُخرى لا يُؤخِّرُها.

ثمَّ أخبرَ أبو بَرْزةَ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان لا يُحِبُّ النَّومَ قبْلَ صَلاةِ العِشاءِ؛ وذلك لِئلَّا يَغلِبَ النَّومُ المَرءَ، فتَفوتَه الصَّلاةُ، أو يَفُوتَه فَضلُ وَقتِها المُستَحَبِّ، أو يَترخَّصَ في ذلك بعضُ النَّاسِ فيَناموا عن إقامةِ جَماعتِها. وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان لا يُحِبُّ السَّمَرَ بعْدَ صَلاةِ العِشاءِ؛ وذلك لأنَّ السَّمَرَ بعْدَ العِشاءِ، والإفراطَ في الحديثِ والكلامِ والسَّهرِ: يُؤدِّي إلى فَواتِ صَلاةِ الصُّبحِ مع الجَماعةِ أو في وَقتِها، أو النَّومِ عن قيامِ اللَّيلِ وذِكْرِ اللهِ فيه، أو يَجعَلُ المَرءَ يَكْسَلُ عنِ الطَّاعاتِ ومَصالحِ دِينِه ودُنياه نهارًا.

وفي حَديثِ عبدِالله بنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أعْتَمَ لَيلةً بالعِشاءِ، فأخَّرَ صَلاتَها في المسجِدِ عن أوَّلِ وَقتِها حتى اشتدَّتْ عَتَمةُ اللَّيلِ وظُلمَتُه، حتى رقَدَ النَّاسُ وناموا نَومًا خفيفًا كالنُّعاسِ وهُم قُعودٌ غيرُ مُستغرقينَ في النَّومِ، مع شُعورِهم بما حَولَهم، «واستَيقَظوا، ورَقَدوا واستَيقَظوا»، وهو كِنايةٌ عن طُولِ وَقتِ انتِظارِهم للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لإقامةِ صَلاةِ العِشاءِ، فقام عُمرُ بنُ الخطَّابِ لِتَنبيهِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ودَعوَتِه إلى الصَّلاةِ، فخرَجَ نبيُّ الله صلَّى

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠) واللفظ له، ومسلم (٦٤٢) مطولًا.

اللهُ عليه وسلَّمَ يَقطُرُ رَأسُه ماءً، فقال: «لولا أنْ أَشُقَّ على أُمَّتي لَأمرْتُهم أنْ يُصَلُّوها هكذا»، أي: لولا مَخافةُ التَّشديدِ في الأمْرِ على أُمَّتي لجَعَلْتُ أوَّلَ وَقتِ العِشاءِ في هذا الوَقتِ المُتأخِّرِ؛ لِمَا فيه مِن الفَضلِ، وهذا مِن الحَضِّ على تَأْخيرِها لهذا الوَقتِ والتَّرغيبِ فيه.



صِفَةُ الصلاةِ

حديثُ المُسيءِ صَلاتَه

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دخَلَ المَسجدَ فدخَلَ رجُلٌ، فصَلَّى، فسَلَّمَ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فرَدَّ وقالَ: ((ارْجِعْ فصَلِّ؛ فإنَّكَ لمْ تُصَلِّ، فرجَعَ يُصلِّي كما صَلَّى، ثُمَّ جاء، فسَلَّمَ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقال: ارْجِعْ فصَلِّ؛ فإنَّكَ لمْ تُصَلِّ -ثلاثًا-، فقال: والذي بَعَثك بالحَقِّ ما أُحسِنُ غَيرَه؛ فعَلِّمْني، فقال: إذا قُمْتَ إلى الصَّلاةِ فكَبِّرْ، ثُمَّ اقرَأْ ما تَيسَّرَ معَكَ مِن القُرآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حتى تَطمَئنَّ راكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتى تَعدِلَ قائمًا، ثُمَّ اسجُدْ حتى تَطمَئنَّ ساجِدًا، ثُمَّ ارفَعْ حتى تَطمَئنَّ جالِسًا، وافْعَلْ ذلك في صَلاتِكَ كُلِّها))[1].



في هذا الحَديثِ يُخبِرُ أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَخَلَ المَسجدَ، والمرادُ به المسجدُ النَّبويُّ، فدَخَلَ رجُلٌ فصَلَّى مُتَعجِّلًا في صَلاتِه ولم يَأْتِ بها على الوجهِ الأكمَلِ والأتَمِّ، ولم يَطمَئنَّ في قِيامِه ورُكوعِه وسُجودِه، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَرقُبُ صَلاتَه، فلمَّا انْتَهى الرجُلُ وانصرَفَ مِن صَلاتِه جاء إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وسلَّمَ عليه فرَدَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السَّلامَ، ثُمَّ قال لَه: «ارجِعْ فصَلِّ؛ فإنَّك لم تُصَلِّ»، أي: لأنَّكَ لم تُصَلِّ الصَّلاةَ التي أوجَبَ اللهُ عليكَ أنْ تُصلِّيَها؛ حيث تَرَكْتَ الطُّمأنينةَ التي هي رُكنٌ مِن أركانِ الصَّلاةِ، فأمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإعادتِها ثَلاثَ مرَّاتٍ، كلُّ ذلك والرجُلُ يُصلِّي بالطَّريقةِ نفْسِها، ثم يَرجِعُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيَأمُرُه بإعادتِها.

(١) أخرجه البخاري (٧٥٧) واللفظ له، ومسلم (٣٩٧).



فقال له الرَّجُلُ: «والَّذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما أُحسِنُ غيرَه؛ فعَلِّمْني»، أي: لا أعرِفُ كَيفيَّةَ الصَّلاةِ بأحسَنَ ممَّا رأيْتَ؛ فعَلِّمْني كَيف تكونُ الصَّلاةُ الصَّحيحةُ؟ فقالَ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُعلِّمًا إيَّاه: «إذا قُمْتَ إلى الصَّلاةِ» وأردْتَ أداءَها فرْضًا كانت أو نفْلًا، وذلك بعْدَ الوضوءِ وإحسانِه، «فكَبِّرْ» والمرادُ به تَكبيرةُ الإحْرامِ، «ثُمَّ اقرَأْ ما تَيسَّرَ معك مِنَ القُرآنِ»، وهي الفاتِحةُ لأنَّها رُكنٌ في كُلِّ رَكعةٍ، ثمَّ ما يَحفَظُ مِن الآياتِ والسُّوَرِ الأُخرى، «ثُمَّ اركَعْ حتى تَطمَئنَّ راكِعًا، ثم ارفَعْ حتى تَعدِلَ قائمًا، ثُمَّ اسجُدْ حتى تَطمَئنَّ ساجِدًا»، يعني: فحافِظْ على الاعتِدالِ في القِيامِ، والطُّمأنينةِ في الرُّكوعِ والسُّجودِ، وهذه الصِّفةُ تكونُ في جَميعِ الرَّكَعاتِ، وفي كلِّ الصَّلواتِ.

وفي الحديثِ: بيانُ حُسنِ خُلُقِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولُطفِ مُعاشَرتِه معَ أصْحابِه، وحُسنِ تَعليمِه بالرِّفقِ دونَ التَّغليظِ والتَّعنيفِ.

رُكْنيَّةُ قِراءةِ الفاتِحةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا صَلاةَ لِمَن لمْ يَقْرَأْ بفاتِحةِ الكِتابِ))[1].



للصَّلاةِ أركانٌ وواجباتٌ لا تَصِحُّ ولا تَتِمُّ إلَّا بها، ومِن ذلك قِراءةُ سُورةِ الفاتحةِ في كلِّ رَكعةٍ؛ فسُورةُ الفاتحةِ لها شأنٌ عظيمٌ وأهميَّةٌ كُبرى. ففي الآيةِ الكريمةِ يَذكُرُ اللهُ تعالى نِعمَتَه على نَبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإعطائِه سَبعَ آياتٍ، هي سُورةُ الفاتحةِ التي تتَّصِفُ بأنَّها مَثانٍ، وبأنَّها عظيمةُ القَدْرِ، وذلك على الرأيِ القائلِ بأنَّ

(١) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

المثانيَ والقُرآنَ العظيمَ هي الفاتحةُ.

وفي سَبَبِ اتِّصافِ الفاتحةِ بكونِها مَثانيَ: أقوالٌ؛ منها: أنَّها تُثنَّى في كلِّ صَلاةٍ، أي: تُقرَأُ في كلِّ ركعةٍ. ومنها: اشتمالُها على الثَّناءِ على اللهِ تعالَى. ومنها: أنَّها قِسمانِ: ثَناءٌ ودُعاءٌ، فالنِّصفُ الأوَّلُ منها حقُّ الرُّبوبيةِ، وهو الثَّناءُ، والنِّصفُ الثاني حقُّ العبوديةِ، وهو الدُّعاءُ.

وفي حَديثِ عُبادةَ بنِ الصامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لا صَلاةَ لِمَن لمْ يَقرَأْ بفاتِحةِ الكِتابِ»، وهذا نَفيٌ لصِحَّةِ الصَّلاةِ فَرضًا كانت أو نَفْلًا؛ فقِراءةُ الفاتحةِ رُكنٌ مِن أركانِ الصَّلاةِ، وهذا على العُمومِ، سَواءٌ كانت جَهرًا أو سِرًّا، للإمامِ أو المُنفَرِدِ، وثَمَّ خِلافٌ بيْن أهلِ العِلمِ في حُكمِ قِراءةِ المأمومِ في الجَهريَّةِ للفاتحةِ، وأكثرُ السلَفِ وجُمهورُ الفُقهاءِ على أنَّه لا تجِبُ قِراءةُ الفاتحةِ على المأمومِ في الصَّلاةِ الجَهريَّةِ، وأنَّ قِراءةَ الإمامِ تُجزئُ عنِ المأمومِ إذا استمَعَ وأنصَتَ لقِراءتِه.

فَضلُ قِراءةِ الفاتحةِ في الصَّلاةِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((قالَ اللهُ تعالَى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْني وبيْنَ عَبْدِي نِصفَينِ، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قال العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قالَ اللهُ تعالَى: حَمِدَني عَبْدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قالَ اللهُ تعالَى: أَثْنَى علَيَّ عَبْدي، وإذا قالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قالَ: مَجَّدَني عَبْدي -وقالَ مَرَّةً: فوَّضَ إلَيَّ عَبْدي-، فإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قالَ: هذا بَيْني وبيْنَ عَبْدي، ولعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قالَ: هذا

لعَبْدِي، ولعَبْدِي ما سَأَلَ))[1].



في هذا الحديثِ يقولُ أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: «سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: قال اللهُ تعالى» في الحديثِ القُدْسيِّ: «قسَمْتُ الصَّلاةَ» يُريدُ بالصَّلاةِ: قِراءةَ الفاتحةِ، وسُمِّيَت صَلاةً؛ لِمَا فيها مِن القراءةِ وكَونِها جُزءًا مِن أجزائِها، «بيْني وبينَ عَبْدي نِصفَينِ»، فنِصفُها للهِ عزَّ وجلَّ، وهو ثَناءٌ وتَعظيمٌ للهِ عزَّ وجلَّ، يَجْزيه اللهُ عليه خيرَ الجزاءِ، ونِصفُها للعبدِ؛ وهو سؤالٌ وطَلَبٌ وتضَرُّعٌ وافتِقارٌ، «فإذا قالَ العَبْدُ» عندَ قِراءتِه للفاتحةِ في الصَّلاةِ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قالَ اللهُ تعالَى: حَمِدَني عَبْدِي»، والإخبارُ بذلك دَليلُ قَبولِه تَعالى لتَحميدِ عَبدِه إيَّاه، والظاهرُ أنَّه يقولُ هذا لمَلائكتِه؛ تَنْويهًا بشَأنِ العبدِ، «وإذا قالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قالَ اللهُ تعالَى: أثْنَى علَيَّ عَبْدي»، والثَّناءُ: المدحُ، «وإذا قالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قالَ: مَجَّدَني عَبْدي» مِن المَجْدِ، وهو الشَّرَفُ الواسعُ، وهو أبلَغُ مِن الحَمدِ والثَّناءِ، «وقال مرَّةً: فَوَّضَ إلَيَّ عَبْدي»، أي: سلَّمَ أُمورَه إلَيَّ، «فإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قالَ: هذا بَيْني وبيْنَ عَبْدي، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ»؛ لأنَّ في ذلك تَذَلُّلَ العبدِ للهِ تعالَى، وطَلَبَه الاستعانةَ منه، وذلك يَتضمَّنُ تَعظيمَ اللهِ وقُدرتَه على ما طَلَبَ منه، «فإذا قالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قالَ: هذا لِعَبْدي، ولِعَبْدي ما سَأَلَ»، هذا سؤالٌ يَطلُبُ به العبدُ مِن ربِّه الهدايةَ والنَّجاةَ مِن صِراطِ المَغضوبِ عليهم والضالِّينَ، وهما اليهودُ والنَّصارى.

وفي الحديثِ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّلاةَ مَحلُّ الدُّعاءِ بكلِّ ما يُرادُ مِن خَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ.

---

(١) جزءٌ من حديث أخرجه مسلم (٣٩٥).



أذكارُ الصَّلاةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

وعن حُذيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((صلَّيْتُ معَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ لَيلةٍ، فافتتَحَ البَقرةَ، فقلْتُ: يَركَعُ عندَ المائةِ، ثم مَضى، فقلْتُ: يُصلِّي بها في رَكعةٍ، فمَضى، فقلْتُ: يَركَعُ بها، ثم افتتَحَ النِّساءَ، فقَرَأَها، ثمَّ افتتَحَ آلَ عِمرانَ، فقَرَأَها، يَقرَأُ مُتَرَسِّلًا، إذا مرَّ بآيةٍ فيها تَسبيحٌ سبَّحَ، وإذا مرَّ بسُؤالٍ سأَلَ، وإذا مرَّ بتَعوُّذٍ تَعوَّذَ، ثم ركَعَ، فجعَلَ يقولُ: سُبحانَ ربِّيَ العَظيمِ، فكان رُكوعُه نَحوًا مِن قِيامِه، ثمَّ قال: سَمِعَ اللهُ لمَن حَمِدَه -وفي روايةٍ: سَمِعَ اللهُ لمَن حَمِدَه، رَبَّنا لكَ الحمدُ- ثمَّ قام طويلًا قريبًا ممَّا ركَعَ، ثم سجَدَ، فقال: سُبحانَ ربِّيَ الأعْلى، فكان سُجودُه قريبًا مِن قِيامِه))(١).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُكثِرُ أنْ يَقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: ((سُبْحانكَ اللَّهُمَّ ربَّنا وبِحَمْدِك، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي؛ يَتأَوَّلُ القُرآنَ))(٢).

وعن عَبدِاللهِ بنِ أبي أوْفى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا رفَعَ ظَهرَهُ مِن الرُّكوعِ، قالَ: ((سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمِدَه، اللَّهُمَّ ربَّنا لكَ الحَمْدُ، مِلْءَ السَّمواتِ، ومِلْءَ الأرْضِ، ومِلْءَ ما شِئتَ مِن شَيءٍ بعْدُ))(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤).

(٣) أخرجه مسلم (٤٧٦).



وعن عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَنَّهُ كان إذا قامَ إلى الصَّلاةِ قالَ: ((وَجَّهتُ وَجْهيَ للذي فَطَرَ السَّمواتِ والأرضَ حَنِيفًا وما أنا مِن المُشرِكينَ، إنَّ صَلاتي ونُسكي ومَحْيايَ ومَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ لا شَريكَ له، وبذلكَ أُمِرْتُ وأنا مِن المُسلِمينَ، اللَّهُمَّ أنتَ المَلِكُ لا إلَهَ إلَّا أنتَ، أنت ربِّي وأنا عَبْدُك، ظَلَمْتُ نَفْسي، واعْتَرَفْتُ بذَنْبي؛ فاغفِرْ لي ذُنوبي جَميعًا؛ إنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ، واهْدِني لأحسَنِ الأخْلاقِ؛ لا يَهدِي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَها؛ لا يَصرِفُ عَنِّي سَيِّئَها إلَّا أنت، لَبَّيكَ وسَعْدَيكَ، والخَيرُ كُلُّه في يَدَيكَ، والشَّرُّ ليس إلَيكَ، أنا بكَ وإلَيكَ، تبارَكْتَ وتعالَيتَ، أستَغفِرُك وأتوبُ إلَيكَ. وإذا رَكَعَ قال: اللَّهُمَّ لكَ رَكَعتُ، وبك آمَنتُ، ولك أسْلَمتُ، خَشَعَ لكَ سَمْعي وبَصَري ومُخِّي وعَظْمي وعَصَبي. وإذا رفَعَ قال: اللَّهُمَّ رَبَّنا لكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمواتِ، ومِلْءَ الأرضِ، ومِلْءَ ما بيْنَهما، ومِلْءَ ما شِئْتَ مِن شيءٍ بَعدُ. وإذا سَجَدَ قال: اللَّهُمَّ لكَ سَجَدتُ، وبكَ آمَنتُ، ولك أسْلَمتُ، سجَدَ وَجْهي للذي خلَقَه وصَوَّرَه وشَقَّ سَمْعَه وبَصَرَه، تبارَكَ اللَّهُ أحْسَنُ الخالِقينَ. ثمَّ يكونُ مِن آخِرِ ما يقولُ بيْن التَّشهُّدِ والتَّسْليمِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسرَرْتُ وما أعلَنْتُ، وما أسْرَفتُ، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي؛ أنت المُقَدِّمُ وأنت المُؤخِّرُ، لا إلَهَ إلَّا أنت))(١).

في الآيتينِ الكريمتَينِ الأُولى والثَّانيةِ أمرٌ مِن اللهِ تعالَى لنَبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَنزيهِ رَبِّه المتَّصِفِ بكَمالِ العَظَمةِ والعُلُوِّ عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائلًا: سُبحانَ ربِّيَ العظيمِ، و: سُبحانَ ربِّيَ الأعلى. وقد امتَثَل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك.

وفي الآيةِ الثالثةِ: أمرٌ مِن اللهِ تعالَى لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يُنزِّهَه عزَّ وجلَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١). وأخرجه البخاري (١١٢٠) بنحوه مختصرًا من حديث ابن عباس.



عن كُلِّ ما لا يَليقُ به تَنزيهًا مُتَلَبِّسًا بحَمدِه، وفيها أمْرُهُ بطَلَبِ المغفرةِ منه سُبحانَه وتعالَى. وقد امتَثَل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك أيضًا.

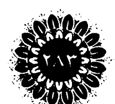
وفي الحَديثِ الأوَّلِ يُخبِرُ حُذَيفةُ بنُ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عَنهما أنَّه صلَّى قِيامَ اللَّيلِ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في لَيلةٍ مِن اللَّيالي، ولعلَّ ذلك كان في رَمَضانَ؛ فبيَّنَ ما يَفعَلُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قِيامِهِ ورُكوعِه وسُجودِه، وممَّا جاء في صِفةِ رُكوعِهِ وما يَقولُ فيه: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ركَعَ بعدَ طُولِ قِيامِه، «فجَعَلَ يَقولُ: سُبحانَ ربِّيَ العَظيمِ» فالْتزَمَ هذه الصِّيغةَ في التَّسبيحِ، وكان يُكثِرُ مِن قَولِها، ومَعْناها: نُمجِّدُ اللهَ عزَّ وجلَّ ونُثْني عليه فيه بِعَظمتِه، «فكان رُكوعُه نَحوًا مِن قِيامِه»، وكانت مُدَّةُ رُكوعِهِ مُقارِبةً لِمُدَّةِ قِيامِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ثمَّ قال: «سَمِعَ اللهُ لمَنْ حَمِدَه» -وفي رِوايةٍ: «سَمِعَ اللهُ لمَنْ حَمِدَه، ربَّنا لك الحَمدُ»- وهذا خبَرٌ بمَعْنى الدُّعاءِ، أيْ: استَجِبْ يا أللهُ دُعاءَ مَن حَمِدَك، وهذا مِن الإمامِ دُعاءٌ للمأمومِ. وقيلَ: ويَحتمِلُ أنْ يكونَ خَبرًا عن فَضلِ اللهِ تَعالى؛ فإذا كان الإنسانُ يُصلِّي مُنفرِدًا جمَعَ بيْنَ القولَينِ، وأمَّا إذا كان مأمومًا فإنَّه يَقتصِرُ على قَولِه: (ربَّنا ولك الحَمدُ) عَقِبَ سَماعِه قولَ الإمامِ: (سَمِعَ اللهُ لمَن حَمِدَه). وقيلَ: يَجمَعُ بيْنَهما كما في حالِ المُنفرِدِ، «ثمَّ قام طَويلًا قريبًا ممَّا ركَعَ، ثمَّ سجَدَ»، وكانت مُدَّةُ سُجودِه قَريبةً مِن طُولِ قِيامِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالَ: «سُبحانَ ربِّيَ الأعْلى» يُخصِّصُ هذا الذِّكرَ والثَّناءَ للسُّجودِ، ومَعْناه: تَقديسُ المَلِكِ سُبحانَه وتَنزيهُه عن كُلِّ نَقصٍ.

ومُناسَبةُ ذِكرِ صِفةِ الأعْلى للسُّجودِ أنَّ هذا المقامَ يكونُ فيه العَبدُ في غايةِ الذُّلِّ والخُضوعِ للهِ سُبحانَه وتعالَى؛ حيثُ جعَلَ أشرَفَ شَيءٍ فيه على الأرضِ؛ خُضوعًا للهِ وذُلًّا له سُبحانَه وتعالَى، فناسَبَ أنْ يَأتيَ وَصفُ اللهِ بالأعْلى الذي هو العُلُوُّ المُطلَقُ ذاتًا وقَدْرًا وقَهرًا.

وممَّا كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَلتزِمُه في رُكوعِه وسُجودِه **ما أخبَرَتْ به عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها في الحَديثِ الثاني**؛ وفيه أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَقولُ: «سُبحانَك اللَّهُمَّ ربَّنا وبحَمدِكَ»، أي: بتَوفيقِكَ لي وهِدايتِك وفَضلِكَ علَيَّ سبَّحتُكَ لا بَحْولِي وقُوَّتي، ولأنَّك مَوصوفٌ بصِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ سبَّحَك المُسبِّحون، وعظَّمَك المُعظِّمون، والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ، «اللَّهُمَّ اغفِرْ لي»، أي: امْحُ عنِّي ذَنْبي، وكان استِغفارُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شُكرًا للهِ وطَلبًا لرَحمتِه وفَضْلِه، ولعلَّ مَقصودَهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن ذلك تَعليمُ أُمَّتِه التَّوبةَ مِن الذُّنوبِ وطلَبَ المَغفرةِ مِن اللهِ؛ لأنَّ اللهَ قد غفَرَ له ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تأخَّرَ. قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها: «يَتأوَّلُ القُرآنَ»، أي: يَفعَلُ ما أُمِر به فيه، فيَتأوَّلُ ما جاءَ في القُرآنِ مِن الأمْرِ بالتَّسبيحِ والاستِغْفارِ في نَحوِ قولِه تَعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر: ٣].

وفي الحديثِ الثالثِ يخبرُ عَبدُاللهِ بنُ أبي أوْفى رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَقولُ إذا رَفَع مِن رُكوعِه واستوى قائمًا: «اللَّهُمَّ ربَّنا لك الحَمدُ مِلْءَ السَّمواتِ، ومِلْءَ الأرضِ، ومِلْءَ ما شِئتَ مِن شَيءٍ بَعْدُ»، ومعناه: أَتوجَّهُ إليك يا أللهُ بالحمْدِ الكاملِ والمُكافِئِ لنِعَمِك وأفضالِك، كما تَشاءُ مِن العَدَدِ، والمرادُ بهذا تكثيرُ العَدَدِ؛ فلو قُدِّرَ أنَّ الحَمدَ أجسامٌ مَحسوسةٌ فلكَ مِن الحَمدِ ما يَملأُ السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنهما. وقيل: الإشارةُ هنا إلى الصُّحُفِ التي تُكتَبُ فيها المحامِدُ. «ومِلْءَ ما شِئْتَ مِن شَيءٍ بعدُ»، يَعني: ومِلْءَ غيرِ السَّمواتِ والأرضِ ممَّا شِئْتَ، ممَّا لا عِلمَ للعِبادِ به. وهذا مِن بابِ التَّعليمِ لأُمَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ وإلَّا فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد غفَرَ له ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تأخَّرَ. أمَّا بيْن السَّجْدتين فيقولُ: «ربِّ اغْفِرْ لي».

وفي الحديثِ الرَّابعِ بَيانٌ لهَدْيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ أثناءَ صَلاتِه، حيثُ يَحْكي عَليُّ بنُ أبي طالبٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا قامَ إلى الصَّلاةِ المكتوبةِ أوِ النَّافِلةِ قال: «وجَّهْتُ وَجْهيَ»، أي: تَوجَّهْتُ



بالعِبادةِ وأخلَصْتُها «للذي فطَرَ السَّمواتِ والأرضَ» الذي ابتدأَ خَلْقَهما، «حَنيفًا»، أي: مائِلًا عن الشِّركِ إلى التوحيدِ، والحَنيفُ عندَ العَربِ: مَن كان على دِينِ إبْراهيمَ عليه السَّلامُ، «وما أنا مِن المُشرِكينَ»، والمُشرِكُ يُطلَقُ على كلِّ كافرٍ؛ مِن عابدِ وَثَنٍ وصنَمٍ، ويَهوديٍّ ونَصْرانيٍّ ومَجوسيٍّ، وغَيرِهم، «إنَّ صَلاتي ونُسُكي» النُّسُكُ هو العِبادةُ، والنَّسيكةُ كلُّ ما يُتقرَّبُ به إلى اللهِ تعالَى، وتُطلَقُ على الذَّبيحةِ الَّتي يُتقرَّبُ بها للهِ تعالَى، «ومَحْيايَ ومَماتي» فهو خالِقُهما ومُقَدِّرُهما، أو هو المالِكُ لهما، والمُختَصُّ بهما، لا تَصرُّفَ لغَيرِه فيهما. وقيلَ: ما أنا عليه مِن العِبادةِ في حَياتي وما أموتُ عليه: خالِصٌ للهِ، «ربِّ العالَمينَ»، مالِكِهم ومُربِّيهم ومُصلِحِ شُؤونِهم ومُدبِّرِها، «لا شَريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ» أُمِرْتُ بالتَّوحيدِ الكاملِ الشَّاملِ للإخْلاصِ قَولًا واعتقادًا، «وأنا مِن المُسلِمينَ» تأكيدٌ لمَعاني التَّوحيدِ والقَبولِ لدِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

ثُمَّ أثْنَى على اللهِ تعالَى، واعترَف بذنبِه، وطلَبَ منه المَغفِرةَ قائلًا: «اللَّهمَّ أنتَ الملِكُ» ومَعْناها: يا أللهُ أنتَ المالِكُ الحَقيقيُّ لجَميعِ المَخلوقاتِ، «وأنا عبدُكَ» مُعترِفٌ بأنَّكَ مالِكي ومُدَبِّري، وحُكمُكَ نافِذٌ فيَّ، «ظلَمْتُ نَفْسي، واعترَفْتُ بذَنْبِي» يَعني: ظلَمْتُ نَفْسي بالتَّقْصيرِ في حقِّكَ، واعترَفْتُ بالتَّقْصيرِ، «فاغفِرْ لي ذُنوبي جَميعًا» بمَعنى: فتَجاوَزْ يا رَبِّ عن تَقْصيري؛ «إنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ، واهْدِني لأحسَنِ الأخْلاقِ» أرشِدْني لأكمَلِها وأفضَلِها، ووفِّقْني للتَّخلُّقِ بها، وثبِّتْني عليها، «واصرِفْ عنِّي سيِّئَها» قَبيحَها والمذمومَ منها، «لا يَصرِفُ عنِّي سيِّئَها إلَّا أنتَ».

ثُمَّ قال: «لبَّيْكَ»، أي: أُقيمُ على طاعتِكَ وامتِثالِ أمرِكَ إقامةً مُتكَرِّرةً، «وسَعدَيْكَ» يَعني: مُساعَدةً لأمرِكَ بعدَ مُساعدةٍ، ومُتابَعةً لدِينِكَ بعدَ مُتابَعةٍ، «والخيرُ كلُّه في يدَيْكَ» وفي هذا الإقرارُ بأنَّ كلَّ خيرٍ واصلٍ إلى العِبادِ ومَرْجُوٍّ وُصولُه، فهو في يدَيْهِ تعالَى، «والشَّرُّ ليسَ إليكَ»، فلا يُنسَبُ الشَّرُّ إليكَ، أوِ الشرُّ لا يُتقَرَّبُ به إليكَ، أوِ الشرُّ لا يَصعَدُ إليكَ، وإنَّما الكَلِمُ الطيِّبُ هو الذي يَصعَدُ، «أنا بِكَ وإليكَ» فتَوْفِيقي بكَ

والْتِجائي وانْتِمائي إليكَ، أو وُجودي بإيجادِكَ، ورُجوعي إليكَ، أو بكَ أعتَمِدُ، وإليكَ أَلْتَجِئُ، «تَبارَكْتَ وتَعالَيتَ»، وهذا ثَناءٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ بأمرَيْنِ: أَحَدُهما التَّبارُكُ، والتَّاءُ للمُبالَغةِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو أهلُ البَرَكةِ، فـ«تَبارَكْتَ» يَعني: كثُرَتْ خيراتُكَ، وعمَّتْ ووسِعَتِ الخَلْقَ؛ لأنَّ البَركةَ هي الخيرُ الكثيرُ الدَّائمُ، «وتَعالَيتَ» مِن العُلوِّ الذَّاتيِّ والوَصْفيِّ؛ فاللهُ سُبحانَه وتعالَى عَلِيٌّ بذاتِه، وعَلِيٌّ بصِفاتِه؛ عَليٌّ بذاتِه فوقَ جَميعِ الخَلْقِ، وعُلوُّه سُبحانَه وتعالَى وَصفٌ ذاتيٌّ أَزليٌّ أَبديٌّ، «أستَغْفِرُكَ وأَتوبُ إلَيكَ» يَعني: أطلُبُ منكَ المَغفرةَ ومَحْوَ الخَطايا، فكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستَفتِحُ صَلاتَه بهذا الدُّعاءِ العَظيمِ.

وإذا ركَعَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال في رُكوعِه: «لكَ ركَعْتُ، وبكَ آمَنْتُ، ولكَ أسْلَمتُ» يَعني: لكَ ذلَلْتُ وانقَدْتُ، أو لكَ أخلَصْتُ وَجْهي، «خشَعَ»، أي: خضَعَ وتَواضَعَ لكَ، «سَمْعي وبَصَري» خَصَّهما مِن بيْنِ الحَواسِّ؛ لأنَّ أكثَرَ الآفاتِ بهما، فإذا خشَعَتا قلَّتِ الوَساوِسُ، «ومُخِّي وعَظْمي وعَصَبي» والعَصَبُ هو الذي تَتَّصِل بِه المَفاصِلُ والعِظامُ ويَشُدُّها، وهو ألطَفُ مِن العَظْمِ، فإذا رفَعَ رأسَه مِن الرُّكوعِ قال بعدَ قَولِه: سمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه: «اللَّهُمَّ رَبَّنا لكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمواتِ، ومِلْءَ الأرضِ، ومِلْءَ ما بيْنَهما، ومِلْءَ ما شِئْتَ مِن شيءٍ بَعدُ» وتقدَّم الكلامُ عنه[1].

ثمَّ إذا سجَدَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال في سُجودِه: «اللَّهُمَّ لكَ سَجَدتُ وبكَ آمَنتُ، ولكَ أسْلَمتُ، سجَدَ وَجْهي» ومَعْناه: خضَعَ لك وذلَّ وانْقادَ، وخُصَّ الوَجهُ بالذِّكرِ مِن بيْنِ أعضاءِ السُّجودِ؛ لأنَّه أشرَفُها، «للذي خلَقَه، وصَوَّرَه وشَقَّ سَمْعَه وبصَرَه»؛ فالذي خلَقَ هذا الوجهَ، وجَعَلَ له ملامِحَ يُعْرَفُ بها، وفتَحَ فيه العَينَينِ والأُذُنَينِ، وأعْطاهما الإدْراكَ بالبَصَرِ والسَّمْعِ، هو المستحقُّ للعِبادةِ والسُّجودِ والخضوعِ له؛ «تَبارَكَ اللهُ

(١) (ص: ٢٨٠).



أحسَنُ الخالِقينَ»، أي: تقدَّسَ وتعالَى وتَسامَى؛ فإنَّه الخالِقُ المُنفَرِدُ بالإيجادِ من عدَمٍ، والتصويرِ على أحْسنِ صُورةٍ.

ثمَّ يكونُ بعدَ فَراغِه مِن رُكوعِه وسُجودِه، مِن آخِرِ ما يقولُ بينَ التَّشهُّدِ والتَّسليمِ: «اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسرَرْتُ وما أعلَنْتُ» يَعني اغفِرْ لي جميعَ الذُّنوبِ؛ لأنَّها إمَّا مُتقدِّمةٌ أو مُتأخِّرةٌ، وإمَّا سِرٌّ أو علَنٌ، «وما أسرَفْتُ» جاوَزْتُ الحدَّ، «وما أنتَ أعلَمُ به منِّي» مِن ذُنوبي الَّتي لا أعلَمُها، عدَدًا وكيفيَّةً وحُكمًا؛ «أنتَ المُقدِّمُ وأنتَ المُؤخِّرُ» فلا مُقدِّمَ لِمَا أخَّرْتَ، ولا مُؤخِّرَ لِمَا قدَّمْتَ. فهذا حديثٌ جامعٌ لكثيرٍ مِن الأذكارِ التي تُقالُ في أكثَرِ مِن مَوضِعٍ في الصلاةِ؛ في الاستِفتاحِ، والرُّكوعِ، والسُّجودِ، «لا إلَهَ إلَّا أنت» فختَمَ بهذا الثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ الذي هو كَلِمةُ التَّوحيدِ وكَلِمةُ الإخْلاصِ.

الدُّعاءُ في الصَّلاةِ

عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال لرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: عَلِّمْني دُعاءً أدْعُو به في صَلاتي. قال: قُل: **((اللَّهُمَّ إنِّي ظَلَمتُ نَفْسي ظُلْمًا كَبيرًا -وقال قُتيبةُ: كَثيرًا- ولا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ؛ فاغْفِرْ لي مَغفِرةً مِن عِندِكَ وارْحَمْني؛ إنَّكَ أنت الغَفورُ الرَّحيمُ))**[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: **((إذا تشَهَّدَ أحَدُكم فلْيَستَعِذْ باللهِ مِن أربَعٍ؛ يَقولُ: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من عذابِ جهنَّمَ، ومِن عَذابِ القَبرِ، ومِن فِتنةِ المَحْيا والمماتِ، ومِن شَرِّ فِتنةِ المَسيحِ الدَّجَّالِ))**[2].



(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٥٨٨). وأخرجه البخاري (١٣٧٧) دونَ تخصيصِه بالتشهدِ.



الصَّلاةُ لِقاءٌ بيْنَ العَبدِ وربِّه، فيها يَتقرَّبُ العَبدُ إلى اللهِ بالذِّكْرِ والثَّناءِ والدُّعاءِ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعلِّمُ أصحابَه أفضَلَ الدُّعاءِ المُناسِبِ للصَّلاةِ، كما أخبَرَ أبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ رضِيَ اللهُ عنه في **الحَديثِ الأوَّلِ**؛ وذلك أنَّه قال لِرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «عَلِّمْني دُعاءً أدْعُو به في صَلاتِي»، ولم يُبيِّنِ الموضِعَ؛ فهذا الدُّعاءُ يُدعَى به، سواءٌ في حالِ السُّجودِ أو بَعْدَ التشَهُّدِ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأبي بَكرٍ: «قُلِ: اللَّهُمَّ إنِّي ظَلَمتُ نَفْسي ظُلْمًا كَبيرًا -وقال قُتيبةُ: كَثيرًا-، ولا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ؛ فاغْفِرْ لي مَغفِرةً مِن عِندِكَ»، وفي هذا إقرارٌ بالذَّنْبِ، وأنَّه مِن صُنعِ المَرْءِ نفسِهِ، وقد أقرَّ واعترَفَ بأنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا اللهُ؛ لِكَمالِ مُلكِه، وقدَّمَ الاعتِرافَ بالذَّنْبِ على طَلَبِ المغفرةِ تأدُّبًا، كما قال آدمُ وحوَّاءُ عليهما السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. «وارْحَمْني» يَستعينُ العَبدُ على طَلَبِ المغفرةِ للذُّنوبِ ليس فقطْ بما يُقدِّمُه مِن دُعاءٍ وتَذلُّلٍ للمَولى عزَّ وجلَّ، وإنَّما أيضًا بما عِندَ اللهِ مِن رَحمةٍ يَغفِرُ بها الذَّنبَ، وإنْ لم تَحسُنِ التَّوبةُ منه؛ «إنَّك أنتَ الغَفورُ الرَّحيمُ»: إنَّما سألْتُك مَغفرةَ ذُنوبي؛ لأنَّك المتَّصِفُ بصِفتَيِ المَغفرةِ والرَّحمةِ.

وفي هذا **الحديثِ الثاني** أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المصَلِّيَ إذا فَرَغ من التشَهُّدِ الأخيرِ أن يدعوَ بهذا الدُّعاءِ: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن عَذابِ جَهنَّمَ» أي: ألجأُ إليك وأعتَصِم بك وأستَجِيرُ بك من عذابِ جَهنَّمَ في الآخِرةِ، ويَدخُلُ في ذلك الاستِعاذةُ مِن الوسائِلِ المُؤدِّيةِ إليها. «ومِن عَذابِ القَبرِ» أي: ألْجأُ إليك وأعتَصِمُ بك وأستَجِيرُ بك مِن عَذابِ القَبْرِ، أي: من عُقوبَتِه، وأعُوذُ بك «مِن فِتنَةِ المَحْيَا والمَمَاتِ» والفِتنَةُ: هي الامتِحانُ والاختِبارُ، وفِتنةُ المَحْيَا يَدْخُلُ فيها جميعُ أنواعِ الفِتَنِ التِي يتعرَّضُ لها الإنسانُ في الدُّنيا؛ كالكُفرِ، والبِدَعِ، والشَّهَواتِ، والفُسوقِ، وفِتنةُ المَماتِ: قيلَ: هي الفِتنةُ عندَ الاحتِضارِ حيثُ يَكونُ الشَّيطانُ حَريصًا على إغواءِ الإنسانِ قَبلَ مَوتِه،

فيَموتُ بسُوءِ خاتِمةٍ. وقيل: المرادُ بها فِتنةُ القَبْرِ، ولا يكونُ هذا متكرِّرًا مع قَولِه: «مِن عَذابِ القَبرِ»؛ لأنَّ العَذابَ مُرَتَّبٌ على الفِتنةِ، والسَّبَبَ غَيرُ المسبَّبِ، والفِتنةُ نَفسُها أمْرُها عَظيمٌ، وشَأْنُها شَديدٌ، فيُستعاذُ باللهِ مِن سُوئِها. وقولُه: «ومِن شر فِتنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»، أي: أنْ أُصَدِّقَه أو أَقَعَ تحتَ إغوائِه؛ فإنَّه يَظْهَرُ على يَدَيه مِن الخَوارِقِ للعادةِ التي يُضِلُّ بها مَن ضَعُفَ إيمانُه.

فهذه الاستِعاذةُ: مِن مُهِمَّاتِ الأدعيةِ وجَوامِعِها؛ لعِنايةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بها، واشتِمالِها على الاستِعاذةِ مِن شُرورِ الدُّنيا والآخِرةِ، وأسبابِها، وقد أُمِرْنا بها في كُلِّ صَلاةٍ.

السُّجودُ على سَبعةِ أعضاءٍ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ [النجم: ٦٢].

وعن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((أُمِرْتُ أنْ أسْجُدَ على سَبْعةِ أعْظُمٍ: الجَبْهةِ -وأشارَ بيَدِه على أنْفِه-، واليَدَينِ، والرِّجْلَينِ، وأطْرافِ القَدمَينِ، ولا نَكْفِتَ الثِّيابَ ولا الشَّعرَ))[1].



السُّجودُ رُكنٌ عَظيمٌ مِن أركانِ الصَّلاةِ، ومَظهَرٌ يَتجَلَّى فيه خُضوعُ العبدِ لرَبِّه، وذُلُّه له، وقد أمَرَ اللهُ تعالى به في عِدَّةِ مَواطِنَ مِن كِتابِه الكريمِ، **كما في هاتَينِ الآيتَينِ.**

وفي حَديثِ عبدِالله بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما بَيانٌ لصِفةِ السُّجودِ للهِ، حيثُ يقولُ

(١) أخرجه البخاري (٨٠٩)، ومسلم (٤٩٠) واللفظ له.



النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «أُمِرْتُ»، أيْ: أَمَرني رَبِّي عزَّ وجلَّ، «أنْ أسجُدَ على سَبعةِ أعْظُمٍ» جمعُ عَظْمةٍ، والمقْصودُ سَبعةُ أعضاءٍ مِن أعضاءِ الجِسمِ، والمعنى: أنَّ تَمامَ صِفةِ السُّجودِ في الصَّلاةِ تكونُ على تلك الأعضاءِ؛ الأوَّلُ: «الجَبهةُ»، وهي صَفْحةُ الوَجهِ العريضةُ ممَّا فوقَ الأنْفِ والعَيْنينِ، «وأشارَ بِيَدِه إلى أنْفِه»، أيْ: إنَّ الجَبهةَ والأَنفَ عُضوٌ واحدٌ مِن السَّبعةِ يكونانِ مُلامِسينِ للأرضِ، والثاني والثالثُ: «واليَدَينِ»، والمرادُ بهما: الكفَّانِ، والرابعُ والخامسُ: «والرِّجلَينِ»، والمرادُ بها: الرُّكبَتانِ، والسادسُ والسابعُ: «وأطْرافِ القَدمَينِ»، وهما أصابعُ القَدَمينِ وما يَلِيهِما مِن القدَمَينِ.

ثمَّ قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «ولا نَكْفِتَ الثِّيابَ ولا الشَّعرَ»، أي: أُمِرتُ أنا وأُمَّتي بعدَمِ كفْتِ الثِّيابِ أو الشَّعرِ في الصَّلاةِ، وكَفْتُ الثِّيابِ: هُوَ ضَمُّ بعضِها فوقَ بَعضٍ بحيثُ لا تَنْسدِلُ، وكَفْتُ الشَّعرِ: هوَ رَبْطُه بحيثُ لا يَستَرْسلُ ويَنسابُ؛ فعلَى المصلِّي ألَّا يضُمَّ ثِيابَه أو يَربِطَ شَعرَه في الصَّلاةِ، بل يَترُكُهما حتى يُصيبَا الأرضَ، والحِكمةُ في ذلك: أنَّه إذا رفَعَ ثَوبَه وشَعرَه عن مُباشَرةِ الأرضِ أشْبهَ المُتكبِّرَ. وقيل: إنَّ الشَّعرَ يَسجُدُ مع الرَّأسِ إذا لَم يُكَفَّ أو يُلَفَّ.

الدُّعاءُ في السُّجودِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ مِن رَبِّهِ وهو ساجِدٌ؛ فأكْثِرُوا الدُّعاءَ))[1].

وعنه أيضًا: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ يقولُ في سُجودِه: ((اللَّهُمَّ

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).



اغفِرْ لي ذَنْبي كُلَّه؛ دِقَّه وجِلَّه، وأوَّلَه وآخِرَه، وعَلانِيَتَه وسِرَّه))[1].



الصَّلاةُ مِن أجَلِّ وأعظَمِ العِباداتِ التي يَتقرَّبُ فيها العَبدُ إلى اللهِ تعالَى، وكلَّما ازدادَ تَواضُعُ العبدِ وخُشوعُهُ زادَ قُربًا مِن اللهِ، ووضْعُ الوَجهِ والأنفِ على الأرضِ قمَّةُ التَّواضُعِ والتَّذلُّلِ، وهُنا يكونُ الدُّعاءُ مِن قَلبٍ خاشِعٍ ومُتواضِعٍ للهِ، فيكونُ أقرَبَ لاستِجابةِ الدُّعاءِ، وقد أمَرَ اللهُ تَبارَكَ وتعالَى نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالسُّجودِ والتقرُّبِ إليه، وابتغاءِ قُربِ المَنزلةِ منه سُبحانَه وتعالَى، كما في الآيةِ المذكورةِ، ومِن ذلك دُعاؤُه في هذا الموطِنِ العظيمِ.

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يَقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ مِن رَبِّهِ وهو ساجِدٌ» أي: إنَّ حالةَ السُّجودِ أخَصُّ أحْوالِ العَبدِ، وأقرَبُ ما يَكونُ فيها صِلةً باللهِ سُبحانَه وتعالَى؛ لأنَّه يَكونُ في غايةِ الخُضوعِ والذِّلَّةِ للهِ سُبحانَه وتعالَى، مع التَّقرُّبِ إليه بالصَّلاةِ التي أُمِرَ بها، «فأكْثِروا الدُّعاءَ»، فأمَرَ بإكثارِ الدُّعاءِ والمُبالَغةِ في التَّقرُّبِ والسُّؤالِ والطَّلَبِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ في وضْعِ السُّجودِ؛ فإنَّه أجدَرُ أنْ يَستجيبَ اللهُ فيه الدُّعاءَ مِن العَبدِ؛ حيثُ يكونُ العَبدُ مُتذلِّلًا للهِ، وقَريبًا بقَلبِهِ وجَوارحِه مِن ربِّه.

وفي الحَديثِ الثاني: أنَّه كان مِن دُعاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سُجودِه: «اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنبي كُلَّه»: امْحُ عنِّي كلَّ ذُنوبي، «دِقَّهُ وجِلَّه»: صَغيرَ الذَّنبِ وكبيرَهُ، «وأوَّلَهُ وآخِرَه»: أوَّلَ ذَنبٍ ارتكبتُه وآخِرَه وما بيْنَهما، وفي هذا طلَبٌ لغُفْرانِ كلِّ الذُّنوبِ منْ أوَّلِها إلى آخِرِها، «وعَلانِيَتَه وسِرَّه»: فاغفِرْ لي كلَّ الذُّنوبِ التي ارتكَبْتُها في الظَّاهِرِ والعَلَنِ، وفي الخَفاءِ والسِّرِّ؛ ممَّا لا يَعلمُهُ إلَّا أنتَ سُبحانَك، وهذا دُعاءٌ جامِعٌ يَشمَلُ طلَبَ غُفرانِ كُلِّ أنْواعِ الذُّنوبِ التي ارتكَبَها العَبدُ.

(١) أخرجه مسلم (٤٨٣).



التَّشهُّدُ في الصَّلاةِ

عن عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كُنَّا نَقولُ في الصَّلاةِ خَلفَ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: السَّلامُ على اللهِ، السَّلامُ على فُلانٍ، فقالَ لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ يَومٍ: ((إنَّ اللَّهَ هو السَّلامُ، فإذا قعَدَ أحَدُكم في الصَّلاةِ فلْيَقُلِ: التَّحيَّاتُ للهِ، والصَّلواتُ والطَّيِّباتُ، السَّلامُ عليك أيُّها النبيُّ ورَحْمةُ اللهِ وبَرَكاتُه، السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ -فإذا قالها أصابَتْ كُلَّ عَبدٍ للهِ صالِحٍ في السَّماءِ والأرْضِ- أشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبْدُه ورَسولُه، ثُمَّ يَتخَيَّرُ مِن المَسألَةِ ما شاءَ))[1].



كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعلِّمُ أصحابَه رضِيَ اللهُ عنهم التَّشهُّدَ كما يُعلِّمُهم السُّورةَ مِن القُرآنِ، وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ عبدُاللهِ بنُ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّهم كانوا يَقولونَ في صَلاتِهم عندَ التَّشهُّدِ: السَّلامُ على اللهِ، ثُمَّ يقولون: السَّلامُ على جِبريلَ ومِيكائيلَ، والسَّلامُ على فُلانٍ وفُلانٍ، فيَذْكرون بعضَ أسماءِ الملائكةِ، فلمَّا سَمِعَهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الْتفَتَ إليهم وقالَ لهم: «إنَّ اللهَ هو السَّلامُ»؛ فلا يَستقيمُ أنْ تقولوا: السَّلامُ على اللهِ، ثُمَّ علَّمَهُم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يَقولونَه في التَّشهُّدِ؛ فقالَ: «التَّحيَّاتُ للهِ»، والتحيَّاتُ: المُلْكُ، والبقاءُ، والعَظمةُ، والمَعْنى: أنَّها كلَّها مُستحَقَّةٌ للهِ تعالى، «والصَّلواتُ والطَّيِّباتُ» والصَّلَواتُ: قيلَ: هي الخَمْسُ. وقيلَ: العِباداتُ كلُّها. وقيل: الرَّحمةُ. والطَّيِّباتُ: الكاملةُ الخالصةُ مِن الشَّوائبِ. قيل: المرادُ: الكَلِماتُ الطَّيِّباتُ يُثْنَى بها على اللهِ ويُمَجَّدُ بها. وقيل: المرادُ الأعمالُ الصَّالحةُ كُلُّها يُتعَبَّدُ بها ويُتقَرَّبُ بها إليه. «السَّلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورَحمةُ اللهِ وبرَكاتُه، السَّلامُ علينا

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢) واللفظ له.



وعلى عِبادِ اللهِ الصَّالحينَ»؛ إمَّا أنْ يكونَ هذا السَّلامُ هو السَّلامَ الذي وُجِّهَ إلى الرُّسلِ والأنبياءِ، فيَقَعُ عليك أيضًا أيُّها النبيُّ، أوِ السَّلامَ المعروفَ لكلِّ أحدٍ. وقيل: هو اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ تعالى، ومَعناهُ: التَّعويذُ باللهِ، والتَّحصينُ به. أو يكون المرادُ السَّلامةَ مِن كلِّ عَيبٍ وآفةٍ ونَقصٍ وفَسادٍ؛ فعلَّمَهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُفرِدُوه بالذِّكرِ في التَّسليمِ؛ لشَرفِهِ ومَزيدِ حَقِّه عليهم، ثمَّ علَّمَهم أنْ يخُصُّوا أنفُسَهم بالسَّلامِ؛ لأنَّ الاهتمامَ بها أهمُّ، ثمَّ أمَرَهم بتَعميمِ السَّلامِ على الصَّالحينَ؛ إعلامًا منه أنَّ الدُّعاءَ للمُؤمنينَ يَنْبغي أنْ يكونَ شامِلًا لهم. والصَّالِحونَ هُم القائمونَ بما يجِبُ عليهم مِن حُقوقِ اللهِ تعالَى وحُقوقِ عِبادِه. والبَرَكاتُ هي: الزِّيادةُ مِن كلِّ خيرٍ.

ثمَّ بيَّنَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أنَّه إذا قال جُملةَ السَّلامِ هذِه في مَوضِعِها في الصَّلاةِ، وفي تَرتيبِها في الدُّعاءِ، «أصابَتْ كلَّ عبْدٍ للهِ صالحٍ في السَّماءِ والأرضِ»، فانتفَعَ بهذا السَّلامِ كلُّ عبْدٍ صالحٍ في الأرضِ أوِ السَّماءِ، فتَشمَلُ الملائكةَ وصالِحي الجِنِّ والإنسِ.

ثُمَّ أتمَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ التَّشهُّدَ بقَولِه: «أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ»، وهي الشَّهادةُ للهِ سُبحانَه بالتَّوحيدِ، وأنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو سُبحانَه، «وأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عبْدُه ورَسولُه»، وهذه شَهادةٌ وإقرارٌ من المُسلمِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالرِّسالةِ في كُلِّ صَلاةٍ. ثمَّ قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «ثُمَّ يَتخَيَّرُ مِن المَسألَةِ ما شاءَ» يَعني: بعدَ انقِضاءِ التَّشهُّدِ، فلْيَدْعُ الإنسانُ بما أحبَّ ورَغِبَ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ.

السَّهوُ في الصَّلاةِ

قالَ اللهُ تعالَى حاكيًا جُملةً مِن دُعاء عِبادِه المؤمِنينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا شكَّ أحَدُكم في صَلاتِه، فلمْ يَدْرِ كمْ صَلَّى ثَلاثًا أمْ أرْبعًا، فلْيَطْرَحِ الشَّكَّ، ولْيَبْنِ على ما استيْقَنَ، ثمَّ يَسجُدْ سَجدَتَينِ قَبلَ أنْ يُسلِّمَ، فإنْ كان صَلَّى خَمْسًا شَفَعْنَ له صَلاتَهُ، وإنْ كانَ صَلَّى إتْمامًا لأرْبَعٍ كانَتا تَرغيمًا لِلشَّيطانِ))[1].

وعن عَبدِاللهِ ابنِ بُحَينةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صَلَّى لنا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَكعتَينِ مِن بَعضِ الصَّلواتِ، ثُمَّ قام فلمْ يَجلِسْ، فقام النَّاسُ معه، فلمَّا قَضَى صَلاتَهُ ونَظَرْنا تَسليمَه، كَبَّرَ قبْلَ التَّسليمِ، فسَجَدَ سَجدتَينِ وهو جالِسٌ، ثمَّ سَلَّمَ))[2].

اللهُ تَبارك وتَعالى لا يُكَلِّفُ عِبادَه شيئًا فوقَ طاقتِهم، والعَبدُ عُرضةٌ للتَّقصيرِ والخَطَأِ والنِّسيانِ، ومِن رَحمةِ اللهِ بعِبادِه أنْ تَجاوَزَ عن مُؤاخذتِهم بسَبَبِ نِسيانِهم أو خَطَئِهم، وممَّا يدُلُّ على ذلك: هذا الدُّعاءُ الكريمُ الذي جاء في سياقِ أدعيةٍ عَلَّمَها اللهُ تعالى لعِبادِه، وتكَفَّل باستجابتِها لهم؛ **فالآيةُ الكريمةُ** تُرشِدُ العِبادَ إلى طَلَبِ تَركِ المُعاقَبةِ على مُخالفةٍ وَقَعَت بسَبَبِ نِسيانٍ أو خَطَأٍ.

والسَّهوُ أمْرٌ وارِدٌ في العِباداتِ، وبالأخَصِّ الصَّلاةُ، **وفي حديثِ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه** يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأحْكامَ المُترتِّبَةَ على النِّسيانِ في الصَّلاةِ، فيَقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «إذا شَكَّ أحدُكُم في صَلاتِه» بأنْ تردَّدَ أو نَسِيَ عدَدَ الرَّكَعاتِ التي صلَّاها، ولم يَترجَّحْ عندَه تَمامُ الصَّلاةِ مِن نُقصانِها، «فلمْ يَدْرِ كمْ صَلَّى ثلاثًا، أم أربَعًا؛ فلْيَطرَحِ الشَّكَّ» فيُلغي الزائدَ الذي هو مَحلُّ الشَّكِّ، ولا يَأخُذُ به في البِناءِ، «ولْيَبْنِ على ما استيَقَنَ»، أي: المُتيَقَّنِ به وهو الأقلُّ، والشَّكُّ

---

(١) أخرجه مسلم (٥٧١).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٢٤) واللفظ له، ومسلم (٥٧٠).

والتَّرَدُّدُ إنَّما هو في الزِّيادةِ، فيَبنِي على المُتيقَّنِ (الثَّلاث) لا على الزَّائدِ (الأَرْبَع) الذي يشُكُّ فيه، ثمَّ يَسجُدُ سَجدَتَينِ قَبلَ أنْ يُسلِّمَ، وتُسمَّى سَجدَتَي السَّهوِ، «فإنْ كان صلَّى خَمْسًا»، فإنْ كان ما صلَّاهُ في الواقعِ أربعًا فصارَ خمسًا، بإضافةِ رَكعةٍ أُخرى إليه؛ «شَفَعْنَ له»، أي: للمُصلِّي، فكأنَّه بفِعْلِ السَّجدتَينِ قد فَعَل ركعةً سادسةً، فصارَتْ الصَّلاةُ شَفْعًا، «وإنْ كان صلَّى إتمامًا لأربَعٍ»، إنْ صلَّى ما شكَّ فيه حالَ كونِه مُتمِّمًا للأربَعِ، فيَكونُ قد أدَّى ما عليه مِن غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، «وكانتا» السَّجدَتانِ، «تَرغيمًا للشَّيطانِ»، أي: دَحْرًا له ورَميًا له بالرَّغامِ، وهو التُّرابُ؛ فإنَّ الشَّيطانَ لَبَّسَ عليه صَلاتَهُ، وتَعرَّضَ لإفسادِها ونَقْصِها، فجعَلَ اللهُ تَعالى للمُصلِّي طَريقًا إلى جَبْرِ صَلاتِه، وتَدارُكِ ما لَبَّسَه عليه، وإرغامِ الشَّيطانِ، ورَدِّه خاسئًا مُبعَدًا عن مُرادِه، وكَمَلَتْ صَلاةُ ابنِ آدمَ، وامتثَلَ أمْرَ اللهِ تعالى، الذي عصَى به إبليسُ بامتناعِهِ مِن السُّجودِ لآدَمَ عليه السَّلامُ.

وفي حديثِ عَبدِاللهِ ابنِ بُحَينةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بفِعلِه أنَّ على مَن نَسِيَ التَّشهُّدَ الأوسَطَ أنْ يَسجُدَ سَجدتَي السَّهوِ، حيثُ صَلَّى للصَّحابةِ رَكعتَينِ مِن بَعضِ الصَّلواتِ، وفيما يَظهَرُ أنَّها صَلاةٌ رُباعيَّةٌ دُونَ تَحديدٍ، فلمَّا قام صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن سُجودِ الرَّكْعةِ الثَّانيةِ لم يَجلِسْ للتَّشهُّدِ الأوسَطِ، وقام إلى الرَّكعةِ الثَّالثةِ مُباشَرةً، فمَضَى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الرَّكعةِ الثَّالثةِ ولم يَرْجِعْ إلى الجُلوسِ، وتَبِعَه المَأمومون على ذلك، فلمَّا أتمَّ الرَّكَعاتِ الأربَعَ جلَسَ للتَّشهُّدِ الأخيرِ، وقَبلَ أنْ يُسلِّمَ كبَّرَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وسجَدَ للسَّهْوِ سَجدَتَينِ، ثُمَّ رفَعَ رأسَهُ وسلَّمَ من الصَّلاةِ، وبذلك يكونُ قد جبَرَ سَهْوَهُ، وأرغَمَ الشَّيطانَ.





صلاةُ الجَماعةِ

فَضْلُ صَلاةِ الجَماعةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهُما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((صَلاةُ الجَماعةِ تَفضُلُ صَلاةَ الفَذِّ بسَبْعٍ وعِشْرينَ دَرَجةً))[1].



في هذه الآيةِ الكريمةِ أمَرَ اللهُ تعالى بأداءِ الصَّلاةِ بأركانِها وَواجباتِها على أحسَنِ وَجهٍ، وإيتاءِ الصَّدقةِ المفروضةِ لأهلِها المُستَحِقِّينَ لها، كما أنَّ في قولِه تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ الأمرَ بإقامتِها مع جماعةِ المُسلِمينَ؛ لِمَا لها مِن فَضلٍ وأجرٍ عَظيمٍ.

وقد ذُكِرَ فضْلُها في كثيرٍ مِن الأحاديثِ، ومنها **حديثُ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما،** الذي يُبيِّن فيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الفَرْقَ بين ثَوابِ صَلاةِ الجَماعةِ وصَلاةِ الفذِّ، وهو المُنفرِدُ، وأنَّ صَلاةَ الجماعةِ تَزيدُ عن صَلاةِ المنفرِدِ بسَبْعٍ وعِشرينَ درَجةً، وفي بَعضِ الرِّواياتِ أنَّها ((تَفضُلُ صَلاةَ الفَذِّ بخَمسٍ وعِشرينَ درَجةً))[2]، وهذا الاختِلافُ راجعٌ لاختلافِ أحوالِ المُصلِّين والصَّلاةِ، فيكونُ لبعضِهم خمْسٌ وعِشرونَ، ولبعضِهم سَبْعٌ وعِشرونَ؛ وذلك بحسَبِ كَمالِ الصَّلاةِ، ومُحافظتِه على هَيئتِها، وخُشوعِها، وكَثْرةِ جَماعتِها، وفضْلِهم وشَرفِ البُقعةِ. وقيلَ غيرُ ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥) واللفظ له، ومسلم (٦٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦). وأخرجه مسلم (٦٤٩) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.





حكمُ صلاةِ الجَماعةِ في المَسجدِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: أَتَى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رجُلٌ أعْمى، فقال: يا رَسولَ اللهِ، إنَّه ليسَ لي قائدٌ يَقودُني إلى المَسجِدِ، فسَأَلَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُرَخِّصَ له، فيُصَلِّيَ في بَيتِه، فرَخَّصَ له، فلمَّا وَلَّى دَعاهُ، فقال: ((هلْ تَسمَعُ النِّداءَ بالصَّلاةِ؟ قال: نَعَمْ. قال: فأجِبْ))[1].



المُحافَظةُ على الصَّلواتِ أمْرٌ شَرعيٌّ واجبٌ على كلِّ مُسلمٍ، وقد أمَرَ اللهُ وأوْصى بالمُحافَظةِ عليها لا سيَّما في جَماعةٍ وفي المَسجِدِ، وقد حضَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جَميعَ مَن يَسمَعُ النِّداءَ مِن الرِّجالِ المُكلَّفينِ على إتيانِ المسجِدِ. وهذا الحَديثُ يُوضِّحُ أهمِّيَةَ صَلاةِ الجماعةِ؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: «أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رجُلٌ أَعْمى» قِيل هو: عبدُاللهِ ابنُ أُمِّ مَكتومٍ رضِيَ اللهُ عنه، «فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّه ليس لي قائدٌ يَقودُني إلى المسجِدِ»، أي: ليس عندي مِن الأولادِ أوِ الخَدَمِ مَن يَمْشي معي ويَقودُني إلى بابِ المسجِدِ، ويُحضِرُني إلى صَلاةِ الجماعةِ، «فسَأَلَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُرخِّصَ له، فيُصلِّيَ في بيتِه» وذلك بسَبَبِ ما عِندَه مِن عُذرٍ يَمنَعُه مِن إتيانِ المسجِدِ بمُفردِهِ، «فرخَّصَ له، فلمَّا ولَّى دَعاهُ»، فلمَّا انصرَفَ الرَّجُلُ بعدَ سَماعِه الرُّخصةَ في أوَّلِ الأمْرِ، ناداهُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقال: «هل تَسمَعُ النِّداءَ بالصَّلاةِ؟»: هل تَسمَعُ الأذانَ للصَّلاةِ، ويَصِلُ إليك صوتُه؟ وفي هذا إشارةٌ لقُربِ المسجِدِ، فأجابَه بأنَّه يَسمَعُ الأذانَ، فقالَ له النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فأَجِبْ»، والمَعْنى: لا رُخصةَ لك في تَرْكِ الصَّلاةِ جماعةً في المسجِدِ، وهذا مِن بابِ التَّشديدِ على أهميَّةِ صَلاةِ الجَماعةِ والمُحافظةِ عليها، ومِن بابِ أَوْلى

(١) أخرجه مسلم (٦٥٣).



الصَّحيحُ السَّليمُ، وأنَّه لا عُذْرَ ولا رُخصةَ لتَرْكِ صَلاةِ الجماعةِ لمَن كان مِن أهلِها، وخاصَّةً لمَن يَسمَعُ نِداءَ الصَّلاةِ وهو قادِرٌ على حُضورِها، وقد كان الصحابةُ رضوانُ الله عليهم يحرِصونَ على الجماعةِ في المسجدِ غايةَ الحرصِ، وفي ذلك يقولُ ابنُ مسعودٍ رضِي الله عنه: (مَن سرَّه أن يَلْقَى الله غدًا مسلمًا، فليُحافِظْ على هؤلاءِ الصلواتِ حيثُ يُنادَى بهنَّ؛ فإنَّ اللهَ شرَع لنبيِّكم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُننَ الهدَى، وإنهنَّ مِن سُنَنِ الهدَى، ولو أنَّكم صليتُم في بُيوتِكم كما يُصلِّي هذا المتخلِّفُ في بيتِه، لتركتُم سُنَّةَ نبيِّكم، ولو تركتُم سُنَّةَ نبيِّكم لضَلَلتُم، وما مِن رجلٍ يتطهَّرُ فيُحسِنُ الطُّهورَ، ثم يَعمِدُ إلى مسجدٍ مِن هذه المساجِدِ، إلَّا كتَبَ الله له بكلِّ خُطوةٍ يخطوها حسنةً، ويرفعه بها درجةً، ويحطُّ عنه بها سيِّئةً، ولقد رأيتُنا وما يتخلَّف عنها إلَّا منافقٌ معلومُ النِّفاقِ، ولقد كان الرجلُ يُؤتَى به يُهادَى بين الرَّجُلينِ حتى يُقامَ في الصفِّ)[1].

الحثُّ على صَلاةِ الصُّبحِ والعِشاءِ في جماعةٍ

عن جُندُبِ بنِ عَبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، يقولُ: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((مَن صَلَّى الصُّبْحَ فَهو في ذِمَّةِ اللهِ؛ فلا يَطلُبَنَّكُم اللَّهُ مِن ذِمَّتِه بشَيءٍ، فيُدْرِكَه فيَكُبَّه في نارِ جَهنَّمَ!))[2].

وعن عبدِالرَّحمنِ بنِ أبي عَمْرَةَ قال: دَخَلَ عُثْمانُ بنُ عَفَّانَ المَسجِدَ بعْدَ صَلاةِ المَغرِبِ، فقَعَدَ وَحْدَه، فقَعَدْتُ إلَيهِ، فقال: يا ابنَ أخِي، سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((مَن صَلَّى العِشاءَ في جَماعةٍ فكَأنَّما قامَ نِصْفَ اللَّيلِ، ومَن صَلَّى الصُّبْحَ في جَماعةٍ فكَأنَّما صَلَّى اللَّيلَ كُلَّه))[3].



(١) أخرجه مسلم (٦٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٦٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٦).



في الحَديثِ الأول يُبيِّنُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَضلَ المُحافظةِ على فَريضةِ صَلاةِ الفَجرِ، حيثُ يُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن صلَّى الفَجرَ فهو في أمانِ اللهِ وضَمانِه، وخَصَّ صَلاةَ الفَجرِ في هذا الحَديثِ مِن بَينِ سائرِ الصَّلَواتِ؛ لأنَّ فيها مَشَقَّةً، ولا يُواظِبُ عليها إلَّا خالِصُ الإيمانِ؛ فلذلك استَحقَّ الأمانَ وأنْ يكونَ في ذِمَّةِ اللهِ تعالَى وضَمانتِه وعَهْدِه. ثُمَّ قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فلا يَطلُبَنَّكُم اللهُ مِن ذمَّتِهِ بشَيءٍ، فيُدْرِكَه فيَكُبَّه في نارِ جَهنَّمَ!»، والنَّهيُ هنا وقَعَ على ما يُوجِبُ المُطالبةَ في نَقضِ العَهدِ وإخْفارِ ذِمَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهو يَحتمِلُ مَعنيَينِ؛ **الأولُ**: أنَّ مَن صلَّى الفَجْرَ فقدْ أخَذَ مِن اللهِ أمانًا؛ فلا يَنبغِي لأحدٍ أنْ يُؤذيَه أو يَظلِمَه، فمَن ظلَمَه أو آذاهُ، فإنَّ اللهَ سُبحانَه يُطالِبُه بذِمَّتِه. **الثَّاني**: لا تَترُكوا صَلاةَ الصُّبحِ، فيَنتقِض بذلكَ العَهدُ الذي بينكُم وبيْن ربِّكُم، فيَطلُبَكم به؛ فمَن فعَلَ ذلكَ فإنَّ اللهَ تعالَى يُدرِكُه ويَكُبُّه في نارِ جهنَّمَ!

وفي الحديثِ الثاني يَحْكي عبدُالرَّحمنِ بنُ أبي عَمْرَةَ أنَّ عُثمانَ بنَ عفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه دخَلَ المسجِدَ بعدَ صَلاةِ المَغرِبِ، فقعَدَ وحْدَهُ يَنتظِرُ صَلاةَ العِشاءِ؛ ليُقيمَها جَماعةً، قال عبدُالرَّحمنِ: «فقَعَدتُ إليه» وكأنَّه قعَدَ لِيَسألَه عن سَبَبِ جُلوسِه وانتظارِه، فقالَ له عُثمانُ رَضِيَ اللهُ عنه: «يا ابنَ أخي، سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: مَن صلَّى العِشاءَ في جَماعةٍ فكأنَّما قامَ نِصْفَ اللَّيلِ»، أي: فأجْرُه كأجْرِ مَن اشتَغَل بالعِبادةِ إلى نِصفِ اللَّيلِ وأحْياهُ بالصَّلاةِ والذِّكرِ، «ومَن صلَّى الصُّبحَ في جَماعةٍ فكأنَّما صلَّى اللَّيلَ كلَّهُ»، فأجرُه كأجْرِ مَن اشتَغَل بالعبادةِ اللَّيلَ كُلَّه، وأحياهُ بالصَّلاةِ والذِّكرِ.

قيل: المرادُ أنَّ جَماعةَ العِشاءِ تَعدِلُ في فَضيلتِها قيامَ نِصفِ لَيلةٍ، وجماعةَ الصُّبحِ تَعدِلُ في فَضيلتِها قِيامَ ليلةٍ؛ لأنَّ مُصَلِّيَها في جَماعةٍ يَحتاجُ إلى الانتباهِ بوَقتٍ يُمكِنُه فيه التهَيُّؤُ للصَّلاةِ، وإدراكُ الجماعةِ، والنَّومُ حينئذٍ مُستَلَذٌّ؛ فلذلك نال مُصَلِّي الصُّبحِ



في جَماعةٍ ضِعفَ ثَوابِ مَن صَلَّى العِشاءَ في جماعةٍ.

وقيل: بل كُلٌّ منهما يقومُ مَقامَ نِصفِ ليلةٍ، وإنَّ اجتماعَهما يقومُ مَقامَ ليلةٍ، فكأنَّما صَلَّى اللَّيلَ مَن يُصلِّي العِشاءَ والفَجرَ في جماعةٍ. وعلى كُلٍّ؛ ففي هذا حضٌّ وتَرغيبٌ في المُحافظةِ على صَلاتَيِ الصُّبحِ والعِشاءِ في جماعةٍ.

أثقلُ الصَّلاةِ على المُنافِقينَ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: **((إنَّ أثْقَلَ صَلاةٍ على المُنافِقينَ صَلاةُ العِشاءِ وصَلاةُ الفَجْرِ، ولو يَعلَمُون ما فِيهما لَأَتَوهُما ولو حَبْوًا ...))**[1].



شدَّدَ الشَّرعُ المُطهَّرُ وحذَّرَ مِن التَّخلُّفِ عن صَلاةِ الصُّبْحِ والعِشاءِ خاصَّةً، وبيَّنَ أنَّ المُحافظةَ عليهما تَنْفي آفةَ النِّفاقِ مِن القلبِ، كما في هذا الحَديثِ، حيثُ يقولُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «إنَّ أثقَلَ صَلاةٍ على المنافِقينَ صَلاةُ العِشاءِ وصَلاةُ الفجرِ»؛ فإنَّ أصْعَبَ وأشدَّ صَلاةٍ في المُواظَبةِ عليها، والحِفاظِ على أدائِها، عِندَ المُنافقينَ: صَلاتَا العِشاءِ والفجرِ؛ وذلك لغَلَبةِ كَسلِهم فيهما، وتَثْبيطِهم عَنهُما؛ فإنَّهما في وقتِ نومِ النَّاسِ، ولا يَنتهِضُ للهِ عزَّ وجلَّ فيهما مِن فِراشِه عن لَذيذِ نومِه إلَّا مُؤمنٌ تقيٌّ. «ولو يَعلَمونَ ما فيهما»، أي: ولو يَعلَمونَ ما فيهما مِن الأجرِ والثَّوابِ، ثمَّ لم يَسْتطيعوا الإتيانَ إليهما إلَّا حَبْوًا، «لَأَتَوهُما ولو حَبْوًا»، أي: زَحْفًا؛ لِتَحصيلِ هذا الأجْرِ، ولم يُفَوِّتوا جَماعَتَهما في المسجِدِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١) واللفظ له.



المُحافَظةُ على صَلاةِ الصُّبْحِ والعَصرِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ عبدِالله بنِ قَيسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن صَلَّى البَردَينِ دَخَلَ الجَنَّةَ))(١).



في هذه الآيةِ الكريمةِ أمْرٌ مِن اللهِ تعالى لنَبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُصلِّيَ للهِ وَحدَه قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ صَلاةَ الفَجرِ، وقبْلَ غُروبِها صَلاةَ العَصرِ، وهذا على أحدِ الأقوالِ في معْنى الآيةِ. وجاء ذلك عَقِبَ أمْرِه بالصَّبرِ على ما يَقولُه كُفَّارُ قُريشٍ مِن التكذيبِ والاستهزاءِ والإيذاءِ؛ فالصَّلاةُ لها أثَرٌ عظيمٌ في تَثبيتِ القَلبِ، وبَثِّ الطُّمَأنينةِ.

وفي حَديثِ أبي مُوسى الأشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «مَنْ صَلَّى البَردَينِ دَخَلَ الجَنَّةَ» والمُرادُ بالبَردَينِ: صَلاتا الفَجرِ والعَصرِ؛ وسُمِّيَتا بذلك لأنَّ وَقتَهُما وقتُ إبْرادِ الجَوِّ وتلَطُّفِهِ في الصَّباحِ؛ حيثُ تَظهَرُ رُطوبةُ الهواءِ وبُرودَتُه، وعندَ العصرِ حيثُ يَظهَرُ انكِسارُ حَرارةِ النَّهارِ، والدُّخولُ في وَقتِ اعتدالِ الجَوِّ، فمَن صلَّى هاتَينِ الصَّلاتَينِ على وَقتِهما، وحافَظَ عليهما في جَماعةٍ -إنْ كان مِن أهلها- وقام بِحقِّهِما؛ دخَلَ الجنَّةَ وفاز بالنعيمِ المُقيمِ. وخصَّ هنا الفَجرَ والعصرَ؛ لأنَّ الفجرَ يكونُ عندَ لذَّةِ النَّومِ، والعصرَ يكونُ عندَ اشتِغالِ الإنسانِ بعَملِه، فمَن حافَظَ عليهِما كانَ أوْلى أنْ يُحافِظَ على بقيَّةِ الصَّلواتِ.

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

التَّحذيرُ مِن فَواتِ صَلاةِ العَصرِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وعن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَالَ: ((الَّذي تَفُوتُه صَلاةُ العَصْرِ كأنَّما وُتِرَ أَهْلَه ومالَه))(١).



لِصَلاةِ العَصرِ فَضلٌ كَبيرٌ؛ فقد أمَرَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ بتَعاهُدِ الصَّلواتِ المفروضةِ عُمومًا، بالمحافَظةِ على أدائِها في أوقاتِها، وحِفظِ حُدودِها، والعنايةِ بأدائِها بشُروطِها وأركانِها، وخصَّ اللهُ تعالى مِن بَينِها الصَّلاةَ الوُسْطى، وهي صَلاةُ العَصرِ؛ تَأْكيدًا على شأنِ المحافظةِ عليها؛ ممَّا يدُلُّ على فَضْلِها.

والتَّكاسُلُ عن أدائِها يكونُ سببًا في فَواتِ كَثيرٍ مِن الأجرِ والثَّوابِ وضَياعِه، كمَن يَخسَرُ مالَه وأهلَه، كما في حَديثِ عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، حيثُ يقولُ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «الَّذي تَفوتُه صَلاةُ العَصْرِ»، أي: لا يُؤَدِّيها في وقْتِها مِن غيرِ عُذرٍ، أو لا يُؤدِّيها مع الجَماعةِ -إنْ كان مِن أهلِها-، «كأنَّما وُتِرَ أهْلَه ومالَه»؛ فيكونُ كالَّذي أصبَحَ بلا أهلٍ ولا مالٍ؛ فلْيَحذَرْ مِن تَفويتِها كحَذَرِه مِن ذَهابِ أهْلِه ومالِه. وقيل: فاتَه مِن الثَّوابِ ما يَلحَقُه مِن الأسَفِ عليه كما يَلحَقُ مَن ذَهَب أهْلُه ومالُه.

تسْويةُ الصُّفُوفِ، وفَضْلُ الأوَّلِ منْها

عن أبي مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَمسَحُ مَناكِبَنا في الصَّلاةِ، ويقولُ: ((اسْتَوُوا ولا تَختَلِفوا؛ فتَختَلِفَ قُلوبُكم، لِيَلِني مِنكُم أُولو

(١) أخرجه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦).



الأحْلامِ والنُّهى، ثمَّ الذين يَلُونَهم، ثمَّ الذين يَلُونَهم)). قال أبو مَسعودٍ: فأنْتُم اليومَ أشدُّ اخْتِلافًا![1].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: **((سَوُّوا صُفُوفَكم؛ فإنَّ تَسوِيَةَ الصُّفوفِ مِن إقامةِ الصَّلاةِ))**[2].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: **((لو يَعلَمُ النَّاسُ ما في النِّداءِ والصَّفِّ الأوَّلِ، ثمَّ لم يَجِدوا إلَّا أنْ يَستَهِموا عليه؛ لاستَهَموا، ولو يَعلَمونَ ما في التَّهْجيرِ لاستَبَقوا إليه، ولو يَعلَمونَ ما في العَتَمةِ والصُّبحِ لَأتَوهُما ولو حَبْوًا))**[3].



الإسلامُ دِينُ النِّظامِ والهِمَّةِ العالِيةِ، وهو يَحْرِصُ على أنْ يكونَ المُسلمون لُحْمةً واحِدةً، يُعاضِدُ ويُؤازِرُ بَعضُهم بَعضًا، ويَخْشَى عليهم مَواطِنَ النِّزاعِ والخِلافِ، وخيرُ مواطِنِ اجتِماعِ المُسلِمينَ هو حُضورُهم للجَماعاتِ في المَسجِدِ؛ وقد علَّمَنا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ آدابَها وكيفيَّة تَنظيمِها، وكيف تُرَصُّ الصُّفوفُ، وبيَّنَ فضْلَ الصُّفوفِ الأُوَلِ، وغيرَ ذلك.

وفي **الحديثِ الأوَّلِ** يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كيفَ تُقامُ الصُّفوفُ في الصَّلاةِ، فيَقولُ أبو مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: «كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَمسَحُ مَناكِبَنا في الصَّلاةِ» والمناكِبُ: جَمعُ مَنكِبٍ، وهو وهوَ ما بيْنَ الكَتِفِ والعُنُقِ. والمَعْنى: أنَّه كان يُسوِّي مَناكِبَهم في الصُّفوفِ، ويَعدِلُهم فيها، «ويقولُ: اسْتَوُوا، ولا تَختَلِفوا»، والأمْرُ

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٣) واللفظ له، ومسلم (٤٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٥)، واللفظ له، ومسلم (٤٣٧).



مُوجَّهٌ للمَأْمومينَ بالاعتِدالِ في الصَّفِّ بأجْسامِهم، وألَّا يَختَلِفوا بالتقَدُّمِ والتأخُّرِ في الصُّفوفِ، «فتَختَلِفَ قُلوبُكم» وهذا تَحذيرٌ أنْ يُؤدِّيَ عدَمُ التَّسويةِ واختِلافُ الصُّفوفِ إلى اختلافِ القُلوبِ بالعَداوةِ والبَغضاءِ، والتَّحاسُدِ والشَّحناءِ؛ قيل: لأنَّ اختِلافَ الصُّفوفِ اختِلافُ الظَّواهِرِ، واختِلافُ الظَّواهِرِ سَبَبٌ لاختلافِ البواطِنِ.

ثم أرْشدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى أدبٍ آخَرَ مِن آدابِ صَلاةِ الجماعةِ، فقال: «لِيَلِنِي مِنكُم أُولو الأحْلامِ والنُّهى»، وهذا أمْرٌ بأنْ يَقِفَ خَلْفَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الصَّلاةِ أصحابُ العُقولِ والأفْهامِ، وهم الحُفَّاظُ والفُقهاءُ العالِمونَ بأحكامِ الصَّلاةِ؛ لِيَكونوا أقْربَ إليه. «ثمَّ الَّذين يَلُونَهم، ثمَّ الَّذين يَلُونَهم»، أي: في المنْزِلةِ والقَدْرِ. وقد أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك لأُمورٍ؛ منها: تَفضيلُهم بالتقَدُّمِ، ولِيَعقِلوا عنه ما يُنقَلُ مِن فِعْلِه، ولأنَّه رُبَّما احتاج إليهم؛ إمَّا بتَذكيرِه إذا نَسِيَ شيئًا، أو في استِنابتِهم إنْ نابَه أمْرٌ.

وفيه الحثُّ على أنْ يُسارِعَ أهلُ العِلْمِ والفَهْمِ إلى الصَّلاةِ في الجَماعاتِ، والتقدُّمِ إلى الصَّلاةِ؛ لِيَكونوا خَلْفَ الإمامِ في الصَّفِّ الأوَّلِ، ولا يَتكاسَلوا ويَتأخَّروا عن ذلِك.

قال أبو مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: «فأنْتُم اليومَ أشَدُّ اختِلافًا!»، أرادَ بذلك المُبالَغةَ لأجْلِ حَثِّهم على إقامةِ الصَّفِّ على الصُّورةِ التي جاءَتْ في الحَديثِ. وقِيل: إنَّما أرادَ ما وقَعَ بيْنهم مِن فِتَنٍ.

وفي **الحَديثِ الثاني**؛ حَديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمَرَ بتَسويةِ الصُّفوفِ، وقالَ: «فإنَّ تَسوِيةَ الصُّفوفِ مِن إقامةِ الصَّلاةِ»، وفي رِوايةِ الصَّحيحَينِ مِن حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((فإنَّ إقامةَ الصَّفِّ مِن حُسنِ الصَّلاةِ))[1]، يَعني: أنَّ تَسويةَ الصَّفِّ أدْعى لحِفظِ الصَّلاةِ مِن

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢)، ومسلم (٤٣٥) مطوَّلاً.



أنْ يقَعَ خَلَلٌ في واجباتِها ومَنْدوباتِها، فهو أجْرٌ مُتمِّمٌ لأجْرِ الصَّلاةِ؛ وذلك لِمَن حَرَصَ على إتمامِ الصَّفِّ.

وفي **الحديثِ الثالِثِ**؛ حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُؤكِّدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أهميَّةَ اللُّحوقِ بالصَّفِّ الأوَّلِ والمسابَقةِ عليه، وفضْلِ ذلك، حيثُ أوْضَحَ أنَّ النَّاسَ والمُصلِّينَ لو يَعلَمونَ ما في الصَّفِّ الأوَّلِ الذي يَلِي الإمامَ، وعِظَمَ ثَوابِه يومَ القِيامةِ؛ لَبادَروا إليه جميعًا، ولو لم يَجِدُوا إلَّا أنْ يَقترِعوا فيما بيْنهم على مَن يَتقدَّمُ ويقِفُ في الصَّفِّ إنْ لم يكُنْ هناك طَريقةٌ أُخرَى تَفصِلُ في تَنازُعِهم؛ لاقتَرَعوا مِن أجْلِ ذلك، وهذا مِن التَّرغيبِ الشَّديدِ في الاستباقِ والتَّبكيرِ للصَّلاةِ، وإدراكِ مكانٍ في الصَّفِّ الأوَّلِ.

ما يُدرَكُ به وَقتُ الصَّلاةِ، وما تُدرَكُ به الجَماعةُ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن أدْرَكَ مِن الصُّبحِ رَكْعةً قَبلَ أنْ تَطلُعَ الشَّمسُ فقَدْ أدْرَكَ الصُّبحَ، ومَن أدْرَكَ رَكْعةً مِن العَصرِ قبْلَ أنْ تَغرُبَ الشمسُ فقَدْ أدْرَكَ العصرَ))(١).

وعنه رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((مَن أدْرَكَ رَكْعةً مِن الصَّلاةِ فقَدْ أدْرَكَ الصَّلاةَ))(٢).



شَريعةُ الإسلامِ شريعةٌ سمْحةٌ، مبنيَّةٌ على اليُسرِ ورفْعِ الحَرجِ في كُلِّ تَشريعاتِها،

(١) أخرجه البخاري (٥٧٩) واللفظ له، ومسلم (٦٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٠)، ومسلم (٦٠٧).



ومن ذلك: أنه قدْ يَعرِضُ للإنسانِ من الأعذارِ ما يَجعَلُه يَتأخَّرُ عن أداءِ الصَّلاةِ في وقتِها الأوَّلِ، أو يَتأخَّرُ عن الجَماعةِ، ومع ذلك تَفضَّلَ اللهُ تعالى عليه بأنْ يُدرِكَ ذلك بجُزءٍ منها، وفي هذينِ الحدَيثَينِ بيانُ ما تُدرَكُ به الصَّلاةُ، وما تُدرَكُ به الجَماعةُ؛ **فالحديثُ الأوَّلُ** يُبيِّنُ أقلَّ مِقدارٍ تُدرَكُ به الصَّلاةُ، وأنَّ مَن تَأخَّرَ عن أداءِ الصَّلاةِ المفروضةِ حتى كادَ يَخرُجُ وقتُها، ولكنَّه أدْرَكَ منها ولو رَكعةً واحدةً قبْلَ أنْ يَخرُجَ وقتُها؛ فقدْ أدْرَكَ الصَّلاةَ في وقتِها أداءً، وإنَّ أدَّى باقيَ الرَّكعاتِ بعدَ خُروجِ الوَقتِ، وليسَ المرادُ بالرَّكعةِ مُجرَّدَ الرُّكوعِ، بلِ المرادُ بها الرَّكعةُ الكاملةُ التي تَشمَلُ التَّكبيرَ، والقِراءةَ، والقِيامَ، والرُّكوعَ، والسَّجْدتَينِ. وقد خَصَّ هاتَينِ الصَّلاتَينِ (الفَجْرَ والعَصرَ) بالذِّكرِ دونَ غيرِهما -مع أنَّ هذا الحُكمَ ليس خاصًّا بهما، بل يَعُمُّ جميعَ الصَّلواتِ-؛ لأنَّهما طَرَفَا النَّهارِ، والمُصلِّي إذا صلَّى بعضَ الصَّلاةِ، وطلَعتِ الشَّمْسُ أو غرَبَتْ؛ عرَفَ خُروجَ الوَقْتِ، فلو لمْ يُبيِّنْ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا الحُكمَ لَظنَّ المصلِّي فَواتَ الصَّلاةِ وبُطلانَها بخُروجِ الوقتِ. وأيضًا لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ نهَى عن الصَّلاةِ عندَ الشُّروقِ والغروبِ؛ فبيَّن صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صِحَّةَ صَلاةِ مَن أدرَكَ رَكعةً مِن هاتَينِ الصَّلاتَينِ؛ لكَيلَا يظُنَّ المصلِّي أنَّ صَلاتَه فسَدَتْ بدُخولِ هذَينِ الوقتَينِ.

وقدْ سبَقَ بيانُ مَواقيتِ كُلِّ صَلاةٍ، وبيانُ أوَّلِ وقتِها وآخِرِه[1].

والحَديثِ الثاني يُبيِّنُ كذلك أنَّ مَن أدرَكَ رَكعةً مِن الوَقتِ فقدْ أدرَكَ الصَّلاةَ، وقد أخَذَ العُلَماءُ مِن هذا الحديثِ أقلَّ ما يُدرِكُ به المأمومُ الجَماعةَ إنْ تأخَّرَ عن اللُّحوقِ بالإمامِ في تَكبيرةِ الإحرامِ حتى سبقَه الإمامُ برَكَعاتٍ مِن الصَّلاةِ المُقامةِ؛ فمَن أدْرَكَ رَكْعةً مِن الصَّلاةِ مع الإمامِ فقدْ أدْرَكَ فَضيلةَ الصَّلاةِ في جَماعةٍ، والمرادُ بالرَّكعةِ في حقِّ المأمومِ المَسبوقِ: هو أنْ يَركَعَ مع الإمامِ قبْلَ أنْ يَرفَعَ مِن الرُّكوعِ في

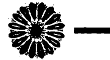
(١) في أوقاتُ الصَّلواتِ الخَمْسِ (ص: ٢٦٨).



رَكعتِه الأخيرةِ مِن الصَّلاةِ. وقيل: بلِ المرادُ أنَّ مَن أدرَكَ الإمامَ ولو قبْلَ أنْ يُسلِّمَ فقدْ أدرَكَ فَضيلةَ الجَماعةِ، وهذا لِمَن تَأخَّرَ عنها لعُذرٍ تَسبَّبَ في تَأْخيرِه، ولم يَتأخَّرْ تَهاونًا وتكاسُلًا، ولا شَكَّ أنَّ إدراكَ تَكبيرةِ الإحرامِ مع الإمامِ أفضلُ، ومَن سبَقَ إلى جُزءٍ مِن الصَّلاةِ فأجْرُه أكبرُ ممَّن تأخَّرَ.

فَضْلُ صَلاةِ المَرأةِ في بَيتِها

عن عَبدِالله بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((صَلاةُ المَرأةِ في بَيتِها أفضَلُ مِن صَلاتِها في حُجرَتِها، وصَلاتُها في مُخْدَعِها أفضَلُ مِن صَلاتِها في بَيتِها))(١).



لقدْ حَفِظَ الإسلامُ للمَرأةِ مَكانتَها، وجعَلَها دُرَّةً مَصونَةً في بيتِها؛ حِمايةً لها، وصِيانةً لكَرامتِها، وكلَّما كانت المرأةُ أستَرَ وأبعَدَ عن الظُّهورِ والبُروزِ كان أفضَلَ لها.

وفي هذا الحَديثِ جعَلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صَلاةَ المرأةِ في بيْتِها أفضَلَ مِن صَلاتِها في حُجْرتِها، والمرادُ ببَيتِها: بيتُها الدَّاخليُّ الذي تَأْوِي إليه عِندَ النَّومِ، والحُجْرةُ هي صَحْنُ الدَّارِ التي تكونُ أبوابُ البُيوتِ إليها؛ لأنَّ الصَّلاةَ في بَيتِها أحفَظُ لها، وأكمَلُ لسَتْرِها، «وصَلاتُها في مُخْدَعِها أفضَلُ مِن صَلاتِها في بيتِها» والمُخْدَعُ: هو البيتُ الصَّغيرُ الذي يكونُ داخِلَ البَيتِ الكَبيرِ يُحفَظُ فيه الأمتِعةُ النَّفيسةُ؛ فصَلاتُها كُلَّما كانتْ أخْفى زادَ فضْلُها وثَوابُها؛ لأنَّ هذا آمَنُ لها مِن الفِتنةِ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٧٠)، والحاكم (٧٥٧) واللفظ لهما، وابن خزيمة (١٦٩٠).

صححَّه ابنُ خُزيمةَ، والحاكمُ وقال: (على شرطِ الشَّيخَينِ)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٧٠)، والوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (٨٦٥) وقال: (على شرطِ مُسلِمٍ)، وصحَّح إسنادَه على شرطِ مسلمٍ النَّوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ١٩٨)، وجَوَّدَ إسنادَه ابنُ كثيرٍ في ((تفسير القرآن)) (٦/ ٤٠٦).

والحديثُ وإنْ كان فيه حَضٌّ وتَرغيبٌ على لُزومِ المرأةِ بيْتَها في الصَّلاةِ، فهو أَدْعى لِلُزومِه في غيرِ الصَّلاةِ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَمنَعْها مِن المَسجِدِ على كلِّ حالٍ؛ فقد قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لا تَمنَعوا نِساءَكُمُ المَساجِدَ، وبُيوتُهنَّ خَيرٌ لَهُنَّ»[1]؛ فصَلاةُ المرأةِ الفَريضةَ في بَيتِها خَيرٌ لها مِن صَلاتِها مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، إلَّا إنْ كان خُروجُ المرأةِ لتلَقِّي عِلمٍ شَرعيٍّ تَحتاجُ إليه؛ فقد جعَلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للنِّساءِ يَومًا يَخرُجْنَ فيه ويَأْتينَ إليه، فيُحَدِّثُهنَّ صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه ويُعَلِّمُهنَّ، ويَسألْنَه ويُجيبُهنَّ صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه.

خُروجُ النِّساءِ إلى المسَاجِدِ

عن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، يَبلُغُ به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا اسْتَأذنَتْ أحدَكُم امْرَأتُه إلى المَسجِدِ فلا يَمنَعْها))[2].

صَلاةُ النِّساءِ في البُيوتِ أفضَلُ مِنْ صَلاتِهنَّ في المساجِدِ؛ لكونِه أرفَقَ بهِنَّ وأستَرَ لَهُنَّ وأبعَدَ عنِ الفِتنةِ، ومع ذلك يَجوزُ لَهُنَّ حُضورُ صَلاةِ الجماعةِ في المسجِدِ مع مُراعاةِ الآدابِ التي نبَّهَ عليها الشَّرعُ في حَقِّهنَّ عندَ إتْيانِ المساجِدِ والخُروجِ مِن بُيوتِهنَّ، وفي هذا الحَديثِ يَقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «إذا استَأْذنَتْ أحَدَكُم امْرَأتُه إلى المَسجِدِ»، أي: طلَبَتْ منه الذَّهابَ إلى المسجِدِ وحُضورَ صَلاةِ الجَماعةِ «فلا يَمْنَعْها» بل يَأذَنُ لها في الذَّهابِ للمساجِدِ، ولا يَمنَعُها مِن الخُروجِ؛ لأنَّها قد تَجِدُ راحةً وطُمأنينةً وخُشوعًا في المسجِدِ ما لا تَجِدُه في بَيتِها، وقد لا تكونُ حافِظةً مِن القُرآنِ إلَّا اليَسيرَ، فتُحِبُّ أنْ تَسمَعَ كَلامَ اللهِ مِن الإمامِ، وقد تَسمَعُ مَوعِظةً، أو

---

(١) أخرجه البخاري (٨٦٥)، ومسلم (٤٤٢)، وأبو داود (٥٦٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٨٧٣)، ومسلم (٤٤٢) واللفظ له.



دَرسًا، أو خُطبةً تُفيدُها في دِينِها ودُنياها، ويُستفادُ منه أنَّه ليسَ للمرأةِ الخروجُ مِن بَيتِ زَوجِها -حتى لوْ كان خُروجُها طاعةً وإلى المَسجدِ- إلَّا بإذْنِه.

ائتِمامُ المأمُومِ بالإمامِ

عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَقَطَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن فَرَسٍ فجُحِشَ شِقُّه الأيمَنُ، فدَخَلْنا عليه نَعودُه، فحَضَرَتِ الصَّلاةُ، فصَلَّى بنَا قاعِدًا، فصَلَّيْنا وَراءَهُ قُعودًا، فلمَّا قَضَى الصَّلاةَ قال: إنَّما جُعِلَ الإمامُ لِيُؤتَمَّ به؛ فإذا كَبَّر فكَبِّروا، وإذا سَجَدَ فاسجُدُوا، وإذا رَفَعَ فارْفَعُوا، وإذا قال: سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمِدَه، فقُولوا: رَبَّنا ولكَ الحَمدُ ...)) الحديثَ(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((ما يأْمَنُ الذي يَرفَعُ رَأسَه في صَلاتِه قبْلَ الإمامِ أنْ يُحوِّلَ اللَّهُ صُورتَه في صُورةِ حِمارٍ!))(٢). وفي رِوايةٍ: ((أنْ يَجعَلَ اللَّهُ وجْهَه وجْهَ حِمارٍ!))(٣).



الصَّلاةُ عِبادةٌ تَوقيفيَّةٌ، علَّمَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمَّتَه بفَرائضِها وسُنَنِها وآدابِها، ومِن ذلك: تَعليمُه كَيفيَّةَ مُتابعةِ الإمامِ في صَلاةِ الجَماعةِ، ففي **الحَديثِ الأوَّلِ**، يَروي أنسُ بنُ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَقَطَ عن فَرَسٍ فخُدِشَ جِلدُ جانبِهِ الأيمَنِ، فدَخَلوا يَزورُونَه في مَرَضِهِ ووَجَعِهِ، فحَضَرَتْ إحْدى الصَّلواتِ المَكْتوبةِ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إمامًا، ولم يَقدِرْ على الصَّلاةِ واقِفًا، فصلَّى قاعِدًا، وتَبِعَه المأمومونَ على حالِهِ وصلَّوْا معه قُعودًا، فلمَّا قَضَى

(١) أخرجه البخاري (٨٠٥)، ومسلم (٤١١) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩١)، ومسلم (٤٢٧) واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (٤٢٧).



النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الصَّلاةَ قالَ: «إنَّما جُعِلَ الإمامُ لِيُؤتَمَّ به»، أي: يُقْتَدى به، وتُتَبَّعَ أفْعالُه؛ فمِن شأْنِ التَّابعِ ألَّا يَتقدَّمَ على المَتبوعِ، بل يَفعَلُ مِثلَ فِعلِه، ويَتحرَّكُ بعدَ حَركتِهِ، لا أنْ يَسبِقَه في حرَكاتِه، وكذلك الصَّلاةُ؛ «فإذا كَبَّرَ فكَبِّروا»، إذا كبَّرَ للإحرامِ بالصَّلاةِ فاتَّبِعوه فيه وكبِّروا بَعدَه، ولا تَسبِقوه، كما في رِوايةِ أبي داودَ: ((ولا تُكبِّروا حتى يُكبِّرَ))[1]. قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «وإذا سَجَدَ فاسْجُدوا، وإذا رَفَعَ فارْفَعوا»؛ فلا تَسجُدوا ولا تَرفُعوا معه أو قبْلَه، بلْ بعْدَه؛ وكلُّ هذا تَأْكيدٌ لضَرورةِ اتِّباعِ الإمامِ في صَلاةِ الجَماعةِ. وإذا قال بعدَ الرَّفعِ مِن الرُّكوعِ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمِدَه، فقُولوا: رَبَّنا ولكَ الحَمدُ».

وفي الحدِيثِ الثَّاني حذَّر النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المأمومينَ مِن عدَمِ مُتابَعةِ إمامِهم، ورفْعِ رُؤوسِهم قبْلَ أنْ يَرفَعَ الإمامُ رأسَه مِن الرُّكوعِ، وتَوعَّد مَن يَفعَلُ ذلك بأنْ يَجعَلَ اللهُ وجْهَه وجْهَ حِمارٍ أو يُحوِّلَ صورَتَهُ في صُورَةِ حِمارٍ. وفي هذا تَحذيرٌ وتَنفيرٌ شَديدانِ مِن عدَمِ مُتابَعةِ الإمامِ، وسبْقِه في أفعالِ الصَّلاةِ، وإنَّما جُعِلَت هذه عُقوبتَه لأنَّه لم يَستفِدْ بمُسابَقةِ الإمامِ إلَّا فَسادَ صَلاتِه، وبُطلانَ أجْرِه، فهو شَبَهُ الحِمارِ في البَلادةِ وعدَمِ الفِطنةِ.

التَّأمينُ في الصَّلاةِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا أمَّنَ

(١) أخرجه أبو داود (٦٠٣)، وأحمد (٨٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه.
قال ابن حجر في ((بلوغ المرام)) (١١٦): أصلُه في الصحيحينِ. وصحَّحه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٥٣)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٦٠٣)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٦٠٣).
والحديثُ أصلُه في صحيحِ مسلمٍ (٤١٥).



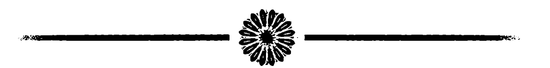
الإمامُ فأمِّنُوا؛ فإنَّه مَن وافقَ تأمِينُه تأمينَ المَلائكةِ غُفِرَ له ما تَقدَّمَ مِن ذَنْبه))[1].



كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأمُرُ المأمومينَ ألَّا يَتقدَّموا على الإمامِ في حَرَكاتِه وتَنقُّلاتِه في الصَّلاةِ، أو يُوافِقوه، إلَّا أنَّه استَثْنى مِن ذلك التَّأمينَ، فقالَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «إذا أمَّنَ الإمامُ»، أي: إذا قالَ الإمامُ: (آمِينَ) عَقِبَ الانتِهاءِ مِن قِراءتِهِ الفاتحةَ، وذلك في الصَّلاةِ الجهريَّةِ، وهو دُعاءٌ معناه: اللَّهُمَّ استَجِبْ، والتَّأمينُ يكونُ على ما فِي السُّورةِ مِن دُعاءٍ بالهِدايةِ، «فأمِّنُوا» والأمرُ والتَّوجيهُ للمأمومينَ، ومَعْناه: وافِقوا الإمامَ في قَولِ: (آمينَ)، ولا تَتقدَّموا أو تتأخَّروا عنِ الوَقتِ الذي يقولُها الإمامُ فيه؛ «فإنَّه مَن وافَقَ تَأمِينُه تَأْمينَ المَلائكةِ»: أي: إنَّ مَن وافَقَ تَأْمينُه تَأْمينَ المَلائكةِ في الوَقتِ نَفْسِه، وذلك أنَّ الملائكةَ يُؤمِّنونَ على تَأمينِ الإمامِ، «غُفِرَ له ما تَقدَّمَ مِن ذَنْبِه»، كان جَزاءُ وأجْرُ ذلك أنْ يَغفِرَ اللهُ له ما تَقدَّمَ مِن ذَنبِه، وهذا مِن فَضلِ اللهِ العَظيمِ المُترتِّبِ على التَّأمينِ، والمقصودُ بالذُّنوبِ هُنا: الصَّغائرُ، وأمَّا الكَبائرُ فإنَّه لا بُدَّ لها مِن تَوبةٍ.

التَّنبيهُ أثناءَ الصَّلاةِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((التَّسبيحُ لِلرِّجالِ، والتَّصفيقُ لِلنِّساءِ))[2].



في هذا الحديثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ماذا يَصنَعُه المُصلِّي إنْ عَرَض له

---

(١) أخرجه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٠٣)، ومسلم (٤٢٢).

عارِضٌ في الصَّلاةِ، أو أرادَ تَنبيهَ الإمامِ إلى خَلَلٍ وَقَعَ في صلاتِه، أو رأى مَن يتعَرَّضُ لهَلَكةٍ أو خَطَرٍ وأراد تَنبيهَه، حيثُ يقولُ: «التَّسبيحُ لِلرِّجالِ، والتَّصفيقُ لِلنِّساءِ»، أي: إذا احْتاجَ المُصلِّي في الصَّلاةِ إلى إفهامِ الإمامِ أو غَيرِه أمرًا ما، أوِ التَّنبيهِ على خَلَلٍ في الصَّلاةِ، ونحوِ ذلك، فإنْ كان رجُلًا فإنَّه يُسبِّحُ؛ بأنْ يقولَ: سُبحانَ اللهِ. وأمَّا النِّساءُ فإنَّ التَّصفِيقَ هو المَشروعُ في حقِّهِنَّ، والتَّصفيقُ هو ضرْبُ إحدى اليَدَينِ على الأُخرى برِفقٍ، وهو خاصٌّ للنِّساءِ وعَلامةٌ عليهِنَّ، والتَّصفيقُ في حَقِّها أبلَغُ في السَّترِ؛ لأنَّ صَوتَها فيه لِينٌ؛ فأُمِرْنَ بالتَّصفيقِ خَوفًا مِن الفِتنةِ.





أحكامُ الجُمُعةِ

فَضلُ يَومِ الجُمُعةِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خَيرُ يَومٍ طَلَعَتْ عليه الشَّمسُ يَومُ الجُمُعةِ؛ فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيهِ أُدْخِلَ الجَنةَ، وفيهِ أُخْرِجَ منْها، ولا تَقومُ السَّاعةُ إلَّا في يَومِ الجُمُعةِ))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ أيضًا، قال: قال أبو القاسِمِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنَّ في الجُمُعةِ لَساعةً لا يُوافِقُها مُسلِمٌ قائمٌ يُصَلِّي، يَسأَلُ اللَّهَ خَيرًا؛ إلَّا أعْطاهُ إيَّاهُ. وقال بيَدِه؛ يُقَلِّلُها يُزَهِّدُها))(٢).



مِن حِكمةِ اللهِ تَعالى أنْ فَضَّلَ بعضَ مَخلوقاتِه على بعضٍ، وفضَّلَ أمكنةً على بَعضٍ، كتَفْضيلِ مكَّةَ على سائرِ الأمكنةِ، وفضَّلَ أزمِنةً على بَعضٍ، كتَفضيلِ يَومِ الجُمُعةِ على سائرِ أيَّامِ الأُسبوعِ، **وفي الحَديثِ الأوَّلِ** يقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: خَيرُ يَومٍ مِن أيَّامِ الأُسبوعِ طَلَعتْ عليه الشَّمسُ يَومُ الجُمُعةِ؛ لِمَا فيه مِن الفَضلِ والأجْرِ والثَّوابِ والبَرَكاتِ التي تَنزِلُ مِن اللهِ تَعالى؛ ففيهِ خُلِقَ آدَمُ الذي هو أوَّلُ البَشرِ، وفيه أُدخِلَ الجنَّةَ، بمَعْنى: خُلِقَ آدَمُ يَومَ الجُمعةِ، ثُمَّ أسكَنَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ الجَنةَ في يومِ الجُمُعةِ، وفيه أُخرِجَ مِنها، وهَبطَ إلى الأرضِ لِلخِلافةِ فيها، ويومُ خُروجِه عليه السَّلامُ مِن الجَنَّةِ هو يومُ خِلافتِه في الأرضِ ونُزولِه لها. «ولا تَقومُ السَّاعةُ» وهي يَومُ القِيامةِ، «إلَّا في يَومِ الجُمُعةِ». وذِكرُ هذه الأحْداثِ العِظامِ وهذِه القضايا المعدودةِ التي وَقَعَت في يَومِ الجُمُعةِ ليس لذِكرِ فَضيلتِه؛ لأنَّ ما وقَعَ فيه مِن إخراجِ آدَمَ وقِيامِ السَّاعةِ لا يُعَدُّ مِن

(١) أخرجه مسلم (٨٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٩٤)، ومسلم (٨٥٢) واللفظ له.



الفَضائلِ، وإنَّما هو تَعظيمٌ لِمَا وقَعَ وما حدَثَ فيه بِدايةً للخَلقِ ونهايةً له. وقيلَ: بل هِيَ مِن الفَضائلِ؛ لأنَّ خُروجَ آدَمَ مِن الجَنَّةِ هو سَببُ الذُّرِّيَّةِ وهذا النَّسْلِ العَظيمِ، ووُجودِ الرُّسلِ والأنبياءِ والأولياءِ، ولأنَّ لأحداثِ السَّاعةِ شأنًا عظيمًا؛ فهي سَببٌ لتَحقيقِ اللهِ وعْدَه لأهْلِ الإيمانِ، ووَعيدَه لأهلِ الكُفرِ، وظُهورِ جَزاءِ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والأولياءِ وغيرِهم، وإظهارِ كَرامتِهم وشَرفِهم.

وفي **الحَديثِ الثاني** يَقولُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «إنَّ في الجُمُعةِ لَساعةً» مَنَّ اللهُ بها عزَّ وجلَّ على عِبادِه حتى يُقبِلَ فيها العَبدُ على رَبِّهِ يَطلُبُ فيها التَّوبةَ والمَغفرةَ، ويَسألُهُ من نعيمَيِ الدُّنيا والآخِرةِ، «لا يُوافِقُها مُسلِمٌ قائمٌ يُصَلِّي»، أي: يُصادِفُها وهو على حالٍ يَتقرَّبُ فيها مِن اللهِ عزَّ وجلَّ بالدُّعاءِ أوِ انتِظارِ الصَّلاةِ، «يَسألُ اللَّهَ خَيرًا»، فيَدْعو فيها اللهَ عزَّ وجلَّ ويَسألُه مِن أيِّ خَيرٍ مِن خَيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ؛ رَغبةً ورَهبةً مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، «إلَّا أعْطاهُ إيَّاهُ»، فيَستجيبُ اللهُ لِمَن يَدْعوهُ ويَسألُه بأنْ يُعطِيَهُ سُؤلَه أو خَيرًا منه، أو يَدفَعَ عنه مِن البَلاءِ والسُّوءِ، أو يُؤخِّرَه له إلى يَومِ القيامةِ، ثمَّ أشارَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيَدِه الشَّريفةِ يُقلِّلُها؛ يُشيرُ إلى أنَّ هذه السَّاعةَ وقتٌ قليلٌ خفيفٌ. وقدِ اختُلِفَ في تَحديدِ وقتِ هذه السَّاعةِ على أقوالٍ كثيرةٍ؛ أصحُّها قولانِ: الأوَّلُ: أنَّها مِن جُلوسِ الإمامِ على المِنبرِ إلى انقِضاءِ صَلاةِ الجُمُعةِ، والقولُ الثَّاني: أنَّها بَعدَ العَصرِ في آخِرِ ساعةٍ مِن يَومِ الجُمُعةِ، وقد ورَد عن عبدِ اللهِ بنِ سلَامٍ أنه قال: قد علمتُ أيَّةَ ساعَةٍ هيَ، قال أبو هريرةَ: فقلتُ له: فأخبِرْني بها، فقال عبدُ اللهِ بنُ سلَامٍ: هي آخِرُ ساعةٍ مِنْ يومِ الجمعةِ، فقلتُ: كيف هي آخرُ ساعةٍ مِنْ يومِ الجمعةِ، وقد قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يصادِفُها عبدٌ مسلمٌ وهو يُصَلِّي))، وتلكَ الساعةُ لا يُصَلِّي فيها؟ فقال: ألَمْ يَقُلْ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَنْ جلَسَ يَنتظِرُ الصَّلاةَ فهو في صَلاةٍ))؟ فقال أبو هُرَيرةَ: بَلى، فقال: هو ذاك[1].

(١) أخرجه أبو داود (١٠٤٦) واللفظ له، والترمذي (٤٩١)، والنسائي (١٤٣٠)، وأحمد (٢٣٧٨٥). =



الاغتسالُ والتطيُّبُ والتسَوُّكُ يومَ الجُمُعةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((غُسْلُ يَومِ الجُمُعةِ على كُلِّ مُحْتلِمٍ، وسِواكٌ، ويَمَسُّ مِنَ الطِّيبِ ما قَدَرَ عليه))(١).



يومُ الجُمُعةِ هو عِيدُ المُسلِمينَ الأُسبوعيُّ، يَجتمِعونَ فيه على الطَّاعةِ؛ فشُهودُها يَستلزِمُ طَهارةَ ونَظافةَ الجَسَدِ والثِّيابِ، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ أمْرٌ** مِن اللهِ تعالَى لبَني آدَمَ بأخْذِ زِينتِهم مِن اللِّباسِ الحَسَنِ وغَيرِه عند جميعِ المساجِدِ، في الصَّلواتِ كُلِّها؛ والتزَيُّنُ قَدْرٌ زائِدٌ على سَترِ العَورةِ في الصَّلاةِ، فيَنْبغي للمُسلِمِ أنْ يَلبَسَ أحسَنَ ثِيابِه، وأجمَلَها، ومِن الزِّينةِ كذلك التطَيُّبُ، والسِّواكُ، ولا سيَّما يومَ الجُمُعةِ.

وفي حَديثِ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعضًا مِن الأعمالِ التي تُفعَلُ احتفاءً بهذا اليومِ العَظيمِ؛ فيُبيِّنُ أنَّ الغُسلَ يومَ الجُمُعةِ يَتأكَّدُ على كلِّ مُحْتلِمٍ، وهو كلُّ ذَكَرٍ بالِغٍ مِن المُسلِمينَ ممَّن وجَبَتْ عليه الجُمُعةُ. وممَّا يتأكَّدُ في يومِ الجُمُعةِ أيضًا استعمالُ السِّواكِ، وهو عُودٌ مُستَخرَجٌ مِن جُذورِ شَجَرِ الأراكِ، والسِّواكُ مَرضاةٌ للربِّ، مَطهَرةٌ للفمِ؛ فهو يَجلوُ الأسنانَ ويُطهِّرُ الفَمَ مِن الرَّوائحِ الكَريهةِ، ويُلحَقُ به استِعمالُ الوَسائلِ الحَديثةِ، كالمعْجونِ والفُرشاةِ. ومن آدابِ الجُمُعةِ كذلك: أنْ يَمَسَّ طِيبًا إنْ وَجَد؛ فيَتطيَّبَ بأيِّ رائحةٍ عِطْريَّةٍ حَسنةٍ.

= قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (٢٧٧٢)، والحاكم على شرط الشيخين في ((المستدرك)) (١٠٣٠)، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٤٣٢)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٠٤٦). وقال النووي في ((المجموع)) (٤/ ٤٨٢): أسانيدُه على شرطِ البخاريِّ ومسلمٍ.

(١) أخرجه البخاري (٨٨٠)، ومسلم (٨٤٦) واللفظ له.



وُجوبُ الإنصاتِ للخُطبةِ وفَضْلُه

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَنِ اغتَسَلَ ثمَّ أَتَى الجُمُعةَ، فصَلَّى ما قُدِّرَ له، ثُمَّ أَنْصَتَ حتى يَفرُغَ مِن خُطْبَتِه، ثمَّ يُصَلِّي معهُ؛ غُفِرَ له ما بيْنَه وبيْنَ الجُمُعةِ الأُخْرى، وفَضْلُ ثَلاثةِ أيَّامٍ))[1].

وعنه رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا قُلْتَ لِصاحِبِك يَومَ الجُمُعةِ: أَنْصِتْ، والإمامُ يَخطُبُ؛ فقَدْ لَغَوْتَ))[2].



لِصلاةِ الجُمُعةِ آدابٌ يَنبغي على المُسلِمِ مُراعاتُها، ومِن هذه الآدابِ: الإنصاتُ للخَطيبِ في خُطبتِه، **كما في الحَديثِ الأوَّلِ**، وفيه يَقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «مَنِ اغتَسَلَ، ثمَّ أَتَى الجُمُعةَ»، والاغتسالُ يومَ الجُمُعةِ يَتأكَّدُ في حقِّ كلِّ ذَكَرٍ بالِغٍ مِن المُسلِمينَ ممَّن وجَبَتْ عليه الجُمُعةُ، كما تقدَّمَ حَديثُه، «فصَلَّى ما قُدِّرَ له»، حيثُ بَكَّرَ في حُضورِه إلى المسجِدِ قَبلَ صُعودِ الإمامِ على المِنبَرِ، ثم جعَلَ يُصلِّي مِن النَّافلةِ ما شاءَ اللهُ لَه أنْ يُصلِّيَ، «ثمَّ أَنْصَتَ»، أي: سَكَتَ مُستمِعًا إلى الإمامِ في خُطبتِه، «حتَّى يَفرُغَ مِن خُطْبَتِه»، فظلَّ على تِلكَ الحالةِ مِن الإنْصاتِ حتى انتَهَى الإمامُ مِن الخُطبةِ، ونزَلَ مِن على المِنبَرِ، «ثمَّ يُصَلِّي معه» رَكعتَيِ الجُمُعةِ؛ «غُفِرَ له ما بيْنَه وبيْنَ الجُمُعةِ الأُخْرى»، فيُغفَرُ له ذُنوبُ ما بيْن السَّاعةِ التي يُصلِّي فيها الجُمُعةَ إلى مِثلِها مِن الجُمعةِ الأُخرى، «وفَضْلُ ثَلاثةِ أيَّامٍ»؛ وذلك لأنَّ الحَسنةَ بعَشْرِ أمثالِها، ويُرادُ بمَغفرةِ الذُّنوبِ الصَّغائرُ منها لا الكبائِرُ، والتي يُشتَرَطُ للتَّوبةِ منها شُروطٌ مَعلومةٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٥٧). وأخرجه البخاري (٩١٠) بنحوه من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٩٣٤) واللفظ له، ومسلم (٨٥١).



وفي الحَديثِ الثاني يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيه خُطورةَ تَرْكِ الإنْصاتِ للخُطبةِ، وفيه يقولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «إذا قُلْتَ لِصاحِبِكَ يَومَ الجُمُعةِ: أَنْصِتْ، والإمامُ يَخطُبُ»، بمَعْنى: تُوجِّهُ غيرَكَ وتحُثُّه على الاستِماعِ للخُطبةِ، «فقَدْ لَغَوْتَ»، واللَّغوُ: هو الكلامُ الباطِلُ السَّاقطُ المذمومُ، وهذا فيه نهيٌ عن جَميعِ أنْواعِ الكَلامِ حالَ الخُطبةِ، ولو كان ظاهِرُها النُّصحَ للغَيرِ؛ ففي غيرِ ذلك أَولى.

النَّافِلةُ بعْدَ الجُمُعةِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا صَلَّى أحَدُكم الجُمُعةَ فلْيُصَلِّ بعْدَها أربَعًا))[1].



في هذا الحديثِ حثَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الصَّلاةِ بعْدَ الجُمُعةِ أربَعَ ركَعاتٍ؛ وقدْ جاءَ في حَديثِ عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يُصلِّي بعدَ الجُمُعةِ رَكعتَينِ))[2]. وممَّا قيلَ في الجَمْعِ بيْن هذينِ الحَديثَينِ: أنَّه إنْ صلَّى في المسجدِ صلَّى أربعًا، وإنْ صلَّى في بَيتِه صلَّى رَكعتَينِ. وقيل: يُحمَلُ على أنْ تكونَ راتبةُ الجُمُعةِ سِتَّ ركَعاتٍ. وقيل: يُصلِّي رَكعتَينِ في المسجِدِ، ورَكعتَينِ في بَيتِهِ بعدَ رُجوعِهِ إليه.

خطورةُ تَركِ صلاةِ الجُمُعةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

(١) أخرجه مسلم (٨٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٩٣٧)، ومسلم (٨٨٢) واللفظ له.



وعن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهم: أَنَّهُما سَمِعا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ على أعْوادِ مِنبرِه: ((لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوامٌ عن وَدْعِهِم الجُمُعاتِ، أَوْ لَيَختِمَنَّ اللَّهُ على قُلوبِهم، ثمَّ لَيَكونُنَّ مِنَ الغافِلينَ))(1).

الجُمُعةُ شَأْنُها عَظيمٌ في الإسلامِ، وقد أوجَبَ اللهُ تعالَى على الرِّجالِ المُقيمينَ الخُروجَ إليها إذا أَذَّن المؤذِّنُ داعيًا إليها، وهو النِّداءُ الثَّاني عندَ قُعودِ الإمامِ على المِنبَرِ للخُطبةِ، فأمَرَهم بالمُبادَرةِ إلى الخُطبةِ والصَّلاةِ، وتَرْكِ البَيعِ؛ فذلك خَيرٌ لهم، كما في **الآيةِ الكريمةِ**.

وقد أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الرِّجالَ بها، وحضَّهُم على شُهودِها، وحذَّرَ مِن التهاوُنِ فيها، كما **في هذا الحَديثِ**، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يَخطُبُ على المِنبَرِ: «لَيَنْتَهِينَّ أَقْوامٌ عن وَدْعِهِم الجُمُعاتِ»، أي: عن تَرْكِهِم صَلاةَ الجُمُعةِ والتَّخلُّفَ عنها؛ تَهاوُنًا وتكاسُلًا مِن غَيرِ عُذرٍ، «أَوْ لَيَختِمَنَّ اللَّهُ على قُلوبِهم» بأنْ يَطبَعَ عليها ويَمنعَها لُطفَه وفَضلَهُ، ويَجعَلَ فيها الجهْلَ والجَفاءَ والقَسوةَ، أو يُصيِّرَ قلوبَهم قُلوبَ مُنافقين، كما في الحَديثِ، وقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿**فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ [المنافقون: ٣]، «ثمَّ لَيَكونُنَّ مِنَ الغافِلينَ»: المَعدودِينَ مِن جُملتِهِم، والحَديثُ مِن أعظَمِ الزَّواجِرِ عن تَركِ الجُمُعةِ، والتَّساهُلِ فيها، وفيه دليلٌ على أنَّها مِن فُروضِ الأعْيانِ.



(١) أخرجه مسلم (٨٦٥).

أحكامُ العِيدينِ والاستِسقاءِ والكُسوفِ

أكلُ تَمَراتٍ قَبلَ الذَّهابِ إلى صَلاةِ عيدِ الفِطرِ

عن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كانَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يَغدُو يومَ الفِطْرِ حتى يَأكُلَ تَمَراتٍ))، وفي رِوايةٍ: ((ويَأكُلُهنَّ وِتْرًا))(١).



في هذا الحَديثِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في عيدِ الفِطرِ كان لا يَخرُجُ مِن بَيتِه إلى صَلاةِ العيدِ إلَّا إذا أكَلَ تَمَراتٍ وِترًا، أي: يأكُلُ تَمْرةً، أو ثَلاثَ تَمَراتٍ، أو خَمسًا، أو سبعًا، والحِكمةُ في الأكْلِ قبلَ الصَّلاةِ ألَّا يَظُنَّ ظانٌّ لُزومَ الصَّومِ حتى يُصلِّيَ العِيدَ. وقيلَ: الحِكْمةُ مِن ذلك بَيانُ المُبادَرةِ إلى امتثالِ أمرِ اللهِ تعالى بوُجوبِ الفِطرِ بعدَ وُجوبِ الصَّومِ.

خُروجُ النِّساءِ إلى صَلاةِ العيدَينِ

عن أُمِّ عَطيَّةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((أمَرَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ نُخرِجَهُنَّ في الفِطرِ والأضْحَى: العَواتِقَ، والحُيَّضَ، وذَواتِ الخُدورِ، فأمَّا الحُيَّضُ فيَعتَزِلْنَ الصَّلاةَ، ويَشهَدْنَ الخَيرَ ودَعْوةَ المُسلِمينَ، قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إحْدانا لا يكونُ لَها جِلْبابٌ، قالَ: لِتُلْبِسْها أُخْتُها مِن جِلْبابِها))(٢).

(١) أخرجه البخاري (٩٥٣). والروايةُ علَّقها البخاري بصيغةِ الجزمِ بعد حديث (٩٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٩٧٤)، ومسلم (٨٩٠) واللفظ له.



صَلاةُ العيدِ يَحضُرُها جَميعُ المُسلِمينَ؛ كَبيرُهُم وصَغيرُهُم، الرِّجالُ والنِّساءُ، وفي هذا الحَديثِ تقولُ أُمُّ عَطيَّةَ رَضِيَ اللهُ عنها: «أمَرَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ نُخرِجَهُنَّ في الفِطرِ والأضْحَى»، أي: في صَلاةِ عيدِ الفِطرِ وصَلاةِ عيدِ الأضْحى، «العَواتقَ»، جَمعُ عاتِقٍ، وهي مَن بَلَغَتِ الحُلُمَ أو قارَبتْ، أو استحقَّتِ التَّزويجَ ولم تَتزوَّجْ، أو هي الكريمةُ على أهْلِها، «والحُيَّضَ»، جمعُ حائِضٍ، وهي ذاتُ الحَيضِ، والأصْلُ أنَّ الحائِضَ لا تُصلِّي ولا تَصومُ أيَّامَ حَيضِها، «وذَواتِ الخُدورِ»، جَمعُ خِدْرٍ، وهو سِترٌ يكونُ في ناحيةِ البيتِ، «فأمَّا الحُيَّضُ» اللَّاتي يَخرُجْنَ لصَلاةِ العيدِ، «فيَعتزِلْنَ الصَّلاةَ»، يَحضُرْنَ خَلْفَ المُسلِمينَ، ولا يُشارِكْنَ في صَلاةِ العيدِ، فيَسمَعْنَ الخُطبةَ، ويُكبِّرْنَ ويَذكُرْنَ اللهَ عزَّ وجلَّ، والأصْلُ في مُصلَّى العيدِ أنَّه خارِجَ المسجِدِ، «ويَشهَدْنَ الخَيرَ» مِن التَّكبيرِ، والخُطبةِ، والدُّعاءِ، وغَيرِها، «ودَعْوةَ المُسلِمينَ»، أي: دُعاءَهم، فتَصِلُ بَرَكةُ دُعائِهم إليهِنَّ، «قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إحْدَانا لا يكونُ لَها جِلْبابٌ»، وهو الثَّوبُ الواسِعُ الذي يَستُرُ جَميعَ البَدَنِ، فقالَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لِتُلْبِسْها أُختُها مِن جِلْبابِها»، فأرشَدَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى أنْ تَستعيرَهُ مِن أُختِها المُسلِمةِ، ولا تَحرِمَ نفسَها مِن الخُروجِ إلى المُصلَّى.

صِفةُ صَلاةِ العِيدَينِ

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((**أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرَجَ يومَ أضْحى أو فِطرٍ، فصلَّى ركْعَتينِ، لم يُصلِّ قَبْلَها ولا بَعدَها**))[1].

وعنِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((**كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في العيدينِ وفي الجُمُعةِ: بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وإذا اجتَمَع العيدُ والجمعةُ في يومٍ واحِدٍ، يَقرَأُ بهما أيضًا في الصلاتينِ**))[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٩٦٤)، ومسلم (٨٨٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٨٧٨).



وعن أبي واقدٍ اللَّيثيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ في الفِطرِ والأضحى بـ﴿قٓ﴾ و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾))[1].

وعن جابرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((شَهِدْتُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصَّلاةَ يَومَ العِيدِ، فبدأ بالصَّلاةِ قَبلَ الخُطبةِ، بغَيرِ أذانٍ ولا إقامةٍ، ثمَّ قام مُتوكِّئًا على بلالٍ، فأمَرَ بتقوى الله، وحَثَّ على طاعتِه، ووَعَظ النَّاسَ وذَكَّرَهم، ثمَّ مضى حتَّى أتى النِّساءَ، فوعَظَهنَّ وذَكَّرَهنَّ))[2].



شَرَع اللهُ عزَّ وجل يومَي الفِطرِ والأضحى عيدَينِ للمُسلِمينَ في مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها، يَفْرَحونَ فيهما بنِعْمةِ الإسلامِ وهِدايةِ اللهِ لهم.

وفي الحَديثِ الأوَّلِ يُبيِّنُ عبدُاللهِ بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما هَدْيَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في صلاةِ العِيدِ؛ فأخبَرَ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرَج صباحَ يَومِ عيدِ الأضحى -وهو يومُ العاشِرِ مِن ذي الحِجَّةِ-، أو صباحَ يَومِ عيدِ الفِطرِ -وهو يومُ الأوَّلِ مِن شَهرِ شَوَّالٍ-، فصلَّى صلاةَ العِيدِ -وهما ركعَتانِ-، ولم يُصَلِّ لهما سُنَّةً قَبليَّةً أو بَعْديَّةً.

وفي الحديثَينِ الثَّاني والثَّالِثِ إشارةٌ إلى السُّوَرِ التي كان يقرأُ بها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في كُلِّ رَكعةٍ عَقِبَ الفاتِحةِ؛ فسَمِعَه النُّعمانُ بنُ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما مرَّةً وهو يَقرَأُ في الرَّكعةِ الأُولى بسُورةِ الأَعلى، وفي الرَّكعةِ الثَّانيةِ بسُورةِ الغاشيةِ، وسَمِعَه أبو واقِدٍ اللَّيثيُّ مَرَّةً وهو يَقرَأُ بسُورةِ (ق) في الرَّكعةِ الأُولى، وفي الثَّانيةِ بسورةِ القَمَرِ.

ويُكَبِّرُ في الركَّعةِ الأُولى قَبلَ قِراءةِ الفاتحةِ سَبْعَ تَكبيراتٍ ومن ضِمنها تكبيرةُ

(١) أخرجه مسلم (٨٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٩٦١)، ومسلم (٨٨٥) واللفظ له.

الإحرام، ويُكَبِّرُ في الرَّكعةِ الثَّانيةِ قَبلَ قراءةِ الفاتحةِ خَمسَ تكبيراتٍ من غيرِ احتساب تكبيرة الانتقال.

ويَبدأُ وَقتُ صَلاةِ العِيدِ بَعْدَ طُلوعِ الشَّمسِ قِيدَ رُمْحٍ، أي: بَعْدَ رُبعِ ساعةٍ في التَّقديرِ المعاصِرِ، ويَستَمِرُّ وَقتُها إلى زوالِ الشَّمسِ.

وفي الحديثِ الرَّابعِ يُخبِرُ جابرُ بنُ عبدِاللهِ رضِي اللهُ عنهما أنَّه حضَر مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ العيدِ في يومِ عيدِ فِطْرٍ أو أضْحَى، «فبدَأ بالصَّلاةِ قَبْلَ الخُطبةِ بِغيرِ أذانٍ ولا إقامةٍ»، أي: فصلَّى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ العيدِ، ثمَّ خَطَبَ خُطبةَ العيدِ، ولم يَكُنْ لِصلاةِ العيدِ أذانٌ ولا إقامةٌ، ثمَّ قام مُستَنِدًا على بِلالِ بنِ رَباحٍ رَضِيَ الله عنه، «فأَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ وحَثَّ على طاعتِهِ ووعَظ النَّاسَ وذَكَّرَهُمْ»، «ثمَّ مَضَى حتَّى أَتَى النِّساءَ»، أي: ثمَّ ذهَب حتَّى أتى مُصَلَّى النِّساءِ؛ لِيَخطُبَ فيهِنَّ، «فوعظَهُنَّ وذَكَّرَهُنَّ».

اللَّهوُ في العِيدِ

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((دَخَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وَعِندي جارِيَتانِ تُغَنِّيانِ بغِناءِ بُعَاثٍ، فاضْطَجَعَ على الفِراشِ، وحَوَّلَ وَجْهَه، فدَخَلَ أبو بَكْرٍ فانْتَهَرَني، وقال: مِزْمارُ الشَّيطَانِ عِندَ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؟! فأقْبَلَ عليه رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالَ: دَعْهُما، فلمَّا غَفَلَ غَمَزْتُهما فخَرَجَتا، وكان يَومَ عِيدٍ يَلعَبُ السُّودانُ بالدَّرَقِ والحِرابِ، فإمَّا سَأَلتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وإمَّا قالَ: تَشْتَهِينَ تَنظُرِينَ؟ فقُلتُ: نعَمْ، فأقامَني وَراءَه، خَدِّي على خَدِّهِ، وهو يقولُ: دُونَكُمْ يا بَنِي أَرْفِدَةَ، حتى إذا مَلِلْتُ، قال: حَسْبُكِ؟ قُلتُ: نعَمْ، قال: فاذْهَبي))[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٩٤٩، ٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢) واللفظ له.



الأعيادُ مِن الشَّعائرِ الدِّينيَّةِ التي تَختصُّ بها كلُّ أُمَّةٍ عن غَيرِها، وقد أعطَى اللهُ تعالى لأُمَّةِ الإسلامِ عيدَ الفطرِ وعيدَ الأضحى، ومِنْ شَأنِ الأعْيادِ أنْ تَشتمِلَ على بَعضٍ مِن اللَّهوِ، كما في هذا الحَديثِ: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَخَل على عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها وعِندها جارِيتانِ صَغِيرتانِ تُغنِّيانِ بغِناءِ بُعَاثٍ، يَعْني: تُغنِّيانِ بما قاله العَرَبُ في يومِ بُعَاثٍ، وهو حِصْنٌ وَقَعَ عِندَه مَقتَلةٌ عَظِيمةٌ بيْن الأَوسِ والخَزْرَجِ في الجاهِليَّةِ، فاضْطَجَعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحوَّل وجْهَه إلى الجِهةِ الأُخرى، ولم يُنكِرْ على عائشةَ فِعْلَها، فلمَّا دَخَل أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه انْتَهَر عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، بمَعْنى: زَجَرَها؛ لِمَا تَقرَّر عِندَه مِن مَنْعِ الغناءِ واللَّهْوِ، وقال لها: «مِزْمارُ الشَّيطانِ عِندَ رَسولِ اللهِ؟!» يَعْني: الغِنَاءَ أوِ الدُّفَّ؛ لأنَّ المِزْمارةَ والمِزْمارَ مُشتَقٌّ مِن الزَّمِيرِ، وهو الصَّوتُ الذي له صَفِيرٌ، ويُطلَقُ على الصَّوتِ الحَسَنِ وعلى الغِناءِ، وأضافَها رَضِيَ اللهُ عنه إلى الشَّيطانِ؛ لأنَّها تُلْهِي القَلبَ عن ذِكرِ اللهِ تعالى، وهذا مِن الشَّيطانِ، فأقبَلَ عليه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وقالَ: «دَعْهُما»: اتْرُكْهما، وفي رِوايةٍ في الصَّحِيحينِ: ((دَعْهُما يا أبا بَكرٍ؛ إنَّ لكُلِّ قَومٍ عِيدًا، وإنَّ عيدَنا هذا اليَومُ))[1]؛ لأنَّ العيدَ يَومُ سُرورٍ شَرْعِيٍّ؛ فلا يُنكَرُ مِثلُ هذا، ولكونِ ذلِك مِن اللَّهْوِ المُباحِ الَّذِي لا يُهيِّجُ النُّفوسَ إلى أُمورٍ لا تَليقُ، فلمَّا غَفَل أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، غَمَزَتْ عَائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها الجاريتَينِ، بمَعْنى: أشارَتْ إليهما، فخَرَجَتَا.

وقالتْ عائِشةُ رَضِيَ اللهُ عنها: «وكانَ يَومَ عِيدٍ يَلعَبُ السُّودانُ»، والمرادُ بهم الحَبَشةُ، يَلْعَبونَ بالدَّرَقِ، وهي نَوعٌ مِن التُّروسِ تُتَّخَذُ مِن الجُلودِ ليس فيه خَشَبٌ، وبالحِرابِ: جمْعُ حَربَةٍ، وهيَ سِلاحٌ يُتَّخَذُ في الحَرْبِ، قَدْرُه أصغَرُ مِن الرُّمْحِ الكامِلِ، وليس بعَرِيضِ النَّصْلِ، وقد طَلَبَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) أخرجه البخاري (٣٩٣١) واللفظ له، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عنها.



أنْ تَنظُرَ إلى لَعِبِهم، أو قالَ لها صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «تَشْتَهِينَ تَنظُرِين؟»، يَعْني: هل تُريدينَ أنْ تَنظُري إلى لَعِبِهم؟ فقالتْ: نعَمْ، فأَقامَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وَراءَه، ساتِرًا لها بجَسَدِه، تَنظُرُ مِن أعْلى كَتِفِه، « خدِّي على خَدِّه» بمَعْنى: وَضَعَتْ رأسَها على كَتِفِه بحيثُ الْتَصَقَ خدُّها بِخَدِّ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وقال: «دُونَكُم يا بَني أرْفِدَةَ»، يَعْني: تَابِعوا مِثلَ هذا اللَّعِبِ، و(بنو أرْفِدَةَ) هو لَقَبٌ للحَبَشةِ أو اسْمُ أبِيهِم الأكْبَرِ، حتى إذا مَلَّتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها قال: «حَسْبُكِ؟» يَعْني: هل يَكْفِيكِ ذلك؟ فقالتْ: نَعمْ، فقال: «اذْهَبِي».

ما يُنهَى عنه المُضحِّي إذا دَخَلَتِ العَشْرُ

عن أُمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا دَخَلَتِ العَشْرُ، وأرادَ أحَدُكم أنْ يُضَحِّيَ، فلا يَمَسَّ مِن شَعَرِه وبَشَرِه شيئًا))(١).



التقرُّبُ إلى اللهِ بذَبْحِ الأضاحيِّ مِن بَهيمةِ الأنْعامِ، شُكرًا للهِ على نِعَمِه، وطَمَعًا في رَحَماتِه، واقتفاءً لسُنَّةِ خَليلِ الرَّحْمنِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: عِبادةٌ أجْرُها عَظيمٌ عندَ اللهِ، وفي هذا الحَديثِ يُوضِّحُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أدَبًا مِن الآدابِ التي يَنبَغي على المُضحِّي التأدُّبُ بها إذا دَخَلَتِ العَشْرُ الأُوَلُ مِن شَهرِ ذي الحِجَّةِ، فيَنْهى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُضحِّيَ عنْ أنْ «يَمَسَّ مِن شَعَرِه وبَشَرِه شيئًا»، والمَعْنى: لا يَأخُذْ شَيئًا مِن شَعَرِه، سَواءٌ كان شَعرَ الرَّأسِ أو شَعرَ الإبْطِ أو العانةِ، ولا مِن أظْفارِه، سَواءٌ كانَ ظُفرَ يدٍ أو رِجلٍ، حتى يَذبَحَ أُضحيَّتَه؛ وذلِكَ تَشبُّهًا بالمُحرِمِ، فكَما أنَّ المُحرِمَ لا يَأخُذُ شَيئًا مِن الشُّعورِ أوِ الأظْفارِ، فكَذلِكَ غَيرُ المُحرِمِ له نَصيبٌ مِن شَعائرِ النُّسُكِ، فأمَرَه

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٧).



أَلَّا يَأْخُذَ شَيئًا مِن شَعرِه وأَظفارِه.

وَقتُ ذَبحِ الأُضحيَّةِ

عَن جُندُبِ بنِ سُفيانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَهِدْتُ الأَضْحَى مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فلَمْ يَعْدُ أنْ صَلَّى وفَرَغَ مِن صَلاتِه، سَلَّمَ، فإذَا هو يَرَى لَحْمَ أَضَاحِيَّ قدْ ذُبِحَتْ قبْلَ أنْ يَفرُغَ مِن صَلاتِه، فقال: مَن كان ذَبَحَ أُضحِيَّتَه قبْلَ أنْ يُصَلِّيَ -أوْ نُصَلِّيَ-، فلْيَذْبَحْ مَكانَها أُخرى، ومَن كان لمْ يَذبَحْ فلْيَذْبَحْ باسْمِ اللَّهِ))(1).



العِباداتُ المُحدَّدةُ بوَقتٍ ليسَ للمُسلِمِ أنْ يُوقِعَها قبْلَ وَقتِها، والأُضحيَّةُ واحِدةٌ مِن هذه العِباداتِ المُحدَّدةِ، وفي هذا الحَديثِ يُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وَقتَ ذَبحِ الأُضحيَّةِ؛ فيَرْوي الصَّحابيُّ الجَليلُ جُندُبُ بنُ سُفيانَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه شَهِدَ يَومَ عيدِ الأَضْحى مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فكانَ أوَّلَ ما بَدَأَ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اليَومَ أنْ صلَّى صَلاةَ العيدِ، فلمَّا فرَغَ مِن صَلاتِهِ رَأى لَحمَ أضاحيَّ قد ذُبِحَتْ قَبلَ الصَّلاةِ، فأخبَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ ما ذُبِحَ قَبلَ صَلاةِ الإمامِ ليس بأُضحيَّةٍ، وأمَرَ مَن ذبَحَ قَبلَ الصَّلاةِ أنْ يَذبَحَ مَكانَها أُخرى، ومَن لم يذبَحْ حتى الانتِهاءِ مِن الصَّلاةِ أن يَذبَحَ أُضحيَّتَه؛ فقد حانَ وَقتُ ذَبحِها.

الخُروجُ إلى المصَلَّى للاستِسقاءِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

(١) أخرجه البخاري (٩٨٥) مختصرًا، ومسلم (١٩٦٠) واللفظ له.

وعن عبدِالله بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خرَجَ إلى المصَلَّى فاستَسْقى، فاستَقبَلَ القِبلةَ، وقَلَبَ رِداءَه، وصلَّى رَكْعتينِ))[1].

المُسلِمُ الحَقُّ يَلجَأُ إلى اللهِ تعالى في كلِّ النَّوازلِ والكُرُباتِ؛ فإنَّه سُبحانَهُ هو الذي بيَدِه الغَوثُ وكشْفُ الضُّرِّ، ومِن ذلك طَلَبُ الماءِ عِندَ عَدَمِه أو شَحِّهِ ونَقصِه، **وقد بَيَّنَت الآيةُ الكريمةُ** أنَّ اللهَ تعالى وَحدَه هو الذي يُنزِّلُ الماءَ الذي تَحصُلُ به إعانةُ النَّاسِ وإزالةُ الشِّدَّةِ عنهم، فيُغيثُهم به مِن بَعدِ انقِطاعِ رَجائِهم مِن نُزولِه، ويَنشُرُ اللهُ تعالى رَحمتَه ويَبسُطُها؛ فتَحيا به البِلادُ، ويَنتَفِعُ العِبادُ، فاللهُ تعالى هو وحْدَه الوَليُّ الذي يَتولَّى عِبادَه بإحسانِه وفَضلِه، ويَتصَرَّفُ لهم بما يَنفَعُهم، الحَميدُ على هذه الوَلايةِ، والمُستَحِقُّ للثَّناءِ والشُّكرِ مِن جَميعِ خَلقِه على ما له مِن الكَمالِ، وعلى تَدبيرِه وما أوصَلَه إلى خَلقِه مِن أصنافِ النِّعَمِ، المحمودُ العاقِبةِ في جَميعِ ما يُقَدِّرُه ويَفعَلُه.

وفي هذا الحَديثِ يُخبِرُ عبدُالله بنُ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه: «أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خرَجَ إلى المُصلَّى فاسْتَسْقى»، أي: خرَجَ بالنَّاسِ لِيُصلِّيَ صَلاةَ الاستِسْقاءِ في الخَلاءِ والفَضاءِ، وليسَ في المسجِدِ، وفيها يَطلُبُ المُسلِمونَ أنْ يُنزِلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهمُ المَطَرَ، «فاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ وقَلَبَ رِداءَهُ»: توجَّهَ إلى القِبْلةِ بوَجهِه، وعِندَ ذلِكَ قلَبَ الثِّيابَ؛ بأنْ جعَلَ داخِلَه خارِجَه، «وصلَّى رَكعَتَينِ». وفي رِوايةِ البُخاريِّ: ((جَهَرَ فيهما بالقِراءةِ))[2]، وفي رِوايةٍ عند مُسلِمٍ: (أنَّ عبدَالله بنَ يَزيدَ خرَجَ يَسْتسْقي بالناسِ، فصَلَّى رَكْعَتَينِ، ثمَّ اسْتَسْقى)[3]، ثمَّ جعَلَ يَتضرَّعُ إلى اللهِ بالدُّعاءِ لطَلَبِ المَطَرِ والماءِ.

(١) أخرجه البخاري (١٠١٢) واللفظ له، ومسلم (٨٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٢٤) من حديث عبدِالله بنِ زيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٢٥٤).



صِفةُ صَلاةِ الاستِسقاءِ

عن عَبدِاللهِ بنِ زَيدٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((رَأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ خَرَجَ يَستَسقي، قال: فحَوَّلَ إلى النَّاسِ ظَهرَه، واستَقبَلَ القِبلةَ يَدعو، ثمَّ حَوَّلَ رِداءَه، ثمَّ صلَّى لنا رَكعتَينِ جَهَرَ فيهما بالقِراءةِ))[1].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: شَكَا النَّاسُ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قُحوطَ المَطَرِ، فأمَرَ بمِنبَرٍ فوُضِعَ له في المُصَلَّى، ووَعَدَ الناسَ يَومًا يَخرُجونَ فيه، قالت عائِشةُ: فخَرَجَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حين بَدَا حاجِبُ الشَّمسِ، فقَعَدَ على المِنبَرِ، فكَبَّرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحَمِدَ اللهَ عزَّ وجلَّ، ثمَّ قال: ((إنَّكم شَكَوتُم جَدْبَ دِيارِكم، واستِئخارَ المَطَرِ عن إبَّانِ زَمانِه عنكم، وقد أمَرَكمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أنْ تَدعُوه، ووَعَدَكم أنْ يَستَجيبَ لكم... ثمَّ رَفَعَ يَدَيْه، فلمْ يَزَلْ في الرَّفعِ حتى بَدَا بَياضُ إبْطَيْه، ثمَّ حَوَّلَ إلى النَّاسِ ظَهرَه، وقَلَبَ -أو حَوَّلَ- رِداءَه وهو رافِعٌ يَدَيْه، ثمَّ أقبَلَ على النَّاسِ، ونَزَلَ فصَلَّى رَكعَتَينِ، فأنشَأَ اللهُ سَحابةً، فرَعَدَتْ وبَرَقتْ، ثمَّ أمطَرَتْ بإذْنِ اللهِ، فلم يَأْتِ مَسجِدَه حتى سالَتِ السُّيولُ، فلمَّا رأى سُرعَتَهم إلى الكِنِّ ضَحِكَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتى بَدَتْ نَواجِذُه، فقال: أشهَدُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وأنِّي عَبدُاللهِ ورَسولُه))[2].

سَنَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِأُمَّتِه صَلاةَ الاستِسقاءِ، وهي التي تُصَلَّى طَلَبًا

(١) أخرجه البخاري (١٠٢٥) واللفظ له، ومسلم (٨٩٤).

(٢) رواه أبو داود (١١٧٣)، وابن حِبَّان في ((الصحيح)) (٩٩١)، والحاكم (١/ ٤٧٦).

قال أبو داودَ: غريبٌ، إسنادُه جيِّدٌ. وصحَّحه النوويُّ في ((المجموع)) (٥/ ٦٣)، وابن الملقِّن في ((البدر المنير)) (٥/ ١٥١)، وجوَّد إسنادَه ابنُ حجر في ((بلوغ المرام)) (١٤٣)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١١٧٣)، والوادعيُّ في ((صحيح دلائل النبوة)) (٢٥٠).



لنُزولِ المَطَرِ، عِندَ انقِطاعِ الماءِ وانحِباسِه عنِ العادةِ التي يَنزِلُ فيها، ويُصلِّي فيها الإمامُ والمُصَلُّونَ رَكعَتَينِ بخُضوعٍ للهِ، وتَذلُّلٍ وتَضرُّعٍ.

وفي حَديثِ عَبدِاللهِ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه رأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِندَ خُروجِه يَومًا لِيُصلِّيَ صَلاةَ الاستِسقاءِ، فأدارَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ظَهرَه لِلنَّاسِ لِيَستَقبِلَ القِبلَةَ، وذلك أجمَعُ لِقَلبِ الدَّاعي؛ حيثُ لا يَرَى أحَدًا مِن الناسِ، وأدْعَى إلى حُضورِه وخُشوعِه في الدُّعاءِ، وذلك أقرَبُ إلى إجابتِه، «ثم حَوَّلَ رِداءَه»، أي: بتَغييرِ هَيئتِه التي كان عليها؛ إمَّا بجَعلِ أسفَلِه في أعلاهُ، أو جَعْلِ باطِنِه مَحَلَّ ظاهِرِه، أو يَجعَلُ ما على اليَمينِ على الشِّمالِ، وما على الشِّمالِ على اليَمينِ، ونَحوِ ذلك، وهذا التَّحويلُ قِيلَ: شُرِعَ تَفاؤلًا بتَغيُّرِ الحالِ مِن القحْطِ إلى نُزولِ الغيثِ والخِصبِ، ومِن ضِيقِ الحالِ إلى سَعتِه، ثمَّ صلَّى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَكعَتَينِ جَهَرَ فيهما بالقِراءةِ.

وفي حَديثِ عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها أنَّ الصَّحابةَ على عَهدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شَكَوْا إليه «قُحوطَ المَطَرِ»، أي: عَدَمَ نُزولِه وانحِباسَه، فأمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالمِنبَرِ أنْ يُوضَعَ بالخَلاءِ خارِجَ المَسجِدِ؛ لِيُكلِّمَ عليه الناسَ، ثمَّ حَدَّدَ لهمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَوعِدًا يَخرُجونَ فيه إلى الصَّلاةِ، فخَرَجَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ «حين بَدَا حاجِبُ الشَّمسِ» أيْ: في أوَّلِ طُلوعِ الشَّمسِ مِن مَشرِقِها، فجَلَسَ على المِنبَرِ، ثمَّ كَبَّرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحَمِدَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ، ثمَّ قال: «إنَّكم شَكَوتُم جَدْبَ دِيارِكم» أي: ما أصابَكم في دِيارِكم مِن قَحطٍ، «واستِئخارَ المَطَرِ عن إبَّانِ زَمانِه عنكم» أي: وشَكَوتُم قِلَّةَ الماءِ وتأخُّرَ نُزولِ المَطَرِ عن وَقتِه المُعتادِ، «وقد أمَرَكمُ اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ تَدعُوه، ووَعَدَكم أنْ يَستَجيبَ لكم»، يَقصِدُ قَولَه تَعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ثمَّ جَعَلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستَفتِحُ في خُطبَتِه، ثم رَفَعَ يَدَيْه طَلَبًا للدُّعاءِ، «فلم يَزَلْ في الرَّفعِ حتى بَدَا بَياضُ إبْطَيْه»؛ مِن شِدَّةِ مُبالَغتِه في الرَّفعِ، وإظهارِ التَّذلُّلِ والافتِقارِ للهِ عزَّ وجلَّ، ثمَّ فَعَلَ مِثلَ

الذي في حَديثِ عبدِالله بنِ زَيدٍ رَضيَ اللهُ عنه: أنَّه حَوَّلَ إلى الناسِ ظَهرَه، وقَلَبَ -أو حَوَّلَ- رِداءَه، وهو رافِعٌ يَدَيْه، ثمَّ أدارَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وَجْهَه إلى النَّاسِ، ونَزَلَ عنِ المِنبَرِ، فصَلَّى رَكعَتَينِ، «فأنْشأَ اللهُ سَحابةً»: أوجَدَها وأظهَرَها، «فرَعَدتْ وبَرَقتْ»، بمَعنى: ظَهَرَ بها الرَّعدُ والبَرقُ، ثمَّ أمطَرَتْ بإذنِ اللهِ، فلمْ يَرجِعِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ويَدخُلْ مَسجِدَه «حتى سالَتِ السُّيولُ»، وهذا إشارةٌ إلى سُرعةِ الإجابةِ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ إلى عِبادِه إذا لَجَؤوا إليه في نَوازِلِهم، وهو أيضًا إشارةٌ إلى غَزارةِ المَطَرِ وسُرعَتِه وكَثرةِ جَرَيانِ الماءِ على الأرضِ، فلَمَّا رأى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُرعةَ أصحابِه إلى «الكِنِّ» وهو كُلُّ ما يَحمي مِن المَطَرِ، ضَحِكَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ «حتى بَدَتْ نَواجِذُه» بمَعنى: ضَحِكَ ضَحِكًا ظاهِرًا حتى ظَهَرتْ أسنانُه وأضراسُه، وكان ضَحِكُه تَعجُّبًا مِن طَلَبِهم المطَرَ اضطرارًا، ثمَّ طَلَبِهم الحِمايةَ منه، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «أشهَدُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وأنِّي عَبدُاللهِ ورَسولُه»: أشهَدُ على قُدرةِ اللهِ على كُلِّ شَيءٍ، ومنها إنزالُ المَطَرِ، ثمَّ شَهِدَ لِنَفْسِه بالرِّسالةِ؛ لأنَّ ما أخبَرَ به عنِ اللهِ حَقٌّ، وقدِ استَجابَ اللهُ له.

صِفةُ صَلاةِ الخُسوفِ أو الكُسوفِ

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: خَسَفَت الشَّمسُ في عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فصلَّى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالنَّاسِ، فقام فأطالَ القِيامَ، ثمَّ ركَعَ فأطال الرُّكوعَ، ثمَّ قام فأطالَ القِيامَ، وهو دونَ القيامِ الأوَّلِ، ثمَّ ركَعَ فأطال الرُّكوعَ، وهو دونَ الرُّكوعِ الأوَّلِ، ثمَّ سَجَد فأطال السُّجودَ، ثمَّ فَعَل في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِثلَ ما فَعَل في الأُولى، ثم انصرَفَ وقد انجَلَت الشَّمسُ، فخطَبَ النَّاسَ، فحَمِدَ اللهَ وأثْنى عليه، ثمَّ قال: ((إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ آيتانِ مِن آياتِ اللهِ، لا يَخسِفانِ لمَوتِ أحدٍ ولا لحَياتِه، فإذا رَأيتُم ذلك فادعُوا اللهَ، وكَبِّروا وصَلُّوا وتصَدَّقوا. ثمَّ قال: يا أمَّةَ مُحمَّدٍ،

واللهِ ما مِن أحدٍ أغيرُ مِن اللهِ أنْ يَزنيَ عَبدُه أو تَزنيَ أَمَتُه، يا أُمَّةَ مُحمَّدٍ، واللهِ لو تَعلَمونَ ما أعلَمُ لضَحِكتُم قليلًا ولبَكيتُم كثيرًا))[1].

صَلاةُ الكُسُوفِ أو الخسوفِ مَشروعةٌ في الإسلامِ، وهذا الحَديثُ يُبيِّنُ صِفتَها، وكيف كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُصلِّيها، حيثُ تقولُ أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها: «خَسَفَتِ الشَّمسُ»، وهو انطِماسُ الضَّوءِ وغِيابُه، «في عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فصَلَّى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالنَّاسِ» صَلاةَ الكُسوفِ، «فقامَ فأطالَ القِيامَ»؛ حيثُ قرَأَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نحوًا مِن سُورةِ البَقَرةِ، كما في رِوايةِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما[2]، وذلك بعدَ قراءةِ الفاتحةِ، «ثُمَّ ركَعَ فأطالَ الرُّكوعَ، ثُمَّ قامَ فأطالَ القِيامَ، وهو دونَ القيامِ الأوَّلِ»، فتُشرَعُ قِراءةُ سُورةٍ في هذا القيامِ، أو ما تيسَّرَ مِن القُرآنِ، بعدَ قِراءةِ الفاتحةِ، وتُشرَعُ الإطالةُ في هذا القيامِ أيضًا، على أنْ يكونَ أقَلَّ مِن القيامِ الأوَّلِ، «ثُمَّ ركَعَ فأطالَ الرُّكوعَ، وهو دونَ الرُّكوعِ الأوَّلِ، ثُمَّ سجَدَ فأطالَ السُّجودَ، ثُمَّ فعَلَ في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِثْلَ ما فعَلَ في الأُولى، ثُمَّ انصرَفَ وقدِ انْجَلَتِ الشَّمسُ»، أي: انكشَفَتْ وزالَ خُسوفُها.

قال: «فخطَبَ النَّاسَ، فحمِدَ اللهَ وأثْنى عليه»، ثُمَّ قال: «إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ آيتانِ مِن آياتِ اللهِ، لا يَنخَسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحَياتِه»، وفي هذا ردٌّ لِمَا كان قد تَوَهَّمَهُ بعضُ النَّاسِ مِن أنَّ كُسوفَ الشَّمسِ كان لأجْلِ مَوتِ إبراهيمَ ابنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكان قد مات وكَسَفَتِ الشَّمسُ؛ فبَيَّنَ لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الكُسوفَ لا يكونُ سَببُه موتَ أحدٍ مِن أهْلِ الأرضِ، «فإذا رأيتُمْ ذلك فادْعُوا اللهَ،

(١) أخرجه البخاري (١٠٤٤) واللفظ له، ومسلم (٩٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٧٩)، ومسلم (٩٠٧).



وكبِّروا وصَلُّوا وتَصدَّقُوا»: أمَرَ بدُعاءِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى، وتَكبيرِه، والصَّلاةِ والصَّدقةِ عِندَ رُؤيةِ الكُسوفِ، ثمَّ قال: «يا أُمَّةَ محمَّدٍ»: فيه مَعْنى الإشفاقِ، كما يُخاطِبُ الوالدُ وَلَدَه، «واللهِ، ما مِن أحَدٍ أغْيَرُ مِن اللهِ أنْ يَزنيَ عَبدُهُ أو تَزنيَ أَمَتُه»: فاللهُ سُبحانَه وتعالَى يَغارُ أنْ تُنتهَكَ مَحارِمُه؛ ولذا فظُهورُ هذه الفاحشةِ مُؤذِنٌ بخَطَرٍ عَظيمٍ؛ ومُؤذِنٌ بتَعْجيلِ العُقوبةِ، «يا أُمَّةَ محمَّدٍ، واللهِ لو تَعلَمونَ ما أعلَمُ لَضحِكتُم قَليلًا ولَبَكَيتُم كثيرًا»، والمُرادُ بالعِلمِ هنا ما يَتعلَّقُ بعَظَمةِ اللهِ، وانتقامِهِ ممَّن يَعصِيه، والأهْوالِ التي تَقَعُ عِندَ النَّزْعِ، والمَوتِ، وفي القَبرِ، ويَومَ القيامةِ. ومُناسَبةُ كَثرةِ البُكاءِ وقلَّةِ الضَّحِكِ في هذا المَقامِ واضحةٌ، والمُرادُ به التَّخويفُ.

فبيَّنَ الحَديثُ أنَّ صَلاةَ الكُسوفِ رَكعَتانِ، ولكِنْ على هَيئةٍ مَخصوصةٍ؛ مِن تَطويلٍ زائدٍ على العادةِ في القِيامِ وغيرِه، وزِيادةِ رُكوعٍ في كُلِّ رَكعةٍ، وهذه إحْدى هَيئاتِ صَلاةِ الكُسوفِ الواردةِ التي تعدَّدَتْ عَنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ.



أحكامُ المَساجِدِ

فَضائِلُ المَساجِدِ الثَّلاثةِ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: **((صَلاةٌ في مَسجِدي هذا خَيرٌ مِن ألْفِ صَلاةٍ في غيرِهِ مِن المَساجِدِ، إلَّا المَسجِدَ الحَرامَ))**(١).

وعن عبدِاللهِ بنِ الزُّبَيرِ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: **((صلاةٌ في مَسجِدي هذا أفضَلُ مِن ألفِ صَلاةٍ فيما سِواه إلَّا المسجِدَ الحرامَ، وصَلاةٌ في ذاك أفضَلُ مِن مائةِ صَلاةٍ في هذا))**(٢).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: **((لَا تُشَدُّ**

(١) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (١٦١١٧)، والبزار (٢١٩٦)، وابن حبان (١٦٢٠) واللفظ له.
صحَّحه ابنُ حِبَّان، وابن حزم في ((المحلى)) (٧/ ٢٩٠)، والقرطبي في ((التفسير)) (١٢/ ١٥١)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ١٩)، وابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٤٧١)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٣٨٤١)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٥٦٤) وقال: رجالُه رِجالُ الصَّحيحِ. وحَسَّنه النووي في ((المجموع)) (٧/ ٤٧١)، وابن الملقن في ((شرح البخاري)) (٩/ ٢٢٩).



الرِّحَالُ إلَّا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، ومَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومَسْجِدِ الأقْصَى))[1].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قُلتُ: يا رَسولَ الله، أيُّ مسجِدٍ وُضِعَ في الأرضِ أوَّلُ؟ قالَ: ((المسجدُ الحَرامُ. قال: قلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: المسجِدُ الأقْصَى. قلتُ: كمْ كانَ بينَهما؟ قال: أربعونَ سَنةً، ثُمَّ أيْنَما أدركَتْكَ الصَّلاةُ بعدُ فصَلِّهْ، فإنَّ الفَضْلَ فيه))[2].

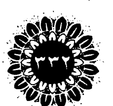


فضَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ بِقاعِ الأرضِ على بَعضٍ، فجَعَلَ المساجِدَ أفضلَ البقاعِ، ومِن بيْنِ المساجِدِ فضَّلَ اللهُ المسجدَ الحرامَ، ومَسجدَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، والمسجدَ الأقصى.

وفي الآيةِ الأولى يُخبِرُ تعالى أنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضِع لجميعِ النَّاسِ مِن أجْلِ عِبادةِ الله فيه، هو البيتُ الحرامُ، الواقعُ في مكَّة المُكرَّمةِ، وهو مَوضِعٌ مُبارَكٌ، فيه برَكاتٌ كثيرةٌ مِن المنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة؛ كالأجورِ المضاعَفة، والأرزاقِ الوفيرةِ، وهو مَنارٌ يَهتدي به جميعُ العالَمين، وتَحصُل فيه أنواعُ الهداياتِ للخَلْقِ أجمعين، ومِن ذلك: أنَّه قِبْلةٌ يَستقبِلُها المسلمونَ في صَلواتِهم، ويَقصِدونَه في حَجِّهم وعُمراتِهم، وفي هذا البيتِ أدِلَّةٌ واضِحةٌ على توحيدِ الله سبحانه وحِكْمتِه وعظمتِه وقُدْرتِه، وغيرِ ذلك مِن صِفاتِه الحُسنَى، وعلاماتٌ على شرفِ هذا البيتِ وعظيمِ فضْلِه، وأنَّه مِن بِناءِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومِن تلك العلاماتِ: المواضِعُ التي قام فيها الخليلُ إبراهيمُ عليه السَّلام لأداءِ مناسكِ الحَجِّ، ومن مَقاماتِه: الحَجرُ الذي قام عليه لاستِكمالِ بِناء

(١) أخرجه البخاري (١١٨٩) واللفظ له، ومسلم (١٣٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٦) واللفظ له، ومسلم (٥٢٠).



الكعبة لَمَّا ارْتفَع بُنيانُها، ومِن آياتِه أيضًا: أنَّ مَن دخَله كان آمنًا ، بمَعزِلٍ عن أنْ ينالَه أحدٌ مِن الناسِ بسُوءٍ على وجهِ العمومِ، وقد فرَض اللهُ على مَن قَدَر من أهل التَّكليفِ قصْدَ البيتِ الحرامِ لأداءِ شعائرِ الحَجِّ.

وفي الآية الثانية: ينزِّهُ اللهُ تبارك وتعالى نَفْسَه عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، فهو الذي سيَّرَ عَبدَه مُحَمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في جُزءٍ مِنَ اللَّيلِ مِن مَسجِدِ مكَّةَ -وهو البَيتُ العَتيقُ- إلى المسجِدِ الأقصى -وهو بيتُ المَقدِسِ- الذي بارَكَ اللهُ تعالى حَولَه بالأنهارِ والأشجارِ والثِّمارِ، وجعَله مَوضِعًا لكثيرٍ مِن الأنبياءِ والأصْفياءِ؟

وقَولُه تعالى: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ يدلُّ على حُصولِ البركةِ فيه بالأَولى؛ لأنَّها إذا حصَلَت حولَه فقد تجاوَزَت ما فيه.

وفي الحديثِ الأوَّل بَيانُ فضْلِ مَسجدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ الصَّلاةَ فيه- كما أخبرَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ- أفضلُ مِنْ ألْفِ صَلاةٍ في غيرِه مِن المساجدِ إلَّا المَسجدَ الحرامَ.

وفي الحديثِ الثَّاني بيانُ أنَّ الصَّلاةَ في المسجدِ الحرامِ أفضلُ مِن مئةِ صَلاةٍ في مَسجدِ النَّبيِّ، وهذا يعني أنَّ الصَّلاةَ في المَسجدِ الحرامِ بمئةِ ألْفِ صَلاةٍ في غيرِه مِن المساجدِ.

وفي الحديثِ الثَّالثِ نهى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن إعمالِ السَّفَرِ إلى بُقعةٍ مِن البِقاعِ إلَّا إلى هذه المساجِدِ الثَّلاثةِ، فالسفرُ إنَّما يكونُ إلى هذه المساجدِ الثلاثةِ؛ للصَّلاةِ فيها، والدعاءِ والذِّكرِ، والقراءةِ والاعتكافِ، وما سِوى هذه المساجدِ لا يُشرَعُ السَّفرُ إليه باتِّفاقِ أهلِ العلمِ.

وفي الحديثِ الرابعِ يسأَلُ أبو ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أيُّ مسجدٍ بُني أوَّلًا للصَّلاةِ؟ فأخبَره أنَّه المسجدُ الحرامُ، ثمَّ سأله أبو ذرٍّ: أيُّ مسجِدٍ

بُني بعدَ المسجِدِ الحرامِ؟ فأخبره النبيُّ أنَّه بُني بعدَه المسجِدُ الأقصَى، ثمَّ سأله أبو ذرٍّ: كم بَين بِنَاء المسجِدِ الحرامِ وبناءِ المسجِدِ الأقصَى؟ فأخبَره أنَّ بينَهما أربعينَ سنةً.

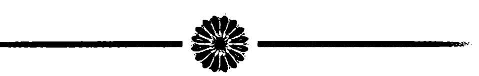
ثمَّ قال له النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «ثُمَّ أَيْنَما أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ بَعْدُ» أي: بعدَ إدراكِ وَقتِ الصَّلاةِ «فَصَلِّهْ؛ فإنَّ الفَضْلَ فِيهِ» أي: فصلِّ؛ فإنَّ الفضلَ في فعلِ الصَّلاةِ إذا حضَر وقتُها.

والحديثُ فيه بيانُ فضلِ المسجدِ الحرامِ؛ حيثُ إنَّه أوَّلُ موضعٍ وُضِع للعبادةِ، وفضلِ المسجدِ الأقصى؛ فهو ثاني مَسجِدٍ وُضِعَ في الأرضِ، كما أنَّه أُولى القِبلتَينِ، ومَسرَى رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

فَضلُ عُمومِ المَساجِدِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ * رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ * لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [النور: ٣٦- ٣٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أَحَبُّ البِلادِ إلى اللهِ مَساجِدُها، وأَبْغَضُ البِلادِ إلى اللهِ أَسْواقُها))[1].



المَساجِدُ بُيوتُ اللهِ؛ فهي خَيرُ البِقاعِ، أذِنَ اللهُ سُبحانَه أنْ تُبنى وتُشيَّدَ، فتُرفَعَ حِسًّا في البناءِ، وتُرفَعَ معنًى بتَعظيمِها وتَطهيرِها وتَنزيهِها عن كلِّ ما لا يَليقُ بها، وأَذِنَ اللهُ أن يُذكَرَ فيها اسمُه وَحدَه لا شَريكَ له، يُسبِّحُ له فيها في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخِره رِجالٌ

(١) أخرجه مسلم (٦٧١).

لا تُلهيهم تِجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ رَبِّهم، ولا عن حُضورِ المساجِدِ لأداءِ الصَّلواتِ بحُدودِها في أوقاتِها، ولا عن أداءِ الزَّكاةِ لِمُستحقِّيها في وقتِها، وهم يَخافونَ يومَ القيامةِ الذي تَضطرِبُ فيه قُلوبُ النَّاسِ وأبصارُهم مِن شِدَّةِ هَولِه وفَزَعِه؛ لِيُثيبَهم اللهُ يومَ القيامةِ بأحسَنِ ما عَمِلوه في الدُّنيا، ويَزيدَهم مِن فَضلِه وكَرَمِه فَوقَ ما يَستَحِقُّونه، **كما في الآية الكريمة.**

والمساجِدُ مَحلُّ نُزولِ رَحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وفضْلِه؛ لذا كانتِ المَساجِدُ أحبَّ البِلادِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ **كما في الحديثِ المذكورِ**؛ لأنَّها بيتُ الطَّاعةِ، ومَخصوصةٌ بالذِّكرِ، فلا أحدَ أظلَمُ مِن رجُلٍ منَعَ مَساجِدَ اللهِ أنْ يُذكَرَ فيها اسمُهُ، أُسِّستْ على تَقْوى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ يُقرَأُ فيها القُرآنُ، ويُنشَرُ فيها العِلمُ، وقد أضافَها اللهُ لنفسِهِ إضافةَ تَشريفٍ وتعظيمٍ، فقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، وكانتِ الأسواقُ أبغَضَ البِلادِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لكَثْرةِ الحَلِفِ الكاذِبِ فيها، والغِشِّ والخِداعِ، والغَفلةِ عن ذكْرِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى، وإخلافِ الوَعدِ، وسُوءِ المُعامَلةِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا في مَعناها؛ فالمُرادُ بمَحبَّةِ المساجِدِ مَحبَّةُ ما يقَعُ فيها مِن الطَّاعاتِ، والمُرادُ ببُغضِ الأسواقِ بُغضُ ما يقَعُ فيها مِن الذُّنوبِ والآثامِ.

فَضلُ كَثرةِ الخُطا إلى المساجِدِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن غَدَا إلى المَسجِدِ وراحَ، أعَدَّ اللَّهُ له نُزلَه مِن الجَنَّةِ كُلَّما غَدَا أوْ راحَ))(١).

وعنه رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ألَا أدُلُّكم على ما يَمحو اللهُ به الخَطايا، ويَرفَعُ به الدَّرَجاتِ؟ قالوا: بلى يا رَسولَ اللهِ. قال: إسباغُ الوُضوءِ على المَكارِهِ، وكَثرةُ الخُطَا إلى المساجِدِ، وانتظارُ الصَّلاةِ بَعدَ الصَّلاةِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢) واللفظ له، ومسلم (٦٦٩).



فذَلِكم الرِّباطُ))[1].



في الحديثِ الأوَّلِ يُرشِدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى فَضلِ الذَّهابِ إلى المساجِدِ لأداءِ صَلاةِ الجماعةِ، والثَّوابِ المُعَدِّ لِمَن اعتادَ الذَّهابَ إليها، فيقولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «مَن غَدَا إلى المسجِدِ وراحَ، أعدَّ اللهُ له نُزُلَهُ مِن الجنَّةِ كلَّما غَدَا أو راحَ»، والغُدُوُّ: هو الوقتُ بيْنَ صَلاةِ الصُّبحِ إلى شُروقِ الشَّمسِ، والرَّواحُ: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى اللَّيلِ، والمقصودُ ليس هذينِ الوَقتَينِ بخُصوصِهِما، وإنَّما المقصودُ المُداومةُ على الذَّهابِ إلى المسجِدِ، والمَعْنى: أنَّ مَنِ اعتادَ الذَّهابَ إلى المساجِدِ فإنَّ اللهَ تعالى يُعِدُّ له مَنزلَه مِن الجنَّةِ كلَّما ذهَبَ إلى المسجِدِ، فيكونُ ذَهابُه سببًا في إعدادِ مَنزلِهِ في الجنَّةِ، وفي هذا حثٌّ على شُهودِ الجماعاتِ، والمواظبةِ على حُضورِ المساجِدِ للصَّلواتِ؛ لأنَّه إذا أعَدَّ اللهُ له نُزُلَه في الجنَّةِ بالغُدُوِّ والرَّواحِ؛ فما الظنُّ بما يُعِدُّ له ويَتفضَّلُ عليه بالصَّلاةِ في الجماعةِ، واحتسابِ أجْرِها والإخلاصِ فيها للهِ تعالى؟!

وفي الحديثِ الثَّاني يُرشِدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أصحابَه وأُمَّتَه إلى الأعْمالِ التي يَغفِرُ اللهُ بها الذُّنوبَ ويَسترُها على عِبادِهِ، وأيضًا تكونُ سببًا في عُلُوِّ المَنزِلةِ في الدُّنيا والآخِرةِ، ومن تِلكَ الأعْمالِ التي أخبَرَ بها صلَّى الله عليه وسلَّمَ: الإكثارُ مِن الذَّهابِ إلى المساجِدِ لإدراكِ الجَماعاتِ؛ وذلك لأنَّ كلَّ خُطوةٍ يَمْشيها صاحِبُها إلى المسجِدِ تَرفَعُه درَجةً، وتحُطُّ عنه بها خَطيئةً، كما في حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((فإنَّ أحَدَكُم إذا تَوضَّأَ فأحسَنَ، وأتى المسجِدَ لا يُريدُ إلَّا الصَّلاةَ، لم يَخطُ خُطوةً إلَّا رفَعَهُ اللهُ بها دَرَجةً، وحطَّ عنه خَطيئةً، حتى يَدخُلَ

(١) أخرجه مسلم (٢٥١).



المسجِدَ))[1].

ومِنَ الأعْمالِ الجليلةِ التي أرشَدَ لها النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: البَقاءُ في المسجِدِ، وانتظارُ الفَريضةِ بَعدَ الفَريضةِ بها، لا يَقطَعُه منها إلَّا الحاجةُ، كأنْ يُصلِّيَ المغربَ في المسجِدِ، ثم يَنتظِرَ ويَبْقى فيه إلى صَلاةِ العِشاءِ، ولا يَخرُجَ منه إلَّا لحاجةٍ، كتَجديدِ الوُضوءِ ونَحوِهِ؛ فأخبَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ انتِظارَ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ بمَنزِلةِ مَنْ يُرابِطُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ويَنالُ أجْرَهُ، والمُرابِطُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى هو الذي يُلازِمُ حُدودَ بِلادِ المُسلِمينَ مع بلادِ الكُفَّارِ لحراسَتِها، وهذا مِن أعظَمِ الأعْمالِ عِندَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فمَنْ صلَّى صَلاةً، ثمَّ جلَسَ يَنتظِرُ أُخرى، وداوَمَ على ذلِكَ؛ فقدِ استغرَقَ عُمُرَهُ بالطاعةِ، وكان ذلك بمَنزلةِ الرِّباطِ في سَبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ. وقيلَ: إنَّ قولَهُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فذلِكُم الرِّباطُ» يعودُ على كُلِّ الأعْمالِ المذكورةِ في الحَديثِ؛ وذلك لأنَّها المُرابَطةُ الحقيقيَّةُ؛ لكَونِها تسُدُّ طُرُقَ الشَّيطانِ على النَّفسِ، وتَقهَرُ الهَوى، وتَمنَعُ النَّفْسَ مِن قَبولِ الوَساوِسِ، فيَغلِبُ بها حِزبُ اللهِ جُنودَ الشَّيْطانِ، وذلِكَ من الجِهادِ؛ فكانتْ بمَنزلةِ الرِّباطِ.

القُدومُ إلى الصَّلاةِ في سَكينةٍ

عن أبي قَتادةَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: بيْنَما نحنُ نُصَلِّي مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فسَمِعَ جَلَبةً، فقال: ((ما شَأنُكم؟ قالوا: اسْتَعجَلْنا إلى الصَّلاةِ، قال: فلا تَفعَلوا، إذا أتَيْتُم الصَّلاة فعَلَيكُم السَّكِينةَ؛ فما أدرَكْتُم فصَلُّوا، وما سَبَقَكم فأتِمُّوا))[2].



الصَّلاةُ التي يُنالُ بها الفَلاحُ في الدُّنيا والآخِرةِ هي التي يَحصُلُ فيها الخُضوعُ

(١) أخرجه مطولاً البخاري (٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (٦٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٥)، ومسلم (٦٠٣) واللفظ له.



والتذَلُّلُ والسُّكونُ مِن العبدِ لرَبِّه سُبحانَه وتعالَى، وهذا يَقْتضي أنْ يَستعِدَّ العبدُ لهذا اللِّقاءِ، ويَتأدَّبَ بِالأدبِ اللَّازِم مع اللهِ سُبحانَه وتعالَى قبلَ الدُّخولِ في صَلاتِه بما يُعِينُ على تَحقيقِ الخُشوعِ فيها، ومِن ذلك تَركُ العَجَلةِ في السَّيرِ إليها، مع المحافَظةِ على السَّكينةِ والوَقارِ، وفي هذا الحَديثِ يقولُ أبو قَتادةَ الأنْصاريُّ رَضِيَ اللهُ عنه: «بيْنَما نحنُ نُصَلِّي مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ»: حَضَرْنا معه صَلاةَ الجماعةِ في المسجِدِ، «فسَمِعَ جَلَبةً»: وهي اختِلاطُ الأصْواتِ إثْرَ استِعْجالٍ وحرَكةٍ، «فقال: ما شَأنُكم؟» بمَعْنى أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لمَّا انتَهَى مِن الصَّلاةِ، سألَ مَنْ أحدَثَ تلكَ الأصْواتَ عنْ أسبابِها، «قالوا: اسْتَعجَلْنا إلى الصَّلَاةِ»: تأخَّروا عنِ الصَّلاةِ، وقد أُقِيمتْ فذَهَبوا إليها مُسرِعينَ حتى يُدرِكوها، فقالَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فلا تَفْعَلوا»: فنَهاهُم أنْ يَأْتوا الصَّلاةَ إلى المسجِدِ على تلك الصُّورةِ، «إذا أتَيْتُم الصَّلاةَ فعَلَيكُم السَّكِينةَ»: إذا جِئتُمْ إلى الصَّلاةِ فحافِظوا على الهُدوءِ أثْناءَ مَشْيِكم إليها، وسِيروا سَيْرًا مُعتادًا حتى وإنْ أُقِيمت الصَّلاةُ، وتَأكَّدَ لكم أنَّ الإمامَ سَبَقَكم بالرُّكوعِ ونَحوِهِ، «فما أدْرَكْتُم فصَلُّوا»: تابِعوا الإمامَ في صَلاتِه وما انتَهَى إليها، «وما سَبَقَكم فأتِمُّوا»: وما فاتَكُمْ مِن الصَّلاةِ مِن رَكَعاتٍ مع الإمامِ فأتِمّوه بعدَ السَّلامِ.

دعاءُ دُخولِ المَسجدِ والخُروجِ منه

عن أبي حُمَيدٍ أو أبي أُسَيدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا دَخَلَ أحَدُكم المَسجِدَ فلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لي أبْوابَ رَحْمَتِك، وإذا خَرَجَ، فلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُك مِن فَضْلِك))[1].



هذا الحَديثُ فيه أدبٌ مِن آدابِ المسجِدِ، وهو الذِّكرُ عِندَ دُخولِ المسجِدِ

(١) أخرجه مسلم (٧١٣).



والخُروجِ منه، أرْشَدَ إليه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقَولِه: «إذا دَخَل أحدُكُم المسجِدَ»، بمَعْنى: أرادَ دُخولَهُ، «فلْيَقُلِ: اللَّهمَّ افتَحْ لي أبوابَ رَحمتِكَ، وإذا خرَجَ فلْيَقُلِ: اللَّهمَّ إنِّي أسْأَلُكَ مِن فَضلِك». وقدْ قِيلَ: إنَّ سِرَّ تَخصيصِ الرَّحمةِ بالدُّخولِ، والفَضْلِ بالخُروجِ: أنَّ الرَّحمةَ في كِتابِ اللهِ أُرِيدَ بها النِّعَمُ المُتَعلِّقةُ بالنَّفْسِ والآخرةِ، كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وأنَّ الفَضلَ أُرِيدَ به النِّعَمُ الدُّنيويَّةُ، كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ومَن دَخَلَ المسجِدَ فإنَّه يَطلُبُ القُرْبَ مِن اللهِ، ويَشتغِلُ بما يُقرِّبُه إلى ثَوابِه وجنَّتِه؛ فناسَبَ ذلك ذِكْرُ الرَّحمةِ، ومَن خَرَجَ منه فإنَّه يَطلُبُ الرِّزقَ، فناسَبَ ذلك ذِكْرُ الفَضْلِ.

تحيةُ المَسجِدِ

عن أَبي قَتادةَ الحارثِ بنِ رِبعيٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا دَخَلَ أحَدُكم المَسجِدَ فلا يَجْلِسْ حتى يُصلِّيَ رَكعتَينِ))[1].

وعن جابرِ بنِ عَبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاءَ رجُلٌ والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَخطُبُ النَّاسَ يومَ الجُمُعَةِ، فقال: أصَلَّيْتَ يا فُلانُ؟ قال: لا، قال: قُمْ فارْكَعْ))[2].

صَلاةُ تحيَّةِ المسجِدِ مِن السُّنَنِ التي أمَرَ بها النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وحثَّ عليها، **وفي حديثِ أبي قَتادةَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه** يَأمُرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) أخرجه البخاري (١١٦٧) واللفظ له، ومسلم (٧١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٩٣٠) واللفظ له، ومسلم (٨٧٥).



كلَّ مَن دخَلَ المسجِدَ بصَلاةِ رَكعتَينِ؛ تَحيةَ المسجِدِ، وذلِكَ لِمَن أرادَ المُكوثَ في المسجِدِ، سواءٌ كانَ لانتظارِ الصلاةِ، أو للجلوسِ فيه، وعليه أنْ يُصلِّيَ تِلك الرَّكعتَينِ فورَ دُخولِه المسجِدَ؛ فلا يَجلِسْ حتى يَأتيَ بهما، وذلك لِمَن كان عِندَه سَعةٌ مِن الوَقتِ بيْنَ دُخولِه وبيْنَ وقتِ الإقامةِ للفَريضةِ، وإلَّا فإنَّ الدُّخولَ في الفَريضةِ أو أداءِ النافلةِ الراتبةِ وغيرِها يُغني عن هاتَينِ الرَّكعتَينِ.

وفي حَديثِ جابرِ بنِ عَبدِالله رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّه جاءَ رجُلٌ فدخَلَ المسجِدَ وجلَسَ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَخطُبُ النَّاسَ يومَ الجُمُعةِ، وكان دُخولُ الرَّجُلِ للمسجِدِ مُتأخِّرًا، وبعدَ صُعودِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المِنبَرَ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للرَّجُلِ لَمَّا رآهُ جلَسَ مِن غيرِ أنْ يُصلِّيَ: «أصلَّيْتَ يا فُلانُ؟» ويَقصِدُ بالصَّلاةِ: رَكعتَيِ تحيَّةِ المسجِدِ، «قال: لا، قالَ: قُمْ فارْكَعْ» فأمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقومَ ويُصلِّيَ الرَّكعَتَينِ تَحيةَ المسجِدِ، وقد جاءَ في صَحيحِ مُسلِمٍ: ((فارْكَعْ رَكعَتَينِ، وتَجوَّزْ فيهما))[1]، فأمَرَه بالتَّجوُّزِ فيهما؛ وذلِك بأنْ يُصلِّيَهما خَفيفَتينِ؛ حتى يَفرُغَ منهما ويَستمِعَ للخُطبةِ، وهذا يدُلُّ على أهميَّةِ هاتَينِ الرَّكعَتَينِ؛ حيثُ أمَرَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بِهما حالَ الخُطبةِ.

فَضْلُ انتِظارِ الصَّلاةِ

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((المَلائكَةُ تُصَلِّي على أحَدِكُم ما دامَ في مُصَلَّاه، ما لَمْ يُحْدِثْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ له، اللَّهُمَّ ارْحَمْه، لا يَزالُ أحَدُكم في صَلاةٍ ما دامَتِ الصَّلاةُ تَحبِسُه؛ لا يَمْنَعُه أنْ يَنقَلِبَ إلى أهْلِه إلَّا الصَّلاةُ))[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٩) واللفظ له، ومسلم (٦٤٩).



تَعلُّقُ القَلبِ بالصَّلاةِ وانتظارُها دَليلٌ على صِدقِ الإيمانِ باللهِ، وطَريقٌ لنَيلِ الأجرِ العظيمِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي هذا الحديثِ يُبيِّنُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فضْلَ انتظارِ الصلاةِ في المساجدِ، فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الملائكةَ تَستغفِرُ للعبدِالمؤمنِ ما دامَ في مكانِه الذي صلَّى فيه، أو المكانِ المُعدِّ للصَّلاةِ، فيَدخُلُ في هذا المعنى المُصلُّون والمنتَظِرونَ للصلاةِ، ويَشمَلُ هذا الأجرُ المرأةَ لو صلَّت فِي مَسجدِ بيْتِها وجَلَسَتْ فِيهِ تَنتظِرُ الصلاةَ إذا كان يحبِسُها عَن قيامِها لأشغالِها انتظارُ الصلاةِ. وهذا الثَّوابُ مَشروطٌ بألَّا يُحدِثَ المُنتظِرُ حَدَثًا، قيل: يعني ما لم يَعصِ؛ بأنْ يؤذِيَ أحدًا بغِيبةٍ، أو سِبابٍ، أو نحوِه، فيَشمَلُ الحَدَثُ الحَدَثَ باللِّسانِ مِن الكلامِ الفاحِشِ ونَحْوِه، والحَدَثَ بالأفعالِ التي لا تَجوزُ. وقِيلَ: بألَّا يُحدِثَ حَدَثًا يَنقُضُ الوضوءَ. وقيل: إنَّه يَشمَلُ الحدَثَينِ.

وذكَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الملائكةَ تقولُ في استغفارِها للعبدِ: «اللَّهمَّ اغفِرْ له، اللَّهمَّ ارحَمْه». وبيَّن صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أجرًا آخَرَ لمَن جَلَسَ يَنتظِرُ الصلاةَ؛ فذكَرَ أنَّ له أجْرَ المصلِّي وثَوابَه طِيلةَ الفترةِ التي تَحبِسُه فيها الصَّلاةُ، ما دام لا يَمنَعُه مِن الرَّواحِ إلى أهلِه إلَّا الصَّلاةُ، ومُقْتضاه أنَّه إذا صَرَفَ نيَّته عن ذلك صارفٌ آخرُ انقطعَ عنْه الثَّوابُ المذكورُ، وكذا إذا شارَكَ نيَّةَ الانتظارِ أمْرٌ آخَرُ.

النَّهيُ عن السُّؤالِ عن الضالَّةِ في المسجِدِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((مَن سَمِعَ رجُلًا يَنشُدُ ضالَّةً في المَسجِدِ فلْيَقُلْ: لا رَدَّها اللهُ عَلَيكَ؛ فإنَّ المَساجِدَ لمْ تُبْنَ لهذا))[1].

(١) أخرجه مسلم (٥٦٨).

المساجِدُ هِيَ بُيوتُ اللهِ في الأرضِ، ومِن مقاصِدِ بِنائِها إقامةُ ذِكْرِ اللهِ وعِبادتُه فيها، ولم تُجعَلْ لأُمورِ الدُّنيا، كطَلَبِ ما ضاعَ وفُقِدَ ونحْوِ ذلك، وفي هذا الحَديثِ يَقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «مَن سَمِعَ رجُلًا يَنشُدُ ضالَّةً»، والضَّالَّةُ: كُلُّ ما فُقِدَ أو ضاعَ؛ مِن حيَوانٍ أو مَتاعٍ، أو مالٍ وغيرِ ذلك، ونِشْدانُ الضَّالَّةِ هو طلَبُها والاسترشادُ عنها، والإعلامُ عَن ضَياعِها في المساجِدِ، فيَقولُ مَن سَمِعَه -سواءٌ كان داخِلَ المسجِدِ أو خارِجَه-: «لا رَدَّها اللهُ عليك»، ومَعْناهُ: لا رَدَّ اللهُ الضالَّةَ إليك ولا وَجدتَها، ودَلَّ هذا على أنَّ المطلوبَ لمَنْ سَمِعَ النَّاشدَ عنِ الضالَّةِ في المسجِدِ أنْ يَدعُوَ عليه بألَّا يَلْقاها؛ وفي ذلك زَجْرٌ لِمَن يَقصِدُ بالمساجِدِ مِثلَ هذا، ثم قالَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فإنَّ المساجِدَ لم تُبْنَ لهذا»، أي: لطَلَبِ ما ضاع والسُّؤالِ عنه ونَحوِ ذلك مِن أُمورِ الدُّنيا، كالبَيعِ والشِّراءِ؛ حيثُ إنَّ المساجِدَ بُنِيَتْ لذِكْرِ اللهِ، ولتَعلُّمِ العِلمِ، ولقِراءةِ القُرآنِ، وللصَّلاةِ، وعِبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

حكمُ الخُروجِ مِن المَسجِدِ بعدَ الأذانِ

عنْ أبي الشَّعْثاءِ، قال: كُنَّا قُعودًا في المَسجِدِ مع أبي هُرَيرةَ، فأذَّنَ المُؤذِّنُ، فقام رجُلٌ مِن المَسجِدِ يَمْشي، فأتْبَعَه أبو هُرَيرةَ بصَرَهُ حتى خرَجَ مِن المَسجِدِ، فقال أبو هُرَيرةَ: ((أمَّا هذا فقَدْ عَصَى أبا القاسِمِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ))(١).



الإعراضُ عن الصَّلاةِ أو الخُروجُ مِن المسجِدِ عِندَ الأذانِ للصَّلاة بلا عُذْرٍ: فيه مُخالَفةٌ لهَدْيِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، كما في هذا الحَديثِ، حيثُ يقولُ التَّابعيُّ أبو الشَّعْثاءِ: «كنَّا قُعودًا في المسجِدِ مع أبي هُرَيرةَ، فأذَّنَ المؤذِّنُ»: حضَرَهُم وَقتٌ مِن أوْقاتِ الفَريضةِ وهُمْ بالمسجِدِ، «فقامَ رَجُلٌ مِن المسجِدِ يَمْشي»: خرَجَ من المسجِدِ

(١) أخرجه مسلم (٦٥٥).



بعدَ سماعِهِ الأذانَ، «فأَتْبَعَه أبو هُرَيرةَ بصَرَه حتى خرَجَ مِن المسجِدِ»: كأنَّه يُريدُ أنْ يَتأكَّدَ أنَّ الرَّجُلَ خارِجٌ فِعلًا، أو ظنًّا أنَّه ذاهِبٌ لجهةٍ أُخرى مِن المسجِدِ، فلمَّا تأكَّدَ أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه مِن خُروجِهِ قال: «أمَّا هذا فقد عَصَى أبا القاسِمِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ»؛ لخُروجِهِ مِن المسجِدِ بعدَ الأذانِ، وقَولُه هذا دَليلٌ على أنَّه سَمِعَ النَّهيَ عنِ الخُروجِ حتى تُؤدَّى الصَّلاةُ المَكْتوبةُ مِن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فمِثلُ هذا لا يكونُ رأيًا، وإنَّما يكونُ تَوقيفًا، ويُستثنَى مِن ذلك الخُروجُ لعُذرٍ.

حكمُ بناءِ المساجِدِ على القُبورِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: أنَّ أُمَّ حَبِيبةَ وأُمَّ سَلَمةَ ذَكَرَتَا كَنيسةً رَأَينَها بالحَبَشةِ فيها تَصاويرُ، فذَكَرَتَا للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقال: ((إنَّ أُولئك إذا كان فيهمُ الرَّجُلُ الصَّالحُ فماتَ، بَنَوْا على قَبْرِه مَسجِدًا، وصَوَّروا فيه تلك الصُّوَرَ، فأولئك شِرارُ الخَلْقِ عِندَ اللَّهِ يومَ القِيامةِ))(١).



جَميعُ المساجِدِ للهِ تَعالى وَحْدَه؛ فلا يَنْبغي أبدًا أنْ يُشرَكَ فيها معه أحدٌ مِن خَلْقِه، **كما دلَّت على ذلك الآيةُ الكريمةُ المذكورةُ**، ومِن دِينِ اللهِ تَعظيمُ بُيوتِه، وأمَّا بِناءُ المساجِدِ على القبورِ التي تُسَمَّى «المشاهِدَ» أو غيرَها، وتَعظيمُ قُبورِ الصَّالِحينَ؛ فهو مُنافٍ للمَقصَدِ الشَّرعيِّ لبِناءِ المساجِدِ، وذَريعةٌ إلى الشِّركِ.

وفي هذا الحَديثِ تُخبِرُ عائِشةُ رَضِيَ اللهُ عنها: «أنَّ أُمَّ حَبِيبةَ وأُمَّ سَلَمةَ» وهُما مِن أزْواجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، «ذَكَرَتَا كَنيسةً» وهي مُتعبَّدُ النَّصارى، «رَأَيْنَها

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧) واللفظ له، ومسلم (٥٢٨).

بالحَبَشةِ» وكان المُسلِمونَ لَمَّا اشتدَّ بهم إيذاءُ المُشركينَ بمكَّةَ في أوَّلِ الإسلامِ، أمَرَهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالهِجْرةِ إلى أرضِ الحَبَشةِ، فكانتْ أوَّلَ هِجْرةٍ في الإسلامِ، رَأَتا كَنيسةً «فِيها تَصاوِيرُ»، بمَعْنى: كان بالكَنيسةِ صُوَرٌ وتَماثيلُ، فأخبَرَتْ أُمُّ حَبيبةَ وأُمُّ سَلَمةَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك، فقال: «إنَّ أولئك»، يَقصِدُ اليَهودَ والنَّصارى وأمثالَهم، «إذا كان فِيهمُ الرَّجُلُ الصَّالحُ فماتَ، بَنَوْا على قَبْرِه مَسجِدًا»، ويُرادُ بالمسجِدِ هنا: المَعبَدُ، «وصَوَّرُوا فيه تلك الصُّوَرَ»؛ ظنًّا منهم أنَّ ذلك مِن القُرْبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، «فأولئك شِرارُ الخَلْقِ عِندَ اللَّهِ يَومَ القِيامةِ»؛ وخُصَّ يومُ القيامةِ؛ لأنَّ مَن كان شرَّ النَّاسِ فيه كان أشدَّهُم عَذابًا. قِيلَ: وإنَّما صوَّروا تلك الصُّوَرَ؛ لِيَتأنَّسوا برُؤيتِها، ويَتذكَّروا أفعالَ أصْحابِها الصَّالحةَ، فيَجتَهِدوا كاجتِهادِهِم، ويَعبُدوا اللهَ عِندَ قُبورِهِم، فلمَّا تَعاقَبَتْ عليها الأجيالُ جَهِلوا مُرادَهُم، ووَسْوَسَ لهم الشَّيطانُ أنَّ أسْلافَهُم كانوا يَعبُدونَ هذه الصُّوَرَ، ويُعظِّمُونها، فعَبَدوها؛ فحذَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مِثلِ ذلِكَ؛ سدًّا للذَّريعةِ المُؤدِّيةِ إليه، وكان ذلِكَ آخِرَ حياتِه وفي مَرَضِ مَوتِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فهو مِن الأُمورِ المُحكَمةِ التي لم تُنسَخْ.

التحدُّثُ في أُمورِ الدُّنيا في المَسجِدِ

عن سِماكِ بنِ حَرْبٍ قال: قُلتُ لِجابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنْه: ((أكُنْتَ تُجالِسُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؟ قال: نَعَمْ كَثيرًا، كان لا يَقومُ مِن مُصلَّاهُ الذي يُصَلِّي فيه الصُّبْحَ -أوِ الغَداةَ- حتى تَطلُعَ الشَّمْسُ، فإذا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قام، وكانوا يَتحَدَّثُون فيَأْخُذونَ في أمْرِ الجاهِليَّةِ، فيَضْحَكونَ ويَتبَسَّمُ))[1].



في هذا الحَديثِ يَرْوي التَّابعيُّ سِماكُ بنُ حَربٍ أنَّه سألَ الصَّحابيَّ الجليلَ جابرَ

(١) أخرجه مسلم (٦٧٠).

بنَ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنْه عن أحْوالِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكيْفَ كان؛ قائلًا: «أكُنْتَ تُجالِسُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؟» فأجابَهُ جابرٌ رَضِيَ اللهُ عنه بقَولِه: «نَعَمْ كَثيرًا»، ثم فصَّلَ له بَعضَ ما كان يَرى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُداوِمُ عليه، فقال: «كان لا يَقومُ مِن مُصلَّاهُ الذي يُصَلِّي فيه الصُّبْحَ أوِ الغَدَاةَ»، وهي صَلاةُ الفَجرِ، «حتَّى تَطلُعَ الشَّمْسُ»، يَعْني: أنَّه يظَلُّ جالِسًا في مَجلِسِه الذي صلَّى فيه بأصحابِه يَذكُرُ ويَدْعو اللهَ ويَستأنِسُ به أصحابُه مِن حَولِه، «فإذا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قام» تَنْتهي تلك الجلسةُ وزمَنُها مع تَمامِ ظُهورِ الشَّمسِ في السَّماءِ، وهذه مِن الأُمورِ المُستحبَّةِ التي كان السَّلَفُ وأهْلُ العِلْمِ يَلتزِمُونها، وكانوا يَقتَصِرونَ في ذلك الوَقتِ على الذِّكرِ والدُّعاءِ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ.

ثم حكَى جابرٌ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عنهم «كانوا يَتحَدَّثُون» أمامَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، «فيَأْخُذونَ في أمْرِ الجاهِليَّةِ»، والجاهليَّةُ: فَتْرةُ ما قَبلَ الإسلامِ؛ سُمُّوا بِه لكَثرةِ جَهالاتِهم، وكانوا يَتحدَّثونَ في أمْرِها؛ إمَّا على سَبيلِ المَذَمَّةِ، أو بطَريقِ الحِكايَةِ لِمَا فيها مِن فائدةٍ وغَيرِها، حتى يُثيرَ ذلك ابتِسامَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ «فيَضْحَكون ويَتبَسَّمُ» النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهذا مِن جَميلِ شَمائِلِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وحُسنِ عِشْرتِه لأصحابِه، وكذلك فيه دَليلٌ على جَوازِ التحدُّثِ بالكلامِ المباحِ في المسجدِ وبأمورِ الدُّنيا وغيرِها، وإن حصَل فيه ضحِكٌ ونحوُه ما دام مباحًا.

حكمُ إتيانِ المساجدِ لمَن أكَل البصلَ والثومَ ونحوَهما

عن جابرِ بنِ عَبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن أكَلَ ثُومًا أوْ بَصَلًا فلْيَعتزِلْنا، أوْ لِيَعْتزِلْ مَسجِدَنا، ولْيَقعُدْ في بَيتِه. وإنَّه أُتِيَ بقِدْرٍ فيه خَضِراتٌ مِن بُقولٍ، فوجَدَ لها رِيحًا، فسَألَ فأُخبِرَ بما فيها مِن البُقولِ، فقال: قَرِّبوها،



إلى بَعضِ أصْحابِه، فلمَّا رآهُ كَرِهَ أكْلَها، قال: كُلْ؛ فإنِّي أُناجي مَن لا تُناجي))[1].

المساجِدُ بُيوتُ اللهِ تعالَى، وهي أشرَفُ البِقاعِ؛ فيها يُذكَرُ اسمُ اللهِ وتُقامُ الصَّلاةُ، ويَجتَمِعُ المسلمونَ، ولها آدابٌ يَنْبغي مُراعاتُها، ومِن ذلك عدَمُ أذِيَّةِ المُسلِمينَ بأيِّ نَوعٍ مِن الأذى، كأذِيَّتِهم بالرَّائِحةِ الكَريهةِ، وفي هذا الحَديثِ يَقولُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُشيرًا إلى ذلك: «مَن أكَلَ ثُومًا أوْ بَصَلًا فلْيَعتَزِلْنا»، أي: فلا يَحضُرْ عِندَنا ولا يُصَلِّ معنا، «أوْ لِيَعتَزِلْ مَسجِدَنا»، ويَحتمِلُ العُمومَ حتى وإنْ خَلا المسجِدُ مِن النَّاسِ، فلا يَخلو عنِ الملائكةِ، وهي تَتأذَّى ممَّا يَتأذَّى منه بنو آدَمَ، فلا يُؤذيها، ويَتأكَّدُ ذلك بما جاءَ في نَفسِ الحَديثِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَأكُلْ منها، وقال: «أُناجِي مَن لا تُناجِي»، ثم قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «ولْيَقعُدْ في بَيتِه» تَأْكيدًا لِمَا قبلَهُ على وَجهِ المُبالغةِ؛ حتى لا يَتأذَّى بِرائحتِه غيرُه، والمُرادُ بالثُّومِ والبَصَلِ: النِّيْءُ منهما؛ لِمَا يَنبعِثُ بسَببِهما مِن رائحةٍ كَريهةٍ، ويَدخُلُ فيه كلُّ ذي رائحةٍ كَريهةٍ كالدخانِ؛ لعُمومِ العِلَّةِ، وفي هذا حثٌّ مِن الإسلامِ على الاهتِمامِ بالنَّظافةِ والرَّوائحِ الطَّيِّبةِ.

ثُمَّ قال جابِرُ بنُ عَبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما: «وإنَّه أُتِيَ بقِدْرٍ فيه خَضِراتٌ مِن بُقولٍ»، أي: لِيَأكُلَها، والبُقولُ جَمعُ بَقْلةٍ، وهي كُلُّ نباتٍ عُشْبيٍّ يَتغذَّى به الإنسانُ، أو كلُّ نَباتٍ اخضَرَّت به الأرضُ، «فوَجَدَ لها رِيحًا»، أي: كَريهةً، «فسَألَ، فأُخْبِرَ بما فيها مِن البُقولِ»، فقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «قَرِّبُوها، إلى بَعْضِ أصْحابِه»؛ لبَيانِ حِلِّ أكْلِها، «فلمَّا رآهُ كَرِهَ أكْلَها»، وكأنَّه كَرِهَ بعضُهُم طَعامَها؛ لكَراهةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لها، فبيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لهم سببَ امتناعِهِ، وقال: «كُلْ؛ فإنِّي أُناجِي مَن لا تُناجِي»، يَقصِدُ بذلِكَ الملائكةَ والوَحْيَ، وأنَّهم يَأْتونَهُ كلَّ حِينٍ، وهم يَتأذَّونَ منه.

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٩)، ومسلم (٥٦٤) واللفظ له.



حُضورُ الصِّبيانِ إلى المساجِدِ

عن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنِّي لَأقومُ في الصَّلاةِ أُريدُ أنْ أُطوِّلَ فيها، فأسمَعُ بُكاءَ الصَّبيِّ، فأتجوَّزُ في صلاتي؛ كَراهيةَ أنْ أشُقَّ على أُمِّه))[1].

الحُضورُ إلى المَسجِدِ والجَماعاتِ مَشروعٌ لجَميعِ المسلِمينَ؛ ذُكورِهم وإناثِهم، كَبيرِهم وصَغيرِهم، وقدْ كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يَنهَى عنْ حُضورِ الصِّبيانِ والصِّغارِ إلى المساجِدِ؛ حِرصًا منه على تَحبيبِهم في الطاعةِ، وتَعويدِهم عليها مُنذُ صِغَرِهم، وأيضًا كان يُراعي الصِّبيانَ وأُمَّهاتِهم إذا حضُروا الصَّلاةَ في المَسجِدِ، كما في هذا الحَديثِ الذي فيه بَيانُ جانبٍ مِن جَوانِبِ رَحمتِه وشَفقتِه بالصِّغارِ وأُمَّهاتِهم إذا حضَروا إلى المساجِدِ والجماعاتِ، وفيه يُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه رُبَّما كان يقومُ إلى الصَّلاةِ وهو قاصِدٌ ومُريدٌ لإطالتِها وإتْمامِها وإكمالِها على الوَجهِ المُعتادِ، وليس المرادُ الإطالةَ المبالَغَ فيها، وهي التي نهَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأئمَّةَ عنها؛ فإذا سَمِعَ بُكاءَ صَبيٍّ مِن الصِّبيانِ معَ أُمِّه التي تُصلِّي في الجَماعةِ، خفَّفَ صَلاتَه ولَمْ يُطِلْ فيها بالقِراءةِ وغيرِها؛ رَحمةً بأُمِّه بسَببِ بُكاءِ طِفلِها؛ لأنَّها تَنشَغِلُ به عنِ الصَّلاةِ؛ ففيه أنَّه يَنْبغي للأئمَّةِ مُراعاةُ أحوالِ المأمومينَ جميعًا، والْتزامُ هدْيِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ذلك.

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧). وأخرجه مسلم (٤٧٠) بنحوه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.



التطَوعُ

أداءُ النَّوافِلِ في البُيوتِ

عن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((اجْعَلُوا مِن صَلاتِكم في بُيوتِكُم، ولا تَتَّخِذُوها قُبورًا))[1].

وعن جابرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا قَضَى أحَدُكم الصَّلاةَ في مَسجِدِه، فلْيَجْعَلْ لِبَيتِه نَصِيبًا مِن صَلاتِه؛ فإنَّ اللَّهَ جاعِلٌ في بَيتِه مِن صَلاتِه خَيرًا))[2].



حثَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النَّاسَ وأرشَدَهُم إلى أداءِ النَّوافِلِ والسُّنَنِ في البُيوتِ؛ لِيَعُمَّها الخَيرُ والبَرَكةُ والثَّوابُ، ولِيَكونَ أبعَدَ عن الرِّياءِ، **كما في حَديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما**، وفيه يَقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «اجْعَلُوا مِن صَلاتِكم في بُيوتِكم»، والمُرادُ بالصَّلاةِ في البُيوتِ: النَّوافِلُ والسُّنَنُ؛ لأنَّ الفريضةَ تكونُ في المسجِدِ ومع الجماعةِ، وقولُه: «ولا تَتَّخِذُوها قُبورًا»، أي: لا تَجعَلوها شَبيهةً بالمَقابِرِ التي ليستْ أماكِنَ للصَّلاةِ، والتي مُنِعَت الصَّلاةُ فيها، بلِ الصَّلاةُ في البُيوتِ مَطلوبةٌ ومُرغَّبٌ فيها، وهي أفضَلُ مِن الصَّلاةِ في المساجِدِ بالنِّسبةِ للنَّوافلِ.

وفي حَديثِ جابِرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، بعدَ أنْ أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بصَلاةِ النَّافلةِ في البَيتِ، قالَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فإنَّ اللَّهَ جاعِلٌ في بَيتِه مِن صَلاتِه خَيرًا»، بمَعْنى أنَّ ذلك يَرجِعُ على أهْلِهِ ووَلَدِه بالبَرَكةِ في الأرزاقِ والأعْمارِ، وزِيادَةٍ في

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٨).

الهُدَى والتُّقى، وعِمارةِ البَيتِ بالذِّكْرِ والطَّاعةِ، ونُزولِ المَلائكةِ للدُّعاءِ لأهْلِ البَيتِ والاستِغفارِ لهُم.

فَضلُ السُّنَنِ الرَّاتِبةِ

عن أمِّ حَبيبةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((مَن صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرةَ رَكْعةً في يَومٍ ولَيلةٍ بُنِيَ له بِهنَّ بَيتٌ في الجَنَّةِ. قالتْ أُمُّ حَبيبةَ: فما تَرَكْتُهنَّ منذُ سَمِعتُهنَّ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ))[1].



هذا الحَديثُ يَتعلَّقُ بالسُّننِ الرَّواتبِ التي كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُواظِبُ عليها، وهذه السُّنَنُ الرَّواتبُ بعضُها يكونُ قبْلَ الفَريضةِ، وبعضُها بعدَ الفَريضةِ، فيَقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «مَن صَلَّى اثْنتَيْ عَشْرةَ رَكْعةً في يَومٍ ولَيلةٍ»، وهذه الرَّكَعاتِ هي: أربَعٌ قبْلَ الظُّهرِ، ورَكعَتانِ بعدَها، ورَكعَتانِ بعدَ المغربِ، ورَكعَتانِ بعدَ العِشاءِ، ورَكعَتانِ قَبلَ الفَجرِ، «بُنِيَ له بِهنَّ بَيتٌ في الجَنَّةِ»: كان الجزاءُ والأجْرُ لِمَن حافَظَ عليهِنَّ أنْ يَجعَلَ اللهُ له بيتًا في الجنَّةِ. قِيلَ: وفي تَقْديمِ السُّننِ وتأخيرِها عنِ الفرائِضِ معنًى لطيفٌ، أمَّا في التَّقديمِ؛ فلأنَّ الإنسانَ يَشتغِلُ بأُمورِ الدُّنيا وأسبابِها، فتَتكيَّفُ النَّفْسُ مِن ذلك بحالةٍ بعيدةٍ عن حُضورِ القَلْبِ في العبادةِ، والخُشوعِ فيها الذي هو رُوحُها، فإذا قُدِّمت السُّنَنُ على الفريضةِ تأَنَّسَتِ النَّفْسُ بالعبادةِ، وتكيَّفَتْ بحالةٍ تُقرِّبُ مِن الخُشوعِ، فيَدخُلُ في الفرائضِ على حالةٍ حَسَنةٍ لم تكُنْ تَحصُلُ له لو لم تُقدَّمِ السُّنَّةُ؛ فإنَّ النَّفسَ مَجبولةٌ على التكيُّفِ بما هي فيه، لاسيَّما إذا كثُرَ أو طالَ، ووُرودُ الحالةِ المنافيةِ لِما قبْلَها قد يَمْحو أثَرَ الحالةِ السَّابقةِ أو يُضعِفُهُ، وأمَّا السُّنَنُ المتأخِّرةُ؛ فلِما ورَدَ أنَّ النَّوافلَ جابرةٌ لنُقصانِ الفرائضِ، فإذا وقَعَ الفَرْضُ ناسَبَ أنْ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٨).



يكونَ بعدَهُ ما يَجبرُ خَلَلًا فيه إنْ وقَعَ.

استحبابُ رَكعتَينِ بعدَ الوُضوءِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال لبِلالٍ عِندَ صَلاةِ الفَجْرِ: ((يا بِلالُ، حَدِّثْني بأرْجَى عمَلٍ عَمِلْتَه في الإسلامِ؛ فإنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعلَيكَ بيْنَ يَدَيَّ في الجَنَّةِ! قال: ما عَمِلْتُ عمَلًا أرْجَى عِندي: أنِّي لمْ أَتطَهَّرْ طُهورًا في ساعةِ لَيلٍ أو نَهارٍ، إلَّا صَلَّيْتُ بذلك الطُّهورِ ما كُتِبَ لي أنْ أُصَلِّيَ))(١).

وعن حُمْرانَ مَولى عُثمانَ: أنَّ عُثْمانَ بنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عنْه دَعا بوَضوءٍ فتَوضَّأَ؛ فغسَلَ كَفَّيه ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ مَضْمَضَ واسْتَنثَرَ، ثُمَّ غسَلَ وجْهَه ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثمَّ غسَلَ يدَهُ اليُمنى إلى المِرْفَقِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثمَّ غَسَلَ يَدَه اليُسرى مِثلَ ذلك، ثمَّ مَسَحَ رَأْسَه، ثمَّ غَسَلَ رِجْلَه اليُمنى إلى الكَعْبَينِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ اليُسرى مِثلَ ذلك. ثمَّ قال: رَأَيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَوَضَّأَ نحْوَ وُضوئي هذا، ثمَّ قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن تَوضَّأَ نحْوَ وُضوئي هذا، ثُمَّ قام فرَكَعَ رَكْعَتَينِ لا يُحَدِّثُ فيهما نَفْسَه؛ غُفِرَ له ما تَقدَّمَ مِن ذَنْبِه))(٢).



في حَديثِ أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه بَيانٌ لفضيلةِ الرَّكعَتَينِ بعدَ الوُضوءِ، وبَيانٌ لِفَضلِ بِلالٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ وذلِكَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سأَلَ بِلالًا عن أَرجَى عَمَلٍ عمِلَه مُنذُ إسلامِه، أي: عن أكثرِ عمَلٍ كان يَرْجو به ثَوابَ اللهِ تعالَى، ثمَّ بيَّنَ له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سببَ سُؤالِهِ ذلك، بأنَّه سمِعَ دَفَّ نَعلَيهِ بيْنَ يَدَيهِ في الجنَّةِ، أيْ: سمِعَ صَوتَ مَشيِهِ بنَعلَيهِ في الجنَّةِ، والدَّفُّ مَعْناهُ: الحرَكةُ، وقولُه: «عِندَ صَلاةِ

(١) أخرجه البخاري (١١٤٩) واللفظ له، ومسلم (٢٤٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٤)، ومسلم (٢٢٦) واللفظُ له.

الفَجْرِ» فيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك وقَعَ في المَنامِ؛ لأنَّ عادتَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه كان يُعبِّرَ ما رآهُ ويُعبِّرُ ما رآهُ أصحابُه بعْدَ صَلاةِ الفجْرِ، وهذه شَهادةٌ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لبلالٍ رَضِيَ اللهُ عنه بأنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ، فأجابَ بلالٌ رَضِيَ اللهُ عنه النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وبيَّنَ له هذا العمَلَ؛ بأنَّه كان لا يَتطهَّرُ طُهورًا -سواءٌ كانَ وُضوءًا أو غُسلًا- في أيِّ وقتٍ مِن لَيلٍ أو نَهارٍ، إلَّا صلَّى بذلك الطُّهورِ ما استطاعَ أنْ يُصلِّيَه، فبلَغَ به هذا العملُ المَبلَغَ الذي ذكَرَهُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

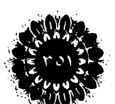
وفي حَديثِ عُثمانَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه توضَّأ ثمَّ قال: «رَأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَوضَّأَ نحْوَ وُضوئِي هذا»، إشارةٌ منه إلى تَحرِّيهِ مُطابَقةَ وُضوئِه لِوُضُوءِ رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، معَ الإتْمامِ والكَمالِ، وإعْطاءِ كلِّ عُضوٍ حَقَّه مِن الماءِ والغَسْلِ والدَّلْكِ والتَّرتيبِ، «ثُمَّ قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: مَن تَوَضَّأَ نحْوَ وُضوئِي هذا» دونَ تَقصيرٍ أو مُبالَغةٍ، «ثُمَّ قام فرَكَعَ رَكعَتَينِ» مِن فَرْضٍ أو تَطوُّعٍ، و«لا يُحَدِّثُ فيهما نَفْسَه»، أي: بشَيءٍ في أُمورِ الدُّنيا بحيثُ يكونُ خاشِعًا للهِ، لا يُهِمُّه مِن أمرِ الدُّنيا شَيءٌ؛ «غُفِرَ له ما تَقدَّمَ مِن ذَنْبِه» كان ذلك سَببًا في مَحْوِ ما كان عليه مِن سيِّئاتٍ مِن الصَّغائرِ؛ فإنَّ الكَبائرَ إنَّما تُكَفَّرُ بالتَّوبةِ، كما ورَدَ ذلك مُقَيَّدًا في مواضِعَ، كما في حَديثِ أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه: ((الصَّلاةُ الخَمْسُ، والجُمعةُ إلى الجُمعةِ: كفَّارةٌ لِمَا بيْنهنَّ ما لم تُغْشَ الكبائرُ))[1]، فهذا القَيدُ في هذه الأمورِ مُقَيِّدٌ للمُطلَقِ في غيرِها.

وفي هذا الحَديثِ: تَرغيبٌ كَبيرٌ في المحافَظةِ على الوُضوءِ وإتْمامِه معَ صَلاةِ رَكعتَيْنِ بعدَه؛ لِمَا في ذلك مِن الأجْرِ الكَبيرِ.

المُحافَظةُ على رَكعَتَي الفَجرِ

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: **((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمْ يَكُنْ على شيءٍ مِن**

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).



النَّوافلِ أشَدَّ مُعاهَدةً منه على رَكْعَتَينِ قبْلَ الصُّبْحِ))(١).



في هذا الحَديثِ تُخبِرُ أُمُّ المُؤمِنينَ عائشةُ رَضيَ اللهُ عَنها: «أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لمْ يَكُنْ على شيءٍ مِن النَّوافلِ أشَدَّ مُعاهَدةً منه على رَكْعَتَينِ قبْلَ الصُّبْحِ»، يعني: لم يكُنْ مُتعاهِدًا وحَريصًا على صَلاةٍ مِن النَّوافِلِ والسُّنَنِ الرَّواتِبِ بمِثلِ ما كان يَحرِصُ على أنْ يُصلِّيَ رَكعَتَينِ قبْلَ ركعَتَيِ الفَجرِ، وهُما سُنَّة الفَجْرِ القَبْليَّةُ، وهُما مَعْدودتانِ في السُّنَنِ الرَّواتبِ لِصَلواتِ الفريضةِ، واهتِمامُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهما بَيانٌ لِعِظمِ شَأنِهما وأجْرِهما.

صفةُ قيامِ اللَّيلِ

عن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ رَجُلًا سَألَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن صَلاةِ اللَّيلِ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((صَلاةُ اللَّيلِ مَثْنى مَثْنى، فإذا خَشِيَ أحَدُكم الصُّبْحَ صَلَّى رَكْعةً واحِدةً تُوتِرُ له ما قدْ صَلَّى))(٢).



في هذا الحَديثِ يَروي عبدُاللهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: «أنَّ رجُلًا سَألَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن صَلاةِ اللَّيلِ»، وهو ما يَتهجَّدُ به الإنسانُ في لَيلِه، ويَتطوَّعُ به تقرُّبًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والسُّؤالُ هُنا عن كَيفيَّتِها، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «صَلاةُ اللَّيلِ مَثْنى مَثْنى»، أي: تُصَلِّي رَكعَتَينِ ثمَّ تُسلِّمُ، ثم تُصَلِّي رَكعتَينِ أُخرَيَيْنِ، وهكذا، «فإذا خَشِيَ أحَدُكم الصُّبْحَ»: اقتِرابَ دُخولِ وَقتِ صَلاةِ الفَجرِ، «صَلَّى رَكْعةً

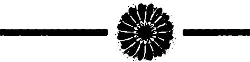
(١) أخرجه البخاري (١١٦٩)، ومسلم (٧٢٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٩٩٠)، ومسلم (٧٤٩).

واحِدةً تُوتِرُ له ما قدْ صَلَّى»، فليَخْتِمْ صَلاتَه برَكعةٍ واحدةٍ هي الوتِرُ للصَّلواتِ الشَّفعِ الثُّنائيَّةِ التي صلَّاها، وتكونُ تلك الرَّكعةُ آخِرَ قِيامِ اللَّيلِ وخِتامَه، وقد تَعدَّدَتِ صِفةُ وِترِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكَيفيَّةُ أدائِها، وعدَدُ ركَعاتِها، ومِن مَجموعِها يتَبيَّنُ أنَّه يَجوزُ الوِترُ بثَلاثٍ، وبخَمسٍ، وبسَبعٍ، وبتِسعٍ، وبإحْدى عشْرةَ، فإنْ أوتَرَ بثَلاثٍ فله صِفَتانِ كِلْتاهما مَشروعةٌ: **الأُولى**: أنْ يَسرُدَ الثَّلاثَ بتَشهُّدٍ واحِدٍ، **والثَّانيةُ**: أنْ يُسلِّمَ مِن رَكعتَينِ ثمَّ يُوتِرَ بواحدةٍ، أمَّا إذا أوتَرَ بخَمسٍ أو بسَبعٍ، فإنَّها تَكونُ مُتَّصِلةً، ولا يتَشهَّدُ إلَّا تَشهُّدًا واحدًا في آخِرِها ويُسلِّمُ، وإذا أوتَرَ بتِسعٍ، فإنَّها تكونُ مُتصِلةً، ويَجلِسُ للتَّشهُّدِ في الثَّامنةِ، ثمَّ يَقومُ ولا يُسلِّمُ ويتَشهَّدُ في التَّاسعةِ ويُسلِّمُ، وإنْ أوتَرَ بإحْدى عشْرةَ فإنَّه يُسلِّمُ مِن كُلِّ رَكعَتَينِ، ويُوتِرُ منها بواحدةٍ.

صلاةُ آخِرِ اللَّيلِ مَشهودةٌ

عن جابرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((مَن خافَ ألَّا يَقومَ مِن آخِرِ اللَّيلِ فلْيُوتِرْ أوَّلَه، ومَن طَمِعَ أنْ يَقومَ آخِرَه فلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيلِ؛ فإنَّ صَلاةَ آخِرِ اللَّيلِ مَشهودةٌ، وذلك أفْضَلُ))(1).



كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يحُثُّ أصحابَهُ أنْ يَأخُذوا بما هو أحوَطُ لِدينِهم وعِبادتِهم، ومِن ذلك المُحافَظةُ على صَلاةِ الوِترِ في الوَقتِ الذي يُناسِبُ كلَّ شَخصٍ حسَبَ طاقَتِه، كما في هذا الحَديثِ؛ حيثُ يَقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «مَن خافَ ألَّا يَقومَ مِن آخِرِ اللَّيلِ»: مَن خَشِيَ ألَّا يَستيقِظَ آخِرَ اللَّيلِ لِصَلاةِ الوِترِ، «فلْيُوتِرْ أوَّلَه»: فليُصلِّ وِترَه قبْلَ أنْ يَنامَ، وهو وَقتُ ما بعدَ صَلاةِ العِشاءِ، «ومَن طَمِعَ أنْ يَقومَ آخِرَهُ»: مَن ظنَّ في حالِه أنَّه يَستطيعُ أنْ يَقومَ آخِرَ اللَّيلِ، «فلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيلِ»، وهو وَقتُ ما قبْلَ

(1) أخرجه مسلم (٧٥٥).



الفَجرِ؛ «فإنَّ صَلاةَ آخِرِ اللَّيلِ مَشهودةٌ»، تَشهَدُها مَلائكةُ الرَّحمَةِ، «وذلكَ أفْضَلُ»؛ لأنَّ ذلك وقتُ التَّنزُّلِ الإلهيِّ، ووَقتُ إجابةِ الدُّعاءِ؛ ففي رِوايةِ مُسلمٍ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((يَنزِلُ اللَّهُ إلى السَّماءِ الدُّنْيا كُلَّ لَيلَةٍ حِينَ يَمضِي ثُلثُ اللَّيلِ الأوَّلُ، فيَقولُ: أنا المَلِكُ، أنا المَلِكُ، مَن ذا الذي يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ له؟ مَن ذا الذي يَسأَلُني فأُعْطِيَه؟ مَن ذا الذي يَستَغْفِرُني فأغْفِرَ له؟ فلا يَزالُ كذلك حتى يُضيءَ الفَجْرُ))[1]، فهذا هو الأفضَلُ والسُّنَّةُ، وعن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((مِن كلِّ اللَّيلِ قد أوتَرَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ مِن أوَّلِ اللَّيلِ، وأوسَطِه، وآخِرِه، فانْتَهى وِتْرُه إلى السَّحَرِ))[2]، ومُحصَّلُ الحَديثِ: أنَّ اللَّيلَ كلَّه وَقتٌ لِصَلاةِ الوِترِ، وإنْ كان الوِترُ في آخِرِ اللَّيلِ أفضَلَ.

حكمُ التنفُّلِ إذا أقيمَت الصَّلاةُ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: **((إذا أُقِيمتِ الصَّلاةُ فلا صَلاةَ إلَّا المَكتوبةُ))**[3].



أداءُ الصَّلاةِ المفروضةِ أوْلى مِن صَلاةِ النَّوافلِ. وفي هذا الحَديثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك؛ حيثُ قال: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ فلا صَلاةَ إلَّا المَكتوبةُ»: إذا بدَأَ المؤذِّنُ في إقامةِ الصَّلاةِ فلا يَبتدِئْ أحَدٌ في صَلاةِ النَّافلةِ، وقَولُه: «فلا صَلاةَ» يَحتمِلُ أنَّه لا صَلاةَ كاملةَ الأجْرِ، أو لا تَصِحُّ صَلاةُ النَّافِلة أصلًا بعدَ إقامةِ صَلاةِ الفَريضةِ، فيَقطَعُ النَّافِلةَ، ويُصلِّي الفَريضةَ، وإذا كان قد بدَأَ النَّافِلةَ، ثمَّ أُقيمتِ الفَريضةُ؛ فلْيُتِمَّها

---

(١) أخرجه مسلم (٧٥٨) من حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، وأخرجه من طرق البخاري (١١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩٦) مختصرًا، ومسلم (٧٤٥) واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (٧١٠).



ولْيَتجوَّزْ فيها؛ حتى يُدرِكَ صَلاةَ الجَماعةِ، ومِن أهلِ العِلمِ مَن قال: إنْ كان في الرَّكعةِ الأُولى فإنَّه يَقطَعُها، وإنْ كان في الرَّكعةِ الثَّانيةِ فإنَّه يُتِمُّها خَفيفةً.

صَلاةُ الضُّحَى

عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((يُصْبِحُ على كُلِّ سُلامَى مِن أحَدِكُم صَدَقةٌ؛ فكُلُّ تَسبيحةٍ صَدَقةٌ، وكُلُّ تَحْميدةٍ صَدَقةٌ، وكُلُّ تَهْليلةٍ صَدَقةٌ، وكُلُّ تَكْبيرةٍ صَدَقةٌ، وأمْرٌ بالمَعروفِ صَدَقةٌ، ونَهْيٌ عَنِ المُنكَرِ صَدَقةٌ، ويُجْزِئُ مِن ذلِك رَكْعتانِ يَرْكَعُهما مِن الضُّحَى))(1).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أوْصَانِي خَلِيلِي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بثَلاثٍ: بصِيامِ ثَلاثةِ أيَّامٍ مِن كُلِّ شَهرٍ، ورَكْعتَيِ الضُّحى، وأنْ أُوتِرَ قبْلَ أنْ أرْقُدَ))(2).

علَّمَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأُمَّةَ كلَّ خِصالِ الخَيرِ والبِرِّ، وكيف يَشكُرونَ اللهَ تَعالَى، وعلَّمَها الصَّلواتِ: الفرائضَ، والنوافِلَ الرَّاتبةَ وغيرَ الراتبةِ، وأنواعًا مِن الصَّلواتِ في بَعضِ الأوقاتِ، ومِن ذلك صَلاةُ الضُّحَى، ويَبدَأُ وقْتُها بعدَ طُلوعِ الشَّمسِ وارْتفاعِها مِقدارَ رُمْحٍ -أي: ما يُعادِلُ قُرابةَ خَمسَ عَشْرةَ دقيقةً بعْد شُروقِ الشَّمسِ- ويَنتهي وقتُها قُبَيلَ الظُّهرِ؛ **ففي الحَديثِ الأوَّلِ** يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يُصبِحُ على كُلِّ سُلامَى مِن كلِّ واحدٍ مِن بَنِي آدَمَ صَدَقةٌ، والسُّلامَى في الأصْلِ هي عِظامُ الأصابعِ، والمرادُ بها هنا: جَميعُ العِظامِ؛ فتَرْكيبُ هذه العِظامِ والمَفاصِلِ مِن أعظَمِ نِعَمِ الله على عَبْدِه، فيَحتاجُ كلُّ عَظْمٍ مِن عِظَام جسَدِ الإنسانِ ومَفاصِلِه إلى صَدَقةٍ يَتصَدَّقُ بها؛ شُكْرًا للهِ تعالَى على هذه النِّعْمةِ الجَليلةِ، فيُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه

(1) أخرجه مسلم (٧٢٠). وأخرجه البخاري (٢٩٨٩) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري (١١٧٨)، ومسلم (٧٢١).



وسلَّمَ كيفَ يَتصَدَّقُ ابنُ آدَمَ عن كُلِّ هذه العِظامِ، فيَقولُ عن هذه الصَّدَقاتِ: «فكُلُّ تَسبِيحةٍ صَدَقةٌ»، وهو قولُ: (سُبحانَ اللهِ)، «وكُلُّ تَحمِيدةٍ صَدَقةٌ»، وهو قولُ: (الحَمدُ للهِ)، «وكُلُّ تَهليلةٍ صَدَقةٌ»، وهو قولُ: (لا إلهَ إلَّا اللهُ)، «وكُلُّ تَكبيرةٍ صَدَقةٌ»، وهو قولُ: (اللهُ أكبَرُ)؛ فكلُّ ذِكرٍ مِن هذه الأذكارِ يَذكُرُه الإنسانُ في يَومِه -ولا يُشترَطُ وقتٌ أو هَيئةٌ مُحدَّدةٌ لهذا الذِّكرِ- يكونُ صَدَقةً يُقدِّمُها شُكرًا للهِ على تِلكَ النِّعمةِ.

وأيضًا جَعَلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأمْرَ بالمَعروفِ والنَّهيَ عنِ المُنكَرِ صَدَقةً كتِلكَ الصَّدقاتِ التي يَشكُرُ بها الإنسانُ ربَّه عزَّ وجلَّ؛ فالإنسانُ بالذِّكرِ وعَمَلِ المعروفِ والأمْرِ به ودَفْعِ المنكَرِ، يكونُ دائمًا مَوصولًا برَبِّه سُبحانَه شاكرًا له.

ثم أوْضَحَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يُجزِئُ عَن كُلِّ ما سَبَقَ في الصَّدقاتِ على كلِّ عَظْمٍ مِن عِظامِ الجَسَدِ رَكعَتَا الضُّحَى؛ لأنَّ الصَّلاةَ عَمَلٌ بجَميعِ أعضاءِ البَدنِ، وتَشمَلُ جَميعَ ما ذُكِرَ مِن الصَّدقاتِ وَغيرِها، وهذا بَيانٌ لعِظَمِ فَضلِ صَلاةِ الضُّحى، وأقلُّ عددٍ لصَلاةِ الضُّحَى رَكعتانِ، وأكثرُه ثَمانِي رَكَعاتٍ؛ لِمَا في الصَّحيحينِ مِن حَديثِ أُمِّ هانِئٍ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها ذَكَرتْ: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ فَتْحِ مكَّةَ اغتَسَلَ في بَيتِها، فصلَّى ثَمانيَ رَكَعاتٍ))[1]. وقيل: إنَّه لا حَدَّ لأكثرِها؛ لحَديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُصلِّي الضُّحَى أربعًا، ويَزيدُ ما شاءَ اللهُ))[2].

وفي **الحَديثِ الثاني** يقولُ أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: «أوْصَانِي خَلِيلِي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ»، أوصاني: أي: أمَرَني على سَبيلِ التَّأكيدِ، والخليلُ: هو الصَّديقُ الخالصُ الذي تَخلَّلَت مَحبَّتُهُ القَلبَ، فصارتْ في خِلالِه، أي: في باطنِه، «بثَلاثٍ: بصِيامِ ثَلاثةِ

(١) أخرجه البخاري (١١٠٣)، ومسلم (٣٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (٧١٩).



أيَّامٍ مِن كُلِّ شَهرٍ، ورَكْعَتِي الضُّحَى، وأنْ أُوتِرَ قبْلَ أنْ أرْقُدَ»، فأوْصى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا الحَديثِ برَكعَتَينِ وَقتَ الضُّحَى.

والحِكمةُ في الوَصيَّةِ بالمحافَظةِ على ذلك: تَمْرينُ النَّفسِ على جِنسِ الصَّلاةِ والصِّيامِ؛ لِيَدخُلَ في الواجِبِ منهما بانشِراحٍ، ولِيَنجبِرَ ما لعَلَّه يَقَعُ فيه مِن نَقصٍ.

الأوقاتُ المَنهيُّ عنِ الصَّلاةِ فيها

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لا صَلاةَ بَعدَ صَلاةِ العَصرِ حتى تَغرُبَ الشَّمسُ، ولا صَلاةَ بَعدَ صَلاةِ الفَجرِ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ))(١).

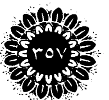
وعن عُقبةَ بنِ عامِرٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((ثَلاثُ ساعاتٍ كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَنهانا أنْ نُصَلِّيَ فيهِنَّ، أو أنْ نَقبُرَ فيهِنَّ مَوتانا: حين تَطلُعُ الشَّمسُ بازِغةً حتى تَرتَفِعَ، وحين يَقومُ قائِمُ الظَّهيرةِ حتى تَميلَ الشَّمسُ، وحين تَضَيَّفُ الشَّمسُ لِلغُروبِ حتى تَغرُبَ))(٢).



كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَحرِصُ على أنْ يَحفَظَ على المُسلِمينَ عَقيدَتَهم؛ لذا نَهى عن الصَّلاةِ في أوقاتٍ مُعَيَّنةٍ؛ تجنُّبًا لِمُشابَهةِ المُشرِكينَ مِمَّن يَسجُدونَ للشَّمسِ، كما في حَديثَيْ أبي سَعيدٍ وعُقبةَ رَضيَ اللهُ عنهما، **فدلَّ الحديثُ الأوَّلُ** على النَّهيِ عن الصَّلاةِ بعدَ صَلاةِ العَصْرِ حتى تَغرُبَ الشَّمسُ، وبعدَ صَلاةِ الصُّبحِ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ، أمَّا **الحديثُ الثَّاني** فقد دلَّ على الأوقاتِ الثَّلاثةِ التي فيها النَّهيُ

(١) أخرجه البخاري (٥٨٦)، ومسلم (٨٢٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٨٣١).



عن الصَّلاةِ أشدُّ وأغلَظُ، وأوَّلُها مِن أوَّلِ طُلوعِ الشَّمسِ مِن مَشرِقِها، فتَظهَرُ لِلعِيانِ، حتى تَرتَفِعَ قَدْرَ رُمحٍ في رأْيِ العَينِ، والوَقتُ الثاني: المذْكُورُ في قَولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «حينَ يَقومُ قائِمُ الظَّهيرةِ حتى تَميلَ الشَّمسُ»، وذلك في نِصفِ النَّهارِ، وتَكونُ الشَّمسُ في وَسَطِ السَّماءِ؛ لأنَّه وَقتٌ فيه تُسْجَرُ جَهنَّمُ، أي: يُوقَدُ عليها، وهو وَقتُ اشتِدادِ الحَرِّ، حتى تَميلَ إلى جِهةِ الغَربِ ويَحصُلَ الزَّوالُ الذي به يَدخُلُ وَقتُ صَلاةِ الظُّهرِ، والوقتُ الثَّالثُ: حين تَبدأُ الشَّمسُ في الغُروبِ حتى يَكتَمِلَ الغُروبُ ويَختَفيَ قُرصُ الشَّمسِ، والنَّهيُ عن الصَّلاةِ وقْتَ طُلوعِ الشَّمسِ ووَقتَ غُروبِها؛ لأنَّهما وَقتانِ يُصَلِّي فيهما عُبَّادُ الشَّمسِ ويَسجُدونَ لها.

وهذا النَّهيُ لا يَدخُلُ فيه الفَرائِضُ المُؤَدَّاةُ، ولا الفَوائِتُ المَقضيَّةُ، بل يَخُصُّ صَلاةَ النَّافِلةِ.

التنَفُّلُ في السَّفَرِ

عن حَفصِ بنِ عاصِمِ بنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، قال: صَحِبْتُ ابنَ عُمرَ في طَريقِ مكَّةَ، قال: فصَلَّى لنا الظُّهرَ رَكْعتَينِ، ثُمَّ أقْبَلَ وأقْبَلْنا معه، حتى جاءَ رَحْلَه، وجَلَسَ وجَلَسْنا معهُ، فحانَتْ منه التِفاتةٌ نحْوَ حيثُ صَلَّى، فرَأى ناسًا قِيامًا، فقال: ما يَصنَعُ هؤلاءِ؟ قُلتُ: يُسَبِّحُون، قال: ((لو كُنْتُ مُسَبِّحًا لأَتْمَمْتُ صلاتِي، يا ابنَ أخِي، إنِّي صَحِبتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في السَّفَرِ، فلمْ يَزِدْ على رَكْعتَينِ حتى قَبَضَهُ اللهُ، وصَحِبْتُ أبا بَكْرٍ، فلمْ يَزِدْ على رَكْعتَينِ حتى قَبَضَه اللهُ، وصَحِبْتُ عُمرَ، فلَمْ يَزِدْ على رَكْعتَينِ حتى قَبَضَه اللهُ، ثُمَّ صَحِبْتُ عُثْمانَ، فلَمْ يَزِدْ على رَكْعتَينِ حتى قَبَضَه اللهُ، وقدْ قال اللَّهُ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]))(١).

وعن أبي هُرَيرَة رَضِيَ اللهُ عنه قال: عَرَّسْنَا مع نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمْ

(١) أخرجه البخاري (١١٠٢) مختصرًا، ومسلم (٦٨٩) واللفظ له.



نَسْتَيْقِظْ حتَّى طَلَعَتِ الشَّمسُ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ برَأْسِ رَاحِلَتِه؛ فإنَّ هذا مَنْزِلٌ حَضَرَنا فيه الشَّيطانُ، قالَ: فَفَعَلْنا، ثُمَّ دَعا بالماءِ فَتوَضَّأَ، ثُمَّ سَجَدَ سَجدَتَينِ، وقال يَعقوبُ: ثُمَّ صَلَّى سَجدَتَينِ، ثُمَّ أُقِيمتِ الصَّلاةُ فَصَلَّى الغَدَاةَ))[1].

وعن سعيدِ بنِ يَسارٍ، قال: كنتُ أسيرُ مع عبدِاللهِ بنِ عُمرَ بطريق مكَّة، فلمَّا خشيتُ الصبحَ نزلتُ فأوترتُ ثم لحقتُه، فقال: أينَ كُنتَ؟ فأخبرتُه، فقال: أليس لك في رَسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ؟! قلتُ: بلَى واللهِ! قال: ((إنَّ رسولَ اللهِ كان يُوتِرُ على البَعيرِ))[2].

وعن عامرِ بنِ رَبيعةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّه رأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصلِّي السُّبحةَ باللَّيلِ في السَّفرِ على ظهرِ راحلتِه))[3].



السَّفَرُ قِطعةٌ مِن العَذابِ، وهو مَظِنَّةُ التَّعَبِ والمَشقَّةِ؛ لذلِك خفَّفَ اللهُ سُبحانَه وتعالَى عنِ المُسافِرِ، ويسَّرَ عليهِ في الأحْكامِ الشَّرعيَّةِ؛ **وفي الحَديثِ الأول** يُخبِرُ حَفصُ بنُ عاصِمٍ أنَّه خرَجَ مُسافِرًا مع عمِّهِ عَبدِاللهِ بنِ عُمرَ في طَريقِ مَكَّةَ، قال: «فَصلَّى لنا الظُّهرَ رَكعَتينِ»، وذلك أنَّ الصَّلاةَ الرُّباعيَّةَ تُقصَرُ في السَّفَرِ إلى رَكعَتَينِ، «ثُمَّ أقبَلَ وأقبَلْنا معه، حتى جاءَ رَحْلَه»: أي: ذهَبَ إلى مَكانِه الذي أنزَلَ به رَحْلَه ومتاعَه، وجلَسَ بَعضُ مَن معهم في السَّفَرِ مع عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ عَقِبَ انتهائِهِ مِن الصَّلاةِ، «فحانَتْ مِنه الْتِفاتةٌ نَحوَ حيثُ صلَّى»: رجَعَ بنظَرِهِ دُونَ قَصدٍ إلى المكانِ الذي صلَّوا

(١) أخرجه مسلم (٦٨٠). وأخرجه أيضًا من حديث أبي قتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه في قصَّةٍ طويلةٍ (٦٨١).
(٢) أخرجه البخاري (٩٩٩)، ومسلم (٧٠٠).
(٣) أخرجه البخاري (١١٠٤)، ومسلم (٧٠١).

فيه الفريضةَ، «فرَأَى ناسًا قِيامًا»: يُصلُّونَ ويَزيدونَ على ما صلَّوهُ مع ابنِ عُمَرَ، فسأَلَ عنهم عبدُاللهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، وما تِلكَ الصَّلاةُ التي يَزيدونها؟ واستفهامُه في صِيغةِ الإنكارِ عليهم. «قُلتُ: يُسَبِّحُونَ»: أي: يُصلُّون النَّافلةَ، قال ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: «لو كُنْتُ مُسَبِّحًا لأَتْمَمْتُ صَلاتِي»، يَعْني أنَّه لو كان مُخيَّرًا بيْنَ الإتمامِ وصَلاةِ السُّنةِ الرَّاتبةِ لكان الإتمامُ أحبَّ إليه، لكنَّه فَهِمَ مِن القَصرِ التَّخفيفَ؛ فلذلك كان لا يُصلِّي السُّنةَ الرَّاتبةَ، ولا يُتِمُّ. وقيلَ: المَعْنى: لو تَركتُ العملَ بالسُّنةِ لكان تَرْكُها لإتمامِ الفَرضِ أَحَبَّ وأَوْلى مِن تَرْكِها لإتْيانِ النَّفلِ، ثمَّ بيَّنَ ابنُ عُمَرَ مَقصَدَ إنكارِه، فقال: «يا ابنَ أخِي، إنِّي صَحِبْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في السَّفَرِ، فلَمْ يَزِدْ على رَكْعَتَينِ حتى قَبَضَهُ اللَّهُ، وصَحِبْتُ أبا بَكْرٍ، فلَمْ يَزِدْ على رَكْعَتَينِ حتى قَبَضَهُ اللَّهُ، وصَحِبْتُ عُمَرَ، فلَمْ يَزِدْ على رَكْعَتَينِ حتى قَبَضَهُ اللَّهُ، ثُمَّ صَحِبْتُ عُثْمانَ، فلَمْ يَزِدْ على رَكْعَتَينِ حتى قَبَضَهُ اللَّهُ»، بمَعْنى أنَّ فِعلَه هذا إنَّما هو مِن اتِّباع فِعلِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والخُلَفاءِ مِن بَعدِه؛ امتثالًا لِقَولِه تَعالى: ﴿ **لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ** ﴾[الأحزاب: ٢١].

وفي الحديثِ الثَّاني: يَحكي أَبو هُريرَةَ رَضيَ اللهُ عَنه أنَّهم عَرَّسوا مَع نَبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عَليه وسلَّم، أي: نَزلوا مَنزِلًا آخِرَ اللَّيلِ للنَّومِ وَالاستِراحةِ. قال: فَلم نَستيقِظْ حتَّى طَلعَتِ الشَّمسُ، فَقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عَليهِ وسلَّم: «لِيَأخذْ كُلُّ رَجلٍ بِرَأسِ راحلَتِه»، أي: لِيخرُج مِن هذا المَكانِ؛ «فإنَّ هذا مَنزِلٌ حَضَرَنا فيه الشَّيطانُ»، قالَ: فَفعَلْنا. ثُمَّ دَعا بِالماءِ فتَوضَّأ، ثُمَّ سَجدَ سَجدَتينِ أيْ: صلَّى رَكعتَينِ سنة الفجر، ثُمَّ أُقيمَتِ الصَّلاةُ فَصلَّى الغَداةَ، أي: صَلاةَ الفَجرِ. ففيه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلَّى في السَّفرِ سُنَّةَ الفَجرِ.

وفي الحديثِ الثَّالثِ: يقولُ سَعِيدُ بنُ يَسَارٍ: «كنتُ أسيرُ مع عَبدِالله بن عُمَرَ بطريقِ مَكَّةَ»، أي: وهما مُسافِران ويَسِيرانِ في الليلِ، قال سَعِيدٌ: «فلمَّا خَشِيتُ الصُّبحَ نزَلتُ

فأوتَرْتُ ثُمَّ لَحِقتُه»، أي: فلمَّا خِفتُ أن يُدرِكَني دخولُ صلاةِ الصُّبحِ دونَ أن أُصَلِّيَ الوِترَ نزَلْتُ عن الرَّاحِلَةِ فصلَّيتُ الوِترَ، فقال عَبدالله بنُ عُمَرَ: أينَ كُنتَ؟ فقلتُ: خَشِيت الصبحَ فنزَلتُ فأَوْترتُ، فقال عَبْدُ الله: «أَلَيْسَ لك في رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أُسوةً حسنةً؟»، أي: قُدوةٌ حَسَنةٌ تَقتدِي بها، «فقلتُ: بَلَى واللهِ، قال: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يُوتِرُ على البَعِيرِ» أي: إنَّه كان يُوتِرُ وهو مسافِرٌ فوقَ ظهرِ رَاحِلَتِه، ويَتَوجَّهُ حيثُ توجَّهَتْ به. ففيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يُصَلِّي الوِتْرَ في سَفَرِه.

وفي الحديثِ الرَّابعِ يَحكي عامِرُ بنُ رَبيعةَ رَضِيَ اللهُ عنه: «أَنَّه رأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصلِّي السُّبحةَ»، أي: يُصَلِّي النَّافِلةَ «باللَّيلِ في السَّفرِ على ظَهرِ راحلتِه»، أي: بالإيماءِ، فيُومِئُ برَأسِه في صَلاتِه للرُّكوعِ والسُّجودِ، وهذا الحَديثُ يدُلُّ على أنَّه لا بأسَ بالتطَوُّعِ في السَّفَرِ، ويدُلُّ على جوازِ صَلاةِ التطَوُّعِ على الرَّاحِلةِ حيثُ تَوجَّهتْ بالرَّاكِبِ راحِلَتُه.

فيتلخَّصُ مِن مَجموعِ هذه الأحاديثِ: أنَّه لا يُسَنُّ للمُسافِرِ أداءُ السُّنَنِ الرَّواتِبِ في السَّفَرِ إلَّا ركعتَيِ الفَجرِ، والوِترَ، وأنَّ له أن يُصَلِّيَ مِنَ التطَوُّعِ المُطلَقِ إذا شاء.

قيامُ رَمَضانَ (التَّراويح)

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن قامَ رَمَضانَ إيمانًا واحْتِسابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِه))[1].



شَهرُ رَمَضانَ أفضَلُ الشُّهورِ، وقِيامُ لَيلِه مِن الأعمالِ الجَليلةِ التي يُثابُ عليها الإنسانُ

(١) أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).



أفضَلَ الثَّوابِ، وفي هذا الحَديثِ يُرغِّبُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُسلِمينَ في قِيامِ لَيالي رَمَضانَ بالصَّلاةِ والعِبادةِ، فيقولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «مَن قامَ رَمَضانَ»: أقامَ لَيلَه بالصَّلاةِ والعِبادةِ، «إيمانًا واحْتِسابًا»: تَصديقًا بفَضْلِ هذه اللَّيالي، وفَضلِ العملِ فيها، وابتِغاءً لوَجْهِ اللهِ ورَغبةً في الثَّوابِ مِن عِندِ اللهِ تبارَكَ وتعالى، لا مُسْتَثقِلًا ولا مُتَضَجِّرًا. «غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِه»؛ فإنَّ المَرْجُوَّ مِن اللهِ أنْ يَغفِرَ له ما تقدَّمَ مِن ذُنوبِه. وقد وقَعَ الجزاءُ بصِيغةِ الماضي «غُفِرَ» مع أنَّ المغفرةَ تكونُ في المُستقبَلِ؛ للإشعارِ بأنَّه مُتيقَّنُ الوقوعِ، مُتحقِّقُ الثُّبوتِ، فضلًا مِن اللهِ تعالى على عِبادِه.

وفي هذا الحَديثِ: الحثُّ على قِيامِ رَمَضانَ، مع الحثِّ على الإخلاصِ واحتِسابِ أجْرِ الأعْمالِ.

الاجتهادُ في العَشرِ الأواخِرِ

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا دَخَلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَه، وأحْيَا لَيلَه، وأيقَظَ أهْلَه))[1].



العَشرُ الأواخِرُ مِن رمَضانَ هي خيرُ لَيالي السَّنةِ؛ فيها لَيلةُ القَدْرِ التي هي خَيرٌ مِن ألْفِ شَهْرٍ، وفي هذا الحَديثِ تُبيِّنُ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها حالَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذه العَشْرِ، فتقولُ: «كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا دخَلَ العَشْرُ»، بَدءًا مِن لَيلةِ الحادي والعِشْرينَ إلى نِهايةِ الشَّهرِ، «شَدَّ مِئزرَه»، وهذه إشارةٌ إلى اعتزالِ النِّساءِ، والمِئزَرُ هو ما يُلبَسُ مِن الثِّيابِ أسْفلَ البدَنِ، وقِيلَ: يَحتَمِلُ أنْ يُريدَ به الجِدَّ في العبادةِ؛ فإنَّه يُقالُ: شَدَدْتُ في هذا الأمرِ مِئزَري، بمَعْنى: تَشمَّرْتُ له وتَفرَّغْتُ، «وأحْيَا

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٤) واللفظ له، ومسلم (١١٧٤).



لَيلَه»: بِالسَّهرِ للعبادةِ، «وأيقَظَ أهْلَه»: أيقَظَهم لِيُصلُّوا مِن اللَّيلِ، وهذا مِن تَشجيعِ الرَّجُلِ أهلَه على أداءِ النَّوافلِ والعِباداتِ، وتَحصيلِ خَيرِ تلك الأيَّامِ.

فضلُ ليلةِ القَدْرِ والأمْرُ بتَحرِّيها

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١ - ٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((مَن يَقُمْ لَيلةَ القَدْرِ إيمانًا واحتِسابًا غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِه))[1].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((تحَرَّوا ليلةَ القَدْرِ في الوِترِ مِن العَشرِ الأواخِرِ مِن رمَضانَ))[2].

وعن زِرِّ بنِ حُبَيشٍ قال: سَمِعتُ أُبَيَّ بنَ كَعبٍ يقولُ، وقيل له: إنَّ عبدَاللهِ بنَ مَسعودٍ يقولُ: مَن قامَ السَّنَةَ أصابَ ليلةَ القَدْرِ. فقال أُبيٌّ: ((واللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هو، إنَّها لَفي رمضانَ، يَحلِفُ ما يَستثني، وواللهِ إنِّي لَأعلَمُ أيُّ ليلةٍ هي؛ هي اللَّيلةُ التي أَمَرَنا بها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقِيامِها، هي ليلةُ صَبيحةِ سَبعٍ وعِشرينَ، وأمارتُها أنْ تَطلُعَ الشَّمسُ في صَبيحةِ يومِها بَيضاءَ لا شُعاعَ لها))[3].

لَيلةُ القَدْرِ مِن لَيالي رَمضانَ، لَيلةٌ عَظيمةٌ مُباركةٌ، ذَكَرَها اللهُ سُبحانَه وتعالى في

(١) أخرجه البخاري (٣٥) واللفظ له، ومسلم (٧٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٧) واللفظ له، ومسلم (١١٦٩).

(٣) أخرجه مسلم (٧٦٢).

كِتابِه، وذكَرَها النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فقد أخبرَ اللهُ تعالى بنُزولِ القُرآنِ فيها، وفَخَّم شَأنَها، وعَظَّم قَدْرَها، فشأنُها جليلٌ، وأثَرُها عظيمٌ، وهي تُعادِلُ في فَضْلِها ألفَ شَهرٍ، فالعَمَلُ الواقِعُ فيها خيرٌ مِن العَمَلِ في ألْفِ شَهرٍ، وهي لَيلةٌ يَكثُرُ نُزولُ الملائكةِ فيها، وهي ليلةٌ كثيرةُ الخيراتِ والبرَكاتِ، سالِمةٌ مِن الشُّرورِ والآفاتِ. فلْيَشكُرِ الإنسانُ رَبَّه إذا ما وفَّقَه إلى قِيامِ ليلةِ القَدْرِ، ولْيَتأسَّفْ كُلَّ الأسَفِ إذا ما فاتَتْه.

وسُمِّيت ليلةُ القَدْرِ بذلك؛ لعِظَمِ قَدْرِها؛ لنُزولِ القرآنِ فيها والملائكةِ. وقيل: لأنَّ الذي يُحيِيها يكونُ له قَدْرٌ بذلك. وقيل: القَدْرُ مَأخوذٌ مِن التَّضييقِ، والذي يُرادُ هنا إخفاءُ يَومِها عن النَّاسِ. وقيل: لتَقديرِ أفعالِ السَّنةِ بها، فتُكتَبُ فيها أقدارُ تلك السَّنَةِ، ويحتَمِلُ أنْ يكونَ اللَّفظُ مَأخوذًا مِن بَعضِ تلك المعاني أو كُلِّها.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُرشِدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى أهميَّةِ ليلةِ القَدْرِ، وأنَّ مَن أحيَا هذه اللَّيلةَ المبارَكةَ بالصَّلاةِ، غفَرَ اللهُ له ذُنوبَه السَّابقةَ، غيرَ الحقوقِ الآدميَّةِ؛ لأنَّ الإجماعَ قائمٌ على أنَّها لا تَسقُطُ إلَّا برِضاهم، على أنْ يَفعَلَ ذلك «إيمانًا واحتسابًا»، أي: تَصديقًا بفضْلِ هذه اللَّيلةِ، وفضْلِ العملِ فيها، وابتغاءً لوجْهِ اللهِ في عِبادتِه. وقد وقَعَ الجزاءُ بصِيغةِ الماضي «غُفِرَ» مع أنَّ المغفرةَ تكونُ في المستقبَلِ؛ للإشعارِ بأنَّه مُتيقَّنُ الوقوعِ، مُتحقِّقُ الثُّبوتِ، فضْلًا مِن اللهِ تعالى على عِبادِه.

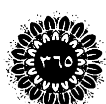
وفي حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها يَأمُرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَحرِّي لَيلةِ القَدْرِ، والتحَرِّي: بَذلُ الجُهدِ، والحِرصُ في الطَّلَبِ بكثيرٍ مِن العِبادةِ، فيَأمُرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالْتماسِها في اللَّيالي الوَتْريَّةِ مِن العَشرِ الأواخِرِ مِن رَمَضانَ، وهيَ آخِرُ عَشرِ ليالٍ مِن رمَضانَ دُونَ أنْ تُحدَّدَ لَيلةٌ بعَينِها، وهيَ: الحادِيةُ والعِشرونَ، والثالثةُ والعِشرونَ، والخامِسةُ والعِشرونَ، والسَّابعةُ والعِشرونَ، والتاسعةُ والعِشرونَ.





وفي حديثِ أُبَيٍّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ الله عنه يُبَيِّنُ أنَّها في اللَّيلةِ التي صُبحُها يومُ السَّابعِ والعِشرين مِن رمَضانَ، ثمَّ ذكَرَ لها عَلامةً وأمارةً تدُلُّ عليها؛ فإنَّ الشَّمسَ تَطلُعُ في صَبيحةِ يَومِها بَيضاءَ، فيَنتشِرُ ضَوءُها بلا شُعاعٍ، كما يُضيءُ القَمرُ بلا شُعاعٍ، وقَدِ اخْتلَفَ العُلماءُ في تَحديدِ لَيلةِ القَدْرِ على أكثرَ مِن أربعينَ قولًا، وأرْجاها أنَّها في أوتارِ العَشْرِ الأواخِرِ، كما بيَّنَتْها السُّنَّةُ المُطَهَّرةُ، ومِن حِكمةِ اللهِ تعالى أنَّه أخْفاها عنِ الناسِ؛ لكي يَجتَهِدوا في الْتِماسِها في اللَّيالي، فيُكثِروا مِن العِبادةِ التي تَعودُ عليهمْ بالنَّفعِ.





أحكامٌ مُتفَرِّقةٌ في الصلاةِ

سُتْرةُ المُصَلِّي

عن طَلحةَ بنِ عُبَيدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا وضَعَ أحَدُكم بيْنَ يَدَيهِ مِثْلَ مُؤْخِرَةِ الرَّحْلِ فلْيُصَلِّ، ولا يُبالِ مَن مَرَّ وراءَ ذلكَ))[١].



في هذا الحَديثِ يُبيِّنُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحكامَ السُّترةِ، فيَقولُ: «إذا وضَعَ أحَدُكُم بيْنَ يَدَيْهِ مِثْلَ مُؤْخِرَةِ الرَّحْلِ فلْيُصَلِّ»، والمُرادُ: أنَّه إذا أراد أنْ يُصلِّيَ الإنسانُ فلْيَتَّخِذْ لِنَفسِه سُترةً بيْنه وبيْن المارِّ؛ حتى لا يَقطَعَ عليه صَلاتَهُ، ومُؤْخِرةُ الرَّحلِ هي: الخَشَبةُ التي يَستنِدُ إليها الرَّاكبُ على البَعيرِ، ويُقدَّرُ ارتفاعُها بذِراعٍ أو ثُلُثَي ذِراعٍ، وحَدُّ مَوضِعِ السُّترةِ مِن المُصلِّي: أقلُّه ما يَكفي للرُّكوعِ والسُّجودِ والتَّمكُّنِ مِن دفْعِ المارِّ بيْنَ المُصلِّي وسُترتِهِ، «ولا يُبالِ مَن مَرَّ وراءَ ذلكَ»، بمَعْنى: لا يَضُرُّه ما يَمُرُّ مِن وراءِ تلك السُّترةِ، والمُرادُ بالضَّررِ: الرَّاجعُ إلى نُقصانِ صَلاةِ المُصلِّي، وذلك إشعارٌ بأنَّه لا يَنقُصُ شَيءٌ مِن صَلاةِ مَنِ اتَّخذ سُترةً بمُرورِ مَن مرَّ بيْنَ السُّترةِ والقِبلَةِ، ويَحصُلُ النَّقصُ إذا لم يَتَّخِذْ سُترةً، وكذا إذا مرَّ المارُّ بيْنه وبيْن السُّترةِ.

المُرورُ بينَ يَدَيِ المُصَلِّي

عن بُسْرِ بنِ سَعيدٍ، أنَّ زَيدَ بنَ خالِدٍ أرْسَلَه إلى أبِي جُهَيمٍ يَسْأَلُه: ماذا سَمِعَ مِن رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في المَارِّ بيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي؟ فقال أبو جُهَيمٍ: قال رَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لو يَعْلَمُ المَارُّ بيْن يَدَيِ المُصَلِّي ماذا عليه لَكان

(١) أخرجه مسلم (٤٩٩).

أنْ يَقِفَ أرْبعِينَ خَيرًا له مِن أنْ يَمُرَّ بيْن يَدَيهِ!)) قال أبو النَّضْرِ: لا أدْرِي أقالَ: أرْبعِينَ يَومًا، أوْ شَهرًا، أوْ سَنةً[1].

في هذا الحَديثِ يُخبِرُ التَّابعيُّ بُسرُ بنُ سَعيدٍ: «أنَّ زَيدَ بنَ خَالِدٍ أرْسَلَهُ إلى أبِي جُهَيمٍ يَسْأَلُه: ماذا سَمِعَ مِن رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في المَارِّ بيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي؟» بمَعْنى: ما حُكمُ وما جزاءُ الذي يمُرُّ أمامَ المصَلِّي بالقُرْبِ منه؟ فقال أبو جُهَيمٍ رَضِيَ اللهُ عنه: «قالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: لو يَعلَمُ المَارُّ بيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي ماذا عليه»: لو يَعلَمُ مَن يَجرُؤُ على المرورِ عَمْدًا أمامَ المُصلِّي ما يَترتَّبُ على ذلك مِن الإثمِ، «لَكانَ أنْ يَقِفَ أرْبعينَ خَيرًا له مِن أنْ يَمُرَّ بيْن يَدَيْه»، أي: لَاختارَ أنْ يَقِفَ المدَّةَ المذكورةَ حتى لا يَلحَقَه ذلك الإثمُ، ولبَقِيَ مُنتظِرًا في مكانِه، وما تَجرَّأَ أنْ يمُرَّ مِن أمامِ المُصلِّي حتى يَفرُغَ مِن صَلاتِه وإنْ طالَتْ.

قال أبو النَّضرِ مَولى عُمَرَ بنِ عُبَيدِ اللهِ راوي الحَديثِ عن بُسرِ بنِ سَعيدٍ: «لا أدْرِي، أقالَ: أرْبعينَ يَومًا، أوْ شَهرًا، أوْ سَنةً».

الجَمْعُ في السَّفرِ والمَطَرِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وعن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جَمَعَ بيْنَ الصَّلاةِ في سَفْرةٍ سافَرَها في غَزْوةِ تَبُوكَ، فجَمَع بيْن الظُّهْرِ والعَصْرِ، والمَغْرِبِ والعِشاءِ)). قال سَعيدٌ: فقُلتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: ما حمَلَه على ذلك؟ قال: أرادَ ألَّا يُحْرِجَ

(١) أخرجه البخاري (٥١٠) واللفظ له، ومسلم (٥٠٧).

أُمَّتَه. وفي رِوايةٍ أنَّه قال: ((جمَعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْن الظُّهرِ والعَصرِ، والمغرِبِ والعِشاءِ، بالمدينةِ مِن غيرِ خوفٍ ولا مَطرٍ)). فقيل لابنِ عَبَّاسٍ: ما أرادَ إلى ذلك؟ قال: أرادَ ألَّا يُحرِجَ أُمَّتَه[1].

شَريعةُ الإسلامِ شَريعةٌ سَمْحةٌ، وأحكامُها كلُّها مَبنيَّةٌ على التَّخفيفِ واليُسرِ والسُّهولةِ، لا على العَنتِ والمَشقَّةِ والضِّيقِ؛ فما كلَّفَ اللهُ العِبادَ إلَّا بما يَقدِرونَ عليه، ورفَعَ عنهم كلَّ ما فيه حرَجٌ، فلمْ يَتعبَّدْهم به، **وقد جاءتْ الآيةُ الكريمةُ الأُولَى في** سِياقِ الحَديثِ عن فَريضةِ الصَّومِ وأحكامِه، ومِن ذلِك تَرخيصُه تعالَى في الإفطارِ لِمَن كان مَريضًا أو مُسافرًا، ثمَّ قَضاءِ ما أفطَرَه؛ وذلك لأنَّه يُحِبُّ أنْ يُخفِّفَ عن عِبادِه، ويُسهِّلَ عليهم أحكامَه، وهي قاعدةٌ عامَّةٌ في كلِّ التَّشريعاتِ؛ فالعِبرةُ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّببِ.

وفي الآيةِ الأُخرَى في سُورةِ الحجِّ يُبيِّن ربُّنا جلَّ وعلَا أنَّه ما جعَلَ على أُمَّةِ الإسلامِ في الدِّينِ الذي تعبَّدها به مِن ضِيقٍ لا مَخرَجَ لهم ممَّا ابتُلوا به فيه؛ بلْ وسَّع عليهم، فجعَلَ لكلِّ شيءٍ مَخرجًا، كالتَّوبةِ والكفَّارةِ، والقِصاصِ؛ فلا شَيءَ يَفعَلُه المؤمِنُ ولا ذَنْبَ يُذنِبُه، إلَّا وله منه في دِينِ الإسلامِ وشَريعتِه مَخرجٌ.

وقد فرَضَ اللهُ عزَّ وجلَّ الصَّلاةَ وحدَّدَ أوقاتَها، ولا يسَعُ المُسلِمَ تَرْكُها في حَضَرٍ ولا سَفَرٍ، ولا سِلْمٍ ولا حربٍ؛ فلا يَجوزُ لمسْلمٍ أنْ يُؤخِّرَ الصَّلاةَ عنْ وقتِها إلَّا بعُذرٍ، ومِن تلك الأعذارِ مُراعاةُ أحوالِ الناسِ في الاضْطرارِ والشِّدَّةِ، والخَوفِ والأمنِ، وقدْ رخَّصَ اللهُ لعِبادِه في الجَمْعِ بيْن الصَّلاتَينِ في السَّفرِ، وفي اليَومِ المطيرِ الذي يشُقُّ على النَّاسِ مَجيئُهم للمسجِدِ، **وفي هذا الحديثِ** يُخبِرُ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ

(١) أخرجه مسلم (٧٠٥).





رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جَمَعَ في سَفْرةٍ سافَرَها في غَزْوةِ تَبُوكَ، وكانت تِلك الغزوةُ بيْن المُسلِمينَ والرُّومِ في السَّنةِ التَّاسعةِ مِن الهِجْرةِ، فجمَعَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ الظُّهْرِ والعَصْرِ معًا، والمَغرِبِ والعِشاءِ معًا؛ فهذا جمْعٌ في السَّفرِ وحالِ الخوفِ، وأمَّا الجمْعُ في اليومِ المَطيرِ مِن غيرِ سَفرٍ ولا خَوفٍ؛ وقولُه في الرِّوايةِ الأُخرى: «مِن غيرِ خَوفٍ ولا مَطرٍ» فدَليلٌ على أنَّ الجَمْعَ للمَطرِ كان مَعروفًا في عَهدِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولو لم يَكُنْ كذلك لَمَا كان ثَمَّةَ فائدةٌ مِن نَفْيِ المطرِ كسَببٍ مُسوِّغٍ للجمْعِ. والمطرُ معنًى يَلحَقُ به المَشقَّةُ غالبًا؛ فكانَ له تَأثيرٌ في الجمْعِ وأداءِ الصَّلاةِ في وَقتِ الضَّرورةِ، كالسَّفرِ والمرَضِ.

وللجَمعِ في السَّفرِ بيْنَ كلِّ صَلاتَينِ طَريقتانِ حسَبَ ما يَتيسَّرُ؛ الأُولى: جمْعُ تَقديمٍ، وهو أنْ يُصلِّيَ العَصْرَ معَ الظُّهرِ في وقْتِ الظُّهرِ، والعِشاءَ مع المَغرِبِ في وَقتِ المَغرِبِ، والثَّانيةُ: جَمعُ تَأخيرٍ، وهو أنْ يُصلِّيَ الظُّهرَ مع العَصْرِ في وقْتِ العَصْرِ، ويُصلِّي المغرِبَ مع العِشاءِ في وقْتِ العِشاءِ، وهذا كلُّه مَع قَصْرِ الصَّلَواتِ الرُّباعيَّةِ إلى رَكعتَينِ في السَّفَرِ؛ فتكونُ الصَّلاةُ جمْعًا وقَصْرًا، وليس في صَلاةِ المَغربِ قَصْرٌ، أمَّا في حالِ المطَرِ في الحَضَرِ فجَمْعُ تَقديمٍ وبدونِ قَصْرٍ.

ثمَّ سَألَ التابعيُّ سَعِيدُ بنُ جُبَيرٍ شَيخَه ابنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، فقال: «ما حَمَلَه على ذلكَ؟»، أي: ما سَببُ تلك الرُّخصةِ؟ فقال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: «أراد ألَّا يُحْرِجَ أُمَّتَه»، وهذا مِن التَّيسيرِ ودَفعِ الحَرَجِ ورفْعِ المشقَّةِ، والحرجُ مَرفوعٌ عن هذه الأُمَّةِ.

الصَّلاةُ بحَضرةِ الطَّعامِ أو معَ مُدافَعةِ البَولِ والغائِطِ

عنْ أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا قُرِّبَ العَشاءُ، وحَضَرَتِ الصَّلاةُ، فابْدَؤُوا به قبْلَ أنْ تُصلُّوا صَلاةَ المَغْرِبِ، ولا تَعْجَلُوا



عن عَشائِكم))[1].

وعن ابنِ أبي عَتيقٍ، قال: تَحدَّثْتُ أنا والقاسِمُ عِندَ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عنْها حَديثًا، وكانَ القاسِمُ رَجُلًا لَحَّانةً، وكان لِأُمِّ ولَدٍ، فقالتْ له عائشةُ: ما لكَ لا تَحَدَّثُ كما يَتَحَدَّثُ ابنُ أخِي هذا؟ أمَا إنِّي قدْ عَلِمْتُ مِن أينَ أُتِيتَ؛ هذا أدَّبَتْهُ أُمُّه، وأنْتَ أدَّبَتْكَ أُمُّك! قال: فغَضِبَ القاسِمُ وأَضَبَّ عليها، فلمَّا رَأى مائدةَ عائشةَ قدْ أُتِيَ بها قام. قالتْ: أينَ؟ قال: أُصَلِّي. قالت: اجْلِسْ. قال: إنِّي أُصَلِّي. قالت: اجْلِسْ غُدَرُ! إنِّي سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((لا صَلاةَ بحَضْرَةِ الطَّعَامِ، ولا هو يُدافِعُه الأخْبَثانِ))[2].



الصَّلاةُ عِبادةٌ يُتطلَّبُ لها حُضورُ القَلْبِ، وصَفاءُ العَقلِ؛ فيَنبَغي للمُصلِّي إبعادُ كُلِّ ما يَشغَلُه في صَلاتِه، **وفي حديثِ أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه** يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا صادَفَ وضْعُ العَشَاءِ إقامةَ الصَّلاةِ، فالبَدءُ يكونُ بأكْلِ طعامِ العَشاءِ، ولا يَعجَلُ الرَّجلُ حتى يَفرُغَ منه، فإذا انتَهى مِن طَعامِهِ صلَّى ما عليه من فَريضةٍ؛ سواءٌ لَحِقَ الجماعةَ أو لم يَلحَقْ بها، وهذا الحُكمُ مُطلَقٌ في كُلِّ طَعامٍ يُصادِفُ وَقتَ الصَّلاةِ؛ فالبَدءُ بالطَّعامِ مُقدَّمٌ على البَدءِ بالصَّلاةِ إذا اجتَمَعا، ويَتأكَّدُ هذا بحَديثِ مُسلِمٍ عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: «لا صَلاةَ بحَضْرَةِ الطَّعامِ»، فيُفهَمُ مِن الحَديثِ أنَّ تَجْريدَ النَّفسِ عنِ الشَّواغلِ الدُّنيويَّةِ أثناءَ الصَّلاةِ هو أمرٌ مطلوبٌ ومُرغَّبٌ فيه، وأنَّه يُقدِّمُ فَضيلةَ الخُشوعِ في الصَّلاةِ على فَضيلةِ أوَّلِ الوَقتِ، ولو فاتَتْهُ الجماعةُ، مع عدَمِ اتِّخاذِ ذلك عادةً.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٢)، ومسلم (٥٥٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٥٦٠).

وفي الحَديثِ الثَّاني يقولُ ابنُ أبي عَتيقٍ -وهو عبدُاللهِ بنُ مُحمَّدِ بنَ عبدِالرَّحمنِ ابنِ أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ-: «تحدَّثْتُ أنا والقاسِمُ»، وهو ابنُ مُحمَّدِ بنِ أبي بَكرٍ، «عِندَ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها حَديثًا» فذكَرَ كَلامًا، ويَحتمِلُ أنَّهما تَكلَّمَا بحَديثٍ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومُجالستُهُما لِعائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها لأنَّها عمَّتُهما، قال عبدُاللهِ: «وكانَ القاسِمُ رَجُلًا لَحَّانةً»، بمَعْنى أنَّه يُخطِئُ في كَلامِهِ فلا يَأتي باللُّغةِ العربيَّةِ على وَجهِها الصَّحيحِ، فقالتْ عائشةُ للقاسِمِ: «ما لكَ لا تَحَدَّثُ كما يَتَحدَّثُ ابنُ أخي هذا؟ أمَا إنِّي قد علِمْتُ مِن أين أُتِيتَ؛ هذا أدَّبَتْه أُمُّه، وأنت أدَّبَتْكَ أُمُّك» وكانت أُمُّه أُمَّ وَلَدٍ، واسمُها سَودَةُ، «مِن أينَ أُتيتَ»، أي: مِن أين أتى عليك هذا اللَّحنُ، ومَعْنى ذلك أنَّ أُمَّ القاسِمِ غيرُ عَربيَّةٍ، وقد أثَّرتْ لَهجتُها في لِسانِ ابنِها، فلمَّا سَمِعَ القاسمُ هذا غَضِبَ وأضَبَّ عليها، أي: حَقَدَ، فلمَّا رأى مائدةَ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قد أُتِيَ بها قامَ، فسَألَتْهُ: أينَ؟ قال: أُصَلِّي، فأَمَرتْه بالجُلوسِ، وقالتْ له: «اجلِسْ غُدَرُ»، أي: يا غادِرُ، قالت له ذلك؛ لأنَّه مَأْمورٌ باحترامِها؛ لأنَّها أمُّ المؤمنين وعمَّتُه وأكبَرُ منه، وناصحَةٌ له ومُؤدِّبَةٌ، فكان حقُّه أنْ يَحتمِلَها ولا يَغْضَبَ عليها. وقيلَ: إنَّما سمَّتْه غُدَرَ؛ لِمَا أظهَرَ مِن أنَّ تركَه طَعامَها مِن أجْلِ قِيامِه للصَّلاةِ، لا لأجْلِ حِقدِه عليها ممَّا قالتْ له وعيَّرته به مِن لَحْنِه وتَأديبِ أُمِّه له. ثُمَّ ذَكَرَتْ له ما سَمِعَتْه مِن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّه قال: «لا صَلاةَ بحَضْرةِ الطَّعامِ»، أي: لا صَلاةَ كامِلةٌ بحُضورِ طَعامٍ يُريدُ أكْلَه، وإنَّما أمَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُبدَأَ بالطَّعامِ؛ لتَأخُذَ النَّفسُ حاجتَها منه، فيَدخُلَ المصلِّي في صَلاتِه وهو ساكِنُ الجأْشِ لا تُنازِعُه نَفسُه شَهوةَ الطَّعامِ، فيُعجِلُه ذلك عن إتمامِ رُكوعِها وسُجودِها وإيفاءِ حُقوقِها. ولا صَلاةَ كاملةٌ أيضًا والمُصلِّي «يُدافِعُه الأخْبَثانِ»، وهما البَولُ والغائطُ؛ لِمَا فيه مِن اشتِغالِ القَلْبِ به وذَهابِ كَمالِ الخشوعِ؛ فالأَوْلى لِمَنْ حَضَرتْه الصَّلاةُ أنْ يَبدَأَ بقَضاءِ حاجتِه، ولا يُصَلِّي وهو مَحصورٌ بهما أو بأحَدِهما.



مَن نام عن صَلاةٍ أو نَسِيَها

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن نَسِيَ صَلاةً فَلْيُصَلِّهَا إذا ذَكَرَها، لا كَفَّارةَ لَها إلَّا ذلك)). قال قَتادةُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤][1].

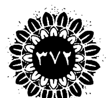
وفي روايةٍ عنه، قالَ: قالَ نَبِيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن نَسِي صلاةً، أوْ نامَ عنها، فكَفَّارَتُها أنْ يُصَلِّيَها إذا ذكَرَها))[2].

في هذا الحَديثِ يقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «مَن نَسِيَ صَلاةً فلْيُصَلِّها إذا ذَكَرَها»: مَن نَسِيَ أداءَ أيِّ صلاةٍ حتى خَرَج وقْتُها -وكذلك مَن نام عنها كما في الروايةِ الثانيةِ- فلْيُبادِرْ وليُسرِعْ إلى قَضائِها حالَ تَذكُّرِه لها، «لا كَفَّارةَ لها إلَّا ذلكَ»: لا مَحْوَ ولا سَتْرَ لذَنْبِ تَرْكِها -ولو نِسيانًا- إلَّا أنْ يُصلِّيَها المُسلِمُ عِندَ تذَكُّرِها، كَما قالَ اللهُ في كتابِهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، أي: أَقِمِ الصَّلاةَ عندَ ذِكْرِها. وقيلَ غَيرُ ذلك في معْنى الآيةِ.



(١) أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٦٨٤).



الجَنائزُ

تَلقينُ المُحتَضَرِ (لا إلهَ إلا اللّه)

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضيَ اللهُ عنه يَقولُ: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لَقِّنوا مَوتاكم لا إلهَ إلَّا اللَّهُ))[1].

في هذا الحديثِ يُرشِدُنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى أنْ نُلَقِّنَ المَيِّتَ «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، بمَعنى: قُولوها لِمَن حَضَرتْه نَزَعاتُ المَوتِ، ورَدِّدوها مَعه حتى يَقولَها، وهذا إرشادٌ مِنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِأُمَّتِه إلى أهمِّيَّةِ كَلِمةِ التَّوحيدِ في الحَياةِ وعِندَ المَماتِ؛ لِأنَّ هذه الكَلمةَ هي العاصِمةُ لِلدَّمِ في الدُّنيا لِكُلِّ مَن قالَها، فإذا قالَها القادِمُ على الآخِرةِ فإنَّه يُرجَى أنْ تَكونَ عاصِمةً له مِن عَذابِ الآخِرةِ، كما كانت عاصِمةً مِن عَذابِ الدُّنيا، ولِأنَّه -كما في الحديثِ الصَّحيحِ-: ((مَن كانَ آخِرُ كَلامِه لا إلهَ إلَّا اللهُ، وجَبَتْ له الجَنةُ))[2]، والأمرُ بالتَّلقينِ أمرُ نَدبٍ، ويُكْرَهُ الإكثارُ عليه والمُوالاةُ؛ لِئلاَّ يَضجَرَ بضِيقِ حالِه وشِدَّةِ كَربِه، فيَكرَهَ ذلك بقَلبِه، ويَتكَلَّمَ بما لا يَليقُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣١١٦)، وأحمد (٢٢١٢٧) واللفظ له، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عنه.

صحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (١٢٩٩)، وقال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٢/ ٣٦٩): ثابتٌ صحيحٌ مِن طُرُقٍ كثيرة. وحَسَّن إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٥/ ١١٠)، وصَحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣١١٦)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣١١٦).



تَعجيلُ قَضاءِ الدَّينِ عن المَيِّتِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء: ١١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((نفْسُ المؤمنِ مُعَلَّقةٌ بدَيْنِه حتى يُقْضَى عنه))(١).

حَذَّر الشَّرعُ مِن التَّهاونِ في أَداءِ حُقوقِ النَّاسِ، ومِن ذلك الدَّيْنُ، فعَلى المُسلمِ أنْ يَسْتعينَ باللهِ في قَضاءِ دُيونِه؛ حتى لا يَأْتِيَه أجَلُه وفي ذِمَّتِهِ دَينٌ لِأحدٍ.

وقد ذَكَر اللهُ تعالى في كتابِه أنَّ المواريثَ تُستَحقُّ لأهْلِها ممَّا تَبقَّى مِن تَركةِ الميِّتِ بعدَ تَنفيذِ وَصيَّتِه المشروعةِ الثَّابتةِ عنه -على ألَّا تَتجاوَزَ ثُلُثَ مالِ الميِّتِ، إلَّا إذا أجاز الوَرَثةُ تلك الزِّيادةَ، وألَّا تكونَ لوارثٍ، وألَّا تكونُ بشَيءٍ مُحرَّمٍ- وبعدَ قَضاءِ دُيونِه، وقد حكى عددٌ مِن أهلِ العِلمِ الإجماعَ على أنَّ قَضاءَ دَينِ الميِّتِ مُقَدَّمٌ على تَنفيذِ وَصيَّتِه.

وقد قيل: إنَّ الوصيَّةَ ذُكِرَت في الآيةِ قبْلَ الدَّينِ، مع أنَّها مُتأخِّرَةٌ عنه في الحُكمِ؛ لأنَّها مُشابِهةٌ للميراثِ في كَونِها مأخوذةً مِن غيرِ عِوَضٍ، فإخراجُها ممَّا يشُقُّ على الوَرَثةِ ولا تَطيبُ أنفُسُهم بها، فكان أداؤُها مَظِنَّةً للتفريطِ، بخلافِ الدَّيْنِ؛ فلذلك قُدِّمَت عليه بَعْثًا على وُجوبِها، والمُسارَعةِ إلى إخراجِها. وقيل: قُدِّمتِ الوصيَّةُ؛ لأنَّها

(١) أخرجه من طُرقٍ الترمذي (١٠٧٩)، وابن ماجه (٢٤١٣) واللفظ لهما، وأحمد (١٠٥٩٩).
حَسَّنه الترمذي، وصَحَّحه يحيى بن مَعِين، كما في ((تاريخ دمشق)) (٤٥/ ٧٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٣٢) وقال: على شرط الشيخين. وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٣/ ٢٠١)، وابن عبد البر في ((الاستذكار)) (٤/ ١٠١)، وابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (١٤/ ١٢٠)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٤١٣).



حظُّ مساكينَ وضِعافٍ، وأُخِّر الدَّينُ لأنَّه حظُّ غَريمٍ يَطلُبُه بقوَّةٍ.

وفي حَديثِ أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ رُوحَ المؤمنِ الذي مات وعليه دَيْنٌ مَحبوسةٌ عنِ النَّعيمِ. وقيلَ: مُتوقَّفٌ في أمْرِها، لا يُعرَفُ لها نجاةٌ أو هلاكٌ. أو أنَّه لا يَظفَرُ بمَقصودِه مِن دُخولِ الجنَّةِ، أو مِن المرتبةِ العاليةِ حتى يُسدَّدَ عنه دَينُه.

قيل: إنَّ هذا مُقيَّدٌ بمَن قدَر على القَضاءِ وخالَفَ في الوفاءِ به؛ فهذا حثٌّ لورَثتِه على قَضائِه، أمَّا الذي استدانَ لحاجةٍ ولم يكُنْ له مالٌ، وكان في نفْسِه الحِرصُ على القضاءِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى هو الذي يَقضِي عنه، كما جاء عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن أخَذ أموالَ النَّاسِ يُريد أداءَها أدَّى اللهُ عنه، ومَن أخَذ يُريدُ إتلافَها أتلَفَه اللهُ))(1).

وفي الحَديثِ: حثٌّ على قَضاءِ الدَّينِ، فإنْ لم يَقدِرْ قضَى ذلك عنه ورَثتُه، فإنْ لم يَقدِروا سعَى لذلك مَن يَقدِرُ مِن المسلِمين.

صِفَةُ الغُسلِ والتَّكفينِ

عن أُمِّ عَطيَّةَ رضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: لَمَّا غَسَّلْنا بنتَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال لنا ونحنُ نَغْسِلُها: ((ابدَؤُوا بمَيامِنِها، ومَواضِعِ الوُضوءِ منها))(2).

وعن أُمِّ عَطيَّةَ رضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: تُوُفِّيَتْ إحْدَى بَناتِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فَأتانا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقال: ((اغْسِلْنَها بالسِّدرِ وِترًا؛ ثلاثًا أو خَمْسًا، أو أكثَرَ مِن ذلك إنْ رأَيْتُنَّ ذلك، واجْعَلْنَ في الآخِرةِ كافُورًا -أو شَيئًا مِن كافُورٍ-،

(1) أخرجه البخاري (٢٣٨٧).

(2) أخرجه البخاري (١٢٥٦) واللفظ له، ومسلم (٩٣٩).



فإذا فَرَغْتُنَّ فآذِنَّني، فلمَّا فَرَغنا آذَنَّاه، فألْقى إلينا حِقْوَهُ، فضَفَرْنا شَعَرَها ثلاثةَ قُرونٍ، وألْقَيْناها خَلْفَها))[1].

وعن عائِشةَ رضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كُفِّنَ في ثلاثةِ أثوابٍ يَمانِيَةٍ بِيضٍ، سَحُولِيَّةٍ، مِن كُرْسُفٍ، ليس فيهِنَّ قَميصٌ ولا عِمامةٌ))[2].



في الحديثِ الأوَّلِ تَرْوي الصَّحابيَّةُ الجليلةُ أُمُّ عَطيَّةَ رضِيَ اللهُ عنها، أنَّهنَّ لَمَّا غَسَّلْنَ بنتَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -وهي ابنتُه زَيْنَبُ رضِيَ اللهُ عنها، وكانتْ وَفاتُها في أوَّلِ السَّنةِ الثَّامنةِ مِن الهِجرةِ- قال لهنَّ وهُنَّ يُغَسِّلْنَها: «ابدَؤُوا بمَيامِنِها، ومَواضِعِ الوُضوءِ منها»، فبعْدَ إنقاءِ المَيِّتِ ممَّا به مِن نَجاساتٍ ونَحوِها، وغَسْلِ الرَّأسِ، يَبدأُ القائمُ على تَغسيلِ المَيِّتِ بغَسْلِ الجَنبِ الأيمَنِ للمَيِّتِ، ثمَّ يَنتقِلُ للجانبِ الأيسَرِ، ويُقَدِّمُ غَسْلَ أعضاءِ الوُضوءِ قبْلَ مُباشَرةِ غَسْلِ الجسَدِ كما يَفعَلُ الحَيُّ في الغُسلِ مِن الجَنابةِ، وهذا مِن آدابِ غُسلِ المَيِّتِ وسُننِه؛ ويُكتَفَى بالمَسحِ بخِرقةٍ مَبلولةٍ بالماءِ في المَضمَضمةِ والاستِنشاقِ، ولا يُدخِلُ الماءَ في فَمِه ولا أَنفِه.

وفي الحديثِ الثَّاني تُخبِرُ أُمُّ عَطيَّةَ رضِيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمَرَ مُغسِّلاتِ ابنتِه رضِيَ اللهُ عنها أنْ يَغسِلْنَها «بالسِّدْرِ»؛ بأنْ يُجعَلَ السِّدرُ -وهو ورَقُ شَجَرِ النَّبْقِ- في ماءٍ ويُخَضْخَضَ حتى تَخرُجَ رَغوتُه ويُدلَكَ به جسَدُ المَيِّتِ ثلاثًا، أو خَمسًا، أو أكثرَ مِن ذلك بحسَبِ ما تَراهُ النِّساءُ المُغسِّلاتُ مِن الحاجةِ إلى المَزيدِ مِن الغَسلِ، فيَزِدْنَ في الغَسلِ ويَجعَلْنَه وِترًا، إلَّا أنَّهُنَّ يَجعَلْنَ في ماءِ آخِرِ غَسْلةٍ كافورًا أو شَيئًا منه -وهو طِيبٌ مُعطِّرٌ- حتى يَتطيَّبَ جميعُ جسَدِ المَيِّتِ.

(١) أخرجه البخاري (١٢٦٣) واللفظ له، ومسلم (٩٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٦٤) واللفظ له، ومسلم (٩٤١).

ثُمَّ قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فإذا فَرَغْتُنَّ» وانتَهَيْتُنَّ مِن الغُسلِ، «فآذِنَّني»، أي: فأَعْلِمْنَني بانتِهاءِ الغُسلِ، قالت أُمُّ عَطيَّةَ رضِيَ اللهُ عنها: «فلمَّا فرَغْنا آذَنَّاهُ، فألْقى إلينا حِقْوَهُ» وهو إزارُه الذي يُغطِّي به بعضَ جسَدِه، أعطاهُ لهُنَّ لِيَجعَلْنَه في كفَنِ ابنتِه شِعارًا، بحيثُ يُلاصِقُ بَشَرتَها وجِلدَها، والمرادُ مِن ذلك: إيصالُ بَرَكتِه عليه السَّلامُ إليها. ثمَّ قالتْ أُمُّ عَطيَّةَ: «فضَفَرْنا شَعَرَها ثلاثةَ قُرونٍ»، أي: ثَلاثَ ضَفائرَ، ثم أَلْقَيْنَها خَلْفَ رَأسِها.

وفي **الحديثِ الثَّالثِ** تَرْوي أُمُّ المُؤمِنينَ عائِشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كفَّنه أصحابُه في ثَلاثةِ أثوابٍ يَمانِيَةٍ بِيضٍ، فلُفَّ جَسَدُه الشَّريفُ بعْدَ تَغسيلِه في ثَلاثةِ أثوابٍ بِيضٍ ممَّا صُنِع في اليمَنِ، و«سُحوليَّة» -بضمِّ السِّين- جمْع سُحْل، وهو الثَّوبُ الأبيضُ، و«سَحُوليَّة» -بفتْحِ السِّين- نِسبةً إلى قَريةٍ باليَمنِ اسْمُها سَحُولُ تَصنَعُ القُطنَ، «مِن كُرْسُفٍ»، أي: مِن القُطنِ الأبيضِ، ولم يكُنْ في هذه الأثوابِ قَميصٌ ولا عِمامةٌ. والذي تَولَّى غُسْلَه وتَكفينَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: علِيُّ بنُ أبي طالبٍ، والفَضلُ بنُ العبَّاسِ، وقُثَمُ بنُ العبَّاسِ رضِيَ اللهُ عنهم، وكان أُسامةُ بنُ زَيدٍ وشُقْرانُ وأوْسُ بنُ خَوْليٍّ مُعاوِنينَ لهم في ذلك، رضِيَ اللهُ عنهم جميعًا.

وقد تُوُفِّيَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَنةَ إحْدَى عَشْرةَ مِن الهِجرةِ، وكانتْ مُدَّةُ مرَضِه اثنَيْ عَشَرَ يَومًا، ومات في بَيتِ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، ودُفِن في بَيتِها، وصَلَّى عليه المُسلِمونَ أفرادًا بعْدَ أنْ كُفِّنَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ!

صِفَةُ صَلاةِ الجِنازةِ

عن طَلْحةَ بنِ عبدِاللهِ بنِ عَوفٍ، قال: صلَّيتُ خلْفَ ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما على جِنازةٍ، فقرَأ بفاتحةِ الكِتابِ، قال: ((لِيَعْلَموا أنَّها سُنَّةٌ))[1].

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٥).



وعن أبي أُمامةَ بنِ سَهلٍ: أنَّه أخبَره رجُلٌ مِن أصحابِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((أنَّ السُّنَّةَ في الصَّلاةِ على الجِنازةِ أن يُكَبِّرَ الإمامُ، ثمَّ يَقرَأَ بفاتحةِ الكِتابِ بعْدَ التَّكبيرةِ الأُولى سِرًّا في نفْسِه، ثمَّ يُصلِّيَ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويُخلِصَ الدُّعاءَ للجنازةِ في التَّكبيراتِ، لا يَقرَأُ في شَيءٍ مِنهُنَّ، ثمَّ يُسلِّمَ سرًّا في نفْسِه))[1].

وعن عَوفِ بنِ مالِكٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: صَلَّى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على جِنازةٍ، فحَفِظْتُ مِن دُعائِه وَهو يقولُ: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ له وارْحَمْه، وعَافِه واعْفُ عنْه، وأَكْرِمْ نُزُلَهُ، ووَسِّعْ مُدْخَلَهُ، واغْسِلْهُ بالماءِ والثَّلْجِ والْبَرَدِ، ونَقِّهِ مِن الخَطايَا كما نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأبْيَضَ مِن الدَّنَسِ، وأَبْدِلْهُ دارًا خَيرًا مِن دارِهِ، وأَهْلًا خَيرًا مِن أَهْلِهِ، وزَوْجًا خَيرًا مِن زَوْجِهِ، وأَدْخِلْهُ الجَنةَ وأَعِذْهُ مِن عَذابِ القَبْرِ، أو مِن عَذابِ النَّارِ. قالَ: حتى تمَنَّيْتُ أنْ أكُونَ أنا ذلكَ المَيِّتَ!))[2].



لِصلاةِ الجِنازةِ هَيئةٌ مَخصوصةٌ بخِلافِ هَيئةِ الصَّلواتِ الأُخرى.

وفي الحديثِ الأوَّلِ يَحكي طَلْحةُ بنُ عبدِاللهِ رحِمَه اللهُ أنَّه صلَّى على جنازةٍ -والجِنازةُ: اسمٌ للميِّتِ في النَّعشِ- خلْفَ ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، فقَرَأَ ابنُ عبَّاسٍ فيها بفاتحةِ الكتابِ، وقال: «لِيَعلَموا أنَّها سُنَّةٌ»، أي: أنَّ قِراءةَ الفاتِحةِ في صَلاةِ الجِنازةِ سُنَّةٌ ثابِتةٌ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّه فَعَلها. قيل: وليس المرادُ بِسُنِّيَّتِها أنَّها ليست بواجبةٍ، بل المرادُ بها ما يُقابِلُ البِدعةَ، وقد قال بعضُهم: إنَّه لا قِراءةَ فيها،

---

(١) أخرجه الشافعي في ((الأم)) (٢/ ٦٠٨)، والبيهقي (٧٢٠٩).

صحَّح إسنادَه ابنُ القيِّمِ في ((جِلاء الأفهام)) (١٩٢)، وصحَّحه موقوفًا ابنُ حجَرٍ، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علَّان (٤/ ١٧٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((أحكام الجنائز)) (١٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٣).



وإنَّما هي ثَناءٌ على اللهِ تعالى، وصَلاةٌ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ودُعاءٌ للمَيِّتِ.

وفي الحديثِ الثَّاني يُخبِرُ أبو أُمامةَ بنُ سَهلٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ رجُلًا مِن أصحابِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم أَخبرَهم بسُنَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في صَلاةِ الجنازةِ، وما يُفعَلُ فيها؛ تَعليمًا لِمَن جاء بعْدَهم، وأداءً للأمانةِ الَّتي عليهم؛ فبَيَّنَ لهم أنَّ «السُّنَّة في الصَّلاةِ على الجنازةِ»، أي: إنَّ مِن فِعلِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في صَلاتِه على المَيتِ أنْ يُكبِّرَ الإمامُ تَكبيرةَ الإحرامِ، وتُحسَبُ تَكبيرةً أُولى مِن مَجموعِ تكبيراتِ صَلاةِ الجنازةِ، ثمَّ يَقرَأَ عَقِبَها بسُورةِ الفاتحةِ سِرًّا في نفْسِه ولا يَجهَرَ بها، ثمَّ يُكبِّرَ التَّكبيرةَ الثَّانيةَ، ثمَّ يُصلِّيَ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ثمَّ يَدعوَ للمَيتِ بعدَ التَّكبيرةِ الثالثةِ، ثمَّ يُكبِّرَ الرَّابعةَ ويَسكُتَ قليلًا، وقيل: بلْ يَدْعو أيضًا، ثمَّ يُسلِّم، «ويُخلِصَ الدُّعاءَ للجنازةِ في التَّكبيراتِ»، أي: أنْ يَجعَلوا دُعاءَهم له بخُضوعٍ وخُشوعٍ للهِ بالقَلْبِ والجَوارحِ، سائلِينَ له المَغفِرةَ والرَّحمةَ؛ وذلك لأنَّ الصَّلاةَ عليه إنَّما هي دُعاءٌ للمَيِّتِ يُرْجى مِن الله قَبولُها، ولا تُقْبَلُ الأعمالُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ إلَّا بالإخلاصِ، «لا يَقرَأُ في شَيءٍ مِنهُنَّ» ويَقصِدُ بذلك التَّكبيرةَ الثَّالثةَ والرَّابِعةَ؛ لأنَّهما يَختصَّانِ بالدُّعاءِ للميتِ، ويَكونُ المجموعُ بتكبيرةِ الإحرامِ أربعًا، ثمَّ يُسلِّم بعْدَ التَّكبيرةِ الرَّابعةِ.

وثبت أنَّ عبدَالله بنَ عُمرَ رضِيَ اللهُ عنهما كان إذا صَلَّى على الجنائزِ يُسَلِّمُ حتى يُسمِعَ مَن يَليهِ[1] يعني: يُسمِعُ تَسليمَه مَن يَقرُبُ منه مِن المُصلِّينَ، ويُرادُ بهم الصَّفُّ الأوَّلُ، والجهرُ بالتسليمِ مذهبُ الجمهورِ.

وفي الحديث الثالث يُخبِرُ عَوفُ بنُ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) أخرجه مالك (١/ ٢٣٠)، والبيهقي (٧٢٤٢).

صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((أحكام الجنائز)) (١٦٥)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((شرح السُّنة)) (٥/ ٣٤٧).



عليه وسلَّمَ «صلَّى عَلى جِنازةٍ»، قال عَوفٌ: «فحَفِظتُ مِن دُعائِه»؛ وذَلك يَدُلُّ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جَهَرَ بالدُّعاءِ في صلاةِ الجِنازةِ حتى سَمِعَه وحَفِظَه بعضُ الصَّحابةِ؛ لأنَّ الأصْلَ الإسرارُ بالقِراءةِ والدُّعاءِ للإمامِ والمأمومِ، فكان الجَهْرُ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للتَّعليمِ، فكان مِن دُعائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للميِّتِ: «اللَّهمَّ اغفِرْ لَه»: وذلك بمَحوِ السَّيِّئاتِ، «وارحَمْه»: بقَبولِ الطَّاعاتِ، «وعافِه»: وهوَ طلبٌ ودُعاءٌ بالمُعافاةِ، والمَعنى: خَلِّصْه مِن المَكروهاتِ، وسلِّمْه مِن العَذابِ والبَلايا، «واعفُ عنه»: اعفُ عمَّا وقَعَ منه مِن ذنوبٍ وتَقصيرٍ في الطاعاتِ، «وأَكرِمْ نُزُلَه»، يعني: أَكرِمْه في ضِيافتِه؛ لأنَّ الميِّتَ في ضِيافةِ اللهِ عزَّ وجلَّ إذا انتقَلَ مِن هذه الدُّنيا إلى قَبرِه، «ووَسِّع مُدْخلَه»: وَسِّعْ مَوضعَ دُخولِه الذي يَدخُلُ فيه -وهوَ قبرُه- فلا يُضيَّقُ عليه، «واغسِلْه بالماءِ والثَّلجِ والبرَدِ» والبرَدُ: حَبُّ الثَّلجِ الذي يَسقُطُ مِن السَّحابِ، والمَعْنى: طَهِّرْه مِن الذُّنوبِ والمَعاصي بأنواعِ المَغفِرةِ، كَما أنَّ هَذه الأَشياءَ أَنواعُ المُطهِّراتِ مِن الوَسَخِ والدَّنَسِ، وذَكَرَ الثَّلجَ والبَرَدَ؛ لأنَّهما بارِدانِ، وذَكَر الماءَ؛ لأنَّ بِهِ النَّظافةَ، والذُّنوبُ عُقوبتُها حارَّةٌ؛ فناسَبَ أنْ يَقْرِنَ معَ الماءِ الثَّلجَ، فيَحصُلَ بالماءِ التَّنظيفُ، ويَحصُلَ بالثَّلجِ والبَرَدِ التَّبريدُ، «ونَقِّهِ مِن الخَطايا كَما نَقَّيتَ الثَّوبَ الأَبيضَ مِن الدَّنسِ»: دُعاءٌ بالتنْقِيةِ بمَعنى التَّطهيرِ مِن ذُنوبِ مَعاصِيه، كَما يُنظَّفُ الثَّوبُ الأَبيضُ مِن الوَسَخِ، وهوَ تَشبيهٌ للمَعقولِ بالمَحسوسِ، وهوَ تَأكيدٌ لِمَا قَبْلَه، أَرادَ بِهِ المُبالغةَ في التَّطهيرِ مِن الخَطايا والذُّنوبِ، «وأَبْدِلْه دارًا خَيرًا مِن دارِه»: عَوِّضْه وأَعطِهِ مِن القُصورِ أو مِن سَعةِ القُبورِ ما هوَ خيرٌ مِن دارِه في الدُّنيا الفانِيةِ، «وأَهلًا خَيرًا مِن أَهلِه»: أَهلُه: ذَووه، كأُمِّه، وخالتِه، وبَناتِه، وأَبيه، وابنِه، وَما أَشبهَ ذلكَ، «وزَوجًا خيرًا مِن زَوجِه»: أَعطِهِ زَوجةً مِن الحُورِ العِينِ، أو مِن نِساءِ الدُّنيا في الجَنَّةِ، «وأَدخِلْه الجنَّةَ»: وهو دُعاءٌ بدُخولِه الجنَّةَ، «وأَعِذْهُ مِن فِتنةِ القَبرِ»: دُعاءٌ بالحِمايةِ مِن فِتنةِ القَبرِ، والمَعْنى: أَجِرْه وخَلِّصْه مِن فِتنةِ القَبرِ، والمَقصودُ بها التَّحيُّرُ في جَوابِ المَلَكينِ

المُؤدِّي إلى عَذابِ القَبرِ.

وبعدَ انتِهاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الدُّعاءِ للميِّتِ، قال عَوفُ بنُ مالكٍ: «حتَّى تَمنَّيتُ أنْ أكونَ أنا ذلكَ الميِّتَ!»: تَمنَّيتُ أنْ لو كُنتُ أنا ذلكَ الميِّتَ؛ لدُعاءِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَه.

الإسراعُ بالجِنازةِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أسْرِعُوا بالجِنازةِ؛ فإنْ تَكُ صالِحَةً فخَيْرٌ تُقَدِّمُونَها، وإنْ يَكُ سِوَى ذلكَ فشَرٌّ تَضَعُونَه عن رِقابِكُم))(1).



مِن السُّنَنِ والآدابِ المُتعلِّقةِ بالجَنائزِ: الإسراعُ في دفنِ الموتَى ونَقْلِهم إلى القُبورِ، والمُرادُ بالإسراعِ هُنا: التوسُّطُ بيْنَ شِدَّةِ السَّعيِ وبيْنَ المَشْيِ المُعتادِ؛ فقال: «أَسْرِعُوا بالجِنازةِ»، ثمَّ بيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ العِلَّةَ والحِكمةَ في ذلك بقَولِهِ: «فإنْ تَكُ صالِحَةً»: يُشارُ بالصَّلاحِ إلى الميِّتِ، وما كان عليه مِن طاعةٍ في الدُّنيا للهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه مَقبولٌ عِندَ اللهِ تعالَى، «فخَيْرٌ تُقَدِّمُونَها»: فإنَّما تُسرِعونَ بها إلى نَعيمِها وسَعادتِها، وإلى رَوضةٍ مِن رِياضِ الجنَّةِ، «وإنْ يَكُ سِوَى ذلكَ»: بمَعْنى: أنَّها غَيرُ صالحةٍ، «فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عن رِقَابِكُم»: فإنَّ تِلكَ الجِنازةَ حينَئذٍ شرٌّ فوقَ الأعْناقِ، فسَارِعوا إلى التخلُّصِ منها؛ لأنَّها بعيدةٌ عن رَحمةِ اللهِ تَعالى؛ فالإسْراعُ بالجِنازةِ في كُلِّ الأحْوالِ مَصلحةٌ وخَيرٌ؛ لِمَصلحةِ الميِّتِ إنْ كان صالحًا، أو لمَصلحةِ المُشيِّعينَ إنْ كان غيرَ صالحٍ.

---

(1) أخرجه البخاري (١٣١٥) واللفظ له، ومسلم (٩٤٤).



استِحبابُ زِيارةِ القُبورِ وما يقولُه الزَّائرُ

عن بُريدَةَ بنِ الحُصَيبِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((نَهَيْتُكُم عن زِيارةِ القُبُورِ، فَزُورُوها ...)) الحديثَ(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أتَى المَقْبرةَ، فقالَ: ((السَّلامُ علَيْكُم دارَ قَومٍ مُؤْمِنينَ، وإنَّا إنْ شاءَ اللَّهُ بكُمْ لاحِقُون...)) الحديثَ(٢).



زِيارةُ القُبورِ تُذكِّرُ بالموتِ والآخِرةِ، وتُرقِّقُ القُلوبَ المُؤمِنةَ، **وفي حَديثِ بُريدَةَ رَضِيَ اللهُ عنه** يحُثُّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على زِيارةِ القُبورِ بعدَ أنْ تَقدَّمَ منه النَّهيُ عن زِيارتِها؛ حيثُ يَقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «نَهَيْتُكم عن زِيارةِ القُبورِ»، وكان نَهيُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حِينئذٍ لِقُربِ عَهدِهم بالجاهليَّةِ، وما كانُوا عليه مِن تَعظيمِ القُبورِ، وغيرِ ذلك مِن مُخالَفاتٍ، فلمَّا استَقرَّ الإسلامُ في نُفوسِهم، ومَحَا آثارَ الجاهليَّةِ، وعَلِموا أحكامَ الشَّرعِ؛ أمَرَهم بزِيارتِها، فقالَ: «فَزُورُوها»، وهذا نسْخٌ لحُكمِ النَّهيِ، يَعني: كُنْتُ قدْ مَنَعْتُكم مِن الذَّهابِ إلى المَقابِرِ، ثم رغَّبَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الزِّيارةِ؛ وذلِكَ لأنَّها تُذكِّرُ بالمَوتِ وبالآخِرةِ، وذَلك يُحفِّزُ عَلى عمَلِ الخَيرِ والسَّعيِ فيه؛ استعدادًا لذلك اليومِ.

وفي حديثِ أَبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعضَ آدابِ زِيارةِ القُبورِ، وهو ما يقولُه الإنسانُ عِندَ حُضورِه للقبورِ والأمواتِ؛ حيثُ جاءَ يومًا إلى المَقبرةِ فقالَ: «السَّلامُ علَيْكُم دارَ قَومٍ مُؤْمِنينَ»، ويَقصِدُ بهذا السَّلامَ على الأمواتِ وساكِني تِلكَ المَقبرةِ مِن المُسلِمينَ. قِيلَ: يَحتمِلُ أنْ يُرادَ بذلك الدُّعاءُ لهم بالسَّلامةِ؛

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩).

لأنَّه يُسلِّمُ عليهم بصِيغةِ الخِطابِ، سواءٌ سَمِعُوا أم لم يَسمَعوا، أجابُوا أم لم يُجيبوا. ثُمَّ بعدَ السَّلامِ عليهم قالَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «وإنَّا -إنْ شاءَ اللَّهُ- بكُمْ لاحِقُون»، أي: أنتُمْ سَبقْتُمونا -نحنُ الأحياءَ- في المَوتِ لانقِضاءِ آجالِكمْ، ونَحنُ سنَلْحَقُ بكمْ -إنْ شاءَ اللهُ- حِينَ تَنقضِي آجالُنا في الدُّنيا، وفي هذا تَذكيرٌ للزَّائرِ بمَصيرِه وأنَّه سيَصيرُ إلى ما صارُوا إليه، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ في يومٍ مِن الأيَّامِ معهم؛ فإنَّه الآنَ زائرٌ، وغدًا سيَكونُ مَزُورًا؛ فعليه أنْ يتَّعِظَ ويَعمَلَ لهذا اليومِ أعمالًا صالحةً تُنَجِّيه مِن أهوالِه، وتكونُ سببًا في نَعيمِه.

النَّهيُ عن الجُلوسِ على القُبورِ والصَّلاةِ إليها

عن أبي مَرْثَدٍ الغَنَويِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لا تَجْلِسُوا على القُبورِ، ولا تُصَلُّوا إلَيها))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لأَنْ يَجْلِسَ أحَدُكُم على جَمْرةٍ فتُحْرِقَ ثِيابَهُ، فتَخْلُصَ إلى جِلْدِهِ: خَيرٌ له مِن أنْ يَجْلِسَ على قَبْرٍ!))[2].

نَهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ الجُلوسِ عَلى القُبورِ، فَقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لا تَجلِسوا على القُبورِ»، وقدْ نَهى عنِ الجُلوسِ عَلى القَبرِ؛ لِما فيهِ مِن الاستِخفافِ بحَقِّ أَخيهِ المُسلمِ، وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه بيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الجالِسَ على جَمْرةٍ مِن نارٍ تُحرِقُ ثِيابَهُ، فتَخْلُصُ إلى جِلْدِهِ: خيرٌ له وأهوَنُ في الجَزاءِ والعِقابِ مِن أنْ يَجلِسَ على قَبرٍ!

(١) أخرجه مسلم (٩٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (٩٧١).

ثُمَّ قالَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «ولا تُصَلُّوا إليها»: أي: لا تُصلُّوا مُستقبِلينَ القُبورَ؛ لِمُخالَفةِ اليَهودِ والنَّصارى الذين كانوا يتَّخِذونَ قُبورَ أنْبيائِهِمْ وصالحِيهم مَساجِدَ؛ تَعظِيمًا لِشَأْنِهم، ورُبَّما صَنَعوا عِندَها ما لا يَستَحِقُّه إلَّا الخالِقُ المَعبودُ سُبحانَهُ، وذَلك يَتناوَلُ الصَّلاةَ على القَبرِ أو إليْه أو بيْنَ قَبرَينِ؛ وذلكَ أنَّه ذَريعةٌ إلى تَعظيمِ القَبرِ، ورُبَّما جَرَّ إلى عِبادتِه.

النَّهيُ عن سَبِّ الأمواتِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: قالَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لا تَسُبُّوا الأمْواتَ؛ فإنَّهُم قدْ أفْضَوْا إلى ما قَدَّمُوا))(١).



في الآيةِ الكريمةِ المذكورةِ نَهى اللهُ تَبارَك وتعالَى عن إيذاءِ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ مِن غَيرِ جِنايةٍ منهم، كسَبِّهم وشَتْمِهم، ومَن يَفعَلْ ذلك فقدْ تَحمَّل كَذِبًا فاحِشًا؛ لافترائِه عليهم بما هم منه بُرَآءُ، وتحَمَّلَ إثمًا ظاهِرًا؛ فأذِيَّةُ المُؤمِنينَ عَظيمةٌ، وإثمُها عَظيمٌ؛ ولهذا كان سَبُّ آحادِ المؤمِنينَ مُوجِبًا للتَّعزيرِ بحَسَبِ حالتِه وعلُوِّ مَرتبتِه؛ فتَعزيرُ مَن سَبَّ الصَّحابةَ أبلَغُ، وتَعزيرُ مَن سَبَّ العُلَماءَ أعظَمُ مِن غَيرِهم.

وفي هذا الحَديثِ نَهى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَن سبِّ الأمواتِ والإساءةِ إليهم؛ لأنَّهم قد أَفْضَوا إلى ما قدَّموا، أي: وصَلوا إلى ما عَمِلوا مِن خيرٍ أو شَرٍّ، فيُجازيهمُ اللهُ تعالى به، فيُؤاخِذُ مَن يَشاءُ بذُنوبِه، ويَغفِرُ لمَنْ يَشاءُ منهم.

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٣).



وقد رَوى المُغيرةُ بنُ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا تَسبُّوا الأمواتَ؛ فتُؤذوا الأحياءَ))[1]؛ وذلك لِما يُحدِثُه مِن حُزنِ أقاربِهم؛ فالنَّهيُ عن سَبِّ الأمواتِ فيه مُراعاةٌ لمَصلحةِ الأحياءِ، والحِفاظُ على سَلامةِ المجتمعِ مِن التَّشاحُنِ والتباغُضِ، ولا يَنبغي القطْعُ لِأحدٍ بِجنَّةٍ أو نارٍ؛ لأنَّه تَعالى هو وحدَهُ القادرُ عليه، ليس لأحدٍ في ذلك نَصيبٌ، وفي رِوايةٍ قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لا تَذكُروا هَلْكاكم إلَّا بخَيرٍ))[2]؛ فبيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الأحياءَ لا يَذكُرونَ الأمْواتَ إلَّا بما فَعَلوهُ مِن خَيرٍ.

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: مرُّوا بجِنازةٍ، فأَثْنَوا عليها خيرًا، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((وَجَبَتْ))، ثم مرُّوا بأُخرى فأَثْنَوا عليها شرًّا، فقال: ((وَجَبَتْ))، فقال عُمرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: ما وَجَبَتْ؟ قال: ((هذا أثْنَيتُم عليه خيرًا، فوَجَبَتْ له الجنَّةُ، وهذا أثْنَيتُم عليه شرًّا، فوَجَبَتْ له النارُ؛ أنتُم شُهداءُ اللهِ في الأرضِ))[3]؛ فلم يَنهَهُم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ذِكْرِ الميِّتِ بالشَّرِّ. وممَّا قِيل

---

(1) أخرجه الترمذي (١٩٨٢)، وأحمد (١٨٢٠٩).

صَحَّحه ابنُ حبان في ((الصحيح)) (٣٠٢٢)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٩٨٢)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١١٥١) وقال: على شرْط الشيخين. وصَحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الخلاصة)) (٢/ ١٠٣٩)، وابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٣٧١)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٨٢٠٩)، وقال: على شرط الشيخين.

(2) أخرجه النسائي (١٩٣٥) من حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها.

صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (١٩٣٥)، والوادعي في ((الفتاوى الحديثية)) (١/ ٤٣١)، وصحَّح إسنادَه ابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٣٧٠)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٧/ ٢٦١).

والحديثُ رُوِيَ من طريقٍ آخَرَ بلفظِ: ((لا تَذكُروا موتاكم إلَّا بخيرٍ)).

أخرجه الطيالسي (١٥٩٧)، والطبراني في ((الدعاء)) (٢٠٦٥).

قال ابنُ حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٢١٠)-: سندُ هذا الطريقِ حَسَنٌ.

(3) أخرجه البخاري (١٣٦٧) واللفظ له، ومسلم (٩٤٩).





في الجَمْعِ بيْنه وبيْنَ هذا الحَديثِ: أنَّ النَّهيَ عن سَبِّ الأمواتِ هو في غَيرِ المنافقِ وسائرِ الكفَّارِ، وفي غَيرِ المُتظاهِرِ بفِسقٍ أو بِدعةٍ، فأمَّا المنافِقُ والكافِرُ وصاحِبُ البِدعةِ فلا يَحرُمُ ذِكرُهم بالشَّرِّ؛ للتَّحذيرِ مِن طَريقتِهم، ومِن الاقتِداءِ بآثارِهم، والتَّخلُّقِ بأخلاقِهم، ومنه ذلِك الحَديثُ الذي أثنَوْا على الميِّتِ فيه شرًّا؛ لأنَّه كان مَشهورًا بنِفاقٍ أو نحوِه.





الصِّيامُ

وُجوبُ صَومِ شَهرِ رَمَضانَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وعن ابنِ عمرَ، رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((بُنِي الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللَّهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والحجِّ، وصومِ رَمَضانَ))[1].

الصِّيامُ مِن أجَلِّ العِباداتِ التي يُؤدِّيها المُسلِمُ؛ طلَبًا لِمَرضاةِ اللهِ، وفِرارًا مِن سَخَطِهِ، وهو الإمساكُ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ وسائِرِ المُفطِّراتِ مِن طُلوعِ الفَجرِ الصَّادِقِ إلى غُروبِ الشَّمسِ، بنِيَّةِ التقرُّبِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وهو عِبادةٌ جَليلةُ القَدْرِ، عَظيمةُ الأجْرِ، ذاتُ فضائِلَ كثيرةٍ، ومَنافِعَ عَظيمةٍ، وعلى رأسِها تَحقيقُ تَقوى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فقد أخبرَ اللهُ تعالى أنَّه فَرَضَ الصِّيامَ على الأمَّةِ المُحمَّديَّةِ، وعلى الأُمَمِ السَّابِقةِ؛ مِن أجْلِ نَيلِ مَرتبةِ التَّقوى، **كما في الآيةِ الكريمةِ المذكورةِ**.

وفي الحديثِ المذكورِ شبَّه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الإسلامَ ببناءٍ محكَمٍ، وشبَّه أركانَه الخَمْسَةَ بقواعدَ ثابتةٍ محكَمةٍ حاملةٍ لذلك البُنيانِ، فلا يثبُتُ البنيانُ بدونها، وبقيَّةُ خِصالِ الإسلامِ كتتمَّةِ البنيانِ، وأوَّلُ هذه الأركانِ: الشَّهادتانِ، وهُما ركنٌ واحد؛ لكونِهما متلازمتَينِ لا تنفَكُّ إحداهما عن الأخرى.

---

(١) أخرجه البخاري (٨) واللفظ له، ومسلم (١٦).



ومعنى الشَّهادتين: أنْ ينطِقَ العبدُ بهما معترفًا بوحدانيَّةِ اللهِ، ورسالةِ محمَّدِ بنِ عبد اللهِ، مصدِّقًا بقلبِه بهما، مُعتقدًا لمعناهما، عاملًا بمقتضاهما؛ هذه هي الشَّهادةُ الَّتي تنفعُ صاحبَها في الدَّارِ الآخِرة، فيفوزُ بالجنَّةِ، وينجو مِن النَّارِ.

والرُّكنُ الثَّاني: هو إقامةُ الصَّلاةِ، ويعني المحافظةَ على أداء الصَّلواتِ الخَمسِ في أوقاتِها، بشروطِها وأركانِها وواجباتِها.

والرُّكنُ الثَّالث: إيتاءُ الزَّكاةِ، أي: إخراجُ الزَّكاةِ المفروضةِ، وصرفُها لمستحقِّيها.

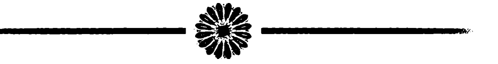
والرُّكنُ الرَّابع: الحجُّ، أي: قصدُ المشاعرِ المقدَّسةِ لإقامةِ المناسكِ، تعبُّدًا لله عزَّ وجلَّ، مرَّةً واحدةً في العُمُر، على مَن استطاع إليه سبيلًا.

والرُّكنُ الخامس -وهو آخرُ الأركانِ-: صومُ رمضانَ: وهو عبادةٌ بدنيَّةٌ ليست متعدِّيةً، والصِّيامُ يعني: الإمساكَ، بنيَّةِ التعبُّدِ، عن الأكلِ والشُّربِ وغِشيانِ النِّساءِ، وسائرِ المُفطِّراتِ، مِن طلوعِ الفجرِ إلى غروب الشَّمس.

فَضلُ شَهرِ رَمضانَ

عن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا دخَلَ رمَضانُ فُتِّحَتْ أبوابُ الجَنَّةِ، وغُلِّقَتْ أبوابُ جَهنَّمَ، وسُلْسِلَتِ الشَّياطينُ))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ أيضًا، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((مَن صامَ رَمضانَ إيمانًا واحتِسابًا غُفِرَ له ما تَقدَّمَ مِن ذَنبِه))(٢).



فضَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ شَهرَ رمَضانَ على سائرِ الشُّهورِ؛ حيثُ شرَّفه بإنزالِ القرآنِ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٧) واللفظ له، ومسلم (١٠٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨) ومسلم (٧٦٠).

فيه، وخصَّه بفَريضةِ الصَّومِ، وجَعَلَه مَوسِمًا مِن مَواسمِ الخَيرِ والغُفرانِ، وفي الحَديثِ الأولِ يُبيِّنُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جانِبًا مِن عَظيمِ فَضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ على عِبادِه في هذا الشَّهرِ؛ فيُخبِرُ أنَّه إذا دَخَلَ الشَّهرُ فُتِّحَت أبوابُ الجَنَّةِ، وغُلِّقت أبوابُ جَهنَّمَ، وما ذاك إلَّا لأنَّه في شَهرِ رَمَضانَ تَنبَعِثُ القُلوبُ إلى الخَيرِ والأعمالِ الصَّالِحةِ التي بها وبسَبَبِها تُفَتَّحُ أبوابُ الجنَّةِ، ويُمتَنَعُ مِن الشُّرورِ التي بها تُفَتَّحُ أبوابُ النَّارِ. «وسُلْسِلَتِ الشَّياطينُ»، يَعني: شُدَّتْ بالسَّلاسلِ، ومُنِعَتْ مِن الوُصولِ إلى بُغيَتِها مِن إفسادِ المسلمينَ بالقَدْرِ الذي كانت تَفعَلُه في غَيرِ رَمضانَ؛ كُلُّ ذلك لِمَا خَصَّ اللهُ به هذا الشَّهرَ مِن تَنزُّلِ الرَّحَماتِ والغُفرانِ. والمرادُ بالشَّياطِينِ في هذا الحَديثِ: مَرَدةُ الجِنِّ منهم، وأشَدُّهم عَداوةً وعُدوانًا -كما جاء في بَعضِ الرِّواياتِ- لا جميعُ الشَّياطينِ، وبذلك يُجابُ عمَّا يَقَعُ مِن الشُّرورِ والمَعاصي في رَمَضانَ، وعلى القَولِ بأنَّ جَميعَ الشَّياطينِ تُصَفَّدُ وتُسَلسَلُ فإنَّما تُصَفَّدُ عن الصَّائِمينَ الصَّومَ الذي حُوفِظَ على شُروطِه، ورُوعِيَت آدابُه، أمَّا ما لم يُحافَظْ عليه فلا يُغَلُّ عن فاعِلِه الشَّيطانُ، وأيضًا فإنَّ المُصَفَّدَ مِن الشَّياطينِ قد يُؤذِي، لكِنْ هذا أَقَلُّ وأضعَفُ ممَّا يكونُ في غيرِ رَمَضانَ؛ فهو بحَسَبِ كَمالِ الصَّومِ ونَقْصِه؛ فمَن كان صَومُه كامِلًا دُفِعَ عنه الشَّيطانُ دَفعًا لا يُدفَعُه حالَ الصَّومِ النَّاقِصِ، وأيضًا فلا يَلزَمُ مِن تَصفيدِ جَميعِ الشَّياطينِ ألَّا يَقَعَ شَرٌّ؛ لأنَّ لوُقوعِ الشَّرِّ أسبابًا أُخَرَ؛ كالنُّفوسِ الخَبيثةِ، والشَّياطينِ الإنسيَّةِ.

وفي الحَديثِ الثاني بِشارةٌ عظيمةٌ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِمَن وُفِّقَ لصِيامِ شَهرِ رمَضانَ فقد أخبَر أنَّ «مَن صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا»، أي: مَن صامَه تَصديقًا بالأمرِ به، عالِمًا بوُجوبِه، خائفًا مِن عِقابِ تركِه، محتسِبًا جَزيلَ الأجرِ في صَومِه، وهذه صِفةُ المؤمِنِ. وقيل: معنى الإيمانِ به: التصديقُ بوُجوبِه، والتعظيمُ لحَقِّه، ومعنى الاحتسابِ فيه: أنْ يتلقَّى الشهرَ بطِيبِ نفْسٍ، فلا يتجهَّمَ لقُربِه، ولا يَستطيلَ زَمانَه. والمراد: أنَّ مَن صامَ رَمضانَ على الوَجهِ المطلوبِ شرْعًا مُؤمِنًا بالله، وبما فرَضه اللهُ

عليه، ومُحتسِبًا للثَّوابِ والأجرِ مِن اللهِ-؛ فإنَّ المَرْجُوَّ مِن اللهِ أن يغفِرَ له ما تقدَّمَ مِن ذنوبِه. وقد وقَعَ الجزاءُ بصِيغةِ الماضي (غُفِرَ) مع أنَّ المغفرةَ تكونُ في المستقبَلِ؛ للإشعارِ بأنَّه متيقَّنُ الوقوعِ، مُتحقِّقُ الثُّبوتِ، فضلًا مِن اللهِ تعالَى على عِبادِه.

فَضلُ الصِّيامِ

وعَنْ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((قالَ اللَّهُ: كلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ له إلَّا الصِّيامَ؛ فإنَّه لي وأنَا أجْزِي به، والصِّيامُ جُنَّةٌ، وإذا كان يَومُ صَومِ أحدِكُم فلا يَرفُثْ ولا يَصخَبْ، فإنْ سابَّهُ أحَدٌ أو قاتَلَه فلْيَقُلْ: إنِّي امرُؤٌ صائمٌ، والذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لَخُلوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عندَ اللَّهِ مِن رِيحِ المِسْكِ. للصَّائمِ فَرْحَتانِ يَفرَحُهما: إذا أفْطَرَ فَرِحَ، وإذا لَقِيَ ربَّه فَرِحَ بصَومِه))[1].



في هذا الحَديثِ يَرْوي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ربِّهِ عزَّ وجلَّ بعضَ فَضائلِ الصِّيامِ التي يَمتازُ بها عنْ غَيرِه مِن العِباداتِ، فيُبيِّنُ ربُّ العِزَّةِ -تبارَكَ وتَعالى- أنَّ كُلَّ عمَلِ ابنِ آدمَ له، بمَعْنى: فيه حظٌّ ومَدخَلٌ لاطِّلاعِ النَّاسِ عليه؛ فهو يَتعجَّلُ به ثَوابًا مِن النَّاسِ، ويَحُوزُ به حظًّا مِن الدُّنيا، إلَّا الصِّيامَ؛ فإنَّه خالِصٌ للهِ عزَّ وجلَّ، لا يَعلَمُ ثَوابَه المترتِّبَ عليه غَيْرُه، وهو سُبحانه يَتولَّى الإثابةَ عليه.

«والصِّيامُ جُنَّةٌ»، أي: وِقايةٌ مِن المعاصي ومِن النَّارِ، ثُمَّ يُحذِّرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الصَّائمَ مِن الرَّفَثِ، وهو الفُحشُ في الكَلامِ، وكذا يُحذِّرُه مِن الصَّخَبِ، وهو الصِّياحُ والخِصامُ، فإنْ شتَمَهُ أحَدٌ أو قاتَلَهُ، فلْيَقُلْ له: إنِّي امْرُؤٌ صائمٌ؛ لِيَكُفَّ خَصمُه عنه، أو ليَكُفَّ هو عن خَصمِهِ، ويُقسِمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا: والَّذي

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤) واللفظ له، ومسلم (١١٥١).

نفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِهِ، «لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ» وهو تغيُّرُ رائحةِ فمِ الصَّائِمِ؛ لخَلاءِ مَعِدَتِهِ مِن الطَّعامِ «أطيَبُ عِندَ اللهِ مِن رِيحِ المِسكِ». والصَّائِمُ الذي حبَسَ نفسَهُ عنِ الشَّهَواتِ طَوالَ نَهارِهِ؛ لإرْضاءِ ربِّهِ، يُرضيهِ ربُّهُ بفَرْحَتَينِ يَفرَحُهما؛ الأُولى: إذا أفطَرَ فرِحَ بفِطرِه؛ لزَوالِ جُوعِه وعَطَشِه، حيثُ أُبيحَ له الفِطرُ، وهذا هو الفرَحُ الطبيعيُّ. وقيلَ: إنَّ فرَحَهُ بفِطرِهِ إنَّما هو مِن حيثُ تَمامُ صَومِهِ، وخاتِمةُ عِبادتِهِ؛ فهو فرَحٌ لتَمامِ العَونِ مِن ربِّهِ لإكْمالِ العِبادةِ وأدائِها على وَجهٍ حَسَنٍ، والثَّانيةُ: إذا لقِيَ ربَّه عزَّ وجلَّ فرِحَ بصَومِهِ، أي: بقَبولِ صَومِه، وتَرتُّبِ الجَزاءِ الوافِرِ عليه، وتَذكُّرِ نِعمةِ اللهِ تعالى عليه بتَوفيقِه لذلك.

صَومُ رَمَضانَ عندَ رُؤيةِ الهِلالِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا رَأَيْتُمُ الهِلالَ فصُوموا، وإذا رَأَيْتُموهُ فأفْطِروا، فإنْ غُمَّ علَيْكُم فصُومُوا ثَلاثِينَ يَوْمًا))[١].



الصِّيامُ مِن العِباداتِ المُحدَّدةِ الوَقتِ بِدايةً ونهايةً؛ فقد فرَضَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في شَهرِ رَمَضانَ إذا طَلَع هِلالُه، فالشَّهرُ هو مُدَّةُ ما بينَ الهِلالينِ، وقد جعَلَ اللهُ الأهِلَّةَ علامةً لِبدايةِ الشُّهورِ ونهايَتِها، فرُؤيةُ الهِلالِ إيذانٌ بانتِهاءِ شَهرٍ وبدايةِ آخَرَ، وهو مَأخوذٌ مِن الشُّهْرةِ، يقالُ: شَهَر الشَّيءُ: إذا ظَهَر؛ فالمُعتَبَرُ في بِدايةِ الشَّهرِ ونهايتِه رُؤيةُ الهِلالِ وتَبيُّنُه، وقد أوجَبَ اللهُ تعالى على مَن حَضَر رَمَضانَ -بأنْ هَلَّ هِلالُه- وهو مُقيمٌ صَحيحٌ مُعافًى: أن يَصومَ نَهارَه، **كما في الآيةِ المذكورةِ.**

(١) أخرجه من طرق البخاري (١٩٠٩)، ومسلم (١٠٨١) واللفظ له.



وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُوضِّحُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لا يُصامُ رَمضانُ إلَّا إذا رُئِيَ الهِلالُ، وإلَّا فإنَّه يُتمَّمُ شَعْبانُ ثلاثينَ يومًا، وكذلِكَ لا يَنتَهي الصِّيامُ ويَنقَضي شَهرُه إلَّا عندَ رُؤيةِ هِلالِ شوَّالٍ، وإذا لم يَرَ النَّاسُ الهِلالَ، أو تَعذَّرَ عليهم رُؤيتُه ليلةَ الثَّلاثينَ مِن رَمَضانَ؛ بسَبَبِ الغَيمِ أو أيِّ مانِعٍ، فإنَّهم يَصومونَ رمَضانَ كامِلًا ثَلاثينَ يومًا؛ لأنَّ الأصلَ عدَمُ طُلوعِ الهِلالِ، ولأنَّ الشَّهرَ لا يَزيدُ على ذلِكَ.

الفِطرُ في السَّفَرِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وعَن حُمَيدٍ قال: سُئِل أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عنه عن صَومِ رَمَضانَ في السَّفَرِ؟ فقال: ((سَافَرْنَا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في رَمَضانَ، فلَمْ يَعِبِ الصَّائمُ على المُفْطِرِ، ولا المُفْطِرُ على الصَّائمِ))[1].



في هذه الآيةِ الكريمةِ بَيانٌ للتَّيسيرِ على الصَّائِمِ المريضِ والمسافِرِ؛ لأنَّ المرَضَ والسَّفرَ مَظِنَّةُ المَشقَّةِ، فمَن كان في تلك الحالِ فله أنْ يُفطِرَ، ثمَّ عليه أنْ يَقضيَ الصِّيامَ في أيَّامٍ أُخَرَ، بعدَدِ الأيَّامِ التي أفطَرَها، ولا حرَجَ عليه في ذلك ولا إثمَ.

وفي هذا الحَديثِ المذكورِ يَحْكي أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّهم كانوا يُسافِرونَ مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ منهم مَن يَقْوى على الصَّومِ، فيَصومُ، ومنهم مَن لا يَقْوى، فيُفطِرُ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُقِرٌّ لهم على تِلكَ الحالِ، فلا يَلومُ ولا يَعيبُ مَن صامَ على مَن أفطَرَ؛ لأنَّه عَمِل بالرُّخصةِ، ولا يُنكِرُ مَن أفطَرَ على مَن صامَ وترَكَ

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٧)، ومسلم (١١١٨) واللفظ له.

الرُّخصةَ وعَمِلَ بالعزيمةِ بما عندَهُ مِن قُوَّةٍ وقُدرةٍ، وهذا مِن كَمالِ أدَبِهم رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعينَ، وتَمامِ فِقهِهِم.

تَعْجيلُ الفِطرِ

عَن سَهْلِ بنِ سَعدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَزالُ النَّاسُ بخَيرٍ ما عَجَّلُوا الفِطْرَ))[1].



مِنَ المَعلومِ أنَّ الخَيرَ كُلَّ الخَيرِ في اتِّباعِ هَدْيِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، والشَّرَّ كلَّ الشرِّ يَأتي مِن الابتداعِ في الدِّينِ، ولَمَّا كان الصِّيامُ مِن أجَلِّ العِباداتِ وأعظَمِ القُرُباتِ، كان لِزامًا على المُسلِمِ أنْ يَلتزِمَ هَدْيَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيه، وفي هذا الحَديثِ النَّبويِّ يُبيِّنُ رَسولُنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ المُسلِمينَ لا يَزالونَ على خَيرٍ وحقٍّ وهدًى مِن اللهِ، مُتمسِّكينَ بسُنَّةِ نبيِّهم، غيرَ مُبدِّلينَ ولا مُغيِّرين، بدَلالةِ تَعجيلِهم الفِطرَ مِن صَومِهم عندَ غُروبِ شَمسِ يومِهم مُباشرةً؛ لِما في ذلِكَ مِن المبادَرةِ إلى قَبولِ الرُّخصةِ مِن اللهِ تعالَى، ولئلَّا يُزادَ في النَّهارِ مِن اللَّيلِ، ولأنَّه أرفَقُ بالصَّائمِ، ولِما فيه مِن شُكرِ النِّعمةِ.

تَناوُلُ السَّحُورِ

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قالَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((تَسَحَّروا؛ فإنَّ في السَّحورِ بَرَكةً))[2].

وعَن عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال:

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥).



((فَصْلُ ما بيْنَ صِيامِنا وصِيامِ أَهْلِ الكِتابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ))[1].



كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يحُثُّ على السُّحورِ، ويَأمُرُ به؛ لِما فيه مِن البَرَكةِ للصَّائِمِ، **وفي حَديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه** يُوضِّحُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أهمِّيةَ السُّحورِ للصَّائمِ، ويحُثُّ على التَّسحُّرِ قَبْلَ الفَجرِ للصائمِ، والسَّحورُ: الطَّعامُ الذي يُؤكَلُ في وقْتِ السَّحَرِ، وهُو قُبيلَ طُلوعِ الفَجْرِ، وكما بيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ جعَلَ في هذه الأَكْلةِ بَرَكةً، وهذه البَرَكةُ مادِّيَّةٌ ومَعْنويَّةٌ؛ فإنَّها تُقوِّي على صِيامِ بقِيَّةِ اليومِ إلى وقْتِ المغرِبِ، كما أنَّ في التَّسحُّرِ استِجابةً لأمرِ النبيِّ الكريمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وفي اتِّباعِ أمرِهِ برَكَةٌ أَيْضًا؛ فهو مَزيدٌ مِن الأجْرِ في الآخِرةِ، وإنَّما يَأْتي التَّأكيدُ على أكْلةِ السَّحَرِ؛ لأنَّ هذا الوَقتَ مَظِنَّةُ النَّومِ عندَ أغلَبِ النَّاسِ، فلرُبَّما غَلَبَهم النَّومُ ولذَّتُهُ عن أهميَّةِ تلك الأَكْلةِ، فأضعَفَهم تَرْكُها عنِ القيامِ بأشْغالِهم في النَّهارِ.

وفي حَديثِ عمرٍو رَضِيَ اللهُ عنه إرشادٌ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تَمايُزٍ يَحصُلُ للمُسلِمينَ على غَيرِهِم إنِ امتَثَلوا بها؛ فإنَّ هذه الأَكْلةَ تُميِّزُ صِيامَ المُسلِمينَ عن صِيامِ أهلِ الكِتابِ مِن اليَهُودِ والنَّصارَى، ومُخالَفَتُنا إيَّاهم في ذلِكَ تَقَعُ مَوقِعَ الشُّكرِ لتلك النِّعمةِ؛ فهُم لا يَتسحَّرونَ عندَ صِيامِهِم، ونحن مَأْمورونَ بالسُّحورِ.

حُكمُ صَومِ مَن أكَل أو شَرِب ناسِيًا

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((مَن

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٩).

نَسِيَ وَهو صائِمٌ، فأكَلَ أوْ شَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ؛ فإنَّما أطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقاهُ))[1].

النِّسيانُ أمرٌ جِبِلِّيٌّ في طَبيعةِ البَشَرِ، واللهُ تَبارَكَ وتعالَى يَعلَمُ ذلك مِن عِبادِه، ولا يُكَلِّفُهم شيئًا فوقَ طاقتِهم، ومِن رَحمتِه سُبحانَه وتعالَى بهم أنْ تَجاوَزَ عن مُؤاخذتِهم بسَبَبِ نِسيانِهم، وممَّا يدُلُّ على ذلك هذا الدُّعاءُ الكريمُ الذي جاء في سِياقِ أدعيةٍ علَّمَها اللهُ تعالى لعِبادِه، وتكَفَّل باستِجابتِها لهم؛ **فالآيةُ الكريمةُ** تُرشِدُ العِبادَ إلى طَلَبِ ترْكِ المعاقَبةِ بسَبَبِ نِسيانِ القِيامِ بفَرضٍ، أو ارتِكابِ مُحرَّمٍ، وتَركِ المعاقبةِ بسَبَبِ مُجانبةِ الصَّوابِ في العَمَلِ، أو الوقوعِ في المعصيةِ جَهلًا بذلك عن غَيرِ قَصْدٍ.

والنِّسيانُ أمْرٌ وارِدٌ في العِباداتِ، ومِن ذلك الصِّيامُ؛ فالصَّائِمُ بَشَرٌ يَعرِضُ له ذلك، وشَريعةُ اللهِ جاءتْ لِرَفعِ المَشقَّةِ والحَرَجِ عنِ النَّاسِ، ولا تُكلِّفُهم بما هو فَوقَ طاقاتِهم.

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه بيَّن النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن أكَل أو شرِبَ ناسيًا وهو صائمٌ، فإنَّه يَبْقَى على صِيامِه، وعليه أنْ يُتِمَّ صَومَه، ثُمَّ بيَّن أنَّه لا يَلزَمُه القَضاءُ، بقولِه: «فإنَّما أَطعَمَه اللهُ وسَقاه»، فنَسَب الفِعلَ للهِ تَعالى لا للنَّاسِي؛ للإشعارِ بأنَّ الفِعلَ الصَّادرَ منه مَسلوبُ الإضافةِ إليه، فلو كان أفطَرَ لأُضِيفَ الحُكمُ إليه. وهذا لُطفٌ مِن اللهِ تَعالى بعِبادِه، ورَحمةٌ بهم.

قَضاءُ الصِّيامِ عنِ الميِّتِ

عَن عائِشةَ أُمِّ المُؤمِنينَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال:

(١) أخرجه البخاري (١٩٣٣)، ومسلم (١١٥٥) واللفظ له.

((مَن ماتَ وَعليه صِيامٌ صامَ عنْه وَلِيُّهُ))[1].



الصِّيامُ فَريضةٌ فرَضَها اللهُ عزَّ وجلَّ على عِبادِهِ في شَهرِ رَمَضانَ، وقد يجِبُ على الإنسانِ صِيامٌ آخَرُ بالنَّذْرِ أو الكفَّارةِ، ورُبَّما قصَّرَ الإنسانُ في أداءِ ما وَجَب عليه؛ لِعُذرٍ مِن مَرَضٍ، أو سَفَرٍ ونَحوِهِ، ثمَّ يَزولُ هذا العُذرُ، أو يُمكِنُه قَضاءُ ما عليه مِن صِيامِ رَمَضانَ، فيُفَرِّطُ حتى يَموتَ وعليه صِيامٌ، وفي هذا الحَديثِ بَيانٌ لِحُكمِ مَن ماتَ وعليه صِيامٌ؛ فيَعرِضُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جانبًا مِن رَحْمةِ اللهِ على عِبادِهِ، ويُخبِرُ أنَّ مَن تَعجَّلَه المَوتُ وعليه صِيامُ أيَّامٍ لم يَقضِها لِعُذرٍ مِن الأعْذارِ، صامَ عنه وَليُّهُ، والمُرادُ بالوليِّ: عَصَبَتُه مِن الرِّجالِ مِن الآباءِ والأبْناءِ، وللوليِّ إذا لم يَقضِ عنه الصَّومَ أنْ يُطعِمَ عنه لكُلِّ يَومٍ مِسكينًا، ويَسقُطُ بهذا عن الميِّتِ ذلِكَ الفَرضُ الذي عليه، ويكونُ قَضاؤُهُ عنه بمَنزلةِ قَضائِهِ هو عن نفْسِهِ، وأمَّا إنْ ماتَ قَبلَ أنْ يتمكَّنَ مِن القَضاءِ -كمَنِ استمَرَّ به المرضُ حتى ماتَ- فلا شَيءَ عليه، ولا يَقضي أولياؤُه عنه شيئًا، ولا يجِبُ الإطعامُ عنه، وهذا لِعُمومِ قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فجعَلَ اللهُ تَعالى الواجِبَ عليه عدَّةً مِن أيَّامٍ أُخَرَ، فإذا مات قبلَ إدراكِها فقد مات قبلَ زمَنِ الوجوبِ، أمَّا مَن ترَكَ الصِّيامَ تَفريطًا وإهمالًا، ولم يَكُنْ له عُذرٌ، ثمَّ مات؛ فهذا لا يَلزَمُ أولياءَهُ القضاءُ ولا يَصِحُّ منهم؛ لِفَواتِ وَقتِه.

صَومُ ستَّةِ أيَّامٍ مِن شوَّالٍ

عن أبي أيُّوبَ الأنْصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال:

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

((مَن صامَ رَمَضانَ ثمَّ أتْبَعَهُ سِتًّا مِن شَوَّالٍ، كان كَصِيامِ الدَّهْرِ))[1].

كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَصومُ مِن كلِّ شَهرٍ أيَّامًا نافِلةً، وحثَّ أصحابَه على ذلِكَ، وحثَّ أيضًا على صِيامِ بَعضِ الأيَّامِ مِن شُهورِ السَّنةِ؛ لِمَا فيها مِن الأجْرِ والثَّوابِ الجَزيلِ لصاحِبِها، كما في هذا الحَديثِ: «مَن صامَ رَمضانَ، ثُمَّ أتبَعَه سِتًّا مِن شوَّالٍ، كانَ كَصيامِ الدَّهرِ» ومَعْنى ذلِكَ: أنَّ مَن صامَ شَهرَ رَمضانَ كاملًا، ثُمَّ صامَ بعدَ رَمضانَ ستَّةَ أيَّامٍ مِن شوَّالٍ مُتوالياتٍ أو مُتفرِّقاتٍ؛ لأنَّ الإتباعَ يَصدُقُ على التَّوالي وعَلى التَّفرُّقِ، فمَن فعَلَ ذلِكَ كانَ لَه مِن الأَجرِ مِثلُ ما يُعادلُ صِيامَ العامِ كلِّه، وهذا مِن عَظيمِ فَضلِ اللهِ عَلى عِبادِه المُسلمينَ بمُضاعفةِ الأَجرِ لَهم. ويُفسِّرُ هذا قولُه تَعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وشَهرُ رَمضانَ بمَنزلةِ عَشرةِ أَشهُرٍ، وصِيامُ ستَّةِ أيَّامٍ بعدَ الفِطرِ تُعادِلُ شَهرينِ، وهذا تَمامُ السَّنةِ.

صِيامُ يَومَي الاثنينِ والخَميسِ، وثلاثةِ أيَّامٍ مِن كلِّ شهرٍ

عن أسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّك تصومُ حتى لا تَكادُ تُفطِرُ، وتُفطِرُ حتى لا تَكادُ أنْ تَصومَ، إلَّا يَومَينِ إنْ دخَلَا في صِيامِك وإلَّا صُمتَهما، قال: ((أيُّ يَومينِ؟ قُلتُ: يومَ الاثنينِ ويومَ الخَميسِ، قالَ: ذانِكَ يَومانِ تُعرَضُ فيهما الأَعمالُ على رَبِّ العالمينَ، فأحبُّ أن يُعرَضَ عمَلي وأَنا صائمٌ))[2].

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦٤).

(٢) أخرجه النسائي (٢٣٥٨) واللفظ له، وأحمد (٢١٧٥٣) مطولًا

صححه الطبري في ((مسند عمر)) (٢/ ٨٦١)، وقال الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٢٣٥٨): حسن صحيح، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢١٧٥٣)



وعن أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُئِلَ عن صَومِ الاثنينِ، فقال: ((فيه وُلِدْتُ، وفيه أُنزِلَ عليَّ))(١)

وعن عبدِاللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ له: ((وصُمْ مِن الشهرِ ثلاثةَ أيَّامٍ؛ فإنَّ الحَسنةَ بعَشْرِ أَمثالِها، وذلك مِثلُ صِيامِ الدَّهرِ))(٢).



في حَديثِ أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضيَ اللهُ عنهما يَحكي أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يُواظِبُ على صِيامِ يَومي الاثنينِ والخَميسِ مِن كلِّ أُسبوعٍ، وقدْ كان مِن عادتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الصِّيامُ للتَّطوُّعِ في شَهرٍ يَستمِرُّ فيه حتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أنَّه يُتِمُّ صَومَ الشَّهرِ إلى آخِرِه، وإذا أفطَرَ في شَهرٍ يَستمِرُّ فيه حتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أنَّه يُتِمُّ فِطرَ الشَّهرِ إلى آخِرِه، لكنَّه لا يَترُكُ صِيامَ الاثنينِ والخَميسِ قطُّ؛ فبيَّنَ له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سببَ حِرصِه على المُواظَبةِ على صَومِ هذَينِ اليَومَينِ؛ وهو أنَّ أعمالَ العِبادِ تُعرَضُ على اللهِ تعالَى العَرْضَ الأُسبوعيَّ فيهما، أي: تُرفَعُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ فيَطَّلِعُ عليها، إمَّا تفصيلًا وإمَّا جُملةً، واللهُ عزَّ وجلَّ عالمٌ بخَلقِه مُطَّلعٌ على سَرائرِهم، مُدَبِّرٌ لشُؤونِهم لا يَخفَى عليه مِن أمرِهم شيءٌ، والمرادُ بالأعمالِ: أعمالُ الخيرِ والشَّرِّ والطَّاعةِ والمَعصيةِ؛ فكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحِبُّ ويَرغَبُ أنْ يُرفَعَ عمَلُه وهو مُتلبِّسٌ بطاعةٍ، وهي الصِّيامُ؛ فخصَّ يَومي الاثنينِ والخَميسِ اللَّذينِ تُرفَعُ فيهما الأعمالُ بالصِّيامِ؛ كي تكونَ الأعمالُ التي سُترفَعُ فيهما صالِحةً، والصَّومُ مِن أفضلِ الأعمالِ. أو لأنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ إذا صاحَبَها الصَّومُ رَفعَ مِن قَدرِها وأثبَتَ خُلوصَها للهِ عزَّ وجلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦٢)

(٢) أخرجه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).

وفي حَديثِ أبي قَتادةَ رَضيَ اللهُ عنه بيانُ سَببَينِ آخَرينِ لحِرصِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على صِيامِ يَومِ الاثنينِ خاصَّةً، وذلك أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُئِلَ عن سَببِ صِيامِه له، فأجابَ أنَّه اليومُ الذي وُلِدَ فيه؛ وكذلك هو اليومُ الذي أُنزِلَ عليه الوحيُ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ. وقيل: المرادُ أوَّلُ وقتٍ نَزلَ عليه القرآنُ فيه هو يومُ الاثنينِ في غارِ حِراءٍ؛ فصِيامُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ له هو على سَبيلِ الشُّكرِ للهِ عزَّ وجلَّ بما مَنَّ عليه به من الإيجادِ، واختِصاصِه بهذا الشَّرفِ العَظيمِ الذي لا يُدانيه شرفٌ؛ فدلَّ الحديثُ على أنَّ صومَ هذا اليومَ مُرغَّبٌ فيه للمُسلِمينَ جميعًا؛ فما شرَّفَ به اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّه ورَسولَه هو شرفٌ لأُمَّةِ الإسلامِ جميعًا.

وفي حَديثِ عبدِاللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنهما، بيَّن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن اللهَ تَفضَّلَ بكَرمِه بأنْ ضاعَفَ أجْرَ كلِّ عمَلٍ مِن أعمالِ الخيْرِ والطَّاعةِ مِن الأقوَالِ والأفعالِ إلى عَشْرةِ أمثالِه؛ فالحسَنةُ تُضاعَفُ إلى عشْرِ حسَناتٍ مِثلِها، فكذلك صِيامُ اليوْمِ يُكتَبُ بصِيامِ عَشَرَةِ أيَّامٍ، فإذا صام ثلاثَةَ أيَّامٍ فكأنَّه صامَ ثلاثينَ يومًا، وهي شهْرٌ كامِلٌ؛ فيكونُ بصِيامِه ثلاثةَ أيَّامٍ كلَّ شهْرٍ كأنَّه صامَ السَّنةَ كلَّها يُضافُ إليه صِيامُ الفريضةِ في شَهرِ رَمضانَ، وصيامُ ثلاثةِ أيَّامٍ مِن كلِّ شهرٍ أوصَى به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أبا هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه[1].

وقد بوَّبَ الإمامُ البُخاريُّ لهذا الحديثِ بقولِه: (باب صِيامِ أيَّامِ البِيضِ: ثَلاثَ عَشْرةَ وأرْبعَ عَشْرةَ وخَمْسَ عَشْرةَ)؛ إشارةً إلى ما جاءَ في رِواياتٍ وأحاديثَ أُخرَى من تَحديدِ هذه الأيَّامِ الثلاثةِ مِن الشهرِ بالأيَّامِ البِيضِ، وهي الأيَّام التي يَكتمِلُ فيها القَمَرُ؛ فعلَى الإنسانِ أنْ يَحرِصَ على صيامِها، وإلا فليصمْ في أيِّ ثَلاثةِ أيَّامٍ شاءَ من الشَّهرِ؛ سواءٌ كان الصومِ للأيَّامِ الثَّلاثةِ مُتواليًا أو مُتقطِّعًا.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٧٨)، ومسلم (٧٢١).



صَومُ يومِ عَرَفةَ

عَن أبي قَتادةَ الأنْصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُئِلَ عن صَومِ يومِ عَرَفةَ، قال: ((يُكفِّرُ السَّنةَ الماضيةَ والباقيةَ))(1).

في هذا الحَديثِ يُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فضلَ صِيامِ التطوُّعِ، لا سيَّما في الأوقاتِ الفاضِلةِ المُبارَكةِ التي يُضاعَفُ فيها الأجْرُ، كيَومِ عَرَفةَ؛ فقد سألَ سائِلٌ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن فَضلِ صِيامِ يَومِ عَرَفةَ، وهذا لغَيرِ الحاجِّ؛ فإنَّ الحاجَّ يُكرَهُ له صِيامُ يَومِ عَرَفةَ؛ وذلِكَ لأنَّ الصَّومَ في هذا اليَومِ يُضعِفُ الحاجَّ عنِ الوُقوفِ والدُّعاءِ، وأمَّا غَيرُ الحاجِّ فإنَّه مُخاطَبٌ بهذا الحَديثِ في الفَضلِ والنَّوالِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، والمُرادُ بيَومِ عَرَفةَ: هو يومُ التَّاسِعِ مِن ذي الحِجَّةِ، سُمِّي بذلِكَ؛ لأنَّ فيه رُكنًا مِن أرْكانِ الحجِّ، وهو الوُقوفُ بعَرَفةَ بمكَّةَ، فمَن صامَ هذا اليَومَ كان كفَّارةً لذُنوبِ سَنتَينِ؛ السَّنةِ الماضيةِ، والسَّنةِ المُستقبَلةِ، والمُرادُ بتكفيرِ الذُّنوبِ هُنا: صَغائِرُ الذُّنوبِ دُونَ كَبائِرِها.

صِيامُ يَومِ عاشوراءَ

عَن عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَدِمَ المَدينةَ، فوَجَدَ اليَهودَ صِيامًا يومَ عاشُوراءَ، فقالَ لهمْ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((ما هذا اليَومُ الذي تَصُومونَه؟ فقالوا: هذا يَومٌ عَظِيمٌ؛ أنْجَى اللَّهُ فيه مُوسى وقَومَه، وغَرَّقَ فِرعَونَ وقَومَه، فَصامَه مُوسى شُكْرًا؛ فنحنُ نَصومُه. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: فَنحنُ أحَقُّ وأوْلى بمُوسى مِنكُم، فَصامَه رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ،

(1) جزءٌ من حديثٍ طويل أخرجه مسلم (1162).



وأمَرَ بصِيامِه))[1].



يَومُ عاشوراءَ مِن أيَّامِ اللهِ الفاضِلةِ المُبارَكةِ، وهو يَومُ العاشِرِ مِن شَهرِ اللهِ المُحرَّمِ، وفي هذا الحَديثِ حثٌّ على صِيامِ هذا اليَومِ؛ حيثُ إنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَدِمَ المدينةَ فوجَدَ اليَهودَ صِيامًا يَومَ عاشوراءَ، فسألَهُم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن سَبَبِ صِيامِهِم لهذا اليَومِ، وكان جوابُهُم: أنَّه يومٌ عَظيمٌ مُبارَكٌ أنْجى اللهُ فيه مُوسى وقَومَه من فِرعَونَ، فصامَه مُوسى شُكرًا للهِ على نِعمَتِه في إهْلاكِ الظَّالِمينَ، واتَّبَعوا نبيَّهُم مُوسى عليه السَّلامُ في صِيامِه لهذا اليَومِ؛ فبيَّنَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحقيَّةَ أُمَّةِ الإسلامِ بمُوسى مَحبَّةً وشُكرًا للهِ على نَجاتِهِ؛ إذْ آمَنوا بمُوسى عليه السَّلامُ، وحَمَلوا رايةَ الحقِّ الذي جاء به مُوسى، في الوَقتِ الذي حرَّفَ فيه اليَهودُ شَريعَتَهُ، فصامَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عاشوراءَ وأمَرَ بصِيامِه، وقد كان الأمْرُ بِدايةً للوُجوبِ حتى فُرِض صِيامُ رَمَضانَ، فصار صِيامُ رَمَضانَ فرْضًا، وعاشوراءَ نَفْلًا.

صِيامُ يَومِ التَّاسِعِ مِن المُحرَّمِ

عَن عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: حِينَ صامَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَ عاشُوراءَ وأمَرَ بصِيامِه، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، إنَّه يَومٌ تُعَظِّمُه اليَهودُ والنَّصارى، فقالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((فإذا كان العامُ المُقْبِلُ إنْ شاءَ اللَّهُ صُمْنَا اليومَ التَّاسِعَ، قالَ: فلَمْ يَأْتِ العامُ المُقْبِلُ حتى تُوُفِّيَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ))[2].



كان مِن شَأنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَأمُرَ بمُخالَفةِ اليَهودِ والنَّصارى؛ حتى

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١١٣٤).



يَحفَظَ على النَّاسِ دِينَهم وعَقائدَهم، وممَّا أمَرَ بمُخالَفَتِهم فيه زِيادةُ صِيامِ يَومٍ آخَرَ مع يومِ عاشُوراءَ، وهو يَومُ التَّاسِعِ مِن شَهرِ المُحَرَّمِ، وفي هذا الحَديثِ يُخبِرُ الصَّحابيُّ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّه لمَّا استَقرَّ حُكمُ صِيامِ يَومِ عاشوراءَ بيْنَ المُسلِمينَ في المدينةِ، وقد أُخبِرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يَومٌ تُعَظِّمُه اليَهودُ والنَّصارى، فأرشَدَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى مُخالَفَتِهم فيه، بزِيادةِ يَومٍ على يَومِ عاشوراءَ، وحدَّدَهُ بأنَّه يومُ التَّاسِعِ مِن المُحرَّمِ، وقد عزَمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على صِيامِ هذينِ اليومَينِ مِن العامِ المُقبِلِ، ثُمَّ ما لَبِث أنْ ماتَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَبلَ أنْ يَأتيَ عليه هذا العامُ ولمْ يَتحقَّقْ له صِيامُه!

فَضلُ صَومِ شَهرِ المُحرَّمِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((أَفْضَلُ الصِّيامِ بَعْدَ رَمَضانَ شَهرُ اللهِ المُحَرَّمُ، وأفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الفَرِيضةِ صَلاةُ اللَّيلِ))[1].



في هذا الحَديثِ يحُثُّ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على التطوُّعِ بالصِّيامِ في شَهرِ اللهِ المُحرَّمِ، ويُبيِّنُ أنَّ الصِّيامَ فيه هو أفضَلُ الصِّيامِ بعدَ صِيامِ الفريضةِ في شَهرِ رَمَضانَ، وإضافةُ الشَّهرِ للهِ «شَهرُ اللهِ المُحرَّمُ» هو إضافةُ تَعظيمٍ، وهو أوَّلُ شَهرٍ في العامِ الهِجْريِّ، فهو سَببٌ لِيَفتتِحَه بفِعلِ الخَيرِ واستِقْبالِه بالعِبادةِ؛ وذلِكَ مِن أفضَلِ الأعْمالِ كما يُستقبَلُ أوَّلُ النَّهارِ بالأذْكارِ، فيُرجى بذلِكَ أنْ يكونَ مُكفِّرًا لباقي العامِ، كما في فَضيلةِ الذِّكرِ في أوَّلِ النَّهارِ، وشَهرُ المُحرَّمِ مِن الأَشهُرِ الحُرُمِ.

(١) أخرجه مسلم (١١٦٣).



أفضَلُ الصِّيامِ صِيامُ داودَ عليه السَّلامُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وعَن عَبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنَّ أحَبَّ الصِّيامِ إلى اللهِ صِيامُ داوُدَ، وأحَبَّ الصَّلاةِ إلى اللهِ صَلاةُ داوُدَ عليه السَّلَامُ؛ كانَ يَنامُ نِصْفَ اللَّيلِ، ويَقومُ ثُلُثَه، ويَنامُ سُدُسَه، وكانَ يَصُومُ يومًا، ويُفْطِرُ يومًا))[1].

الأنبياءُ والرُّسُلُ الكرامُ خِيرةُ البَشَرِ وصَفوةُ الخَلقِ، اختارَهم اللهُ تعالى لمَقامِ نبُوَّتِه، وشَرَّفَهم بأداءِ رِسالتِه، وهم الذين هَداهم اللهُ لِدينِه الحَقِّ، والقِيامِ به، واتِّباعِه، **وفي الآيةِ الكريمةِ المذكورةِ** بعدَ أن ذكَر الله تعالى بعضَ الأنبياءِ أثنى عليهم بأنَّهم هم أهلُ الهدايةِ لا غيرهم، وأمَر نبيَّه أنْ يقتديَ بهم وأنْ يتَّبعَهم، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مأمورٌ بالاقتداءِ بمَن قبلَه مِن الأنبياءِ فيما لم يَرِدْ عليه فيه نصٌّ.

وفي هذا الحَديثِ يُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحبَّ الصِّيامِ إلى اللهِ تَعالى مِن غَيرِ الفَريضةِ؛ فقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «إنَّ أَحَبَّ الصِّيامِ إلى اللهِ صِيامُ داودَ» والمَعْنى: أكثَرُ ما يكونُ الصِّيامُ مَحبوبًا إليه عزَّ وجلَّ، ومِن ثَمَّ الخَيرُ والثَّوابُ أعظَمُ لفاعِلِهِ: هو صِيامُ نبيِّ اللهِ داودَ، فبيَّنَ أنَّه عليه السَّلامُ كان يَصومُ يومًا ويُفطِرُ يومًا، وصِيامُ يَومٍ وإفطارُ يَومٍ أفضَلُ مِن صِيامِ الدَّهرِ كلِّهِ؛ إذْ بصِيامِ الدَّهرِ يَضعُفُ البَدَنُ، ويُقصِّرُ المُسلِمُ في أداءِ ما عليه مِن حُقوقٍ وواجباتٍ، ومِن جِهةٍ أُخرى فإنَّ سَرْدَ الصِّيامِ طِيلةَ العامِ تَألَفُه النَّفسُ وتَعْتادُه، فيَفقِدُ الصِّيامُ أثَرَه في تَهْذيبِ نَفسِ الصَّائِمِ،

(١) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) واللفظ له.



بخلافِ صِيامِ يَومٍ وإفطارِ يَومٍ؛ فهو أشدُّ عليها وأقْوى في تَهْذيبِها، وبذلِكَ يكونُ الصَّومُ أنفَعَ لصاحِبِه، وأحبَّ إلى اللهِ تَعالى.





الزكاةُ والصدَقةُ

فَرْضيَّةُ الزَّكاةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقال سُبحانه: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وعَنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعَثَ مُعاذًا رَضِيَ اللهُ عنه إلى اليَمَنِ، فقالَ: ((ادْعُهُمْ إلى شَهادةِ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنِّي رَسولُ اللَّهِ، فإنْ هم أطاعوا لذلِكَ فأعْلِمْهم أنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عليهم خَمْسَ صَلواتٍ في كُلِّ يومٍ ولَيلةٍ، فإنْ هم أطاعوا لذلِكَ فأعلِمْهم أنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عليْهِم صَدَقةً في أمْوالِهِم، تُؤْخَذُ مِن أغْنِيائِهِم، وتُرَدُّ على فُقَرائِهِم))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((مَن آتاهُ اللهُ مالًا فلمْ يُؤَدِّ زَكاتَهُ، مُثِّلَ له مالُه يومَ القِيامةِ شُجاعًا أقرَعَ له زَبِيبتانِ، يُطَوَّقُه يومَ القِيامةِ، يَأخُذُ بلِهْزِمَتَيه -يَعْني: بشِدقَيهِ- ثُمَّ يقولُ: أنا مالُكَ، أنا كَنزُك، ثُمَّ تلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٨٠] الآيةَ))[2].



(١)) أخرجه البخاري (١٣٩٥) واللفظ له، ومسلم (١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٥) واللفظ له، ومسلم (٩٨٧).



الزَّكاةُ هي الرُّكنُ الثالثُ مِن أرْكانِ الإسلامِ الخَمْسةِ بعدَ الشَّهادتَينِ وإقامِ الصَّلاةِ، فرَضَها اللهُ عزَّ وجلَّ في مالِ الأغنياءِ، ووعَدَ اللهُ مَن يُؤتِيها على وجْهِها لمُستحقِّيها بالخَيرِ والبَرَكةِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وتَوعَّدَ مانِعَها بالخِزْيِ والعَذابِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

وفي الآيةِ الأُولى أمْرٌ مِن اللهِ تعالى لعِبادِه المؤمِنينَ بأداءِ الصَّلاةِ بحُدودِها وفُروضِها تامَّةً كما أمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ، وإيتاءِ الزَّكاةِ لأهلِها المُستحقِّينَ لها وَفْقَ ما شَرَع اللهُ تَبارَك وتعالى.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ المشرِكينَ إذا رجَعوا عن كُفرِهم إلى الإيمانِ باللهِ، وأدَّوُا الصَّلواتِ المفروضةَ، وأعطَوُا الزَّكاةَ الواجبةَ مُستحِقِّيها؛ فهُم مُسلِمونَ ولهم أُخُوَّةُ الإسلامِ بيْن أهلِه؛ ففي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ المُؤاخاةَ بالإسلامِ مَوقوفةٌ على فِعلِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ جَميعًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى شَرَطَهما في إثباتِ المُؤاخاةِ، ومَن لم يكُنْ مِن أهلِ وُجوبِ الزَّكاةِ وجَبَ عليه أنْ يُقِرَّ بِحُكمِها. وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ مَقرونتانِ بالشَّهادةِ في كَفِّ السَّيفِ وحَقْنِ الدَّمِ.

وفي الآيةِ الثالثةِ يَذكُرُ اللهُ تعالى أنَّ الذين يَجمَعونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ويُمسِكُونَها، ولا يُخرِجونَ حُقوقَ اللهِ منها -مِن الزَّكاةِ والنَّفَقاتِ الواجِبةِ- لهم عَذابٌ مُوجِعٌ. والتَّعبيرُ بالبِشارةِ هنا جاء على سَبيلِ التهَكُّمِ بهم، وجاء تَخْصيصُ الذَّهبِ والفِضَّةِ بالذِّكْرِ مِنْ بيْن سائرِ الأموالِ؛ لأنَّهما قِيَمُ الأموالِ وأثْمانُها، وهما لا يُكْنَزانِ إلَّا عنْ فَضْلةٍ عَنِ الحاجةِ وعن كَثْرةٍ، ومَنْ كَثُرَا عِندَه حتى يَكنِزَهُما لمْ يَعْدَمْ سائرَ أجْناسِ المالِ؛ فكان ذِكْرُ كَنْزِهما دَليلًا على ما سِواهما. واللهُ أعلمُ.

وفي الحَديثَينِ المَذكورينِ بَيانٌ لفَرْضيَّةِ الزَّكاةِ، وعُقوبةِ تارِكِها؛ **ففي حَديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما** يَحْكي خبَرَ إرْسالِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُعاذَ بنَ جَبَلٍ رضِي الله عنه إلى اليَمَنِ، وقد جعَلَهُ عامِلًا عليها جامِعًا للزَّكاةِ، حيثُ أوْصاهُ

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَبدَأَهُم بدَعْوتِهم أنْ يَشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، ويُقيموا ما عليهم مِن الصَّلَواتِ الخَمْسِ المَفروضةِ، فإنْ أطاعوهُ في شَأنِ الصَّلاةِ فيُعلِمُهُم أنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيهِم صَدَقَةً فِي أمْوالِهِم تُؤْخَذُ مِن أغْنِيائِهِم وتُرَدُّ على فُقَرائِهِم، وفي هذا بَيانٌ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لفَرْضيَّةِ الزَّكاةِ؛ فالصَّدَقةُ هُنا في هذا الحَديثِ هي الزَّكاةُ الواجِبةُ، وقد قال اللهُ تَعالى لنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وبيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الزَّكاةَ واجِبةٌ في أمْوالِ الأغنياءِ؛ على كلِّ مَن ملَكَ مالًا بلَغَ النِّصابَ المُقدَّرَ شَرْعًا، واستَوْفى بقيَّةَ شُروطِ وُجوبِ الزَّكاةِ المَعْروفةِ عندَ الفُقَهاءِ، ومنها أنْ يمُرَّ عليه عامٌ قَمريٌّ (هِجْريٌّ)، وهو شَرْطٌ في زَكاةِ الأموالِ النَّاميةِ؛ كالنُّقودِ والمواشِي، أمَّا الزُّروعُ والثِّمارُ فتُخْرَجُ زَكاتُها وَقْتَ حَصادِها، وكذلِكَ الرِّكازُ -وهو الكَنزُ المدفونُ- تُخرَجُ زَكاتُه وقْتَ استِخراجِه. «وتُرَدُّ على فُقَرائِهِمْ» بمَعْنى: تُصرَفُ على فُقَراءِ المُسلِمينَ، وفيه إشارةٌ لكَونِ الزَّكاةِ لا تُعطى لكافِرٍ؛ فتُؤخَذُ الزَّكاةُ مِن أغنِياءِ البلَدِ فتُردُّ على فُقَراءِ ذلك البَلدِ، ومُستحقِّيها مِن المُسلِمينَ، إلَّا أنْ يكونَ هُناكَ مَن هُم أحوَجُ خارِجَ البلَدِ، فتُنقَلَ إليهِم.

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أوضَحَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عُقوبةً مِن العُقوباتِ التي أعدَّها اللهُ عزَّ وجلَّ لِمانِعِ الزَّكاةِ؛ فبيَّنَ أنَّ مَن آتاهُ اللهُ مالًا قد بلَغَ النِّصابَ الشَّرعيَّ الذي تَجِبُ فيه الزَّكاةُ، فلَم يُخرِجْ زَكاتَهُ؛ عذَّبَهُ اللهُ يومَ القيامةِ، وصُوِّرَ له مالُهُ الذي بَخِلَ به، ولَم يُؤدِّ زكاتَهُ بِصورةِ ثُعْبانٍ أقرَعَ؛ بلا شَعَرٍ في رَأسِهِ، وهذا دَليلٌ على شِدَّةِ سُمِّيَّتِه، له نُقطتانِ سَوْداوانِ فَوقَ عَينَيه، وهو مِن أخْبَثِ الحيَّاتِ، ومعنَى «يُطَوَّقُهُ»: أنْ يَصيرَ له الثُّعبانُ طَوقًا حَولَ عُنُقِه، ثمَّ يَأخُذُ ويُمسِكُ «بِلِهْزِمَتَيْه»، وهما جانِبَا فَمِهِ، ويَعَضُّهما، ويُفرِغُ سُمَّه فيهما، ثُمَّ يقولُ: أنا مالُك، أنا كَنزُك الذي كَنَزْتَ! ثُم تَلا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كلامَ اللهِ تعالَى الذي يُؤكِّد ذلِكَ، وهو قولُه

تعالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]؛ استِدلالًا على ما قالَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

وفي هذا بَيانُ إثمِ مانِعِ الزَّكاةِ، والوَعيدُ الشَّديدُ المُترتِّبُ على ذلِك، وفيه: أنَّ العَبْدَ إذا لمْ يَشكُرِ النِّعمةَ ويُؤدِّ حَقَّ اللهِ فيها، فإنَّها تكونُ نِقمةً ووَبالًا عليه يومَ القِيامةِ، وتَتمثَّلُ له في أبْشعِ الصُّوَرِ التي تُؤلِمُه وتُؤذِيه.

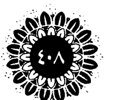
زَكاةُ الفِطرِ

عنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((فَرَضَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ زَكاةَ الفِطْرِ صاعًا مِن تَمْرٍ، أوْ صاعًا مِن شَعِيرٍ؛ على العَبْدِ والحُرِّ، والذَّكَرِ والأُنْثَى، والصَّغِيرِ والكَبِيرِ مِن المُسلِمينَ، وأمَرَ بها أنْ تُؤَدَّى قبْلَ خُروجِ النَّاسِ إلى الصَّلاةِ))[1].

زَكاةُ الفِطرِ هيَ إحْدى الصَّدَقاتِ الواجِبةِ المُحدَّدةِ الزَّمَنِ والمِقْدارِ؛ فَرَضَها اللهُ عزَّ وجلَّ لتكونَ طُهرًا للصَّائِمينَ، وإغناءً للفُقَراءِ والمُحتاجينَ عنِ السُّؤالِ يومَ العيدِ، وفي هذا الحَديثِ يُبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وُجوبَ صَدَقةِ الفِطرِ ومِقدارَها، وعلى مَن تَجِبُ، وفيه يَرْوي عبدُالله بنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فرَضَ زكاةَ الفِطرِ على كلِّ مُسلمٍ ومُسلمةٍ، عبدًا كانَ أو حُرًّا، ذكَرًا أو أُنثى، صغيرًا أو كبيرًا، وبَيَّنَ مِقدارَها وأنَّها صاعٌ، وهو خمسةُ أرطالٍ وثُلُثٌ تقريبًا، وبالكيلو: ثلاثةُ كيلوجراماتٍ تقريبًا؛ مِن تَمرٍ أو شَعيرٍ وما في حُكمِهما، وأمَرَ بها أنْ تُؤدَّى قَبْلَ خُروجِ النَّاسِ إلى صَلاةِ العِيدِ، وإلَّا فإنَّها تَأخُذُ حُكمَ الصَّدَقةِ إنْ خَرجَتْ بعدَ العيدِ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٠٣) واللفظ له، ومسلم (٩٨٤).



التَّرغيبُ في الصَّدقةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وعَن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((قال اللَّهُ تبارَكَ وتَعالَى: يا ابنَ آدَمَ، أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليكَ، وقال: يَمِينُ اللهِ مَلْأَى -وقالَ ابْنُ نُمَيرٍ: مَلْآنُ- سَحَّاءُ لا يَغِيضُها شَيءٌ اللَّيلَ والنَّهارَ))[1].

وعنْ عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قالَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((اتَّقُوا النَّارَ، ثُمَّ أعْرَضَ وأشاحَ، ثُمَّ قال: اتَّقُوا النَّارَ، ثُمَّ أعْرَضَ وأشَاحَ -ثَلاثًا- حتى ظَنَنَّا أنَّه يَنْظُرُ إليْها! ثُمَّ قالَ: اتَّقُوا النَّارَ ولوْ بِشِقِّ تَمْرةٍ، فمَنْ لمْ يَجِدْ فبِكَلِمةٍ طَيِّبةٍ))[2].



حَثَّ الإسلامُ على الصَّدَقةِ والإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ، وبيَّنَ أنَّ ما يُنفِقُه الإنسانُ عائِدٌ عليه أضْعافًا مُضاعَفةً في الدُّنيا والآخِرةِ، وأنَّ ما عِندَ اللهِ أبْقَى ممَّا يدَّخِرُه الإنسانُ لِنَفسِه، **وفي الآيةِ الأولَى** شَبَّهَ اللهُ سبُحانَه المُنفِقَ بالباذِرِ، والنَّفقةَ في سَبيلِه بالبَذْرةِ؛ فإنَّ مَن يُنفِقُ في أوجُهِ الخيرِ والبِرِّ ابتغاءَ مَرْضاةِ اللهِ تعالى، فهو كالذي غيَّبَ في أرضٍ طيِّبةٍ زكيَّةٍ بَذرةً صالحةً للنُّموِّ، فأخرَجَتْ سَبْعَ سَنابِلَ، وقد اشتمَلَت كلُّ واحدةٍ منها على مِئةِ حَبَّةٍ، فكانت النَّتيجةُ سَبعَمِئةِ حبَّةٍ، خرَجَت مِن حبَّةٍ واحدةٍ، فكذلك النَّفقةُ الطَّيِّبةُ يُنمِّيها اللهُ عزَّ وجلَّ لباذِلِها، ويُضاعِفُ له أجْرَها سبعَمِئةِ مرَّةٍ، واللهُ تعالى يُضاعِفُ

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٠) واللفظ له، ومسلم (١٠١٦).

هذه المضاعَفةَ إلى السَّبعِمئةِ، أو إلى أكثرَ مِن ذلك، بحسَبِ مَشيئتِه، وَفْقَ ما تَقتضيه حِكمتُه؛ فإنَّ المنفِقينَ يَتفاوتونَ إيمانًا وإخلاصًا للهِ تعالى، وتَتفاوَتُ نَفقاتُهم كذلك بحسَبِ نَفْعِها، وشِدَّةِ الحاجةِ إليها.

واللهُ تعالى واسعُ الفَضلِ والعَطاءِ؛ ولذا يُضاعِفُ لِمن يَشاءُ هذه المضاعَفةَ أو يَزيدُ عليها، فلا يَستبعِدَنَّ أحدٌ ذلك الأجرَ الكريمَ، أو يَتوهَّمْ أنَّ فيه مُبالَغةً؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يَتعاظَمُه شَيءٌ، ولا يَنقُصُه العطاءُ مهما عَظُمَ، ولكِنْ لا يَنْبغي أنْ يُظَنَّ أنَّ سَعةَ عَطائِه سُبحانَه تَقتَضي حُصولَ تلك الأُجورِ لكلِّ مُنفِقٍ؛ فإنَّه عليمٌ بمَن هو أهلٌ لهذا الأجرِ، ومَن لا يَستَحِقُّه؛ فإنَّ سَعةَ كَرَمِه تعالى لا تُناقِضُ حِكمتَه، بل يَضَعُ فضْلَه مَواضِعَه.

وفي الآيةِ الثانيةِ: بيانُ أنَّ ما أنفَقه العَبدُ في الخَيرِ والبِرِّ فإنَّ اللهَ يُخلِفُ عليه ما أنفَقَه في سَبيلِه، فيُعَوِّضُه بدَلَه، واللهُ تعالى هو خيرُ مَن يَرزُقُ عِبادَه، ويُعطيهم مِن خَزائِنِه التي لا تَفنى. وفي هذا حَثٌّ عظيمٌ على الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تعالى، فمهما أنفَقَ في الخيرِ فالخَلَفُ مَضمونٌ له.

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يَرْوي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ما وَعَد به المُنفِقينَ، وهو أنَّه إذا أنفَقَ الإنْسانُ أنفَقَ اللهُ عليه، وهو مَعْنى قَولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، ومَعْنى الإنْفاقِ منه عزَّ وجلَّ أنْ يُعوِّضَ عبْدَه المُنفِقَ خَيرًا في الدُّنيا والآخِرةِ، وهذا يَتضمَّنُ الحثَّ على الإنْفاقِ في وُجوهِ الخَيرِ، والتَّبشيرَ بالخَلَفِ مِن فَضلِ اللهِ تَعالى.

وقَولُه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «يَمينُ اللهِ مَلْأى» يعني: تُعْطي بلا كَمٍّ ولا كَيفٍ، ومهما بلَغَ عَطاءُ أيِّ أحَدٍ فعَطاءُ اللهِ فَوقَ عَطائِه، وتُوصَفُ يَدُ اللهِ عزَّ وجلَّ بأنَّها يَمينٌ، وهذا ثابتٌ بالكِتابِ والسُّنَّةِ، وهي صِفةٌ ذاتيَّةٌ للهِ عزَّ وجلَّ، نُثبِتُها كما نُثبِتُ باقيَ صِفاتِه؛

مِن غَيرِ تَحريفٍ ولا تَعطيلٍ، ومِن غيرِ تكييفٍ ولا تَمثيلٍ، وقولُه: «سَحَّاءُ» تأْكيدٌ لِكَثرةِ ما عِندَه سُبحانَه وتعالَى، وعلى كَريمِ عَطائِه، والسَّحَّاءُ: الدَّائمةُ الصَّبِّ، ويَدُه سُبحانَه وتعالَى «لا يَغِيضُها شَيءٌ اللَّيلَ والنَّهارَ»، أي: لا يَنقُصُها كَثْرةُ النَّفَقةِ باللَّيلِ والنَّهارِ؛ فالعاقِلُ مَنِ امتَلَأَ قلبُهُ إيمانًا وتَصْديقًا لِكَلامِ اللهِ ورَسولِهِ، وبادَرَ بالإنْفاقِ في أوجُهِ الخَيرِ، واللهُ لن يُضِيعَ أجْرَ مَن أحسَنَ عمَلًا.

وفي حَديثِ عَدِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنه يَدْعونا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأنْ نَقِيَ أنفُسَنا مِن النَّارِ قَدْرَ جُهدِنا، وأنْ يَجعَلَ كُلُّ واحدٍ بيْنَه وبيْنَ النَّارِ حِجابًا وحاجزًا. ويَعرِضُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا الأمْرَ بصُورةِ مَن يَرى النَّارَ بعَينِه، ويُظهِرُ الحَذَرَ منها، ويَصرِفُ وَجهَهُ كالخائِفِ أنْ تنالَهُ، وقدْ كرَّرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأمْرَ ثلاثًا للتَّأكيدِ؛ بَيانًا لخُطورةِ الأمْرِ وعَظَمتِه، ثمَّ بيَّنَ أهميَّةَ الصَّدَقةِ في تَحقيقِ الوِقايةِ مِن النَّارِ، ولو بالقَليلِ، وعبَّرَ عنه بالجُزءِ مِن التَّمْرةِ، فمَنْ لم يَجِدْ ما يَتصدَّقُ به مِن مالٍ، فلْيَتَّقِ النَّارَ بالكلمةِ الطَّيِّبةِ، وهي كلُّ قَولٍ حَسَنٍ نافِعٍ تَطِيبُ بها نَفسُ السائلِ، ويتَّسِعُ مَفهومُ الكَلِمةِ الطَّيِّبةِ لِتَشمَلَ كلَّ قَولٍ يُرضي اللهَ ورَسولَه مِمَّا يَنفَعُ العِبادَ والبِلادَ؛ كالدَّلالةِ على هُدًى، والصُّلحِ بيْنَ اثنَينِ، وفَصلٍ بيْنَ مُتَنازعَينِ، وحَلِّ مُشكِلٍ، وكَشفِ غامِضٍ، وتَسكينِ غَضَبٍ، وغَيرِ ذلِكَ. وفي هذا الحَديثِ إرْشادٌ إلى تَركِ احتقارِ القليلِ مِن الصَّدَقةِ وغَيرِها.

إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يَقبَلُ إلا طَيِّبًا

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللَّهَ أمَرَ المُؤمنينَ بما أمَرَ به المُرسَلينَ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:



٥١]، وقالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾[البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أشعثَ أغبرَ، يَمُدُّ يَدَيهِ إلى السَّماءِ: يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطْعَمُه حَرامٌ، ومَشْرَبُه حَرامٌ، ومَلْبَسُه حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ؛ فأنَّى يُستَجابُ لذلِكَ؟!))[(١)].



الحِرصُ على الحَلالِ الطيِّبِ -في المَطْعَمِ والمَشْرَبِ والمَلْبَسِ وسائر الأمورِ- مِن أخصِّ خَصائِصِ عِبادِ اللهِ الصَّالحينَ، وفي هذه الآيةِ يَأمُرُ اللهُ تعالى جميعَ البَشرِ -المؤمنَ منهم والكافرَ- أنْ يَأكُلوا مِن جميعِ ما في الأرضِ مِن نباتاتٍ أو حَيواناتٍ، بشَرطِ أنْ يكونَ حلالًا، وأنْ يكونَ طاهرًا لا ضرَرَ فيه.

وحديثُ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أحدُ الأحاديثِ التي هي قواعدُ الإسلامِ ومَبانِي الأحكامِ، وفيه يُعلِّمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمَّتَه الحِرصَ على طَلَبِ الحَلالِ الطيِّبِ مِن المَشْرَبِ والمَطعمِ والمَلبَسِ، وأنَّه أحَدُ أهمِّ أسبابِ استجابةِ الدُّعاءِ؛ فيُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عنِ النَّقائصِ والعُيوبِ، ومُتَّصِفٌ بالكَمالاتِ مِن النُّعوتِ، «لا يَقبَلُ إلَّا طيِّبًا»: لا يَقبَلُ مِن الصَّدقاتِ ونحوِها مِن الأعمالِ إلَّا ما كان مُنزَّهًا عنِ العُيوبِ الشَّرعيَّةِ، والأغراضِ الفاسدةِ في النيَّةِ؛ فالصَّدَقةُ يَجِبُ أنْ تكونَ طيِّبةً، ويَنْبغي اكتسابُ مُنفِقِها مِن حَلالٍ، وأنْ يَصْدُقَ في نيَّتِهِ حالَ إخراجِها.

ثمَّ يُبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ تحرِّيَ الحَلالِ هو أمْرٌ مِن اللهِ لِجميعِ خَلْقِه بِدايةً بأنبيائِه الذينَ هُم أئمَّةُ البَشَرِ وقُدوتُهُم، ثُمَّ قالَ: «وإنَّ اللهَ أمَرَ المُؤمِنينَ بما أمَرَ به المرسَلين»: أمَرَهم بأكْلِ الحلالِ، وعمَلِ الصَّالحاتِ، ثمَّ ذَكَر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ «الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ»، وإطالةُ السَّفَرِ مِن مُقتَضَياتِ إجابةِ الدُّعاءِ، بل السَّفَرُ بمُجَرَّدِه يَقتَضي إجابةَ الدُّعاءِ، ومتى طال السَّفَرُ كان أقرَبَ إلى إجابةِ الدُّعاءِ؛ لأنَّه مَظِنَّةُ

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

حُصولِ انكِسارِ النَّفسِ بطُولِ الغُربةِ عن الأوطانِ، وتحَمُّلِ المَشاقِّ، والانكِسارُ مِن أعظَمِ أسبابِ إجابةِ الدُّعاءِ. «أشْعَثَ أغْبَرَ»، أي: مُتفَرِّقًا شَعَرُ رأسِه، وهو تأكيدٌ لكَثْرةِ سَفَرِه، وشِدَّةِ عَنائِه، ومُغْبَرًّا لونُه مِن أثَرِ التُّرابِ والغُبارِ، وهذه الحالُ التي يكونُ عليها مِن التَّواضُعِ والاستِكانةِ أيضًا مِن مُقتَضَياتِ استِجابةِ الدُّعاءِ، ومع الشَّعَثِ والغَبَرةِ والتَّعَبِ والنَّصَبِ يَرفَعُ يدَيْهِ بالدُّعاءِ إلى السَّماءِ، ومَدُّ اليدَيْنِ إلى السَّماءِ مِن أسبابِ إجابةِ الدُّعاءِ، قائلًا مُكرِّرًا: «يا رَبِّ، يا رَبِّ»، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الدُّعاءَ بلَفظِ الربِّ مُؤثِّرٌ في الإجابةِ، فالرَّجُلُ قد تحقَّقَ بكُلِّ هذه الأسبابِ، وكان حَريًّا بدُعائِه أنْ يَنالَ القَبولَ ويُستجابَ له، غيرَ أنَّه لم يُستجَبْ له! وذلِكَ لأنَّ طَعامَه وشَرابَه ومَلابِسَه مِن كَسْبٍ حَرامٍ، وتغذَّى بالحرامِ؛ «فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!»، أي: مِن أين يُستجابُ لِمن هذه صِفتُه، وكيف يُستَجابُ له؟!

الصَّدَقةُ على الزَّوجِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وعن زَينَبَ امرأةِ عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((تَصدَّقْنَ يا مَعْشَرَ النِّساءِ، ولو مِن حُلِيِّكُنَّ. قالتْ: فرَجَعْتُ إلى عبدِ اللهِ فقُلتُ: إنَّكَ رَجُلٌ خَفِيفُ ذاتِ اليَدِ، وإنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ أمَرَنا بالصَّدَقةِ، فأْتِهِ فاسْأَلْه، فإنْ كانَ ذلك يَجْزِي عَنِّي، وإلَّا صَرَفْتُها إلى غيرِكُم. قالتْ: فقال لي عبدُاللهِ: بَلِ ائْتِيهِ أنتِ. قالت: فانْطَلَقْتُ، فإذا امْرأةٌ مِن الأنْصارِ ببابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حاجَتي حاجَتُها، قالتْ: وكان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ أُلْقِيَتْ عليه المَهابةُ، قالتْ: فخَرَجَ علينا بِلالٌ فقُلْنا له: ائْتِ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأخْبِرْه أنَّ امْرأتَينِ بالبابِ تَسْأَلانِك: أتُجْزِئُ الصَّدقةُ عنهما على أزْواجِهِما



وعلى أيْتامٍ في حُجُورِهِما؟ ولا تُخْبِرْه مَن نحنُ، قالتْ: فدَخَلَ بِلالٌ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فسَأَلَه، فقالَ له رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: مَن هُما؟ فقال: امْرَأَةٌ مِن الأنْصارِ وزَينَبُ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أيُّ الزَّيانِبِ؟ قال: امْرَأَةُ عبدِاللهِ، فقال له رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: لهما أجْرانِ: أجْرُ القَرابةِ، وأجْرُ الصَّدقةِ))(١).



حثَّ الإسلامُ على الصَّدَقةِ، وبيَّن أنَّ أفضلَ الصَّدَقةِ وأعظَمَها أجْرًا ما كان على الأقاربِ؛ إذْ تَصيرُ صَدَقةً وصِلةً، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** يُبَيِّنُ اللهُ تَبارَك وتعالَى أنَّ أَولى وأحَقَّ مَن تُنفَقُ عليه الأموالُ هم أقرَبُ النَّاسِ رَحِمًا، وهم الوالِدانِ، ثمَّ بقيَّةُ الأقاربِ، الأقرَبُ فالأقرَبُ، ثمَّ تُصرَفُ إلى أشدِّ النَّاس حاجةً مِن بَعدِهم، وهم اليتامى، ثمَّ المساكينُ، ثمَّ ابنُ السَّبيلِ، وهو المسافرُ المُجتازُ الذي يَحتاجُ نفَقةً تُوصِلُه إلى مَوطِنِه.

وفي هذا الحَديثِ بيانُ ذلِك؛ حيثُ وعَظَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النِّساءَ ودَعاهُنَّ لإخراجِ الصَّدَقةِ، فقال: «تَصَدَّقْنَ يا مَعشرَ النِّساءِ»، والمَعشَرُ: الجماعةُ الذينَ صِفتُهُم واحِدةٌ، «ولو مِن حُلِيِّكنَّ»، والحُلِيُّ: هو ما تَتزيَّنُ به المرأةُ، وكانت زَينبُ زَوجةُ عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه تُنفِقُ عليه وعلى أيتامٍ في حِجْرِها، قيلَ: هُم بنو أخيها وبنو أُختِها، فقالت لعبدِاللهِ: سَلْ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «أيَجزي عني»، بمعنى: أيَكْفي أنْ أُنفِقَ وأتصدَّقَ عليك وعلى أيْتامي في حِجْري مِن الصَّدقةِ؟ فقال لها عبدُالله: سَلِي أنتِ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قالتْ: «فانطلَقْتُ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فوجَدْتُ امرأةً مِن الأنصارِ على البابِ، حاجتُها مِثْلُ حاجتي»، والمَعْنى: أنَّ سؤالَها مِثْلُ سُؤالي، وهو السُّؤالُ عنِ التَّصدُّقِ على الأقاربِ، فمَرَّ بِلالٌ

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٦) مختصرًا، ومسلم (١٠٠٠) واللفظ له.



رَضِيَ اللهُ عنه، فطلَبَتا منه أنْ يَسألَ لهما رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أيَجْزي عنِّي أن أُنفِقَ على زَوجي وأيتامٍ لي في حِجْرِي؟ وطَلَبَتا مِن بِلالٍ رَضِيَ اللهُ عنه ألَّا يُفصِحَ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ اسْمَيْهما، فدخَلَ فسَألَه رَسولُ اللهِ عنهما وطلَبَ مَعرِفتَهما، فأجابَ بِلالٌ رَسولَ اللهِ وأخبَرَهُ بزَينَبَ زَوجةِ عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، وإنَّما عيَّنها بِلالٌ لسُؤالِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وطَلَبِه؛ فإنَّ جَوابَه واجبٌ مُتحتِّمٌ لا يَجوزُ تَأخيرُه، فأجابَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنَعَمْ، وللمُتصَدِّقةِ على هذا النَّحوِ أجْرانِ: أجْرُ القرابةِ وصِلةِ الرَّحمِ، وأجْرُ الصَّدقةِ.

إنْفاقُ المرأةِ مِن مالِ زَوجِها

عَن عائِشةَ أُمِّ المُؤمِنينَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا أنْفَقَتِ المَرأةُ مِن طَعامِ بَيتِها غيرَ مُفْسِدةٍ، كان لها أجْرُها بما أنْفقَتْ، ولزَوجِها أجْرُه بما كَسَبَ، وللخازِنِ مِثْلُ ذلكَ، لا يَنقُصُ بَعضُهُم أجْرَ بعضٍ شيئًا))[1].



في هذا الحَديثِ يُعظِّمُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أمْرِ الصَّدقةِ ويَدْعو إليها، ويُبيِّنُ أجْرَ المرأةِ إذا أنفَقَتْ مِن مالِ زَوجِها بإذْنِه، صَراحةً أو ضِمْنًا؛ بأنْ تكونَ قد عَلِمَتْ رِضاهُ عنْ إنْفاقِها، فيُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا أنفَقَتْ وأعطتِ المرأةُ مِن طَعامِ بيتِها غيرَ مُفسِدةٍ، ولا قاصدةٍ إتلافَ مالِ زَوجِها، وإلحاقَ الضَّررِ به؛ كان لها أجْرُها بما أنفَقَتْ، ولزَوجِها أجْرُه بما كَسَب وسَعَى مِن أجْلِ تَحصيلِ الرِّزقِ، وللخازِنِ -وهو مَن عُهِد إليه بحِفظِ الطَّعامِ- أجْرٌ آخَرُ على الإنفاقِ مِن طَعامِ صاحِبِه؛ لِحفظِهِ ورِعايَتِهِ للمالِ وقِيامِه عليه، لا يَنقُصُ بَعضُهم مِن أجْرِ بَعضٍ شيئًا، وهذا كلُّه مِن واسِعِ رَحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بعِبادِهِ، وجَزيلِ عَطائِه لهم.

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٠٢٤).





الحَج

فَرْضيَّةُ الحَجِّ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وعَن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: خَطَبَنا رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقال: ((أيُّها النَّاسُ، قدْ فرَضَ اللَّهُ علَيْكم الحَجَّ، فحُجُّوا، فقال رجُلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رَسولَ اللهِ؟ فسَكَتَ حتى قالَها ثَلاثًا، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: لو قُلتُ: نَعَمْ، لَوجبَتْ، ولَمَا اسْتَطَعْتم! ثمَّ قال: ذَرُوني ما ترَكْتُكم؛ فإنَّما هلَكَ مَن كان قَبْلَكم بكَثْرةِ سُؤالِهم واخْتِلافِهم على أنْبيائِهم، فإذا أمَرْتُكم بشيءٍ فأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتم، وإذا نهَيْتُكم عن شيءٍ فدَعُوه))[١].



الحَجُّ رُكنٌ مِن أركانِ الإسلامِ، فرَضَه اللهُ على المُستطيعِ مرَّةً في العُمُرِ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ الكريمةِ أنَّ حَجَّ بَيتِ اللهِ تعالى الحرامِ فرْضٌ واجبٌ على مَن قَدَر عليه مِن المكلَّفينَ إذا توفَّرَت القُدرةُ الماليَّةُ والبدنيَّةُ وغيرُهما ممَّا يُحقِّقُ الاستطاعةَ، فمَن جحَدَ فَرْضَ الحجِّ وأنكَرَ وُجوبَه؛ فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عنه، وعن حَجِّه، وعن سائرِ خَلْقِه.

وفي الآيةِ الكريمةِ وُجوبُ المبادرةِ بالحجِّ على مَن استطاعَ إليه سَبيلًا؛ فالواجبُ على كلِّ مسلمٍ ومُسلمةٍ ممَّن يَستطيعُ مَؤونةَ الحجِّ إذا كان مُكلَّفًا أن يُبادِرَ بذلك فَورًا وألَّا يُؤخِّرَه. وفيها بيانُ رَحمةِ اللهِ تعالى؛ حيثُ لم يَفرِضْ على عِبادِه ما كان شاقًّا عليهم، فلا يَستطيعونَه.

(١) أخرجه من طرق البخاري (٧٢٨٨) مختصرًا، ومسلم (١٣٣٧) واللفظ له.



وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ رَسولُ اللهُ أُمَّتَه بوُجوبِ الحَجِّ، ويحُثُّهم عليه؛ حيثُ قام صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أصحابِهِ خَطيبًا، قائلًا: «أيُّها النَّاسُ، قدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيكم الحَجَّ، فحُجُّوا»، مُطلقًا دُونَ تَحديدٍ لعدَدِ حَجَّاتٍ مُعيَّنةٍ، فقال رَجُلٌ -وهو الأقرَعُ بنُ حابِسٍ-: «أكُلَّ عامٍ يا رَسولَ اللهِ؟» قيلَ: إنَّما صدَرَ هذا السُّؤالُ عنه؛ لأنَّ الحَجَّ في تَعارُفِهم هو القَصدُ بعدَ القَصدِ، فكانتِ الصِّيغةُ مُوهِمةً للتَّكرارِ، والأظهَرُ أنَّ مَبْنى السُّؤالِ قِياسُه على سائرِ الأعْمالِ مِن الصلاةِ والصَّومِ وزَكاةِ الأمْوالِ، فسَكَتَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ الجوابِ ولم يُجِبْه، حتى أعادَ الصحابيُّ سُؤالَه ثلاثَ مرَّاتٍ. قيلَ: إنَّما سكَتَ زَجْرًا له عنِ السُّؤالِ الذي كان السُّكوتُ عنه أَوْلى؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يكُنْ يَسكُتُ عمَّا تَحتاجُ الأُمَّةُ إلى كَشفِه، فالسُّؤالُ عن مِثلِه تَقديمٌ بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِه، وقد نُهُوا عنه؛ لقَولِه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، ثُمَّ لَمَّا رآهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يَنزجِرُ، ولا يَقنَعُ إلَّا بالجَوابِ الصَّريحِ، قال: «لو قُلتُ: نَعَمْ، لَوجَبَتْ» لصار الحَجُّ واجبًا عليكم، «ولمَا استَطَعْتم» الوفاءَ على هذا النَّحوِ، ثُمَّ أخَذَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تَربيَتِهم على عدَمِ السُّؤالِ عمَّا سكَتَ عنه الشَّرعُ؛ حتى لا يقَعَ الجَوابُ فيما يشُقُّ على الجَميعِ، حيثُ قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «ذَرُوني ما تَرَكْتُكم»، أي: اترُكوني ما دُمتُ قد تَركتُكم ولم أُكَلِّفكم، أي: لا يَنْبغي أنْ تَسألوا عن شَيءٍ مَسكوتٍ عنه، ثُمَّ أخَذَ يُحذِّرُهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الوُقوعِ في مِثلِ ما وقَعَتْ فيه الأُمَمُ السَّابقةُ بسَببِ كَثْرةِ السُّؤالِ لغَيرِ حاجةٍ وضَرورةٍ، وكَثْرةِ مُخالفَتِهم وعِصْيانِهم لأنبيائِهم، وأنَّ هذا الخُلُقَ كان سببًا في هلاكِهم؛ فهُمْ أكْثَروا مِن السُّؤالِ لغَيرِ حاجةٍ، فشدَّدَ اللهُ عليهم، وأكْثَروا مِن المُخالَفةِ لِمَا أُمِروا به.

ثُمَّ يُرْسي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قاعدةً مِن أجلِّ قواعِدِ الإسلامِ، وهِيَ مِن جوامِعِ كَلِمِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فإذا أمَرتُكم بشيءٍ فأْتُوا منه ما استَطَعْتُم»؛ فالطاعةُ

على قَدْرِ الاستِطاعةِ، وهذا مُوافِقٌ لِقَولِ اللهِ تعالَى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[التغابن: ١٦]، «وإذا نَهَيْتُكم عن شَيءٍ فدَعُوه» إذا منَعتُكم عن شَيءٍ فلا تَفعَلُوه، وابتعِدوا عنه كلِّه؛ إذ الامتِثالُ لا يَحصُلُ إلَّا بتَرْكِ الجَميعِ، ولا تَكليفَ -أمرًا ونهْيًا- فوقَ الوُسْعِ والطَّاقةِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٨٦].

مِن فَضائلِ الحَجِّ والعُمرةِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((**سُئِل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أيُّ الأعْمالِ أفضَلُ؟ قالَ: إيمانٌ باللهِ ورُسولِهِ. قيلَ: ثُمَّ ماذا؟ قال: جِهادٌ في سَبيلِ اللهِ. قيلَ: ثُمَّ ماذا؟ قال: حجٌّ مَبْرورٌ**))[1].

وعَنه رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((**مَن حجَّ هذا البَيتَ، فلم يَرفُثْ، ولم يَفسُقْ؛ رجَعَ كما وَلَدَتْه أُمُّه**))[2].

وعَنه رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((**العُمْرةُ إلى العُمْرةِ كَفَّارةٌ لِما بيْنَهما، والحَجُّ المَبْرورُ ليسَ له جَزاءٌ إلَّا الجَنةُ**))[3].



كان الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم -لحِرصِهم على الطَّاعاتِ، وما يُقرِّبُ مِن رِضا اللهِ عزَّ وجلَّ- كثيرًا ما يَسألُون النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أفضلِ الأعمالِ، وأكثرِها قُربةً إلى اللهِ تعالَى، فكانتْ إجاباتُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَختلِفُ باختلافِ أشخاصِهم وأحوالِهم، وما هو أكثرُ نفْعًا لكلِّ واحدٍ منهم، ففي **الحَديثِ الأوَّلِ** يَذكُرُ أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا سُئِل: أيُّ العملِ أفضلُ،

(١) أخرجه البخاري (١٥١٩) واللفظ له، ومسلم (٨٣).
(٢) أخرجه البخاري (١٨١٩) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٠).
(٣) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).



ويَنفَعُ المُسلِمَ في الدُّنيا والآخِرةِ إذا التَزَمَه وعَمِلَ به؟ فبيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ رأسَ تلك الأعْمالِ بعدَ الإيمانِ باللهِ ورسُولِه، والجِهادِ والقِتالِ في سبيلِ اللهِ: الحَجُّ المبرورُ، وهو الحَجُّ الخالصُ لوجْهِ اللهِ تعالَى، المقبولُ عندَه؛ لخُلوصِه مِن الرِّياءِ والسُّمعةِ والإثْم. وظاهرُ الحَديثِ يَقتضي أنَّ الجهادَ أفضَلُ مِن الحَجِّ، وهو مَحمولٌ على حجِّ النَّافلةِ.

وفي **الحديثِ الثَّاني** يُبَيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن قَصَد حَجَّ بَيتِ اللهِ الحرامِ، وخَرَج إليه قاصِدًا بذلك وَجْهَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ولم يَقصِدْه رِياءً ولا سُمعةً، «فلَم يَرفُثْ»، مِن الرَّفَثِ: وهو اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ ما يُريدُه الرَّجُلُ مِن المرأةِ، ويُطلَقُ على الجِماعِ، وعلى ذِكرِ الجِماعِ وخاصَّةً مع وُجودِ النِّساءِ، وعلى الفُحْشِ في القَولِ، «ولَم يَفسُقْ»، أي: ولَم يَرتكِبْ إثمًا أو مُخالَفةً شَرعيَّةً، صغيرةً أو كبيرةً تُخرِجُه عَن طاعةِ اللهِ تعالى؛ فالحَجُّ المبرورُ الذي لم يُخالِطْه إثمٌ، ووُفِّيَت فيه جميعُ مَقاصِدِه؛ «رجَع» منه صاحِبُه «كما ولَدَتْه أُمُّه»، أي: عادَ بعدَ حَجِّه نَقيًّا مِن خَطاياهُ كما يَخرُجُ المولودُ مِن بطْنِ أُمِّه، أو كأنَّه خرَجَ حينَئِذٍ مِن بَطنِ أُمِّه، ليس عليه خَطيئةٌ ولا ذَنْبٌ.

وفي **الحَديثِ الثالثِ** يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ببَعضِ فَضائلِ الحجِّ والعُمرةِ، ويُبيِّنُ ثوابَ اللهِ الجَزيلَ عليهما، وأنَّه إذا كرَّرَ الإنسانُ القِيامَ بالعُمرةِ مرَّةً بعدَ أُخرى، كانَتِ العُمْرتانِ سببًا في تَكفيرِ ما بيْنهما مِن الصَّغائرِ، وعدَمِ المُؤاخَذةِ بها، وهذا معْنى قولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «العُمرةُ إلى العُمرةِ كَفَّارةٌ لِما بيْنهما»، أمَّا الحجُّ المَبرورُ فليس له جَزاءٌ إلَّا الجنَّةُ، ومعْنى ذلك أنَّه لا يَقتصِرُ لصاحبِه مِن الجَزاءِ على تَكفيرِ بَعضِ ذُنوبِه، بل يُكفِّرُ جَميعَ ذُنوبِه ويُدخِلُه الجنَّةِ.

فَضلُ العَشرِ الأوَلِ مِن ذي الحِجَّةِ

عن عبدِاللهِ بنِ عباسٍ رضِيَ اللهُ عنهُما، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال:



((ما العَمَلُ في أيَّامٍ أفْضَلُ منها في هذِه. قالوا: ولا الجِهادُ؟ قال: ولا الجِهادُ، إلَّا رَجُلٌ خرَجَ يُخاطِرُ بنَفْسِه ومالِه، فلَمْ يَرْجِعْ بشيءٍ))[1].



مِن رَحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بعِبادِه أنْ مَنَّ عليهِم بأيامٍ مُبارَكةٍ، يُضاعِفُ فيها الأجرَ، ويُعطي فيها جَزيلَ الثَّوابِ رَحمةً منه وكرَمًا، ومنها: الأيامُ العشرُ الأُوَلُ مِن ذي الحِجَّةِ؛ فضَّلها اللهُ على غيرِها مِن الأيامِ، وأعطى للعاملِ فيها بالطاعاتِ أجرًا عظيمًا فاقَ ما يُعطيهِ في غيرِها، وفي هذا الحديثِ يُرشِدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى فَضلِ العملِ الصَّالحِ في هذه الأيامِ العَشْرِ؛ فيُبيِّنُ أنَّ أجْرَ العملِ الصَّالحِ فيها يَتضاعَفُ ما لا يَتضاعَفُ في سائرِ الأيَّامِ، فسَألَ الصَّحابةُ رضِيَ اللهُ عنهمُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ الجهادِ في غيرِ هذه العَشْرِ، هلِ العملُ الصَّالحُ فيها يَفضُلُه أيضًا؟ فأجابَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: نَعَمْ، إلَّا أنَّه استثنى مِن ذلك رجُلًا خرَج مُخاطِرًا بنفْسِه ومالِه في سَبيلِ الله في غيرِ هذه العَشْرِ، ففَقَدَ مالَه وفاضَتْ رُوحُه في سَبيلِ اللهِ.

فَضلُ يَومِ عَرَفَةَ

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما مِن يَومٍ أكْثَرَ مِن أنْ يُعتِقَ اللَّهُ فيه عَبدًا مِن النَّارِ، مِن يومِ عَرَفةَ، وإنَّه لَيَدنُو، ثُمَّ يُباهي بهم المَلائِكةَ، فيَقولُ: ما أرادَ هؤلاءِ؟))[2].



فَضَّلَ اللهُ بعضَ الأيَّامِ عَلى بعضٍ، والأيَّامُ الفاضِلةُ هي مَواسِمُ لنَفحاتِ اللهِ وعَطاياهُ لعِبادِه، يَغفِرُ فيها الذُّنوبَ، ويَرفَعُ فيها الدَّرَجاتِ، ومِن تِلكَ الأيَّامِ الفاضلةِ يومُ عَرَفةَ،

(١) أخرجه البخاري (٩٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٤٨).

وفي هذا الحَديثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَضلَ هذا اليَومِ العَظيمِ، ويُخبِرُ أنَّه أكثَرُ يومٍ يُعتِقُ اللهُ فيه رِقابَ العِبادِ مِن النَّارِ، وأنَّه سُبحانَه وتعالَى يَدْنو دُنُوًّا يَليقُ بجَلالِهِ وعَظمَتِه، كما أثْبَتَه سُبحانَه لِنَفسِه، دُونَ تَشبيهٍ أوْ تَمثيلٍ، ثُمَّ يُباهي المَلائكةَ بمَنْ بعَرَفةَ، ومَعناه: يُظهِرُ فَضلَهم لهم، ويُريهِم حُسْنَ عَملِهم، ويُثني عَليهم عِندَهم، وأَصلُ البَهاءِ الحُسنُ والجَمالُ. «فيقولُ: ما أرادَ هَؤلاءِ؟»: أيَّ شَيءٍ أرادَ هَؤلاءِ حيثُ تَرَكوا أهلَهم وأوطانَهم وصَرَفوا أموالَهُم وأتْعَبوا أَبدانَهم؟ أي: ما أَرادوا إلَّا المَغفرةَ والرِّضا، وهذا يَدُلُّ على أنَّهم مَغفورٌ لَهم؛ لأنَّه لا يُباهى بأهلِ الخَطايا والذُّنوبِ إلَّا مِن بَعدِ التَّوبةِ والغُفرانِ.



اللِّباسُ والزِّينةُ

إطالةُ الثَّوبِ تَحتَ الكَعبَينِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما أسْفَلَ مِن الكَعْبَينِ مِن الإزارِ فَفِي النَّارِ))[1].



نهَى الشارعُ الحكيمُ أنْ يُطيلَ الرَّجُلُ ثِيابَه حتى تُجاوِزَ كَعبَيه؛ لِمَا يُؤدِّي ذلك إلى الخُيلاءِ، وقد شدَّدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا الأمْرِ، وفي هذا الحَديثِ يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ ما نزَلَ مِن الثِّيابِ عنِ «الكَعبَينِ»، وهما العَظْمَانِ النَّاتِئانِ عِندَ مَفْصِلِ السَّاقِ والقَدَمِ؛ فإنَّ صاحبَه يُعذَّبُ بالنَّارِ، أو يُكوى مكانُ إنزالِ الإزارِ منه بالنَّارِ.

آدابُ الانتِعالِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا انْتَعَلَ أحَدُكم فلْيَبْدَأْ باليُمْنى، وإذا خلَعَ فلْيَبدَأْ بالشِّمالِ، ولْيُنعِلْهما جَميعًا، أو لِيَخلَعْهما جَميعًا))[2].



التَّيامُنُ هو: البَدءُ باليَمينِ في الأفْعالِ التي فيها اخْتِيارٌ بين اليَمينِ والشِّمالِ؛ فاليَمينُ جِهةٌ مُبارَكةٌ في مُسمَّاها؛ فأهْلُ اليَمينِ هم أهْلُ الجنَّةِ، وأيضًا فيها مَعاني اليُمْنِ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٥٦)، ومسلم (٢٠٩٧) واللفظ له.

والبَرَكةِ وغيرِ ذلك، كما جُعِلَ الشِّمالُ للأُمورِ المُستَقذَرةِ والتي فيها أذًى، وفي هذا الحَديثِ يُرشِدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن أراد لُبْسَ حِذائِهِ فلْيَبدَأْ في لُبسِهِ برِجلِهِ اليُمنَى تَكريمًا لها، وإذا أراد نَزْعَهُ يَبدَأُ برِجلِهِ اليُسرى، فتكونُ الرِّجْلُ اليُمنى أوَّلَ ما تُلبَسُ، وآخِرَ ما تُنزَعُ، ويُرشِدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أيضًا إلى أنَّه إمَّا أنْ يَلبَسَ النَّعلينِ جميعًا، وإمَّا أنْ يَخلَعَهما جميعًا، أمَّا أنْ يَلبَسَ واحدةً ويَدَعَ الأُخرى، فهذا قدْ نَهى عنه، وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَمْشي أحَدُكم في نَعْلٍ واحدةٍ، ليُحْفِهما جَميعًا، أو ليُنْعِلْهما جَميعًا))[1]؛ لِما في ذلك مِن الاختلالِ وعدَمِ الاتِّزانِ، وسَببٍ للتَّعثُّرِ والسُّقوطِ، كما أنَّه يَتنافى مع الوَقارِ.

القَزَعُ

عن عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَهَى عَنِ القَزَعِ))[2].



المُسلِمُ يُعرَفُ بحُسنِ سَمتِهِ، وطِيبِ خُلُقِه، وحِرصِه على اتِّباعِ هَديِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وفي هذا الحَديثِ يَنْهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن صُورةٍ مِن صُوَرِ حَلْقِ الشَّعَرِ، فيها تَشويهٌ للخِلْقةِ؛ حيثُ نَهَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن القَزَعِ، وهو حَلْقُ بَعضِ الرَّأسِ وتَرْكُ بَعضِه، وله صُوَرٌ مُتعَدِّدةٌ بَعضُها أقبَحُ مِن بَعضٍ؛ فمنها: أن يَحلِقَ وَسَطَ رأسِه ويَترُكَ جوانِبَه، ومنها: أنْ يَحلِقَ جوانِبَه ويَدَعَ وسَطَه، ومنها: أنْ يحلِقَ مُقَدَّمَ رأسِه ويَترُكَ مُؤَخَّرَه.

(١) أخرجه البخاري (٥٨٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٠٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٢٠)، ومسلم (٢١٢٠) واللفظ له.



التحلِّي بالذَّهبِ

عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: إنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أخَذَ حريرًا، فجعَلَه في يَمينِه، وأخَذَ ذَهبًا فجعَلَه في شِمالِه، ثمَّ قال: ((إنَّ هذَينِ حَرامٌ على ذُكورِ أُمَّتي))[1].

وعنه أيضًا رَضِيَ الله عنه، قال: ((نَهاني رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن التخَتُّمِ بالذَّهَبِ))[2].



في الحديثِ الأوَّلِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جَعَل الحُرمةَ في الذَّهبِ على الذُّكورِ إذا كان استِعمالُه للزِّينةِ والحَلْيِ، وهو مِن هذا الوَجهِ مُباحٌ للإناثِ، أمَّا اتِّخاذُ الذَّهبِ أوانِيَ للطَّعامِ والشَّرابِ فمُحرَّمٌ على الجَميعَ.

وفي الحَديثِ الثاني نهْيٌ صَريحٌ للرِّجالِ عن التختُّمِ بالذَّهَبِ، وغيرُ الخاتَمِ -كالعِقْدِ والأَسورةِ ممَّا هو خاصٌّ بالنِّساءِ- مِن بابِ أَوْلَى.

ومِن حِكَمِ تَحريمِ الذَّهبِ على الرِّجالِ: أنَّه مِن مَظاهِرِ التَّرَفِ التي لا تَليقُ ولا تَتَناسَبُ مع بِنيةِ الرَّجُلِ الجَسديَّةِ ومَهامِّه المَنوطَةِ به؛ فالإسلامُ يَصونُ بذلك رُجولةَ الرَّجُلِ مِن مَظاهِرِ الضَّعفِ والتكسُّرِ والانحلالِ، وأيضًا يَهدُفُ إلى حِفظِ المُجتمَعِ مِن الانحلالِ الذي يُنذِرُ بهَلاكِ الأُممِ، أمَّا وجْهُ إباحتِه للنِّساءِ، فهو لحاجةِ المرأةِ إليه،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٥٧)، والنَّسائي (٥١٤٤)، وأحمد (٩٣٥).

حَسَّنَه عليُّ بنُ المَدينيِّ، كما في ((خلاصة البدر المنير)) (١/ ٢٦)، والنووي في ((المجموع)) (٤/ ٤٤٠)، والشوكاني في ((الدراري المضية)) (٣٤٠)، وصَحَّحه ابن العربي في ((أحكام القرآن)) (٤/ ١١٤)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٠٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٧٨).

ومُراعاةً لمُقتضَى أُنوثتِها وما فُطِرتْ عليه مِن حُبِّ الزِّينةِ، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]؛ ففيه دَلالةٌ على أنَّ الحِليةَ مِن صِفاتِ النِّساءِ.

والذَّهبُ بأنواعِه وأشْكالِه المُختلِفةِ، مُحلَّقًا وغيرَ مُحلَّقٍ، كالأساورِ والقَلائدِ والخَواتمِ والأقرطةِ: كلُّه مُباحٌ للنِّساءِ ما لم يَشتَمِلْ على شَيءٍ مُحرَّمٍ، كالصُّلبانِ ونَحوِ ذلِك.

الشُّربُ والأكلُ في آنيةِ الذَّهبِ والفضَّةِ

عن عبدِاللهِ بنِ عُكَيمٍ، قال: كُنَّا مع حُذَيفةَ بالمَدائِنِ، فاسْتَسْقى حُذَيفةُ، فجاءَهُ دِهْقانٌ بشَرابٍ في إناءٍ مِن فِضَّةٍ، فرَماهُ به، وقال: إنِّي أُخْبِرُكم أنِّي قدْ أمَرْتُه ألَّا يَسقِيَني فيه؛ فإنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا تَشرَبوا في إناءِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تَلْبَسوا الدِّيباجَ والحَرِيرَ؛ فإنَّه لهمْ في الدُّنيا، وهو لكُمْ في الآخِرةِ يومَ القِيامةِ))[١].

وفي روايةٍ: ((نَهانا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ نشرَبَ في آنِيةِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، وأنْ نأكُلَ فيها))[٢].



في هذا الحديثِ يُخبِرُ التابعيُّ عبدُاللهِ بنُ عُكَيمٍ أنَّ حُذَيفةَ بنَ اليَمَانِ رضِيَ اللهُ عنهما طلَبَ الماءَ ليَشرَبَ حِينما كان بالمَدائنِ -وكانتْ مَدينةً على نهْرِ دِجْلةَ، وكانت مِن مُلكِ فارسَ- وكان حُذَيفةُ رضِيَ اللهُ عنه واليًا عليها لعُمرَ رضِيَ اللهُ عنهُ، فسَقاهُ دِهْقانٌ -وهو كَبيرُ القريةِ ورئيسُ البلدةِ- في إنَاءٍ مِن فِضَّةٍ، فرَماهُ به حُذيفةُ رضِيَ

(١) أخرجه البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧) واللفظ له.

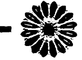
(٢) أخرجه البخاري (٥٨٣٧).



اللهُ عنهُ؛ وذلك أنَّه سبَقَ أنْ نَهاهُ عنِ استعمالِه في الطَّعامِ والشَّرابِ، كما في رِوايةٍ: ((لولا أنِّي نَهيتُه غيرَ مرَّةٍ ولا مرَّتينِ، كأنَّه يقولُ: لمْ أفعَلْ هذا))[1]، ورَمْيُه به هو مِنَ التَّغليظِ عليه في النَّهيِ، ثم أخبَرَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَهى عنِ الشُّربِ في آنِيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، والنَّهيُ يَشمَلُ الأكْلَ فيهِما، وقد جاء مصرَّحًا به في الروايةِ المذكورةِ، ثم بيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الكُفَّارَ هم الذين يَستَعمِلونَه، ويُمنَعونَه في الآخِرةِ؛ جَزاءً لهم على مَعصيتِهم باستعمالِه، فهو حَرامٌ عليهم كما هو حَرامٌ على المُسلِمينَ، وأمَّا المُسلِمونَ فيَستَعمِلونَه في الآخرةِ؛ مُكافأةً لهم على تَرْكِه في الدُّنيا.

ارتداءُ الحَريرِ

عَن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كَسَانِي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حُلَّةً سِيَراءَ، فخَرَجْتُ فيها، فرَأَيتُ الغَضَبَ في وَجْهِه، قال: فشَقَقْتُها بيْن نِسَائِي))[2].



اهتمَّتْ شَريعةُ الإسلامِ المُطهَّرةُ بأمْرِ اللِّباسِ والزِّينةِ، وقدْ قرَّر الشَّرعُ أُمورًا عامَّةً يَجِبُ أنْ تُراعَى في هَيئةِ الثِّيابِ للرِّجالِ والنِّساءِ، ومنها اللِّباسُ الذي يحِلُّ للنِّساءِ ويَحرُمُ على الرِّجالِ، كالحَريرِ، وقد أُبيحَ تَملُّكُه وبَيعُه وهِبتُه، غَيرَ أنَّه قد حُرِّم لُبسُه على الرِّجالِ في الدُّنيا، وفي هذا الحَديثِ بيانُ ذلِكَ؛ حيثُ يَرْوي عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَهْدى إليه حُلَّةً سِيَراءَ، والحُلَّةُ عِبارةٌ عَن ثَوبينِ سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّ أحدَهُما يَحِلُّ على الآخَرِ، والسِّيَراءُ: هي ذاتُ الخُطوطِ المُختلِطةِ بالحريرِ، فلمَّا رأى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليًّا قدْ لَبِسَها غَضِبَ وظهَرَ

(١) أخرجه البخاري (٥٤٢٦) عن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٤)، ومسلم (٢٠٧١) واللفظ له.



الغضبُ في وجْهِه، فنزَعَها عليٌّ رضِي اللهُ عنه؛ لِمَا رأى مِن غَضبِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وقطَّعَها بيْن نِسائِه، والمُرادُ: نِساءُ قَومِه؛ لأنَّه لم يَتزوَّجْ في حياةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرَ فاطمةَ رَضِيَ اللهُ عنها.

تبرُّجُ النِّساءِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠].

وعن أبي هُرَيرةَ قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((صِنْفانِ مِن أهْلِ النَّارِ لَمْ أرَهُما؛ قَومٌ معهُم سِياطٌ كأَذْنابِ البَقَرِ يَضرِبونَ بها النَّاسَ، ونِساءٌ كاسِياتٌ عارِياتٌ، مُمِيلاتٌ مائِلاتٌ، رُؤوسُهنَّ كأسْنِمةِ البُخْتِ المائلةِ، لا يَدخُلْنَ الجَنةَ، ولا يَجِدْنَ رِيحَها، وإنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِن مَسِيرةِ كذا وكذا))[1].



في الآيةِ الكريمةِ الأُولى نهْيٌ مِن اللهِ تعالى لِنساءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن إظهارِ زِينتِهنَّ وإبرازِ مَحاسِنِهنَّ للرِّجالِ، كعادةِ النِّساءِ في الجاهليَّةِ قبلَ الإسلامِ.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ التبرُّجَ بالزِّينةِ حَرامٌ على العَجائزِ، فإذا حُرِّمَ ذلك على هؤلاء النِّسوةِ القواعِدِ اللَّاتي لا يَرجونَ نِكاحًا، فتَحريمُه على غَيرِهنَّ ممَّن يَرجُونَ النِّكاحَ وتتعَلَّقُ بهنَّ الفِتنةُ أحقُّ وأَولى.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُحذِّرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن صِنفَينِ مِن النَّاسِ مِن أهْلِ النَّارِ لم يَرَهما رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولم يُوجَدا في عَصرِه، بل حَدَثا بعدَه؛ أحَدُ هذَينِ الصِّنفينِ: نوعٌ مِن النِّساءِ خَلَعْنَ عن أنفسُهنَّ

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٨).

ثَوبَ العِفَّةِ والحَياءِ، وتَجرَّدْنَ ممَّا أوجبَتْه عليهنَّ الشَّريعةُ مِن ثِيابٍ ساترةٍ، وخُلُقٍ وافرٍ، مُخالِفينَ بذلِكَ اللهَ ورَسولَه، قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في وَصفِهِنَّ: «نِساءٌ كاسِياتٌ عارِياتٌ»، والمَعْنى: كاسِياتٌ في الحَقيقةِ، عارياتٌ في المَعْنى؛ لأنَّهن يَلبَسْنَ ثِيابًا رِقاقًا تَصِفُ البَشَرةَ، أو يَستُرنَ بعضَ بَدَنِهِنَّ ويَكشِفْنَ بعضَهُ؛ إظْهارًا للجَمالِ. «مُميلاتٌ» قلوبَ الرِّجالِ إليهنَّ، أوِ المَقانِعَ عَن رُؤوسِهنَّ؛ لِتظْهَرَ وُجوهُهنَّ. وقيل: مُميلاتٌ بأكتافِهِنَّ. وقيل: يُمِلْنَ غيرَهنَّ إلى فِعلِهِنَّ المذمومِ، «مَائلاتٌ»: إلى الرِّجالِ بِقُلوبِهنَّ أو بِقوالبِهنَّ، أو مُتبختِراتٌ في مَشْيِهنَّ، أو زائغاتٌ عَنِ العَفافِ، أو مائلاتٌ إلى الفُجورِ والهوى، «رُؤوسُهنَّ كَأَسْنِمةِ البُخْتِ» وهي جِمالٌ طِوالُ الأعناقِ، والمَعْنى: يُعظِّمْنها ويُكبِّرنها بِلفِّ عِصابةٍ ونحوِها، فتُشبِهُ أسنِمةَ البُختِ في ارتفاعِها، وقيلَ: يَطمَحْنَ إلى الرِّجالِ لا يَغضُضنْ مِن أبصارِهِنَّ، ولا يُنكِّسْنَ رُؤوسَهنَّ، «المائلةِ» صِفةٌ لِلأسْنِمةِ، وهي جمْعُ السَّنامِ، والمائلةُ مِن المَيلِ؛ لأنَّ أعْلَى السَّنامِ يَميلُ لِكثرةِ شَحْمِه. ثُمَّ يُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُوءَ مَصيرِهِنَّ؛ فقالَ: «لا يَدخُلْنَ الجنَّةَ ولا يَجدْنَ رِيحَها، وإنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِن مَسيرةِ كذا وكذا»، ومعناهُ: أنَّهنَّ لا يَدخُلْنَها، ويُمكِنُ أنْ يكونَ مَحمولًا على الاستحلالِ لهذا الذَّنبِ، فيكونَ كُفرًا استَحَقُّوا به الحِرْمانَ مِن الجَنَّةِ، أوِ المُرادُ منه الزَّجرُ والتَّغليظُ. واللهُ تَعالى أعلمُ.

خروجُ النِّساءِ مُتعَطِّراتٍ

قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]

عن بُسْرِ بنِ سَعيدٍ، أنَّ زَينبَ الثَّقفيَّةَ كانت تُحَدِّثُ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

وسلَّمَ أنَّه قال: ((إذا شَهِدَتْ إحْداكُنَّ العِشاءَ فلا تَطَيَّبْ تلكَ اللَّيلةَ))[1].



في الآيةِ الكريمةِ أمْرٌ إلهيٌّ لِنساءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -وهو خِطابٌ لغَيرِهنَّ مِنَ النِّساءِ المُؤمِناتِ مِن بابِ أَوْلى- بأنْ يَلزَمْنَ بُيوتَهنَّ، فلا يَخرُجْنَ منها لِغَيرِ حاجةٍ، ولا يُظْهِرْنَ زِينَتَهنَّ ويُبْرِزنَ مَحاسِنَهنَّ للرِّجالِ، كعادةِ النِّساءِ في الجاهليَّةِ قبلَ الإسلامِ، مع أمْرِهنَّ بأداءِ الصَّلاة للهِ تعالى على الوَجهِ المُستقيمِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ لأهلِها المُستحِقِّينَ لها، وأمْرِهنَّ بطاعةِ اللهِ ورَسولِه في أمْرِهما ونَهيِهما.

وفي الآيةِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ مِن الموانعِ عن المُحَرَّماتِ؛ لأنَّه سُبحانَه وتعالَى قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَأَقِمْنَ﴾؛ فدلَّ هذا على أنَّ مِن أسبابِ عدَمِ التبرُّجِ إقامةَ الصَّلاةِ. وإذا كانت الصَّلاةُ ناهيةً عن التبرُّجِ، داعيةً إلى الحِشمةِ، فيَنبغي أن يكونَ الخروجُ إليها لأدائِها في المسجِدِ بحالٍ لا تُنافي لذلك.

وفي هذا الحَديثِ يقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «إذا شَهِدتْ إحداكُنَّ العِشاءَ»، أي: إذا أرادتِ امرأةٌ مُسلِمةٌ أنْ تَحضُرَ صَلاةَ العِشاءِ في المسجِدِ، فلا بدَّ لها أنْ تَلتزِمَ بالأوامرِ الشرعيَّةِ، ومنها: ألَّا تَضَعَ عِطرًا ولا طِيبًا له رائحةٌ عِندَ ذَهابِها للصَّلاةِ؛ لأنَّ الطِّيبَ يُحرِّكُ قُلوبَ الرِّجالِ وشَهواتِهم تُجاهَ النِّساءِ.

وهذا النَّهيُ يَنسحِبُ على كلِّ الصَّلواتِ، وتَخْصيصُ صلاةِ العِشاءِ بالذِّكْرِ هنا؛ لأنَّ الخوفَ عليهنَّ في اللَّيلِ أكثَرُ، ووُقوعَ الفِتْنةِ فيه أقرَبُ، أو لأنَّ عادةَ النِّساءِ استعمالُ الطِّيبِ في اللَّيلِ لأزواجِهنَّ.

وكذلك يَنْبغي للمرأةِ التسَتُّرُ، وألَّا تُبْدِيَ زِينتَها، وألَّا تَختَلِطَ بالرِّجالِ... إلى غيرِ

(١) أخرجه مسلم (٤٤٣).



ذلك مِن الآدابِ التي يَنْبغي لها مُراعاتُها عندَ الخُروجِ مِن المَنزِلِ.

وَصْلُ الشَّعَرِ

قال اللهُ تعالى حاكيًا عن إبليسَ اللَّعينِ: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩].

وعن أَسْماءَ بِنتِ أبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالتْ: جاءتِ امْرَأةٌ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ لي ابْنةً عُرَيِّسًا أصابَتْها حَصْبةٌ، فتَمَرَّقَ شَعرُها؛ أفأَصِلُه؟ فقال: ((لَعَنَ اللَّهُ الواصِلةَ والمُسْتَوصِلةَ))[1].



مِن طَبْعِ النِّساءِ وما فُطِرْنَ عليه حُبُّ التَّزيُّنِ والتجمُّلِ، والإسلامُ لا يَمنَعُ مِن ذلك، بَيْدَ أنَّه نَهى عن بَعضِ صُوَرٍ مِن التَّزيُّنِ والتَّجمُّلِ فيها غِشٌّ وتَدْليسٌ، أو فيها تَغييرٌ لِخَلْقِ اللهِ، وفي الآيةِ المذكورةِ يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّ إبليسَ وَعَد بأنَّه سيَتَّخِذُ مِن عِبادِ اللهِ تعالى جُزءًا مَعلومًا مُقدَّرًا، يَجعَلُهم أولياءَ له، يَتولَّاهم ويَتولَّوْنَه، فيكونونَ مِن حِزبِه أصحابِ السَّعيرِ، ووَعَدَ بأنْ يَصُدَّهم عن الهُدى، وأنْ يَجعَلَ في نفوسِهم مِن الأمانيِّ ما يُزيغُهم عن الحَقِّ، وأنْ يَأمُرَهم بقَطعِ آذانِ الأنعامِ مِن الإبلِ والبقرِ والغَنَمِ عَلامةً على تَحريمِها على أنفُسِهم، مع أنَّها حلالٌ -وقيل: يُقطِّعونَها نُسُكًا في عِبادتِهم الأوثانَ-، ووَعَدَ أيضًا بأنْ يَأمُرَهم بتَغْييرِ خِلقتِهم بالوَشْمِ، أو النَّمْصِ، أو التَّفلُّجِ للحُسنِ، أو غيرِ ذلك.

وفي حَديثِ أَسْماءَ بِنتِ أبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما تَحريمُ وَصلِ المرأةِ شَعَرَها أو

(١) أخرجه البخاري (٥٩٣٦)، ومسلم (٢١٢٢) واللفظ له.

شَعَرَ غَيرِها، حيثُ تَحْكي الصَّحابيَّةُ الجليلةُ أسماءُ بِنتُ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ امرأةً سأَلَتِ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالَت: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ ابنَتي أصابَتها الحَصبةُ، وهي بَثَراتٌ حُمْرٌ تَخرُجُ في الجَسدِ مُتفرِّقةً، وهي نَوعٌ مِن الجُدَريِّ، «فتَمَرَّقَ»، بمَعْنى: تَمزَّقَ وتَقطَّع شَعَرُها، وهي عَروسٌ، أفَأَصِلُ به غَيرَه؟ فأجابَها صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لَعَنَ اللهُ الوَاصِلةَ»، واللَّعنُ هو الطَّردُ مِن رَحْمةِ اللهِ، والواصِلةُ هي: التي تصِلُ شَعَرَها أو شَعَرَ غَيرِها بشَعَرٍ آخَرَ، والمستَوصِلةُ: التي تَطلُبُ فِعلَ ذلك لها، فالوَصْلُ أنْ تَصِلَ شَعرَها بشَعرٍ مُستعارٍ، وتُوهِمُ أنَّ ذلِكَ مِن شَعَرِها، أو أنَّ شَعَرَها أطولُ ممَّا هوَ عليهِ. وهذا كلُّه مِن بابِ الكَذِبِ والزُّورِ والتجمُّلِ بتَغييرِ الخِلقةِ، وفيهِ احتِيالٌ على النَّاسِ.

الوَشْمُ والنَّمْصُ والتفَلُّجُ

عن عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَعَنَ اللَّهُ الواشِماتِ والمُستَوشِماتِ، والنَّامِصاتِ والمُتَنَمِّصاتِ، والمُتَفَلِّجاتِ لِلحُسْنِ المُغَيِّراتِ خَلْقَ اللهِ)). قال: فبَلَغَ ذلك امْرَأةً مِن بَنِي أسَدٍ يُقالُ لها: أُمُّ يَعقوبَ، وكانتْ تَقرَأُ القُرآنَ، فأتَتْه فقالَتْ: ما حَدِيثٌ بلَغَني عنكَ أنَّكَ لَعَنْتَ الواشِماتِ والمُسْتَوشِماتِ، والمُتَنَمِّصاتِ والمُتَفَلِّجاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّراتِ خَلْقَ اللهِ؟! فقال عبدُاللهِ: وما لي لا أَلْعَنُ مَن لَعَنَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؟ وهو في كِتابِ اللهِ، فقالتِ المَرْأةُ: لقَدْ قَرَأْتُ ما بيْن لَوحَيِ المُصْحَفِ فما وجَدْتُه، فقال: لئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيه لقَدْ وَجَدْتِيه؛ قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، فقالتِ المَرْأةُ: فإنِّي أرَى شيئًا مِن هذا على امْرأَتِكَ الآنَ، قال: اذْهَبي فانْظُري، قال: فدَخَلَتْ على امْرَأةِ عبدِاللهِ فلَمْ تَرَ شيئًا، فجاءتْ إليه فقالتْ: ما رأَيتُ شيئًا، فقال: أمَا لو كان ذلكَ لمْ نُجامِعْها[1]. وفي

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥) واللفظ له.



رِوايةٍ أُخرى: ((الواشِمَاتِ والمَوشُوماتِ))[1].



في هذا الحَديثِ يُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعضَ أنْواعِ التزيُّنِ المُحرَّمِ الذي قدْ تقَعُ فيه بعضُ النِّساءِ، ويُعرِّضُ فاعِلَهُ للَّعنِ والطَّردِ مِن رَحْمةِ اللهِ؛ إذْ فيه تَغييرٌ لِخَلقِ اللهِ، وتَلبيسٌ وتَدْليسٌ على النَّاسِ، فيَحكي عَبدُاللهِ بنُ مَسْعود رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَعَنَ «الواشِماتِ»: جَمْعُ واشِمةٍ، والوَشْمُ: هو أنْ يُغرزَ عُضوٌ مِن الإنسانِ بشَيءٍ كالإبْرةِ حتى يَسيلَ الدَّمُ، ثُمَّ يُحْشى بشَيءٍ -كالكُحل أو غيرِه- فيَصيرَ أخْضَرَ، وهناك طُرقٌ عَصريَّةٌ للوشْمِ عن طَريقِ اللِّيزرِ أو غيرِه، «والمُستَوشِماتِ»: جَمعُ مُستَوشِمةٍ، وهي التي تطلُبُ الوَشْمَ، ولعَنَ اللهُ «المُتَنمِّصاتِ»: جَمْعُ مُتَنمِّصةٍ، وهي الطالِبةُ إزالةَ شَعَرِ حاجبَيْها بالنَّتفِ ونَحْوِه، ولَعَنَ اللهُ «المُتفلِّجاتِ»: جَمْعُ مُتَفلِّجةٍ، وهي التي تَفرُقُ ما بيْن ثَناياها بالمِبرَدِ؛ «لِلحُسنِ»، أي: لأجْلِ التَّحسينِ، «المُغيِّراتِ خَلْقَ اللهِ»: وهي صِفةٌ لازِمةٌ لِمَن تَصنَعُ الوَشْمَ والنَّمْصَ والفَلْجَ.

فبَلَغَ ذلكَ امْرأةً مِن بَني أسَدٍ، يُقالُ لَها: أُمُّ يَعْقوبَ، فجاءَت إلى ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، وقالَت له: إنَّه بَلَغَني أنَّك لَعَنتَ كَيْت وكَيْت، فأَجابَها ابنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: «وما لي لا ألْعَنُ مَن لعَنَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو في كِتابِ اللهِ؟!»، أي: وهو في كِتابِ اللهِ مَلْعونٌ، بلَعْنةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ له؟! فقالَتْ أُمُّ يَعْقوبَ: «لقَدْ قَرأتُ ما بيْن لَوحَي المُصحَفِ»: تَقصِدُ ما بَينَ دَفَّتَي المُصْحَفِ، «فَما وجَدتُه، فقال: لَئِنْ كُنتِ قَرَأتِيه لقَد وَجَدْتِيه؛ قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾»؛ فبيَّنَ لها أنَّها لو كانتْ قَرأتِ القرآنَ بتَدبُّرٍ وتأمُّلٍ لعرَفتْ أنَّ هذه الآيَةَ إشارةٌ إلى أنَّ لعْنَ رسولِ اللهِ لشيءٍ كلَعْنِ اللهِ تعالَى له؛ فيَجبُ أنْ

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٥).



يُؤخَذُ به. فقالَتْ أُمُّ يَعقوبَ لِابنِ مَسعود رَضِيَ اللهُ عنه: «فإنِّي أرى شيئًا مِن هذا على امْرَأتِكَ الآنَ»، أي: زَينَبَ بِنتِ عَبدِاللهِ الثَّقَفيَّةِ، تَفْعَلُه! فقالَ ابنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه لَها: «اذْهَبي فانْظُري»، فذَهَبَتْ إليها، فنَظَرَتْ فلَم تَرَ بها شيئًا مِمَّا كانت تظُنُّ أنَّها كانتْ تَفعَلُه، فعادَت إلَيه وأخْبَرَتْه، فقال: لو كانتْ -يَقصِدُ زوجتَه زَيْنبَ- تفعَلُ الذي ظَنَنْتِه، ما جامعتُها، وما ارتضَيْتُ صُحبتَها، بلْ كنتُ طلَّقْتُها.

تَصويرُ ذواتِ الأرْواحِ

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: أنَّها اشْتَرَت نُمْرُقةً فيها تَصاويرُ، فلمَّا رآهَا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قامَ على البابِ، فلَمْ يَدْخُلْه، فعَرَفْتُ في وَجْهِه الكَراهيةَ، فقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، أتُوبُ إلى اللَّهِ، وإلى رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ماذا أذْنَبْتُ؟ فقال رَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((ما بالُ هذه النُّمْرُقةِ؟ قُلتُ: اشْتَرَيْتُها لكَ لِتَقعُدَ عليها وتوَسَّدَها، فقال رَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّ أصْحابَ هذه الصُّوَرِ يَومَ القِيامةِ يُعَذَّبُون، فيُقالُ لهمْ: أحْيُوا ما خَلَقْتم، وقال: إنَّ البَيتَ الذي فيه الصُّوَرُ لا تَدْخُلُه المَلائكةُ))[1].

وعن سَعيدِ بنِ أبي الحَسَنِ، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى ابنِ عبَّاسٍ، فقال: إنِّي رَجُلٌ أُصوِّرُ هذه الصُّوَرَ، فأَفْتِني فيها، فقال له: ادْنُ منِّي، فدَنا منه، ثُمَّ قال: ادْنُ منِّي، فدَنا حتى وضَعَ يَدَهُ على رَأسِه، قال: أُنَبِّئُكَ بما سَمِعتُ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((كُلُّ مُصوِّرٍ في النَّارِ، يَجعَلُ له بكُلِّ صُورةٍ صوَّرَها نفْسًا فتُعذِّبُه في جهنَّمَ، وقالَ: إنْ كُنتَ لا بُدَّ فاعِلًا، فاصْنَعِ الشَّجَرَ وما لا نَفْسَ له))[2].

(١) أخرجه البخاري (٢١٠٥) واللفظ له، ومسلم (٢١٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠) واللفظ له.



في **الحَديثِ الأوَّلِ** تَروي أُمُّ المُؤمِنينَ عائشةُ رضِي اللهُ عنها «أنَّها اشتَرتْ نُمرُقةً»، وهي وِسادةٌ صغيرةٌ فيها صُورٌ، وكأنَّها وضَعَتْها في صَدْرِ بيتِها، فلمَّا رآها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قبْلَ أنْ يَدخُلَ بيتَها قامَ على البابِ، بمَعْنى: وقَفَ فلم يَدخُلْ؛ غضَبًا منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وكراهيةً لِمَا رأى، ولَمَّا رأتْ أمُّ المُؤمِنينَ عائشةُ رضِي اللهُ عنها كَراهتَه لِلنُّمرقةِ فَزِعَتْ وقدَّمتْ توبتَها قبْلَ أنْ تَعرِفَ ذنْبًا، فقالتْ: يا رَسولَ اللهِ، أتوبُ إلى اللهِ وإلى رَسولِهِ، وسَأَلتْ عمَّا بدَرَ منها وأغضَبَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهِ عليه وسلَّمَ: «ماذا أذْنَبْتُ؟» فسَأَلَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ النُّمرُقةِ، فأجابتْ رَضِيَ اللهُ عنها بأنَّها اشْتَرَتْها لِرَسولِ اللهِ لِيَقعُدَ عليها ويَتوسَّدَها، فقالَ لها صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعرِّفُها سَببَ كراهتِه لِلنُّمرقةِ: «إنَّ أصحابَ هذه الصُّورِ يومَ القيامةِ يُعذَّبونَ» الذينَ يَصنَعونَ هذه الصُّورَ يُعذِّبُهم اللهُ يومَ القيامةِ، والمُرادُ صُورُ الحيوانِ، وليس صُورَ الجَماداتِ أو النَّباتاتِ، «فيُقالُ لهم: أحْيُوا ما خَلقْتُم»: يَأمرُهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنْ يَقوموا بإحياءِ الصُّورِ والتَّماثيلِ التي صَنَعوها؛ تَعجيزًا وتَبكيتًا لهم على مُحاولَتِهم مُضاهاةَ خَلْقِ اللهِ تَعالى ومُشابَهتَه، ثُمَّ ذكَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِقابًا آخَرَ لِمَن يَحتفِظُ بِهذه الصُّوَرِ؛ وهو أنَّ الملائكةَ لا تَدخُلُ البيتَ الذي فيه صُورٌ، والمُرادُ بالملائكةِ: غيرُ الحَفَظةِ، فيُحرَمُ البيتُ بَرَكةَ دُخولِ الملائكةِ.

وفي **الحديثِ الثَّاني** حَديثِ سَعيدِ بنِ أبي الحَسَنِ قال: جاء رجُلٌ إلى ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما وأخْبرَه أنَّه يَصنَعُ الصُّوَرَ، وسألَه عنْ حُكمِ ما يَفعلُ، فطلَبَ منه ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أنْ يَدنوَ منه، فدَنا الرجُلُ، ووضَع ابنُ عبَّاسٍ يدَه على رأْسِه؛ مُبالَغةً في استحضارِ ذِهنِه وفَهْمِه، وفي تَسميعِه، وتَعظيمِه لأمْرِ ما يُلْقِيه إليه، وهذا مِن حُسنِ تَعليمِه وإرشادِه له، وأخْبَرَه أنَّه سمِعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: «كلُّ مُصوِّرٍ يكونُ يومَ القِيامةِ في النَّارِ»؛ جَزاءً على فِعلِه، والمقصودُ بالمُصوِّرِ، أي: لذواتِ الأرواحِ مِن الإنسانِ أو الحيوانِ، فيَجْعَلُ اللهُ له بكلِّ صُورةٍ صوَّرَها نفْسًا، فتُعذِّبُه في

جهنَّمَ، وهذا يَحتمِلُ أنَّ الصُّورةَ التي صَوَّرَها هي التي تُعذِّبُه بعدَ أنْ يُجعَلَ فيها رُوحٌ، ويَحتمِلُ أنْ يَجعَلَ له بعددِ كلِّ صُورةٍ شخصًا يُعذِّبُه!

إزالةُ صُوَرِ ذَواتِ الأرْواحِ

عن أبي الهَيَّاجِ الأَسديِّ، قال: قالَ لي عليٌّ بنُ أبي طالِبٍ: ((ألَا أبْعَثُك على ما بَعَثَني عليه رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؟ ألَّا تَدَعَ تِمْثالًا إلَّا طَمَسْتَه، ولا قَبْرًا مُشرِفًا إلَّا سَوَّيتَه)). وفي روايةٍ: ((ولا صُورةً إلَّا طَمَسْتَها))[1].



يَحرُمُ في شَريعةِ الإسلامِ تَصويرُ ذَواتِ الأرْواحِ، وفي هذا الحديثِ أمْرٌ نَبويٌّ بطَمْسِ التماثيلِ، حيثُ أرسَلَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه أبا الهيَّاجِ الأسديَّ، وقالَ له: «ألا أبعَثُك على ما بَعَثَني عليهِ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ»، والمَعْنى: ألَا أُرسِلُك للأَمرِ الذي أرسَلَني به رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأجعَلُك أميرًا على ذلِكَ، كما أمَّرني عليه رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهذا لِبَيانِ أهميَّةِ وشِدَّةِ الأمْرِ الذي كلَّفَهُ به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وقدْ أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليًّا ألَّا يَترُكَ صُورةَ ذي رُوحٍ على هَيئةِ إنْسانٍ أو حَيوانٍ، إلَّا مَحاها وغيَّرَها ونقَضَها، سواءٌ كانت على هَيئةِ تِمثالٍ أم مُجرَّدَ صُورةٍ، وهذا بخِلافِ صُوَرِ ما لا رُوحَ فيه، كالنَّباتاتِ والجَمادِ؛ فلا يَشمَلُه هذا الحَديثُ.

ثُمَّ أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا يَترُكَ قبْرًا مُرتَفِعًا عن مُستوَى الأرضِ -وخاصَّةً ما عليه بِناءٌ، أو يُعظِّمُه بعضُ الجُهَّالِ بدَعْوى أنَّ صاحبَه وَليٌّ صالحٌ، أو نحْو ذلك مِن الأُمورِ غيرِ المَشروعةِ- إلَّا هدَمَه وسوَّاه بحيثُ يقارِبُ مُستوى الأرضِ، فيُرفَعُ نحوَ شِبرٍ؛ ليُعرَفَ فَلا يُوطَأَ.

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩).

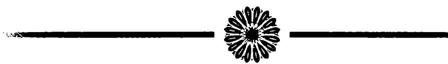


النِّكاحُ

التَّرغيبُ في النِّكاحِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وعن عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال لنا رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((يا مَعشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استَطاعَ مِنكُم الباءةَ فلْيَتزَوَّجْ؛ فإنَّه أغَضُّ للبَصرِ، وأحْصَنُ للفَرْجِ، ومَن لمْ يَستطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ))(١).



الإسلامُ دِينُ الحَنفيَّةِ السَّمْحةِ، راعَى فِطرةَ الإنسانِ، وأوجَدَ المسالِكَ الصَّحيحةَ لِحاجاتِهِ، والعِلاجَ لِمُشكلاتِهِ، فلمْ يَطلُبْ مِن المُسلِمِ أنْ يَكبِتَ غَرائزَهُ وشَهَواتِهِ، وفي الوَقتِ ذاتِهِ لم يُطلِقْ لِشَهَواتِه العِنانَ؛ فيَرتَعَ كالبَهائمِ دُونَ حَسيبٍ أو رَقيبٍ.

وفي الآيةِ الكريمةِ لمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بغَضِّ الأبصارِ وحِفظِ الفُروجِ فيما لا يحِلُّ، بيَّن تَعالى بعدَ ذلك طَريقَ الحِلِّ، وهو الزَّواجُ؛ فإنَّه طَريقٌ للتعفُّفِ، فأمَرَ المؤمنين بأنْ يُزَوِّجوا رِجالَهم ونِساءَهم الأحرارَ، وأنْ يُزَوِّجوا مِن تحتِ أيديهم مِن المَماليكِ الذُّكورِ والإناثِ، فمَن كان منهم مِن أهلِ الفاقةِ والفَقرِ، ويُريدُ بالزَّواجِ الإعانةَ على طاعةِ اللهِ بغَضِّ البَصَرِ، وحِفظِ الفَرجِ؛ فإنَّ اللهَ سيُغنيهِ مِن فَضلِه، فلا يَنْبغي أنْ يَمتَنِعَ أحَدٌ عن تَزويجِهم؛ لفَقرِهم، فاللهُ تعالى واسِعُ الفَضلِ والغِنى، عليمٌ بعبادِه وأحوالِهم ونيَّاتِهم، عليمٌ بمَن يَستَحِقُّ منهم الإغناءَ مِن فَضلِه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠) واللفظ له.

وفي حَديثِ عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه يَدْعو رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الشَّبابَ لِتَعجيلِ الزَّواجِ، فيقولُ مُناديًا الشَّبابَ ومُخصِّصًا إيَّاهم بالمُخاطَبةِ -وإنْ كان الأمرُ عامًّا لهم ولغَيرِهم إذا وُجِدَ مُقتضاهُ-؛ لأنَّ الغالبَ قُوَّةُ الشَّهوةِ في الشَّبابِ، وهم مَظِنَّةُ الشَّهوةِ إلى النِّساءِ، ولا يَنفكُّون عنها غالبًا، بخِلافِ غيرِهم مِن كِبارِ السِّنِّ: «مَنِ استطاعَ منكمُ الباءةَ فَليتزَوَّجْ»، أي: مَنِ استَطاعَ الزَّواجَ، ووجَدَ كُلفتَه ومُؤنتَه فَلْيتزوَّجْ؛ فلا رَهْبانيَّةَ في الإسلامِ؛ فإنَّ التزوُّجَ أَشَدُّ عونًا للمَرءِ على غَضِّ البَصَرِ، وأدفَعُ لِعَينِ المتزوِّجِ عن الحرامِ، وأشَدُّ إحصانًا للفَرْجِ، ولمَّا عَلِمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ليسَ كلُّ شابٍّ يَملِكُ ما يَقدِرُ به على الزَّواجِ، ذَكَرَ لأُمَّتِه عِلاجَ ذلِكَ، فقال: «ومَن لم يَستطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ»، يعني: أنَّ مَن لم تكُنْ عِندَه مُؤنةُ الزَّواجِ، فلْيَلزَمِ الصَّومَ؛ فإنَّه مانِعٌ مِن الشَّهَواتِ، ومُفتِّرٌ لها، وقاطِعٌ لشَرِّها، كما يَفعَلُ الوِجاءُ، وهو رَضُّ الخُصْيتَينِ بحَجرٍ ونَحوِه، وسُمِّي الصَّومُ وِجاءً؛ لأنَّه يَفعَلُ فِعلَه ويقومُ مَقامَه في كَسرِ الشَّهوةِ.

نِكاحُ ذاتِ الدِّينِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((تُنْكَحُ المَرأةُ لأَرْبَعٍ: لِمالِها، ولِحَسَبِها، وجَمالِها، ولِدِينِها، فاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَداكَ))[1].

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

دَعا الإسلامُ إلى النِّكاحِ وحثَّ عليه، ووجَّهَ لِحُسنِ اختيارِ الزَّوجةِ، وللنَّاسِ في الاختيارِ مَذاهِبُ، ولهم في أوْصافِ النِّساءِ مَطالِبُ، وقد نَهى اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ عِبادَه المؤمنينَ عن التزَوُّجِ بالنِّساءِ المُشرِكاتِ إلَّا إذا آمَنَّ ووحَّدْنَ اللهَ تعالى بدُخولِهنَّ في الإسلامِ، ولَأَنْ يَتزوَّجَ المؤمِنُ بأَمَةٍ مَملوكةٍ لكنَّها مؤمِنةٌ خيرٌ له مِن أنْ يَتزوَّجَ امرأةً حُرَّةً مُشرِكةً، وإنْ بلَغَ الإعجابُ بها مَبلغًا؛ لشِدَّةِ حُسنِها، أو عِظَمِ حسَبِها، أو شَرَفِ نَسَبِها، أو كثرةِ مالِها، ومِثْلُ ذلك نهْيُ المؤمنينَ عن تَزويجِ نِسائِهم المؤمناتِ برِجالٍ مُشرِكينَ؛ فقد حرَّم اللهُ تعالى على المؤمنينَ تَزوُّجَ المُشرِكاتِ، وتَزويجَ المشركينَ بالمؤمناتِ؛ لأنَّ المُشرِكين والمُشركاتِ يَقودون المؤمنين والمؤمنات مِن خِلالِ مُعاشرتِهم ومُخالطتِهم بسَماعِ أقوالِهم، ورُؤيةِ أفعالِهم، ومُعايَشةِ أحوالِهم؛ إلى حبِّ الدُّنيا، وإيثارِها على الآخرةِ، وإلى العَمَلِ بما يُدخِلُ النَّارَ، واللهُ تعالى يَدْعو عِبادَه لدُخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ مِن النَّارِ، وهو سُبحانه يُوضِّحُ بَراهينَه وحُجَجَه، ويُظهِرُ أحكامَه وحِكَمَها؛ فيُوجِبُ لهم ذلك التذكُّرَ لِمَا نَسُوه مِن الحقِّ، فيَعتَبِرون ويتَّعِظون، ويُميِّزون بيْن الدُّعاءِ إلى النِّيرانِ، والدُّعاءِ إلى الجنَّةِ ونَيلِ الغُفرانِ.

وقد أخبرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه بأوصافِ المرأةِ التي يَتعلَّقُ بها النَّاسُ في الزَّواجِ؛ وهي المالُ، والحسَبُ، والجَمالُ، والدِّينُ، ثُمَّ نصَحَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باعتبارِ الدِّينِ، وأنْ يُجعَلَ عليه المُعوَّلُ في اختيارِ الزَّوجةِ؛ لأنَّ اختيارَ ذاتِ الدِّينِ يَترتَّبُ عليه سَعادةُ الدَّارَينِ: الدُّنيا والآخرةِ، ومَعْنى قولِهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «تَرِبتْ يداكَ»: الْتصَقَتْ بالتُّرابِ، ويقالُ لمَنِ افتقَرَ: تَرِبتْ يَداهُ، وهذه الجُملةُ جاريةٌ على ألْسنةِ العربِ لا يُريدونَ بها الدُّعاءَ على المُخاطَبِ، ولا وُقوعَ الأمْرِ به، وإنَّما المُرادُ بها الحثُّ والتَّحريضُ؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يحُثُّ على الظَّفَرِ والفَوزِ بصاحبةِ الدِّينِ، وتَفضيلِها على غَيرِها، ولا مانِعَ مِن اختيارِ المرأةِ الجَميلةِ أوِ الحَسيبةِ والنَّسيبةِ، لكِنْ شَريطةَ أنْ تكونَ ذاتَ دِينٍ.



النَّظَرُ إلى المَخْطوبةِ وتَيسيرُ المَهْرِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: جاء رجُلٌ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقال: إنِّي تزَوَّجْتُ امْرأةً مِن الأنْصارِ، فقال له النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((هلْ نَظَرْتَ إليها؛ فإنَّ في عُيونِ الأنْصارِ شيئًا؟ قال: قدْ نَظَرْتُ إليها، قال: على كمْ تَزَوَّجْتَها؟ قال: على أرْبَعِ أواقٍ، فقال له النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: على أرْبَعِ أواقٍ؟! كأنَّما تَنحِتُونَ الفِضَّةَ مِن عُرْضِ هذا الجَبَلِ! ما عِندَنا ما نُعطيكَ، ولكِنْ عَسى أنْ نَبْعَثَك في بَعْثٍ تُصِيبُ منه، قال: فبَعَثَ بَعْثًا إلى بَني عَبْسٍ بَعَثَ ذلك الرَّجُلَ فيهم))(١).



التَّيسيرُ خُلُقٌ من أخْلاقِ الإسلامِ التي دَعا إلى التحلِّي بها، ولا تَستقيمُ الحياةُ بدُونِهِ، لا سيَّما في النِّكاحِ؛ إذِ الحاجةُ إليه لا تَنقطِعُ، وفي هذا الحديثِ جاءَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَجُلٌ من أصحابِهِ يُخبِرُه ويُعلِمُه أنَّه تَزوَّجَ امرأةً مِن الأنصارِ، فسَألَه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «هَل نَظَرْتَ إليها؛ فإنَّ في عُيونِ الأنصارِ شيئًا؟»، ويَقصِدُ بذلِكَ: بَعضَ ما لا يُستحَبُّ مِن زُرقةٍ أو صِغَرٍ أو نحوِ ذلِكَ؛ وسَألَه عن ذلك؛ لأنَّ النَّظَرَ إلى المخطوبةِ يُحقِّقُ الموافَقةَ بيْنهما، وهو أدْعى إلى حُصولِ دَوامِ المودَّةِ والأُلفةِ، فأخبَرَه الصَّحابيُّ بأنَّه رأى المرأةَ.

ثم سَألَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا الرجُلَ عن المَهرِ والصَّداقِ الذي اتَّفقَ عليه مع وَلِيِّها، فأخبَرَه الرجُلُ أنَّه تزوَّجَها على «أرْبَعِ أَوَاقٍ»، والأُوقيَّةُ أربعونَ دِرهمًا، فيكونُ جُملةُ المَهْرِ مِائةً وسِتينَ دِرهمًا، وأُوقيةُ الفِضَّةِ بالمقاييسِ الحَديثةِ تَزِنُ ما بين ١١٩ إلى ١٢٥ جِرامًا، فقال له النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «علَى أرْبَعِ أَوَاقٍ؟!» فأعادَها على أُسلوبِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ، يَعني: أنَّه كثيرٌ، ثُمَّ قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «كأنَّما

(١) أخرجه مسلم (١٤٢٤).



تَنحِتون الفِضَّةَ مِن عُرضِ هَذا الجَبلِ!»، أي: كأنَّما تَقشِرونَها وتَقطعونَها مِنه، وفَحوى هذا الكَلامِ: كراهةُ إكثارِ المَهرِ بالنِّسبةِ إلى الزَّوجِ، وهو أيضًا دعْوى للأولياءِ لتَيسيرِ مُهورِ بَناتِهنَّ. وقيل: إنَّ هذا الإنكارَ منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على هذا الرجُلِ؛ لأنَّه كان فقيرًا في تِلك الحالِ، فأدْخلَ نفْسَه في مَشقَّةٍ، جعَلتْه يَتعرَّضُ للسُّؤالِ؛ وإلَّا فقد أصْدَقَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نِساءَهُ خَمسَمِائةِ دِرْهمٍ، أي: أكثَرَ مِن هذا الرَّجُلِ؛ ولذلك قال له صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «ما عِندَنا ما نُعْطِيك»، وقدْ كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أكرَمَ الناسِ، وكان يُعينُ أصحابَه رَضِيَ اللهُ عنهم، لكِنْ صادَفتْ حالُ هذا الرجُلِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يكُنْ عِندَه مالٌ يُعطيه إيَّاه؛ ليُخفِّفَ عنْه مِن مَهرِه، ثُمَّ إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -بكَرَمِ أخلاقِه ورَأفتِه ورَحمتِه- جَبَرَ مُنكَسَرَ قَلْبِه بقَولِه: «ولكنْ عَسى أنْ نَبْعَثَك في بَعْثٍ تُصِيبُ منه، قالَ: فبَعَثَ بَعْثًا إلى بَني عَبْسٍ بَعَثَ ذلك الرَّجُلَ فيهم»؛ فأرْسَلَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غَزوةٍ على بنِي عبْسٍ، وهم قَبيلَةٌ كَبيرةٌ مِنْ قَيسٍ؛ ليُصيبَ مِن غَنائمِها، ويَقضِيَ بنَصيبِه مِن الغَنيمةِ ما عليه مِن مَهرٍ، وهذا مِن حُسنِ عِشرتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأصحابِه، وجميلِ رِعايتِه وإعانتِه لهم على أُمورِ دِينِهم ودُنياهم.

لا يَخطُبُ الرَّجُلُ على خِطْبةِ أخيهِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وعن عَبدِالله بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَبعِ الرَّجُلُ على بَيعِ أخِيهِ، ولا يَخْطُبْ على خِطْبةِ أخِيهِ، إلَّا أنْ يَأْذَنَ له))[1].



(١) أخرجه البخاري (٥١٤٢)، ومسلم (١٤١٢) واللفظ له.

يَحرِصُ الإسلامُ على تَرابُطِ المُجتمَعِ، وشُيوعِ المحبَّةِ والتآلُفِ بين المسلِمينَ، ونَزْعِ أسبابِ العَداوةِ والبَغْضاءِ، ومَداخِلِ الفُرقةِ والشِّقاقِ، فيَحفَظُ لكُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه، ويَمنَعُ مِن الاعتداءِ عليه، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** التي جاءت في سِياقِ الأمرِ بالقِتالِ في سَبيلِ اللهِ نَهيٌ عن تَجاوُزِ ما حدَّه اللهُ تعالى مِن أحكامِ القِتالِ، كقَتلِ النِّساءِ والأطفالِ والشُّيوخِ وغَيرِهم؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ لا يُحِبُّ مَن تَجاوَزَ حُدودَ ما شرَعَه، سواءٌ في القتالِ أو في غيرِه.

وفي حَديثِ عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما يَنهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أمرَينِ فيهما تَعَدٍّ على الغَيرِ؛ أحدُهما: بَيعُ المُسلِمِ على بَيعِ أخيهِ، والثَّاني: خطبتُه على خِطبةِ أخيهِ، وهو أنْ يَخطُبَ رَجُلٌ امرأةً، فتَرضى ويَتوافَقَ الطَّرَفانِ، فيأتيَ آخَرُ يَخطُبُها، والمُرادُ بالأُخوَّةِ هنا أُخوَّةُ الإسلامِ، لا أُخوَّةُ النَّسَبِ، والنَّهيُ هنا للتَّحريمِ إنْ كان عالِمًا بخِطْبةِ الأوَّلِ، ولا يَبطُلُ العَقدُ به لو حدَثَ، بلْ يَصِحُّ العَقدُ مع الإثْمِ؛ إذِ المَنْهيُّ عنه الخِطْبةُ، وهي ليست شَرْطًا في صحَّةِ النِّكاحِ، فلا يُفسَخُ العَقدُ بوُقوعِها غيرَ صَحيحةٍ، وقولُهُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «إلَّا أنْ يَأْذَنَ له» استِثْناءٌ مِن النَّهيِ؛ لأنَّ النَّهيَ لأجْلِ تقَدُّمِ حَقِّه، فإذا أذِنَ فيه أسقَطَه، ومِثلُ إذْنِه في ذلك إعراضُه عن المَخطوبةِ.

غَضُّ البَصَرِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال:



((إيَّاكُم والجُلوسَ على الطُّرُقاتِ، فقالوا: ما لنا بُدٌّ؛ إنَّما هي مَجالِسُنا نَتحدَّثُ فيها، قال: فإذا أبَيتُم إلَّا المَجالِسَ، فأعطُوا الطَّريقَ حَقَّها. قالوا: وما حقُّ الطَّريقِ؟ قالَ: غَضُّ البَصَرِ ...)) الحديثَ[1].

وعن جَريرِ بنِ عَبدِالله رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن نَظَرِ الفُجاءةِ، فأمَرَني أنْ أَصرِفَ بَصَري))[2].

لقدْ سَدَّتِ الشَّريعةُ المُطهَّرةُ كُلَّ الذَّرائعِ المؤدِّيةِ إلى الوُقوعِ في الحَرامِ؛ لأجْلِ ذلك جاءَ الأمرُ بغَضِّ البَصَرِ، والنَّهيُ عنِ النَّظرِ إلى العَوْراتِ.

وقد أمَرَ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمِنينَ -**في آيتَيْ سورةِ النورِ المذكورتَينِ**- بأنْ يكُفُّوا مِن نظَرِهم عمَّا حَرَّم عليهم، ويَحفَظوا فُروجَهم عمَّا حَرَّم عليهم، كالزِّنا، وكأنْ يَراها أو يَمَسَّها أحدٌ لا يحِلُّ له ذلك، وذلك الغَضُّ مِن الأبصارِ والحِفظُ للفُروجِ؛ أطهَرُ وأطيَبُ لقُلوبِهم، وأفضَلُ لهم في دِينِهم ودُنياهم، وأنْمَى لأعمالِهم، وأبعدُ لهم مِن الخَطايا والآثامِ، واللهُ تعالى لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن صُنعِهم، فيَعلَمُ مَن يغُضُّ بصَرَه ويَحفَظُ فَرْجَه منهم، ومَن لا يَفعَلُ ذلك؛ وفي ذلك وَعيدٌ لِمَن لم يغُضَّ بصَرَه ويَحفَظْ فرْجَه؛ فلْيجتَهِدِ العِبادُ في طاعتِه، ولْيَحذَروا مِن مَعصيتِه. وقد أمَرَ اللهُ تعالى المؤمِناتِ أيضًا بمِثْلِ ما أمَرَ به المؤمِنينَ مِن غَضِّ البَصَرِ وحِفْظِ الفَرْجِ.

وفي الأمرِ بالغَضِّ أدَبٌ شَرعيٌّ عَظيمٌ في مُباعَدةِ النَّفسِ عن التطَلُّعِ إلى ما عَسى أنْ يُوقِعَها في الحرامِ، أو ما عسى أنْ يُكَلِّفَها صَبرًا شديدًا عليه، ومَن حَفِظَ فَرْجَه وبصَرَه طهُرَ مِن الخُبثِ الذي يَتدنَّسُ به أهلُ الفواحشِ، وزَكَت أعمالُه بسَببِ ترْكِ المحرَّمِ

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢١٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٥٩).

الذي تَطمَحُ إليه النفسُ وتَدْعو إليه؛ فمَن تَرَكَ شيئًا للهِ سُبحانَه وتعالى عوَّضَه اللهُ خيرًا منه، ومَن غَضَّ بصَرَه عن المُحَرَّمِ أنار اللهُ تعالى بَصيرتَه، ولأنَّ العبدَ إذا حَفِظَ فَرْجَه وبصَرَه عن الحرامِ ومُقَدِّماتِه مع داعي الشَّهوةِ، كان حِفظُه لغيرِه أبلَغَ.

وبدَأ سُبحانَه بالغَضِّ مِن البصَرِ قَبلَ حِفظِ الفَرْجِ؛ لأنَّ النَّظَرَ وَسيلةٌ إلى عدَمِ حِفظِه، والوسيلةُ مُقَدَّمةٌ على المُتوَسَّلِ إليه؛ فعدَمُ غَضِّ البصَرِ سَببٌ لعدَمِ حِفْظِ الفَرْجِ.

وفي آيةِ سورةِ الإسراءِ نَهى اللهُ تعالى أنْ يقولَ المَرْءُ أو يَفعَلَ شَيئًا بمُجَرَّدِ الظَّنِّ، فيَتَّبِعَ ما لا عِلمَ له به، ولا دَليلَ على صِحَّته، ومِن ذلك: رَميُ النَّاسِ وقَذفُهم بالباطِلِ، والشَّهادةُ عليهم بغَيرِ الحَقِّ؛ ذلك أنَّ هذه الأعضاءَ العاليةَ المنافِعِ، البَديعةَ التَّكوينِ؛ مِن السَّمعِ والبَصَرِ والفُؤادِ: سيُسأَلُ الإنسانُ عنها يومَ القيامةِ فِيمَ استعمَلَها؟ أو تُسأَلُ هي عمَّا عَمِلَ فيها صاحِبُها، فتَشهَدُ عليه بما قال وفَعَل مِن خَيرٍ وشَرٍّ.

ففي هذه الآيةِ الكريمةِ زَجْرٌ عن النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ، واللهُ تَبارَك وتعالَى إنَّما مَنَح عِبادَه نِعْمةَ البَصَرِ لاستعمالِها في الخيرِ والنَّفعِ والطَّاعةِ؛ كأنْ يَرى ببَصَرِه آياتِ اللهِ المشهودةَ، فيَستَدِلَّ بها على وَحدانيَّتِه ورُبوبيَّتِه وغيرِ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه سُبحانَه وتعالى.

وفي حَديثِ أبي سَعيدٍ الخُدرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهُ يُحذِّرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُسلِمينَ مِن الجُلوسِ على الطَّريقِ؛ وذلكَ لأنَّ الجُلوسَ على الطُّرُقاتِ يُؤدِّي إلَى أذيَّةِ النَّاسِ، وذلك بإحراجِهم بمُلاحقتِهم بالنَّظَراتِ، أو تَضييقِ الطَّريقِ عليهم... إلى غيرِ ذلك، ولأنَّ الجالِسَ في الطَّريقِ قد يَتعَرَّضُ للفِتنةِ... إلى غيرِ ذلك مِن المفاسِدِ.

فلمَّا ذَكَر الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنهُم أنَّهُم لا يَستَطيعونَ الامتِناعَ عنِ الجُلوسِ فيهَا؛ فهي مَجالِسُهم التي يَجتَمِعونَ للتحَدُّثِ فيها، وكأنَّهم فَهِموا مِن كَلامِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه للتحذيرِ، وليس للنَّهيِ الصَّريحِ، وإلَّا فإنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عنهم أسرَعُ النَّاسِ إجابةً لأوامرِ اللهِ ورَسولِه؛ ولذلك كانتْ مُراجعتُهم للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه



وسلَّمَ استفسارًا عمَّا فَهِموه منه، وليس مُعارَضةً له، حاشاهم، فقالَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فإذا أَبَيتُم إلَّا المَجالِسَ، فأعطُوا الطَّريقَ حَقَّها»؛ تَأكيدًا لِما للطَّريقِ مِن آدابٍ وحُقوقٍ، ومِن تِلكَ الآدابِ التي ذُكِرت في الحَديثِ: غضُّ البَصرِ، وأشار بغَضِّ البَصَرِ إلى السَّلامةِ مِن التعرُّضِ للفِتنةِ بمَن يمُرُّ مِن النِّساءِ وغَيرِهنَّ.

وفي حَديثِ جَريرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: أنَّه سَألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن نَظَرِ الفُجاءَةِ، والمُرادُ به: النَّظرةُ الأُولَى للمَرأةِ الأجنَبيَّةِ عن غَيرِ قَصدٍ، فأمَرَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَصرِفَ بصَرَه عنها؛ لأنَّ الأُولى إذا لم تكُنْ بالاختيارِ فهو مَعْفُوٌّ عنها، فإنْ أدام النَّظَرَ أثِمَ.

وغَضُّ البَصرِ عن المَحارِمِ وعمَّا نهَى اللهُ عنه يُورِثُ فوائِدَ عَظيمةً؛ منها: أنَّه يُورِثُ حَلاوةَ الإيمانِ ولذَّتَه، التي هي أحْلَى وأطيبُ ممَّا صرَفَ بصَرَهُ عنه وترَكَه للهِ تعالَى؛ فإنَّ مَن ترَكَ شيئًا للهِ عوَّضه اللهُ خيرًا منه. ومنها: أنَّه يُورِثُ نُورَ القَلبِ، وصِحَّةَ الفِراسةِ، بخِلافِ التعلُّقِ بالصُّورِ؛ فإنَّه يُوجِبُ فسادَ العقلِ، وعمَى البَصيرةِ، وسُكْرَ القلبِ بلْ جُنونَه؛ فالجزاءُ مِن جِنسِ العَملِ؛ فمَن غضَّ بصَرَه عمَّا حرَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليه عوَّضَه اللهُ تعالَى مِن جِنسِه ما هو خيرٌ منه، فكما أمْسَكَ نُورَ بصَرِه عن المُحرَّماتِ، أطلَق اللهُ نورَ بَصيرتِه وقَلْبِه، فرأَى به ما لم يَرَهُ مَن أطلَقَ بصَرَه ولم يَغُضَّه عن المحارِمِ. ومنها: أنَّه يُورِثُ قُوَّةَ القَلبِ وثَباتَه وشَجاعتَه، ويكونُ سَبَبًا في هُروبِ الشَّيطانِ منه.

الخَلْوةُ بالأجنبيّةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

وعن عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إيَّاكُمْ والدُّخُولَ على النِّساءِ، فقال رَجُلٌ مِن الأنْصارِ: يا رَسولَ اللَّهِ، أفرَأَيْتَ الحَمْوَ؟ قال: الحَمْوُ المَوتُ))(١).



العِفَّةُ والطُّهرُ مِن ثَوابِتِ دِينِنا الحَنيفِ، ومِن رَواسِخِ الفِطَرِ النَّقيَّةِ التي فطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها، ومَعلومٌ أنَّ الشَّيطانَ يَجري مِنِ ابنِ آدَمَ مَجْرى الدَّمِ في العُروقِ قاصِدًا إفسادَ دِينِه، وتَدنيسَ فِطرتِه، وخَلعَ ثِيابِ العِفَّةِ والطُّهرِ عنه، وجَرَّهُ إلى الفَواحِشِ والمُنكَراتِ؛ فنَهى اللهُ تعالى **في الآيةِ الأُولى** عن الاقترابِ مِن فِعلِ الزِّنا، وأمَرَ بالابتعادِ عن جَميعِ مُقَدِّماتِه ودَواعِيه؛ فإنَّ مَن حامَ حَولَ الحِمى يُوشِكُ أن يقَعَ فيه، فهو ذنْبٌ عَظيمٌ غايةٌ في القُبحِ؛ في الشَّرعِ، والعَقلِ، والفِطرةِ، وهو يُؤدِّي إلى أنواعٍ مِن المفاسدِ في الدُّنيا، وإلى العذابِ والخِزيِ في الآخرةِ.

وفي الآيةِ الثانيةِ: يَنهى اللهُ تعالى عِبادَه عن سُلوكِ طُرُقِ الشَّيطانِ التي يَدْعو إليها بوَساوِسِه؛ فإنَّ مَن يَسلُكُ طرُقَ الشَّيطانِ يقَعُ في الفَحشاءِ والمنكَرِ؛ لأنَّه يَأمُرُ النَّاسَ باقترافِ الذُّنوبِ العظيمةِ القبيحةِ، كالزِّنا، ويَأمُرُهم بمُنكَراتِ الأقوالِ والأفعالِ التي تُنكِرُها الشَّريعةُ والعقولُ السَّليمةُ.

وزَكاةُ القَلبِ مَوقوفةٌ على طَهارتِه، كما أنَّ زَكاةَ البدَنِ مَوقوفةٌ على استفراغِه مِن أخلاطِه الرَّديئةِ الفاسدةِ، وفي ذِكرِ التَّزكِّي عَقِيبَ تَحريمِ الزِّنا والقَذفِ ونِكاحِ الزَّانيةِ: دَلالةٌ على حُصولِ التَّزكِّي باجتنابِ ذلك.

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).

وقد حذَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حَديثِ عُقبةَ بنِ عامِرٍ رَضِيَ اللهُ عنه مِن الدُّخولِ على النِّساءِ الأجنبيَّاتِ والخَلوةِ بهنَّ، فقال: «إيَّاكم والدُّخولَ على النِّساءِ»؛ فإنَّه ما خَلا رجلٌ بامرأةٍ إلَّا كان الشَّيطانُ ثالثَهما؛ فإنَّ النُّفوسَ ضَعيفةٌ، والدَّوافعَ إلى المعاصي قويَّةٌ، «فقالَ رجلٌ مِن الأنصارِ: يا رَسولَ اللهِ، أفرَأَيتَ الحَمْوَ؟» والحَمْوُ: هو قريبُ الزَّوجِ؛ كأخيه وعمِّه، ونحْوِ ذلِكَ، قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «الحَمْوُ الموتُ»، أي: إنَّ الخَلْوةَ بأقاربِ الزَّوجِ -غَيرِ المحارمِ- يجِبُ أنْ تُجتَنَبَ كما يُجتنَبُ الموتُ، أو المَعْنى: أنَّ دُخولَ أقاربِ الزَّوجِ على المرأةِ كالموتِ؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى مَوتِ الدِّينِ في القلوبِ؛ وذلِكَ لأنَّ دُخولَه أخطَرُ مِن دُخولِ الأجنبيِّ، وأقرَبُ إلى الوقوعِ في الحرام؛ لأنَّ النَّاسَ يَتساهَلونَ بِخُلْطةِ الرَّجلِ بزَوجةِ قَريبِه والخَلوةِ بها، فيَدخُلُ بدونِ نَكيرٍ، فيكونُ الشَّرُّ منه أكثَرَ والفتنةُ به أمكَنَ، أو أنَّها تُؤدِّي إلى الموتِ إنْ وقَعَت المعصيةُ ووَجَب الرَّجْمُ، أو إلى هَلاكِ المرأةِ بفِراقِ زَوجِها إذا حمَلَتْه الغَيرةُ على تَطليقِها. وفي الحَديثِ: النَّهيُ عَنِ الدُّخولِ على الأجنبيَّاتِ والخَلوةِ بهنَّ؛ سدًّا لذَريعةِ وُقوعِ الفاحشةِ. وفيه: الابتعادُ عَن مَواطنِ الزَّللِ عامَّةً؛ خَشيةَ الوقوعِ في الشَّرِّ.

وَليمةُ النِّكاحِ

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ عبدَالرَّحمنِ بنَ عَوفٍ جاءَ إلى رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبه أثَرُ صُفْرةٍ، فسَألَه رَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأخْبَرَه أنَّه تزوَّجَ امْرَأةً مِن الأنْصارِ، قال: ((كَمْ سُقْتَ إليها؟ قال: زِنةَ نَواةٍ مِن ذَهَبٍ، قال رَسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أوْلِمْ ولو بشاةٍ))[1].



الوَليمةُ: هِي اسمٌ للطَّعامِ الذي يُقدَّمُ للأضيافِ والمَدْعُوِّينَ في أعراسِ النِّكاحِ؛

(١) أخرجه البخاري (٥١٥٣) واللفظ له، ومسلم (١٤٢٧).

إكرامًا لهم، وشُكرًا للهِ تعالَى على نِعمتِه، وقدْ حثَّ عليها شَرْعُنا الحَنيفُ، ورغَّب فيها، وفي هذا الحَديثِ يَذكُرُ أنسُ بنُ مالكٍ أنَّ عبْدَ الرحمنِ بنَ عَوفٍ رَضِيَ اللهُ عنه أتَى إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعَلَيه أثَرُ صُفرةٍ مِن طِيبٍ يُصنَعُ مِن زَعفرانٍ وغَيرِه، فسَألَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: تَزوَّجتَ؟ وهذا مِن حُسنِ عِشرتِه، وجَميلِ مُلاطَفتِه، وعَظيمِ رِعايتِه لأصحابِه، واهتِمامِه بهم. قال عبدُالرَّحمنِ رَضِيَ اللهُ عنه: نَعَمْ، قال: ومَن؟ قال: امرأةً مِن الأنصارِ، وهي بِنتُ أنَسِ بنِ رافِعٍ مِن بني عَبدِ الأَشْهَلِ. فسَألَه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: كَم دَفَعتَ لها مِن الصَّداقِ؟ فأجابَه: زِنةَ نَواةٍ مِن ذَهَبٍ، وهي وَزنُ ثَلاثةِ دَراهِمَ وثُلثٍ، فأمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالوَليمةِ ولو بِشاةٍ، يَعْني: ولو كان المَذبوحُ شاةً واحدةً في تلك الوَليمةِ.

وليس في قوْلِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعبدِالرَّحمنِ بنِ عوْفٍ: «أوْلِمْ ولو بشَاةٍ» منْعٌ لِمَا دون ذلِكَ، وإنَّما جعَلَ الشَّاةَ غايةً في التَّقليلِ؛ لِيَسارِ عبدِالرَّحمنِ وغِناهُ، وأنَّها ممَّا يُستطاعُ، وقد أوْلَمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على صفِيَّةَ رَضِيَ اللهُ عنها بحَيْسٍ (وهو طَعامٌ متَّخَذٌ مِن التَّمرِ والأقِطِ والسَّمْنِ)، ليس فيها خبْزٌ ولا لحْمٌ، وأوْلَمَ على غيرِها بمُدَّينِ مِن شَعيرٍ، ولو وَجَد حينَئذٍ شاةً لأَوْلَم بها؛ لأنَّه كان أجوَدَ النَّاسِ وأكرَمَهم صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

إجابةُ الدَّعوةِ إلى وَليمةِ النِّكاحِ

عن عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((**إذا دُعِيَ أحَدُكُم إلى الوَليمةِ فلْيَأْتِها**))(١).

وعن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((**إذا دُعِيَ أحَدُكُم فلْيُجِبْ، فإنْ كان صائِمًا فلْيُصَلِّ، وإنْ كان مُفطِرًا فلْيَطْعَمْ**))(٢).

(١) أخرجه البخاري (٥١٧٣)، ومسلم (١٤٢٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣١). وأخرجه البخاري (٥١٧٩) بنحوه مختصرًا من حديث ابن عمر.

الوَليمةُ هي كلُّ طَعامٍ يُصنَعُ لِسُرورٍ حادثٍ؛ مِن نِكاحٍ أو ختانٍ ونحوِ ذلِكَ، وإجابَتُها مِن حقِّ المُسلِمِ على المُسلِمِ؛ فهي تُؤلِّفُ القُلوبَ، وتَزيدُ التَّرابُطَ في المُجتمَعِ، والمشهورُ عندَ إطلاقِها أنَّها تكونُ على وَليمةِ الزَّواجِ، وقد أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ **في الحَديثِ الأوَّلِ** بإجابةِ الدَّعوةِ إلى الوَليمةِ مُطْلَقًا، والأمْرُ يُحمَلُ على الوُجوبِ -كما قال العُلَماءُ- إنْ كانت وَليمةَ عُرسٍ، ولا تُترَكُ إلَّا لعُذرٍ شَرعيٍّ مَقبولٍ، وغَيرُ وَليمةِ العُرسِ إجابَتُها مُستحبَّةٌ.

وفي الحَديثِ الثَّاني تَوجيهٌ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِمَا يَفعَلُه المُسلِمُ إذا دُعِي إلى وَليمةٍ وكان صائمًا؛ حيثُ أرشَدَ بِدايةً إلى أنَّه إذا دُعِيَ أحَدُكم إلى طَعامٍ مِن أخيهِ المُسلمِ فلْيُجِبِ الدَّعوةَ، فإنْ كان المَدعُوُّ إلى الطَّعامِ صائمًا، «فليُصَلِّ» أي: فلْيَدْعُ لأهْلِ البَيتِ بالخَيرِ والبَرَكةِ، وهذا فيه تَطْييبٌ للنفْسِ، وتَأْنيسٌ له، بَكونِه صائمًا ويَأْتي لإجابةِ الدَّعوةِ، وقيلَ: فلْيُصَلِّ رَكَعاتٍ في ناحيةِ البيتِ، كما جاء في حَديثِ أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((دَخَلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على أُمِّ سُلَيْمٍ، فأتَتْهُ بتَمْرٍ وسَمْنٍ، قالَ: أعِيدُوا سَمْنَكُمْ في سِقَائِهِ، وتَمْرَكُمْ في وِعائِهِ؛ فإنِّي صائمٌ، ثُمَّ قام إلى ناحِيةٍ مِن البَيْتِ، فصَلَّى غيرَ المَكْتُوبةِ، فدَعا لِأُمِّ سُلَيمٍ وأهْلِ بَيتِها))[1]، وإنْ كانَ المدعُوُّ إلى الطَّعامِ مُفطِرًا غيرَ صائمٍ، فلْيُجبِ الدَّعوةَ ويَأْكُلْ مِن الطعامِ. وهذا يدُلُّ على تَأْكيدِ الأمرِ بِحُضورِ الوليمةِ وإجابةِ الدَّعوةِ إليها.

اللَّهوُ في الأعْراسِ

عن عائِشةَ أُمِّ المُؤمِنينَ رَضِيَ اللهُ عنها: أنَّها زَفَّتِ امْرَأَةً إلى رَجُلٍ مِن الأنْصارِ، فقالَ نَبِيُّ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: **((يا عائِشةُ، ما كانَ معكُم لَهْوٌ؟ فإنَّ الأنْصارَ يُعْجِبُهُم اللَّهْوُ))**[2].

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٢) واللفظ له، ومسلم (٢٤٨١) بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٦٢).

اللَّهوُ المُباحُ وَسيلةٌ لإدخالِ الفرَحِ والسُّرورِ على العَروسينِ وأهْلِهما والمَدْعوِّين، وفي هذا الحَديثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَشْروعيَّةَ اللَّهوِ عِندَ الزِّفافِ وإشهارِ النِّكاحِ؛ وذلِكَ عِندما أخبرَتْه أمُّ المُؤمِنينَ عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها: أنَّها أهدَتْ عَروسًا إلى زَوجِها، ونَقَلَتْها إلى بَيتِه بَعدَما هيَّأَتْها وزَيَّنَتْها وجَمَّلتْها، فقال لها صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُستفهِمًا ومُعلِّمًا: «يا عائشةُ، ما كان معكمْ لهْوٌ؟»: ألم يَكُنْ مَعكم مِن أنواعِ اللَّهوِ ما تُعلِنونَ به النِّكاحَ؟ لإدخالِ السُّرورِ على العروسَينِ وغيرِهما، كما أنَّه وَسيلةٌ أيضًا لإشهارِ النِّكاحِ وشُيوعِ خَبَرِه بيْن الناسِ، والمُرادُ باللَّهوِ: ضَرْبُ الدُّفِّ، والتَّغنِّي بشِعْرٍ ليس فيه إثمٌ، وليس بالأغاني المُهيِّجةِ للشُّرورِ المُشتملةِ على الفُجورِ، والمُصاحبةِ لأنواعِ المعازِفِ المُختلِفةِ؛ فإنَّ ذلِكَ مَنهيٌّ عنه في النِّكاحِ وغَيرِه.

فالأحاديثُ الصَّحيحةُ فيها الإذْنُ بضَرْبِ الدُّفِّ للنِّساءِ فقط، فلا يَلتحِقُ بهنَّ الرِّجالُ؛ لعُمومِ النَّهيِ عن التَّشبُّهِ بهنَّ.

تَحريمُ المَعازِفِ

عن أبي عامِرٍ أو أبي مالِكٍ الأشْعريِّ: سَمِعَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((لَيَكونَنَّ مِن أُمَّتي أقْوامٌ يَستَحِلُّونَ الحِرَ والحَريرَ، والخَمْرَ والمَعازِفَ، ولَيَنزِلَنَّ أقْوامٌ إلى جَنْبِ عَلَمٍ، يَرُوحُ عليهم بِسارِحةٍ لهمْ، يَأْتِيهم -يَعْني الفقِيرَ- لِحاجَةٍ فيَقولونَ: ارْجِعْ إلَينا غَدًا، فيُبَيِّتُهُم اللَّهُ، ويَضَعُ العَلَمَ، ويَمسَخُ آخَرينَ قِرَدةً وخَنازِيرَ إلى يَومِ القِيامةِ!))[1].



في هذا الحَديثِ يُخبرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه سيَكونُ جَماعةٌ مِن أُمَّتِه

(١) أخرجه البخاري موصولاً وصورتُه معلَّقٌ بصيغة الجزم (٥٥٩٠).



يَستحِلُّونَ هذه المُحرَّماتِ، والاستِحْلالُ هو أنْ يَفعَلَ الحرامَ بدَعْوى أنَّه حَلالٌ، والحِرُ: هو الفَرْجُ، ويَقصِدُ به الزِّنا، ويَستحِلُّون الحريرَ أيضًا، وهو حَرامٌ على الذُّكورِ بالاتِّفاقِ، وكذا يَستحِلُّون الخمرَ، والمعازفَ: وهي آلاتُ اللَّهوِ والمُوسيقا، ثمَّ أنبأَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أقوامٍ يَنزِلونَ إلى جَنْبِ عَلَمٍ، وهو الجبَلُ، «يرُوحُ عليهم بِسارحةٍ لهم»: يَسيرُ الرَّاعي بغَنَمٍ لهم، وهي السَّارحةُ، وفي أثناءِ ذلِكَ يَأتِيهم الفقيرُ يَسألُهم الحاجةَ، فيَرُدُّونه ويقولون: «ارجِعْ إلينا غدًا، فيُبيِّتُهم اللهُ»: يَأخُذُهم بالعذابِ، «ويضَعُ العَلَمَ» أي: يُوقِعُ الجبَلَ عليهم فيُهلِكُهم، ويَمسَخُ آخَرين قِردةً وخَنازيرَ إلى يومِ القيامةِ. وهذا تَهديدٌ ووَعيدٌ لِمَن استَحلَّ ما حرَّمَ اللهُ، واجترَأَ على هذه المُنكَراتِ.

ما يُقالُ عِندَ الجِماعِ

عن عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لَوْ أنَّ أحَدَهُم إذا أرادَ أنْ يَأْتِيَ أهْلَهُ قال: باسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنا الشَّيطانَ، وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رَزَقْتَنا؛ فإنَّه إنْ يُقَدَّرْ بيْنَهما ولَدٌ في ذلك لَمْ يَضُرَّهُ شَيطانٌ أبَدًا))[1].



في هذا الحَديثِ يُرشِدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى دُعاءٍ يقولُه الرَّجُلُ عِندَما يُريدُ جِماعَ أهْلِهِ، وهو: «باسْمِ اللَّهِ، اللهمَّ جَنِّبْنا الشَّيطانَ، وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رزَقْتَنا»، ومَعْناهُ: اللَّهُمَّ أبْعِدِ الشَّيطانَ عنَّا، وأبْعِدْهُ عنْ ذُرِّيَّتي، ثُمَّ يُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن فائدةِ هذا الدُّعاءِ؛ وهي أنَّه لو قَدَّر اللهُ تَعالى أن يُرْزَقَا ولدًا مِن هذا الجِماعِ، فإنَّ ذلِكَ الولَدَ يكونُ في عِصْمةِ اللهِ مَحْفوظًا مِن الشَّيطانِ فلا يَمَسُّه بأذًى، أمَّا الوَسْوَسةُ فإنَّها واقِعةٌ لكلِّ أحَدٍ.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٨)، ومسلم (١٤٣٤).



كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مَسؤولٌ عن رعيَّتِه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ألَا كُلُّكُم راعٍ، وكُلُّكُم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه؛ فالأميرُ الذي على النَّاسِ راعٍ وهو مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه، والرَّجُلُ راعٍ على أهْلِ بَيْتِه وهو مَسؤولٌ عنْهم، والمَرأةُ راعِيةٌ على بَيتِ بَعْلِها ووَلَدِه وهي مَسؤولةٌ عنْهم، والعَبْدُ راعٍ على مالِ سَيِّدِه وهو مَسؤولٌ عنْه، ألَا فكُلُّكُم راعٍ، وكُلُّكُم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه))[1].

الرَّعْيُ: هو حِفْظُ الشَّيءِ، وحُسنُ التَّعَهُّدِ لَه، والرَّاعي: هو الحافِظُ المُؤتمَنُ المُلتزِمُ بصَلاحِ ما قامَ عليه، وواجبٌ على مَنِ ائتُمنَ على شَيءٍ أنْ يُحسِنَ القيامَ عليه ويَبذُلَ فيه ما يَستطيعُ حِفاظًا على تلك المسؤوليَّةِ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ بأنْ يَجعَلوا بيْن أنفُسِهم وأهلِيهم وبيْنَ النَّارِ حاجِزًا يَقِيهم منها؛ فهم مَأْمورون بتَعليمِ أهلِيهم وتَأْديبِهم، وأمْرِهم بالمعروفِ ونَهْيِهم عن المنكَرِ كما في الآيةِ المذكورة.

وفي حديثِ عَبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عنهُما يُرشِدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمَّتَه وأفرادَها إلى القِيامِ بواجبِهم نحوَ ما خوَّلهمُ اللهُ به؛ فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ما مِن مُسلمٍ في هذه الأُمةِ إلَّا وتحتَه مَن يَرْعاهم؛ فعليه أنْ يَتحمَّلَ مَسؤوليَّتَهم، ويقومَ بِمَصالِحِهم في دِينِهم ودُنْياهم، فَإنْ وفَّى ما عليه مِن الرِّعايةِ حَصَلَ له الحَظُّ الأوفَرُ والجَزاءُ الأكبَرُ، وإلَّا فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سائلُه عن تلك الرَّعيَّةِ إنْ فرَّطَ في حُقوقِها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٤) واللفظ له، ومسلم (١٨٢٩).



ثُمَّ فَصَّلَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما أجْمَلَه: فالإمامُ الأعْظَمُ راعٍ فيما اسْتَرْعاه اللهُ، فعلَيه حِفْظُ رَعيَّتِه فيما تَعَيَّنَ عليه؛ بحِفْظِ شَرائِعِهم والذَّبِّ عنها، وعَدَمِ إهْمالِ حُدودِهم وتَضْييعِ حُقوقِهم، وتَركِ حِمايَتِهم مِمَّنْ جارَ عليهم، ومُجاهَدةِ عَدُوِّهم، فلا يَتصرَّفُ فيهم إلَّا بإذْنِ اللهِ ورَسولِه، ولا يَطلُبُ أجْرَه إلَّا مِن اللهِ، وهو مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه، والرَّجُلُ في أهْلِه -زَوجَتِه وغَيرِها- راعٍ بالْقيامِ عليهم بالحَقِّ في النَّفَقةِ وحُسنِ المُعاشَرةِ، وهو مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه، والمَرْأةُ في بَيتِ زَوجِها راعيةٌ بِحُسنِ التَّدبيرِ في أمْرِ بَيْتِه، والتَّعَهُّدِ لِخَدَمِه وأضيافِه، وهي مَسؤولةٌ عن رَعيَّتِها، والخادِمُ -وهو العَبدُ، ويَدخُلُ فيه الأجيرُ عُمومًا- في مالِ سَيِّدِه راعٍ بالقيامِ بحِفظِ ما في يَدِه مِنه وخِدمتِه، وهو مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه، فَكُلُّكم راعٍ وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه، فعمَّم ثمَّ خصَّص، وقسَّم الخصوصيَّةَ إلى جِهَةِ الرجُلِ وجِهةِ المَرأةِ وهكذا، ثمَّ عمَّم آخِرًا تأْكِيدًا لبَيانِ الحُكمِ أولًا وآخِرًا.

أحكامُ المَولودِ

عن سَمُرَةَ بنِ جُندُبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((كلُّ غُلامٍ رَهينةٌ بعَقيقتِه، تُذبَحُ عنه يومَ سابِعِه، ويُحْلَقُ، ويُسمَّى))[1].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عمرَ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنَّ أَحَبَّ أسْمائِكُم إلى اللهِ: عبدُاللهِ وعَبدُ الرَّحمنِ))[2].

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٣٨) واللَّفظُ له، والتِّرمذي (١٥٢٢)، والنَّسائي (٤٢٢٠)، وابنُ ماجهْ (٣١٦٥)، وأحمد (٢٠١٣٩).

قال التِّرمذي: حسَنٌ صحيحٌ. وقال ابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٥/ ٤٣١): (أصحُّ ما يُروَى). وصحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١٢١)، وابن المُلقِّن في ((البدر المنير)) (٩/ ٣٣٣)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٨٣٨)، والوادِعيُّ في ((الصَّحيح المسند)) (٤٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٣٢).

الذُّرِّيَّةُ مِن نِعَمِ اللهِ على العَبدِ، وهذه النِّعمةُ تَستَلزِمُ قِيامَه بالشُّكرِ عليها، ومِنَ الشُّكرِ العَمَلُ بهَدْيِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وسُنَّتِه، فيمَن رُزِقَ مَولودًا.

وفي **الحديثِ الأوَّلِ** يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ كُلَّ غُلامٍ مَرهونٌ بعَقيقتِه، والرَّهينُ: الحَبيسُ، وقد جَعَل اللهُ سُبحانَه العقيقةَ عن الوَلَدِ سَبَبًا لفَكِّ رِهانِه مِن الشَّيطانِ الذي يَعلَقُ به مِن حينِ خُروجِه إلى الدُّنيا، فكانت العقيقةُ فِداءً وتَخليصًا له مِن حَبْسِ الشَّيطانِ له، وسَجْنِه في أسْرِه، ومَنْعِه لَه مِن سَعْيِه في مصَالحِ آخِرتِه التي إليها مَعادُه. وقيل: هو مَحبوسٌ مُرْتَهنٌ عَن الشَّفاعةِ لوَالِدَيه حتى يُعَقَّ عنه. والعقيقةُ: هي الذَّبيحةُ التي تُذبَحُ عن المولودِ في يومِ سابِعِه، وهي عن الذَّكَرِ شاتانِ، وعن الأُنثى شاةٌ خاليةٌ مِن العُيوبِ، وسُمِّيَت عَقيقةً؛ لأنَّ العَقيقةَ أصلُها الشَّعرُ الذي يكونُ على رأْسِ الوَلَدِ حينَ يُولَدُ، وسُمِّيَت الشَّاةُ التي تُذبَحُ عنه في ذلك الوَقتِ عَقيقةً؛ لأنَّه يُحلَقُ عنه ذلك الشَّعرُ عندَ الذَّبحِ، أو لأنَّها تُقطَّع عُروقُها عند الذَّبحِ. «ويُحْلَقُ»، أي: يُحلَقُ الشَّعرُ الذي وُلِدَ به، والمرادُ شَعرُ الذَّكَرِ لا الأُنثى. وقيل: يَشمَلُ الحَديثُ الذَّكَرَ والأُنثى.

«ويُسمَّى» فيه، أي: ويُختارُ للمَولودِ اسمٌ في هذا اليَومِ، ولا تَتعَيَّنُ التَّسميةُ في اليومِ السَّابعِ، وتَصِحُّ التَّسميةُ قَبلَ ذلك؛ لِقَولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((وُلِدَ ليَ اللَّيلةَ غُلامٌ، فسَمَّيتُه باسمِ أبي إبراهيمَ))(١).

ومِن حقِّ الوَلَدِ على والِدِه أنْ يَتخيَّرَ له اسمًا حَسَنًا، **وفي حديثِ ابنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهُما** يَذكُرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أفضلَ الأسماءِ وأحبَّها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وهو اسمُ عبدِالله، وعبدِالرَّحمنِ، وإنَّما كانتِ الأسماءُ المعبَّدةُ للهِ تعالى «عبدُالله» أحبَّ إليه سُبحانَه مِن غَيرِها؛ لأنَّ فيها إقرارًا للهِ تعالى بوَصفِه اللَّائقِ به سُبحانَه، والذي لا يَليقُ بغَيرِه، وليس لأحَدٍ مِن الخَلْقِ فيه حقٌّ ولا نَصيبٌ، وهو أُلوهِيَّتُه لخَلْقِه سبحانَه. وهذا

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٥).



هو مَدلولُ الاسمِ (عبْد الله): تَعبيدُ صاحبِه لِما في اسمِ اللهِ مِن معْنى الإلهيَّةِ التي لا تَنْبغي لأحَدٍ سِواه.

ولَمَّا كانتْ رَحمتُه سُبحانَه تَسبِقُ غضَبَه، وكانتِ الرَّحمةُ أحبَّ إليه مِن الغَضَبِ، كان «عبدُالرحمنِ» أحبَّ إليه مِن عبدِالقاهرِ ونحوِها مِن أسمائِه الحسنى، وقدِ اشتَمَلَ اسمُ (عبدِالرحمنِ) على مَعاني العُبوديَّةِ، والتَّذكيرِ الدائمِ بمَقامِ الذُّلِّ بيْن يدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ، الذي يَسْتدعي طَلَبَ الرَّحمةِ مِن اللهِ دَومًا، وإذا ثبَتَ فَضلُ هذينِ الاسمينِ، وقد سمَّى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولَدَه إبراهيمَ؛ فلعلَّه لبَيانِ جوازِ التسمِّي بأسماءِ الأنبياءِ، فسَمَّى باسمِ نَبيِّ اللهِ إبراهيمَ؛ مَحبةً له، وطلَبًا لاستِعمالِ اسمِه وتَكرُّرِه على لِسانِه، وإعلانًا لشَرَفِ الخَليلِ، وتَذكيرًا للأُمَّةِ بمَقامِه الجَليلِ.

ومِن جُملةِ الأحكامِ الخاصَّةِ بالمولودِ أيضًا أنْ يُزالَ عنه الأذى، كما في حديثِ سَلْمانَ بنِ عامرٍ الضَّبِّيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((وأَميطوا عنه الأذى))[1]، والمرادُ: إزالةُ القذَرِ والنَّجاسةِ بغَسْلِه. وقيل: هو نَهيٌ عمَّا كانوا يَفْعَلونَه في الجاهليَّةِ مِن تلْطيخِ رَأسِ المولودِ بالدَّمِ. وقيل: المُرادُ الخِتانُ.

أمرُ الأوْلادِ بالصَّلاةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وعن عَمرِو بنِ شُعيبٍ، عن أبيهِ، عن جدِّه رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((مُروا أولادَكم بالصَّلاةِ وهم أبناءُ سَبْعِ سنينَ، واضْرِبوهُم عليها وهمْ

(١) أخرجه البخاري (٥٤٧١).

أبناءُ عشْرٍ، وفرِّقوا بيْنهُم في المَضاجعِ))(1).



في الآيةِ الأُولى تَوجيهٌ إلَهيٌّ كَريمٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأَمْرِ أهلِه بإقامةِ الصَّلاةِ، وحثِّهم على المحافَظةِ عليها، وتَوجيهٌ له بالصَّبرِ على القيامِ بها، وأدائِها في أوقاتِها بحُدودِها وأركانِها وآدابِها وخُشوعِها.

وفي الآيةِ الثانية أثْنى اللهُ تعالى بذلك على رَسولِه ونَبيِّه إسماعيلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فقد كان مُواظِبًا على أمْرِ أهلِه بإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ.

فالواجِبُ على كلِّ مُسلمٍ أنْ يَأمُرَ أهْلَه مِن زَوجةٍ ووَلَدٍ بأداءِ الصَّلاةِ خُصوصًا؛ فهو مَسؤولٌ عنهم وعن تَرْبيتِهم.

وشَرائعُ الدِّينِ يَنْبغي أنْ يتعلَّمَها الأولادُ بالتَّدرُّجِ والتَّسلسُلِ حتى تكونَ سَهْلةً عليهم، ويُبْدَأُ معَهم في تَعليمِها قَبْلَ وقتِ وُجوبِها عليهم؛ فالطِّفلُ يُولَدُ لا يَعقِلُ شيئًا، ثُمَّ يَكتَسِبُ مَعارِفَه مِن المُلاحَظةِ والتَّعلُّمِ مِن الآخَرينَ، وخاصَّةً الوالِدَينِ، والصلاةُ مِن أجَلِّ شَرائعِ الدِّينِ التي يَجِبُ تَعليمُها للأطفالِ في صِغَرِهم.

وفي هذا الحَديثِ يُوجِّهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وَليَّ الطِّفلِ إلى تَعويدِ الأبناءِ على الصَّلاةِ، ومتى يَبدَأُ ذلك، فيَقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «مُروا أولادَكم بالصَّلاةِ» بمعنى: وَجِّهوا لهمُ الأَمْرَ بالصَّلاةِ، وتَعلُّمِ كيفيَّتِها وآدابِها، وما يَسْتدعيه ذَلِك مِنْ حِفْظِ بَعضِ القرآنِ الكريمِ وهم في سِنِّ سَبْعِ سِنينَ، وهذه سِنُّ السَّماحِ والتَّجاوُزِ

(1) أخرجه أبو داود (٤٩٥) واللفظ له، وأحمد (٦٦٨٩).

صحَّحه ابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٣/ ٢٣٨) وذكَر أنَّ له طُرُقًا، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٨٤)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٥)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٦٦)، وحسَّنه النووي في ((المجموع)) (٣/ ١٠)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٩٥).

والتَّعلُّمِ، فإذا بَلَغَ الطِّفْلُ عَشْرَ سِنينَ أُلزِمَ بالصَّلاةِ الَّتي ظَلَّ ثلاثَ سَنَواتٍ يتدرَّبُ عليها، فإذا قَصَّرَ في الصَّلاةِ بعدَ هذه السِّنِّ ضُرِبَ وعُوقِبَ حتى يَعتادَ على أدائِها، فإذا ما دَخَل وقتُ التَّكليفِ يكونونَ قد اعْتادوا عليها دونَ أَدْنى تَفريطٍ مِنْهم في تِلْكَ العِبادةِ. وأمَرَ بالضَّربِ لعشْرٍ؛ لأنَّه حدٌّ يُتحمَّلُ فيه الضَّربُ غالبًا، والمرادُ بالضَّربِ الضَّربُ غيرُ المُبَرِّحِ، وأنْ يتَّقِيَ الوَجهَ في الضَّربِ.

المُتشبِّعُ بما لم يُعْطَ

عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ امْرَأَةً قالتْ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ لي ضَرَّةً، فهلْ عليَّ جُناحٌ إنْ تَشَبَّعْتُ مِن زَوجِي غيرَ الذي يُعْطِيني؟ فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((المُتَشَبِّعُ بما لمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوبَيْ زُورٍ))(١).

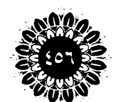


لا يَنبغي للمُسلمِ أنْ يدَّعِيَ ما ليس فيهِ، ولا أنْ يَتظاهرَ بغيرِ الحَقيقةِ؛ لأنَّه بذلك يُشبِهُ لابِسَ ثَوبَيْ زُورٍ، كما أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا الحديثِ عندما أخبرَتْهُ امرأةٌ أنَّ لها ضَرَّةً، وسَأَلَتْه: هلْ عليها إثمٌ إذا ادَّعتْ أمامَ ضَرَّتِها أنَّ زَوجَها يُعطيها مِن الحُظوةِ والمكانةِ أكثرَ مِن الواقعِ؛ لِتغيظَها؟ فأخبرَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الذي يدَّعي ويَتظاهرُ بما ليسَ فيه وليسَ عندَه كمَنْ يَلبَسُ ثَوبينِ مُستعارَينِ أو مُودَعَينِ عندَه يَتظاهرُ أنَّهما مِلكُه، أو هو الذي يُزوِّرُ على الناسِ بأنْ يَتزيَّا بزِيِّ أهلِ الزُّهدِ أو العلمِ أو الثَّراءِ؛ ليَغترَّ به الناسُ وليسَ هو بتلك الصِّفةِ.

والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أرادَ بذلك تَنفيرَ المرأةِ عمَّا ذكَرَتْ؛ خَوفًا مِن الفَسادِ بيْن زَوجِها وضَرَّتِها، فتُورَثُ بيْنهما البَغضاءُ، وتَنفيرَ الأُمَّةِ كلِّها مِن سُلوكِ هذا السبيلِ؛ فحَسْبُ المُسلمِ أنْ يَراهُ اللهُ على خَيرٍ ويَرْضى عنه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢١٩) واللفظ له، ومسلم (٢١٣٠).



الأيْمانُ والنذورُ

خطورةُ الحَلِفِ الكاذِبِ عَمْدًا

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما، قال: جاءَ أعْرابِيٌّ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، ما الكَبائرُ؟ قالَ: ((الإشْراكُ باللهِ. قالَ: ثُمَّ ماذا؟ قالَ: ثُمَّ عُقُوقُ الوالِدَينِ. قالَ: ثُمَّ ماذا؟ قالَ: اليَمينُ الغَموسُ. قُلتُ: وما اليَمينُ الغَمُوسُ؟ قالَ: الذي يَقْتطِعُ مالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هو فيها كاذِبٌ))[١].



في هذه الآيةِ الكريمةِ تَوعَّدَ اللهُ تَبارَك وتعالَى وتَهدَّد الَّذين يَترُكونَ ما عَهِدَ إليهم به، ويَترُكونَ أداءَ الأمانةِ، ويَحلِفونَ باللهِ كَذِبًا لاستِحلالِ ما حرَّم اللهُ عليهم مِن أموالِ النَّاسِ، فيَأْخُذون بذلك عِوَضًا قليلًا، وبدَلًا يَسيرًا خسيسًا مِن حُطامِ الدُّنيا؛ تَوعَّدهم بأنَّه لا حظَّ لهم مِن الخيرِ يومَ القيامةِ، ولا نَصيبَ لهم منه، ولا يُكلِّمُهم اللهُ في ذلك اليومِ تَكليمَ رِضًا، أو كلامًا يَسُرُّهم، ولا يَنظُرُ إليهم نظَرَ رَحمةٍ وعَطْفٍ، ولا نَظَرًا يَسُرُّهم، ولا يُطَهِّرُهم مِن ذُنوبِهم، ولهم عَذابٌ مُؤلِمٌ موجِعٌ.

ففي الآيةِ الكريمةِ أنَّ اليمينَ الغَمُوسَ -وهي الَّتي يَحلِفُ بها المَرءُ على شَيءٍ وهوَ يَعلمُ أنَّه كاذِبٌ. وَقيلَ: سُمِّيَت بذَلكَ؛ لأنَّها تَغمِسُ صاحِبَها في النَّارِ- وعدَمَ القيامِ بعهدِ اللهِ: مِن كَبائرِ الذُّنوبِ، وهو أمرٌ زائدٌ على كَونِه مُحرَّمًا؛ لأنَّ فيها وَعيدًا،

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٠).



وكلُّ ذنبٍ رُتِّبَ عليه وَعيدٌ فهو مِن كَبائرِ الذُّنوبِ.

وفي هذا الحَديثِ يَحكي الصَّحابيُّ الجَليلُ عبدُالله بنُ عمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما أنَّ رَجلًا مِن «الأعرابِ» -وهُمُ البَدْوُ ساكِنو الصَّحراءِ- جاءَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سائِلًا عَنِ الكَبائرِ، فبيَّن له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أكبرَ الكبائرِ الشِّركُ باللهِ، ويَليهِ عُقوقُ الوالدَينِ، ثم «اليَمينُ الغَموسُ»، فَسَأَلَ الأعرابيُّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن معْناها، فأجابَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّها الَّتي يَأخُذُ بها مِن مالِ أخيه بِدونِ وَجهِ حقٍّ وَهوَ كاذِبٌ، وَقدْ حلَفَ يَمينًا بُهتانًا وزُورًا يَستعينُ بها على اقتِطاعِ هذا المالِ مِن أخيهِ، وفي هذا تَحذيرٌ شديدٌ مِن اليمينِ الكاذبةِ عمومًا، ويَشتدُّ التحريمُ إذا تعلَّقَ باليَمينِ أخذُ مالِ مُسلِمٍ بغَيرِ حَقٍّ.

تَرْكُ المَحلوفِ عليه لفِعْلِ ما هو خَيرٌ منه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

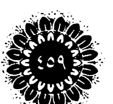
وعن أبي مُوسى الأشْعريِّ عَبدِالله بنِ قَيسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: أَتَيْتُ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في رَهْطٍ مِن الأشعَرِيِّينَ أسْتَحمِلُه، فقال: ((واللهِ لا أحْمِلُكم، ما عِندِي ما أحمِلُكم، ثُمَّ لَبِثْنا ما شاءَ اللَّهُ، فأُتِيَ بإبِلٍ، فأمَرَ لنا بثَلاثَةِ ذَوْدٍ، فلَمَّا انْطَلَقْنا قال بَعضُنا لِبَعضٍ: لا يُبارِكُ اللَّهُ لَنا؛ أتَيْنا رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَسْتَحمِلُه، فحَلَفَ ألَّا يَحمِلَنا، فحَمَلَنا! فقال أبو مُوسَى: فأتَيْنا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فذَكَرْنا ذلكَ له، فقال: ما أنا حَمَلْتُكم، بَلِ اللَّهُ حَمَلَكم، إنِّي واللَّهِ -إنْ شاءَ اللَّهُ- لا أحْلِفُ على يَمِينٍ، فأرَى غيرَها خَيرًا مِنْها، إلَّا كَفَّرْتُ عن يَمِيني، وأتَيْتُ الذي هو خَيرٌ))(١).

(١) أخرجه البخاري (٦٧١٨) واللفظ له، ومسلم (١٦٤٩).

في الآيةِ الكريمةِ يَنهى اللهُ تعالى عِبادَه عن جَعْلِ الحَلِفِ به سُبحانه حُجَّةً تَمنَعُهم مِن القيامِ بفِعل الخيراتِ، كَبِرِّ الوالدينِ وذَوِي القُربى، أو تَمنَعُهم مِن تَحقيقِ التَّقوى بامتثالِ ما أمَرَ اللهُ تعالى به، واجتنابِ ما نهى عنه، أو تَمنَعُهم مِن السَّعيِ في الإصلاحِ بيْن النَّاسِ بالمعروفِ، وذلك كأنْ يَحلِفَ امرُؤٌ باللهِ تعالى على ألَّا يَصِلَ رحِمَه، فإذا طُلِبَ منه أنْ يَفعَلَ ما أمَرَ اللهُ تعالى به مِن صِلة الرَّحِمِ، قال: قد حلَفْتُ ألَّا أفعَلَ ذلك، فيَجعَلُ الحَلِفَ باللهِ عزَّ وجلَّ حُجَّةً يَتقوَّى بها على تَرْكِ الخيراتِ، فنَهى اللهُ تعالى عِبادَه عن ذلك، فإذا حلَفَ أحدُهم فليس له الامتناعُ مِن فِعلِ الخيرِ، والتَّعلُّلُ باليَمينِ، بل عليه أنْ يَحنَثَ، ويُكفِّرَ عن يمينِه، ويأتيَ الذي هو خَيرٌ.

وفي حَديثِ أبي مُوسى الأشْعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك؛ فيحْكي الصَّحابيُّ الجليلُ أبو مُوسى الأشْعريُّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه أتَى رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في رَهطٍ مِن قَومِه الأشْعريِّينَ، وهُم قَبيلةٌ مِن أهْلِ اليَمَنِ، والرَّهْطُ هو العددُ مِن الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ، وقِيل غيرُ ذلك، يَطلُبونَ من رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يَحمِلُهُم ويَحمِلُ أثْقالَهُم مِن الإبِلِ والدَّوابِّ، فحلَفَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا يَحمِلَهُم، بمَعْنى: ألَّا يُعطِيَهم؛ وذلِك لأنَّه لم يكُنْ عندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يَحمِلُهم عليه، وفي رِوايةِ الصَّحيحِ: ((أتَيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في نَفَرٍ مِن الأشْعريِّينَ، فوافَقْتُه وهو غَضْبانُ، وهو يَقسِمُ نَعَمًا مِن نَعَمِ الصَّدَقةِ))[1]، ثُم أُتِيَ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإبِلٍ، فأمَرَ لأبي مُوسى ومَن معه «بثَلاثَةِ ذَوْدٍ»، والذَّودُ: يُطلَقُ على القَطيعِ مِن الإبِلِ بيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ، فقَولُهُ: «بثَلاثَةِ ذَوْدٍ»، المُرادُ به أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمَرَ لهم بثَلاثةِ إبِلٍ، فلمَّا انطَلَقوا بعطيَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لهم تَذاكَروا يَمينَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بألَّا

(١) أخرجه البخاري (٦٧٢١).



يَحمِلَهُم، فظنُّوا أنْ يكونَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نسِيَ يَمينَه، فخافوا أنْ إذا تَجاهَلوا يَمينَ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأخَذوا الإبِلَ ومضَوْا؛ ألَّا يُبارَكَ لهم، ويُنزِلَ اللهُ بهم عِقابًا، فرَجَعوا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وذكَّروهُ بيَمينِهِ، فأجابَهُم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقَولِهِ: «ما أنا حَمَلْتُكم، بَلِ اللَّهُ حَمَلَكم»، ومَعْناه: أنَّ اللهَ تَعالى آتاني ما حَمَلتُكم عليه، ولولا ذلِكَ لم يكُن عِندي ما أحمِلُكُم عليه، ويَجوزُ أنْ يكونَ المَعْنى: أُوحِيَ إليه مِن اللهِ أنْ يَحمِلَهم، أوْ يكونَ المُرادُ دُخولَهُم في عُمومِ مَن أمَرَ اللهُ تَعالى بالقَسْمِ فيهم؛ ثُمَّ ذكَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ طَريقةَ تعامُلِهِ معَ اليَمينِ إذا رأى غَيرَها خيرًا منها: «إنِّي واللَّهِ -إنْ شاءَ اللَّهُ- لا أحْلِفُ على يَمِينٍ، فأرَى غَيرَها خَيرًا مِنْها، إلَّا كَفَّرْتُ عن يَمِيني، وأتَيتُ الذي هو خَيرٌ»، وهذا القَولُ من رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِيُعلِّمَ أُمَّتَه، وكفَّارةُ اليَمينِ التي قصَدَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هي المَعْقودةُ وفيها عزمٌ مِن صاحِبِها، وقد وَرَدَتْ كفَّارةُ اليَمينِ في قَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

حُكمُ النَّذْرِ

عن عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((نَهَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَنِ النَّذْرِ، وقال: إنَّه لا يَرُدُّ شَيئًا، ولكِنَّهُ يُسْتخرَجُ به مِن البَخِيلِ))(١).



النَّذْرُ هو إيجابُ المرْءِ فِعلَ أمْرٍ على نَفْسِه لم يُلزِمْه به الشَّارعُ، كأنْ يقولَ الإنسانُ: علَيَّ ذَبيحةٌ، أو أتصدَّقُ بكذا إنْ شفَى اللهُ مَريضي؛ فهو في صُورةِ الشَّرطِ على اللهِ عزَّ

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠٨) واللفظ له، ومسلم (١٦٣٩).



وجلَّ، وفي هذا الحديث تَصريحٌ بالنَّهيِ عن النَّذرِ ابتداءً؛ حيثُ يُخبِرُ ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نهاهُم عن النَّذْرِ ابتداءً، وأخْبَرَ أنَّ النَّذرَ لا يُقدِّمُ شيئًا ولا يُؤخِّرُه، بلِ الخَيرُ والشَّرُّ يَجْري وَفْقَ مَقاديرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فالمَقدورُ لا يَتغيَّرُ مِن شَرٍّ إلى خَيرٍ بسَبَبِ النَّذرِ، ويُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ النَّذرَ يُستخرَجُ به الخَيرُ مِن البَخيلِ والشَّحيحِ؛ فهو أشبَهُ بإلْزامِ البَخيلِ بإخراجِ شَيءٍ لم يكُنْ يُريدُ أنْ يُخرِجَه من تِلْقاءِ نَفْسِه؛ فالمعنى: أطِيعوا اللهَ ابتِداءً وطَواعِيةً، ولا تَطْلُبوا للطاعةِ مُقابِلًا، فعادةُ الناسِ تَعليقُ النُّذورِ على حُصولِ المَنافِعِ ودَفْعِ المَضارِّ؛ فنَهَى عنه؛ فإنَّ ذلك فِعلُ البَخيلِ؛ إذِ لا يأتي بهذه القُربةِ تطوُّعًا ابتداءً، بل في مُقابَلةٍ بنَحوِ شِفاءِ مَريضٍ ممَّا علَّقَ النَّذرَ عليه، وأمَّا السَّخيُّ الكريمُ فإذا أرادَ أنْ يَتقرَّبَ إلى اللهِ تَعالى استَعجَلَ فيه وأتَى به في الحالِ؛ فشَأنُ الكَريمِ أنْ يُبادِرَ بالعَطاءِ، وأنْ يُسابِقَ إلى فِعلِ الخَيرِ؛ طلبًا لِمَرضاةِ اللهِ، والبَخيلُ لا تُطاوِعُه نَفْسُه بإخْراجِ شَيءٍ مِن يَدِه إلَّا في مُقابَلةِ عِوَضٍ يُستوْفى أوَّلًا!

والنَّهيُ عن النَّذرِ في الحديثِ تَأْكيدٌ لأمْرِه وتَحذيرٌ مِن التَّهاوُنِ به بعدَ إيجابِه، وأيضًا فيه الحضُّ على التَّقليلِ منه؛ لأنَّ الإنَسانَ قد يقَعُ في حَرَجِ عَدَمِ الوَفاءِ به، والنَّذرُ كذلِك يَجعَلُ العِبادةَ ثَقيلَةً على صاحِبِها. ولا يَعْني النَّهيُ عنِ النَّذرِ هُنا أنَّ مَن نَذَرَ لا يُوفِي بنَذرِهِ، بل إذا نذَرَ فيَجِبُ الوفاءُ به إذا كان طاعةً وإذا كان مُستَطاعًا.

الوَفاءُ بالنَّذْرِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧].

وعن عائِشةَ أُمِّ المُؤمِنينَ رَضِيَ اللهُ عنها، عنِ النَّبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن نَذَرَ أنْ يُطيعَ اللهَ فلْيُطِعْهُ، ومَن نَذَرَ أنْ يَعْصِيَه فلا يَعْصِه))[1].

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).



مدَحَ اللهُ في كِتابِهِ العزيزِ -كما في الآيةِ المذكورةِ- عِبادَهُ الأبْرارَ المُوفينَ بنُذورِهم، ووَعَدَهم على ذلِكَ الأجْرَ والمَثوبةَ، وفي حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها يَأمُرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالوَفاءِ بنَذرِ الطَّاعةِ، وعَدَمِ الوَفاءِ بنَذرِ المعصيةِ؛ فيقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «مَن نَذَرَ أنْ يُطِيعَ اللَّهَ فلْيُطِعْه»، ونَذرُ الطَّاعةِ: أنْ يَنذِرَ الإنسانُ أن يُصلِّيَ، أو يَصومَ، أو يتصَدَّقَ، أو يَحُجَّ أو يَعتَمِرَ، وسواءٌ كان مُعَلَّقًا على شَرطٍ أو غيرَ مُعَلَّقٍ، فمِثلُ هذا يُوفي صاحِبُه به إنْ قدَرَ عليه، وإنْ عجَزَ عنِ الوَفاءِ بنَذرِهِ في الطَّاعةِ وجَبَ عليه كفَّارةُ يَمينٍ، كما قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: (النُّذورُ أربعةٌ: مَن نَذَر نَذْرًا لم يُسَمِّه، فكَفَّارتُه كفَّارةُ يَمينٍ، ومَن نَذَر في مَعصيةٍ، فكفَّارتُه كَفَّارةُ يَمينٍ، ومَن نَذَر نَذْرًا فيما لا يُطيقُ، فكَفَّارتُه كَفَّارةُ يَمينٍ، ومَن نَذَر نَذْرًا فيما يُطيقُ، فلْيُوفِ بنَذْرِه)[1]، وأمَّا نَذرُ المعصيةِ: فهو كأنْ يَنذِرَ أنْ يَفعَلَ مَعصيةً مِن المعاصي؛ كالزِّنا، أو شُربِ الخَمرِ، أو السَّرِقةِ، أو أكْلِ مالِ يتيمٍ، أو إنكارِ حقِّ أحَدٍ، فمِثلُهُ يَحرُمُ الوفاءُ به، وكفَّارتُه كَفَّارةُ يَمينٍ، كما في أثَرِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما.



(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٣١٣).
صحَّح وَقْفَه أبو حاتم الرازي وأبو زرعة -كما في ((العلل)) لابن أبي حاتم (٤/ ١٥٢)، والألباني في ((ضعيف سنن ابن ماجه)) (٢١٢٨)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٣٢٢).

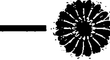
البُيوعُ

طَلَبُ الحَلالِ وتجَنُّبُ الحَرامِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وعنِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ -وأهْوَى النُّعْمانُ بإصْبعَيهِ إلى أُذُنيهِ-: ((إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وبيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعلَمُهنَّ كَثيرٌ مِن النَّاسِ، فمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ اسْتَبرَأَ لِدِينِه وعِرْضِه، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعِي يَرْعَى حَولَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يَرتَعَ فِيه، ألَا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألَا وإنَّ حِمَى اللهِ مَحارِمُه، ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، ألَا وهي القَلْبُ))[1].



أباح اللهُ تعالى لعِبادِه الأكلَ مِن جَميعِ ما في الأرضِ مِن نَباتاتٍ أو حَيواناتٍ، ما دام حلالًا طاهِرًا لا ضررَ فيه، كما أخبرَ اللهُ تعالى **في الآيةِ الأُولى**.

وفي الآيةِ الثَّانيةِ يُقَرِّرُ تعالى أنَّه لا يَستوي الخبيثُ والطيِّبُ مِن كلِّ شَيءٍ، كالحَلالِ والحرامِ؛ فلا يَنْبغي الإعجابُ بكثْرةِ الخبيثِ، فالقليلُ الحلالُ النافِعُ خيرٌ مِن الكثيرِ الحرامِ الضارِّ، ومَن رُزِقَ قَلبًا نَقيًّا حمَلَه قَلبُه على الاستجابةِ لمُرادِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ومِن ثَمَّ حازَ النَّجاحَ والفلاحَ والسَّعادةَ في الدُّنيا والآخرةِ.

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) واللفظ له.



وحديثُ **النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما** هو أحدُ الأحاديثِ التي عليها مَدارُ الإسلامِ؛ فهو حَديثٌ عظيمٌ، وأصلٌ مِن أُصولِ الشَّريعةِ، وهو مِن جَوامعِ كَلِمِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قسَّم فيه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأحكامَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: الأوَّلُ: حلالٌ بيِّنٌ كلٌّ يَعرِفُه. والثاني: حَرامٌ بيِّنٌ كلٌّ يَعرِفُه، فلا يَختَلِطانِ على أحَدٍ، والقسمُ الثالثُ: يَشتَبِهُ على النَّاسِ أحكامُه، وهي: الأمورُ التي تكونُ غيرَ واضحةِ الحُكمِ مِن حيث الحِلُّ والحُرمةُ، فلا يَعلَمُ الكثيرون هل هي حلالٌ أم حَرامٌ، ويَدخُلُ في ذلك جميعُ الأمورِ المشكوكِ فيها؛ فبَيَّن صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن اشتبَه عليه حُكمٌ فعليه أنْ يَتورَّعَ عن الإقدامِ عليه، وأنَّ مَن اجتَنَبها فقد طلَبَ البَراءةَ لنفسِه، فيَسلَمُ له دِينُه مِن النَّقصِ، وعِرضُه مِن القَدْحِ والذَّمِّ والسُّمعةِ السَّيِّئةِ، أمَّا مَن وقَعَ في الشُّبهاتِ واجتَرَأَ عليها، فقد عرَّضَ نفْسَه للخطَرِ، وأوشَكَ على الوقوعِ في الحرامِ، أو وقَعَ في الحرامِ فِعلًا وهو لا يَدْري. ومِثالُ ذلك: راعٍ يَرعَى حولَ الحِمَى -وهو: المكانُ الذي جعَلَه الملِكُ لرَعْيِ مَواشيه، وتوعَّدَ مَن رعى فيه بغَيرِ إذنِه بالعُقوبةِ الشَّديدةِ-، فالرَّاعي حولَ الأرضِ التي حَماها الملِكُ لنفسِه، وجعَلَها خاصَّةً له، قد تَدخُلُ ماشيتُه في الحِمى؛ فيَستحِقُّ العُقوبةَ، كذلك مَن يَتهاوَنُ في الشُّبهاتِ فإنَّه على خَطَرٍ؛ لأنَّها ربَّما كانت حَرامًا، فيقَعُ فيها، وربَّما تَساهَلَ في الشُّبهاتِ فأدَّى به ذلك إلى الاستهتارِ واللَّامبالاةِ، فيَقَعُ في الحرامِ عَمدًا؛ فإنَّ الشُّبهةَ تجُرُّ إلى الصَّغيرةِ، والصَّغيرةَ تجُرُّ إلى الكبيرةِ. نَسأَلُ اللهَ السَّلامةَ.

ثمَّ بيَّن صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ حِمَى اللهِ هي المعاصي التي حرَّمَها على عِبادِه، فمَن دخَل حِماه بارتكابِ شَيءٍ مِن المعاصي هلَكَ، ومَن قارَبَه بفِعلِ الشُّبهاتِ كان على خطَرٍ.

وختَمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الحديثَ ببَيانِ أنَّ القَلبَ هو أهمُّ عُضوٍ في جسَدِ الإنسانِ، وعليه مَدارُ سَعادتِه وشَقائِه على صِغَرِ جِرْمِه، فيقولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ:



«ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغةً إذا صَلَحَت صَلَح الجسَدُ كلُّه، وإذا فسَدَت فسَدَ الجسَدُ كلُّه، ألَا وهي القلْبُ»، فهذه كَلمةٌ جامعةٌ لصَلاحِ حَرَكاتِ بَني آدَمَ وفَسادِها، وأنَّ ذلك كلَّه بحسَبِ صَلاحِ القلْبِ وفَسادِه، فإذا صلَحَ القلبُ صلَحَت إرادتُه، وصلَحَت جميعُ الجوارحِ، فلمْ تَنبعِثْ إلَّا إلى طاعةِ اللهِ، واجتنابِ سَخَطِه، فقنِعَتْ بالحلالِ عن الحَرامِ، وإذا فسَدَ القلبُ فسَدَت إرادتُه، ففسَدَتِ الجوارحُ كلُّها، وانبعَثَتْ في مَعاصي اللهِ عزَّ وجلَّ، وما فيه سَخَطُه، ولم تَقنَعْ بالحلالِ، بل أسرَعَتْ في الحرامِ بحسَبِ هَوى القلْبِ ومَيلِه عنِ الحقِّ.

دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك

عن أبي الحَوراءِ السَّعديِّ، قال: قلتُ للحَسَنِ بنِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهما: ما حَفِظتَ مِن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ؟ قال: حَفِظتُ منه: ((دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك))(1).

هذا الحديثِ يُعدُّ مِن جَوامِعِ كَلِمِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وفيه يَأمُرُ المؤمِنَ بأنْ يدَعَ ما يَرِيبُه إلى ما لا يَرِيبُه، والمعنى: دَعْ ما لا تَطمَئِنُّ إليه، وتَشُكُّ فيه ولا تَرتاحُ إليه مِن الأقوالِ والأعمالِ، إلى الشَّيءِ الذي تَرتاحُ وتَطمَئِنُّ نَفسُك إليه؛ لأنَّك بذلك تَسلَمُ وتَغنَمُ؛ لكونِك تَركْتَ ما فيه رِيبةٌ وشَكٌّ وعدَمُ ارتياحٍ.

فالعَبدُ تَرِدُ عليه شُكوكٌ في أشياءَ كثيرةٍ، ويَصِفُ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(1) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، وأحمد (١٧٢٣) مطولًا، والنسائي (٥٧١١) واللفظ له.

قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحَه ابن حبان في ((الصحيح)) (٧٢٢)، وابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (١٤/ ٤٢)، والشوكاني في ((الفتح الرباني)) (٥/ ٢٣١٨)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥١٨)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٣٢٠).

الدَّواءَ النَّافِعَ، وهو تَرْكُ الشَّكِّ بتَرْكِ ما فيه الشَّكُّ؛ حتى تَستريحَ وتَسلَمَ، وهذا ما لم يَصِلْ إلى حَدِّ الوَسواسِ، فإنْ وَصَل إلى حدِّ الوَسواسِ فلا يُلتَفَتُ للشَّكِّ. وهذا يكونُ في العِباداتِ، ويكونُ في المعامَلاتِ، وغيرِ ذلك. وليس معنى هذا أنْ يَترُكَ الإنسانُ المأموراتِ إذا شَكَّ فيها، ويَفعَلَ المحرَّماتِ إذا اتَّسَقت مع مُرادِ نَفسِه.

وفي تَمامِ الرِّوايةِ عندَ التِّرمذيِّ: ((فإنَّ الصِّدقَ طُمأنينةٌ، وإنَّ الكَذِبَ رِيبةٌ))[1]، بمعنى: أنَّ الصِّدقَ والخيرَ والحقَّ يَسكُنُ إليه القلبُ ويَرْتاحُ به، وأنَّ غيرَ الحقِّ يَجعَلُ القلبَ مُضطرِبًا غيرَ مُطمئِنٍّ؛ نَتيجةَ الشَّكِّ الذي به، وفي هذا إشارةٌ إلى رُجوعِ المؤمنِ الصَّادقِ إلى قلْبِه عندَ الاشتِباهِ؛ لأنَّ قلْبَ المؤمنِ دَليلٌ له إلى الخيرِ، ومُبعِدٌ له عَن الشَّرِّ.

الصِّدقُ في البَيعِ، وعَدَمُ الكِتمانِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩].

وعن حَكيمِ بنِ حِزامٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((الْبَيِّعانِ بالخِيارِ ما لَمْ يَتَفرَّقا، فإنْ صَدَقا وبَيَّنا بُورِكَ لهما في بَيْعِهِما، وإنْ كَذَبا وكَتَما مُحِقَ بَرَكةُ بَيْعِهِما))[2].



مِن مُقتضى الإيمانِ تَجنُّبُ أكْلِ المالِ بالباطِلِ، وقد نَهى اللهُ تَبارَكَ وتعالَى عِبادَه المؤمنينَ عن أخْذِ بَعضِهم أموالَ بعضٍ بغيرِ حقٍّ بوَسائلِ الكَسْبِ المحرَّمةِ؛ كالرِّبا

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٨) وهو جزءٌ مِن الحديثِ المتقدِّمِ تخريجُه.

(٢) أخرجه البخاري (٢١١٠)، ومسلم (١٥٣٢) واللفظ له.



والقِمارِ، وغيرِ ذلك مِن الأُمورِ التي نَهى اللهُ عزَّ وجلَّ عنها، ولكِنْ إن كان هذا المالُ الذي يَأخُذُه بعضُهم مِن بَعضٍ بسَببِ تِجارةٍ مَشروعةٍ صادرةٍ عن رِضًا بيْن المتبايِعَيْنِ منهم؛ فذلك حلالٌ لهم، **كما في هذه الآيةِ الكريمةِ.**

وفي حَديثِ حَكيمِ بنِ حِزامٍ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «البَيِّعانِ بالخيارِ ما لم يَتفرَّقَا»، ومَعْناهُ: أنَّ البائِعَ والمُشتريَ يَحِلُّ لكلٍّ واحدٍ منهما فَسْخُ العقدِ ما لم يَتفرَّقَا بِأبْدانِهما عن مَكانِهما الذي تَبايَعا فيه، والمرادُ بالخيارِ هنا: خيارُ المجلِسِ، أي: مَكانُ العَقْدِ، «فإنْ صَدَقَا» بأنْ: صدَقَ كلٌّ واحدٍ منهما فيما يَتعلَّقُ به مِن الثَّمَنِ ووصْفِ الْمَبيعِ ونحْوِ ذلِكَ، «وبَيَّنا» ما يُحتاجُ إلى بَيانِه مِن عَيبٍ ونحوِه في السِّلعةِ والثَّمَنِ، «بُورِكَ لهما في بَيعِهما»، يَعْني: كثُرَ نفْعُ الْمَبيعِ والثَّمَنِ، «وإنْ كَتَما» بأنْ كَتمَ البائعُ عَيبَ السِّلعةِ والمُشتري عَيبَ الثَّمَنِ، «وكذَبَا» في وصْفِ السِّلعةِ والثَّمنِ، «مُحِقَتْ بَرَكةُ بَيعِهما» بأنْ أُذْهبَتْ زِيادتُه ونَماؤُه وضاعَ خَيرُه.

الحَلِفُ في البَيعِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((الحَلِفُ مَنفَقَةٌ لِلسِّلعةِ، مَمْحَقةٌ للبَرَكةِ))[1].



شَأنُ الحَلِفِ والأَيْمانِ عظيمٌ، وقد أمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بحِفظِها، وكثيرًا ما يَتساهَلُ التُّجَّارُ في إطلاقِ الأيْمانِ أثْناءَ البَيعِ والشِّراءِ، وفي هذا الحَديثِ يُحذِّرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الحَلِفِ في البَيعِ لِغَيرِ ضَرورةٍ، ويُحَذِّرُ مِن اليَمينِ الكاذبةِ، وقد بَيَّن أنَّ الحَلِفَ «مَنْفَقةٌ للسِّلعةِ»، يعني أنَّه قد يَتسبَّبُ في رَواجِ السِّلْعةِ وبَيعِها بسِعرٍ جَيِّدٍ، لكنَّ

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٧) واللفظ له، ومسلم (١٦٠٦).



نَتيجتَه «مَمْحَقةٌ للبَرَكةِ»: يَذهَبُ ببَركةِ الرِّزْقِ الذي تَحصَّلَ مِن بَيعِهِ بالحَلِفِ الكاذِبِ.

أُمورٌ مَنهِيٌّ عنها في البَيعِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يُتَلَقَّى الرُّكْبانُ لِبَيْعٍ، ولا يَبِعْ بَعْضُكم على بَيعِ بَعْضٍ، ولا تَناجَشُوا، ولا يَبِعْ حاضِرٌ لِبادٍ، ولا تُصَرُّوا الإبِلَ والغَنَمَ، فمَنِ ابْتاعَها بعْدَ ذلك فهو بخَيرِ النَّظَرَينِ بَعْدَ أنْ يَحْلُبَها، فإنْ رَضِيَها أمْسَكَها، وإنْ سَخِطَها رَدَّها وصَاعًا مِن تَمْرٍ))(1).



نَهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا الحَديثِ عن بَعضِ المُعاملاتِ التي يَترتَّبُ عليها الغِشُّ والخِداعُ في البُيوعِ، وتُؤدِّي إلى الضَّررِ بالبائِعِ أو المُشتري؛ فقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لا يُتَلَقَّى الرُّكبانَ»، يَعنِي: لا تَستَقبِلوا الَّذين يَحمِلون بَضائِعَهم إلى بلدٍ ما ليَبيعُوا، فتَشترُوا مِنهم قبلَ قُدومِهم إلى الأسواقِ ومَعرفَةِ أسعارِها؛ لأنَّ هذا يَضُرُّ بالبائعِ؛ لأنَّهم قد يَشترُون منه بأَقلَّ من سِعرِها المعروفِ، وقد يَضُرُّ بأهلِ البَلدِ؛ لأنَّهم قد يَزيدونَ في ثَمنِها عليهم، «ولا يَبِعْ بَعضُكم على بَيْعِ بعضٍ»؛ وذلِكَ بأنْ يَقولَ لِمَنِ اشتَرى سِلعَةً في زَمَنِ الخيارِ: افْسَخْ؛ لأَبيعَك خيرًا منه بمِثْلِ ثَمنِه أو مِثلَه بأَنقصَ، وكذا الشِّراءُ على شِرائِه؛ بأنْ يقولَ للبائعِ: افْسَخْ؛ لأَشتَرِيَ منك بأَزْيَدَ. وقَولُه: «ولا تَنَاجَشُوا»، النَّجْشُ هو: أنْ يَزيدَ في ثَمَنِ السِّلعةِ مَن لا يُريدُ شِراءَها، إمَّا لنفْعِ البائعِ لزِيادةِ الثَّمَنِ له، أو بإضرارِ المُشتري بتكثيرِ الثَّمَنِ عليه، وهُو مِن الخِداعِ في البَيعِ والشِّراءِ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ نهَى عنه. وقَولُه: «ولا تُصَرُّوا الغَنَمَ»، بمَعْنى: لا تَترُكوا حَلْبَها أَيَّامًا حتى يَمتلِئَ ضَرعُها، فيَظُنَّ المُشتري أنَّها حَلوبٌ كثيرةُ اللَّبنِ، «ومَنِ ابْتاعَها فهو بخَيْرِ النَّظَرينِ بَعدَ أن يَحتَلِبَها؛ إنْ رَضِيها أمْسَكَها، وإنْ سَخِطَها رَدَّها

(1) أخرجه البخاري (٢١٥٠)، ومسلم (١٥١٥) واللفظ له.

وصاعًا مِن تَمْرٍ»، يَعنِي: أنَّ مَن اشتَراها وحَلَبَها، ثُمَّ اكتشَفَ أنَّ البائعَ خدَعَه؛ فهو مُخيَّرٌ بيْنَ شَيئينِ: أنْ يَقبَلَ بها ويُمضِيَ البَيعَ، أو يَرُدَّها على البائعِ الذي خَدَعَه، ومعها صاعٌ مِن تَمْرٍ بدَلًا مِن اللَّبنِ الذي حَلَبَه منها.

التغليظُ في تحريمِ الرِّبا

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٨٠].

وعنْ جابرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللهُ عنهُما، قال: ((لعَنَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ آكِلَ الرِّبا، ومُؤكِلَهُ، وكاتِبَهُ، وشاهِدَيهِ. وقال: هُم سواءٌ))(١).

الرِّبا مُحرَّمٌ في شَريعةِ الإسلامِ، بل مِن الكَبائرِ والمُوبقاتِ، وقدْ كان مُحرَّمًا أيضًا في جَميعِ الشَّرائعِ السابِقةِ؛ لِمَا فيه مِن مَفاسِدَ وأضرارٍ اجتماعيَّةٍ واقتِصاديَّةٍ، **وفي هذه الآياتِ الكريماتِ** جُملةٌ مِن الأمورِ التي تدُلُّ على عِظَمِ هذا الذَّنبِ عندَ اللهِ تعالى:

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٨).



منها: أنَّ الذين يَأْخُذونَ الرِّبا، فيَنتفِعونَ به بأيِّ وَجهٍ مِن وُجوهِ الانتِفاعِ؛ إنَّما يَقومونَ في الآخِرةِ مِن قُبورِهم -لبَعْثِهم ونُشُورِهم- كهَيئةِ المَصروعِ الذي أصابَهُ الشَّيطانُ بالجنونِ؛ لأنَّهم كانوا في الدُّنيا مُعترِضينَ على أحكامِ اللهِ تعالى في شَرْعِه، فيَقولون: إنَّما البيعُ الذي أحلَّه اللهُ لعِبادِه مِثْلُ الرِّبا؛ فمَا الفَرقُ بينهما، وكلاهما وسيلةٌ للتَّكسُّبِ، فلِمَ حُرِّم هذا وأُبيحَ هذا؟!

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى يُذهِبُ مَكاسِبَ الرِّبا بالكُليَّةِ مِن يَدِ صاحِبِها، أو يَحرِمُه بَرَكتَها؛ فلا يَنتفِعُ بها، بل يُعذِّبُه بها في الدُّنيا، ويُعاقِبُه عليها يومَ القِيامةِ.

ومنها: تَحذيرُه سُبحانَه للمُستَمِرِّين على تَعاطي الرِّبا بعدَ إنذارِهم؛ فهم مُتوعَّدون بحَربٍ مِن اللهِ تعالى ومِن رسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّهم نَبَذوا ما جاءهُم به رَسولُه عنه.

وفي الحديثِ المذكورِ يُخبِرُ جابرٌ رضِيُ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَعنَ «آكِلَ الرِّبَا، ومُؤكِلَهُ، وكاتِبَهُ، وشاهِدَيهِ»؛ ومَعْناهُ: الدُّعاءُ عليهم بالإبعادِ والطَّردِ مِن رَحمةِ اللهِ تعالَى. وآكِلُ الرِّبا: هو الذي يَأخُذُه، سواءٌ استعمَلَه في أكْلٍ أو لِباسٍ، أو مَركوبٍ أو فِراشٍ، أو مَسكنٍ، أو غيرِ ذلِك، وإنَّما خُصَّ بالأكْلِ؛ لأنَّه أعظَمُ أنواعِ الانتِفاعِ. ومُؤْكِلُه: هو مُعطِي الرِّبا، وهو مَظلومٌ؛ لأنَّ آخِذَ الرِّبا ظالمٌ له، ومع ذلك كان مَلعونًا أيضًا على لِسانِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه أعانَه على الإثمِ والعُدوانِ. وكاتِبُه: الذي يَكتُبُ عَقْدَ الرِّبَا بيْن الآكلِ والمُؤكِلِ. وشاهِداهُ: هما اللَّذانِ يَشهَدانِ على عَقْدِ الرِّبا. وقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «هُم سواءٌ»، أي: في استِحقاقِ اللَّعنةِ والإثمِ، وإنَّما سوَّى بيْن آكِلِ الرِّبا ومُؤكلِه؛ لأنَّه لا يَتوصَّلُ إلى أكْلِه إلَّا بمُعاونتِه ومُشاركتِه إيَّاه، ودخَلَ الكاتِبُ والشَّاهدانِ في اللَّعنِ أيضًا؛ لمَعونتِهم على هذه المعصيةِ ومُشاركتِهم فيها، فقامُوا على أمْرٍ فيه نفْسُ الحُرمةِ، وساعَدوا على إتْمامِه؛ فهُم في الإثْمِ سواءٌ،

وهذا الإثمُ يَلْحَقُ الكاتِبَ والشاهدَينِ إذا عَلِمَا بالرِّبا وقَصَدَاه، فأمَّا مَن كتَبَ أو شَهِدَ غيرَ عالمٍ فلا يَدخُلُ في الوَعيدِ.

والحديثُ فيه تَصريحٌ بتَحريمِ كِتابةِ الرِّبا والشَّهادةِ عليه، وفيه أيضًا تَحريمُ الإعانةِ على الباطِلِ؛ فعلى المسلمِ أنْ يَحذَرَ مِن التَّعامُلِ بالرِّبا بأيِّ صُورةٍ مِن الصُّوَرِ، ومِن ذلك التعامُلُ مع البُنوكِ الرِّبويَّةِ، وأنْ يَتوبَ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ ويَتخَلَّصَ مِن هذا المالِ الحرامِ بإخراجِه في المنافِعِ العامَّةِ للمُسلِمينَ.

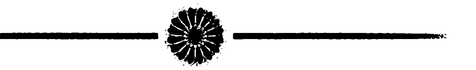
مَطْلُ الغَنيِّ ظُلمٌ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ، وإذا أُتبِعَ أحَدُكُمْ على مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ))(١).



أمَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالَى بأداءِ الحُقوقِ، وحذَّر مِن أكْلِ أموالِ النَّاسِ بِالباطِلِ؛ فذلك ظُلمٌ، واللهُ تعالى لا يُحِبُّ الظَّالِمينَ، كما أخبر في الآيةِ الكريمةِ، وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُخْبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَطْلَ الغنيِّ ظُلمٌ، والمَطْلُ: هو التَّسويفُ والتَّأخيرُ في قَضاءِ الدَّينِ، فإذا مَاطَلَ الغنيُّ فهذا يُعدُّ ظُلمًا؛ لأنَّه قادِرٌ على السَّدادِ ورَدِّ المالِ، ثُمَّ قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فإذا أُتْبِعَ أحدُكُم على مَلِيءٍ فَلْيَتْبعْ»، والمَلِيءُ: الغنيُّ، والمَعْنى: أنَّه إذا كان لِأحدٍ دَينٌ على أحدٍ، وأحالَ المَدينُ الدَّائنَ على رَجلٍ غنيٍّ ليَقْضِيَ عنه دَينَه؛ فَلْيُوافِقِ الدائنُ، ولْيقبَلْ هذه الحَوالةَ.



(١) أخرجه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤) واللفظ له.



الوَقْفُ والوَصيةُ والنفَقةُ

الوَقْفُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: أصابَ عُمَرُ بخَيبرَ أرْضًا، فأتَى النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالَ: أصَبْتُ أرْضًا لمْ أُصِبْ مالًا قَطُّ أنْفَسَ منه، فَكيفَ تَأمُرُني بهِ؟ قالَ: ((إنْ شِئْتَ حَبَّسْتَ أصْلَها وتَصَدَّقْتَ بها، فتَصَدَّقَ عُمَرُ أنَّه لا يُباعُ أصْلُها، ولا يُوهَبُ، ولا يُورَثُ؛ في الفُقراءِ والقُرْبَى والرِّقابِ، وفي سَبيلِ اللَّهِ، والضَّيفِ وابْنِ السَّبيلِ، لا جُناحَ على مَن ولِيَها أنْ يَأكُلَ مِنها بالمَعروفِ، أو يُطْعِمَ صَدِيقًا، غيرَ مُتَمَوِّلٍ فِيهِ))[1].



حثَّ الإسلامُ على الصَّدَقةِ والإنْفاقِ في سائرِ أوجُهِ الخَيرِ والبِرِّ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى بالمبادَرةِ إلى ذلك مِن قَبلِ نُزولِ أسبابِ الموتِ بالإنسانِ، فحِينهَا يَندَمُ المُقَصِّرُ، ويَتحَسَّرُ المفرِّطُ طالبًا مِن رَبِّه عندَ احتضارِه أنْ يُمهِلَه، فيُؤَخِّرَ مَوتَه لزمَنٍ يَسيرٍ فحَسْبُ؛ حتى يَتمكَّنَ مِن التصدُّقِ للهِ تعالَى، والعَمَلِ بطاعتِهِ، ولكِنَّ اللهَ قدْ قَضى بأنَّه لنْ يُؤخِّرَ أجَلَ أيِّ أحدٍ فيَزيدَ في عُمُرِه إذا حَضَر وَقتُ مَوتِه، **كما دلَّت على ذلك الآيةُ المذكورةُ**.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٧٢) واللفظ له، ومسلم (١٦٣٢).



وخَيرُ الصَّدَقةِ ما اشتدَّتِ الحاجةُ إليها، ودامَ نَفعُها، والوَقفُ بابٌ مِن أفضَلِ أبْوابِ الصَّدَقاتِ التي حثَّ عليها الإسلامُ؛ حيثُ إنَّه يَستمِرُّ خَيرُهُ ويَدومُ عَطاؤُهُ ما بَقِي الأصْلُ الموقوفُ، فهو مِن الصَّدَقاتِ الجاريةِ يَنتفِعُ بأجْرِها الواقِفُ، ويَنتفِعُ بثَمَرتِها الموقوفُ عليهم، **وفي حَديثِ عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما** حثٌّ على الوَقفِ ودَعْوةٌ إليه؛ حيثُ نالَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه أرضًا بخَيبَرَ، فأتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستأمِرُه، بمَعْنى: يَستشِيرُه فيها، فقال: يا رَسولَ الله، إنِّي أَصبتُ أرضًا بخَيبَرَ، وكانتْ تُسمَّى ثَمْغًا، «لَمْ أُصِبْ مالًا قَطُّ أنْفَسَ منه»، والمَعْنى: أنِّي لم أحصُلْ على مالٍ أجوَدَ عِندي منه، «فَكيفَ تَأمُرُنِي بهِ؟» فأشارَ عليه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَجعَلَها وَقْفًا للهِ، ويُنفِقَ رَيعَها في أوجُهِ الخَيرِ، قال: فتَصَدَّقَ بها عُمرُ رضِيَ اللهُ عنه، وشرَطَ في وَقفِها: «أنَّه لا يُباعُ أصلُها، ولا يُوهَبُ، ولا يُورَثُ»، وتَصدَّقَ بها على الفُقراءِ وفي القُربى -وهُمُ القَرابةُ في الرَّحِم-، وفي فكِّ الرِّقابِ، وهُم المُكاتَبونَ؛ بأنْ يُدفَعَ إليهم شَيءٌ مِن الوقفِ تُفَكُّ به رِقابُهم مِن الرِّقِّ، وفي سَبيلِ اللهِ، أي: في الجِهادِ، وابنِ السَّبيلِ: الذي له مالٌ في بلْدةٍ لا يَصِلُ إليها، والضَّيفِ. «ولا جُناحَ على مَن ولِيَها أنْ يَأْكُلَ مِنْها بالمَعروفِ، أوْ يُطْعِمَ صَدِيقًا، غيرَ مُتَمَوِّلٍ فِيهِ»، والمَعْنى: لا إثمَ على مَن قام بشُؤونِها أنْ يأكُلَ مِن رَيعِها بالمعروفِ، بحسَبِ ما يَحتمِلُ رَيعُ الوقفِ وعلى الوجهِ المُعتادِ، وله أنْ يُطعِمَ غيرَه غيرَ مُتَمَوِّلٍ. ويُرْوى: غيرَ متأثِّلٍ مالًا، والمَعْنى: يَأكُلُ بالمَعْروفِ ويُطعِمُ غَيرَهُ على قَدْرِ حاجَتِهِ، غَيرَ جامِعٍ منه مالًا.

الوَصيَّةُ

عن عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما حَقُّ امْرِئٍ مُسلِمٍ له شَيءٌ يُرِيدُ أنْ يُوصِيَ فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ؛ إلَّا ووَصِيَّتُهُ مَكتُوبةٌ



عِندَه))[1]. وفي روايةٍ: ((وَلَهُ شيءٌ يُوصِي فِيهِ))[2].



في هذا الحديثِ حثَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على المُبادرةِ بكِتابةِ الوَصيَّةِ قبْلَ مُباغتةِ الموتِ، مُبيِّنًا أنَّه لا يَنْبغي للمُسلِمِ أن يَكونَ له شَيءٌ مِن المالِ، أو نَحوِه مِن المَتاعِ، أو دَينٍ، أو أمانةٍ، أو حَقٍّ يُمكِنُ أنْ يُوصيَ به، أو يُريدَ أنْ يُوصِيَ فيه؛ أنْ تَمضيَ عليه لَيلتانِ أو أكثَرُ إلَّا ووَصِيَّتُه بهذا الشَّيءِ مَكتوبةٌ ومَحفوظةٌ عِندَه، وذكَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اللَّيلتَينِ؛ لِرَفعِ الحَرَجِ؛ لتَزاحُمِ أشْغالِ المَرءِ التي يَحتاجُ إلى ذِكرِها، ففسَّحَ له هذا القَدْرَ لِيتذكَّرَ ما يَحتاجُ إليه، وذِكرُ اليَومَينِ للتَّقريبِ وليس للتَّحديدِ؛ لاختِلافِ الرِّواياتِ فيه.

وجَماهيرُ أهلِ العِلمِ على استِحبابِ الوَصيَّةِ، إلَّا إذا كان على الإنسانِ دَينٌ أو حَقٌّ، أو عِندَه وَديعةٌ ونَحوُها، فيَلزَمُه الإيصاءُ بذلك.

الوَصيَّةُ بالثُّلُث

عن عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لوْ غَضَّ النَّاسُ إلى الرُّبُعِ؛ لأنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كَثيرٌ - أوْ كَبيرٌ))[3].



وَصيَّةُ الإنسانِ قَبلَ مَوتِهِ بابٌ من أبْوابِ الخَيرِ، حثَّ عليها الإسلامُ، وأمَرَ بها، وهِيَ واجِبةُ النَّفاذِ، والإسلامُ لم يُطلِقْ يدَ الإنسانِ في مالِهِ يُوصي فيه كَيفما شاءَ؛ فمنَعَ

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٤٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٩).

الزِّيادةَ في الوصيَّةِ عنِ الثُّلُثِ؛ حتى لا يضُرَّ بوَرَثتِه، وفي هذا الحَديثِ تَأْكيدٌ على المَنعِ مِن التَّجاوُزِ في الوصيَّةِ عنِ الثُّلُثِ، بل يَتمنَّى عبدُاللهِ بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنه لو نقَصَ النَّاسُ في الوصيَّةِ مِن الثُّلُثِ إلى الرُّبُعِ، قال: «لوْ غَضَّ الناسُ إلى الرُّبُعِ»، ويُعلِّلُ ما اختارَهُ مِن النُّقصانِ عنِ الثُّلُثِ بقَولِهِ: لأنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: «الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كَثيرٌ -أوْ كَبيرٌ»، وكأنَّ ابنَ عبَّاسٍ أخَذَ ذلِكَ مِن وَصفِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الثُّلُثَ بالكَثْرةِ، فما دامَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدِ استكثَرَ الثُّلُثَ في الوصيَّةِ، فالأفضَلُ النُّقصانُ إلى الرُّبُعِ.

وقد تكلَّمَ أهْلُ العِلمِ في هذه المَسألةِ فقالوا: إنَّ الثُّلُثَ في الوَصيَّةِ مَشْروعٌ، فإنْ كان وَرَثةُ الميِّتِ فُقَراءَ فالثُّلُثُ كَثيرٌ، واستُحِبَّ له أنْ يَنقُصَ منه، وإنْ كان الوَرَثةُ أغنياءَ فله أنْ يُوصيَ بالثُّلُثِ، ولا شَيءَ في ذلِكَ.

فَضلُ النَّفَقةِ على العِيالِ والأهْلِ

عن أبي مَسعودٍ البَدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ المُسْلِمَ إذا أنْفَقَ على أهْلِهِ نَفَقَةً وهو يَحْتَسِبُها، كانَتْ له صَدَقةً))[(١)].

وعَن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((أفْضَلُ دِينارٍ يُنفِقُه الرَّجُلُ: دِينارٌ يُنفِقُه على عِيالِه، ودِينارٌ يُنفِقُه الرَّجُلُ على دابَّتِه في سَبيلِ اللهِ، ودِينارٌ يُنفِقُه على أصْحابِه في سَبيلِ اللَّهِ)). قالَ أبو قِلابةَ -أحدُ رُواةِ الحديثِ-: وبدَأَ بالعِيالِ، وأيُّ رَجُلٍ أعظَمُ أجْرًا مِن رَجُلٍ يُنْفِقُ على عِيالٍ صِغارٍ، يُعِفُّهمْ أوْ يَنفَعُهم اللَّهُ به، ويُغنيهم[(٢)].

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (٩٩٤).

نَفَقةُ الرَّجُلِ على أهْلِهِ وعِيالِهِ مِن الواجِباتِ عليه، فإذا احتَسَبها كانتْ له عِندَ اللهِ صَدَقاتٍ، وهو ما يدُلُّ عليه **الحَديثُ الأوَّلُ**؛ حيثُ يَروي أبو مَسعودٍ الأنصاريُّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: «إنَّ المُسْلِمَ إذا أنْفَقَ على أهْلِهِ نَفَقةً»، بمَعْنى: إذا صَرَف الرَّجلُ مالَه على أهلِه الَّذين يَعُولُهم، وتجِبُ عليه نَفَقتُهم؛ مِن زَوجةٍ وأولادٍ وغيرِهم مِن أقاربِه، «يَحتسِبُها»، أي: يُريدُ بتلك النَّفقةِ وجْهَ اللهِ وابتغاءَ مَرضاتِه، وأداءَ ما أُمِر به؛ «فهو له صَدَقةٌ»: فإنَّ ذلِكَ الإنفاقَ يُحتسَبُ له عندَ اللهِ عمَلًا صالحًا، وحَسَنةً يُثابُ عليها ثَوابَ الصَّدَقةِ، وهي صَدَقةٌ في الثَّوابِ وليستْ في الحُكمِ، وقد سمَّاها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صَدَقةً؛ للتَّرغيبِ في القيامِ بها، وحتَّى لا يُظنَّ أنَّ القِيامَ بالواجِبِ لا أجْرَ فيه؛ فيُقدِّموا الغَيرَ قَبلَ أنْ يَكْفُوا أهلَهُم وعِيالَهم. وقد أفادَ مَنطوقُ قَولِهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «يَحتسِبُها»: أنَّ الأجْرَ في الإنْفاقِ إنَّما يَحصُلُ بقَصدِ القُربةِ، سواءٌ كانتْ واجِبةً أمْ مُباحةً، وأفادَ مَفهومُه: أنَّ مَن لم يَقصِدِ القُربةَ لم يُؤجَرْ، لكِنْ تَبرَأُ ذِمَّتُهُ مِن النَّفَقةِ الواجبةِ.

وفي **الحَديثِ الثَّاني** يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أفضَلَ ما يُنفِقُه المَرْءُ: عَلى مَن يَعولُه وتَلزَمُه مُؤنتُه؛ مِن نحوِ زَوجةٍ وَولدٍ وخادمٍ، وَهذا إذا نَوى بِهِ وَجهَ اللهِ؛ وذلِكَ لأنَّ النَّفَقةَ عليهم واجِبةٌ، ويَأثَمُ إنْ ضيَّعَهم، فكان الأجْرُ أعظَمَ ممَّا لو أنفَقَ مُتطوِّعًا على غَيرِ عِيالِهِ وترَكَهُم، ثُمَّ ذكَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الإنفاقَ على مَركوبِه وعلى أصحابِهِ للغَزْوِ في سَبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وَفي آخِرِ الحَديثِ علَّقَ أَبو قِلابةَ -راوي الحَديثِ-: «وأيُّ رجلٍ أَعظَمُ أَجرًا مِن رَجلٍ يُنفِقُ عَلى عِيالٍ صِغارٍ يُعِفُّهُم اللهُ بهِ ويُغنيهِم»، وَهذا رأيُ أَبي قِلابةَ في الإنفاقِ وتَرتيبِ الأَولويَّةِ بينَ الأُمورِ المَذكورَةِ، وأنَّه يَرى أنَّ أَفضلَ النَّفقةِ وأَوْلاها هيَ النَّفقةُ عَلى العِيالِ والأولادِ الصِّغارِ الذينَ لا يَستطيعونَ التَّكسُّبَ، فتكونُ هَذه النَّفقةُ إعْفافًا لَهُم عن سُؤالِ النَّاسِ، وإغناءً لَهم عنِ الذِّلَّةِ والمَهانةِ.

العَدلُ بيْنَ الأولادِ في النَّفَقةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

وعن عامِرٍ الشَّعبيِّ، قال: سَمِعتُ النُّعْمانَ بنَ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما وهو على المِنبَرِ يقولُ: أعْطانِي أَبِي عَطِيَّةً، فقالَتْ عَمْرَةُ بنْتُ رَواحةَ: لا أرْضَى حتى تُشْهِدَ رَسولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأتَى رَسولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالَ: إنِّي أعْطَيتُ ابْنِي مِن عَمْرةَ بنْتِ رَواحةَ عَطِيَّةً، فأمَرَتْنِي أنْ أُشْهِدَكَ يا رَسولَ اللَّهِ، قال: ((أعْطَيتَ سَائرَ ولَدِكَ مِثْلَ هذا؟ قال: لا، قال: فاتَّقُوا اللَّهَ واعْدِلُوا بيْنَ أوْلادِكُم))، قالَ: فرَجَعَ فرَدَّ عَطِيَّتَهُ[1].



يَنبَغي على كلِّ راعٍ أنْ يَعدِلَ بيْنَ رعيَّتِه؛ فتَحَرِّي العَدلِ أمرٌ أوجَبَه اللهُ تَبارَك وتَعالى، وفي هذه الآيةِ الكريمةِ يأمُرُ عِبادَه بالإنصافِ، وأداءِ حُقوقِه، وحُقوقِ عبادِه، ويَأمُرُ بالإحسانِ في عِبادتِه، والإحسانِ إلى خَلْقِه. والإحسانُ فَوقَ العَدلِ؛ فالعَدلُ أنْ يُعطِيَ ما عليه، ويَأخُذَ ما له، والإحسانُ أنْ يُعطِيَ أكثَرَ ممَّا عليه، ويَأخُذَ أقلَّ ممَّا له، فالإحسانُ زائِدٌ عليه، فالعَدلُ واجِبٌ، والإحسانُ نَدْبٌ وتَطَوُّعٌ؛ ولذلك عَظَّمَ اللهُ ثَوابَ أهلِ الإحسانِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٥]. ثمَّ خَصَّ اللهُ تعالى بالذِّكرِ مِن جِنسِ أنواعِ العَدلِ والإحسانِ نَوعًا مُهِمًّا تَكثُرُ غَفلةُ النَّاسِ عنه والتَّهاوُنُ بحَقِّه، وهو إيتاءُ ذي القُربى؛ فقد تقَرَّرَ في نُفوسِ النَّاسِ الاعتناءُ بالأبعَدِ واتِّقاءُ شَرِّه، كما تقَرَّرَ في نُفوسِهم الغَفلةُ عن القريبِ، والاطمِئنانُ مِن جانبِه، وتعَوُّدُ

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣) واللفظ له.



التَّساهُلِ في حُقوقِه؛ فخَصَّ اللهُ تَعالى بالذِّكرِ مِن بينِ جِنسِ العَدلِ وجِنسِ الإحسانِ إيتاءَ المالِ إلى ذي القُربى؛ تَنبيهًا للمُؤمِنينَ بأنَّ القَريبَ أحَقُّ بالإنصافِ مِن غَيرِه، وأحَقُّ بالإحسانِ مِن غَيرِه.

ومِن العَدْلِ: العَدلُ بيْن الأولادِ؛ فالوالدُ راعٍ، ورَعيَّتُه هُم أهلُه مِن زَوجتِه وأولادِه، ومِن تَمامِ العدْلِ ألَّا يُفرِّقَ بَيْنَ أولادِه في العطيَّةِ، **وفي هذا الحَديثِ** يُخْبِرُ النُّعمانُ بنُ بَشيرٍ رضِيَ اللهُ عنهما أنَّ أباهُ قد أعطاهُ عَطيَّةً، يَعْني: هِبةً، فقالت عَمرةُ بنتُ رَواحةَ أُمُّ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضِيَ اللهُ عنهم: لا أرْضَى بهذه العطيَّةِ حتى تُشهِدَ عليها رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهذا مِن حُسنِ إسلامِها وفِطنَتِها؛ فإنْ كان ما فعَلَهُ صَوابًا أقرَّهُ عليه رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وطابَتْ نَفسُ جَميعِ أبنائِه، وإلَّا منَعَه رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. فذَهبَ والِدُ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضِي اللهُ عنهما إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فذكَرَ له ما صَنعَ، وأنَّ زَوجتَهُ أمَرَتْه أنْ يُشهِدَهُ، فقال له النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «أعْطيتَ سائِرَ وَلدِك مِثلَ هذا؟»، يَعْني: هلْ أعطيتَ باقيَ أبنائِك مِثلَ ما أعطيتَ هذا الولَدَ؟ فقال: لا، فقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «فَاتَّقُوا اللهَ واعدِلوا بيْنَ أولادِكم»؛ وذلِكَ للتَّأليفِ بيْنَ الإخوةِ، وقَطْعِ مُسَبِّباتِ الشَّحْناءِ والبَغْضاءِ بيْنَهم، ولإعانَتِهم على حُسنِ بِرِّ أبيهم، فاستجابَ الرَّجُلُ لأمْرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ونَهيِه، فرَجَعَ ورَدَّ العطيَّةَ التي أعْطاها النُّعمانَ بنَ بَشيرٍ رضِي اللهُ عنهما؛ حتى يكونَ عادلًا بيْنَ أولادِه.

الرُّجوعُ في الصَّدَقةِ أو الهِبةِ

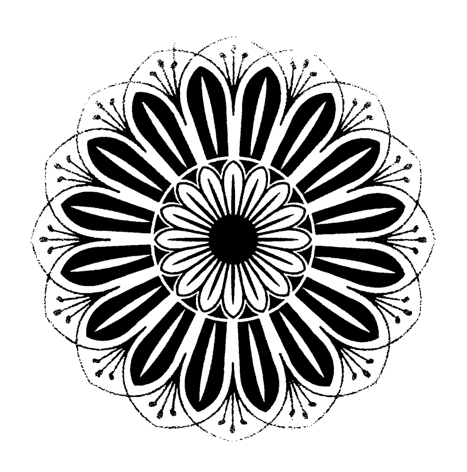
عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَمَلْتُ على فَرَسٍ عَتيقٍ في سَبيلِ اللهِ، فأَضاعَه صاحِبُه، فظَنَنْتُ أنَّه بائعُه برُخْصٍ، فسَأَلْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن

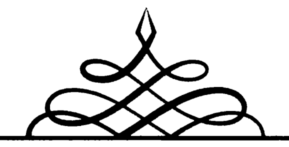
ذلِك، فقالَ: ((لا تَبْتَعْه، ولا تَعُدْ في صَدقَتِك؛ فإنَّ العائدَ في صَدقَتِه كالكَلْبِ يَعودُ في قَيْئِه))[1]. [وفي رِوايةٍ]: ((لا تَبْتَعْه وإنْ أعْطاكَه بدِرْهَمٍ))[2].

العودةُ في الصَّدَقةِ والهِبةِ فِعلٌ مُستقبَحٌ، نفَّرَ منه الشَّرعُ المُطهَّرُ؛ وذلِكَ لأنَّ المُسلِمَ إنَّما يَبتَغي بفِعلِه وَجْهَ اللهِ، وثَبَتَ له الأجْرُ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، فلا يَسْعى لإبطالِ عمَلِه وتَضييعِ أجْرِه، وفي هذا الحَديثِ يَعرِضُ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه حادثةً حدَثَتْ له معَ رَجُلٍ وهَبَهُ عُمَرُ فرَسًا؛ يَقولُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: «حَمَلْتُ عَلى فَرَسٍ عَتِيقٍ في سَبيلِ اللهِ»، والعَتيقُ هو الكَريمُ الفائِقُ، والمَعْنى: تَصَدَّقتُ بِه ووَهَبتُه لِمَن يُقاتِلُ عليه في سَبيلِ اللهِ، فأَضاعَه الرَّجُلُ الذي كان عِندَه، بِتَرْكِ القيامِ عليه بالخِدْمةِ، والعَلفِ، والسَّقْيِ، وإرْسالِه لِلرَّعْيِ حتى صار كالشَّيْءِ الهالِكِ، فأرادَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه أنْ يَستردَّ الفَرسَ مِن الرَّجُلِ، وأنْ يَشتَريَه، واعتَقدَ أنَّ الرَّجُلَ سيَبيعُه برُخْصٍ، فسَألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ذلك، فأجابَه: بألَّا يَشْتَريَه وإنْ أعْطاه بدِرْهَمٍ، والمَعْنى: لا تَرْغَبْ فيه البَتَّةَ، وإنْ باعَه لك الرَّجُلُ بدِرهَمٍ، ولا تَنْظُرْ إلى رُخْصِه، ولكِنِ انظُرْ إلى أنَّه صَدَقَتُك؛ فإنَّ العائدَ في صَدَقتِه كالعائِدِ في قَيْئِه، فكما يَقبُحُ أنْ يَقيءَ ثمَّ يَأكُلَ، كذلك يَقبُحُ أنْ يَتصَدَّقَ بشيءٍ ثُمَّ يُعيدَه إلى نَفْسِه بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ. وهذا تَقبيحٌ لِصُورةِ العائدِ في صَدَقتِه وهِبَتِه، وتَنفيرٌ مِن هذا الفِعلِ.

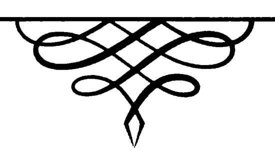
(١) أخرجه البخاري (١٤٩٠)، ومسلم (١٦٢٠) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢٠).

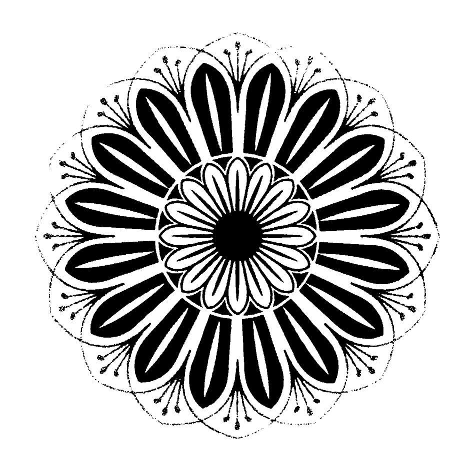




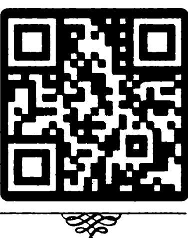
الأخلاقُ



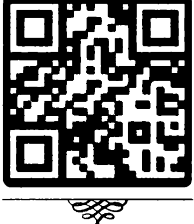
مَنظومةٌ مِن القِيَمِ السّاميةِ تَهدُفُ إلى التحَلّي بالأخلاقِ الحَميدةِ، والتخلّي عن الخِصالِ الذّميمةِ، فيَغْدو المُسلِمُ مَكْسُوا بمَحاسنِ الأخلاقِ، مُلتحِفًا بجَميلِ الشّمائلِ، مُتعَفّفًا عن قبيحِ الرّذائلِ.



لزيارة
موسوعة
الأخلاق



تطبيق
موسوعة
الأخلاق



أخلاقُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم

رَحمةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَثَلي كمَثَلِ رَجُلٍ استوقَدَ نارًا، فلَمَّا أضاءَتْ ما حَولَها جَعَلَ الفَراشُ وهذِه الدَّوابُّ التي في النَّارِ يَقَعْنَ فيها، وجَعَلَ يَحجُزُهُنَّ ويَغلِبْنَه فيَتَقَحَّمْنَ فيها، قال: فذلِكُم مَثَلي ومَثَلُكم، أنا آخِذٌ بحُجَزِكم عَنِ النَّارِ؛ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فتَغلِبوني تَقَحَّمونَ فيها))(١).

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه قال: كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في بَعضِ أسفارِه، وغُلامٌ أسوَدُ -يُقالُ له: أنجَشةُ- يَحْدو، فقال له رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يا أنجَشةُ، رُوَيدَكَ سَوْقًا بالقَواريرِ))(٢).

وعن عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها قالت: قَدِمَ ناسٌ مِنَ الأعرابِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: أتُقَبِّلونَ صِبيانَكم؟! فقالوا: نَعَمْ. فقالوا: لَكِنَّا واللَّهِ ما نُقَبِّلُ! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وأملِكُ إنْ كانَ اللهُ نَزَعَ مِنكمُ الرَّحمةَ؟!)) وفي روايةٍ: ((مِن قَلبِكَ الرَّحمةَ))(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٩)، ومسلم (٢٣٢٣) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧) واللفظ له.



وقد كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ القُدوةَ والمَثَلَ الأعلى في ذلك؛ فقد مَدَحَه اللهُ عَزَّ وجَلَّ بأنَّه على طَبعٍ كريمٍ، وأدبٍ عَظيمٍ، وذلك أدَبُ القرآنِ الكريمِ الذي أدَّبَه اللهُ به، فأحسَنَ تأديبَه؛ فهو أكمَلُ النَّاسِ أخلاقًا، بشَهادةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ له **كما في الآيةِ الأولَى**.

وفي الآيةِ الثانيةِ إيماءٌ لَطيفٌ إلى اتِّحادِ الرَّسولِ بالرَّحمةِ، وانحصارِه فيها، حتى صارَ هو رحمةً، ومِن المعلومِ أنَّ صفةَ الرَّسوليَّةِ مُلازِمةٌ له في سائرِ أحوالِه، فكذلك رحمتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد خَصَّ اللهُ بهذه الصِّفةِ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذه السُّورةِ دونَ غيرِه مِن الأنبياءِ فيها، وفي سائِرِ القُرآنِ الكريمِ كذلك.

وفي سِياقِ الآيةِ الثالثةِ التي يَذكُرُ اللهُ تعالى فيها نِعمَتَه ببَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والتَّنويهَ بحِرصِه على هدايةِ النَّاسِ، يَذكُرُ اللهُ تعالى فيها أيضًا شِدَّةَ رِقَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ورِفقِه وشفَقتِه بالمؤمنينَ خاصَّةً، وشِدَّةَ رَحمتِه بهم.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه يُصوِّرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا المَعنى، فيَضرِبُ مَثَلَ حِرصِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على النَّاسِ ورَحمَتِه بهم برَجُلٍ أوقَدَ نارًا، فلَمَّا أضاءَتْ هذه النارُ ما حَولَها جَعَلَ «الفَراشُ» -وهو يُشبِهُ البَعوضَ، وله أجنِحةٌ أكبَرُ مِن جُثَّتِه- «وهذِه الدَّوابُّ التي في النَّارِ» أي: التي تقَعُ في النَّارِ عادةً، كالبَعوضِ والجَرادِ ونَحوِهما «يقَعْنَ فيها» أي: يَسقُطْنَ في النَّارِ المُوقَدةِ للرَّجُلِ، والرَّجُلُ الذي أوقَدَ النارَ رَحيمٌ بها؛ جَعَلَ يَمنَعُهُنَّ ويُبعِدُهُنَّ عنها، وهُنَّ يَغلِبْنَه فيَدخُلْنَ في النارِ. وهكذا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأخُذُ بحُجَزِ الناسِ عنِ المَعاصي التي هي سَبَبٌ لِلوُقوعِ في النارِ، و«الحُجَزُ» جَمعُ حُجزةٍ، وهي مَعقِدُ الإزارِ والسَّراويلِ، وهي كِنايةٌ عن الاجتِهادِ في المَنعِ، وبرَغمِ ذلك فالناسُ يَغلِبونَه ويَدخُلونَ فيها بشِدَّةٍ ومُزاحَمةٍ، كالفَراشِ ودَوابِّ الأرضِ التي تَتهافَتُ على النارِ، وهذا الحَديثُ مِن جُملةِ

الأمثالِ التي يَضرِبُها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِأُمَّتِه؛ لِيُنبِّهَهم بها على استِشعارِ الحَذَرِ والخَوفِ مِنَ الوُقوعِ في مَعصيةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ومَثَّل لهم ذلك بما عايَنوه وشاهَدوه مِن أُمورِ الدُّنيا؛ لِيُقرِّبَ ذلك مِن أفهامِهم، ويَكونَ أبلَغَ في مَوعِظَتِهم، فمَثَّلَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اتِّباعَ الشَّهَواتِ المُؤدِّيةِ إلى النارِ بوُقوعِ الفَراشِ في النارِ؛ لِأنَّ الفَراشَ مِن شأنِه اتِّباعُ ضَوءِ النَّارِ حتى يَقَعَ فيها، فكذلك مُتَّبِعُ شَهوَتِه يَؤولُ به ذلك إلى العَذابِ في نارِ جَهنَّمَ.

ومِن كَمالِ رَحمَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه أمَرَ بالإحسانِ إلى النِّساءِ والرِّفقِ بِهِنَّ؛ **ففي حَديثِ أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه** نَموذجٌ مِن رَحمَتِه وإحسانِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهِنَّ، فقد كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سَفَرٍ، وكان معه بَعضُ النِّساءِ، وكان هناك غُلامٌ يَحْدو، يُقالُ له: أنجَشةُ، والحَدْوُ: سَوقُ الإبِلِ والغِناءُ لها، فأسرَعَ أنجَشةُ في سَوقِ الإبِلِ، فأمَرَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإمهالِ والرِّفقِ بالنِّساءِ، مُشَبِّهًا إيَّاهُنَّ بالقَواريرِ، جَمعُ قارورةٍ وهي الزُّجاجةُ؛ سُمِّيتْ بذلك لاستِقرارِ الشَّرابِ فيها، وكَنَّى عنِ النِّساءِ بالقَواريرِ والتي هي مِنَ الزُّجاجِ؛ لِضَعفِ بِنيَتِهِنَّ ورِقَّتِهِنَّ ولَطافَتِهِنَّ.

كما أمَر بالرَّحمةِ بالصِّغارِ، **كما في حَديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها**، حيثُ يَضرِبُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أروعَ الأمثِلةِ في رَحمَتِه بهم، فتَحكي عائِشةُ رَضيَ اللهُ عنها أنَّ ناسًا مِنَ الأعرابِ -وهم سُكَّانُ الصَّحراءِ، ومِن طِباعِهم الشِّدَّةُ والغِلظةُ- جاؤوا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن جُملةِ الوُفودِ التي كانت تأتي النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِيَدخُلوا في الإسلامِ، ويَتعَلَّموا شَرائِعَه، فرَأَوُا المُسلِمينَ يُقَبِّلونَ صِبيانَهم رَحمةً بهم، وحُبًّا لهم، وكأنَّهم أنكَروا عليهم هذا الفِعلَ؛ فأنكَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إنكارَهم واستِغرابَهم على تَقبيلِ الصِّغارِ، وبَيَّنَ أنَّه لا يَملِكُ لهم شَيئًا إذا نَزَعَ اللهُ الرَّحمةَ مِن قُلوبِهم.



وفي هذا تَوجيهٌ أنَّ الرَّحمةَ بالصِّغارِ شَيءٌ فِطريٌّ في الإنسانِ، ويُعزِّزُه الدِّينُ ويَحُثُّ عليه.

شَجاعةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

عن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحسَنَ النَّاسِ، وكان أجوَدَ النَّاسِ، وكان أشجَعَ النَّاسِ، ولقد فَزِعَ أهلُ المَدينةِ ذاتَ لَيلةٍ فانطَلَقَ ناسٌ قِبَلَ الصَّوتِ، فتَلَقَّاهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ راجِعًا، وقد سَبَقَهم إلى الصَّوتِ، وهو على فَرَسٍ لِأبي طَلحةَ عُرْيٍ، في عُنُقِهِ السَّيفُ، وهو يَقولُ: ((لم تُراعوا، لم تُراعوا!)) قال: وَجَدْناه بَحرًا، أو: إنَّه لَبَحرٌ. قال: وكان فَرَسًا يُبَطَّأُ[1].



الشَّجاعةُ مِنَ الصِّفاتِ المَمدوحةِ، وقدِ اتَّصَفَ بها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وظَهَرتْ في كَثيرٍ مِنَ من المَواقِفِ في حَياتِه، وفي هذا الحَديثِ يَذكُرُ أنَسُ بنُ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه حادِثةً تَظهَرُ فيها شَجاعةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وسُرعةُ نَجدَتِه، ويَبدأُ أنَسُ بنُ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه بقَولِه: «كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحسَنَ النَّاسِ»: مِنَ الحُسنِ، وهو الجَمالُ والوَضاءةُ، فذَكَرَ أنَسٌ جُملةً مِن شَمائِلِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقد كان أحسَنَ الناسِ خُلُقًا، وأجوَدَهم، وأكرَمَهم، وأشجَعَهم، وممَّا يدلُّ على ذلك أنَّه قد حَدَثَ ذاتَ لَيلةٍ أنْ سُمِعَ صَوتٌ غَريبٌ فَزِعَ له أهلُ المَدينةِ، فانطَلَقَ ناسٌ ناحيةَ الصَّوتِ، فتَلَقَّاهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ راجِعًا على فَرَسٍ لِأبي طَلحةَ رَضيَ اللهُ عنه عُرْيٍ، حيثُ رَكِبَه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بغَيرِ سَرجٍ؛ لِيُسرِعَ لِمَصدَرِ الفَزَعِ، وفي عُنُقِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السَّيفُ، سَبَقَ الناسَ حيثُ ذَهَبَ ورَجَعَ قَبلَ أنْ يَصِلَ الناسُ إلى مَصدَرِه، وهذا دَليلُ شَجاعَتِه صلَّى اللهُ عليه

(١) أخرجه البخاري (٢٩٠٨)، ومسلم (٢٣٠٧) واللفظ له.

وسلَّمَ، وأخَذَ يُبشِّرُ الناسَ ويُذهِبُ عنهمُ الفَزَعَ قائِلًا: «لم تُراعوا، لم تُراعوا» مَرَّتَيْنِ، بمَعنى: لا تَخافوا، قال أنَسٌ مادِحًا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «وَجَدناه بَحرًا -أو: إنَّه لَبَحرٌ» شَبَّهَه بالبَحرِ؛ لِسُرعةِ جَريِه، وقد كان فَرَسُ أبي طَلحةَ مُشتَهِرًا بَينَهم ببُطئِه، ولكِنْ كَرامةً لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أسرَعَ الفَرَسُ، ووَجَدَه رَسولُ اللهِ كالبَحرِ في سُرعةِ جَرَيانِه.

كَرَمُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وجُودُه

عن عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أجوَدَ النَّاسِ بالخَيرِ، وكان أجوَدَ ما يَكونُ في شَهرِ رَمَضانَ؛ إنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ كان يَلقاهُ في كُلِّ سَنَةٍ في رَمَضانَ حتى يَنسَلِخَ، فَيَعرِضُ عليه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ القُرآنَ، فإذا لَقيه جِبريلُ كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أجوَدَ بالخَيرِ مِنَ الرِّيحِ المُرسَلةِ))[1].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِاللهِ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: ((ما سُئِلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شَيئًا قَطُّ فَقالَ: لا))[2].



الجُودُ هو الكَرَمُ والبَذلُ والإنفاقُ مِن غَيرِ سُؤالٍ، وقد كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أبلَغِ الناسِ في العَطاءِ والإنفاقِ، **وفي الحَديثِ الأولِ** يَصِفُ عَبدُاللهِ بنُ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما جُودَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيُخبِرُ عنه أنَّه صلَّى اللهُ عليه

(١) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١) واللفظ له.



وسلَّمَ كان أعظَمَ النَّاسِ وأكثَرَهم جُودًا على الإطلاقِ، وكان يَزدادُ إنفاقُه وبَذلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في شَهرِ رَمَضانَ أكثَرَ مِن غَيرِه حين يَلقاهُ جبريلُ، وكان يلقاهُ في كُلِّ لَيلةٍ مِن رَمَضانَ فيُدارِسُه القُرآنَ. ويَصِفُ ابنُ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما سَعةَ جُودِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حين يَلقاه جِبريلُ فيَقولُ: فلَرَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أجوَدُ بالخَيرِ مِنَ الرِّيحِ المُرسَلةِ. بمَعنى: أكرَمُ وأكثَرُ عَطاءً وفِعلًا لِلخَيرِ، وأعظَمُ نَفعًا لِلخَلقِ، مِنَ الرِّيحِ الطَّيِّبةِ التي يُرسِلُها اللهُ بالغَيثِ والرَّحمةِ.

والحِكمةُ في زِيادةِ جُودِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في رَمَضانَ حينَ يَلْقاه جِبْريلُ: أنَّ رَمَضانَ مَوسِمُ الخيراتِ، ونِعَمُ اللهِ على عبادِه فيه زائِدةٌ على غَيرِه.

وفي الحَديثِ الثاني أيضًا بَيانُ عَظيمِ سَخائِه وغَزارةِ جُودِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما طُلِبَ منه شَيءٌ مِن أمرِ الدُّنيا ومَتاعِها فمَنَعَه وقال: لا أُعطيه، فإنْ كان عندَه أعطاه إنْ كان الإعطاءُ سائِغًا، وإلَّا سَكَت أو اعتَذَر ودَعا، أو وَعَد له فيما تمَنَّى.

حياءُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضيَ اللهُ عنه: ((كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أشَدَّ حَياءً مِنَ العَذراءِ في خِدرِها، وكان إذا كَرِهَ شَيئًا عَرَفناه في وَجهِه))(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠) واللفظ له.



الحَياءُ انقِباضُ النَّفْسِ عنِ القَبائِحِ، وتَركُها، وهو شُعبةٌ مِن شُعَبِ الإيمانِ ولا يأتي إلَّا بخَيرٍ، وقد كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يحُثُّ عليه كثيرًا. **وهذه الآيةُ الكريمةُ** تُوضِّحُ جانِبًا من حيائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فقد نهى اللهُ تعالى النَّاسَ عن المُكثِ للحديثِ بعد الفراغِ مِن الطَّعامِ في بيتِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فذلك ممَّا كان يُؤذيه ويَشُقُّ عليه، ولكِنَّه كان يَستحْيِي من إخبارِهم، أو إظهارِ التضَجُّرِ منهم، ونحوِ ذلك.

وحديثُ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضيَ اللهُ عنه يُوضِّحُ أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان أكثَرَ النَّاسِ حَياءً، فكان أشَدَّ حَياءً مِنَ العَذراءِ في خِدرِها، وكان إذا كَرِهَ شَيئًا عُرِفَ في وَجْهِه. والعَذراءُ: البِكرُ. والخِدرُ: سِترٌ يُجعَلُ لِلبِكرِ في جَنبِ البَيتِ، وإنَّما أكَّده به؛ لِأنَّ ما وَراءَ السِّترِ لا يَطَّلِعُ عليه إلَّا اللهُ، فهو غايةٌ في الحَياءِ. وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا كَرِهَ شَيئًا عُرِفَ في وَجهِه، والمَعنى: أنَّه لا يَتكَلَّمُ به؛ لِحَيائِه، بل يَتغَيَّرُ وَجهُه، فتُفهَمُ كَراهَتُه، فلا يُبدِي الكَراهةَ بالكَلامِ، ولا يُؤاخِذُ أحَدًا بما يَكرَهُ، وهذا إذا لم تَقْتَضِ حاجةُ التَّبليغِ التكَلُّمَ.



الأخلاقُ الحَميدةُ

حُسنُ الخُلقِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رَضيَ اللهُ عنهما، قال: ((لم يَكُنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فاحِشًا ولا مُتَفَحِّشًا، وكانَ يَقولُ: إنَّ مِن خيارِكُم أحسَنكم أخلاقًا))(١).



حَثَّ الإسلامُ على حُسنِ الخُلُقِ، ووَعَدَ صاحِبَه بخَيرِ الجَزاءِ في الدُّنيا والآخِرةِ. والمَقصودُ بحُسنِ الخُلُقِ: التَّحَلِّي بالفَضائِلِ، والتَّخَلِّي عنِ الرَّذائِلِ.

وفي الآيةِ الكريمةِ تَوجيهٌ إلهيٌّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -ولأُمَّتِه بالتَّبعِ- بأن يَقبَلَ ما تيسَّرَ مِن أخلاقِ النَّاسِ، وما سَمَحت به أنفُسُهم، وألَّا يَغْلُظَ عليهم، فإنْ وَجدَ منهم خُلُقًا طَيِّبًا فلْيقبَلْه، وما جاءَه مِن غَيرِ ذلك فلْيصفَحْ عنه، ويترُكْ ما له من الحَقِّ عليهم معَ أمرِهم بالمَعروفِ، والإعراضِ عمَّن أساءَ إليه، فلا يؤاخِذْه بزَلَّتِه.

وفي هذا الحَديثِ المذكورِ يَصِفُ عَبدُاللهِ بنُ عَمرٍو رَضيَ اللهُ عنهما جانبًا مِن مَحاسِنِ أخلاقِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَذكُرُ أنَّه لم يَكُنَ ناطِقًا بالفُحشِ ولا مُتكلِّفًا فيه، والفُحشُ هو: الزِّيادةُ عنِ الحَدِّ في الكَلامِ السَّيِّئِ، بمَعنى أنَّ الفُحشَ لم يَكُنَ فيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خُلُقًا أصيلًا ولا مُكتَسَبًا، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَحُثُّ على حُسنِ الخُلُقِ، ويُبَيِّنُ أنَّ مِن أفاضِلِ المُسلِمينَ أحسنَهم خُلُقًا، ويَكونُ حُسنُ الخُلُقِ مع النَّاسِ بكَفِّ الأذى عنهم، وبَذلِ الخَيرِ الدِّينيِّ والدُّنيويِّ لهم، وطَلاقةِ

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٩) واللفظ له، ومسلم (٢٣٢١).

الوَجهِ، مع الصَّبرِ على أذاهم.

البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ

عنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمعانَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: أَقَمتُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالمَدينةِ سَنةً، ما يَمنَعُني مِنَ الهِجرةِ إلَّا المَسألةُ، كانَ أحَدُنا إذا هاجَرَ لم يَسأَلْ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن شَيءٍ، قال: فسألتُه عنِ البِرِّ والإثمِ، فقالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ، والإثمُ ما حاكَ في نَفْسِكَ، وكَرِهتَ أن يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ))[1].



في هذا الحَديثِ يَحكي النَّوَّاسُ رَضيَ اللهُ عنه أنَّه أقامَ بِالمَدينةِ كالزَّائِرِ، وما كان يمنَعُه «مِن الهجرة» أي: استيطانِها والإقامةِ فيها «إلَّا المَسألةُ» أي: الرَّغبةُ في سُؤالِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَن أُمورِ الدِّينِ؛ فإنَّه سَمَحَ بِذلكَ لِلطَّارِئينَ دونَ المُهاجِرينَ، وكان المُهاجِرونَ يَفرَحونَ بِسُؤالِ الغُرَباءِ الطَّارِئينَ مِنَ الأعرابِ وغَيرِهم؛ لِأنَّهم يُحتَملونَ في السُّؤالِ ويُعذَرونَ، ويَستفيدُ المُهاجِرونَ الجَوابَ. فسأَلَه النَّوَّاسُ رَضيَ اللهُ عنه عَنِ البِرِّ والإِثْمِ، فبَيَّنَ له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ معناهما، وهو أنَّ البَرَّ أعظَمُ خِصالِه حُسنُ الخُلُقِ، أوِ البِرُّ كُلُّه -مُجمَلًا- حُسنُ الخُلُقِ. وقيلَ: البِرُّ يَكونُ بمَعنى الصِّلةِ، وبمَعنى اللُّطفِ وحُسنِ الصُّحبةِ والعِشرةِ، وبمَعنى الطاعةِ، وهذه الأُمورُ هي مَجامِعُ حُسنِ الخُلُقِ. والإِثْمُ هو: ما تَرَدَّدَ وتَحرَّكَ وأثَّرَ في النَّفْسِ بأنْ لم تَنشَرِحْ له، وحَلَّ في القَلبِ منه الشَّكُّ والخَوفُ مِن كَونِه ذَنبًا، وأقلَقَه ولَم يَطمئِنَّ إليه، وكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ؛ لأنَّه مَحَلُّ ذَمٍّ وعَيبٍ، فتَتردَّدُ النَّفْسُ فيه، وتَكرَهُ أنْ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

يَطَّلِعَ النَّاسُ عليه.

وهذه الجُملةُ إنَّما هي لِمَن كانَ قَلبُه صافيًا سَليمًا، فهذا هو الذي يَحِيكُ في نَفْسِه ما كان إثْمًا، ويَكرهُ أنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ. والأصلُ أنَّ البِرَّ اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ مَعاني الطاعةِ، والإثْمَ: اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ أنواعِ المَعاصي، وإنَّما كان جَوابُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذه المَعاني مِن بابِ ما يَتناسَبُ مع حالِ السَّائِلِ، كما هي عادَتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع مِثلِ تلك المَسائِلِ.

الصِّدقُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وعن عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهدي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حتَّى يَكونَ صِدِّيقًا، وإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يَهدي إلى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكذِبُ حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا))(١).



الصِّدقُ مِن أنبَلِ الأخلاقِ وأعلاها قَدْرًا، ومِن أعْظَمِ الأسبابِ للفَوزِ والنَّجاةِ في الدَّارَينِ؛ ولأهميَّةِ الصِّدقِ وعُلُوِّ دَرَجتِه وعَظيمِ أثَرِه حَثَّنا اللهُ تعالى عليه، **كما أشارتْ إليه الآيةُ الكَريمةُ**، ثمَّ جاء فيها الأمرُ الإلهيُّ للذين آمَنوا أنْ يتَّقوه -وذلك بامتِثالِ أمرِه واجتنابِ نَهيِه-، مع الأمرِ بأنْ يَكونوا مع الصَّادقينَ في إيمانِهم وأقوالِهم وأفعالِهم؛ فذلك سبَبٌ للفَلاحِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٦٠٧).

وفي حديثِ عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه يُعلِّمُنا الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن نَكونَ صادِقِينَ مُحبِّينَ لِلصِّدقِ، ويُخبِرُ بأجْرِ الصَّادِقِينِ ومَنزِلتِهم؛ لِيَحمِلَنا على التِزامِه، فيُخبِرُ أنَّ الصِّدقَ يُوصِلُ إلى الخَيراتِ كُلِّها، فالبِرُّ هو اسمٌ جامِعٌ لِلخَيرِ كُلِّه، وأنَّ البِرَّ يُوصِلُ إلى الجَنَّةِ، وأنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ في السِّرِّ والعَلانيةِ، ويَتكَرَّرُ ذلك منه، حتى يَبلُغَ في الصِّدقِ غايَتَه ونِهايَتَه، فيَدخُلَ في زُمرةِ الصَّادِقينَ، ويَستَحِقَّ ثَوابَهم.

ثمَّ يُنَفِّرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الكَذِبِ -وهو قولُ الباطِلِ، والإخبارُ على غَيرِ ما هو في الواقِعِ، وأعظَمُه: الكَذِبُ على اللهِ تعالَى، وعلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-، ويُبَيِّنُ عاقِبةَ مَن تَخَلَّقَ به، فيُخبِرُ بأنَّ الكَذِبَ يُوصِلُ إلى الفُجورِ الذي هو ضِدُّ البِرِّ، وهو المَيلُ عن الاستِقامةِ. وقيلَ: الفُجورُ: الانبِعاثُ في المَعاصي، وأنَّ الفُجورَ يُوصِلُ إلى النَّارِ، وأنَّ الرَّجُلَ يَكذِبُ ويَتكَرَّرُ ذلك منه حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا، ويُحكَمَ له بذلك.

الحَياءُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَرَّ علَى رَجُلٍ مِنَ الأنصارِ وهو يَعِظُ أخاهُ في الحَياءِ، فقالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((دَعْهُ؛ فإنَّ الحَياءَ مِنَ الإيمانِ))[١].

وعن أبي مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ ممَّا

(١) أخرجه البخاري (٢٤) واللفظ له، ومسلم (٣٦).



أَدْرَكَ النَّاسُ مِن كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إذا لَمْ تَسْتَحْيِ فاصْنَعْ ما شِئْتَ))[1].

الحَياءُ مِن أنبَلِ الأخلاقِ وأعلاها، وأصلُه: تَغَيُّرٌ وانكِسارٌ يَعتَري الإنسانَ مِن خَوفِ ما يُعابُ به. وقيلَ: هو انقباضُ النَّفْسِ عنِ القَبائحِ، وتَركُها. وقد يَظُنُّ بَعضُ الناسِ أنَّ الحَياءَ مُنافٍ لِلرُّجولةِ، وأنَّه مِن طِباعِ النِّساءِ، وهذا فَهْمٌ خاطئٌ.

وفي هذه الآيةِ إشارةٌ لطيفةٌ إلى كَمالِ أدَبِ المَرأةِ التي جاءتْ لمُوسَى عليه السَّلامُ لإبلاغِه دَعوةَ أبيها؛ لمُكافأتِه على سَقْيِه الماءَ لهم، فجاءتْه تلك المرأةُ وهي تمشي مُسْتحِيَةً مُستَترةً تمشي بهُدوءٍ.

وفي حَديث عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَرَّ على رَجُلٍ يَعِظُ ويَنصَحُ أخاه بأنْ يُخفِّفَ مِن حَيائِه؛ وذلك أنَّ الرَّجُلَ كان كَثيرَ الحَياءِ، وكان ذلك يَمنَعُه مِن استيفاءِ حُقوقِه، فعاتَبَه أخوه، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «دَعْه»، أي: اترُكْه على هذا الخُلُقِ الحَسَنِ؛ فإنَّ الحَياءَ مِنَ الإيمانِ؛ لأنَّه يَمنَعُ صاحِبَه عمَّا نَهى اللهُ عنه. والحَياءُ نَوعانِ؛ **النوعُ الأوَّل**: ما كان خُلُقًا وجِبلَّةً غَيرَ مُكتَسَبٍ، وهو مِن أجَلِّ الأخلاقِ التي يَمنَحُها اللهُ العَبدَ، ويَجبُلُه عليها؛ فإنَّه يَكُفُّ عنِ ارتكابِ القَبائحِ، ودَناءةِ الأخلاقِ، ويَحُثُّ على استِعمالِ مَكارِمِ الأخلاقِ ومَعاليها. **والنَّوعُ الثَّاني**: ما كان مُكتَسَبًا مِن مَعرِفةِ اللهِ، ومَعرِفةِ عَظَمَتِه وقُربِه مِن عِبادِه، واطِّلاعِه عليهم، وعِلمِه بخائنةِ الأعيُنِ وما تُخفي الصُّدورُ؛ فهذا مِن أعلى خِصالِ الإيمانِ، بل هو مِن أعلى دَرَجاتِ الإحسانِ.

وفي حَديثِ عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه يُرغِّبُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٠).



في التزامِ خُلقِ الحياءِ وتَربيةِ النفسِ عليه، ويُهدِّدُ من التخلِّي عنه، فيُخبرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مِمَّا بلغ النَّاسَ من كلامِ النبوَّةِ الأولى منذُ آدمَ عليه السلامُ، مِن أولِهم إلى آخرِهم ممَّا ندبَ إليه جميعُ الأنبياءِ واتَّفقوا عليه، ولم يُنسخْ فيما نُسِخَ مِن شَرائعِهم: «إذا لم تَسْتَحِ فَاصنعْ ما شئتَ»، يعني: إذا لم يَكُنْ عِندَك حِياءٌ يَمنعُك مِن فعْلِ القبيحِ فافعَلْ ما شِئْتَ، وهو أمرٌ لِلتَّهديدِ، أيِ: افعَلْ ما بدَا لك؛ فإنَّك ستُعاقَبُ عليه. وقيل: المعنى: أنَّ مَن لم يَستَحْيِ صَنَع ما شاءَ؛ فإنَّ المانعَ من فِعلِ القبائِحِ هو الحَياءُ، فمَن لم يكُنْ له حياءٌ انهَمَك في كُلِّ فَحشاءَ ومُنكَرٍ.

الصَّبرُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((... مَن يَتصَبَّرْ يُصَبِّرْه اللهُ، وما أُعْطِيَ أَحدٌ عَطاءً خَيرًا وأَوسَعَ مِن الصَّبرِ))[١].

وعن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: ((ما مِن مُسلِمٍ تُصيبُه مُصيبةٌ، فيَقولُ ما أَمرَه اللهُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعون، اللَّهمَّ أْجُرْني في مُصيبتي، وأَخلِفْ لي خَيرًا منها؛ إلَّا أَخلَفَ اللهُ له خَيرًا منها)). قالَتْ: فلمَّا ماتَ أبو سَلَمةَ قُلْتُ: أيُّ المُسلِمين خَيرٌ مِن أبي سَلَمةَ؟! أوَّلُ بَيتٍ هاجَرَ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ثمَّ إنِّي قُلْتُها، فأَخلَفَ اللهُ لي رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢]!

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩) واللفظ له، ومسلم (٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٩١٨).



وفي روايةٍ: ((... إلَّا أَجَرَه اللهُ في مُصِيبَتِه، وأَخْلَفَ له خَيْرًا منها))[1].

وعن صُهَيبِ بنِ سِنانٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((عَجَبًا لأَمرِ المُؤمِنِ؛ إنَّ أَمْرَه كُلَّه خَيرٌ، ولَيسَ ذاك لِأَحدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إنْ أصابَتْه سَرَّاءُ شَكَرَ فكان خَيرًا له، وإنْ أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ فكان خَيرًا له))[2].



الصَّبرُ مِن الأخلاقِ الفاضِلةِ والخِصالِ النَّبيلةِ التي أمرَ اللهُ تعالى بها، ورَغَّب فيها وبَيَّن فَضْلَها.

وفي الآيةِ الأُولى أمَرَ اللهُ تبارَك وتعالَى عِبادَه المؤمِنينَ بالصَّبرِ على جميعِ ما أُمِروا بالصَّبرِ عليه؛ كالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والصَّبرِ عن مَعصيتِه، والصَّبرِ على أقدارِه سُبحانَه، وأمَرَهم أن يُغالِبوا بالصَّبرِ أَعداءَ الدِّينِ حتى يَنتَصِروا عليهم؛ فلا ينبغي أن يكونَ أعداؤُهم أصْبَرَ منهم، وأمَرَهم بلُزومِ الإقامةِ في الثُّغورِ؛ لِمَنْعِ العَدُوِّ من الوُصولِ إليها، والنُّفوذِ منها إلى مُبتغاه، وأمَرَهم بتَقواه بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه، ومِن ذلك: الصَّبرُ والمُصابَرةُ والمُرابَطةُ في سبيلِه؛ مِن أجْلِ تحقيقِ الفَوزِ بالمطلوبِ، والنَّجاةِ من المرهوبِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

ففي هذه الآيةِ الكريمةِ دَلالةٌ على أنَّ الصَّبرَ أحَدُ الخِصالِ المطلوبةِ لتحقيقِ الفَلاحِ.

وفي الآيةِ الثَّانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ الصَّابِرينَ يُعطَون ثَوابًا تامًّا كَثيرًا بغيرِ حَدٍّ ولا عَدٍّ.

وفي الحديثِ الأوَّلِ حثَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الْتِزامِ الصَّبرِ وتَعويدِ

(١) أخرجه مسلم (٩١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).



النَّفسِ عليه، فقال: «ومَن يَتَصبَّرْ يُصَبِّرْه اللهُ»، أي: ومَن يُؤثِرِ الصَّبرَ ويجاهِدْ نَفْسَه عليه، ويَتكلَّفْه على ضِيقِ العَيشِ وغَيرِه مِن مَكارِهِ الدُّنيا؛ يُسَهِّلِ اللهُ عليه الصَّبرَ، ويُعِنْه عليه ويُوَفِّقْه، ويُمَكِّنْه من نَفْسِه حتى تنقادَ له، وتُذعِنَ لتَحَمُّلِ الشَّدائِدِ، ثمَّ بيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ما أَعْطى اللهُ أحدًا نِعمةً ولا خُلُقًا كَريمًا أفضَلَ ولا أَوسَعَ مِن الصَّبرِ؛ لأنَّه يَتَّسِعُ لكُلِّ الفَضائلِ، فكُلُّها تَصدُرُ عنه، وتَعتَمِدُ عليْه؛ مِن عِفَّةٍ وشَجاعةٍ، وعَزيمةٍ وإرادةٍ، وإباءٍ وغَيرِها.

والإنسانُ إذا كان صَبورًا تَحمَّلَ كُلَّ مَكروهٍ بإذْنِ اللهِ. ولأنَّ الصَّبرَ يتعَلَّقُ بجَميعِ أُمورِ العَبدِ وكَمالاتِه، وكُلُّ حالةٍ مِن أحوالِه تَحتاجُ إلى صَبرٍ؛ فإنَّه يحتاجُ إلى الصَّبرِ على طاعةِ اللهِ حتى يُؤَدِّيَها، وإلى صَبرٍ عن مَعصيةِ اللهِ حتى يترُكَها لله، وإلى صَبرٍ على أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ فلا يَتسَخَّطُها.

وفي الحديثِ الثَّاني يُوَجِّهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أصحابَه إلى ما يُقالُ عندَ نُزولِ المُصيبةِ، فيقولُ: «ما مِن مُسلِمٍ تُصيبُه مُصيبةٌ»، والمُرادُ: أيُّ مُصيبةٍ كانَتْ؛ عظيمةً أو صغيرةً مِن أمرٍ مَكروهٍ في نَفْسِه، أو في أهلِه، أو في مالِه أو غَيرِه؛ فيَقولُ ما أَمَرَه اللهُ به عندَ نُزولِ المَصائبِ مع الصَّبرِ وعَدَمِ الجَزَعِ، وهو قولُه: «إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعونَ»، أي: إنَّ ذَواتِنا وجَميعَ ما يُنسَبُ إلينا: للهِ؛ مِلْكًا وخَلقًا، وإنَّا إليه راجِعونَ في الآخِرةِ.

ثُمَّ يَدْعو صاحبُ المُصيبةِ بقولِه: «اللَّهمَّ أْجُرْني»، أي: اللَّهمَّ أَعْطِني الأَجْرَ والجَزاءَ والثَّوابَ «في مُصيبَتي» وعلى صَبْري عليْها، «وأَخْلِفْ لي خَيرًا مِنها»، أي: اجْعَلْ لي خَلَفًا ممَّا فاتَ عنِّي في هذه المُصيبةِ خَيرًا مِن الفائِتِ فيها؛ «إلَّا أَخلَفَ اللهُ له خَيرًا منها»، أي: إلَّا كان ذلك سَببًا أنْ يُخلِفَ اللهُ عليْه بأَفضَلَ ممَّا فَقَدَه في مُصيبتِه تلك. وفي رِوايةٍ: «... إلَّا أَجَرَه اللهُ في مُصِيبَتِه، وأَخْلَفَ له خَيْرًا منها»؛ فزادَ أنَّ مَن



التزَمَ هذا الدعاءَ عِندَ المُصيبةِ التي تُصيبُه، كتَبَ اللهُ أجْرَه.

ثُمَّ ذَكَرتْ أمُّ سَلَمةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها لَمَّا ماتَ عنها زَوجُها أبو سَلَمةَ عبدُاللهِ بنُ عبدِالأَسَدِ المَخْزوميُّ رَضيَ اللهُ عنه، كأنَّها تَذَكَّرَتْ وَصيَّةَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلَّا أنَّها قالتْ في نَفْسِها، أو باللِّسانِ تَعجُّبًا: «أيُّ المُسلِمين خَيرٌ مِن أبي سَلَمةَ؟!»؛ استِعظامًا لِأبي سَلَمةَ على زَعْمِها وفي ظَنِّها وتَقديرِها، ثمَّ بَيَّنَتْ خَيريَّةَ أبي سَلَمةَ بأنَّه وأُسْرتَه أوَّلُ مَن هاجَرَ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ، فتَعَجَّبَتْ لاعتِقادِها أنَّه لا أفضَلَ مِن أبي سَلَمةَ، ولم تَطْمَعْ أنْ يَتزوَّجَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

ولكنَّها بَعدَ تَعجُّبِها استَجابَتْ لأَمْرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالت: «ثمَّ إنِّي قُلْتُها»، أي: كَلِمةَ الِاستِرجاعِ، والدُّعاءَ المَذكورَ بعْدَها، «فأَخْلَفَ اللهُ لي رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ!»، أي: بأنْ جَعَلَني زَوجتَه، وكان عِوَضًا خَيرًا لي مِن زَوْجي أبي سَلَمةَ؛ فاللهُ يَأجُرُ مَن صَبَرَ على مُصيبتِه ويُخلِفُه خَيرًا منها.

وفي الحديثِ الثَّالثِ يَقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «عَجَبًا لأَمْرِ المُؤمِنِ»، فأَظهَرَ العَجَبَ على وَجْهِ الاستِحسانِ لشَأنِ المُؤمِنِ وأحوالِه؛ فإنَّ شَأنَه كُلَّه خَيرٌ، «ولَيسَ ذلك لأَحدٍ إلَّا للمُؤمنُ»؛ فالإيمانُ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه يَجعَلُ المؤمِنَ في رضًا كامِلٍ على كُلِّ أَحوالِه، بخِلافِ غَيرِ المُؤمِنِ الذي يَكونُ في سَخَطٍ دائِمٍ عندَ وُقوعِ ضَررٍ عليه؛ ولذلك يَقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حقِّ المؤمنِ: «إنْ أصابَتْه سَرَّاءُ شَكَرَ فكان خَيرًا له»، أي: فإنْ أَنعَمَ اللهُ عليه بنِعمةٍ دِينيَّةٍ؛ كالعِلمِ والعَملِ الصَّالحِ، أو نِعمةٍ دُنيويَّةٍ؛ كالمالِ والبَنينَ والأَهلِ، شَكَرَ اللهَ، وذلك بالقِيامِ بِطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فيَشكُرُ اللهَ، فَيكونُ خَيرًا له، ويَكونُ بيْنَ نِعْمتَينِ: نِعمةِ الدِّينِ بالشُّكرِ، فيَحصُلُ له الأجْرُ في الآخِرةِ، ونِعمةِ الدُّنيا بالسُّرورِ والفَرَحِ بتلك النِّعمةِ. «وإنْ أصابَتْه ضَرَّاءُ» مِن فَقرٍ، أو

مَرَضٍ، أو بَلِيَّةٍ، أو ضَرَرٍ. «صَبَرَ»، وانتظَرَ الفرَجَ من اللهِ، ولجأَ إليه تعالى في كَشْفِها، فكان الصَّبرُ خَيرًا له؛ لأنَّه يُثابُ على صَبرِه، ويحوزُ أجْرَ الصَّابِرينَ الذين يُوفَّونَ أُجورَهم بغيرِ حِسابٍ؛ فكان أمرُه كُلُّه خيرًا.

الحِلمُ والأناةُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال لِلأشَجِّ؛ أشَجِّ عَبدِ القَيسِ: ((إنَّ فيكَ خَصلَتَيْنِ يُحِبُّهما اللهُ: الحِلمُ، والأناةُ))[1].



دَعا اللهُ عَزَّ وجَلَّ عِبادَه إلى التَّخَلُّقِ بمَحاسِنِ الأخلاقِ، ومِن ذلك خُلُقُ الحِلمِ؛ فقد وَصَف اللهُ تعالَى **في الآيةِ الأُولى** نبيَّه وخَليلَه إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ إمامَ الحُنَفاءِ، وأبا الأنبياءِ، بأنَّه أوَّاهٌ، أي: كثيرُ التضرُّعِ والدُّعاءِ لله؛ خوفًا وحَزنًا، ووصَفَه بأنَّه حَليمٌ، أي: صابرٌ على أذى النَّاسِ له، ذُو رَحمةٍ بهم، وصَفحٍ عمَّا يَصدُرُ منهم تُجاهَه.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُبشِّرُ اللهُ نَبيَّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ بأنَّه سيُولَدُ له غُلامٌ حَليمٌ لا يَعْجَلُ بالعُقوبةِ معَ القُدرةِ عليها، فهو في غايةِ الرَّزانةِ والثَّباتِ، وهو إسماعيلُ عليه السَّلامُ، ومِمَّا يدُلُّ على عظيمِ حِلمِهِ مَوقِفُه حين عَرَضَ عليه أبوهُ الذَّبحَ، فلم يَضطَرِبْ، ولم يَتَخاذَلْ، ولم يَعتَرِضْ على مَشيئةِ أبيهِ، بل قال: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، واستَسْلَمَ لذلكِ؛ فكان له من كَمالِ الحِلمِ وفُسحةِ الصَّدرِ ما قوَّاه على احتِمالِ تلك البَليَّةِ العَظيمةِ، والإتيانِ بذلك الجَوابِ الحَسَنِ.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٦٨) مطولاً، ومسلم (١٧) واللفظ له.

وقد أخبَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحُبِّ اللهِ تعالَى لهذينِ الخُلُقَينِ: الحِلمِ والأناةِ؛ ففي حديث **عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما** يَقولُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِلأشَجِّ؛ أشَجِّ عَبدِ القَيسِ -واسمُه المُنذِرُ بنُ عائِذٍ العَصَريُّ-: «إنَّ فيكَ خَصلَتَيْنِ يُحِبُّهما اللهُ: الحِلمُ، والأناةُ»، الحِلمُ: أي: تَركُ المُعاجَلةِ بالعُقوبةِ معَ القُدرةِ عليها، والأناةُ: هي التَّأنِّي في الأُمورِ، وعَدَمُ العَجَلةِ، فأثنى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليه بالحِلمِ والأناةِ، وأخبَرَ بحُبِّ اللهِ لهما. وهذه الصِّفاتُ الخُلُقيَّةُ قد تَكونُ جِبلِّيَّةً فِطريَّةً، وقد تكونُ مُكتسَبةً بالمِرانِ والمُمارَسةِ.

الرِّفقُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

وعن عائِشةَ زَوجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يا عائِشةُ، إنَّ اللهَ رَفيقٌ، يُحِبُّ الرِّفقَ، ويُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ، وما لا يُعطي على ما سِواهُ))(١).

وعن جَريرِ بنِ عَبدِاللهِ رَضيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن يُحرَمِ الرِّفقَ، يُحرَمِ الخَيرَ))(٢).



(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣). وأخرجه البخاري (٦٠٢٤) بلفظ: ((إنَّ الله يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كلِّه)).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٢).

الرِّفقُ خُلُقٌ مِنَ الأخلاقِ الفاضِلةِ التي يُحِبُّها اللهُ تَعالى، وتأتي بالخَيرِ لِلعَبدِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وحَقيقَتُه: لِينُ الجانِبِ بالقَولِ والفِعلِ، والأخْذُ بالأسهَلِ، وهو ضِدُّ العُنفِ، واللهُ سُبحانَه وتَعالى رَفيقٌ، يُحبُّ مِن عِبادِه الرِّفقَ، وهذا مِمَّا وهَبَه اللهُ تعالى برحمتِه لنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فليَّن قلبَه على أصحابِه؛ فكان سَهلًا رقيقًا في تَعامُلِه معهم، ولو كان سيِّئَ الأخلاقِ ذا قلبٍ قاسٍ متحجِّرٍ لنفَروا منه وفارَقوه، وقد أمَره تعالى بأنْ يَعفوَ عن أخطائِهم وتَقصيرِهم، وأنْ يَستغفرَ لهم، ويَستشيرَهم فيما يحتاجُ إلى مَشورةٍ، كما في الآيةِ الأُولَى.

وفي ذلك حثٌّ على الرِّفقِ واللِّينِ؛ فثَمَرةُ ذلك المحبَّةُ والاجتماعُ، وأمَّا الجَفوةُ والخُشونةُ فسَبَبٌ في حُصولِ الفُرقةِ والنُّفورِ.

وفي الآيةِ الثانيةِ يَذكُرُ اللهُ تعالى تكليفَه لموسَى وهارونَ عليهما السَّلامُ بالذَّهابِ إلى فِرعَونَ؛ لتجاوُزِه الحَدَّ في الكُفرِ والطُّغْيانِ، وأمَرَهما أنْ يقولَا له قَولًا رقيقًا لَطيفًا لا غِلظةَ فيه ولا تنفيرَ؛ رجاءَ تذَكُّرِه ما غَفَل عنه، أو حُصولِ خَشيتِه مِن رَبِّه سُبحانَه.

فإذا كان موسى عليه السَّلامُ الذي هو نبيُّ الله وكَليمُه، قد أُمِرَ بأن يُخاطِبَ فِرعَونَ الذي هو عدُوٌّ لله وفي غايةِ العُتُوِّ والاستِكبارِ، بالمُلاطفةِ واللِّينِ، فمَن دونَه أَحرى بأن يَقتَدِيَ بذلك في خِطابِه وتعامُلِه مع النَّاسِ، ودَعوتِهم إلى اللهِ، فيتحَلَّى بالرِّفقِ واللِّينِ، لا بالقَسوةِ والشِّدَّةِ والعُنفِ؛ فإغلاظُ القَولِ ذريعةٌ إلى التَّنفيرِ من الحَقِّ، وإلانةُ القَولِ ممَّا يَكسِرُ سَوْرةَ عِنادِ العُتاةِ، ويُلِينُ عَريكةَ الطُّغاةِ.

وقد أخبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -**كما في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها**- أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ، ومَعناه: لَطيفٌ بعِبادِه، رَحيمٌ بهم، يُحِبُّ أنْ يَتَّصِفَ عَبدُه بلِينِ الجانِبِ، والأخْذِ بالسَّهلِ؛ فلا يَكونُ فَظًّا ولا غَليظًا. وأخبَرَ أنَّ اللهَ سُبحانَه «يُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطِي على العُنفِ»، يَعني: أنَّ اللهَ تعالى يُعطي مِنَ الجَزاءِ

والأجْرِ على الرِّفقِ واللِّينِ أكثرَ مِمَّا يُعطيه على العُنفِ والشِّدَّةِ والغِلظةِ، «وما لا يُعطي على ما سِواهُ»؛ فالجَزاءُ والأجرُ فيه أعظَمُ مِن أيِّ صِفةٍ أُخرى مِنَ الصِّفاتِ الحَميدةِ؛ وذلكَ لِأنَّ الرِّفقَ يأتي معه مِنَ الخَيرِ ما لا يأتي مع غَيرِه.

وفي حَديثِ جَريرٍ رَضيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الذي يُحرَمُ الرِّفقَ يُحرَمُ الخَيرَ، وهذا تَرهيبٌ مِن تَركِ الرِّفقِ؛ فمَن جَعَلَه اللهُ تَعالى مَحرومًا مِنَ الرِّفقِ مَمنوعًا منه، فقد جَعَلَه مَحرومًا مِنَ الخَيرِ كُلِّه؛ إذِ الخَيرُ لا يُكتَسَبُ إلَّا بالرِّفقِ والتَّأنِّي.

العَفوُ والتَّواضُعُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((ما نَقَصَتْ صَدَقةٌ مِن مالٍ، وما زادَ اللهُ عَبدًا بعَفوٍ إلَّا عِزًّا، وما تَواضَعَ أحَدٌ للهِ إلَّا رَفَعَه اللهُ))[1].



(العَفوُ): تَركُ عُقوبةِ مَنِ استَحَقَّها مع القُدرةِ عليها. و(التَّواضُعُ): رِضا الإنسانِ بمَنزِلةٍ دونَ ما يَستَحِقُّه مُحتَسِبًا الأجرَ في ذلك عندَ اللهِ تعالى، وفي الآيةِ الأُولى يَذكُرُ اللهُ تعالَى مجموعةَ صِفاتٍ لعِبادِ الرَّحمنِ، ويَبتدئُ بصفةِ مِشيَتِهم الدَّالَّةِ على السَّكينةِ والوَقارِ والرِّفقِ واللِّينِ، النَّاشِئةِ عن التواضُعِ للهِ تعالَى، والتخَلُّقِ بآدابِ النَّفسِ العاليةِ،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

مِن غيرِ مَرَحٍ وتكبُّرٍ، أو سَعيٍ للإفسادِ في الأرضِ، خِلافًا لِمِشيةِ المتجبِّرين المُعجَبينَ بأنفُسِهم وقوَّتِهم.

وصِفةُ مِشيَتِهم دالَّةٌ على سُهولتِهم، وتواضُعِهم وعدَمِ تكبُّرِهم، ورِفْقِهم في الأمورِ الأُخرى، ثمَّ ثنَّى اللهُ تعالى بذكْرِ لطيفِ عَفْوِهم وحُسنِ تجاوُزِهم عمَّن أساء إليهم، وترْكِ مُجاراتِهم في أُسلوبِهم، فإذا خاطَبَهم السُّفَهاءُ بالسَّيِّئِ مِن القَولِ لم يُقابِلوهم بمِثْلِه، بل قابَلوهم بالكَلامِ الحَسَنِ والقَولِ الطَّيِّبِ.

والتخَلُّقُ بتلك الأخلاقِ مَظهرٌ مِن مَظاهِرِ التخَلُّقِ بالرَّحمةِ المناسِبة لعبادِ الرَّحمنِ؛ فالرَّحمةُ ضِدُّ الشِّدَّةِ.

وفي الآيةِ الثَّانيةِ يَحكي اللهُ تعالى إحْدى وصايا لُقمانَ الحَكيمِ الجامعةِ لجُملةِ مطالبَ نَفيسةٍ، وأخلاقٍ عاليةٍ شَريفةٍ عَهِدَ بها لابنِه وفِلْذةِ كَبِدِه ليتحَلَّى بها، ومِن بَينِها آدابٌ تتعَلَّقُ بمعاملةِ الآخَرينَ، فنَهاه عن إمالةِ خَدِّه والإعراضِ بوَجهِه عن النَّاسِ؛ تكَبُّرًا عليهم، واستِحقارًا لشَأنِهم، ثم نهاه عن المشيِ في الأرضِ بفَرَحٍ واختيالٍ وتبختُرٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يُحِبُّ كُلَّ مُتكَبِّرٍ مَزهُوٍّ، مُعجَبٍ بنَفسِه، شديدِ الفَخرِ على النَّاسِ بما أُوتيَ مِن نِعَمٍ.

وفي حديثِ أبي هُريرة رضي الله عنه يُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الثَّوابَ الجَزيلَ لِمَن حَصَّلَ هذه المَكرُماتِ، فيُبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ما زادَ اللهُ عَبدًا بِسَبَبِ عَفوِه عَن شَيءٍ مَعَ قُدرَتِه على الانتِقامِ إلَّا عِزًّا وسِيادةً وعَظَمةً في القُلوبِ، وأنَّه ما تَواضَعَ أحَدٌ للهِ بأن أنزَلَ نَفْسَه عَن مَرتبةٍ يَستَحِقُّها؛ رَجاءَ التَّقرُّبِ إلى اللهِ دونَ غَرَضٍ غَيرِه، إلَّا رَفَعَه اللهُ تَعالى في الدُّنيا أو في الآخِرةِ، أو فيهما معًا.



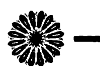
القَناعةُ والتعفُّفُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ليس الغِنَى عن كَثْرةِ العَرَضِ، ولَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ))(١).

وعن حَكيمِ بنِ حِزامٍ رَضيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((اليَدُ العُليا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفلَى، وابدأْ بمَن تَعولُ، وخَيرُ الصَّدَقةِ عن ظَهرِ غِنًى، ومَن يَستَعفِفْ يُعِفَّه اللهُ، ومَن يَستَغنِ يُغنِه اللهُ))(٢).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا نَظَرَ أحَدُكم إلى مَن فُضِّلَ عليه في المالِ والخَلقِ، فلْيَنظُرْ إلى مَن هو أسفَلَ منه مِمَّن فُضِّلَ عليه))(٣).



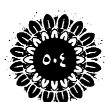
حُبُّ المالِ وطَلَبُه والحِرصُ عليه: طَبيعةٌ في النُّفوسِ، والنَّفْسُ تَوَّاقةٌ لا تَشبَعُ مهما جَمَعتْ مِن مالٍ، والإسلامُ دعا إلى القَناعةِ وحَثَّ عليها، والقَناعةُ هي الرِّضا بما قَسَمَ اللهُ، وعَدَمُ التَّطلُّعِ لِمَا في أيدي الآخَرينَ.

وفي الآيةِ الكريمةِ يُصَوِّرُ لنا رَبُّنا سُبحانَه حالًا طَيِّبةً وخُلُقًا كَريمًا لِفئةٍ مِنَ النَّاسِ لا يَملِكونَ شَيئًا يَسُدُّ حاجَتَهم ويقومُ بمَعيشتِهم؛ فقد حبَسوا أنفُسَهم على الجِهادِ في

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٧) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣) واللفظ له.



سَبيلِ اللهِ، وحبَسَهم أيضًا تَربُّصُ أعدائِهم بهم، فلا يَستطيعونَ التصرُّفَ في أشغالِ الدُّنيا، ولا الضَّربَ في الأرضِ طلبًا للرِّزقِ، فيَظُنُّهم مَن يَجهَلُ أمرَهم أغنياءَ؛ مِن شِدَّةِ تَرْكِهم التَّعرضَ لسُؤالِ النَّاسِ، وكِتمانِهم حاجتَهم صَبرًا منهم على البأساءِ والضَّراءِ، وما يُميِّزُهم هو آثارُ الحاجةِ التي تَظهَرُ عليهم، ويَلمَحُها ذَوو الفِطنةِ والفِراسةِ في ملامِحِ وُجوهِهم، أو نَظَراتِهم، أو بَعضِ عِباراتِهم، وهم لا يَسألونَ النَّاسَ مُطلَقًا، وخاصَّةً الطَّلَبَ المُصاحِبَ للشَّرَهِ والضَّراعةِ التي تكون في المُلِحِّينَ؛ فهم بعيدونَ عن ذلك تمامًا؛ لأنَّهم يَستَمِدُّون العَونَ من اللهِ تعالى وَحْدَه، فهذا الصِّنفُ مِن الفُقَراءِ أَوْلى المستحِقِّين للصَّدقةِ؛ لدَفْعِ حاجتِهم، وإعانتِهم على مَقصَدِهم، وشُكرًا لهم على ما اتَّصفوا به من جَميلِ الأخلاقِ، وقصْرِ أنظارِهم على الكريمِ الخلَّاقِ.

وفي الحديثِ الأوَّلِ يُبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المَعنى الحَقيقيَّ لِلغِنى الواجِبِ على الإنسانِ الاجتِهادُ في تَحصيلِه، والذي يَرفَعُ دَرَجاتِه في الدُّنيا والآخِرةِ، فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الغِنَى ليس كما يَظُنُّ الناسُ في كَثْرةِ المالِ والمتاعِ. والعَرَضُ هو: كُلُّ ما يُنتَفَعُ به مِن مَتاعِ الدُّنيا مِن أيِّ شَيءٍ كان؛ لأنَّ كَثيرًا مِمَّن وُسِّعَ عليه في المالِ لا يَقنَعُ بما أُوتيَ، فهو يَجتَهِدُ في الازديادِ، ولا يُبالي مِن أين يأتيه، فكَأنَّه فَقيرٌ مِن شِدَّةِ حِرصِه. ولكِنَّ الغِنى الحَقيقيَّ المُعتبَرَ المَمدوحَ: غِنى النَّفْسِ بما أُوتِيَتْ، وقنَاعتُها ورِضاها به، وعَدَمُ حِرصِها على الازديادِ والإلحاحِ في الطَّلَبِ؛ لأنَّها إذا استَغنَتْ كَفَّتْ عنِ المَطامِعِ، فعَزَّتْ وعَظُمتْ وحَصَلَ لها مِنَ الحُظْوةِ والنَّزاهةِ والشَّرَفِ والمَدحِ أكثَرُ مِنَ الغِنى الذي يَنالُه مَن يَكونُ فَقيرَ النَّفْسِ بحِرصِه؛ فإنَّه يُورِّطُه في رَذائِلِ الأُمورِ وخَسائِسِ الأفعالِ؛ لِدَناءةِ هِمَّتِه، ويَكثُرُ ذامُّه مِنَ النَّاسِ، ويَصْغُرُ قَدْرُه عِندَهم، فيَكونُ أحقَرَ مِن كلِّ حَقيرٍ، وأذَلَّ مِن كلِّ ذَليلٍ، وهو مع ذلك كأنَّه فَقيرٌ مِنَ المالِ؛ لِكَونِه لم يَستَغْنِ بما أُعطيَ، فكَأنَّه ليس بغَنيٍّ، ولو لم يَكُنْ في ذلك إلَّا عَدَمُ رِضاه بما قَضاه اللهُ، لَكَفاه.

وفي الحديث الثَّاني يُخبِرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اليَدَ المُنفِقةَ المُعطيةَ خَيرٌ وأعلى مِنَ اليَدِ الآخِذةِ، وهذه دَعوةٌ لِأنْ يُنفِقَ القادِرُ، ويَتعَفَّفَ الفَقيرُ. ثم يُبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المَنهَجَ الأمثَلَ في النَّفَقةِ؛ فالإنسانُ يَبدأُ في نَفَقَتِه بمَن يَجِبُ الإنفاقُ عليه؛ مِن وَلَدٍ وزَوجةٍ ونَحوِهما. ثم يَذكُرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أفضَلَ الصَّدَقاتِ ما كانَ عن سَعةٍ، ثم يَحُثُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على القَناعةِ والتَّعفُّفِ، فيُخبِرُ أنَّ مَن يَطلُبْ مِن نَفْسِه العِفَّةَ عنِ السُّؤالِ، أو يَطلُبِ العِفَّةَ مِنَ اللهِ تَعالى، «يُعِفَّه اللهُ» بأنْ يَجعَلَه عَفيفًا قانِعًا راضيًا بما أعطاه. «ومَن يَستَغنِ» بأنْ يُظهِرَ الغِنى بالاستِغناءِ عن أموالِ الناسِ، والتَّعفُّفَ عنِ السُّؤالِ حتى يَحسَبَه الجاهِلُ غَنيًّا؛ مِنَ التَّعفُّفِ، «يُغنِه اللهُ» بأنْ يَملأَ قَلبَه غِنًى، فيَصيرَ غَنيًّا بقَلبِه؛ لِأنَّ الغِنى في الحَقيقةِ هو غِنى النَّفْسِ.

وفي الحَديثِ الثَّالثِ يُعطي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ طَريقةً عَمليَّةً في تَربيةِ المُسلِمِ لِنَفْسِه على التَّواضُعِ، وأنْ يَفطِمَ نَفْسَه عن طَلَبِ الرِّفعةِ والعُلُوِّ في أُمورِ الدُّنيا الفانيةِ، والتَّعلُّقِ بشَهَواتِها وزينَتِها، فيُرشِدُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه إذا امتَدَّتْ عينُ المُسلِمِ إلى مَن يَفوقُه مالًا أو جِسمًا أو صُورةً، إلى غيرِ ذلك ممَّا يَتعَلَّقُ بزينةِ الحياةِ الدُّنيا؛ فلْيوَجِّهْ بَصَرَه قَصدًا إلى مَن هو أَقَلُّ منه مالًا، وأدْنى جِسمًا وصُورةً مِن فُقَراءِ النَّاسِ وضُعَفائِهم؛ حتى يَشعُرَ بالنِّعمةِ التي هو فيها، ويَشكُرَ اللهَ عليها، ويَحيا مُتَواضِعًا لِلهِ، راغبًا فيما عِندَه مِن خَيرٍ.

التَّلطُّفُ مع الأطفالِ والإحسانُ إلى البَناتِ

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وكانَ لي أخٌ يُقالُ له: أبو عُمَيرٍ -قال: أحسَبُه قال: كان فَطيمًا- قال: فكانَ إذا جاءَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فرَآه، قال: ((أبا عُمَيرٍ، ما فَعَلَ النُّغَيرُ؟)) قال:

فكانَ يَلعَبُ به[١].

وعن عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها، زَوجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالتْ: جاءَتْني امرأةٌ ومعها ابنَتانِ لها، فسألَتْني فلم تَجِدْ عِندي شَيئًا غَيرَ تَمرةٍ واحِدةٍ، فأعطَيتُها إيَّاها، فأخَذَتْها فقَسَمَتْها بيْنَ ابنَتَيْها، ولم تأكُلْ منها شَيئًا، ثُمَّ قامَتْ فخَرَجتْ وابنَتاها، فدَخَلَ علَيَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فحَدَّثتُه حَديثَها، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَنِ ابتُليَ مِنَ البَناتِ بشَيءٍ، فأحسَنَ إليهِنَّ، كُنَّ له سِترًا مِنَ النَّارِ))[٢].



في الحَديثِ الأوَّلِ يُبيِّنُ أنَسُ بنُ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه صُورةً مِن حُسنِ خُلُقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع الأطفالِ؛ فقد كانَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحسِنُ إليهم، ويُمازِحُهم، ويَلينُ في تَعامُلِه معهم، وقد أخبَرَ أنَسٌ رَضيَ اللهُ عنه -وكان خادِمًا لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- بِقِصَّةِ أخيه مِن أُمِّه؛ أُمِّ سُلَيمٍ، رَضيَ اللهُ عنهم جميعًا، تأكيدًا على مَعاني حُسنِ خُلُقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكان أخو أنَسٍ فَطيمًا، وهو المُنتَهي مِنَ الرَّضاعةِ، فكانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُلاعِبُ هذا الصَّغيرَ، فيَقولُ له: «يا أبا عُمَيرٍ، ما فَعَلَ النُّغَيرُ؟» والنُّغَيرُ: تَصغيرُ النُّغَرِ، وهو طائِرٌ صَغيرٌ كالعُصفورِ، وقد سألَه عنه لَمَّا بَلَغَه حُزنُ الصَّغيرِ على مَوتِ هذا الطَّائِرِ.

ومِن فَوائِدِ هذا الحَديثِ: جَوازُ تَكنيةِ مَن لم يُولَدْ له وتَكنيةِ الطِّفلِ، وأنَّه ليس كَذِبًا، وجوازُ المِزاحِ فيما ليس إثمًا، وجوازُ لَعِبِ الصَّبيِّ بالعُصفورِ، وتمكينُ الوَلِيِّ إيَّاه من ذلك، وجوازُ السَّجعِ بالكلامِ الحَسَنِ بلا كُلفةٍ، ومُلاطفةُ الصِّبيانِ وتأنيسُهم، وبيانُ ما كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليه مِن حُسنِ الخُلُقِ وكَرَمِ الشَّمائِلِ والتواضُعِ.

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) واللفظ له.



وفي **الحديثِ الثاني** يُبَيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الأجرَ العَظيمَ الذي يُعطيه اللهُ عَزَّ وجَلَّ لِمَن وُهِبَ البَناتِ فلم يُضيِّعْهنَّ، وأحسَنَ إليهنَّ؛ حيث تَحكي عائِشةُ رَضيَ اللهُ عنها أنَّ امرأةً دَخَلتْ عليها ومعها ابنَتانِ لها، تَسألُها وتَطلُبُ منها طَعامًا، فلم تَجِدْ عائِشةُ إلَّا تَمرةً، فتَصَدَّقتْ بها، فقَسَمَتْها المَرأةُ بَينَ ابنَتَيْها، ولم تأكُلْ هي منها، فحَكَتْ عائِشةُ رَضيَ اللهُ عنها لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما حَدَثَ، فبَيَّنَ لها أنَّ مَن وَهَبَه اللهُ شَيئًا مِنَ البَناتِ، «فأحسَنَ إليهِنَّ» بالكَفالةِ والقِيامِ بحُقوقِهِنَّ، وتأديبِهِنَّ ونَحوِ ذلك، «كُنَّ له سِترًا مِنَ النَّارِ» أَيْ: كُنَّ سَبَبًا في أنْ يُباعِدَه اللهُ مِن النَّارِ، ويُجيرَه مِن دخولِها؛ لأنَّه يَستُرُهنَّ في الدُّنيا بإحسانِه، فيَستُرُه اللهُ؛ جَزاءً وِفاقًا. وسُمِّيتْ هِبةُ الإناثِ ابتلاءً في هذا الحَديثِ؛ لِمَا في كَفالَتِهِنَّ مِنَ المَشقَّةِ والتَّعَبِ؛ فالابتِلاءُ بمَعنى الاختِبارِ، ومَعناه: مَنِ اختُبِرَ بشَيءٍ مِنَ البَناتِ؛ لِيُنظَرَ ما يَفعَلُ: أيُحسِنُ إليهِنَّ أم يُسيءُ.

الإصلاحُ بَينَ النَّاسِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وعن أُمِّ كُلثومٍ بِنتِ عُقبةَ رَضيَ اللهُ عنها، أنَّها سَمِعتْ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: ((ليسَ الكَذَّابُ الذي يُصلِحُ بَينَ النَّاسِ، فَيَنمي خَيرًا، أو يَقولُ خَيرًا))(١).

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢) واللفظ له، ومسلم (٢٦٠٥).



حَثَّ الشَّرعُ الحَنيفُ على الإصلاحِ بَينَ النَّاسِ، ورَغَّبَ فيه.

وفي الآيةِ الأولى: يُخبِرُ تعالى أنَّه لا خيرَ في كثيرٍ ممَّا يُسِرُّه النَّاسُ بينهم من أنواعِ الكلامِ إلَّا ما كان مِن أمرٍ بالتَّصدُّق، أو أمرٍ بمعروفٍ مِمَّا أمَرَ اللهُ تعالى به أو ندَب إليه من أعمالِ البِرِّ والخيرِ، والإحسانِ والطَّاعةِ، أو أمرٍ بالإصلاحِ بين المتنازِعِينَ والمتخاصِمِينَ حتَّى تُزالَ العداوةُ والشَّحناءُ بينهم، ويَرجِعوا إلى ما فيه الأُلفةُ واجتِماعُ الكَلِمةِ على ما أَذِنَ اللهُ تعالى وأمَرَ به، ومَن يأمُرْ بصَدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين النَّاسِ؛ طلبًا لرضَا الله، فسوف يُعطيه اللهُ ثوابًا عظيمًا لا يعلَمُ قَدْرَه سِواه.

وفي الآيةِ الثَّانيةِ: يُشيرُ اللهُ تعالى إلى ما يقعُ بين الزَّوجَينِ من خِلافٍ ونُفرةٍ؛ فالمرأةُ إذا خافتْ ترفُّعَ زوجِها واستعلاءَه عليها، أو خافتْ مِن نُفورِه منها وعدَمِ رغبتِه فيها؛ فلا حرجَ ولا إثمَ عليهما حينَئذٍ أن يتَّفِقا على شيءٍ يُصلِحُ الأمورَ بينهما، فلها أن تُسقِطَ حقَّها أو بعضَه؛ مِن نَفقةٍ، أو كِسوةٍ، أو مَبيتٍ، أو غيرِ ذلك من الحُقوقِ، على أن تبقَى مع زوجِها، وله أنْ يقبَلَ ذلك منها؛ فالصُّلحُ ببعضِ التَّنازُلاتِ خيرٌ من الفِراقِ الكُلِّيِّ؛ فبهذا يستَمِرُّ الزَّواجُ وتبقَى الأُلفةُ بينهما، وهذا من عِنايةِ اللهِ تعالى بعبادِه.

وفي الآيةِ الثَّالثةِ: يُخبِرُ تعالى أنَّ المؤمنينَ إخوةٌ في الدِّينِ، وذلك مُنافٍ لوقوعِ الحِقْدِ والبَغضاءِ بينهم؛ فيَجِبُ عليهم التَّوادُّ والتَّناصُرُ، ويجب عليهم إزالةُ ما بيْنَهم مِن أحقادٍ وعداواتٍ، وإحلالُ الأُلْفَةِ، وإشاعةُ المَحبَّةِ؛ فإذا حَدَث أن وقَعَ قِتالٌ بين المؤمِنينَ وَجَب الإصلاحُ بَيْنَهم حينَئذٍ بحَمْلِهم على حُكْمِ اللهِ ورَسولِه.

وفي حديث أُمِّ كُلثومٍ بنتِ عُقبةَ رَضيَ اللهُ عنها يُخبِرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه ليس الكَذَّابُ المذمومُ بالذي يُصلِحُ بَينَ الناسِ، بل هذا مُحسِنٌ مُصلِحٌ؛ فالإنسانُ إذا قَصَد الإصلاحَ بينَ مُتخاصِمَينِ، وقال لِأحَدِهما كاذِبًا: إنَّ صاحِبَه يَمدَحُه ويُثني عليه، وما أشبَهَ ذلك من الكَلِماتِ؛ فإنَّ ذلك لا بأسَ به، وهذه أُمورٌ قد يُضطَرُّ





الإنسانُ فيها إلى زيادةِ القَولِ، ومُجاوَزةِ الصِّدقِ؛ على وَجهِ الإصلاحِ وطَلَبِ الخَيرِ، ومِثلُه: الكَذِبُ في الحَربِ، بأنْ يُظهِرَ في نَفْسِه قُوَّةً، ويَتحَدَّثَ بما يُقوِّي به أصحابَه ويَكيدُ عَدُوَّه. ومِثلُه أيضًا: الكَذِبُ لِلزَّوجةِ بأنْ يُظهِرَ لها أكثَرَ مِمَّا في نَفْسِه؛ لِيَستَديمَ صُحبَتَها ويُصلِحَ به خُلُقَها، وليس المرادُ في الحديثِ نَفيَ ذاتِ الكَذِبِ، بل نَفيُ إثمِه؛ فالكَذِبُ كَذِبٌ، سواءٌ كان للإصلاحِ أو لِغَيرِه، وقد يُرَخَّصُ في بعضِ الأوقاتِ في الفَسادِ القَليلِ الذي يُؤَمَّلُ فيه الصَّلاحُ الكثيرُ.

التراحُمُ بيْنَ الخَلقِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وعن جَريرِ بنِ عَبدِاللهِ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا يَرْحَمُ اللهُ مَن لا يَرْحَمُ النَّاسَ))(١).



الرَّحمةُ خُلُقٌ نَبيلٌ مِن أجَلِّ الأخلاقِ، وقد حَثَّ عليها الإسلامُ، وأجزَلَ المَثوبةَ لِمَن تَحَلَّى بها. ومِمَّا يَحمِلُ المُسلِمَ على أنْ يُؤَدِّبَ نَفْسَه لِيَتَّسِمَ بهذا الخُلُقِ العَظيمِ: أنْ يَرى هذه الصِّفةَ مِن صِفاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ؛ فقد وَصَفَ تعالى بها نَفْسَه، كما في قولِه تعالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، ووَصَف بها نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأصحابَه الكرامَ رضِيَ اللهُ عنهم، وأثْنَى عليهم بذلك **كما في الآيةِ المَذكورةِ؛ فهم** في غايةِ الرَّحمةِ فيما بينهم؛ فالمُحبُّونَ لله تعالى يحبُّون أولياءَه وأحبَّاءَه، ويُعاملونَهم بالعَطفِ والرَّأفةِ والرَّحمةِ، وهو مِن رُسوخِ أُخُوَّةِ الإيمانِ في نُفوسِهم.

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٦) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٩).



وفي حَديثِ جَريرٍ رَضيَ اللهُ عنه يُرَهِّبُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن تَركِ الرَّحمةِ والتَّخلِّي عنها، فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه مَن عَدِمَ الرَّحمةَ في تَعامُلِه مع الناسِ، مَنَعَه اللهُ رَحمَتَه برَغمِ سَعَتِها؛ فالجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ، والرَّحمةُ لِلناسِ تعني الشَّفَقةَ عليهم، ولِينَ الجانِبِ لهم، والتَّجاوُزَ عن زَلَّاتِهم، وإيصالَ الخيرِ الدُّنيويِّ والأُخرويِّ لهم، وكلُّ خَيراتِ الدُّنيا وخَيراتِ الآخِرةِ هي مِن آثارِ رحمةِ اللهِ تعالى، والعَبدُ في غايةِ الضَّرورةِ والافتِقارِ إلى رَحمةِ اللهِ سُبحانَه؛ لا يَستغني عنها طَرْفةَ عينٍ؛ فعلَى العَبدِ أنْ يَتحلَّى برَحمةِ الخَلقِ؛ فإنَّ ذلك مِن الأسبابِ التي تُنالُ بها رحمةُ الخالِقِ، وفَقْدُ ذلك مِن المَوانِعِ لرَحمةِ اللهِ. نسأَلُ اللهَ العافيةَ والسَّلامةَ.

الرِّفْقُ بالحَيَوانِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وعن شَدَّادِ بنِ أَوسٍ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: **((إنَّ اللهَ كَتَبَ الإحْسانَ على كُلِّ شيءٍ؛ فإذا قَتَلتُم فأحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُم فأحْسِنُوا الذَّبْحَ، ولْيُحِدَّ أحَدُكم شَفْرَتَه، فَلْيُرِحْ ذَبيحَتَه))**(١).

وعن عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: **((عُذِّبَتِ امراةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتْها حتى ماتَتْ، فدَخَلتْ فيها النَّارَ؛ لا هي أطعَمَتْها وسَقَتْها إذْ حَبَسَتْها، ولا هي تَرَكَتْها تأكُلُ مِن خَشاشِ الأرضِ))**(٢).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: **((بينما رجُلٌ يَمشي بطَريقٍ، اشتَدَّ عليه العَطَشُ، فوَجَد بِئرًا فنَزَل فيها، فشَرِبَ ثمَّ خَرَج، فإذا**

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢) واللفظ له.



كَلبٌ يَلهَثُ يأكُلُ الثَّرى؛ مِنَ العَطَشِ! فقال الرَّجُلُ: لقد بَلَغ هذا الكَلبَ مِنَ العَطَشِ مِثلُ الذي كان بَلَغ بي! فنَزَل البِئرَ فمَلأَ خُفَّه ثمَّ أمسَكَه بفيهِ، فسَقى الكَلْبَ، فشَكَرَ اللهُ له؛ فغَفَرَ له!)) قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وإنَّ لنا في البَهائِمِ أجْرًا؟ فقال: ((نَعَمْ، في كُلِّ ذاتِ كَبِدٍ رَطْبةٍ أجرٌ))[1].



الإسلامُ دِينُ الرَّحمةِ والإحسانِ، والرَّحمةُ في الإسلامِ ليستْ رَحمةَ الإنسانِ بالإنسانِ فقط، بل يَدخُلُ فيها الرَّحمةُ والإحسانُ بالحَيَوانِ أيضًا. **وفي الآيةِ الكَريمةِ** أمْرٌ مِن اللهِ سُبحانَه لِعبادِه المؤمنينَ بأنْ يَتحَلَّوا بالإحسانِ في كلِّ شَيءٍ، سواءٌ في مُعاملتِهم لخالقِهم بعِبادتِه كأنَّهم يرَوْنه، أو في مُعاملتِهم للمَخلوقينَ؛ بذلًا للمعروفِ، وكفًّا للأذَى؛ وذلك لأنَّ الله تعالى يُحبُّ المتَّصفينَ بهذا الخُلُقِ الكريمِ. وفي هذا ترغيبٌ عظيمٌ في الإحسانِ؛ لأنَّ محبَّةَ اللهِ لعبْدِه غايةُ ما يَطلُبُه المؤمنُ.

وفي حَديثِ شَدَّادِ بنِ أَوسٍ رضِيَ اللهُ عنه يأمرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإحسانِ إلى الحيوانِ خاصَّةً إذا أُريدَ بهِ القتْلُ؛ لكونِه مِن الحيواناتِ الضارَّةِ التي أمَرَ الإسلامُ بقتْلِها؛ كالفأرةِ، والعقربِ، والغُرابِ، والكَلبِ العَقورِ -وهو الذي يَجرَحُ النَّاسَ، ويَعْدُو عليهم، ويُخيفُهم-، أو كان الأذَى في طبْعِها؛ فيكون الإحسانُ في قتْلِها بالإسراعِ في إزهاقِ رُوحِها دونَ تَعذيبٍ. وكذلك أمَرَ بالإحسانِ إلى الحَيوانِ الذي أُريدَ ذَبْحُه ممَّا يُؤكَلُ لحْمُه؛ كالإبلِ، والبَقرِ، والأغنامِ، والطُّيورِ التي تُؤكَلُ، ونحوِها، فإنَّما يكونُ ذلك برَحمةٍ، وذلك بأنْ يُحِدَّ الذَّابحُ شَفْرتَه، وهي السِّكِّينُ أوِ السَّيفُ الذي سَيَقْتُلُ أو يَذبَحُ به؛ ليقوَى على الإجهازِ عليها، ويكونَ أسرعَ لموتِها.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٩) واللفظ له، ومسلم (٢٢٤٤).



كما بَيَّنَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيضًا أنَّ مِنَ الإحسانِ إلى الذَّبيحَةِ أنْ يُريحَها عِندَ الذَّبحِ، كأنْ يَضَعَ رِجلَه على صَفحةِ المَذبوحةِ لئَلَّا تَضطرِبَ، وليتمكَّنَ مِن إزهاقِ رُوحِها بسُرعةٍ فيُريحَها، ويُمِرَّ السِّكِّينَ بقُوَّةٍ وسُرعَةٍ. ومِن مظاهِرِ الإحسانِ أيضًا في ذلك: ألَّا تُحَدَّ الشفرةُ أمامَ الذَّبيحةِ وهي تَنظُرُ إليها، وألَّا تُذبَحَ وهناك مِن الماشيةِ ما يَنظُرُ إليها؛ فكُلُّ ذلك مِن الإحسانِ الذي أمَرَ به المولَى عزَّ وجلَّ.

وفي حديثِ عبدِاللهِ بنِ عُمرَ رضِيَ اللهُ عنهما يُخبِرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ امرأةً عُذِّبتْ في نارِ جَهنَّمَ؛ بسَبَبِ هِرَّةٍ -وهي القِطَّةُ- حَبَستْها، حتى ماتَتْ هذه الهِرَّةُ، فاستَحَقَّتْ بفِعلِها هذا دُخولَ النارِ، ويَحكي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فِعلَها مُفَصَّلًا؛ لِبَيانِ شَنيعِ صَنيعِها، فيَذكُرُ أنَّها لا هي أطعَمَتْها ولا سَقَتْها إذْ حَبَسَتْها، بل كان حَبسُها لها تَعذيبًا، وفي الوَقتِ ذاتِه لم تَترُكْها سائِحةً في مُلكِ اللهِ تأكُلُ مِن حَشَراتِ الأرضِ وهَوامِّها، وهذا تَحذيرٌ وتَخويفٌ مِن تَعذيبِ البَهائِمِ، وأمرٌ بالرِّفقِ بها، وبالإحسانِ إليها؛ فترْكُ الحيوانِ في الحبْسِ -دونَ أنْ يُقدَّمَ له الطعامُ أو الشرابُ مع القُدرةِ علَى ذلك- مِن التعذيبِ المنهيِّ عنه، فضْلًا عن تعمُّدِ التعذيبِ المباشِرِ؛ فالتحريمُ في مِثلِ هذا أشدُّ.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه يَستَعرِضُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صورةً من صُوَرِ الرِّفقِ بالحَيوانِ، وظاهِرُ هذه القِصَّةِ أنَّها وقَعَت في الأُمَمِ السَّابِقةِ؛ فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه بينما رجلٌ يَمشي، فاشتَدَّ عليه العَطَشُ حتى كاد أن يَهلِكَ منه، فلمَّا وَجَد بئرًا وهو في طَريقِه، نَزل فيها لِيَشرَبَ مِن مائِها، فلمَّا خرَج من البئرِ رأى كلبًا «يلهَثُ»، أي: يرتفعُ نفَسُه بين أضلاعِه، أو يُخرِجُ لِسانَه؛ مِن العَطَشِ «يَأكُل الثَّرَى»، وهو التُّرابُ الذي فيه رُطوبةٌ؛ لِيُخفِّفَ ما به من عَطَشٍ، فلمَّا رأى الرَّجُلُ الكَلْبَ وما به مِن عَطَشٍ، وطَلَبَه للماءِ؛ قال في نَفْسِه: لقد بلَغ هذا الكَلْبَ مِثلُ الذي بلَغ بي مِن شِدَّةِ العَطَشِ! فنَزَل البئرَ مرَّةً ثانيةً فمَلأ خُفَّه -والخُفُّ: ما يُلبَسُ في الرِّجلَينِ مِن جِلدِ

رَقيقٍ- ثمَّ أمسكَه الرَّجُلُ بفَمِه؛ ليَصعَدَ مِن البِئرِ.

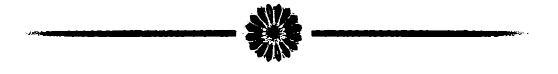
وذِكرُ الخُفِّ، وطريقةِ صُعودِ الرَّجُلِ، وإمساكِه للخُفِّ بفَمِه: كُلُّ هذا لبيانِ عُسْرِ ومَشقَّةِ المرتَقى مِن البِئرِ، وامتِهانِ الرَّجُلِ لِنَفسِه لسُقْيا الكَلبِ! واستَعمَل الرَّجُلُ خُفَّه؛ لبيانِ اجتِهادِه وحِرصِه على بَذلِ ما معه، فلمَّا صَعِدَ الرَّجُلُ بالماءِ سَقى الكَلْبَ. واللهُ سُبحانَه وتعالى هو المطَّلِعُ على فِعْلِه؛ فشَكَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ للرَّجُلِ صَنيعَه؛ فغَفَرَ له ذَنْبَه!

ثمَّ لَمَّا سَمِعَ الصَّحابةُ هذه القِصَّةَ سألوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن حُسنِ مُراعاتِهم للبهائِمِ، والإحسانِ إليها: هل يترتَّبُ عليه أجرٌ؟! فأجابهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه: «في كلِّ كَبِدٍ رَطْبةٍ أجرٌ»، والمعنى: في كلِّ شَيءٍ فيه رُوحٌ ثوابٌ ما دام الإنسانُ يُحسِنُ إليها، وعبَّرَ بالكَبِدِ؛ لأنَّها العُضوُ الذي يَحتاجُ إلى الماءِ، فإذا يَبِسَ هلَكَ الحَيوانُ؛ فكُلُّ بهيمةٍ أحسَنْتَ إليها بسَقيٍ، أو إطعامٍ، أو وِقايةٍ مِن حَرٍّ أو بَردٍ، سواءٌ كانت لك، أو لغَيرِك من بني آدَمَ، أو ليست مِلكًا لأحَدٍ؛ فإنَّ لك في ذلك أجرًا عندَ اللهِ!

سَترُ عَوْراتِ المُسلِمينَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((**لا يَستُرُ عَبدٌ عَبدًا في الدُّنيا إلَّا سَتَرَه اللهُ يَومَ القِيامةِ**))(١).



في هذه الآيةِ الكريمةِ يخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه جَعَل لِمَن يُحبُّون انتِشارَ الفاحشةِ في

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٠). وأخرجه البخاري (٢٤٤٢) بنحوه مطولًا من حديث ابن عمرَ.

المؤمِنينَ الأطهارِ عذابًا أليمًا في الدُّنيا والآخِرةِ. وهذا يدُلُّ على وُجوبِ سلامةِ القَلبِ للمُؤمنينَ، ووجوبِ كَفِّ الجوارِحِ والقَولِ عمَّا يضُرُّ بهم. والعاقِلُ يتحَسَّسُ مَعايبَ نَفسِه، وينظُرُ فيها ليُصلِحَها، ولا ينظُرُ في معايبِ الغَيرِ لِيُشيعَها -والعياذُ باللهِ-، فمَن كان من النَّاسِ مَستورًا لا يُعرَفُ بمجاهرةِ شَيءٍ مِن المعاصي، فوقَعَت منه هَفوةٌ أو زلَّةٌ، فإنَّه لا يجوزُ كَشفُها ولا هَتكُها ولا التَّحدُّثُ بها، ففي الآيةِ حثٌّ على سَترِ المؤمِنِ وعَدَمِ هَتكِه.

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه يَحُثُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على خُلُقِ السَّترِ، ويُبيِّنُ أنَّ الجَزاءَ في هذا البابِ مِن جِنسِ العَمَلِ، فإذا رأى الإنسانُ مِن أخيهِ مَعصيةً فَلا يَفضَحُه ولا يَنشُرُها بَينَ النَّاسِ، بل يَستُرُه؛ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُجازيه بذلك السَّترِ أنْ يَستُرَه يَومَ القِيامةِ؛ فالجَزاءُ مِن جِنسِ العَملِ، ويَكونُ سَترُه سُبحانَه لِعَبدِه كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤمِنَ، فيَضَعُ عليه كَنَفَه ويَسْتُرُه، فيقولُ: أتَعْرِفُ ذَنبَ كذا، أتَعْرِفُ ذَنبَ كذا؟ فيقولُ: نَعَمْ. أيْ رَبِّ، حتى إذا قَرَّرَهُ بذُنُوبِه، ورَأَى في نَفْسِه أنَّه هلَكَ، قالَ: سَتَرْتُها عليكَ في الدُّنْيا، وأنا أغْفِرُها لكَ اليَومَ! فيُعْطَى كِتابَ حَسَناتِه))[1].

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٨) من حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِي اللهُ عنهما.



الأخلاقُ المَذمومةُ

الظُّلمُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وعن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضيَ اللهُ عنه، عَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيما رَوَى عَنِ اللهِ تَبارَكَ وتَعالى أنَّه قالَ: ((يا عِبادي، إنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ على نَفْسي، وجَعَلتُه بَينكم مُحَرَّمًا؛ فلا تَظَالَموا، ...))[1].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القِيامةِ))[2].



الظُّلمُ خُلُقٌ مَقيتٌ مَذمومٌ، حَرَّمَه اللهُ عَزَّ وجَلَّ على نَفْسِه، وعلى عِبادِه؛ والظُّلمُ أنواعٌ أعظَمُها الشِّركُ باللهِ تعالى؛ قال اللهُ سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، ومِنها: ظُلمُ العَبدِ لِنَفسِه بفِعلِ المعاصي والآثامِ، ومنها: ظُلمُ العَبدِ لِغَيرِه بالتعَدِّي على مالِه أو دَمِه أو عِرْضِه.. إلى غيرِ ذلك.

ففي الآيةِ الأولى يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّه لا يَظلِمُ الأمَمَ الكافِرةَ المكَذِّبةَ، فيُهلِكُهم قبلَ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، بل هم في الحقيقةِ من كانوا يظلِمونَ أنفُسَهم بالكُفرِ باللهِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩) واللفظ له.

وعِصيانِه، وتكذيبِ رُسُلِه؛ فاستحَقُّوا عِقابَه.

وللظُّلمِ عَواقِبُه السَّيِّئةُ على الأفرادِ والمُجتَمَعاتِ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فقد بَيَّن اللهُ تعالَى في **الآيةِ الثانيةِ** أنَّ الظَّالِمينَ لا ينالونَ الفلاحَ أبدًا، فلا ينجَحُون ولا يفوزُون، وكُلُّ ظالمٍ وإن تَمَتَّع في الدُّنيا بما تمتَّعَ به، فنهايَتُه إلى زوالٍ واضمِحلالٍ.

وفي حَديثِ أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضيَ اللهُ عنه يَنهى اللهُ عَزَّ وجَلَّ عنِ الظُّلمِ، ويُحذِّرُ منه، ويُبيِّنُ سُبحانَه أنَّه حَرَّمَه ومَنَعَه على نَفْسِه، ثم بَيَّنَ سُبحانَه أنَّه جَعَلَه بَينَ العِبادِ مُحَرَّمًا، وهذا حُكمٌ نافِذٌ منه سُبحانَه بِتَحريمِه فيما بَينَ البَشَرِ، ثم يَقولُ سُبحانَه: «فلا تَظَالَموا»، أي: لا يَظلِمْ بَعضُكم بَعضًا، وهذا تَوكيدٌ وزيادةُ تَغليظٍ في تَحريمِه.

وفي حَديثِ ابنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما يُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ العاقِبةَ السَّيِّئةَ لِلظُّلمِ يَومَ القِيامةِ، فيُخبِرُ بأنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يَومَ القِيامةِ، وتلك الظُّلُماتُ التي تَنزِلُ على الظَّالِمِ يَومَ القِيامةِ هي على ظاهِرِها، فلا يَهتَدي يَومَ القِيامةِ حين يَسعَى نُورُ المُؤمِنينَ بَينَ أيديهم!

الكِبْرُ

قالَ اللهُ تعالَى حاكيًا وصيةَ لُقمانَ الحَكيمِ لابنِه، أنَّه قال له: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١ - ١٣].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا



﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((العِزُّ إزارُه، والكِبرياءُ رِداؤُه، فمَن يُنازِعُني عَذَّبتُه))[1].

وعن عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَدخُلُ الجَنةَ مَن كانَ في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ. قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يكونَ ثَوبُه حَسَنًا، ونَعلُه حَسَنةً. قال: إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ؛ الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ))[2].



حَرَّمَ اللهُ الكِبرَ على الخَلقِ، والكِبْرُ يَعني استِعظامَ الذَّاتِ، ورُؤيةَ قَدْرِها فَوقَ قَدْرِ الآخَرينَ. ولا يَنبَغي هذا إلَّا لِلهِ تَعالى؛ فهو المُستَحِقُّ له، وكُلُّ مَن سِواهُ عَبيدٌ له سُبحانَه.

وفي الآيةِ الأُولى يحكي اللهُ تعالى إحدى وصايا لقمانَ الحَكيمِ لابنِه، ومنها: نهيُه عن إمالةِ خَدِّه والإعراضِ بوَجهِه عن النَّاسِ؛ تكَبُّرًا عليهم، واستِحقارًا لشَأنِهم، ثمَّ نهاه عن المَشيِ في الأرضِ بفَرَحٍ واختيالٍ وتبختُرٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يُحِبُّ كُلَّ مُتكَبِّرٍ مَزهُوٍّ، مُعجَبٍ بنَفسِه، شديدِ الفَخرِ على النَّاسِ بما أُوتيَ مِن نِعَمٍ.

وفي الآيةِ الثانيةِ يبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ سَبَبَ طَردِ إبليسَ من رحمتِه، وإدخالِه في زُمرةِ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٩١).

المَلْعونينَ الأشقياءِ، وإهباطِه من محلِّ الملأِ الأعلى، وإخراجِه مِن زُمرةِ الأولياءِ، وإذلالِه بعد الإكرامِ والاعتناءِ: هو تكبُّره الذي حمَلَه على عِصيانِ أمرِ اللهِ تعالى بالامتناعِ عن السُّجودِ لآدمَ سُجودَ تحيَّةٍ وتعظيمٍ وإكرامٍ؛ فكان كِبرُه مُوجِبًا لهلاكِه الأبديِّ.

وفي الآيةِ الثَّالثةِ يَذكُرُ اللهُ تعالى أنَّ الكُفَّارَ يُساقُون يومَ القِيامةِ إلى جَهنَّمَ جَماعاتٍ مُتفرِّقةً، حتى إذا جاؤُوها فُتِحَت لهم أبوابُها السَّبعةُ فورَ وُصولِهم، وقال لهم خَزَنَتُها القائِمونَ عليها والموكَّلون بها: ألم يأتِكم رسُلٌ مِنكم يَتلُونَ عليكم آياتِ رَبِّكم، ويُخَوِّفونَكم ويحَذِّرونَكم شَرَّ يومِ القِيامةِ؛ فتستَعِدُّوا له؟ فيُجيبُهم الكُفَّارُ بأنَّه قد كان ذلك، ولكِنَّهم كفَروا وقد وَجَب عذابُ اللهِ على الكافِرينَ. فيقالُ لهم: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ ماكِثينَ فيها أبدًا، فبِئسَ مَقامُ المتكَبِّرينَ ومُستقَرُّهم نارُ جهنَّمَ!

ففي قَولِه تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بيانُ تكَبُّرِهم عن الحَقِّ، فجازاهم اللهُ مِن جِنسِ عَمَلِهم بالإهانةِ والذُّلِّ والخِزْيِ، وفي ذلك التحذيرُ مِن الكِبْرِ؛ لئلَّا يكونَ الإنسانُ مِن أصحابِ النَّارِ، فالنَّارُ مَثْوَى أهلِ الكِبْرِ. وأهلُ التواضعِ مأواهم الجنَّةُ.

وفي حديثِ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ العِزَّ إزارُ اللهِ عزَّ وجلَّ، والكِبرياءَ رِداؤُه، والإزارُ هو ما يَلبَسُه الرَّجُلُ مِن وَسَطِه إلى قَدَمَيْه، والرِّداءُ هو ما يَلبَسُه الرَّجُلُ على الكَتِفَيْنِ، والمُرادُ: كما أنَّ الرِّداءَ والإزارَ لا يَشتَرِكُ مع لابِسِهما فيهما أحَدٌ، فكذلك الكِبرياءُ والعَظَمةُ لا يَشتَرِكُ فيهما أحَدٌ مع اللهِ سُبحانَه وتعالَى؛ «فمَن يُنازِعُني» أي: قال الله تعالى: «فمَن يُنازِعُني عَذَّبتُه»، فمَن نازَعَ اللهَ في عِزَّتِه، وأرادَ أنْ يَتَّخِذَ سُلطانًا كسُلطانِ اللهِ، أو نازعَ اللهَ في كِبريائِه وتَكبَّرَ على عِبادِ اللهِ، فإنَّ اللهَ يُعذِّبُه جَرَّاءَ ما صَنعَ ونازَعَ اللهَ تَعالى فيما يَختَصُّ بِهِ، وهذا وَعيدٌ شَديدٌ في الكِبرِ، مُصرِّحٌ بتَحريمِه.



والكِبرياءُ في حَقِّ اللهِ تَعالى كَمالٌ، وفي حَقِّ المَخلوقينَ نَقصٌ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليس كَمِثلِه شَيءٌ، ولا تُمثَّلُ صِفاتُه بصِفاتِ المَخلوقينَ، وقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]؛ فهو المُتفَرِّدُ به في الكَونِ كُلِّه، ولا يَجوزُ لِلعِبادِ أنْ يَتَّصِفوا به.

وأمَّا في حديثِ ابنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه فيُوضِّحُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُوءَ عاقِبةِ الكِبْرِ، ويُصوِّبُ بَعضَ المَفاهيمِ المُتَعلِّقةِ بحُسنِ الهَيئةِ عِندَ الناسِ، فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يُدخِلُ أحَدًا الجَنةَ وفي قَلبِه وَزنُ ذَرَّةٍ مِنَ الكِبرِ، والذَّرَّةُ: هي الغُبارُ الدَّقيقُ الذي يَظهَرُ في الضَّوءِ، أو هي النَّملةُ الصَّغيرةُ، وهو يَدُلُّ على أنَّ أقَلَّ القَليلِ مِنَ الكِبْرِ إذا وُجِدَ في القَلبِ كانَ سَبَبًا لِعَدَمِ دُخولِ الجَنَّةِ. وعَدَمُ دُخولِ الجَنَّةِ هنا مَعناه أنَّه لا يَدخُلُها ابتِداءً حتى يُجازَى على هذا الكِبْرِ؛ فظَنَّ أحدُ الصَّحابةِ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ تَجميلَ الثِّيابِ والمَظهَرِ يَدخُلُ ضِمنَ الكِبْرِ الذي يُحذِّرُ منه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فبَيَّنَ له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، فكُلُّ أمْرِه سُبحانَه وتَعالى حَسَنٌ جَميلٌ، والمَعنى: هذا الذي تَعنيه هو مِنَ النَّظافةِ والجَمالِ الذي يُحِبُّه اللهُ ولا يُبغِضُه ما دامَ لا يُورِثُ في القَلبِ تَرَفُّعًا على النَّاسِ، وإنَّما هو مِن إظهارِ نِعمةِ اللهِ عليه.

ثمَّ وضَّحَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَفهومَ الكِبْرِ بأنَّه: رَفضُ الحَقِّ والبُعدُ عنه، واحتِقارُ النَّاسِ.

الغَضَبُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه: أنَّ رَجُلًا قال لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أوْصِني. قال: ((لا تَغضَبْ. فرَدَّدَ مِرارًا، قال: لا تَغضَبْ))[1].



الغَضَبُ غَريزةٌ رَكَّبَها اللهُ في طَبيعةِ الإنسانِ، وهو: تَغيُّرٌ يَحصُلُ عِندَ فَورانِ دَمِ القَلبِ؛ لِيَحصُلَ عنه التَّشَفِّي في الصَّدرِ، والناسُ مُتَفاوِتونَ في مَبدَئِه وأثَرِه؛ ومِن ثَمَّ كان منه ما هو مَحمودٌ، وما هو مَذمومٌ؛ فمَن كان غَضَبُه في الحَقِّ، ولا يَجُرُّه لِمَا يُفسِدُ عليه دِينَه ودُنياه، فهو غَضَبٌ مَحمودٌ. ومَن كان غَضوبًا في الباطِلِ، أو لا يَستَطيعُ التَّحكُّمَ في غَضَبِه إذا غَضِبَ، ويَجُرُّه الغَضَبُ لِتَجاوُزِ الحَدِّ، وإفسادِ دِينِه ودُنياهُ، فهذا غَضَبٌ مَذمومٌ، **وفي الآيةِ الكريمةِ** يبَيِّنُ اللهُ تعالى إحدى الصِّفاتِ الجَميلةِ التي ينبغي أن يتحلَّى بها المؤمِنونَ، وهي التحكُّمُ في الغضَبِ، والسَّيطرةُ على ثورتِه؛ فهم يَغفِرونَ لمن أغضَبَهم وأساء إليهم، فيَصفَحونَ عنه، ويَتغاضَونَ عن إساءتِه، ولا يَنتَقِمونَ منه، كما يُسيطرونَ على شَهَواتِهم ورَغَباتِهم المحَرَّمةِ المذمومةِ، فيَجتَنِبونَ الوقوعَ في كبائِرِ الإثمِ والفواحِشِ.

وفي مجيءِ (إذا) دَلالةٌ على تَكرُّرِ الغُفرانِ منهم كلَّما تجدَّد منهم غَضَبٌ، رغمَ أنَّ استيلاءَه على نفْسِ صاحِبِه شَديدٌ، ومُقاومتَه صَعبةٌ.

وقد حَذَّرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ **في حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه** من الغضَبِ؛ حيث جاءَه رَجُلٌ وطَلَبَ منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الوَصيَّةَ، فكانتِ الوَصيَّةُ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِلرَّجُلِ مُؤكِّدةً ألَّا يَغضَبَ، وهو مَحمولٌ على الغَضَبِ المَذمومِ. وقيلَ: لَعَلَّ السائِلَ كان غَضوبًا، وكانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَنصَحُ كُلَّ واحِدٍ مِن أصحابِه بما هو أَوْلى به، ويَحتاجُه؛ فلهذا اقتَصَرَ في وَصيَّتِه له

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦).



على تَركِ الغَضَبِ. وقيلَ: مَعناه: اجتَنِبْ أسبابَ الغَضَبِ، ولا تَتعَرَّضْ لِمَا يَجلِبُه، وأمَّا الغَضَبُ نَفْسُه فلا يَتأتَّى النَّهيُ عنه؛ لِأنَّه أمْرٌ طَبَعيٌّ لا يَزولُ مِنَ الجِبِلَّةِ. وقيلَ: مَعناه: لا تَغضَبْ؛ لأنَّ أعظَمَ ما يَنشَأُ عنه الغَضَبُ الكِبْرُ؛ لكَونِه يَقَعُ عِندَ مُخالَفةِ أمْرٍ يُريدُه؛ فيَحمِلُه الكِبْرُ على الغَضَبِ؛ فالذي يَتواضَعُ حتى تَذهَبَ عنه عِزَّةُ النَّفْسِ يَسلَمُ مِن شَرِّ الغَضَبِ. وقيلَ: معناه: لا تَفعَلْ ما يأمُرُكَ به الغَضَبُ. وقد جَمَعَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قَولِه: «لا تَغضَبْ» خَيرَيِ الدُّنيا والآخِرةِ؛ لأنَّ الغَضَبَ يَؤُولُ إلى التَّقاطُعِ ومَنعِ الرِّفقِ، ورُبَّما آلَ إلى إيذاءِ المَغضوبِ عليه.

الفُحْشُ وبَذاءةُ اللِّسانِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٨-١٤٩].

وعنِ ابنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ليس المُؤمِنُ بالطَّعَّانِ، ولا اللَّعَّانِ، ولا الفاحِشِ، ولا البَذيءِ))(١).



هذه الآيةُ الكريمةُ المذكورةُ تُبيِّنُ عدمَ محبَّةِ اللهِ تعالَى لجَهْرِ النَّاسِ بالقَولِ السيِّئِ، كالشَّتمِ والقَذْفِ والسَّبِّ، ونحوِ ذلك، إلَّا مَنْ ظُلِمَ؛ فإنَّه لا حرَجَ عليه أن يُخبِرَ بما أُسيءَ به إليه، كأنْ يدعوَ على مَن ظلَمَه ويتشكَّى منه، أو يقولَ للنَّاسِ: إنَّه ظالمٌ، مِن غيرِ أن يَكذِبَ عليه، أو يَزيدَ على مَظلَمتِه، أو يَتعدَّى بشَتمِه غيرَ ظالِمِه، ومن دونِ

---

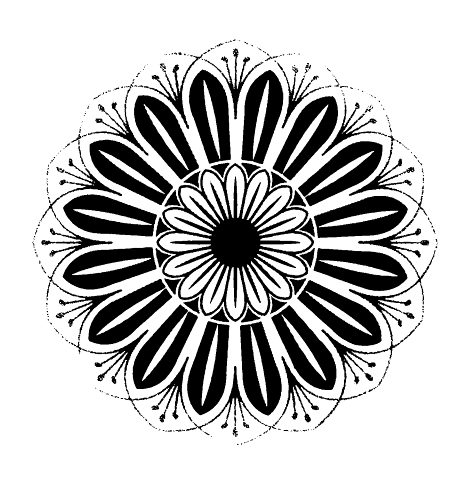
(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٧) واللفظ له، وأحمد (٣٨٣٩).

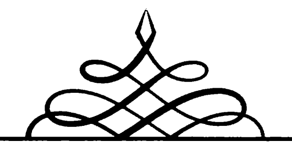
صَحَّحه ابن حبان في ((الصحيح)) (١٩٢)، والحاكم في ((المستدرك)) (١/ ٥٧) وقال: على شرطِ الشيخينِ، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٩٧٧)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٨٥٣)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٨٣٩).

استرسالٍ وتمادٍ، وإنْ عفا عن ذلك فهو خيرٌ وأفضَلُ، كما تشيرُ إليه الآيةُ التي تَليها.

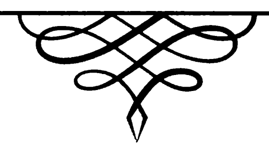
واللهُ تعالى سَميعٌ لِمَا يجهَرُ به عبادُه من سوءِ القولِ وغيرِ ذلك من أقوالِهم، عليمٌ بما يُخفونَ منها، وبنِيَّاتهم فيها، ومُحْصٍ ذلك كلَّه عليهم؛ فيُجازي كلًّا منهم بحَسَبِه؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ؛ فليحْذرِ العبادُ أن يقولوا ما لا يُرضي رَبَّهم، أو أن يُخفُوا في قلوبِهم ما لا يحبُّه سُبحانَه.

وفي حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه يَنفي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَكونَ المُؤمِنُ فاحِشًا أو بَذيئًا، بمَعنى: أنَّه لا يَكونُ ذا قُبحٍ في فِعلِه وقَولِه، وهو ما يَنبَغي أنْ يَبتَعِدَ عنه المُؤمِنُ.

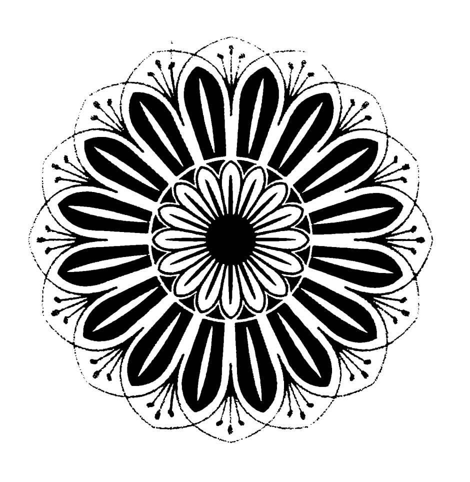




الرَّقائقُ



شَذَراتٌ متفرِّقةٌ يَنتَظِمُها الحديثُ عن أعمالِ القلوبِ وما يُرَقِّقُها، وعن الإقبال على الآخرة وما يُرغِّب في جنَّتِها، وعمَّا يزهِّد النُّفوسَ في الدُّنيا ويُحذِّر من فِتنَتِها.



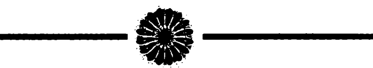
الإخْلاصُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

وقال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((الأعْمالُ بالنِّيَّةِ، ولِامْرِئٍ ما نَوى، فمَن كانتْ هِجْرَتُه إلى اللهِ ورَسولِه فهِجرَتُه إلى اللهِ ورَسولِه، ومَن كانتْ هِجرَتُه لدُنْيا يُصِيبُها أوِ امْرَأةٍ يَتَزَوَّجُها، فهِجرَتُه إلى ما هاجَرَ إلَيه))[1].



لا يَقبَلُ اللهُ عزَّ وجلَّ من العمَلِ إلَّا ما كان خالِصًا لوَجهِه الكريمِ؛ فلا بدَّ -مع موافقةِ العَمَلِ لهَديِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- أن تكونَ النيَّةُ خالصةً لوجهِ الله تعالى.

وفي الآيةِ الأُولى أمَر اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإخلاصِ له في جَميعِ العِباداتِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، والأمرُ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمرٌ لأُمَّتِه.

وفي الآيةِ الثانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّه أمَرَ أهلَ الكتابِ مِن اليَهودِ والنَّصارى بالإخلاصِ له في عبادتِه، فوَجَب عليهم أن يَقصِدوا بجَميعِ عِباداتِهم الظَّاهِرةِ والباطِنةِ وَجْهَ اللهِ تعالى وَحْدَه، وطَلَبَ الزُّلْفى لديه، مائِلينَ ومُعْرِضينَ عن الشِّركِ، ومُقبِلينَ ومُستَقيمينَ على التَّوحيدِ، وتلك هي الحنيفيَّةُ دِينُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ الذي أَخَذَ

(١) أخرجه البخاري (٥٤) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧) باختلاف يسير.



عليهم العَهْدَ به. فمَن لم يُخلِصْ لله في عبادتِه، لم يَفعَلْ ما أُمِرَ به، فلا يُقبَلُ منه عَمَلُه.

وفي الآيةِ الثالثةِ يَضرِبُ اللهُ سُبحانَه مثَلًا لصِنفٍ مِن المنفِقينَ المُخلِصينَ الذين يُنفِقون أموالَهم صَدَقةً في أوجُهِ الخيرِ والبِرِّ التي يُحبُّها اللهُ تعالى؛ طلبًا لنَيلِ رِضوانِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فمَثَلُ نَفقةِ هؤلاءِ المُخلِصينَ كبُستانٍ كَثيرِ الشَّجرِ والظِّلالِ، بمكانٍ مُرتفِعٍ من الأرضِ؛ فكانَ أكثرَ خُصوبةً، وأفضلَ نِتاجًا، وسَقْيُه إنَّما هو مِن السَّماءِ، فإمَّا أنْ يُصيبَه مَطَرٌ غزيرٌ، فيَتضاعَفُ ما يُنتِجه مِن ثَمرٍ، أو يُصيبَه مَطَرٌ خفيفٌ، فيَكفيهِ أيضًا ليُؤتيَ ثمارَه مُضاعَفةً؛ بسبَبِ كَرَمِ المَنبْتِ، وطِيبِ المَغْرَسِ، وكذا الحالُ مع نَفقةِ المؤمِنِ؛ فإنَّ اللهَ تعالَى يُضاعِفُها قلَّتْ أو كَثُرتْ؛ إذ قد بُذِلتِ ابتغاءَ رِضوانِ اللهِ، ثمَّ خَتَم اللهُ تعالى هذه الآيةَ بأنَّه يرَى كُلَّ ما يَعمَلُه النَّاسُ، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ من أعمالِهم، وسيُجازيهم عليها، وسيَجزي المُخلِصينَ على إخلاصِهم.

ففي الآياتِ دَلالةٌ صريحةٌ على وجوبِ إخلاصِ العَمَلِ لله سبحانَه وتعالى.

وفي حديثِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه، الذي يُعَدُّ أصْلًا مِن أصولِ الشَّريعةِ، وقاعدةً مِن قواعدِ الإسلامِ: يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ جميعَ العباداتِ الشَّرعيَّةِ لا تصحُّ إلَّا بوجودِ النيَّةِ الخالصةِ لله عزَّ وجلَّ فيها، وإنَّما يعودُ على المُسلمِ مِن عَمَلِه ما قصَدَه منه، والحُكمُ في هذه العبارةِ عامٌّ في جميعِ الأعمالِ؛ مِنَ العباداتِ، والمعاملاتِ، والأعمالِ العاديَّةِ، فمَنْ قصَدَ بِعملِه منفعةً دنيويَّةً لم يَنَلْ إلَّا تلكَ المنفعةَ، ولو كان عبادةً فَلا ثوابَ له عليها، ومَن قصَدَ بِعملِه التَّقرُّبَ إلى اللهِ تعالَى وابتغاءَ مَرضاتِه، نالَ مِن عَمَلِه الْمَثوبةَ والأجرَ، ولو كان عملًا دُنيويًّا كالأكلِ والشُّربِ، ثُمَّ ضرَبَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِثالًا عَمَليًّا لِبيانِ تأثيرِ النِّيَّاتِ في الأعمالِ؛ حيثُ بيَّن أنَّ مَنْ قصَدَ بهِجرتِه امتِثالَ أمْرِ ربِّهِ، وابتغاءَ مَرضاتِه، والفِرارَ بِدينِه مِنَ الفتنِ: فهجرتُه هجرةٌ شرعيَّةٌ مقبولةٌ عند اللهِ تعالى، ومَن قصدَ بِهجرتِه منفعةً دُنيويَّةً، وغَرَضًا شخصيًّا مِن مالٍ أو تجارةٍ أو



زوجةٍ ونحوِه: فلا ينالُ مِن هِجرتِه إلَّا تلك المنفعةَ التي نواها وقصَدَها، ولا نصيبَ له مِنَ الأجرِ والثَّوابِ عند اللهِ عزَّ وجلَّ.

الخَوفُ والرَّجاءُ

وقال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وقالَ اللهُ تعالَى في وصْفِ الأنبياءِ والصالحِينَ مِن عِبادِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: قال رسولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((الجنَّةُ أقرَبُ إلى أحَدِكم مِن شِراكِ نَعْلِه، والنَّارُ مِثلُ ذلك))(١).

وعَن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((لَمَّا قَضى اللهُ الخَلْقَ كَتَب في كتابِه فهو عِندَه فوقَ العَرشِ: إنَّ رَحمتي غَلَبَت غَضَبي))(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((لو يَعلَمُ المُؤمِنُ ما عندَ اللهِ مِن العُقوبةِ ما طَمِعَ بجَنَّتِه أحَدٌ، ولو يَعلَمُ الكافِرُ ما عِندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ ما قَنِطَ مِن جَنَّتِه أحَدٌ))(٣).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَنْ يُنْجِيَ أحدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ، قالوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٨)

(٢) أخرجه البخاري (٣١٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٥٥).



اللَّهُ برحمَة، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا))[1].

العَبدُ في سَيرِه إلى اللهِ تعالى لا بُدَّ له مِنَ الجَمعِ بيْن الرَّجاءِ والخَوفِ، والخَوفُ يَستلزِمُ الرَّجاءَ، ولولا ذلك لكان قُنوطًا ويأسًا، والرَّجاءُ يَستلزِمُ الخَوفَ، ولولا ذلك لكان أمنًا واتِّكالًا. والرَّجاءُ والخَوفُ النَّافِعانِ هما ما اقترَن بهما العَمَلُ.

وكَثيرًا ما يَقْرِن اللهُ تعالَى بَيْن التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب فِي الْقُرْآن الكريمِ؛ **ففي الآيةِ الأُولَى** يُعلمُ اللهُ تبارَك وتعالَى الناسَ أنَّه شَديدُ الأخْذِ بالذَّنْبِ إذا عاقَب مَن عَصاهُ، وأنَّه يَمْحو ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوزُ عن مؤاخَذتِهم بها، وأنَّه رحيمٌ بهم. وإذا عَلِم العِبادُ ذلك، أثمَرَ لهم هذا العِلمُ الخَوفَ مِن عِقابِه، والرَّجاءَ لمغفرتِه وثوابِه، فيَعمَلوا وَفْقَ ما يَقتضيه ذلك.

وفي الآيةِ الثانيةِ يأمُرُ اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُخبِرَ عِبادَه خبرًا جازِمًا مُؤكَّدًا بأنَّه غَفورٌ لذُنوبِهم، ورَحيمٌ بهم، وأنْ يُخبِرَهم أيضًا أنَّ عَذابَه -لِمَن أصَرَّ على الكُفرِ والمَعاصي، فلمْ يَتُبْ منها- هو العَذابُ المُوجِعُ الكَثيرُ الإيلامِ؛ فلْيَحذَروا أسبابَ عَذابِه، ولْيُقْبِلوا على التَّوبةِ والإنابةِ إليه.

وفي الآيةِ الثَّالثةِ يَذكُرُ اللهُ تبارَكَ وتعالَى مِن صِفاتِ الصَّالحينَ مِن عِبادِه أنَّهم يُبادِرُونَ إلى فِعلِ الطَّاعاتِ وما يُقَرِّبُهم إلى اللهِ، ويَدْعونَ ربَّهم سُبحانَه؛ رَغبةً منهم في ثَوابِه ورحمتِه، ورهبةً مِن عَذابِه وغضَبِه، وكانوا للهِ مُتواضِعينَ خاضِعينَ، مُتذَلِّلينَ لا يَستكبِرونَ عن عِبادتِه ودُعائِه، قد انكَسَرت قلوبُهم للهِ، وسكَنَت عنِ الالتِفاتِ إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣) واللفظ له، ومسلم (٢٨١٦).



غَيره. وهكذا المؤمِنُ ينبغي أنْ يَسعَى إلى اللهِ تعالَى بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ، ويُغَلِّب الرَّجاءَ في جانِبِ الطَّاعةِ؛ لِيَنشطَ عليها ويؤَمِّلَ قَبولَها، ويُغَلِّب الخَوفَ إذا هَمَّ بالمعصيةِ لِيَهرَبَ منها، ويَنجوَ مِن عِقابِها.

وفي الحديثِ الأوَّلِ أخبرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُرغِّبًا ومُرهِّبًا: أنَّ الجنَّةَ أقرَبُ إلى العَبدِ من شِراكِ نَعلِه إذا أطاع ربَّه، والنَّعلُ: هي ما يَلبَسُه الإنسانُ في قدَمِه، وشِراكُ النَّعلِ: هو السَّيرُ الذي يَدخُلُ فيه إصبَعُ الرِّجْلِ، أو الذي يكونُ على ظَهرِ القَدَمِ، ثمَّ أخبرَ أنَّ النَّارَ قَريبةٌ أيضًا إلى العَبدِ من شِراكِ نَعلِه إذا عصى اللهَ؛ فعلى العَبدِ ألَّا يَزهَدَ في قليلٍ مِنَ الخَيرِ أن يَفعَلَه؛ فلعلَّه يكونُ سَببًا لرحمةِ اللهِ به، ولا في قليلٍ مِنَ الشَّرِّ أن يجتَنِبَه؛ فربَّما يكونُ في فِعْلِه سَخَطُ اللهِ تعالى، ويَحسَبُه هَيِّنًا وهو عند اللهِ عَظيمٌ، وكُلُّ ذلك لأنَّ المؤمِنَ لا يَعلَمُ الحَسَنةَ التي يَرحَمُه اللهُ بها، ولا السيِّئةَ التي يَسخَطُ اللهُ عليه بها؛ فإنَّ مَن عَمِلَ عَمَلًا صالِحًا تكونُ الجنَّةُ قَريبةً منه، ومَن عَمِلَ سُوءًا تكونُ النَّارُ قريبةً منه، وقد ضَرَب مَثَلًا بالشِّراكِ؛ لأنَّ سَبَبَ حُصولِ الثَّوابِ والعِقابِ إنَّما هو بسَعيِ العَبدِ، وتحَرِّي السَّعيِ بالأقدامِ.

وفي الحَديثِ الثَّاني أخبرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لَمَّا قضى الخَلقَ، فأظهَرَ قَضاءَه فيهم، وأبرَزَ أمْرَه لِمن شاء، «كَتَبَ فِي كتابٍ فهو عِندَه فَوقَ العَرشِ»: فهو مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، أو فيما شاءَه، فقَضاؤُه خَبرٌ حَقٌّ، ووَعدٌ صِدقٌ: «إنَّ رَحمَتِي غلَبَت غَضَبِي» أي: إنَّ رَحمةَ اللهِ سُبحانَه وتعالى تَسبِقُ غَضَبَه، وإنَّ رِفقَه بالخَلقِ وإنعامَه عليهم ولُطْفَه بهم: أكبَرُ مِن انتقامِه وأخْذِه، كيف لا، وابتِداؤُه الخَلْقَ وتَكميلُه وإتقانُه، وترتيبُه، وخَلقُ أوَّلِ نَوعِ الإنسانِ في الجنَّةِ؛ كُلُّ ذلك مِن رَحمتِه السَّابِقةِ؟ وكذلك ما رَتَّبَ على ذلك مِنَ النِّعَمِ والألطافِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وكُلُّ ذلك رَحَماتٌ مُتلاحِقاتٌ.

ثمَّ العَجَبُ أنَّ انتِقامَه كَمَلَت به رَحمتُه وإنعامُه؛ وذلك أنَّ بانتِقامِه مِنَ الكافِرينَ كَمَلَت رَحمتُه على المؤمِنينَ، وبذلك حَصَل صلاحُهم وإصلاحُهم، وتمَّ لهم دِينُهم وفلاحُهم، وظَهَر لهم قَدْرُ نِعمةِ اللهِ عليهم في صَرفِ ذلك الانتِقامِ عنهم؛ فقد ظهر أنَّ رَحمتَه سَبقَت غَضَبَه، وإنعامَه غَلَب انتِقامَه.

ويُضافُ إلى ذلك أنَّه سُبحانَه قد ابتدَأَ خَلْقَه بالنِّعمةِ عليهم؛ بإخراجِهم مِن العَدَمِ إلى الوُجُودِ، وبَسَطَ لهم مِن رحمتِه في قلوبِ الأبَوَينِ على الأبناءِ مِنَ الصَّبرِ على تَربيَتِهم ومُباشرةِ أقذارِهم ما إذا تدبَّره مُتدبِّرٌ أيقَنَ أنَّ ذلك مِن رحمتِه تعالى!

ومِن رحمتِه تعالى السَّابقةِ: أنَّه يَرزُقُ الكُفَّارَ ويُنعِّمُهم، ويَدْفَعُ عنهم الآلامَ، ثمَّ رُبَّما أدْخَلَهم الإسلامَ رحمةً منه لهم، وقد بَلَغوا مِن التمرُّدِ عليه والخَلْعِ لرُبوبيَّتِه غاياتٍ تُغضِبُه! فتَغلِبُ رحمتُه ويُدخِلُهم بَعْدَ إسلامِهم جَنَّتَه، ومَن لم يَتُبْ عليه حتَّى توفَّاه فقد رَحِمَه مُدَّةَ عُمُرِه بِتَراخي عُقوبتِه عنه، وقد كان له ألَّا يُمْهِلَه بالعُقوبةِ ساعةَ كُفرِه به ومَعصيتِه له، لكنَّه أمهَلَه رحمةً له؛ فكلُّ ذلك مِن شَوَاهِدِ سَبْقِ رحمتِه تعالى لغَضَبِه، ومع هذا فإنَّ رحمةَ الله السَّابقةَ أكثرُ مِن أن يُحِيطَ بها وصْفٌ!

وفي الحَديثِ الثَّالِثِ يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ اللهَ سبحانه كما أنَّه غَفورٌ رَحيمٌ فإنَّه شَديدُ العِقابِ؛ فيقولُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لو يَعلَمُ المُؤمِنُ ما عندَ اللهِ مِن العُقوبةِ»، أي: مِن عِظَمَتِها وشِدَّتِها على ما يَفعَلُ مِن الذُّنوبِ، مِن غَيرِ أنْ يَنظُرَ إلى رَحمةِ اللهِ تَعالى، «ما طَمِعَ في رَحمتِه أَحدٌ»؛ لأنَّ اللهَ شَديدُ العِقابِ، وكُلُّ بني آدَمَ أهلٌ للذُّنوبِ، فإذا كانَ المؤمِنُ كذلكَ فالكافِرُ مِن بابِ أَولَى لا يَطمَعُ في رَحمةِ اللهِ، وهذا مِنَ التَّرهيبِ والتَّخويفِ؛ حتى يجتَنِبَ المؤمِنُ المعاصِيَ والذُّنوبَ، ولكِنَّه في نَفسِ الوَقتِ رَغَّبَ فيما عِندَ اللهِ وبَيَّنَ عَظيمَ رَحمتِه؛ حتى لا يَيئَسَ الكافِرُ والعاصي من التَّوبةِ، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «ولو يَعلَمُ الكافِرُ ما عند اللهِ مِن الرَّحمةِ» التي





ادَّخَرَها لِيومِ القِيامةِ، ما يَئِسَ مِن دُخولِ الجنَّةِ أحَدٌ؛ فإنَّه يُغفَرُ للكافِرِ ما فَعَل في مُدَّةِ الكُفرِ في سِنينَ كَثيرةٍ إذا دخَلَ في الإسلامِ، وليس المرادُ هنا: أنَّه إذا مات كافرًا أنَّه يُغفَرُ له، أو يَخرُجُ مِنَ النَّارِ في وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ، بل لا يَخرُجُ مِنَ النَّارِ أبدًا، وإن كانت رَحمةُ اللهِ كَثيرةً واسِعةً، بل لا يَنالُ رَحمتَه يومَ القيامةِ إلَّا المؤمِنونَ؛ فإذا كانَ الكافِرُ كذلك فالمؤمِنُ أَولَى ألَّا يَقنَطَ مِن رَحمةِ اللهِ.

وفي الحَديثِ الرَّابعِ يُؤكِّدُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه لن يَدخُلَ أحدٌ الجنَّةَ بعَمَلِه فقط، ولن يُنَجِّيَه مِنَ النَّارِ عَمَلُه فقط، فسأَله الصَّحابةُ رَضِي اللهُ عَنْهم بقولِهم: «ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟!» فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «ولا أنا، إلَّا أن يَتغمَّدَني اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ» فيَتدارَكَني بها، ولا تعارُضَ بين هذا الحَديثِ وبيْن قَولِه تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ فإنَّ التَّوفيقَ للعَمَلِ الصَّالحِ، والهِدايةَ للطَّاعاتِ، وقَبُولَ اللهِ عزَّ وجلَّ لها: كُلُّ ذلِك بفَضلٍ من اللهِ تعالى، فهذا الحديثُ يُفسِّرُ هذه الآيةَ وما شابَهَها، ومَعْنى ذلك: ادخُلوا الجنَّةَ بما كنتُم تَعملونَ مَع رحمةِ اللهِ وبِرَحمةِ اللهِ.

ثمَّ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «فسَدِّدُوا وقارِبُوا»، أي: اقْصِدُوا الصَّوابَ ولا تُفْرِطُوا، فتُجهِدُوا أنفُسَكم في العِبادةِ؛ لئلَّا يُفضِيَ بكم ذلك إلى المَلَلِ، فتَترُكوا العَمَلَ، فتُفَرِّطُوا. ثمَّ قال: «واغْدُوا ورُوحُوا، وشَيءٌ مِن الدُّلْجةِ»، يعني: أنَّ هذه الأوقاتَ الثَّلاثةَ أوقاتُ العَمَلِ والسَّيرِ إلى اللهِ؛ فالغُدْوةُ: أوَّلُ النَّهارِ، والرَّوحةُ: آخِرُه، والدُّلْجَةُ: سَيرُ آخرِ اللَّيل. وسَيرُ آخرِ اللَّيلِ مَحمودٌ في سَيرِ الدُّنيا بالأبدانِ، وفي سَيرِ القُلُوبِ إلى اللهِ بالأعمالِ، وقال: «وشَيءٌ مِن الدُّلْجَةِ»، ولم يقُلْ: والدُّلجةُ، بل أتى بـ(مِن) التي تفيدُ التَّبعيضَ؛ تخفيفًا لمشقَّةِ عَمَلِ اللَّيلِ.

ثمَّ أوصاهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: «والقَصْدَ القَصْدَ»، أي: فاقْتَصِدوا في الأمورِ، وتجنَّبوا طَرَفَيِ الإفراطِ والتَّفريطِ، والزَمُوا القَصْدَ، والتَمِسوا الطَّريقَ



المستقيمَ، ولا تَنحرِفوا عنه، والمعنى: لا تَستوعِبوا الأوقاتَ كلَّها بالسَّيرِ، بل اغْتَنِموا أوقاتَ نشاطِكم، وارْحَموا أنفُسَكم فيما بينهما؛ لئلَّا يَنقطِعَ بكم، فإذا فعَلْتُم ذلك بلَغْتُم غايتَكم؛ فإنَّ التَّوسُّطَ في الأُمورِ كلِّها يُبلِّغُكم غايتَكم وهدَفَكم الذي تَنشُدونَه، وهذا بيانٌ لعِظَمِ رَحْمةِ اللهِ تعالى بعِبادِه.

الصِّحَّةُ والفَراغُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل: ١٨].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((نِعمَتانِ مَغبونٌ فيهما كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ))(١).



نِعَمُ اللهِ عزَّ وجلَّ على عِبادِه كثيرةٌ لا تُحصَى، **كما تذكُرُ الآيةُ الكريمةُ**؛ فلا أحَدَ يُطيقُ إحصاءَ عَدَدِها، فضلًا عن القِيامِ بشُكرِها، ولكنَّ اللهَ تعالى يتجاوزُ عن عبادِه تقصيرَهم في شُكرِ نِعَمِه، وهو رحيمٌ بهم، لا يقطَعُ عنهم إحسانَه، ولا يُعذِّبُهم بسبَبِ تَقصيرِهم، فيَرضى من عبادِه الشُّكرَ القَليلَ، ويُجازيهم عليه الثَّوابَ الكثيرَ. ومِن هذه النِّعَمِ نِعمَتا الصِّحَّةِ والفَراغِ، اللَّتانِ لا يَدري أكثَرُ النَّاسِ أهمِّيَّتَهما إلَّا بَعدَ زَوالِهما.

وفي حديث عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما بَيانٌ لأهمِّيَّةِ هاتَينِ النِّعمَتينِ، وضَرورةِ أنْ يَغتَنِمَهما الإنسانُ في طاعةِ اللهِ، وطَلَبِ رِضاه، وأنَّه لا يَعرِفُ قَدْرَهما ولا يَنتَفِعُ بهما كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ، والمُرادُ بالصحَّة: صِحَّةُ البَدَنِ والنَّفْسِ، وقُوَّتُهما، والفَراغُ: هو خُلُوُّ الإنسانِ مِن مَشاغِلِ العَيشِ وهُمومِ الحَياةِ، وتَوافُرُ الأمْنِ والاطمِئنانِ النَّفْسيِّ.

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢).



وفي هذا الحَديثِ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ لا يَتفرَّغُ لِلطَّاعةِ إلَّا إذا كان مَكفيًّا، صَحيحَ البَدَنِ، فقد يَكونُ مُستَغنيًا ولا يَكونُ صَحيحًا، وقد يَكونُ صَحيحًا ولا يَكونُ مُستَغنيًا، فلا يَكونُ مُتفرِّغًا لِلعِلمِ والعَمَلِ؛ لِشُغْلِه بالكَسبِ، فمَن حَصَلَ له الأمرانِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ، وكَسِلَ عنِ الطَّاعاتِ، فهو المَغبونُ الخاسِرُ في تِجارَتِه!

الاستِقامةُ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وعن سُفيانَ بنِ عبدِالله الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك -وفي روايةٍ: غَيرَك-، قال: ((قُلْ آمنتُ باللهِ، ثمَّ استَقِمْ))[1].



الإيمانُ باللهِ إيمانًا صادقًا، والاستِقامةُ على شَرعِه قَدْرَ الوُسعِ والطَّاقةِ: هما طريقُ الفَلاحِ والنَّجاحِ في الدُّنيا والآخِرةِ.

وفي الآيةِ الأُولى يأمُرُ اللهُ تعالَى نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَثبُتَ على الدِّينِ الذي أمَرَه اللهُ به هو ومَنِ اتَّبَعَه مِن المؤمنينَ، ويَنهَاهم سُبحانَه عن تَجاوُزِ ما حدَّه مِن الاستِقامةِ؛ فإنَّ اللهَ بما يَعملونَه بَصيرٌ، لا يَخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها، وسيُجازِيهم عليها.

(١) أخرجه مسلم (٣٨).



وفي الآيةِ الثانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى أنَّ الذين قالوا -نُطقًا بألسِنَتِهم، واعتِقادًا بقُلوبِهم-: ربُّنا اللهُ وَحْدَه، ثُمَّ استَقاموا على تَوحيدِ اللهِ، وامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه، وداوَموا على طاعتِه بإخلاصٍ له، ومُوافَقةٍ لِشَرعِه بلا إفراطٍ ولا تَفريطٍ؛ أُولئك تتنَزَّلُ عليهم الملائِكةُ عندَ نُزولِ المَوتِ بهم مُثبِّتينَ لهم ومُطَمْئِنينَ: ألَّا تَخافُوا ممَّا يُستَقبَلُ، ولا تَحزَنوا على ما مَضَى، مع بِشارتِهم لهم بالجَنَّةِ التي وُعِدوا بدُخولِها؛ جَزاءَ إيمانِهم باللهِ، واستِقامتِهم على دِينِه.

ففي الآيةِ الكريمةِ دَليلٌ على أهميَّةِ الاستِقامةِ على دِينِ اللهِ؛ بأنْ يكونَ الإنسانُ ثابتًا عليه لا يُبَدِّلُ ولا يُغيِّرُ، فأمَّا مَن غلَا في دِينِ اللهِ أو جَفَا عنه، أو بَدَّلَ أو غيَّرَ؛ فإنَّه يَخرجُ بذلك عن حدِّ الاستقامةِ.

وفي حَديثِ سُفيانَ رضِيَ اللهُ عنه أنَّه سأَلَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُعَلِّمَه كَلامًا جامِعًا لأمرِ الإسلامِ، كافيًا؛ حتى لا يَحتاجَ بَعْدَه إلى غَيرِه. وقَولُه: «في الإسلامِ»، أي: فيما يَكمُلُ به الإسلامُ، ويُراعَى به حُقوقُه، ويُستَدَلُّ به على توابِعِه، أو المعنى: علِّمْني قولًا جامِعًا لمعاني الإسلامِ. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قُلْ وأَنْتَ مُوقِنٌ بقَلْبِكَ: «آمنتُ باللهِ»، ثم دَاوِمْ على هذا الإيمانِ وأَنْت مُسْتَقِيمٌ عليه وعاملٌ بمُقْتَضاهُ. والاسْتِقامةُ جامِعَةٌ للإتيانِ بجَميعِ الأَوامِرِ قَدْرَ الاستِطاعةِ، والانْتِهاءِ عن جَميعِ المَناهي، فالمُعوَّلُ عليه هو الثَّباتُ على الإيمانِ مع الاسْتِمرارِ على العَملِ الصَّالِحِ الذي يَهْدي صاحِبَه إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ.

المُبادرةُ بالأعمالِ الصَّالحةِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((بادِرُوا بالأعْمالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصبِحُ الرَّجُلُ مُؤمنًا ويُمسِي كافِرًا، أو يُمسِي مُؤمِنًا

ويُصبِحُ كافِرًا، يَبيعُ دِينَه بعَرَضٍ مِن الدُّنيا))[١].

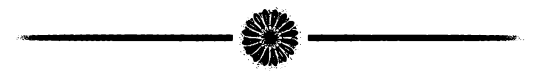
في هذا الحديثِ يأمُرُ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المؤمنينَ بالمُسابَقةِ والمُسارَعةِ بالأعمالِ الصَّالِحةِ قَبلَ مَجيءِ الفِتَنِ التي تَكثُرُ في آخِرِ الزَّمانِ.

والمرادُ بها: الفِتَنُ التي يُخلَطُ فيها الحَقُّ بالباطِلِ بين أهْلِ الإسْلامِ، فيصْعُبُ على المُطَّلِعِ الفَصلُ والتَّمييزُ فيها.

وقولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ»: كِنايَةٌ عن شِدَّتِها وضَرَرِها وشُمولِها لِكُلِّ من شَهِدَها، ويَكونُ المَرءُ في الْتِباسٍ مِنها؛ لا يَتميَّزُ بَعضُها مِن بَعضٍ، ومن شِدَّةِ تلك الفِتَنِ يَأتيهِ ما تَزِلُّ به قَدمُه عَن صِفَةِ الإيمانِ؛ ولِعِظَمِ الفِتنِ يَنقَلِبُ الْإنسانُ في الْيومِ الواحِدِ هذا الانقِلابَ، ومِن شِدَّةِ تلك الفِتَنِ أيضًا أن يَترُكَ المرءُ دِينَه؛ مِنْ أجلِ مَتاعٍ دَنيءٍ، وثَمنٍ رَديءٍ. وقَولُه: «بعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا»، أي: ما يَعرِضُ فيها، وكُلُّ ما في الدُّنيا فهو عَرَضٌ، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يَعرِضُ ويزولُ؛ إمَّا أن تزولَ أنت قَبْلَه، أو يزولَ هو قَبْلَك.

أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أدوَمُها

عن عائِشةَ رضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُئِلَ: أيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إلى اللهِ؟ قالَ: ((أَدْوَمُه وإنْ قَلَّ))[٢].



(١) أخرجه مسلم (١١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٧٨٢) واللفظ له.

جعَلَ اللهُ تَعالى الأعمالَ الصَّالحةَ مُتفاضِلةً، وأفضَلُها هي التي يَستمِرُّ عليها صاحِبُها ويُداوِمُ عليها، كما في هذا الحَديثِ؛ حيث تُخبِرُ عائِشةُ رضِيَ اللهُ عنها: «أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُئِلَ: أيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إلى اللهِ؟»، أي: ما أفضَلُ الأعْمالِ التي تُقرِّبُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتكونُ سببًا في نَيلِ فَضلِهِ وثَوابِهِ، فقالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أَدْوَمُه وإنْ قَلَّ»، يَعْني أنَّ أفضَلَ تلك الأعْمالِ هي ما ثبَتَ وواظَبَ عليه صاحبُه، وإنْ كانتْ تِلكَ العِبادةُ التي يُداوِمُ عليها قليلةً؛ فالمواظَبةُ عليها أمرٌ حسَنٌ؛ لأنَّها تُكَثِّرُها، وتَجعَلُ صاحِبَها دائمَ الصِّلةِ بالعمَلِ الصَّالحِ؛ فبيَّنَ الحَديثُ أنَّ العَملَ القليلَ الدائمَ خيرٌ مِن الكثيرِ المُنقطِعِ.

الزُّهدُ في الدُّنيا

عن عَبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: أَخَذَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمَنكِبِي، فقال: ((كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غَريبٌ أو عابِرُ سَبيلٍ))، وكان ابنُ عُمَرَ يقولُ: (إذا أمسَيتَ فلا تنتَظِرِ الصَّباحَ، وإذا أصبَحْتَ فلا تنتَظِرِ المساءَ، وخُذْ مِن صِحَّتِك لِمَرَضِك، ومن حياتِك لِمَوتِك)[1].



في هذا الحديثِ يَحكي عبدُاللهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعظَه، فقال له: «كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ»، أي: ليَكُنْ حالُك في الدُّنيا كالذي قَدِمَ بلدًا لا مَسكَنَ له فيه يُؤوِيه، ولا ساكِنَ يُسلِّيه، وهو خالٍ مِن الأهلِ والعِيالِ والعَلائِقِ التي هي سَببُ الاشتِغالِ عن الخالِقِ، أو كُنْ كالذي يَستوحِشُ مِن الناسِ؛ إذ لا يَكادُ يمُرُّ بمَن يَعرِفُه فيأنَسُ به، ويَستكثِرُ بخُلطتِه.

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).



«أوْ عابِرُ سَبيلٍ»، أو كُنْ كالذي خرَج مُسافِرًا يمرُّ بالبِلادِ غيرَ مُتوقِّفٍ فيها إلَّا ليتزوَّدَ منها؛ فعابرُ السَّبيلِ أشدُّ زهدًا في مُغرياتِ طَريقِه مِن الغَريبِ؛ لأنَّ الغَريبَ قدْ يَسكُنُ في بِلادِ الغُربةِ ويُقيمُ فيها، بخِلافِ عابِرِ السَّبيلِ القاصِدِ للبَلَدِ، وبَينَه وبَينَه مسافاتٌ شاسِعةٌ وهو في حالةِ تخفُّفٍ دائمةٍ مِن الأثقالِ حتى لا تُعيقَه أو تُؤخِّرَه عن بُلوغِ مَقصدِه. وقيل: إنَّ «أو» للإضرابِ بمعنى (بلْ)، والمعنى: بلْ كُنْ كأنَّك عابرُ سَبيلٍ، وهو ارتِفاعٌ به إلى مَنزلةٍ أعلَى في الزُّهدِ من مَنزلةِ الغَريبِ.

والمرادُ: أنَّ على المُؤمنِ أنْ يَستحضِرَ في قلبِه دائمًا حالةَ الغريبِ أو المُسافِرِ لحاجتِه وغايتِه في تَعامُلِه مع شَهواتِ الدُّنيا ومُتطلَّباتِها؛ ليَصِلَ بذلك إلى آخِرتِه -التي هي دارُ إقامتِه الدائمةِ- في أسْلمِ حالٍ؛ فهو لا يَركَنُ إلى الدُّنيا، بلْ يُعلِّقُ قلْبَه بالدَّارِ الآخِرةِ، فإذا فاجَأه الموتُ كان كمَنْ وصلَ إلى غايتِه.

وقد تعَلَّم ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما هذا الدَّرسَ ووَعاه جيدًا، فكان يقولُ لنَفسِه ولغيرِه: «إذا أَمسيتَ فلا تَنتظرِ الصَّباحَ»؛ بألَّا تُؤخِّرَ عَمَلًا من الطَّاعاتِ إلى الصَّباحِ؛ فلعلَّك تكونُ من أهلِ القُبورِ، وإذا أصبحتَ فلا تُؤخِّرْ عَمَلَ الخيرِ إلى المساءِ؛ فقد يُعاجِلُك الموتُ، واغتنِمِ الأعمالَ الصَّالحةَ في الصِّحَّةِ قبل أن يحُولَ بيْنك وبيْنها المرضُ، واغتنِم حياتَك في الدُّنيا فاجمَعْ فيها ما ينفَعُك بعد مَوتِك.

مَثَلُ المؤمِنِ ومَثَلُ الكافِرِ

عن كَعبِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَثَلُ المؤمِنِ كمَثَلِ الخامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُفَيِّئُها الرِّيحُ؛ تَصْرَعُها مَرَّةً وتَعْدِلُها أُخْرى، حتى تَهِيجَ، ومَثَلُ الكافِرِ كمَثَلِ الأَرْزَةِ المُجْذِيَةِ على أصْلِها، لا يُفِيئُها شَيءٌ، حتى



يَكونَ انْجِعافُها مَرَّةً واحِدَةً!))[1].



في هذا الحديثِ تَشبيهٌ رائعٌ مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الذي أُوتِيَ جَوامعَ الكَلِمِ؛ فقد شبَّهَ المؤمِنَ بالخَامَةِ مِنَ الزَّرعِ، وهي القَصبةُ اللَّيِّنةُ، والغُصنةُ الطَّريَّةُ التي تُميلُها الرِّيحُ فتَقلِبُها مرَّةً وتَعدِلُها أُخْرى، وشبَّهَ الكافرَ بالأَرْزَةِ، وهو شَجرٌ ضخْمٌ من فَصيلةِ الصَّنَوْبَرِ، يُعمَّرُ طويلًا، وهي مُجْذِيةٌ على أصْلِها، يعني: ثابتةً مُنتصِبةً، فلا تُميلُها الرِّيحُ، حتى يكونَ انقِلاعُها مرَّةً واحدةً، ووجهُ التَّشبيهِ: أنَّ المؤمِنَ إنْ جاءَهُ أمرُ اللهِ انْصاعَ له ورضِيَ به؛ فإنْ جاءَهُ خَيرٌ فرِحَ به وشكَرَ، وإنْ وقَعَ به مَكروهٌ صبرَ ورجا فيه الأجرَ، فهو لا يزالُ بيْنَ عافيةٍ وبلاءٍ، ومِحنةٍ ومِنحَةٍ، وغيرِ ذلك، فيقعُ مرَّةً ويقومُ أُخْرى، ويَميلُ تارةً ويعتَدِلُ أُخْرى، فيُكَفَّرُ عنه بالبلاءِ ويُمَحَّصُ به. أمَّا الكافرُ فإنَّه لا يُصيبُه البلاءُ غالبًا، بل يُجعَلُ له التَّيسيرُ في الدُّنيا ليتعسَّرَ عليه الحالُ في المَعادِ، حتى إذا أرادَ اللهُ إهلاكَه قصَمَه، فيكونُ موتُه أشَدَّ عذابًا عليه، وأكثَرَ ألَمًا في خُروجِ نفْسِه؛ لأنَّه قدِ انقطَعَ به حبْلُ النَّعيمِ الذي كان موصولًا به في الدُّنيا، وأمَّا في الآخِرةِ فهو مِنَ المُعذَّبينَ، وأمَّا المؤمِنُ فإنَّما يفرَحُ باقترابِ آخرتِه معَ ما فيه مِن بلاءٍ؛ لأنَّ النَّعيمَ الذي وعَدَه اللهُ به يأتي في الحياةِ الآخِرةِ.

الصَّدقةُ عن البَدَنِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((كُلُّ سُلامَى من النَّاسِ عليه صَدَقةٌ كُلَّ يومٍ تَطلُعُ فيه الشَّمسُ، قال: تَعدِلُ بيْنَ الاثنَينِ صَدَقةٌ، وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه فتَحمِلُه عليها أو تَرفَعُ له عليها متاعَه: صَدَقةٌ. قال: والكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ، وكُلُّ خُطوةٍ تَمشيها إلى الصَّلاةِ صَدَقةٌ، وتُميطُ الأذى عن

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٣)، ومسلمٌ (٢٨١٠) واللفظ له.



الطَّرِيقِ صَدَقةٌ))[1].



جعَلَ اللهُ كُلَّ أنواعِ الخَيرِ الذي يَبذُلُه الإنسانُ في حَقِّ نَفسِه بالعِبادةِ، وفي حقِّ غَيرِه بالمعروفِ: مِن صَدَقاتِ البَدَنِ وما فيه مِنَ الصِّحَّةِ والعافيةِ. وفي هذا الحديثِ يَذكُرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه على كلِّ سُلامَى من النَّاسِ صدقةٌ في كلِّ يومٍ تَطلُعُ عليه الشَّمسُ، والسَّلامى: هي المفاصِلُ، فكلُّ مَفصِلٍ مِن مَفاصلِ الإنسانِ عليه صَدقةٌ لِلهِ من فِعلِ الطَّاعةِ والخيرِ كلَّ يومٍ، وهذه الصَّدَقةُ تكونُ بتحَرُّكِها في الطاعةِ، واشتغالِها بالعبادةِ، فتركيبُ هذه العِظامِ وسَلامتُها مِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على عَبْدِه، فيَحتاجُ كُلُّ عَظمٍ منها إلى صَدَقةٍ يتصَدَّقُ بها ابنُ آدَمَ عنه؛ ليكونَ ذلك شُكرًا لهذه النِّعمةِ، والمرادُ صَدَقةُ نَدبٍ وتَرغيبٍ، لا إيجابٍ وإلزامٍ؛ فإنَّه يكفي في شُكرِ هذه النِّعَمِ أن يأتيَ بالواجِباتِ، ويجتَنِبَ المحَرَّماتِ.

ثُمَّ أَرشَدَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لبَعضِ وُجوهِ الطَّاعاتِ التي يَتصدَّقُ بها الإنسانُ عَن مَفاصلِه، فذكَرَ: أنَّ العَدلَ بيْن اثنينِ صُلحًا أو حُكمًا يكونُ صَدَقةً، والصُّلحُ خَيرٌ، لكِنْ إن عُلِمَ أنَّ الحَقَّ لأحدِهما فلا مَيْلَ عنه. ومنها: أن يُعينَ أخاه على رُكوبِ دابَّتِه وغَيرِها مِن وَسائِلِ النَّقلِ إنْ لم يَستَطِعِ الرُّكوبَ بنَفسِه، أو يُعينَه بوَضعِ مَتاعِه عليها، فتلك صَدَقةٌ، والمتاعُ: هو ما يُتمَتَّعُ به في السَّفَرِ من طعامٍ وشرابٍ وغيرِهما، والمرادُ بالأُخُوَّةِ هنا الدِّينيَّةُ لا النَّسَبيَّةُ؛ فالمُسلِمُ أخو المُسلِمِ يرجو له من الخيرِ ما يرجوه لنَفسِه، فيَبذُلُ المُسلِمونَ بعضُهم لبَعضٍ كُلَّ أنواعِ المعروفِ. ومِن الصَّدَقاتِ أيضًا: الكَلِمةُ الطَّيِّبةُ، سواءٌ كانت طَيِّبةً في حَقِّ اللهِ تعالَى، كالتَّسبيحِ والتَّكبيرِ والتَّهليلِ، أو في حَقِّ النَّاسِ، كحُسنِ الخُلُقِ؛ فإنَّها صَدَقةٌ. ومنها أيضًا: كلُّ خُطوةٍ يَمشيها العبدُ

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) واللفظ له.



إلى الصَّلاةِ، سواءٌ بَعُدَت المسافةُ أم قَصُرَت.

ومِن الصَّدَقاتِ: محوُ الأذى وإزالتُه عن الطَّريقِ، وهو كُلُّ ما يُؤذي المارَّةَ، فإذا أُميطَ عن طريقِهم فإنَّه صَدَقةٌ.

وفي الحديثِ الذي يَرْوِيه أبو ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ويُجزِئُ من ذلك رَكعتانِ يَركَعُهما من الضُّحى))[1]، أي: يَكفي مِمَّا وَجبَ عَلى السُّلامَى مِنَ الصَّدقاتِ صَلاةُ الضُّحَى رَكعتَينِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ عَمَلٌ بجَميعِ أعضاءِ البَدنِ، وتَشمَلُ جَميعَ ما ذُكِرَ مِنَ الصَّدقاتِ وغَيرِها.

لا يَنظُرُ اللهُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعْمالِكم))[2].



مَدارُ السَّعادةِ والشَّقاءِ في الدُّنيا والآخِرةِ على الالتِزامِ بأمْرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وتَوجيهِ الظاهِرِ والباطِنِ لِيُوافِقَ مُرادَه تَعالى، وقد يُشغَلُ الإنسانُ عن مُرادِ رَبِّه، ويَنسَى ما كُلِّفَ به، ويَصرِفُ جُهدَه كُلَّه في تَجميلِ الجَسَدِ، وكَنزِ المالِ، والتَّباهي بالأحسابِ والأنسابِ، وغَيرِ ذلك. وحَقيقةُ الأمْرِ أنَّ هذا كُلَّه لا قِيمةَ له عِندَ اللهِ، ولا يُغني عنِ الإنسانِ شَيئًا في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

وفي الآيةِ الكريمة تَقريرٌ لهذا المَعنَى العظيمِ؛ حيثُ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُنكِرَ على اليَهودِ والنصارَى الذين يُجادِلون بغير حقٍّ في توحيدِ الله تعالى؛ لإبطالِ دِينِ الإسلامِ، بزَعْمِ أنَّهم أَوْلَى باللهِ من المسلمين! فأمَرَه بأن يقولَ لهم: كيف لكم أن تدَّعوا ذلك وربُّ الجميعِ واحِدٌ؟ فليس ربًّا لكم دُوننا، ثُمَّ إنَّ لكلٍّ منا أعمالَه التي اكتسَبَها، وسيُجازيه اللهُ تعالى بحَسَبِها؛ فأنتُم لستُم بأفضلَ منَّا، بل نحن أَوْلى باللهِ منكم؛ لأنَّنا لا نُشرِكُ به شيئًا في عِبادتِه، وأنتم تُشرِكونَ؛ فمدارُ الأمرِ عند اللهِ تعالى على توحيدِه والعَمَلِ بطاعتِه، والعِبرةُ لديه بذلك.

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه يُقرِّرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا المَعنى، فيُبيِّنُ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يَنظُرُ نَظَرَ اعتِبارٍ وجَزاءٍ إلى ظاهِرِ صُوَرِكم وأجسامِكم، ولا إلى أموالِكم الخاليةِ مِنَ الخَيراتِ، فلا يُثيبُكم عليها، ولا يُقرِّبُكم بها، وإنَّما يَنظُرُ سُبحانَه إلى القُلوبِ التي هي مَحَلُّ التَّقوى وأوعيَتُها، فكَثيرٌ مِمَّن له صورةٌ حَسَنةٌ أو مالٌ أو جاهٌ أو رِياسةٌ في الدُّنيا: قد يكونُ قَلبُه خَرابًا مِن التَّقوى، وقد يكونُ مَن ليس له شَيءٌ مِن ذلك مملوءًا قَلبُه بالتَّقوى، فيكونُ أكرَمَ عندَ اللهِ تعالى؛ فمَحَلُّ الاعتبارِ عند اللهِ ليس جمالَ المَظهَرِ، وليس كثرةَ المالِ، والمَنصِبَ، وإنَّما الاعتبارُ بالقَلبِ.

جَزاءُ الحَسَنةِ والسَّيِّئةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، عَن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يَروي عن رَبِّه تبارَكَ وتعالَى، قال: ((إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، ثم بَيَّنَ ذلك؛ فمَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يَعمَلْها، كَتَبَها اللهُ عِندَه حَسَنةً كامِلةً، وإنْ هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبَها اللهُ عَزَّ وجَلَّ عِندَه عَشْرَ حَسَناتٍ، إلى سَبعِمِئةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كَثيرةٍ، وإنْ هَمَّ بسَيِّئةٍ



فلم يَعمَلْها كَتبَها اللهُ عِندَه حَسَنةً كامِلةً، وإنْ هَمَّ بها فعَمِلَها كَتبَها اللهُ سَيِّئةً واحِدةً))[1].

وفي رِوايةٍ زيادة: ((ومَحاها اللَّهُ، ولا يَهلِكُ على اللهِ إلَّا هالِكٌ))[2].

اللهُ عَزَّ وجَلَّ واسِعُ الرَّحمةِ، جَزيلُ العَطاءِ، ومُعاملتُه لعِبادِه دائرةٌ بين العَدلِ والفَضلِ، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** يذكُرُ اللهُ تعالَى أنَّ مَنْ وَافَى ربَّه يومَ القِيامَةِ بالخَصْلَةِ الحَسَنةِ التي تُرْضِي اللهَ تعالَى، والتي كان يَعْمَلُها في الدُّنيا: له مِنَ الثَّوابِ عَشْرُ حَسَناتٍ؛ كُلُّ حَسَنةٍ منها مِثْلُ حَسَنَتِه التي جاءَ بها، وقدْ تبْلُغُ المُضاعَفةُ إلى سَبعِمِئةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كَثيرةٍ، وذلك فَضلُ اللهِ يُؤْتيه من يشاءُ. وأمَّا مَنْ وافَى رَبَّه سبحانه يَوْمَ القيامةِ بالخَصْلَةِ السَّيِّئةِ التي تَسُوءُ صاحِبَها، فجَزاؤُه سَيِّئةٌ واحِدةٌ مِثْلُها مِن غَيرِ مُضاعَفتِها عليه، فلا أحَدَ يُظلَمُ عِندَ اللهِ تعالَى، فلا يُزادُ في سيِّئاتِ المُسيءِ، ولا يُنقَصُ مِن حَسَناتِ المُحْسِنِ، وهذا من تمامِ عَدْلِه سبحانَه وإحسانِه.

وفي حديثِ عَبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما بَيانٌ لِكَرَمِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مع العِبادِ في كِتابةِ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، فيَروي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن رَبِّه عَزَّ وجَلَّ في الحَديثِ القُدُسيِّ أنَّ اللهَ تَعالى أمَرَ المَلائِكةَ الحَفَظةَ بكِتابةِ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ لِلعَبدِ؛ لِيُجازيَه بها في الدَّارِ الآخِرةِ، أو أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدَّرَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ قَديمًا وَفقَ عِلْمِه سُبحانَه، ثمَّ بَيَّنَ اللهُ لِلمَلَكَينِ كيف يَكتُبانِها، فمَنْ هَمَّ مِنَ العِبادِ بحَسَنةٍ فلم يَعمَلْها كَتبَها اللهُ عِندَه حَسَنةً كامِلةً، والهَمُّ هو النيَّةُ وعَقدُ العَزمِ، والمَعنى: فمَن نَوَى فِعْل حَسَنةً ولكِنَّه لم يَفعَلْها لسَبَبٍ من الأسبابِ، كَتبَها اللهُ عِندَه حَسَنةً كامِلةً غَيرَ مَنقوصةٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٣١).



واطِّلاعُ المَلَكِ على النيَّةِ التي هي مِن فِعلِ القَلبِ يَكونُ بإطْلاعِ اللهِ تَعالى إيَّاه، فإذا هو عَمِلَها كَتَبَها اللهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبعِمئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كَثيرةٍ؛ فقد يُضاعِفُ ثَوابَها إلى سَبعِمِئةٍ، وإلى أكثرَ مِن ذلك، بحَسَبِ الإخلاصِ، وصِدقِ العَزمِ، وحُضورِ القَلبِ، وتَعدِّي النَّفعِ، واللهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشاءُ. ومَن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلمْ يَعمَلْها -خوْفًا مِن اللهِ وحَياءً منه- كَتَبَها اللهُ عِندَه حَسَنةً كامِلةً، بحيثُ لا يَنقُصُ مِن ثَوابِها شَيءٌ، فإنْ عَمِلَها كَتَبَها اللهُ عليه سَيِّئةً واحِدةً دونَ زِيادةٍ أو مُضاعَفةٍ كما في الحَسَناتِ.

وقولُه: «ومَحاها اللهُ» أي: ومحَى الله تعالى تلك السيئةَ الواحدةَ المكتوبةَ عليه بعملِه إيَّاها، وأزالَ أثرَها عن صحفِ الملائكةِ بمحضِ فضلِه، أو باستغفارِه عنها، أو بتكفيرِ حسناتِه إيَّاها، «ولا يَهْلِكُ على اللهِ إلَّا هالِكٌ»: فلا يهلِكُ معَ سَعةِ رحمتِه تعالى، وواسعِ فضلِه إلا هالكٌ.

حَديثُ النَّفْسِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ تَجاوَزَ لأُمَّتي ما حَدَّثَتْ به أنفُسَها ما لم يَتَكَلَّموا أو يَعْمَلوا بِهِ))(١).



إنَّ مِن رحمةِ اللهِ تعالَى على عِبادِه أنَّه لا يُحمِّلُ نَفْسًا فوقَ طاقتِها، فلا يتعبَّدُها إلَّا بما يَسَعُها تَحمُّلُه، ولا يُضيِّقُ عليها، ولا يُجهِدُها بما لا قِبَلَ لها به، **كما دلَّت على ذلك الآيةُ المذكورةُ**، ومن ذلك أنَّه لا يُعذِّبُ أحدًا بسببِ شيءٍ لا يُمكِنُ له دفْعُه؛ كوسوسةٍ عَرَضتْ له، أو خَطْرةٍ خطَرتْ بقَلْبِه.

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (٢٥٢٨)، ومسلمٌ (١٢٧) واللَّفظُ له.



وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه بيانٌ لتمامِ رَحمةِ اللهِ تعالَى بهذه الأُمَّةِ، وتخفيفِه على عِبادِهِ، وأنَّه سُبحانَه لم يُكلِّفْها ما لا تُطيقُ، فلَم يُؤاخِذِ الإنسانَ بما يَجْري في داخلِ النَّفسِ مِنَ الخواطرِ السَّيِّئةِ، والأحاديثِ الطَّارئةِ التي لا ثباتَ لها ولا استقرارَ في النَّفسِ، ولا رُكونَ إلَيْها، وقدْ صرَّحَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا الحديثِ أنَّ اللهَ تَجاوزَ عَن هذه الأُمَّةِ؛ فلَم يُؤاخِذْها أو يُعاقِبْها بما حدَّثتْ به أنفُسَها مِنَ الشَّرِّ ما دام ذلك لم يَتعَدَّ إلى الكلامِ: كالغِيبةِ، والنَّميمةِ، والكَذِبِ، والقَذفِ، ونحوِها مِن آفاتِ القَوْلِ، أو يتعَدَّ إلى الفعلِ: كالسَّرِقةِ، أو الزِّنا، أو القتْلِ، أو شُربِ الخمرِ، ونحوِها مِن آفاتِ الجوارحِ، وهذا الذي قاله النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِفتاحُ فَرَجٍ للأُمَّةِ في كلِّ ما يَرِدُ على قُلوبِها أو على أنفُسِها منَ الوَساوِسِ والشُّبُهاتِ والشَّطَحاتِ.

الأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدةٌ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((الأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدةٌ، فما تَعارَفَ مِنها ائتَلَفَ، وما تَناكَرَ مِنها اختَلَفَ))[1].



التَّشابُه في السَّجايا والطِّباعِ سَبيلُ التَّرابُطِ والتَّآلُفِ، والاختِلافُ سَبيلُ التَّنافُرِ والتَّباعُدِ، واللهُ عَزَّ وجَلَّ خَلَقَ الأرواحَ يُشبِهُ بَعضُها بَعضًا، ويَختَلِفُ بَعضُها عن بَعضٍ، وفي هذه الآيةِ الكريمةِ يَذكُرُ اللهُ تعالى أنَّه جمعَ بين قُلوبِ أصحابِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الحَقِّ؛ إيمانًا به ومناصرةً له، فأصبَحوا بنِعمَتِه إخوانًا مُتحابِّينَ مُؤتَلِفينَ، بعد أنْ كانوا أعداءً مُتنافرينَ مُتفرِّقينَ، ولو بَذَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جميعَ ما في

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٨). وأخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم (٣٣٣٦) من حديث عائشة.

الأرضِ؛ مِن ذهبٍ وفِضَّةٍ، وأموالٍ وغَيرِ ذلك؛ لِيجمَعَ بينَ قلوبِ أصحابِه، لَمَا استطاعَ ذلك أبدًا؛ لِشدَّةِ العَداواتِ التي كانت مُستحكِمةً بينهم، ولكِنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ بقُدرَتِه الباهرةِ وحكمتِه البالغةِ هو وَحْدَه من جمَعَ بينهم على الهُدى.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه يُقرِّرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذه الحَقيقةَ، فيُخبِرُ أنَّ «الأرواح جُنودٌ مُجَنَّدةٌ»، أي: جُموعٌ مُجتَمِعةٌ، أو أنواعٌ مُختَلِفةٌ، «فما تَعارَفَ منها» بأنْ وافقَها في الأخلاقِ والصِّفاتِ؛ وَقَعَت بَينَها الأُلفةُ والاجتِماعُ في هَذِه الدُّنيا، وجَمَعَها الصُّحبةُ والوُدُّ، وأعانتْ بَعضَها على هُمومِ الدُّنيا. «وما تَناكَرَ منها»: بمَعنى: تَنافَرَ في عالَمِ الأرواحِ، ولم يَتشابَهْ ويَتوافَقْ ويَتناسَبْ، «اختَلَفَ» في هذه الدُّنيا، وإنْ تَقارَبتْ جَسَدًا؛ فالائتِلافُ والاختِلافُ لِلأرواحِ في هذه الدُّنيا مَرَدُّه إلى كَونِها مَجبولةً على صُوَرٍ مُختَلِفةٍ وشَواكِلَ مُتَبايِنةٍ قَديمًا في عالَمِ الأرواحِ؛ فكُلُّ ما تَشاكَلَ منها وتَشابَه، تَعارَفَ في هذه الدُّنيا، ووَقَعَ بَينَه التآلُفُ، وكُلُّ ما كان في غَيرِ ذلك في عالَمِ الأرواحِ، تَناكَرَ في هذه الدُّنيا؛ فالمُرادُ بالتَّعارُفِ ما بَينَها مِنَ التَّناسُبِ والتَّشابُهِ، وبالتَّناكُرِ ما بَينَها مِنَ التَّبايُنِ والتَّنافُرِ، ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ إشارةً إلى مَعنَى التَّشاكُلِ في الخَيرِ والشَّرِّ، والصَّلاحِ والفَسادِ، وأنَّ الخَيِّرَ مِنَ النَّاسِ يَحِنُّ إلى شَكلِه، وأنَّ الشِّرِّيرَ يَميلُ إلى نَظيرِه، فتَعارُفُ الأرواحِ يَقَعُ بِحَسَبِ الطِّباعِ التي جُبِلتْ عَليها مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فإذا اتَّفقَتْ تَعارَفتْ، وإذا اختَلَفتْ تَناكَرتْ.

المُتَحابُّونَ في اللهِ عَزَّ وجَلَّ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ

اللهَ يَقولُ يَومَ القِيامةِ: أينَ المُتَحابُّونَ بجَلالي؟ اليومَ أُظلُّهُم في ظِلِّي يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي))[1].

الحُبُّ في اللهِ مِن أوثَقِ عُرى الإسلامِ، وهو مِن أبرَزِ سِماتِ المؤمِنينَ فيما بَينَهم، وقد وَعَدَ اللهُ تَعالى على هذا الخُلُقِ النَّبيلِ بواسِعِ الأجْرِ والعَطاءِ، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** يذكُرُ اللهُ تعالى صورةً مُشرِقةً للمَحبَّةِ بيْن المُؤمنينَ في الله، متمثِّلةً في الأنصارِ رضي الله عنهم، ومحبَّتِهم العظيمةِ للمهاجِرينَ إليهم؛ إذ لا رابِطةَ قرابةٍ بينهم، ولا مصلحةً دُنيويَّةً تَجمَعُهم، وإنَّما هم متآلِفونَ برِباطِ الأُخُوَّةِ في الدِّينِ، فليس في صُدورِ أولئك الأنصارِ أيُّ حَسَدٍ ممَّا أعطاه اللهُ ورسولُه للمهاجرين مِن فَيءِ بني النَّضيرِ أو غيرِه، بل يتصَدَّقُ الأنصارُ بأموالِهم وطعامِهم وغيرِه؛ إيثارًا للمُهاجِرينَ على أنفُسِهم، ولو كان بهم فَقرٌ وحاجةٌ شديدةٌ لذلك. ومن سلَّمه اللهُ من شِدَّةِ حِرصِ النَّفسِ على جمعِ المالِ فلم يَبخَلْ به، فهو من الفائزينَ الظَّافرينَ حَقًّا.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعضَ هذا العَطاءِ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِلمُتَحابِّينَ فيه، فيُخبِرُ أنَّه سُبحانَه يَقولُ يَومَ القِيامةِ على رُؤوسِ الأشهادِ؛ تَعظيمًا لهم: «أينَ المُتحابُّونَ بجَلالي؟» يَعني: بِسَببِ عَظَمَتي ولِأجْلِ تَعظيمي، أوِ لِأجْلِ رِضَاي، ونَيْلِ ثَوابي، لا لغَرَضٍ سِوى ذلك من دُنيا أو نحوِها، «اليومَ أُظِلُّهم في ظِلِّي يَومَ لا ظِلَّ إلا ظِلِّي»، والمُرادُ منه ظِلُّ العَرشِ، كما في حَديثٍ آخَرَ بلفظ: ((المُتَحابُّونَ بجَلالي في ظِلِّ عَرْشي يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي))[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٦). وأخرجه البخاري (٦٨٠٦) بنحوه مطولًا.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٥٨)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٦/ ١١١) واللفظ لهما، والطبراني (١٨/ ٢٥٨) (٦٤٤) من حديثِ العِرْباضِ بنِ ساريةَ رضي الله عنه.

جوَّد إسنادَه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٨٣)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) =



وهذا فيه ما فيه مِنَ الثَّوابِ الجَزيلِ، والشَّرَفِ العَظيمِ لهم. والحديثُ فيه فَضلُ التَّحابِّ في اللهِ عزَّ وجَلَّ.

المَصائِبُ تَكفيرٌ عنِ المُسلِمِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وعن عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما مِن مُصيبةٍ يُصابُ بها المُسلِمُ إلَّا كُفِّرَ بها عنه، حتى الشَّوكَةِ يُشاكُها))[(١)].

وعن عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: دَخَلْتُ علَى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يُوعَكُ، فَمَسِسْتُه بيَدِي، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أَجَلْ، إنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنكُم! قالَ: فَقُلتُ: ذلكَ أنَّ لكَ أَجْرَيْنِ؟ فَقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَجَلْ. ثُمَّ قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما مِن مُسْلِمٍ يُصِيبُه أَذًى مِن مَرَضٍ فما سِواهُ إلَّا حَطَّ اللهُ به سَيِّئاتِه كما تَحُطُّ الشَّجَرةُ وَرَقَها))[(٢)].



للصَّبرِ على المَرضِ والابتلاءاتِ عُمومًا ثوابٌ عظيمٌ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وذلك أنَّ

= (١٠/ ٢٨٢)، والبُوصِيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٨/ ٢٦١)، وحسَّن إسنادَه الذهبي في ((العلو)) (٨٤)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٠٢٤)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٧١٥٨).

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢) واللفظ له.

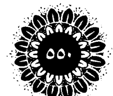
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٧)، ومسلم (٢٥٧١) واللفظ له.



اللهَ جعَل الابتلاءاتِ كفَّاراتٍ لذُنوبِ المُؤمنِ ورِفعةً لدرجاتِه، **وفي هذه الآيةِ المذكورةِ** بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الإصابةَ بالمكروهِ ونُزولَ البلاءِ: أمرٌ لا مَفَرَّ منه؛ فهي طبيعةٌ في الحياةِ وسُنَّةٌ ربَّانيَّةٌ اقتضَتْها حِكمتُه سبحانه، ومن رحمتِه عزَّ وجَلَّ أن أخبرَ عِبادَه بذلك في كتابِه؛ من أجلِ تَوطينِ نُفوسِهم على المصائبِ قَبلَ حلولِها؛ فتَخِفُّ وتَسهُلُ عليهم إذا وقعَتْ، وبَيَّنَ لهم ما تُقابَلُ به تلك الابتلاءاتُ، وهو الصَّبرُ عليها، فإنْ قالوا عن اعتقادٍ ويقينٍ: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعونَ» أي: إنَّهم عَبيدٌ مملوكونَ لله الذي له مُطلَقُ التصرُّفِ فيهم بحِكمتِه ورحمتِه، وإنَّهم مُنتَقِلون من هذه الدُّنيا الفانيةِ وما فيها من مصائِبَ، وصائِرون إليه وحْدَه يومَ المعادِ؛ فلهم البِشارةُ بالخيرِ، ولهم مِنَ اللهِ تعالى ثناءٌ عليهم وتَنويهٌ بشأنِهم، وتتنزَّلُ عليهم منه سبحانه الرَّحماتُ بقَدْرِ صَبرِهم.

وفي حديثِ عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها تَسليةٌ لِلمُؤمنِ فيما يُصيبُه مِن مَصائِبِ الدُّنيا، أيًّا كان نَوعُ هذه المَصائِبِ وحَجمُها؛ حيث ذَكَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُصيبةَ في هذا الحَديثِ مُنكَّرةً لِتُفيدَ العُمومَ، فكُلُّ ما يُصيبُ المُسلِمَ مِن مَصائِبَ كَبيرةٍ أو صَغيرةٍ، جَليلةٍ أو حَقيرةٍ: يَكونُ تَكفيرًا لِذُنوبِه، حتى لو كانت هذه المُصيبةُ شَوكةً تُصيبُ العَبدَ، برَغمِ ضَعفِها إذا ما قُوبِلتْ بالمَصائِبِ الكِبارِ، إلَّا أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يُضيعُ أجرَها على المُؤمِنِ، فيَرفَعُ اللهُ بها دَرَجَتَه، ويَحُطُّ عنه خَطاياه، ويُطهِّرُه بها مِن ذُنوبِه ومَعاصيه الصَّغائِرِ منها.

وفي حديثِ عبدِاللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ أنَّه دخلَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يُوعَكُ وَعْكًا شديدًا حتى مسَّه بيَدِه، والوَعْكُ: هو شِدَّةُ الحُمَّى أو ألَمُها والرِّعْدةُ فيها، فأخبرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ وَجَعَ مرضِه هذا كوجَعِ رَجُلينِ، وذلك أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ له أجرانِ. وبيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه «ما مِن مُسلِمٍ يُصِيبُه أذًى»: مَرَضٌ فما سواهُ، إلَّا كفَّرَ اللهُ به سيِّئاتِه كما تُلقي الشَّجَرَةُ وَرَقَها، فشبَّهَ محوَ السَّيِّئاتِ عنه سريعًا بحالةِ الشَّجرةِ، وهُبوبِ الرِّياحِ الخريفيَّةِ، وتناثُرِ



الأوراقِ منها سَريعًا، وتجرُّدِها عنها.

فَضلُ مَن ماتَ له أولادٌ صِغارٌ

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النِّساءَ قُلْنَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اجْعَلْ لنا يومًا، فوَعظَهُنَّ وقالَ: ((أيُّما امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ، كَانُوا حِجَابًا مِنَ النَّارِ. قالتِ امْرَأَةٌ: واثْنَانِ؟ قالَ: واثْنَانِ))[1].



كَتَبَ اللهُ تعالَى على عِبادِه البَلاءَ لحِكَمٍ جَليلةٍ، ووعَدَ المُؤمنِينَ الصابِرينَ بِالأَجْرِ الجَزيلِ إذا صبَروا على ما ابْتَلاهم به، ورَضُوا بقَضاءِ اللهِ تعالَى وشَكرُوه على نَعْمائِه وضَرَّائِه، وإنَّ مِن أشدِّ الابتلاءاتِ فُقدانَ الأقاربِ والأحبابِ، ولعَلَّ أشدَّها فُقدانُ الأوَّلادِ صِغارًا؛ فالولدُ أحبُّ ما يكونُ إلى والدَيهِ وهو صغيرٌ لم يَبلُغْ أنْ يُؤذِيَهُما أو يَعصِيَهُما ويَعقَّهُما، فإذا تُوفِّي في هذه السِّنِّ كان الألمُ شَديدًا في قلبِ والِدَيه؛ ومِن أجْلِ ذلك عَظَّمَ اللهُ أجْرَ مَن يموتُ له وَلَدانِ فأكثرُ، وفي هذا الحَديثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأجْرَ الكَبيرَ الذي وعَدَ اللهُ تعالَى به الأمَّ التي يموتُ لها أولادٌ صِغارٌ في حَياتِها، فيُخْبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لا يموتُ لامْرأةٍ ثلاثةٌ مِن الولدِ ذُكورًا كانوا أو إناثًا -فلفظُ (الوَلَد) يُطلَقُ على الجِنسينِ-؛ إلَّا كانوا حِجابًا لها من النارِ، وهذا وعدٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يُدخِلَها الجَنةَ؛ جَزاءً لها علَى مُصيبتِها تِلك، وقدْ عُرِفَ مِن قَواعدِ الشريعةِ أنَّ الثوابَ لا يَترتَّبُ إلَّا على النيَّةِ الصَّحيحةِ؛ فلا بدَّ لنيْلِ هذا الثَّوابِ العَظيمِ مِن الصَّبْرِ واحتِسابِ الأجْرِ عِندَ اللهِ سُبحانَه، كما جاءَ مُصرَّحًا به في حَديثِ أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه: ((لا يموتُ لإحداكُنَّ ثَلاثةٌ مِن الولدِ فتَحْتَسِبُه))[2]، والمرادُ

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٩) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٣٢). وأخرجه البخاري (١٢٤٩) بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري.



بالاحتِسابِ هنا: هو الصَّبرُ والرِّضا بقَضاءِ اللهِ وقدَرِه، وخاصَّةً عِندَ أوَّلِ وُقوعِ المُصيبةِ؛ فعن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّما الصَّبرُ عِندَ الصَّدمةِ الأُولى))[1].

وفي رِوايةٍ شارِحةٍ ومُكمِّلةٍ لهذه الرِّوايةِ: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما مِن النَّاسِ مِن مُسلمٍ يُتوفَّى له ثَلاثٌ لم يَبْلغُوا الحِنثَ، إلَّا أدْخَلَه اللهُ الجَنةَ بفَضلِ رَحمتِه إيَّاهم))[2]، وفي هذه الرِّوايةِ تَقييدُ الأولادِ المَذكورِينَ في الحَديثِ بعَدَمِ بُلوغِهم سِنَّ التَّكليفِ الذي يُكتَبُ فيه الإثمُ على المُذنبِ. وفيها أيضًا: أنَّ هذا الحُكمَ لا يَختصُّ بالأُمَّهاتِ، وإنَّما يَشمَلُ الآباءَ أيضًا، وإنَّما خَصَّ النِّساءَ بالذِّكرِ في هذِه الرِّوايةِ؛ لأنَّ الخِطابَ حِينئذٍ كان للنِّساءِ؛ فقدْ كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَعظِهنَّ، كما هو مُصرَّحٌ به في أوَّلِ الحَديثِ.

ثُمَّ سَألتِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صحابيَّةٌ حَريصةٌ على الخَيرِ قائلةً: «واثْنَانِ؟»، تَعني: هلْ يَجري هذا الحُكمُ والوَعدُ والجَزاءُ العَظيمُ على مَن ماتَ له اثنانِ فقط؟ فأجابَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقولِه: «واثْنَانِ»، أي: نعَمْ! مَن مات لها اثنانِ واحتَسبَتْهُما نالَتْ هذا الأجْرَ كذلك. وفي رِوايةِ النَّسائيِّ مِن حَديثِ أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه: ((قالتِ المرأةُ: يا ليْتَني قلتُ: وواحِدًا))[3].

وفي هذا دَلالةٌ على أنَّ أوْلادَ المُسلمينَ فى الجَنَّةِ، وفيه بيانٌ لفَضلِ اللهِ العَظيمِ على عِبادِه الصَّابِرينَ، بتكفيرِ الخَطايا والذُّنوبِ بما يَنالُهم من فِقدانِ أولادِهم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٣) واللفظ له، ومسلم (٩٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٨) من حديثِ أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي (١٨٧٢).

صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (١٨٧٢).

لا يَبقَى معَ المَيِّتِ إلا عَمَلُه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يَتبَعُ المَيِّتَ ثَلاثَةٌ، فيَرجِعُ اثنانِ ويَبقَى واحِدٌ؛ يَتبَعُه أهلُه ومالُه وعَمَلُه، فيَرجِعُ أهلُه ومالُه، ويَبقَى عَمَلُه))(١).



الآخِرةُ هي الدَّارُ الباقيةُ، والسَّعيدُ هو مَن أكثَرَ مِنَ الأعمالِ الصَّالِحةِ في دُنياه؛ لِتكونَ نَجاةً له في قَبرِه ويَومَ تَقومُ الساعةُ، والشَّقيُّ مَن ضَيَّعَ دُنياه في جَمعِ المالِ، والانشغالِ بالأهلِ والأبناءِ؛ فهذا كُلُّه يُفارِقُ الإنسانَ عِندَ مَوتِه، ولا يَبقى له سِوى عَمَلِه، **وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ** يخاطِبُ اللهُ تعالى الظَّالِمينَ الذين يَفترونَ عليه الكَذِبَ، أو يُكَذِّبونَ بآياتِه، فإذا وَرَدوا إليه يومَ القِيامةِ جاؤوه بمُفرَدِهم بلا أهلٍ ولا أولادٍ، ولا جُنودٍ ولا أعوانٍ، ولا مالٍ ولا أثاثٍ، ولا رفيقٍ ولا صَديقٍ، ولا شيءٍ من الدُّنيا معهم، وليس معهم شُفعاؤُهم الذين كانوا في الدُّنيا يَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لله، فيَعبُدونَهم معه، ويزعمونَ أنَّهم يَشفَعونَ لهم عِند اللهِ؛ فقد اضمحلَّ ذلك كُلُّه، وغاب عنهم، وذهَبَ ما يُعَوِّلونَ عليه مِن الشَّفاعةِ لهم، ولم يَبْقَ لهم سوى أعمالِهم التي تُخزيهم وتُرْدِيهم.

وفي حديثِ أَنَسٍ رَضيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يَتْبَعُ المَيِّتَ إلى قَبرِه ثَلاثةٌ، فيَرجِعُ اثنانِ منها إلى مَكانِهما، ويَبقَى معه واحدٌ؛ يَتبَعُه أهلُه حَقيقةً،

(١) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠) واللفظ له.



مِن وَلَدِه وأقارِبِه، ويَتبَعُه مالُه، فيَرجِعُ أهلُه ومالُه، سواءٌ أقاموا بَعدَ الدَّفنِ أو لا، ويَبقى عَمَلُه فيَدخُلُ معه القَبرَ، ويُحاسَبُ عليه وَحدَه. وفي هذا المَعنى تَرغيبٌ وتَرهيبٌ؛ تَرغيبٌ في أنْ يَسعَى الإنسانُ في دُنياه لاكتِسابِ كُلِّ عَمَلٍ صالِحٍ يَبقى له في قَبرِه، ويَنفَعُه في آخِرَتِه، فيَكونُ سَبَبًا لِدُخولِ الجَنَّةِ. وتَرهيبٌ وتَخويفٌ أنْ يأتيَ الإنسانَ المَوتُ وقد فَرَّط في الأعمالِ الصَّالِحةِ، وأكثَرَ مِنَ المَعاصي والذُّنوبِ؛ فتكونُ سَبَبًا في عذابِه.

سَعةُ رَحمةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وعَظيمُ مَغفِرَتِه لِلذُّنوبِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وعن أبي مُوسَى الأَشعريِّ -عَبدِ اللهِ بنِ قَيسٍ- رَضيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَبسُطُ يَدَه باللَّيلِ؛ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يَدَه بالنَّهارِ؛ لِيَتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها))(١).

وعن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قُدِمَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بسَبْيٍ، فإذا امرأةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبتَغي، إذا وَجَدتْ صَبيًّا في السَّبْيِ أخَذَتْه فألْصَقَتْه ببَطنِها وأرضَعَتْه، فقال لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أتُرَونَ هذه المَرأةَ طارِحةً وَلَدَها في النَّارِ؟)) قُلنا: لا، واللَّهِ، وهي تَقدِرُ على ألَّا تَطرَحَه. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لَلهُ أرحَمُ بعِبادِه مِن هذه بوَلَدِها))(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) واللفظ له.

رَحمةُ اللهِ وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ، ومِن رَحمَتِه أنَّه فتَحَ بابَ التَّوبةِ لِعِبادِه باللَّيلِ والنَّهارِ.

وقد جاءتِ **الآيةُ الأُولى** خِطابًا من الله تعالَى لمُوسى عليه السَّلامُ، وإعلامًا بأنَّ رحمتَه قد عَمَّت في الدُّنيا جميعَ خَلْقِه بلا استثناءٍ.

وجاء النَّهيُ الإلهيُّ في **الآيةِ الثَّانيةِ** لجَميعِ العِبادِ الذين أكثَروا مِنَ السَّيِّئاتِ بالكُفرِ أو المعاصي، فأثقَلوا أنفُسَهم بالآثامِ، عن انقِطاعِ رَجائِهم واليأسِ مِن رَحمةِ رَبِّهم مُعتَقدينَ أنَّ اللهَ لن يَغفِرَ لهم ذُنوبَهم؛ فإنَّ اللهَ بالِغُ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، عَظيمُ الرَّحمةِ بهم. والقُنوطُ مِن رحمتِه فيه ظَنٌّ ما لا يليقُ باللهِ جلَّ وعلا؛ فإنَّ اللَّائقَ به أنَّ مَن لَجَأ إليه لا يُخَيِّبُه ولا يَرُدُّه.

وقولُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾ فيه إقبالُه سُبحانَه عليهم، وفي ذلك مُنتَهى الاطمِئنانِ لهم؛ لِمَحوِ ما سَبَقَ لهم مِن ذُنوبٍ، وفيه مِنَ التَّودُّدِ إليهم والتَّلَطُّفِ بهم ما يُهيبُ بذَوي العُقولِ السَّليمةِ إلى المُبادَرةِ بالإنابةِ والتوبةِ.

وقَولُه تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ فيه بيانٌ لِسَعةِ الرَّحمةِ الإلهيَّةِ؛ حيث أُضِيفَتْ إلى اللهِ، وهو الاسمُ العَلَمُ الذي تَتْبَعُه جميعُ الأسماءِ.

وحَديثُ أبي مُوسى الأشعريِّ رَضيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ عَظيمَ فَضلِ اللهِ تعالَى وسَعةِ رَحمَتِه، وأنَّه يَقبَلُ التَّوبةَ عَن عِبادِه وإنْ تأخَّرتْ بَعدَ ارتِكابِ الذَّنبِ، فالتَّوبةُ -وإنْ كان الإنسانُ مأمورًا بها على الفورِ- فإنَّها إذا تأخَّرَتْ قَبِلَها اللهُ عزَّ وجلَّ، فإنْ أذنَبَ العَبدُ ذَنبًا بالنَّهارِ وتابَ باللَّيلِ، قَبِلَ اللهُ تَوبَتَه، وإنْ أذنَبَ ذَنبًا باللَّيلِ وتابَ بالنَّهارِ، قَبِلَ اللهُ تَوبَتَه، وبَسَطَ يَدَه سُبحانَه يَتَلقَّى بِهما تَوبةَ التَّائِبِ فَرَحًا بِها، وقَبولًا لها. ولا يَزالُ الأمرُ كذلك بالعِبادِ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها، فإذا طَلَعَتْ مِن مَغرِبِها قُبَيلَ يَومِ القيامةِ فإنَّ بابَ التَّوبةِ يُغلَقُ، فلا تُقبَلُ بَعدَ تلك العَلامةِ تَوبةُ أحَدٍ، وهذه مِن العَلاماتِ الكُبرى لِقيامِ الساعةِ، وفي الحَديثِ إثباتُ صِفةِ اليَدِ لِلهِ عَزَّ وجَلَّ، فنُؤمِنُ بها مِن غيرِ تأويلٍ ولا

تَمثيلٍ، ومِن غَيرِ تَحريفٍ ولا تَعطيلٍ.

وفي حَديثِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنه بَيانٌ لسَعةِ رَحمةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فقدْ قَدِمَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَبْيٌ، قيلَ: هم أَسْرَى هَوازِنَ، وكان فيهمُ امرأةٌ تبحث عن وَلَدِها، وفي أثناءِ سَعْيِها وَجَدَتْه، فحَضَنَتْه بشِدَّةٍ وأرضَعَتْه؛ فلَمَّا شاهَدَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شِدَّةَ رَحمَتِها وحِرصِها على وَلَدِها، ضَرَبَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن حالِها مِثالًا تُدرِكُه الحَواسُّ فيُقَرِّبُ لِلسَّامِعينَ سَعةَ رَحمةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بعِبادِه؛ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أتُرَوْنَ هذه المَرأةَ طارِحةً وَلَدَها في النَّارِ؟» بمَعنى: أتَظُنُّونَ هذه المَرأةَ راميةً وَلَدَها هذا في النَّارِ؟ فأجابَ الصَّحابةُ رَضيَ اللهُ عنهم بأنَّ الأُمَّ لا تَطرَحُ وَلَدَها طائِعةً أبَدًا، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «لَلَّهُ أرحَمُ بعِبادِه مِن هذه المَرأةِ بوَلَدِها»؛ فمَغفِرَتُه عَزَّ وجَلَّ ورَحمَتُه أوسَعُ مِن غَضَبِه؛ فإنَّه سُبحانَه لا يُنزِلُ عِقابَه ابتِداءً، وإنَّما يَستَعمِلُ رَحمَتَه ويُهديها عِبادَه أوَّلًا، ولا يُعذِّبُ إلَّا مَن يستحِقُّ العَذابَ.

التَّصدُّقُ قَبلَ المَوتِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

وعن عَبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أيُّكم مالُ وارِثِه أحَبُّ إليه مِن مالِه؟ قالوا: يا رَسولَ اللهِ، ما مِنَّا أحَدٌ إلَّا مالُه أحَبُّ إليه. قال: فإنَّ مالَه ما قَدَّمَ، ومالَ وارِثِه ما أخَّرَ))(١).



(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٢).

حَثَّ الإسلامُ على المُبادَرةِ بالصَّدَقةِ ووَعَدَ عليها بالأجْرِ العَظيمِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى بذلك **في هذه الآيةِ الكريمةِ**، وحَثَّ على الإنفاقِ والتصدُّقِ في وُجوهِ البِرِّ مِن قَبلِ نُزولِ أسبابِ الموتِ بالإنسانِ ومُشاهَدةِ حُضورِ عَلاماتِه، فحينَها يَندَمُ المُقَصِّرُ ويتحَسَّرُ المفَرِّطُ طالِبًا مِن رَبِّه عند احتضارِه أن يُمهِلَه فيُؤَخِّرَ مَوتَه لزمَنٍ يَسيرٍ فحَسْبُ؛ حتى يتمكَّنَ مِن التصدُّقِ لله تعالى، والعَمَلِ بطاعتِه، ولكِنَّ اللهَ تعالَى قد قضَى بأنَّه لن يُؤَخِّرَ أجَلَ أيِّ أحدٍ، فيَزيدَ في عُمُرِه إذا حَضَرَ وَقتُ مَوتِه.

وفي حديثِ عَبدِالله بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ المالَ الحَقيقيَّ لِلإنسانِ هو الذي يُنفِقُه على نَفْسِه وعيالِه، ويَتصَدَّقُ به حِسبةً لِلهِ، وما سِوى ذلك فمَصيرُه لِوَرَثَتِه، وقد سألَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أيُّ المالِ أفضَلُ وأحَبُّ لِلإنسانِ؟ أهو الذي يَبقى له، أم الذي سيذهبُ إلى مَن بَعدَه مِنَ الوَرَثةِ؟ فكانَ جَوابُ أصحابِه رَضيَ اللهُ عنهم أنَّه ليس هناك إنسانٌ إلَّا يُحِبُّ مالَه الذي يَملِكُه أكثَرَ مِمَّا يُحِبُّ مالَ غَيرِه؛ لِأنَّ ما يَملِكُه هو الوَسيلةُ إلى تَحقيقِ رَغَباتِه، فصَوَّبَ لهمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المَعنى وحَقيقَتَه؛ فإنَّ المالَ الذي يَملِكُه حَقيقةً هو المالُ الذي يصْرِفُه في حَياتِه في مصارِفِ الخيرِ، ومالَ وارِثِه ما أخَّرَه بعد مَوتِه له.

وفيه التَّحريضُ على تَقديمِ ما يُمكنُ تَقديمُه مِن المالِ في وُجوهِ القُربةِ والبِرِّ؛ لِيَنتفِعَ به في الآخِرةِ.

كُلُّ مَعروفٍ صَدَقةٌ

عَن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رضِيَ اللهُ عنهما، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((كُلُّ مَعروفٍ صَدَقةٌ))[1].

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٥). وأخرجه البخاري (٦٠٢١) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.



أصلُ الصَّدَقةِ ما يُخرِجُهُ المرءُ مِن مالِهِ مُتطوِّعًا به، ولأنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّةَ جاءتْ باليُسرِ والرَّحمةِ بالنَّاسِ أجمعينَ، فلم يَجعَلِ اللهُ الصَّدَقةَ حِكرًا على أهْلِ اليَسارِ، ومَن عِندَه فَضلُ مالٍ، بل وسَّعَ بابَ الخَيرِ والبِرِّ أمامَ عِبادِهِ؛ لِيَشمَلَ كلَّ مَعروفٍ يَبذُلُه المُسلِمُ، وفي هذا الحَديثِ يُوضِّحُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا المَعْنى ويُؤكِّدُه؛ حيثُ يُخبِرُنا أنَّ كلَّ مَعروفٍ صَدَقةٌ، يُثابُ عليها المُؤمِنُ ويُجازيهِ اللهُ بها وإنْ قلَّ، والمَعْروفُ يَشمَلُ كُلَّ أنواعِ البِرِّ والخَيرِ، وعلى هذا المَعْنى فإغاثةُ الملهوفِ صَدَقةٌ، والكلمةُ الطيِّبةُ صَدَقةٌ، ونوافلُ العِباداتِ البدنيَّةِ كلِّها صَدَقةٌ، وغَيرُها، كما في الصَّحيحَينِ من حِديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((... تَعدِلُ بيْنَ الاثنَينِ صَدَقةٌ، وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه فتَحمِلُه عليها أو تَرفَعُ له عليها متاعَه: صَدَقةٌ. قال: والكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ، وكُلُّ خُطوةٍ تَمشيها إلى الصَّلاةِ صَدَقةٌ، وتُميطُ الأذى عن الطَّريقِ صَدَقةٌ))[1].

التَّحذيرُ مِن فِتنةِ الدُّنيا

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) واللفظ له.

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يَهرَمُ ابنُ آدَمَ وتَشِبُّ منه اثنَتانِ: الحِرصُ على المالِ، والحِرصُ على العُمُرِ))[1].



جَعَلَ اللهُ الدُّنيا دارَ اختِبارٍ وابتِلاءٍ، والعاقِلُ مَن تَزوَّدَ منها لِآخِرَتِه، والشَّقيُّ مَن جَعَلَ الدُّنيا أكبَرَ هَمِّه، ونَسيَ ما يَنتَظِرُه مِن حياةٍ حَقيقيَّةٍ دائِمةٍ في الدَّارِ الآخِرةِ، وقد حذَّر اللهُ تعالى **في الآيةِ الأُولى** أهلَ الإيمانِ مِن أنْ تُلهيَهم زينةُ الدُّنيا وشهواتُها عن الآخرةِ، فذكَر أنَّه زُيِّن للنَّاسِ محبَّةُ عددٍ مِن المشتهَيَاتِ؛ كالنِّساءِ، والبنينَ، وأنواعِ الأموالِ، وهي مجرَّدُ مُتَعٍ دُنيويَّةٍ غايتُها إلى زوالٍ، يتمتَّعُ بها الإنسانُ ثمَّ يُفارِقُها أو تُفارِقُه هي، وعِندَ اللهِ سُبحانَه حُسْنُ المَرجِعِ والثَّوابِ، وما عِندَ اللهِ خيرٌ وأبقَى. وفي التعبيرِ عن الأعيانِ المذكورةِ بأنَّها مجرَّدُ شَهواتٍ: تَخسيسٌ لها، وذمٌّ مَن يَستعظِمُها ويَتهالَكُ عليها، ويُرجِّحُ طلبَها على طلبِ ما عِندَ اللهِ تعالَى.

وفي الآيةِ الثَّانيةِ والتي تليها: أمرٌ من اللهِ تعالى لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ يضربَ مَثَلًا للدُّنيا في بهجَتِها وزَهرتِها وسُرعةِ تقَلُّبِها وزوالِها وانقِضائِها؛ ليَعرِفَ النَّاسُ حقيقتَها، فإذا أَنزلَ اللهُ الماءَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، فأنبَتَت وكَثُر نباتُها والتفَّ واجتمَعَ بعضُه ببَعضٍ، أصبح -بعدَ أن كان نَضِرًا مُبهِجًا- يابِسًا متكَسِّرًا تُفَرِّقُه الرِّياحُ، واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ، فكذلك أحوالُ الدُّنيا تظهَرُ أوَّلًا في غايةِ الحُسنِ والنَّضارةِ، ثمَّ تتزايدُ قليلًا قليلًا، ثمَّ تأخُذُ في الانحطاطِ إلى أنْ تَنتهيَ إلى الهَلاكِ والفَناءِ، ومِثلُ هذا ليس للعاقِلِ أن يبتهِجَ به؛ فالدُّنيا سريعةُ الزوالِ، وشيكةُ الارتحالِ، مع كثرةِ الأنكادِ، ودوامِ الأكدارِ؛ مِن الكَدِّ والتَّعَب، والخَوفِ والنَّصَب؛ فهي جديرةٌ لذلك بالزُّهدِ فيها، والرغبةِ عنها، وألَّا يفتَخِرَ بها عاقِلٌ فَضلًا عن أن يُكاثِرَ بها غيرَه!

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٧).



ولَمَّا حَقَّر تعالَى حالَ الدُّنيا بهذا المَثَلِ ذَكَر أنَّ المالَ والبنينَ مجرَّدُ زِينةٍ في هذه الحياةِ الدُّنيا المحقَّرَةِ، يتجَمَّلُ بها النَّاسُ في حياتِهم الدُّنيا ويتزيَّنونَ، إذا لم يطلُبوا بها رضا اللهِ تعالى، ولا ينفعُ العبدَ في الآخِرةِ ولا يبقَى له في الحَقيقةِ سِوى العَمَلِ الصَّالحِ؛ فهو أفضَلُ أجرًا، وهو خيرُ ما يُؤمِّلُه الإنسانُ ويرجو نَفْعَه وعواقِبَه الحميدةَ.

وفي الآيةِ الأخيرةِ إخبارٌ من الله تبارك وتعالى للنَّاسِ بأنَّ ما وعَدَ به فهو صِدقٌ ثابِتُ الوُقوعِ، وأمرٌ كائنٌ لا محالةَ، والمرادُ بوَعدِ اللهِ تعالى هنا: البَعثُ والجزاءُ على الأعمالِ وغَيرُه ممَّا وَعَد به اللهُ عزَّ وجلَّ ونهى اللهُ تعالى عِبادَه عن أن تَخدَعَهم الحياةُ الدُّنيا، والتمَتُّعُ بملذَّاتِها، والانشِغالُ بها، وعن أن يَخدَعَهم الشَّيطانُ بوَساوِسِه، وأمانيِّه الباطِلةِ، ووُعودِه الكاذِبةِ.

ففي هذه الآية الكريمة أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ ألَّا يَرتبِطَ بالدُّنيا مهما حَصَلَ له مِن زَهرتِها ونَعيمِها، فلا يَليقُ بذي هِمَّةٍ عَليَّةٍ اتِّباعُ الدَّنيءِ، والرِّضا بالدُّونِ الزَّائِلِ عن العالي الدَّائِمِ؛ ففي قَولِه تعالى: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ دُنُوُّ الدُّنيا مرتبةً، ودناءَتُها؛ فهي وإنْ كانت حياةً لكِنَّها دُنيا، ويَستلزِمُ ذلك الثَّناءَ على الآخرةِ؛ فإذا نُهينا عن الانشغال بملَذَّاتِ الحَياةِ الدُّنيا فمعناه أنَّنا مُلزَمونَ بالعِنايةِ بالآخِرةِ والسَّعيِ الحَثيثِ لها؛ فهي المُنتَهَى وهي خيرٌ وأبقى، أمَّا الدُّنيا فهي دارُ عُبُورٍ ومحَلُّ مُرورٍ.

وفي حديث أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه يَذُمُّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ التَّعلُّقَ بالدُّنيا والحِرصَ عليها، على حِسابِ الآخِرةِ، خُصوصًا لِمَن بَلَغَ الهَرَمَ: وهو الشَّيبُ وكِبَرُ السِّنِّ، وقَولُه: «وتَشِبُّ»، أي: تَنمو وتَقْوَى، والمَعنى: يَشيبُ ابنُ آدَمَ، ويَشتَدُّ ويَقوَى مِن أخلاقِه خُلُقانِ مَذمومانِ؛ أحَدُهما: الحِرصُ على جَمْعِ المالِ ومَنعِه. والثاني: الحِرصُ على طُولِ العُمُرِ، بحيث يُلهي عنِ الواجِباتِ، ويُنسي الإنسانَ آخِرَتَه، أمَّا إنْ وَقَفَ الإنسانُ عُمُرَه في طاعةِ اللهِ، وأَحَبَّ المالَ لِفعلِ الخَيرِ، وبَذَلَه



فيما يُرضي اللهَ، فلا يُذَمُّ في ذلك، والحِكمةُ في التَّخصيصِ بهذَيْن الأمرَيْن أنَّ أحَبَّ الأشياءِ إلى ابنِ آدَمَ نَفْسُه؛ فهو راغِبٌ في بَقائِها؛ فأحَبَّ لذلك طولَ العُمُرِ والمالَ؛ فكُلَّما أحَسَّ بقُربِ نَفادِ ذلك اشتَدَّ حُبُّه له، ورَغبَتُه في دَوامِه.

التَّحذيرُ مِن فِتنةِ النِّساءِ

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ، وإنَّ اللَّهَ مُستَخلِفُكم فيها، فيَنظُرُ كيفَ تَعمَلونَ؛ فاتَّقوا الدُّنيا، واتَّقوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فِتنةِ بَني إسرائيلَ كانَت في النِّساءِ)). وفي رِوايةٍ: ((لِيَنظُرَ كيفَ تَعمَلونَ))[1].



في هذا الحَديثِ يُوصِي النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحُسنِ العَمَلِ في الدُّنيا، والمُداومةِ على تَقوَى اللهِ بها، والحَذَرِ مِن زُخْرُفِها، والحَذَرِ مِن فِتنةِ النِّساءِ، فيُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَطلَعِ الحَديثِ أنَّ «الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ»: حُلوةٌ في المَذاقِ، خَضِرةٌ في المَرأى، وهذا إشارةٌ لِحُسنِها؛ مِمَّا يَجعَلُ النُّفوسَ تَتُوقُ إليها وتَطلُبُها، فيَغتَرُّ الإنسانُ بها، ويَنهَمِكُ فيها، ويَجعَلُها أكبرَ هَمِّه.

ويُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى مُستَخلِفُنا فيها، فيَنظُرُ كيفَ نَعمَلُ، ومَعنى الاستِخلافِ هو أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ جَعَلَنا خُلَفاءَ القُرونِ التي خَلَتْ قَبلَنا، أو يَخلُفُ بَعضُنا بَعضًا؛ لِيَنظُرَ هل نَقومُ بطاعَتِه، وبِما أوجَبَ علينا، أو نَقوم بخِلافِ ذلك؟ ولِهذا قال: «فاتَّقوا الدُّنيا»، بمَعنى: قُوموا بِما أمَرَكم به، واترُكوا ما نَهاكم عنه، ولا تَغُرَّنَّكم حَلاوةُ الدُّنيا ونَضرَتُها، كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

ﵟٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاﵞ [لقمان: ٣٣]، ثمَّ أمَرَنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالحَذَرِ مِن النِّساءِ، وأنْ نَميلَ إليهِنَّ في الحَرامِ، أو نَنساقَ وَراءَهُنَّ ووَراءَ فِتنَتِهِنَّ؛ «فإنَّ أوَّلَ فِتنةِ بَني إسرائيلَ كانتْ في النِّساءِ»، فافتَتَنوا في النِّساءِ، فَضَلُّوا وأضَلُّوا. وذِكرُ فِتنةِ النِّساءِ بَعدَ فِتنةِ الدُّنيا هو مِن بابِ ذِكرِ الخاصِّ بَعدَ العامِّ؛ لِزيادةِ التَّحذيرِ، إيذانًا بأنَّ الفِتنةَ بهِنَّ مِن أعظَمِ الفِتَنِ الدُّنيويَّةِ.

التَّحذيرُ مِن فِتنةِ المالِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﵟٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖﵞ [الحديد: ٢٠].

وعن عَمرِو بنِ عَوفٍ رضِي الله عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعَثَ أبا عُبَيدةَ بنَ الجَرَّاحِ إلى البَحرَيْنِ يأتي بجِزيَتِها، وكانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو صالَحَ أهلَ البَحرَيْنِ، وأمَّرَ عليهِمُ العَلاءَ بنَ الحَضرَميِّ، فَقَدِمَ أبو عُبَيدةَ بمالٍ مِنَ البَحرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأنصارُ بقُدومِ أبي عُبَيدةَ، فَوافَوْا صَلاةَ الفَجرِ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلَمَّا انصَرَفَ تَعَرَّضوا له، فَتَبَسَّمَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ رآهُم! ثُمَّ قالَ: ((أظُنُّكم سَمِعتُم أنَّ أبا عُبَيدةَ قَدِمَ بشيءٍ؟ قالوا: أجَلْ يا رَسولَ اللَّهِ، قال: فأبشِروا وأمِّلوا ما يَسُرُّكم؛ فواللهِ ما الفَقرَ أخشَى عليكم، ولكِنِّي أخشَى أنْ تُبسَطَ عَلَيكمُ الدُّنيا كما بُسِطَتْ على مَن كان قَبلَكم، فَتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُهلِكَكم كما أهلَكَتْهم!))[1].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جَلَسَ ذاتَ يَومٍ على المِنبَرِ، وجَلَسْنا حَولَه، فقال: ((إنِّي مِمَّا أخافُ عليكم مِن بَعدي ما يُفتَحُ عليكم مِن زَهرةِ الدُّنيا وزينَتِها، فقال رَجُلٌ: يا رَسولَ اللَّهِ، أوَيأتي الخَيرُ بالشَّرِّ؟ فسَكَتَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٥) واللفظ له، ومسلم (٢٩٦١).

النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقيل له: ما شأنُكَ؟ تُكَلِّمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولا يُكَلِّمُك؟ فرَأَينا أنَّه يُنزَلُ عليه؟ قال: فمَسَحَ عنه الرُّحَضاءَ، فقال: أينَ السَّائِلُ؟ وكأنَّهُ حَمِدَه، فقال: إنَّه لا يأتي الخَيرُ بالشَّرِّ، وإنَّ مِمَّا يُنبِتُ الرَّبيعُ يَقتُلُ أو يُلِمُّ، إلَّا آكِلةَ الخَضراءِ، أكَلَتْ حتى إذا امتَدَّتْ خاصِرَتاها استقبَلَتْ عَينَ الشَّمسِ، فثَلَطَتْ وبالَتْ ورَتَعتْ، وإنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلوَةٌ، فَنِعْمَ صاحِبُ المُسلِمِ ما أعطَى منه المِسكينَ واليَتيمَ وابنَ السَّبيلِ -أو كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-، وإنَّه مَن يأخُذُه بغَيرِ حَقِّهِ كالذي يأكُلُ ولا يَشبَعُ، ويَكونُ شَهيدًا عليه يَومَ القيامةِ))(١).



شاء اللهُ تعالَى وقضَى بحِكمتِه البالغةِ أنْ يجعَلَ الدُّنيا دارَ ابتلاءٍ واختبارٍ؛ فمِنهم مَن يغترُّ بزينتِها ويتنافَسُ عليها، ومِنهم مَن يَعلَمُ حقيقتَها فيَنزوي عنها ويَزهَدُ فيها، ويَرغَبُ في الآخِرةِ وما عِندَ اللهِ.

وفي الآيةِ الكريمة: إعلامٌ مِن اللهِ تعالَى لعبادِه بحقيقةِ الحياةِ الدُّنيا؛ كي لا يغترَّ بها النَّاسُ، فيَقَعوا في هَلَكَتِها؛ فهي لَعِبٌ وهَزْلٌ باطِلٌ لا دوامَ له، وهي لهوٌ يُلهِي ويَفرَحُ النَّاسُ ويتلذَّذونَ به، ثُمَّ يَنقَضي، وهي زينةٌ يتزيَّنونَ بها ويَستطيبونَ شَهَواتِها، ويَستَحسِنونَ مَنظَرَها وزُخرُفَها، وهي تفاخُرٌ بينهم، فيَفخَرُ بعضُهم فيها على بعضٍ بما حصَّلوه منها، وهي تكاثُرٌ يتكَثَّرون فيها من الأموالِ والأولادِ، ويَتباهَونَ فيها بكثرةِ ذلك بينهم.

وفي حديثِ عَمرِو بنِ عَوفٍ رَضِيَ اللهُ عنه حَذَّر رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن فِتنةِ الغِنى وسَعةِ العَيشِ، وفيه أنَّ أبا عُبَيدةَ بنَ الجَرَّاحِ رَضيَ اللهُ عنه جاء مِنَ البَحرَيْنِ بمالٍ، وقد كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعَثَه؛ لِيأتيَ بِالجِزيةِ مِن أهلِها،

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٥) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٢).

بَعدَ أنْ صالَحوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على دَفْعِها، وكان أغلَبُهم مَجوسًا، فوَصَلَ أبو عُبَيدةَ رَضيَ اللهُ عنه المَدينةَ المُنَوَّرةَ بهذا المالِ في وَقتِ صَلاةِ الفَجرِ، فلَمَّا صَلَّى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ انصَرَفَ، فتَعَرَّضوا له سائِلينَ المالَ بالإشارةِ دونَ التَّصريحِ بالعِبارةِ، فعَلِمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يُريدونَ، فتَبَسَّمَ! وقال: «أظُنُّكم قد سَمِعتُم أنَّ أبا عُبيدةَ قد جاءَ بشَيءٍ؟ قالوا: أجَلْ يا رَسولَ اللهِ». فرَدَّ عليهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ: «أبشِروا وارجُوا ما يَسُرُّكم»، ثمَّ أخبَرَهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه لا يَخافُ عليهمُ الفَقرَ، ولكِنَّ الخَوفَ مِن أنْ تُبسَطَ عليهمُ الدُّنيا بسَعةٍ في المالِ، وكَثرةٍ في الرِّزقِ، كما بَسَطَها اللهُ على الأُمَمِ السَّابِقةِ، فيَقَعَ لكمُ التَّنافُسُ عليها، بمَعنى مَيلِ النَّفسِ إليها، والرَّغبةِ فيها، وتَتسابَقوا إليها، كما فَعَلَ مَن كانوا قَبلَكم، فَتُؤدِّيَ إلى هَلاكِكم بهَلَاكِ دِينِكم، كما حَدَثَ مع الأُمَمِ مِن قَبلِكم.

وفي حَديثِ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يَتخَوَّفُ على أُمَّتِه مِن حُسنِ الدُّنيا وجَمالِها، وما يُفتَحُ عليهم مِن زَهرَتِها: يَعني: خَيرَها، ويَقصِدُ به المالَ، وشَبَّهَ ما سَيُفتَحُ مِنَ الدُّنيا بالزَّهرةِ؛ لِأنَّها سَريعةُ الذُّبولِ، وكذا الدُّنيا سَريعةُ التَّغيُّرِ والأُفولِ.

وهنا سألَ رَجُلٌ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أوَيأتي الخَيرُ بالشَّرِّ؟» كأنَّ الرَّجُلَ استَشكَلَ عليه أنْ يأتيَ الشَّرُّ مِن داخِلِ الخَيرِ، أو بسَبَبِه، فسَكَتَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعَلِمَ الصَّحابةُ أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُوحَى إليه، وما إنِ انفَصَلَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الوَحيُ حتى مَسَحَ عن نَفْسِه «الرُّحَضاءَ» يَعني: العَرَقَ، وكانَ الوَحيُ إذا نَزَلَ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتصَبَّبُ عَرَقًا، ثمَّ سألَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن صاحِبِ السُّؤالِ: أين هو؟ وكأنَّ رَسولَ اللهِ أثْنى على الرَّجُلِ وحَمِدَه على حُسنِ سُؤالِه، ثم أجابَه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ الخَيرَ لا يأتي بالشَّرِّ؛ فالخَيرُ لا يأتي إلَّا بالخَيرِ، وهذا بالنِّسبةِ لِلخَيرِ المَحضِ، كالإسلامِ، فكُلُّه خَيرٌ، ولكِنَّ



هناك أنواعًا مِنَ الخَيرِ قد تأتي بالشَّرِّ، مِثلُ المالِ؛ فإنَّه خَيرٌ، ولكِنَّه قد يأتي بالشَّرِّ إذا اكتَسَبَه مِن مُحَرَّمٍ، أو أساءَ في إنفاقِه ونَحوِه.

ثُمَّ ضَرَبَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِثالَيْنِ يُوضِّحُ بهما كيف أنَّ المالَ خَيرٌ يُمكِنُ أنْ يأتيَ بالشَّرِّ، ويُمكِنُ أنْ يأتيَ بالخَيرِ؛ **فالمِثالُ الأوَّلُ**: نَموذجٌ لِلخَيرِ عِندَما يَنقَلِبُ شَرًّا، وإليه أشارَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقَولِه: «إنَّ مِمَّا يُنبِتُ الرَّبيعُ»: وهو الشَّهرُ المَشهورُ بالإنباتِ والزُّروعِ، وقيلَ: النَّهرُ الصَّغيرُ، «يَقتُلُ أو يُلِمُّ»؛ والمَعنى أنَّ ما تُنبِتُه الأرضُ يَكونُ خَيرًا، ومع ذلك فمِنه ما يَقتُلُ البَهيمةَ أو يَضُرُّها ضَرَرًا يُقارِبُ المَوتَ، مِثلُ: البُقولِ التي تَستكثِرُ منها الماشيةُ فتُهلِكُها أكْلًا، وتَهلِكُ بسَبَبِه. **والمِثالُ الثاني**: نَموذجٌ لِلخَيرِ إذا أُحسِنَ التَّعامُلُ معه فلنْ يأتيَ إلَّا بخَيرٍ، وهذا هو المُشارُ إليه بقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «إلَّا آكِلةَ الخَضراءِ، أكَلَتْ حتى إذا امتَدَّتْ خاصِرَتاها استَقبَلَتْ عَينَ الشَّمسِ، فثَلَطتْ وبالَتْ، ورَتَعتْ» وآكِلةُ الخَضراءِ هي الماشيةُ، فالخَضِرُ هو اسمٌ لِمَا اخضَرَّ مِنَ الكَلَأِ الذي لم يَصفَرَّ، والماشيةُ مِنَ الإبِلِ تَرتَعُ منها شَيئًا فشَيئًا، فلا تَستكثِرُ منه، ولا يُحبَسُ الأكلُ فيها، فلا تُصابُ بأذًى، ويُصوِّرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَنظَرَها بَعدَ أنْ تأكُلَ مِن هذا الخَيرِ وتَهنَأَ به: حتى إذا امتَلَأَتْ بُطونُها شِبَعًا وعَظُمَ جَنْباها، استَقبَلَتِ الشَّمسَ مُنتَفِعةً بدِفئِها، وجاءتْ وذَهَبتْ، ثم يَخرُجُ رَجيعُها عَفوًا مِن غَيرِ مَشقَّةٍ، فيَبقى نَفعُ ما أكَلَتْ، ويَخرُجُ فُضولُها، ولا تَتأذَّى بها. وهذا مِثالٌ لِلمُقتَصِدِ في جَمعِ المالِ، المُكتَسِبِ إيَّاه مِن حِلٍّ، والمُنفِقِ إيَّاه في الخَيرِ.

ثم بَيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ هذا المالَ مَحبوبٌ مَرغوبٌ تَرغَبُه النَّفْسُ، وتَحرِصُ عليه بطَبيعَتِها، كما تُحِبُّ الفاكِهةَ أوِ النَّباتاتِ الخَضراءَ النَّضِرةَ، الشَّهيَّةَ المَنظَرِ، الحُلوةَ المَذاقِ، ومَن أُعطيَه فأخرَجَ منه زَكاةَ مالِه على المِسكينِ واليَتيمِ وابنِ السَّبيلِ، فهو نِعْمَ الصَّاحِبُ الذي يَشهَدُ له يَومَ القيامةِ، وأمَّا مَن أخَذَه بغَيرِ حَقِّه فإنَّ اللهَ يَنزِعُ منه البَرَكةَ، ويَسلُبُ صاحِبَه القَناعةَ، فيُصبِحُ فَقيرَ النَّفْسِ دائِمًا، ولو أُعطيَ كُنوزَ الأرضِ، وكان

كالذي يأكُلُ ولا يَشبَعُ؛ فهو كالمَلهوفِ الذي لا يَشبَعُ مِنَ الطَّعامِ، مهما أكَلَ منه، ويأتي شاهِدًا عليه يَومَ القيامةِ بحِرْصِه، وإسرافِه، وإنفاقِه فيما لا يُرضِي اللهَ عزَّ وجلَّ.

بدأ الإسلامُ غَريبًا وسَيَعودُ غَريبًا

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قالَ: قالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((بَدَأَ الإسلامُ غَريبًا، وسَيَعودُ كما بَدَأَ غَريبًا؛ فَطوبى للغُرَباءِ))(١).

ظهَرَ الإسلامُ في عالَمٍ قدْ مُلِئَ بالظُّلمِ والشِّركِ والجَهلِ؛ فكانتْ إشراقاتُ تعاليمِه غَريبةً بيْنَ أُناسٍ عاشوا في الظَّلامِ الدَّامسِ، وتعرَّضَ أتباعُه الأوائِلُ لمِحَنٍ شديدةٍ حتى انتَشَرَ وظهَرَ، **وتَصِفُ هذِه الآيةُ الكريمةُ** حالَ المؤمنينَ الأوائلِ أثناءَ مُقامِهم بمَكَّةَ، فقد كان عددُهم قليلًا جدًّا، يراهم أعداؤُهم ضُعَفاءَ أذلَّاءَ، ويَقْهَرونَهم ويُؤْذُونَهم؛ بسبَبِ إيمانِهم، وكان المُؤمنونَ يَخافونَ قتْلَ الكُفَّارِ لهم؛ إذ لم تكُنْ لديهم مَنَعةٌ بكثرةٍ ولا بِقُوَّةٍ، وذلك قبْلَ أنْ يمُنَّ اللهُ تعالَى عليهم بالهِجرةِ إلى المَدينةِ النبويَّةِ، التي آواهُم فيها وقوَّاهم، وأعانَهم ونَصَرَهم على أعدائِهم، ورزَقَهم مِن الطيِّباتِ وأطْعمَهم مِن الغَنائِمِ؛ لكي يَشكُروه على هذه النِّعمِ العَظيمةِ، فيُطيعوه ويَعبُدوه وَحدَه.

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الإسلامَ كما بدَأَ غَريبًا، بقِلَّةِ أتباعِه ومُعاناتِهم وَسْطَ الجاهليةِ العَمْياءِ فاسْتَغرَبَه الناسُ، فإنَّه سيَعودُ كما بدَأَ غَريبًا؛ حيثُ انتِشارُ الجَهلِ، ورُجوعُ النَّاسِ إلى عاداتِ الجاهليَّةِ.

(١) أخرجه مسلمٌ (١٤٥).

وقَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «فَطوبى للغُرَباءِ»، أي: فالجنَّةُ لأُولئك المسلِمين الذين قَلُّوا في أوَّلِ الإسلامِ، وسيَقِلُّون في آخرِهِ. وقيل: «طُوبى»، أي: فَرحةٌ وقُرَّةُ عَينٍ، أو سُرورٌ وغِبطةٌ، وإنَّما خصَّهم بذلِك؛ لصَبْرِهم على أذيَّةِ الكُفَّارِ وأهلِ الابتِداعِ، وهؤلاءِ يكونونَ على الدِّينِ الحقِّ والسُّنَّةِ الصَّحيحةِ، ويَسيرونَ على ذلك بَعدَ أنْ أفسَدَ النَّاسُ السُّننَ والشَّرائعَ وبدَّلوها. وفي الحديثِ بيانُ حُسنِ جَزاءِ مَن صَبَرَ عندَ الابتلاءِ والشِّدةِ، والفِتنةِ في الدِّينِ، وأنَّ على المُؤمِنِ أنْ يُوطِّنَ نفسَه على الصَّلاحِ إذا انتشَرَ الفسادُ، ولا يَضيرُه فَسادُ النَّاسِ.

لا عُذرَ لِمَن بَلَغَ السِّتِّينَ وهو يَقتَرِفُ المَعاصيَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أعذَرَ اللهُ إلى امرِئٍ أخَّرَ أجَلَه حتى بَلَّغَه سِتِّينَ سَنةً!))[1].



مِن سَعادةِ الإنسانِ طُولُ العُمُرِ وحُسنُ العَمَلِ، ومِن أماراتِ الشَّقاءِ أنْ يَطُولَ العُمُرُ ويَزدادَ نَهَمُ الإنسانِ لِلشَّهَواتِ مع انغِماسِه في المَعاصي؛ فمَن أطالَ اللهُ عُمُرَه فقد قَطَعَ عُذْرَه، وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ يَذكُرُ اللهُ تعالَى أنَّ الكُفَّارَ يَصرُخونَ بشِدَّةٍ وهم في نارِ جَهنَّمَ، ويَصيحونَ مُستَغيثينَ مِن شِدَّةِ العذابِ، فيقولونَ: ربَّنا أخرِجْنا مِن نارِ جَهنَّمَ؛ فنعمَلَ بطاعتِك غيرَ الذي كنَّا نَعمَلُه في الدُّنيا مِن الشِّركِ والكُفرِ والمعاصي، فيقولُ

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩).

لهم: أوَلم نُطِلْ أعمارَكم في الدُّنيا إلى زَمَنٍ تَتمكَّنونَ فيه من التذكُّرِ والاستدراكِ، واغتِنامِ الفُرَصِ، والتَّوبةِ النَّصوحِ؟! فلو كُنتُم ممَّن يَنتفِعُ بالحَقِّ لانتفعتُم به في مُدَّةِ عُمُرِكم الذي اتَّسع للتذكُّرِ والعَمَلِ، وقد جاءَكم فيها رَسولٌ مِنَ اللهِ يُنذِرُكم عذابَه، وقامَتْ عليكم الحُجَّةُ؛ فلا عُذرَ لكم.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه تأكيدُ ذلك؛ حيث يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن بَلَغَ السِّتِّينَ مِن عُمُرِه لم يَبْقَ له عُذرٌ يَعتَذِرُ به عنِ ارتِكابِ المَعاصي، وتأخيرِ التَّوبةِ، حيثُ أخَّرَ اللهُ أجَلَه وأطالَ عُمُرَه حتى بَلَّغَه سِتِّينَ سَنةً؛ لِأنَّها سِنُّ الإنابةِ والرُّجوعِ، وتَرَقُّبِ المَوتِ، وهي مَظِنَّةُ انقِضاءِ الأجَلِ؛ فلا يَنبَغي له حينَئِذٍ إلَّا الاستِغفارُ ولُزومُ الطاعاتِ، والإقبالُ على الآخِرةِ. والمَعنى: أنَّ اللهَ لم يَترُكْ له شَيئًا في الاعتِذارِ يَتمَسَّكُ به.

مُجاهَدةُ النَّفسِ على المَكارِهِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم: ٥٩ - ٦٠].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((حُجِبَتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ، وحُجِبَتِ الجَنةُ بالمَكارِهِ))(١).



ما عِندَ اللهِ لا يُنالُ بالتَّمنِّي، وإنَّما ببَذلِ الجُهدِ في الطاعةِ، والتَّغلُّبِ على شَهَواتِ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٧) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٣).



النَّفْسِ، وحَملِها على ما يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه، وقد ذمَّ اللهُ تعالَى **في الآيةِ الأولى** مَن كان بخِلافِ ذلك، فأضاع الصَّلاةَ؛ إمَّا بترْكِها بالكُليَّةِ، أو تَرْكِ بَعضِ أركانِها وشُروطِها، أو التَّفريطِ في واجباتِها، أو تأخيرِها عن مواقيتِها، وغيرِ ذلك، وأقبَلَ على شَهَواتِ نفسِه، وانهَمَك في تَحقيقِ رَغَباتِها الدُّنيويَّةِ، وآثَرَها على طاعةِ اللهِ وجَنَّتِه الأُخرويَّةِ؛ فإنَّ ذلك مُوجِبٌ للعُقوبةِ الشَّديدةِ في الآخِرةِ، إلَّا من تَدارَكَ أمْرَه وجاهَدَ نَفسَه فألزَمَها طريقَ الحَقِّ، فتاب عن إضاعةِ الصَّلواتِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ، وآمَنَ وأطاع؛ فإنَّه يَنجُو مِن النَّارِ، ويَدخُلُ الجنَّةَ.

ويبيِّنُ اللهُ تعالى **في الآيةِ الثانيةِ** أنَّ الذين بَذَلوا جُهدَهم للعَمَلِ بما يُرضِي اللهَ تعالَى، وتَرْكِ ما يُسخِطُه، فجاهَدوا النَّفْسَ والهوى، والشَّيطانَ والدُّنيا؛ فإنَّ اللهَ تعالَى يُوفِّقُهم لسُلوكِ الطُّرُقِ المُوصِلةِ إليه وإلى جَنَّتِه ورِضوانِه في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فاللهُ تعالَى مع عِبادِه المُحسِنينَ بالحِفظِ والنَّصرِ، والإعانةِ والهِدايةِ والتوفيقِ. فأكمَلُ النَّاسِ هدايةً أعظمُهم جِهادًا، ومَن تَرَكَ الجهادَ فاتَه مِن الهُدَى بحسَبِ ما عَطَّلَ مِنه.

وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه بَيانٌ لِهذا المَعنى، حيثُ يُخبِرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قدْ حَجَبَ النَّارَ وسَترَها بالشَّهَواتِ؛ فلا يُوصَلُ إلى النَّارِ إلَّا بتَعاطي الشَّهَواتِ؛ إذْ هي مَحجوبةٌ بها، فمَن هَتَكَ الحِجابَ وَصَلَ إلى المَحجوبِ، ووَقَعَ فيه. وقد حَجَبَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ الجَنةَ بالمَكارِه، والمُرادُ بالمكارِهِ ما أُمِرَ المُكلَّفُ به؛ كمُجاهَدةِ النَّفْسِ في العِباداتِ، والصَّبرِ على مَشاقِّها، والمُحافَظةِ عليها، واجتِنابِ المَنهيَّاتِ، وكَظْمِ الغَيظِ، والعَفْوِ والحِلْمِ، والصَّدَقةِ، والإحسانِ إلى المُسيءِ، والصَّبرِ عن الشَّهَواتِ ونَحوِ ذلك. وأُطلِقَ عليها مَكارِهُ؛ لِمَشَقَّتِها على العامِلِ، وصُعوبَتِها عليه. وفي هذا تَحذيرٌ مِن اتِّباعِ الشَّهَواتِ، وحَثٌّ على الصَّبرِ على المَكارِه؛ لِأنَّه الطَّريقُ إلى الجَنَّةِ.



عِبادةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٤]

وعنِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضيَ اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صَلَّى حتى انتَفَختْ قَدَماه، فقيلَ له: أتَكَلَّفُ هذا وقد غَفَرَ اللَّهُ لك ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تأخَّرَ؟ فقال: ((أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا))[1].



النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو القُدوةُ والأُسوةُ الحَسَنةُ في عِباداتِه، ومُعامَلاتِه، وأخلاقِه، وسائرِ شُؤونِ حَياتِه، وقد أمَرَه اللهُ عزَّ وجَلَّ بعبادتِه والتقرُّبِ إليه والمُداومةِ على ذلك، **كما جاء في الآيةِ الأولى.**

وجاء في الآياتِ الأُخرى من سُورةِ المُزَّمِّلِ أمْرُه سُبحانَه وتعالى لعَبدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأداءِ عِبادةٍ مخصوصةٍ، وهي قِيامُ اللَّيلِ، وقراءةُ القُرآنِ بتمَهُّلٍ وتُؤَدَةٍ قراءةً يحصُلُ معها تَبيينُ ألفاظِه وتفهُّمُ معانيه.

وفي حديث المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضيَ اللهُ عنه بَيانٌ لِحالِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في العِبادةِ، واجتهادِه فيها؛ فقد كان يُصَلِّي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ «حتى انتَفَختْ قَدَماه»، بمَعنى: تَورَّمتْ قَدَماه؛ مِن طُولِ القيامِ لِلهِ عَزَّ وجَلَّ، وجاء مِن حَديثِ عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها: ((حتى تَتفَطَّرَ قَدَماه))[2]، والفُطورُ: الشُّقوقُ، ولا اختِلافَ بيْنَ هذه الرِّواياتِ؛ فإنَّه إذا حَصَلَ الانتِفاخُ أوِ الوَرَمُ، حَصَلَ التَّشقُّقُ.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٣٧). وأخرجه مسلم (٢٨٢٠) بلفظ: ((حتَّى تفطَّرَ رِجلاه)).



ولَمَّا سُئِلَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن هذا الاجتِهادِ مع أنَّ اللهَ قدْ غَفَرَ له ذَنبَه، قال: «أفَلا أكونُ عَبدًا شَكورًا»؛ فمَن عَظُمَتْ عليه نِعَمُ اللهِ وَجَبَ عليه أنْ يَتلَقَّاها بعَظيمِ الشُّكرِ، لا سِيَّمَا الأنبياءِ والصَّفوةِ مِن الخَلقِ، الذين اختارَهم اللهُ تَعالى، فمَعنى قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا»: كيف لا أشكُرُه وقد أنعَمَ عليَّ، وخصَّني بخَيرَيِ الدَّارَيْنِ، وغفَر لي ما تَقدَّمَ مِن ذنبي وما تأخَّرَ؟!

تَمنِّي رُؤيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

عن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ في يَدِه لَيأْتيَنَّ على أحَدِكم يومٌ ولا يَراني، ثُمَّ لَأنْ يَراني أحَبُّ إليه مِن أهلِهِ ومالِه معهم))[1].



الشَّوقُ إلى رُؤيةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن عَلاماتِ حُبِّه، وفي هذا الحَديثِ يُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِلصَّحابةِ النِّعمةَ التي أنعَمَ اللهُ بها عليهم، حيثُ يَسعَدونَ برُؤيَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويَحُثُّهم على حُسنِ اغتِنامِها، ومُلازَمةِ مَجلِسِه الكَريمِ، ومُشاهدتِه حَضَرًا وسَفَرًا للتأدُّبِ بآدابِه، وتعَلُّمِ الشَّرائعِ وحِفْظِها؛ لِيُبَلِّغوها، ويُعْلِمُهم أنَّهم سيَندَمونَ على ما فرَّطوا فيه من الزِّيادةِ مِن مُشاهدتِه وملازَمتِه؛ فإنَّ أُمورَ العَيشِ ستَشغَلُ البَعضَ عن رُؤيَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويُقسِمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا: «والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ في يَدِه»، وهو قَسَمٌ كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُقسِمُ به كَثيرًا، «لَيأتيَنَّ على أحَدِكم يَومٌ»، والحالُ أنَّه لا يُمكِنُ له أنْ يَراني فيه؛ بسَبَبِ مَوتي. ثم بَعدَ يأْسِه مِن رُؤيَتي لَأنْ يَراني لَحظةً ثمَّ لا يراني بَعْدَها: أحَبُّ إليه مِن جَميعِ

(١) أخرجه من طرقٍ: البخاري (٣٥٨٩)، ومسلم (٢٣٦٤) واللفظ له.

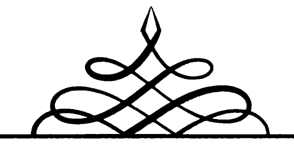




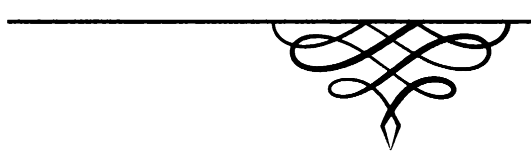
أهلِه ومالِه، والمَعنى: أنَّ رُؤيَتَه إيَّايَ أفضَلُ عِندَه وأحظَى مِن أهلِه ومالِه جَميعًا، وهذا مِن شِدَّةِ الشَّوقِ والمَحبَّةِ عِندَ هؤلاء لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.



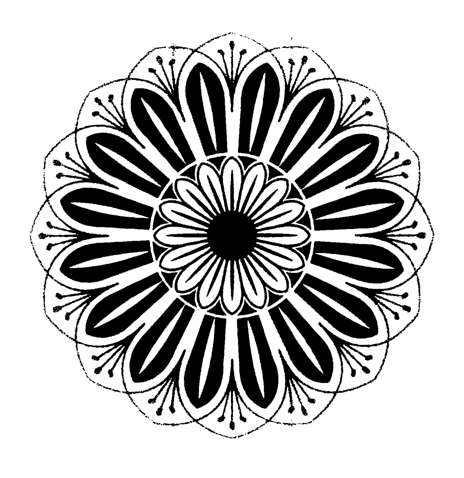




الآدابُ



مَجموعـةٌ مِـن الآدابِ النَّبيلة، يَتحلَّـى بهـا المُسـلمُ فـي جَميـعِ أحوالِـه مـع نفْسِـه وغيرِه، تُلبِسُـه رُوحَ الوَقـارِ، وتَحمِلُه على السُّـلوكِ الحَسـنِ في ظاهِرِ أمْـرِه وباطِنِه، وفي خَلْوتِه وجَلْوتِـه؛ فتُضْفي عليه تَميُّزًا ونقـاءً، ونورًا وبهاءً.



الآدابُ المُتعَلِّقةُ بالأقاربِ والجيرانِ

بِرُّ الوالدَينِ

قال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((رَغِمَ أنْفُ، ثمَّ رَغِمَ أنْفُ، ثمَّ رَغِمَ أنْفُ. قيلَ: مَن يا رَسولَ اللهِ؟ قال: مَن أدْرَكَ أبوَيهِ عندَ الكِبَرِ؛ أحَدَهما أو كِلَيهما، فلمْ يَدخُلِ الجنَّةَ))[1].

وعنه رضِيَ اللهُ عنهُ: جاء رجُلٌ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالَ: مَن أحَقُّ النَّاسِ بحُسْنِ صَحابَتِي؟ قال: ((أُمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أُمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أُمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أبُوكَ))[2].

وعنِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ حَرَّمَ علَيكُم عُقوقَ الأُمَّهاتِ، ووَأْدَ البَناتِ، ومَنْعًا وهاتِ، وكَرِهَ لكمْ: قيلَ وقالَ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨) واللفظ له.



وكَثْرةَ السُّؤالِ، وإضاعَةَ المالِ))[1].



البِرُّ بالوالِدَينِ بابٌ واسِعٌ للنَّجاةِ منَ النارِ، والفَوزِ بالجنَّةِ؛ ولهذا أكَّدت تَعاليمُ الإسلامِ البِرَّ بالوالِدَينِ، مع التَّحذيرِ مِن عُقوقِهما، وعَدِّه مِنَ أكْبرِ الكَبائرِ، وقدْ أمَرَ اللهُ تعالَى **في الآيةِ الأُولى** بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ بجَميعِ أوجُهِ الإحسانِ القَوليَّةِ والفِعليَّةِ، وجعَلَه بعدَ الأمْرِ بعِبادتِه سُبحانَه وعَدَمِ الإشراكِ به. **وفي الآيةِ الثَّانيةِ** عَهِدَ اللهُ تعالَى إلى الإنسانِ وأمَرَه ببِرِّهما والإحسانِ إليهما، وخُصوصًا أُمَّه التي حمَلَتْه في بَطنِها، وهي تَزدادُ ضَعفًا على ضَعفٍ، وثِقَلًا وشِدَّةٍ، إلى أنْ تضَعَه بمَشَقَّةٍ وألَمٍ، وفِطامُه في عامَينِ مِن وِلادتِه، فلا يَنفَصِلُ مِن أُمِّه إلَّا بعدَ عامَينِ، تُعاني فيهما الأمُّ مَشقَّةَ رَضاعِه، وتَربيتِه، والقِيامِ على شُؤونِه، ووصَّى اللهُ تعالى الإنسانَ بالشُّكرِ له على إنعامِه، وبالشُّكرِ لِوالِدَيه بالإحسانِ إليهما على تَحمُّلِهما ما لَقِيَا مِنَ المشَقَّةِ، وما بَذَلاه مِنَ الجُهدِ لأجْلِه، ثمَّ هو راجِعٌ إلى اللهِ تعالى وَحْدَه، فيَسأَلُه عن شُكرِه وشُكرِ والِدَيهِ، ويُجازيه على عَمَلِه.

وفي الآيةِ الثَّالِثةِ أمَرَ اللهُ تعالى وأوجَبَ ووصَّى بعِبادتِه وحْدَه، وبالإحسانِ إلى الوالِدَينِ، فإنْ عاشَا حتى كَبِرَت سِنُّهما وضَعُفَت قُواهما -أحدُهما أو كِلاهما-؛ فلا يجوزُ التأفُّفُ وإظهارُ التضَجُّرِ منهما، ولا يَجوزُ انتهارُهما وإغلاظُ القولِ لهما، بل الواجِبُ على الابنِ أنْ يَقولَ لهما قَولًا حَسَنًا لَيِّنًا، رَقيقًا جَميلًا يُفرِحُهما، فيه تأدُّبٌ معهما، وتلَطُّفٌ لهما، وعليه أنْ يكونَ ذَليلًا مُتواضِعًا لوالِدَيه؛ رَحمةً منه بهما، فلا يُخالِفهما فيما يَأمُرانِه به ويَنهيانِه عنه مِمَّا ليس فيه مَعصيةٌ لله تعالى، وأنْ يَدْعوَ لهما بالرَّحمةِ؛ جَزاءً لهما على تَربيتِهما له في صِغَرِه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠٨) واللفظ له، ومسلم (٥٩٣).

وفي هذه الآياتِ عِنايةُ اللهِ سُبحانه بعِبادِه؛ فاللهُ تعالَى أرحَمُ بالإنسانِ مِن أولادِه؛ حيثُ أمَرَ الأبناءَ بالإحسانِ إلى والدِيهم. وفي الآياتِ تَحريمُ الإساءةِ إلى الوالدَيْنِ؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيءِ نهْيٌ عن ضِدِّه، ومَن لم يُحسِنْ إلى والدَيْه ولم يُسِئْ لهما، فهو مُقصِّرٌ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَ بالإحسانِ.

وفي الحَديثِ الأوَّلِ يَذُمُّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَن لم يَبَرَّ والدَيهِ؛ تَنفيرًا له عن سُوءِ صَنيعِه، حيثُ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «رَغِمَ أنفُ»، أي: لَصِقَ أنْفُه بالرَّغامِ، وهو التُّرابُ المُختلِطُ بالرَّملِ، والمرادُ به: الذُّلُّ والخِزيُّ، وكرَّرها ثَلاثَ مرَّاتٍ؛ لزِيادةِ التَّنفيرِ والتَّحذيرِ. فسُئِلَ: مَن هذا يا رسولَ اللهِ؟ فأجابَ: «مَن أدْرَكَ أبَوَيهِ عندَ الكِبَرِ؛ أحدَهما، أو كِلَيهما، فلمْ يَدخُلِ الجنَّةَ»؛ وذلكَ بسَببِ عُقوقِهما، فبِرُّهما عِندَ كِبَرِهِما سَببٌ لِدُخولِ الجنَّةِ؛ فمَنْ قصَّرَ في ذلك فاتَهُ دُخولُها، واستَحقَّ سُوءَ العاقبةِ، وخُصَّتْ حالةُ الكِبَرِ بالذِّكرِ -مع أنَّ بِرَّ الوالدَينِ يَنْبغي المُحافظةُ عليه في كلِّ وقتٍ وفي كُلِّ حالةٍ-؛ لشِدَّةِ احتياجِهما إلى البِرِّ والخِدمةِ في تِلك الحالةِ.

وفي الحَديثِ الثَّاني يُؤكِّدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وُجوبَ البِرِّ بالوالدَينِ، ووُجوبَ طاعتِهما في غيرِ مَعصيةٍ، ويُؤكِّدَ البِرَّ بالأمِّ أكثرَ، ويُبيِّنُ أنَّها أحقُّ الناسِ بالبِرِّ والصُّحبةِ؛ وذلك أنَّ رجُلًا سَألَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أَولى النَّاسِ بوُجوبِ الإحسانِ إليهِ والبِرِّ به في مُصاحَبتِه له، فأجابَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: «أمُّك»، أي: هي أَولى النَّاسِ بحُسنِ المُعاملةِ وطِيبِ المعاشَرةِ، ثمَّ سَألَه: ثمَّ مَن يَلي الأمَّ؟ فأجابَه بالإجابةِ نفسِها: «أمُّك، قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثُمَّ أُمُّك»، وهكذا أوصاهُ بالأمِّ وأكَّدَ حقَّها في حُسنِ المُعاملةِ ثلاثَ مرَّاتٍ؛ بَيانًا لفضْلِها على سائرِ الأقاربِ دُونَ استثناءٍ؛ قيل: لأنَّ صُعوبةَ الحَمْلِ، وصُعوبةَ الوضعِ، وصُعوبةَ الرَّضاعِ والتَّربيةِ؛ تَنفرِدُ بها الأمُّ وتَشقَى بها دُونَ الأبِ؛ فهذه ثَلاثُ مَنازِلَ يَخلو منها الأبُ. ثمَّ سَألَه: «ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أبوكَ»، فكرَّر صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حَقَّ الأمِّ ثلاثًا، وذكَر حقَّ الأبِ مرَّةً

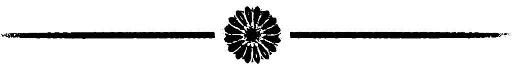
واحدةً، وليس ذلك تَقليلًا مِن حقِّ الأبِ، وإنَّما هو تأكيدٌ على عِظَمِ حقِّ الأمِّ؛ ولعلَّ ذلك لكَثرةِ أفضالِها على وَلدِها، وكَثرةِ ما تَحمَّلَتْه مِنَ المتاعِبِ الجِسميَّةِ والنَّفسيَّةِ في أثناءِ حَملِها به، ووَضْعِها وإرضاعِها له، وخِدمتِها له، وتَمريضِها له إذا مَرِضَ، وزِيادةِ شَفَقتِها عليه، وهذه الشَّفقةُ قد تُطمِعُ وَلدَها فيَتهاونُ في بِرِّها؛ ولذا أكَّدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بِرَّ الأمِّ مِرارًا.

وفي الحديثِ الثالثِ يُؤكِّدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَحريمَ عُقوقِ الأمَّهاتِ، وقدْ خَصَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأُمَّهاتِ بالذِّكرِ وإنْ كان عُقوقُ الآباءِ عَظيمًا أيضًا؛ لعِظَمِ حقِّهنَّ، أو لأنَّ عُقوقَهنَّ أسْرعُ؛ لضَعفِهنَّ ووَفرةِ شَفَقتِهنَّ، والمرادُ بالعُقوقِ: تَرْكُ بِرِّهما، وعدَمُ الإحسانِ إليهما، وتَرْكُ طاعتِهما في غيرِ مَعصيةٍ، ويكونُ العُقوقُ أشدَّ حُرمةً إذا كان بقَولٍ أو فِعلٍ يَتأذَّى به الوالِدانِ.

صِلةُ الرَّحِمِ تَزيدُ في الرِّزقِ والعُمُرِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((**مَن أحَبَّ أنْ يُبسَطَ له في رِزْقِه، ويُنسَأَ له في أثَرِه؛ فلْيَصِلْ رَحِمَه**))[1].



الأرحامُ: هم أقاربُ الإنسانِ، وكلُّ مَن يَربِطُهم رابطُ نسَبٍ، سواءٌ أكان وارثًا لهم أو غيرَ وارثٍ، وتَتأكَّدُ الصِّلةُ به كُلَّما كان أقرَبَ إليه نَسَبًا. وصِلةُ الرَّحمِ مِن أفضلِ الطَّاعاتِ الَّتي يَتقرَّبُ بها العبدُ إلى ربِّه، وقدْ أمَرَ اللهُ تعالَى بها، وبيَّنَ أنَّ وَصْلَها مُوجِبٌ

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

للمَثوبةِ، وقد ورَدَ الحثُّ فيما لا يُحصى مِن النصوصِ الشرعيَّةِ على صِلةِ الرَّحِمِ، ولم يَرِدْ لها ضابطٌ؛ فالمُعوَّلُ على العُرفِ، وهو يَختلِفُ باختلافِ الأشخاصِ والأحوالِ والأزمنةِ، والواجبُ منها ما يُعَدُّ به في العُرفِ واصلًا، وما زادَ فهو تفضُّلٌ ومَكرُمةٌ، وأظهرُها: مُعاوَدتُهم، وبذْلُ الصَّدَقاتِ في فُقَرائِهم، والهَدايا لأغنيائِهم.

وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ يَذكُرُ اللهُ تعالى أنَّ مِن صفاتِ أُولي الألبابِ أنَّهم يَصِلونَ ما أمَرَهم اللهُ بوَصلِه؛ كصِلةِ الأرحامِ، وأنَّهم يَخشَونَ رَبَّهم إن خالفوا أوامِرَه، فقَطَعوا ما أمَرَهم بوَصلِه، وأنَّهم يخافونَ مُناقشةَ اللهِ لهم عن جميعِ أعمالِهم، وعَدَمَ مَغفرةِ ذُنوبِهم؛ فالسَّبَبُ الذي يجعَلُ العبدَ واصِلًا ما أمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ: خَشيةُ اللهِ، وخَوفُ سُوءِ الحِسابِ.

وفي هذا الحَديثِ يُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بِفضْلِ صِلةِ الرَّحمِ في الدُّنيا؛ فهي سَببٌ في سَعةِ الرِّزقِ والبَرَكةِ فيه، وقولُه: «ويُنسَأَ له في أثَرِه» يعني: يُطوِّلُ اللهُ في عُمرِ الواصلِ، ومعنى تَأخيرِ الأجَلِ وزِيادةِ العُمرِ: الزِّيادةُ بالبرَكةِ فيه، والتَّوفيقِ لِلطَّاعاتِ، وعِمارةِ أوقاتِه بما يَنفَعُه في الآخرةِ، وصِيانتِه عَن الضَّياعِ في غيرِ ذلك. وقيل: إنَّ المرادَ بَقاءُ ذِكرِه الجميلِ بعدَه، فكأنَّه لم يَمُتْ، وقيل: الأجَلُ أجَلانِ: أجَلٌ مُطلَقٌ يَعلَمُه اللَّهُ، وأجَلٌ مُقيَّدٌ؛ فإنَّ اللَّهَ أمَرَ الملَكَ أنْ يَكتُبَ له أجَلًا، وقال: إنْ وصَلَ رَحِمَه زِدْتُه كذا وكذا. والملَكُ لا يَعلَمُ أيَزدادُ أم لا، لكنَّ اللَّهَ تعالَى يَعلَمُ ما يَستقِرُّ عليه الأمْرُ.

عُقوبةُ قَطْعِ الرَّحِمِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ [محمد: ٢٢ - ٢٣].

وعن جُبيرِ بنِ مُطعِمٍ رضِيَ اللهُ عنهُ، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال:



((لا يَدخُلُ الجنَّةَ قاطعُ رَحِمٍ))(١).



صِلةُ الرَّحمِ لذَوي القُربَى مِن الأهميَّةِ بمكانٍ، وقد شَدَّد اللهُ عزَّ وجلَّ على حقِّهم، ونَهَى عن قَطْعِهم، وقَرَنَه بالفَسادِ في الأرضِ، وطَرَد فاعِلَه مِن رَحمتِه مع سَلْبِه القُدرةَ على سَماعِ الحقِّ ورُؤيتِه على وَجهٍ يُنتَفَعُ به كما في الآيةِ المذكورةِ.

وفي حَديثِ جُبيرِ بنِ مُطعِمٍ رضِيَ اللهُ عنهُ يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ قاطِعَ الرَّحِمِ لا يَدخُلُ الجنَّةَ، والمرادُ أنَّه لا يَدخُلُ الجنَّةَ التي أُعِدَّت لِواصِلِي الأرحامِ، أو لا يَدخُلُها مع اتِّصافِه بذلك، بلْ يُصفَّى مِن خُبثِ القَطيعةِ؛ إمَّا بالتَّعذيبِ، أو بالعَفوِ. أو هو مَحمولٌ على المُستَحِلِّ لقَطْعِها، أو على سُوءِ الخاتمةِ، وفي ذلك تَحذيرٌ وتَرهيبٌ مِن قَطْعِها.

الوَصيَّةُ بالجارِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء: ٣٦].

وعن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما زالَ جِبريلُ يُوصِيني بالجارِ، حتَّى ظَنَنتُ أنَّه سَيُورِّثُه))(٢).

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَدخُلُ

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

الجَنةَ مَن لا يَأمَنُ جارُه بَوائقَه))[1].



جاءت تَعاليمُ الإسلامِ تَدْعو إلى ما فيه خَيرُ العِبادِ، والعَمَلِ على تآلُفِهم وتَرابُطِهم، ومِن ذلك: الأمرُ بالإحسانِ إلى الجارِ، والجارُ هو القريبُ مِن الدَّارِ، سواءٌ كان مِن الأقاربِ أو الغُرباءِ الأباعِدِ، وسواءٌ كان مُسلِمًا أو كافرًا؛ فقولُه تعالَى: ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ يعني: أحسِنوا إلى جارِكم الذي بيْنكم وبيْنه قَرابةٌ، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ يعني: وأحسِنوا كذلك إلى جارِكم الذي ليس بيْنكم وبيْنه قَرابةٌ. ولعِظَمِ حقِّ الجارِ قرَنَ اللهُ سبحانَه الأمْرَ بالإحسانِ إليه بالأمْرِ بعِبادتِه سُبحانَه، وبالأمْرِ ببرِّ الوالدَينِ والإحسانِ إليهما وإلى ذَوي القُربَى واليَتامَى والمَساكينِ كما في هذه الآيةِ الكريمة.

وفي حَديثِ عبدِاللهِ بنِ عمرَ رضِيَ اللهُ عنهُما دَعوةٌ مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لحُسنِ الجوارِ، وتَرغيبٌ فيه؛ حيث يُخبِرُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ جِبرِيلَ عليه السَّلامُ كرَّرَ عليه الوصيَّةَ بالجارِ، وذلك بالإحسانِ إليه، ورِعايةِ ذِمَّتِه، والقِيامِ بحُقوقِه، ومُواساتِه في حاجتِه، والصَّبرِ على أذاه، ولكثرةِ ما أوْصَى جِبرِيلُ عليه السَّلامُ بالجارِ، ظنَّ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ اللهَ تعالى سيَجعَلُ للجارِ نَصيبًا في مِيراثِ جارِه؛ بحيثُ يكونُ الجوارُ أحدَ أسبابِ الإرثِ!

وحَديثُ أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه هو مِن أشدِّ الأحاديثِ في عاقبةِ المُسيءِ إلى جِيرانِه؛ فنهى فيه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن سُوءِ مُعاملتِه أو إلحاقِ الضَّررِ به؛ حيثُ أخبَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ سيِّئَ الجوارِ: الذي لا يَأمَنُ جارُه إيذاءَه وشُرورَه، فقولُه: «بَوائقَه» يعني: الظُّلمَ والجَورَ والتَّعدِّيَ. وعدَمُ دَخولِه الجنَّةَ: معناه:

---

(١) أخرجه من طرقٍ: البخاري معلقًا بصيغة الجزم بعد حديث (٦٠١٦)، وأخرجه موصولًا مسلم (٤٦) واللفظ له.

أَنَّه إذا كان مُسلِمًا وماتَ على التَّوحيدِ، فإِنَّه لا يَدخُلُ الجَنةَ مع الدَّاخلينَ الأوَّلينَ، ولكنَّه يُمنَعُ مِن دُخولِها أوَّلًا حتى يُحاسَبَ، ويُعاقَبَ ويُجازى بفِعْلِه، ثمَّ يَدخُلُ الجَنةَ؛ لأَنَّه شهِدَ بالتَّوحيدِ، إلَّا أن يَعفُوَ اللهُ عنه.



آدابُ التعامُلِ مع الناسِ

المُؤمِنُ أخُو المُؤمِنِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وعن أبي مُوسى الأشْعَريِّ رضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ المُؤمنَ للمُؤمِنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا، وشَبَّك أصابِعَه))(١).



بنَى الإسلامُ مُجتمَعَ المُسلِمينَ على أساسٍ مَتينٍ منَ الأُخوَّةِ والتآزُرِ فيما بيْنهم؛ فقد أخْبَرَ اللهُ تعالى أنَّ المؤمنينَ إخوةٌ في الدِّينِ، والأُخُوَّةُ يُنافيها الحِقْدُ والبَغضاءُ، وتَقْتضي التَّوادُدَ والتَّناصُرَ، وقِيامَ الأُلْفةِ والمَحبَّةِ فيما بيْنهم، **كما في الآيةِ الأولى**. وقد وصَفَ اللهُ سُبحانَه أصحابَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأثْنى عليهم بأنَّهم في غايةِ الرَّحمةِ بيْنهم، **كما في الآيةِ الثانيةِ**.

وفي حَديثِ أبي مُوسى الأشْعريِّ رضِيَ اللهُ عنهُ يَحُثُّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المؤمنينَ على التَّعاوُنِ والتَّناصُرِ، والتَّظاهُرِ والتَّكاتُفِ على مَصالِحِهم الخاصَّةِ والعامَّةِ، فأخْبَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ المؤمنينَ في تآزُرِهم، وتماسُكِ كُلِّ فَرْدٍ منهم بالآخَرِ؛ كالبُنيانِ المَرصوصِ الذي لا يَقْوى على البَقاءِ إلَّا إذا تماسَكَتْ أجزاؤُه لَبِنةً لَبِنةً، فإذا تفكَّكَتْ سَقَطَ وانهارَ. وأكَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا الوصفَ القَوليَّ بصُورةٍ

(١) أخرجه البخاري (٤٨١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٥).



فِعليَّةٍ حِسِّيةٍ أمامَهم؛ بأنْ شَبَّك صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْن أصابِعِه؛ إشارةً إلى أنَّ تَعاضُدَ المؤمنينَ بيْنهم كتَشبيكِ الأصابعِ بَعضِها في بَعضٍ؛ لكونِ الإصبَعِ مُنفردةً قد تَضعُفُ ولا تَقْوَى، فإذا تَشابَكتِ الأصابعُ فيما بيْنها بهذه الصُّورةِ، تَعاضَدتْ وقَوِيَت كالبُنيانِ إذا اجتمَعتْ لَبِناتُه وتَراصَّت، وهكذا المُؤمِنُ مع أخيه المُؤمِنِ.

مَحَبَّةُ الخَيرِ للمُسلِمينَ

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنَفْسِه))[1].



في هذا الحديثِ يُوثِّقُ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأُخُوَّةَ بيْن المُسلِمين، ويُبَيِّنُ بعضَ حُقوقِها، ويَربِطُ بيْن قوَّةِ الإيمانِ وأداءِ هذا الحقِّ؛ فيُبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لا يَتحقَّقُ الإيمانُ الكامِلُ لأحدٍ مِن المُسلِمينَ حتَّى يُحِبَّ ويَرْضى لأخيهِ المُسلِمِ ما يُحِبُّه ويَرْضاه لنفسِه مِن الطَّاعاتِ وأنواعِ الخَيراتِ في الدِّينِ والدُّنيا، ويَستلزِمُ ذلك أنْ يَكرَهَ له مِن الشُّرورِ والآثامِ ما يَكرَهُ لنفْسِه، ولا يَصِلُ المسلِمُ لهذه الدَّرَجةِ إلَّا إذا سَلِمَ صَدرُه مِن الغِلِّ والغِشِّ والحسَدِ؛ فإنَّ الحَسَدَ يَقتَضي أنْ يَكرَهَ الحاسِدُ أنْ يفُوقَه أحدٌ في خَيرٍ، أو يُساوِيَه فيه؛ لأنَّه يُحِبُّ أنْ يَمتازَ على النَّاسِ بفَضائلِه، ويَنفرِدَ بها عنهم، والإيمانُ يَقْتضي خِلافَ ذلك، وهو أنْ يَشرَكَه المؤمنونَ كلُّهم فيما أعطاهُ اللهُ مِن الخيرِ.

فمِن جُملةِ خِصالِ الإيمانِ الواجِبةِ؛ أنْ يُحِبَّ المَرءُ لأخيهِ المؤمِنِ ما يُحِبُّ لنَفْسِه، ويَكرَهَ له ما يَكرَهُ لنَفْسِه، فإذا زال ذلك عنْه فقد نَقَص إيمانُه بذلك.

(١) أخرجه البخاري (١٣) واللفظ له، ومسلم (٤٥).



حقُّ المُسلِمِ على المُسلِمِ

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((خَمْسٌ تَجِبُ للمُسلِمِ على أخيهِ: رَدُّ السَّلامِ، وتَشمِيتُ العاطسِ، وإجابةُ الدَّعْوةِ، وعِيادةُ المَريضِ، واتِّباعُ الجَنائزِ))(١).



أقامَ الإسلامُ مُجتمعًا مُتماسِكًا مترابِطًا، المُسلِمُ فيه أخو المُسلِمِ، له عندَه حقوقٌ، وعليهِ تُجاهَه واجباتٌ، **وفي هذا الحديثِ** يُوضِّحُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعضَ حُقوقِ المُسلِمِ على أخيهِ المسلِمِ، وهنَّ خمْسُ خِصالٍ كما جاءَ في الحديثِ، **وأوَّلُ هذِه الحقوقِ**: ردُّ السلامِ إذا سلَّمَ عليه، وهو واجبٌ على الكِفايةِ إنْ كان في جَماعةٍ، وواجِبٌ مُتعيِّنٌ عليه إنْ كان مُنفردًا، ويُستثنى مِن ذلك إنْ كان في حالةٍ يَمتنِعُ عليه رَدُّه، كما لو كان في الخَلاءِ. **والثاني**: تَشميتُ العاطسِ، ويكونُ بالدُّعاءِ له بالرَّحمةِ إذا حمِدَ العاطِسُ اللهَ تعالَى؛ وذلك لأنَّه كان مِن أهلِ الرَّحمةِ حيثُ عظَّمَ ربَّه بالحَمدِ على نِعمتِه وعرَف قَدْرَها. ومِن فَوائدِ التَّشميتِ: تَحصيلُ المَودَّةِ، والتَّأليفُ بيْن المُسلِمينَ. **والثالثُ**: إجابةُ دَعوتِه للوَليمة؛ كوليمة العُرسِ، أو العَقيقةِ، أوغَيرِهما. **والرابعُ**: عِيادتُه وزِيارتُه وهو مَريضٌ، والسُّؤالُ عن حالِه، والدُّعاءُ له، وفي العادةِ تكونُ عِيادتُه لأخيهِ سَببًا لتَقويةِ أواصرِ الحُبِّ، وتَجدُّدِ نَشاطِه، وانتعاشِ قوَّتِه. **والخامسُ**: اتِّباعُ جِنازتِه إذا مات، وذلك بالصَّلاةِ عليهِ، وحُضورِ دَفْنِه، والدُّعاءِ له بالرَّحمةِ والمغفِرةِ.

التّناصُحُ

قالَ اللهُ تعالَى إخبارًا عن نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وقال إخبارًا عن هُودٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢) واللفظ له.



وعن تَميمٍ الداريِّ رضِيَ اللهُ عنهُ، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((الدِّينُ النَّصِيحةُ. قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: للهِ ولِكِتابِهِ ولِرَسولِهِ، ولأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعامَّتِهم))(١).



التَّناصُحُ بين المُسلمين من مَعالِم دِينِ الإسلامِ الحَنيفِ، ومِن هَدْيِ الأنبياءِ الذين حَرَصوا على دعوةِ قَومِهم إلى الحَقِّ.

وقولُ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿أَنصَحُ﴾ فيه دَلالةٌ على تَجديدِ النُّصحِ، وأنَّ نوحًا عليه السَّلامُ غيرُ تاركِه مِن أجْلِ كراهيتِهم أو بَذاءتِهم معه وإنَّما قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾، ولم يقُلْ: (وأَنْصَحُكم) للإشارةِ إلى مُبالَغتِه في النَّصيحةِ لقَومِه، وأنَّها وقعَتْ خالِصةً لهم، مقصودًا بها جانبُهم.

وأمَّا قَولُ هُودٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ فإنَّه لَمَّا رَماه قومُه بالسَّفَهِ عَبَّر عن مضمونِ الجُملةِ النَّافية له بما يَقتضي الثَّباتَ، فقال: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾، أي: على الدَّوام.

ومِن حُسْنِ التَّعامُلِ بين النَّاسِ أنْ يتناصَحوا فيما بينَهم بالمعروفِ. **وفي هذا الحديثِ** توضيحٌ لمَعالِمِ النُّصحِ، ولِمَن يكونُ وكيفَ يكونُ، حيثُ يبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ النَّصيحةَ هي عِمادُ الدِّينِ وجوهرُه ووسيلةُ ظُهورِه وانتشارِه، والنصيحةُ هي تَحرِّي قولٍ أو فِعلٍ فيه صلاحٌ لصاحبِه، أو تحرِّي إخلاصِ الوُدِّ له، والحاصلُ أنَّ النصيحةَ هي إرادةُ الخيرِ للمنصوحِ له، وهو لفظٌ جامعٌ لمَعانٍ شتَّى.

ثُمَّ سألَ الصَّحابةُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لِمَن تكونُ النَّصيحةُ؟ ولِمَن تُوَجَّهُ؟ فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «للهِ ولكِتابِه ولرَسولِه، ولأئمَّةِ المسلمينَ وعامَّتِهم».

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

والنَّصيحةُ للهِ هي التعظيمُ لأمْرِه، والشفقةُ على خلْقِه، وتكونُ بالدَّعوةِ إلى الإيمانِ به، ونَفْيِ الشِّركِ وجميعِ النَّقائصِ عنه، وإخلاصِ العِبادةِ كلِّها له سبحانَه، وحَقيقةُ هذِه الإضافةِ راجعةٌ إلى العَبدِ في نصيحةِ نفْسِه للهِ، واللهُ غنيٌّ عن نُصحِ كلِّ ناصحٍ. والنَّصيحةُ للرَّسولِ تكونُ باتِّباعِه وتصديقِه في كلِّ ما جاء به، وتنفيذِ أوامرِه، والانْتهاءِ عمَّا نَهى عنه، ومُراعاةِ هَدْيِه وسُنَّتِه. والنَّصيحةُ لأئمَّةِ المسلمين تكونُ بمُعاونتِهم على الحَقِّ، وطاعتِهم فيه، وأمْرِهم به، وتَنبيهِهم وتذكيرِهم برِفقٍ ولُطفٍ، وإعلامِهم بما غَفَلوا عنه ولم يَبلُغْهم مِن حُقوقِ المُسلِمينَ، وتألُّفِ قُلوبِ النَّاسِ لطاعتِهم، وتَركِ الخُروجِ عليهم، إلَّا أنْ يُرَى مِنهم كُفرٌ بواحٌ عِندَنا فيه مِن اللهِ تعالى بُرهانٌ، وهذا مَشروطٌ بالقُدرةِ وعَدمِ حُصولِ مَفسدةٍ أكبرَ. والنَّصيحةُ لعامَّةِ المُسلِمينَ تكونُ بتعريفِهم بأوامرِ اللهِ ورسولِه وبشرائعِ الدِّينِ، وبالعَملِ على ما فيه نَفْعُهم وصلاحُهم، وإبعادِ الضَّررِ عنهم، وغيرِ ذلك ممَّا فيه صالحُ النَّاس في دِينِهم ودُنياهُم.

عِيادةُ المَريضِ

عن ثَوبانَ رضِيَ اللهُ عنه -مولَى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((**مَن عادَ مَريضًا لم يَزَلْ في خُرْفةِ الجَنَّةِ حتَّى يَرجِعَ**))[1].

عِيادةُ المريضِ مِنَ الآدابِ الَّتي حَثَّ عليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووعَدَ عليها بحُسنِ الجَزاءِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي هذا الحديثِ يُؤكِّدُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا الأجْرَ العَظيمَ الذي يَتفضَّلُ اللهُ به على مَن عادَ مَريضًا وزارَه؛ بأنَّه لا يَزالُ «في خُرْفةِ الجَنَّةِ حتَّى يَرجِعَ»، وخُرفةُ الجَنَّةِ: ثَمَرتُها إذا نَضِجتْ، وبَساتِينُها التي

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٨).

يُجْتَنَى مِنها ويُتنعَّمُ فيها بالأكْلِ وغَيرِه؛ فشَبَّه ما يَحُوزُه عائدُ المريضِ مِنَ الثَّوابِ بما يَحُوزُه الذي يَجْتَني الثَّمَرَ، ولمَّا كانتْ عِيادةُ المريضِ والمَشْيُ إليه سَببًا إلى الجَنَّةِ -لِمَا فيها مِنَ الأُلفةِ، ولِمَا يَدخُلُ على المريضِ مِنَ الأُنسِ بعائدِه والسُّكونِ إلى كَلامِه- وكان مَمشاهُ إلى المَريضِ له مِنَ الثَّوابِ على كُلِّ خُطوةٍ، وكانتِ الخُطَا سَببًا إلى نَيلِ الدَّرجاتِ في النَّعيمِ المُقِيمِ؛ عَبَّرَ بأنَّه في خُرْفةِ الجَنَّةِ؛ لأنَّه سَببُها؛ فعائدُ المريضِ يَجنِي مِن ثِمارِ الجنَّةِ مُدَّةَ مَشيِه وجُلوسِه عِندَ هذا المريضِ؛ فهو في رَوضَتِها وفي الْتِقاطِ فَواكهِ الجنَّةِ ومُجْتناها.

وقدْ نُدِبَ إلى عِيادةِ المريضِ حتى لو كان مُغمًى عليه؛ لِمَا يَحصُلُ بها مِن جَبْرِ خاطرِ أهْلِه، وما يُرجَى مِن بَركةِ دُعاءِ العائدِ ورُقيتِه له وتَعويذِه، وغيرِ ذلِك، وقد تكونُ الزِّيارةُ في بعضِ الأحيانِ مِن فُروضِ الكِفايةِ، كما في حالِ المرضَى مِنَ الغُرباءِ، ومَن لا قائمَ عليهم ولا كافِلَ لهم؛ فعِيادتُهم سَببٌ للاطِّلاعِ على أحوالِهم ومَعونتِهم وإعانتِهم، وهي كإغاثةِ المَلهوفِ، وإنجاءِ الهالِكِ.

وعِيادةُ المريضِ حقٌّ مِن حُقوقِ المُسلمِ على أخيه المُسْلمِ، كما في الحديثِ: ((خَمْسٌ تَجِبُ للمُسلِمِ على أخيهِ... وعِيادةُ المَريضِ))[1].

ولزِيارةِ المريضِ وعِيادتِه آدابٌ مُهمَّةٌ؛ منها: ارتباطُ وقْتِ الزِّيارةِ ومُدَّةِ المُجالَسةِ بحالِ المريضِ وأسبابِ مَرضِه؛ فلا يَحضُرُ في وَقتٍ غيرِ مُناسِبٍ للعِيادةِ، كوقتِ شُربِ المريضِ الدَّواءَ، ونحوِ ذلك، وعليه أنْ يُخفِّفَ الجُلوسَ ويُقلِّلَ السُّؤالَ، ومِنَ المَرضَى مَن يَحتاجُ إلى الأُنسِ والمُجالَسةِ وقتًا أطولَ مِن غيرِه، ومِنهم مَن لا يَقْوى على المُجالَسةِ، فمِثلُه لا يُطوَّلُ عِندَه، وبعضُهم يَكفِي في حقِّهم سُؤالُ أهلِه عنه؛ لأنَّه لا يَقدِرُ على مُجالَسةِ الزَّائرينَ له؛ نظَرًا لشِدَّةِ مَرضِه ونحوِه. ومنها: أنْ يُظهِرَ الرِّقَّةَ، وأنْ

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢) واللفظ له.



يُخلِصَ الدُّعاءَ، وأنْ يُوسِّعَ للمَريضِ في الأمَلِ، ويَحُضَّه على الصَّبرِ وعَدَمِ الجَزَعِ؛ لِمَا في ذلِكَ مِن جَزيلِ الأجْرِ والسَّلامةِ مِنَ الوِزرِ.

إكرامُ الضَّيفِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، فلْيُكرِمْ ضَيفَه ...))[1].

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَهتَمُّ بأمْرِ المُسلِمينَ ويُرشِدُهم إلى التَّحَلِّي بمَكارِمِ الأخْلاقِ ومَحاسِنِ الآدابِ، ومِن ذلِك الضِّيافةُ؛ فهي مِن مَكارمِ الأخلاقِ، ومِن آدابِ الإسلامِ، ومِن خُلقِ النَّبيِّين والصَّالِحينَ.

وفي هذه الآياتِ الكَريمةِ طرَفٌ مِن قِصَّةِ حُضورِ المَلائكةِ عِندَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وفيها يُبيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ عَظيمَ كَرمِ خَليلِه إبراهيمَ عليه السَّلامُ لضُيوفِه مِن المَلائكةِ، المُكْرَمينَ عِندَ اللهِ تعالَى بتَعظيمِهم، وعِندَ إبراهيمَ وأهلِه بحُسنِ ضِيافتِهم وخِدْمتِه لهم بنَفسِه، وأنَّهم لمَّا سلَّموا عليه رَدَّ عليهم السَّلامَ مُوضِّحًا أنَّهم قَومٌ غيرُ مَعروفينَ له، ومعَ ذلك أوَّلَ ما دخَلوا عليه مالَ إبراهيمُ إلى أهلِ بَيتِه، وانسَلَّ في سُرعةٍ خُفْيةً عن ضُيوفِه؛ لِيُبادِرَ بإكرامِهم، فأحضَرَ لهم عِجلًا سَمينًا مِن خِيارِ مالِه، وشَواهُ لهم -كما في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]- فأدْناهُ منهم،

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨) واللفظ له، ومسلم (٤٧).



وبعدَما رأَى أيديَهم لا تَمتَدُّ إلى الطَّعامِ، خاف منهم، ولكِنْ لم يُظهِرْ لهم ذلك، بلْ قال لهم بتلَطُّفٍ في العِبارةِ وعرْضٍ حَسَنٍ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فراعَى آدابَ الضِّيافةِ أحْسنَ مُراعاةٍ؛ حيثُ جاء بطَعامِه مِن حيثُ لا يَشعرونَ وبسُرعةٍ، ولم يقُلْ -مثَلًا-: هلْ نأتيكُم بطعامٍ؟ أو: مَكانَكم حتى آتيَكم بالطَّعامِ، ونحوَ ذلك ممَّا يُوجِبُ حَياءَ الضَّيفِ واحتِشامَه، بل جاءَ به بسُرعةٍ وخَفاءٍ، وأتَى بأفْضَلِ ما وجَدَ مِن مالِه، وهو عِجلٌ كامِلٌ فَتِيٌّ سَمينٌ مَشويٌّ، فقرَّبه إليهم بنَفْسِه ولم يَأمُرْ خادِمَه أو غَيرَه بذلِك، ولم يَضَعْه وقال: اقترِبوا، بلْ وضَعَه بيْن أيدِيهم، ولمْ يَأمُرْهم أمْرًا يشُقُّ على سامعِه بصِيغةِ الجَزمِ، بلْ قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سَبيلِ العَرْضِ والتلطُّفِ؛ فأكْرَمَهم بأنواعِ الإكرامِ بالقَولِ والفِعلِ. وفي هذا بَيانُ مَشروعيَّةِ الضِّيافةِ، وأنَّها مِن سُنَنِ إبراهيمَ الخَليلِ الذي أمَرَ اللهُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأُمَّتَه أنْ يتَّبِعوا مِلَّتَه، وساقَها اللهُ في هذا الموضِعِ على وَجهِ المَدحِ له والثَّناءِ مِن وُجوهٍ كثيرةٍ.

وفي حَديثِ أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ تعالَى إيمانًا كامِلًا، ويُؤمِنُ بحَقيقةِ يَومِ القِيامةِ الذي إليهِ مَعادُه، وفيه الحِسابُ، وفيه مُجازاتُه بعَمَلِه؛ فلْيُكرِمْ ضَيفَه، وإنَّما ذَكَر اليومَ الآخِرَ؛ للتَّرغيبِ في تَحصيلِ الثَّوابِ والنَّجاةِ فيه مِن العِقابِ. وإكرامُ الضَّيفِ يكونُ بطَلاقةِ الوَجْهِ، وطِيبِ الكَلامِ، وإظهارِ الفَرحِ بمَجيئِه، والإطعامِ، ونَحوِ ذلِك، ومِن الضُّيوفِ مَن يكونُ حقُّه أَولى، كالضَّيفِ المُسافِرِ، وهو القادمُ مِن بَلدٍ آخَرَ، ومِثلُه الذي يَأتي مِن مَكانٍ بَعيدٍ، فحَقُّه وإكرامُه أَولى مِن الزَّائرِ مِن البَلدِ نفْسِه، وليسَ قادمًا مِن السَّفرِ.

قَضاءُ حَوائجِ المُسلِمينَ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن نَفَّسَ عن مُؤمنٍ كُربةً مِن كُرَبِ الدُّنيا، نَفَّسَ اللَّهُ عنْه كُربةً مِن كُرَبِ يوم القِيامةِ، ومَن يَسَّرَ

على مُعسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عليه في الدُّنيا والآخِرةِ، ومَن سَتَرَ مُسلمًا سَتَرَه اللَّهُ في الدُّنيا والآخِرةِ، واللهُ في عَونِ العَبْدِ ما كان العَبدُ في عَونِ أخيهِ ...))[1].

حَثَّ الشَّرعُ على قَضاءِ حَوائجِ النَّاسِ، والتَّيسيرِ عليهم، ونَفْعِهم بما يَتيسَّرُ مِن مالٍ وعِلمٍ، أو مُعاونةٍ أو مُشاوَرةٍ، أو غيرِ ذلك، وفي هذا الحديثِ يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الثَّوابَ والأجْرَ لمَن فَعَلَ ذلك؛ فيَقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «مَن نَفَّسَ عن مُؤمنٍ كُربةً»، أي: رَفَعَ عن مُؤمنٍ حُزنًا وعَناءً وشِدَّةً، ولو كان يَسيرًا، فيكونُ الثَّوابُ والأجْرُ أنْ يُنَفِّسَ اللهُ عنه كُربةً مِن كُرَبِ يومِ القِيامةِ، وتَنْفيسُ الكُرَبِ إحسانٌ، فجَزاه اللهُ جَزاءً وِفاقًا، «ومَن يَسَّرَ على مُعسِرٍ»، والتَّيسيرُ على المُعسِرِ في الدُّنيا مِن جِهةِ المالِ يكونُ بأحَدِ أمْرَينِ: إمَّا بإنْظارِه إلى المَيسَرةِ، وتارَّةً بالوضْعِ عنه إنْ كان غَريمًا، أي: عليه دَينٌ، وإلَّا فبإعْطائِهِ ما يَزولُ به إعسارُه، وكِلاهُما له فَضلٌ عَظيمٌ، وجَزاؤُه أنْ يُيسِّرَ اللهُ عليه في الدُّنيا والآخِرةِ مُقابلَ تَيسيرِه على عَبدِه؛ مُجازاةً له بجِنسِ عَمِلِه، «ومَن سَترَ مُسلِمًا»، أي: رآهُ على قَبيحٍ فلم يُظهِرْه للناسِ، فيَكونُ جَزاؤُه أنْ يَستُرَه اللهُ في الدُّنيا، أي: يَستُرُ عَوْرتَه أو عُيوبَه، ويَستُرَه في الآخِرةِ عن أهْلِ المَوقِفِ. وهذا فِيمَن كان مَستورًا لا يُعرَفُ بشَيءٍ مِن المعاصي، فإذا وَقَعَت منه هفْوةٌ أو زَلَّةٌ، فإنَّه لا يَجوزُ هتْكُها ولا كشْفُها ولا التَّحدُّثُ بها، وليس في هذا ما يَقْتضي تَرْكَ الإنكارِ عليه فيما بيْنه وبيْنه.

وقَولُه: «واللهُ في عَونِ العَبْدِ ما كان العَبْدُ في عَونِ أخيهِ»، أي: مَن أعانَ أخاهُ أعانَه اللهُ، ومَن كان ساعيًا في قَضاءِ حاجَاتِ أخيهِ، قَضى اللهُ حاجاتِه؛ فالجزاءُ مِن جِنسِ العمَلِ.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩). وأخرجه البخاري (٢٤٤٢) مختصرًا من حديث عبدالله بن عمر.

صُحبةُ الصَّالِحين، والابتِعادُ عن جُلساءِ السُّوءِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وعن أبي مُوسى الأشْعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّما مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ والجَليسِ السَّوءِ، كَحامِلِ المِسكِ ونافخِ الكِيرِ؛ فَحامِلُ المِسكِ إمَّا أنْ يُحذِيَك، وإمَّا أنْ تَبْتاعَ منه، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه رِيحًا طَيِّبةً، ونافِخُ الكِيرِ إمَّا أنْ يُحرِقَ ثِيابَك، وإمَّا أنْ تَجِدَ رِيحًا خَبيثةً))(١).



مُصاحَبةُ الصالحينَ ومُجالستُهم مِن شِيَمِ الأخيارِ، وهو طَريقٌ لنَيلِ السَّعادةِ في الدارَيْنِ، أمَّا مُصاحبةُ الأشرارِ الطالِحين فمِن شِيَمِ ضِعافِ النُّفوسِ، وطَريقٌ للخَسارةِ والبَوارِ؛ فقد بيَّنَت **الآيةُ الأُولى** أنَّ الأصدِقاءَ المُتصاحِبينَ في الدُّنيا على الكُفرِ أو المعاصي، يكونُ بَعضُهم أعداءً لِبَعضٍ يومَ القِيامةِ، ويَتبرَّأُ بَعضُهم مِن بَعضٍ، بخِلافِ الذين اتَّقَوا اللهَ فتآخَوا في الدُّنيا، وتَصاحَبوا على تَوحيدِ الله وطاعتِه ومَحبَّتِه.

وفي **الآيةِ الثَّانيةِ** أمْرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحَبْسِ نَفسِه مع المُؤمنينَ الذين

(١) أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨) واللفظ له.



يَعبُدونَ رَبَّهم أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، ويَدْعونَه ويَذكُرونَه مُخلِصينَ له في ذلك، وفيها نَهْيُه عن صَرْفِ عَينَيه عنهم؛ لفَقرِهم أو رَثاثةِ هَيئتِهم، ونَهْيُه عن تَجاوُزِهم إلى أهلِ الشَّرَفِ والجاهِ، والغِنَى والثَّروةِ، طامحًا إلى مُجالَستِهم بدَلًا مِن أولئك؛ ففي الآيةِ الأمرُ بصُحبةِ الأخيارِ، ومُجاهَدةِ النَّفسِ على صُحبتِهم ومُخالَطتِهم وإنْ كانوا فُقراءَ.

وتَحكي **الآيةُ الثالثةُ** نَدَمَ مَن اتَّخَذ صديقًا وحَبيبًا له مِن أهلِ الغَوايةِ يومَ القِيامةِ؛ فقد كان سَببًا لصَرْفِه عن القُرآنِ واتِّباعِ الحَقِّ؛ ففي الآيةِ التَّحذيرُ مِن قُرَناءِ السُّوءِ، وأنَّه يَجِبُ على المرْءِ أنْ يَختارَ لنَفسِه الأصحابَ مِن أهلَ العِلمِ والدِّينِ ممَّن حَسُنَت سَريرتُهم، واستَقامتْ سِيرتُهم، وغَلَب الصَّوابُ على أقوالِهم وأعمالِهم، فيَدُلُّونه على الخيرِ ويَقودونَه إليه.

وفي حديثِ أبي مُوسى رضِيَ اللهُ عنه يَضرِبُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِثالًا للجليسِ الصالحِ، والجليسِ السَّوءِ؛ ليُقرِّبَ لنا المعانيَ، ويَحُثَّنا على الْتزامِ الخيرِ والابتعادِ عن السُّوءِ والشرِّ؛ **فالمثالُ الأوَّلُ** يَسوقُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للجليسِ الصالحِ، وعَلامةُ صَلاحِ الجليسِ أنَّه يدُلُّ جَليسَه على اللهِ تعالى وما يُقَرِّبُ إليه مِن قَولٍ أو عَمَلٍ، ويُشبِّهُه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحاملِ المِسكِ؛ فحاملُ المِسكِ إمَّا أنْ يُهدِيَك مِن مِسْكِه، وإمَّا أن تَشتريَ منه، وإمَّا أنْ تجِدَ منه رِيحًا طيِّبةً، وكذلك مُجالَسةُ الصُّلَحاءِ تَنفَعُك بكلِّ حالٍ.

والمِثالُ الثاني للجَليسِ السَّوءِ، وهو مَن يُجالِسُ غيرَه ويَصُدُّه عن سَبيلِ اللهِ، وعمَّا يُقَرِّبُ إليه مِن قولٍ وعملٍ، ويُشبِّهُه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنافخِ الكيرِ، والكِيرُ: هو جِلدٌ غَليظٌ تُنفَخُ به النَّارُ، فنافخُ الكيرِ هذا إمَّا أنْ يُحرِقَ الثِّيابَ مِن شرَرِه المُتطايرِ، أو تَجِدَ مِن مُجالَستِه رِيحًا خَبيثةً، فيَجلِبَ لك كَربًا وضِيقًا، وتَشَمَّ منه ما يُؤذيك، وهكذا الجَليسُ السَّوءِ؛ إمَّا أنْ تُصيبَك شُرورُ أفعالِه، فتُشارِكَه أوزارَه،



وتَحترِقا بنارِها، وإمَّا أنْ تَرى القبيحَ وسُوءَ الفعلِ منه أمامَك، فتُذَمَّ لمُصاحَبةِ ومُجالسةِ مَن هذا حالُه.

تَحريمُ إيذاءِ المُسلِمينَ

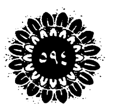
قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١، ١٢].

وعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ رجُلًا سَأَلَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أيُّ المُسلِمينَ خَيرٌ؟ قال: ((مَن سَلِمَ المُسلِمونَ مِن لِسانِه ويَدِه))[1].



الأُخوَّةُ بيْن المُسلِمينَ تقْتضي حُسْنَ المعامَلةِ بيْنهم، وإذا كان الإسلامُ قد حرَّمَ إيذاءَ المسلمِ لغَيرِه بغيرِ حقٍّ، فإيذاءُ المسلِمِ أشدُّ تَحريمًا، وقد جاءت **هاتانِ الآيتانِ** مُنبِّهتَينِ على أُمورٍ قد تقَعُ الغَفلةُ عن مُراعاتِها؛ لكَثرةِ تَفشِّيها؛ فنَهى اللهُ تعالى المؤمنينَ والمؤمناتِ عن الاستِهزاءِ، ونَهاهم عن أنْ يَطعُنَ بَعضُهم في بَعضٍ بالعَيبِ والقَدْحِ، وعن مُناداتِهم بالأسماءِ والصِّفاتِ القَبيحةِ التي يَكرَهُها المنادَى بها، وحَكَمَ اللهُ تعالى على مَن لم يَتُبْ مِن السُّخريةِ بإخوانِه المُؤمنينَ، أو لَمْزِهم، أو مُنابزتِهم بالألقابِ؛ بأنَّهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بتَعريضِها لعِقابِ اللهِ، أو ظَالِمون لغيرِهم بالاعتداءِ عليهم، كما أمَرَهم أيضًا باجتنابِ الظَّنِّ السَّيِّءِ، ونَهاهم عن تتَبُّعِ عُيوبِ النَّاسِ والتَّنقيبِ عنها،

(١) أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠) واللفظ له.



وعن الغِيبةِ التي هي ذِكرُ المَرءِ بما يَكرَهُه ولو كان فيه.

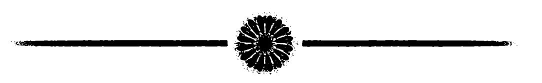
وتَوجيهُ الخِطابِ بذلك كُلِّه للمؤمِنين يدُلُّ على أنَّ امتِثالَ ما أمَرَ اللهُ تعالى به، واجتِنابَ ما نَهى عنه في هذه الآياتِ: مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ، وأنَّ فقْدَه ومُخالفتَه نقْصٌ في الإيمانِ.

وحَديثُ عبدِاللهِ بنِ عمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما مِن جَوامعِ كَلِمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وفَصيحِه، وقد بيَّن فيه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ خيرَ المُسلِمينَ، أي: المُسلِمَ الكامِلَ الجامعَ لخِصالِ الإسلامِ: هو مَن لم يُؤذِ مُسلِمًا بقَولٍ ولا فِعلٍ، وخصَّ اليَدَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ مُعظَمَ الأفعالِ بها، وقدَّم اللِّسانَ؛ لأنَّ الإيذاءَ به أكثرُ وأسهلُ، وأشدُّ نِكايةً، ويَعُمُّ الأحياءَ والأمواتَ جميعًا.

التَّحذيرُ مِن إيذاءِ الصَّالحِينَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ قال: مَن عادَى لي وليًّا فقدْ آذَنْتُه بالحَربِ ...)) الحديثَ[1].



حرَّمَ اللهُ إيذاءَ المؤمنِ بغيرِ حقٍّ، وتَوعَّدَ المُجترئَ على ذلك بالعِقابِ الأليمِ في الدُّنيا والآخِرةِ، ويَزدادُ التَّحريمُ شِدَّةً، ويَزدادُ الوعيدُ بالعقابِ خُطورةً؛ إذا كان الواقعُ عليه الإيذاءُ أحدَ الصالحينَ، **وفي الآيةِ الكريمةِ** نَهيٌ مِنَ اللهِ تَبارَك وتعالَى عن إيذاءِ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ مِن غَيرِ جِنايةٍ منهم، كسَبِّهم وشَتْمِهم، ومَن يَفعَلْ ذلك فقدْ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).



تَحمَّل كَذِبًا فاحِشًا؛ لافترائِه عليهم بما هم منه بُرَآءُ، وذِكْرِهم بما ليس فيهم، وتحَمَّلَ إثمًا ظاهِرًا؛ فأذِيَّةُ المُؤمِنينَ عَظيمةٌ، وإثمُها عَظيمٌ.

وفي هذا الحديثِ القُدسيِّ يُخبِرُ اللهُ تعالَى أنَّ مَن آذَى له وَليًّا، فقد أعلَنَ الحربَ عليه، وأعلَمَه بذلك، وهذا في الغايةِ القُصوى مِنَ التَّهديدِ؛ إذ مَن حارَبَه اللهُ وعامَلَه مُعاملةَ المحارِبِ، فهو هالكٌ لا مَحالةَ، ومَن يُطيقُ حرْبَ اللهِ؟! والوَلِيُّ هو المُؤمِنُ التقيُّ، العالِمُ باللَّهِ تعالَى، المواظِبُ على طاعتِه، المُخلِصُ في عِبادتِه.

النَّهيُ عن هَجرِ المُسلمِ أخاه

عن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رضِيَ اللهُ عنهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَحِلُّ لمُسلمٍ أنْ يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثَلاثِ لَيالٍ؛ يَلتَقِيانِ فيُعرِضُ هذا ويُعرِضُ هذا، وخَيرُهما الذي يَبدَأُ بالسَّلامِ))[1].



عَمِلَ الإسلامُ على قطْعِ دابرِ الشَّحناءِ والعَداوةِ والبَغضاءِ منَ المجتمعِ، واتَّخذَ لذلك تَدابيرَ مُتعدِّدةً، وفي هذا الحَديثِ يُخبِرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لا يَحِلُّ لِمُسلمٍ أنْ يُقاطِعَ أخاهُ في الإسلامِ فوقَ ثَلاثِ لَيالٍ بأيَّامِها، قاصِدًا لِقَطْعِ مُواصلَتِه وعازِمًا عَليها، وهذا إذا لم يَخَفْ على نفْسِه مَضرَّةً في دِينِه أو دُنياه، أو لوُجودِ بِدعةٍ في المَهجورِ، أو لتَظاهُرِه بفِسْقٍ أو نحوِه؛ فإنْ كان ذلك فله مُجانَبتُه والبُعدُ عنه، ورُبَّ هَجْرٍ جَميلٍ خيرٌ مِن مُخالَطةٍ مُؤذيةٍ! وبَعضُ الهَجرِ زَجرٌ وتَأديبٌ. وذِكرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لثَلاثِ لَيالٍ يدُلُّ على إباحتِها في الثَّلاثِ لعارِضٍ، وإنَّما عُفِيَ عنها في الثَّلاثِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَغضَبُ أو يَسوءُ خُلقُه بسَببِ مَوقفٍ، فعُفِيَ عنِ الهَجرِ في

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠) واللفظ له.



الثَّلاثةِ؛ ليَذهَبَ ذلك العارِضُ. قيل: في اليَومِ الأوَّلِ يَسكُنُ غَضَبُه، وفي الثَّاني يُراجِعُ نَفْسَه، وفي الثَّالثِ يَعتَذِرُ، وما زاد على ذلك كان قَطْعًا لحُقوقِ الأُخوَّةِ.

ثُمَّ بيَّن صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ السَّلامَ قاطِعٌ للهَجرِ، ومُزيلٌ للحَرَجِ؛ فإنَّ المتخاصِمَينِ يُعرِضُ كُلٌّ منهما عن الآخَرِ، وهو الغالِبُ مِن حالِ المتهاجِرَينِ عندَ اللِّقاءِ؛ فجَعَل النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الخيريَّةَ والأفضليَّةَ لمَن يَبدَأُ بالسَّلامِ على الآخَرِ.

خُطورةُ الشَّحناءِ بيْنَ المُسلِمينَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((تُفتَحُ أبوابُ الجَنَّةِ يومَ الاثنَينِ ويومَ الخَميسِ، فيُغفَرُ لكُلِّ عَبدٍ لا يُشرِكُ باللهِ شيئًا، إلَّا رجُلًا كانتْ بيْنه وبيْن أخيهِ شَحناءُ، فيُقالُ: أنْظِروا هذَينِ حتى يَصطَلِحا، أنْظِروا هذَينِ حتى يَصطَلِحا، أنْظِروا هذَينِ حتى يَصطَلِحا))(١).



مِن أبرَزِ صِفاتِ أهلِ الجَنَّةِ صَفاءُ قُلوبِهم، وخُلوُّها مِنَ الشَّحناءِ والبَغضاءِ؛ فاللهُ تعالى يُزيلُ مِن صُدورِ أهْلِ الجنَّةِ الأحْقادَ والبَغضاءَ والكَراهِيةَ والحسَدَ الذي كان بيْنهم في الدُّنيا؛ حتَّى يَكونوا في الجنَّةِ إخْوانًا مُتَحابِّينَ، ومع أنَّ مَنازِلَهم فيها مُتفاوِتةٌ، فإنَّه لا يَحسُدُ أحدٌ مِنهم أحَدًا على ارتفاعِ مَنزِلتِه عَليه - كما في هذه الآيةِ.

وقد جَعَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ صَفاءَ النُّفوسِ ونَقاءَها طَريقًا للفَوزِ بالجَنَّةِ، وجَعَلَ المُشاحَناتِ والتَّباغُضَ والتَّدابُرَ طَريقًا للحِرمانِ منها كما **في حَديثِ أبي هُرَيرة**

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).

رَضِيَ اللهُ عنه، حيثُ يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أبوابَ الجَنَّةِ تُفتَحُ يومَ الاثنَينِ ويَومَ الخَميسِ، وفَتْحُ أبوابِها عَلامةٌ على كثرةِ المَغفِرةِ والصَّفحِ والغُفرانِ، وإعطاءِ الثَّوابِ الجَزيلِ، وتَسجيلِ مَن كُتِبَ أنَّه مِن أهلِها في ذلك اليَومِ، فيَغفِرُ اللهُ لكُلِّ المُوَحِّدينَ، واستَثنَى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن ذلك المُتَشاحِنَينِ، والمُرادُ بهما المُتَخاصِمانِ، والخصومةُ المنهيُّ عنها هي التي تكونُ لحظِّ النَّفْسِ ومعايشِ الدُّنيا، وأمَّا إذا كانتْ للدِّينِ، كهِجرانِ أهلِ البِدعِ ونَحوِهم، فهي ثابتةٌ، ومجانبتُهم أوْلَى؛ فيُمهِلُ اللهُ عزَّ وجلَّ مَغفِرَتَه لهما وتَسجيلَهما في أهلِ الجَنَّةِ إلى أنْ يَصطَلِحَ المُتخصامانِ ويَرجِعَا عن خُصومَتِهما، وتَزولَ عنهما الشَّحناءُ. والظَّاهرُ أنَّ مَغفِرةَ كُلِّ واحِدٍ مُتوقِّفةٌ على صَفائِه، وزَوالِ عَداوَتِه، سَواءٌ صَفا صاحِبُه أو لا. واللهُ أعلَمُ.

النَّهيُ عنِ التباغُضِ والتَّقاطُعِ والتَّدابُرِ والتجسُّسِ والتَّحاسُدِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

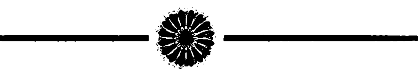
وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا تَباغَضُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوانًا، ولا يَحِلُّ لمُسلمٍ أنْ يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثةِ أيَّامٍ))[1].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إيَّاكُم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحَديثِ، ولا تَحسَّسُوا، ولا تَجسَّسُوا، ولا تَنافَسُوا، ولا

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢٥٥٩).



تَحاسَدُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوانًا))[1].



الأُلفةُ والمَحبَّةُ بيْن المسلِمينَ مِن أعظمِ مَقاصِدِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ المُطهَّرةِ؛ لذا جاء النَّهيُ عن كلِّ أسبابِ الفُرقةِ والتَّشاحُنِ في المجتمعِ، وقدْ أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ المؤمنينَ إخوةٌ في الدِّينِ، والأُخوَّةُ يُنافيها الحِقْدُ والبَغضاءُ، وتَقتضي التَّوادُدَ والتَّناصُرَ وقِيامَ الأُلْفةِ والمَحبَّةِ فيما بيْنهم.

وقد جاءتْ **هذه الآيةُ الكريمةُ** مُنبِّهةً على أُمورٍ قد تقَعُ الغَفلةُ عن مُراعاتِها؛ فأمَرَ اللهُ تَعالى عِبادَه المؤمِنينَ بألَّا يَقربوا كثيرًا مِن الظَّنِّ، فيتَّهِموا النَّاسَ بالسُّوءِ ظنًّا منهم بلا بُرهانٍ، ونَهاهُم عن تتبُّعِ عُيوبِ النَّاسِ والتَّنقيبِ عنها، والواجِبُ مُعامَلتُهم بحَسَبِ ظَواهِرِهم، ونَهاهم أنْ يَذكُرْ بَعضُهم بعضًا في حالِ الغَيبةِ بما يَكرَهُ سَماعَه مِن عَيبٍ وقدْحٍ فيه؛ ففاعِلُ ذلك كآكِلِ لَحمِ أخيهِ بعدَ مَماتِه، فإنْ كَرِهوا ذلك واشْمَأَزُّوا منه -لحُرْمتِه وبَشاعتِه- فلْيَكرَهوا كذلك غِيبةَ أخيهِم المُسلِمِ، ولْيَتقذَّروا منها.

وأمَرَهم بأنْ يَجعَلوا بيْنهم وبيْن سَخَطِ اللهِ وعَذابِهِ وِقايةً؛ بامتثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهِيه، ومِن ذلك تَجنُّبُ ظَنِّ السُّوءِ بالمؤمِنِ، وتَتبُّعِ عَوراتِه، والتَّجسُّسِ عمَّا خَفِيَ مِن أمْرِه، واغتيابِهِ بما يَكرَهُه، واللهُ يُوفِّقُ عِبادَه للتَّوبةِ ويَقبَلُها منهم، رَحيمٌ بهم، فيَدْعوهم إلى ما يَنفَعُهم، ويُغدِقُ عليهم نِعَمَه، ولا يُؤاخِذُهم بذُنوبهم بعْدَ تَوبتِهم منها.

وتَوجيهُ الخِطابِ بذلك للمؤمِنين يدُلُّ على أنَّ امتِثالَ ما أمَرَ اللهُ تعالى به، واجتنابَ ما نهى عنه في هذه الآيةِ: مِن مُقْتَضياتِ الإيمانِ، وأنَّ فقْدَه ومُخالفتَه نقْصٌ في الإيمانِ. وفي الآيةِ تَحريمُ التجَسُّسِ على المسلِمِ وتتبُّعِ عَوراتِه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٢)، ومسلم (٢٥٦٣) واللفظ له.

وفي حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه نَهَى النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم المُسلِمينَ عن تَعاطِي أسبابِ البَغضاءِ والكراهيةِ، والانسياقِ وَراءَها، وفِعلِ ما يُسبِّبُ العَداوةَ بيْنهم؛ لِمَا في تَباغُضِهم منَ التَّفرُّقِ المذمومِ، ونَهاهم عنِ التَّدابُرِ؛ وهو أنْ يُوَلِّيَ المسلِمُ أخاه المسلمَ ظَهرَه ودُبُرَه؛ إمَّا حِسِّيًّا فلا يُجالِسُه ولا يَنظُرُ إليه، وإمَّا مَعنويًّا فلا يُظهِرُ الاهتمامَ به، والمقصودُ: نَهيُهم عنِ التقاطُعِ والتهاجُرِ، ثُمَّ بيَّن لهم المَنزلةَ التي يَنبغي أنْ يَكونوا عليها؛ وهي الأُخوَّةُ، كأُخوَّةِ النَّسَبِ؛ في الشَّفَقةِ والرَّحمةِ، والمحبَّةِ والمُواساةِ، والمعاوَنةِ والنَّصيحةِ، ونَهاهم عن هَجْرِ المُسلِم وترْكِه؛ زِيارةً أو كلامًا، ونحوَه من أشكالِ الهِجرانِ، فوقَ ثلاثةِ أيَّامٍ إنْ كان الخلافُ على أمْرِ الدُّنيا.

وفي حَديثِ أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه نَهَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحَذَّرَ مِن الظَّنِّ، وهو تُهمةٌ تقَعُ في القَلبِ بلا دَليلٍ، والمقصودُ به هنا: سُوءُ الظَّنِّ بِالمسلِمين، والحديثُ بما لم يُتيَقَّنْ مِنَ الأخبارِ، والمُحرَّمُ منه ما يَستمِرُّ صاحبُه عليه ويَستقِرُّ في قلْبِه، وبيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الظنَّ يَقَعُ الكذِبُ فيه أكثرَ مِن وُقوعِه في الكلامِ؛ ولذا فهو أكذَبُ الحديثِ. وقيلَ: المرادُ بأكذَبِ الحديثِ: حَديثُ النفسِ؛ لأنَّه يكونُ بإلْقاءِ الشَّيطانِ في نفْسِ الإنسانِ. وقيل: إنَّ إثْمَ هذا الكذِبِ أزْيدُ مِن إثْمِ الحديثِ الكاذبِ، أو إنَّ المَظنوناتِ يقَعُ الكذِبُ فيها أكثرَ منَ المَجزوماتِ.

كما نَهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ التَّجسُّسِ، وهو البَحثُ عنِ العَوراتِ والسَّيِّئاتِ، والسَّعيُ في كشْفِ سَترِ اللهِ عن عِبادِه، ويُستثنَى منه ما لو تعيَّنَ ذلك طَريقًا لإنقاذِ إنسانٍ مِن هلاكٍ أو نحوِه؛ كأنْ يُخبِرَ أحدُهم بأنَّ فلانًا خَلا برجُلٍ ليَقتُلَه.

ونهَى أيضًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ التَّحسُّسِ، وهو طلَبُ مَعرفةِ الأخبارِ والأحوالِ الغائبةِ. كذلِك نهَى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن التَّحاسُدِ؛ وهو تَمنِّي زَوالِ النِّعمِ عنِ الآخَرينَ، سواءٌ حصَلتْ للحاسدِ أمْ لا.



طَلاقةُ الوَجهِ عندَ اللِّقاءِ

عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال لي النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا تَحقِرَنَّ مِن المَعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ))(١).



كان مِن هَدْيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ طَلاقةُ الوجهِ عندَ اللِّقاءِ، وتَعني: بَشاشةَ الوجْهِ واستبشارَه، وتَبسُّمَه عندَ اللِّقاءِ، وفي هذا الحديثِ يَدْعو صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المسلمَ أنْ يُبادِرَ بفِعلِ المعروفِ: وهو اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما عُرِفَ مِن طاعةِ اللهِ تعالى والإحسانِ إلى الناسِ، وألَّا يُقلِّلَ مِن قِيمةِ أيِّ شَيءٍ منه، ولو أنْ يَلْقى المُسلِمُ أخاه المسلمَ بوجْهٍ طلْقٍ مُستبشِرٍ، وليسَ بوَجهٍ عَبوسٍ؛ فهذا منَ المَعروفِ والخيرِ الذي يُؤجَرُ عليه مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يَنبغي احتقارُه أو استِصغارُه؛ فقد يكونُ سببًا لمغفرةِ اللهِ تعالَى.

آدابُ السَّلامِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنْهما: أنَّ رجُلًا سَأَلَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: أيُّ الإسلامِ خَيرٌ؟ قال: ((تُطعِمُ الطَّعامَ، وتَقرَأُ السَّلامَ على مَن عَرَفْت ومَن لم تَعرِفْ))(٢).

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: ((لا تَدْخُلونَ الجنَّةَ حتى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنوا حتى تَحابُّوا، أوَلَا أدُلُّكم على شَيءٍ إذا فَعَلْتموه تَحابَبْتم؟ أفشُوا السَّلامَ بيْنكم))(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

(٣) أخرجه مسلم (٥٤).



وعنه رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: ((يُسَلِّمُ الرَّاكبُ على الماشي، والماشي على القاعِدِ، والقَليلُ على الكَثيرِ))[1]. وفي رِوايةٍ: ((يُسلِّمُ الصَّغيرُ على الكَبيرِ، والمارُّ على القاعِدِ، والقَليلُ على الكَثيرِ))[2].

وعنه رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: ((إذا انْتَهى أحَدُكم إلى المَجلِسِ فلْيُسلِّمْ، فإذا أرادَ أنْ يَقومَ فلْيُسلِّمْ؛ فليْسَتِ الأُولى بأحَقَّ مِن الآخِرةِ))[3].



علَّمَنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أسْبابَ التَّآلُفِ واستِجْلابِ المَودَّةِ فيمَا بيْننا، كما حذَّرَنا ممَّا يُورِثُ التَّنافُرَ والتَّشاحُنَ، ومِن أسبابِ المَحبَّةِ والتآلُفِ بيْن المسلمينَ إفشاءُ السَّلامِ بيْنهم، وهي التَّحيةُ التي شَرَعها اللهُ تعالى لعِبادِه.

وفي الآيةِ الكَريمةِ المذكورةِ أمَرَ اللهُ تعالى عِبادَه إذا سُلِّمَ عليهم بسَلامٍ، وحُيُّوا بأيِّ تَحيةٍ كانت، أو دُعِيَ لهم بطُولِ الحياةِ والبَقاءِ؛ أنْ يرُدُّوا التَّحيةَ والسَّلامَ، ويَدْعوا لِمَن دعَا لهم بأحسَنَ ممَّا حيَّاهم ودَعا به، وأفضَلَ لَفظًا وبَشاشةً، أو يرُدُّوا عليه بمِثلِ دُعائِه وتَحيَّتِه.

ويُؤخَذُ مِن الآيةِ الكريمةِ الحثُّ على ابتداءِ السَّلامِ والتَّحيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَ برَدِّها

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٣٢)، ومسلم (٢١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٣١).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٠٨) واللفظ له، والترمذي (٢٧٠٦)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٢٠١)، وأحمد (٩٦٦٤).

حسَّنه الترمذي، وكذا ابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٣٦٣)-، وصحَّحه ابنُ حِبَّان في ((صحيحه)) (٤٩٤)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٤٣١)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥٢٠٨)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٢٠٨): حسنٌ صحيحٌ.

بأحسَنَ منها أو مِثلِها؛ وذلك يَستلزِمُ أنَّ التَّحيَّةَ مَطلوبةٌ شرْعًا، والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَحَيُّواْ﴾ تُفيدُ أنَّ الرَّدَّ يكونُ على الفَوْرِ، وتَقديمُ قولِه: ﴿بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك أفضلُ.

وصِيغةُ تِلك التَّحيَّةِ -كما جاءَتْ في الرِّواياتِ-: «السَّلامُ عليْكم ورَحمةُ اللهِ وبَرَكاتُه»، ومعناها: الدُّعاءُ للمُسلَّمِ عليه بالسَّلامةِ مِن كُلِّ آفةٍ، كالسَّلامةِ مِن العُيوبِ والأمراضِ ومِن كلِّ شرٍّ، ومِن المعاصِي وأمراضِ القُلوبِ، والسَّلامةِ مِن النَّارِ أيضًا؛ فهو لَفظٌ عامٌّ.

وفي هذه الأحاديثِ تفْصيلٌ لبَعضِ آدابِ السَّلامِ.

ففي الحَديثِ الأوَّلِ: يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مِن أفضَلِ الأعْمالِ في الإسْلامِ -بعدَ الإيمانِ وأداءِ الأرْكانِ-: إقراءَ السَّلامِ وتَعْميمَه بيْن النَّاسِ دُون تَمييزٍ بيْن شَخْصٍ وآخَرَ؛ فتلك التَّحيَّةُ لعُمومِ المُسلِمينَ، وليْسَت تَختصُّ بالمَعارِفِ أو الأقاربِ. وقد جمَعَ هذا الحديثُ بيْن إطْعامِ الطَّعامِ وإفْشاءِ السَّلامِ؛ لأنَّ بهما يَجْتمِعُ الإحْسانُ بالقَولِ والفِعْلِ، وهو أكْملُ الإحْسانِ.

وفي الحديثِ الثَّاني: يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لن يَدخُلَ الجَنةَ إلَّا المُؤمِنون؛ فيَقولُ: «لا تَدْخُلوا الجَنةَ حتى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنوا حتى تَحابُّوا»، أي: لا يَكتَمِلُ إيمانُكم حتى يُحِبَّ بَعضُكم بَعضًا، ثمَّ يدُلُّنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على السَّبَبِ الذي يُؤدِّي إلى ذلك، وهو إفشاءُ السَّلامِ بيْننا، يَعني: إظْهارَه والعَمَلَ به، فلا يَمُرُّ مُسلِمٌ على مُسلِمٍ -غَريبًا أو قَريبًا- إلَّا ألْقَى عليْه السَّلامَ؛ فاللهُ عَزَّ وجَلَّ جَعَلَ إفْشاءَ السَّلامِ سَببًا للتَّحابِّ والتَّوادِّ والأُلفةِ بيْن المُسلِمين، وترْكُه يُؤدِّي إلى التَّهاجُرِ والتَّقاطُعِ والشَّحْناءِ التي تُفرِّقُ بيْن المُسلِمين وتُضعِفُهم.

وفي الحديثِ الثَّالثِ: يُرشِدُنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى آدابٍ أُخرَى للسَّلامِ؛

فيقولُ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: «يُسَلِّمُ الرَّاكبُ على الماشي»؛ فالذي يَركَبُ دابَّةً أو سَيَّارةً أو غَيرَها مِن الوَسائلِ، إذا مرَّ على مُشاةٍ أو جُلوسٍ ابْتَدأَ هو بالسَّلامِ، وتَسليمُ الرَّاكبِ؛ لئلَّا يَتكَبَّرَ برُكوبِه، فيَرجِعُ إلى التَّواضُعِ. «والماشي على القاعِدِ»، أي: يُسَلِّمُ الماشي والمارُّ على القاعِدِ بكُلِّ حالٍ، سَواءٌ كان صَغيرًا أو كَبيرًا، قَليلًا أو كَثيرًا، وتَسليمُ المارِّ على القاعدِ هو مِن بابِ الدَّاخلِ على القومِ، فعليْه أنْ يَبدَأَهم بالسَّلامِ، «والقَليلُ على الكثيرِ» فإذا مَرَّ فردٌ أو جماعةٌ بغَيرِهم أكْثرَ منهم، ألْقَوا هم التَّحيَّةَ والسَّلامَ، ويُسلِّمُ أحَدُهم، ولا يَلزَمُ أنْ يُسلِّموا كُلُّهم، وهذا مِن بابِ التَّواضُعِ؛ لأنَّ حَقَّ الكَثيرِ أعظَمُ، فإذا كانوا فَردَينِ مُتقابِلَينِ، أو كانت الجَماعَتانِ مُتكافِئَتينِ مُتَساوِيَتينِ؛ فخَيرُهم الذي يَبْدأُ بالسَّلامِ ويَفتَتِحُه، وفي روايةٍ: «ويُسلِّمُ الصَّغيرُ على الكَبيرِ»؛ لأنَّ حَقَّ الكَبيرِ تَوقيرُه واحْتِرامُه.

وهذا على وَجْهِ الاستِحبابِ؛ فإنَّ الكَبيرَ إذا سلَّمَ على الصَّغيرِ، أو سلَّمَ الجالِسُ على الماشي، أو سلَّمَ الماشي على الراكبِ؛ جاز، ولكنَّه خِلافُ الأفضَلِ.

وفي الحديثِ الرَّابعِ: يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ آدابَ المَجالسِ وحُقوقَها؛ فإذا وَصَلَ أحَدٌ إلى مَوضِعِ جُلوسِ القَومِ أو مَكانِ تَجمُّعِهم، سَواءٌ كان في المَسجِدِ أو غَيرِه؛ فلْيُلْقِ عليْهم السَّلامَ، فإذا جالَسَهم ثمَّ أرادَ أنْ يَقومَ هو دُون باقِي مَن جالَسَهم، ألْقَى عليْهم السَّلامَ قبْلَ أنْ يَذهَبَ ويَترُكَ المَجلسَ، وقَولُه: «فليْسَتِ الأُولى بأحَقَّ مِن الآخِرةِ»، أي: فَكما ألْقى السَّلامَ عندَ حُضورِه المَجلِسَ، فلْيُلْقِ السَّلامَ عندَ تَرْكِه المَجلِسَ؛ فَلَيس تَسليمُه عندَ حُضورِه أَولى مِن تَسليمِه عندَ انصِرافِه.

وما سبَق كلُّه هو في حَقِّ المُسلِمينَ، وأمَّا غيرُ المُسلِمينَ مِن الذِّمِّيِّنَ والمُعاهَدِينَ؛ فإنَّهم لا يُبتدَؤُونَ بالسَّلامِ، كما في صَحيحِ مُسلمٍ عن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ

رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا تَبْدؤوا اليهودَ ولا النَّصارَى بالسلامِ))[1]، وأمَّا إذا سلَّموا هُم على المُسلِمينَ، فقدْ وَرَدَ في الصَّحيحَينِ بَيانُ كَيفيَّةِ رَدِّ السَّلامِ عليهم؛ فعَن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: ((إذا سلَّمَ عليْكم أهْلُ الكِتابِ فَقولوا: وعليْكم))[2]، فيُقتَصَرُ على لَفظِ «وعليْكم» دُون الإتْيانِ بالصِّيغةِ الكامِلةِ، ويَكونُ المَعنى: وعليْكم دُعاؤُكم؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ. وقيلَ: إنَّ لَفظَ «وعليْكم» يُقتَصَرُ عليْه فَقطْ إذا تأكَّدَ للإنسانِ أنَّهم قَصَدوا سُوءًا، كَما قال اليَهودُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: ((السَّامُ عليْكم))[3]، والمُرادُ بالسَّامِ: المَوتُ، وأمَّا إذا قالوا خيرًا فلا بأْسَ بإجابَتِهم بـ (وعليْكم السَّلامُ)؛ لعُمومِ قَولِه تعالَى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦].

آدابُ الاستِئذانِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ * لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾ [النور: ٢٧- ٢٩].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ * وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٥٨) واللفظ له، ومسلم (٢١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).



فَلْيَسْتَئْذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَئْذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٥٨، ٥٩].

وعَن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إذا استأْذَنَ أحَدُكم ثَلاثًا، فلم يُؤذَنْ له؛ فلْيَرجِعْ))[١].

وعن جابرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: أتَيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في دَينٍ كان عَلى أبي، فدَقَقتُ البابَ، فقال: ((مَن ذا؟ فقُلتُ: أنا. فقال: أنا أنا! كأنَّه كَرِهَها))[٢].

وعن عَبدِالله بنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: جاء عُمَرُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو في مَشرُبةٍ له، فقال: ((السَّلامُ عليكَ يا رَسولَ اللهِ، السَّلامُ عليكَ، أيَدخُلُ عُمَرُ؟))[٣].



لقدْ حرَصتْ شَريعةُ الإسلامِ على رِعايةِ حُرمةِ البُيوتِ، وحفْظِ العَوْراتِ، ومنَعَتْ مِن الاطِّلاعِ عليها؛ لِيَكونَ المُجتمَعُ طاهِرًا عَفيفًا؛ ومِن أجْلِ ذلك شُرِعَت أحكامُ الاستئذانِ.

وفي هذه الآياتِ مِن سُورةِ النُّورِ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى لعِبادِه بعضَ أحكامِ الاستِئذانِ،

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٥) مطولاً، ومسلم (٢١٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٥٠) واللفظ له، ومسلم (٢١٥٥).

(٣) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠١٥٤)، وأحمد (٢٧٥٦) واللفظ له.

قال ابن عبد البر في ((التمهيد)) (٣/ ٢٠٢): مِن أحسنِ حديثٍ يُروَى في كيفية الاستئذانِ. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ٤٧): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٦٧)، والألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (٨٢٧)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٧٥٦) وقال: على شرْطِ مسلمٍ.

فيُوَجِّهُ النِّداءَ للمُؤمِنينَ بألَّا يَدخُلوا بيوتَ غيرِهم حتى يَستأذِنوا منهم في دُخولِها، ويُسلِّموا على ساكِنيها؛ وذلكم الاستِئذانُ والسَّلامُ عندَ إرادةِ دُخولِ بُيوتِ النَّاسِ أفضَلُ للمُستأذِنِ ولأهلِ البَيتِ، وقد أمَرَهم اللهُ بذلك ليُطيعوه بفِعلِ هذه الآدابِ، ويَعلَموا أنَّها خيرٌ لهم مِن الدُّخولِ بلا إذنٍ ولا سَلامٍ، فيَتَّعِظوا ويَأخُذوا بها، فإنْ لم يَجِدوا في بُيوتِ غَيرِهم أحَدًا مِن أهلِها، فلا يَدخُلوها إلى أنْ يُؤذَنَ لهم بالدُّخولِ، وإنِ استَأْذَنوا مِن أهلِ البُيوتِ في دُخولِ بُيوتِهم، فلمْ يَأذَنوا لهم، وقالوا لهم: انصَرِفوا؛ فعلَيْهم أنْ يَنصَرِفوا بلا غَضَبٍ، وألَّا يُلِحُّوا عليهم في طلَبِ الإذنِ؛ فهذا أطهَرُ لهم، واللهُ بما يَعمَلون مِن الطَّاعاتِ والمعاصي، ودُخولِهم بإذنٍ وبغيرِ إذنٍ، وبغيرِ ذلك مِن أعمالِهم: عليمٌ، وسيُجازيهم عليها؛ خَيرِها وشَرِّها.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّه لا إثمَ ولا حرَجَ عليهم أنْ يَدخُلوا -مِن غيرِ استِئذانٍ- بيوتًا لا يَسكُنُها أحدٌ، كالأماكِنِ العامَّةِ؛ مِن مَتاجِرَ، ومَطاعِمَ، إلى غيرِ ذلك؛ ليَنتَفِعوا بها.

ثم يُبيِّنُ اللهُ تعالى آدابَ الاستئذانِ داخِلَ البُيوتِ، فيُوَجِّهُ النِّداءَ إلى المؤمِنينَ أن يَأمُروا العَبيدَ والإماءَ الذين يَملِكونَهم، والأطفالَ الأحرارَ الذين لم يَبلُغوا مَبلَغَ الرِّجالِ؛ أن يَستأذِنوا عندَ الدُّخولِ عليهم في أوقاتِ عَوْراتِهم الثَّلاثةِ: قَبلَ صَلاةِ الفَجرِ، ووقتَ الظُّهرِ حينَ خَلْعِ الثِّيابِ للقَيلولةِ، ومِن بعدِ صَلاةِ العِشاءِ؛ فهذه الأوقاتُ تكونُ العَوْراتُ فيها باديةً، فأمَرَهم اللهُ أنْ يُعَلِّموهم ألَّا يَدخُلوا عليهم إلَّا بعدَ الاستِئذانِ، أمَّا فيما سوى هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ فلا حرَجَ إذا دخَلوا بغيرِ استِئذانٍ؛ فهم خدَمُهم وأطفالُهم يَطوفونَ عليهم لِقَضاءِ حوائِجِهم، وهم يَتردَّدونَ عليهم لاستخدامِهم وغيرِ ذلك. وبمِثلِ ذلك البيانِ والتَّوضيحِ في أحكامِ الاستئذانِ يُبيِّنُ اللهُ آياتِه وأحكامَه وشَرائعَ دِينِه، واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عِبادَه، حكيمٌ فيما يَشرَعُه لهم مِن الأحكامِ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّه إذا بلَغَ الأطفالُ مَبلَغَ الرِّجالِ، فعليْهم أنْ يَستأذِنوا في كلِّ



الأوقاتِ كما استَأذَنَ الرِّجالُ البالِغونَ الذين وُجِدُوا مِن قَبلِهم، وكما بيَّنَ اللهُ آدابَ الاستئذانِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى لهم آياتِه، واللهُ عليمٌ بخَلقِه، حكيمٌ في تَشريعِه.

وقد علَّمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أصحابَه وأُمَّتَه مِن بَعدِهم الاستِئذانَ وأحكامَه وآدابَه.

ففي حَديثِ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضيَ اللهُ عنه يقولُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «إذا استأذَنَ أحَدُكم ثَلاثًا، فلم يُؤذَنْ له؛ فليَرجِعْ»، أيْ: إنَّ الإنسانَ إذا أرادَ أنْ يَدخُلَ على أحَدٍ استأذَنَ عليه ثَلاثَ مرَّاتٍ، والمُستأذِنُ له ثَلاثُ أحوالٍ: إمَّا أنْ يُؤذَنَ له، وإمَّا أنْ يُؤمَرَ بالرُّجوعِ، وإمَّا أنْ يَسكُتَ المُستأذَنُ عليه، وفي هذه الحالِ يَنصَرِفُ المُستأذِنُ دونَ إلحاحٍ وتَعنُّتٍ.

وفي الحَديثِ الثاني يُخبِرُ جابِرٌ رَضيَ اللهُ عنه أنَّه أتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في دَيْنٍ كان علَى أبيه، وكان قد ماتَ عنه، يَقولُ: «فدَقَقتُ البابَ»، والدَّقُّ هنا نَوعٌ مِنَ الاستِئذانِ، إذا كان على المَنزِلِ أو بابِ حُجرةٍ، وإلَّا فأنْ يُسَلِّمَ على أهلِ الدَّارِ بقَولِه: (السَّلامُ عليكم) بصَوتٍ يَظُنُّ أنَّ مَن بداخِلِ الدَّارِ يَسمَعُه، فالرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لمَّا سَمِعَ الطَّرقَ سَألَ: مَنِ الذي علَى البابِ؟ فقال جابِرٌ رَضيَ اللهُ عنه: «أنا»، دونَ ذِكرِ اسمِه؛ لأنَّه خَلفَ البابِ ولا يُرى، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أنا أنا!»، كأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَرِهَ تلك الطَّريقةَ، فكان يَنبَغي له أنْ يقولَ: فُلانٌ، باسمِه.

وفي الحَديثِ الثَّالثِ يُبيِّنُ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنه جاءَ إلى بَيتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ «وهو في مَشرُبةٍ له»، والمَشرُبةُ: غُرفةٌ مُرتفعةٌ يُخزَّنُ فيها الطَّعامُ والشَّرابُ، فاستأذَنَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقَولِه: «السَّلامُ عليكَ يا رَسولَ اللهِ، السَّلامُ عليكَ، أيَدخُلُ عُمَرُ؟»؛ فبَدَأ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه بالسَّلامِ، ثم

استأذَنَ بقَولِه: «أيَدخُلُ؟» وعَرَّفَ بنَفْسِه لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّصريحِ باسمِه؛ لأنَّه مِن وَراءِ البابِ. وسَبْقُ السَّلامِ للاستِئذانِ ليس شَرطًا؛ فقدْ لا يُمكِنُ لِلإنسانِ إلقاءُ السَّلامِ إلَّا بَعدَ استِئذانِه، كما في صُورةِ الحَديثِ السَّابقِ، وهو أنْ يُقدِّمَ الطَّرْقَ على البابِ، فإنْ فُتِحَ البابُ وأُذِنَ له ألْقَى السَّلامَ والتَّحيَّةَ.

وكذلِك مِن جُملةِ آدابِ الاستِئذانِ: أنْ يَقِفَ المُستأذِنُ عن يَمينِ البابِ أو شِمالِه، وألَّا يَقِفَ في قُبالَتِه بوَجهِه؛ حتى لا يَجرَحَ بنَظَرِه مَن بالدَّاخلِ؛ لأنَّه ربَّما يَحصُلُ بعضُ الانكشافِ عندَ فتْحِ البابِ.

ومِن جُملةِ آدابِ الاستِئذانِ أيضًا: أنَّه يَنبَغي على المُستأذِنِ ألَّا يَدُقَّ البابَ بعُنفٍ، ويَنبَغي عليه أيضًا إنْ كان في بَيتِ غَيرِ بَيتِه وأرادَ أنْ يَمُرَّ في البَيتِ لِيَخرُجَ؛ أنْ يَستأذِنَ على صاحِبِ البَيتِ في خُروجِه منه، ويَشمَلُ ذلك الاستِئذانَ أيضًا عِندَ الدُّخولِ على المَحارِمِ مِنَ النِّساءِ، كالأُمِّ، والأُختِ، وغَيرِهما، فلا يَدخُلُ عليهِنَّ في أماكِنِ راحَتِهِنَّ وغُرَفِهِنَّ حتى يَستأذِنَ عليهِنَّ بطَرْقِ البابِ، أو بأيِّ وَسيلةٍ أُخرى.

ذمُّ ذي الوَجهَينِ

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((تَجِدونَ النَّاسَ مَعادِنَ؛ خِيارُهمْ في الجاهِليَّةِ خِيارُهم في الإسلامِ إذا فَقُهوا، وتَجِدونَ خَيرَ النَّاسِ في هذا الشَّأْنِ أشَدَّهُم له كَراهيةً، وتَجِدونَ شَرَّ النَّاسِ ذا الوَجْهَينِ الذي يَأْتي هؤلاءِ بوَجْهٍ، ويَأْتي هؤلاءِ بوَجْهٍ))[1].



في هذا الحديثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أصنافَ النَّاسِ، فيُخبِرُ أنَّ «النَّاسَ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٣، ٣٤٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٥٢٦).



مَعادِنُ» أي: أُصولٌ مُختلفةٌ ما بيْن نَفِيسٍ وخَسيسٍ، كما أنَّ المَعدِنَ كذلك، والمعادنُ جمعُ مَعدِنٍ؛ وهو الشَّيءُ المُستقِرُّ في الأرضِ، وكلُّ مَعدِنٍ يَخرُجُ منه ما في أصْلِه، وكَذا كُلُّ إنسانٍ يَظهَرُ مِنه ما في أصْلِه مِن شَرَفٍ أو خِسَّةٍ، وإذا كانتِ الأُصولُ شَريفةً كانتِ الفروعُ كذلك غالبًا، والفضيلةُ في الإسلامِ بالتَّقوى، لكنْ إذا انضَمَّ إليها شرَفُ النَّسبِ ازدادتْ فضْلًا؛ وعلى هذا فخِيارُ الناسِ وأشرافُهم في فتْرةِ ما قبلَ الإسلامِ: هم خِيارُ الناسِ وأشرافُهم في ظلِّ الإسلامِ، إذا أسلَموا وتَفقَّهوا أُصولَه وأحكامَه. وبيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ «خَيرَ النَّاسِ في هذا الشَّأْنِ أشَدُّهم له كَراهيةً»، والشَّأنُ هنا هو الإسلامُ، والناسُ هم مَن كانوا أشَدَّ الناسِ كَراهيةً له، كما كان مِن عُمرَ بنِ الخَطَّابِ، وخالدِ بنِ الوليدِ، وعمرِو بنِ العاصِ، وعِكْرِمةَ بنِ أبي جَهلٍ، وسُهيلِ بنِ عمرٍو -رَضِيَ اللهُ عنهم-، وغيرِهم ممَّن كان يَكرَهُ الإسلامَ كَراهيةً شديدةً، فلمَّا دخَلَ فيه أخلصَ وأحَبَّه وجاهَدَ فيه حقَّ جِهادِه!

ثم يَذكُرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَموذجًا سَيِّئًا منَ الناسِ، ذا مَعدِنٍ خَسيسٍ، ويَصِفُه بأنَّه شرُّ الناسِ، وهو المنافقُ المُتلوِّنُ ذو الوَجهينِ، الذي يَأتي كلَّ طائفةٍ منَ الناسِ بما يُرْضيها؛ فيَأْتي هؤلاءِ بوَجْهٍ يُرضيهم، فيُظهِرُ لهم بالقَولِ والفِعلِ أنَّه منهم، ويَأتي أعداءَهم بوَجهٍ آخَرَ نَقيضَ ما كان معَ الطائفةِ الأُخرى؛ كي يَسْترضِيَهم، ويَنالَ خَيرَهم. وهذا الذمُّ حاصلٌ لمَن كان فِعلُه مِن السَّعيِ في الأرضِ بالفسادِ، أمَّا إنْ فَعَلَ ذلك لإصلاحِ بيْن مُتخاصِمَينِ ونحوِه، فلا يَشمَلُه هذا التَّقبيحُ. ويَدخُلُ في وصْفِ ذي الوجْهَينِ مَن يُظهِرُ الخيرَ والصَّلاحَ، وإذا خَلا خَلا بالمَعاصي القِباحِ!

تَناجي اثنيْنِ دونَ الثالثِ بغيرِ إذنِه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۞ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [المجادلة: ٩، ١٠].

وعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إذا كُنْتُم ثَلاثةً فلا يَتناجَى رجُلانِ دُونَ الآخَرِ حتَّى تَختَلِطوا بالنَّاسِ؛ أجْلَ أنْ يَحزُنَه))[1].

مِمَّا جاءتْ به الشَّريعةُ: تَأليفُ قُلوبِ المُسلِمينَ بعضِهم على بعضٍ، وقطْعُ مَداخلِ الشَّيطانِ التي تُوغِرُ صُدورَ الإخْوةِ، وتُفرِّقُ شَمْلَ المؤمنينَ.

ومِن ذلك: نهْيُ اللهِ تبارَكَ وتعالَى المُؤمِنينَ -**في الآيةِ المذكورةِ**- إذا تَسارُّوا بيْنهم عن التَّحَدُّثِ بالإثمِ والعُدوانِ ومُخالَفةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما عليهم أنْ يَتحدَّثوا بفِعلِ الخَيراتِ واجتنابِ المُحرَّماتِ، وبَيَّن اللهُ تعالى أنَّ المُناجاةَ في حَقيقتِها -كالتي يقومُ بها المنافِقون بيْنهم، أو التي يُتوَهَّمُ بها السُّوءُ عُمومًا- هي مِن تَزْيينِ الشَّيطانِ للمُتناجينَ؛ كي يُوقِعَ الحُزنَ في قلوبِ المؤمنينَ؛ فإنَّ وُقوعَ النَّجوى يَبعَثُ على الرِّيبةِ في مَقاصِدِ المتناجِينَ، وغالبًا ما تَقَعُ مِن أهلِ الرِّيَبِ والشُّبُهاتِ، بحيثُ تكونُ دَيدنًا وعادةً لهم.

وفي الحديثِ نَهى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا اجتمَعَ ثَلاثةُ أشخاصٍ أنْ يَتكلَّمَ اثنانِ منْهم سِرًّا دونَ الثالثِ، وسَببُ هذا النَّهيِ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ ذلك يَحزُنُه؛ لِمَا قد يُوَسوِسُ له به الشَّيطانُ مِن أنَّهما يَتناجيانِ للإضرارِ به، أو يَحْزَنُ لاختصاصِ غيرِه بالمُناجاةِ، وبيَّن أنَّ النَّهيَ يَزولُ إذا كانوا في جَماعةٍ وخُلْطةٍ بالنَّاسِ؛ لِزَوالِ الرِّيبةِ، وفي معْناه ما إذا تَحدَّثا بلِسانٍ لا يَفهَمُه، إلَّا إذا لم يُجِيدا سِواه.

(١) أخرجه البخاري (٦٢٩٠) واللفظ له، ومسلم (٢١٨٤).



مُكافأةُ مَن أسْدى إليك مَعروفًا

عنِ ابنِ عُمرَ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن استَعاذَكم باللهِ فأَعِيذوه، ومَن سَألَكمْ باللهِ فأعْطوهُ، ومَن دَعاكمْ فأجِيبوهُ، ومَن أتى إليكمْ مَعروفًا فكافِئوه، فإنْ لم تَجِدوا فادْعُوا لهُ حتى تَعلَموا أنْ قد كافَأْتُموهُ))(١).



الإسلامُ دِينُ الأخلاقِ الحَسنةِ، وقد بُعِثَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليُتمِّمَ صالِحَ الأخلاقِ ومَكارِمَها، وقد حَثَّ صلَّى الله عليه وسلَّم على كُلِّ خُلقٍ طيِّبٍ، كالمُساعدةِ والبَذلِ والعطاءِ، وشُكرِ المعروفِ ومُكافأةِ مَن أسداهُ.

وهذا ما بيَّنه هذا الحَديثُ، حيثُ يَأمُرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالمبادَرةِ إلى فِعلِ الخيرِ، وإغاثةِ مَن وقَعَ في مَكروهٍ أو ضائقةٍ، وإعطاءِ مَن طلَبَ العونَ والمساعدةَ، وإجابةِ مَن دعا لوَليمةٍ ونحوِها، ويَزيدُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا الحديثِ تَوجيهًا رابعًا له صِلةٌ بما سبَقَ؛ فإنَّ الأوامرَ الثلاثةَ الأُوَلَ في الحديثِ هي للمُبادرةِ بالعَونِ والعطاءِ وإجابةِ الداعي، والأمرُ الرابعُ هو تَوجيهٌ لمَن يَحصُلُ على العَونِ والعطاءِ والمساعدةِ؛ أنْ يُكافِئَ مَن عاوَنَه وساعَدَه وقدَّمَ له المعروفَ، فيقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «ومَن أتى إليكمْ مَعروفًا فكافِئوه»، أي: فجازُوه على مَعروفِه بما يُساويه أو بما يَزيدُ، «فإنْ لَمْ تَجِدوا» ما تُكافِئُوه بِه، « فادْعُوا لهُ حتى تَعلَموا أنْ قدْ كافَأْتُموهُ»، أي: فاجْتَهِدوا وبالِغوا في الدُّعاءِ له حتَّى تتأكَّدوا أنَّكم قدْ أديتُم حقَّه، فتَحصُلَ بذلك المُكافأةُ.

وسِرُّ الأمرِ بالدُّعاءِ له هنا: أنَّ مَن عجَزَ عن ردِّ الإحسانِ بمِثلِه، رأى مِن نفْسِه تَقصيرًا في المُجازاةِ، فأحالَها إلى اللهِ، ونِعْمَ المُجازي هو! ومِن جِهةٍ أُخرى: طيَّبَ خاطِرَ مَن

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٠٩) واللفظ له، والنسائي (٢٥٦٧)، وأحمد (٦١٠٦).

صحَّحه ابن حِبَّان في ((الصحيح)) (٣٤٠٨)، والنووي في ((المجموع)) (٦/ ٢٤٥)، وابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علَّان (٥/ ٢٥٠)-، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١٠٩).

أسْدى النِّعمةَ؛ بأنْ أظهَرَ له شِدَّةَ رَجاءِ الخيرِ له، فدَعا له لَمَّا عجزَ عن مُكافأتِه.

قبولُ الهديةِ والمكافأةُ عليها

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كانَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ ويُثِيبُ عَلَيها))[1].



بَذلُ الهديَّةِ وقَبولُها بابٌ مِن أبْوابِ الخَيرِ، وسَبَبٌ مِن أسْبابِ التَّحابِّ والتَّرابُطِ بيْنَ النَّاسِ، وقدْ حثَّ عليها الإسلامُ وبارَكَها، وفي هذا الحَديثِ تَأْكيدٌ على هذا المَعْنى، وضُرِب المَثَلُ الأعْلى في ذلِكَ برَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ حيثُ تَروي عنه عائِشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّه كان يَقبَلُ الهديَّةَ مِن كلِّ مَن أَهْدَى إليه، ولا يرُدُّ أيَّ هديَّةٍ تُقدَّمُ إليه مهما كانتْ يَسيرةً، كما قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لو أُهدِيَ إلَيَّ ذِراعٌ أو كُراعٌ، لَقَبِلْتُ))[2]، وهذا مِن كَرَمِ نفسِه وحُسنِ خُلُقِه، بل أمَرَ بالتَّهادي وحَثَّ عليه، فقال: ((تَهادَوْا تَحابُّوا))[3]، ومعنى «يُثِيبُ عليها»: يُكافِئُ مَن أعطاهُ بهَديَّةٍ مِثلَها أو خَيرًا منها؛ مِن بابِ ردِّ الحُسْنى بأحسَنَ منها أو مِثلِها؛ ولئلَّا يكونَ لأحدٍ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يدٌ، ولا يَلزَمُه لأحدٍ مِنَّةٌ.

كَراهةُ ردِّ الرَّيحانِ لغَيرِ عُذرٍ

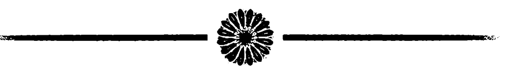
عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٦٨) من حديث أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عنه.

(٣) أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٥٩٤)، وأبو يعلى (٦١٤٨)، والبيهقي (١٢٢٩٧).
جوَّد إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٢/ ٥٣)، وحسَّن إسناده ابن حجر في ((التلخيص الحبير)) (٣/ ١٠٤٧)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥/ ١٤١)، وحسَّن الحديثَ الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (٥٩٤).

عُرِضَ عليه رَيحانٌ فلا يَرُدَّهُ؛ فإنَّه خَفِيفُ المَحْمِلِ، طَيِّبُ الرِّيحِ))[1].

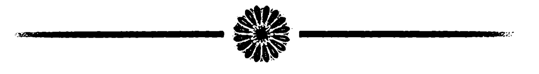


قَبولُ الهَدِيَّةِ يَزيدُ في المحبَّةِ والتَّرابطِ بيْن الناسِ، لا سيَّما إنْ كانتِ الهديةُ خفيفةً سَهلةً لا تُكلِّفُ المانحَ ولا الآخِذَ كثيرَ جَهدٍ وعَناءٍ، وهذا ما يَنطبِقُ على الطِّيبِ عمومًا، والرَّيحانِ الواردِ في هذا الحديثِ خُصوصًا؛ ففي هذا الحديثِ يَنهى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ردِّ الرَّيحانِ إذا أُعطِيَ للإنسانِ، والرَّيْحانُ: هو كلُّ نَبْتٍ مَشمُومٍ طيِّبِ الرِّيحِ. ويُعلِّلُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَببَ النَّهيِ عن ردِّ الرَّيحانِ بكونِه خفيفَ الحَملِ ليس بثَقيلٍ، وقليلَ المِنَّةِ، وهو في الوقتِ نفْسِه طيِّبُ الرَّائحةِ؛ فهو هَدِيَّةٌ قَليلةٌ نافعةٌ، ولا مُؤْنَةَ فيها ولا مِنَّةَ، فلا تُرَدُّ؛ كيْ لا يَتأذَّى المُعطي برَدِّه، فرَدُّها لا وجْهَ له إلَّا مِن عُذرٍ، والحديثُ فيه إشارةٌ إلى حِفظِ قُلوبِ الناسِ بقَبولِ هَداياهم، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى استحبابِ استعمالِ الطِّيبِ.

فَضلُ كَفالةِ اليَتيمِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وعن سَهلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِديِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أنا وكافِلُ اليَتيمِ في الجَنَّةِ هكذا. وأشارَ بالسَّبَّابةِ والوُسْطى، وفرَّجَ بيْنهما شَيئًا))[2].



(١) أخرجه مسلم (٢٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٠٤). وأخرجه مسلم (٢٩٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رِعايةُ اليتيمِ والقِيامُ على أمْرِه مِن أجَلِّ القُرباتِ التي يَتقرَّبُ بها العَبدُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، واليتيمُ هو مَن مات أبوه وهو صَغيرٌ دونَ سِنِّ البُلوغِ، فإذا بلَغَ زال عنه اسمُ اليُتمِ، وأعظَمُ الأموالِ خَطَرًا وحُرْمَةً مالُ اليتيمِ؛ لِضَعْفِه، وقِلَّةِ ناصِرِه؛ **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** نَهى اللهُ تعالى عن قِربانِ مالِ اليتيمِ إلَّا بما يكونُ أصْلَحَ له وأنفَعَ، بالمُحافَظةِ عليه، وتَنْمِيتِه وتَثْميرِه في الوُجوهِ المأْمونةِ التي يَغلِبُ على الظَّنِّ -بحَسَبِ العادةِ- أنْ لا خَسارةَ فيها، وذلك إلى وَقتِ بُلوغِه، فإذا بلَغَ وأُونِسَ منه رُشْدٌ، وحُسْنَ تَصرُّفٍ؛ دُفِعَ مالُه إليه.

وفي هذا الحديثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأجرَ العظيمَ لكافلِ اليتيمِ؛ فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ المُربِّيَ له والقائمَ بأمرِه: مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الجنَّةِ، وأشارَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإصْبَعيهِ السَّبَّابةِ والوُسطَى؛ ليُوضِّحَ القُربَ بيْنهما، وفرَّجَ بيْنهما قليلًا؛ لبَيانِ التَّفاوُتِ بيْن الأنبياءِ وغيرِهم. ولا فرْقَ في الكَفالةِ بيْن أنْ يكونَ اليتيمُ مِن أهلِ الكافلِ وقَرابتِه، أو كان أجنبيًّا عنه.

النَّهيُ عن المَنِّ بالعَطيَّةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢ - ٢٦٤].

وعن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ثَلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ يومَ القِيامةِ: المَنَّانُ الذي لا يُعطِي شيئًا إلَّا مَنَّه، والمُنفِّقُ سِلْعَته بالحَلِفِ



الفاجِرِ، والمُسبِلُ إزارَه))[1]. وفي رِوايةٍ: ((ثَلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ ولا يَنظُرُ إليهِم ولا يُزَكِّيهم ولهمْ عذابٌ أليمٌ...))[2].

لقدْ حثَّ الإسلامُ على مَكارمِ الأخلاقِ، وحذَّر مِن مَساوئِها. والمَنُّ في العَطيَّةِ والتَّعالي على آخِذِها: مِن الخِصالِ الذَّميمةِ التي حذَّرَ منها الإسلامُ، وهدَّدَ صاحبَها بالعذابِ الأليمِ، **وفي هذه الآياتِ الكريماتِ** يُبيِّنُ اللهُ عزَّ وجَلَّ أنَّه لا يَنْبغي للمُنفِقِ الامتنانُ في صَدَقتِه على المُنفَقِ عليه، سواءٌ بقَلْبِه أو بلِسانِه؛ كأنْ يُخبِرَه بأنَّه تَفضَّل عليه بمَنْحِه شَيئًا، وأنَّه مَدينٌ له لِقاءَ مَعروفِه، ولا يقولُ أو يفعَلُ أيضًا مَكروهًا للمُنفَقِ عليه يُنافي ما قدَّمَه له مِن إحسانٍ، فذلك مَحظورٌ؛ لِمَا فيه مِن تَكبُّرِ المُنفِقِ واستعلائِه، واستِعبادِ المُنفَقِ عليه، وكسْرِ قلبِه وإذلالِه، بل على المُعطي في سَبيلِ الله تعالى أنْ يَشهَدَ دائمًا أنَّ المُتفضِّلَ والمُنعِمَ حقيقةً هو اللهُ تعالى وحْدَه، وعليه أنْ يَتفكَّرَ أيضًا في أنَّ أجْرَه على اللهِ تَعالى بأضعافِ ما أَعطى، فأيُّ حقٍّ بَقِيَ له على الآخِذِ المُحتاجِ حتى يَمتنَّ عليه، أو يُؤذيَه بصَنائعِ مَعروفِه؟! وهؤلاء الذين يُنفِقون أموالَهم في سَبيلِ اللهِ تعالى بلا منٍّ ولا أذًى يَستحِقُّون ثَوابًا وجزاءً مِن اللهِ تَعالى وحدَه مُقابِلَ صَنيعِهم.

ويُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ تَقديمَ القَولِ المعروفِ الذي تَعرِفه القلوبُ ولا تُنكِرُه؛ برَدِّ السائلِ المحتاجِ بالقَولِ الجميلِ، والدُّعاءِ الطَّيِّبِ له، وغيرِ ذلك ممَّا يُدخِلُ السُّرورَ على قَلبِه، أو بسَتْرِ سُوءِ حالتِه، أو بمُسامحتِه وتَجاوُزِه عمَّا لا يَنْبغي أنْ يَصدُرَ مِن السَّائلِ مِن قَولٍ أو فِعْلٍ، كما لو وجَدَ منه بعضَ الجَفوةِ أو الغِلْظةِ بسَبَبِ رَدِّه، وعدَمِ تَلبيةِ حاجتِه- أفضلُ مُطلَقًا مِن تَقديمِ يَدِ العونِ للمحتاجِ بمُساعدةٍ مَصحوبة بأذِيَّته

(١) أخرجه مسلم (١٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦).





والإساءةِ إليه، واللهُ تعالى غنِيٌّ عن هذه الصَّدقاتِ، فضلًا عن تلك التي يَصحَبُها مَنٌّ أو أذًى؛ فلن يَنالَه تعالى شَيءٌ مِن صَدَقاتِهم، وإنَّما نفْعُها عائدٌ عليهم؛ فكيف يَمُنُّ أحدٌ بصَدَقتِه، ويُؤذِي بها عِبادَ الله تعالى، مع غِنى اللهِ تعالى عنها؟! وهو مع هذا حَليمٌ سُبحانه، لا يُعاجِلُ هذا المانَّ بالعقوبةِ، مع قُدْرتِه على ذلك، بل يَعْفو عنه ويَصفَحُ، أو يُمهِلُه ليَتوبَ إليه.

وجعَلَ اللهُ تعالى المَنَّ والأذى مُبطِلًا للصَّدقةِ، فحالُ مَن فَعَل ذلك مُوافِقٌ لحالِ المنافِقِ الذي يَبذُلُ مالَه لأجْلِ اللهِ تعالى في ظاهرِ الأمْرِ وهو يَنوي في باطِنِه أنْ يُرِيَ النَّاسَ صَنيعَه؛ ليَحمَدوه ويُثْنوا به عليه، فقَلْبُ هذا المنافقِ في صَلابتِه وشِدَّتِه، وعدَمِ الانتفاعِ به -لعدَمِ إيمانِه وإخلاصِه للهِ تَعالى- كحجَرٍ أملَسَ، ونَفقةُ هذا المنافقِ تُشبِهُ تُرابًا يَعلو هذا الحَجَرَ، فهو مُستَنِدٌ إليه، يَظنُّ مَن يَراه أنَّه أرضٌ طيِّبةٌ صالحةٌ للإنباتِ، مِثلَما يظُنُّ مَن يُشاهِدُ ظاهرَ حالِ المنافقِ أنَّ صَدقتَه مَبنيَّةٌ على أساسٍ مِن الإيمانِ والإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ، فتُثمِرُ له حَسَناتٍ، وشبَّه اللهُ تعالى تَعرُّضَ التُّرابِ لمَطرٍ غَزيرٍ شَديدِ الوَقعِ بالمانعِ الذي أبطَلَ صَدقتَه، وذهَبَ بأثَرِها تمامًا.

وكما أصبَحَ الحَجَرُ في نهايةِ الأمرِ صُلبًا كما عُهِد مِن قَبلُ، وخاليًا لا شَيءَ عليه مِن تُرابٍ، ولم يَبْقَ أملٌ في إنباتِ نَباتٍ؛ فكذلك صَدَقاتُ هذا المنافِقِ المُرائي تَذهَبُ هَباءً، لا تُثمِرُ شيئًا مِن الحَسَناتِ وزِيادةِ الإيمانِ؛ لأنَّه لا أصلَ لها تُؤسَّسُ عليه، ولا لها مَقصِدٌ طيِّبٌ تَنْتهي إليه، فكُلُّ ما قدَّمه مُضمَحِلٌّ، فإذا كان يومُ القيامةِ، وجاء وقتُ حَصادِ الزَّرعِ وتَلقِّي أُجورِ العامِلين، وظنُّوا أنَّهم سيَنتفِعون بما قدَّموه؛ لم يَجِد أولئك المنافِقون شَيئًا يَحصُدُونه، ولا أجْرًا يَتلقَّونَه، فقدِ اضمحلَّ ما قدَّموه كلُّه؛ لأنَّه لم يكُنْ للهِ تعالى؛ فلا تَكونوا -أيُّها المؤمِنون- كهؤلاء المنافِقين، فتُبطِلوا أُجورَ صَدَقاتِكم بمَنِّكم وأذاكم على مَن تَصدَّقتُم عليه.



وفي حَديثِ أبي ذَرٍّ رضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مِنَ الناسِ ثلاثةَ أصنافٍ لا يُكلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ كَلامًا يَسُرُّهم؛ وذلك استِهانةً بهم وغضَبًا عليهم بما انتَهَكوا مِن حُرمتِه، وفوقَ ذلك لا يَنظُرُ إليهم نظَرَ رحْمةٍ وإنعامٍ، ولا يُطهِّرُهم مِن دنَسِ ذُنوبِهم، وفوقَ كلِّ تلكَ العُقوباتِ فَسوفَ يَدخِّرُ اللهُ لهم عَذابًا عظيمًا فيُضاعِفُ عليهِمُ العقوبةَ! وهذا كلُّه وَعيدٌ وتَهديدٌ وزَجرٌ عنِ المساوِئِ التي اقترَفَها هؤلاءِ الأشقياءُ، وذكَرَ مِن هؤلاءِ الثَّلاثةِ: «المنَّان» وهو الذي لا يُعطي إلَّا اعتدَّ وتَفاضلَ وتعالَى به على مَن أعطاهُ، فإذا تَصدَّقَ على أحدٍ، أو قدَّم له مَعروفًا، أو فعَلَ له خيرًا؛ لا يَزالُ يَذكُرُه له ويقولُ له: ألمْ أُحسِنْ إليك؟ ألمْ أتصدَّقْ عليك؟ قد فَعَلتُ لك كذا وكذا، ويكونُ هذا على وجْهِ التَّعييرِ له والتَّرفُّعِ عليه!

كَراهةُ التَّزكيةِ والمَدحِ أمامَ المَمدوحِ

عن نُفيعِ بنِ الحارثِ الثَّقَفيِّ أبي بَكْرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ، عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنَّهُ ذُكِرَ عندَه رجُلٌ، فقال رجُلٌ: يا رَسولَ اللهِ، ما مِن رَجُلٍ بعدَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أفْضَلُ منه في كذا وكذا. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وَيحَك! قطَعْتَ عُنقَ صاحِبِك -مِرارًا يقولُ ذلك-، ثمَّ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنْ كانَ أحَدُكم مادِحًا أخاهُ لا مَحالةَ، فلْيَقُلْ: أحسَبُ فُلانًا، إنْ كان يُرَى أنَّه كذلك، ولا أُزَكِّي على اللهِ أحَدًا))[1].



لقدْ كرِهَ الإسلامُ للمُسلِمينَ التَّرفُّعَ والتَّعاليَ والعُجبَ والغُرورَ؛ ولذلك قطَعَ أمامَهمُ السُّبلَ التي تُوصِلُهم لهذه الخِلالِ المذمومةِ، كالمدْحِ والإطراءِ، وفي هذا الحديثِ نهْيٌ صَريحٌ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ المدحِ والإطراءِ أمامَ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠).

المَمدوحِ؛ حيثُ مدَحَ رجُلٌ رجُلًا آخَرَ في وَجهِه عِندَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال له: «وَيحَكَ!» والوَيحُ: كلمةٌ لا يُرادُ بها الدُّعاءُ على الشَّخصِ، ولكِنْ يُرادُ بها الزَّجرُ أو الحثُّ على شَيءٍ معيَّنٍ، وهي كَلمةُ تَرحُّمٍ وتَوجُّعٍ تُقالُ لمَن وقَعَ في هَلَكةٍ لا يَستحِقُّها، «قطَعتَ عُنقَ صاحِبِك» المرادُ بقَطعِ العُنُقِ الهلاكُ؛ لأنَّ مَن يُقطَعُ عُنقُه يُقتَلُ ويَهلِكُ، فالمعْنى: أهلَكْتَه وأضرَرْتَ به؛ فربَّما جَرَّه ذلك المدْحُ إلى العُجبِ والغرورِ، يُكرِّرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا القولَ كثيرًا؛ تَحذيرًا وتَنبيهًا لهَولِ الكلمةِ، ثمَّ بيَّن صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا كان لا بدَّ مِن مَدْحِه؛ لأنَّ المَقامَ يَقتضي الثَّناءَ عليه اقتضاءً شَرعيًّا، كتَزكيةِ الشَّاهدِ مثلًا، أو لا بدَّ مِنَ الثَّناءِ عليه لمَصلحةٍ مَشروعةٍ أُخرى؛ فلْيَقُلْ: أحسَبُ فلانًا، واللهُ حَسيبُه، ولا أُزكِّي على الله أحدًا، أحسَبُه كذا وكذا، إنْ كان يَعلَمُ ذلك منه، فلْيَقتصِرْ على وصْفِه بما يَعلَمُ فيه مِن خِصالِ الخيرِ الموجودةِ فيه، ويقولُ أثناءَ وصْفِه له: أحسَبُه رجلًا عدْلًا، أو صالحًا، أو كَريمًا -مثَلًا- دونَ أنْ يَقصِدَ به الإطراءَ، مع الأمْنِ على المَمدوحِ الاغترارَ به.



العِلْمُ وآدابُه

العِلمُ النَّافِعُ وفَضلُه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((... ومَن سَلَكَ طَريقًا يَلتمِسُ فيه عِلمًا، سَهَّلَ اللَّهُ له به طَريقًا إلى الجَنَّةِ...))(١).

وعن مُعاويةَ بنِ أبي سُفْيانَ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيرًا يُفقِّهْهُ في الدِّينِ))(٢).

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَدعو ويقولُ: ((... اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن عِلمٍ لا يَنفَعُ ...))(٣).



لقدْ أعْلَى الشَّرعُ الحَكيمُ مِن قِيمةِ العِلمِ والعُلماءِ، وتَتابعَتِ النُّصوصُ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ على بيانِ فضْلِ العِلمِ والمشْتَغِلين به.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) واللفظ له.

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

ففي الآيةِ الأُولى ذَكَرَ اللهُ تعالَى شَهادتَه على أنَّه لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو، وأتْبَعَ شَهادتَه بذِكْرِ شَهادةِ مَلائكتِه وأُولي العِلمِ مِن عِبادِه، وهم القائمُون بالعدْلِ في كلِّ الأحوالِ، المتَّصِفُونَ بالقِسطِ في جَميعِ الأفعالِ.

ففي قولِه تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ دَليلٌ على شرَفِ العِلمِ مِن وُجوهٍ؛ منها:

- تَخصيصُ اللهِ لهم بالشَّهادةِ على أعظَمِ مَشهودٍ عليه.

- قرَنَ اللهُ شَهادتَهم بشَهادتِه وشَهادةِ مَلائكتِه.

- جعَلَهم اللهُ شُهداءَ وحُجَّةً على النَّاسِ، وألزَمَ النَّاسَ العملَ بما شَهِدوا به، فكانوا هم السَّببَ في ذلك، فكلُّ مَن عمِلَ بذلك نالَهُم مِن أجْرِه.

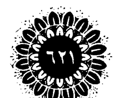
وفي الآيةِ الثانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّه لا يَنْبغي للمُؤمِنينَ أنْ يَنفِروا كلُّهم في وقتٍ واحدٍ للجهادِ في سَبيلِ اللهِ، فهلَّا نفَرَ مِن كُلِّ قَبيلةٍ أو أهلِ مَدينةٍ، جمَاعةٌ مِن المُسلِمينَ للقِتالِ، تَحصُلُ بهم الكفايةُ؛ ليَتأتَّى لجُملةِ المُؤمِنينَ القاعدينَ تعلُّمُ دِينِ اللهِ، والتَّفقُّهُ فيه، وتَعليمُ قَومِهم الذين نفَروا إلى الغزوِ، إذا رجَعوا إليهم، فيُخوِّفونهم ويَعِظونهم؛ رجاءَ أنْ يَحذَروا عاقبةَ عِصيانِ اللهِ، وألَّا يَعمَلوا بخِلافِ ما تَعلَّموه.

وفيها فَضيلةُ العِلمِ، والفِقهِ في الدِّينِ، ووُجوبُ طلَبِ العلمِ النافعِ.

وفيها دَلالةٌ على وُجوبِ تَعميمِ العِلمِ، والتَّفقُّهِ في الدِّينِ، وتَفقيهِ النَّاسِ فيه، وهم بهذه النِّيَّةِ لا يَقِلُّونَ عن درَجةِ المُجاهِدينَ بالمالِ والنَّفسِ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، والدِّفاعِ عن المِلَّةِ والأُمَّةِ.

وفي الآيةِ الثالثةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى أنَّ مَن يَخشاهُ حقَّ الخَشيةِ، فيَتَّقي عِقابَه بطاعتِه وتَرْكِ مَعصيتِه: هم العُلَماءُ العالِمونَ باللهِ تعالى وصِفاتِه وشَرائعِه.

والخَشيةُ بقَدْرِ مَعرفةِ المَخشيِّ، والعالِمُ يَعرِفُ اللهَ فيَخافُه ويَرجوه، وهذا دَليلٌ



على أنَّ العالِمَ أعلى درَجةً مِن العابِدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فبيَّن أنَّ الكرامةَ بقَدْرِ الخشْيةِ والتَّقوى.

والعِلمُ التامُّ يَستلزِمُ الخَشيةَ؛ فمَن كان باللهِ وبأسْمائِه وصِفاتِه وأفعالِه وأحكامِه أعلمَ، كان له أَخشى وأتْقى، وهذه الخَشيةُ تُوجِبُ له الانكِفافَ عن المعاصي، والاستِعدادَ للِقاءِ مَن يَخشاهُ، وهذا دَليلٌ على فَضيلةِ العِلمِ؛ فإنَّه داعٍ إلى خَشيةِ اللهِ، وأهلُ خَشيتِه هم أهلُ كَرامتِه، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]، فخَوفُ العبدِ مِن اللهِ لا يَحصُلُ إلَّا إذا عَلِمَ كَونَه تعالى عالِمًا بجَميعِ المعلوماتِ، قادِرًا على كُلِّ المَقدوراتِ، غيرَ راضٍ بالمُنكَراتِ والمُحرَّماتِ؛ وبهذا يُعرَفُ قَدْرُ العِلمِ.

وفي الحَديثِ الأوَّلِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فضْلَ العِلمِ، وأنَّ شأنَه عَظيمٌ، وفضْلَه كبيرٌ؛ حيثُ يُخبِرُ عن فضْلِ مَن يَطلُبُ العِلمَ ويَسعَى في تَحصيلِه، فيقولُ: «مَن سَلَكَ طَريقًا يَلتمِسُ فيه عِلْمًا» وهذا يَشمَلُ الطَّريقَ المَعنويَّ والطريقَ الحِسِّيَّ؛ فأمَّا المعنويُّ فهو الطريقُ الذي يُتوصَّلُ به إلى العِلمِ؛ كحِفظِ العِلمِ، ومُدارستِه ومُذاكرتِه، ومُطالعتِه وكِتابتِه، والتفهُّمِ له، بأنْ يُلتمَسَ العِلمُ مِن أفواهِ العُلماءِ ومِن بُطونِ الكُتبِ؛ فمَن يَستمِعُ إلى العُلماءِ، أو يُراجِعُ الكُتُبَ ويَبحَثُ فيها -وإنْ كان جالِسًا-؛ فإنَّه قد سلَكَ طَريقًا يَلتمِسُ فيه عِلمًا. وأمَّا الطَّريقُ الحِسيُّ فهو الَّذي يَجتهِدُ فيه المرءُ، ويَسيرُ فيه على الأقدامِ؛ مِثْلُ أنْ يَأتيَ الإنسانُ مِن بَيتِه إلى مَكانِ العِلمِ، سَواءٌ كان مَكانُ العِلمِ مَسجِدًا، أو مَدرسةً، أو جامِعةً، أو غيرَ ذلك، «سَهَّلَ اللَّهُ له به طَريقًا إلى الجَنَّةِ»، أي: يَسَّرَ اللهُ له عمَلًا صالحًا يُوصِلُه إلى الجنَّةِ بفَضلِ اللهِ ورِضوانِه عليه، فيُوَفِّقُه للأعمالِ الصَّالِحةِ، أو المُرادُ: سَهَّلَ عليه ما يَزيدُ به عِلْمُه؛ لأنَّه أيضًا مِن طُرقِ الجنَّةِ، بلْ هو أقرَبُها؛ لأنَّ العِلمَ الشَّرعيَّ تُعرَفُ به أوامِرُ اللهِ ونَواهيه، فيُستَدَلُّ به على الطَّريقِ الذي



يُرضِي اللهَ عزَّ وجَلَّ، ويُوصِلُ إلى الجنَّةِ، ويكونُ طلَبُ العِلمِ وتَحصيلُه باتِّخاذِ كلِّ الوسائلِ المُستَطاعةِ وإنْ لم يكُنْ هناك سفَرٌ؛ كأنْ يُلازِمَ مَجالِسَ العِلمِ، ويَقتنيَ الكُتبَ النَّافِعةَ المُفيدةَ لأجْلِ دِراستِها والمُذاكَرةِ فيها، فيُعْنى بِقِراءتِها والتَّباحُثِ فيها مع زُملائِه، والرُّجوعِ فيما يُشكِلُ عليه منها إلى مَشايخِه، وأيضًا يُلحَقُ بهذا سَماعُ التَّسجيلاتِ العِلميَّةِ والدَّعويَّةِ للعُلماءِ والدُّعاةِ.

وفي الحَديثِ الثَّاني يُوضِّحُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أفضَلَ العُلومِ وأنفَعَها هو التَّفقُّهُ في دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويُبيِّنَ أنَّ مَن أرادَ اللهُ به خَيرًا عظيمًا ونَفعًا كثيرًا، منَحَه العِلمَ الشَّرعيَّ، وبصَّرَه بأُمورِ دِينِه حتَّى يَكونَ فَقيهًا فيه، عارِفًا بالحقِّ، عامِلًا به، داعيًا إليه على بَصيرةٍ وهُدًى.

وخَيريَّةُ العِلمِ الشَّرعيِّ لا تُدانِيها خَيريَّةٌ في فَضلِه وشرَفِه، وعُلُوِّ درَجتِه؛ لأنَّه مِيراثُ الأنبياءِ الذي لم يُورِّثُوا غيرَه، وقدْ خُصَّتِ الخَيريَّةُ بالتَّفقُّهِ في الدِّينِ وليس لمُجرَّدِ حامِلِ الفِقهِ وسامِعِه؛ لقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((نضَّرَ اللهُ امرَأً سَمِعَ منَّا حديثًا، فحَفِظَه حتى يُبلِّغَه؛ فرُبَّ حاملِ فِقهٍ إلى مَن هو أفقَهُ منه، ورُبَّ حاملِ فِقهٍ ليس بفَقيهٍ))[1]؛ فقد لا يكونُ الرَّاوي السَّامعُ عالِمًا ولا فَقيهًا، ولكنَّه يَحفَظُ السُّنَّةَ ويَنقُلُها إلى غيرِه ممَّن يَقدِرُ على الفَهْمِ والاستِنباطِ؛ فالفقيهُ في الدِّينِ هو الَّذي يُنزِّلُ النُّصوصَ مَنازِلَها، ويَضَعُها في مَواضِعِها، فيَستبينُ له الأمرُ على جَليَّتِه، ويُبصِرُ الطريقَ، ومِثلُ هذا العِلمِ يَقودُ صاحِبَه إلى خَشيةِ اللهِ، والتِزامِ طاعتِه، وتَجنُّبِ مَعاصِيه. والفِقهُ في

(١) أخرجه من طُرُقٍ: أبو داود (٣٦٦٠) واللفظ له، والترمذي (٢٦٥٦)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٥٨٤٧)، وابن ماجه (٢٣٠)، وأحمد (٢١٥٩٠) مِن حديثِ زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه.
حسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (٦٧)، وابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٥/ ٣٢٧)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٦٨)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٦٦٠)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٣٥٨).



الدِّينِ إنَّما يَكونُ بالتأمُّلِ في نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ومَعرفةِ ما اشتَملَتْ عليه مِن كُنوزٍ، وما حَوَتْهُ مِن عَقائدَ وأحكامٍ وحِكَمٍ.

وفي الحديثِ الثَّالثِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَستعيذُ بالله «مِن عِلمٍ لا يَنفَعُ»، وهو العِلمُ الذي لا يُعمَلُ به، ولا يُنتفَعُ به، ولا يُهذِّبُ الأخلاقَ والأقوالَ والأفعالَ، ويكونُ حُجَّةً على صاحبِه.

الحَثُّ على حُضورِ حَلَقاتِ العِلمِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: ((... وما اجتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوتِ اللهِ، يَتْلون كِتابَ اللهِ، ويَتَدارَسونَه بيْنهم؛ إلَّا نَزَلَت عليْهم السَّكينةُ، وغَشِيَتهم الرَّحمةُ، وحَفَّتْهم المَلائكةُ، وذَكَرَهم اللهُ فيمَن عِندَه، ومَنْ بَطَّأَ به عَمَلُه، لم يُسْرِعْ به نَسَبُه))[1].



طَريقُ العِلمِ هو طَريقُ الشَّرَفِ والرِّفْعةِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وصَدَقَ اللهُ العَليُّ عِندَما قالَ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]؛ ولذلك كان الاجتِماعُ على ذِكرِ اللهِ تعالَى ومُدارَسةِ العِلمِ ومُذاكَرتِه؛ مِن أشرَفِ المَجالِسِ التي يُحِبُّها اللهُ عزَّ وجلَّ، ومِن أرفَعِها قَدْرًا، وأعظَمِها أجْرًا لأصحابِها.

وفي هذا الحَديثِ يُبيِّنُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جانِبًا مِن فضْلِ حُضورِ حَلَقاتِ العِلمِ والصَّبرِ عليْها، إضافةً إلى الجانِبِ الذَّاتيِّ الذي يَعودُ به العِلمُ علَى صاحِبِه، وهو رَفْعُ الجَهلِ عنه، فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه «لا يَجتَمِعُ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوتِ اللهِ»، ويُلحَقُ بها دُورُ العِلمِ ونَحوُها، «يَتْلون كِتابَ اللهِ» -بأنْ يَقرَأه بَعضُهم

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

على بَعضٍ، ويَتَدبَّروا مَعانيَه، ويَتَدارَسوا أحكامَه، ويَتَعهَّدوه خَوفَ النِّسيانِ- إلَّا مَنَحَهم اللهُ عزَّ وجلَّ الأجْرَ الجَزيلَ فَضلًا منه سُبحانَه وكَرَمًا، وبُيوتُ اللهِ في الأرضِ المَساجدُ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [سورة النور: ٣٦-٣٧]، وأضافَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الأماكِنَ إلى نَفسِه تَشريفًا وتَعظيمًا، ولأنَّها مَحَلُّ ذِكرِه، وتِلاوةِ كَلامِه، والتَّقرُّبِ إليه بالصَّلاةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أربَعَ مِنَحٍ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ يُعطيها سُبحانَه لِمَن جَلَسَ هذه المَجالِسَ، **وأوَّلُها**: نُزولُ السَّكينةِ، وهي: شَيءٌ يَقذِفُه اللهُ عزَّ وجلَّ في القَلْبِ، فتُورِثُه الصَّفاءَ والنَّقاءَ، وتُذهِبُ عنه الظُّلْمةَ والسَّوادَ والضِّيقَ، ومِن ثَمَّ يَكونُ مُطمَئنًّا غَيرَ قَلِقٍ ولا شاكٍّ، راضيًا بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه. وهذه السَّكينةُ نِعمةٌ عَظيمةٌ مِن اللهِ تعالى، قالَ عنها: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤].

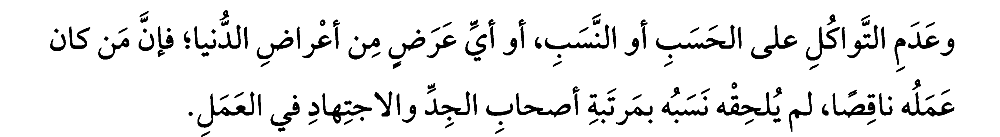
والمِنحةُ الثَّانيةُ: غِشْيانُ الرَّحمةِ، و«غَشِيَتْهم الرَّحمةُ» يَعْني: غَطَّتْهم؛ فإنَّ المُجتَمِعين على مِثلِ هذه المَجالِسِ تَغشاهم الرَّحمةُ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ وتُحيطُ بهم، وتَكونُ لهم بمَنزِلةِ الغِطاءِ الشَّامِلِ لكُلِّ ما يَحتاجون إليه مِن رَحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

والمِنحةُ الثَّالثةُ: أنْ تَحُفَّهم المَلائكةُ؛ بأنْ يَطوفوا بهم، ويَدوروا مِن حَولِهم؛ تَعظيمًا لشَأْنِهم، واستِماعًا لذِكرِهم اللهَ عزَّ وجلَّ، ولِيَكونوا شُهداءَ عليْهم بيْنَ يَدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

والمِنحةُ الرَّابِعةُ: أنْ يَذكُرَهم اللهُ فيمَن عِندَه، فيُباهيَ اللهُ بهم مَن عِندَه مِن المَلائكةِ المُقرَّبين، وأعظِمْ بهذا مِن فَضلٍ جَزيلٍ وثَوابٍ عَظيمٍ!

ويَختِمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الحديثَ بالحثِّ على عُلُوِّ الهِمَّةِ في العِلمِ والعَمَلِ،





وعَدَمِ التَّواكُلِ على الحَسَبِ أو النَّسَبِ، أو أيِّ عَرَضٍ مِن أعْراضِ الدُّنيا؛ فإنَّ مَن كان عَمَلُه ناقِصًا، لم يُلحِقْه نَسَبُه بمَرتَبةِ أصحابِ الجِدِّ والاجتِهادِ في العَمَلِ.

مِن آدابِ طَلبِ العِلمِ

عن أبي واقِدٍ اللَّيْثيِّ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَما هو جالِسٌ في المَسجِدِ والنَّاسُ معه، إذ أقبَلَ ثَلاثةُ نَفَرٍ، فأقبَلَ اثْنانِ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ، وذَهَبَ واحِدٌ، قال: فوَقَفا على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ، فأمَّا أحَدُهما فرَأى فُرْجةً في الحَلْقةِ فجَلَسَ فيها، وأمَّا الآخَرُ فجَلَسَ خَلْفَهم، وأمَّا الثَّالِثُ فأدْبَرَ ذاهِبًا، فلمَّا فَرَغَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((ألَا أُخبِرُكم عن النَّفَرِ الثَّلاثةِ؟ أمَّا أحَدُهم فأَوى إلى اللهِ فآواه اللهُ، وأمَّا الآخَرُ فاستَحْيا فاستَحْيا اللهُ منه، وأمَّا الآخَرُ فأَعرَضَ فأَعرَضَ اللهُ عنه!))(١).



في هذا الحديثِ يَحُثُّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الإقْبالِ على العِلمِ؛ حيثُ يُخبِرُ أبو واقِدٍ اللَّيثيُّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان مع أصحابِه في المَسجِدِ، وكان الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم جُلوسًا حَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حِلَقٍ يُعلِّمُهم ويَعِظُهم؛ فأقبَلَ عليْهم ثَلاثةُ رِجالٍ؛ أمَّا أحَدُهم فوَجَدَ في الحَلْقةِ فُرْجةً ومَوضِعًا فجَلَسَ فيه، وأمَّا الثَّاني فجَلَسَ خَلْفَ الحَلْقةِ، كأنَّه استَحيَا أنْ يُزحِمَ النَّاسَ وأنْ يُضيِّقَ عليْهم، وأمَّا الثَّالثُ فوَلَّى وأعرَضَ ولم يَحضُرْ هذا المَجلِسَ، وانصَرَفَ عنه راغِبًا عمَّا يَقولُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ، فلمَّا فَرَغَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن حَديثِه -وكان مُطَّلِعًا على أحوالِ هؤلاءِ الثَّلاثةِ عِندَ دُخولِهم المَجلِسَ- قالَ لأصحابِه: «ألَا أُخبِرُكم بنَبأِ النَّفَرِ الثَّلاثةِ؟» فأَخبَرَ عن **الأوَّلِ** الذي جَلَسَ في الحَلْقةِ

(١) أخرجه البخاري (٦٦) واللفظ له، ومسلم (٦٦).



وقدْ يَسَّرَ اللهُ تعالَى له المَكانَ المُناسِبَ، فتَقدَّم ليَجلِسَ فيه دُون أنْ يُؤذِيَ مَن حولَه، وهذا مِن الأدَبِ في طلَبِ العِلمِ وحُضورِ حَلقاتِه، وبفِعلِه هذا وإقْبالِه فإنَّه أَوَى إلى اللهِ، فآواهُ اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه كان صادِقَ النِّيةِ في الجُلوسِ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ، والإيواءُ هو: اللُّجوءُ والانضِمامُ، والمَعْنى: أنَّ الرَّجُلَ لَجَأَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ورَغِبَ فِيما عندَه مِن خَيرٍ، فانضَمَّ إلى مَجلِسِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ، فجازاهُ اللهُ بنَظيرِ فِعلِه؛ بأنْ ضَمَّه إلى رَحمتِه ورِضوانِه.

وأمَّا الثَّاني «فاستَحيا فاستَحيا اللهُ منه»؛ لأنَّه ما زاحَمَ أحَدًا، ولا تَقدَّمَ على أحَدٍ، وحافَظَ على هُدوءِ المَجلِسِ وسَكينَتِه؛ حَياءً مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ ومِن الحاضِرين، وهذا أيضًا مِن الأدَبِ في طلَبِ العلمِ وحُضورِ حَلقاتِه، أو أنَّه استَحيا مِن أنْ يُعرِضَ ويَترُكَ مَجلِسَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَما فَعَلَ الثَّالثُ؛ فَكان جَزاؤُه أنِ استَحيا اللهُ عزَّ وجلَّ منه وعَفَا عنه.

وأمَّا الثَّالثُ «فأَعرَضَ» عن مَجلسِ العلمِ، وهو مَجلِسُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ، ولم يَلتَفِتْ إليه، ووَلَّى مُدبِرًا، فكان جَزاؤُه مِن جِنسِ عَمَلِه؛ وذلك بأنْ أَعرَضَ اللهُ عنه، فلمْ يُوَفِّقْه لأنْ يَجلِسَ مع هؤلاءِ القَومِ البَرَرةِ الأطْهارِ، وهذا المَعْنى مَحمولٌ على مَن أَعرَضَ لا لعُذْرٍ، ويَحتَمِلُ أنَّه مُنافِقٌ وأطْلَعَ اللهُ تعالَى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على أَمْرِه.



حِفظُ اللِّسانِ

أهمِّيَّةُ حِفظِ اللِّسانِ وخُطورةُ إطلاقِه

قال اللهُ تعالَى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وعن عُقْبةَ بنِ عامرٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما النَّجاةُ؟ قال: ((أمسِكْ عليك لِسانَك، ولْيَسَعْك بَيتُك، وابْكِ على خَطيئتِك))[١].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((... مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، فلْيَقُلْ خَيرًا أوْ لِيَصمُتْ))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ العَبدَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ ما يَتبَيَّنُ ما فيها، يَهوي بها في النَّارِ أبعَدَ ما بيْن المَشرِقِ والمَغرِبِ))[٣].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن يَضمَنْ لي ما بيْن لَحْيَيْه وما بيْن رِجْلَيه أضْمَنْ له الجنَّةَ))[٤].



اللِّسانُ مِن نِعَمِ اللهِ العَظيمةِ، ولَطائفِ صُنعِه البَديعةِ؛ فإنَّه مع صِغَرِ جِرْمِه عَظيمٌ طاعتُه وجُرْمُه، ولا تَعَبَ في إطلاقِه ولا مَؤُونةَ في تَحريكِه، وقد يكونُ سَبَبًا في دُخولِ

(١) أخرجه من طُرقٍ: الترمذي (٢٤٠٦) واللفظ له، وأحمد (١٧٣٣٤).
صحَّحه يحيى بن معين، كما في ((تاريخ بغداد)) للخطيب البغدادي (٨/ ٢٦٥)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٠٦)، وحسَّنه الترمذي، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٧٣٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٨) واللفظ له، ومسلم (٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٧٤).



الجنَّةِ، أو انكبابِ صاحِبِه على وَجهِه في النَّارِ؛ لذا يَنْبغي للمُسلِمِ أنْ يَحفَظَ لِسانَه، ومِمَّا يَدعو المسلِمَ إلى ذلك ما ذَكَرَه اللهُ تعالى **في هذه الآيةِ الكريمةِ**؛ حيثُ يُبيِّنُ تَبارَكَ وتَعالى أنَّه ما مِن إنسانٍ يَتكلَّمُ بقَولٍ إلَّا وعِندَه مَلَكٌ حافِظٌ يُراقِبُ كَلامَه لِيَكتُبَه، وحاضِرٌ لا يُفارِقُه، فهو يُحصِي ويَكتُبُ جَميعَ الأقوالِ الصَّادِرةِ عنه.

وفي الحديثِ الأوَّلِ يُخبِرُ عُقْبةُ بنُ عامِرٍ رَضِيَ الله عنه أنَّه استَفهَمَ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن وَسائلِ النَّجاةِ وأسبابِ الفَلاحِ في الدُّنيا والآخرةِ، وكيف يَتحصَّلُ عليهما فيَنْجو بنَفْسِه، فأعلَمَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ ذلك يَتحصَّلُ بعِدَّةِ أُمورٍ؛ **أوَّلُها**: أن يُمسِكَ المرْءُ لِسانَه عن قَولِ كلِّ شرٍّ، فلا يَنطِقْ إلَّا بخيرٍ، ثمَّ أمَرَه **بالأمرِ الثَّاني** فقال: «ولْيَسَعْك بَيتُك» فقَرَّ في بَيتِك والْزَمْه عامَّةً، وفي وَقتِ الفِتَنِ خاصَّةً، واشتَغِلْ بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا تَضجَرْ مِنَ الجُلوسِ فيه، بل اجعَلْه مِن بابِ الغَنيمةِ؛ فإنَّه سَببُ الخلاصِ مِنَ الشَّرِّ والفِتنةِ، ثمَّ أمَرَه **بالأمرِ الثَّالِثِ**، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «وابْكِ على خَطيئتِك»، أي: واندَمْ على ما ارتكَبتَ مِن ذُنوبٍ، وابكِ بُكاءً حقيقيًّا؛ تَصديقًا لتَوبتِك وإنابتِك، ثمَّ اشتَغِلْ بإصلاحِ نَفسِك وتَهذيبِها. ومُعاتَبةُ النَّفسِ والبُكاءُ مِن خَشيةِ اللهِ: دَليلٌ على حُسنِ الإيمانِ، وطَريقٌ إلى النَّجاةِ والفَوزِ بِرِضوانِ اللهِ سُبحانَه.

وفي الحَديثِ الثَّاني يَأمُرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحِفظِ اللِّسانِ، مُبيِّنًا أنَّ مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ الَّذي خَلَقَه إيمانًا كامِلًا، واليَومِ الآخِرِ الَّذي إليهِ مَعادُه وفيه مُجازاتُه بعَمَلِه؛ «فليَقُلْ خيرًا أو ليَصْمُتْ»، فدَلَّ على أنَّ ذلك مِن خِصالِ الإيمانِ؛ فعلى المرْءِ إذا أرادَ الكلامَ أنْ يُفكِّرَ قبلَ كلامِه، فإذا كان الكَلامُ خيرًا -وهو الَّذي ظَهَرت مصْلحَتُه، وعَلِمَ أنَّه لا يَترتَّبُ عليه مَفسدةٌ، ولا يجُرُّ إلى مُحرَّمٍ ولا مَكروهٍ- فلْيَتكلَّمْ، وإنْ كان مباحًا قد استوى في المصلحةِ التَّحَدُّثُ به وتَرْكُه، فالسُّنَّةُ الإمساكُ عنه؛ فالسَّلامةُ في السُّكوتِ؛ لئلَّا يجُرَّ المُباحُ إلى المُحرَّمِ والمكروهِ، وذلك كثيرٌ في العادةِ، والسَّلامةُ لا يَعدِلُها شَيءٌ.

والخيرُ مِن الكلامِ على نَوعينِ:

الأولُ: أنْ يكونَ الكلامُ خيرًا في نفْسِه؛ كذِكرِ اللهِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عنِ المنكَرِ، وتَعليمِ مَسألةٍ مِن مَسائلِ العلمِ والدِّينِ.

والثَّاني: أنْ يكونَ الخيرُ في المَقصودِ مِن الكلامِ؛ كأنْ تَتكلَّمَ بكلامٍ مُباحٍ مِن أجلِ أنْ تُدخِلَ الأُنسَ على مُجالِسِك، وأنْ يَنشرِحَ صدْرُه، هذا أيضًا خيرٌ وإنْ كان نفسُ الكلامِ ليس ممَّا يُتقرَّبُ به إلى اللهِ، ولكنَّه صار خيرًا باعتبارِ النِّيَّةِ الحَسنةِ وما يُؤدِّي إليه مِن خيرٍ.

وفي الحَديثِ الثَّالثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أثَرَ الكَلِمةِ وما يَترتَّبُ عليها، حتَّى إنَّ العبدَ لَيَتكلَّمُ بالكلمةِ مِمَّا يَرْضاه اللهُ ويُحِبُّه، لا يَلتفِتُ لها قلْبُه وبالُه؛ لِقِلَّةِ شأنِها عندَه، يَرْفَعُه اللهُ بها دَرَجاتٍ في الجنَّةِ، كما في رِوايةٍ أُخرى: ((إنَّ العَبدَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن رِضوانِ اللهِ، لا يُلْقي لها بالًا؛ يَرفَعُه اللهُ بها درَجاتٍ))[1]. وإنَّه لَيتكلَّمُ بالكَلِمةِ الواحدةِ، فلا يَتأمَّلُ بخاطِرِه، ولا يَتفكَّرُ العَبدُ في عاقِبتِها، ولا يَظُنُّ أنَّها تُؤثِّرُ شَيئًا، ولكِنَّها عند اللهِ عَظيمةٌ في قُبحِها، «فيَهْوِي بها» أي: يَنزِلُ ويَسقُطُ بسَبَبِها في دَرَكاتِ جَهنَّمَ «أبعَدَ ما بيْنَ المَشرِقِ والمَغرِبِ»؛ وهذا لبُعدِ قَعْرِ جَهنَّمَ، وهو دَليلٌ على سَعَتِها؛ بحيث إنَّ هذا العاصيَ يَسقُطُ فيها مَسافةً أبعَدَ مِن قَدْرِ ما بيْن المشرقِ والمغرِبِ، وهما مُتباعِدانِ جدًّا! وهذا تَحذيرٌ للمُسلِمِ مِن خُطورةِ الكَلِمةِ؛ فإنَّ الكَلِمةَ إذا لم تَخرُجْ مِن الفَمِ فالإنسانُ مالِكُها، فإذا خرَجَت كان أسيرَها، وفيه وُجوبُ مُحافظةِ الإنسانِ على لِسانِه، وألَّا يَتكَلَّمَ بكَلمةٍ إلَّا إذا تأمَّلَ ما عليه منها.

وفي الحديثِ الرَّابعِ يُخبِرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه: «مَن يَضمَنْ لي ما بينَ لَحْيَيْه» والمرادُ بذلك: اللِّسانُ. واللَّحْيانِ: هما العَظْمانِ اللَّذانِ في جانِبَيِ الوَجهِ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٨) مطولًا واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٨) بنحوه.



ويَنبُتُ عليهما الأسنانُ عُلُوًّا وسُفْلًا، والمرادُ بالضَّمانِ: الوَفاءُ بتَرْكِ المَعاصي بهما، فيَكُفُّ عمَّا حُرِّمَ عليه مِن الكَذِبِ والغِيبةِ والنَّميمةِ، إلى غيرِ ذلك، «وما بيْن رِجْلَيه» والمرادُ به الفَرْجُ، وضَمانُ الفَرْجِ: بحِفْظِه عن الحرامِ مِنَ الزِّنا واللِّواطِ ووَسائلِ ذلك.

وقيل: المرادُ بالضَّمانِ لازِمُه، وهو أداءُ الحَقِّ، أي: مَن أدَّى الحَقَّ الذي على لِسانِه مِن النُّطقِ بما يَجِبُ عليه، أو الصَّمتِ عمَّا لا يَعْنيه، وأدَّى الحَقَّ الذي على فَرْجِه مِن وَضْعِه في الحلالِ وكَفِّه عن الحرامِ؛ جازَيتُه بالجنَّةِ.

وخُصَّ اللِّسانُ والفَرْجُ؛ لأنَّهما أعظَمُ البلاءِ على الإنسانِ في الدُّنيا، فمَن وُقِيَ شَرَّهما وُقِيَ أعظَمَ الشَّرِّ، وكما أنَّ الإنسانَ مَجبولٌ على شَهوةِ النِّساءِ، فكذلك في اللِّسانِ شَهوةُ الكلامِ؛ فبَعضُ النَّاسِ يَتلذَّذُ إذا تكلَّم في أعراضِ النَّاسِ. وقولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «أضمَنْ له الجنَّةَ»، أي: يكونُ جَزاءُ مَن حَفِظَ لِسانَه وفَرْجَه الجنَّةَ يومَ القيامةِ، كما أنَّ مَن لم يَحفَظْهما يَنتَظِرُه العذابُ يومَ القيامةِ.

الزَّجْرُ عن الكَذِبِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥].

وعنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: ((إنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهدي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حتى يَكونَ صِدِّيقًا، وإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يَهدي إلى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكذِبُ حتى يُكتَبَ عندَ اللهِ كَذَّابًا))[1].

وعن عَبدِاللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).



قالَ: ((أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالِصًا، ومَن كانتْ فيه خَلَّةٌ منهنَّ كانَتْ فيه خَلَّةٌ مِن نِفاقٍ حتى يَدَعَها: إذا حَدَّثَ كذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا وَعَدَ أخلَفَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ))[1].



الكَذِبُ مِن أخطَرِ آفاتِ اللِّسانِ، ومِن الخِلالِ المَذمومةِ التي لا تَصلُحُ أنْ تكونَ في المُؤمِنِ؛ فمِن صِفةِ المُؤمِنِ أنَّه لا يقولُ الكَذِبَ، وإنَّما يَتحرَّى الصِّدقَ ويَقصِدُه في كُلِّ أُمورِه حتى تكونَ تلك عادتَه. والكَذِبُ هو: الإخْبارُ بشَيءٍ على خِلاف الواقِعِ، وأعظَمُه: الكَذِبُ على اللهِ تعالَى، وعلَى رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وثَمَّةَ كَذِبٌ بالفِعلِ أيضًا، كفِعلِ الإنسانِ خِلافَ ما يُبطِنُ؛ فالمُنافِقُ كاذِبٌ؛ لأنَّه يُظهِرُ الإيمانَ، ولكنَّه ليس مُؤمِنًا في الباطِنِ.

وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ المذكورةِ يُخبِرُ اللهُ تبارك وتعالى أنَّ الذين يختَلِقونَ الكَذِبَ على اللهِ هم الذينَ لا يُؤمِنونَ بِآياتِه، فأولئك هم المُعتادونَ على الكَذِبِ، وهو مُنحَصِرٌ فيهم.

ففي الآيةِ أبلَغُ زَجْرٍ عن الكَذِبِ؛ حيث أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه إنَّما يَفتَري الكَذِبَ مَن لا يُؤمِنُ.

وفي الحديثِ الأوَّلِ يَمدَحُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الصِّدقَ -الذي هو ضِدُّ الكَذِبِ- ويُرَغِّبُ فيه، ويُخبِرُ أنَّه «يَهدي إلى البِرِّ»، أي: هو الطَّريقُ الموصِلُ إلى الخَيراتِ كُلِّها؛ فالبِرُّ هو: اسمٌ جامِعٌ للخَيرِ كُلِّه، وإنَّ البِرَّ يُوصِلُ إلى الجَنَّةِ، «وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ» في السِّرِّ والعَلانيةِ، ويَتكَرَّرُ ذلك منه، حتى يَبلُغَ في الصِّدقِ غايتَه

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨) واللفظ له.

ونِهايتَه، فيَدخُلَ في زُمْرةِ الصَّادِقين، ويَستَحِقَّ ثوابَهم.

ثمَّ يُحذِّرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ويُنَفِّرُ مِن الكَذِبِ، ويُبيِّنُ عاقِبةَ مَن تَخلَّقَ به؛ فيُخبِرُ بأنَّ الكَذِبَ يُوصِلُ إلى الفُجورِ، الَّذي هو ضِدُّ البِرِّ، وأصلُ الفُجورِ: المَيلُ عن الصِّدقِ والانحِرافُ إلى الكَذِبِ. وقيلَ: الفُجورُ: الانبِعاثُ في المَعاصي؛ فالفُجورُ أوسَعُ وأشمَلُ مِن الكَذِبِ، وإنَّ الفُجورَ يُوصِلُ إلى النَّارِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤]، ولا يَزالُ الرَّجُلُ يُحاوِلُ أنْ يَكذِبَ ويَتعمَّدَ الكَذِبَ حتى يُكتَبَ عندَ اللهِ كَذَّابًا، والمُرادُ: أنَّه يَتكرَّرُ منه الكَذِبُ حتى يَستَحِقَّ اسمَ المُبالَغةِ في الكَذِبِ، فيكونَ الكَذِبُ مَنهَجَه وعادتَه؛ فيُكتَبَ عندَ اللهِ كذَّابًا، ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ مَعنَى كِتابتِه مِن جُملةِ الكذَّابين: أنْ يكونَ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ وذلك أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إنْ كَتبَه عندَه مِن الكذَّابين، وَقَعَ ذلك بيْن النَّاسِ، فيُعرَفُ بيْن أَهلِ الأرضِ أنَّه كَذَّابٌ، ثمَّ يَأتي يومَ القِيامةِ وقدْ ثَبَتَ في صَحيفَتِه: أنَّه كذَّابٌ.

وفي الحديثِ الثَّاني: يُحذِّرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن النِّفاقِ ومِن طُرُقِه وصِفاتِه المُؤدِّيةِ إليه، والمُرادُ به هُنا: النِّفاقُ العَمَليُّ الذي لا يُخرِجُ صاحبَه مِن دائرةِ الإسلامِ.

ثمَّ يُخبِرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأَربَعِ صِفاتٍ مِن صِفاتِ المُنافِقين إذا اكْتمَلَت جَميعُها في شخْصٍ كان شَديدَ الشَّبَهِ بالمُنافقين؛ بسَببِ مَجموعِ هذه الخِصالِ فيه، فهذه الخِصالُ خِصالُ نِفاقٍ، وصاحبُها شَبِيهٌ بالمنافِقين في هذه الخِصالِ، ومُتخَلِّقٌ بأخلاقِهم؛ فإنَّ النِّفاقَ إظهارُ الإنسانِ ما يُبطِن خِلافَه، وهذا المعنى مَوجودٌ في صاحبِ هذه الخِصالِ، ويكونُ نِفاقُه في حقِّ مَن حدَّثه ووَعَدَه، وائتَمَنه، وخاصَمَه، وعاهَدَه مِن النَّاسِ، ومِن هذه الخِصالِ أنَّه: «إذا حَدَّثَ كَذَبَ» فالكاذب يُظهِرُ إليك أنَّه صِدقٌ ويُبطِنُ خِلافَه والمعنى: إذا حدَّث بأيِّ حديثٍ كَذَبَ فيه، وقولُه: «إذا» يدُلُّ

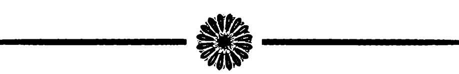


على تكرُّرِ الفعلِ، فيكونُ المَقصودُ مِن الجُملةِ مَن اعْتادَ ذلك، وصار له دَيدَنًا، وقدْ بيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ هناك مَواضِعَ مُستَثناةً يَكونُ الكَذِبُ فيها مُباحًا؛ للمَصلحةِ الرَّاجحةِ في ذلك، فقال صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: ((ليسَ الكَذَّابُ الذي يُصلِحُ بيْن النَّاسِ، فيَنمي خَيرًا، أو يَقولُ خَيرًا))(١)؛ فالشَّرعُ الحَنيفُ حَثَّ على الإصْلاحِ بيْن النَّاسِ ورغَّبَ فيه، حتى وإنْ تَحقَّقَ ذلك بالكَذِبِ؛ وذلك لِما يَعودُ بالمَصلحةِ على المُتباغِضِينَ والمُتخاصِمِينَ، وإخْمادِ رُوحِ العَداوةِ، وإزالةِ الخُصوماتِ.

النَّهْيُ عن الغِيبةِ والبُهتانِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أتَدْرونَ ما الغِيبةُ؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. قال: ذِكْرُك أخاكَ بما يَكْرَهُ. قيل: أفرَأَيتَ إنْ كانَ في أخِي ما أقولُ؟ قال: إنْ كانَ فيه ما تقولُ فقَدِ اغتَبْتَه، وإنْ لمْ يكُنْ فيه فقَدْ بَهَتَّه))(٢).



حَرَّم الإسلامُ الغِيبةَ تَحريمًا مُغَلَّظًا، فجعَلَها من كَبائرِ الذُّنوبِ، وهي مِن أكثَرِها انتشارًا بيْن النَّاسِ، حتَّى إنَّه لا يَكادُ يَسلَمُ منها إلَّا القليلُ مِن النَّاسِ، وهي ذِكرُ الشَّخصِ بما يَكرَهُه ممَّا هو فيه في حالِ غَيبتِه، سواءٌ كان ذلك في بَدَنِ الشَّخصِ، أو دِينِه أو دُنياه، أو نَفْسِه، أو خُلُقِه أو خَلْقِه، أو مالِه، أو والِدِه أو وَلَدِه، أو زَوجِه أو خادِمِه، أو ثَوبِه أو حَرَكتِه، أو طَلاقتِه أو عُبوسِه، أو غيرِ ذلك ممَّا يَتعلَّقُ به، سواءٌ ذَكَرْتَه باللَّفظِ أو بالإشارةِ والرَّمزِ. وقد شَنَّع اللهُ تعالى في هذه الآيةِ على الوُقوعِ في هذا الذَّنبِ، وجَعَل له صُورةً

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢) واللفظ له، ومسلم (٢٦٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٩).

قَبيحةً بَشِعةً تشْمَئِزُّ منها النُّفوسُ السَّوِيَّةُ؛ فجَعَل المُغتابَ كالذي يَأْكُلُ لَحْمَ أخيهِ بعْدَ مَماتِه، فإذا كان الإنسانُ يَكرَهُ ذلك فلْيَكْرَهْ أيضًا غِيبةَ أخيه المسلمِ، ويَتقذَّرْ منها.

وفي كَلمةِ ﴿مَيْتًا﴾ إشارةٌ إلى دفْعِ وَهْمٍ، وهو أنْ يُقالَ: القَولُ في الوجْهِ يُؤلِمُ فيَحرُمُ، وأمَّا الاغتيابُ فلا اطِّلاعَ عليه للمُغتابِ، فلا يُؤلِمُ، فيُقالُ: أكْلُ لحْمِ الأخِ وهو مَيْتٌ أيضًا لا يُؤلِمُ، ومع هذا هو في غايةِ القُبْحِ، فلو اطَّلَعَ عليه لَتألَّمَ، ولو أحسَّ بأكْلِ لَحمِه لَآلَمَه.

وفي هذا الحديثِ يُبيِّنُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَفهومَ الغِيبةِ المُحرَّمةِ، فَيَسألُ أصحابَه رضِيَ اللهُ عنهُم عن معْناها ومَعرفتِهم بها، فَأجابوا: «اللهُ ورَسولُه أعلمُ»، فَأجابَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّها ذِكْرُكَ أَخاكَ المسلمَ في غِيابِه بكلامٍ وأوصافٍ مذْمومةٍ لو كان حاضرًا أو وصَلَتْ له؛ لكرِهَها. فَسَأَلَ بعضُ الصَّحابةِ رضِيَ اللهُ عنهم النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا إذا كانت هذه الأوصافُ أو بعضُها مُتحقِّقةً في صاحبِها: أَيُعَدُّ هذا مِن الغِيبةِ المَنهيِّ عنها؟ فَأجابَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنْ كان فيه ما تقولُ مِنَ العَيبِ والمَنقصَةِ فَقدِ اغتَبْتَه؛ فلا مَعنى للغِيبةِ إلَّا هذا، وهو أنْ تكونَ المَنْقصةُ مَوجودةً فيه، وإنْ لم يَكُنْ فيه ما تقولُ فقد قُلْتَ عليه البُهتانَ، وهو كَذِبٌ عَظيمٌ وذنْبٌ أعظَمُ مِن الغِيبةِ.

والغِيبةُ وإن كانت محرَّمةً فإنَّها تُباحُ في بعضِ الأحوالِ للمصلحةِ؛ ومن ذلك: دفْعُ الظُّلمِ، بحيثُ يَذكُرُ المَظلومُ مَن ظلَمَه، فيَقولُ: ظَلَمَني فلانٌ، أو فَعَل بي كذا. ومنها: التَّحذيرُ مِن شرِّ مَن عُرِفَ بالسُّوءِ ونَصيحةُ مَن يَتعامَلُ معه. ومنها: المُشَاوَرَةُ في أمْرِ المُصاهَرَةِ أو المُشارَكةِ أو المُجاوَرَةِ، ونَحوِ ذلكَ. ومنها: غِيبةُ المُجاهِرِ بفِسْقِه أو بِدعَتِه، كالخَمرِ؛ فيَجوزُ ذِكرُه بما يُجاهِرُ به فقطْ. ومنها: التَّعريفُ؛ فمَن عُرِفَ بلَقَبٍ، كالأعمى والأعرَجِ ونَحوِهما، فيجوز ذِكرُه بذلك للتَّعريفِ، ويَحرُمُ ذِكرُه به



تنقُّصًا، والتعريفُ بغَيرِه أَولى إذا أمْكَنَ.

ذَمُّ النَّميمةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١].

وعن حُذيفةَ بنِ اليمانِ رضِيَ اللهُ عنهما قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ قَتَّاتٌ))(١).



النَّميمةُ هي نَقْلُ كَلامِ الناسِ بعضِهم إلى بَعضٍ على جِهةِ الإفسادِ بيْنهم، وهي خُلقٌ قَبيحٌ مذْمومٌ، يُعابُ صاحبُه في الدُّنيا، ويُعاقَبُ عليه في الآخرةِ عِقابًا شَديدًا، **وفي هذه الآيةِ الكريمةِ** نَهى اللهُ تَبارَك وتَعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن طاعةِ النَّمَّامِ الذي يَمْشي بيْن النَّاسِ بالنَّميمةِ.

وفي حَديثِ حُذيفةَ رضِيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِقابَ مَن تَلبَّسَ بهذا الخُلقِ المَقيتِ، وأنَّه «لا يَدخُلُ الجنَّةَ قَتَّاتٌ»، والقَتَّاتُ: مِن: قَتَّ الحديثَ يَقُتُّه قَتًّا: إذا تَسمَّع إلى حَديثِ شَخصٍ فنقَلَه إلى غيرِه بقَصْدِ الإفسادِ بيْنهما، وهو النَّمَّامُ. وهذا وَعيدٌ شَديدٌ في حقِّه، ولعلَّ عدَمَ دُخولِه الجنَّةَ معْناه: أنَّه إذا كان مُسلِمًا وماتَ على التَّوحيدِ، فإنَّه لا يَدخُلُ الجَنةَ مع الدَّاخلينَ الأوَّلينَ، أو حتى يَتوبَ؛ فليس معنى الحديثِ أنَّه لن يَدخُلَها بالكُلِّيَّةِ؛ لأنَّ الموَحِّدَ لا بُدَّ أنْ يَدخُلَ الجنَّةَ، وأمَّا أهلُ السَّيِّئاتِ فتَحْتَ مَشيئةِ اللهِ تعالَى؛ فقد يُعذَّبونَ أوَّلًا، ثمَّ يُخرِجُهم اللهُ مِن النَّارِ إلى الجنَّةِ، وقد يُعفَى عنهم دونَ عَذابٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

خُطورةُ التَّحدُّثِ من غَيرِ تَثَبُّتٍ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((كَفَى بالمَرءِ كَذِبًا أنْ يُحدِّثَ بكُلِّ ما سَمِعَ))(١).



المُسلِمُ مأمورٌ بالتَّثبُّتِ مِن كُلِّ ما يَقولُه أو يَنقُلُه، حتى لا يَقَعَ في الكَذِبِ. والتَّثبُّتُ معناه التَّبيُّنُ وتَحَرِّي الصِّحَّةِ، **وفي الآيةِ الأُولى** يَنهَى اللهُ تعالى الإنسانَ عن قولِ أو فِعلِ شَيءٍ بمجَرَّدِ الظَّنِّ، فيَتْبَعُ ما لا عِلمَ له به، ولا دليلَ لديهِ على صِحَّتِه، فليس له أنْ يتكَلَّمَ بلا عِلْمٍ، ولا ينفيَ شيئًا إلَّا بعِلْمٍ، ولا يُثْبِتَه إلَّا بعِلْمٍ، فيتأكَّدُ ويتثبَّتُ في قولِه وغيرِه؛ لأنَّ سَمْعَ الإنسانِ وبَصَرَه وقَلْبَه، كُلُّ هذه الأعضاءِ العاليةِ المنافِعِ، البَديعةِ التَّكوينِ، سيَسألُ اللهُ الإنسانَ عنها يومَ القيامةِ فيما استعمَلَها، وتُسأَلُ هي عمَّا عَمِلَ فيها صاحِبُها، فتَشهَدُ عليه بما قال وفعَل مِن خَيرٍ وشَرٍّ. فهذا أدَبٌ عَظيمٌ، ومَنهَجٌ سَديدٌ يُجنِّبُ الأُمَّةَ الوُقوعَ في الأضرارِ والمهالِكِ؛ مِن جَرَّاءِ الاستِنادِ إلى أدِلَّةٍ مَوهومةٍ.

وفي الآيةِ الثَّانيةِ تَوجيهٌ إلهيٌّ كريمٌ إلى المؤمِنينَ بأنْ يَتبيَّنوا إنْ جاءهم فاسقٌ بأيِّ

---

(١) أخرجه من طرقٍ: مسلمٌ في ((مقدمة صحيحه)) (٥) واللفظ له، وأبو داود (٤٩٩٢).

صحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (٣٠)، والسخاوي في ((فتح المغيث)) (٢/ ٣٤٧)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٩٢)، وذكَرَ ثُبوتَه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٥/ ٣٣٠)، وابن دقيق في ((شرح العمدة)) (٢/ ٤٦٢)، وابن الملقن في ((الإعلام)) (٤/ ٢٥)،



خبَرٍ كان، ويتَمهَّلوا ويتوقَّفوا عن قَبولِه بمجَرَّدِه، حتى يتيقَّنوا منه، فيَتبيَّنوا صِدقَه أو كَذِبَه، وتَظهَرَ لهم حقيقةُ الأمرِ؛ لئلَّا يُصِيبوا بالأذى والضَّرَرِ -خطأً وجهْلًا منهم- قومًا بُرآءَ ممَّا قُذِفوا به أو أُشيعَ عنهم، بسَببِ تَصديقِهم الفاسقَ في خبَرِه الكاذبِ، فيَنْدَموا على تَعجُّلِهم، وتَرْكِهم التَّبيُّنَ والتَّثبُّتَ.

وفي حديث أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مِن أسبابِ الوُقوعِ في الكَذِبِ أنْ يَتكَلَّمَ المرءُ ويُخبِرَ بكُلِّ ما سَمِعَه دونَ تَمحيصٍ أو تَثبُّتٍ؛ لأنَّ الإنسانَ يَسمعُ في العادةِ الصِّدقَ والكَذِبَ، فإذا حدَّثَ بكُلِّ ما سَمِعَ فقد أخبَرَ بكلامٍ فيه بَعضُ الكَذِبِ؛ لإخْبارِه بما لم يَكُنْ، حتى وإنْ لم يَتعَمَّدْ ذلك؛ لِأنَّ الكَذِبَ في الحَقيقةِ هو الإخبارُ عنِ الشَّيءِ بخِلافِ حَقيقَتِه، وهذه دَعوةٌ نَبَويَّةٌ إلى التَّحرِّي في الإخبارِ، وعَدَمِ نَقلِ كُلِّ ما يُقالُ دونَ تَمحيصٍ، وفي هذا تَحذيرٌ مِن كَثرةِ الكَلامِ التي تُؤدِّي إلى الوُقوعِ في المَحذوراتِ.

آدابُ النومِ والطعامِ والشرابِ والطريقِ

آدابُ النَّومِ

عن حَفْصةَ رضِيَ اللهُ عنها؛ زَوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا أرادَ أنْ يَرقُدَ وضَعَ يدَه اليُمْنى تحتَ خَدِّهِ، ثم يقولُ: ((اللَّهُمَّ قِنِي عذابَكَ يومَ تَبعَثُ عِبادَكَ))[1].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: ((إذا أتَيتَ مَضجَعَك فتوضَّأْ وُضوءَكَ للصَّلاةِ، ثمَّ اضْطَجِعْ على شِقِّكَ الأيْمَنِ، ثمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أسلَمْتُ وَجْهي إليك، وفَوَّضْتُ أمْري إليك، وألجَأْتُ ظَهْري إليك؛ رَغْبةً ورَهْبةً إليك، لا مَلجَأَ ولا مَنجا منك إلَّا إليك، اللَّهُمَّ آمَنتُ بكِتابِك الذي أنزَلتَ، وبنَبيِّكَ الَّذي أرسَلْتَ. فإنْ مِتَّ مِن لَيلتِك فأنتَ على الفِطْرةِ، واجْعَلْهُنَّ آخِرَ ما تَتكلَّمُ به. قال: فرَدَّدْتُها على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فلمَّا بَلَغْتُ: اللَّهمَّ آمَنتُ بكِتابِك الَّذي أنزَلْتَ، قُلْتُ: ورَسولِك، قال: لا، ونَبيِّك الَّذي أرسَلْتَ))[2].

وعن أبي هَرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: ((إذا أوَى أحَدُكم إلى فِراشِه فلْيَنفُضْ فِراشَه بداخِلةِ إزارِه؛ فإنَّه لا يَدْري ما خَلَفَه عليْه، ثمَّ يَقولُ: باسْمِك رَبِّ وَضَعْتُ جَنبي، وبك أرْفَعُه، إنْ أمسَكْتَ نَفسِي فارْحَمْها، وإنْ أرسَلْتَها

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٤٥)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٥٩٧)، وأحمد (٢٦٤٦٥).

حسَّنه ابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٣/ ١٤٨)-، وحسَّن إسنادَه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٦/ ٤١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٤٥)، وصَحَّحه لغيره شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥٠٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧) واللفظ له، ومسلم (٢٧١٠).



فاحْفَظْها بما تَحفَظُ به عِبادَك الصَّالِحينَ))[1].

وعن حُذيفةَ بنِ اليَمانِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا أخَذَ مَضجَعَه مِن اللَّيلِ وَضَعَ يَدَه تحْتَ خَدِّه، ثمَّ يَقولُ: **((اللَّهُمَّ باسْمِك أمُوتُ وأَحيا. وإذا استَيقَظَ قال: الحَمدُ للهِ الذي أحْيانَا بعْدَ ما أماتَنا وإليه النُّشورُ))**[2].

وعن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها: **((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ إذا أوَى إلى فِراشِه كُلَّ لَيلةٍ جَمَع كَفَّيهِ، ثمَّ نَفَثَ فِيهِما فقَرَأَ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثمَّ يَمْسَحُ بهِما ما اسْتَطاعَ مِن جَسَدِه؛ يَبْدَأُ بهِما علَى رَأْسِهِ ووَجْهِهِ وما أقْبَلَ مِن جَسَدِه، يَفْعَلُ ذلكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ))**[3].

وعن أبي مُوسى رضِيَ اللهُ عنه، قال: احْتَرَقَ بَيتٌ بالمَدِينةِ على أهْلِه مِنَ اللَّيلِ، فَحُدِّثَ بشَأْنِهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: **((إنَّ هذِه النَّارَ إنَّما هي عَدُوٌّ لَكُم، فإذا نِمْتُم فأطْفِئُوها عَنكم))**[4].



في الحديثِ الأوَّلِ تَروي حَفصةُ رضِيَ اللهُ عنها؛ زَوجُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا أرادَ أنْ يَرقُدَ وَضَعَ يَدَه اليُمْنى تحتَ خَدِّه الأيمَنِ مُتوسِّدًا لها، وهذه الهيئةُ في النَّومِ كانتْ مُحبَّبةً إلَى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكان يَأمُرُ بها، كما في رِوايةِ البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنه الآتيةِ، ثُمَّ يَدْعو اللهَ أنْ يَحميَه ويُبعِدَه عن عَذابِه يومَ القيامةِ: «اللَّهُمَّ قِني عذابَك يومَ تَبعَثُ عِبادَك»: أدْعوكَ

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٠) واللفظ له، ومسلم (٢٧١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٤) وأخرجه مسلم (٢٧١١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٠١٦).



يا ربِّ أنْ تَحميَني وتُبعِدَني عن عَذابِ الآخِرةِ يومَ تَبعَثُ الناسَ يومَ القيامةِ.

وفي الحديثِ الثَّاني يَروي الصَّحابيُّ الجَليلُ البَراءُ بنُ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَلَّمَه بَعضَ الآدابِ والأذْكارِ والأدْعيةِ التي يَنبَغي قَولُها قبْلَ النَّومِ؛ فأَخبَرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا أرادَ أنْ يأْوِيَ إلى فِراشِ نَومِه، فإنَّه يَتَوضَّأُ وُضوءًا كامِلًا مِثلَ وُضوئِه للصَّلاةِ، ثمَّ يَضطَجِعُ ويَنامُ على جَنبِه الأيْمَنِ؛ لأنَّ التَّيامُنَ أصلٌ في الشَّرْعِ في كُلِّ ما هو مُستَحسَنٌ، ثمَّ أوْصاهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ -وهو على هذه الهَيئةِ-: «اللَّهمَّ أسلَمْتُ وَجْهي إليك» فأسلَمْتُ لك نَفْسي ورُوحي عندَ نَومي، وأودَعْتُها أمانةً لَدَيك، «وفوَّضتُ أَمْري إليك» وأسلَمْتُها مُتوكِّلًا في جَميعِ أُموري علَيْك، راجِيًا أنْ تَكفِيَني كُلَّ شَيءٍ، وتَحمِيَني مِن كُلِّ سُوءٍ، «وألْجَأْتُ ظَهْري إليك» فتَحصَّنْتُ بجِوارِك، ولَجَأْتُ إلى حِفظِك؛ فاحْرُسْني بِرعايتِك، واكْلَأْني بحِفظِك؛ فأنتَ القَيُّومُ، القائِمُ على كُلِّ نَفْسٍ، الذي لا تَأخُذُه سِنَةٌ ولا نَومٌ، «رَغْبةً ورَهْبةً إليك»، أي: إنَّما فَعَلْتُ ذلك كلَّه طَمَعًا في رَحْمتِك، وخَوفًا مِن عَذابِك؛ فإنَّه لا مَفَرَّ منك إلَّا إليك، ولا مَلاذَ مِن عُقوبتِك إلَّا بالالتِجاءِ إلى عَفوِك ومَغفرتِك يا أرحَمَ الرَّاحِمينَ، «آمَنتُ بكِتابِك الذي أنزَلْتَ» وهو القُرآنُ الكَريمُ، «ونَبيِّك الذي أرسَلْتَ» وهو مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، الذي أرسَلْتَه إلى العالَمين نَذيرًا وبَشيرًا.

ثمَّ أخبَرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا قال هذا الدُّعاءَ، ثمَّ ماتَ في تلك اللَّيلةِ التي نامَ فيها؛ فإنَّه يَموتُ على الفِطْرةِ، وهي دِينُ الإسلامِ، ويَموتُ على سُنَّةِ خَيرِ الأنامِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ علَيْه وسلَّمَ.

ولِأهمِّيَّةِ هذا الدُّعاءِ وفَضْلِه أوصاهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَجعَلَه آخِرَ كَلامِه قبْلَ النَّومِ؛ وذلك حتى يَكونَ خَيرَ خِتامٍ بخَيرِ كَلامٍ قبْلَ المَوتةِ الصُّغْرى، وهي النَّومُ، حتى إذا امْتَدَّتْ مَوتتُه الصُّغْرى وقَدَّرَ اللهُ علَيْه المَوتةَ الكُبْرى، كان هذا الدُّعاءُ



خَيرَ خِتامٍ لحَياتِه، ويكونُ قد ماتَ على الفِطْرةِ والسُّنَّةِ.

وبعْدَ أنْ سَمِعَ البَراءُ بنُ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه هذا الدُّعاءَ المذكورَ في تِلكَ الوَصيَّةِ، رَدَّدَه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ؛ حتى يَتأكَّدَ مِن حِفظِه بألْفاظِه، ولكنَّه لمَّا بَلَغَ قولَه: «اللَّهمَّ آمَنتُ بكِتابِك الذي أنزَلْتَ»، قال: «ورَسولِك الَّذي أرسَلْتَ»، بَدَلًا مِن «ونَبيِّك الَّذي أرسَلْتَ»، فصَحَّحَ له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَفظَ الدُّعاءِ، فقال: قُلْ: «ونَبيِّك الَّذي أرسَلْتَ» وأَوْلى ما قيلَ في الحِكمةِ في هذا: أنَّ ألْفاظَ الأذْكارِ تَوقيفيَّةٌ، ولها خَصائِصُ وأسرارٌ لا يَدخُلُها القِياسُ، فتَجِبُ المُحافَظةُ على اللَّفظِ الذي ورَدَتْ به، فيُقتَصَرُ فيه على اللَّفظِ الوارِدِ بحُروفِه، وقد يَتَعلَّقُ الجَزاءُ بتلك الحروفِ، ولعلَّه أُوحِيَ إليه بهذه الكَلماتِ، فيَتعيَّنَ أداؤُها بحُروفِها. وقيلَ: إنَّ وَجْهَ الحِكمةِ هو أنَّه لو قالَ: «ورَسولِك» لكان تَكرارًا مع قولِه: «أرسَلْتَ»، فلمَّا كان نَبيًّا قبْلَ أنْ يُرسَلَ، صَرَّحَ بالنُّبوَّةِ؛ للجَمعِ بيْنها وبيْن الرِّسالةِ، وإنْ كان وَصْفُ الرِّسالةِ مُستَلزِمًا وَصْفَ النُّبوَّةِ، مع ما فيه مِن تَعديدِ النِّعَمِ وتَعظيمِ المِنَّةِ في الحالَينِ، فاخْتارَ أنْ يُثنِيَ عليْه بالجَمعِ بيْن الوَصْفَينِ.

وفي الحديثِ الثَّالثِ يُعلِّمُنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَدَبًا مِن آدابِ ما قبْلَ النَّومِ، وهو مِن صِيانةِ الشَّريعةِ للمُسلِمِ في بَدَنِه، فإذا أرادَ المُسلِمُ أنْ يَطَأَ فِراشَه لِيَنامَ عليْه، فعليْه أنْ يَنفُضَ مَوضِعَ نَومِه وفِراشَه ويُنَظِّفَه «بِداخِلةِ الإزارِ»، أي: بطَرَفِ إزارِه، وكَونُه بداخِلةِ الإزارِ وناحِيتِه الَّتي لا تَظهَرُ للنَّاسِ؛ قيلَ: حتى لا يَتَّسِخَ، أو لأنَّ المُتحَوِّلَ إلى فِراشِه يَحُلُّ بيَمينِه خارجةَ الإزارِ، وتَبْقى الدَّاخِلةُ مُعلَّقةً فيَنفُضُ بها. وقيلَ: داخِلةُ الإزارِ: هو الطَّرَفُ المُتَدلِّي الذي يَضَعُه المُؤتَزِرُ، وبذلك يَنفُضُ الفِراشَ ويَدُه مَستورةٌ بطَرَفِ إزارِه؛ لِئلَّا يَحصُلَ في يَدِه مَكروهٌ إنْ كان هُناك شَيءٌ ضارٌّ. وفي رِوايةٍ: ((فلْيَنفُضْه بصَنِفةِ ثَوبِه ثَلاثَ مرَّاتٍ))(١)، أي: بطَرَفِه، ولو فعَلَ ذلك بغَيرِ طَرَفِ ثَوبِه

(١) أخرجه البخاري (٧٣٩٣).

حصَلَ المقصودُ، وأمَرَ بأنْ يكونَ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ؛ للمُبالَغةِ، وليَكونَ ذلك وِترًا.

ثمَّ بيَّنَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ سَببَ النَّفْضِ بأنَّه لا يَدْري ما خَلَفَه عليْه وما جاءَ بعْدَه وأعقَبَه في الفِراشِ؛ كقَذَرٍ أو هَوَامَّ، خاصَّةً وأنَّ البُيوتَ حِينَئذٍ كانت مُظلِمةً، ولم يَكُنْ فيها المَصابيحُ لِيَرَوْا ما بالفِراشِ، وليس عندَ النَّاسِ فُسحةٌ وسَعةٌ في الثِّيابِ، وأيضًا لم يَكُنِ البَيتُ مُحكَمَ الغَلْقِ ضِدَّ الآفاتِ وغَيرِها؛ فأمَرَ بنَفْضِ الفِراشِ بداخِلةِ الإزارِ لِئلَّا تُؤذِيَه الهَوامُّ، ثمَّ بعْدَ أنْ يُنظِّفَ الفِراشَ يَدْعو بهذا الدُّعاءِ: «باسْمِك رَبِّ»، أي: مُستَعينًا بذِكرِ اللهِ عندَ النَّومِ، «وَضَعْتُ جَنبي»، والمُرادُ به: جَنبُه الأيْمَنُ، كَما وَضَّحَ حديثُ البَراءِ المُتقَدِّمُ، «وبك أرْفَعُه»، أي: بإقْدارِك إيَّاي على وَضْعِ جَنْبي وَضَعْتُه، وبإقْدارِك إيَّاي على رَفْعِه أرْفَعُه، كما أنَّه بقُدرتِك وإحْيائِك إيَّاي أحْيا، وبإماتتِك إيَّاي أمُوتُ، فلا حَولَ لي ولا قُوَّةَ إلَّا بك، وقد عَبَّرَ بالوضعِ والرَّفعِ في الحديثِ عن النَّومِ والاستيقاظِ منه.

«إنْ أمسَكْتَ نَفْسي فارْحَمْها»، أي: إنْ قَبَضْتَ رُوحي في مَنامِي فاجْعَلْني في رَحْمتِك ومَغفِرتِك، «وإنْ أرسَلْتَها» ولم تَقْضِ عليْها المَوتَ وقامَتْ مِن مَنامِها، «فاحْفَظْها بما تَحفَظُ به عِبادَكَ الصَّالِحينَ» بأنْ تَجعَلَني مِن أهلِ الطَّاعةِ والصَّلاحِ، وإنَّ مِن أهمِّ أنواعِ حِفظِ نَفْسِ المُؤمِنِ الصَّالِحِ عِصْمَتَها عن المَعاصي والذُّنوبِ، وهذا مِنِ اتِّخاذِ الأسْبابِ المادِّيَّةِ والشَّرعيَّةِ لحِمايةِ النَّفْسِ مِن مَخاطِرِ المَخلوقاتِ وغَيرِها حِينَ نَومِه وغَفْلتِه عمَّا هو حَولَه، فيَكونُ في رِعايةِ اللهِ وَحْدَه.

وفي الحديثِ الرَّابعِ يَرْوي الصَّحابيُّ الجَليلُ حُذيفةُ بنُ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا أرادَ أنْ يَنامَ في اللَّيلِ، وأخَذَ مَوضِعَه مِن فِراشِه، واضْطَجَع على جَنبِه الأيْمَنِ؛ وَضَعَ يَدَه تحْتَ خَدِّه يَتوسَّدُها ويَنامُ عليْها، ثمَّ يَدْعو بهذا الدُّعاءِ: «اللَّهمَّ باسْمِك أمُوتُ وأَحْيا» فبذِكرِ اسْمِك أحْيا ما حَيِيتُ، وعليْه أموتُ، فلا



أَنْفَكُّ عنه ولا أَهْجُرُه، مَحْيايَ ومَماتِي. وقيل: مَعناه: بك أَحْيا، فأنتَ الذي تُحْيِينِي، وأنتَ الذي تُميتُني بإرادتِك وقُدرتِك. والمُرادُ بالمَوتِ هُنا: النَّومُ؛ لأنَّه هو المَوتةُ الصُّغْرى، فباسْمِك أنامُ وأستَيقِظُ، وسُمِّيَ النَّومُ مَوتًا؛ لأنَّه يَزولُ معه العَقلُ والحَركةُ، تَمثيلًا وتَشْبيهًا بالمَوتِ الأكبَرِ.

وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أيضًا إذا استَيقَظَ ذَكَرَ اللهَ تعالى فقالَ: «الحَمدُ للهِ الذي أَحيانَا بعْدَ ما أماتَنا وإليه النُّشورُ»؛ وذلك لأنَّ النَّومَ مِن المَوتِ، واللهُ يَرُدُّ رُوحَ النَّائمِ عليْه عندَ استِيقاظِه؛ ولذلك حَمِدَ اللهَ على رَدِّه رُوحَه إليه ويَقَظتِه. وقولُه: «وإليه النُّشُورُ»، أي: إليه الإحْياءُ للبَعْثِ يومَ القِيامةِ، فنَبَّهَ بإعادةِ اليَقَظةِ بعْدَ النَّومِ -الذي هو مَوتٌ- على إثْباتِ البَعثِ بعْدَ المَوتِ.

وقيلَ: مَعناه: إليه المَرجِعُ في نَيلِ الثَّوابِ ممَّا نَكتَسِبُه في حَياتِنا هذه، وحِكمةُ ذِكرِ اللهِ عندَ الصَّباحِ؛ ليَكونَ مُفتتَحَ الأَعمالِ وابتِداءَها، وكذلك الحالُ عندَ النَّومِ؛ ليَختِمَ عَمَلَه بذِكرِه تعالى، فتَكتُبَ الحَفَظةُ في أوَّلِ صَحيفتِه عَملًا صالِحًا، وتَختِمَها بمِثلِه؛ فيُرْجى له مَغفِرةُ ما بيْن ذلك مِن ذُنوبِه.

وفي الحَديثِ الخامسِ تَحكي عائِشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ إذا أَوى إلى فِراشِه كُلَّ ليلةٍ، «جَمَعَ كَفَّيه» كما يَفعَلُ الدَّاعي، «ونَفَثَ فيهما» بفَمِه، والنَّفثُ: نَفخٌ لَطيفٌ بلا رِيقٍ، على المشهورِ، ثم قَرَأَ فيهما بالمُعوِّذاتِ الثَّلاثِ، «ثمَّ يَمسَحُ بهما ما استَطاعَ مِن جَسدِه»، بادِئًا بِرأسِه وبالجُزءِ الأماميِّ مِن بَدنِه، ثم يَقرَأُ مرَّةً أُخرى ويَمسَحُ على الصِّفةِ السابقةِ، ثم يَقرَأُ ويَمسَحُ مرَّةً ثالثةً.

وفي قِراءةِ هذه السُّوَرِ الثَّلاثِ قبْلَ النَّومِ صِيانةٌ للإنسانِ وحِفظٌ له مِن المَكارِه.

وفي الحَديثِ السَّادسِ نهْيٌ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن تَرْكِ النَّارِ مُشتعِلةً في البيتِ عندَ النومِ؛ فقد حُدِّثَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بشَأنِ بَيتٍ

احترَق في المدينةِ، فنبَّه صلَّى الله عليه وسلَّم على ضَررِ النَّارِ وخطَرِها إذا لم تُحفَظْ وتُراعَ، حتَّى سمَّاها عَدُوًّا للناسِ، ومعنى كَونِها عدُوًّا لنا: أنَّها إذا ظَفِرتْ بنا في أيِّ وقتٍ وأيِّ مكانٍ، تَمكَّنَت مِن كلِّ شيءٍ حتى تُحرِقَه وتَجعَلَه رَمادًا؛ ولذا أمَرَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُطفِئوا النَّارَ عندَ إرادةِ النَّومِ؛ حتَّى لا تَنتشِرَ في غَفلةٍ منهم، ويَدخُلُ في ذلك تَرْكُها مُشتعِلةً، وليس هناك مَن يَرْعاها ويَتنبَّهُ لها؛ للانشغالِ أو الغيابِ عنها.

ما يَفْعَلُ مَن رأى في نَومِه ما يَكرَهُه

عن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: ((الرُّؤْيا مِن اللهِ، والحُلْمُ مِن الشَّيطانِ، فإذا رَأى أحَدُكم شَيئًا يَكرَهُه، فلْيَنْفُثْ عن يَسارِه ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ولْيَتَعوَّذْ باللهِ مِن شرِّها؛ فإنَّها لنْ تَضُرَّه))[1].



أرشَدَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُسلمَ إلى ما يَحفَظُه اللهُ به ويَرْعاه مِن كلِّ ما يتعرَّضُ له مِن شَرٍّ في يَقَظتِه ومَنامِه، ومِن الصُّورِ التي يَأْتي فيها الشَّرُّ للإنسانِ أثناءَ مَنامِه: الأحْلامُ المُفزِعةُ.

وفي هذا الحَديثِ يُخبِرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ «الرُّؤْيا مِن اللهِ تعالَى»، والمُرادُ بها: الرُّؤيا الحَسَنةُ التي تأْتي في المَنامِ، فيَرَى فيها الإنسانُ شَيئًا حَسَنًا، أو خيرًا يَستَبشِرُ به، ونَحوَ ذلك. وأنَّ «الحُلْمَ مِن الشَّيطانِ»، والمُرادُ به: ما كان أضْغاثَ أحْلامٍ، وحَديثَ نَفْسٍ يَرَى فيه شَيئًا يُخوِّفُه ويَكرَهُه؛ فهذه هي التي مِن الشَّيطانِ، كمَا أخبَرَ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ؛ فالشَّيطانُ يَتربَّصُ لابنِ آدَمَ، فيُرِيه في مَنامِه ما يُفزِعُه، فأرشَدَ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١) واللفظ له.



النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَن رَأى ما يَكرَهُ في مَنامِه؛ أنَّه إذا اسْتَيقظَ مِن ذلك الحُلْمِ -وخاصَّةً إذا كان استِيقاظُه على أثَرِه، أو كان الحُلْمُ هو السَّبَبَ في يَقَظتِه- فلْيَنْفُثْ عن جانِبِه الأَيسَرِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، والنَّفْثُ: نَفْخٌ لَطيفٌ بلا رِيقٍ. وخَصَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جِهةَ اليَسارِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَأْتي ابنَ آدَمَ مِن قِبَلِ اليَسارِ ليُوَسوِسَ له في قَلبِه، والقَلبُ قَريبٌ مِن جِهةِ اليَسارِ.

ثمَّ أرْشَدَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَستَعيذَ باللهِ سُبحانَه مِن الشَّرِّ الذي اشتَمَلَ علَيْه حُلْمُه هذا؛ فإنَّ الإنسانَ إذا أتَى تلك الآدابَ والْتَزَمَها؛ فإنَّه يَتخَلَّصُ مِن الفَزَعِ الذي أصابَه بسَبَبِ ما رَآه في النَّومِ، وكذلك فإنَّ اللهَ تَعالى جعَلَ هذا سَببًا لسَلامتِه مِن مَكروهٍ يَترتَّبُ عليها، وقد جاءَ في رِوايةٍ: ((ولا يُخبِرْ بها أحدًا))(١).

آدابُ الأكْلِ والشُّربِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وعن عبدِاللهِ بنِ عُمرَ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا أكَلَ أحَدُكم فلْيَأكُلْ بيَمِينِه، وإذا شَرِبَ فلْيَشْرَبْ بيَمِينِه؛ فإنَّ الشَّيطانَ يَأْكُلُ بشِمالِه، ويَشرَبُ بشِمالِه))(٢).

وعن عُمرَ بنِ أبي سلَمةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: كُنتُ غُلامًا في حَجْرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكانتْ يَدِي تَطِيشُ في الصَّحْفةِ، فقال لي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يا غُلامُ، سَمِّ اللهَ، وكُلْ بيَمِينِك، وكُلْ ممَّا يَلِيكَ. فما زالَتْ تلك طِعْمَتي بَعْدُ))(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٦١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٧٦) واللفظ له، ومسلم (٢٠٢٢).



وعن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، قالت: كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأكُلُ طَعامًا في سِتَّةٍ مِن أصحابِه، فجاءَ أعْرابيٌّ جائعٌ فأكَلَهُ بلُقمَتَينِ، فقال: ((أمَا إنَّهُ لو ذكَرَ اسمَ اللهِ عزَّ وجَلَّ كَفاكم، فإذا أكَلَ أحَدُكم فلْيَذكُرِ اسمَ اللهِ، فإنْ نَسِيَ اسمَ اللهِ في أوَّلِه فلْيَقُلْ: باسمِ اللهِ أوَّلَه وآخِرَه))[1].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ لَيَرْضَى عنِ العَبْدِ أنْ يَأكُلَ الأكْلةَ فيَحمَدَه عليْها، أو يَشرَبَ الشَّرْبةَ فيَحمَدَه عليْها))[2].



في هذه الآيةِ الكَريمة أمَر اللهُ تبارك وتعالى عبادَه بأن يأكُلُوا ويَشرَبوا مِمَّا أحلَّه لهم مِنَ الطَّيباتِ، وألَّا يُفرِطُوا في تناوُلِ الأكلِ والشُّربِ بالزِّيادةِ على القَدْرِ الكافي، ولا يتجاوَزوا حُدودَ اللهِ، فيُحَرِّموا ما أحَلَّه اللهُ مِنَ الأطعمةِ والأشرِبةِ، أو يتناوَلوا ما حَرَّمَه منها؛ فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المجاوِزينَ أمْرَه، الغالينَ فيما أحلَّ أو حرَّم، المُستكثِرينَ ممَّا لا ينبغي الاستِكثارُ منه؛ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ وغيرِ ذلك.

ففي هذه الآيةِ النَّهيُ عن الإسرافِ في الطَّعامِ والشَّرابِ؛ فإنَّ السَّرَفَ يُبغِضُه اللهُ تعالى، ويَضُرُّ بَدنَ الإنسانِ ومَعيشَتَه.

وفي هذه الأحاديثِ جُملةٌ مِن آدابِ الطَّعامِ والشَّرابِ يُعلِّمُها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٦٧)، والترمذي (١٨٥٨)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠١١٢)، وأحمد (٢٦٢٩٢) واللفظ له.

قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٧٠٨٧)، وصحَّح الحديثَ ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٤/ ٢٦٩)، وابنُ القيم في ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٦٢)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٨٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٤).



وسلَّمَ لأُمَّتِه؛ **ففي الحديثِ الأولِ** تَوجيهٌ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ نَأكُلَ باليمينِ إذا أكَلْنا، وأنْ نَشرَبَ باليمينِ إذا شَرِبْنا، ويَنهانا عنِ استخدامِ الشِّمالِ في هذينِ الأمْرينِ، وهذا مِن أسبابِ البرَكةِ. ويُعلِّلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَببَ ذلك بكونِ الشَّيطانِ يَأكُلُ بشِمالِه، ويَشرَبُ بشِمالِه؛ فعلى المسلمِ أنْ يَلتزِمَ هَديَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا مِن عُذرٍ يَمنَعُ الأكلَ والشُّربَ باليَمينِ؛ مِن مَرَضٍ، أو جِراحةٍ، أو غيرِ ذلك.

وفي الحديثِ الثَّاني تَوجيهٌ مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِعُمرَ بنِ أبي سَلَمَةَ، ولِأُمَّتِه عُمومًا؛ حيثُ كان عُمرُ بنُ أبي سَلَمةَ صَبيًّا صَغيرًا في تَربيتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتحتَ رِعايتِه؛ لكونِه زوجَ أُمِّه أُمِّ سَلَمةَ رضِيَ اللهُ عنها، وكانتْ يَدُ عُمرَ تَطيشُ في الصَّحْفةِ، يُحرِّكُها في جَوانبِ إناءِ الطَّعامِ؛ لِيلتقِطَه، فأمَرَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّسميةِ عندَ الطَّعامِ، وأنْ يَأكُلَ بيَمينِه، وأنْ يَأكُلَ مِنَ الجانبِ الَّذي يَقرُبُ منه مِن الطَّعامِ، وهذا إذا تَساوتْ أجناسُه، وأمَّا إذا اختلفَتْ أجناسُ الطَّعامِ في القَصعةِ فيَجوزُ لمَن أرادَ نوعًا منه أنْ يَتتبَّعَه، كما كان الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يتتبَّعُ الدُّبَّاءَ -أي: القَرْعَ- مِن القَصعةِ التي يأكُلُ منها[1]؛ فالْتزَمَ عمرُ بنُ أبي سَلَمةَ أمْرَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وحكَى أنَّها صارتْ طَريقتَه التي حافَظَ عليها في طَعامِه منذُ سَمِعَ هذا الكلامَ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

وفي الحَديثِ الثالثِ تَحكي عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَأكُلُ طَعامًا في سِتَّةٍ مِن أصحابِه، فجاء أعْرابيٌّ جائعٌ -والأعرابيُّ هو مَن يَسكُنُ الصَّحراءَ منَ العَربِ- فأكَلَ الطَّعامَ كلَّه في مرَّتَينِ بلُقْمَتَينِ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أمَا إنَّه لو ذكَرَ اسمَ اللهِ عزَّ وجَلَّ لكَفاكم» الطَّعامُ؛ وذلك لِمَا

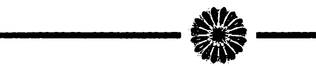
(١) أخرجه البخاريُّ (٢٠٩٢) واللفظ له، ومسلم (٢٠٤١).

يَنزِلُ منَ البَرَكةِ على الطَّعامِ، ويَمنَعُ الشَّيطانَ منَ المُشارَكةِ له في طَعامِه، وهذا يدُلُّ على أنَّه لا يَكْفي تَسميةُ بَعضِ الآكِلينَ، بل لا بُدَّ مِن تَسميةِ كلِّ واحدٍ، ثمَّ أرشَدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى التَّسميةِ على الطَّعامِ، وأمَرَ بها، ومَن نَسِيَها فلْيَأتِ بها وقتَ ذِكْرِها بقَولِه: «باسمِ اللهِ أوَّلَه وآخِرَه»؛ فإنَّه يتِمُّ بذلك الوَفاءُ بسُنَّةِ التَّسميةِ، وهذا مِن لُطفِ اللهِ ورَحمتِه.

وفي الحديثِ الرَّابعِ يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحَدَ الأُمورِ الَّتي يَستَطيعُ المُسلِمُ أنْ يَحظَى فيها بِرِضا اللهِ؛ وهو أنَّ الإنسانَ إذا أكَلَ طَعامًا حمِدَ اللهَ عليه، وقولُه: «الأكْلة» يعْني المرَّةَ الواحدةَ مِنَ الأكْلِ، كالغَداءِ والعَشاءِ، ثمَّ إنَّه إذا انْتَهى مِن طَعامِه يَحمَدُ اللهَ عليها، أو يَشرَبُ شَرابًا -كماءٍ ونحوِه- فيَحمَدُ اللهَ عليه، ويُروى «الأُكْلة» بضَمِّ الهمزةِ، أي: اللُّقمةَ، وهي أبلَغُ في بَيانِ اهتمامِ أداءِ الحمْدِ. فسُبحانَه ما أكْرَمَه! أعْطَى المَأْكولَ، وأقْدَرَ على أكْلِه، وجَعَلَه سائغًا، وساقَه إلى عَبْدِه، وأوْجَدَه مِنَ العَدَمِ، ثُمَّ أقْدَرَه على حَمْدِه، وألْهَمَه قَولَهُ وعَلَّمَه النُّطْقَ به، ثُمَّ كان سَببًا لِرِضائِه! وهذا دَليلٌ على أنَّ رِضا اللهِ عزَّ وجلَّ قد يُنالُ بأدْنى سَببٍ؛ فإنَّه يُنالُ بِهذا السَّببِ اليَسيرِ، وللهِ الحَمْدُ.

ترْكُ عَيبِ الطَّعامِ

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((ما عابَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ طَعامًا قَطُّ؛ كان إذا اشْتَهى شَيئًا أكَلَهُ، وإنْ كَرِهَه تَرَكَه))(1).



على المُسلِمِ إذا قُدِّمَ له طَعامٌ أنْ يَعرِفَ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بتَيسيرِه، وأنْ

(1) أخرجه البخاري (٣٥٦٣)، ومسلم (٢٠٦٤) واللفظ له.



يَشكُرَه على ذلك وألَّا يَعيبَه؛ إنْ كان يَشْتَهيه وطابَت به نَفْسُه فلْيَأكُلْه، وإلَّا فلا يَأكُلْه ولا يَتكَلَّمْ فيه بقَدْحٍ أو بعَيبٍ؛ اقتداءً برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقد كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يَعيبُ طَعامًا أبدًا إذا وُضِعَ على مائدتِه أو قُدِّم له، وإنَّما كان يَأكُلُه إذا اشتَهاه وأرادَه، فإذا لم يُحِبَّه تَرَكَه ولم يُعِبْه. قيلَ: يَدخُلُ فيه كلُّ عيبٍ كان على وجْهِ الاستِنكارِ، كقَولِ بعضِهم: مالحٌ، قليلُ المِلحِ، رَقيقٌ، غليظٌ، غيرُ ناضجٍ... ونحوُ ذلك، أمَّا إنْ كان الطَّعامُ حَرامًا فله أنْ يَعيبَه ويَذُمَّه ويَنْهَى عنه.

بَرَكةُ الاجتِماعِ على الطَّعامِ

عن جابرِ بنِ عبدِاللهِ رضِيَ اللهُ عنهُما، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((طَعامُ الرَّجُلِ يَكْفِي رَجُلَينِ، وطَعامُ رَجُلَينِ يَكْفِي أَرْبعةً، وطَعامُ أَرْبعةٍ يَكْفِي ثَمانِيةً))[1].

في هذا الحَديثِ يُرشِدُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الاجتِماعِ على الطَّعامِ؛ لِمَا فيه مِن بَرَكةٍ عَظيمةٍ تَجعَلُ مِنَ القليلِ كثيرًا، فَينمو الطَّعامُ ويَزدادُ حِسًّا ومعنًى، وتَتضاعفُ قُواه الغذائِيَّةُ، ويَكفي القليلُ منه الكثيرَ مِن النَّاسِ؛ فَيكفي طَعامُ الواحِدِ الاثنينِ، وطَعامُ الاثنينِ يَكفي الأربعةَ، وطَعامُ الأربعةِ يَكفي الثَّمانيةَ، وهو تَوجيهٌ نَبويٌّ لطيفٌ. وفي الحديثِ حضٌّ على الكَرَمِ في الأكلِ، والمُواساةِ والإيثارِ على النَّفسِ.

الاتِّكاءُ أثناءَ الأكلِ

عن أبي جُحيفةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا آكُلُ مُتَّكِئًا))[2].

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٩). وأخرجه البخاري (٥٣٩٢) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٥٣٩٨).



هذا الحديثُ يُوضِّحُ أدبًا مِن آدابِ الطَّعامِ، وجانبًا مِن تَواضُعِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه يقولُ: إنِّي «لا آكُلُ مُتَّكِئًا»، وقد اختُلِف في صِفةِ الاتِّكاءِ، فقيل: أنْ يَميلَ على أَحدِ جَنْبَيهِ. وقيل: أنْ يَعتمِدَ على يَدِهِ اليُسْرى منَ الأرضِ ناصبًا لرِجْلِه اليُمْنى، والمعنى: إنِّي لا أقْعُدُ مُتَّكِئًا على الفِراشِ والوَسائدِ عندَ الأكلِ مِثْلَ فِعْلِ مَن يَستكثِرُ مِنَ الطَّعامِ؛ وعلى المعْنى الآخَرِ: لا أفعَلُ فِعلَ المُتعظِّمين والمتكبِّرين؛ ولهذا نزَّهَ نفْسَه عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فهو إمامُ المُتواضعينَ للهِ عزَّ وجلَّ، الخافِضينَ جَناحَهم للعِبادِ، المُقدِّرينَ نِعمَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

والمُستحَبُّ في صِفةِ الجُلوسِ للأكلِ: أنْ يكونَ جاثيًا على رُكبتَيهِ وظُهورِ قَدَميهِ، أو يَنصِبَ الرِّجلَ اليُمنى ويَجلِسَ على اليُسرى، فإنْ لم يَتيسَّرْ له ذلك جلَسَ على أيِّ صِفةٍ ليس فيها كِبرٌ ولا سوءُ أدَبٍ أو أذًى لغيرِه.

الشُّربُ قاعِدًا وقائِمًا

عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم زجَرَ عن الشُّربِ قائِمًا))(١). وفي رِوايةٍ: ((نهَى أنْ يَشرَبَ الرَّجلُ قائِمًا))(٢).

وعن عبدِاللهِ بنِ عباسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((سَقَيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن زَمزَمَ، فشَرِبَ قائِمًا، واسْتَسْقَى وهو عِندَ البَيتِ))(٣).

وعن عَبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَشرَبُ قائِمًا وقاعدًا))(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢٤)، وأخرجه مسلم أيضًا من حديث أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه (٢٠٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦١٧)، ومسلم (٢٠٢٧) واللفظُ له.

(٤) أخرجه الترمذي (١٨٨٣) واللفظ له، وأحمد (٦٦٢٧) مطوَّلاً.

قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ. وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٨٨٣)، وصحَّحه =

وعن النَّزَّالِ بنِ سَبْرَةَ: أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ صَلَّى الظُّهرَ، ثُمَّ قعَدَ في حَوائجِ الناسِ في رَحَبةِ الكُوفةِ، حتى حضَرَتْ صَلاةُ العَصرِ، ثُمَّ أُتِيَ بماءٍ، فشَرِبَ وغَسَلَ وجْهَه ويَدَيهِ، وذَكَرَ رَأْسَه ورِجْلَيه، ثُمَّ قامَ فشَرِبَ فَضْلَه وهو قائمٌ، ثُمَّ قالَ: ((إنَّ ناسًا يَكرَهونَ الشُّرْبَ قِيامًا، وإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صَنَعَ مِثلَ ما صَنَعْتُ))[1].

حرَصَ الصَّحابةُ رضِيَ اللهُ عنهم على مُلازَمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؛ للتعلُّمِ منه وتَطبيقِ هَدْيِه على أنفُسِهم، وتَعليمِه لِمَن بعْدَهم بقَولِهم وفِعلِهم، ولقدْ دَلَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمَّتَه على كلِّ خيرٍ يَنفَعُهم في الدُّنيا والآخِرةِ.

وفي هذِه الأحاديثِ بَيانُ هدْيِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في كَيفيَّةِ الشُّربِ؛ هل يكونُ في حالِ القِيامِ أو الجُلوسِ؟

ففي الحَديثِ الأوَّلِ يُخبِرُ أنسٌ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ «زجَر»، أي: منَع -وفي روايةٍ: «نهَى»، وكِلاهما بمعنًى واحدٍ- عن أنْ يَتناوَلَ الإنسانُ شَرابَه؛ أيَّ شرابٍ كان، حالَ كونِ الشَّاربِ قائمًا.

وفي الحديثِ الثَّاني يُخبِرُ عبدُاللهِ بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّه أتَى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ يَومٍ بماءٍ مِن بِئرِ زَمزمَ، فشَرِبَ منه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو قائِمٌ، وكان وقتَها قَريبًا مِن الكَعبةِ، حيثُ طلَبَ منهم الشَّرابَ.

وفي الحَديثِ الثَّالثِ يُخبِرُ عبدُاللهِ بنُ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّه رأَى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَشرَبُ في وَضْعَيِ القِيامِ والقُعودِ.

= لغيره شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٦٦٢٧)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ١١٩).

(١) أخرجه البخاري (٥٦١٦).

وفي **الحَديثِ الرَّابعِ** يُخبِرُ التابعيُّ النَّزَّالُ بنُ سَبْرةَ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عنه صلَّى الظُّهرَ، ثم جلَسَ في الناسِ؛ ليَقضيَ حَوائجَهم، ومنها القَضاءُ وفصْلُ المُنازعاتِ، وكان ذلك في خِلافتِه رَضِيَ اللهُ عنه، «في رَحَبةِ الكُوفةِ»، والرَّحبةُ: الفضاءُ والمكانُ الواسعُ، والكُوفةُ بَلدٌ مُشهورٌ مِن بِلادِ العراقِ، والمرادُ هنا: دُكَّانٌ، أو مكانٌ وسَطَ مَسجدِ الكوفةِ، وكان مِن عادةِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه الجلوسُ فيه ووعْظُ الناسِ وقَضاءُ حَوائجِهم، وكان يَجلِسُ على تلك الحالِ حتى وقتِ العصرِ، ثمَّ أُتِيَ بماءٍ فشَرِبَ منه أوَّلًا وهو جالِسٌ، ثمَّ أخَذَ مِن هذا الماءِ فتوضَّأَ وُضوءَه للصَّلاةِ، ثم شَرِبَ مرَّةً أُخرَى ما تبقَّى مِن الماءِ وهو واقفٌ قائمٌ، ثم أخبَرَ رضِيَ اللهُ عنه عنِ الحالةِ التي تَشتهِرُ عندَ بَعضِ الناسِ، وهي كَراهيتُهم للشُّربِ وُقوفًا؛ امتِثالًا منهم لأحاديثِ النَّهيِ التي ورَدَتْهم عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثم بيَّن أنَّ شُربَه قائمًا هو أيضًا مِن فِعلِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَبَيَّنَ أنَّ الأمْرَ على الجوازِ، وليس فيه إنكارٌ.

وقدْ أكَّدتِ الأحاديثُ الثلاثةُ الأخيرةُ حالةَ شُربِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائمًا، وممَّا قِيلَ في الجمْعِ بيْنَها وبيْن الحَديثِ الأوَّلِ وما ورَدَ في معْناه، مِن أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَشرَبُ قاعدًا ونهَى عن الشُّربِ قائمًا: أنَّ النَّهيَ الواردَ في الشُّربِ قائمًا نَهْيُ تَنزيهٍ، لا نَهْيُ تَحريمٍ، وأنَّ الأَوْلى للإنسانِ أنْ يَشرَبَ وهو جالسٌ، فإنْ شرِبَ قائمًا فلا بأسَ؛ فالنَّهيُ مَحمولٌ على الإرشادِ؛ فالأفضلُ أنْ يَشرَبَ قاعدًا، وقد فعَلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأمرَينِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأمْرَ في ذلك واسِعٌ، وذلك يكونُ بحَسَبِ حالِ الإنسانِ؛ فإذا احتاجَ أنْ يَأكُلَ قائمًا أو أنْ يَشرَبَ قائِمًا؛ فلا حرَجَ، وإنْ قعَدَ فهو الأفضَلُ.

وُقوعُ الذُّبابِ في الإناءِ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((إذا وَقَعَ الذُّبابُ في إناءِ أحَدِكم فلْيَغْمِسْه كُلَّه، ثمَّ لِيَطْرَحْه؛ فإنَّ في أحَدِ جَناحَيْه شِفاءً، وفي



الآخَرِ داءً))(١).



في هذا الحَديثِ إرشادٌ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى ما يَنبغي أنْ يَفعَلَه الإنسانُ إذا وَقَعَ الذُّبابُ في إناءِ شَرابِه؛ حيثُ أمَرَ بغَمْسِ جِسمِ الذُّبابِ كامِلًا في الشَّرابِ، ثمَّ إخراجِه وطَرْحِه؛ لأنَّ في أحَدِ جَناحَيِ الذُّبابِ داءً، وفي الجَناحِ الآخَرِ دَواءً مِن هذا الدَّاءِ، فإذا غُمِسَتْ جَميعُها تَعادَلَا وسَلِمَ الشَّرابُ مِن هذا الدَّاءِ بإذنِ اللهِ تَعالَى.

وأمَّا عن كَونِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد أخْبَرَ أنَّ في أحَدِ الجَناحَينِ داءً والآخَرِ دَواءً، فالواجِبُ على المسلِمِ تَصديقُ خَبَرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه لا يَنطِقُ عن الهَوى، فهذا مِن مُقتَضَياتِ الشَّهادةِ بأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وهذا الحديثُ قد توجَّهَ له الطَّعنُ قَديمًا وحديثًا، ثمَّ أتَى العِلمُ الحديثُ فأثبَتَ مِصداقَ حَديثِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ جناحَيِ الذُّبابِ يَشتَمِلُ أحدُهما على البكتيريا الضَّارَّةِ التي تُسَبِّبُ الدَّاءَ، ويَشتَمِلُ الآخَرُ على الدَّواءِ المتمَثِّلِ في المُضادَّاتِ لتلك البكتيريا؛ فكيف له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَطَّلِعَ على ذلك إلَّا بوَحيٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجَلَّ؟! هذا، ويَنْبغي التنَبُّهُ لأمُورٍ؛ منها: أنَّ الأمْرَ في الحديثِ أمْرُ إرشادٍ لا وُجوبٍ. ومنها: أنَّ الحديثَ لم يَتعرَّضْ لمَسألةِ الشُّربِ مِن هذا الإناءِ بَعدَ غَمْسِ الذُّبابِ فيه؛ لا بأمْرٍ ولا نهْيٍ، فرُبَّما يَتقزَّزُ بَعضُ النَّاسِ مِن هذا الإناءِ، وتَعافُه نَفْسُه، فيُريقُه، فلا إثْمَ عليه في ذلك.

وقد استُدِلَّ بهذا الحديثِ على أنَّ الماءَ القَليلَ لا يَنجَسُ بوُقوعِ ما ليس له دَمٌ يَسيلُ منه، كالعقْربِ والعَنكبوتِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨٢).

البَدءُ بالأكْبرِ

عن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أَرانِي في المَنامِ أتَسَوَّكُ بسِواكٍ، فجَذَبَني رجُلانِ، أحَدُهما أكْبَرُ مِنَ الآخَرِ، فناوَلْتُ السِّواكَ الأصْغَرَ منهما، فقِيلَ لِي: كَبِّرْ، فدَفَعْتُه إلى الأكْبَرِ))(١).

مِن الآدابِ الشَّرعيَّةِ السَّاميةِ في الإسلامِ احترامُ الكبيرِ وتَوقيرُه، وقد ورَدَ بذلك الأمرُ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما في هذا الحديثِ؛ حيثُ رأى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رُؤيا في مَنامِه، ورُؤيا الأنبياءِ حَقٌّ وصِدقٌ، وقد رَأى فيها صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يَتسوَّكُ، فجاءه رجُلانِ أحدُهما أكبرُ منَ الآخَرِ، فناوَلَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم السِّواكَ للصَّغيرِ منهما، فقيلَ له: «كَبِّرْ» بمعنى: قَدِّمِ الأكبَرَ سِنًّا، فناوَلَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأعطاهُ للكبيرِ. فمعْنى الحديثِ تَقديمُ ذي السِّنِّ في السِّواكِ، ويَلتحِقُ به الطَّعامُ والشَّرابُ والمشيُ والكلامُ، وهذا ما لم يَترتَّبِ القومُ في الجُلوسِ، فإنْ تَرتَّبوا فالسُّنَّةُ تَقديمُ الأيمنِ.

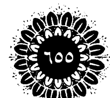
البَداءةُ بالمَيامِنِ

عن عائِشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعْجِبُه التَّيَمُّنُ في تَنعُّلِه، وتَرَجُّلِه، وطُهورِهِ، وفي شَأْنِه كُلِّه))(٢).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتَانَا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في دَارِنا، فاسْتَسقى، فحَلَبْنا له شاةً، ثُمَّ شُبْتُه مِن ماءِ بئْرِي هذِه، قال: فأعْطَيْتُ رَسولَ اللهِ

(١) أخرجه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم (٢٤٦)، وأخرجه موصولاً مسلم (٢٢٧١) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (١٦٨) واللفظ له، ومسلم (٢٦٨).



صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فشَرِبَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأبو بَكرٍ عن يَسارِه، وعُمَرُ وِجاهَه، وأعْرابيٌّ عن يَمِينِه، فلمَّا فَرَغَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن شُرْبِه، قال عُمَرُ: هذا أبو بَكرٍ يا رَسولَ اللهِ، يُرِيهِ إيَّاهُ، فأعْطَى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأعْرابيَّ، وتَرَكَ أبا بَكرٍ وعُمَرَ، وقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: الأيْمَنونَ، الأيْمَنونَ، الأيْمَنونَ. قال أنَسٌ: فهي سُنَّةٌ، فهي سُنَّةٌ، فهي سُنَّةٌ))[1].

في الحديثِ الأوَّلِ تُخبِرُ عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَسُرُّه ويَطِيبُ له أنْ يَبدَأَ باليمينِ في جَميعِ الأعمالِ الشَّريفةِ؛ فكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَبدَأُ في لُبسِ نَعلِه باليمينِ، فيُلبِسُ رِجلَه اليُمنى قبلَ اليُسرى، ويَبدَأُ عندَ «تَرجُّلِه» -وهو تَسريحُ شَعرِ رأْسِه- بالجِهةِ اليُمنى، وكذلك يَبدَأُ باليمينِ في طَهارةِ الحَدَثِ مِن وُضوءٍ أو غُسلٍ، فيُقدِّمُ اليدَ اليُمنى على اليُسرى في الوُضوءِ، والمَيامِنَ على المَياسِرِ في الغُسلِ، وكذلك يَتيامَنُ في جميعِ الأعمالِ الشَّريفةِ، ويُقدِّمُ مَن على يَمينِه في المَجالسِ، ونحوُه، كما تقدَّمَ؛ فالقاعدةُ المُستمِرَّةُ في الشَّرعِ: أنَّ ما كان مِن بابِ التَّكريمِ والتَّشريفِ -كالأعمالِ التي سبقَتْ، ومِثلِ: لُبسِ الثَّوبِ، ودُخولِ المسجِدِ، والسَّلامِ منَ الصلاةِ، والسِّواكِ، والاكتحالِ، وتَقليمِ الأظفارِ، وحلْقِ الرأسِ، والخُروجِ مِن الخلاءِ، والأكلِ والشُّربِ، والمُصافحةِ، واستِلامِ الحجَرِ الأسودِ، وغيرِ ذلك ممَّا هو في معناهُ منَ الأمورِ المُستحسَنةِ غيرِ المُستقبحةِ- فإنَّه يُستحَبُّ التَّيامنُ فيه، وأنَّ ما كان بضِدِّ ذلك -كخلْعِ الثَّوبِ، والخروجِ مِن المسجِدِ، ودُخولِ الخلاءِ والاستنجاءِ، وما أشبهَ ذلك- فيُستحَبُّ التَّياسرُ فيه؛ وذلك كلُّه لكَرامةِ اليمينِ وشَرَفِها.

وفي الحديثِ الثَّاني تَوجيهٌ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لتَقديمِ الأيمنِ ثُمَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٧١)، ومسلم (٢٠٢٩) واللفظ له.



الأيمنِ في تَقديمِ الشَّرابِ؛ فيَحكي أنسُ بنُ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أتاهُم في دارِهم، فطلَبَ منهم ماءً أو لَبَنًا ليَشرَبَ، فحَلَب أهلُ البيتِ شاةً، ثمَّ «شابَهُ» أيْ: خلَطَ أَنَسٌ رضِيَ اللهُ عنه اللَّبَن مِن ماءِ بئرٍ -ولعلَّه أرادَ بخَلْطِه بالماءِ تَخفيفَه أو إكثارَه- ثمَّ أعطاهُ له صلَّى الله عليه وسلَّم ليَشرَبَ، وأبو بَكرٍ رضِيَ اللهُ عنه عن يَسارِه، وعُمرُ رضِيَ اللهُ عنه مِن أمامِه، وأعرابيٌّ عَن يَمينِه، فشَرِبَ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقدَّمَ عمرُ رضِيَ اللهُ عنه أبا بكرٍ على نفْسِه في تَناوُلِ الإناءِ؛ لأنَّ أبا بكرٍ مَشهورٌ مَعروفٌ بيْن الصَّحابةِ أنَّه أخصُّ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلَّا أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أعطَى الأعرابيَّ وناوَلَه، ولم يَستأذِنْه في أنْ يُعطِيَ أبا بكرٍ؛ وذلك لأنَّه عن يَمينِه، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «الأيمَنُون»، أيْ: مُقدَّمون، وكرَّرها صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مرَّتينِ بعدَها للتَّأكيدِ على تَقديمِ الأيمنِ ثُم الأيمَنِ. ثمَّ أخبَرَ أنسُ بنُ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ ذلك هو السُّنةُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

وقد ورَدَتِ النُّصوصُ بتَقديمِ الكبيرِ، ولا تَعارُضَ بيْن الأحاديثِ؛ إذِ السُّنةُ أنْ يَبدَأَ بأكبرِ الحاضرينَ، ثمَّ مَن على يَمينِه، وهذا ما حدَثَ في هذا الحديثِ؛ فابتَدَأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو أكبَرُ مِن جَميعِ الحاضرينَ، ثم أعطَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأيمنَ فالأيمنَ.

آدابُ الطَّريقِ

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضِيَ اللهُ عنهُ، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إيَّاكُم والجُلوسَ على الطُّرُقاتِ. فقالوا: ما لَنا بُدٌّ؛ إنَّما هيَ مَجالِسُنا نَتحدَّثُ فيها، قال: فإذا أَبيتُم إلَّا المَجالِسَ فأعطُوا الطَّريقَ حَقَّها. قالوا: وما حقُّ الطَّريقِ؟ قالَ: غَضُّ البَصَرِ، وكَفُّ الأذَى، ورَدُّ السَّلامِ، وأمْرٌ بالمَعروفِ، ونَهيٌ عنِ المُنكَرِ))[1].

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢١٢١).



لا يَحِلُّ إيذاءُ المُسلِمِ وإلحاقُ الضَّرَرِ به، صَغيرًا كان أو كبيرًا، وقد راعَتِ الشَّريعةُ الإسلامِيَّةُ المُطهَّرةُ حُقوقَ الجَميعِ ومَصالِحَهم، وفي هذا الحديثِ يُحذِّرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُسلِمينَ مِن الجُلوسِ علَى الطُّرقاتِ؛ على المَساطِبِ أو الأرائكِ، أو الكراسيِّ أو الفُرُشِ؛ لأنَّ الجُلوسَ علَى الطُّرُقاتِ يُؤدِّي -في الأغلبِ- إلى أذيَّةِ النَّاسِ، وذلك بإحراجِهم بمُلاحقتِهم بالنَّظَراتِ، أو تَضييقِ الطَّريقِ عَليهِم، إلى غيرِ ذلك، ولأنَّ الجالِسَ في الطَّريقِ قدْ يَتعرَّضُ للفِتنةِ، أو يُعرِّضُ غَيرَه لها، وغَيرُ ذلِك مِن المَفاسِدِ، فلمَّا قالوا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عَليهِ وسلَّم: ما لنا بُدٌّ منها، أيْ: لا غِنَى لنا عنها؛ لأنَّها مُجتمَعاتُنا وأندِيَتُنا التي نَتحدَّثُ فيها بشُؤونِنا، ونَتذاكَرُ في مَصالِحنا مِن أُمورِ الدِّينِ ومَصالحِ الدُّنيا، ونُرَوِّحُ عن نُفوسِنا بالمُحادَثةِ في المُباحِ، ويُسَرِّي بَعضُنا عن بَعضٍ؛ فتَرْكُها يَشُقُّ عَلينا، وكأنَّهم فَهِموا مِن كَلامِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه للتَّحذيرِ، وليس للنَّهيِ الصَّريحِ، أو أنَّ النَّهيَ للتَّنزيهِ، ولا يُرادُ به التَّحريمُ؛ لأنَّهم لم يَعهَدوا مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَحريمَ نافعٍ، ولا إباحةَ ضارٍّ، أو أنَّ النَّهيَ لمَعنًى مُتَّصِلٍ بالمَجالسِ، لا لنَفسِها وذاتِها، وقد يُمكِنُهم مُجانَبةُ هذا المعنى الَّذي مِن أجْلِه كانَ النَّهيُ، وإلَّا فإنَّ الصَّحابةَ رضِيَ اللهُ عنهم أسرَعُ النَّاسِ إجابةً لأوامرِ اللهِ ورَسولِه؛ ولذلك كانتْ مُراجَعتُهم للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ استِفسارًا على ما فَهِموه منه، وليس مُعارَضةً له -حاشاهم-، ولو عَلِموا أنَّ النَّهيَ عَزمةٌ مِن العَزَماتِ ما راجَعوهُ، ولَبادَروا إلى الامتِثالِ مُباشرةً، فأجابَهُم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما يدُلُّ على أنَّ النَّهيَ ليس لذاتِ المَجالِسِ، وإنَّما هو مِن أجْلِ حُقوقِ الطَّريقِ التي يَتعرَّضُ لها الجالِسُ؛ فقال صلَّى اللهُ عَليهِ وسلَّم: «فإذا أبيتُم إلَّا المَجالِسَ فأعطُوا الطَّريقَ حَقَّها»؛ تَأكيدًا لِما للطَّريقِ مِن آدابٍ وحُقوقٍ، فسَألوه سُؤالَ المُسترشِدِ عن حَقِّها، فأجابَهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقَولِه: «غَضُّ البَصَرِ، وكَفُّ الأذَى، ورَدُّ السَّلامِ، وأمْرٌ بالمَعروفِ، ونَهيٌ عنِ المُنكَرِ».



وغَضُّ البَصرِ: يَكونُ بكَفِّه عمَّا لا يَحِلُّ النَّظَرُ إليهِ، وكَفِّه عن كلِّ ما تُخشَى الفِتنةُ مِنهُ؛ فلا يَنظُرُ إلى ما لا يَجوزُ له النَّظرُ إليه، كالنَّظرِ إلى النِّساءِ، وأشارَ بغَضِّ البَصرِ إلى السَّلامةِ مِن التعرُّضِ للفِتنةِ بمَن يمُرُّ مِن النِّساءِ وغَيرِهنَّ، وخَوفِ ما يَلحَقُ منَ النَّظَرِ إليهِنَّ مِن ذلك إذا مرَّ النِّساءُ في الشَّوارِعِ لحَوائجِهِنَّ.

وكَفُّ الأَذَى: يَكونُ بعَدَمِ أَذِيَّةِ العِبادِ بالقَولِ أو بالفِعلِ؛ باللِّسانِ أو اليَدِ؛ فلا يَشتُمُ، ولا يَسُبُّ، ولا يَحتقِرُ، ولا يَعيبُ، ولا يَغتابُ، ولا يَضرِبُ أحدًا باليَدِ أو العَصَا مِن غيرِ ما جُرمٍ اجترَمَه، ولا ذَنْبٍ اقترَفَه، ولا يَسلُبُ شَيئًا ممَّا يَحمِلُه مِن غيرِ أنْ تَطيبَ به نَفسُه، ولا يُريقُ الماءَ في الطَّريقِ؛ لئلَّا تَزِلَّ به الأقدامُ، ولا يَضَعُ عَقَباتٍ يَعثُرُ فيها المُشاةُ، ولا يُلقِي قاذوراتٍ أو أشواكًا تَضُرُّ المارَّةَ، ولا يُضيِّقُ الطَّريقَ بمَجلسِه أو قُعودِه حيثُ يَتأذَّى الجِيرانُ، فيَكشِفُ نِساءَهُم، ويُقيِّدُ عليهِم حُرِّيَّتَهم، وقد يُؤدِّي ذلك إلى امتِناعِ النِّساءِ منَ الخُروجِ إلى أشغالِهِنَّ بسَببِ قُعودِهم في الطَّريقِ، والاطِّلاعِ على أحوالِ النَّاسِ ممَّا يَكرهونَه، كلُّ ذلك وغَيرُه مِن الأذى الَّذي يَجِبُ كَفُّه وإبعادُه عنِ المارَّةِ، بل يَشمَلُ هذا كفَّ الأذَى عَنِ الحَيواناتِ كذلِك.

ورَدُّ السَّلامِ: وهذا واجبٌ، وفيه إكرامٌ للمارِّ -وهو الذي يَبتدِئُ بالسَّلامِ على الجالِسِ- والسَّلامُ ورَدُّه رَسولُ الأُلفةِ وداعِيةُ المَحبَّةِ؛ فعلى الجالِسِ ألَّا يَسأمَ كَثرَته مِن المارِّين؛ فإنَّ المارَّ يَتحبَّبُ به إلى الجالِسِ ويُحيِّيهِ ويُكرِمُه؛ فعلى الجالِسِ أنْ يَرُدَّ السَّلامَ والتَّحِيَّةَ بمِثلِها أو أحسَنَ مِنها، ويَوَدُّ مَن وادَّه، ويُكرِمُ مَن أكرَمَه، كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

والأمرُ بالمَعروفِ والنَّهيُ عن المُنكَرِ: يَكونُ باستِعمالِ جَميعِ ما يُشرَعُ، وتَرْكِ جَميعِ ما لا يُشرَعُ؛ لكنْ بحيثُ لا يَتَعَدَّى إلى الأمرِ الأنكَرِ؛ حتَّى إنْ ظَنَّ أنَّ ذلك لا



يُفيدُ، فإذا حَصَل أمْرٌ يَقتَضي أنْ يُوجَّهَ إلى خَيرٍ، وأنْ يُبَصِّرَ بحَقٍّ؛ فإنَّه يَأمُرُ بالمَعروفِ، وكذلك إذا رأَى أمرًا مُنكَرًا، فإنَّه يُنبِّهُ الَّذي حَصَل مِنهُ المُنكَرُ على ذلك، ويُحذِّرُ مِن ذلك، ويُخَوِّفُ منه، وعَليهِ في كلِّ ذلك أنْ يَأمُرَ بالمَعروفِ بأُسلوبٍ حَسَنٍ، ويَنهَى عنِ المُنكَرِ بغَيرِ مُنكَرٍ؛ فإذا رأى مُتشاجِرَينِ أو مُتقاتِلَينِ فعَليهِ أنْ يَأمُرَهما بالكَفِّ عن هذا، ويُصلِحَ بَينَهما، وإذا رأى شابًّا يُلاحِقُ فَتاةً ويَعترِضُها في طَريقِها فلْيَنصَحْ له، ويَدفَعْه عن هذا بما استَطاعَ في غَيرِ تَهوُّرٍ ولا إضرارٍ، وهكذا، وعَليهِ أنْ يُحقِّقَ أَولى المَصالِحِ وأهَمَّها، ولْيَعْلَمْ أنَّ دَفْعَ المَفسدةِ أَولى مِن جَلْبِ المَصلَحةِ، وأنَّ المَفسدةَ الصُّغرَى تُحتَمَلُ في جانِبِ دَفعِ المَفسدةِ العُظمَى.

فهذه جُملةٌ عَظيمةٌ مِن آدابِ الطَّريقِ، وأيضًا يَدخُلُ ضِمْنَ هذِه الآدابِ المذكورةِ في هذا الحَديثِ: حُسنُ الكَلامِ، وإرشادُ ابنِ السَّبيلِ، وإغاثةُ المَلهوفِ، وهِدايةُ الضالِّ وإرشادُه، وإعانةُ المَظلومِ، والمُعاوَنةُ على حَملِ الأغراضِ، ونَحوُ ذلك.

وفي هذا الحَديثِ نَدْبٌ إلى حُسنِ مُعامَلةِ المُسلِمين بَعضِهم لبَعضٍ؛ فإنَّ الجالِسَ على الطَّريقِ يَمُرُّ به العَددُ الكَثيرُ منَ النَّاسِ، ويَحصُلُ بينْهم مُعاملاتٌ كَثيرةٌ؛ فعَليهِ بحُسنِ المُعامَلةِ في كلِّ هذا.



آدابُ السفَرِ

طَلبُ الرُّفْقةِ في السَّفَرِ

عنِ ابنِ عمرَ رضِيَ اللهُ عنهُما، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لَو يَعلَمُ النَّاسُ ما في الوَحدَةِ ما أعْلَمُ، ما سارَ راكِبٌ بلَيلٍ وحْدَه))[١].

الرُّفقةُ الصالحةُ في السَّفرِ وغيرِه مُعينةٌ على الخيرِ، وحافِظةٌ بحِفظِ اللهِ منَ الشُّرورِ والآثامِ، وفي هذا الحديثِ يُحذِّرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الوَحدةِ والانفرادِ في السَّيرِ والسَّفرِ في اللَّيلِ، فيُخبِرُ أنَّه لو يَعلَمُ النَّاسُ الَّذي يَعلَمُه مِن ضَرَرِ الانفرادِ والآفاتِ التي تَحصُلُ مِن ذلك، لم يَسِرْ راكبٌ أو راجلٌ وَحيدًا في اللَّيلِ. ولعلَّ نَهيَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ الوَحدةِ في سَيرِ اللَّيلِ إنَّما هو إشفاقٌ على الواحدِ مِنَ الشَّياطينِ؛ لأنَّه وقتُ انتشارِهم وأذاهم للبشَرِ بالتَّمثيلِ لهم، وما يُفزِعُهم ويُدخِلُ في قُلوبِهم الوَساوسَ، ولأنَّه ربَّما يُصابُ بمرَضٍ أو إغماءٍ، أو يَتسلَّطُ عليه أحدٌ، أو غيرُ ذلك مِن المحظوراتِ، فلا يكونُ معه أحَدٌ يُدافِعُ عنْه، أو يُخبِرُ عنه، أو ما أشبَهَ ذلك. وللسَّيرِ مُنفردًا فِي اللَّيلِ حالتانِ: إحْداهما: الحاجةُ إليهِ مَع غَلَبةِ السَّلامةِ، ومِثلُه إذا اقْتَضَتِ المصلحةُ الانْفِرادَ، كإرسالِ الجاسوسِ والطَّليعةِ؛ فلا كَراهةَ. والأُخرى: حالةُ الخَوفِ أو عدَمُ الحاجةِ، وهذا ما حذَّرَ منْه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

دُعاءُ السَّفَرِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۞ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٨).



﴿هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

وعن عَليٍّ الأزْديِّ: أنَّ ابنَ عُمرَ عَلَّمَهم أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا اسْتَوى على بَعِيرِه خارِجًا إلى سَفرٍ، كَبَّر ثَلاثًا، ثُمَّ قال: ((سُبْحانَ الذي سخَّرَ لنا هذا، وما كُنَّا له مُقْرِنينَ، وإنَّا إلى رَبِّنا لَمُنقلِبونَ، اللَّهُمَّ إنَّا نَسأَلُك في سَفَرِنا هذا البِرَّ والتَّقْوى، ومِنَ العَمَلِ ما تَرْضى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ علينا سَفَرَنا هذا، واطْوِ عَنَّا بُعْدَه، اللَّهُمَّ أنت الصَّاحبُ في السَّفرِ، والخَلِيفةُ في الأهْلِ، اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بكَ مِن وَعْثاءِ السَّفَرِ، وكَآبةِ المَنظَرِ، وسُوءِ المُنْقلَبِ في المالِ والأهْلِ، وإذا رَجَعَ قالهُنَّ، وزادَ فِيهِنَّ: آيِبُونَ تائبُونَ عابِدُونَ، لِرَبِّنا حامِدُونَ))(١).



السَّفَرُ فيه المَشقَّةُ والعَناءُ، ومِن رَحمةِ الله سُبحانَه أنْ خَلَقَ لعِبادِه ما يَركَبونَه في البَحرِ مِنَ السُّفُنِ، وفي البَرِّ مِن الإبلِ والخيلِ والبِغالِ والحميرِ والسَّيَّاراتِ، وفي الجَوِّ مِنَ الطَّائراتِ، فتَحمِلُهم على ظُهورِها للوُصولِ إلى غاياتِهم بلا عَناءٍ ومَشَقَّةٍ، فإذا استَقَرُّوا عليها تَذكَّروا نِعمةَ اللهِ تعالى عليهم بتَيسيرِه وتَذليلِه لهم تلك المراكِبَ، فيُحدِثُ لهم ذلك تَنزيهًا للهِ عزَّ وجَلَّ عن كُلِّ ما لا يَليقُ بكَمالِه، فلولا أنَّ اللهُ سُبحانَه سَخَّرها لعِبادِه لَمَا أطاقُوا وقَدَروا على تَذليلِها ورُكوبِها وقِيادتِها، **كما تُوضِّحُه هذه الآيةُ الكَريمةُ.**

ولمَّا كان راكِبُ هذه الوسَائلِ مُتَعَرِّضًا للهلاكِ بما يُخافُ معه مِن الغَرَقِ أو السُّقوطِ ونحوِه؛ أُمِرَ بذِكرِ الحَشْرِ؛ لِيَكونَ المرْءُ مُستعِدًّا للمَوتِ الذي قد يَعرِضُ له، وما يَعقُبُه مِن حِسابٍ وجَزاءٍ، وعلى المسلِمِ أنْ يَستعينَ باللهِ، وأنْ يَسألَه أنْ يُهَوِّنَ عليه، وأنْ يُبلِّغَه الخيرَ، ويُسلِّمَه منَ الشُّرورِ والآثامِ.

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٢).

وفي حَديثِ عَليٍّ الأزْديِّ يُعلِّمُ ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهُما بعضَ أصحابِه منَ التابِعينَ دُعاءَ السَّفرِ الذي كان يَدْعو به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سَفرِه؛ فقد كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا رَكِبَ واستَقرَّ عَلى ظَهرِ بَعيرِه خارجًا منَ المَدينةِ إلى سَفرٍ، أيًّا كان سَببُه؛ فيَبدَأُ فيَقولُ: اللهُ أكبرُ، ثَلاثَ مرَّاتٍ، ثُمَّ يَقولُ: «سُبحانَ الَّذي سخَّرَ لَنا هَذا» فجَعَلَه مُنْقادًا لَنا، والإشارةُ إلى الدابَّةِ أوِ السيَّارةِ وما في حُكمِهما مِن وسَائلِ السَّفَرِ، «وَما كنَّا له مُقْرِنينَ» وما كنَّا نُطيقُ قَهْرَه واستِعمالَه لو لا تَسخيرُ اللهِ سُبحانَه وتعالَى إيَّاه لَنا. «وإنَّا إلى ربِّنا لَمُنقَلِبونَ»؛ فإنَّ الإنسانَ لمَّا رَكِبَ مُسافِرًا عَلى هَذه الوسيلةِ كأنَّه يَتذكَّرُ السَّفرَ الأخيرَ مِن هَذه الدُّنيا، وهوَ سَفرُ الإنسانِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ إذا ماتَ، وحَملَتْه النَّاسُ على أعْناقِهم، ثُمَّ بَعدَ ذَلك أثْنَى عَلى اللهِ ودَعاهُ فقال: «اللَّهُمَّ إنَّا نَسألُكَ في سَفرِنا هذا البِرَّ والتَّقْوى»، والبِرُّ: الْتِزامُ الطَّاعةِ، والتَّقْوى: البُعدُ عنِ المَعصيةِ، فيَمتثِلُ الأوامرَ ويَجتنِبُ النَّواهيَ، ثُمَّ سَألَه منَ العَملِ ما يَرضَى بِه عنه، ثُمَّ سَألَه تَهوينَ السَّفرِ، وهوَ تَيسيرُه، وأنْ يُقرِّبَ له مَسافةَ ذَلك السَّفرِ.

ثُمَّ أتْبَعَ دُعاءَه بقولِه: «اللَّهُمَّ أنت الصَّاحبُ في السَّفرِ والخَليفةُ في الأهلِ»؛ فأنتَ سُبحانَكَ مَن تَصحَبُني في سَفَري، تُيسِّرُه وتُسهِّلُه علَيَّ، وأنت الخَليفةُ في الأَهلِ مِن بَعدي تَحوطُهم وتَحفَظُهم بِرعايتِكَ وعِنايتِكَ؛ فهوَ جلَّ وعَلا مع الإنسانِ في سَفرِه، وخَليفتُه في أهْلِه؛ لأنَّه جلَّ وعَلا بكُلِّ شَيءٍ مُحيطٌ.

ثُمَّ استَعاذَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بعضِ ما يُصيبُ الإنسانَ في السَّفرِ، وَمِنها: «وَعْثاء السَّفرِ» وهيَ شِدَّتُه ومَشقَّتُه وتَعَبُه، «وَكَآبة المَنظَرِ» وهيَ تَغيُّرُ الوجهِ كأنَّه مَريضٌ، وتَغيُّرُ النَّفسِ بالانكِسارِ ممَّا يَعرِضُ لها ويُورِثُ الهَمَّ والحُزنَ، وقيلَ: المُرادُ مِنه الاستِعاذةُ مِن كلِّ مَنظَرٍ يُعقِبُ الكآبَةَ عندَ النَّظرِ إليهِ، «وسُوءِ المُنقَلَبِ في المالِ والأَهلِ»؛ وذلكَ بأنْ يَرجِعَ فَيَرى في أهلِه ومالِه ما يَسوؤُه. وَفي حَديثِ عبدِاللهِ بن



سَرْجِسَ رضِيَ اللهُ عنه استَعاذَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ[1]، يَعْني: منَ النُّقصانِ بعدَ الزِّيادةِ، وتَغيُّرِ الحالِ منَ الطَّاعةِ إلى المَعصيةِ، وتَعوَّذَ أيضًا مِن دَعوةِ المَظلومِ، فكأنَّه قال: أعوذُ بكَ مِنَ الظُّلمِ؛ فإنَّه يَترتَّبُ عَليه دُعاءُ المَظلومِ.

وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا رَجَعَ قال تلكَ الجُمَلَ المَذكورةَ، ثُمَّ قال بَعدَهنَّ: «آيِبونَ تائبونَ عابِدونَ لربِّنا حامِدونَ»، وسيأتي شرحُها.

ما يقولُ إذا رجَعَ منَ السَّفرِ

عن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا قَفَلَ مِنَ الغَزْوِ، أوِ الحَجِّ أوِ العُمْرةِ؛ يَبْدَأُ فيُكبِّرُ ثَلاثَ مِرارٍ، ثُمَّ يقولُ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تائبُونَ، عابدُونَ ساجِدُونَ، لِرَبِّنَا حامِدُونَ، صَدَقَ اللَّهُ وعْدَهُ، ونَصَرَ عَبْدَه، وهَزَمَ الأحْزابَ وحْدَهُ))[2].



مِن هَدْيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الذِّكرِ دُعاؤُه الذي كان يَدْعو به إذا رجَعَ من سَفرٍ، وفي هذا الحديثِ بَيانُه؛ فقد كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا رَجَعَ مِنَ السَّفرِ قادمًا مِن حَجٍّ أو عُمْرةٍ، أو جِهادٍ -وهذا يَشمَلُ كلَّ سَفرِ طاعةٍ- كبَّر ثَلاثَ تَكْبيراتٍ، ثُمَّ قال: «لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحدَه لا شَريكَ له، له المُلكُ»؛ فهو سُبحانَه المُختَصُّ بالسُّلطانِ التَّامِّ الذي لا يُنازِعُه فيه مُنازِعٌ، «وله الحَمدُ»؛ فهو المُستحِقُّ له دونَ مَن سِواهُ سُبحانَه، «وهو على كلِّ شَيءٍ قديرٌ» لا يُعجِزُه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، «آيِبُونَ، تائبونَ، عابِدونَ، ساجِدونَ، لربِّنا حامِدونَ»، «آيبونَ»، وتَعْني: نحنُ راجِعونَ مِنَ السَّفرِ

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤١١٦) واللفظ له، ومسلم (١٧٤٢).



بالسَّلامةِ، «تائبونَ» منَ المَعصيةِ إلى الطَّاعةِ، «عابِدونَ ساجِدونَ»؛ فهوَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في كُلِّ حالِه يَتذكَّرُ العِبادةَ، وأنَّه عبْدٌ للهِ سُبحانَه وتَعالى. «لربِّنا حامِدونَ»، أي: مُثْنون عليه تَعالى بصِفاتِ كَمالِه وجَلالِه، وشاكِرون له على نِعَمِه وأفضالِه. والمَعْنى: أنَّنا في طَريقِ عَودَتِنا إلى بَلَدِنا ومَوْطِنِنا وأهلِنا، وقد عَقَدْنا العَزْمَ على العَوْدةِ إلى اللهِ والتوْبةِ الصادِقةِ المُقْتَرِنةِ بالأعمالِ الصالحةِ؛ مِنَ الشُّكرِ للهِ، والمواظَبةِ على عِبادتِه، والتقرُّبِ إليه بالصَّلاةِ، وكَثرةِ السُّجودِ.

وجاء في الصحيحين عن أَنَسِ بنُ مَالِكٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: أَقْبَلْنَا مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، أَنَا وَأَبُو طَلْحَةَ، وَصَفِيَّةُ رَدِيفَتُهُ علَى نَاقَتِهِ، حتَّى إذَا كُنَّا بظَهْرِ المَدِينَةِ، قالَ: ((آيِبُونَ تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ))، فَلَمْ يَزَلْ يقولُ ذلكَ حتَّى قَدِمْنَا المَدِينَةَ[1]، وقوله: «صَدَقَ اللهُ وَعْدَه» في إظْهارِ الدِّينِ وكَونِ العاقبةِ للمُتَّقِينَ، وغَيرِ ذلك مِن وَعْدِه سُبحانَه الذي لا يَتخلَّفُ، «ونَصَرَ عَبْدَه» محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، «وهَزَمَ الأحزابَ وَحْدَه» بغيرِ قِتالٍ مِنَ الآدَمِيِّينَ، ولا سَببٍ مِن جِهَتِهم، والمُرادُ بالأحزابِ: الذين تَحزَّبوا على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ الخَنْدَقِ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٨٦)، ومسلم (١٣٤٥) واللفظ له.



التداوي والرقى

لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ، قالَ: ((ما أنْزَلَ اللهُ داءً إلَّا أنْزَلَ له شِفاءً))[1].

وعن جابرٍ رضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ: ((لكُلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أُصِيبَ دَواءُ الدَّاءِ بَرَأَ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ))[2].



كلُّ أُمورِ الخَلقِ مُقدَّرةٌ بقَدَرِ اللهِ تعالَى، وقد يَسَّرَ اللهُ سُبحانَه لعِبادِهِ الأسبابَ التي تُوصِلُهم إلى جَلْبِ المنافِعِ والخَيراتِ، وإلى ما فيه دَفْعُ الشُّرورِ والمَضرَّاتِ، وقد أمَرَ سُبحانَه بالأخْذِ بأسبابِ التَّداوي والشِّفاءِ، وإنْ كان الشِّفاءُ بيَدِه سُبحانه، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَصِفُ بعضَ العِلاجاتِ لأصحابِهِ رضِيَ اللهُ عنهم ويَحُضُّ عليها، ففي **الحَديثِ الأوَّلِ** يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ما أصابَ اللهُ أحدًا مِن عِبادِه ببَلاءٍ -سَواءٌ كان مَرَضًا نَفسيًّا، أو جَسَديًّا- إلَّا أنزَلَ وقدَّرَ له عِلاجًا يُزيلُ هذا المرضَ.

ويَدخُلُ في العِلاجِ: التَّداوِي بالقُرآنِ، والرُّقْيةُ الشَّرعيَّةُ ممَّا صَحَّ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الأَدعيةِ، وممَّا وصَفَه مِن الأدويةِ، كالعَسلِ والحِجامَةِ ونَحوِهِما، وكذلكَ كُلُّ ما يَصنَعُه الأطبَّاءُ ويُسمَّى دَواءً ممَّا لا يكونُ فيه شَيءٌ مُحرَّمٌ أو مُضِرٌّ، وقدِ استَثنى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن تلكَ الأمراضِ كِبَرَ السِّنِّ والشَّيخُوخَةَ، كما في حديثِ أُسامةَ بنِ شَرِيكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ((تَداوَوْا؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٤).



يَضَعْ داءً إلَّا وَضَعَ له دَواءً، غيرَ داءٍ واحدٍ: الهَرَمِ))[1]، فجَعَله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَاءً تَشبيهًا له به؛ لأنَّ الموتَ يَعقُبُه، أو لأنَّ الكِبَرَ هو مَنْبعُ الأدْواءِ والأمراضِ، والهَرَمُ والشَّيخوخَةُ اضْمِحلالٌ طَبيعيٌّ وطَريقٌ إلى الفَناءِ، فلم يُوضَعْ له شِفاءٌ، وكلُّ مَخلوقٍ له أجَلٌ مَكْتوبٌ لا يُقدَّمُ عنه ولا يُؤخَّرُ.

وفي الحَديثِ الثاني قال صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: «فإذا أُصِيبَ دَواءُ الدَّاءِ بَرَأَ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ»، أي: إنَّ اللهَ تعالَى إذا شاءَ الشِّفاءَ يَسَّرَ دَواءَ ذلكَ الدَّاءِ، ونَبَّه عليْه مُستعمِلَه، فيَستعمِلُه على وَجهِهِ وفي وَقتِهِ، فيَشْفَى مِن ذلكَ المرَضِ بإذنِ اللهِ تعالَى، وإذا أرادَ إهْلاكَ صاحِبِ المرضِ أذْهَلَه عن دَوائِه، أو حَجَبَه بمانِعٍ يَمنَعُه، فهَلَكَ صاحِبُه؛ وكلُّ ذلك بمَشيئَتِه وحُكمِه كمَا سَبَقَ في عِلمِه، وجميعُ الأطبَّاءِ مُجمِعونَ على أنَّ المرضَ الواحِدَ يَختلِفُ عِلاجُه باخْتلافِ السِّنِّ والزَّمانِ والعادةِ والغِذاءِ، وغيرِ ذلِك.

والتَّداوي يكونُ بما أحَلَّه اللهُ وليسَ بما حَرَّمَه؛ ففي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه قال: ((نَهى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الدَّواءِ الخَبيثِ))[2]. وقد قِيلَ فيه: هو الذي يَدخُلُه المُحرَّمُ؛ كالخَمْرِ ونَحوِها مِن لُحومِ وشُحومِ الحيَوانِ غيرِ مَأْكولِ اللَّحمِ، ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ خُبْثُه أنَّ ضَرَرَه أكثَرُ مِن نَفعِه، كمَا في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٥٥)، وأحمد (١٨٤٥٤) واللفظ لهما، والترمذي (٢٠٣٨)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٥٥٣)، وابن ماجه (٣٤٣٦).

قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ. وصحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (٤٨٦)، وابن عبد البر في ((التمهيد)) (٥/ ٢٨١)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (٩٥)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٨٥٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٧٠)، والترمذي (٢٠٤٥)، وابن ماجه (٣٤٥٩)، وأحمد (٨٠٤٨). من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه.

قال الذهبي في ((المهذب)) (٨/ ٣٩٦٦): إسنادُه صالح. وصَحَّح إسناده أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨٠٤٨)، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٨٧٠)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٨٧٠).

عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

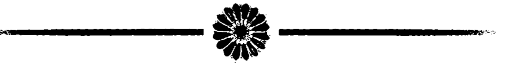
وفي هذا الحديثِ: الحَثُّ على تَعلُّمِ الطِّبِّ وتَعليمِه. وفيه: بَيانٌ لعَظيمِ رَحمةِ اللهِ تعالَى بعِبادِه، وأنَّه كما أنزَلَ الدَّاءَ أنزَلَ له الدَّواءَ.

التَّداوي بسَقْيِ العَسَلِ وبالحَبَّةِ السَّوداءِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: جاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: إنَّ أخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُه. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: **((اسْقِه عَسَلًا، فسَقاهُ، ثُمَّ جاءهُ فقال: إنِّي سَقَيتُه عَسَلًا، فلمْ يَزِدْه إلَّا اسْتِطْلاقًا! فقال له ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثمَّ جاءَ الرَّابعةَ، فقال: اسْقِه عَسَلًا. فقال: لقَدْ سَقَيتُه، فلمْ يَزِدْه إلَّا اسْتِطْلاقًا! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: صَدَقَ اللهُ، وكَذَبَ بَطْنُ أخِيكَ. فسَقاهُ فبَرَأ))**[١].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّه سَمِعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: **((إنَّ في الحَبَّةِ السَّوداءِ شِفاءً مِن كُلِّ داءٍ إلَّا السَّامَ))**[٢]



أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّداوي أخْذًا بالأسبابِ، واللهُ هو الشَّافي، ومِن

(١) أخرجه البخاري (٥٧١٦)، ومسلم (٢٢١٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٢١٥) واللفظ له.

ذلك التَّداوي بالعسَلِ، **وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ** يُخبِرُ اللهُ تَعالى أنَّه ألْهَمَ النَّحلَ باتِّخاذِ البُيوتِ في الجِبالِ والشَّجَرِ والعُروشِ، والسُّلوكِ في المَراعي للأكْلِ مِن سائرِ الثِّمارِ؛ ليَخرُجَ مِن بُطونِها هذا العسلُ اللَّذيذُ الطَّعمِ، ذو الألوانِ المُتعدِّدةِ، الذي جعَلَ اللهُ فيه شِفاءً للنَّاسِ مِن الأمراضِ.

وفي الحَديثِ الأوَّلِ يَذكُرُ أبو سَعيدٍ الخُدريُّ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رجُلًا أَتى النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُخبِرُه أنَّ أخاه مَريضٌ، ووَجَعُه في بَطْنِه بإسهالٍ أصابَه، فأرشَدَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَسقِيَه عَسَلَ النَّحلِ؛ فإنَّ فيه شِفاءً، فسَقَى الرجُلُ أخاهُ عسَلًا ثلاثَ مرَّاتٍ، فلمْ يَبرَأْ، فكأنَّه شَكَّ في فائدةِ العَسلِ، فقال بعدَ مَجيئِه إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في المرَّةِ الرابعةِ: «لقدْ سقيتُه»، أي: قد فعَلْتُ ما أمَرْتَني به وسقَيْتُه عسَلَ النَّحلِ، ولكنَّه لم يَبرَأْ، وزاد مرَضُ بَطْنِه، فأخبَرَه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ صدَقَ اللهُ فيما قالَهُ عن عَسلِ النَّحلِ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، وكذَبَ بطْنُ أخيكَ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الدَّواءَ نافِعٌ حتْمًا بلا أدْنى شكٍّ، وأنَّ بَقاءَ الدَّاءِ ليس لقُصورِ الدَّواءِ في نَفْسِه، ولكنْ لأسبابٍ أُخرى، فمِن ثَمَّ أمَرَه بمُعاودةِ شُربِ العَسَلِ، فسَقاهُ في الرَّابعةِ، فبَرَأَ بإذنِ اللهِ، فظهَرَ صِدقُ اللهِ وصِدقُ رَسولِهِ فيما أخْبَرَ به.

وفي الحديثِ الثَّاني يُبيِّنُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أهمِّيةَ الحبَّةِ السَّوداءِ في الشِّفاءِ منَ الأمراضِ، فأخْبَرَ أنَّها شِفاءٌ مِن كلِّ مرَضٍ ما عدا الموتَ؛ فإنَّه لا شِفاءَ منه؛ لأنَّه قَدَرُ اللهِ المَحتومُ الذي لا مَفرَّ منه، والمرادُ بالحَبَّةِ السَّوداءِ: حَبَّةُ البركةِ المَعروفةُ.

التصَبُّحُ بتَمرِ العَجوةِ

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضِيَ اللهُ عنه يقولُ: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه



وسلَّمَ يقولُ: ((مَن تَصبَّحَ بسَبْعِ تَمَراتِ عَجْوةٍ، لمْ يَضُرَّه ذلك اليومَ سُمٌّ ولا سِحرٌ))[1].



في هذا الحَديثِ تَوجيهٌ منَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للأخْذِ بالأسبابِ في حِفظِ النَّفسِ مِن شرِّ السُّمِّ والسِّحرِ، ويُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن أكَلَ سبْعَ تَمَراتٍ منَ التَّمرِ المعروفِ بالعَجوةِ، كلَّ يومٍ في الصَّباحِ؛ لم يضُرَّه في يَومِه هذا شَيءٌ مِن السُّمِّ، والسُّمُّ: هو المادَّةُ التي قد تُسبِّبُ بأيِّ شكلٍ مِن الأشكالِ المرضَ أوِ الموتَ إذا تَناوَلها، أو استنْشَقَها الإنسانُ، أو تعرَّضَ لها عن طَريقِ الجِلدِ، أوِ العينِ، أو عن طَريقِ اللَّدَغاتِ. وكذا لم يضُرَّه شَيءٌ منَ السِّحرِ، والسِّحرُ: هو قِراءاتٌ وطَلاسِمُ يَتوصَّلُ بها الساحرُ إلى استخدامِ الشياطينِ فيما يُريدُ به ضَرَرَ المسحورِ، ومَن أكَلَ سبْعَ تَمَراتٍ في الصَّباحِ يَحفَظُه اللهُ عزَّ وجلَّ مِن جَميعِ هذه الأشياءِ الضارَّةِ في نفْسِه وجِسمِه.

وتَخصيصُ عدَدِ السَّبعِ الواردِ في الحديثِ منَ الأمورِ التي علِمَها الشارعُ ولا نَعلمُ نحن حِكمتَها، فيَجِبُ الإيمانُ بها، واعتقادُ فضْلِها والحكمةِ فيها، وهذا كأعدادِ الصَّلواتِ، ونِصابِ الزكاةِ، وغيرِ ذلك. وقدِ اختَلَفَ العلماءُ في تَخصيصِ (نوعِ التمرِ): هل يَختَصُّ بتَمرِ العَجوةِ، أمْ يَندرِجُ تحتَ هذا الحديثِ أيُّ نوعٍ مِن أنواعِ التَّمرِ؟ فالنَّصُّ هنا على تمْرِ العَجْوةِ، لكِنْ جاء عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن أكَلَ سَبعَ تَمَراتٍ ممَّا بيْن لابَتَيها حينَ يُصبِحُ، لم يَضُرَّه سُمٌّ حتَّى يُمسِيَ))[2]، والمرادُ بِما بيْنَ لابَتَيها: المَدينةُ النبويَّةُ؛ لأنَّها بيْنَ لابتَينِ، وهما الحَرَّتانِ، والحَرَّةُ: هي الأرضُ ذاتُ الحِجارةِ السُّودِ؛ فجَعَله مِن تمْرِ المدينةِ ولم يَقْصُرْه على تَمرِ العَجوةِ؛ وذلك لفَضْلِ تَمْرِها، والخُصوصيَّةِ فيه،

(١) أخرجه البخاري (٥٤٤٥)، ومسلم (٢٠٤٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٤٥)، ومسلم (٢٠٤٧) واللفظ له.

ولا يُمنَعُ مِن وُجودِ تلك الفائدةِ التي أشارَ إليها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في أنواعِ التَّمرِ الأخرى، فيُرجى أنْ يَنفَعَ اللهُ ببَقيَّةِ التَّمرِ إذا تصبَّحَ بسَبعِ تَمَراتٍ.

التَّداوي بالحِجامةِ والكَيِّ

عن عاصمِ بنِ عُمَرَ بنِ قَتادةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: جاءَنا جابِرُ بنُ عبدِاللهِ في أهْلِنا، ورجُلٌ يَشتكي خُرَاجًا به، أو جِراحًا، فقال: ما تَشتكي؟ قال: خُرَاجٌ بي قدْ شَقَّ علَيَّ، فقال: يا غُلامُ، ائْتِني بحَجَّامٍ، فقال له: ما تَصنَعُ بالحَجَّامِ يا أبا عبدِاللهِ؟ قال: أُرِيدُ أنْ أُعَلِّقَ فيه مِحْجَمًا. قال: واللهِ إنَّ الذُّبابَ لَيُصِيبُني، أو يُصِيبُني الثَّوبُ، فيُؤْذِيني ويَشُقُّ علَيَّ، فلمَّا رَأَى تَبَرُّمَه مِن ذلكَ قال: إنِّي سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((إنْ كانَ في شَيءٍ مِن أدْوِيَتِكم خَيرٌ ففي شَرْطةِ مِحْجَمٍ، أو شَرْبةٍ مِن عَسَلٍ، أو لَذْعةٍ بنارٍ. قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: وَما أُحِبُّ أنْ أكْتَوِيَ. قال: فجاءَ بحَجَّامٍ، فشَرَطَهُ، فذَهَبَ عنْه ما يَجِدُ))[1].



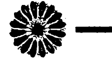
في هذا الحديثِ ذِكرٌ لبَعضِ الأدويةِ التي أرشَدَ إليها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والتي فيها الشِّفاءُ بإذنِ اللهِ تعالَى، فيَحكي عاصمُ بنُ عُمَرَ بنِ قَتادةَ أنَّ الصحابيَّ جابرَ بنَ عبدِاللهِ رضِيَ اللهُ عنهُما قدِمَ عليهِم في أهْلِهم، فوجَدَ رجُلًا يَشْتكي خُرَاجًا: وهو مرَضٌ مَعروفٌ يَظهَرُ على جِلدِ الإنسانِ يَجتمِعُ فيه القَيحُ والصَّديدُ، أو كان الرَّجُلُ يَشْتكي جُرحًا أصابَه، فسَألَه جابرُ بنُ عبدِاللهِ رضِيَ اللهُ عنهُما عمَّا به، فحَكى له الرجُلُ مُصابَه وألَمَه، فطلَبَ جابرُ بنُ عبدِاللهِ رضِيَ اللهُ عنهُما أدواتِ الحِجامةِ؛ كي يُعالِجَه بها، فأظْهَرَ الرجُلُ تَضَجُّرَه وسَآمتَه؛ لأنَّ ما به مِن جُرحٍ يُؤلِمُه ويُؤذيه، فلا يَتحمَّلُ مَسَّ الثَّوبِ أو مسَّ ذُبابةٍ، فكيفَ سيَتحمَّلُ مِشرَطَ الحجَّامِ؟! فلمَّا رأى جابرٌ رضِيَ اللهُ عنه

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥) واللفظ له.

منه ذلك أخبَرَه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أرشَدَ للتَّداوي بالحِجامةِ وبالعَسَلِ وبالكيِّ بالنَّارِ؛ حيثُ بيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إنْ كان شَيءٌ مِن أدْويةِ النَّاسِ فيها الشِّفاءُ، ففي تلك الثلاثةِ، والحِجامةُ: شَقُّ عِرقٍ مِن عُروقِ الجِسمِ؛ لإخراجِ الدَّمِ الفاسِدِ منه بعدَ تَجميعِه فيه. والكيُّ: هو الاكتِواءُ بالنَّارِ مِن أثَرِ جُرحٍ ونحوِه، وكلُّ هذا بإذنِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه هو الشَّافي، وبيَّن صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لا يُحِبُّ أنْ يَكتوِيَ؛ لِما في الكيِّ مِن تَعجيلِ الألَمِ الشَّديدِ في دفْعِ ألَمٍ قد يَكونُ أضعَفَ وأخفَّ مِن ألَمِ الكَيِّ، وفيه إشارةٌ إلى تأخيرِ العِلاجِ بالكَيِّ حتى يُضطَرَّ إليه.

إبرادُ الحُمَّى بالماءِ

عن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رضِيَ اللهُ عنهُما، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((الحُمَّى مِن فَيحِ جَهنَّمَ؛ فأبْرِدُوها بالماءِ))[1].



الحُمَّى مرَضٌ يُصيبُ به اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ عِبادِه ليُكفِّرَ به خَطاياهم، ويَرفَعَ به درَجاتِهم، وفي هذا الحديثِ يَصِفُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الماءَ عِلاجًا يُخفِّفُ حِدَّةَ الحمَّى وضرَرَها على مَن نزَلَتْ به، فيُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ «الحُمَّى مِن فَيحِ جَهنَّم»: مِن حَرارتِها وشِدَّةِ لَهَبِها، وانتِشارِها، أُرْسِلَت إلى الدُّنْيا نَذيرًا للجاحِدينَ، وبَشيرًا للمُؤمِنينَ، ولا يُقالُ: كيف وَصَل فَيحُ جهنَّمَ إلى بَدَنِ الإنسانِ؛ فهذا أمْرُه إلى اللهِ تعالى، ولا نَعرِفُه، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ التَّشبيهَ، فشَبَّهَ شِدَّةَ حَرِّ الحُمَّى بحَرِّ جهنَّمَ.

فأرشَدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى أنْ تُسكَّنَ حَرارتُها بالماءِ البارِدِ، فتُغسَلَ أطرافُ المَحمومِ منه؛ ليَقَعَ به التَّبرُّدُ؛ لأنَّ الماءَ البارِدَ رطْبٌ يَنساغُ بسُهولةٍ، فيصِلُ بلَطافَتِه إلى أماكنِ العلَّةِ فيَدفَعُ حَرارتَها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٤)، ومسلم (٢٢٠٩).

العَدْوى

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا عَدْوى، ولا طِيَرةَ، ولا هامَةَ، ولا صَفَرَ، وفِرَّ مِنَ المَجْذومِ كما تَفِرُّ مِنَ الأسَدِ))[1].

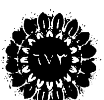


في هذا الحَديثِ يُخبِرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه «لا عَدْوى»، وهيَ انتِقالُ المرضِ منَ المريضِ إلى غَيرِه، والمعْنى: أنَّها لا تُؤثِّرُ بطبْعِها، وإنَّما يَحدُثُ هذا بقدَرِ اللهِ وتَقديرِه. وكانوا يظنُّونَ أنَّ المرضَ بنفْسِه يُعدي، فأعلَمَهمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الأمرَ ليس كذلك، وإنَّما اللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي يُقدِّرُ المرَضَ ويُنزِلُ الداءَ.

وأيضًا يُبطِلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ التَّشاؤمَ والتَّطيُّرَ بالهامَةِ، وأنَّه لا وُجودَ لهذا المُعتقَدِ الجاهليِّ في ظلِّ الإسلامِ، والهامَةُ: اسمُ طائرٍ، وهو المرادُ في الحديثِ؛ وذلك أنَّهم كانوا يَتشاءَمون بها، وهي مِن طَيرِ اللَّيلِ. وقيل: هي البُومةُ. وكانت العَرَبُ تَزعُمُ أنَّ في البطنِ حيَّةً يُقالُ لها: (الصَّفَرُ)، تُصيبُ الإنسانَ إذا جاع وتُؤذيه، وأنَّها تُعدِي؛ فأبطَلَ الإسلامُ ذلك، وقيل: أراد به النَّسيءَ الذي كانوا يَفعَلونَه في الجاهليَّةِ، وهو تأخيرُ المحرَّمِ إلى صَفَرَ، ويَجعَلونَ صَفَرَ هو الشَّهرَ الحرامَ، فأبطَلَه الإسلامُ.

ثمَّ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: «وفِرَّ مِن المَجْذومِ»، وهو المُصابُ بمَرَضِ الجُذامِ، وهوَ مَرضٌ تَتآكَلُ منه أعضاءُ الإنسانِ، والفِرارُ منه يعني: ابتَعِدْ عنه مُحتاطًا لنفسِكَ طالبًا لها السَّلامةَ كما تفِرُّ منَ الأسدِ، ونَهى عنِ القُربِ منَ المجذومِ؛ ليَظهرَ لهم أنَّ هذا مِن الأسبابِ التي أجْرى اللهُ العادةَ بأنَّها تُفضِي إلى مُسبَّباتِها؛ ففي ذلك

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢٠).



إثباتُ الأسبابِ، وأنَّها لا تَستقِلُّ بذاتِها، بل اللهُ هو الذي إنْ شاءَ سلَبها قُواها فلا تُؤثِّرُ شيئًا، وإنْ شاءَ أبقاها فأثَّرتْ.

الرُّقَى

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وعن عَوْفِ بنِ مالكٍ الأشْجَعيِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: كُنَّا نَرْقي في الجاهليَّةِ، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، كيف تَرى في ذلك؟ فقال: ((اعْرِضوا علَيَّ رُقاكُم، لا بَأْسَ بالرُّقَى ما لم يَكُنْ فيه شِرْكٌ))(١).



الرُّقيةُ هي ما يُقرَأُ على المريضِ مِنَ الآياتِ القرآنيَّةِ والأدعيةِ المشروعةِ، وقد أباحَها الإسلامُ، وفعَلَها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لنفْسِه ولغَيرِه، والرُّقيةُ لأمراضٍ مُتعدِّدةٍ؛ منها: الرُّقيةُ مِنَ السِّحرِ، ومِنَ العقربِ، ومِن نظْرةِ العَينِ والحسَدِ، وغيرِها، وقد عرَفَها العربُ في الجاهليَّةِ، وكانوا يَرقُونَ ببَعضِ الأُمورِ الشِّركيَّةِ التي حرَّمَها الإسلامُ، وبعضُ الرُّقى كانت خاليةً مِنَ الشِّركِ فأقرَّها الإسلامُ، واللهُ تعالى قد أخبَرَ **في هذه الآيةِ الكَريمة** أنَّ القُرآنَ شِفاءٌ ورَحمةٌ للمؤمنينَ العاملينَ به، فيَشفي قُلوبَهم مِن جَميعِ الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ، ويَشفي أبدانَهم مِن جَميعِ العِلَلِ والأمراضِ؛ فلم يُنزلِ اللهُ سُبحانه وتَعالى شِفاءً أعَمَّ، ولا أنفَعَ، ولا أعظَمَ في إزالةِ الدَّاءِ؛ مِن القرآنِ العظيمِ.

ويَنبغي التفَطُّنُ إلى أنَّ الآياتِ التي يُستَشفى ويُرقَى بها هي في نَفسِها نافِعةٌ شافِيةٌ بلا شَكٍّ، ولكِنْ حُصولُ الشِّفاءِ بها يَتطلَّبُ أيضًا قوَّةَ إيمانِ قائلِها، وقوَّةَ نَفسِه

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

واستعدادِه، وقوَّةَ توكُّلِه، وثَباتَ قَلبِه؛ فإنَّها سِلاحٌ، والسِّلاحُ بضارِبِه لا بحَدِّه فقطْ. وهذا يكونُ أيضًا مع الأدويةِ والأدواءِ الحِسِّيَّةِ؛ فإنَّ عَدَمَ تأثيرِها قد يكونُ لعَدَمِ قَبولِ طَبيعةِ البدنِ لذلك الدَّواءِ، وقد يكونُ لمانعٍ قَويٍّ يَمنَعُ مِن حُصولِ أثَرِه.

وفي حَديثِ عَوفِ بنِ مالكٍ الأشْجَعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّهم كانوا يَرقُونَ في الجاهليَّةِ قبْلَ مَجيءِ الإسلامِ، فسَألوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن حُكمِ ذلك؛ أيَستمِرُّون كما كانوا، أمْ هو مِنَ المُحرَّماتِ فيَتوقَّفون عنها؟ فأجابَهُم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَعرِضوها عليه، ثُمَّ ذكَرَ حُكمًا عامًّا وقاعِدةً تَضبِطُ هذا البابَ، فقال: «لا بَأْسَ بالرُّقى ما لم يكُنْ فيه شِرْكٌ»، بمعنى: لا حرَجَ ولا مانعَ مِنَ الرُّقيةِ ما لم يكُن فيها كُفرٌ باللهِ، أو شَيءٌ مِن كَلامِ أهلِ الشِّركِ الذي لا يُوافِقُ أصولَ الشَّريعةِ؛ فإنَّ ذلك مُحرَّمٌ، وقد أجمَعَ العلماءُ على جَوازِ الرُّقى بشُروطٍ ثلاثةٍ: أنْ تكونَ بكَلامِ اللهِ تعالى، أو أسمائِه، أو صِفاتِه، وأنْ تكونَ باللُّغةِ العربيةِ، أو بما يُعرَفُ معناهُ، وأنْ يُعتقَدَ أنَّ الرُّقيةَ لا تُؤثِّرُ بذاتِها، بلْ بتَقديرِه تعالى.

الرُّقْيةُ منَ العَينِ

قال اللهُ تعالى حاكيًا عن نَبيِّه يعقوبَ عليه السَّلامُ: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٧].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: ٥].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((العَينُ حَقٌّ))(١).

وعن أُمِّ سَلَمةَ هندِ بنتِ أبي أُميَّةَ رضِيَ اللهُ عنها: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧).

قال لِجارِيةٍ في بَيتِ أُمِّ سَلَمةَ زَوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، رَأى بوَجْهِها سَفْعةً، فقال: ((بهَا نَظْرةٌ، فاستَرْقُوا لها)). يَعني: بوَجْهِها صُفْرةٌ[1].

وعن جابرِ بنِ عبدِاللهِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: رَخَّصَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِآلِ حَزْمٍ في رُقْيةِ الحَيَّةِ، وقال لأسْماءَ بنْتِ عُمَيسٍ: ((ما لي أرَى أجْسامَ بَني أخِي ضارِعةً. تُصِيبُهم الحاجَةُ؟! قالتْ: لا، ولكنِ العَينُ تُسرِعُ إليهِم. قال: ارْقِيهِم. قالتْ: فعَرَضْتُ عليه، فقال: ارْقِيهِم))[2].



في الآيةِ الأُولى إثباتُ أنَّ العينَ حَقٌّ، وهي لا تُصيبُ إلَّا بقَدَرِ اللهِ تعالى، وفيها مَشروعيَّةُ الاحترازِ مِن العَينِ، وهذا على القَولِ بأنَّ يَعقوبَ قد أمَرَ أبناءَه بدُخولِ مِصرَ مِن أبوابٍ مُتفرِّقةٍ؛ خَوفًا عليهم مِن العَينِ.

وفي الآيةِ الثانيةِ الأمرُ بالاستعاذةِ مِن شَرِّ الحاسِدِ المُبغِضِ للنَّاسِ إذا حسَدَهم على ما آتاهُم اللهُ تعالى مِن نِعَمٍ، وأراد زَوالَها عنهم، وإيقاعَ الأذى والضَّرَرِ بهم، فمِنْ حَسَدِه يُصيبُ بعَينِه المَحسودَ بقَدَرِ اللهِ تعالى.

وفي حديثِ أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ «العَينَ حقٌّ»، والعينُ: آفةٌ تُصيبُ الإنسانَ والحيوانَ نَتيجةَ نظْرةِ العائنِ، فيُؤثِّرُ فيه، فيَمرَضُ أو يَهلِكُ بسَببِه، وهي ثابتةٌ واقعةٌ ولها تأثيرٌ. وهي حقٌّ بقَضاءِ اللهِ وقدَرِه.

وفي حَديثِ أُمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عَنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَأى في بَيتِها جارِيةً في وَجهِها سَوادٌ وشُحوبٌ، فقال: اطْلُبوا لها الرُّقيَةَ، أو مَن يَرقي لَها؛ فإنَّها أصابَتْها عَينٌ. وتكونُ الرُّقيةُ مِنَ العَينِ بالقُرآنِ، وبِما ورَدَ في السُّنَّةِ الصَّحيحةِ، وبالرُّقَى

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٩)، ومسلم (٢١٩٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٩٨).

والأَدعيةِ التي لَيس فيها شِركٌ أو مُخالفةٌ للشَّرعِ المطهَّرِ.

وفي حَديثِ جابرٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رخَّصَ لآلِ حَزْمٍ (بَني عَمرِو بنِ حَزْمٍ) في الرُّقْيةِ مِن لَدْغِ الحيَّةِ وعَضِّها، والرُّخْصةُ إنَّما تكونُ بعدَ النَّهيِ، وكان صلَّى الله عليه وسلَّم قد نَهى عنِ الرُّقَى؛ لِمَا عَسى أنْ يكونَ فيها منَ الألفاظِ الجاهليَّةِ، فانتَهَى الناسُ عنِ الرُّقَى، فرخَّص لهم فيها إذا عَرِيَتْ عنِ الألفاظِ الجاهليَّةِ. وقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِأسماءَ بنتِ عُمَيسٍ -وكانتْ في ذلك الوقتِ امرأةَ جَعفَرِ بنِ أبي طالِبٍ رضِيَ اللهُ عنه وأُمَّ أبنائِه-: ما لي أرَى أجسامَ بَنِي أخي نَحِيفةً؟ أَتُصيبُهمُ الفَقرُ والجُوعُ؟ فأجابَتْ أنَّه ليس بِهم فَقرٌ ولا جُوعٌ، ولكنِ العَينُ تُصِيبُهم، فأمَرَها صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ تُعوِّذَهم بالرُّقيةِ الشرعيَّةِ، فعَرَضَتْ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رُقْيتَها، فقال: ارْقِيهِمْ بها.

رُقيةِ الرَّجُلِ أهلَه إذا اشتَكَوْا

عن عائِشةَ أُمِّ المُؤمنينَ رضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا اشْتكى منَّا إنْسانٌ مَسَحَه بيَمِينِه، ثُمَّ قالَ: ((أَذْهِبِ البَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، واشْفِ أنتَ الشَّافِي، لا شِفاءَ إلَّا شِفاؤُك، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا. فلَمَّا مَرِضَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وثَقُلَ، أخَذْتُ بيَدِهِ لأَصْنَعَ به نحْوَ ما كان يَصنَعُ، فانْتَزَعَ يَدَهُ مِن يَدِي، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي واجْعَلْنِي مع الرَّفِيقِ الأعْلَى! قالتْ: فذَهَبْتُ أنْظُرُ، فإذا هو قدْ قَضَى))[1].

وعنها رضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا مَرِضَ أحَدٌ مِن أهْلِه نَفَثَ عليه بالمُعَوِّذاتِ، فلَمَّا مَرِضَ مَرَضَه الذي ماتَ فِيهِ جَعَلْتُ أنْفُثُ عليه

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (٢١٩١) واللفظ له.



وأمْسَحُه بيَدِ نَفْسِه؛ لأنَّهَا كانتْ أعظَمَ بَرَكةً مِن يَدِي))[1].



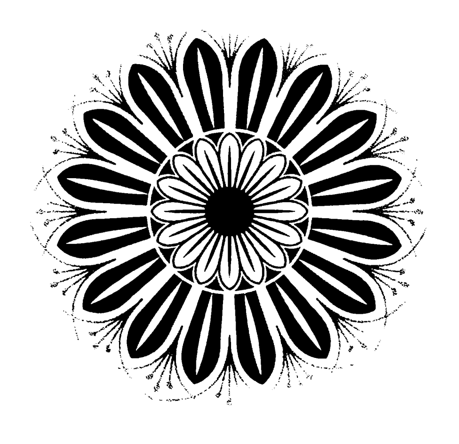
كان مِن هَدْيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رُقيةُ مَنِ اشتكَى مِن أهْلِه ومِن غيرِهم، **وفي حَديثِ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها الأوَّلِ**: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا اشْتكى أحدٌ مِن أهلِه مَسَحَه بيَمينِه الشَّريفةِ، ويَدْعو له بالدُّعاءِ الواردِ في الحديثِ، ومعناه: اللَّهُمَّ أذهِبِ المرضَ والشِّدَّةَ، واشْفِ أنت الشَّافي، لا شِفاءَ إلَّا شِفاؤُك، شِفاءً مُطلقًا لا يَترُكُ أيَّ مرَضٍ أو أثَرٍ له. فالشِّفاءُ الحقيقيُّ مِن عندِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، والرُّقيةُ وتَدبيرُ المعالِجِ ونفْعُ الدَّواءِ؛ لا يُؤثِّرُ في المريضِ إذا لم يُقدِّرِ اللهُ تعالى الشِّفاءَ.

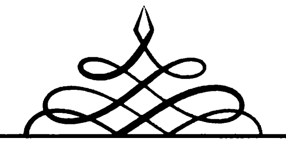
وتُخبِرُ عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّها لمَّا مَرِضَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَرَضَه الذي ماتَ فيه، واشتدَّ عليه المرضُ؛ أخَذَتْ رَضِيَ اللهُ عنها بيَدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لتَصنَعَ به نحْوَ ما كان يَصنَعُ؛ تَيمُّنًا وتَبرُّكًا بيَدِه الشَّريفةِ، فانْتَزَع رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدَهُ مِن يَدِ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، وتوجَّهَ إلى اللهِ داعيًا سائلًا اللهَ المَغفرةَ، وأنْ يَجعَلَه معَ «الرَّفيقِ الأعلى»، والمقصودُ به: الأنبياءُ والصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ والصَّالِحونَ؛ مِصداقًا لقَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]. ونظَرَتْ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فإذا رُوحُه قد فاضتْ إلى خالقِها!

وفي الحَديثِ الثَّاني تَزيدُ عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا رَقى مَن مَرِضَ مِن أهلِه «نَفَثَ عليهِ بالمُعوِّذاتِ»، والنَّفْثُ: هو نفْخٌ لَطيفٌ لا رِيقَ معَه، على المَشهورِ، وهو أقَلُّ مِنَ التَّفْلِ، والمُعوِّذاتُ هي سُورةُ الفلَقِ وسُورةُ الناسِ، وجُمِعَت باعتبارِ أنَّ ما يُستعاذُ منه فيهما كثيرٌ. وقيل: يُضَمُّ إليهما سُورةُ

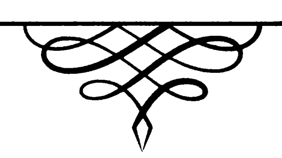
(١) أخرجه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢) واللفظ له.

الإخلاصِ، ورَقى بهنَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنهنَّ جامِعاتٌ للاستِعاذةِ مِن كلِّ المكروهاتِ جُملةً وتَفصيلًا؛ ففيها الاستِعاذةُ مِن شرِّ ما خلَقَ، فيَدخُلُ فيه كلُّ شَيءٍ، ومِن شرِّ السَّواحِرِ، ومِن شرِّ الحاسدينَ، ومِن شرِّ الوَسواسِ الخنَّاسِ.

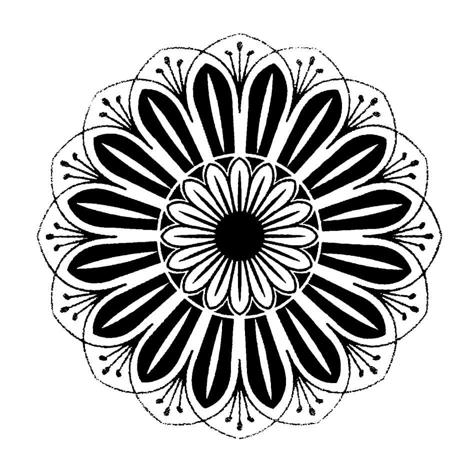




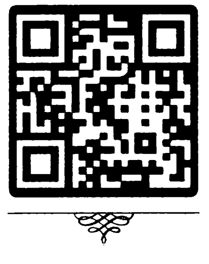
الأذْكارُ



حصونٌ مِن جَوامِعِ الكَلِمِ الطَّيِّب، يُردِّدُها المُسلِمُ في صَباحِه ومَسائِه، في حِلِّه وتَرحالِه، في يَقَظتِه وقبلَ مَنامِه، في عِباداتِه وجَميعِ أعمالِه؛ تُرطِّبُ لِسانَه، وتَشرَحُ جَنانَه، وتُجدِّدُ نَشاطَه، وتَبعَثُ هِمَّتَه، وتُزيلُ هَمَّه.



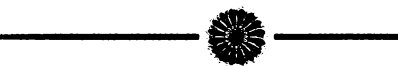
لزيارة
الموسوعة
الحديثية



فَضائِلُ القُرآنِ

فَضلُ تعَلُّمِ القُرآنِ وتعليمِه

عن عُثمانَ بنِ عفَّانَ رضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خيرُكم مَن تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمه))(1).



القُرآنُ العظيمُ أفضَلُ الذِّكرِ، وخيرُ الأعمالِ وأنفعُها للفردِ والمجتمعِ هو تعلُّمُه وتعليمُه؛ فهو طريقُ الهِدايةِ والصَّلاحِ، وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أَفضلَ المُسلمينَ وأرفَعَهم ذِكرًا وأَعْلاهم عِندَ اللهِ دَرجةً: هو مَن تَعلَّمَ القُرآنَ؛ تِلاوةً وحِفظًا وتَرتيلًا، وتَعلَّمَه فِقهًا وتَفسيرًا، فأصبَحَ عالِمًا بمَعانيه، فَقيهًا في أحكامِه، وعمِلَ بمُقتضَى ذلك، وعلَّم غيرَه ما عِندَه مِن علومِ القُرآنِ مع عَملِه به، وإلَّا كان القُرآنُ حُجَّةً عليه.

فخَيرُ النَّاسِ مَن جَمَعَ بينَ هَذينِ الوَصْفينِ؛ مَن تعلَّم القُرآنَ مِن غيرِه، وعَلَّمه غيرَه، وهذا بيانٌ لفَضلِ حامِلِ القُرآنِ ومُعلِّمِه، وأنَّه خيرُ المُؤمنينَ؛ لأنَّه أعظَمُهم نَفعًا وإفادةً للأُمَّةِ.

فَضْلُ قِراءةِ القُرآنِ وحِفظِه وإتْقانِ تِلاوتِه

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وعن عائِشةَ رضِيَ اللهُ عنها، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَثَلُ الذي يَقرأُ

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).



القُرْآنَ وهو حافِظٌ له: مع السَّفَرةِ الكِرامِ البَرَرةِ، ومَثَلُ الذي يَقرَأُ وهو يَتَعاهَدُه وهو عليه شَدِيدٌ: فلَهُ أجْرانِ))(١).

وعن أبي أُمَامةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((اقْرَؤُوا القُرْآنَ؛ فإنَّه يأْتي يومَ القِيامةِ شَفِيعًا لأَصْحابِه ...)) الحديثَ(٢).

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَثَلُ المُؤمِنِ الذي يقرأُ القرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُها طَيِّبٌ وطَعمُها طَيِّبٌ. ومَثَلُ المُؤمِنِ الذي لا يَقرأُ القرآنَ مَثَلُ التَّمْرةِ؛ لا رِيحَ لها وطَعمُها حُلوٌ. ومَثَلُ المنافِقِ الذي يقرأُ القرآنَ مَثَلُ الرَّيحانةِ؛ رِيحُها طَيِّبٌ وطَعمُها مُرٌّ. ومثَلُ المُنافِقِ الذي لا يقرأُ القُرآنَ كمَثَلِ الحَنظَلةِ؛ ليس لها رِيحٌ وطَعمُها مُرٌّ))(٣).



أنزلَ اللهُ القُرآنَ الكريمَ هِدايةً ورحمةً للعالَمِينَ، فينبغي أن يُداوِمَ المسلمُ على قِراءتِه وحِفظِه، وفَهمِ معانيه، والعمَلِ بمَقتضاهُ، وقد أخبَرَ اللهُ تبارَك وتعالَى **في الآيةِ المذكُورةِ** أنَّ المؤمِنينَ الذين يُداوِمونَ على تلاوةِ القُرآنِ، فيتتبَّعونَ ألفاظَه بدِراستِها، ومعانيَه باستخراجِها، ويتَّبِعونَه بالعمَلِ بأحكامِه، والتَّصديقِ بأخبارِه، ويُداوِمونَ على أداءِ الصَّلواتِ على وَجهٍ تامٍّ مُستقيمٍ كما أمَرَ اللهُ تعالى، ويُنفِقونَ ممَّا رزَقهم مِن الأموالِ في الخَفاءِ، حيثُ لا يراهم أحدٌ، وفي العَلَنِ بمرأًى مِنَ النَّاسِ- هؤلاء يَرجُونَ بتلك الأعمالِ تِجارةً رائجةً، رابحةً باقيةً، لن تخسَرَ ولن تكسُدَ وتَهلِكَ أبدًا.

وفي هذِه الأحاديثِ الشَّريفةِ يحُثُّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على قِراءةِ القُرآنِ،

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧) واللفظ له، ومسلم (٧٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٤٢٧)، ومسلم (٧٩٧) واللفظ له.

وحِفظِه عن ظَهرِ قلبٍ، والعَملِ به، ويبيِّنُ الأجرَ العظيمَ على ذلك مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

ففي حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الذي يَقرأُ القرآنَ، وهو ماهرٌ حاذِقٌ لا يتوقَّفُ ولا تَشُقُّ عليه القِراءةُ لجَودةِ حِفظِه وإتقانِه؛ منزلَتُه مع السَّفَرةِ الكرامِ البَرَرةِ، وهمُ الرُّسلُ، فيكونُ رفيقًا لهم في منازِلِهم. وقيلَ: همُ الملائكةُ المُكرَمونَ المقرَّبون عِندَ اللهِ تعالَى؛ لعِصمتِهم ونَزاهتِهم عن دنَسِ المعصيةِ والمخالَفةِ، والبَرَرةُ جمعُ البارِّ: وهم المطيعونَ؛ مِنَ البِرِّ: وهو الطاعةُ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ معنى كونِه معَ الملائكةِ أنَّ له في الآخرةِ منازلَ يكونُ فيها رفيقًا للملائكةِ السَّفرةِ؛ لاتِّصافِه بصِفتِهم مِن حمْلِ كِتابِ اللهِ تعالَى، ويَحتمِلُ أنْ يُرادَ أنَّه عامِلٌ بعملِهم، وسالِكٌ مسلَكَهُم. والذي يَقرأُ القرآنَ فيضبِطُه ويتفقَّدُه ويُكرِّرُ قراءتَه حتى لا ينساه، ويَشتدُّ عليه هذا الأمرُ ويَشقُّ عليه؛ لضعْفِ حفْظِه وإتقانِه: فإنَّ له أجريْنِ: أجرًا لِقراءتِه، وأجرًا لِعَنائِه وما يُلاقيه مِن شِدَّةٍ في حفْظِه، وليسَ المرادُ أنَّ أجْرَه أكثرُ مِن أجْرِ الماهرِ، بلِ الأوَّلُ أكثرُ؛ ولذا كان مع السَّفَرةِ؛ فالحافظُ لا يَصيرُ كذلك إلَّا بعدَ عناءٍ كثيرٍ ومشقَّةٍ شديدةٍ غالبًا.

وفي حديثِ أبي أُمامةَ رضِيَ اللهُ عنه يحُثُّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على قِراءةِ القرآنِ، ويأمرُ بالمُداومةِ عليها، ويُخبِرُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ القرآنَ يأتي يومَ القِيامةِ ويَشفَعُ لِقارِئيهِ العامِلينَ به، ويُحاجُّ عنهم عِندَ اللهِ سُبحانَه وتعالَى طالبًا المَغفِرةَ لهم وأنْ يُخلَّصوا مِن النارِ ويُدْخَلوا الجَنةَ، أو في رَفْعِ دَرجاتِهم في الجَنَّةِ.

وفي حديثِ أبي مُوسَى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنه دَعوةٌ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لقراءةِ القرآنِ، وحثٌّ على الانتفاعِ به ظاهِرًا وباطِنًا، ونفعِ النَّاسِ به، وقد ضرَبَ فيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَثَلًا يقسِّمُ فيه الناسَ وعَلاقتَهم بالقرآنِ إلى أربعةِ أقسامٍ:

القِسمُ الأولُ: هو المُؤمنُ الذي يقرأُ القرآنَ وينتفِعُ به، فيعملُ بما يقرأُ، وينفعُ عبادَ



اللهِ، وهذا شبَّهه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بثمرةِ الأُتْرُجَّةِ، وهو ثَمَرٌ جامِعٌ لِطِيبِ الطَّعْمِ والرَّائحةِ وحُسْنِ اللَّونِ، ومَنافِعُه كَثيرةٌ. ويُسَمَّى في بَعضِ البُلدانِ بالأُترُجِّ، وهو مِنَ الحِمْضيَّاتِ يُشبِهُ اللَّيمونَ، وحَجمُه أكبَرُ من البُرتقالِ، وقِشرتُه مُتعَرِّجةٌ.

وأما القِسمُ الثاني: فهو مثَلُ المؤمنِ الذي طاب باطِنُه لثباتِ الإيمانِ فيه، وقيامِه بالواجباتِ، غيرَ أنَّه لا يقرأُ القرآنَ، باستثناءِ الواجبِ منه كالفاتحةِ، فيُشبِّهُه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّمْرةِ؛ طعمُها حلوٌ ولا رِيحَ لها؛ فاشتِمالُه على الإيمانِ كاشتِمالِ التَّمرةِ على الحلاوةِ، بجامعِ أنَّ كِلَيهما أمرٌ باطنيٌّ، وعدمُ ظهورِ ريحٍ لها يستريحُ الناسُ لشمِّه لعدمِ ظهورِ قراءةٍ منه يستريحُ الناسُ بسماعِها.

وأما القسمُ الثالثُ: فهو المُنافقُ الذي يقرأُ القرآنَ، ولا يُصلِحُ قلبَه بالإيمانِ، ولا يعملُ به، ويتظاهَرُ أمامَ الناسِ أنَّه مؤمنٌ، فهو من حيثُ تعطُّلُ باطنِه عنِ الإيمانِ واستراحةُ الناسِ بقراءتِه، مِثْلُ الرَّيحانةِ لها رائحةٌ طيبةٌ وطعمُها مُرٌّ؛ فريحُها الطيِّبُ يُشبِهُ قراءتَه، وطعمُها المرُّ يشبِهُ كُفرَه.

وأمَّا القِسمُ الرابعُ: فهو المُنافقُ الذي لا يقرأُ القُرآنَ، شبَّهه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من حيثُ تعطُّلُ باطنِه عنِ الإيمانِ، وظاهرِه عن سائرِ المنافعِ، وتلبُّسُه بالمضارِّ: بالحنظلةِ؛ حيثُ إنَّها لا رائحةَ لها، وفيها ما فيها منَ المَذاقِ المُرِّ؛ فانعِدامُ رِيحِها أشبهُ بانعدامِ ريحِه لعدمِ قِراءتِه، ومَرارةُ طعْمِها شَبيهٌ بمَرارةِ كُفرِه.

تَعاهُدُ القُرآنِ وخُطورةُ تَعريضِه للنِّسيانِ

قال اللهُ تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنهُ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال:

((تَعاهَدُوا هذا القُرْآنَ؛ فوالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَهو أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإبِلِ في عُقُلِها))[1].

تعاهُدُ القُرآنِ والعملُ بمقتضاهُ نِعمةٌ مِن أَجَلِّ نِعمِ اللهِ على العبدِ؛ فينبغي لِمَن رُزِقها أن يُحافِظَ عليها، وألَّا يفرِّطَ فيها.

وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ يَشتكي النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لرَبِّه أنَّ قَومَه قد تَركوا القُرآنَ العظيمَ وهجَروه، فلا يَسمَعونه ولا يتدَبَّرونَه، ولا يُؤمِنون به، ولا يَعمَلون بأحكامِه. وفي ذلك تَلويحٌ بأنَّ الواجِبَ على المؤْمنِ أنْ يكونَ كثيرَ التَّعاهُدِ للقُرآنِ؛ كَيْ لا يَندرِجَ تحتَ الآيةِ الكريمةِ. وفي مجيءِ قَولِه تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بعْدَ قَولِه تعالَى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مَن هَجَرَ القرآنَ فهو مِن أعداءِ الرَّسولِ! وفي هذا تخويفٌ عظيمٌ، ووعيدٌ شديدٌ لكلِّ مَن كان هاجرًا للقُرآنِ العظيمِ بوَجهٍ مِن وجوهِ الهِجرانِ؛ فالهجرُ طبقاتٌ أعلاها عدمُ الإيمانِ به، ولكلِّ هاجرٍ حظُّه مِن هذه الشُّكوى وهذا الوعيدِ.

وفي حديثِ أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنهُ ينبِّهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ضرورةِ المُواظَبةِ على القرآنِ بالحِفظِ والتَّردادِ، والحَذَرِ مِن تَعريضِه للنِّسيانِ بإهمالِ تلاوتِه ومراجعتِه، ويُقسِمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باللهِ الذي نفْسُه بيدِه؛ فأمْرُ خَلقِها ورزقِها، وإرادةُ الخيرِ والشرِّ لها، وبقاؤُها وموتُها، ونعيمُها وعذابُها: بيدِه سبحانَه وحْدَه؛ يُقسِمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا القَسَمَ ليؤكِّدَ أنَّ القُرآنَ أشدُّ تفلُّتًا من الإبلِ المَربوطةِ بالحِبالِ، فإذا لم يُتعاهَدْ رَبطُها هربَت، فشبَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تعاهُدَ القُرآنِ واستمرارَ تلاوتِه بربطِ البعيرِ الذي يُخشى منه أن يَشرُدَ، فما دام التعاهُدُ

(١) أخرجه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (٧٩١) واللفظ له.



موجودًا فالحِفظُ موجودٌ، كما أنَّ البعيرَ ما دامَ مشدودًا بالعِقالِ فهو محفوظٌ. وخصَّ الإبلَ بالذِّكرِ؛ لأنَّها أشدُّ الحيوانِ الإنسيِّ نُفورًا، وفي تَحصيلِها بعد استِمكانِ نُفورِها صُعوبةٌ؛ فينبغي للإنسانِ أن يَجعَلَ لنفسِه وِرْدًا يوميًّا يتعاهدُ به ما يحفَظُه مِنَ القرآنِ، فضلًا عن استكمالِ حفظه لِمَن لم يَتِمَّ له حِفْظُه بَعْدُ.

تَحسينُ الصَّوتِ بقِراءةِ القُرآنِ

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ، أنَّه كان يقولُ: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لَمْ يَأْذَنِ اللهُ لِشَيءٍ ما أَذِنَ للنَّبِيِّ أنْ يتَغَنَّى بالقُرْآنِ))[1].



جمالُ الصَّوتِ في قِراءةِ القرآنِ ممَّا يُعينُ على الخشوعِ والتدبُّرِ لدَى القارئِ والمستمِعِ، وفي هذا الحَديثِ دعوةٌ إلى تحسينِ الصوتِ بقِراءةِ القرآنِ قَدْرَ الوُسْعِ والطَّاقةِ، فيخبِرُ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَم يَستَمِعْ لشَيءٍ كاستِماعِه لِلنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يَتَغَنَّى بِالقُرآنِ؛ فالفِعلُ (أَذِنَ) هنا بمعنَى: استمَعَ؛ واللهُ سُبحانَه وتعالَى يَسمَعُ أصواتَ العِبادِ كلِّهم؛ بَرِّهم وفاجِرِهم، ولكنَّ استِماعَه لقِراءةِ النبيِّ استِماعٌ خاصٌّ، وهو أعظَمُ وأبلغُ. والتغنِّي بالقُرآنِ هو أنْ يَجهَرُ بقِراءتِه، ويُحسِّنَ صَوتَه به، كما جاء في روايةٍ أخرَى: «ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ كأَذَنِه لنبيٍّ يَتغنَّى بالقُرآنِ يجهَرُ به»[2]؛ لأنَّه يَجتمِعُ في قِراءةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم طِيبُ الصَّوتِ، وتَمامُ الخَشيةِ، وذلك هو الغايةُ في ذلك.

فَضْلُ قِراءةِ سُورَتَي البَقَرةِ وآلِ عِمْرانَ

عن أبي أُمامةَ رضِيَ اللهُ عنهُ، قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول:

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٣) واللفظ له، ومسلم (٧٩٢).

(٢) أخرجه مسلم (٧٩٣).



((اقْرَؤُوا القُرْآنَ؛ فإنَّه يَأْتي يَومَ القِيامةِ شَفيعًا لأَصْحابِه، اقْرَؤُوا الزَّهْراوَيْنِ: البَقَرةَ، وسُورةَ آلِ عِمْرانَ؛ فإنَّهُما تَأْتِيانِ يَومَ القِيامةِ كأنَّهما غَمامَتانِ، أوْ كأنَّهما غَيايَتانِ، أو كأنَّهما فِرْقانِ مِن طَيْرٍ صَوافَّ، تُحاجَّانِ عن أصْحابِهما، اقرَؤُوا سُورةَ البَقَرةِ؛ فإنَّ أخْذَها بَرَكةٌ، وتَرْكَها حَسْرةٌ، ولا تَستَطِيعُها البَطَلَةُ))[1].

في هذا الحَديثِ يحُثُّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على المُداومةِ على قِراءةِ القُرآنِ، ويُخبِرُ أنَّ القُرآنَ يتمثَّلُ يومَ القِيامةِ بصُورةٍ يَراها النَّاسُ، كما يَجعلُ اللهُ لأعمالِ العِبادِ صُورةً ووَزنًا؛ لِتُوضَعَ في المِيزَانِ، وخصَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالذِّكرِ قِراءةَ سُورَتَيِ البقرةِ وآلِ عِمرانَ؛ بيانًا لعِظَمِ منزلتِهما، وتأكيدًا لِخُصوصِيَّتِهما في الشَّفاعةِ لمَنْ داومَ على قِراءتِهما والعمَلِ بما فيهما، ويَصِفُهما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بـ«الزَّهْرَاوَيْنِ» بمعنى المُنيرَتَينِ، سُمِّيَتا الزَّهراوَينِ؛ لِنُورِهما وهدايتِهما وعَظيمِ أجْرِهما، أو لِما يُسَبِّبُ له أجرُهما من النُّورِ يومَ القيامةِ، ويبيِّنُ أنَّهما تتصوَّرانِ وتتشكَّلانِ وتتجسَّدانِ وتحضُرانِ «كأنَّهما غَمامتان» بمعنى: سَحابتانِ تُظِلَّانِ صاحبَهما من حَرِّ الموقِفِ، وإنَّما سُمِّيَ غَمامًا؛ لأنَّه يَغُمُّ السَّماءَ، فيَستُرُها، «أو كأنَّهما غَيايتانِ». والغَيايةُ: كُلُّ ما أَظَلَّ الإنسانَ فَوْقَ رأسِهِ من سحابةٍ وغيرِها، «أو كأنَّهما فِرْقانِ»: طائِفتانِ وجماعتانِ «مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ»: وهي الطَّيرُ الباسِطةُ أجنحَتَها، والمرادُ أنَّهما يَقيانِ قارِئَهما من حَرِّ الموقِفِ، وكَرْبِ يومِ القيامةِ، تُدافِعانِ الجحيمَ والزَّبانيَةَ، أو تُجادلانِ عنهم بالشَّفاعةِ، أو عِنْدَ السُّؤالِ، إذا لم يَنْطِقِ اللِّسانُ، وأَطْبَقَتِ الشَّفَتَانِ، وضاعتِ الحُجَجُ.

ثمَّ أكَّدَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قِراءةَ سُورةِ البقرةِ خاصَّةً، وهذا تخصيصٌ بعدَ

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).

تخصيصٍ؛ فإنَّه عمَّمَ أولًا بالقُرآنِ كلِّه، ثم خصَّصَ الزَّهراوينِ، ثم خصَّ البقرةَ؛ دَلالةً على عِظَمِ شأنِها، وكبيرِ فَضلِها؛ فإنَّ المواظَبةَ على تِلاوتِها، والتَّدبُّرَ في معانيها، والعملَ بما فيها: زِيادةٌ ونَماءٌ لكلِّ خيرٍ، ومَنفَعةٌ عظيمةٌ لِقارئِها، وترْكَ تلاوتِها وتدبُّرِ معانيها، والعملِ بما فيها: تأسُّفٌ يومَ القِيامةِ على ما فاتَ مِنَ الثَّوابِ، ولا يَقْدِرُ على تَحْصِيلِها، ولا يُوفَّقُ لتلاوتِها والانتفاعِ بما فيها «البَطَلَةُ» وهمُ السَّحرةُ، والمقصودُ أنَّهم لا يستطيعونَ قِراءتَها؛ لزَيْغِهم عَنِ الحقِّ، وانهماكِهم في الباطلِ، أو أنَّهم لا يَستطيعون دَفْعَها، واختراقَ تَحْصِينِها لِمَنْ قرَأَها أو حَفِظَها؛ فهي حِصْنٌ لقارئِها وحافِظِها مِنَ السِّحْرِ. وقيلَ: البَطَلَةُ: الكُسالَى أصحابُ البِطالةِ؛ فإنَّهم لا يَستطيعونَ حِفْظَها ولا قِراءتَها؛ لِطُولِها، ولِتَعوُّدِهم الكسَلَ.

فَضلُ آيةِ الكُرسيِّ
وآخِرِ آيتَينِ مِن سُورةِ البَقَرةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يا أبا المُنذِرِ، أتَدْري أيُّ آيةٍ مِن كِتابِ اللهِ معك أعظَمُ؟ قال: قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: يا أبا المُنذِرِ، أتَدْري أيُّ آيةٍ مِن كِتابِ اللهِ معك أعظَمُ؟ قال: قلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قال: فضَرَب في صَدْرِي، وقال: ((واللهِ لِيَهْنِكَ العِلمُ أبا المُنذِرِ))[١].

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٠).

وعن أبي مَسعودٍ الأنصاريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((الآيَتانِ مِن آخِرِ سُورةِ البَقَرةِ، من قَرَأهما في لَيلةٍ كَفَتاهُ))(١).

آيةُ الكُرسيِّ أعظمُ آيةٍ في القُرآنِ؛ فقد جَمَعَت هذه الآيةُ العظيمةُ مِن أُصولِ الأسماءِ والصِّفاتِ الإلهيَّةِ ما ليس مَجموعًا في آيةٍ أُخرى سواها؛ ففيها وصَف اللهُ تعالى نفْسَه بأنَّه الإلهُ المعبودُ الذي لا معبودَ بحقٍّ غيرُه؛ فهو وحْده المُستحِقُّ للعبادةِ حبًّا وتعظيمًا له تعالى؛ لكَمالِ صِفاتِه، وله سُبحانَه الحياةُ الكاملةُ التي لم يَسْبِقْها عَدَمٌ، ولا يَلحَقُها زوالٌ، والمُستلزِمةُ لجميع صِفاتِ الكمالِ، وهو القائِمُ بنفْسِه فلا يَحتاجُ لأحدٍ، والقائمُ بأمورِ خَلْقِه مِن الرِّزقِ وغَيرِه، فجَميعُ المخلوقاتِ مُفتَقِرةٌ إليه، ولا قِوامَ لها بدونِه، وهذه القَيُّوميَّةُ مُستلزِمةٌ لجميعِ أفعالِ الكَمالِ، ومِن كَمالِ حَياتِه وقَيوميَّته تعالى: أنَّه لا يَعتريه نُعاسٌ، ولا يَغلِبه نومٌ، وهو وحده المالِكُ لجَميعِ ما في الكَونِ، ولا أحدَ يتجاسَرُ على الشَّفاعةِ عنده إلَّا بعدَ أنْ يأذَنَ له، وهو الذي يَعلَمُ جميعَ أمورِ خَلْقِه؛ ماضيَها وحاضِرَها ومُستَقبَلَها. وكُلُّ مَن سِوَى اللهِ تعالَى لا يَعلَمونَ مِن عِلْمِ اللهِ تعالَى شيئًا البتَّةَ إلَّا ما علَّمَهم إيَّاه بمَشيئتِه. وقد أحاط كُرسيُّه -الذي هو موضِع قَدَميهِ سُبحانَه- بالسَّمواتِ والأرضِ، رَغْمَ اتِّساعِهما وعَظَمتِهما، ولا يُثقِلُه ولا يَشقُّ عليه حِفْظُهُما، بل هو أمرٌ سَهْلٌ ويَسيرٌ عليه سبحانَه، وهو ذو العُلوِّ المُطلَقِ على جَميعِ مَخلوقاتِه؛ فهو عليٌّ بذاتِه فَوقَ عَرشِه، عليٌّ على خَلْقِه بقَهرِه، وكَمالِ صِفاتِه، وهو ذو العَظَمةِ المُطلَقةِ في ذاتِه وصِفاتِه وسُلطانِه، وكلُّ ما سِواه حقيرٌ بين يَدَيه، صغيرٌ بالنِّسبةِ إليه، فلا شيءَ أعظَمُ منه سُبحانَه وتعالَى، وتبارَك وتقدَّسَ.

وفي حَديثِ أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رضيَ الله عنه أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سألَه

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٧).

عن أفضَلِ آياتِ القُرآنِ، وأعظَمِها أجرًا ونفعًا لصاحِبِها في الدُّنيا والآخِرةِ، فوكَلَ أُبَيٌّ رَضيَ اللهُ عنه عِلمَ ذلك إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وإلى نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأعادَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السؤالَ؛ لِيَطلُبَ منه أن يُعمِلَ اجتِهادَه في هذا المعنَى، وكان أُبَيٌّ رضيَ اللهُ عنه مِنَ الصَّحابةِ الذين حَفِظوا القُرآنَ على عَهْدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد جَعَله مِنَ الصَّحابةِ الذين أَوْصَى بأخْذِ القُرآنِ عنهم؛ فعن عَبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما، قال: سمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((خُذُوا القُرآنَ مِن أربعةٍ: مِن عَبدِالله بنِ مَسعودٍ -فبدَأَ به-، وسالمٍ مَوْلَى أبي حُذَيْفةَ، ومُعاذِ بنِ جبَلٍ، وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ))[1].

وقيل: كان أُبَيٌّ يَعلَمُ أيُّ آيةٍ أعظَمُ حِينَ سألَه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ذلك، ولكنْ لم يُجِبْهُ؛ تعظيمًا وتواضُعًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتأدُّبًا معه؛ فإنَّه لو أجابَه أوَّلَ ما سأله لكان إظهارًا لعِلمِه. ويَحتمِلُ أنَّه سكَت عن الجوابِ؛ لتوقُّعِ أن يُخبِرَه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ آيةً أُخرى أعظَمُ منها، أو يُخبِرَه بفائدةٍ ما، فلمَّا كرَّر النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السُّؤالَ عَلِم أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُطالِبُه بالجَوابِ، ويُريدُ امتحانَ حِفظِه ودِرايتِه، فأجابه بأنَّ أعظَمَ الآياتِ آيةُ الكُرسيِّ، قال أُبَيٌّ رضيَ الله عنه: «قلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾»، ويَقصِدُ بها آيةَ الكُرسيِّ.

فضَرَب النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في صَدرِه، وهذا الفِعلُ مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن التَّلطُّفِ؛ لِرضاهُ بهذه الإجابةِ، ومُوافقَتِه عليها، مع إعجابِه بالمُجيبِ، وقال: «واللهِ لِيَهْنِكَ العِلمُ أبا المُنذِرِ»، وتلك كُنْيةُ أُبَيِّ بنِ كعبٍ رضيَ الله عنه، والمعنى: لِيَكُنِ العِلْمُ هَنيئًا لك تَهنأُ به، والقَصدُ: الدُّعاءُ له بتَيسيرِ العِلمِ، والرُّسوخِ فيه.

ومِن فَضْلِ هذه الآيةِ الكَريمةِ ونَفعِها للإنسانِ في الدُّنيا أنَّها تَحفَظُه مِن الشُّرورِ

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٨)، ومسلم (٢٤٦٤).

ومِن الشَّياطينِ؛ ففي خَبرِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه عندَما جعَلَه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على زكاةِ رَمضانَ، وأنَّ شَيطانًا جاءَه يأكُلُ منها، وقال له عندَما أسَرَه أبو هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه: دَعْني أُعَلِّمْكَ كَلِماتٍ يَنفَعُك اللهُ بها، قال أبو هُرَيرةَ: قُلْتُ: ما هو؟ قال: إذا أَوَيْتَ إلى فِراشِك فاقرَأْ آيةَ الكُرسيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حتى تَختِمَ الآيةَ؛ فإنَّك لنْ يَزالَ عليك مِنَ الله حافِظٌ، ولا يَقرَبَنَّك شَيطانٌ حتى تُصبِحَ...، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه: ((أمَا إنَّه قد صَدَقَك، وهو كَذوبٌ))(١).

وفي حديثِ أبي مسعودٍ الأنصاريِّ رضِيَ اللهُ عنه يبيِّنُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عظيمَ أجرِ قارئِ آخِرِ آيتينِ مِن سُورةِ البَقَرةِ، وهُما: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦]، حيثُ أخبرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن قرَأهما في لَيلةٍ حَفِظَتاه مِنَ الشَّرِّ، ووقَتاه مِنَ المَكروهِ. وقيلَ: أَغْنَتاه عن قِيامِ اللَّيلِ؛ وذلك لِمَا فيهما مِن معاني الإيمانِ والإسلامِ والالتِجاءِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والاستعانةِ به والتَّوكُّلِ عليه، وطلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ منه.

فَضلُ سُورةِ الإخلاصِ

عن أَبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١).



لأصْحابِه: ((أيَعْجِزُ أحدُكم أنْ يَقرَأَ ثُلُثَ القُرآنِ في لَيلةٍ؟ فشَقَّ ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يُطيقُ ذلك يا رسولَ اللهِ؟ فقال: اللهُ الواحِدُ الصَّمَدُ: ثُلُثُ القُرآنِ))(1).



القُرآنُ العَظيمُ هو حَبْلُ اللهِ المَتينُ، وصِرَاطه المُسْتَقيمُ، وقِراءتُه فيها الخَيرُ والبَرَكةُ، وطُمَأنينةُ النَّفسِ، وعِظَمُ الأَجْرِ، والقرآنُ كلُّه كلامُ اللهِ تعالَى ولكنَّه سُبحانَه وتعالَى خَصَّ بعضَ سوَرِه بفَضْلٍ خاصٍّ، ومِن هذه السُّوَرِ سُورةُ الإخْلاصِ، وفي حديثِ أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه يَسأَلُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أصحابَه مُعَلِّمًا لهم: ألَا يَستطيعُ أحدُكم أنْ يقرأَ في لَيْلَةٍ واحدةٍ ثُلُثَ القُرآنِ؟ فتَعجَّبوا كيفَ يَقرأُ أحَدٌ ثُلُثَ القُرآنِ في ليلةٍ واحدةٍ؟! فأجابَهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ تُساوي قِراءةَ ثُلُثِ القُرآنِ في المعنَى وفي الأجرِ والثَّوابِ؛ فإنَّ القُرآنَ فيه أحكامٌ، وأخبارٌ، وتوحيدٌ، والتوحيدُ يَدخُل فيه معرفةُ أسماءِ اللهِ تعالَى وصِفاتِه، وقَدِ اشتمَلَتْ هي على القِسْمِ الثَّالثِ (التَّوحيدِ)؛ فكانت ثُلُثًا بهذا الاعتبارِ، ويُسْتأْنَسُ لذلك بما رواه أبو الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((إنَّ اللهَ جَزَّأَ القُرآنَ ثلاثةَ أجزاءٍ، فَجَعَلَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ جُزءًا من أجزاءِ القرآنِ))(2)؛ وذلك لأنَّها اشتملتْ على اسمَينِ من أسماءِ اللهِ تعالى، مُتضَمِّنَينِ كُلَّ أوصافِ الكمالِ، ولم يُوجَدَا في غيرِها من سُوَرِ القُرآنِ، وهما: الأَحَدُ، والصَّمَدُ؛ فإنَّهما يَدُلَّانِ على ذَاتِ اللهِ الموصوفةِ بجميعِ أوصافِ الكمالِ، وبيانُ ذلك: أنَّ الأَحَدَ يُشعِرُ بوُجودِه الخاصِّ الذي لا يُشارِكُه فيه أَحَدٌ غيرُه، والصَّمَدَ يُشعِرُ بجميعِ أوصافِ الكمالِ؛ لأنَّه الذي بَلَغَ سُؤْدُدُه مُنتهَى الرِّفْعةِ والكمالِ، والذي يَحْتاجُ إليه جميعُ الخَلائقِ، وهو سبحانَه لا يَحْتاجُ إلى أحَدٍ منهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٨١١).

فَضلُ الذِّكْرِ

التَّرغيبُ في ذِكْرِ اللهِ تعالَى

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وعن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يقولُ اللهُ تعالَى: ((أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بي، وأنا معه إذا ذَكَرَني؛ فإنْ ذَكَرَني في نَفْسِه ذَكَرْتُه في نَفْسي، وإنْ ذَكَرَني في مَلَإٍ ذَكَرْتُه في مَلَإٍ خَيرٍ مِنهم ...)) الحديثَ[1].



ذِكْرُ اللهِ مِن أجَلِّ العِباداتِ التي يَتقرَّبُ بها المُسلِمُ إلى ربِّه، ويَشمَلُ كلَّ ما تَعبَّدَنا اللهُ عزَّ وجلَّ به ممَّا يتعلَّقُ بتعظيمِه والثَّناءِ عليه، مع حُضورِ القَلبِ واللِّسانِ والجَوارِحِ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى عِبادَه بذِكرِه، ورتَّب على هذا الذِّكرِ جزاءً عظيمًا، وهو أنْ يَذكُرَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَن ذَكَره، **كما في الآيةِ الكريمةِ المذكورةِ**؛ فما أعظمَه مِن جزاءٍ!

وفي هذا الحديثِ القُدْسيِّ بَيانٌ لبعضِ فَضائلِ ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وحثٌّ عليه، حيثُ يُخبِرُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيه أنَّه عندَ ظنِّ عَبدِه به؛ فإنْ ظَنَّ به خَيرًا فلَه الخَيرُ، وإنْ ظَنَّ به سِوَى ذلك فلَه، ومِن حُسنِ ظنِّ المُؤمِنِ باللهِ تعالَى أنْ يَعمَلَ الصالحاتِ، ويَجتنِبَ السيِّئاتِ، ويَرجوَ الخَيرَ منَ اللهِ، ثم يُبيِّنُ اللهُ مَعيَّتَه لمَن ذَكَرَه، وهذا من أجَلِّ فَضائلِ الذِّكْرِ؛ فمَن ذكَرَ اللهَ بالتَّسبيحِ والتَّهليلِ أو غَيرِهما في نَفْسِه، مُنفَرِدًا عنِ النَّاسِ، ذكَرَه اللهُ تعالى في نَفْسِه، وإنْ ذَكَرَ اللهَ في جَماعةٍ مِنَ النَّاسِ، ذَكَرَه اللهُ في مَلَأٍ خَيرٍ مِنهُم، وهُمُ المَلَأُ الأَعْلى.

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) واللفظ له، ومسلم (٢٦٧٥).



فَضلُ المُداوَمةِ على ذِكرِ اللهِ تعالَى

عن عبدِاللهِ بنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ أعرابيًّا قال لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ شرائِعَ الإسلامِ قد كثُرَتْ علَيَّ؛ فأَنبِئْني منها بشَيءٍ أتشَبَّثُ به. قال: لا يَزالُ لِسانُك رَطْبًا مِن ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ))[1].



مِن فِطنةِ العالمِ إعطاءُ الجوابِ للسَّائِلِ بما يتوافَقُ مع حالِه، ويأخُذُ بيَدِه للهدايةِ مِن أقصَرِ الطُّرُقِ؛ فإنَّ العالِمَ كالطَّبيبِ، والسَّائِلَ كالمريضِ، والجوابَ كالدَّواءِ؛ فإذا أصاب الدَّواءُ عَينَ الداءِ بَرَأَ المريضُ بحَولِ اللهِ وقُوَّتِه، وقد كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ القُدوةَ والأُسوةَ الحَسَنةَ في هذا الشَّأنِ، كما يَحكي عبدُاللهِ بنُ بُسْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه في هذا الحديثِ، أنَّه جاء رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أعرابيٌّ يُخبِرُه أنَّ أنواعَ العِباداتِ والشَّرائعِ ممَّا فرَضَه اللهُ وسَنَّه مِن الدِّينِ -وقيل: الظاهرُ أنَّ المُرادَ بها هنا النَّوافِلُ- قد كَثُرَت عليه وتشَعَّبَت، فلَم يستَطِعِ العمَلَ بها كلِّها، وطَلَب من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يخبِرَه بعَمَلٍ مِن عبادةٍ أو غَيرِها يستطيعُ فِعلَه، فيتَمسَّكُ ويتعلَّقُ به ويداوِمُ عليه، وهو عَمَلٌ يَسيرٌ مُستجلِبٌ لِثَوابٍ كثيرٍ.

ولم يُرِدْ بقَولِه: «كَثُرَت علَيَّ» أنَّه يَترُكُ ذلك كلِّيَّةً، ويَشتَغِلُ بغَيرِه فحَسبُ، وإنَّما أرادَ أنَّه بعدَ أداءِ ما افترِض عليه يتَشبَّثُ بما يَستَغني به عن سائرِ ما لم يُفترَضْ عليه؛ فأخبرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما يَنفَعُه في ذلك، بأنْ دَلَّهُ على كَثرةِ ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قائلًا: لا يَزالُ لِسانُك ذاكِرًا للهِ تعالَى، لا يَجِفُّ ولا يتوقَّفُ قَدْرَ استطاعتِك،

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣) واللفظ له، وأحمد (١٧٦٨٠).

صحَّحه ابن حبان في ((الصحيح)) (٨١٤)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٧٥)، وحسَّنه ابن حجر في ((الفتوحات الربانية)) (١/ ٢٥٧)، وصَحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (١٨٢٢)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٧٦٨٠).



والمعنى: داوِمْ على ذِكْرِ اللهِ سبحانَه وتعالَى؛ مِن تَسبيحِه وتَحميدِه ونَحوِ ذلك، وقدْ ذَكَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أحاديثَ كثيرةٍ وصايا أخرى غيرَ هذِه؛ لأنَّه في كلِّ حَديثٍ كان يُجيبُ بما يُراعي به حالَ السَّائلِ، أو بما يُعَلِّمُ به أُمَّتَه مِن أبوابِ الخيرِ المُتعدِّدةِ.

فَضْلُ حِلَقِ الذِّكْرِ

عن الأغرِّ، أنَّه قال: أشهدُ على أبي هُريرةَ وأبي سعيدٍ الخُدريِّ رضِيَ اللهُ عنهما أنَّهما شَهِدَا على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((لا يَقعُدُ قَومٌ يَذكُرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ إلَّا حَفَّتْهم الملائِكةُ، وغَشِيَتهم الرَّحمةُ، ونزَلَت عليهم السَّكينةُ، وذكَرَهم اللهُ فيمن عِندَه))[1].



ذِكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ مِن أيسَرِ العِباداتِ، ومع ذلكَ فهو مِن أعظمِها أَجْرًا، وفي هذا الحديثِ يُبيِّنُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جانبًا مِن فَضلِ ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فأخبرَ أنَّه لا يحبِسُ قومٌ أنفسَهُم على ذِكرِ اللهِ -وذلك بما ورَدَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ مِنَ التَّسبيحِ والاستِغفارِ، وقِراءةِ القِرآنِ ودِراستِه، وغيرِ ذلك- إلَّا أحاطتْ بِهمُ المَلائكةُ التي تبحَثُ عن مجالسِ الذِّكرِ؛ وذلك إكرامًا وتشريفًا لهم، ورضًا بحالِهم، وعمَّتْهُم رحمةٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأحاطت بهم من كلِّ جانبٍ. «ونزلَتْ علَيهِمُ السَّكينَةُ» وهي الطُّمأنينةُ والوَقارُ، فتطمئِنُّ قلوبُهم بذكْرِ اللهِ، وتَهْنَأُ به، وأثْنى اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِم، وباهَى بِهم مَن عِندَهُ في المَلأِ الأَعلى.

ذِكرُ اللهِ في البُيوتِ وفي كلِّ حِينٍ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٠).



ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وعن عائِشةَ رضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَذكُرُ اللهَ على كُلِّ أحْيانِه))[١].

وعن أبي مُوسى الأشْعَريِّ رضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَثَلُ البَيتِ الذي يُذكَرُ اللهُ فِيهِ، والبَيتِ الذي لا يُذكَرُ اللهُ فِيهِ؛ مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ))[٢].



ذِكْرُ اللهِ تعالَى فيه حِياةُ النُّفُوسِ وقُوْتُها، وتَرْكُه فيه الخُمولُ والبَطالةُ والكَسَلُ؛ لذلك شُرِعَ في جَميعِ الأحوالِ؛ ليَبقَى المُسلِمُ ذاكِرًا للهِ تَعالى دائمًا في كُلِّ وَقتٍ ومكانٍ، ولَمَّا بَيَّنَ اللهُ تَعالَى في **الآيةِ المذكورةِ** صِفاتِ ذَوي العُقولِ السَّليمةِ التي تُدرِكُ حقائِقَ الأشياءِ، فيَستَدِلُّونَ بخَلقِ اللهِ تَعالَى عليه؛ ذكَرَ في الآيةِ التي تليها مِن صِفاتِهم أنَّهم يُديمونَ الذِّكرَ، سواءٌ كان ذلك في أوقاتِ شُغلِهم أو راحتِهم، في بُيوتِهم أو في غَيرِها، فلا يَخْلو منهم حالٌ عن ذِكرِ اللهِ تَعالَى. والذِّكرُ يكونُ نوعانِ: ذِكرٌ تامٌّ، وهو ما تَواطَأَ عليه القلْبُ واللِّسانُ. وذِكرٌ ناقصٌ، وهو ما كان باللِّسانِ مع غَفْلةِ القلْبِ. والإنسانُ مَأجورٌ في كِلْتا الحالتينِ، ولكنَّ الذِّكرَ التَّامَّ أفضَلُ.

وفي الحديثِ الأوَّلِ تُخبِرُ عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان شَديدَ الحِرصِ على ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، كالتَّسبيحِ والتَّهليلِ والتَّكبيرِ والتَّحميدِ ونحوِها مِن الأذكارِ، وقد علَّمَنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أفضَلَ الأذكارِ وأحسَنَها أجْرًا، ومنها ما يَصلُحُ في جَميعِ الأوقاتِ، ومنها ما يَختَصُّ بوَقْتٍ أو مكانٍ، وأيضًا مِن الأذكارِ ما لا

(١) أخرجه البخاري معلقًا قبل حديث (٦٣٤)، وأخرجه موصولًا مسلم (٣٧٣) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٤٠٧)، ومسلمٌ (٧٧٩) واللفظ له.



يَختَصُّ منها بعدَدٍ، ومنها المقيَّدُ بعدَدٍ. وفي قولِها: «على كلِّ أحيانِه» إشارةٌ إلى أنَّ ذِكرَ اللهِ لا يَختَصُّ بهَيئةٍ مُعيَّنةٍ كالتي تَختَصُّ بالصَّلاةِ والطَّوافِ وبقِراءةِ القُرآنِ؛ مِن الطَّهارةِ والوُضوءِ ونحْوِهما.

وفي **الحديثِ الثَّاني** يَعْقِدُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُوازَنةً بيْنَ بَيتَينِ: بَيتٍ يُذكَرُ اللهُ فيه، وبَيتٍ لا يُذكَرُ فيه، فيُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَثَلَ البيتِ الذي يُذكَرُ اللهُ فيه «مَثَلُ الْحَيِّ»، كالإنسانِ السَّليمِ المُعافَى؛ فهو يَنْفَعُ مَن حَولَه، والبَيتُ الذي لا يُذكَرُ اللهُ فيه كَمَثَلِ الميِّتِ، أي: كالجِيفةِ؛ لا أحَدَ يَقْرَبُها، ولا خَيرَ فيها، ولا نَفْعَ عِندَها، باطلٌ باطِنُه، وعاطِلٌ ظاهِرُه.

وهذا الحديثُ يَصِحُّ أنْ يَقَعَ مَعْناه للبُيوتِ، وللسُّكَّانِ فيها؛ فالبُيوتُ التي يُذكَرُ اللهُ فيها تَكونُ مَليئةً بالحياةِ الإيمانيَّةِ، وفيها البَرَكةُ والخيرُ لأهلِها، أمَّا البُيوتُ التي لا يُذكَرُ اللهُ فيها فإنَّها تَكونُ خَرِبةً كالقُبُورِ، لا يَقصِدُها سُكَّانُها إلَّا للنَّومِ الذي هو مَوتٌ أصْغَرُ، وتَكونُ مَنْزُوعةَ الخَيرِ والبَرَكةِ، وإنْ ظَهرَ عَكْسُ ذلك فيما يَرَى النَّاسُ. ويَصِحُّ أنْ يَقَعَ المَعْنى على سُكَّانِ البُيوتِ الذين هُمُ الآدَميُّونَ؛ فَمَن يَذكُرُ اللهَ يَحْيَا قلْبُه، ويَظهَرُ أثَرُ ذلك فيه، فيكونُ ذلك نافعًا له في الدُّنيا والآخِرةِ، بخِلافِ مَن لا يَذكُرُ اللهَ.

فَضلُ التَّسبيحِ والتَّحْميدِ والتَّهْليلِ والتَّكبيرِ

قال اللهُ تعالى حاكيًا عن نَبيِّه يُونُسَ -عليه السَّلامُ- دَعوتَه التي أنجَتْه: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لَأَن أقولَ: سُبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ: أحَبُّ إليَّ ممَّا طلعَت عليه



الشَّمسُ))[1].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كُنَّا عندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: ((أيَعجِزُ أحَدُكم أن يَكسِبَ كُلَّ يومٍ ألفَ حَسَنةٍ؟! فسَألَه سائِلٌ مِن جُلَسائِه: كيف يَكسِبُ أحدُنا ألفَ حَسَنةٍ؟ قال: يُسَبِّحُ مِئةَ تَسبيحةٍ، فيُكتَبُ له ألفُ حَسَنةٍ، أو يُحَطُّ عنه ألفُ خَطيئةٍ))[2].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((كَلِمتانِ خفيفتانِ على اللِّسانِ، ثَقيلتانِ في المِيزانِ، حَبيبتانِ إلى الرَّحمنِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه، سُبحانَ اللهِ العظيمِ))[3].



ذِكرُ اللهِ سُبحانَه وتَعالى ممَّا يُؤنِسُ الرُّوحَ والقَلبَ، ويَرزُقُ النَّفْسَ الطُّمأْنينةَ، ويُثقِّلُ مَوازينَ العَبدِ بالحَسَناتِ، ويُنَجِّي اللهُ تعالى به صاحِبَه مِنَ الهَمِّ والغَمِّ، فيَكشِفُ ضُرَّه ويُذهِبُ غَمَّه. وقد حكَى اللهُ سُبحانَه **في الآيةِ المذْكُورة** نِداءَ يونُسَ -عليه السَّلامُ- وهو محبوسٌ في بطنِ الحوتِ نِداءً مُتضَمِّنًا شهادتَه للهِ تعالَى بالوَحدانيَّةِ واستِحقاقِ العبادةِ وَحْدَه، وتَنزيهَه عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، مع اعترافِه بظُلمِ نفْسِه؛ فكان ذلك سببًا لاستجابةِ اللهِ تعالَى له، وإنجائِه مِن الغَمِّ والشِّدَّةِ التي ألَمَّت به، فأخرَجَه من بَطنِ الحُوتِ. وفي ذلك دليلٌ على أنَّ التَّهليلَ والتَّسبيحَ يُذهِبانِ الغُمومَ، ويُنَجِّيانِ مِن الكَرْبِ والمَصائِبِ، وفيه وَعدٌ وبِشارةٌ لكُلِّ مُؤمِنٍ وقَعَ في شِدَّةٍ وغَمٍّ أنَّ اللهَ تعالى سيُنْجيه منها، ويَكشِفُ عنه، كما فعَل بيُونسَ عليه السَّلامُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٨٢)، ومسلم (٢٦٩٤) واللفظ له.



وفي حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه بيانٌ لفَضلِ التسبيحِ وهو قولُ: «سُبحانَ اللهِ»، والتحْميدِ وهو قولُ: «الحَمدُ للهِ»، والتهْليلِ وهو قَولُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، والتكبيرِ وهو قولُ: «اللهُ أكبرُ»، حيثُ يقولُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «لَأنْ أَقولَ: سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ: أحبُّ إليَّ ممَّا طَلَعتْ عليه الشَّمسُ»، أي: قولُ هذه الأذكارِ أحَبُّ إليَّ مِن كُلِّ الدُّنيا وما فيها مِنَ الأَموالِ وغَيرِها، وهذا مَحمولٌ على كَلامِ الآدَميِّ، وإلَّا فَالقُرآنُ أَفضَلُ؛ فقِراءةُ القُرآنِ أَفضلُ مِنَ التَّسبيحِ والتَّهْليلِ المُطلَقِ، فأمَّا المأثورُ في وقتٍ أو حالٍ ونَحوِ ذلكَ، فالاشتِغالُ به أفضَلُ. وجُملةُ «سُبحانَ اللهِ» هي تَنْزيهٌ للهِ عزَّ وجلَّ عَن كلِّ النَّقائصِ. و«الحمدُ للهِ» هي: وَصفٌ للمَحمودِ بالكَمالِ معَ المَحبَّةِ والتَّعظيمِ. و«لا إلهَ إلَّا اللهُ» كلمةُ التوحيدِ، ومَعْناها: لا مَعبودَ حقٌّ أو بحقٍّ إلَّا اللهُ. و«اللهُ أكبرُ» هي أنَّ اللهَ سُبحانَه وتَعالى أكبَرُ مِن كلِّ شيءٍ في هذا الوُجودِ.

وفي حديثِ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضِيَ اللهُ عنه يُبَيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أهمِّيَّةَ التَّسبيحِ، ويُرَغِّبُ فيه، ويُبيِّنُ أنَّ له فَضْلًا كَبيرًا وأجرًا جَزيلًا عِندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، فيَسأَلُ الصَّحابَةَ رضِيَ اللهُ عنهم: ألَا يَستَطيعُ الواحدُ منكم أنْ يَكْسِبَ ويَحْصُلَ كُلَّ يومٍ على أَلْفِ حَسَنةٍ؟ فتَعَجَّبَ أحدُ الحاضِرينَ، كَيفَ لِأحَدِنا أنْ يَحْصُلَ على أَلْفِ حَسَنةٍ كلَّ يومٍ بِدونِ مَشقَّةٍ، وبِسُهولةٍ بلا عَجْزٍ؟! فأخبرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا سبَّحَ مِئةَ تَسبيحةٍ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يكتُبُ له أَلْفَ حَسَنةٍ؛ لأنَّ الحسَنةَ الواحِدةَ بعَشْرِ أَمْثالِها، وهو أَقَلُّ المُضاعَفةِ المَوعودةِ في القُرآنِ بقَولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦]، أو يَمْحو اللهُ مِن ذُنوبِه أَلْفَ خَطيئةٍ، وذلك بمَشِيئةِ اللهِ تَعالَى.

وفي الحديثِ الثَّالثِ يُرشِدُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمَّتَه إلى فَضْلِ ذِكرٍ مِن أعظَمِ الأذْكارِ، جمَعَ بينَ سُهولةِ العِبارةِ وجَزالةِ الأجْرِ، وهو «سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، سُبحانَ اللهِ العَظيمِ». وسُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه: أي: أُسَبِّحُ اللهَ وأُثني عليه بحَمْدِه، وهاتانِ الكَلمتانِ -يَعني الجُملتَينِ- يَسهُلُ على صاحِبِهما النُّطقُ بهما على كلِّ حالٍ،

واعتيادُهما وتَكرارُهما في كلِّ وَقتٍ. وهُما «ثَقيلتانِ في المِيزانِ»، وذلك يومَ القيامةِ يومَ تُوزَنُ أعمالُ العبادِ، ويُجازي عليها اللهُ عزَّ وجلَّ، و«حَبيبتانِ إلى الرَّحمنِ» فهذا يدُلُّ على أنَّ تَسبيحَ اللهِ وحَمْدَه مِن أفضَلِ النوافِلِ، وأعظَمِها أجرًا عِندَه تعالَى.

فَضلُ قَولِ: لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا باللّهِ

عن أبي مُوسَى الأشعَريِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: كُنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سَفَرٍ، فجَعَلَ الناسُ يَجهَرونَ بالتَّكبيرِ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أيُّها الناسُ، ارْبَعوا علَى أنفُسِكم؛ إنَّكم ليس تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائبًا، إنَّكم تَدْعُونَ سَميعًا قَريبًا، وهو معكم. قال: وأنا خَلْفَه، وأنا أقولُ: لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ. فقال: يا عَبدَالله بنَ قَيسٍ: ألَا أدُلُّكَ على كَنزٍ مِن كُنوزِ الجَنَّةِ؟ فقُلتُ: بَلى يا رَسولَ اللهِ. قال: قُلْ: لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ))[1].



المُؤمِنُ لا يَعمَلُ عَمَلًا إلَّا بتَوفيقِ اللهِ وهِدايَتِه، ولو وَكَلَه اللهُ إلى نَفْسِه لَضَلَّ طَريقَه؛ فكُلُّ نِعمةٍ وقُوَّةٍ يَتقَوَّى بها المَرءُ على بُلوغِ غايَتِه إنَّما هي بِحَولِ اللهِ تَعالى ومَعُونَتِه.

وفي هذا الحَديثِ يُخبِرُ أبو مُوسى الأشعَريُّ رَضيَ اللهُ عنه أنَّهم كانوا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سَفَرٍ، فجَعَلَ الصَّحابةُ رَضيَ اللهُ عنهم يَجهَرونَ بالتكبيرِ؛ بقَولِهم: (اللهُ أكبَرُ)، وقدِ ارتَفَعتْ أصواتُهم بالتَّكبيرِ، فقال لهمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُعلِّمًا لهم آدابَ الذِّكرِ: «أيُّها الناسُ، ارْبَعوا على أنفُسِكم»، أي: ارْفُقوا بأنفُسِكم؛ «إنَّكم ليس تَدْعونَ أصَمَّ ولا غائبًا، إنَّكم تَدْعونَ سَميعًا قَريبًا، وهو معكم»،

(١) أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤) واللفظ له.



يَعني: مَن تَدعُونَه هو السَّميعُ البَصيرُ، يَسمَعُ سِرَّكم ونَجواكم، ولا يَخفَى عليه شَيءٌ مِن قَولِكم؛ يَدْعوهم في ذلك إلى خَفضِ أصواتِهم، وهذا من آدابِ الذِّكرِ التي علَّمَها له ربُّه سُبحانَه، كما في قولِه تعالَى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، كما سيأتي في (خَفْضِ الصَّوتِ بالذِّكرِ)[١].

وكان أبو مُوسى رَضيَ اللهُ عنه يَسيرُ خَلفَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو يَلزَمُ هذا الذِّكرَ: «لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ»، فسَمِعَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال له: «ألَا أدُلُّكَ على كَنزٍ مِن كُنوزِ الجَنَّةِ؟»، والمرادُ أنَّها مِن ذخائرِ الجَنَّةِ، وأنَّ قَولَها يَحصُلُ به ثوابٌ نَفيسٌ يُدخَّرُ لصاحِبِه في الجنَّةِ، ثم بَيَّنَ له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ هذا الكَنزَ هو قولُ: «لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ»، ومَعناها: أنَّه لا حِيلةَ في دَفْعِ أيِّ سُوءٍ ومَكروهٍ وشَرٍّ، ولا قُوَّةَ على جَلبِ أيِّ خَيرٍ: إلَّا باللهِ سُبحانَه وتَعالَى. وقيلَ: لا حَولَ عنِ الوُقوعِ في الذَّنبِ، ولا قُوَّةَ على الطاعةِ: إلَّا بإذنِ اللهِ وإرادَتِه سُبحانَه؛ فهي جُملةُ استِسلامٍ وتَفويضٍ إلى اللهِ تَعالى، وإذعانٍ واعتِرافٍ له بأنَّه لا خالِقَ غَيرُه، ولا رَبَّ سِواهُ، ولا رَادَّ لِأمْرِه، ولا مُعَقِّبَ لِحُكمِه، وأنَّ العَبدَ لا يَملِكُ شَيئًا، وأنَّ اللهَ مالِكُ عِبادِه، يَفعَلُ فيهم كُلَّ ما أرادَه.

وجاء عن أبي ذَرٍّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّه قال: ((أمَرَني خَليلي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بسَبعٍ...، وذَكَرَ مِنهُنَّ: وأمَرَني أنْ أُكثِرَ مِن قَولِ: لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ؛ فإنَّهُنَّ مِن كَنزٍ تَحتَ العَرشِ))[٢].

---

(١) (ص: ٧٠٦).

(٢) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠١٨٦) مختصرًا بلفظ: ((كنز من كنوز الجنة))، وأحمد (٢١٤١٥) واللفظ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٤٩)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) =



فَضْلُ الصَّلاةِ على النَّبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن صلَّى عليَّ واحِدةً صلَّى اللهُ عليْه عَشْرًا))[1].

وعن الحُسَينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عنْهما، قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((البَخيلُ الذي مَن ذُكِرْتُ عِندَه فلم يُصلِّ عليَّ))[2].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((رَغِمَ أنفُ رجُلٍ ذُكِرْتُ عِندَه فلم يُصلِّ عليَّ))[3].



= (٢١٤١٥)، وجَوَّد إسنادَه ابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٦/ ٧٤٣)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٠٠)، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢١٦٦)، وحسَّن الحديثَ الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٢٧٧).

(١) أخرجه مسلم (٤٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٦) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٨١٠٠)، وأحمد (١٧٣٦).
قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ غريبٌ. وصحَّحه ابنُ حِبَّان في ((صحيحه)) (٩٠٩)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٤٦)، وقال ابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٣/ ٣٢٥)-: رجالُ هذا الإسنادِ رجالُ الصَّحيحِ، وللحديث شاهدٌ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، وأحمد (٧٤٥١) مطوَّلًا.
صحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (٩٠٨)، وقال ابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٣/ ٣١٩)-، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٤٥): حسنٌ صحيح، وصحَّحه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٧٤٥١).



لِنَبيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَكانةٌ عَظيمةٌ عِندَ اللهِ سُبحانَه وتعالَى، وقد رَفَعَ له ذِكرَه، وقَرَنَ اسمَه مع اسمِه في شَهادَتَي التَّوحيدِ؛ **ففي الآيةِ المذكورةِ** يخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه يُصَلِّي على نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُثْنِي عليه في المَلأِ الأعْلى، وكذلك مَلائِكتُه يُثنونَ عليه ويَدعُونَ له، ثُمَّ يأمُرُ الذين آمنوا أن يُصَلُّوا عليه ويُسَلِّموا تَسليمًا.

وفي الحَديثِ الأوَّلِ أَخبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن صلَّى عليْه مَرَّةً واحِدةً صلَّى اللهُ عليْه عَشْرًا، وصلاةُ العبدِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ طلبٌ مِن اللهِ تعالَى أنْ يُثنِيَ عليه ويُعلِيَ ذِكْرَه ويَزيدَه تَعظيمًا وتَشريفًا، والجزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فمَن طَلَبَ مِنَ اللهِ تعالَى الثَّناءَ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جزاه اللهُ مِن جِنسِ عَمَلِه بأنْ يُثنِيَ عليه ويَزيدَ تَشريفَه وتكريمَه، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ «صلَّى اللهُ عليْه عَشْرًا»، أي: ضاعَفَ اللهُ الجَزاءَ للمُصلِّي على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَشْرَ مَرَّاتٍ.

وفي الحديثِ الثَّاني ذَمَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَن لم يُصلِّ عليْه إذا سَمِعَ اسمَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فقالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «البَخيلُ الذي مَن ذُكِرْتُ عندَه فلم يُصلِّ عليَّ»، أي: مَن لمْ يُبادِرْ بالصَّلاةِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهذا هو البَخيلُ على الحَقيقةِ، ونَعَتَه بالبَخيلِ؛ لأنَّه بَخِلَ على نَفسِه حِينَ حَرمَها صلاةَ اللهِ عليْه عَشْرًا إذا هو صلَّى على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واحِدةً.
ويُؤخَذُ مِن هذا الحديثِ: أنَّ مَن تَكاسَلَ عن الطَّاعةِ يُسمَّى بَخيلًا.

وفي الحديثِ الثَّالثِ يَقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «رَغِمَ أَنفُ رجُلٍ ذُكِرْتُ عندَه فلم يُصلِّ عَليَّ»، ومَعناه: خابَ وخَسِرَ، وذَلَّ وعَجَزَ ولصِقَ أَنفُه بالتُّرابِ؛ كُلُّ مَن ذُكِرَ عندَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولم يَقُلْ: صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونَحوَها. وقد قيلَ: إنَّ هذا الحديثَ دَليلٌ على وُجوبِ الصَّلاةِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِندَ ذِكْرِه؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يَدْعو بالذُّلِّ والهَوانِ على مَن تَرَكَ ذلك إلَّا وهو



واجِبٌ عليه.

فمَجموعُ تلك الأحاديثِ يُبيِّنُ أنَّ الصَّلاةَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أفضَلِ أنواعِ الذِّكْرِ؛ فمَن شاءَ استكثَرَ لنَفسِه أو استَقَلَّ، والصَّلاةُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيها مَعنى تَعظيمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الدُّنيا بإعْلاءِ ذِكرِه، وإظْهارِ دِينِه، وإبْقاءِ شَريعتِه، وفي الآخِرةِ بإجْزالِ مَثوبتِه، وتَشْفيعِه في أُمَّتِه، وإظهارِ فَضيلتِه بالمَقامِ المَحمودِ، وهي مع ذلك كُلِّه مَثوبةٌ للعَبدِ، ورَفعٌ لدَرجتِه في الجَنَّةِ.

خَفْضُ الصَّوتِ بالذِّكرِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وعن أبي مُوسى الأشْعَريِّ عبدِاللهِ بنِ قَيْسٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سَفَرٍ، فجَعَل النَّاسُ يَجهَرونَ بالتكبيرِ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أيُّها النَّاسُ ارْبَعُوا على أنفُسِكم؛ إنَّكم ليس تَدْعونَ أصَمَّ ولا غائِبًا، إنَّكم تَدْعونَ سَميعًا قَريبًا، وهو معكم ...)) الحديثَ[1].



اللهُ عزَّ وجلَّ قريبٌ من عِبادِه، سَميعٌ لأقوالِهم، عليمٌ بأفعالِهم، مجيبٌ لدُعائِهم، **كما في الآيةِ الأولَى**، والمُسلِمُ مَدْعوٌّ لأنْ يُكثِرَ مِن ذِكرِه بالتكبيرِ والتهليلِ والتبرُّؤِ منَ الحَوْلِ والقُوةِ إلَّا به، ونَحوِهنَّ من كَلماتِ الثَّناءِ على اللهِ، دون أنْ يَشُقَّ على نَفسِه فيتكَلَّفَ رَفعَ صَوتِه، بل الذي يَنبغي له أنْ يذكُرَ اللهَ تعالى بِلِسانِه فيما بيْنَه وبيْنَ رَبِّه،

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) واللفظ له.

مِن حيثُ لا يَشعُرُ بذلك أحَدٌ، متذَكِّرًا ومُستحضِرًا بقَلْبِه عَظَمةَ اللهِ تعالى وصِفاتِه، وثوابَه وعقابَه، وهو مُتخشِّعٌ مُتذلِّلٌ، مُتواضِعٌ مُستكينٌ لله، وخائِفٌ وَجِلُ القَلبِ منه ومِن عِقابِه سُبحانَه، مع خَفضٍ للصَّوتِ، **كما في الآيةِ الثانيةِ.** ويحكي **أبو مُوسَى الأَشْعَريُّ رضِيَ اللهُ عنه** أنَّ الصحابةَ أثناء رُجوعِهم مِن غَزْوِ خَيْبَرَ بعدَ أنْ مَنَّ اللهُ عليهم بالنَّصرِ، وقدِ ارتفعَتْ أصواتُهم بالتكبيرِ والتَّهْليلِ، فأرشَدَهمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَرفُقوا بأنفُسِهم؛ فإنَّ مَن يَدْعُونَه هو السَّميعُ البَصيرُ، يَسمَعُ سِرَّهم ونَجواهم، ولا يَخفَى عليه شَيءٌ مِن قَوْلِهم.





أذكارُ الصباحِ والمَساءِ

التسبيحُ بحمدِ الله تعالى

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وعن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن قال حِينَ يُصبِحُ وحِينَ يُمْسي: سُبحانَ اللهِ وبِحَمْدِه مِئةَ مَرَّةٍ، لم يَأْتِ أحَدٌ يومَ القِيامةِ بأفضَلَ ممَّا جاء به، إلَّا أحَدٌ قال مِثْلَ ما قال، أو زادَ عليه))[1].



ذِكرُ اللهِ في الصَّباحِ والمَساءِ جالِبٌ للبَرَكةِ والخَيرِ منَ اللهِ، **وفي هاتينِ الآيتينِ أمرٌ** مِن اللهِ تعالى بالتَّسبيحِ بحَمْدِه، والتسبيحُ هو تَنزيهُه عن كلِّ نَقصٍ، والحمدُ وصفُه بكُلِّ كَمالٍ مع محبَّتِه وتعظيمِه، خُصوصًا طرَفَيِ النَّهارِ قبل طُلوعِ الشَّمسِ، وقَبلَ غُروبِها؛ وخَصَّ بالذكرِ هذينِ الوقتينِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ بعد صَلاةِ الصُّبحِ وبعد صلاةِ العَصرِ مكروهةٌ، فاستُحِبَّ للعبدِ أن يذكُرَ اللهَ تعالى فيهما؛ ليكونَ في جَميعِ أوقاتِه مُشتغِلًا بما يُقرِّبُه إلى اللهِ تعالَى. وقيل: إنَّ أعمالَ العِبادِ تَصعَدُ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، فيصعَدُ عَملُ اللَّيلِ عند صلاةِ الفَجرِ، ويصعَدُ عَملُ النَّهارِ بعد العَصرِ إلى الغُروبِ، فاستُحِبَّ له الذِّكرُ فيهما؛ ليكونَ ابتداءُ عَمَلِه بالذِّكرِ، وختامُه بالذِّكرِ.

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رضِي الله عنه يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَضْلَ التَّسبيحِ والتَّحميدِ، فيَقولُ: «مَن قال حينَ يُصبِحُ وحينَ يُمسِي: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه مِئةَ مرَّةٍ، لم

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٢). وأخرجه البخاري (٦٤٠٥) بنحوه.



يَأْتِ أحَدٌ يومَ القِيامَةِ بأفضَلَ ممَّا جاءَ به»، أي: في الأَجْرِ والثَّوابِ؛ لعَظَمِ أجْرِ هاتَينِ الكَلمتَينِ المُشتَمِلتَينِ على تَنْزيهِ اللهِ تعالَى عن كلِّ نَقْصٍ وعَيبٍ، والثَّناءِ عليه سُبحانَه بكُلِّ كَمالٍ ومدْحٍ، «إلَّا أحَدٌ قال مِثْلَ ما قال، أو زادَ عليه»، أي: لم يأتِ أحدٌ بأفْضلَ ممَّا جاءَ به، ولكنْ مَن قال مِثلَ ما قالَه فإنَّه يأتي بمُساوٍ له، ومَن زادَ عليه، مِن التَّسبيحِ والتَّحميدِ، أو زادَ مِن أعمالِ الخيرِ الأُخرى على تَسبيحاتِه تلك، فإنَّه يَأْتِي يومَ القِيامةِ بأفضَلَ منه، فمَن زادَ على المِئةِ حصَلَتْ له الزِّيادةُ في الأجْرِ والثَّوابِ بقَدْرِ ما زادَ مِن تَسبيحاتٍ. وقدْ تتساوَى الأذكارُ في العددِ ولكنَّها تتفاضَلُ في الأجْرِ والثوابِ بحسَبِ الوقتِ والمكانِ وحُضورِ قلْبِ الذاكرِ، وغيرِ ذلك.

التحرُّزُ باسمِ الله

عن عُثمانَ بنِ عفَّانَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِنْ عَبدٍ يقولُ في صَباحِ كلِّ يومٍ ومَساءِ كلِّ لَيلةٍ: باسمِ اللهِ الذي لا يَضُرُّ معَ اسمِهِ شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، وهو السَّميعُ العَليمُ -ثلاثَ مرَّاتٍ- فيَضُرُّه شَيءٌ)). وكانَ أبانٌ قد أصابَهُ طرَفُ فالَجٍ، فجعَلَ الرَّجُلُ يَنظُرُ إليهِ، فقال لَهُ أبانٌ: ما تَنظُرُ؟ أمَا إنَّ الحديثَ كما حدَّثتُكَ، ولَكِنِّي لم أقُلْه يومَئذٍ؛ ليُمْضيَ اللهُ علَيَّ قَدَرَه[1]!



ذِكرُ اللهِ تعالَى في الصَّباحِ والمَساءِ حافظٌ بقُدرةِ اللهِ منَ المَكارِهِ والشُّرورِ؛ ففي حديثِ عُثمانَ بنِ عفَّانَ رضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ما من مُسلِمٍ يقولُ عندَ صَباحِه ومَسائِه كلَّ يومٍ: «باسمِ اللهِ»: أي: أستَعينُ أو أتحفَّظُ مِن كلِّ مُؤذٍ

(١) أخرجه من طرقٍ: أبو داود (٥٠٨٨)، والترمذي (٣٣٨٨) واللفظ له، وابن ماجه (٣٨٦٩)، وأحمد (٤٧٤).

قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ غريبٌ. وصحَّحه ابنُ حِبَّان في ((الصحيح)) (٨٦٢)، وابن القيم في ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٣٨)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٨٨).



باسمِ اللهِ، وأستَصحِبُه وأتبَرَّكُ به في صَباحي أو لَيْلي، «الذي لا يَضُرُّ معَ اسْمِه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ» باعتقادٍ حَسَنٍ ونيَّةٍ خالِصةٍ، لا يقَعُ ضَررٌ معَ ذِكرِ اسمِه ممَّا في الأرضِ من بَلاءٍ، ولا يقَعُ ضَررٌ معَ ذِكرِ اسمِه ممَّا يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ من بَلاءٍ، «وهو السَّميعُ» لِكَلامِنا وكلِّ ما في الكَوْنِ، «العَليمُ» بأفْعالِنا وأحْوالِنا وكلِّ ما في الكَوْنِ، فمن قال هذا الدُّعاءَ ثلاثَ مرَّاتٍ، فلَن يَضُرَّه شَيءٌ بإذنِ اللهِ تعالى.

«وكان أبانٌ»، وهو ابنُ عُثمانَ بنِ عفَّانَ راوي الحَديثِ عن أبيه، «قد أصابَه طرَفُ فالَجٍ»، وهو جُزءٌ مِن شَللٍ أصابَ أحَدَ جانِبَيِ الجسَدِ، «فجعَلَ الرَّجُلُ» المُستمِعُ لحديثِ أبانٍ، «يَنظُرُ إليه» مُتعجِّبًا من قولِه مع ما أصابَه، فعرَفَ أبانٌ سبَبَ نظَرِه، وهو التَّعجُّبُ الذي عِندَه، والمُفارَقةُ الَّتي وجَدَها فيه، فأخبَرَه أنَّه صادِقٌ فيما أخبَرَ، وأنَّه لا طَعْنَ في الحديثِ على ما أصابَه، لكنَّه نسِيَ قولَ الدُّعاءِ على غيرِ العادةِ في اليومِ الذي أصابَه فيه هذا المرَضُ؛ ليَمْضِيَ ما قَدَّرَه اللهُ له.

سيِّدُ الاستِغفارِ

عن شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ رضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((سَيِّدُ الاستِغْفارِ أنْ تَقولَ: اللَّهُمَّ أنتَ ربِّي لا إلَهَ إلَّا أنتَ، خَلقْتَني وأنا عَبدُكَ، وأنا على عَهدِكَ ووَعْدِكَ ما استَطَعْتُ، أَعوذُ بكَ مِن شَرِّ ما صَنعْتُ، أَبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ علَيَّ، وأَبوءُ لكَ بذَنْبي فاغْفِرْ لي؛ فإنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنْتَ. قالَ: ومَن قالَها مِنَ النَّهارِ مُوقِنًا بها، فماتَ مِن يَومِه قَبْلَ أنْ يُمْسيَ، فهو مِن أهْلِ الجَنَّةِ، ومَن قالَها مِنَ اللَّيْلِ وهو مُوقِنٌ بها، فماتَ قَبْلَ أنْ يُصبِحَ، فهو مِن أَهْلِ الجَنَّةِ))(١).



اللهُ عزَّ وجلَّ رَحيمٌ بعبادِه، غَفورٌ لذُنوبِهم، وعلى المُسلِمِ أنْ يَحرِصَ على طلَبِ

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).



رَحمةِ اللهِ، ويُداوِمَ على الاستغفارِ، وفي هذا الحديثِ بَيانٌ من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأفضَلِ صِيَغِ الاستِغفارِ وأحَبِّها إلى اللهِ تعالَى، وأكثَرِها ثَوابًا، وأَرْجاها في القَبولِ؛ ولذا سَمَّاه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سيِّدَ الاستِغفارِ، وسُمِّيَ سَيِّدًا؛ لأنَّه جامِعٌ لِمَعاني التوْبةِ كلِّها، ببَدائعِ المعانِي وحُسنِ الألفاظِ، وهو قولُ المُسلِمِ: «اللَّهُمَّ أنتَ ربِّي، لا إلهَ إلَّا أنتَ، خَلَقْتَني»، فهذا إقْرارٌ بتفَرُّدِ اللهِ تعالى بالرُّبوبيَّةِ والأُلوهيَّةِ وبالخَلْقِ، «وأنا عبدُكَ» إقرارٌ بخُضوعِه وعُبودِيَّتِه للهِ تعالَى.

ومن تَمامِ العُبوديَّةِ: الالتزامُ بالعَهدِ الَّذي أُخِذَ عليه بالالتزامِ بالتوحيدِ والشَّرعِ أمرًا ونَهيًا؛ ولذلك قالَ: «وأنا على عَهدِكَ ووَعدِكَ»، ومَعْناه: وأنا على ما عاهَدْتُك عليه، وواعَدْتُكَ منَ الإيمانِ بكَ، وإخْلاصِ الطاعةِ لكَ. والوعدُ ما جاء في الصَّحيحَيْنِ على لِسانِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن ماتَ لا يُشرِكُ باللهِ شَيئًا دخَلَ الجَنةَ))[1]، فأخبَرَ بأنَّه قائمٌ على ما عاهَدَ اللهَ عليه منَ الطاعةِ، ومُصدِّقٌ مُؤمِنٌ بوَعدِ اللهِ تَعالى بالثَّوابِ على عَملِه، وقائمٌ بكلِّ ما كلَّفَه اللهُ به، وبكلِّ ما وَعَدَه، ثُمَّ قيَّدَ هذا بالقُدرةِ، فقال: «ما استَطعْتُ»؛ فالتِزامُه بكلِّ هذا بِحَسَبِ القُدرةِ والاستطاعةِ، وفي هذا إقْرارٌ منه بضَعفِه وحاجتِه لتَوفيقِ مَوْلاهُ؛ ولهذا قال: «أعُوذُ»، أي: أَحتَمِي وأعتصِمُ وأَلْتجِئُ «بكَ مِن شرِّ ما صنَعْتُ»، «وأَبوءُ لكَ بنِعمتِكَ عليَّ»، أي: أَعترِفُ وأُقِرُّ بنِعمتِك عليَّ وأُلْزِمُ نفْسِي بها، «وأَبوءُ لكَ بِذَنبِي، فاغفِرْ لي؛ فإنَّه لا يَغفِرُ الذنوبَ إلَّا أنتَ»، وفي هذا إقرارٌ بالذَّنبِ، وأنَّه مِن صُنعِ المَرءِ نَفسِه، وقد أقَرَّ واعترَفَ بأنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا اللهُ؛ لِكَمالِ مُلكِه؛ ولذا استَعاذَ به من شَرِّ صَنيعِه، وبيَّنَ بقَولِه: «أَبوءُ لكَ بنِعمَتِكَ عليَّ» أنَّ عِصيانَه لم يكُنْ لِجُحودِ نِعَمِ اللهِ عليه، بل هو مُقِرٌّ بها، وأنَّ مَعصيتَه كانتْ عن هَوًى وجَهْلٍ.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦)، ومسلم (٩٤) من حديثِ أبي ذرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

ثُمَّ بيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أجْرَ هذا الذِّكرِ العظيمِ، فقال: «ومَن قالَها مِنَ النَّهارِ موقِنًا بها»، أي: مُخلِصًا مِن قلْبِه، ومُوقِنًا ومُصدِّقًا بكلِّ ما تَضمَّنَتْه من مَعانٍ وبثَوابِها، «فمَاتَ مِن يَومِه قبْلَ أنْ يُمْسيَ، فهو من أهْلِ الجَنَّةِ، ومَن قالَها مِن اللَّيْلِ وهو مُوقِنٌ بها، فماتَ قبلَ أنْ يُصبِحَ، فهو من أهْلِ الجَنَّةِ»، أي: مِن الداخِلينَ إليها مع السابِقِينَ، أو مِن غَيرِ سابِقةِ عذابٍ. وفي هذا حثٌّ وترغيبٌ وتأكيدٌ على قَولِ هذا الذِّكرِ يَوميًّا نَهارًا وليلًا.



الأذكارُ بَعْدَ الصلاةِ

ما يُقالُ بعدَ السَّلامِ منَ الصَّلاةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

وعن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا انصَرَفَ مِن صَلاتِه، استَغفَرَ ثَلاثًا، وقال: ((اللَّهُمَّ أنتَ السَّلَامُ، ومِنكَ السَّلامُ، تَبارَكْتَ ذَا الجَلَالِ والإكْرامِ)). قال الوَلِيدُ: فقُلتُ لِلأَوْزاعيِّ: كيفَ الاستِغْفارُ؟ قالَ: تَقُولُ: أستَغفِرُ اللهَ، أستَغفِرُ اللهَ(١).

وعن ورَّادٍ كاتِبِ المُغيرةِ، قال: كتَبَ مُعاويةُ إلى المُغيرةِ: اكتُبْ إليَّ ما سَمِعْتَ من رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكتَبَ إليه: إنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يقولُ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ: ((لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، اللَّهُمَّ لا مانعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعطيَ لِمَا منَعْتَ، ولا يَنفَعُ ذا الجَدِّ مِنكَ الجَدُّ))(٢).

وعنِ البَراءِ بنِ عازبٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: كُنَّا إذا صَلَّيْنا خَلْفَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَحْبَبْنا أن نَكونَ عن يَمينِه، يُقبِلُ علينا بوَجْهِه، قالَ: فسَمِعتُه يقولُ: ((رَبِّ قِنِي عَذابَك، يَومَ تَبعَثُ -أو تَجمَعُ- عِبادَك))(٣).



---

(١) أخرجه مسلم (٥٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٩٢) واللفظ له، ومسلم (٥٩٣).

(٣) أخرجه مسلم (٧٠٩).



ذِكرُ اللهِ تعالى مطلوبٌ في جميعِ الأوقاتِ، ومِن المواطِنِ التي يَتأكَّدُ فيها ذلك: الذِّكرُ دُبُرَ الصَّلواتِ، كما هو ظاهِرُ عُمومِ **الآيةِ الكريمةِ**، حيثُ أمَرَ اللهُ فيها بذِكْرِه تعالَى عَقِبَ الانصْرافِ مِن الصَّلاةِ وذلك في جَميعِ الأحوالِ والهَيئاتِ؛ مِن قيامٍ وقُعودٍ واضطِجاعٍ، وإنْ كان قد خَصَّها بعضُ المفَسِّرينَ بصَلاةِ الخَوفِ.

وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَذكُرُ اللهَ في جَميعِ الأوقاتِ، وقدْ خصَّصَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أذْكارًا بعَيْنِها في أوقاتٍ وأحْوالٍ خاصَّة، ومن ذلك الذِّكرُ بعدَ الانتهاءِ منَ الصَّلاةِ، وأوَّلُه الاستِغفارِ؛ حيثُ كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستَغفِرُ ثلاثًا عَقِبَ الانتِهاءِ من صَلاتِه، **كما في حديثِ ثَوْبانَ رضِيَ اللهُ عنه**، ويقولُ بعدَ الاستِغفارِ: «اللَّهمَّ أنتَ السَّلامُ»: والسَّلامُ من أسماءِ اللهِ الحُسنى، ومَعْناه: المُنَزَّهُ عنِ العُيوبِ وكلِّ نَقصٍ، «ومنكَ السَّلامُ»، أي: منكَ نطلُبُ السَّلامةَ من شُرورِ الدُّنيا والآخِرةِ، منكَ لا مِن غَيرِكَ، «تَباركْتَ» مِنَ البَرَكةِ، وتَعْني: تَكاثَرَ خَيرُكَ في الدارَيْنِ، «ذا الجَلالِ والإكْرامِ»: أي: صاحبَ العَظَمةِ والإحْسانِ.

وفي حَديثِ المُغيرةِ بنِ شُعْبَةَ رضِيَ اللهُ عنه بَيانٌ لذِكرٍ كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُه بعدَ الانتِهاءِ منَ الصلاةِ، يَشتَمِلُ على تَوْحيدِ اللهِ، ونَفْيِ الشَّريكِ معَه، وإثْباتِ المُلكِ المُطلَقِ، والحَمدِ الكامِلِ والقُدرةِ التَّامَّةِ له سُبحانَه وتعالَى، كما أنَّ فيه تَوحُّدَه بالتَّصرُّفِ والقَهرِ، وأنَّ كلَّ شيءٍ بيَدِه؛ فقد جَمعَ تَوْحيدَ الأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ. «اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»: إذا أردْتَ الإعْطاءَ والإنْعامَ على أحَدٍ فلا يَستطيعُ أحدٌ مَنْعَ فَضلِكَ عنه، وإذا أردْتَ الإمْساكَ ومَنْعَ العَطاءِ عن أحَدٍ فلا يَستطيعُ أحَدٌ أنْ يَمنعَك، وهذا كما قال اللهُ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢]. «ولا يَنفَعُ ذَا الجَدِّ مِنكَ الجَدُّ» أي: لا يَنفَعُ صاحِبَ الحظِّ حظُّه، ولا صاحبَ

الغِنى غِناه، وإنَّما يَنفَعُه العَمَلُ الصَّالحُ.

وفي حديثِ البَراءِ رضِيَ اللهُ عنه يَذكُرُ أنَّه سمِعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعو بعدَ صَلاتِه، ويقولُ: «رَبِّ قِنِي عَذابَكَ»: احْمِنِي مِن عذابِكَ يومَ تَجمَعُ عبادَكَ يومَ القِيامةِ للحِسَابِ، وهذا مِن أجَلِّ الأدْعيةِ الدَّالَّةِ على خَشْيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لرَبِّه سُبحانَه وتعالَى.

التَّسبيحُ والتَّحْميدُ والتَّكبيرُ بَعْدَ الصَّلاةِ

عن كَعبِ بنِ عُجْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((**مُعَقِّباتٌ لا يَخِيبُ قائِلُهنَّ -أو فاعِلُهنَّ- دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ مَكتُوبةٍ: ثَلاثٌ وثَلاثُونَ** تَسبِيحةً، وثَلاثٌ وثَلاثُونَ تَحميدةً، وأرْبَعٌ وثَلاثُونَ تَكْبيرةً))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، عَنْ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((**مَن سَبَّحَ اللهَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وثَلاثِينَ، وحَمِدَ اللهَ ثَلاثًا وثَلاثِينَ، وكَبَّرَ اللهَ ثَلاثًا وثَلاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ، وقالَ: تَمامَ المِئَةِ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ** وله الحمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ- غُفِرَتْ خَطاياهُ وإنْ كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ))[2].

وعن عبدِاللهِ بن عَمْرٍو رضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((**خَصلَتانِ -أو خَلَّتانِ- لا يُحافِظُ عليهما عَبدٌ مُسلِمٌ إلَّا دخَلَ الجَنةَ، هما يَسيرٌ، ومَن يَعمَلُ بهما قَليلٌ: يُسبِّحُ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ عَشْرًا، ويَحمَدُ عَشْرًا، ويُكبِّرُ عَشْرًا؛ فذلك خَمسونَ ومِئةٌ باللِّسانِ، وألْفٌ وخَمسُمِئةٍ في المِيزانِ ...**)) الحديث[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٧).

(٣) أخرجه من طرُقٍ: أبو داود (٥٠٦٥) واللفظ له، والترمذي (٣٤١٠)، والنسائي (١٣٤٨)، وابن ماجه (٩٢٦)، وأحمد (٦٩١٠). =

الصَّلاةُ كلُّها ذِكرٌ للهِ عزَّ وجلَّ، وقدْ سَنَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أذْكارًا قَبلَها وبَعْدَها، ويَنبَغي للمُسلِمِ أنْ يُحافِظَ عَليها ولا يُفرِّطَ فيها.

وفي حَديثِ كَعبٍ رضِيَ اللهُ عنه يَحُثُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ذِكرٍ مَخصوصٍ يَذكُرُ به المُسلمُ ربَّه بعدَ انتهائِه منَ الصلاةِ، ويُبَشِّرُ عليه بخَيرٍ كَبيرٍ، فيَقولُ: «مُعَقِّباتٌ»: وهي كَلِماتٌ تُقالُ بعدَ الصَّلاةِ تَأْتي بعضُها عقِبَ بعضٍ، لا يَخسَرُ ولا يَندَمُ ولا يُحرَمُ قائلُهنَّ مِن ثَوابِ هذه الكَلماتِ، تُقالُ هذهِ الكلِماتُ خَلفَ كُلِّ صلاةٍ مفروضةٍ، وهيَ قولُ المصلِّي: «سُبحانَ اللهِ» ثلاثًا وثَلاثينَ مرَّةً، «الحَمدُ للهِ» ثلاثًا وثلاثينَ مرةً، «اللهُ أكبرُ» أربعًا وثلاثينَ مرةً، فيَتِمُّ العددُ بذلك مِئةً.

وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه: التَّكبيرُ ثلاثًا وثلاثينَ؛ فتِلكَ الأعدادُ المذكورةُ مِن التَّسبيحِ والتَّحميدِ والتَّكبيرِ، مجموعُها تِسعٌ وتِسعونَ مرَّةً، ولإتمامِ المِئةِ، نقولُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، ومَعْناها: لا مَعبودَ بِحقٍّ إلَّا اللهُ، «وحدَه لا شريكَ لهُ»، في أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، «لهُ المُلكُ»: فهو مالِكُ كلِّ شَيءٍ، «ولهُ الحمدُ وهو عَلى كلِّ شَيءٍ قديرٌ» وثَوابُ ذلك أنْ يَغفِرَ اللهُ عزَّ وجلَّ له ذُنوبَه، وإنْ كانتْ تلكَ الذُّنوبُ في الكَثْرةِ والعَظَمةِ مِثلَ زَبَدِ البَحرِ، وهو: ما يَعْلو البَحْرَ مِن الرَّغوةِ والفَقاقيعِ عندَ تموُّجِه وهَيَجانِه، ويُعبَّرُ به عن كَثْرةِ الذُّنوبِ وعَدَمِ حَصرِها، ومعَ كَثْرتِها الهائلةِ يغفِرُها اللهُ لِمَن أتى بهذا الذِّكرِ بعدَ الصَّلاةِ المفروضةِ.

وفي حَديثِ عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما يذكرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وجهًا آخرَ في أعْدادِ الذِّكرِ بعدَ الصَّلاةِ، فيُبَيِّنُ أنَّ مَن «يُسبِّحُ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ» مَكتوبةٍ، فيقولُ: «سُبحانَ اللهِ» عَشْرَ مرَّاتٍ، «ويَحمَدُ اللهَ» فيقولُ: «الحَمدُ للهِ» عَشرَ مرَّاتٍ،

= قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ. وصَحَّحه ابن حبان في ((الصحيح)) (٢٠١٢)، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٢٨٢) وقال: وله شاهدٌ بإسنادٍ قويٍّ. والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٦٥).

ويُكبِّرُ اللهَ فيقولُ: «اللهُ أكبرُ» عَشْرَ مرَّاتٍ؛ فذلك العمَلُ خَمسونَ ومِئةٌ باللِّسانِ؛ لأنَّها تُفعَلُ خَمسَ مرَّاتٍ في اليومِ واللَّيلةِ، كلَّ مرَّةٍ ثلاثونَ، ومَجموعُها مِئةٌ وخَمسونَ في العَددِ، ولكنَّها «ألْفٌ وخَمسُمِئةٍ في المِيزانِ»، تُضاعَفُ في الميزانِ يومَ القِيامةِ؛ لأنَّ الحسَنةَ بعَشْرِ أمْثالِها، كما ورد في أعدادِ التَّسبيحِ والتحميدِ والتكبيرِ بعدَ الصَّلاةِ أوجهٌ أُخرَى، وهو مِن خلافِ التنوعِ.

قِراءةُ آيةِ الكُرْسيِّ بَعْدَ كُلِّ صَلاةٍ

عن أبي أُمامةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن قرأَ آيةَ الكُرسيِّ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ مَكْتوبةٍ، لم يمنَعْهُ مِن دُخولِ الجنَّةِ إلَّا الموتُ))[1].



الفَوزُ بالجَنَّةِ والنَّجاةُ منَ النارِ غايةُ كلِّ مسْلمٍ، ومن رَحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يَسَّرَ أبوابَ نَيْلِ رَحمتِه، والفَوزِ بجَنَّتِه، والنَّجاةِ من عَذابِه، وهذا الحَديثُ بابٌ من أبوابِ الرَّحمةِ منَ اللهِ؛ ليَنالَ العَبدُ مُبْتَغاهُ بالنَّجاةِ مِن النارِ ودُخولِ الجَنَّةِ، حيثُ يُخبِرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن حافَظَ على قِراءةِ «آيةِ الكُرسيِّ» -التي هي أعظمُ آيةٍ في كِتابِ اللهِ تعالَى، كما سبَقَ[2]- بعدَ انْتِهاءِ كُلِّ صلاةٍ مفروضةٍ «لم يَمْنَعْه من دُخولِ الجنَّةِ إلَّا الموْتُ»، أي: لا يَمنَعُه إلَّا عَدَمُ مَوتِه؛ فالمَوْتُ هو الحاجِزُ بينَه وبينَ دُخولِ الجنَّةِ.

قِراءةُ المُعَوِّذاتِ بَعْدَ كُلِّ صَلاةٍ

عن عُقْبةَ بنِ عامرٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٩٢٨)، والطبراني (٨/ ١٣٤) (٧٥٣٢) واللفظ له.
صحَّحه محمد ابن عبد الهادي في ((المحرر)) (١٢٤)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٤٦٤)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٤٧٨).

(٢) في (فَضْل آيةِ الكُرسيِّ وآخِرِ آيتَينِ مِن سُورةِ البَقَرةِ) (ص: ٦٩٠).



أقرَأَ بالمُعَوِّذاتِ دُبُرَ كلِّ صَلاةٍ))[1].



قراءةُ المُعَوِّذاتِ لها فَضلٌ كَبيرٌ في حِفظِ الإنْسانِ منَ الشرورِ بإذنِ اللهِ، ونَيْلِ الأجْرِ الجَزيلِ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي هذا الحَديثِ حَثٌّ على قِراءةِ المُعَوِّذاتِ عَقِبَ أداءِ كلِّ صَلاةٍ مَكتوبةٍ، حيثُ يُخبرُ عُقْبةُ بنُ عامرٍ رضِيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمَره أنْ يَقرأَ بالمُعوِّذاتِ، وهي سُورَتا الفلَقِ والنَّاسِ، وعبَّرَ عنهما بالجَمعِ على اعتِبارِ أنَّ أقلَّ الجَمعِ اثنانِ. وقيلَ: إنَّ لفظَ الجَمعِ يُدخِلُ معَهما سورةَ الإخْلاصِ؛ لأنَّها من ضِمنِ المُعَوِّذاتِ؛ لِما اشتَمَلَت عليه مِن صِفاتِ الرَّبِّ سُبحانَه وإنْ لم يُصَرَّحْ فيها بلَفظِ التَّعويذِ، ولو أراد سُورَتَي الفَلَقِ والنَّاسِ فَحَسْبُ، لقال: المعَوِّذتَينِ.

(١) أخرجه من طرقٍ: أبو داود (١٥٢٣) واللفظ له، والترمذي (٢٩٠٣)، والنسائي (١٣٣٦)، وأحمد (١٧٤١٧).

صَحَّحه ابن حبان في ((الصحيح)) (٢٠٠٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١/ ٣٨٣)، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٢٩٠)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٢٣)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٥٢٣).



أذكارُ النومِ والطعامِ ودُخولِ المَنزِلِ وغيرِ ذلك

مِن أذكارِ النَّومِ والاستيقاظِ منه

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ إذا أَوَى إلى فِرَاشِه، قالَ: ((الحَمدُ للهِ الذي أطعَمَنا وسقانا، وكَفَانا وآوانا؛ فكم ممَّن لا كافِيَ له ولا مُؤْوِيَ))(١).

وعن حَفْصةَ زَوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا أرادَ أنْ يَرْقُدَ وضَعَ يدَه اليُمْنى تحتَ خَدِّهِ ثم يقولُ: ((اللَّهُمَّ قِنِي عذابَكَ يومَ تَبعَثُ عِبادَك))(٢).

وعن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إذا أَوَى أَحَدُكم إلى فِراشِه فَلْيَنفُضْ فِراشَه بداخِلةِ إزارِه؛ فإنَّه لا يَدْرِي ما خَلَفَه عليه، ثُمَّ يقولُ: باسْمِك رَبِّ وضَعْتُ جَنْبي، وبك أرْفَعُه، إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسي فارْحَمْها، وإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ به عِبادَك الصَّالِحينَ))(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٤٥)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٥٩٧)، وأحمد (٢٦٤٦٥).

حسَّنه ابن حجر كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٣/ ١٤٨)، وحسَّن إسنادَه ابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٦/ ٤١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٤٥)، وصَحَّحه لغيره شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥٠٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٢٠) واللفظ له، ومسلم (٢٧١٤).



وعنِ البَراءِ بنِ عازبٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إذا أتَيتَ مَضجَعَك فتوضَّأْ وُضوءَك للصَّلاةِ، ثم اضْطَجِعْ على شِقِّك الأيمَنِ، ثمَّ قُلْ: اللهُمَّ أسلَمتُ وجهي إليك، وفوَّضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظَهري إليك؛ رغبةً ورهبةً إليك، لا مَلجَأَ ولا مَنْجا منك إلَّا إليك، اللهمَّ آمنتُ بكتابِك الذي أنزَلْتَ، وبنبيِّك الذي أرسَلْتَ، فإنْ مُتَّ مِن ليلتِك فأنت على الفِطرةِ، واجعَلْهنَّ آخِرَ ما تتكَلَّمُ به. قال: فرَدَّدْتُها على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلمَّا بلَغْتُ: اللهمَّ آمَنْتُ بكِتابِك الذي أنزَلْتَ، قُلتُ: ورَسولِك، قال: لا، ونبيِّك الذي أرسَلْتَ))(١).

وعن حُذَيْفةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا أرادَ أنْ ينامَ قال: باسْمِك اللهُمَّ أموتُ وأحيا، وإذا استيقَظَ مِن مَنامِه قال: الحَمدُ لله الذي أحيانا بعدَما أماتَنا وإليه النُّشورُ))(٢).



ذِكرُ الله تعالَى مأمورٌ به في جميعِ الأحوالِ؛ فقد حثَّنا ربُّنا سُبحانَه على دَوامِ ذِكْرِه، فذَكَر مِن صِفاتِ عِبادِه المُؤمِنينَ ذوي العُقولِ السَّليمةِ -الذين يدرِكونَ حقائِقَ الأشياءِ، فيَستَدِلُّونَ بخَلقِ اللهِ تعالى عليه- أنَّهم يُديمونَ الذِّكرَ في جميعِ أحوالِهم، سواءٌ كان ذلك في أوقاتِ شُغلِهم أو راحتِهم ورُقادِهم وإرادةِ النَّومِ، فلا يخلو منهم حالٌ عن ذِكرِ اللهِ تعالى **كما في الآية المذكُورة**.

وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَذكُرُ اللهَ تَعالى على كلِّ أحْوالِه، وفي هذه الأحاديثِ بَيانٌ لجانبٍ من هَدْيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ذِكرِه للهِ إذا أوَى إلى فِراشِه وأرادَ أنْ يَنامَ؛ **ففي حَديثِ أنَسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه** أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧) واللفظ له، ومسلم (٢٧١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢٤). وأخرجه مسلم (٢٧١١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.



وسلَّمَ كان إذا أَوَى إلى فِراشِه للنَّومِ عدَّ بعضَ نِعَمِ اللهِ، وحَمِدَه عليها، فكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: «الحَمدُ للهِ الذي أَطْعَمَنا وسَقانا» أي: الحمدُ للهِ الذي رزَقَنا أنواعَ الطعامِ وأنواعَ الشَّرابِ، بأنْ خلقَها ويَسَّرَ لنا سُبلَ الحُصولِ عليها، ومَكَّنَنا مِن استِعمالِها والاستِفادةِ منها، «وكَفَانا» شرَّ خَلقِه بأنْ دفَعَه عنَّا، ويَسَّرَ لنا الأُمورَ وكَفانا المَؤُونةَ، «وآوانَا» في سَكنٍ نَسكُنُ فيه يَقينا الحَرَّ والبَردَ، ونَحفَظُ فيه مَتاعَنا، ونَحجُبُ به عيالَنا. ثُمَّ بيَّنَ أنَّه كم «ممَّن لا كافيَ له»، ولا راحِمَ له، ولا عاطِفَ عليه، ولا مَوطِنَ له ولا سَكَنَ يَأْوي إليه ويَسكُنُه، وفيه: أنَّ مِن أحْسنِ الأشياءِ لمَن أُنعِمَ عليه بنِعمةٍ أنْ يَذكُرَ مَن حُرِمَ تلك النِّعمةَ فيَشكُرَ اللهَ تعالَى على ما حُرِمَ منه غيرُه، وهذا أجدرُ ألَّا يَزدرِيَ نِعمةَ اللهِ عليه.

وتقدَّم الكلامُ عن حدِيث حَفْصةَ وأبي هُرَيْرةَ و البَراءِ بنِ عازبٍ وحُذَيْفةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللهُ عنهم جميعًا[1].

التَّسميةُ على الطَّعامِ

عن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، قالت: كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأكُلُ طَعامًا في ستَّةٍ من أصحابِه، فجاءَ أعرابيٌّ جائعٌ فأكلَه بلُقمَتَينِ، فقالَ: ((أمَا إنَّهُ لو ذكَرَ اسمَ اللهِ عزَّ وجَلَّ كفاكم، فإذا أكلَ أحدُكُم فلْيَذكُرِ اسمَ اللهِ، فإنْ نَسِيَ اسمَ اللهِ في أوَّلِه فلْيَقُلْ: باسِمِ اللهِ أوَّلَه وآخِرَه))[2].

(١) في (آداب النَّومِ) (ص: ٦٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٦٧)، والترمذي (١٨٥٨)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠١١٢)، وأحمد (٢٦٢٩٢) واللفظ له.

قال الترمذي: حسَنٌ صحيح. وصحَّح إسنادَه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (٧٠٨٧)، وصحَّح الحديثَ ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٤/ ٢٦٩)، وابنُ القيم في ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٦٢)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٨٥٨)، وحَسَّنه بشواهِدِه شعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٦٢٩٢).

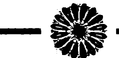


لِذِكْرِ اللهِ تَعالى على كلِّ أمرٍ فَضلٌ عَظيمٌ، وأجرٌ كَبيرٌ، واللهُ يُعْطي عليه الثَّوابَ الجَزيلَ، ويَحصُلُ به الكثيرُ منَ البَرَكةِ والخيرِ في حياةِ الإنسانِ؛ ولذا أمَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَسميةِ اللهِ على الطعامِ قبلَ أنْ يأكُلَ.

وفي هذا الحَديثِ تَحكي عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يأكُلُ طعامًا في سِتَّةٍ من أصحابِه، فجاء أعْرابيٌّ جائعٌ، والأعرابيُّ هو مَن يسكُنُ الصَّحراءَ منَ العَربِ، فأكَلَ الطَّعامَ كلَّه في مرَّتَينِ بلُقْمَتَينِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أمَا إنَّه لو ذكَرَ اسمَ اللهِ عزَّ وجَلَّ كَفاكم» الطَّعامُ؛ وذلك لِمَا يَنزِلُ منَ البَرَكةِ على الطَّعامِ، ويمنَعُ الشَّيطانَ منَ المُشارَكةِ له في طَعامِه، وهذا يدُلُّ على أنَّه لا يَكْفي تَسميةُ بعضِ الآكِلينَ، بلْ لا بُدَّ مِن تَسميةِ كلِّ واحدٍ، ثمَّ أرشَدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى التَّسميةِ على الطَّعامِ وأمَرَ بها، ومَن نَسِيَها فلْيَأتِ بها وقتَ ذِكْرِها بقَولِه: «باسمِ اللهِ أوَّلَه وآخِرَه»؛ فإنَّه يَتِمُّ بذلك الوَفاءُ بسُنَّةِ التَّسميةِ، وهذا مِن لُطفِ اللهِ ورَحمتِه بعِبادِه.

ما يَقولُه العاطِسُ وما يُقالُ له

عن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا عَطَس أحدُكم فلْيقُلِ: الحَمدُ للهِ، ولْيَقُلْ له أخوه أو صاحبُه: يَرحَمُك اللهُ، فإذا قال له: يَرحَمُك اللهُ، فليقُلْ: يَهديكم اللهُ ويُصلِحُ بالَكم))[1].



المسلِمُ دَومًا في مَعيَّةِ اللهِ؛ فعليه أنْ يكونَ حامِدًا وشاكِرًا وذاكِرًا له على كلِّ حالٍ، ومُلتزِمًا بهَدْيِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في كلِّ شُؤونِه، وفي هذا الحَديثِ

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٤).

يُعَلِّمُنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما نَقولُه عِندَ العُطاسِ، وما نقولُه لمَن عَطَس، فيُرشِدُنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا عطَسَ المُسلِمُ فعليه أنْ يقولَ: «الحمدُ للهِ»؛ شُكرًا لربِّه على هذه النِّعمةِ؛ إذ أذهَبَ عنه الضَّرَرَ بالعُطاسِ، فإذا الْتزَمَ هذا الأدبَ وحَمِدَ اللهَ تعالَى فلْيَقُلْ له مَن سَمِعَه أو عرَف أنَّه حَمِدَ اللهَ وإنْ لم يَسْمَعْه: «يَرحَمُكَ اللهُ» فيَدْعو له بالخيرِ؛ لأنَّه عمِلَ بالسُّنَّةِ، وأدَّى ما عليه مِن حَمدِ اللهِ وشُكرِه على نِعمتِه، فيُكافَأُ على ذلك بالدُّعاءِ له بالخيرِ، فأُمِر العاطِسُ أنْ يقولَ له: «يَهْديكم اللهُ ويُصلِحُ بالَكم» فيَدْعو له بالهِدايةِ وصَلاحِ الشأْنِ والحالِ في الدِّينِ والدُّنيا؛ بالتوفيقِ والتَّسديدِ والتأْييدِ.

ذِكرُ دُخولِ المَنزِلِ

عن جابرِ بنِ عبدِاللهِ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه سمِعَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((إذا دَخَل الرَّجُلُ بَيتَه فذَكَر اللهَ عندَ دُخولِه وعندَ طَعامِه، قال الشَّيطانُ: لا مَبيتَ لكم ولا عَشاءَ، وإذا دَخَل فلمْ يذكُرِ اللهَ عندَ دُخولِه، قال الشَّيطانُ: أدركتُم المَبِيتَ، وإذا لم يذكُرِ اللهَ عندَ طعامِه قال: أدركتُم المَبِيتَ والعَشاءَ))[1]



يَنتَهِزُ الشَّيطانُ لحَظاتِ الغَفْلةِ منَ المُسلِمِ؛ ليُشارِكَه مَسكَنَه وطعامَه وشَرابَه، فتُنتَزَعُ منه البَرَكةُ، وتَحِلُّ الشَّحْناءُ والبَغضاءُ، وذِكرُ اللهِ تعالَى جالبٌ للبَرَكةِ، وطارِدٌ للشَّيطانِ، وفي هذا الحَديثِ يُرشِدُنا الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى ذِكرِ اللهِ عندَ دُخولِ البيتِ، وذِكرُه تعالَى هو قولُ: «باسمِ اللهِ»؛ فإنَّه إذا دخَلَ المُسلِمُ مَسكَنَه الذي يَبيتُ فيه، فَذكَرَ اللهَ عندَ دُخولِه، قال الشَّيطانُ لأتْباعِه وإخْوانِه وأعْوانِه ورُفقتِه: لا مَوضعَ بَيتوتَةٍ لكم، ولا مُقامَ، ولا طعامَ للعَشاءِ في هذا المكانِ، وأمَّا إذا دَخَلَ المُسلِمُ فلمْ يَذكُرِ اللهَ عندَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠١٨).

دُخولِه، أو لَمْ يُسَمِّ اللهَ، قال الشَّيطانُ: أدْرَكتُمُ الْمَبيتَ في هذا البيتِ، وأدْرَكْتُمُ العَشاءَ، وفي هذا بيانٌ وتأكيدٌ لأهميةِ الذِّكْرِ عندَ دُخولِ المَنزِلِ.

ما يقولُ إذا لَبِسَ ثَوبًا جَديدًا

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا استجَدَّ ثَوبًا سمَّاه باسمِه؛ إمَّا قَميصًا أو عِمامةً، ثمَّ يقولُ: ((اللَّهمَّ لكَ الحَمدُ، أنتَ كَسَوْتَنيهِ، أسألُكَ مِن خَيرِه وخَيرِ ما صُنِعَ له، وأعوذُ بكَ من شَرِّهِ وشَرِّ ما صُنِعَ له)). قال أبو نَضْرةَ: فكان أصحابُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا لَبِسَ أحدُهم ثَوبًا جَديدًا قيلَ له: تُبْلِي ويُخلِفُ اللهُ تعالَى[1].



الثِّيابُ نِعْمةٌ من نِعَمِ اللهِ التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، وواجِبُ الإنسانِ أنْ يَشكُرَ اللهَ على نِعَمِه القائمةِ كلَّما استجَدَّتْ عليه نِعْمةٌ، ويَسألَه العَوْنَ على استِعمالِها في طاعتِه ومَرْضاتِه، وفي هذا الحَديثِ يُعَلِّمُنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يقولُه المُسلمُ إذا رزَقَه اللهُ ثَوبًا جَديدًا، فكان من هَدْيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا لَبِسَ ثَوبًا جَديدًا سَمَّى هذا الثوبَ باسمِه المُتَعارَفِ عليه قَميصًا كان أو غَيرَه، ودَعا اللهَ تَعالى قائلًا: «اللَّهمَّ لكَ الحَمدُ، أنتَ كَسَوْتَنيهِ»: يَحمَدُ اللهَ عزَّ وجلَّ على ما أنعَمَ به عليه، وأنَّ هذا من فَضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ عليه، وهو الذي يَكْسو، ويَرزُقُ عِبادَه، «أسأَلُكَ مِن خَيرِه وخَيرِ ما صُنِعَ له» فأعِنِّي على أنْ أستَعمِلَه في طاعَتِكَ وعِبادَتِكَ، ويَكونَ عَونًا لي فيهما،

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٢٠) واللفظ له، والترمذي (١٧٦٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠١٤١)، وأحمد (١١٢٤٨) مختصرًا.

قال الترمذي: حسنٌ غريبٌ صحيحٌ. وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٥٤٢٠)، والنووي في ((الأذكار)) (٢٩)، وابن القيم في ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٤٥)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٠٢٠).

«وأَعوذُ بكَ مِن شرِّه وشرِّ ما صُنِعَ له»: وهو أنْ يَصيرَ عندَ المرءِ كِبرٌ وترَفُّعٌ وتَعاظُمٌ إذا لَبِسَ ثَوبًا جَديدًا أو نَفيسًا؛ فإنَّ هذا مِن شَرِّه الذي يحصُلُ بسَببِه، وكذلك أنْ يُستَعمَلَ في مَعصيةٍ.

قال أبو نَضْرةَ، وهو المُنذِرُ بنُ مالكٍ أحَدُ التَّابِعينَ: فكان أصحابُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا لَبِسَ أحَدُهم ثَوبًا جَديدًا دُعِيَ له بقَولِ: تُبلِي بأنْ تُعمَّرُ فيه حتَّى يَبْلى الثَّوبُ ويَهْلِكَ، ويُخْلِفُ اللهُ تَعالى علَيكَ بعْدَ إعْمارِكَ فيه بثَوبٍ آخَرَ جَديدٍ.

ما يقولُ عندَ الكَرْبِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

وقال عن نبيِّه يُونُسَ عليه السَّلامُ: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وعن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يقولُ عندَ الكَربِ: ((لا إلهَ إلَّا اللهُ العَظيمُ الحَليمُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ العَرشِ العظيمِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ السَّمواتِ وربُّ الأرضِ وربُّ العَرشِ الكريمِ))(١).



واجبُ المسلِمِ إذا وقَعَ في كُربةٍ أو ضاقَتْ به الدُّنيا أنْ يَفزَعَ إلى اللهِ رَبِّه وإلهِه

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).



ومَوْلاه؛ فهو وَحْدَه القادِرُ على كَشفِ الهَمِّ والغَمِّ، والدُّعاءُ مِن أسبابِ رَفعِ البلاءِ.

وفي الآيةِ الأُولى يُقَرِّرُ اللهُ تعالَى أنَّه وَحْدَه مَن يُجيبُ المَكروبَ إذا دعاهُ، ويُزيلُ الضُّرَّ عنه إنْ شاء، ويَستخلِفُ عِبادَه في الأرضِ؛ فلا ينبغي أن يَلتفتَ العِبادُ إلَّا إلى إليه سُبحانَه، ولكِنْ العِبادُ يَتذكَّرونَ عَظَمتَه ونِعَمَه وحُجَجَه تذكُّرًا قليلًا؛ لإعراضِهم وغَفلتِهم، فيَقَعون في الشِّركِ باللهِ عزَّ وجَلَّ والتعَلُّقِ بغَيرِه.

وفي الآيةِ الثَّانيةِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ كُلَّ النِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ منه وَحْدَه، ثمَّ إذا أصابَ النَّاسَ شِدَّةٌ وبلاءٌ فإلى اللهِ يَرفَعُونَ أصواتَهم بالدُّعاءِ ويَستغِيثونَ به؛ ليَكشِفَ عنهم ما أصابَهم؛ لعِلْمِهم أنَّه وَحْدَه القادِرُ على إغاثَتِهم.

وفي الآيةِ الثَّالثةِ يَحكي اللهُ سبحانه نِداءَ يُونُسَ عليه السَّلامُ وهو محبوسٌ في بطنِ الحُوتِ وفي حالٍ عَظيمةٍ مِن الشِّدَّةِ والغَمِّ، إذ نادَى رَبَّه نِداءً مُتضَمِّنًا شَهادتَه للهِ تعالَى بالوحدانيَّةِ واستِحقاقِ العِبادةِ وَحْدَه، وتَنزيهَه عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، مع اعترافِه بظُلمِ نفْسِه، فأنجاه اللهُ تعالَى مِمَّا ألَمَّ به مِنَ الغَمِّ والكَرْبِ، وكذلِك يُنجي اللهُ تعالَى كُلَّ مُؤمِنٍ وقَعَ في شِدَّةٍ وغَمٍّ، كما فعَل بيُونسَ عليه السَّلامُ.

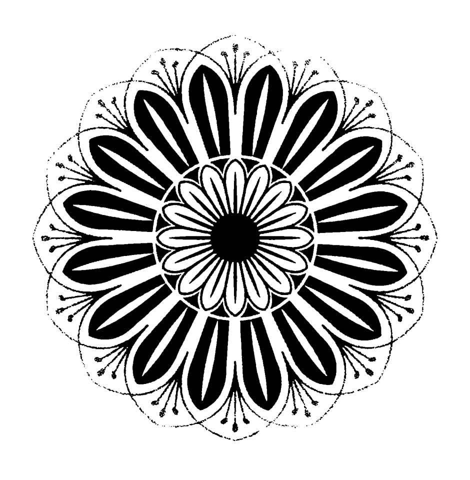
وفي الحَديثِ المذكور يُخبِرُ عبدُاللهِ بنُ عَبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عَنهُما بما كانَ يَقولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِندَما يَشْعُرُ باشتِدادِ الغَمِّ عليه، واسْتيلائِه على نَفْسِه الشَّريفةِ، فكان يقولُ: «لا إلَهَ إلَّا اللهُ»: أي: لا مَعبودَ بِحَقٍّ إلَّا اللهُ؛ فهو سُبحانَه «العَظيمُ» القَادرُ، الجَليلُ الشَّأنِ في ذاتِه وصِفاتِه وأفْعالِه. «الحَليمُ» الذي لا يُعاجِلُ العاصيَ بالعُقوبةِ، بَلْ قدْ يُؤَخِّرُها لحِكمةٍ، أو رَجاءَ أنْ يتُوبَ، وقد يَعْفو عنه وهو القادرُ سُبحانَه على كلِّ شيءٍ. «لا إلَهَ إلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظيمِ، لا إلَهَ إلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَواتِ، ورَبُّ الأرضِ، ورَبُّ العَرشِ الكَريمِ»، أي: لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ جلَّ جَلالُه، خالِقُ العَرشِ العَظيمِ الكَريمِ، وخالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومَن فِيهما، ومالِكُ هذه المَخلوقاتِ كلِّها،

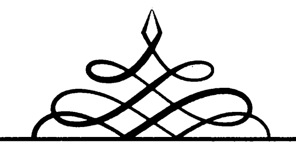


ومُصلِحُها والمُتَصَرِّفُ فيها كَيفَ شاءَ، وكما شاءَ. والعَرْشُ: هو عرْشُ الرَّحمنِ الذي استوَى عليه جلَّ جلالُه، وهو أعْلَى المَخلوقاتِ وأكبرُها وأعظمُها؛ وصَفَه اللهِ بأنَّه عظيمٌ وبأنَّه كريمٌ؛ فوصفَه بالحُسنِ مِن جِهةِ الكَمِّيَّةِ، وبالحُسنِ مِن جِهةِ الكَيفيَّةِ.

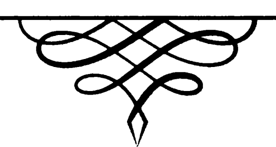
وهذا الدُّعاءُ مُشتمِلٌ على توحيدِ الإلهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ، ووصْفِ الربِّ سُبحانَه بالعظمةِ والحِلمِ، وعظمتُه المطلقةُ تَستلزمُ إثباتَ كلِّ كمالٍ له، وسلْبَ كلِّ نقصٍ وتَمثيلٍ عنه، وحلمُه يستلزمُ كمالَ رَحمتِه وإحسانِه إلى خلْقِه؛ فإذا عَلِمَ القلبُ هذا وتحقَّقَه أحبَّ اللهَ تعالَى وأجَلَّه فحصَلَ له مِن الابتهاجِ واللَّذةِ والسُّرورِ ما يَدفعُ عنه ألمَ الكربِ والهمِّ.



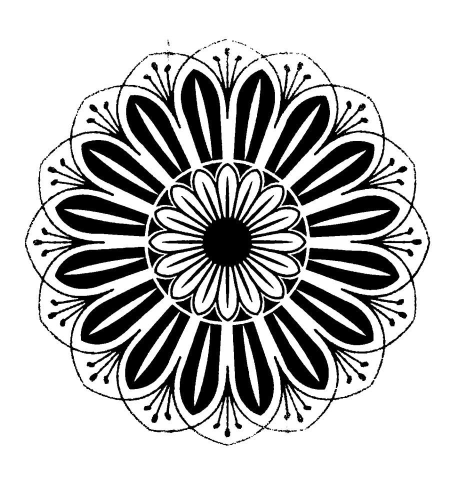




الأَدْعِيَةُ



ابتِهالاتٌ مُختارةٌ، وأَدْعِيةٌ مُنتقاةٌ، مأثورةٌ مِن الوَحيَينِ، جامِعةٌ لخَيرِي الدَّارينِ، يُناجي بها العَبدُ ربَّه، وَينالُ بها حُبَّه وقُربَه، مُديمًا قَرْعَ بابِه، لائِذًا بجَنابِه.



كَثرةُ الاستِغفارِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وعن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((واللهِ إنِّي لأستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليومِ أكثَرَ مِن سَبعينَ مرَّةً))[1].



من لُطفِ اللهِ عزَّ وجلَّ بعِبادِه أنْ يَسَّرَ لهم أبوابَ التوبةِ والاستغفارِ؛ **ففي الآيةِ الأولى**: يخبِرُ اللهُ تعالى أنَّ الذي يَعمَلُ عملًا يُسيءُ به إلى غيرِه، أو يَكتسِبُ ما يجعَلُه مُستحِقًّا للعُقوبةِ الإلهيَّةِ، ثمَّ يَستغفِرُ اللهَ تعالى عمَّا اقترَف، ويصْدُقُ في استغفارِه؛ فإنَّه سيَجِدُ مِن اللهِ مَغفِرةً لذُنوبِه، ورحمةً به وإن تكرَّر منه ذلك، وهذا يفتَحُ بابَ التَّوبةِ على مِصراعَيْه، وبابَ المغفرةِ على سَعَتِه، ويُطمِّعُ كلَّ مُذنِبٍ تائبٍ في العَفوِ والقَبولِ، ويَدُلُّ على أنَّ التَّوبةَ مقبولةٌ عن جميعِ الذُّنوبِ.

وفي الآيةِ الثانيةِ: أمرٌ مِن اللهِ تعالَى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطلَبِ المغفرةِ مِن الذُّنوبِ، وقد كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُمتثِلًا لذلك، فكان كثيرَ الاستغفارِ في كُلِّ يومٍ، كما سيأتي بيانُه.

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٨) واللفظ له، ومسلم (٩٢).



وفي الآيةِ الثَّالثةِ: يذكُرُ اللهُ تعالى إحدى صِفاتِ عِبادِه المتَّقينَ، وهي أنَّهم إذا ارتكَبوا فَعْلةً قبيحةً قد تَجاوَزت الحدَّ في الفَسادِ، أو فعَلوا بأنفُسِهم غيرَ الذي كان ينبغي لهم أنْ يفعَلوا بها؛ من رُكوبِهم المعاصيَ، والوقوعِ في الذُّنوبِ- ذَكَروا رحمتَه سُبحانَه ونِعَمَه عليهم، وما أَعدَّ للطَّائعينَ مِن ثوابٍ، وذَكَروا عَظمتَه، وبطْشَه وعِقابَه، وغيرَ ذلك؛ فأَوجَب لهم هذا الحياءَ مِنَ اللهِ تعالَى والخوفَ منه، ففَرُّوا إليه في الحالِ مُقلِعينَ عن الذَّنبِ ونادِمينَ عليه غيرَ مُصرِّينَ على فِعله، وطالِبينَ من الله مَحْوَه وعدمَ المؤاخَذةِ عليه؛ فإنَّه لا يَغفِرُ ذُنُوبَ العبادِ أحدٌ غيرُ اللهِ تعالى.

أمَّا الحديثُ ففيه حثٌّ من النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الإكثارِ منَ التوْبةِ والاستغفارِ، فيُقسِمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -وهو الصادِقُ المَصدوقُ- أنَّه يَتوبُ إلى اللهِ تعالَى، ويَستَغفِرُه في اليومِ أكثرَ مِن سَبعينَ مرَّةً، والقَسَمُ لتأكيدِ الخَبَرِ، وإنْ لم يكُنْ عندَ السامِعِ فيه شكٌّ. وقدْ ورَدَ في الحديث عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنه قال: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إلى اللهِ؛ فإنِّي أَتُوبُ في اليَومِ إلَيْهِ مِئَةَ مَرَّةٍ))[1]. قيل: إنَّ المرادَ بالعَدَدِ الإشارةُ للكَثرةِ، وليس المرادُ الحَصرَ فيه.

وظاهرُ الكَلامِ أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يطلُبُ المَغفرةَ ويَعزِمُ على التوْبةِ، بأيِّ صِيغةٍ كانت، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ قولَ هذا اللفظِ بعَينِه: «أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه».

مِن أدعيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وعن عبدِالله بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه كان يقولُ: ((اللَّهُمَّ إنِّي أَسألُك الهُدى والتُّقى، والعَفافَ والغِنَى)). وفي رِوايةٍ:

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديثِ الأغرِّ المُزَنيِّ رَضِيَ الله عنه.



((والعِفَّةَ))(١).

وعن عَليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال لي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((قُل: اللَّهُمَّ اهْدِني وسَدِّدْني، واذكُرْ بالهُدى هدايتَك الطَّريقَ، والسَّدادِ سَدادَ السَّهمِ))(٢).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((اللَّهمَّ أصلِحْ لي دِيني الذي هو عِصمةُ أمْري، وأصلِحْ لي دُنياي التي فيها مَعاشي، وأصلِحْ لي آخِرتي التي فيها مَعادي، واجعَلْ الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خَيرٍ، واجعَلِ الموتَ راحةً لي مِن كُلِّ شَرٍّ))(٣).



الدُّعاءُ عِبادةٌ عَظيمةٌ أمَرَ اللهُ تعالَى بها عِبادَه، وحَثَّ عليها، ورَغَّب فيها، وقد بَيَّن اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ شِدَّةَ قُربِه من عِبادِه؛ فهو -مع عُلوِّه سُبحانَه واستوائِه على عرْشِه- يسمَعُ صَوتَهم، ويرَى مكانَهم، ويستجيبُ دُعاءَ مَن دعاه منهم، فيُعطيهم ما سألوا بشَرْطِ أنْ يكونَ الدَّاعي صادِقًا في دُعائِه؛ مُخلِصًا لربِّه، مُشعِرًا نفْسَه بالافتقارِ إليه، وبكرَمِ اللهِ وجُودِه، وأنَّه قادرٌ على إجابتِه.

وخيرُ الدُّعاءِ ما دَعا به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما أُثِرَ به عنه، وفي هذا البابِ جُملةٌ منَ الأحاديثِ التي فيها بعضُ الدَّعَواتِ النَّبَويةِ.

وحَديثُ عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه منَ الأحاديثِ الجامِعةِ لأبوابِ الخَيرِ، ولِما يَنبَغي على الإنْسانِ طلَبُه منَ اللهِ لصَلاحِ حالِه ومَآلِه في الدُّنيا والآخِرةِ، وفيه

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٢٠).



يَسألُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَرزُقَه اللهُ ويُثبِّتَه على «الهُدَى» وهو الصِّراطُ المُستَقيمُ؛ صِراطُ الذينَ أنعَمَ اللهُ عليهم، «والتُّقى»: وهو الخَوفُ منَ اللهِ، والحَذَرُ من مُخالَفَتِه، وأطلَقَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الهُدى والتُّقى مِن دونِ تَقْييدٍ لَهما؛ لِيتناوَلَ كُلَّ ما يَنبَغي أنْ يوفَّقَ ويَهتَدِيَ إليه مِن أمْرِ المَعاشِ والمَعادِ، ومَكارِمِ الأَخْلاقِ، وكُلَّ ما يَجِبُ أنْ يَتَّقِيَ مِنه مِنَ الشِّركِ والمعاصِي، ورَذائلِ الأَخْلاقِ. ويَسألُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يَرزُقَه «العِفَّةَ» والابتعادَ عن كُلِّ ما حرَّمَ عليه، وأنْ يَرزُقَه «الغِنى» عَمَّا سِواهُ؛ فالإنْسانُ إذا وَفَّقَه اللهُ ومَنَّ عليه بِالاستِغْناءِ عنِ الخَلْقِ، صارَ عَزيزَ النَّفْسِ غَيرَ ذَليلٍ؛ لأنَّ الحاجةَ إلى الخَلْقِ ذُلٌّ ومَهانةٌ، والحاجةَ إلى اللهِ تَعالى عِزٌّ وعِبادةٌ.

وفي حَديثِ عَليٍّ رضِيَ اللهُ عنه يُخبِرُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَّمَه هذا الدُّعاءَ، وهو قولُه: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي» وهو دُعاءٌ مبارَكٌ يَتضمَّنُ أهمَّ المطالِبِ التي يَطلُبُها العَبدُ، ولا يُحَصِّلُ الفَلاحَ والسعادةَ إلَّا بهما، وهو أنْ يَسألَ اللهَ الهِدايةَ والسَّدادَ. فالهُدَى: هو المَعرفةُ بالحقِّ تَفْصيلًا وإجْمالًا، والتَّوفيقُ لاتِّباعِه ظاهِرًا وباطِنًا. والسَّداد: هو التوفيقُ والاستقامةُ في جميعِ الأُمورِ بما يكونُ صَوابًا على الحقِّ، وهو الطريقُ المُستَقيمُ في القَولِ والفِعلِ والاعتِقادِ.

وأوصاه عندَما يَدْعو به أنْ يكونَ مُخطِرًا ببالِه حالَ دُعائِه أنَّ المطلوبَ هِدايةٌ كهِدايةِ مَن ركِبَ مَتنَ الطريقِ، لا يكادُ يُفارِقُ الجادَّةَ، ولا يَعدِلُ عنها؛ خَوفًا منَ الضلالِ، وبذلك يُصيبُ الهِدايةَ، ويَنالُ السلامةَ، فإذا سألْتَ اللَهَ تَعالى الهُدى، فأخطِرْ بقَلبِكَ هِدايةَ الطَّريقِ، وسَلِ اللَهَ الاستقامةَ، كما تتحَرَّاه في هِدايةِ الطريقِ إذا سلَكْتَها، وأخطِرْ ببالِكَ عندَما تَسألُ اللهَ السَّدادَ أنْ يكونَ سَدادًا كسَدادِ السَّهمِ نحوَ الغَرَضِ، لا يَعدِلُ عنه يَمينًا ولا شِمالًا، حتى يُصيبَ هَدفَه، فكذلك تَسألُ اللهَ تَعالى أنَّ ما تَنْوِيَه مِنَ السَّدادِ على شاكِلةِ السَّهمِ، فيكونُ في سُؤالِه طالبًا غايةَ الهُدى ونهايةَ السَّدادِ.

وفي حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه يَدْعو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بدُعاءٍ شاملٍ فيه صلاحُ الدِّينِ والدُّنيا والآخِرةِ، وبَدَأَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيه بالأَهَمِّ، وهُو الدُّعاءُ بإصْلاحِ الدِّينِ، ووَصَفَ الدِّينَ بأنَّه عِصمةُ الأَمْرِ؛ فبِه يَعتَصِمُ الإنسانُ مِن كُلِّ شرٍّ، وهو الحافظُ لجَميعِ الأُمورِ؛ فإنَّ مَن فسَدَ دِينُه فسَدَت جميعُ أُمورِه، وخابَ وخَسِرَ في الدُّنيا والآخِرةِ. وصَلاحُ الدِّينِ يَكونُ بِالإخْلاصِ للهِ والسَّيرِ وَفْقَ مُرادِه، والمُتابَعةِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ثُمَّ سأَلَ بَعدَ ذلك إصلاحَ الدُّنيا، وذلك بإعْطاءِ الكَفافِ فيما يحتاجُ إليه، وكَونِه حَلالًا مُعينًا على الطاعةِ. وقولُه: «الَّتي فِيهَا مَعاشِي» أيِ: التي أعيشُ فِيها لأَعبُدَك، ومِنَ المَعاشِ: الكَسْبُ والسَّعيُ في الأرضِ لاستِجْلابِ الرِّزقِ، ويَكونُ ذلك عِبادةً للهِ عزَّ وجلَّ إذا احتَسَبَ العبدُالأجْرَ، واستَعانَ به على الطَّاعةِ.

ثُمَّ قال: «وأَصلِحْ لي آخِرَتي الَّتي فيها مَعادِي»، فرَتَّبَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الآخِرةَ بَعدَ الدُّنيا؛ إذِ الأُولى هي وسيلةُ إصلاحِ الثَّانيةِ، فمَنِ استَقامَ في دُنياه وَفْقَ مُرادِ اللهِ استقامَت له آخِرَتُه، وسَعِدَ فيها. ويَسأَلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ربَّه أنْ يَجعَلَ الحياةَ زِيادةً له في كُلِّ خيرٍ، فتَزدادَ فيها الأَعمالُ الصَّالحةُ، وأنْ يَجعَلَ الموتَ راحةً له مِن كُلِّ شرٍّ، بأنْ تحسُنَ الخاتِمةُ، ويكونَ الموتُ له خيرًا منَ الحَياةِ التي لا تَخْلو عَنْ شَرٍّ وبَلاءٍ، ولا يُصيبَه شَرُّ عذابِ القَبرِ وفِتنتُه، ولا شَرُّ النارِ، ويكونَ في الجَنَّةِ المُستَراحُ.

أكثَرُ دُعاءِ النّبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا



عَذَابَ ٱلنَّارِ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢].

وعن عبدِالعَزيزِ بنِ صُهَيبٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سأل قتادةُ أنسًا: أيُّ دَعوةٍ كان يدعو بها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أكثرَ؟ قال: كان أكثرُ دَعوةٍ يدعو بها يقولُ: ((اللَّهمَّ آتِنا في الدُّنيا حَسَنةً، وفي الآخِرةِ حَسَنةً، وقِنا عذابَ النَّارِ)). قال: وكان أنسٌ إذا أراد أن يدعوَ بدَعوةٍ دعا بها، فإذا أراد أن يدعوَ بدُعاءٍ دعا بها فيه[1].



في الآياتِ المذكورةِ أَرشدَ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى دُعائِه بعد الأمْرِ بالإكثارِ مِن ذِكرِه عَقِبَ إتمامِ مناسِكِ الحَجِّ؛ فإنَّ ذلك أَحْرى بالإجابةِ، وذمَّ سبحانه مَن لا يسألُه إلَّا متاعَ الدُّنيا، وليس له في ثوابِ الآخِرةِ أيُّ نَصيبٍ. ثُمَّ مدَحَ اللهُ تعالَى المُؤمنينَ الذين يسألونَه مِن خَيرَيِ الدُّنيا والآخِرةِ، ويَطلُبون منه سُبحانَه أن يَصرِفَ عنهم عذابَ النَّارِ؛ فهؤلاء لهم ثوابٌ عَظيمٌ على حَجِّهم الذي قاموا به، وسيُجيبُهم اللهُ إلى ما دَعَوا به من خيرَيِ الدُّنيا والآخِرةِ.

وفي هذا الحَديثِ أنَّ قَتادةَ بنَ دِعامةَ السَّدوسيَّ -وهو تابعيٌّ جليلٌ من أئمَّةِ المُفسِّرينَ والمُحدِّثينَ- سألَ شيْخَه أَنَسَ بنَ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، عنِ الدَّعوةِ الجامِعةِ التي كان يُواظِبُ عليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأجابَه أنسٌ بأنَّ أكثَرَ دعوةٍ كان يُواظِبُ عليها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هي سؤالُ اللهِ أنْ يُعطيَه في الدُّنيا حَسَنةً وفي الآخِرةِ حَسَنةً. والحَسَنةُ في الدُّنيا: قيل: هي العِلمُ والعِبادةُ. وفي الآخِرةِ: الجَنةُ، ومِنهم مَن قال: الحَسَنةُ في الدُّنيا والآخِرةِ: هي العافيةُ فيهما، أو في الدُّنيا: المالُ، وفي الآخِرةِ: الجَنةُ، ومنهم مَن قال: حَسَنةُ الدُّنيا: هي الزَّوجةُ الصَّالحةُ. ولعلَّ وُرودَ لَفْظةِ الحَسَنةِ مُنكَّرةً لتَشمَلَ كلَّ ذلك، ويَدخُلَ أيضًا ما فيها من خَيرٍ لا إثمَ فيه؛ من

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٢)، ومسلم (٢٦٩٠) واللفظ له.

مَطعَمٍ ومَشرَبٍ، ومَلبَسٍ ومَأْوًى، وزَوجةٍ ونَحوِه، بلا إسرافٍ، ويَطلُبُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ معَ الحسَنَةِ في الدُّنيا والحسَنَةِ في الآخِرةِ النَّجاةَ منَ النَّارِ.

وهذا من جَوامعِ الدُّعاءِ النَّبويِّ؛ فقد جَمَعَ خَيرَيِ الدُّنيا والآخِرةِ؛ ولذلك كان أنَسٌ رضِيَ اللهُ عنه إذا أرادَ أنْ يَدْعوَ بدَعوةٍ واحدةٍ دَعا بها، فإذا أرادَ أنْ يَدعوَ بدُعاءٍ كَثيرٍ ومُتعدِّدٍ، جَعَلَها مِن جُمْلةِ ما يَدْعو به.

ما كان يتعَوَّذُ منه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

عن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: كانَ مِن دُعاءِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن زَوالِ نِعمتِك، وتحوُّلِ عافيتِك، وفُجاءةِ نِقمتِك، وجميعِ سَخَطِك))[1].

وعن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ((كان يَتعوَّذُ مِن سوءِ القَضاءِ، ومِنْ دَرَكِ الشَّقاءِ، ومِنْ شَماتةِ الأعداءِ، ومِنْ جَهْدِ البَلاءِ))[2].

وعن زَيدِ بن أرقَمَ رضِيَ اللهُ عنه: لا أَقولُ لكم إلَّا كما كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: كانَ يقولُ: ((اللَّهُمَّ إنِّي أَعوذُ بكَ مِنَ العَجْزِ والكَسَلِ، والجُبْنِ والبُخلِ والهَرَمِ، وعَذابِ القَبرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسي تَقْوَاها، وزَكِّها أنت خَيرُ مَن زَكَّاها، أنت وَلِيُّها ومَوْلاها، اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن عِلْمٍ لا يَنفَعُ، ومِن قَلبٍ لا يَخشَعُ، ومِن نَفْسٍ لا تَشبَعُ، ومِن دَعوةٍ لا يُستَجابُ لها))[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٧)، ومسلم (٢٧٠٧) واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٢٢). وأخرجه البخاري (٢٨٢٣) أولَه من حديث أنس رضي الله عنه.





في حَديثِ ابنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان مِن دُعائِه الاستِعاذةُ مِن ذَهابِ نِعَمِه سُبحانَه وتعالَى، وهذا شاملٌ للنِّعمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيَويَّةِ، النَّافِعةِ المُعينةِ على الخَيرِ، والاستِعاذةُ مِن زَوالِ النِّعَمِ تَتَضَمَّنُ الحِفْظَ عَنِ الوُقوعِ في المَعاصي؛ لأنَّها تُزيلُها، ثُمَّ عَطَفَ على الاستِعاذةِ الأُولى الاستعاذةَ من تَحَوُّلِ العافِيةِ، والمَعْنى: وأعوذُ بكَ مِنْ تَبَدُّلِ ما رَزَقْتَني مِنَ العافِيةِ إلى البَلاءِ. والتحويلُ تَغْييرُ الشيءِ وانفِصالُه عن غَيرِه، فكأنَّه سأَلَ دوامَ العافيةِ، وهي السلامةُ منَ الآلامِ والأسْقامِ، ويَستَعيذُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من فُجاءةِ النِّقمةِ مِن غضَبِ الربِّ وعُقوبَتِه، وكلِّ بَلاءٍ أو مُصيبةٍ، فالنِّقْمةُ إذا جاءَتْ بَغْتةً لم يَكُنْ هناك زَمانٌ تُستَدرَكُ فيه، وكان المُصابُ بها أعظَمَ.

وقَولُه: «وجَميعِ سَخَطِكَ»، أي: أَلْتَجِئُ وأعتَصِمُ بكَ أنْ تُعيذَني من جميعِ الأسباب الموجِبةِ لغَضَبِك جلَّ شأنُكَ؛ فإنَّ مَن سَخِطْتَ عليه فقد خابَ وخَسِرَ؛ ولهذا أتى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بلَفظِ الجَمعِ؛ فهي استعاذةٌ من جميعِ أسبابِ سَخَطِه سُبحانَه وتَعالى منَ الأقْوالِ والأفعالِ والأعْمالِ، وهو تَعْميمٌ شامِلٌ لِكُلِّ ما سَلَفَ ولِغَيرِه.

وفي حديثِ أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه يَلتَجِئُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ويَحْتَمِي باللهِ تعالى، ويَطلُبُ منه أنْ يَقيَه جُملةً منَ المصائبِ التي تَلحَقُ بالإنسانِ فتُنَغِّصُ عليه دُنْياه، وتَذهَبُ بآخِرَتِه، فتعَوَّذَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من «سُوءِ القَضاءِ»: وهو كلُّ ما يَسُوءُ الإنسانَ ويَحزُنُه منَ الأقْضِيةِ المُقدَّرةِ عليه، والموصوفُ بالسُّوءِ هو المَقْضِيُّ به لا القَضاءُ نَفسُه. «ومن دَرَكِ الشَّقاءِ»، والدَّرَكُ: هو الوُصولُ واللُّحوقُ، فكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستعيذُ باللهِ مِن أنْ يَلْحَقَه أو يَصِلَه الشَّقاءُ، أو أنْ يُدرِكَ هو الشَّقاءَ والتَّعَبَ والنَّصَبَ في الدُّنيا والآخِرةِ. «ومِن شَماتةِ الأعْداءِ»: وهي فَرَحُ العَدُوِّ، وهو لا يَفْرَحُ إلَّا لِمُصِيبةٍ تَنزِلُ بِمَن يَكرَهُ. «ومن جَهْدِ البَلاءِ»: وهو: أَقْصَى ما يَبلُغُه الابتلاءُ، وهو الامتِحانُ، وذلك بأنْ يُصابَ حتَّى يَتمنَّى الموتَ!



وفي حَديثِ زَيدِ بنِ أرقَمَ رضِيَ اللهُ عنه جَمَع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ التَّعوُّذِ من أُصولِ الخِصالِ المُثبِّطةِ عنِ العَمَلِ، وسؤالِ أُصولِ الخِصالِ المُحَفِّزةِ للعَمَلِ، فاستَعاذَ منَ «العَجْزِ والكَسَلِ»: والفَرقُ بينَهما: أنَّ الكسَلَ تَركُ الشيءِ معَ القُدرةِ على فِعلِه، والعَجزَ عدمُ القُدرةِ عليه. كما استَعاذَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ «الجُبْنِ والبُخْلِ»؛ لِمَا فيهما مِنَ التَّقْصيرِ عن أداءِ الواجِباتِ والقِيامِ بِحُقوقِ اللهِ سُبْحانَه وتعالَى، وإزالةِ المُنكَرِ؛ ولأنَّه بشَجاعةِ النَّفْسِ وقُوَّتِها المُعتدِلةِ تَتِمُّ العِباداتُ، ويَقومُ بنَصرِ المَظلومِ، وبالسَّلامةِ مِنَ البُخلِ يَقومُ بحُقوقِ المالِ، ويَنبَعِثُ للإنفاقِ والجُودِ ولِمَكارمِ الأخْلاقِ، ويَمتنِعُ مِنَ الطَّمَعِ فيما ليس له.

واستَعاذَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ «الهَرَمِ» وهو كِبَرُ السِّنِّ المُؤَدِّي إلى ضَعْفِ القُوَى، وسببُ استِعاذةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منه؛ ما فيه مِن الخَرَفِ واخْتِلالِ العَقلِ والحَوَاسِّ والضَّبطِ والفَهمِ، وتَشْويهِ بعضِ المَناظِرِ، والعَجزِ عن كثيرٍ مِنَ الطاعاتِ، والتَّساهُلِ في بَعضِها. ثُمَّ استَعاذَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن «عَذابِ القَبرِ»، أي: مِن فِتنتِه والعُقوبةِ التي تقَعُ على الميِّتِ بداخلِه، ويَشمَلُ الاستِعاذةَ مِن الأسبابِ التي تُؤدِّي إلى ذلِك، وقد تقدَّمَ الكلامُ مُفصَّلًا عن عذابِ القَبرِ في (نَعيمِ القبرِ وعذابِه)[1].

واستِعاذَتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن هذه الأشياءِ؛ لِتَكْمُلَ صِفاتُه في كُلِّ أحْوالِه، وأيضًا لتَعليمِ أُمَّتِه؛ فإنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَعصومٌ مِن كلِّ ما يَشينُ، وقدْ غفَرَ اللهُ له ما تَقدَّمَ مِن ذَنبِه وما تأخَّرَ.

وبَعدَ أنِ استَعاذَ بِما يَضُرُّ النَّفْسَ سَألَ اللهَ ما يُصلِحُ تِلكَ النَّفسَ، فَقالَ: «اللَّهمَّ آتِ نَفْسِي تَقْواها»، وهو دُعاءٌ بأنْ يُيَسِّرَها لِفعلِ ما يَقيها العَذابَ، «وزَكِّها»: بطاعةِ

(١) (ص: ١١٠).

اللهِ، وطَهِّرْها مِنَ الرَّذائلِ والأخلاقِ الدَّنيئةِ، كقَولِه تعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، فهو مُطابِقٌ للدُّعاءِ؛ فإنَّ المرادَ مَن زَكَّى اللهُ نَفْسَه؛ فالآيةُ إخبارٌ بأنَّ المُفلِحَ مَن زَكَّى اللهُ نَفْسَه، وهذا الحَديثُ سُؤالٌ أنْ يُزَكِّيَ اللهُ نَفْسَ الدَّاعي؛ «أنتَ خيرُ مَن زكَّاها»:أي: لا مزكِّيَ لها إلا أنتَ، «أنتَ وَلِيُّها ومَوْلَاها»: أنتَ المُتَصَرِّفُ فيها، ومُتَوَلِّي أمْرِها، ومالِكُها.

ثُمَّ استَعاذَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن عِلمٍ لا يَكونُ نافعًا في نَفْسِه، أو يَكونُ نافعًا لكنْ لا يَنتفِعُ به صاحِبُه، واستَعاذَ أيضًا مِنَ القَلبِ الذي لا يَخشَعُ؛ لأنَّه يكونُ قاسيًا لا تُؤَثِّرُ فيه مَوْعِظةٌ ولا نَصيحةٌ، ولا يرغَبُ في مُرَغَّبٍ فيه، ولا يرهَبُ مِن مُرَهَّبٍ منه.

واستَعاذَ مِنَ النَّفْسِ الَّتي لا تَشبَعُ؛ لأنَّها تَكونُ مُتكالِبةً على الحُطامِ، مُتَجَرِّئةً على المالِ الحَرامِ، غَيرَ قانِعةٍ بما يَكْفيها مِنَ الرِّزقِ، فلا تَزالُ في تَعَبِ الدُّنيا وعُقوبَةٍ في الآخِرةِ، واستَعاذَ منَ الدَّعوةِ الَّتي لا يُستَجابُ لها؛ لأنَّ الرَّبَّ سُبحانَه هُو الذي يُعْطي ويَمنَعُ، القابِضُ الباسِطُ، فإذا تَوجَّهَ العَبْدُ إليه في دُعائِه ولم يَستَجِبْ دَعوتَه فقد خابَ الدَّاعي وخَسِرَ؛ لأنَّه طُرِدَ منَ البابِ الذي لا يُستَجلَبُ الخيرُ إلَّا منه، ولا يُستَدفَعُ الضُّرُّ إلَّا به.

دُعاءُ الاستِخارةِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وعن جابرِ بنِ عبدِاللهِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعلِّمُنا الاستِخارةَ في الأُمورِ كُلِّها كما يعَلِّمُنا السُّورةَ مِن القُرآنِ؛ يَقولُ: ((إذا هَمَّ أحدُكُم بالأمْرِ فلْيَركَعْ رَكْعَتينِ مِن غيرِ الفَريضةِ، ثمَّ ليقُل: اللَّهمَّ إنِّي أستخيرُك بعِلمِك، وأستَقدِرُك بقُدرتِك، وأسألُك مِن فَضلِك العظيمِ؛ فإنَّك تَقدِرُ ولا أقدِرُ، وتعلَمُ ولا



أعلَمُ، وأنت علَّامُ الغُيوبِ، اللَّهمَّ إنْ كُنتَ تَعلَمُ أنَّ هذا الأمرَ خَيرٌ لي في دِيني ومَعاشي وعاقبةِ أمْري -أو قال: عاجِلِ أمْري وآجِلِه- فاقدُرْه لي ويسِّرْه لي، ثمَّ بارِكْ لي فيه، وإنْ كُنتَ تَعلَمُ أنَّ هذا الأمرَ شَرٌّ لي في دِيني ومَعاشي وعاقبةِ أمْري -أو قال: في عاجِلِ أمْري وآجِلِه- فاصرِفْه عنِّي واصرِفْني عنه، واقدُرْ ليَ الخيرَ حيثُ كان، ثمَّ أرضِنْي. قال: ويُسَمِّي حاجَتَه))[1].



لا يَعلَمُ الغَيبَ إلَّا اللهُ تعالَى، ولا يُدرِكُ الخَيرَ المُطلَقَ للعَبدِ سِوى خالِقِه جلَّ في عُلاه؛ فكم مِن أمرٍ يَحسَبُه العَبدُ خَيرًا له، وهو شَرٌّ له! وكم مِن شَرٍّ ظَنَّه كذلك وهو خيرٌ له! فلا يَعلَمُ ذلك على الحَقيقةِ سِوى اللهِ تعالَى وَحْدَه، **كما في الآيةِ الكريمةِ**، ومن ذلك فَرضُ القِتالِ، فالقِتالُ أمرٌ مَكروهٌ للنَّاسِ؛ لِمَا فيه من المشقَّةِ، والتعرُّضِ للقَتلِ، والإصابةِ بالجُروحِ، وما يحدُثُ فيه من خَوفٍ، لكِنَّ ما فيه من المنافِعِ أعظَمُ ممَّا يَنتجُ عنه من أضرارٍ، والنُّكولُ عنه وإنْ كان محبوبًا تميلُ إليه النُّفوسُ فإنَّ فيه من الشُّرورِ ما يفوقُ مَصلحةَ القُعودِ عنه، وهكذا الحالُ في جميعِ أعمالِ الخَيرِ وإن كَرِهَتْها النُّفوسُ، وأفعالِ الشَّرِّ وإن مالت إليها النُّفوسُ.

واللهُ سبحانَه وتعالَى أعلَمُ بما يَنفَعُ عِبادَه، وبما يَضُرُّهم؛ ولذا يَنبَغي للمؤمنِ إذا قصَد شيئًا مِن الأُمورِ أن يَسألَ اللهَ أنْ يحمِلَه على الخيرِ، ويَصرِفَ عنه الشَّرَّ؛ إذْعَانًا بالافْتِقارِ إليه في كلِّ أمرٍ، والتزامًا لذِلَّةِ العُبوديَّةِ له، واتِّباعًا لسُنَّةِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ذلك، والاستخارةُ طلَبُ الخَيرِ في الشيءِ؛ ولذلك كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعَلِّمُهم هذا الدُّعاءَ كما يُعلِّمُهم السُّورةَ مِنَ القُرآنِ **كما جاء في الحديثِ المذكورِ**؛ وذلك لشِدَّةِ حاجتِهم إلى الاستِخارةِ في الحالاتِ كلِّها، كشِدَّةِ حاجتِهم إلى

(١) أخرجه البخاري (١١٦٢).



القِراءةِ في كلِّ الصَّلواتِ؛ لِمَا فيها من عَظيمِ النفْعِ لمَنِ استَعانَ بها على أمرٍ هو مُخيَّرٌ فيه؛ فبيَّنَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا قصَدَ أحدُنا أمرًا فليُصَلِّ نَدْبًا رَكعتَينِ، ثمَّ يَدْعو اللهَ قائلًا -بعْدَ السلامِ مِنهما، أو بعْدَ التشهُّدِ وقبْلَ السلامِ-: «اللَّهُمَّ إنِّي أستخيرُك بعِلْمِك»: يَسأَلُ اللهَ أنْ يختارَ له، وأنْ يَرزُقَه ما فيه خيرٌ له بناءً على عِلمِه المُطلَقِ، «وأسْتَقْدِرُك بقُدْرَتِك»: وأطلُبُ منكَ أنْ تجعَلَ لي قُدْرةً على أصلَحِ الأمرَيْنِ؛ فإنَّكَ قادِرٌ على أنْ تُعينَني عليه، أو أطلُبُ منكَ أنْ تُقَدِّرَ لي الخَيرَ بسبَبِ قُدْرتِك عليه، والتَّقديرُ هو التيسيرُ، «وأَسْأَلُكَ مِن فَضْلِك العَظِيمِ»: يُشيرُ إلى أنَّ إعْطاءَ الربِّ إنَّما هو مَحْضُ فَضلٍ منه، وليس لأحدٍ عليه حقٌّ في نِعمةٍ؛ «فإنَّكَ تَقْدِرُ ولا أَقْدِرُ، وتَعلَمُ ولا أعلَمُ، وأنت عَلَّامُ الغُيوبِ»؛ فإنَّ العِلمَ والقُدرةَ للهِ وَحْدَه، وليس للعبدِ من ذلك إلَّا ما قَدَّرَ اللهُ له، واللهُ عَليمٌ بكلِّ ما غاب عنَّا، وعن جميعِ المخلوقاتِ، ثم يَبدأُ الداعي بتَسميةِ حاجَتِه يَطلُبُ منَ اللهِ إنْ كانَ في عِلمِه أنَّ في أمْرِ كذا خيرًا له في دِينِه، وفي دُنياه، فلْيَقْضِ اللهُ عزَّ وجلَّ به، ويُيَسِّرْه له ويَجعَلْ فيه البَرَكةَ والنَّماءَ، وإنْ كانَ في عِلْمِه سبحانه أنَّ هذا الأمرَ فيه شرٌّ في دِينه أو في دُنْياه، فلْيُبعِدْه عنه، ويقْضِ له بالخَيرِ حيثُ كان، ويجْعَلْه راضيًا به، ويَذكُرُ حاجَته ويُسَمِّيها.

فإذا استخارَ اللهَ تعالَى أخَذَ بالأسبابِ وفَعَلَ ما اتَّفقَ وما سبَقَ إلى قَلبِه؛ فما شُرِحَ له صدرُه انشراحًا خاليًا عن هوى النَّفْسِ، وتيسَّر له مِن الأمورِ، فهو الذي اختارَه اللهُ تعالَى له، وليس مِن الضروريِّ أنْ يرَى رُؤيا بعدَ الاستِخارةِ.

دُعاءُ مَن نزَلَ مَنزِلاً

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وعن خَوْلَةَ بنتِ حَكيمٍ السُّلَميَّةِ رَضِيَ اللهُ عنها تقولُ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((مَن نَزَلَ مَنزِلًا ثُمَّ قالَ: أَعُوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ

لم يَضُرَّه شَيءٌ، حتَّى يَرْتَحِلَ مِن مَنْزِلِه ذلك))[1].

وعن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: ((يا رَسولَ اللهِ، ما لَقِيتُ مِن عَقْرَبٍ لَدَغَتْني البَارِحَةَ! قالَ: أمَا لو قُلْتَ حِينَ أمْسَيتَ: أعُوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ، لم تَضُرَّك))[2].



الذي يَعصِمُ مِن كلِّ شَرٍّ هو اللهُ وَحْدَه، وكلُّ مَنْ سِوى اللهِ تعالَى لا يَملِكُ لنَفْسِه ولا لغَيرِه نَفعًا ولا ضرًّا، وقدْ علَّمَنا اللهُ تعالَى ونبيُّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الأدعيةِ والأذكارِ ما يَحفَظُ المُسلِمَ مِن كلِّ الشُّرورِ، ومِن ذلك أنَّ مَن نزَلَ مَنزِلًا لا يَدْري ما فيه، وما يمكِنُ أنْ يُصيبَه، فعليه أنْ يَعتصِمَ باللهِ ويَلتجِئَ إليه، ويَستعيذَ به من شرِّ ما خلَقَ.

وفي الآيةِ الكريمةِ بيانٌ لِتَوجيهٍ إلهيٍّ كَريمٍ لنَبيِّ اللهِ نُوحٍ عليه السَّلامُ بأنْ يَسألَ اللهَ تعالَى مَوضِعًا مُبارَكًا يَنزِلُ فيه مِنَ السَّفينةِ بَعدَ إنجائِه مِنَ الغَرَقِ والهلاكِ؛ فاللهُ تعالى خَيرُ مَن يُنزِلُ عِبادَه؛ حيثُ يَكفي نزيلَه كُلَّ مُلِمٍّ، ويُعطيه كُلَّ مُرادٍ.

وفي حديثِ خَوْلةَ بنتِ حَكيمٍ السُّلَميَّةِ رضي الله عنها يُبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يَقولُه المسلِمُ مِنَ الذِّكْرِ إذا نَزَلَ مَنزِلًا، وحَلَّ في مَكانٍ مَظِنَّةِ الأَذى، فيَقولُ: «أَعُوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ»، ومَعْناه: أعتَصِمُ بكَلِماتِ اللهِ الكامِلةِ -التي لا يَدخُلُها نَقصٌ ولا عَيبٌ كما يَدخُلُ كَلامَ البَشَرِ-، النَّافعاتِ الشَّافياتِ. وكلماتُ اللهِ قيلَ: هي أسماؤُه وصِفاتُه. وقيلَ: هي القُرآنُ. وقيلَ: هي جَميعُ ما أنزَلَه على أنبيائِه. يَستعيذُ مِن شرِّ جَميعِ المخْلُوقاتِ. ثُمَّ أخبَرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ مَن

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٩).



قال تِلكَ الكَلماتِ لم يَضُرَّه شَيءٌ مِنَ المَخْلوقاتِ، حَيثُ تَعَوَّذَ بالخالِقِ، حتَّى يَرتَحِلَ ويَنتَقِلَ مِن مَنزِلِه ذلك، فتَعَوُّذُه يَتناولُ مُدَّةَ مُقامِه فيهِ.

وفي حديثِ **أبي هُرَيرةَ رضي اللهُ عنه** أنَّ رجلًا جاء إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَحْكي أنَّه لَقِيَ شِدةً عَظيمةً من عَقربٍ لَدَغَتْه الليلةَ الماضيةَ، فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «أمَا لو قُلْتَ حِينَ أمْسَيتَ: أعوذُ بِكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ، لم تَضُرَّك».

الدُّعاءُ إذا عَصَفَتِ الرِّيحُ وعِندَ نُزولِ المَطَرِ

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالَتْ: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا عَصَفَتِ الرِّيحُ، قالَ: ((اللَّهمَّ إنِّي أَسأَلُك خيرَها، وخَيرَ ما فيها، وخَيرَ ما أُرسِلَتْ به، وأَعوذُ بك مِن شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسِلَتْ به))[١].

وعنها رَضِيَ الله عنها أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا رَأى المَطرَ، قالَ: ((اللَّهمَّ صَيِّبًا نافِعًا))[٢].



في **الحَديثِ الأوَّلِ** تُخبِرُ أمُّ المُؤمنينَ عائِشةُ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا رَأى رِيحًا شَديدةً لَجأَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ودَعاه بقولِه: «اللَّهمَّ إنِّي أَسأَلُك خَيرَها، وخَيرَ ما فيها، وخَيرَ ما أُرسِلَتْ به»، فيَسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ خَيرَ ذاتِها، وخَيرَ ما فيها مِن منافِعِها، وخَيرَ ما أُرسِلَتْ به بخُصوصِها في وَقتِها. ومِن خَيرِها: ما يَجِدُه الإنسانُ وباقي الكائناتِ مِن النَّسيمِ الطيِّبِ الذي يُضيفُ للبَدَنِ راحةً واستِقرارًا؛

(١) أخرجه مسلم (٨٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٢).



فلولاها لما تَحقَّقَ للنَّاسِ والحَيَوانِ والنَّباتِ حياةٌ؛ فإنَّها تُنقِّي الجوَّ وتُصفِّيه، وتُذهِبُ الأمراضَ والأسقامَ، وكذلك مِن خَيرِها: أنَّها لَواقِحُ للنَّباتِ، وتَتحرَّكُ بها السُّفُنُ، ومنها: نقْلُ السَّحابِ إلى الأرضِ الميْتةِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وأيضًا قدِ استُعمِلَتِ الرِّياحُ في العصرِ الحديثِ في تَوليدِ الكهرباءِ بطرُقٍ مُعيَّنةٍ، وبالجُملةِ فتَسخيرُ اللهِ سبحانه للرِّياحِ نِعمةٌ عَظيمةٌ للنَّاسِ يَنبغي تأمُّلُها وشُكرُها.

ثمَّ يَلجَأُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى اللهِ سُبحانَه ويَستعيذُ به من أمورٍ ثَلاثةٍ، فيَقولُ: «وأَعوذُ بك مِن شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسِلَتْ به»: «مِن شَرِّها» هي بنَفسِها؛ لأنَّها قد تُحدِثُ شَرًّا على الإنسانِ؛ إمَّا عامًّا أو خاصًّا، و«شَرِّ ما فيها»؛ فقد تحمِلُ أوبئةً، فتأتي بها إلى النَّاسِ، «وشَرِّ ما أُرسِلَت به»؛ لأنَّها قد تُرسِلُ عَذابًا ودَمارًا تُهلِكُ الزُّروعَ وتَهدِمُ الدِّيارَ، وقدْ تكونُ سَببًا للمَوتِ والهَلاكِ والعَذابِ للإنسانِ، كما أَهلَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها قَومَ عادٍ، فقدْ هَلَكوا بالرِّياحِ الشَّديدةِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

وفي الحديثِ الثَّاني تُخبِرُ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا رَأى مَطرًا دَعَا اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ «صَيِّبًا نافِعًا»؛ فسأل اللهَ أن يكونَ مَطرًا نازِلًا نافِعًا للعِبادِ والبِلادِ، ليس مَطرَ عَذابٍ أو هَدْمٍ أو غَرَقٍ.

ثلاثُ دَعَواتٍ مُستَجاباتٌ

عن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ثلاثُ دَعَواتٍ مُستَجاباتٌ لا شكَّ فيهِنَّ: دَعوةُ المَظلومِ، ودَعوةُ المُسافِرِ، ودَعوةُ الوالِدِ



لوَلَدِه))[1].



أمَرَ اللهُ سُبحانَه عِبادَه بدُعائِه، ووَعَدَهم بالإجابةِ، فقالَ تعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وفي هذا الحَديثِ بيانٌ منَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لبَعضِ الدَّعواتِ المُستَجابةِ، حيثُ يُخبِرُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَسْتجيبُ لثلاثةِ أنواعٍ مِنَ الدَّعَواتِ يَقينًا، ولا يَرُدُّها أبدًا؛ **فالدَّعوةُ الأُولى**: دَعوةُ المظلومِ؛ فإنَّه إذا دَعا على مَن ظَلَمَه فإنَّ اللهَ يَستجيبُ له، ولا يَرُدُّه.

والدَّعوةُ الثَّانيةُ التي يَستَجيبُها اللهُ ولا يَرُدُّها أبدًا: دَعوةُ المسافِرِ وهو في حالِ السَّفَرِ، ولم يَرْجِعْ بَعْدُ، بشَرْطِ أنْ يكونَ سَفَرُه ليس في أمْرٍ مُحرَّمٍ ومَعْصيةٍ. قيل: لأنَّ دَعوةَ المسافِرِ دَعوةُ مُحتاجٍ في الغالِبِ، واللهُ تعالَى يُجيبُ دَعْوةَ المُضطَرِّ ودعوةَ المحتاجِ أكثَرَ ممَّا يَستَجيبُ لِغَيرِهما.

والدعوةُ الثَّالثةُ: دَعوةُ الوالِدِ لوَلَدِه. وقيلَ: إنَّها تَشمَلُ الدَّعوةَ له وعليه، وقولُه: «الوالِدِ» يَشمَلُ الأمَّ أيضًا. وقيلَ: لم تُذكَرِ الوالِدةُ؛ لأنَّ حقَّها أعظمُ، فدُعاؤُها أَوْلَى أنْ يُستَجابَ له.

الدُّعاءُ في ثلُثِ اللَّيلِ الآخِرِ

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٣٦)، والترمذي (٣٤٤٨)، وابن ماجه (٣٨٦٢) واللفظ له، وأحمد (٧٥١٠). حسَّنه الترمذي، وصَحَّحه ابن حبان في ((الصحيح)) (٢٦٩٩)، والنووي في ((الإيضاح)) (٦٢)، وحَسَّنه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٨٦٢)، وحَسَّنه لغيره شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٥٣٦).

وعن أبي هُرَيْرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أن رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يَنزِلُ ربُّنا تبارَكَ وتعالَى كُلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا حينَ يَبقى ثُلثُ اللَّيلِ الآخِرُ، يقولُ: مَن يدعوني فأَستجيبَ له، مَن يسألُني فأُعطِيَه، مَن يَستَغفِرُني فأغفِرَ له))[1].

وعن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((إنَّ في اللَّيلِ لساعةً لا يُوافِقُها رجُلٌ مُسلِمٌ يَسألُ اللهَ خَيرًا مِن أمرِ الدُّنيا والآخِرةِ، إلَّا أعطاه إيَّاه، وذلك كُلَّ ليلةٍ))[2].



الثلُثُ الأخيرُ منَ الليلِ وقتٌ فاضلٌ تَصْفو فيه النُّفوسُ، وتَطيبُ فيه العِبادةُ، ويُستَجابُ فيه الدُّعاءُ، خصَّه اللهُ تعالَى بالنُّزولِ فيه، وتَفضَّلَ على عِبادِه فيه، وأفاضَ الخيرَ على مَن طلَبَه. وفي كِلْتا الآيتَينِ الكَريمتَينِ يُبَيِّنُ اللهُ تعالَى صِفاتِ عِبادِه المتَّقينَ الفائِزينَ بجنَّاتِ النَّعيمِ، ومنها: سؤالُهم المغفِرةَ لِذُنوبِهم أو لِتَقصيرِهم في عبادةِ رَبِّهم، في وَقتِ السَّحَرِ آخِرِ اللَّيلِ، وقد قيلَ في سَبَبِ تَخصيصِ وَقتِ السَّحَرِ بالذِّكرِ: إنَّ العبادةَ فيه أشدُّ إخلاصًا، أو لِما يَحصُلُ فيه مِن صَفاءِ النَّفسِ، وفراغِ القَلبِ مِن الشَّواغِلِ، ودَلالتِه على اهتِمامِ صاحبِه بأمرِ آخِرتِه؛ إذْ هو من الأوقاتِ التي يَطيبُ فيها النَّومُ.

ووَرَدَ في الآيةِ الثَّانيةِ ذِكرُ استِغفارِ المتَّقينَ وَقتَ السَّحَرِ عَقيبَ ذِكرِ اجتِهادِهم في العِبادةِ وقِيامِ اللَّيلِ؛ مِمَّا يَدُلُّ على إحسانِهم لعَمَلِهم، وعَدَمِ إعجابِهم بأنفُسِهم، فهم يَشعُرونَ بأنَّهم وإنِ اجتَهَدوا مُقَصِّرُون، وهم بعدَ فِعلِ الطَّاعةِ يَستَغفِرونَ.

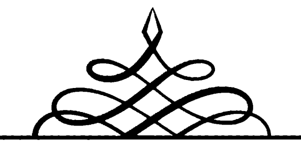
وفي حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه بيَّنَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ تَبارَكَ

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥) واللفظ له، ومسلم (٧٥٨).
(٢) أخرجه مسلم (٧٥٧).

وتعالَى يَنزِلُ في كلِّ ليلةٍ، وهو نزولٌ يَليقُ به جلَّ جَلالُه، ونحن نؤمِنُ بما ورَدَ في ذلك -وأمثالِه- عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ من غيرِ تَحريفٍ ولا تَعْطيلٍ، ومِن غيرِ تكييفٍ ولا تَمثيلٍ. ونُزولُه سُبحانَه الواردُ في هذا الحَديثِ يكونُ حينَ يَبْقى الثُّلُثُ الأخيرُ مِنَ اللَّيلِ، وخُصَّ هذا الوقتُ؛ لأنَّه زمنُ عِبادةِ المُخلِصينَ، ولأنَّه وقتُ غَفْلةٍ واستغراقِ نَومٍ والْتِذاذٍ به، ومُفارَقةُ اللَّذةِ والدَّعةِ صَعبٌ، لا سيَّما لأهلِ الرَّفاهيَةِ، فمَن آثَرَ القيامَ لمُناجاتِه والتضَرُّعِ إليه فيه، دلَّ على خُلوصِ نِيَّتِه، وصِحةِ رَغبتِه فيما عندَ ربِّه؛ فلذلك خصَّه بالتنَزُّلِ الإلهيِّ، يَنزِلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، وهي القَريبةُ منَ الأرضِ والعبادِ، ويُنادي سُبحانَه في عبادِه: مَن يَتوجَّهُ إليه بالدُّعاءِ ليَستَجيبَ له دَعْوَتَه؟ ومَن له مَسألةٌ وطلبٌ يَلجأُ به إليَّ فأُعْطيَه ما سألَ وطلَبَ؟ ومَن يَطلُبُ المغفرةَ لذُنوبِه فأغفِرَها له؟ وهذا النداءُ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ للحثِّ على القيامِ والوقوفِ بينَ يدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

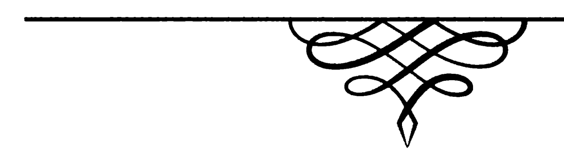
وفي حَديثِ جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما يَقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «إنَّ في اللَّيلِ لَساعَةً»: شأنُها عَظيمٌ يَنبَغي الترقُّبُ لها، واغتِنامُ الفُرصةِ لإدْراكِها، وَهيَ ساعَةٌ مُبهَمَةٌ، وغيرُ محدَّدةٍ، كَساعَةِ يَومِ الجُمُعَةِ. وقيلَ: إنَّ أرْجَى وَقتِها في الثُّلُثِ الأخيرِ منَ اللَّيلِ الذي يَنزِلُ فيه اللهُ تعالَى، ويقولُ: مَن يَدْعوني فأستجيبَ له. وقيلَ: هي وَقتُ السَّحَرِ. وقيل: الحِكمةُ مِن إخْفائِها: الحثُّ على المُبالغةِ في الاجتِهادِ لِتَحصيلِ المُرادِ في اللَّيلِ كُلِّهِ، وعدمِ الاقتِصارِ على العِبادةِ في وَقتٍ دُونَ وَقتٍ، وعدمِ اليَأسِ من فَواتِ الخَيرِ، «لا يُوافِقُها»: أي: لا يُصادِفُها رَجلٌ مُسلمٌ -وهو شامِلٌ للمَرأةِ أيضًا- «يَسألُ اللهَ خَيرًا مِن أمرِ الدُّنيا وَالآخِرةِ، إلَّا أعطاهُ إيَّاه» واستَجابَ له، «وذلكَ كُلَّ لَيلةٍ»، يَعْني: أنَّ تلك السَّاعةَ ثابِتةٌ كُلَّ لَيلةٍ، ولا تَختَصُّ ببَعضِ اللَّيالي دُونَ بَعضٍ، وهذا مِن عَظيمِ فضْلِ اللهِ تعالَى وجزيلِ عَطاياهُ.

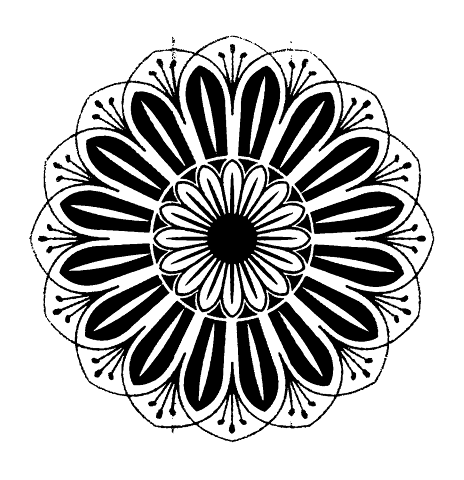




الفهارس

- فهرس المراجع
- فهرس الأحاديث
- فهرس المحتويات





فهرس المراجع

١- أسماء الله وصفاته وموقف أهل السنه منها: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الشريعة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢- الإصابة في تمييز الصحابة: لأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، المحقق: مركز هجر للبحوث، الناشر: دار هجر.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، الناشر: دار الفكر - بيروت، سنة الطبع: ١٤١٥هـ.

٤- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: لأحمد بن محمد القسطلاني، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية - مصر، الطبعة: السابعة، سنة الطبع: ١٣٢٣هـ.

٥- الإفصاح عن معاني الصحاح: ليحيى بن هبيرة الذهلي، المحقق: فؤاد عبدالمنعم، الناشر: دار الوطن، سنة الطبع: ١٤١٧هـ.

٦- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، المحقق: ناصر عبدالكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب - بيروت، الطبعة: السابعة، سنة الطبع: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٧- الإيجاز في شرح سنن أبي داود: ليحيى بن شرف النووي، المحقق: مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: الدار الأثرية - عمان - الأردن، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٨- بدائع الفوائد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.

٩- البدر التمام شرح بلوغ المرام: للحسين بن محمد المغربي، المحقق: علي

بن عبدالله الزبن، الناشر: دار هجر، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٠- تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمد بن محمد الزبيدي، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

١١- تأويل مختلف الحديث: لعبدالله بن مسلم بن قتيبة، الناشر: المكتب الاسلامي - مؤسسة الإشراق، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٢- التحبير لإيضاح معاني التيسير: لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، المحقق: محمد صُبْحي حلَّاق، الناشر: مكتبة الرُّشد - الرياض، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

١٣- التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة الطبع: ١٩٨٤م.

١٤- تحفة الأبرار بنكت الأذكار للنووي: لعبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، المحقق: محيي الدين مستو، الناشر: مكتبة دار التراث - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٥- تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة: لعبدالله بن عمر البيضاوي، المحقق: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، سنة الطبع: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

١٦- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: لمحمد عبدالرحمن المباركفوري، المحقق: عبدالوهاب بن عبداللطيف، الناشر: المكتبة السلفية - المدينة المنورة، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٩٦٣م.

١٧- تطريز رياض الصالحين: لفيصل بن عبدالعزيز الحريملي، المحقق:

عبدالعزيز بن عبدالله الزير، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٨- تفسير جزء عم: لمحمد بن صالح العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ) اعتناء: فهد بن ناصر السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

١٩- تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل: لعلي بن محمد الخازن، الناشر: دار الفكر - بيروت، سنة الطبع: ١٣٩٩هـ.

٢٠- تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم: لمحمد بن فتوح الأزدي، المحقق: زبيدة محمد سعيد، الناشر: مكتبة السنة - القاهرة - مصر، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢١- تفسير القرآن العظيم: لإسماعيل بن عمر بن كثير، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٢- التفسير القرآني للقرآن: لعبدالكريم الخطيب، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة.

٢٣- التفسير المحرر: إعداد: القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، الناشر: الدرر السنية، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: سنوات مختلفة.

٢٤- التفسير الوسيط: لوهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٢هـ.

٢٥- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ليوسف بن عبدالله بن

عبدالبر، المحقق: مصطفى بن أحمد - محمد عبدالكبير، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، سنة الطبع: ١٣٨٧هـ.

٢٦- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك: لعبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، المحقق: صدقي محمد العطار، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

٢٧- التنوير شرح الجامع الصغير: لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، المحقق: محمَّد إسحاق محمَّد، الناشر: مكتبة دار السلام - الرياض، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٢٨- تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار: لمحمد بن جرير الطبري، المحقق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني - القاهرة.

٢٩- تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٥هـ.

٣٠- التوضيح شرح الجامع الصحيح: لعمر بن علي ابن الملقن، المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار النوادر - دمشق - سوريا، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٣١- التيسير بشرح الجامع الصغير: لعبدالرؤوف المناوي، الناشر: مكتبة الإمام الشافعي - الرياض، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣٢- تيسير العلام شرح عمدة الأحكام: لعبدالله بن عبدالرحمن البسام، المحقق: محمد صبحي بن حسن حلاق، الناشر: مكتبة الصحابة - الأمارات - مكتبة التابعين - القاهرة، الطبعة: العاشرة، سنة الطبع: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.



٣٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان: لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، المحقق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٠هـ.

٣٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لمحمد بن جرير الطبري، المحقق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٢هـ.

٣٥- جامع العلوم والحكم: لعبدالرحمن بن رجب الحنبلي، المحقق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: السابعة، سنة الطبع: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٣٦- حاشية السندى على صحيح البخارى: لمحمد بن عبدالهادي السندي، الناشر: دار الفكر.

٣٧- حاشية السندي على النسائي: لمحمد بن عبدالهادي السندي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٦هـ - ١٩٦٦م.

٣٨- حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه): لمحمد بن عبدالهادي السندي، الناشر: دار الجيل - بيروت.

٣٩- حلية الفقهاء: لأحمد بن فارس القزويني، المحقق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الناشر: الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٤٠- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: لمحمد علي بن محمد البكري،

المحقق: خليل مأمون شيحا، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة: الرابعة، سنة الطبع: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٤١- ذخيرة العقبى في شرح المجتبى: لمحمد بن علي الإتيوبي، الناشر: دار المعراج الدولية للنشر - دار آل بروم للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٤٢- رياض الأفهام في شرح عمد الأحكام: لعمر بن علي الفاكهاني، المحقق: نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر - سوريا، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٤٣- زاد المعاد في هدي خير العباد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - مكتبة المنار الإسلامية - الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، سنة الطبع: ١٤١٥هـ -١٩٩٤م.

٤٤- سبل السلام: لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، الناشر: دار الحديث.

٤٥- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٤٦- الشافي في شرح مسند الشافعي: للمبارك بن محمد ابن الأثير، المحقق: أحمد بن سليمان - أبو تميم يَاسر بن إبراهيم، الناشر: مَكتَبَةَ الرُّشْدِ - الرياض، الطبعة: الأولي، سنة الطبع: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤٧- شرح رياض الصالحين: لمحمد بن صالح العثيمين، المحقق: محمد بن محمد تامر، الناشر: دار العنان - القاهرة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٣هـ.



٤٨- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: لمحمد بن عبدالباقي الزرقاني، المحقق: طه عبدالرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٤٩- شرح سنن أبي داود: لمحمود بن أحمد بدر الدين العينى، المحقق: خالد ابن إبراهيم المصري، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٥٠- شرح سنن أبي داود (دروس صوتية): لعبدالمحسن العباد البدر.

٥١- شرح سنن ابن ماجة (دروس صوتية): لعبدالعزيز بن عبدالله الراجحي.

٥٢- شرح سنن ابن ماجه - الإعلام بسنته عليه السلام: لمغلطاي بن قليج البكجري، المحقق: كامل عويضة، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٥٣- شرح السنة: للحسين بن مسعود البغوي، المحقق: شعيب الأرنؤوط- محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٥٤- شرح السيوطي على مسلم (الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج): لعبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، المحقق: أبو اسحق الحويني، الناشر: دار ابن عفان للنشر والتوزيع - الخبر، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٥٥- شرح صحيح ابن حبان (دروس صوتية): لعبدالعزيز بن عبدالله الراجحي.

٥٦- شرح صحيح ابن خزيمة (دروس صوتية): لعبدالعزيز بن عبدالله الراجحي.

٥٧- شرح صحيح البخاري: لعلي بن خلف ابن بطال، المحقق: أبو تميم ياسر

ابن إبراهيم، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٥٨- شرح صحيح مسلم (إكمال المعلم بفوائد مسلم): لعياض بن موسى السبتي، المحقق: يحْيَى إِسْمَاعِيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - مصر، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٥٩- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن): للحسين ابن عبدالله الطيبي، المحقق: عبدالحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٦٠- شرح العقيدة الواسطية: لمحمد بن صالح العثيمين، المحقق: سعد فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام، الطبعة: الخامسة، سنة الطبع: ١٤١٩هـ.

٦١- شرح مسند أبي حنيفة: لعلي بن (سلطان) محمد القاري، المحقق: خليل محيي الدين الميس، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٦٢- شرح مسند الشافعي: لعبدالكريم بن محمد الرافعي، المحقق: أبو بكر وائل زهران، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإِسلامية إدارة الشؤون الإِسلامية - قطر، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٦٣- شرح مشكل الآثار: لأحمد بن محمد الطحاوي، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

٦٤- شرح معاني الآثار: لأحمد بن محمد الطحاوي، المحقق: محمد زهري



النجار - محمد سيد جاد الحق، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٦٥- شرح مقدمة سنن ابن ماجه (دروس صوتية): لعبدالكريم بن عبدالله الخضير.

٦٦- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: لنشوان بن سعيد الحميرى، المحقق: حسين بن عبدالله العمري - مطهر بن علي الإرياني - يوسف محمد عبدالله، الناشر: دار الفكر المعاصر - بيروت، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٦٧- صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة: لعلوي بن عبدالقادر السقاف، الناشر: الدرر السنية -، الطبعة: الخامسة، سنة الطبع: ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

٦٨- طرح التثريب في شرح التقريب: لعبدالرحيم بن الحسين العراقي، الناشر: المطبعة المصرية القديمة.

٦٩- عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي: لمحمد بن عبدالله ابن العربي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت.

٧٠- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لمحمود بن أحمد بدر الدين العينى، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٧١- عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته: لمحمد أشرف العظيم آبادي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٥هـ.

٧٢- غريب الحديث: للقاسم بن سلام الهروي، المحقق: محمد عبدالمعيد



خان، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد- الدكن، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٧٣- غريب الحديث: لعبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، المحقق: عبدالمعطي أمين القلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٥ - ١٩٨٥.

٧٤- غريب الحديث: لحمد بن محمد الخطابي، المحقق: عبدالكريم إبراهيم الغرباوي - عبدالقيوم عبدرب النبي، الناشر: دار الفكر - دمشق، سنة الطبع: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٧٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، المحقق: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز - محب الدين الخطيب، الناشر: دار الفكر - بيروت، سنة الطبع: ١٣٧٩هـ.

٧٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري: لعبدالرحمن بن رجب الحنبلي، المحقق: طارق بن عوض الله، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٢٢هـ.

٧٧- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني: لأحمد بن عبدالرحمن بن محمد البنا الساعاتي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية.

٧٨- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: لعبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - مصر، الطبعة: السابعة، سنة الطبع: ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.

٧٩- فيض القدير شرح الجامع الصغير: لعبدالرؤوف المناوي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٣٥٦هـ.

٨٠- القبس في شرح موطأ مالك بن أنس: لمحمد بن عبدالله ابن العربي، المحقق: محمد عبدالله ولد كريم، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٩٩٢م.

٨١- قوت المغتذي على جامع الترمذي: لعبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، المحقق: ناصر بن محمد بن حامد الغريبي-سعدي الهاشمي، الناشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة - كلية الدعوة وأصول الدين - قسم الكتاب والسنة، سنة الطبع: ١٤٢٤هـ.

٨٢- كشف اللثام شرح عمدة الأحكام: لمحمد بن أحمد السفاريني، المحقق: نور الدين طالب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت - دار النوادر - سوريا، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٨٣- كشف المشكل من حديث الصحيحين: لعبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، المحقق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن - الرياض.

٨٤- الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأحمد بن محمد الثعلبي، المحقق: أبو محمد بن عاشور، نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٨٥- مجموع رسائل ابن رجب: لعبدالرحمن بن رجب الحنبلي، المحقق: طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة: الثانية.

٨٦- مجموع الفتاوى: لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، المحقق: عبدالرحمن

ابن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة النبوية، سنة الطبع: ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٨٧- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لعبدالحق بن عطية، المحقق: عبدالسلام عبدالشافي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى سنة الطبع ١٤٢٢م.

٨٨- مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر الرازي، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية - بيروت، الطبعة: الخامسة، سنة الطبع: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٨٩- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبدو إياك نستعين: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٩٠- المسالك شرح موطأ مالك: لمحمد بن عبدالله ابن العربي، المحقق: محمد بن الحسين السُّليماني، وعائشة بنت الحسين السُّليماني، الناشر: دَار الغَرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٩١- المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام: لأحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، المحقق: محمد بن عبدالرحمن بن قاسم، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٨هـ.

٩٢- مسند أحمد بتعليق الأرنؤوط: لأحمد بن محمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٩٣- مسند الإمام أحمد بشرح السندي: لمحمد بن عبدالهادي السندي،

المحقق: نور الدين طالب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، سنة الطبع: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.

٩٤- مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه: لمحمد بن علي الإتيوبي، الناشر: دار المغني - الرياض، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٩٥- مطالع الأنوار على صحاح الآثار: لإبراهيم بن يوسف ابن قرقول، المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٩٦- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: لعبيد الله بن محمد المباركفوري، الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٩٧- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: لعلي بن (سلطان) محمد القاري، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٩٨- معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود: لحمد بن محمد الخطابي، الناشر: المطبعة العلمية - حلب، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

٩٩- معجم اللغة العربية المعاصرة: لأحمد مختار عبدالحميد، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٠٠- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: لعاتق بن غيث الحربي، الناشر: دار مكة للنشر والتوزيع - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٠١- المعجم الوسيط: لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة.

١٠٢- المعلم بفوائد مسلم: لمحمد بن علي المازري، المحقق: محمد الشاذلي النيفر، الناشر: الدار التونسية للنشر.

١٠٣- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): لمحمد بن عمر فخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: ١٤٢٠هـ.

١٠٤- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: لأحمد بن عمر القرطبي، المحقق: لمجموعة محققين، الناشر: دار ابن كثير - دمشق - بيروت، دار الكلم الطيب - دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٠٥- منار القاري: لحمزة محمد قاسم، المحقق: عبدالقادر الأرناؤوط، بشير محمد عيون، الناشر: مكتبة دار البيان - دمشق، سنة الطبع: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٠٦- المنتقى شرح الموطإ: لسليمان بن خلف الباجي، الناشر: مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٣٣٢هـ.

١٠٧- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ليحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٣٩٢هـ.

١٠٨- نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار: لمحمود بن أحمد بدر الدين العينى، المحقق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٠٩- نَظْم الدُّرر في تناسُب الآيات والسُّور: لإبراهيم بن عمر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

١١٠- النفح الشذي شرح جامع الترمذي: لمحمد بن محمد ابن سيد الناس، المحقق: أبو جابر الأنصاري، عبدالعزيز أبو رحلة، صالح اللحام، الناشر: دار

الصميعي للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١١١- النُّكت والعيون (تفسير الماوردي): لعلي بن محمد الماوردي، المحقق: السيد بن عبدالمقصود الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

١١٢- النهاية في غريب الحديث والأثر: للمبارك بن محمد ابن الأثير، المحقق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، سنة الطبع: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١١٣- نيل الأوطار: لمحمد بن علي الشوكاني، المحقق: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث - مصر، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.



فهرس الأحاديث

آنيَتُهُ عَدَدُ النُّجومِ ١٤٧

آيِبُونَ تَائِبُونَ، عَابِدُونَ ٦٦٥

أبا عُمَيرٍ، ما فَعَلَ النُّغَيرُ؟ ٥٠٦

أبو بَكْرٍ في الجَنَّةِ، وعُمَرُ في الجَنَّةِ ٢١٩

أبو هُرَيرَةَ؟ فقُلتُ: نعَم يا رَسولَ اللهِ ٥٧

أَتَانَا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في دَارِنا ٦٥٥

أَتَدْرونَ ما الغِيبةُ؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ ٦٣٤

أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أهلِ الجنَّةِ؟ ١٧٠

أَتُرونَ هذه المَرأةَ طارِحةً ٥٥٤

أَتَيْتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فوجَدْتُه يَستَنُّ ٢٥٦

أَتيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في نَفَرٍ ٤٥٩

أَجَلْ، إنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنكُم! ٥٤٩

أحَبُّ البِلادِ إلى اللهِ مَساجِدُها ٣٣٤

أخْبِروهُ أنَّ اللهَ يُحِبُّه ٤٥

أَدْنَيْتُ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غُسْلَه ٢٤٨

أَدْوَمُه وإنْ قَلَّ ٥٣٧

أذْهِبِ البَاسَ، رَبَّ النَّاسِ ٦٧٧

أَرَأَيْتُم لو أنَّ نَهرًا ببابِ أحَدِكم ٢٦٧

أَرانِي في المَنامِ أَتَسَوَّكُ بسِواكٍ ٦٥٥
أَرْبَعٌ في أُمَّتي مِن أمْرِ الجاهِليَّةِ ٧٧
أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا ٦٣٢
أُريتُ النَّارَ فإذا أكثَرُ أهلِها النِّساءُ ١٦٤
أَسْرِعُوا بالجِنازةِ؛ فإنْ تَكُ صالِحَةً ٣٨١
أشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ ٥٨
أظُنُّكم سَمِعتُم أنَّ أبا عُبَيدةَ قَدِمَ بشيءٍ؟ ٥٦٢
أعذَرَ اللهُ إلى امرِئٍ أخَّرَ أجَلَه ٥٦٧
أعْطَيتَ سَائرَ ولَدِكَ مِثْلَ هذا؟ ٤٧٧
أَفْضَلُ الصِّيامِ بَعْدَ رَمَضانَ ٤٠٢
أفْضَلُ دِينارٍ يُنفِقُه الرَّجُلُ ٤٧٥
أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا ٥٧٠
أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ مِن رَبِّهِ ٢٨٩
أكُنْتَ تُجالِسُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؟ ٣٤٤
ألَا أبْعَثُك على ما بَعَثَني عليه رَسولُ اللهِ ٤٣٥
ألَا أُخبِرُكم عن النَّفَرِ الثَّلاثةِ؟ ٦٢٦
ألَا أدُلُّكم على ما يَمحو اللهُ به الخَطايا ٣٣٥
ألَا إنَّ اللهَ يَنْهاكُم أنْ تَحلِفوا بآبائِكُم ٨٨
ألَا كُلُّكُم راعٍ، وكُلُّكُم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه ٤٥١

أمَا إنَّه قد صَدَقَك، وهو كَذوبٌ ٦٩٣

أمَا إنَّهُ لو ذكَرَ اسمَ اللهِ........................٦٤٧، ٧٢١

أمَا إنَّهما لَيُعذَّبانِ وما يُعذَّبانِ في كَبيرٍ ٢٣٣

أمَّا هذا فقَدْ عَصَى أبا القاسمِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ........................ ٣٤٢

أُمِرْتُ أنْ أسْجُدَ على سَبْعةِ أعْظُمٍ ٢٨٨

أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشْهَدوا........................ ٣٣

أمَرَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ نُخرِجَهُنَّ في الفِطرِ ٣١٨

أمَرَني خَليلي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بسَبعٍ ٧٠٣

أمَرَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ أقرَأَ ٧١٧

أمسِكْ عليك لِسانَك ٦٢٨

أُمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أُمُّك........................ ٥٧٥

أنا أكْثَرُ الأنْبياءِ تَبَعًا يومَ القِيامَةِ........................ ٢١٠

أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بي ٦٩٥

أنا فَرَطُكم على الحَوضِ ١٤٤

أنَّ السُّنَّةَ في الصَّلاةِ على الجِنازةِ ٣٧٨

أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خرَجَ إلى المصَلَّى ٣٢٥

أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم زجَرَ عن........................ ٦٥١

أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ إذا أوَى إلى فِراشِه........................ ٦٤٠

أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يُصلِّي بعدَ الجُمُعةِ رَكعتَينِ ٣١٦

أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمْ يَكُنْ على شيءٍ مِن النَّوافلِ.................. ٣٥١
أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مسَحَ على الخُفَّينِ ٢٥٨
أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ فَتْحِ مكَّةَ.............................. ٣٥٦
أنا وكافِلُ اليَتيمِ في الجَنَّةِ هكذا ٦١٤
أن تجعَلَ للهِ نِدًّا وهو خَلَقَك ٧٠
أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ.. ١٤
أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جَمَعَ بيْنَ الصَّلاةِ......................... ٣٦٧
أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرَجَ يومَ أضْحى ٣١٩
أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا قَفَلَ............................ ٦٦٤
أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كُفِّنَ في ثلاثةِ ٣٧٦
أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَهَى عَنِ القَزَعِ ٤٢٣
أُنْزِلَتْ علَيَّ آنِفًا سورةٌ ١٤٤
أنَّ عُثمانَ بنَ عفَّانَ رضِيَ اللهُ عنه دَعا بوَضوءٍ................................ ٢٣٨
أنَّه رأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصلِّي السُّبحةَ ٣٥٩
أوْصَانِي خَلِيلِي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بثَلاثٍ ٣٥٥
أيَعْجِزُ أحدُكم أنْ يَقرَأَ ٦٩٤
أيَعجِزُ أحَدُكم أن يَكسِبَ ٧٠٠
أيْ عَمِّ، قُلْ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ ١٠٦
أيُّكم مالُ وارِثِه أحَبُّ إليه مِن مالِه؟.. ٥٥٦



أَيُّما امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ........................ ٥٥١

أين -أُراهُ- السَّائلُ عَنِ السَّاعَةِ؟ ١٢٣

أين كُنْتَ يا أبا هُرَيْرةَ........................ ٢٥٥

أَيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقبَلُ إلَّا طَيِّبًا........................ ٤١١

أَيُّها الناسُ، ارْبَعوا علَى أنفُسِكم ٧٠٢

أَيُّها النَّاسُ، قدْ فرَضَ اللهُ علَيْكم الحَجَّ ٤١٦

إذا أتَيتُمُ الغائِطَ فلا تَستَقبِلُوا القِبْلَةَ ٢٢٩

إذا أتَيتَ مَضجَعَك فتوضَّأْ........................٦٣٩، ٧٢٠

إذا أُقِيمتِ الصَّلاةُ فلا صَلاةَ إلَّا المَكتوبةُ........................ ٣٥٤

إذا أكَلَ أحَدُكم فلْيأكُلْ بيَمِينِه ٦٤٦

إذا أمسَيتَ فلا تنتَظِرِ الصَّباحَ........................ ٥٣٨

إذا أمَّنَ الإمامُ فأمِّنُوا........................ ٣٠٩

إذا أنْفقَتِ المَرأةُ مِن طَعامِ بَيتِها غيرَ مُفْسِدةٍ........................ ٤١٥

إذا أوَى أحَدُكم إلى فِراشِه........................٦٣٩، ٧١٩

إذا استأْذَنَ أحَدُكم ثلاثًا........................ ٦٠٦

إذا اسْتَأذنَتْ أحدَكُم امْرَأتُه........................ ٣٠٧

إذا انْتعَلَ أحَدُكم فلْيَبْدَأْ باليُمْنى ٤٢٢

إذا انْتهى أحَدُكم إلى المَجلِسِ........................ ٦٠٢

إذا تشَهَّدَ أحَدُكم فلْيَستَعِذْ باللهِ ٢٨٦

إذا تَوضَّأَ العَبدُ المُسلِمُ أوِ المُؤمِنُ.................... ٢٣٥

إذا خَلَصَ المؤمِنونَ مِنَ النَّارِ ١٥٤

إذا دَخَلَ أحَدُكم المَسجِدَ.................... ٣٣٩

إذا دَخَلَ أحَدُكم المَسجِدَ فلْيَقُلِ ٣٣٨

إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ.................... ٤٩

إذا دَخَل الرَّجُلُ بَيتَه فذَكَر اللهَ ٧٢٣

إذا دَخَلَتِ العَشْرُ، وأرادَ أحَدُكم أنْ يُضَحِّيَ.................... ٣٢٣

إذا دخَلَ رمَضانُ فُتِّحَتْ أبوابُ الجَنَّةِ ٣٨٨

إذا دُعِيَ أحَدُكُم إلى الوَليمةِ فلْيَأْتِها ٤٤٧

إذا دُعِيَ أحَدُكُم فلْيُجِبْ ٤٤٧

إذا رَأَيْتُمُ الهِلالَ فَصُوموا ٣٩١

إذا سلَّمَ عليْكم أهْلُ الكِتابِ ٦٠٥

إذا سَمِعْتُمُ المُؤذِّنَ فقُولوا مِثلَ ما يقولُ.................... ٢٦٤

إذا سَمِعْتمُ النِّداءَ فقُولوا مِثلَ ما يَقولُ المُؤذِّنُ.................... ٢٦٣

إذا شكَّ أحَدُكم في صَلاتِه.................... ٢٩٣

إذا شَهِدَتْ إحْداكُنَّ العِشاءَ ٤٢٩

إذا صَلَّى أحَدُكم الجُمُعةَ ٣١٦

إذا صلَّيْتُم الفَجْرَ فإنَّه وقْتٌ إلى أنْ ٢٦٨

إذا عَطَس أحدُكم فلْيقُلِ ٧٢٢

إذا قال المؤذِّنُ: اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ ٢٦٤

إذا قُرِّبَ العَشاءُ، وحَضَرَتِ الصَّلاةُ ٣٦٩

إذا قَضَى أحَدُكم الصَّلاةَ في مَسجِدِه ٣٤٨

إذا قُلْتَ لِصاحِبِك يَومَ الجُمُعةِ: أَنْصِتْ ٣١٥

إذا كانَ يَومُ القِيامةِ ماجَ النَّاسُ بعضُهم في بعضٍ ١٥٦

إذا كُنْتُم ثَلاثةً فلا يَتناجَى رجُلانِ.. ٦١١

إذا نَظَرَ أحَدُكم إلى مَن فُضِّلَ عليه ٥٠٤

إذا هَمَّ أحدُكُم بالأمْرِ فلْيَركَعْ رَكْعَتينِ..١٨٣، ٧٤٠

إذا وضَعَ أحَدُكم بيْنَ يَدَيهِ مِثْلَ مُؤْخِرَةِ.. ٣٦٦

إذا وَقَعَ الذُّبابُ في إناءِ أحَدِكم ٦٥٣

إلَّا أَجَرَه اللهُ في مُصِيبَتِه ٤٩٦

إنَّ أثقَلَ صَلاةٍ على المُنافِقِينَ ٢٩٩

إنَّ أحَبَّ أسْمائِكُم إلى اللهِ: عبدُ اللهِ وعَبدُ الرَّحمنِ.. ٤٥٢

إنَّ أحَبَّ الصِّيامِ إلى اللهِ صِيامُ داوُدَ ٤٠٣

إنَّ أحدَكُم يُجْمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّه ١٠٠

إنَّ أُمَّتي يَأْتونَ يَومَ القِيامةِ غُرًّا مُحَجَّلينَ ٢٤١

إنَّ أُولئك إذا كان فيهمُ الرَّجُلُ الصَّالحُ ٣٤٣

إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ.. ٤٦٣

إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ ٥٦١

إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَه ١٩٩
إنَّ الرَّجلَ لَيَعمَلُ عمَلَ أهلِ الجنَّةِ ١٠١
إنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البِرِّ ....٤٩٢، ٦٣١
إنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يَومَ القِيامةِ ٥١٦
إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبْرِه ١١١
إنَّ العَبدَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ ما يَتبَيَّنُ ٦٢٨
إنَّ العَبدَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن رِضوانِ اللهِ ٦٣٠
إنَّ اللهَ تَجاوَزَ لأُمَّتي ما حَدَّثَتْ به أنفُسَها ٥٤٥
إنَّ اللهَ جَزَّأَ القُرآنَ ثلاثةَ ٦٩٤
إنَّ اللهَ حَرَّمَ علَيكُم عُقوقَ الأُمَّهاتِ ٥٧٥
إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وكَّلَ بالرَّحِمِ مَلَكًا ٢٩
إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَبسُطُ يَدَه باللَّيلِ ٥٥٤
إنَّ اللهَ قال: مَن عادَى لي ولِيًّا ٥٩٥
إنَّ اللهَ قدْ حَرَّمَ على النَّارِ مَن قال ٣٣
إنَّ اللهَ كَتَبَ الإحْسانَ ٥١١
إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ٥٤٣
إنَّ اللهَ لا يَقبِضُ العِلمَ انتِزاعًا يَنتَزِعُه ١١٩
إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم ٥٤٢
إنَّ اللهَ لَيَرْضَى عنِ العَبْدِ أنْ يَأكُلَ ٦٤٧



إنَّ اللهَ هو السَّلامُ، فإذا قعَدَ أحَدُكم ٢٩١

إنَّ اللهَ ورَسولَه حَرَّم بَيعَ الخَمرِ........................ ٢٠٠

إنَّ اللهَ يَبْعَثُ رِيحًا مِنَ اليَمَنِ ١٣٤

إنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤمِنَ، فيَضَعُ عليه كَنَفَه ٥١٥

إنَّ اللهَ يَقولُ يَومَ القِيامةِ ٥٤٧

إنَّ المُؤمنَ للمُؤمِنِ كالبُنْيانِ........................ ٥٨٣

إنَّ المُسْلِمَ إذا أنْفَقَ على أهْلِهِ ٤٧٥

إنَّ الميِّتَ لَيُعَذَّبُ ببُكاءِ الحيِّ........................ ١١٤

إنَّ خَليلي أَوْصاني أنْ أَسمَعَ وأُطيعَ ٢٧٢

إنَّ رسولَ اللهِ كان يُوتِرُ........................ ٣٥٩

إنْ شِئْتَ حَبَّسْتَ أصْلَها وتَصَدَّقْتَ بها ٤٧٢

إنْ شِئْتَ فتَوضَّأْ، وإنْ شِئْتَ فلا تَوضَّأْ........................ ٢٤٣

إنَّ شرائِعَ الإسلامِ قد كثُرَتْ علَيَّ ٦٩٦

إنَّ في الجُمُعةِ لَساعةً لا يُوافِقُها مُسلِمٌ ٣١٢

إنَّ في الجَنَّةِ خَيمةً مِن لُؤلُؤةٍ مُجَوَّفَةٍ........................ ١٦٥

إنَّ في الجَنَّةِ لَسُوقًا يأتونَها كُلَّ جُمُعَةٍ........................ ١٦٩

إنَّ في الحَبَّةِ السَّوداءِ شِفاءً........................ ٦٦٨

إنَّ في اللَّيلِ لساعةً لا يُوافِقُها رجُلٌ ٧٤٧

إنَّ فيكَ خَصلَتَيْنِ يُحِبُّهما اللهُ........................ ٤٩٩

إنَّ قَدْرَ حَوْضي كما بَيْنَ ١٤٧
إنْ كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَيُحِبُّ التَّيمُّنَ.......... ٢٥٦
إنْ كانَ في شَيءٍ مِن أدْوِيتِكم ٦٧١
إنَّكَ تَقْدَمُ على قَوْمٍ مِن أهْلِ الكِتابِ.......................... ٣٤
إنَّ كَذِبًا عَلَيَّ ليسَ كَكَذِبٍ على أحَدٍ ٢٠٢
إنَّكم شَكَوتُم جَدْبَ دِيارِكم........................... ٣٢٦
إنَّما الصَّبرُ عِندَ الصَّدمةِ الأُولى ٥٥٢
إنَّما كان يَكْفيكَ أنْ تَضرِبَ بيَدَيكَ الأرْضَ.................... ٢٤٦
إنَّما مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ والجَليسِ السَّوءِ.................... ٥٩٢
إنَّ ممَّا أدْرَكَ النَّاسُ مِن كَلامِ........................... ٤٩٣
إنَّ منهم مَن تأخُذُه النَّارُ إلى كَعبَيْه.......................... ١٧١
إنَّ ناسًا يقولونَ: إذا قَعَدْتَ على حاجتِكَ ٢٢٩
إنَّ ناسًا يَكرَهونَ الشُّرْبَ قِيامًا ٦٥٢
إنَّ هذِه النَّارَ إنَّما هي عَدُوٌّ لَكُم.......................... ٦٤٠
إنَّ هذَينِ حَرامٌ على ذُكورِ أُمَّتي ٤٢٤
إنِّي أَراكَ تُحِبُّ الغنَمَ والباديةَ ٢٦٢
إنِّي لَأقومُ في الصَّلاةِ أُريدُ أنْ أُطوِّلَ فيها ٣٤٧
إنِّي مِمَّا أخافُ عليكم مِن بَعدي ٥٦٢
إيَّاكُم والجُلوسَ على الطُّرُقاتِ.......................... ٦٥٧

إِيَّاكُم والجُلوسَ على الطُّرُقاتِ، فقالوا: ما لنا بُدٌّ ٤٤٢
إِيَّاكُمْ والدُّخُولَ على النِّساءِ ٤٤٥
إِيَّاكُم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحَديثِ ٥٩٨
ائْتِني بها، فأَتَيْتُهُ بها، فقالَ لها: أينَ اللهُ؟ ٤٨
ابدَؤُوا بمَيامِنِها، ومَواضِعِ الوُضوءِ منها ٣٧٥
اتَّقُوا النَّارَ، ثُمَّ أعْرَضَ وأشاحَ ٤٠٩
اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ ٧٣
اجْعَلُوا مِن صَلاتِكم في بُيوتِكُم ٣٤٨
احْرِصْ على ما يَنفَعُكَ ٩٦
ادْعُهُمْ إلى شَهادةِ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ .... ٦٣، ٤٠٥
ارْجِعْ فصَلِّ؛ فإنَّكَ لمْ تُصَلِّ ٢٧٦
ارْقُبُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ٢٢٣
اسْتَوُوا ولا تَختَلِفوا؛ فتَختَلِفَ قُلوبُكم ٣٠١
اسْقِه عَسَلًا ٦٦٨
اطَّلَعْتُ في الجَنَّةِ فرأَيتُ أَكْثَرَ أَهلِها الفُقَراءَ ١٦٣
اعْدُدْ سِتًّا بيْن يَدَي السَّاعةِ ١١٦
اعْرِضوا علَيَّ رُقاكُم ٦٧٤
اغْسِلْنَها بالسِّدرِ وِترًا؛ ثلاثًا أو خَمْسًا ٣٧٥
افترَقَتِ اليَهودُ علَى إحدَى وسبعينَ فِرْقةً ٢٠٤



اقْرَؤُوا القُرْآنَ؛ فإنَّه يَأْتي يَومَ القِيامةِ .... ٦٨٤، ٦٨٩

الآيَتانِ مِن آخِرِ سُورةِ البَقَرةِ ٦٩١

الأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدةٌ، فما تَعارَفَ مِنها ائتَلَفَ ٥٤٦

الأعْمالُ بالنِّيَّةِ، ولِامْرِئٍ ما نَوَى ٥٢٧

الإشْراكُ باللهِ. قالَ: ثُمَّ ماذا؟ ٤٥٧

الإيمانُ: أنْ تؤمِنَ باللهِ وملائكتِهِ، وكُتُبِه ١١

الإيمانُ بِضْعٌ وسَبْعونَ -أو بِضْعٌ وسِتُّونَ- شُعْبَةً ١٥

البَخيلُ الذي مَن ذُكِرْتُ عِندَه ٧٠٤

البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ، والإثمُ ما حاكَ في نَفْسِكَ ٤٩١

الْبَيِّعانِ بالخِيارِ ما لَمْ يَتَفَرَّقا ٤٦٦

التَّسبيحُ لِلرِّجالِ، والتَّصفيقُ لِلنِّساءِ ٣١٠

الجنَّةُ أقرَبُ إلى أحَدِكم مِن شِراكِ نَعْلِه ٥٢٩

الحَلِفُ مَنفَقَةٌ لِلسِّلعةِ، مَمْحَقةٌ للبَرَكةِ ٤٦٧

الحَمدُ لله الذي أطعَمَنا وسقانا ٧١٩

الحُمَّى مِن فَيحِ جَهنَّمَ ٦٧٢

الدِّينُ النَّصِيحةُ. قُلْنا: لِمَنْ؟ ٥٨٦

الَّذي تَفُوتُه صَلاةُ العَصْرِ ٣٠١

الرُّؤْيا مِن اللهِ، والحُلْمُ مِن الشَّيطانِ ٦٤٥

السَّامُ عليْكم ٦٠٥



السَّلامُ عليْكُم دارَ قَومٍ مُؤْمِنينَ ٣٨٢

السَّلامُ عليكَ يا رَسولَ اللهِ ٦٠٦

الصَّلاةُ الخَمْسُ، والجُمعةُ إلى الجُمعةِ ٣٥١

الصَّلاةُ على وَقتِها ٢٧١

الصَّلواتُ الخَمسُ كفَّارةٌ لِمَا بَينَهنَّ ٢٦٨

الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ ٢٣٥

الطِّيَرةُ شِركٌ ٨٢

العِزُّ إزارُه، والكِبرياءُ رِداؤُه ٥١٨

العُمْرةُ إلى العُمْرةِ كَفَّارةٌ لِما بيْنَهما ٤١٨

العَينُ حَقٌّ .... ٨٠، ١٠٨، ٦٧٥

القَرْنُ الذي أنَا فيه، ثُمَّ الثَّاني، ثُمَّ الثَّالثُ ٢١٦

اللَّهمَّ آتِنا في الدُّنيا حَسَنةً ٧٣٦

اللَّهمَّ أصلِحْ لي دِيني ٧٣٣

اللَّهُمَّ أنتَ السَّلَامُ، ومِنكَ السَّلامُ ٧١٣

اللَّهمَّ إنَّا كنَّا نتوَسَّلُ إليك بنَبيِّنا ١٨٧

اللَّهُمَّ إنِّي أَسألُك الهُدى والتُّقى ٧٣٢

اللَّهمَّ إنِّي أَسألُك خَيرَها ٧٤٤

اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن الخُبُثِ والخَبائِثِ ٢٣١

اللَّهُمَّ إنِّي أَعوذُ بكَ مِنَ العَجْزِ والكَسَلِ ٧٣٧



اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن زَوالِ نِعمتِك ٧٣٧
اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن عِلمٍ لا يَنفَعُ ٦٢٠
اللَّهُمَّ إنِّي ظَلَمتُ نَفْسي........................ ٢٨٦
اللَّهُمَّ اغْفِرْ له وارْحَمْه، وعَافِه واعْفُ عنْه ٣٧٨
اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنْبي كُلَّه........................ ٢٨٩
اللَّهُمَّ باسْمِك أمُوتُ وأَحيا ٦٤٠
اللَّهمَّ صَيِّبًا نافِعًا........................ ٧٤٤
اللَّهُمَّ قِنِي عذابَكَ........................ ٦٣٩
اللَّهُمَّ قِنِي عذابَكَ يومَ تَبعَثُ عِبادَك ٧١٩
اللَّهُمَّ لكَ أسْلَمتُ، وبِك آمَنتُ ١٨٠
اللَّهمَّ لكَ الحَمدُ، أنتَ كَسَوْتَنِيه........................ ٧٢٤
المُؤَذِّنونَ أطْوَلُ النَّاسِ أعْناقًا يومَ القيامةِ ٢٦٢
المُتَحابُّونَ بجَلالي في ظِلِّ عَرْشي ٥٤٨
المُتَشَبِّعُ بما لمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوبَيْ زُورٍ ٤٥٦
المسجدُ الحَرامُ. قال: قلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟........................ ٣٣٢
المَلائكَةُ تُصَلِّي على أحَدِكُم ٣٤٠
الواشِمَاتِ والمَوشُوماتِ........................ ٤٣٢
اليَدُ العُليا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفلَى........................ ٥٠٤
بادِروا بالأعمالِ سِتًّا: طُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغْرِبِها ١٢٥



بادِرُوا بالأعْمالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ ٥٣٦
بَدَأَ الإسلامُ غَريبًا، وسَيَعودُ ٥٦٦
بُنِيَ الإسْلَامُ علَى خَمْسٍ ٣٨٧
بهَا نَظْرةٌ، فاستَرْقُوا لها ٦٧٦
بيْنَ الرَّجُلِ وبيْنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ ٢٦٦
بيْنما أنا أمْشِي مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حَرْثٍ ٥٤
بينما رجُلٌ يَمشي بطَرِيقٍ ٥١١
تَأْخُذُ إحْداكُنَّ مَاءَها وسِدْرَتَها ٢٥٠
تَجِدونَ النَّاسَ مَعادِنَ؛ خِيارُهمْ في الجاهِلِيَّةِ ٦٠٩
تحَرَّوا ليلةَ القَدْرِ في الوِترِ ٣٦٣
تُحْشَرون حُفاةً عُراةً غُرْلًا ١٤٢
تَداوَوْا؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يَضَعْ داءً ٦٦٦
تُدْنى الشَّمسُ يَومَ القِيامةِ مِنَ الخَلْقِ ١٤١
تَسَحَّروا؛ فإنَّ في السَّحورِ بَرَكةً ٣٩٣
تَصَدَّقْنَ يا مَعْشَرَ النِّساءِ، ولو مِن حُلِيِّكُنَّ ٤١٣
تُطعِمُ الطَّعامَ، وتَقرَأُ السَّلامَ ٦٠١
تَعاهَدُوا هذا القُرْآنَ؛ فوالَّذي نَفْسُ ٦٨٧
تَعدِلُ بيْنَ الاثنَينِ صَدَقةٌ، وتُعينُ الرَّجُلَ ٥٥٨
تَعَوَّذُوا باللهِ مِن جَهْدِ البَلاءِ ١٠٤



تُفتَحُ أبوابُ الجَنَّةِ يومَ الاثنَينِ ٥٩٧

تَفضُلُ صَلاةَ الفَذِّ بخَمسٍ وعِشرينَ درَجةً ٢٩٥

تِلكَ الكَلِمةُ الحَقُّ يَخطَفُها الجِنِّيُّ ٧٤

تُنْكَحُ المَرأةُ لأرْبَعٍ: لِمالِها، ولِحَسَبِها ٤٣٧

تَهادَوْا تَحابُّوا ٦١٣

تَوضَّأْ لنا وُضوءَ رَسولِ اللهِ ٢٣٨

ثَلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ ولا يَنظُرُ إليهِم ٦١٦

ثَلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القِيامةِ ٦١٥

ثلاثُ دَعَواتٍ مُستَجاباتٌ ٧٤٥

ثَلاثُ ساعاتٍ كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَنهانا ٣٥٧

ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمانِ .... ٢٣، ٦٧

جاءَ ثلاثَةُ رَهطٍ إلى بُيوتِ أزْواجِ النبيِّ ١٩٨

جاءَ رجُلٌ والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَخطُبُ النَّاسَ ٣٣٩

جعَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَلاثةَ أيَّامٍ ولَياليَهُنَّ ٢٥٩

جمَعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ الظُّهرِ ٣٦٨

حتى تَتفطَّرَ قدَماه ٥٧٠

حُجِبَتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ ٥٦٨

حَوْضي مَسيرَةُ شَهْرٍ، ماؤُهُ أبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ ١٤٥

خَالِفوا المُشرِكينَ؛ وَفِّرُوا اللِّحَى ٢٦٠



خُذُوا القُرآنَ مِن أربعةٍ ٦٩٢

خَرَجَ ثَلاثةُ نَفَرٍ يَمشون فأصابَهم المَطَرُ.............................. ١٨٤

خَسَفَت الشَّمسُ في عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.............. ٣٢٨

خَصلَتانِ -أو خَلَّتانِ- لا يُحافِظُ عليهما............................ ٧١٥

خُلِقَتِ المَلائِكةُ مِن نُورٍ ....١٧٦، ١٨٠

خَمْسٌ تَجِبُ للمُسلِمِ على أخيهِ ....٥٨٥، ٥٨٨

خيرُكم مَن تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمه.. ٦٨٣

خَيرُ يومٍ طَلَعَتْ عليه الشَّمسُ.. ٣١٢

دَخَلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على أُمِّ سُلَيْمٍ.......................... ٤٤٨

دَخَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وَعِندي جارِيَتانِ ٣٢١

دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك.. ٤٦٥

دَعْهُ؛ فإنَّ الحَياءَ مِنَ الإيمانِ ٤٩٣

دَعْهُما يا أبا بَكرٍ ٣٢٢

دَعُوني ما تَرَكْتُكم؛ إنَّما هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُم ١٩١

ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ باللهِ رَبًّا.. ٢٢

ذاكَ لهم ما شاءَ اللهُ على ذلك.. ١٤٤

ذانِكَ يَومانِ تُعرَضُ فيهما الأَعمالُ.. ٣٩٧

رأَى جِبريلَ عليه السَّلامُ له سِتُّمِئةِ جَناحٍ! ١٧٧

رَأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَ خَرَجَ يَستَسقي.......................... ٣٢٦



رأيْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَوضَّأَ.................... ٢٣٨
رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَشرَبُ.................... ٦٥١
رأيتُه مُنهَبِطًا مِنَ السَّماءِ.................... ١٧٧
رَبِّ قِنِي عَذابَك، يومَ تَبعَثُ.................... ٧١٣
رَغِمَ أنْفُ، ثمَّ رَغِمَ أنْفُ.................... ٥٧٥
رَغِمَ أَنفُ رجُلٍ ذُكِرْتُ عِندَه.................... ٧٠٤
سَألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن نَظَرِ الفُجاءةِ.................... ٤٤٢
سُئِل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أيُّ الأعْمالِ أفضَلُ؟.................... ٤١٨
سَافَرْنَا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في رَمَضانَ.................... ٣٩٢
سُبْحانَ الذي سخَّرَ لنا هذا.................... ٦٦٢
سُبْحانكَ اللَّهُمَّ ربَّنا وبِحَمْدِك.................... ٢٨٠
سَقَطَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن فَرَسٍ.................... ٣٠٨
سَقَيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن زَمزَمَ.................... ٦٥١
سَلوهُ لأيِّ شَيءٍ يَصْنَعُ ذلكَ؟.................... ٤٥
سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه، اللَّهُمَّ ربَّنا لكَ الحَمْدُ.................... ٢٨٠
سَوُّوا صُفُوفَكم؛ فإنَّ تَسوِيَةَ الصُّفوفِ.................... ٣٠٢
سَيِّدُ الاستِغْفارِ أنْ تَقولَ.................... ٧١٠
شُكِيَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الرجُلُ يُخَيَّلُ إليه.................... ٢٤٥
شَهِدْتُ الأضْحَى مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ.................... ٣٢٤



شَهِدْتُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصَّلاةَ يومَ العِيدِ ٣٢٠
صارتِ الأوْثانُ التي كانتْ في قَومِ نُوحٍ ٩٤
صَدَق ٣٠
صَلاةُ الجَماعةِ تَفضُلُ صَلاةَ الفَذِّ ٢٩٥
صَلاةُ اللَّيلِ مَثْنى مَثْنى، فإذا خَشِيَ أحَدُكم الصُّبْحَ ٣٥٢
صَلاةُ المَرأةِ في بَيتِها أفضَلُ ٣٠٦
صلاةٌ في مَسجِدي هذا أفضَلُ مِن........................ ٣٣١
صَلاةٌ في مَسجِدي هذا خَيرٌ مِن........................ ٣٣١
صَلَّى لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَكعتَينِ ٢٩٣
صلَّيْتُ معَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ لَيلةٍ ٢٨٠
صِنْفانِ مِن أهْلِ النَّارِ لَمْ أرَهُما ٤٢٧
طَعامُ الرَّجُلِ يَكْفِي رَجُلَينِ........................ ٦٥٠
عَجَبًا لأَمرِ المُؤمِنِ؛ إنَّ أَمْرَه كُلَّه خَيرٌ ٤٩٦
عُذِّبَتِ امراةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتْها........................ ٥١١
عَشْرٌ مِن الفِطْرةِ: قَصُّ الشارِبِ، وإعْفاءُ اللِّحْيةِ........................ ٢٦٠
على الصِّراطِ.. ١٥٢
عَمدًا صنَعْتُه يا عُمَرُ ٢٤٢
غُسْلُ يَومِ الجُمُعةِ على كُلِّ مُحْتلِمٍ ٣١٤
غُفرانَكَ ٢٣١



فأقولُ: إنَّهم مِنِّي. فيُقالُ: إنَّكَ لا تَدري ما أحدَثوا بَعدَك ١٤٦
فإذا كان العامُ المُقْبِلُ إنْ شاءَ اللهُ صُمْنَا اليومَ التَّاسِعَ ٤٠١
فإنَّ أحَدَكُم إذا تَوضَّأَ فأحسَنَ ٣٣٦
فإنَّ إقامةَ الصَّفِّ مِن حُسنِ الصَّلاةِ........................ ٣٠٣
فإنَّ الصِّدقَ طُمأنينةٌ، وإنَّ الكَذِبَ رِيبةٌ ٤٦٦
فارْكَعْ رَكعَتَينِ، وتَجوَّزْ فيهما ٣٤٠
فَرَضَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ زَكاةَ الفِطْرِ ٤٠٨
فَصْلُ ما بيْنَ صِيامِنا وصِيامِ ٣٩٤
فعَليْكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشدينَ المَهْدِيِّينَ........................ ١٩٢
فلْيَنفُضْه بصَنِفَةِ ثَوبِه ثَلاثَ مرَّاتٍ ٦٤٢
فيؤذَنُ لي عليه، فإذا رأيْتُه وقَعْتُ ساجدًا ١٦٠
فيُضْرَبُ الصِّراطُ بيْنَ ظَهْرانَي جهنَّمَ ١٥٢
فيه وُلِدْتُ، وفيه أُنزِلَ عليَّ........................ ٣٩٨
قال اللهُ تبارَكَ وتَعالَى: أنا أَغْنَى الشُّرَكاءِ........................ ٨٥
قال اللهُ تبارَكَ وتَعالَى: يا ابنَ آدَمَ ٤٠٩
قالَ اللهُ تعالَى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْني وبيْنَ عَبْدِي نِصفَينِ........................ ٢٧٨
قالَ اللهُ: كَذَّبَني ابنُ آدَمَ ولَمْ يكُن له ذلك ٢٥
قالَ اللهُ: كلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ له إلَّا الصِّيامَ........................ ٣٩٠
قالتِ المرأةُ: يا ليْتَني قلتُ: وواحِدًا........................ ٥٥٢

قال رَجُلٌ لمْ يَعمَلْ خَيرًا قَطُّ ٢٧

قدْ تَرَكْتُ فيكم ما لنْ تَضِلُّوا بَعْدَه ١٩١

قُلْ آمنتُ باللهِ........................ ٥٣٥

قُل: اللَّهُمَّ اهْدِني وسَدِّدْني........................ ٧٣٣

قُلتُ لأبي: أيُّ النَّاسِ خَيرٌ ٢١٧

قولوا: اللَّهُمَّ إنَّا نَعوذُ بكَ مِن عَذابِ جهنَّمَ ٣٧

كأنَّما خرجَ مِن ديماسٍ ٢١٤

كان إذا قامَ مِن اللَّيلِ يَفتتِحُ صَلاتَه........................ ١٧٦

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا أرادَ........................ ٧٢٠

كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا دَخَلَ العَشْرُ ٣٦٢

كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَذكُرُ اللهَ........................ ٦٩٨

كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُصلِّي الضُّحَى أربعًا........................ ٣٥٦

كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعْجِبُه التَّيَمُّنُ........................ ٦٥٥

كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في العيدينِ ٣١٩

كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أجوَدَ النَّاسِ بالخَيرِ ٤٨٧

كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أشَدَّ حَياءً........................ ٤٨٨

كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا قامَ ليَتهَجَّدَ........................ ٢٥٦

كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا كان جُنُبًا ٢٤٥

كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا مَرِضَ........................ ٦٧٧



كَانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُبالي بعضَ تأخيرِ ٢٧٣
كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يَغدُو يَومَ الفِطْرِ ٣١٨
كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأمُرُنا إذا كُنَّا سَفْرًا ٢٤٣
كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُصَلِّي الظُّهْرَ بالهاجِرةِ ٢٧٢
كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ ٦١٣
كان لي خالٌ يَرقِي من العَقربِ ٨٠
كان يَتعوَّذُ مِن سوءِ القَضاءِ ٧٣٧
كان يُصِيبُنا ذلك، فنُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّومِ ٢٥٢
كَسَانِي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حُلَّةً سِيَرَاءَ ٤٢٦
كَفَى بالمَرءِ كَذِبًا ٦٣٧
كُلُّ أُمَّتي يَدخُلونَ الجَنَّةَ إلَّا مَن أبَى ١٩١
كُلُّ سُلامَى من النَّاسِ عليه صَدَقةٌ ٥٤٠
كلُّ غُلامٍ رَهينةٌ بعَقيقتِه، تُذبَحُ عنه يومَ سابِعِه ٤٥٢
كَلِمتانِ خفيفتانِ على اللِّسانِ .... ١٥١، ٧٠٠
كُلُّ مُصوِّرٍ في النَّارِ، يَجعَلُ له بكُلِّ صُورةٍ ٤٣٣
كُلُّ مَعروفٍ صَدَقَةٌ ٥٥٧
كَمْ سُقْتَ إليها؟ قال: زِنةَ نَواةٍ مِن ذَهَبٍ ٤٤٦
كُنَّا في زَمَنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا نَعْدِلُ ٢١٧
كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سَفَرٍ ٧٠٦



كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غَريبٌ أو عابِرُ سَبيلٍ ٥٣٨

كيفَ أنتُم إذا نزَلَ ابنُ مريمَ........ ١٢٨

لأمرتُهُم بالسِّواكِ مع الوُضوءِ........ ٢٥٧

لَأَن أقولَ: سُبحانَ اللهِ ٦٩٩

لأَنْ يَجْلِسَ أحَدُكُم على جَمْرةٍ........ ٣٨٣

لا آكُلُ مُتَّكِئًا........ ٦٥٠

لا إلهَ إلَّا اللهُ العَظيمُ الحَليمُ........ ٧٢٥

لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له ٧١٣

لا إلَهَ إلَّا اللهُ! وَيْلٌ للعربِ مِن شرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ........ ١٣٢

لا تَباغَضُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا ٥٩٨

لا تَبْتَعْه وإنْ أعْطاكَه بدِرْهَمٍ........ ٤٧٩

لا تَبْتَعْه، ولا تَعُدْ في صَدقَتِك........ ٤٧٩

لا تَبْدؤوا اليهودَ ولا النَّصارَى بالسلامِ........ ٦٠٥

لا تَجْلِسُوا على القُبورِ........ ٣٨٣

لا تَحقِرَنَّ مِن المَعروفِ شيئًا ٦٠١

لا تَدْخُلونَ الجنَّةَ حتى تُؤمِنوا........ ٢٠، ٦٠١

لا تَذكُروا هَلْكاكم إلَّا بخَيرٍ ٣٨٥

لا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ على الحقِّ ....١٢٨، ٢٠٦

لا تَسُبُّوا أصْحابِي، لا تَسُبُّوا أصْحابِي ٢٢٤



لا تَسُبُّوا الأمْواتَ؛ فإنَّهُم قدْ ٣٨٤
لا تَسبُّوا الأمواتَ؛ فتُؤذوا الأحياءَ ٣٨٥
لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلَّا إلى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ ٣٣١
لا تَشرَبوا في إناءِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ٤٢٥
لا تُطْروني، كما أَطْرَتِ النَّصارى ابنَ مَرَيَمَ ٩٢
لا تَغضَبْ. فرَدَّدَ مِرارًا ٥٢١
لا تُقبَلُ صَلاةُ أحَدِكم ٢٣٤
لا تُقبَلُ صَلاةُ مَن أحدَثَ ٢٤٣
لا تَقُلْ ذاكَ؛ ألَا تَراهُ قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ ٦٦
لا تَقُولِي هَكَذا، وقُولي ما كنتِ تَقولينَ ٥٣
لا تَقومُ السَّاعةُ حتى تَأخُذَ أُمَّتي ١٢١
لا تَقومُ السَّاعةُ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها ١٢٧
لا تَقومُ السَّاعةُ حتى لا يُقالَ ١٣٤
لا تَقومُ السَّاعةُ حتى يُقْبَضَ العِلْمُ ١٢٠
لا تَمنَعوا نِساءَكُمُ المَساجِدَ ٣٠٧
لا صَلاةَ بحَضْرَةِ الطَّعَامِ ٣٧٠
لا صَلاةَ بَعدَ صَلاةِ العَصرِ حتى تَغرُبَ الشَّمسُ ٣٥٧
لا صَلاةَ لِمَن لمْ يَقْرأْ بفاتِحةِ الكِتابِ ٢٧٧
لا طِيَرَةَ، وخَيْرُها الفَأْلُ ١٠٩



لا عَدْوى، ولا طِيَرةَ .... ٨٢، ٦٧٣

لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتى يُحِبَّ لأخيهِ ٥٨٤

لا يَبِعِ الرَّجُلُ على بَيعِ أخِيهِ ٤٤٠

لا يُتَلَقَّى الرُّكْبانُ لِبَيْعٍ، ولا يَبِعْ بَعْضُكم ٤٦٨

لا يَحِلُّ دَمُّ امرئٍ مُسلِمٍ يَشهَدُ ٣٤

لا يَحِلُّ لمُسلمٍ أنْ يَهجُرَ أخاهُ ٥٩٦

لا يَدخُلُ الجنَّةَ قاطعُ رَحِمٍ ٥٨٠

لا يَدخُلُ الجنَّةَ قَتَّاتٌ ٦٣٦

لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلبِه ٥١٨

لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن لا يَأمَنُ ٥٨١

لا يَرْحَمُ اللهُ مَن لا يَرْحَمُ النَّاسَ ٥١٠

لا يَزالُ النَّاسُ بخَيرٍ ما عَجَّلُوا الفِطْرَ ٣٩٣

لا يَزالُ طائِفةٌ مِن أُمَّتي ظاهِرِينَ ٢٠٦

لا يَسترُ عَبدٌ عَبدًا في الدُّنيا ٥١٤

لا يصادِفُها عبدٌ مسلمٌ ٣١٣

لا يَقعُدُ قَومٌ يَذكُرونَ اللهَ ٦٩٧

لا يَمْشي أحَدُكم في نَعْلٍ واحدةٍ ٤٢٣

لا يموتُ لإحداكُنَّ ثَلاثةٌ ٥٥١

لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُم شِبْرًا بشِبْرٍ ١٢١

لعلَّه تَنْفَعُه شَفاعتي يَومَ القِيامةِ ١٦٢

لَعَنَ اللهُ الواشِماتِ والمُستَوشِماتِ ٤٣١

لَعَنَ اللهُ الواصِلةَ والمُسْتَوصِلةَ ٤٣٠

لعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لغَيرِ اللهِ ٤١

لَعنةُ اللهِ على اليَهودِ والنَّصارى ٩٠

لعَنَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ آكِلَ الرِّبا ٤٦٩

لَقِّنوا مَوتاكم لا إلهَ إلَّا اللهُ ٣٧٣

لكُلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أُصيبَ دَواءُ ٦٦٦

لَلهُ أرحَمُ بعِبادِه مِن هذه بوَلَدِها ٥٥٤

للهِ تِسْعَةٌ وتِسْعونَ اسْمًا؛ مِائَةٌ إلَّا واحِدًا ٤٤

لَمَّا قَضى اللهُ الخَلْقَ كَتَب ٥٢٩

لم تُراعوا، لم تُراعوا! ٤٨٦

لِمَ لَطَمْتَ وَجهَهُ؟ ١٣٦

لَمْ يَأْذَنِ اللهُ لِشَيءٍ ما أَذِنَ للنَّبيِّ ٦٨٨

لم يَكُنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فاحِشًا ٤٩٠

لَنْ يُنْجِيَ أحدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ ٥٢٩

لَوْ أنَّ أحَدَهُم إذا أرادَ أنْ يَأْتِيَ أهْلَهُ قال ٤٥٠

لو أُهدِيَ إلَيَّ ذِراعٌ أو كُراعٌ، لَقَبِلْتُ ٦١٣

لوْ غَضَّ الناسُ إلى الرُّبُعِ ٤٧٤





لو كُنْتُ مُسَبِّحًا لأَتْمَمْتُ صلاتِي ٣٥٨

لولا أنْ أشُقَّ على أمَّتي .... ٢٥٦، ٢٧٤

لولا أنِّي نَهيتُه غيرَ مرَّةٍ ٤٢٦

لو يَعلَمُ المُؤمِنُ ما عندَ اللهِ ٥٢٩

لو يَعْلَمُ المَارُّ بيْن يَدَيِ المُصَلِّي ٣٦٧

لو يَعلَمُ النَّاسُ ما في النِّداءِ ٣٠٢

لَو يَعلَمُ النَّاسُ ما في الوَحدَةِ ٦٦١

لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ برَأْسِ رَاحِلَتِه ٣٥٩

ليس الغِنَى عن كَثْرةِ العَرَضِ ٥٠٤

ليسَ الكَذَّابُ الذي يُصلِحُ .... ٥٠٨، ٦٣٤

ليس المُؤمِنُ بالطَّعَّانِ، ولا اللَّعَّانِ ٥٢٢

ليسَتْ نَفسٌ مخلوقَةٌ إلَّا اللهُ خالِقُها .... ٢٦، ٢٧

ليسَ مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا وقدْ فُرِغَ ١٠٢

لِيَعْلَموا أنَّها سُنَّةٌ ٣٧٧

لَيَكونَنَّ مِن أُمَّتي أقْوامٌ يَستَحِلُّونَ الحِرَ والحَرِيرَ ٤٤٩

لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي رَأَيْتُ مُوسَى ٢١٢

لَيَنْتَهِيَنَّ أقْوامٌ عن وَدْعِهِم الجُمُعاتِ ٣١٧

ما أسْفَلَ مِن الكَعْبَينِ مِن الإزارِ فَفِي النَّارِ ٤٢٢

ما أنْزَلَ اللهُ داءً إلَّا أنْزَلَ له شِفاءً ٦٦٦





ما العَمَلُ في أيَّامٍ أفْضَلُ منها في هذِه ٤٢٠

ما بالُ هذه النُّمْرُقةِ؟ قُلتُ: اشْتَرَيْتُها لكَ ٤٣٣

ما بَيْنَ النَّفختَيْنِ أربعون ١٣٦

ما بيْنَ خَلْقِ آدَمَ إلى قِيامِ السَّاعةِ ١٣٠

ما تَذاكَرونَ؟ قالوا: نَذكُرُ السَّاعةَ ١٢٥

ما حَقُّ امْرِئٍ مُسلِمٍ له شَيءٌ ٤٧٣

ما زالَ جِبرِيلُ يُوصِيني بالجارِ ٥٨٠

ما سُئِلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شَيئًا قَطُّ فَقالَ: لا ٤٨٧

ما شَأْنُكم؟ قالوا: اسْتَعجَلْنا إلى الصَّلاةِ ٣٣٧

ما عابَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ طَعامًا ٦٤٩

ما علَيْكُم ألَّا تَفْعَلوا؛ فإنَّ اللهَ قدْ كَتَبَ ٢٦

ما لي أرَى أجْسامَ بَني أخِي ضارِعةً ٦٧٦

ما مِن النَّاسِ مِن مُسلمٍ يُتوفَّى له ٥٥٢

ما مِنْ عَبدٍ يقولُ في صَباحِ ٧٠٩

ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا وقدْ وُكِّلَ به قَرِينُهُ ١٨٠

ما مِنكم مِن أحَدٍ يَتَوضَّأُ فيُبلِغُ ٢٤١

ما مِن مُسلِمٍ تُصيبُه مُصيبةٌ ٤٩٥

ما مِن مُصيبةٍ يُصابُ بها المُسلِمُ ٥٤٩

ما مِن مَولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرَةِ ١٠٥



ما مِن يَومٍ أكْثرَ مِن أنْ يُعتِقَ اللهُ فيه........................ ٤٢٠

ما نَقَصَتْ صَدَقةٌ مِن مالٍ ٥٠٢

ما هذا اليَومُ الذي تَصُومونَه؟ ٤٠٠

ما يَأْمَنُ الذي يَرفَعُ رَأسَه في صَلاتِه ٣٠٨

مَثَلُ البَيتِ الذي يُذكَرُ اللهُ فِيهِ........................ ٦٩٨

مَثَلُ الذي يَقرَأُ القُرْآنَ وهو حافِظٌ له........................ ٦٨٣

مَثَلُ المُؤمِنِ الذي يقرأُ القرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ........................ ٦٨٤

مَثَلُ المؤمِنِ كمَثَلِ الخامَةِ مِنَ الزَّرْعِ........................ ٥٣٩

مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ ٦١

مَثَلي كمَثَلِ رَجُلٍ استَوقَدَ نارًا ٤٨٣

مَثَلِي ومَثَلُ الأنْبياءِ مِن قَبْلي........................ ٢٠٨

مُروا أولادَكم بالصَّلاةِ وهم أبناءُ سَبْعِ سنينَ........................ ٤٥٤

مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ........................ ٤٧١

مُعقِّباتٌ لا يَخِيبُ قائِلُهنَّ ٧١٥

مِفْتاحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُها إلَّا اللهُ ٥٠

مَن آتاهُ اللهُ مالًا فلمْ يُؤَدِّ زَكاتَهُ........................ ٤٠٥

مَن أتى عرَّافًا أو كاهنًا فصدَّقه........................ ٧٥

مَن أتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عن شَيءٍ........................ ٧٥

مَن أحَبَّ أنْ يُبسَطَ له في رِزْقِه ٥٧٨

مَن أحْدَثَ في أمْرِنا هذا ١٩٦
مَن أخَذ أموالَ النَّاسِ يُريد أداءَها ٣٧٥
مَن أدْرَكَ رَكْعةً مِن الصَّلاةِ ٣٠٤
مَن أدْرَكَ مِن الصُّبحِ رَكْعةً ٣٠٤
مِن أشْراطِ السَّاعةِ: أنْ يَقِلَّ العِلْمُ ١١٨
مَن أكَلَ ثُومًا أوْ بَصَلًا فلْيَعتزِلْنا ٣٤٥
مَن أكَلَ سَبعَ تَمَراتٍ ممَّا بيْن لابَتَيها ٦٧٠
مَنِ ابتُلِيَ مِنَ البَناتِ بشَيءٍ ٥٠٧
مَن استَعاذَكم باللهِ فأَعِيذوه ٦١٢
مَنِ اغتَسَلَ ثمَّ أتَى الجُمُعةَ ٣١٥
مَنِ الوَفْدُ، أو مَنِ القَوْمُ؟ قالوا: رَبيعةُ ١٥
مَن تَصبَّحَ بسَبْعِ تَمَراتٍ عَجْوةٍ ٦٧٠
مَن تَوضَّأَ فأحسَنَ الوُضُوءَ خرَجَتْ ٢٣٥
مَن تَوضَّأَ نحْوَ وُضوئِي هذا ٣٥٠
مَنْ جلَسَ يَنتظِرُ الصَّلاةَ ٣١٣
مَن حجَّ هذا البَيتَ، فلم يَرفُثْ ٤١٨
مَن حَفِظَ عَشْرَ آياتٍ مِن أوَّلِ سُورةِ الكَهفِ ١٣٠
مَن حلَفَ بغيرِ اللهِ فقدْ أشرَكَ ٨٨
مَن حَلَفَ فقالَ في حَلِفِهِ ٨٨



مَن حوسِبَ عُذِّبَ ١٤٧
مَن خافَ ألَّا يَقومَ مِن آخِرِ اللَّيلِ فلْيُوتِرْ أوَّلَه ٣٥٣
مَن دَعا إلى هُدًى كانَ له مِنَ الأجْرِ ٢٠٢
مَن ذا؟ فقُلتُ: أنا. فقال: أنا أنا! ٦٠٦
مَن رآني فقد رأى الحَقَّ ٢١٥
مَن رآني في المَنامِ فقد رآني ٢١٤
مَن رَأى مِنكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِه ٢١
مَن سَبَّحَ اللهَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ٧١٥
مَن سَلِمَ المُسلِمونَ مِن لِسانِه ويَدِه ٥٩٤
مَن سَمِعَ رجُلًا يَنشُدُ ضالَّةً ٣٤١
مَن صامَ رَمضانَ إيمانًا واحتِسابًا ٣٨٨
مَن صامَ رَمَضانَ ثمَّ أتْبَعَهُ سِتًّا مِن شَوَّالٍ ٣٩٧
مَن صَلَّى اثْنَتيْ عَشْرةَ رَكْعةً في يَومٍ ولَيلةٍ ٣٤٩
مَن صَلَّى البَردَينِ دَخَلَ الجَنَّةَ ٣٠٠
مَن صَلَّى الصُّبْحَ فَهو في ذِمَّةِ اللهِ ٢٩٧
مَن صَلَّى العِشاءَ في جَماعةٍ ٢٩٧
مَن صلَّى عليَّ واحِدةً ٧٠٤
مَن عادَ مَريضًا لم يَزَلْ في ٥٨٧
مَن عُرِضَ عليه رَيحانٌ فلا يَرُدَّهُ ٦١٣



مَن عَلَّق تميمةً فقد أشرَكَ ٨٠
مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أمْرُنا فهو رَدٌّ ١٩٦
مَن غَدَا إلى المَسجِدِ وراحَ ٣٣٥
مَن قال حينَ يَسمَعُ النِّداءَ ٢٦٤
مَن قال حِينَ يُصبِحُ وحِينَ يُمْسي ٧٠٨
مَن قامَ رَمَضانَ إيمانًا واحْتِسابًا ٣٦١
مَن قرأَ آيةَ الكُرسيِّ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ٧١٧
مِن قُعْرَةِ عَدَنٍ ١٢٧
مَن كانَ آخِرُ كَلامِه لا إلهَ إلَّا اللهُ ٣٧٣
مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ .... ٥٨٩، ٦٢٨
مِن كلِّ اللَّيلِ قد أوترَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ٣٥٤
مَن لَقِيَ اللهَ لا يُشرِكُ به شيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ ٧٠
مَن ماتَ لا يُشرِكُ باللهِ ٧١١
مَن ماتَ وَعليه صِيامٌ صامَ عنه وَلِيُّهُ ٣٩٦
مَن ماتَ وهو يَعْلَمُ أنَّه لا إلَهَ إلَّا اللهُ ٥٦
مَن نَذَرَ أنْ يُطيعَ اللهَ فلْيُطِعْهُ .... ٤٢، ٤٦١
مَن نَزَلَ مَنزِلًا ثُمَّ قالَ ٧٤٢
مَن نَسِي صلاةً، أوْ نامَ عنها ٣٧٢
مَن نَسِيَ صَلاةً فَلْيُصَلِّهَا إذا ذَكَرَها ٣٧٢



مَن نَسِيَ وَهو صائِمٌ، فأكَلَ أوْ شَرِبَ ٣٩٤
مَن نَفَّسَ عن مُؤمنٍ كُربةً ٥٩٠
مَن يَتصَبَّرْ يُصَبِّرْه اللهُ ٤٩٥
مَن يُحرَمِ الرِّفقَ، يُحرَمِ الخَيرَ ٥٠٠
مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ يَنعَمُ، لا يَبْأَسُ ١٦٧
مَن يُرِدِ اللهُ به خَيرًا يُفقِّهْهُ في الدِّينِ ٦٢٠
مَن يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللهُ به ٨٥
مَن يَضمَنْ لي ما بيْن لَحْيَيْه ٦٢٨
مَن يَقُمْ لَيلةَ القَدْرِ إيمانًا واحتِسابًا ٣٦٣
نارُكم جزءٌ من سبعينَ جُزءًا من نارِ جهنَّمَ ١٧١
نضَّرَ اللهُ امرأً سَمِعَ منَّا حديثًا ٦٢٣
نِعمَتانِ مَغبونٌ فيهما كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ ٥٣٤
نفْسُ المؤمنِ مُعَلَّقةٌ بدَيْنِه ٣٧٤
نَهَانَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ نَشْرَبَ ٤٢٥
نَهاني رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن التخَتُّمِ بالذَّهَبِ ٤٢٤
نهَى أنْ يَشرَبَ الرَّجلُ قائِمًا ٦٥١
نَهَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَنِ النَّذْرِ ٤٦٠
نَهَى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الدَّواءِ الخَبيثِ ٦٦٧
نَهَيْتُكُم عن زِيارةِ القُبُورِ، فزُورُوها ٣٨٢

نُهينا أنْ نَسأَلَ رَسولَ اللهِ ٣٠

نُهينا عَنِ التَّكلُّفِ ١٩٨

هكذا كان وُضوءُ رَسولِ اللهِ........................ ٢٣٨

هلْ تَدْرُونَ ماذا قالَ رَبُّكُم؟ ٧٧

هل تدرون مِمَّ أضحَكُ؟........................ ١٤٨

هلْ تَسمَعُ النِّداءَ بالصَّلاةِ؟........................ ٢٩٦

هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ-قالَها ثَلاثًا........................ ١٩٧

هلْ نَظرْتَ إليها؛ فإنَّ في عُيونِ الأنْصارِ شيئًا؟ ٤٣٩

هوَ مِن عَمَلِ الشَّيطانِ........................ ٧٩

وأملِكُ إنْ كانَ اللهُ نَزَعَ مِنكمُ الرَّحمةَ؟! ٤٨٣

وأَمِيطوا عنه الأذى ٤٥٤

والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِه، لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ ٢١٠

والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ في يَدِه ٥٧١

واللهِ إنِّي لأستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه ٧٣١

واللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هو، إنَّها لَفي رمضانَ ٣٦٣

واللهِ لا أحْمِلُكم، ما عِندِي ما أحْمِلُكم........................ ٤٥٨

واللهِ لِيَهْنِكَ العِلمُ أبا المُنذِرِ........................ ٦٩٠

وتُؤمِنَ بالقَدَرِ كُلِّه ١١

وَجَبَتْ ٣٨٥

وَجَّهتُ وَجْهيَ للذي فَطَرَ السَّمواتِ والأرضَ ٢٨١
وصُمْ مِن الشهرِ ثلاثةَ أيَّامٍ ٣٩٨
وقدْ وُكِّلَ به قَرينُه مِنَ الجِنِّ ١٨٠
ولا تُكبِّروا حتى يُكبِّرَ ٣٠٩
ولا يُخبِرْ بها أحدًا ٦٤٦
وُلِدَ ليَ اللَّيلةَ غُلامٌ، فسَمَّيتُه باسمِ أبي إبراهيمَ ٤٥٣
وما اجتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوتِ اللهِ ٦٢٤
ومَن سَلَكَ طَريقًا يَلتمِسُ فيه عِلمًا ٦٢٠
ويَأْتيهِ مَلَكانِ فيُجْلِسانِه فيَقولانِ له ١١٠
ويُجزِئُ من ذلك رَكعتانِ يَركَعُهما من الضُّحى ٥٤٢
وَيحَك! قطَعْتَ عُنقَ صاحِبِك ٦١٨
يُؤتى بالموتِ كهَيئةِ كَبشٍ أملَحَ ١٧٣
يُؤتَى بجَهَنَّمَ يومَئذٍ لها سَبعونَ ألْفَ زِمامٍ ١٧١
يا أبا المُنذِرِ، أتَدْري أيُّ آيةٍ ٦٩٠
يا أنجَشةُ، رُوَيدَكَ سَوْقًا بالقَواريرِ ٤٨٣
يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إلى اللهِ ٧٣٢
يا بِلالُ، حَدِّثْني بأرْجَى عمَلٍ عَمِلْتَه ٣٥٠
يا رَسولَ اللهِ، ما لَقِيتُ مِن عَقْرَبٍ ٧٤٣
يا عائِشةُ، إنَّ اللهَ رَفيقٌ، يُحِبُّ الرِّفقَ ٥٠٠

يا عائِشةُ، ما كانَ معكُم لَهْوٌ؟ ٤٤٨

يا عِبادي، إنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ على نَفْسي.......................... ٥١٦

يا غُلامُ، إني أُعلِّمُك كَلِماتٍ.................................. ٣٩

يا غُلامُ، سَمِّ اللهَ ٦٤٦

يَا مُعَاذُ، أَتَدْري ما حقُّ اللهِ على العِبادِ؟.......................... ٣٦

يا مُعاذُ بنَ جَبَلٍ، قالَ: لَبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ وسَعْدَيْكَ ٦٥

يا مُعاذُ، هلْ تَدري حَقَّ اللهِ على عِبادِه........................... ٣٣

يا مَعشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استَطاعَ مِنكُم ٤٣٦

يا مَعشَرَ قُرَيشٍ -أو كَلِمةً نَحوَها- اشتَرُوا أنفُسَكم ١٨٨

يَتبَعُ المَيِّتَ ثَلاثَةٌ، فيَرجِعُ اثنانِ ويَبقَى واحِدٌ........................ ٥٥٣

يَخْرُجُ الدَّجَّالُ في أُمَّتي فيَمكُثُ أربعينَ ١٣٩

يُسَلِّمُ الرَّاكبُ على الماشي ٦٠٢

يُسلِّمُ الصَّغيرُ على الكَبيرِ ٦٠٢

يُصْبِحُ على كُلِّ سُلامَى مِن أحَدِكُم صَدَقةٌ.......................... ٣٥٥

يُعَذَّبانِ، وما يُعَذَّبانِ في كبيرٍ! ١١١

يُغسَلُ من بَولِ الجارِيةِ.. ٢٥٣

يُقبَضُ العِلمُ، ويَظْهَرُ الجَهلُ والفِتَنُ................................ ١١٩

يُكفِّرُ السَّنةَ الماضيةَ والباقيةَ ٤٠٠

يكونُ في آخِرِ الزَّمانِ دَجَّالونَ كَذَّابونَ................................ ١١٧



يُنادي مُنادٍ: إنَّ لَكم أنْ تَصِحُّوا.. ١٦٧
يَنزِلُ اللهُ إلى السَّماءِ الدُّنْيا كُلَّ لَيلَةٍ ٣٥٤
يَنزِلُ ربُّنا تبارَكَ وتعالَى كُلَّ ليلةٍ ٧٤٧
يَهرَمُ ابنُ آدَمَ وتَشِبُّ منه اثنَتانِ ٥٥٩

فهرس المحتويات

مقدِّمةُ الكِتابِ ٥

العَقائِدُ

الإيمانُ ١١

حقيقةُ الإيمانِ ١١

الإيمانُ قَوْلٌ وعمَلٌ يَزيدُ ويَنْقُصُ ١٥

مَحبَّةُ المؤمنينَ مِنَ الإيمانِ ١٩

الأَمْرُ بالمعْرُوفِ والنَّهيُ عنِ المُنْكَرِ مِنَ الإيمانِ ٢١

طَعمُ الإيمانِ وحَلاوتُه ٢٢

الإيمانُ برُبوبيةِ اللهِ وَحْدَه (توحيدُ الربوبيةِ) ٢٥

تَنزيهُ اللهِ تعالى عن الصَّاحبةِ والوَلَدِ ٢٥

تفَرُّدُه بالخَلقِ ٢٦

تفَرُّدُه بالإحياءِ والإماتةِ ٢٧

تفَرُّدُه بالرِّزقِ وتحديدِ الآجالِ ٢٨

تفَرُّدُه بتَدبيرِ الكَونِ ٣٠

الإيمانُ بأُلوهيةِ اللهِ وَحْدَه (توحيدُ الأُلوهيةِ) ٣٣

أهمِّيَّةُ تَوحيدِ الأُلوهيَّةِ وفَضْلُه ٣٣

عِبادةُ اللهِ وَحْدَه ٣٦



الاستِعاذةُ باللهِ وَحْدَه ٣٧

الاستِعانةُ باللهِ وَحْدَه ٣٩

الذَّبحُ للَّهِ وَحْدَه........................ ٤١

النَّذْرُ للهِ وَحْدَه ٤٢

الإيمانُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه (توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ) ٤٤

أسماءُ اللهِ عزَّ وجلَّ........................ ٤٤

صِفَةُ الرَّحمنِ........................ ٤٥

عُلوُّ اللهِ تعالى واستِواؤُه على العَرشِ ٤٧

رُؤيةُ المُؤمِنينَ ربَّهم عزَّ وجلَّ في الآخِرةِ........................ ٤٩

لا يَعْلَمُ الغَيْبَ إلَّا اللهُ........................ ٥٠

الأنبياءُ لا يَعلمونَ الغَيْبَ ٥٢

الرُّوحُ مِن أمْرِ اللهِ ٥٤

شُروطُ (لا إلَهَ إلا اللهُ)........................ ٥٦

العِلْمُ........................ ٥٦

اليَقينُ ٥٧

القَبولُ........................ ٦١

الانقيادُ........................ ٦٣

الصِّدْقُ ٦٥



الإخلاصُ ٦٦
المَحَبَّةُ ٦٧
الشِّركُ ووَسائِلُه ٧٠
خُطورةُ الشِّركِ ٧٠
السِّحْرُ ٧٢
الكِهانةُ ٧٤
إتيانُ الكُهَّانِ والعرَّافِينَ وتَصديقُهم ٧٥
الاسْتِسْقاءُ بالنُّجُومِ ٧٧
النُّشْرةُ ٧٩
التَّمائِمُ ٨٠
الطِّيَرةُ ٨٢
الرِّياءُ ٨٥
الحَلِفُ بغَيرِ اللهِ وكَفَّارتُه ٨٨
بناءُ المَساجِدِ على القُبورِ ٩٠
الغُلُوُّ في مَدْحِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ٩٢
الغُلُوُّ في الصَّالحينَ ٩٣
الإيمانُ بالقَضاءِ والقَدَرِ ٩٦
التَّسليمُ بالقَدَرِ ٩٦

كِتابَةُ مَقاديرِ الخلائقِ........................ ٩٩

الإيمانُ بالقَدَرِ لا يُنافي العَمَلَ........................ ١٠٢

التَّعَوُّذُ مِن سُوءِ القَضاءِ........................ ١٠٤

كلُّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطرَةِ........................ ١٠٥

الهِدايةُ مِنَ اللهِ........................ ١٠٦

العَينُ حقٌّ، وهي مِنَ القَدَرِ........................ ١٠٨

الفَأْلُ الحَسَنُ........................ ١٠٩

نَعيمُ القَبرِ وعَذابُه........................ ١١٠

إثباتُ نَعيمِ القَبرِ وعَذابِه........................ ١١٠

الميِّتُ يُعَذَّبُ ببُكاءِ أهلِه عليه........................ ١١٤

أشْراطُ الساعةِ الصغرى........................ ١١٦

سِتٌّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعةِ........................ ١١٦

كثرَةُ الدَّجَلِ والكَذِبِ........................ ١١٧

قِلَّةُ العِلمِ، وكَثرةُ الجَهلِ........................ ١١٨

كَثرةُ القَتلِ، وتَقارُبُ الزَّمانِ........................ ١١٩

اتِّباعُ اليَهودِ والنَّصارَى........................ ١٢١

إسنادُ الأمرِ إلى غَيرِ أهلِه........................ ١٢٣

أشراطُ الساعةِ الكُبرَى........................ ١٢٥



عَشْرُ آياتٍ قَبْلَ قِيامِ السَّاعةِ ١٢٥
نُزولُ عِيسى عليه السَّلامُ ١٢٨
فِتنَةُ الدَّجَّالِ ١٣٠
خُروجُ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ ١٣٢
قَبضُ أرواحِ المؤمِنينَ قَبلَ قيامِ السَّاعةِ ١٣٤
الإيمانُ باليَومِ الآخِرِ ١٣٦
النَّفخُ في الصُّوْرِ ١٣٦
البَعْثُ والنُّشورُ ١٣٩
دُنُوُّ الشَّمسِ مِنَ العِبادِ ١٤١
حَشْرُ الخَلائِقِ ١٤٢
الكَوثَرُ والحَوضُ ١٤٤
العَرْضُ والحِسابُ ١٤٧
شَهادةُ أعضاءِ الإنسانِ عليه ١٤٨
المِيزانُ ١٥٠
الصِّراطُ ١٥٢
القَنطَرةُ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ ١٥٤
الشفاعةُ ١٥٦
الشَّفاعةُ العُظمى ١٥٦



الشَّفاعةُ لِمَن دَخل النَّارَ مِن المُؤمِنينَ ١٦٠
الشَّفاعةُ الخاصَّةُ في أبي طالبٍ ١٦٢
الجَنةُ والنارُ ١٦٣
الجَنَّةُ والنَّارُ موجودتانِ الآنَ ١٦٣
صِفةُ الجَنَّةِ ١٦٥
دَوامُ نَعيمِ الجَنَّةِ ١٦٧
سُوقُ الجَنَّةِ ١٦٩
كونُ هذه الأُمَّةِ نصفَ أهلِ الجنَّةِ ١٧٠
صِفةُ النَّارِ ١٧١
دوامُ عَذابِ الكافِرينَ في النَّارِ ١٧٣
العَقيدةُ في المَلائِكةِ والجِنِّ ١٧٦
المَلائِكةُ الكِرامُ ١٧٦
الجِنُّ ١٧٩
التوسلُ المَشروعُ ١٨٣
التوسُّلُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه ١٨٣
التوسُّلُ بالعَمَلِ الصَّالِحِ ١٨٤
التوسُّلُ بدُعاءِ الأنبياءِ والصَّالحينَ ١٨٧
لا يُغْني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أَحَدٍ ١٨٨





الاعتِصامُ بالكِتابِ والسنةِ ١٩١

طاعةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واتِّباعُ سُنَّتِه........................ ١٩١

التَّحذيرُ مِنَ البِدَعِ ومُحْدَثاتِ الأُمورِ.. ١٩٦

النَّهيُ عنِ التنَطُّعِ والتَّكلُّفِ ١٩٧

الاعتِدالُ ونَبذُ التشَدُّدِ ١٩٩

التَّحذيرُ مِن التَّحايُلِ على الشَّرعِ.. ٢٠٠

التَّحذيرُ منَ الكَذِبِ على رَسولِ اللهِ ٢٠١

جَزاءُ مَن دعا إلى هُدًى أو ضَلالةٍ ٢٠٢

ذَمُّ التفَرُّقِ.. ٢٠٣

الطَّائِفةُ المَنصورةُ.. ٢٠٦

خَصائِصُ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلمَ.. ٢٠٨

ختمُه للنبوَّةِ.. ٢٠٨

عُمومُ دَعوتِه لجَميعِ الخَلقِ، وأنَّه أكثرُ الأنبياءِ تَبَعًا ٢١٠

الإسراءُ والمِعْراجُ ٢١١

لا يتمثَّلُ الشيطانُ بصورةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في المَنامِ ٢١٤

فَضائِلُ الصحابةِ وآلِ البَيتِ.. ٢١٦

أفضَلُ القُرونِ.. ٢١٦

فَضلُ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ.. ٢١٧



العَشَرةُ المُبَشَّرونَ بالجَنَّةِ ٢١٩

إكرامُ آلِ البَيتِ ٢٢٣

النهيُ عن سَبِّ الصَّحابةِ الكِرامِ ٢٢٤

الأحْكامُ

الطهارةُ ٢٢٩

النَّهيُ عنِ استِقبالِ القِبلةِ أوِ استِدبارِها عندَ قَضاءِ الحاجةِ ٢٢٩

دُعاءُ الدُّخولِ إلى أماكِنِ قَضاءِ الحاجةِ والخُروجِ مِنها ٢٣١

الاستنزاهُ من البَولِ ٢٣٣

حكمُ الصَّلاةِ بغَيرِ طُهورٍ ٢٣٤

فَضلُ الوُضوءِ ٢٣٥

صِفةُ الوُضوءِ ٢٣٨

أثَرُ إسْباغِ الوُضوءِ يومَ القِيامةِ ٢٤٠

الدُّعاءُ بعدَ الوُضوءِ ٢٤١

أداءُ الصَّلَواتِ كُلِّها بوُضوءٍ واحدٍ ٢٤٢

نَواقِضُ الوُضوءِ ٢٤٣

الشَّكُّ في الحَدَثِ أثناءَ الصَّلاةِ ٢٤٥

وُضوءُ الجُنُبِ قَبلَ النَّومِ أوِ الأكْلِ ٢٤٥

مَشروعيَّةُ التيمُّمِ وصِفتُه ٢٤٦

صِفةُ الغُسلِ مِنَ الجَنابةِ ٢٤٨
صفةُ الاغتسالِ مِن الحيضِ ٢٥٠
الحائِضُ تَقْضي الصَّومَ ولا تَقْضي الصَّلاةَ.......... ٢٥٢
كَيفيَّةُ الطَّهارةِ مِن بَولِ الأولادِ الصِّغارِ ٢٥٣
المُؤمِنُ لا يَنجَسُ ٢٥٥
التيَمُّنُ في الطُّهورِ ٢٥٦
السِّواكُ ٢٥٦
المَسحُ على الخُفَّينِ وعلى العِمامةِ.......... ٢٥٨
مُدةُ المَسحِ على الخُفَّينِ ٢٥٩
خِصالُ الفِطرةِ ٢٥٩
الأذانُ ومَواقيتُ الصلاةِ ٢٦٢
فَضلُ الأذانِ ٢٦٢
إجابةُ المُؤَذِّنِ وما يُقالُ بعدَ سَماعِه ٢٦٣
حُكْمُ تَرْكِ الصَّلاةِ ٢٦٦
فَضلُ الصَّلَواتِ الخَمسِ والمُحافَظةِ عليهنَّ ٢٦٧
أوقاتُ الصَّلواتِ الخَمْسِ.......... ٢٦٨
فَضلُ الصَّلاةِ على وَقتِها ٢٧١
التَّغْليسُ بصَلاةِ الصُّبْحِ.......... ٢٧٢



تَأخيرُ صَلاةِ العِشاءِ ٢٧٣

صِفَةُ الصلاةِ ٢٧٦

حديثُ المُسيءِ صَلاتَه........................ ٢٧٦

رُكْنيَّةُ قِراءةِ الفاتِحةِ ٢٧٧

فَضلُ قِراءةِ الفاتحةِ في الصَّلاةِ ٢٧٨

أذكارُ الصَّلاةِ ٢٨٠

الدُّعاءُ في الصَّلاةِ ٢٨٦

السُّجودُ على سَبعةِ أعضاءٍ ٢٨٨

الدُّعاءُ في السُّجودِ........................ ٢٨٩

التَّشهُّدُ في الصَّلاةِ ٢٩١

السَّهوُ في الصَّلاةِ ٢٩٢

صلاةُ الجَماعةِ........................ ٢٩٥

فَضْلُ صَلاةِ الجَماعةِ........................ ٢٩٥

حكمُ صلاةِ الجَماعةِ في المَسجدِ ٢٩٦

الحثُّ على صَلاةِ الصُّبحِ والعِشاءِ في جماعةٍ........................ ٢٩٧

أثقلُ الصَّلاةِ على المُنافِقينَ ٢٩٩

المُحافَظةُ على صَلاةِ الصُّبْحِ والعَصرِ ٣٠٠

التَّحذيرُ مِن فَواتِ صَلاةِ العَصرِ ٣٠١

تسْويةُ الصُّفُوفِ، وفَضْلُ الأوَّلِ منْها ٣٠١

ما يُدرَكُ به وَقتُ الصَّلاةِ، وما تُدرَكُ به الجَماعةُ ٣٠٤

فَضْلُ صَلاةِ المَرأةِ في بَيتِها ٣٠٦

خُروجُ النِّساءِ إلى المسَاجِدِ ٣٠٧

ائتِمامُ المأمُومِ بالإمامِ ٣٠٨

التَّأمينُ في الصَّلاةِ ٣٠٩

التَّنبيهُ أثناءَ الصَّلاةِ ٣١٠

أحكامُ الجُمُعةِ ٣١٢

فَضلُ يَومِ الجُمُعةِ ٣١٢

الاغتسالُ والتطيُّبُ والتسَوُّكُ يومَ الجُمُعةِ ٣١٤

وُجوبُ الإنصاتِ للخُطبةِ وفَضْلُه ٣١٥

النَّافِلةُ بعْدَ الجُمُعةِ ٣١٦

خطورةُ تَركِ صلاةِ الجُمُعةِ ٣١٦

أحكامُ العِيدينِ والاستِسقاءِ والكُسوفِ ٣١٨

أكلُ تَمَراتٍ قَبلَ الذَّهابِ إلى صَلاةِ عيدِ الفِطرِ ٣١٨

خُروجُ النِّساءِ إلى صَلاةِ العيدَينِ ٣١٨

صِفةُ صَلاةِ العِيدَينِ ٣١٩

اللَّهوُ في العِيدِ ٣٢١

ما يُنهَى عنه المُضحِّي إذا دَخَلَتِ العَشْرُ ٣٢٣
وَقتُ ذَبحِ الأُضحيَّةِ ٣٢٤
الخُروجُ إلى المصَلَّى للاستِسقاءِ................................ ٣٢٤
صِفةُ صَلاةِ الاستِسقاءِ ٣٢٦
صِفةُ صَلاةِ الخُسوفِ أو الكُسوفِ................................ ٣٢٨
أحكامُ المَساجِدِ ٣٣١
فَضائِلُ المَساجِدِ الثَّلاثةِ................................ ٣٣١
فَضلُ عُمومِ المَساجِدِ................................ ٣٣٤
فَضلُ كَثرةِ الخُطَا إلى المساجِدِ ٣٣٥
القُدومُ إلى الصَّلاةِ في سَكينةٍ ٣٣٧
دعاءُ دُخولِ المَسجِدِ والخُروجِ منه................................ ٣٣٨
تحيةُ المَسجِدِ ٣٣٩
فَضْلُ انتِظارِ الصَّلاةِ................................ ٣٤٠
النَّهيُ عن السُّؤالِ عن الضالَّةِ في المسجِدِ ٣٤١
حكمُ الخُروجِ مِن المَسجِدِ بعدَ الأذانِ ٣٤٢
حكمُ بِناءِ المساجِدِ على القُبورِ ٣٤٣
التحدُّثُ في أُمورِ الدُّنيا في المَسجِدِ................................ ٣٤٤
حكمُ إتيانِ المساجِدِ لمَن أكَل البصلَ والثومَ ونحوَهما ٣٤٥





حُضورُ الصِّبيانِ إلى المساجِدِ ٣٤٧

التطَوعُ ٣٤٨

أداءُ النَّوافِلِ في البُيوتِ ٣٤٨

فَضلُ السُّنَنِ الرَّاتِبةِ ٣٤٩

استحبابُ رَكعتَينِ بعدَ الوُضوءِ ٣٥٠

المُحافَظةُ على رَكعَتَيِ الفَجرِ ٣٥١

صفةُ قيامِ اللَّيلِ ٣٥٢

صلاةُ آخِرِ اللَّيلِ مَشهودةٌ ٣٥٣

حكمُ التنَفُّلِ إذا أُقيمَت الصَّلاةُ ٣٥٤

صَلاةُ الضُّحَى ٣٥٥

الأوقاتُ المَنهيُّ عنِ الصَّلاةِ فيها ٣٥٧

التنَفُّلُ في السَّفَرِ ٣٥٨

قيامُ رَمَضانَ (التَّراويح) ٣٦١

الاجتهادُ في العَشرِ الأواخِرِ ٣٦٢

فضْلُ ليلةِ القَدْرِ والأمْرُ بتَحرِّيها ٣٦٣

أحكامٌ مُتفَرِّقةٌ في الصلاةِ ٣٦٦

سُتْرةُ المُصَلِّي ٣٦٦

المُرورُ بينَ يَدَيِ المُصَلِّي ٣٦٦



الجَمْعُ في السَّفرِ والمَطَرِ ٣٦٧
الصَّلاةُ بحَضرةِ الطَّعامِ أو مع مُدافَعةِ البَولِ والغائِطِ ٣٦٩
مَن نام عن صَلاةٍ أو نَسِيَها ٣٧٢
الجَنائزُ ٣٧٣
تَلقينُ المُحتَضَرِ (لا إلهَ إلا اللهُ) ٣٧٣
تَعجيلُ قَضاءِ الدَّينِ عن المَيِّتِ ٣٧٤
صِفَةُ الغُسلِ والتَّكفينِ ٣٧٥
صِفَةُ صَلاةِ الجِنازةِ ٣٧٧
الإسراعُ بالجِنازةِ ٣٨١
استِحبابُ زِيارةِ القُبورِ وما يقولُه الزَّائِرُ ٣٨٢
النَّهيُ عن الجُلوسِ على القُبورِ والصَّلاةِ إليها ٣٨٣
النَّهيُ عن سَبِّ الأمواتِ ٣٨٤
الصِّيامُ ٣٨٧
وُجوبُ صَومِ شَهرِ رَمَضانَ ٣٨٧
فَضلُ شَهرِ رَمضانَ ٣٨٨
فَضلُ الصِّيامِ ٣٩٠
صَومُ رَمَضانَ عندَ رُؤيةِ الهِلالِ ٣٩١
الفِطرُ في السَّفَرِ ٣٩٢





تَعْجيلُ الفِطرِ ٣٩٣

تَناولُ السَّحُورِ ٣٩٣

حُكمُ صَومِ مَن أكَل أو شَرِب ناسِيًا ٣٩٤

قَضاءُ الصِّيامِ عنِ الميِّتِ ٣٩٥

صَومُ ستَّةِ أيَّامٍ مِن شوَّالٍ ٣٩٦

صِيامُ يَومَي الاثنينِ والخَميسِ، وثلاثةِ أيَّامٍ مِن كلِّ شهرٍ ٣٩٧

صَومُ يَومِ عَرَفةَ ٤٠٠

صِيامُ يَومِ عاشوراءَ ٤٠٠

صِيامُ يَومِ التَّاسِعِ مِن المُحرَّمِ ٤٠١

فَضلُ صَومِ شَهرِ المُحرَّمِ ٤٠٢

أفضَلُ الصِّيامِ صِيامُ داودَ عليه السَّلامُ ٤٠٣

الزكاةُ والصدَقةُ ٤٠٥

فَرْضيَّةُ الزَّكاةِ ٤٠٥

زَكاةُ الفِطرِ ٤٠٨

التَّرغيبُ في الصَّدَقةِ ٤٠٩

إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يَقبَلُ إلَّا طَيِّبًا ٤١١

الصَّدَقةُ على الزَّوجِ ٤١٣

إنْفاقُ المرأةِ مِن مالِ زَوجِها ٤١٥



الحَج ٤١٦

فَرْضيَّةُ الحَجِّ ٤١٦

مِن فَضائلِ الحَجِّ والعُمرةِ ٤١٨

فَضْلُ العَشرِ الأُوَلِ مِن ذِي الحِجَّةِ ٤١٩

فَضلُ يَومِ عَرَفةَ ٤٢٠

اللِّباسُ والزِّينةُ ٤٢٢

إطالةُ الثَّوبِ تَحتَ الكَعبَينِ ٤٢٢

آدابُ الانتِعالِ ٤٢٢

القَزَعُ ٤٢٣

التحلِّي بالذَّهبِ ٤٢٤

الشُّربُ والأكلُ في آنيةِ الذَّهبِ والفضَّةِ ٤٢٥

ارتداءُ الحَريرِ ٤٢٦

تبرُّجُ النِّساءِ ٤٢٧

خروجُ النِّساءِ مُتعَطِّراتٍ ٤٢٨

وَصْلُ الشَّعَرِ ٤٣٠

الوَشْمُ والنَّمْصُ والتفَلُّجُ ٤٣١

تَصويرُ ذواتِ الأرْواحِ ٤٣٣

إزالةُ صُوَرِ ذَواتِ الأرْواحِ ٤٣٥



النِّكاحُ.. ٤٣٦

التَّرغيبُ في النِّكاحِ.. ٤٣٦

نِكاحُ ذاتِ الدِّينِ.. ٤٣٧

النَّظَرُ إلى المَخْطوبةِ وتَيسيرُ المَهْرِ.. ٤٣٩

لا يَخطُبُ الرَّجُلُ على خِطْبَةِ أخيهِ.. ٤٤٠

غَضُّ البَصَرِ.. ٤٤١

الخَلْوةُ بالأجنبيَّةِ.. ٤٤٤

وَليمةُ النِّكاحِ.. ٤٤٦

إجابةُ الدَّعوةِ إلى وَليمةِ النِّكاحِ.. ٤٤٧

اللَّهوُ في الأعْراسِ.. ٤٤٨

تَحريمُ المَعازِفِ.. ٤٤٩

ما يُقالُ عِندَ الجِماعِ.. ٤٥٠

كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مَسؤولٌ عن رعيَّته.. ٤٥١

أحكامُ المَولودِ.. ٤٥٢

أمرُ الأوْلادِ بالصَّلاةِ.. ٤٥٤

المُتشبِّعُ بما لم يُعْطَ.. ٤٥٦

الأيْمانُ والنذورُ.. ٤٥٧

خطورةُ الحَلِفِ الكاذِبِ عَمْدًا.. ٤٥٧



تَرْكُ المَحلوفِ عليه لِفِعْلِ ما هو خَيرٌ منه ٤٥٨

حُكمُ النَّذْرِ ٤٦٠

الوَفاءُ بالنَّذْرِ.. ٤٦١

البُيوعُ **٤٦٣**

طَلَبُ الحَلالِ وتجَنُّبُ الحَرامِ.. ٤٦٣

دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك.. ٤٦٥

الصِّدقُ في البَيعِ، وعَدَمُ الكِتمانِ ٤٦٦

الحَلِفُ في البَيعِ ٤٦٧

أُمورٌ مَنهِيٌّ عنها في البَيعِ ٤٦٨

التغليظُ في تحريمِ الرِّبا ٤٦٩

مَطْلُ الغَنيِّ ظُلمٌ.. ٤٧١

الوَقْفُ والوَصيةُ والنفَقةُ... **٤٧٢**

الوَقْفُ.. ٤٧٢

الوَصيَّةُ ٤٧٣

الوَصيَّةُ بالثُّلُثِ ٤٧٤

فَضلُ النَّفَقةِ على العِيالِ والأَهْلِ ٤٧٥

العَدلُ بيْنَ الأولادِ في النَّفَقةِ.. ٤٧٧

الرُّجوعُ في الصَّدَقةِ أو الهِبةِ.. ٤٧٨



الأخلاقُ

أخلاقُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ٤٨٣

رَحمةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ........................ ٤٨٣

شَجاعةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ٤٨٦

كَرَمُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وجُودُه ٤٨٧

حياءُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ٤٨٨

الأخلاقُ الحَميدةُ........................ ٤٩٠

حُسنُ الخُلُقِ........................ ٤٩٠

البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ........................ ٤٩١

الصِّدقُ ٤٩٢

الحَياءُ ٤٩٣

الصَّبرُ ٤٩٥

الحِلمُ والأناةُ ٤٩٩

الرِّفقُ........................ ٥٠٠

العَفوُ والتَّواضُعُ........................ ٥٠٢

القَناعةُ والتعفُّفُ ٥٠٤

التَّلطُّفُ مع الأطفالِ والإحسانُ إلى البَناتِ ٥٠٦

الإصلاحُ بَينَ النَّاسِ ٥٠٨

التراحُمُ بيْنَ الخَلقِ.. ٥١٠

الرِّفْقُ بالحَيَوانِ ٥١١

سَترُ عَوْراتِ المُسلِمينَ.. ٥١٤

الأخلاقُ المَذمومةُ ٥١٦

الظُّلمُ.. ٥١٦

الكِبْرُ ٥١٧

الغَضَبُ ٥٢٠

الفُحْشُ وبَذاءةُ اللِّسانِ ٥٢٢

الرَّقائقُ

الإخْلاصُ.. ٥٢٧

الخَوفُ والرَّجاءُ.. ٥٢٩

الصِّحَّةُ والفَراغُ.. ٥٣٤

الاستِقامةُ.. ٥٣٥

المُبادرةُ بالأعمالِ الصَّالِحةِ ٥٣٦

أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أدوَمُها ٥٣٧

الزُّهدُ في الدُّنيا ٥٣٨

مَثَلُ المؤمِنِ ومَثَلُ الكافِرِ.. ٥٣٩

الصَّدَقةُ عن البَدَنِ.. ٥٤٠



لا يَنظُرُ اللهُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم ٥٤٢
جَزاءُ الحَسَنةِ والسَّيِّئةِ ٥٤٣
حَديثُ النَّفْسِ ٥٤٥
الأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدةٌ ٥٤٦
المُتَحابُّونَ في اللهِ عَزَّ وجَلَّ ٥٤٧
المَصائِبُ تَكفيرٌ عنِ المُسلِمِ ٥٤٩
فَضلُ مَن ماتَ له أولادٌ صِغارٌ ٥٥١
لا يَبقَى مع المَيِّتِ إلَّا عَمَلُه ٥٥٣
سَعةُ رَحمةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وعَظيمُ مَغفِرَتِه لِلذُّنوبِ ٥٥٤
التَّصَدُّقُ قَبلَ المَوتِ ٥٥٦
كُلُّ مَعروفٍ صَدَقةٌ ٥٥٧
التَّحذيرُ مِن فِتنةِ الدُّنيا ٥٥٨
التَّحذيرُ مِن فِتنةِ النِّساءِ ٥٦١
التَّحذيرُ مِن فِتنةِ المالِ ٥٦٢
بدأَ الإسلامُ غَريبًا وسَيَعودُ غَريبًا ٥٦٦
لا عُذرَ لِمَن بَلَغَ السِّتِّينَ وهو يَقتَرِفُ المَعاصيَ ٥٦٧
مُجاهَدةُ النَّفسِ على المَكارِهِ ٥٦٨
عِبادةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ٥٧٠



تَمَنِّي رُؤيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ٥٧١

الآدابُ

الآدابُ المُتعَلِّقةُ بالأقاربِ والجيرانِ ٥٧٥

بِرُّ الوالدَينِ ٥٧٥

صِلةُ الرَّحِمِ تَزيدُ في الرِّزقِ والعُمُرِ ٥٧٨

عُقوبةُ قَطْعِ الرَّحِمِ ٥٧٩

الوَصيَّةُ بالجارِ ٥٨٠

آدابُ التعامُلِ مع الناسِ ٥٨٣

المُؤمِنُ أخُو المُؤمِنِ ٥٨٣

مَحبَّةُ الخَيرِ للمُسلِمينَ ٥٨٤

حقُّ المُسلِمِ على المُسلِمِ ٥٨٥

التَّناصُحُ ٥٨٥

عِيادةُ المَريضِ ٥٨٧

إكرامُ الضَّيفِ ٥٨٩

قَضاءُ حَوائجِ المُسلِمينَ ٥٩٠

صُحبةُ الصَّالحِين، والابتِعادُ عن جُلساءِ السُّوءِ ٥٩٢

تَحريمُ إيذاءِ المُسلِمينَ ٥٩٤

التَّحذيرُ مِن إيذاءِ الصَّالحِينَ ٥٩٥



النَّهيُ عن هَجرِ المُسلمِ أخاه ٥٩٦
خُطورةُ الشَّحناءِ بيْنَ المُسلِمينَ.. ٥٩٧
النَّهيُ عنِ التباغُضِ والتَّقاطُعِ والتَّدابُرِ والتجسُّسِ والتَّحاسُدِ ٥٩٨
طَلاقةُ الوَجهِ عندَ اللِّقاءِ ٦٠١
آدابُ السَّلامِ.. ٦٠١
آدابُ الاستِئذانِ... ٦٠٥
ذمُّ ذي الوَجهَينِ ٦٠٩
تَناجي اثنيْنِ دونَ الثالثِ بغيرِ إذنِه ٦١٠
مُكافأةُ مَن أسْدى إليك مَعروفًا... ٦١٢
قبولُ الهديةِ والمكافأةُ عليها ٦١٣
كَراهةُ ردِّ الرَّيحانِ لغَيرِ عُذرٍ... ٦١٣
فَضلُ كَفالةِ اليَتيمِ ٦١٤
النَّهيُ عن المَنِّ بالعَطيَّةِ ٦١٥
كَراهةُ التَّزكيةِ والمَدحِ أمامَ المَمدوحِ ٦١٨
العِلْمُ وآدابُه... ٦٢٠
العِلمُ النَّافِعُ وفَضلُه ٦٢٠
الحَثُّ على حُضورِ حَلَقاتِ العِلمِ ٦٢٤
مِن آدابِ طَلَبِ العِلمِ ٦٢٦



حِفظُ اللِّسانِ ٦٢٨

أهمِّيَّةُ حِفظِ اللِّسانِ وخُطورةُ إطلاقِه ٦٢٨

الزَّجْرُ عن الكَذِبِ ٦٣١

النَّهْيُ عن الغِيبةِ والبُهتانِ ٦٣٤

ذَمُّ النَّميمةِ ٦٣٦

خُطورةُ التَّحدُّثِ مِن غَيرِ تَثَبُّتٍ ٦٣٧

آدابُ النومِ والطعامِ والشرابِ والطريقِ ٦٣٩

آدابُ النَّومِ ٦٣٩

ما يَفْعَلُ مَن رَأى في نَومِه ما يَكرَهُه ٦٤٥

آدابُ الأكْلِ والشُّربِ ٦٤٦

ترْكُ عَيبِ الطَّعامِ ٦٤٩

بَرَكةُ الاجتِماعِ على الطَّعامِ ٦٥٠

الاتِّكاءُ أثناءَ الأكلِ ٦٥٠

الشُّربُ قاعِدًا وقائِمًا ٦٥١

وُقوعُ الذُّبابِ في الإناءِ ٦٥٣

البَدءُ بالأكْبرِ ٦٥٥

البَداءةُ بالمَيامِنِ ٦٥٥

آدابُ الطَّريقِ ٦٥٧



آدابُ السفَرِ ٦٦١

طَلبُ الرُّفْقةِ في السَّفَرِ ٦٦١

دُعاءُ السَّفَرِ ٦٦١

ما يقولُ إذا رجَعَ منَ السَّفَرِ ٦٦٤

التداوي والرقَى ٦٦٦

لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ ٦٦٦

التَّداوي بسَقْيِ العَسَلِ وبالحَبَّةِ السَّوداءِ ٦٦٨

التصَبُّحُ بتَمرِ العَجوةِ ٦٦٩

التَّداوي بالحِجامةِ والكَيِّ ٦٧١

إبرادُ الحُمَّى بالماءِ ٦٧٢

العَدْوى ٦٧٣

الرُّقَى ٦٧٤

الرُّقْيةُ منَ العَينِ ٦٧٥

رُقيةِ الرَّجُلِ أهلَه إذا اشتكَوْا ٦٧٧

الأذْكارُ

فَضائِلُ القُرآنِ ٦٨٣

فَضلُ تعَلُّمِ القُرآنِ وتعليمِه ٦٨٣

فَضْلُ قِراءةِ القُرآنِ وحِفظِه وإتْقانِ تِلاوتِه ٦٨٣



تَعاهُدُ القُرآنِ وخُطورةُ تَعريضِه للنِّسيانِ ٦٨٦

تَحسينُ الصَّوتِ بقِراءةِ القُرآنِ.. ٦٨٨

فَضْلُ قِراءةِ سُورَتَي البَقَرةِ وآلِ عِمْرانَ ٦٨٨

فَضْلُ آيةِ الكُرسيِّ وآخِرِ آيتَينِ مِن سُورةِ البَقَرةِ....................... ٦٩٠

فَضلُ سُورةِ الإخلاصِ.. ٦٩٣

فَضلُ الذِّكْرِ.. **٦٩٥**

التَّرغيبُ في ذِكْرِ اللهِ تعالَى ٦٩٥

فَضلُ المُداوَمةِ على ذِكرِ اللهِ تعالَى ٦٩٦

فَضْلُ حِلَقِ الذِّكْرِ ٦٩٧

ذِكرُ اللهِ في البُيوتِ وفي كلِّ حِينٍ....................................... ٦٩٧

فَضلُ التَّسبيحِ والتَّحْميدِ والتَّهْليلِ والتَّكبيرِ ٦٩٩

فَضلُ قَولِ: لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ ٧٠٢

فَضْلُ الصَّلاةِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.......................... ٧٠٤

خَفْضُ الصَّوتِ بالذِّكرِ.. ٧٠٦

أذكارُ الصباحِ والمَساءِ... **٧٠٨**

التسبيحُ بحمدِ الله تعالى ٧٠٨

التحرُّزُ باسمِ الله ٧٠٩

سيِّدُ الاستِغفارِ.. ٧١٠

الأذكارُ بَعْدَ الصلاةِ ٧١٣

ما يُقالُ بعدَ السَّلامِ منَ الصَّلاةِ ٧١٣

التَّسبيحُ والتَّحْميدُ والتَّكبيرُ بَعْدَ الصَّلاةِ.. ٧١٥

قِراءةُ آيةِ الكُرْسيِّ بَعْدَ كُلِّ صَلاةٍ.. ٧١٧

قِراءةُ المُعَوِّذاتِ بَعْدَ كُلِّ صَلاةٍ ٧١٧

أذْكارُ النومِ والطعامِ ودُخولِ المَنزِلِ وغيرِ ذلك.. ٧١٩

مِن أذكارِ النَّومِ والاستيقاظِ منه.. ٧١٩

التَّسميةُ على الطَّعامِ.. ٧٢١

ما يَقولُه العاطِسُ وما يُقالُ له.. ٧٢٢

ذِكرُ دُخولِ المَنزِلِ ٧٢٣

ما يقولُ إذا لَبِسَ ثَوبًا جَديدًا.. ٧٢٤

ما يقولُ عندَ الكَرْبِ.. ٧٢٥

الأدْعيَةُ

كَثرةُ الاستِغفارِ ٧٣١

مِن أَدعيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.. ٧٣٢

أكثرُ دُعاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ٧٣٥

ما كان يتعَوَّذُ منه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.. ٧٣٧

دُعاءُ الاستِخارةِ.. ٧٤٠

دُعاءُ مَن نزَلَ مَنزِلًا ٧٤٢

الدُّعاءُ إذا عَصَفَتِ الرِّيحُ وعِندَ نُزولِ المَطَرِ ٧٤٤

ثلاثُ دَعَواتٍ مُستَجاباتٌ ٧٤٥

الدُّعاءُ في ثُلُثِ اللَّيلِ الآخِرِ ٧٤٦

الفهارس

فهرس المراجع ٧٥١

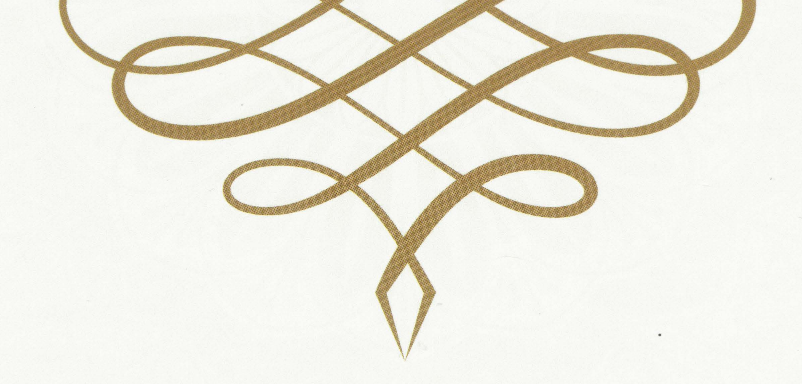
فهرس الأحاديث ٧٦٦

فهرس المحتويات ٨٠٣



تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠





هذا الكتاب

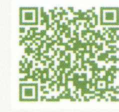
مشتملٌ على شَذَراتٍ من الكِتابِ والسُّنَّةِ -فمدارُ الفِقهِ في الدِّينِ على كِتابِ اللهِ المُقتَفى، وسُنَّةِ نَبيِّه المُصطَفى- وفيه جُملةٌ ممَّا لا يَسَعُ المُسلِمَ جَهْلُه في أُمورِ دِينِه، وأفضَلُ ما يَشغَلُ به المُسلِمُ حَياتَه ويَعمُرُ به أوقاتَه، ويُحقِّقُ الغايةَ التي مِن أجْلِها خَلَقه اللهُ: أن يتفقَّهَ في دِينِ اللهِ تعالى، فيتعلَّمَ ما أُمِرَ باعتقادِه مِن الأمورِ العِلْميَّة، وما كُلِّف العَمَلَ به مِن الأحكامِ الشَّرعيَّة، وما أُرشِدَ إلى امتثالِه مِن الأخلاقِ والآدابِ المَرعيَّة.

والمَرْجوُّ أنْ يكونَ هذا الكِتابُ كاسْمِه زادًا للعِبادِ يجِدونه في كُلِّ مَسجِدٍ، ومَكتبةٍ، وبَيتٍ، وأنْ يَستفيدَ منه خَطيبُ الجامِعِ، وإمامُ المَسجِدِ، والدَّاعيةُ، والمُعلِّمُ والمربِّي، وطالبُ العِلمِ، وعامَّةُ النَّاسِ؛ وأنْ يَنتفِعَ به كُلُّ مَن اطَّلَع عليه وقَرَأه أو سَمِعَه.

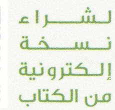




مؤسسة الدرر السنية | المملكة العربية السعودية
ص. ب (٣٩٣٦٤) الظهران (٣١٩٤٢) | جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ | ف: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ | nashr@dorar.net



لشراء نسخة إلكترونية من الكتاب





لزيارة صفحة الإصدارات

